عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب السابع

الجزءان: الثالث عشر والرابع عشر

من مباحث هذا الكتاب

- لمحة ... من القضاء والقدر.
- قميص يوسف .. ما هو؟
- ذكر الله .. واطمئنان القلوب.
- الحق والباطل .. دولة ودولة.
- الكلمة الطيبة .. والكلمة الخبيثة.
- القرآن .. والحقائق الكونية.
- مع النسخ .. مرة أخرى.

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

القاهرة
مطبعة السنة المحمدية
١٧ ش شريف باشا الكبير – عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧

(الآيات : (٥٣ — ٥٧)

* « وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ » (٥٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « وما أبرىء نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربىّ إن ربىّ غفورٌ رحيمٌ » .. يجوز أن يكون هذا قد جرى على لسان امرأة العزيز ، فى موقفها من يوسف ، بعد أن أعلنت على الملأ أنها كانت كاذبة فيما تقوّلته عليه ، وأنه كان صادقاً فيما قاله عنها ، وأنها هى التى راودته عن نفسه ولم يراودها هو عن نفسها .. وهى هذا تؤكد القول بأنها متهمة، وأنها لا تجد ما تبرىء به نفسها من هذا الذنب الذى ارتكبته فى حق يوسف .. إنها قد ضعفت أمام نفسها التى سوّلت لها هذا المنكر .. وإنها ليست إلاّ بشرًا ، من شأنها أن تخطىء وتأثم ، وأنها ليست فى عصمة من الخطأ .. « إن النفس لأمارة بالسوء » .. هكذا النفس البشرية ، تهفو إلى السوء ، وتدعو صاحبها إليه « إلا ما رحم ربىّ » أى إلا ما أراد الله دفعه من السوء ، لمن رحمهم من عباده ، وحفهم بألطافه ..

فالاستثناء فى قوله تعالى : « إلا مارحم ربّى » متعلق بالسوء .. بمعنى أن النفس تأمر بالسوء وتدفع إليه ، وأن الناس تبعٌ لما تأمرهم به أنفسهم ، فيأتون كل ما تسوّل لهم به ، إلاّ ما أراد الله دفعه عنهم من سوء ، رحمةً منه ، ولطفاً بعباده ! وهذا بعض السرّ فى كلمة « ما » التى لغير العاقل .

وهذا يعنى أن الناس جميعاً — بلا استثناء — واقعون تحت سلطان أنفسهم ، وأن هذا السلطان غالبٌ عليهم ، وأن رحمة الله هى التى تعصم من تعصمه منهم من مواقعة المنكرات ، واقتراف الآثام ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن تقع منهم الهفوات والزلات ، فكل ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوابون. « إن ربّى غفورٌ رحيم » ففى رحمة الله ومغفرته تُغسل السيئات وتمحى الذنوب .. لمن تاب إلى الله ، ورجع إليه من قريب .

ويجوز أن يكون هذا من كلام يوسف ، على اعتبار أن من قوله كذلك : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين » ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأن هذا معطوف على ذاك ، ليقرر به أنه لا يبرّىء نفسه براءة مطلقة من هذا الأمر ، وأنه قد كان منه رغبة ، وهمٌّ ، ولكن الله عصمه وسلّمه .. وهذا الحديث إذا كان من يوسف ، فإنه يكون بينه وبين نفسه ، معلقاً به على مجرى الأحداث من حوله ..

* قوله تعالى : « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » ..

أستخلصه لنفسى : أى أجعله خالصاً لى ، أصطفيه ، وأستأثر به .

وهكذا يخرج يوسف من السجن إلى حيث يجلس مجلس الإمارة والسلطان ، فيكون من خاصة الملك ، المقربين إليه ، المشاركين له فى الحكم والسلطان ..!

— « فلمّا كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » . . الهاء فى « كلّمه » يجوز أن يعود إلى الملك . . أى فلما كلم الملك يوسف .

وهنا يكون كلام محذوف ، تقديره ، فلما جاء يوسف كلمه الملك قائلا : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » أى موضع الثقة والائتمان . .

ويجوز أن يكون هذا الضمير عائداً إلى يوسف ، بمعنى فلما جاء يوسف وكلم الملك ، ورأى فى حديثه معه عقلا راجحاً ، ورأياً سديداً ، قال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين .. »

* « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » .

خزائن الأرض : ما تخرجه الأرض من ثمار الفاكهة والحبّ .. وسُمّى ذلك خزائنَ الأرض ، لأنها تخزنه فى كيانها إلى أن يظهره الجهد الإنسانى ، ويكشف عنه ، بالغرس ، والسقى ، وغير هذا ، مما يحتاج إليه الزرع كى ينمو ويُثْمر . .

لقد طلب يوسف أن يتولى بنفسه الوظيفة التى يحسن القيام بها ، والتى كشف عن مضمونها فى تأويل رؤيا الملك .. فهو يريد أن يحقق هذا التأويل الذى تأوله ، وأن ينفّذه على الصورة التى تأولها عليه .. إنه هو الطبيب الذى كشف عن الداء ، وليس أحد أولى منه بمعالجة هذا الداء والطبِّ له ، والإشراف على المريض ، حتى تزول العلة ، ويذهب الداء . .

— وفى قوله تعالى : « إنى حفيظ عليم » إشارة إلى الصفات التى تؤهله لهذا الأمر الذى نَدَب نفسه له ، والتى بغيرها لا يتحقق النجاح ، ولا يؤمن الزلل والعثار.. وأبرز تلك الصفات هنا صفتان .. هما : الحفظ ، والعلم .. والحفظ

هو الضبط، والحزم فى تنفيذ الخِطّة التى رسمها العلم. فهو بعلمه قد كشف عن الداء، وعرف الدواء، وبحزمه وضبطه قادر على أن يحمل المريض على التزام ما يرسمه له من أسلوب الحياة، وما يقدّم إليه من دواء، وإن كان مرًّا..

فالمشكلة التى تواجه مصر فى هذا الوقت كانت محتاجة إلى الحزم الصارم، وأخذ الناس على طريق مرسوم لا يحيدون عنه، وإلا كان الهلاك والبلاء!..

إن مصر يومئذ كانت تستقبل سبع سنوات من الخصب والخير، ثم تستقبل بعدها سبع سنين من الجدب والقحط.. فإذا لم تعمل من يومها حساباً لغدها، وإذا لم تستبق من سنوات الخصب ما يسدّ حاجتها فى سنوات الجدب، كان فى ذلك البلاء الشامل، الذى يأتى على كل حياة فيها..

وأمرٌ كهذا لابد أن يكون الحزم والضبط أولَ خطة يختطها ولىّ الأمر مع الناس، ويأخذهم بها، وإلا فإن الناس قد ينسوْن فى يومهم ما هم فى حاجة إليه لغدهم، إذ النفس مولعة بحبّ العاجل، لاتلتفت كثيراً إلى المستقبل وتوقعاته، وفى ذلك ضياع لهم، حين تقع الواقعة بهم، ولم يكونوا قد أخذوا عدّتهم لها.

ومن أجل هذا، قدّم الحفظ على العلم: «إنى حفيظ عليم». فالصفتان، وإن كانتا مطلوبتين لمواجهة هذا الأمر هنا، إلا أن الحفظ أولى، وأهم من العلم.. إذ قد يستغنى الحفظ هنا عن العلم، ويتحقق للناس بعض الخير، أو كثير منه.. على حين أنه لو استغنى العلم عن الحفظ لما تحقق للناس، فى هذه الحال، خيرٌ أبداً، ولكان العلم مجرد حقائق مرسومة فى كلمات، أو مودعة فى كتاب.. فإذا اجتمع الحفظ والعلم، اجتمع الخير كلّه.

وفى القرآن الكريم موقف شبيه بهذا الموقف، فيما كان بين «موسى»

و « شعيب » عليهما السلام ، حين دعت ابنة شعيب أباها إلى أن يستأجر موسى ويستعمله فى تدبير شؤونه .. إذ قالت : « يا أبت استأجره .. إن خير من استأجرتَ القوىّ الأمين » . . فوصفت « موسى » بالصفتين المطلوبتين فى الأمر الذى هو مطلوب له ، وهو القيام على رعى أغنام شعيب ، ورعايتها ، وتثميرها ، وهذا أمر يحتاج إلى يدٍ قوية عاملة ، ترتاد مواقع العشب ، والماء ، دون أن يدفعها عنها أحد .. كما أنه يحتاج إلى « الأمين » الذى يرعى هذه الأمانة التى فى يديه ، وأن يعطيها من جَهده ، وإخلاصه ، مايعطيه لما هو فى ملكه وخاصة شئونه ..

وهكذا ، توضع الأمور فى نصابها ، حين يوضع الرجال فى أماكنهم المناسبة لهم .. فلكلٍّ عمل أهله الذين يحسنونه ، فإذا قام على العمل من لايحسنه ، أفسده ، وأضاع الثمرة المرجوّة منه .

* « وكذلك مكّنّا ليوسُفَ فى الأرض يتبَوّأُ منها حيث يشآء نصيبُ برحمتنا من نشآء ولانُضيعُ أجْرَ المحسنين » .

مكّنّا : من التمكين ، أى مكّنا له ، وثبّتنا مكانه ووثقنا أمره .

يتبوأ : ينزل ، ويحلّ .

والمعنى : أنه بهذا التدبير الذى كان من الله ، أصبح يوسف ممكّناً فى الأرض ، ذا سلطان فيها ، يفعل مايشاء ، ويُمضى مايريد ، غيرَ واقع تحت سلطان أحدٍ .. وأنه لاخوف من مثل هذا السلطان المطلق ، الذى قام عليه حارسان لايغفلان ، هما الحفظ للأمانة ، والعلم بمواقع الخير للناس .

— وفى قوله تعالى : « نُصيب برحمتنا من نشآء » إشارة إلى أن هذا فضل من فضل الله على هذا العبد من عباده ، ساقه الله سبحانه وتعالى إليه من غير

عملٍ منه .. هكذا مواقع رحمة الله ، تنزل حيث يشاء الله ، كما اقتضت حكمته فى خلقه : « والله يختصّ برحمته من يشآء » .

— وفى قوله سبحانه : « ولا نُضيع أجر المحسنين ».. إشارة إلى أن المحسنين لايفوتهم جزاء إحسانهم أبداً ..

وإذن فالنّاس جميعاً فى مواقع رحمة الله .. ولـكنهم — مع هذا — صنفان : صنف مُحسِنٌ ، يعمل الصالحات ، ويغرس فى مغارس الخير ، وهؤلاء قد وقع أجرهم على الله . . يُجزوْن جزاء مايعملون .. « إنا لانضيع أجر من أحسنَ عملا . . » (٣٠ : الـكهف) . .

وصنف آخر .. يُفْضِلُ الله سبحانه وتعالى عليهم ، من غير عملٍ ، فيرزقهم ويوسّع لهم فى الرزق ، ويكثّر لهم من المال والبنين . .

وهذا هو واقع الناس فى الحياة : عاملون لايفوتهم أبداً ثمرة ما عملوا وأحسنوا.. وغير عاملين ، قد يصيبهم الله سبحانه وتعالى برحمته ، وقد يحرمهم !

وإذن فالعمل ، وإحسان هذا العمل ، مطلوب من كل إنسان كى يضمن الجزاء الحسنَ عليه .. فإنه لايفوته هذا الجزاء أبداً ..

أما من لا يعمل ، ولا يحسن العمل ، فهو بين الإعطاء والحرمان .. فإن أُعطى فذلك فضل من فضل الله ، ورحمة من رحمته ، وإن يُحرم فعن غير ظلم ، أو بخس . .

* قوله تعالى : « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

أى أنه إذا كان للنّاس أجرُهم فى الدنيا ، وجزاؤهم بما يعملون فيها ، فإن جر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون .. فإنهم يُوفّوْن أجرهم مرتين .. فى الدنيا ، ثم فى الآخرة .. وأجر الآخرة أكبروأكرم وأهنأ .. أما غير المؤمنين ،

فإنهم لا أجر لهم فى الآخرة ، إذ قد استوفوا أجرهم كله فى الدنيا ، التى عملوا لها ، ولم يعملوا للآخرة شيئاً ، لأنهم لا يؤمنون بها .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « من كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينَتها نوَفّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لايُبْخَسُون (١٥ : هود) .. وإليه يشير قوله تعالى أيضاً : « من كان يُريدُ العاجلةَ عجّلنا لَهُ فيها مانشاَء لمن نُريدُ ثُمَّ جعلنا له جَهَنم يصلاها مذموماً مَدْحورا * ومن أرادَ الآخرة وسَعَى لها سعيَها وهُوَ مؤمِن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاً نُمدُّ هؤلاءِ وهَؤلاء من عطَاء ربك وما كان عطاء ربِّك محظوراً » (١٨ ــ ٢٠ : الإسراء) .

الآيات : (٥٨ — ٦٢)

* « وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (٦٢)

التفسير :

ومضى الزّمن يطوى الأيام والسنين ، ووقعت مجاعة فى أرض كنعان التى كان يعيش فيها يعقوب وأبناؤه .. وكانت مصر قد أخذت لمثل هذه الحال أهبتها ، منذ صار أمرها إلى يد يوسف ، فبعث يعقوب بنيه إلى مصر ببضاعة يبيعونها فى مصر ، ويشترون بثمنها حاجتهم من الطعام ..

* « وَجآءَ إخوة يوسف » .

وفى كلمة «جاء» مع حرف الواو قبلها ، مايشعر بطول الزمن وامتداده ، بين فراق يوسف لأهله ، واتجاههم إليه فى هذه الرحلة ، كما يُشعر بطول الرحلة التى قطعوها من كنعان إلى مصر ..

* « فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .. لقد عرفهم ولم يعرفوه ، لأنه كان صغيراً يومَ ألقوْا به فى غيابة الجبّ ..وقد كبر ، فتغيرت ملامحه ، كما أنّه كان فى حالٍ من الأبهة والسلطان ، وما يحفّ به من خدم وحرس ، وما يتزيّا به من حلل ، وما يتوّج به رأسه من حلى وجواهر ـ كل ذلك كان مما يُخفى على أقرب المقربين إليه من أهله أمرَه ، حتى لو كان عهده به فى كنعان يوماً أو بعض يوم ! فكيف وقد مضت سنون ؟ وكيف وليس فى تصور إخوته ولا فى خيالهم أن يكون يوسف فى مصر ، أو أن يكون له هذا السلطان الذى كان عهد الناس به يومذاك ، إنه ميراث ، ينتقل من الآباء إلى الأبناء . . !

* « ولما جهّزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا تَرَوْن أنّى أوفِ الكيلَ وأنا خيرُ المنزِلين » .

ولمّا جهزهم بجهازهم : أى حين أعطاهم الكيل الذى يُكال لهم ببضاعتهم التى معهم .

خير المنزِلين : أى خير من يكرم النازلين به ، ويحفظهم فى أنفسهم وأموالهم ، بما يوفر لهم من أسباب الأمن والراحة .

وليس هذا المطلب الذى طلبه يوسف من إخوته قد وقع ابتداء ، بل لا بد أن يكون قد جرت بينه وبينهم أحاديث ، أراهم منها أنه يجهلهم ، كى يتمّ التدبير الذى دبره ، وهو أن يحضروا أخاهم من أبيهم ، وقد عرف من هذه الأحاديث

أنهم إخوة لأب ، وأنهم كانوا اثنى عشر أخاً ، تخلّف أحدهم ، وهو أخوهم من أبيهم ، وفُقد الأخ الآخر صغيراً .. فهم الآن أحد عشر أخاً .. عشرة عنده ، وواحد عند أبيه !

ولأمرٍ ما طلب يوسف أن يأتوه فى المرّة الثانيـة بهذا الأخ الذى خلفوه وراءهم ، ليأخذ حظه من الـكيل مثلهم ، وقد أغراهم بهذا ، بقوله : « ألا تَرَوْن أنّى أوفى الـكيل وأنا خيرُ المنزلين ؟ » أى ألا ترون أنى أعطى كل ذى حق حقّه ، ولا أبخس الناس أشياءهم ، وأنى أُنزلهم منـازلهم ، وأوفر لهم أسباب الأمن والراحة ؟ .. ثم تهدّدهم بعد هذا بقوله :

* « فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لـكم عِنْدى ولا تقربون » ..

أى إن لم تأتونى بأخيكم هذا ، فلا كيل لـكم عندى ، أى لا أكيل لـكم شيئاً بعد هذا ، إذا جئتم تطلبون كيلا جديداً ..

* « قالوا سنراوِدُ عنه أباه وإنا لفاعلون » ..

سنراود عنه أباه : أى سنحتال عليه فى طلبه ، ونترفق به فى هذا الطلب ، والمراودة استدعاء للإرادة ، واسترضاء لها بقبول مايُراد .. ولقد فهم « يوسف » من هذا أنّهم على خوف وإشفاق أن يطلبوا من أَبيهم هذا الطلب الذى يبدو غريباً ، لامسوّغ له ، كما أدركوا أن يوسف يشك فى قولهم هذا : « سنراود عنه أباه » وأنهم إنما قالوا هذا القول عن يأسٍ من تحققه ، فأكّدوا له ذلك بقولهم « وإنّا لفاعلون » .. أى لقادرون على أن نحمل أبانا ، بحسن حيلتنا ، على أن يجيبنا إلى هذا الطلب

* « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون » .

فتيانه : خدمه .. وبضاعتهم : ما كانوا قد حملوه معهم من أرضهم إلى مصر، ليبتاعوا به طعاماً ..

لقد صنع يوسف مع إخوته صنيعاً آخر ، يغريهم بالعودة إليه ، ومعهم أخوهم لأبيهم الذى طلبه منهم .. فأمر غلمانه أن يَدُسّوا البضاعة التى كانوا قد جاءوا بها بين أمتعتهم ، فى الكيل الذى كاله لهم ، فإنهم إذا عادوا إلى أهلهم ورأوا البضاعة التى ظنوا أنهم باعوها لاتزال بين أيديهم - وجدوا فى ذلك داعيةً لهم إلى أن يعودوا إلى « يوسف » ليردّوا له هذه البضاعة التى أصبحت وليست من حقّهم ، بل هى للعزيز الذى أعطاهم بها هذا المتاع الذى عادوا به .

— وفى قوله « لعلهم يعرفونها » أى لعلهم يتحققون من أنها هى بضاعتهم وليست بضاعة قوم آخرين غيرهم ، ممن كان قد اختلط بهم من الوافدين على مصر ، يمتارون كما امتاروا هم .. وإذن فهى من حق العزيز ، ومن واجبهم أن يعودوا بها إليه .. لأنها ثمن ما اشتروه منه ، وهذا مايشير إليه قوله : « لعلهم يرجعون » .. أى لعلهم بهذا الإحساس يجدون الدافع الذى يدفعهم إلى المجىء إلى مصر مرة أخرى ، ليردّوا الأمانة إلى أهلها ، فإن لم يكن بهم حاجة إلى الميرة والطعام ، دفعهم دِينهم الذى يعرفه فيهم ، أن يعودوا بهذه البضاعة التى ليست لهم !

الآيات : (٦٣ — ٦٧)

* « فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا

يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير (٦٥) قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل (٦٦) وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » (٦٧)

التفسير :

* « فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون » .

هكذا دخلوا على أبيهم بهذا الحديث : « منع منا الكيل ! فأرسل معنا أخانا نكتل » ! أفبعد هذا الانتظار الطويل ، ومعاناة الصبر على الجوع والحرمان ، انتظاراً لهذا الخير الذي يجيء من مصر ـ أبعد هذا يطلعون على أبيهم بهذا الخبر المزعج : « مُنع منّا الكيل ! ! » ثم ما العلاقة بين أن يُمنع منهم الكيل وبين طلبهم أن يرسل معهم أخاهم كي يكتالوا ؟ ماشأن الأخ بهذا ؟ وهل هو بضاعة يشترى بها من مصر مايكال ؟ ذلك شيء عجيب ! ثم كيف يقولون : « وإنا له لحافظون » ؟ وكيف يحفظونه ، وهم يركبون هذه الطرق التي لايأتي منها خير ؟ لقد ذهبوا إلى مصر ، واحتملوا هذا العناء الشديد .. ثم عادوا من غير أن يحصلوا على شيء .. فكيف كان هذا ؟ وما لأحوال هذه الدنيا قد تبدلت وتحولت ، حتى لا يكون بيع أو شراء إلا بهذه التحكمات التي لامفهوم لها ؟

لاشك أن يعقوب قد اتى هذا الطلب الذى طلبه أبناؤه منه ـ لقيه

بتساؤلات كثيرة ، أطلعته منهم على ما كان بينهم وبين العزيز حتى لقد عادوا دون أن يكال لهم كما يُكال للناس !

وهنا ينكشف ليعقوب ما أخفاه عنه أبناؤه لأمرٍ ما .. لقد كال لهم العزيز ، وعاد كل منهم ومعه حِمْل بعيرٍ . . !

وإذن فماذا أرادوا بقولهم : « يا أبانا مُنِع منّا الكيل » ؟

إنهم أرادوا أن يحققوا بذلك أموراً .. منها :

أولاً : الاستيلاء على عواطف أبيهم ، وذلك بمواجهته بهذا الخبر الذى يبعث فيه الهمّ والقلق .. ثم لقائه لجأة بهذا الخبر الهنىء المسعد . . إنهم قد اكتالوا ، وجاء كل منهم بحمل بعير .. ولكنهم مُنعوا مستقبلا من أن يُكال لهم ، حتى يكون معهم أخوهم من أبيهم !!

وثانياً : فى الحديث عن مَنْع الكيل فى المستقبل إلا بتحقيق هذا الشرط ، إغراء لأبيهم بالمبادرة إلى إجابة طلبهم حتى يسرعوا بالعودة إلى مصر ، ليأخذوا دوْرهم من الميرة قبل أن تنفد ! وهاهو ذا يعقوب لايزال واقعاً تحت تأثير الصدمة التى صُدم بها حين سمع قولهم : « يا أبانا مُنع مِنّا الكيل » .. وإنه الآن لحريصٌ على ألا تفوته الفرصة المواتية لجلب الميرة ، مهما كان الثمن غالياً !! وهكذا أصاب قولهم : « يا أبانا مُنع منا الكيل » ـ أصاب من أبيهم ما أرادوا من تخويفه بالمستقبل ، إن لم يبادر ببعثهم إلى مصر مرة أخرى ليكتالوا ، وأن يذلل كل صعب لإنفاذ هذا الأمر .. فهم صادقون فى قولهم : « مُنع منا الكيل » لأنه مُنع منهم مستقبلا إن لم يجيئوا معهم بأخيهم من أبيهم ، كما قال لهم يوسف : « ائتونى بأخ لكم من أبيكم » .. وكما قال : « فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون » .. ولكن هذا الخبر حين ألقوْه إلى أبيهم

لم يحمله على المستقبل ، بل حمله على الحال التى كان يعيش فيها . ويتوقع الخير الذى يحمله أبناؤه العائدون من مصر .. عندئذ يلقى يعقوب أبناءه بقوله ، الذى حكاه القرآن الكريم عنه :

* « قال هل آمَنُكُمْ عليه إلاّ كما أَمِنتكم على أخيه من قبل .. فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

لقد تمثّل له فى هذا الموقف ما كان منهم من إلحاحٍ عليه فى طلب يوسف ، ليرتع ويلعب معهم ، كما يقولون ، ثم جاءوا إليه عشاء يبكون ، قائلين : « يا أبانا إنا ذهبنا نستبقُ وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ! لقد تمثل له هذا الموقف ، فرأى فيما يطلبه أبناؤه منه الآن صورةً مشابهة تماماً له ، وأن الذى دبّروه ليوسف ليس ببعيد أن يدبّر مثله لأخيه !

— ففى قوله : «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ » ـ اتهام لهم بالكيد ليوسف أولا ، ثم السير فى طريق الكيد لأخيه .. ثانياً .. ثم هو ـ مع هذا الاتهام ـ ينكر عليهم أن يعودوا فيكرروا فعلهم المنكر الذى فعلوه بيوسف فيفعلوه بأخيه . !

— وفى قوله : « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .. هو عزاء له ، يعزّى به نفسه فى حزنه على يوسف ، وذلك بتسليم الأمر لله سبحانه ، والاستسلام لقَدَره ، والرضا بمقدوره . وأنه سبحانه لو أراد حفظ يوسف لحفظه ، فهو خير الحافظين ، لايقع شىء فى هذا الوجود إلا بأمره .. « وهو أرحم الراحمين » .. فما ينزل بالناس من مكروه ، هو واقع بهم من ربّ رحيم ، فهو رحمة بالنسبة لما هو أقسى منه وأوجع !

* قوله تعالى : « ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتَهم رُدّتْ إليهم قَالُوا

يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ونَمير أهْلَنَا ونحفظ أخانا ونزدادُ كَيْلَ بَعيرٍ ذلك كيلٌ يسيرٌ » .

لقد كان الحديث الذى جرى بينهم وبين أبيهم أول شيء استقبلوه به ، وذلك لأن العيون كانت متطلعة إلى مايحملون معهم من زادٍ وميرةٍ .. فكان جوابهم لهذه العيون المتطلعة قولهم : « مُنع منا الكيل » ! ثم كان جوابهم عن التساؤلات الكثيرة حول أسباب هذا المنع ، قولهم : « فأرسل معنا أخانا نكتل » .. ثم كان قولهم : « وإنا له لحافظون » تزكيةً لهذا الطلب .

ثم بعد هذا نظروا فى أمتعتهم التى معهم ، فوجدوا أن البضاعة التى كانوا قد حملوها معهم إلى مصر ، والتى اعتقدوا أنها قد أصبحت فى يد العزيز ، مقابل الكيل الذى كاله لهم ـ وجدوا أن هذه البضاعة قد رُدَّتْ إليهم : « ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم » ـ فعجبوا لهذا ، وحسبوا أن فى الأمر خطأً ، أو أن العزيز ربّما بَدَا له ألا يأخذ منهم ثمناً لهذا الكيل الذى كاله لهم، انتظاراً لعودتهم إليه فى المرة الثانية ..

ـــ « قالوا يا أبانا ما نبغى » أى ماذا نريد ؟ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ، فماذا نفعل بها ؟ وكيف نصبر على مانحن عليه من حاجة إلى الطعام ؟ إنها بضاعة قد أعددناها لنشترى بها طعاماً ، وها هى ذى لاتزال فى أيدينا ، وإنه لاسبيل إلى الانتفاع بها إلا إذا عدنا بها إلى مصر مرة أُخرى ، وجَلبنا بها الطعام الذى نريد . !

وفى قولهم : « ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » الواو هنا للعطف على محذوف تقديره .. إذ كان ذلك كذلك ، نعود إلى مصر ونميرُ أهلنا ، أى نتزوّد لهم بالميرة ، وهى الطعام ، ونحفظ أخانا الذى سنأخذه معنا ، والذى بغيره لايكال لنا ، ونزداد به كيل بعيرٍ ، إذ سيكون

لكل منا حمل بعير .. « ذلك كيل يسير » أى أن العزيز لا يعطى طالب الميرة إلا فى حدود مقدّرة لكل فردٍ مهما كانت قيمة البضاعة التى يحملها معه ! إنه لا يأخذ أكثر من حمل بعير !

وانظر كيف استدعوْا أخاهم من أبيهم بهذا الأسلوب اللّبق الحكيم : « ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير » .. لقد جعلوه طلباً ثانياً بعد الطلب الأول ، وهو الميرة ، وشدّوه إليه ، بحيث لا تكون الميرة إلاّ به . .

فهم لم يقولوا : ونأخذ أخانا ، بل قالوا : « ونحفظ أخانا ».. كأن أخذه أمر مفروغ منه ، لا مراجعة لأبيهم فيه . . فقد سلم به لهم حكماً إن لم يكن قد سلم به واقعاً . . ثم جاء قولهم « ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » إغراءً لأبيهم بالتسليم لهذا الأمر الذى لا بد منه ، ففيه جلب الخير لهم ، وهم فى وجه هذا العسر والضيق !.

وانظر إلى روعة النظم القرآنى فى تصويره لهذا الإغراء العجيب الذى جاء محمولا إلى يعقوب فى قولهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير » .

فهذه الواوات المتتابعة التى تجمع تلك المتعاطفات ، وتقرن بعضها إلى بعض — تمثل أروع ما يمكن أن يبلغه فنّ العرض لمجموعة من فريد اللآلىء وكريم الجواهر ، تحركها يدُ صَنَاع ، فتجىء بها واحدة إثر أخرى ، حتى لكأنها أنغام موسيقية ، تؤلف لحناً !

وفى اختيار حرف « الواو » من بين حروف العطف ، وفى تكراره ، دون مغايرة — فى هذا ما يزاوج بين هذه المتعاطفات ، ويؤاخى بينها ، بحيث تبدو متجمعة ، وهى متفرقة — لما فى حرف « الواو » من رخاوة ، ولين ، حيث تصبح هذه المتعاطفات على هذا النسق ، كياناً واحداً لا يمكن الفصل بين

أجزائه . . « ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير » .. إنها أمر واحد وطلب واحد !

* « قال لن أرسله معكم حتى تُؤْتونِ مَوْثقاً من الله لتأتُنّنى به إلاّ أن يُحاط بكم .. فلما آتوْه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

لم يجد يعقوب بدًّا من التسليم بالأمر الواقع ، بعد أن أخذ عليه أبناؤه كل سبيل ، للتخلص من هذا الطلب الذى طلبوه . .

وإنه لكى يقيم لنفسه عذراً بين يدى تلك المخاوف التى يتخوفها على ابنه هذا ، دفعهم عنه بقوله : « لن أرسله معكم » !

هكذا بدأهم بهذا الحكم القاطع . كما بدءوه هم بقولهم : « مُنع منا الكيل » ..!

ثم جاءهم مستثنياً هذا الحكم بقوله : « حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتُنّنى به إلا أن يحاط بكم » .. أى إننى لن أرسله معكم حتى توثقوا معى عهداً وميثاقاً تُشهدون الله عليه ، أن تعيدوه إلىّ ، إلا إذا أحاط بكم مكروه ، فغلبكم عليه .. فذلك مما لا حيلة لكم فيه ..

وفى قوله : « إلاّ أن يحاط بكم » ما يكشف عن شعور يعقوب ، وأنه يتوقع مكروهاً يقع لابنه هذا.. تماماً ، كما كان ذلك شعوره حين طلب إليه أبناؤه أن يرسل يوسف معهم ، فقال : « إنى ليَحْزُنُنى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » . . وقد صدق شعوره فى كلا الحالين . . فكان للذئب قصة مع يوسف ، وكان للأحداث قصة مع أخيه !

— « فلما آتوْه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

لقد تم الأمر إذن ، وأعطى الأبناء موثقهم لأبيهم ، ورضى الأب ، بعد

أن جعل الله وكيلا وشهيداً على ما كان بينه وبينهم ..

* « وقال يا بَنىّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » .

وحين تحركت القافلة للسير إلى مصر ، بأبناء يعقوب ، ومعهم أخوهم المطلوبُ لعزيز مصر ، نصح لهم أبوهم فيما نصح بقوله : يابَنىّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقةٍ » !

والسؤال هنا :

ما حكمة هذا النصح الذى نصح لهم به ؟ وماذا يكون لو دخلوا مصر من باب واحد ؟..

لعل أظهر ما فى هذه النصيحة من حكمة هى ألا يُلفتوا الأنظار إليهم ، بهذا للموكب الذى ينتظم أحد عشر أخا .. فى سمت واحد ، من الجمال والجلال .. فذلك من شأنه أن يُدير الرءوس إليهم ، وأن تدور الأحاديث عنهم ، وتختلف الآراء فيهم ، وليس ببعيد أن يكاد لهم من أكثر من جهة : من النساء والرجال ، أو من تجار مثلهم ، أو من حاشية العزيز نفسه ، وقد رأت الحاشية ما كان من العزيز من تلطفه بهم ، ومن كيله لهم دون أن يأخذ منهم شيئاً .. فما أكثر دوافع الحسد والغيرة فى قلوب الناس ، وما أكثر ما فى قلوب الناس من حسد وغيرة حول السلطان وحاشية السلطان !

وأياً كان الأمر ، فإنه شعور الأب الذى يتخوف على أبنائه نسمات الريح حين تهب عليهم ، فكيف وهم على سفر طويل ، وفى يد غربة موحشة قاسية ؟ ثم كيف وقد كانت فجيعته فى يوسف لاتزال تفرى كبده ! ؟

— وفى قوله تعالى : « وما أُغنِى عنكم من الله من شىء » إشارة إلى أن هذا النصح الذى نصح لهم به ، لا يردّ عنهم قضاء الله ، ولا يدفع القدر المقدور لهم « إن الحكم إلا لله » ، فهو سبحانه الذى يحكم فى عباده كما يشاء ، لارادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه « عليه توكلت » أى فوضت أمرى إليه ، وأسلمت مقودى له « وعليه فليتوكل المتوكلون » أى عليه وحده ينبغى أن يكون معتمد كل معتمد » ومستند كل مستند .. أما ما سواه فلا معوّل عليه ، ولا رجاء عنده ، ولا عون منه .

الآيات : (٦٨ — ٧٦)

* « وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ » (٧٦)

التفسير :

* قوله تعالى : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء .. إلاّ حاجة فى نفس يعقوب قضاها » .

فاعل الفعل « يغنى » ضمير يعود على المصدر المفهوم من الفعل دخلوا والتقدير : فلما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى هذا الدخولُ عنهم من الله من شىء ، فقضاؤه نافذ لا محالة ، لا يدفعه عنهم هذا التدبير الذى دُبّر لهم من أبيهم !.. وفى تقييد الجملة الخبرية : «ما كان يغنى عنهم من الله من شىء »ـ فى تقييدها بظرف الدخول . فى قوله تعالى : « ولما دخلوا » إشارة إلى أن قضاء الله كان يترصدهم على تلك الأبواب المتفرقة التى دخلوا منها ، كما أمرهم أبوهم ، وأن ما كان يحذره أبوهم عليهم ، وصرفهم عنه إلى حيث قدّر لهم الأمن السلامة — هو الذى دفع بهم إلى حيث جرى القدر المقدور لهم ، كما ستكشف عنه الأيام بعد . فسبحان عالم الغيب والشهادة ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض .

لمحة من القضاء والقدر

— وفى قوله تعالى : « إلا حاجة فى نفسٍ يعقوب قضاها » إشارة إلى أن يعقوب ، يعلم هذا حقّ العلم ، وأن نصحه لأبنائه ، وتحذيره إيام أن يدخلوا من باب واحد ، وأمرهم بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ـ ما كان يغنى عنهم من أمر الله

وقضائه شيئاً ، وهذا ما أشار إليه يعقوب بقوله : « وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله » .. ولكنّها حاجةٌ فى نفس يعقوب قضاها ، وكان واجباً عليه أن يَقْضى هذه الحاجة ، كما كشف عنها تقديره ، وتدبيره .. ذلك أن واجباً على الإنسان أن يُدبّر نفسه ، وأن ينظر فى شئونه وأحواله ، وأن يزنها بالميزان الذى ترجُح فيه كفة خيرها على شرها ، حسب تقديره وتدبيره ، ثم يُمضى أمره ذلك على الوجه الذى قدره .. أما ماقدّره الله سبحانه وتعالى فهو محجوب عنه ، لاينكشف له حتى يقع . وهو واقع لاشكّ على ماقدّره الله سبحانه وقضى به .. سواء اتفق مع تقديره هو أم اختلف ..

فالإنسان مطالب بأن يعمل ، غير ناظر إلى قدر الله وقضائه ، لأنه لا يعلم ولا يرى ، ماقدّره الله وقضاه ، ولو أنّه انتظر حتى ينكشف له القضاء ، ماعمل شيئاً أبداً حتى يقع القضاء ، وينفذ القدر ، حيث لايكون له فى هذا سَعْىٌ واجتهاد ، ولكان بهذا كائناً مسلوب الإرادة ، فاقد الإدراك ! وهذا مالا ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، وقد وهبه الله عقلا ، وأودع فيه إرادة .. !

وسنعرض لموضوع القضاء والقدر ، عند تفسير قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » (٧٩ : الكهف) ـ فى هذا اللقاء المثير الذى كان بين موسى وبين العبد الصالح ..

— وفى قوله تعالى : « وإنه لذو علمٍ لِمَا علّمناه » ـ إشارة إلى أن يعقوب يعلم هذه الحقيقة ، وهى أن قضاء الله نافذ لامردّ له ، ولكنه مطالبٌ بأن يعطى وجوده حقّه ، من حيث هو إنسان عاقل مريدٌ ..

فهو ذو علمٍ لما علّمه الله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا العلم يعمل مايمليه عليه عقله ، ويَدُلّه عليه نظره ، متوكلا على الله ، مفوضاً أمره إليه ، راضياً بما يأتى به قضاء الله فيه ! « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » هذه الحقيقة .. فهم بين

إنسانٍ يعمل غير ناظرٍ أبداً إلى ماللّه من سلطان فيما يعمل .. وبين إنسانٍ لا يعمل شيئاً ، مستسلماً لما يأتى به القدر .. وكلا الطرفين جائر ، بعيد عن الطريق السّوىّ المستقيم !

* قوله تعالى : « ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنى أنا أخوك فلا تبتئسْ بما كانوا يعملون » .

آوى إليه أخاه . ضمّه إليه ، وخَلاَ بِه ، وكان له أشبه بالمأوى الذى يأوى إليه الإنسان ، فلا يراه أحد ..

لاتبتئس : أى لاتحزن ، ولا تضق ذرعاً بما سيكون منهم لك ، من اتهام وقذف .. وهكذا بدأ يوسف تنفيذ الخطة التى اختطها من قبل ، والتى بها حمل إخوته على أن يأتوه بأخيهم من أبيهم هذا ، فخلا به يوسف وأنبأه أنّه هو أخوه يوسف ، وأنه لن يكشف عن نفسه لإخوته الآن ، حتى يضعهم أمام التجربة التى أعدّها لهم ، وأن على أخيه ألاَّ يجزع ولايقع فى نفسه مايسوؤه منهم ، خلال تلك التجربة !

* « فلمّا جهّزَهم بجهازِهم جَعَل السّقاية فى رحْل أخيه ثم أذّن مؤذن أيتها العيرُ إنكم لسارقون » .

السّقاية : القدح الذى يستخدمه الملك لشرابه ، ويستقى به ..

والعِيرُ : الدوابّ التى تستخدم للحمل والركوب .

وتبدأ التجربة بأن يأمر يوسف غلمانه بأن يدسّوا القدح الذى يستخدمه لشرابه فى رحل أخيه ، ثم ينادى مناديه وراء القوم وقد تحركوا للسير نحو العودة إلى ديارهم ..

وفى المناداة عليهم بقوله : « أيتُها العِيرُ » بتوجيه النداء إلى عِيرِهم ، دون

المناداة عليهم بقوله : أيها الركب ، مثلا ـ فى هذا دعوة لهم إلى أن يتوقفوا عن السير .. ولما كانت العير هى المنظور إليها عند هذا النداء ، لأنها هى المتحركة ، فقد حَسُنَ مخاطبتها ، لأنها هى المطلوبة أولا .. فإذا وقفت كان للمنادين شأنهم مع راكبيها .. ولهذا فإنه ما إن صدر النداء : « أيتها العير » حتى توقفت ، وما إن توقفت حتى كان الحديث إلى راكبيها : « إنكم لسارقون » !

* « قالوا وأقبلوا عليهم .. ماذا تفقدون ؟ » ..

لقد لَوَى الركب زمامَ عِيرِهم عن السير إلى وجهتهم ، واستداروا بها نحو من يهتفون بهم ، ويلقون إليهم بهذه التهمة الشنعاء : « إنكم لسارقون » ! فقالوا لهم ، وقد أقبلوا عليهم : « ماذا تفقدون » ؟

* « قالوا نفقِد صُوَاع الملك ولمن جاء به حِمْل بعيرٍ وأنا به زعيمٌ » .

لقد كان الرد بلسان الجميع : « نفقد صُواعَ الملك » هذا هو ماسُرِق ـ وذلك ماتتهمكم بسرقته . !

أما رئيس هذا الجمع المنطلق وراء القوم ، فإنه يتحدث إليهم بما يملك من سلطانٍ ، لايملكه غيره من جماعته .. فيقول بلسانه هو : « ولمن جَاء به حِمْلُ بعيرٍ وأنا به زعيمٌ » .. فهو يريد أن يأخذ الأمر بالحسنَى ، وأن يستردّ الصُّوَاع من آخذه ، فى مقابل جُعْلٍ جَعَله له ، وهو حِمْل بعيرمن الطعام ، وأنه كفيل وضامن لتحقيق هذا الوعد !

* « قالوا تاللهِ لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنّا سارقين » .. أى لقد علمتم من أمرنا أننا ماجئنالنُحدِث فى أرضكم فساداً ، وإنّما جئناَ تجاراً لا سُرّاقاً .. « وما كنّا سارقين » لهذا الصُّوَاع الذى تدّعونه علينا..

* « قالوا فما جَزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وُجِد فى رَحْلِه فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين » .

إذن فلقد خرج الأمر عن المياسرة والمسالمة ، إلى هذا التحدّى . .

— « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟ أى ماجزاء السّارق إذا كنتم كاذبين فى قولكم « وما كنّا سارقين » ؟ .

— « قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه » أى جزاء السارق أن يؤخذ بجُرم ماسرق . .

— « كذلك نجزى الظالمين » أى هذا هو الحكم الذى نُدين به من يعتدى ، وهو أن نأخذه بعدوانه .. لانقبل فيه شفاعة ، ولا نعفيه من تحمّل تبعة ماجنى !

* « فبدأ بأوعيتهم قبْلَ وعاء أخيه .. ثم استخرجها من وعاء أخيه » .

لقد جىء بالقوم إلى العزيز نفسه ، حتى يكشف عن أمرهم بين يديه ؛ ليظهر إن كانوا سارقين ، أم غير سارقين .. فبدأ بالبحث عن الصّواع فى أوعيتهم ، أولا ، ثم بالبحث عنها فى وعاء أخيه ، وذلك مبالغةً فى إخفاء التدبير الذى دبّره لهم .. « ثم استخرجها من وعاء أخيه » !

والسؤال هنا : لم كان الحديث عن « الصّواع » بضمير المذكر ، ثم كان الحديث عنه هنا بضمير المؤنث » ؟

والجواب : أن الضمير المذكر يعود إلى « الصُّواع » على اعتبار أنه « شىء » أو متاعٌ ضائع من الملك .. أما الضمير المؤنث فإنه يعود إلى السِّقاية ؛ وهى « الصواع » أيضاً ، ولكن العزيز ذكره باسم السقاية ، كما يقول الله تعالى : « فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية فى رَحل أخيه » ثم تدور تلك

السقاية دورتَها وتعود إلى العزيز مرة أخرى « ثم استخرجها من وعاء أخيه » .. فهو الذى جعلها فى وعاء أخيه ، ثم هو الذى استخرجها من وعاء أخيه .

* قوله تعالى : « كذلك كِدنا ليوسف » .

الكيد التدبير المحكم ، وفى نسبة الكيد والتدبير إلى الله سبحانه وتعالى إشارة إلى ألطافه بيوسف ، ورعايته وتولّيه له ، وأنه سبحانه هو الذى يدبّر هذا التدبير المحكم ، وأنه بمثل هذا التدبير الذى دبّره له ، بلغ مابلغ من منازل العزة والسيادة .. وتسمية تدبير الله كيداً ، تقريب لمفهومه المتعارف بين الناس ، وذلك أنه إذا كان التدبير محكماً ، تتشعب مسالكه ، وتتباعد أسبابه ـ ثم تلتقى جميعها آخر الأمر ، فتقع على الهدف المراد ـ كان هذا التدبير كيداً ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : « إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً » (١٥ — ١٦ : الطارق) .

* قوله تعالى : « ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله » أى أنه ما كان يقع فى تقديره أبداً أن يُدخل أخاه فى سلطان للملك ، فيصبح رجلا من رجال دولته . . ولكن بمشيئة الله وتقديره ، كان هذا الذى لم يكن متصوّراً ، ووقع ذلك الذى لم يكن متوقعاً .

* قوله تعالى : « نرفع درجاتٍ من نشاء » أى بيدنا الملك ، فنهب مانشاء لعبادنا المخلصين من برّ وإحسان ، ومن علم ومعرفة ! .

* قوله تعالى : « وفوق كل ذى علم عليم » إشارة إلى أن ما بلغه يوسف من علم ، هو علم قليل ، لا يوازن ذرة من علمنا .. وأن هذا العلم الذى معه، والذى بلغ به هذه المكانة فى الناس ـ هذا العلم فوقه درجات كثيرة من العلم .. وفوق هذه الدرجات درجات .. وهكذا حتى تَصُبّ جميعها فى محيط العلم الإلٰهى الذى لا حدود له . .

الآيات : (٧٧ — ٨٣)

* « قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ » (٨٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل » .

لقد سُقط فى أيديهم ، وأمسكت التهمة بهم ، ووقع أخوهم لأبيهم فى شباكها .. ولم يكن لهم ما يقولونه إزاء هذا الواقع الصريح ، إلا أن يُلقوا باللائمة على أخيهم هذا ، وأن ينسبوه إلى السوء ، وأن ما وقع منه لم يكن

بالمستبعد عنه .. إنه يسلك فى هذا مسلكاً كان لأخ له من قبل .. هو يوسف ! فهما ينتسبان إلى أم غير أمهم أو أمهاتهم..ومن هنا كان منهما هذا المنكر الذى لم يعرفه آل يعقوب !

وماذا سرق يوسف ؟ .

إنهم لا يزالون يذكرون إيثارَ أبيهم إياه بحبه وعطفه .. «إذ قالوا لَيوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا » .

فهل يرون فى هذا سرقة من يوسف لحب أبيهم ؟ وهل يرون أن يوسف قد أخذ منهم ما ليس له ! ؟

إذن .. فهو سارق ؟ ربما كان ذلك هو الذى عدّوه سرقة !

* « فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يُبْدِها لهم » . . أى تلقى يوسف منهم هذه التهمة ، فأسرّها فى نفسه ، ولم يسألهم عنها ، ولم يكشف لهم عن وجه يوسف الذى ألقوا إليه بهذه التهمة .

* « قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » قال ذلك بينه وبين نفسه . أى أنهم كانوا معتدين عليه ، ظالمين له .. والله أعلم بهذا الوصف الذى وصفوه به ، حين رموْه بالسرقة .

* قوله تعالى : « قالوا يٰأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . . »

هنا يجيئون إلى يوسف عن طريق الرجاء والاستعطاف ، بعد أن جاءوا إليه منكرين متحدّين .. فقد ظهر أنهم سارقون ، وهذا المسروق قد وجد فى أمتعتهم !. .

— « يٰأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً » فهم لا يستشفعون له ، وإنما

يستشفعون لأبيه الذى بلغ من الكبر عِتيًّا ، فلا يحتمل هذه الصدمة التى تصدمه بفقد ابنه هذا . .

— « نخذ أحدنا مكانه .. إنا نراك من المحسنين » نخذ بجريرته أحدنا ، ليلاقى العقاب الذى ستعاقبه به .. وهذا منك إحسان بأبيه ، وإكرام لشيخوخته ، وأنت — كما رأينا من أفعالك — مُحسن ، تفيض يداك بالخير والمعروف لكل من يَرِدُ عليك .

* « قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده .. إنا إذاً لظالمون » أى عياذاً بالله أن نبرىء مذنباً وندين بريئًا ، فنأخذ البرىء بذنب المسىء .. إن ذلك ظلم ، لا يلتقى أبداً مع الإحسان الذى تدعوننى باسمه .

* « فلما استيئسوا منه خَلَصوا نجيًّا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف .. فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » .

استيئسوا : وجدوا اليأس ، وانتهى أمرهم إليه .

خَلَصوا نجيًّا : أى خلصوا إلى بعضهم ، وانعزلوا عن أعين الناس ، يديرون الحديث بينهم فى سرّ .. وأصل النجوة : المكان المرتفع ، حيث يُعتصم به ، ويُلجأ إليه .. بعيداً عن الناس .

أى وحين يئس القوم من أن يستردوا أخاهم ، وأن يقيموا أحدهم مقامه فى التهمة التى أُخذ بها — أخذوا مكاناً منعزلا ، بعيداً عن الناس ، وجعلوا يتدبرون فيه أمرهم ، والأسلوب الذى يواجهون به هذا الموقف المتأزم .

— « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » .. والموثق الذى أخذه أبوهم عليهم هو ما جاء فى قوله تعالى : « قال لن أرسله

معكم حتى تُؤْتونِ موثقاً من الله لتأتُنَّنى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » ..

فكيف تلقوْن أباكم الآن ؟ وكيف تواجهونه بهذا الخبر ؟ وهل نسيتم ما كان منكم من يوسف من قبل ؟ إنكم إن تكونوا قد نسيتم فإن أباكم لم ينس .. ولقد اتهمكم اتهاماً صريحاً به ، إذ قال : « لقد سولت لكم أنفسكم أمراً » !

— « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » .. فهذا هو الموقف الذى سيتخذه كبيرهم .. إنه لن يبرح هذه الأرض ـ أرض مصر ـ ولن يغادرها ، لأنه لا يستطيع أن يلقى أباه ، وأن يجد العذر الذى يعتذر به إليه !.. وإنه لمقيم هنا إلى أن يعلم أن أباه قد علم الأمر وتحققه ، فغفر له ، وأذن له بالمودة .. أو ينتظر حكم الله فيه ، وتبرئة ساحته مما حدث ..

* « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سَرَقَ وما شهدنا إلا بما عَلِمنا وما كنَّا للغيبِ حافظين » .

أى أما أنتم ، فعودوا إلى أبيكم ، وأخبروه الخبر ، كما وقع على مرأى منكم ومسمع .. فذلك أمر قضى الله به ، وليس لنا بما قضى الله به حيلة ، وقد أعطينا الموثق ، ولم نكن ندرى ماوراء الغيب « وما كنا للغيب حافظين » ولو كنا ندرى ماوقع لما أعطينا أبانا ما أعطينا من ميثاق .

* « واسأل القرية التى كنَّا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » .. ثم قولوا لأبيكم : إن كنت لاتصدق مانقول ، فاسأل أهل القرية التى كنا فيها ، أى مصر ، فإن عزّ عليك ذلك ، ولم تجد فى نفسك القدرة على السَّفَر لترى بعينك ماحدّثناك به ، فهناك الركب الذى كان معنا من أبناء كنعان ، الذين أقبلوا معنا من مصر بعد أن أخذوا حاجتهم منها كما أخذنا .. هؤلاء هم

قريبون منك فاسألهم .. ثم إننا ـ قبل هذا ، أو بعد هذا ـ لصادقون ، فيما حدثناك به ..

وانظر إلى موقفهم هنا ، وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله ، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف ، وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله !

إنهم هنا يجدون لكلمة الحقّ مساغاً فى أفواههم ، وقوةً على ألسنتهم .. فيقيمون عليها الأدلة البعيدة والقريبة .. ثم لا يكتفون بهذا ، بل يجزمون بصدقهم ، ويؤكدونه ، وإنهم لِهذا فى غِنًى عن أن يشهد لهم أحد بصدقهم : « وإنا لصادقون » .

أما هم هناك ، فإنهم قد حملوا شاهد الزور بين أيديهم .. قميصاً ملطخاً بالدّم الكذب ، ودموعاً متلصّصة ، تتخذ من الليل ستاراً تستر به زَيْفَها .. ثم كلمات مستخزية متخاذلة ، تمشى على استحياء ، فى رعشة واضطراب : « يا أبانا.. إنا ذهبنا نستبق .. وتركنا يوسف عند متاعنا .. فأكله الذئب .. وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنّا صادقين » ! !

إن هذا القول كان أولى بهم أن يقولوه فى المرة الثانية ، وهم صادقون .. إذ كانت منهم فَعلةٌ أولَى ، افتضح فيها أمرهم ، ووقع منهم أبوهم على مافعلوه بيوسف ، حين ألقوه فى الجب وادعوا أن الذئب أكله .. فإذا جاءوا اليوم يقولون عن ابنه الآخر ، إنه سَرَق ، وإن العزيز قد أخذه رهينة عنده ـ كان اتهامه لهم بالكذب أقرب شىء يقع فى نفسه .. وكان ظاهر الحال يقضى بأن يقولوا : « ما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ولكنهم إذ كانوا صادقين حقّا ، فإنهم لم يلتفتوا إلى ظاهر الحال ، ولم ينظروا إلى وراء ، بل واجهوا أباهم بالحق الصّراح الذى بين أيديهم .. ! فقالوا : « إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما

علمنا وما كنا للغيب حافظين .. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » ..

* « قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً » !

هي نفس المواجهة التي واجههم بها ، حين جاءوه يلقون إليه بالخبر المفجع في « يوسف » .. إنهم متهمون عنده في الحالين .. لأنه كان يتوقع منهم أن يُسيئوه في يوسف ، وفي أخيه .. ففي يوسف يقول لهم : « إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » ..

وعن ابنه الآخر يقول لهم : « هل آمنكم عليه إلا كما أمِنتكم على أخيه من قبل ؟ » .

وهكذا يأخذهم بِحدْسه فيهم ، وظنّه بهم ، وقد صَدَقه حَدْسه في الأولى ، وتحقق ظنه في الثانية ، فوقع المكروه في كلا الحالين .

* « فصبر جميل » أي فصبر جميل على هذا المكروه ، هو الدواء الذي لادواء غيره .

* « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليمُ الحكيم » .. لقد وقع في نفس يعقوب أن محنته في بنيه ـ يوسف ، وأخيه ، وكبير أبنائه ـ قاربت أن تزول ، وأن بوارق الأمل أخذت تلوح له في الأفق ، وأن إيمانه بربّه ، ورجاءه في رحمته لن يخذلاه أبداً ، ولن يُسلماه إلا إلى السلامة والعافية .. ولهذا فهو على رجاء بأن الله ـ سبحانه ـ سيلطف به ، وسيجمع شمله المبدّد ، ويعيد إليه أبناءه الذين لعبت بهم يد الأحداث .. « إنه هو العليم الحكيم » .

الآيات : (٨٤ — ٨٧)

* « وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (٨٧)

التفسير :

* « وتَوَلّى عَنهم وَقَالَ يا أَسَفَى على يوسف وابيضّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم » .

لقد انصرف يعقوب عن الحديث مع أبنائه فى شأن أخيهم الذى قالوا عنه إنه سرق ، وإنه فى يد العزيز بمصر.. وأسلم نفسه إلى مايعتمل فى كيانه من حسرة وأسى على مصيبته فى يوسف . . إنه قد عرف ـ على سبيل الظنّ أو اليقين ـ أن أخا يوسف فى مصر ، أما يوسف ، فإنه لايعلم المصير الذى صار إليه .. أحىّ هو أو ميت ؟ وإذا كان حيًّا فكيف يحيا ؟ وأىّ بلاد الله احتوته ؟ ذلك هو الذى يزعجه ، ويؤرقه ! فلوأن يوسف قد مات لـكان لحزنه عليه نهاية .. ولـكنه يعلم يقيناً أن القصّة التى جاء بها إليه أبناؤه فى شأنه ، كانت مكذوبة ملفقة ، وأن ذئباً لم يأ كله .. فهو حىّ ميت .. يطلع عليه فى كل لحظة بهذه الصورة العجيبة ، فَتَهِيج لذلك أحزانه ، ويشتد كربه ، وتسرح به الظنون

فى كل أفق ، باحثاً عن يوسف .. ثم يعود آخر المطاف ولا شىء معه ، إلا هذه الزّفرات التى تنطلق من صدره ، فترسم على لسانه هذا النغم الحزين : « يا أسفَى على يوسف » ! ! وهكذا تهجم لوعات الأسى والحسرة على هذا الشيخ الكبير ، حتى لقد ابيضّت عيناه من الحزن الدفين ، الذى أبى على عينيه أن تبللهما قطرات الدموع ، وأن تطفىء النار المشتعلة فيهما ، حتى أتت على فَحْمة سوادهما ، وأحالته رماداً ! « فهو كظيم » أى يكظم حزنَه ، ويحبسه فى صدره .. وذلك هو الحزن أفدحُ الحزن ، وأشدّه قسوةً .. يقول الشاعر « البارودى » :

فزِعْتَ إلى الدموع فلم تُجبنى   وفقد الدّمع عند الحزن داء
وما قصّرتُ فى جَزَع ولكن   إذا غَلَبَ الأسى ذهب البكاء

* « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسفَ حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين » .

ومع هذه الهموم وتلك الأحزان ، التى يعالجها الشيخ الضعيف فى نفسه ، ويمسكها فى كيانه ، فإنه لم يسلم من اللّوم ، الذى يزيد من آلامه ، ويضاعف من أحزانه .. فإذا غفل عن نفسه لحظة وجرت على لسانه كلمةٌ يهتف فيها بيوسف ، تحركت الغَيْرة فى صدر أبنائه ، وسَلَقوه بألسنة حدادٍ .. إنه لم يَنْس يوسف ، ولن ينساه ، وإنه لايزال يعيش مع ذكراه ، منصرفاً إليه بوجوده كله ، غير ملتفت إلى أحدٍ سواه !

ومن كلمات العتب واللوم التى يسمعها يعقوب من أبنائه كلما جرى ذِكر يوسف على لسانه ـ قولهم هذا ، الذى حكاه القرآن عنهم : « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » ..

والحرض : الشىء الذى استحالت طبيعته وتغيرت معالمه .

والمعنى : أنك لاتزال هكذا فى هذا الوَسواس المزعج حتى تفسد وتختلّ ، أو تهلك وتموت .. وهو خبر يراد به اللوم والتقريع ..

والفعل « تفتأ » من أفعال الاستمرار ، ولا يُستعمل إلا مصحوباً بالنفى ، وقد حذف هنا حرف النفى « لا » لدلالة المقام عليه .. أوأن الفعل « تفتأ » ضُمّن معنى الفعل « تستمرّ » الذى لا يصحبه النفى ، وقد جاء فى قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

— جاء الفعل أبرح متضمناً معنى فعل الاستمرار ، فلم يصحبه نفى .

* « قال إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون » .

البثّ : الهمّ ، والكرب ، الذى يغلب صاحبه ، فلا يتسع له صدره ، فيصرّح به ، ويُلقيه خارج صدره .. وأصل البثّ الانتشار ، يقال: بث الحديث: أى أذاعه ونشره ، ومنه قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » أى المنتشر فى الفضاء .

— وفى قوله تعالى : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » إشارة إلى أنه إذ يشكو إلى الله ما به فإنما يشكو إلى رب رحيم ، يُضرَع إليه فى الكروب ، وتُبسط له الأيدى فى الملمات ، وتتجه الوجوه إليه فى الشدائد !! ولمن إذًا يشكو الموجوعون ؟ وإلى من يستصرخ المستصرخون ؟ إذا لم يكن بدٌّ من الشكوى والاستصراخ ؟

أهناك غير الله من يرجى لدفع الضر وكشف البلاء ؟

إن اللّجأ إلى الله والهُتاف به ، والشكوى إليه ، والتوجع له ، هو من دلائل الإيمان به ، والثقة فيه ، وإظهار العبودية له والافتقار إليه ..

وإنها لعبادة أىّ عبادة ، تلك الأكفّ الضارعة إلى الله ، وهذه الألسنة الشاكية له ، وتلك العيون المتطلعة إليه ، ترقب العافية منه ، وتنتظر مواطر الخير من غيوث رحمته ..

ولهذا ، فلقد كان مما أمر الله به عباده أن يدعوه دائما . . فى السراء وفى الضرّاء ، وأن يكشفوا بين يديه أحوالهم ، وهو الذى يعلم سرهم ونجواهم ، وأن يجتهدوا فى الطلب ، وهو الذى قدّر كل شىء ، وكتب لهم ماهو لهم ..ولكن هذا منهم هو عبادة له ، وتسبيح بحمده .. وفى هذا يقول سبحانه . . « ادعوا ربكم تضرُّعاً وخفية » (٥٥ : الأعراف) .. ويقول سبحانه : « فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغَباً ورَهَباً » (٩٠ : الأنبياء) .

ويقول سبحانه : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » (٦٠ : غافر) . .

ذلك ما يعلمه يعقوب من موقفه من ربه ، ومن تضرعه إليه ، وشَكاته له ، إنه يعلم من الله ، أى مما لله من صفات الكمال والجلال ما لا يعلمه أبناؤه . . ولو علموا من الله ما علم لما كان منهم هذا اللوم له .

* « يا بنىّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ولِعلم يعقوب بربّه ، وما عنده من رحمة واسعة ، وفضل عظيم ، فإنه يدعو أبناءه إلى أن يؤمنوا بالله إيمانه به ، ويعرفوه معرفته له ، ويطمعوا فى فضله ورحمته طمعه فيهما ، وأن ينطلقوا هنا وهناك ليتحسسوا من يوسف وأخيه أى ليبحثوا عنهما ، ويتنسموا ريحهما ، وألا يدخل عليهم شىء من اليأس من روْح الله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » الذين لا يعرفون الله،

ولا يقدرونه قَدره . . أما المؤمنون فهم أبداً على رجاءٍ من رحمة الله ، وعلى ترقب لفضله ، وتوقّع لغوثه .. ويوم ينقطع رجاء العبد من ربه ، فذلك شاهد على انقطاع الصلة بينه وبينه ، وعلى فراغ القلب من أية ذرّة من ذرات الإيمان به !

رُوى أن بعض الصالحين كان يقول : « إن لى إلى الله حاجة أدعوه لها منذ أربعين عاماً ، ما استجابها لى ، ولا يئست من دعائه . . »

— وفى قوله « فتحسسوا » إشارة إلى البحث المعتمد على التحسس بالمشاعر والحَدْس ، لا على النظر المادىّ ، إذ كان الأمر خفيًّا ، لا يرى الرائى منه شيئاً . . إنه فى البحث عنه أشبه بمن يتحسس طريقه فى الظلام الدامس ، حيث يبطل عمل العينين ، ويكون الاعتماد على الحدس والتظنّى . .

وفى تعدية الفعل بحرف الجر من ، وهو فعل متعدّ بنفسه ، إشارة إلى أنهم يتبعون آثار يوسف وأخيه أثراً أثراً ، ويتحسسونها خطوة خطوة . . فحرف الجر « من » دال على التبعيض فى هذا التركيب .

وروْح الله : نفحات رحمته ، وأنسام لطفه ، التى بها تستروح النفوس ، وتنتعش الأرواح ..

الآيات : (٨٨ — ٩٢)

* « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ » (٩٢)

التفسير :

كان لابد لأبناء يعقوب أن يعودوا إلى مصر مرة أخرى ، لا لِلميرة وحدها - إن كانوا يريدون الميرة - ولكن استجابةً لدعوة أبيهم لهم ، أن يذهبوا فى وجوه الأرض ، ليتحسسوا من يوسف وأخيه .. وإذا كانت مصر هى الوجه البارز ، الذى عرفوه وخَبَروه ، ثم هى البلد الذى فيه أحد أخويهم المطلوب البحث عنهما ، هذا إلى الأخ الأكبر ، الذى لا يزال ينتظر فى مصر - إذ كانت مصر كذلك ، فقد جعلوا وجهتهم إليها . .

وهناك دخلوا على العزيز يستعطفونه ، ويعاودون الحديث معه فى شأن أخيهم الذى اتّهم بالسرقة ، وأخذه العزيز كسارق . !

* « قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ » بما أصابنا فى أخينا الذى حبسته عندك ، وحرمت والدَه الشيخ الكبير النظرَ إليه . .

* « وجئنا ببضاعةٍ مُزْجاةٍ » أى بضاعتنا التى جئنا بها هى بضاعة متحركة بين أيدينا من الأنعام : من إبلٍ ، وغنم وحمير ، ونحوها ..

يقال : أزجى الشىء يزجيه ، أى دفعه وحرّكه . . كما فى قوله تعالى : « ربكم الذى يُزجى لكم الفلك فى البحر » (٦٦ : الإسراء) وقوله سبحانه : « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه » . . ويجوز أن تكون البضاعة المزجاة ، بمعنى الرديئة ، التى يدفعها الناس ولا يقبلون عليها ، زهداً فيها .

* - « فأوفِ لنا الكيل » أى اجعل الكيل وافياً على ما عودتنا من قبل .

والسؤال هنا :

كيف يدعونه إلى أن يُوفىَ لهم الكيل ، وهم يعلمون أنه لم ينقص الكيل أبداً ، كما شاهدوا ذلك بأعينهم ، وكما قال هو لهم : « ألا ترون أنىّ أوفى الكيل ؟ » فكيف يدعونه إلى هذا ؟ أفلا يكون ذلك اتهاماً منهم لعدالته ؟ ثم ألا يكون ذلك استثارة لمشاعر النفور منهم والبِغضة لهم ، وهم فى مقام يطلبون فيه عطفه ، ويستميحون معروفه ونائله ؟ .. فكيف يتفق هذا وذاك ؟

والجواب : أنهم لم يريدوا بقولهم هذا : « فأوف لنا الكيل » دعوةً له أن يعطيهم حقّهم ، وألا يبخسهم منه شيئاً .. وإنما هم بهذا يطلبون أكثر مما لهم ، إذ كانت البضاعة التى بين أيديهم ليست من الأشياء التى يعزّ وجودها فى مصر ، وتشتد الرغبة فيها ، مما يجلب إليها من مصنوعات البلاد الأخرى . . وإنما كان الذى معهم أشتات من الأنعام ، ساقوها بين أيديهم ، وهم فى الطريق إلى مصر .. ولخوفهم من أن يردّها العزيز ، ولا يقبلها بضاعةً يكيل لهم بها ، قدّموا لذلك الضرّ الذى مسهم ، « يٰأيها العزيز مسنا وأهلَنا الضرّ » ثم قدموا إليه البضاعة التى معهم ، وكأنهم يعتذرون إليه من تقديمها ، إذ لم يكن عندهم غيرها « وجئنا ببضاعة مزجاة » . . فإذا جاء بعد هذا قولهم : « فأوف لنا الكيل » كان معناه فاقبلها منا ، واجعلها بضاعة غير مبخوسة عندك ، واجعل لكل منا حملَ بعير ، كما عودتنا ، فإن لم يكن ذلك فى مقابل هذه البضاعة ، فاجعله فضلا منك وإحسانا ..

« فأوف لنا الكيل .. »

« وتصدّقْ علينا .. »

« إن الله يجزى المتصدقين .. »

لقد ألِف القوم يوسف ، وأَلِفهم ، وأخذ منهم وأعطى .. حتى لقد كادوا يسألونه : مَن أنت ؟ ومالك تؤثرنا بقربك ، وتختصنا بالحديث إليك ؟ وما اهتمامك بأهلنا ، وبمن خلّفنا وراءنا حتّى تحملنا على أن نحضر لك أخانا الذى تخلف عنا ، ثم ها هو ذا يصبح رهينة بين يديك ؟

هذه الأسئلة ، وكثير غيرها ، كانت تدور بين القوم ، ويتناجون بها أفراداً وجماعات .. ثم لا يجدون عليها الجواب الذى يستريحون إليه ، حتى جاءهم الخبر اليقين !

* « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ »

وما كاد يوسف يقول هذا لهم حتى أطلّ عليهم الجواب الذى كان تائها فى رءوسهم :

* « قالوا أإنك لأنت يوسف؟ »

* — « قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

لقد جلس لهم يوسف مجلس الإمارة ، وأجلس أخاه إلى جانبه . . ثم استدعاهم إليه ، على تلك الحال التى جاءوا بها .. وهم لم يعتادوا من قبل أن يروْا أحداً يشاركه مجلسه .. فلما أخبروه بخبرهم ، وبالضرّ الذى مسهم ومس أهلهم ، وبالبضاعة المزجاة التى قدموها ليكتالوا بها ، وطلبوا إليه أن يقبلها منهم ، وأن يحسن الكيل لهم بها ـ لمّا فعلوا ذلك، لم يجبهم إلى شىء من هذا ، بل فاجأهم بقوله :

« هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » .

إنه سؤال العارف المتجاهل . . يريد بسؤاله هذا عتاباً لا لوماً ، واستئناساً لا استيحاشاً ، واعتذاراً لهم قبل أن يعتذروا ، إذ أضاف مافعلوه بيوسف وأخيه

إلى ما كان منهم من جهل ، ولو علموا ، ماوقعوا فيما فعلوا ، فهم معذورون إذ كانوا جاهلين ! وهكذا بسط لهم جناح الصفح والمغفرة . . حتى لقد رأوا فى تلك المداعبة والملاطفة وجهَ الأخوة الحانية . يطلّ عليهم ، طاوياً تلك السنين التى غبرت !! وتحول الشك عندهم إلى يقين .. فقالوا بصوت واحد : « أئنك لأنت يوسف » ؟ ونعم إنه ليوسف . . يقولونها هكذا بصيغة التوكيد ! ! « قال أنا يوسف وهــــذا أخى » : ثم أراهم يوسف أن هذا الذى يرونه ولا يكادون يصدّقونه ، هو من فضل الله عليه ، وأنه سبحانه قد أحسن جزاءه، إذ كان ممن ابتلاهم فصبروا ، وممن مكّن لهم فاتقّوا وأحسنوا : « إنه من يتقِ ويصبرْ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

* « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين » .

وماذا يقولون غير هذا ؟ وقد فعلوا بيوسف مافعلوا به صغيراً ، ثم ماروْه به بعد سنين طويلة من انقطاع أخباره عنهم . . حين قالوا للعزيز « يوسف » : « إن يسرق فقد سَرَق أخ له من قبل » ؟

لقد أدانوا أنفسهم ، وأقروا بالخطيئة . فقالوا : « وإنْ كنّا لخاطئين » مؤكدين هذا الإقرار . ومستشهدين له ، بهذا الفضل الذى فضله به الله عليهم ، واختصه به دونهم : « تالله لقد آثرك الله علينا » .

وإنهم لم يرتضوا الحكم الذى حكمه عليهم يوسف بقوله : « إذ أنتم جاهلون » إذ رأوا أن هذا صفح كريم منه ، وتسامح أخوىّ لقيهم به . ـ أما واقع أمرهم فإنهم كانوا خاطئين ، بل وغارقين إلى آذانهم فى الخطيئة ! !

* « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وهكذا يأبى عليه فضله وإحسانه ، وبرّه بأهله ، إلا أن يؤكد الصفح والمغفرة

بل ويطلب لهم من الله الرحمة والغفران « لاتثريب عليكم اليوم » أى لالوم عليكم ، ولا مَذَمَّةَ منذ اليوم ، فقد بلغ الأمر بى وبكم غايته ، وانتهى إلى تلك النهاية المسعدة ، التى تستوجب منا جميعاً حمد الله وشكره . « يغفر الله لكم وهو أرحمُ الراحمين » ! لقد غفر هو لهم ما كان منهم معه سابقاً ولا حقاً . . وإن رحمة الله لأوسع وأرحبُ ، فلن يحرمهم الله سبحانه مغفرته ورحمته . . وكيف ! « وهو أرحم الراحمين » ؟

الآيات : (٩٣ — ٩٨)

* « اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٩٨)

التفسير :

وما أن كشف يوسف لأخوته عن وجهه ، وأراهم منه الصفح والمغفرة ، حتى التفت بوجوده كلِّه إلى أبيه الذى أضرَّ به الحزن عليه ، وعلاه الكبر ، ومسَّه الوهن والضعف !

* « اذهبوا بقميصى هذا فألقُوه على وجه أبى يأتِ بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين » !

[قميص يوسف . . ما هو ؟]

وأى قميص هذا الذى أعطاه يوسفُ إخوتَه ، ودعاهم إلى أن يُلقوه على وجه أبيه ، فيعيد إليه بصره الذى ذهب ؟

تكثر الروايات ، حول هذا القميص ، حتى لتنسبه إحدى هذه الروايات إلى إبراهيم عليه السلام ، وتحدّث بأنه كان قميصاً جاء به جبريل من الجنة وألبسه إبراهيم حين أُلقى به فى النار ، فلم تمسّه بسوء ، وكانت برداً وسلاماً عليه .. فجعل إبراهيم هذا القميص ميراثاً فى ذريته .. أعطاه إسحق ، ثم أعطاه إسحقُ يعقوبَ ، ثم ألبسه يعقوبُ يوسفَ ، ثم هاهو ذا يدفع به يوسف إلى إخوته ليلقوه على وجه أبيه ، فتتشكل منه معجزة تعيد إليه البصر المفقود !

ويمكن أن يكون هذا ، إذا كان مستنده كتاب الله ، أو حديث رسول الله .

وأمّا وليس فى القرآن الكريم ، ولا حديث رسول الله الأمين ، شاهد لهذا ، فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه الغيبيات القائمة على الرجم بالغيب ، وأن يأخذ الأمور على ظاهرها المكشوفة له . .

ومن جهة أخرى ، فإن القرآن الكريم يحدّث عن القميص الذى كان يلبسه يوسف ، حين خرج به إخوته ثم ألقوه فى غيابة الجبّ ـ هذا القميص قد انتزعه منه إخوته ، وجاءوا به إلى أبيهم عشاء يبكون ، وقد لطخوه بالدم مدّعين أن الذئب قد أكله ،فكيف يكون مع يوسف القميص الذى يُردّ فى أصله إلى إبراهيم عليه السلام ؟

فليكن القميص إذن واحداً من الأقمصة التى كان يلبسها يوسف ، والتى عَلَقَ بها بعضُ عَرَقه ، فكان فيها ريحه . .

أمّا كيف يجد يعقوب ريحَ يوسف فى هذا القميص ، على هذا المدى البعيد ، الذى أحد طرَفيه مصر ، والطرف الآخر فى الشام ؟ . فهذا السؤال يَرِد على أى قميصٍ . . سواء أ كان القميص الذى يقال إنه قميص إبراهيم أم أى قميص آخر غيره ! .

والذى علينا أن نصدّقه هو أن يعقوب وجَد ريح يوسف ، وهو فى مصر ، ويعقوب فى الشام ! .

أما هذه الريح التى وجدها يعقوب ، فهى إما أن تكون ريحاً شمّها بأنفه على الحقيقة ، كما تَشمُّ أرواح الأشياء ، ذات الريح . . وإما أن تكون الريح هذه مشاعر وخواطر ، مَثّلت له يوسفَ قريباً منه ، مقبلاً إليه ، أشبه بالطيف الزائر فى المنام ، أو الخاطر المسعد فى أحلام اليقظة . . وذلك كلّه من ألطاف الله بيعقوب ، ومن إشراقات النفس الصافية ، وانطلاقات الروح من كثافة المادة ، وقيود الجسد ! .

ونحن فى حياتنا اليومية كثيراً ما يقع لنا فى أحلام اليقظة شىء مثل هذا أو قريبٌ منه ، فنتمثل شخصاً لم نره منذ زمن بعيد ، فإذا بنا بعد قليل نلتقى به ! أو يَرِد على خاطرنا فيقع كما ورد ! . . فكيف بنبيٍّ كريم من أنبياء الله فى إشراق روحه ، وصفاء نفسه ؟

وأما كيف كان لهذا القميص أن يُعيد إلى يعقوب بصره بمجرد أن ألقى عليه . . فلهذا أكثر من قول يقال هنا . .

فلَكَ أن تقول إنه آية من آيات الله ، أجراها الله سبحانه وتعالى بين يدى نبيّين كريمين . . يعقوب و يوسف ! أو قل هى معجزة جعلها الله سبحانه

ليوسف ـ عليه السلام ـ وآذنه بها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان يوسف : « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأتِ بصيراً » . . فهو يعلم من الله ، ما يحمل هذا القميص فى طياته من أسرار أودعها الله فيه !

ولك أن تقول : إن ذلك لم يكن أمراً معجزاً ، وإنه جاء جارياً على سَنَن الطبيعة ومألوف الحياة .. وأن الذى ذهب ببصر يعقوب هو شدة الحزن ، وأن الذى أعاد إليه بصره الذاهب هو شدة الفرح . . ! وأن قول يوسف الذى أنبأ به عن ارتداد بصر أبيه إليه بعد أن يُلقَى القميص على وجهه ـ هذا القول هو لمحة كاشفة من لمحاته المشرقة ، عرف بها تأويل هذا الأمر . . تماماً كوقفه من تأويل الأحاديث والأحلام !

* «ولما فَصَلَت العيرُ قال أبوهم إنِّى لأجد ريحَ يوسُفَ لولا أن تُفنِّدون»

فصَلت العِير : أى بدأت رحلتها ، بعد أن شُدَّت رحالُها ، وأصل الفعل يدل على الانفصال عن الشىء . . ومنه الفصيل ، وهو ابن الناقة ، يُفصل عنها بعد أن يَستغنى عن لبنها .. ومن ذلك قوله تعالى : « وحَمْلُه وفِصاله ثلاثون شهراً » أى حمله وفِطامه .. والعير : الحمير .. وهى جمع ، واحدها عَيْر ، مثل : سَقْف وسُقُف ، وأصل العِير ، عُيُر على وزن فُعُل ، مثل : سُقُف . . استثقلت الضمة على الياء فحذفت ، فسكنت اليـاء ، وسبقها ضمة ، فقلبت الضمة كسرة ، لتناسب الياء ، فصارت العير ، على وزن فِعْل ، مثل حِلْم .

تفنّدون . أى تهزءون وتسخرون بى ، وتنسبوننى إلى الخَرَف ، والأَفَن وضعف الرأى .

* « قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم »

لقد وقع ما كان يحذره ، ولم يسلم من تفنيد المفنّدين ، ولوم اللائمين ، ممن

سمعوا منه هذا القول ، من أهله وجيرانه . . ولم يكن فيهم بنوه ، الذين كانوا يومئذ ما زالوا فى طريقهم إليه من مصر . .

والمراد بالضلال القديم هنا ، ما عُرف منه من حبّ شديد ليوسف ، وتعلق بالغ به ، حتى لقد حُسبَ هذا ضلالاً عن طريق القصد والاعتدال فى الحبّ . . وفى هذا يقول الله تعالى على لسان أبناء يعقوب : « إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عُصْبَة إن أبانا لفى ضلالٍ مبين » .. فإلى هذا الضلال يشير أولئك الذين قالوا له : « إنك لفى ضلالك القديم »

* « فَلَمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً قال ألم أقُلْ لكم إنّى أعْلَمُ من الله ما لا تعلمون »

ولقد صدّق الله ــ سبحانه ــ ظنونَ يعقوب ، فوقع ما توقعه ، وجاء البشير بريح يوسف محمَّلة فى قميصه ، فلما أُلقى القميص على وجهه ارتدّ بصيراً ، كما تنبأ بذلك يوسف .

وفى غمرة هذا الفرح الكبير ، لم يَنْس يعقوب أن يَرُدّ اعتباره عند هؤلاء الذين فنّدوه ورَموْه بالضلال . . فقال لائماً مؤنباً : « ألم أقُل لكم إنّى أعْلَمُ من الله ما لا تعلمون » ! أى إنّى كنت على رجاء من رحمة ربّى ، وعلى طمع فى فضله .. ولهذا لم أيأس من رَوْحه ، ولم ينقطع رجائى فى فضله ، وأن ألتقى بيوسف الذى حجبته الأقدار عنّى خلال هذا الزمن الطويل ؟

ــ وفى قوله : « ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » إشارة إلى ما سبق أن قاله لهم حين قالوا له : « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرَضاً أو تكون من الهالكين » فكان ردّه عليهم : « إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون » . .

* « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربّى إنه هو الغفور الرحيم »

هو نفس الموقف الذى وقفوه بين يدى يوسف ، حين قالوا له : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين » . . إنه الاعتراف بالذنب ، وطلب الصفح والمغفرة . .

ولقد لقيهم يوسف بالصفح والمغفرة ، من غير مَهَل ولا إبطاء ، فقال : « لا تثريب عليكم اليوم . . يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »

أما أبوهم يعقوب ، فإنه لم يلقَهم بهذا الصفح وتلك المغفرة من فوْره ، بل جعل ذلك وعداً مستقبلا ، يجىء على تراخ من الزمن . . « قال : سوف أستغفر لكم ربى » . . ولم يقل سأستغفر لكم ربى !

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الاختلاف بين موقف يوسف من إخوته ، وموقف أبيه يعقوب منهم ـ أخذ من هـذا شاهداً على أن الشباب أسمح نفساً بما فى أيديهم ، من الشيوخ الذين يغلب عليهم الحرص على كل ما عنـدهم ، ليكون لهم من ذلك قوة تمسك عليهم البقية الباقية من قوامهم الواهية . .

والذى نذهب إليه لتعليل هـذا الاختلاف فى الموقفين ، أن يعقوب ، فى هذا الموقف أب ، وهو بهذا يملك من أبنائه ما لا يملـكه الأخ من إخوته . . إنه يملك التأنيب ، والتأديب . . أما الأخ فلا يملك من إخوته هذا الذى يملـكه منهم أبوهم . .

ومن أجل هـذا فقد استعمل يعقوب حقّه فى تأنيب بنيه وتأديبهم ؛ فأمسك عنهم صفحه ومغفرته ، إلى حين ، ولم يرَ من الحـكمة أن يجيبهم إلى طلبهم فى الحال . وأن يُخلى مشاعرهم من القَلق والهمّ . بل رأى أن يُرِيَهم أنه

هذا الطلب موضع نظره ، وأنه سوف يحققه لهم فى الوقت المناسب ! وفى هـذا ما فيه من درس بالغ فى التربية والتأديب .

فَقَسَا ليزدجروا ، ومن يك حازماً فليَقْسُ أحياناً على من يرحم

أما يوسف ، فهو فى مواجهة إخوة له ، وهم أكبر منه سناً . . فلم يكن بدٌّ من أن يبادرهم بالصفح والمغفرة ، بعد أن أخذ بحقّه منهم ، وأجرامهم هذا الشوط الطويل ، حتى كادت تنقطع منهم الأنفاس ، فى غدوهم ورواحهم إلى مصر ، وإتيانهم بأخيهم من أبيهم ، ثم فى هـذا التدبير الذى جعل منه يوسف مدخلا لاتهام أخيه بالسرقة ، وأخذه بما سَرَق ، ووضع إخوته فى هذا الموقف الحرج !

الآيات : (٩٩ — ١٠١)

* « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » (١٠١)

التفسير :

آوى إليه أبويه : ضمهما إليه ، وكان مأوًى لهما . .

نزغ الشيطان : أى أفسد الشيطان ، والنزغ ، والزيغ ، بمعنى ..

* « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه » . . هناك أحداث كثيرة طويت ، ولم يجر لها ذكر هنا ، إذ لم يكن لها أثر ظاهر فى مضمون القصة . .

وهانحن أولاء نرى يعقوب وبنيه فى مصر ، بعد أن كانوا منذ لحظة فى أرض كنعان ، نراهم فى موقف استغفار واسترضاء من جهة ، وموقف تأنيب وتأديب من جهة أخرى . .

وها هو ذا يوسف يلقى أبويه وإخوته ، ويضمهم إليه ، ويفتح لهم الطريق إلى مصر وينزلهم فيها منزل الأمن والسلامة . . « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . . ثم يرفع أبويه على العرش ، ويدعوهم جميعاً إلى مشاركته مجلس السلطان والحكم ، فيدخلون عليه ، ويؤدون له تحية الملك والسلطان ، وينزلون على حكم العرف السائد فى مصر ، عند لقاء الملوك ، فيخرّون له ساجدين . .

وإذ يشهد يوسف هذا الموقف ، تتمثل له فى الحال رؤياه التى رآها فى صغره ، والتى عرضها على أبيه قائلا : « يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » .. وهنا يقول يوسف لأبيه : « يا أبت هذا تأويل رؤيایَ من قبل .. قد جعلها ربى حقًّا » أى قد تحققت كما رأيتها فى المنام . . أمى ، وأبى ، وإخوتى الأحد عشر .. « أحد عشر كوكباً والشمس والقمر » .. « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » .. فمن إحسان الله إلى يوسف أن حقق له هذه الرؤيا ، وأن أخرجه من السجن ، وأن جمع بينه وبين أهله ، فجاء بهم من البدو ، وأنزلهم الحضر .

ـ وفى قوله : « إن ربى لطيف لما يشاء » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا أحكم تدبير الأسباب الموصلة إليه ، فجاء بها على غير مايقدر العباد ، ثم أراهم من عواقبها غير ما يتوقعون ..

فمن كان يقع فى تقديره أن تلك الأحداث التى بدأت بها قصة يوسف ؛ من إلقائه فى الجب ، إلى وقوعه فى يد جماعة من التجار ، إلى بيعه لرجل من مصر ، إلى كيد امرأة العزيز له ، وتآمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقائه فى السجن بضع سنين — مَن كان يقع فى تقديره أن هذه الأحداث يُنسجُ من خيوطها عرش ، ويصاغ من حصاها تاجٌ ، ويُولد من تصارعها مَلك يجلس على هذا العرش ، ويتوّج بهذا التاج ؟ إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير ، يمسك الأسباب بلطفه ، فإذا هى طوع مشيئته ، ورهن إرادته ، فيخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ ، ويجعل من المكروه محبوبا ، ومن المحبوب مكروهًا : « وعسَى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسَى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم . . واللهُ يعلَمُ وأنتم لا تعلمون » (٢١٦ : البقرة) : « فعسَى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرًا » (١٩ : النساء)

— وفى قوله : « إنه هو العليم الحكيم » إشارة إلى أن لطف الله سبحانه وتعالى ، وتدبيره المحكم لما يريد ، إنما هو عن علم العليم ، وحكمة الحكيم ، لا يشاركه أحد فى علمه وحكمته ، فبعلمه المحيط بكل شىء ، تتولد الأسباب والمسببات ، وبحكمته البالغة ، تُقدّر الأمور ، وتُحكم فى أسبابها . وذلك هو اللطف فى كماله وتمامه ، فلا يقع شىء فى ملك الله إلا كان اللطف سَدَاه ولحمته !.

* « رَبِّ قَدْ آتَيتَنِي من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطرَ السموات والأرض أنت وَلِيِّي فِي الدُّنيا والآخرةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وألحقنى بالصالحين » . .

بهذه الابتهالات وتلك التسابيح ، يستقبل يوسف هذه النعم التى أنعم الله

بها عليه . . فيحدِّث بنعمة ربّه ، ويسبِّحه بها ، ويحمده عليها ، ويستزيده من فضله ، بأن يتم تلك النعمة عليه ، وأن يتوفاه على دين الإسلام ، وأن يلحقه بالصالحين من عباده . . فذلك هو الذى يجعل لتلك النعم مساغاً فى فمه ، وطعماً هنيئاً فى حياته ! .

وإلى هنا تنتهى قصة « يوسف » التى كانت السورة كلها تقريباً معرضاً لها ، وحديثاً عنها . .

ويلاحظ أنّ قصّة « يوسف » — على خلاف القصص القرآنى كلّه — جاءت فى معرض واحد ، لم يذكر معها غيرها من قصص الأنبياء ، ولم تُذكر هى فى معرض آخر ، ولم يجر عن يوسف حديث فى غير هـذه السورة ، اللهم إلا أن يذكر اسمه مع جماعة الأنبياء ، ذكرًا لا يُراد منه إلا تعداد أسمائهم ، أو مجرد الإشارة إلى قصته ، للعبرة والعظة ! .

ولعلّ الحـكمة فى هذا هى أن هذه القصة تعتبر حدثاً واحداً ، هو رحلة عبر الزمن ، للإنسان من مولده إلى مماته ، وعلى طريق هذه الرحلة تقوم سدود ، وتهبّ أعاصير ، ولـكن يد اللطف والقدرة تبلغ بهذا الإنسان مأمنه ، وتخرجه من تلك التجربة التى عانى فيها الشدائد والأهوال — جوهراً صافياً ، وإنساناً عظيماً يمسك بكلتا يديه خير الدنيا والآخرة جميعاً . .

ولو أن هذه القصّة صُنع بها ما صُنع فى القصص القرآنى ، فعرضت فى أكثر من معرض لتمزقت وحدة الشخصية التى هى العمود الفقرى للقصة .

ومن جهة أخرى ، فإن القصة وقد اصطبغت من أولها بلون الدم ثم كان ختامها الأمن والسلامة ـ فقد كان مما يتفق وتطلعات النفوس أن تجىء القصّة هكذا كياناً واحداً ، يجمع بين بدئها وختامها .

ومع هذا ، فلو جاء بها القرآن على نسق القصص القرآنية الأخرى ،

فعرضها فى أكثر من معرض لما أخلّ ذلك بشىء من مقوماتها .. ولكن هكذا جاء بها القرآن ، فكان ذلك شاهداً من شهوده الكثيرة على امتلاكه ناصية البيان ، وتمكنه غاية التمكن من فنون القول !

فيجىء بالقصة فى معارض مختلفة ، فإذا هى كيان واحد ، وخلق سوىّ ، ينبض بالحياة ، ويفيض بالجمال والجلال .. ثم يجىء بالقصة فى معرض واحد ، فإذا هى مائدة تجمع شهى الطعام ، وتؤلف بين مختلف الطعوم ، فإذا الوارد عليها ، والطاعم منها آخذ بحظه من كل طعام ، متذوق من كل لون .. حتى إذا قارب حدّ الشبع وجد على لسانه حلاوة هذا الختام الذى انتهت به أحداث القصة ..

فسُبحان من هذا كلامه ، و«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً .. قيما .. »

الآيات : (١٠٢ — ١٠٧)

* « ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (١٠٧)

التفسير :

بدأت السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم . بقوله تعالى : « نحن نقصّ عليك أحسن القصص » .. ثم ما كاد النبي – صلوات الله وسلامه عليه – يفتح قلبه لتلقّى مايوحى إليه من ربّه من قصص ، حتى وجد نفسه مع قصة يوسف عليه السلام ، فَصَغَا بقلبه ، وروحه إليها ..

وفى نغم علوىّ ، وبيان ربانىّ ، جرت أحداث القصة ، وترددت أصداؤها فى كيان الرسول الكريم ، وانسكب نميرها فى وجدانه ، قطرة قطرةً ، حتى إذا بلغتْ نهايتَها ، كان قد ارتوى ، وانتعش ، ووجد بَرْدَ الراحة فى هذه الواحة الظليلة التي يستروح فيها أرواح العافية ، بعد أن أضناه السير ، وأضرت به لفحات السّموم ، التى تهب عليه من المشركين ، من سفهاء قريش وحَمْقَاها !

ففى أفياء هذه الواحة الظليلة ، وعلى خطوات هذه الرحلة الطويلة يستعرض الرسول الكريم مايجرى بينه وبين قومه وأهله ، وما يكيدون له من كيد ، وما يَرْمونه من ضُرّ ، لالشيء إلاّ لأنه يدعوهم إلى الخير ، ويمدّ إليهم يده بالهدى – فيرى أن أخاً له من أنبياء الله ، قد كِيد له هذا الكيد العظيم ، من إخوته ، وطُرِح به فى مطارح الهلاك ، بيد أبناء أبيه ، فلطف الله به ونجاه من تلك الكروب ، ثم مكّن له فى الأرض ، وبسط يده وسلطانه على هؤلاء الذين مكروا به ، وكادوا له ! وتلك هى عاقبة الصّابرين المتقين !

فليهنأ النبىّ الكريم إذن ولينظر مايفتح الله له من رحمة ، وما يسوق إليه من فضلٍ .. فإن العاقبة له ، والخزى والخذلان على الكافرين !

وإنه مايكاد الرسول الكريم يمسك بأطراف هذه القصة ، ويردّد النظر فيها ، حتى يجد الرفيق الذى يصحبه ، ويقيم نظره على تلك القصّة ، ويشير له إلى مواقع العبرة والعظة منها .. وإذا كلمات الله تلقاه بهذا الخطاب الذى يُلفته إلى

ذاته ، ويذكّره بأن ذلك الحديث كلّه إنما هو حديث إليه ، ومناجاة له من ربّه ، يجد فيها ريح العافية ، وبردَ العزاء .

* « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » .. فهذا الذى سمعتَه أيها النبىّ من قصة يوسف ، هو من أنباء الغيب ، التى أوْحى الله بها إليك ، ليثبّت بها فؤادك ، ويربط بها على قلبك !

* — « وما كنتَ لَدَيْهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » .. أى أن النبىّ الكريم لم يكن بمشهد من هذة الأحداث ، حتى يعلمها ، ولم يكن يتلو كتاباً من قبل ، حتى يقع عليها : « ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومك من قبل هذا » (٤٩ : هود) .

والذين أجمعوا أمرهم ، وهم يمكرون ، هم إخوة يوسف ، الذين قالوا : «ليُوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبةٌ إن أبانا لفى ضلالٍ مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجْه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .. فهذا ما أجمعوا أمرهم عليه ، وهذا هو مكرهم الذى مكروه .. ولم يكن النبىّ بمشهد من هذا .

* « وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين » — هو عزاء بعد عزاء للنبىّ الكريم ، ومواساة له لما يلقى من قومه من كيدٍ ومكرٍ .. فهكذا النّاس ، يغلب شرُّهم خَيْرَهم ، ويطغى سفهاؤهم وجهالهم على العقلاء والراشدين فيهم .. وإنه مهما حرص النبىّ على هداية الناس ، ومهما اجتهد فى طلبهم إليه ، وشدّهم نحوه فإن أكثرهم على خلافٍ وإباء !..

فإذا كان فى بيت النبوة وفى سلالات الأنبياء ، ينْبُت مثل هذا الشرّ ، ويقع مثل هذا الذى وقع بين يوسف وإخوته — فليس بالمستغرب ، ولا من غير المتوقع أن يرى النبىّ فى أهله ، وقومه ، مَن يكيدون له ، ويَبْغُون الشرّبه !

* « وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين » ـ هو تقريع ، وتسفيه ، لهؤلاء الحمقى السّفهاء الذين يتنكرون لحمَلَة الهدى إليهم ، ودعاة الخير فيهم ، وهم لم يطلبوا منهم على ذلك أجراً ، ولا يريدون جزاء ولا شكوراً .. فلو أن النبيّ الكريم ، كان يطلب من قومه أجراً على هذا الذى يقدّمه لهم من خير ، لكان لهم وجْهٌ فى ردّه والتأبى عليه ، وإن كان الذى بين يديه لا يُستكثر عليه أى أجرٍ وإن غلاَ ، وأى ثمن وإن عظم .. ولكنه ، إذ كان ولا شىء من متاع هذه الدنيا يوفى ثمنه ، أو يؤدى أجره ، فقد جعله الله سبحانه ـ فضلاً منه وكرماً ـ رحمةً مهداةً إلى عباده .. وهل يُقدَّر لضوء الشمس ثمن ؟ أو للروح التى تلبس الأجساد قيمة ؟ ذاك من هذا سواء بسواء !

* « وكأيّن من آيةٍ فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ».

وليست هذه الآيات البينات التى يطلُع بها الرسول على قومه ، ويؤذّن بها فيهم ـ ليست إلا بعضَ آيات الله الكثيرة المبثوثة فى هذا الوجود .. فما أكثرَ تلك الآيات التى بين يدى النّاس ، وتحت أبصارهم ، لو أنهم نظروا فى هذا الوجود ، وفتحوا عقولهم وقلوبهم له ..

وإن العاقل ليهتدى إلى الله ، ويتعرف إليه ، من غير أن يدلّه على ذلك دليل ، أو يرشده مرشد ، لو أنه أحسن توجيه أجهزته التى أودعها الله فيه ، على هذا الوجود الذى حوله ، بل على نفسه ذاتها .. « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٢١ : الذاريات) .. « فلينظر الإنسان مم خُلق * خُلِق من ماء دافق * يخرج من بين الصّلب والترائب » (٥ ـ ٧ : الطارق) .

ولكن ـ مع هذا ؛ ومع مايعلم الله سبحانه وتعالى من غفلة النّاس عن تلك الآيات الكونية ـ فإنه ـ سبحانه ـ قد بعث فيهم من أنفسهم هداةً يَهدونهم إلى الحق ، ويكشفون لهم معالم الطريق إلى الله ، من غير أجرٍ ..

فكروا بآيات الله ، وكذبوا رسله . . « إن الإنسان لظلوم كفار » (٣٤ : إبراهيم) . .

* « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . . »

وهذا صنف آخر من الناس .. فإنه إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بالله ، ولا يستجيبون لدعوة الداعى الذى يدعوهم إليه ، فإن كثيراً منهم كذلك يؤمنون بالله ، ولكنهم لا يخلصون إيمانهم له ، ولا يقيمون هذا الإيمان على وجهه الصحيح .. فهم مؤمنون ، وغير مؤمنين .. يؤمنون بالله ، وبغير الله ، فيجعلون مع الله آلهة أخرى ، أو شفعاء يتقربون بهم إليه ، مثل مشركى قريش ، الذين يقولون عن أصنامهم التى يعبدونها : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣ : الزمر) .. فهذا شرك بالله ، لا يصح معه إيمان مؤمن .

* « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » .

الغاشية : هى التى تهجم على الناس ، وتشتمل عليهم ، ولا تستعمل إلا فى مقام الضرّ والأذى ..

البغتة : المباغِتة والمفاجِئة ..

والمعنى ، أفيأمن هؤلاء المشركون من قريش ، الذين كذبوا رسول الله ، وآذوه ــ أفيأمنون أن يأخذهم الله بيأسه ، وأن تغشاهم سحابة من عذابه ، فتهلكهم كما أهلكت الظالمين قبلهم ؟ وإذا أمنوا هذا ، أفيأمنون أن تأتيهم الساعة فجأة ، وهم غافلون عنها ، لم يعملوا حساباً لها ؟ .

ماذا يكون موقفهم يومئذ ؟ وهل يلقون إلا الخزى والهوان ، والعذاب الأليم ؟ . .

والاستفهام هنا إنكارى ، إذ ينكر على هؤلاء المشركين ، موقفهم هذا ، الذين بعدوا به عن طريق الهدى، وركبوا فيه طريق الضلال، فهم ـ وهذه حالهم ـ فى معرض الهلاك فى الدنيا ، بنقمة من نقم الله تأخذهم بغتة ، فإن لم يعجل لهم الله البلاء فى الدنيا ضاعف لهم العذاب فى الآخرة ، « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

الآيات : (١٠٨ — ١١١)

* « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١١١)

التفسير :

بهذه الآيات تختم سورة يوسف .. فيؤذن النبىّ الكريم فى قومه بقوله تعالى :

* « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

فالسبيل التى استقام عليها النبىّ بأمر ربه ، ودعا الناس إلى أن يأخذوا خطوهم عليها وراءه ـ هذه السبيل ، هى سبيله،لا يحيد عنها ، ولا يلتفت إلى غيرها .. وإنه ليدعو إلى الله على هدًى ونور من ربه ، فقد أبصر الحق ، واستيقنه ، وعرف الخير وطعِم منه..فهو يدعو الناس إليه ، ليأخذوا حظهم من فضل ربهم، ولينزلوا منازل رحمته ورضوانه..فمن اتبع الرسول ، فقد عرف هذا الحق ، وطعم من ذلك الخير ، فكان على هدًى وبصيرة ..

ـــ قوله « وسبحان الله » معطوف على مقول القول : « هذى سبيلى » أى قل هذه سبيلى ، وقل سبحان الله ، أى تنزيهاً لله عن الأنداد والشركاء .. وقل « وما أنا من المشركين » الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ..

* « وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحى إليهم من أهل القرى »..

وهذا ردٌّ على المشركين الذين ينكرون على النبىّ أن يؤذّن فيهم بكلمات الله ، وأن يدعوهم إلى الله بما أوحى إليه من ربه .. فقد صورت لهم أوهامهم المضلّة ، أن الرسول الذى يبعثه الله ، ينبغى أن يكون على غير شاكلة الناس ، كأن يكون مَلَكا من السماء ، أو نحو هذا ..

ولو أنهم نظروا إلى أبعد من مواقع أقدامهم ، والتفتوا إلى ما حولهم ، لرأوا أن رسل الله جميعاً كانوا من البشر ، وكانوا من أقوامهم ، وبلسانهم .. « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم » (٤ : إبراهيم) .

ـــ وفى قوله تعالى : « من أهل القرى » إشارة إلى تلك القرى ، التى يرى المشركون من قريش مخلّفاتِ مَن عمروها قبلهم من عادٍ وثمود .. وإلى هذه

القرى يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » (٢٧ : الأحقاف) ..

* قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » .. هو إلفات لمشركى قريش ، إلى تلك القرى التى يمرون عليها فى طريقهم إلى الشام مع رحلة الصيف .. فليقفوا قليلا على أطلالها ، وليروا كيف كانت عاقبة الذين كذبوا برسل الله .. ولقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، فما عصمتهم قوتهم ، من بأس الله إذ جاءهم ، وما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله من شىء !

* قوله تعالى : « ولدار الآخرة خير للذين اتقوا » .. إنها العبرة التى يستخلصها العقلاء من الوقوف على أطلال هذه القرى الظالم أهلها .. وإنها لتنطق بأن الحياة الدنيا متاع زائل ، وزخرف حائل ، وأن الدار الآخرة خير وأبقى ، للذين اتقوا ربهم ، وتزودوا لتلك الدار بالعمل الصالح والتقوى ..

* وفى قوله : « أفلا تعقلون » تقريع وتوبيخ لهؤلاء المشركين الضالين ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ! فلقد عطلوا عقولهم ، فلم يهتدوا بها إلى خير ، ولم يتعرفوا بها على حق .. فخسروا الدنيا والآخرة .. ذلك هو الخسران المبين .

* « حتّى إذا استيئس الرّسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين » ..

استيئس : واجه اليأس ، ووقع فى تصوره أن لا ملجأ ، ولا نجاة ، وذلك فى لقاء الأحداث ، ومصادمة الشدائد ..

كُذِبوا : أى كُذِب عليهم ، إذ لم يتحقق لهم ما وُعدوا به إلى أن بلغ بهم الحال إلى هذا اليأس ..

— وقوله تعالى : « حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » ..

حتّى حرف غاية لِما قبله . .

وهنا كلام محذوف هو الغاية التى يشير إليها هذا الحرف .. والتقدير : أن مهمة الرسل هى الوقوف فى وجه هذا الظلام الزاحف ، والتصدّى لتلك القوى العاتية من قوى الشرّ والعدوان ، وأنهم مطالبون بأن يثبتوا ، ويصبروا ، ويصابروا . فإن نصر الله آتٍ لاريب فيه .. وهكذا يظل الرسل فى متلاطم الشدائد والمحن ، حتى لقد يدخل اليأس عليهم ، وتَغيم الحياة فى أعينهم ، ويَغمّ عليهم طريق النجاة ، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم ـ عندئذ تهب ريح النصر ، وتطلع عليهم تباشير الصباح ، فتطوى جحافل الظلام ، وتطارد فلوله . .

وإذا دولة الباطل قد ذهبت ، وذهبت آثارها ، وإذا راية الحق قد علت ، وخفقت أعلامها . .

وفى هذا تسلية للنبىّ الكريم ، وشحذٌ لعزيمته ، وتثبيت لقدمه ، وتطمين لقلبه ، وتأكيد للوعد الذى وُعد به من ربّه فى قوله تعالى : « كَتَبَ اللهُ لأغلبنّ أنا ورُسلى إن الله قوىٌّ عزيز » (٢١ : المجادلة)

هذا ، وليس فى استيئاس الرسل ، وفى إطافة الظنون بهم ، وبأنهم قد كُذِبوا ـ ليس فى هذا ما ينقص من قدر الرُّسل ، أو يشكك فى كمال إيمانهم بربهم ، واستيقانهم من صدق وعده . . فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به ، ولكن هناك مواقف حادّة من الضيق ، وأحوال بالغة من الشدة ، تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره ، وتمثل له الحقائق المحسوسة التى عايشها ، ونزلت من عقله منزل اليقين ، وقد قُلبت أوضاعها ، وتبدّلت حقائقها ـ عندئذ وللحظة

عابرة عبور الطيف ، يخون الإنسانَ يقينُه ، ويُفلِت منه زمامُ أمره .. ثم يعود إلى موقفه ، أشدَّ تثبتاً ، وأقوى يقيناً ، وأرسخ قدماً .. إنها سحابة صيف ، تغشي وجه الشمس ، ثم لا تلبث حتى تزول ، وتُسفر الشمس عن وجه أبهى بهاء ، وأضوأ ضوءاً ، وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة ..

فتلك الحال التي تمثل الرسلَ في هذا الموقف ، هي القمة التي تنتهي عندها طاقة الاحتمال البشرى ، فى مصادمة الأحداث ، ومدافعة الأهوال والشدائد .. وهي قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله .. حيث تـ ون الخطوة التالية بعدها انخلاعاً من عالم البشر ، إلى العالم العلوىّ ، وعندها تهبّ ريح النصر ، وتجيء أمداد السماء .! وفى هذا ابتلاء للرسل ، واستخلاص لـكل ما عندهم من مذخور .. من قوى الصبر والعزم والإيمان ..

ـ قوله تعالى : « فنجّى من نشاء ولا يُردّ بأسنا عن القوم المجرمين » ـ إشارة إلى أن نصر الله الذى يحقق به لرسله ما وعدهم به ، يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين .. فإن هذا النصر إنما يمشى على جثث أعـداء الرسل ، الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية ، ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة ، حتى لـكادوا يفتنونهم فى دينهم : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نورَه ولو كره الـكافرون » (٣٢ : التوبة)

* « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .. ما كان حديثاً يفترى ولـكن تصديق الذى بين يديه وتفصيلَ كل شيء وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون »

الضمير فى « قصصهم » يعود إلى الرسل المذكورين فى قوله تعالى : « حتى إذا استيئس الرسل » ففى قصص الرسل ، وفى الصراع الذى يدور بينهم وبين السفهاء والضالين من أقوامهم ـ فى هذا القصص عبرة لأولى الأبصار ، وذوى الفطنة والرأى .. حيث ينجلى الموقف دائما عن إظهار دين الله ، وإعلاء كلمته ، وانتصار

رسله ومن اتبعهم من المؤمنين ، على حين يقع البلاء والخزى والخذلان بالذين كذبوا رسل الله وآذوهم ، وصدّوا الناس عن سبيل الله . .

— قوله تعالى : « ما كان حديثاً يُفترى » أى هذا القصص الذى يقصه الله تعالى على نبيّه الكريم ، من أنباء الرسل ، لم يكن حديثاً ملفقاً ، أو مفترًى ولكنه كلام ربّ العالمين ، قد تلقاه النبىُّ وحياً من ربّه ، فجاء مصدّقاً لماسبقه من الكتب السماوية ، مفصّلاً كلّ ما كان مجملاً فيها ، حاملا الهدى والرحمة لمن يؤمنون به ، ويهتدون بهديه ، ويستقون من موارده .

— وقوله تعالى : « ولكن تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ كل شىء وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون » معطوف على قوله تعالى : « ما كان حديثاً يفترى » وهو عطف يفيد الاستدراك ، ويجعل ما بعد « لكن » مخالفاً لما قبلها فى الحكم الواقع على المعطوف عليه .

— وفى قوله تعالى : « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ـ فى التعبير بالفعل المستقبل « يؤمنون » بدَلَ الفعل الماضى « آمنوا » ، مع أن الهدى والرحمة لا يقعان إلا بعد الإيمان ـ فى هذا إشارة إلى أن الهدى والرحمة أمران ذاتيان ، ثابتان فى هذا الكتاب، يجدها كل من اتصل به وأخذ عنه ، وتعامل معه ، على امتداد الزمان ، فلا يقطع الماضى ما له من آثار فى المستقبل ، ولا ينضب معين الهدي والرحمة ، على كثرة الواردين . . فهو أبداً مصدر هدى ورحمة للذين يؤمنون به ، لا لمن آمنوا به وحدهم ، وسبقوا إلى الإيمان . . فللاّحقين حظهم من هداه ورحمته ، مثل ما للسابقين ، سواء بسواء . . وإنما تختلف حظوظ الناس بحسب استعدادهم لتقبل الهدى ، واستنهال الرحمة . . فكتاب الله . هو هو ، وآياته . . هى هى ، والهدى المشعّ منه . . هو هو ، والرحمة المحملة معه . . هى هى . . لا اختلاف مع الزمن فى شىء من هذا ، ولا تحوّل أو تبدّل فى كلمات الله وآياته . . وإنما الذى يختلف ويتبدل ويتحول ، هم الناس ، وعقول الناس ، وقلوب الناس !

* * *

سورة الرّعد

نزولها : مكية : عند ابن عباس ، وعطاء ، وسعيد بن جبير . .

وقال الحسن وعكرمة وقتادة : إنها مدنية .

وقد أخذ بالقول بمكيتها : الإمام النسفى ، والفيروزبادى فى بصائر ذوى التمييز ، وقال الزمخشرى : « مختلف فيها » . . أما الإمام البيضاوى فاعتبرها مدنية . . والراجح عندنا أنها مكية . . وذلك لنظمها الذى يبدو عليه الطابع المكى ، ولمضامين آياتها التى تعرض آيات الله الدالة على قدرته فيما أبدع وصوّر فى هذا الوجود . . وذلك هو الغالب على القرآن المكى .

عدد آياتها : سبع وأربعون على الراجح ، وقيل ثلاث ، وأربعون وقيل أربع وأربعون ، وقيل خمس وأربعون . .

عدد كلماتها : ثمانمائة وخمس وستون كلمة . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وخمسمائة حرف ، وستة أحرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

* « الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن

كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

التفسير :

هذه السورة « مكية » ـ وقيل إنها « مدنية » وسورة « يوسف » التى قبلها « مكية » باتفاق ، ومع هذا فقد كان بدء هذه السورة متلاقياً مع ختام السورة التى قبلها ، وهذا يرجح القولَ القائلَ بأنها مكية .

فقد ختمت سورة « يوسف » بالآية الكريمة : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون » .

والآية — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — تنفى عن القرآن الكريم أن يكون قد شابَهُ شىء من الكذب أو الشك ، إذ كان مصدِّقاً لما تقدمه من الكتب السماوية ، شاهداً لها بأنها من عند الله .

* وقوله تعالى : « آلمر تلك آيات الكتاب والذى أُنزل إليك من ربك الحقُّ » ـ هو توكيدٌ لنفى الشُّبَه والرِّيب عن القرآن الكريم ، وتقرير بأنه الحقّ من رب العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والإشارة « بتلك » مشارٌ بها إلى « آمر » . . تلك الحروف المقطعة . . أى أنه من تلك الحروف وأمثالها من حروف الهجاء ، قد نُظمت آيات القرآن

الكريم ، فكان منها هذا النظم البديع ، وهذا البيان المبين ، الذى أفحم البلغاء ، وأعجز العالمين ..

وفى الإشارة إلى آيات الكتاب ، بعد ذكرها فى قوله تعالى : « آلمّر » — فى هذه الإشارة تنويه بهذا الكتاب ، وعرض له فى معرض التحدى ، بهذه الأحرف التى نُظمت منها كلماته ، ونُضّدت آياته . .

— وفى قوله تعالى : « والذى أُنزل إليك من ربك الحق » قصر للحق المطلق على آيات هذا الكتاب ، فآيات هذا الكتاب هى الحق ، ولا حقّ وراءها ، لأنها كلمات الله .. وكلام الله صفة من صفاته ..

وقد جاء القصر هنا بتعريف الخبر « الحق » . . ولو جاء منكراً — كما هو مألوف لما وقع القصر — : فإنه شتان بين قوله تعالى : « والذى أنزل إليك من ربك الحق» وبين أن يقال : « والذى أنزل إليك من ربك حق » .

* قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . . أى ومع هذا الحق المبين ، وتلك الآيات المشرقة الوضيئة ، فإن أكثر الناس لا يهتدون بها إلى الحق ، ولا يتهدّون بها إلى التعرف على الله .

* قوله تعالى :

« الله الذى رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجلٍ مسمًّى يدبّر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

وإذا لم يكن للناس عقول تعقل هذه الآيات التى حملها رسول الله إليهم فى هذا الكتاب المبين . . أفلا كانت لهم أعين تنظر فى هذا الوجود الذى أوجده الله سبحانه وتعالى من عدم ، وأقامه على هذا النظام البديع ؟

وإذا لم يكن لهم نظر ينظرون به فى هذا الملكوت ، أفليست لهم آذان

يسمعون بها ، هذا النداء الإلهى الذى يناديهم به الحق جل وعلا ، ليستيقظوا من نومهم ، ولينتبهوا من غفلتهم ؟

ألاَ مَن كانت له أذنان فليسمع ! ! وألاَ مَن كانت له عينان فلينظر ! ! وألاَ مَن كان له قلب فليخشع !

— « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » أى ترونها مرفوعة هكذا بغير عمد ، فقوله تعالى : « ترونها » إما أن يكون صفة لعَمَد ، ويكون المعنى : أن الله سبحانه قد رفع السموات بغير عمد مرئية لنا ، وإما أن يكون حالا من السموات .

— « ثم استوى على العرش » أى بسط سلطانه على هذا الوجود .

— « وسخّر الشمس والقمر » أى أخضعهما لسلطانه ، وأجراهما حسب أمره وتقديره .

— « كل يجرى لأجل مسمى » أى يدور فى فلك محدود ، فى زمن محدود .

— « يدبّر الأمر » أى يقدر لكل شىء قدْره ، كما يقول سبحانه : « قد جعل الله لكل شىء قدْراً » (٣ : الطلاق)

— « يفصّل الآيات » يبينها ويوضحها ، ويأتى بها آيةً آيةً . ولم يأت بها جملة واحدة ، وذلك لتنكشف للناس ، ولتتضح لهم معالم الحق منها .

— « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » أى لعلكم ترون فى هذا الوجود ، وفى الآيات المفصلة المبثوثة فيه، مايدعوكم إلى الإيمان بالله ، فإذا آمنتم بالله آمنتم بلقائه ، وعملتم لهذا اللقاء حسابه ، وأيقنتم أنكم مجزيون على ماتعملون من خير أو شر .

وفى قوله تعالى : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون» بدلا من قوله « تؤمنون » إشارة إلى أن هذا الإيمان الذى يجىء عن طريق النظر والتأمل فى آيات الله

الـكلامية أو الـكونية أو هما معاً — هذا الإيمان ، هو الإيمان الـكامل ، الذى يصل إلى مرتبة اليقين .

* قوله تعالى :

« وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشى الليـلَ النهارَ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفـكرون » .

ومن مظاهر قدرة الله ، تلك الآيات الـكونية المفصلة ، فهو سبحانه :

— « الذى مدّ الأرض » أى بسطها وذللها .

— « وجعل فيها رواسى » أى جبالاً راسية ، ثابتة ، مستقرة ، كما ترسو السفن على المرافئ الآمنة .

— « وأنهاراً » أى وأجرى فى هذه الأرض التى بسطها أنهاراً .

— « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » أى وجعل من كل ثمرة زوجين اثنين ، ذكراً وأنثى . . فالثمرة ـ أىّ ثمرة ـ لا تـكون إلا بالتقاء الذكر والأنثى ، على أية صورة من صور الالتقاء ، سواء فى ذلك عالم النبات ، وعالم الحيوان ، وعالم الإنسان . . فـكل مولود هو ثمرة هذا اللقاء ، كل ثمرة هى المولود الذى تولّد من الذكر والأنثى !

— « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى يُلبِس الليلَ النهارَ ، ويجعله غشاء له ، يجلّله ، ويغطّيه .

— « إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفـكّرُون » .. ففى كل هذا ، آياتٌ ودلائل ، على وجود الخالق ، وعلى قدرته ، وعلمه .. ولـكن هذه الآيات لا تنـكشف إلا لمن وجّه إليها بصره ، وأعمل فيها فـكره .. أما من أعرض عنها ، وأغلق عقله وقلبه دونها ، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء ، لا تنطق بشيء ، ولا تحدّث عن شيء !

* قوله تعالى : « وفى الأرض قِطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وَزَرْعٍ ونخيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بعضها على بعض فى الأُكُلِ إنَّ فى ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

أى فى هذه الأرض ، وفى أية رقعة محدودة منها ، نظر لناظر ، وعبرة لمعتبر.

— « وفى الأرض قطع متجاورات » أى يجاور بعضها بعضاً ، ولكنها تختلف وجوهاً ، وتتباين صوراً وأشكالًا .. فبعضها جديب ، وبعضها خصيب ، وقطع منها مياه ، وقطع أخرى يابسة ، وجوانب منها عشب وزروع ، وجوانب أخرى حدائق وبساتين .

— « وجناتٌ من أعناب » أى من قطع الأرض ، جناتٌ من أعناب .

— « وزرْعٌ » أى ومن قطع الأرض كذلك ، زرع ، من حبوب وغيرها .

— « ونخيل » أى ومن هذه القطع أيضاً : نخيل .

— « صنوان وغير صنوان يسقى بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّـلُ بعضها على بعضٍ فى الأُكُلِ » أى هذه النخيل بعضها « صنوان » أى كل نخلتين يخرجان من أصل واحد ، أشبه بالتوائم فى عالم الإنسان .. « وغير صنوان » أى كل نخلة قائمة بذاتها .. « يُسْقَىٰ بِمَاءٍ واحد » أى كل هذه الأنواع من النخيل يسقى بماء واحد ، هو هذا الماء الذى تروى منه الكائنات الحيّة ، من نباتٍ وإنسان وحيوان .. ومع هـذا فقد اختلفت ألوان ثمارها ، وتعددت طعومها ، ومذاقاتها ، فكان بعضها أفضل من بعض ، فى طعامه ومذاقه : « وَنُفَضِّلُ بعضها على بعض فى الأُكُلِ » .

— « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » أى إن فى هذه الآيات المبثوثة فى كل مكان لآيات ودلائل تشهد بقدرة الخالق ، وتحدث عن علمه وحكمته ، ولكن ذلك لا يقع إلا لمن كان لهم عقول ، تفرق بين المحسوسات ، إذ كانت

تلك الآيات من الظهور والبيان ، بحيث لا تخفى على أى إنسان له مَسْكة من عقل .. فكل إنسان احتفظ بإنسانيته قادر على أن يوجّه عقله إلى تلك الآيات، وينتفع بها فى التعرف على خالقه . .

ولابد من وقفة هنا ، مع أسلوب هذا العرض المعجز لآيات الله . .

فقد جاء العرض على أسلوب من التربية الحكيمة العالية ، التى تلتقى مع العقل فى جميع مستوياته ، وعلى مختلف أنماط تفكيره . .

فقد بدأ العرض بالسموات ، مجملة من غير تفصيل .. هكذا .. « الله الذى رفع السموات بغيرِ عمدٍ ترونها .. ثم استوى على العرش »

وفى السموات ، وفى هذا الملكوت الذى يَقْصُرُ الطرف عنه ، ويضيق الخيال عن تصوّره ، منطلق لجميع العقول ، ومَسْبَح لكل المدركات . وهيهات أن يكون إنسان ، لم يرفع بصره إلى هذا الملكوت ، ولم يسرح بخياله مع شموسه وأقماره وكواكبه ، ونجومه !

ثم يمسك القرآن ـ بعد هذا العرض العام للعالم العلوى ـ بظاهرتين بارزتين من مظاهر هذا العالم ، وهما الشمس ، والقمر ، ففيهما مجال لنظر الناظرين ، وتدبر المتدبرين .. ذلك أنه إذا غفل الإنسان الغافل الجهول ، عن الوقوف على ما فى السموات من آيات بيِّنات ، تحدِّث عن قدرة القدير ، وحكمة الحكيم ، وعلم العليم ـ فإنه لن يستطيع ـ ولو حاول ـ أن يغمض عينيه عن الشمس والقمر، اللذين يملآن عليه وجوده .. وفى هذا يقول سبحانه: « وسخّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمًّى »

ثم يتحرك العرض إلى مستوّى دون هذا المستوى . . فينتقل العرض من السماء إلى الأرض . وذلك لأنه إذا كان فى الناس ـ وكثير ما هم ـ من لا يرى

فى ملكوت السموات ، وما فيهن ، من شمس وقمر ، ونجوم ، فلينظر إلى هذه الأرض التى يدبّ عليها ، فيقول سبحانه :

« وهو الذى مدّ الأرض . .

« وجعل فيها رواسِىَ وأنهاراً . .

« ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . .

« يُغْشى الليلَ النهارَ . .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

وهنا على هذه الأرض معارض مختلفة ، تتفاوت فيها أنظار الناظرين . . فبعض الأنظار تقف على حدود النظرة الملقاة على هذه الأرض ، فلا ترى إلا آفاقاً فسيحة ممتدة تتحرك عليها أشياء ، أشبه بالأطياف ، لا تتبيّن العين منها شيئاً . . على حين تنفذ بعض الأنظار إلى مدارج النّمال وأفاحيص القطا . فترى فيها من عظمة القدرة ، وجلال العلم ، وروعة الحكمة ، مايملأ القلب خشوعاً ، وولاء ، وحمداً للخلّاق العظيم .. رب العالمين ..

فهذه الأرض المبسوطة على امتداد البصر .. تقف عندها بعض الأنظار ولا تتجاوزها .. وهذه الجبال الراسية عليها .. هى أبرز ما على هذه الأرض .. تعلق بها الأنظار ، وتمسك بها ..

ثم هذه الثمار .. التى هى معاش الإنسان .. إن لم يلتفت إليها ببصره ، ألجأته الحاجة إلى أن يسعى إليها بقدمه ، ويقلّب وجوه الأرض باحثاً عنها بيده !

وهذا الليل الذى يَغْشى النهارَ ويلبسه ، ويحيل بياضه سواداً ، ونوره ظلاماً — هذا الليل يشدّ الأبصار شدًّا إليه ، لتتلمّس طريقها فيه ، وترصد المخاوف التى تطلع عليها منه ..

وهكذا ، إذا استطاع الإنسان أن يُفلت من النظر إلى واحدة من تلك الموجودات ، لم يستطع أن يُفلت من أخرى .. فإن لم يجىء إليها اختياراً أجاءته إليها اضطراراً . .

ثم لا يقف الأمر عند هذا ..

فهناك معارض بين يدى الإنسان ، وتحت قدميه ..

* « وفى الأرض قطع متجاورات . .

« وجنات من أعنابٍ ..

« وزرع ..

« ونخيل صنوان وغير صنوان .. يُسْقَى بماء واحدٍ ونفضّل بعضها على بعض فى الأكل .. إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون .. »

ففى هذا معارض متعددة .. يعيش فيها الإنسان بكيانه كلّه ، ويلقاها بحواسّه جميعاً .. البصر ، والشمّ ، والذوق ، واللمس .. شأنه فى هذا شأن الحيوان .. فإذا لم يكن وراء هذه الحواس عقلاً يدرك ، فقد خرج الإنسان من عالم البشر إلى عالم الحيوان ، ولم يكن أهلاً للخطاب ، والتكليف !

تلك هى دعوة الإسلام للعقل ، كى يتعرف على الله ، ويسلك سبيله إليه ، بالنظر فى ملكوته ، والتدبّر فيما أبدع وصوّر .. وإن العقل ـ على أى مستوى ـ لن يخطئه الطريق إلى الله ، إذا هو وقف بين يدى تلك الآيات ، متجرداً من الأهواء الفاسدة ، والموروثات الضالة ، وأعطى لنفسه الحقّ فى الاستقلال بعقله ، والإصغاء إلى صوت ضميره ..

الآيات : (٥ — ٧)

* « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ

جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » (٧)

التفسير :

من أبرز الأمور التى ضلّت عنها أبصار المشركين ، وزاغت عنها عقولهم ، ولم يمسكوا بخيط من خيوطها ، وهم يدورون بأبصارهم فى هذا الوجود ـ أمر البعث ، الذى لم يتصوروه ، ولم يجدوا له مساغاً فى عقولهم ، فأنكروه أشدّ الإنكار ، ورأوا أنه مما يستحيل وقوعه .. إذ كيف يبعث الإنسان بعد أن يموت ، ويتحول إلى تراب فى هذا التراب ؟ تلك هى مضلّتهم ، ومثار الوسوسة والبلبلة التى تضطرب فى عقولهم ، من أمر البعث.. فلو أنهم سلّموا بالبعث ، لنازع هذا التسليم ، بل وانتزعه من عقولهم ، هذا الفهمُ السقيم لقدرة الله ، التى يبدو لأنظارهم الكليلة منها ، أنها أعجز من أن تعيد الحياة فى هذا التراب الهامد ، وتبعث الموتى من قبورهم على الحال التى كانوا عليها ، بعد أن أبلاهم البِلَى ، وأكلهم التراب ! ولهذا كان ذلك منهم مثاراً للعجب والدّهش ، من ذوى العقول ، وأصحاب النظر والفهم .. وفى هذا يقول الله تعالى لنبيّه الكريم :

* « وإن تعجبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهم أإذا كنّا تُراباً أئِنّا لفى خَلْقٍ جديد » ..

أى إن تُرِد ـ أن تعجب وتدهش وإن أحببت أن تسمع من القول مايثير العجب والدهش ، فاستمع لهذا القول الذى يقوله هؤلاء المشركون : « أإذا كنّا ترابا أإننا لَفِى خلقٍ جديد ؟ »

وقد جاء هذا القول منهم فى صورة هذا الاستفهام الإنكارى ، للإشارة إلى أنه كان سؤالا مُرَدَّدًا بينهم ، يُلقى به بعضهم إلى بعض ، فى تساؤل منكر ، وفى استفهام خبيث : « أإذا مِتْنَا وكنَّا تُرابًا أإِنّا لَفِى خَلْق جديد ؟ » ولا يجدون جوابًا لهذا إلا زرّ العيون ، أو زمّ الشّفاه ، أولَىّ الألسنة.. تحدّث بما فى قلوب القوم من سخرية واستهزاء !

* « أولئك الذين كفروا بربِّهم وأولئك الأغلالُ فى أعناقِهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وهذا هو الردّ المفحم على هذه السخرية ، وذلك الاستهزاء ..

إنهم كفرة بالله .. وليس للكافرين عند الله إلا النَّارُ ، يُجرُّون إليها كما تُجَرّ الحمر المستنفرة ، قد أخذ صائدها بقودها .. « يوم يُسحَبُون فى النّار على وجوههم ذوقوا مَسّ سَقَر » (٤٨ : القمر) .

وفى تكرار الإشارة إليهم .. « أولئك الذين كفروا بربهم .. وأولئك الأغلال فى أعناقهم .. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ـ فى هذا التكرار ، فضحٌ لهم على رءوس الأشهاد ، وشدٌّ للوثاق الممسك بهم من أعناقهم ، حتى لا يفلتوا وحتّى لكأن كل إشارة من تلك الإشارات الثلاث ، طوق من حديد ، يُطوّقون به .. وإن ذلك لَسِمَةٌ من السّمات الدّالة عليهم بين أهل المحشر ، فليس ثَمّةَ شك فى أمرهم ، أو فى التعرف على ذواتهم ، وقد وسِمُوا بتلك السماتِ الفاضحة .

وفى الإشارة إليهم بأن الأغلال فى أعناقهم ، وبأنهم أصحاب النار ، مع أنهم لم يُبعثوا بعد ، ولم يساقوا إلى جهنم بعد ـ حكم قاطع من الله عليهم بهذا ، ولكنه مؤجل التنفيذ إلى يوم البعث .. !

* « ويستعجلونك بالسَّيئةِ قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ من قبلهمُ المَثُلاَتُ .. وإن ربَّك لذو مغفِرةٍ للناس على ظلمهم وإنَّ ربَّك لشديدُ العقاب » .

المَثُلاَتُ : جمع مَثُلة ، وهى الحدث الذى يقع فيكون مثلاً مضروباً ، فى شناعته ، وسوء وقعه ، حيث يستحضره الناس عند كل أمر ، تبدو فيه ملامح لهذا الحدث ، فيكون ذكره مغنياً عن كل وصفٍ .

والواو فى قوله تعالى : « ويستعجلونك » للاستئناف ، بخبر جديد من أخبار هؤلاء المكذبين بيوم البعث ..

— وفى قوله تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » ـ إشارة إلى أنهم لم يقفوا عند حدّ الكفر بالله ، وإنكار يوم البعث ، بل جاوزوا هذا إلى التحدِّى ، إمعانا فى الكفر ، ومبالغة فى الإنكار ، فقالوا ماحكاه القرآن عنهم : « وإذ قالوا اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمْطِرْ علينا حجَارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) . . وهذا من غباوتهم وحمقهم وسفههم .. ولو أنهم كانوا على شىء من العقل والإدراك ، لكان لهم فى باب الأمانىّ الطيبة متسع ، ولما رَمَوْا بأنفسهم فى هذا الوجه المهلك ، الذى إن جاء على غير ما قدّروا ، كان لهم فيه البلاء المبين ، والعذاب الأليم . . وما أنَّهُم لو قالوا : اللهم إن كان هذا هُوَ الحقّ من عندك فاهدنا إليه ، واشرح صدورنا له ؟ . . فإن كان حقًّا أخذوا بحظهم منه ، وعافاهم الله من البلاء . . وإن كان غير حقٍ لم يخسروا شيئاً ؟ ولكنه الضلال الذى يستحوذ على أهله ، فيدفع بهم إلى كل مهلكة ، ومالهم لو أخذوا بقول الرجل المؤمن من آل فرعون : « وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبْكم بعضُ الذى يَعِدُكم » (٢٨ : غافر)

ـ وفى قوله تعالى : « وقد خلت من قبلهم المَثُلاَت » ـ الجملة هنا حالية ، وهى فاضحة لغباوة هؤلاء المشركين ، وما استولى عليهم من ضلال وسفه . .

ذلك أنهم يستعجلون العذاب ، وقد وقع هذا العذاب فعلاً بكثير من الأمم التى سبقتهم ، والتى كانت على مثل هذا الضلال الذى هم فيه .. فلو أنهم كانوا على شىء من العقل والإدراك لكان لهم فى المثلات التى حلّت بالأمم الماضية عبرة زاجرة ، وعظة بالغة .. ولكن أنّى للعُمْى أن يبصروا ؟ وأنّى للسفهاء أن يَرْشُدوا ؟

ـ وقوله تعالى : « وإن ربّك لذو مغفرة للنّاس على ظلمهم وإن ربّك لشديدُ العقاب » عرضٌ لسعة رحمة الله ، ومغفرته لعباده . . فهو يمهلهم ، ويستأنى بهم ، ويدعوهم إليه ، ويفتح لهم باب التوبة والقبول ، فإذا استجابوا له ، ورجعوا إليه ، قبِلَهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، وعَدَل بهم عن طريق الضلال إلى الهدى ، وعن النار وأهوالها ، إلى الجنة ونعيمها . . فهذا من رحمة الله بعباده ، ولو شاء لعَجّل لهم العذابَ ، ولأخذهم بما كسبوا : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّةٍ » (٤٥ : فاطر) . .

وإذا كانت تلك هى رحمة الله ، وذلك هو لطفه بعباده ، فإن مع هذه الرحمة وذلك اللطف بالذين يرجون رحمته ، عقاب راصد ، عذاب شديد للذين يحاربون الله ، ويحادّون رسله ، وينأوْن بأنفسهم عن مواقع رحمته ومغفرته . . وذلك هو حكم الله فى عباده . . « للذين أَحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهَقُ وجوهَهم قَتَرٌ ولا ذِلّة أولئك أصحابُ الجَنّةِ هُمْ فيهَا خالدون * والّذين كسَبُوا السّيئَاتِ جَزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلّةٌ ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوهُهم قطعًا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢٦ ـ ٢٧ يونس)

* « ويقول الذين كفروا لَولاَ أُنْزِلَ عليه آيَةٌ من ربّه إنما أنتَ منذر ولكل قوم هاد »

ومن منكرات هؤلاء الكافرين ، أنهم يُغمضون أعينَهم ويُصِمّون

آذانهم عن آيات الله وكلماته ، فلا يرون فيها شواهد صدقها ، وصدق الرسول الذى جاءهم بها ، بل يتصايحون بهذا القول المنكر : « لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربه ؟ » .. والآية التى يريدونها ، هى آية مادية من تلك الآيات التى كانوا يقترحونها على النبى ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وقالوا لن نؤمنَ لكَ حتّى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنْبوعاً * أو تكون لكَ جنّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتفجّرَ الأنهار خلالَها تفجيراً * أو تُسقِطَ السّماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه » وقد تلقى الرسول من ربه هذا الرد المفحم لهم . . « قل سبحانَ ربّى هل كنت إلا بشراً رسولا » (٩٠ ـ ٩٣ : الإسراء) .

فهذه الآية التى يقترحونها هنا هى واحدة من تلك الآيات ، وهى قولة من أقوالهم التى كانوا يردّدونها فيما بينهم .. وقد ردّ الله عليهم بقوله :

— « إنما أنت منذِر » وفى هذا التفات للنبىّ الكريم ، وخطاب كريم له من ربّه ، يُواسيه ، ويخفف مابه من ضيق ، لهذا العنت الذى يلقاه من قومه . .

— « ولكل قومٍ هادٍ » هو الرسول الذى يرسله الله إليهم ، ليدعوهم إليه ، ويسلك بهم مسالك الخير والهدى . . فتلك هى وظيفة الرسول فى قومه كما يقول سبحانه وتعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم » (١١٩ : البقرة)

وفى تقديم قوله تعالى : « إنما أنت منذر » على قوله سبحانه : « ولكل قوم هادٍ » تهديد ووعيد لهؤلاء المعاندين ، الذين لجّ بهم العناد ، واستبدّ بهم الضلال ، فركبوا رءوسهم ، ولم يَعُدْ ثمّةَ وجه لهم إلا أن ترفع فى وجوههم راية الإنذار ، وأن يساق إليهم ريح من لفح جهنم !

الآيات : (٨ — ١٥)

* « ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ » (١٥)

التفسير :

تعود الآيات مرة أخرى إلى استعراض قدرة الله ، بعد هذه الوقفة الفاضحة المشركين ، ولمقولاتهم المنكرة ، التى يستقبلون بها آيات الله ، ويلقون بها رسول الله .

وفى هذا الاستعراض تتكشف مظاهر كثيرة لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وتمكّن سلطانه فى هذا الوجود ، وإحاطة علمه بكل شىء فيه . .

* « الله يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تغيض الأرحامُ وما تزداد وكل شىء شىء عنده بمقدار »

تغيض الأرحام : أى تضع ما فيها من حمل .. يقال غاض ماء البئر ، أى ذهب وجفّ . .

فهذا مظهر من مظاهر قدرة الله ، وسعة علمه .. فهو سبحانه يعلم ما تحمل كلُّ أنثى ، وما تضع من مواليد وما يتخلّق فى الأرحام من أجِنّة . .

وفى التعبير عن وضع الحمل بالغيض ، إشارة إلى أن الرحم حين يشتمل على الجنين ، إنما يحمل فى كيانه حياة ، بها تزهو الحياة وتعمر الدنيا ، كالماء الذى به تحيا الأرض ، وتزدهر وتثمر . . فإذا سكن الجنين إلى الرحم ، زاد الرحم ونما ، وامتلأ ، وإذا ولد الجنين ، غاض الرحم ، وانكمش . .

وقُدّم غَيْضُ الأرحام على زيادتها ، لأن ملاحظة الغيض للرحم أظهر للعين ، حيث يبدو فى تمام الحمل على صورة واضحة ، ثم إذا وُضع الجنين تبدل الحال .

— وفى قوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » إشارة إلى أن هذا العلم الإلـهى ، علم قائم على حكمة ، وعلى تقدير وتدبير ، وليس علماً جُزافاً ، فهو مع إحاطته بكل شىء ، ضابط لكل شىء ، ومقدّر لكل أمر قدْره . . وهذا هو الفرق بين علم الله ، وعلم العالمين ، فإذا كان فى العالمين من يعلم ما فى الرحم . . فإنه لا يعلم ما فى الأرحام جميعها فى هذه الدنيا كلها ، ولو احتشد لذلك العلماء ، وتوفروا له بكل ما وضع العلم فى أيديهم من وسائل . . ولو فُرض أنهم علموا

مافى أرحام الآدميين جميعاً ـ وهذا هو المحال ـ فأنّى لهم أن يعلموا مافى عالم الحيوان ؟ . « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » .

وفى إحاطة علم الله تعالى بالحمل الذى تحمله كل أنثى إشارة إلى نفوذ علم الله إلى خفايا الأمور ، وأنه سبحانه يتولى هذه الأجنّة ، إيجاداً ، وحفظاً ، داخل الأرحام وخارجها .

فعلم الله سبحانه وتعالى علم شامل ، كامل ، لأنه علم الخالق ، المبدع ، المصور . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى بعد هذا .

* « عالمُ الغيبِ والشهادة الكبيرُ المتعالِ » . . فذلك هو علم الله سبحانه ، علم شامل كامل . . يعلم مابطَن وماظهر ، وما كان غائباً عن حواسنا ، وما كان مشهوداً لها . فهو سبحانه « الكبير المتعال » الكبير الذى وسع كرسيه السموات والأرض ، « المتعال » الذى علا بسلطانه على كل ذى سلطان ، وبعلمه على كل ذى علم .

* « سَوَاءٌ منكم من أسرّ القول ومن جَهَر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار » .

فالله سبحانه ، فى كبريائه ، وفى علوّه ، محيط بكل صغيرة وكبيرة فى الوجود . . يتساوى لديه فى ذلك بعيد الأمور وقريبها ، خفيها وظاهرها ، إذ لا قُربَ ولا بعد عند من احتوى الوجود كله ، ولا خفاء ولا ظهور لدى من ملك الأمر جميعه : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . وهو بكل شىء عليم » (٣ : الحديد) .

فمن أسرّ القول كمن جهر به . . الله يعلم سرّه ، علمَه لجهره : « وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خَلَق وهو اللطيف الخبير » (١٣ — ١٤ : الملك) .

ومن تدثّر بالليل واستتر به عن العيون ، كمن هو سارب : أى متحرك ، بالنهار . . الله يراه فى ظلمة الليل ، كما يراه فى ضوء النهار . . « لاتدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير » .

* « له معقبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . . » .

أى إن لهذا الإنسان الذى يُسرُّ القول ويخافت به ، أو يظهره ويجهر به ، أو يحتجب عن الأنظار فى ظلمة الليل أو يتحرك بين الناس فى وضح النهار — هذا الإنسانُ مُوَكّل به من قِبَل الله ، جندٌ يحفظونه ، ويحرسونه ، ويرصدون كلّ نفَسٍ يتنفّسه ، وكلّ خاطر يخطر له ، أو طَرْفة عين يطرفها ، أو خفقة قلب يخفقها . . إنه حيث كان ، وعلى أى حال كان ، هو تحت هذه المراقبة التى لاتغفل ، وبين هذه الحراسة التى لاتنام . . فأنّى له أن يَخلُصَ إلى نفسه ، أو يخلو إلى وجوده ، دون أن ترقبه هذه العيون الراصدة المتعقبة له ؟

— وفى قوله تعالى « معقّبات » إشارة إلى أن هؤلاء الجند ، يرون الإنسان من حيث لا يراهم ، وأنهم أشبه بمن يتبع الإنسان من وراء عَقِبه ، دون أن يراه أو يحسّ به ، وهم — مع هذا — بين يدى الإنسان ومن خلفه .

— وقوله تعالى : « يحفظونه من أمر الله » . . أمر الله هنا ، معناه تقديره ، وحكمه ، كما يقول سبحانه : « ألا له الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف) والمعنى : أنهم يحفظونه بما أُمروا به من تقدير الله ، وحكمه ، وقضائه فى عباده . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » (٢ : النحل) . . وقوله سبحانه : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » (٥٢ : الشورى)

* وقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فى هذه الآية الكريمة أمور :

— ففى قوله تعالى فى أول الآية : « له معقباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » مايشعر بأن الإنسان واقع تحت قوًى خفية مسلطة عليه من الله ، وأنه مقهور مغلوب على أمره بحكم هذه القوى الخفية المتعقبة له . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله لايغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » مايدفع هذا الشعور ، الذى يقع فى نفس الإنسان ، من تعقب هذه القوى الخفية له . . فالإنسان ذو إرادة عاملة ، يجدها دائمًا معه ، ولايجد لهذه القوى الخفيّة أثرًا ماديًا يحول بينه وبين مايريد . . فهذه القوى إنما هى أشبه بالآلات المصورة ، أو المسجّلة . . تصور مايقع ، وتسجّل مايحدث ، دون أن تتدخل فى مجريات الوقائع أو الأحداث .. فالإنسان هو الذى يجريها كما يشاء ، ويحدثها كما يريد ! .

ومعنى هذا ، أن الناس عمومًا هم الذين يكتبون أقدارهم ، ويشكلون وجودهم ، ويختارون الطريق الذى يسيرون فيه ! .

وعلى هذا ، يكون معنى قوله تعالى : « إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هو إطلاق لإرادة الإنسان ، وأن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان حرّية الحركة والعمل حيث يشاء ، وكما يريد ، حسب تفكيره وتقديره ، وأن مايفعله يُمضيه الله سبحانه وتعالى له : « إن الله لايغيّر مابقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » .. فالناس يبذرون الحب .. والله سبحانه وتعالى يعطيهم ثمر مابذروا .. إن حُلوًا ، وإن مرًّا ..

وفى تعليق تغيير أحوال الناس بتغيّر ما بأنفسهم ، إشارة إلى أن النفس الإنسانية هى جهاز التفكير ، والتقدير ، ومركز الإرادة والتوجيه ، وأنها

هى السلطان الآمر للإنسان ، والموجّه لـكل أعماله وأقواله ، فإذا غيَّرت النفس اتجاه مسيرها ، تغيّر تبعا لذلك سير الإنسان فى الحياة .

وفى إضافة التغيير إلى الله سبحانه وتعالى ، إشارة إلى أن إرادة الله سبحانه وتعالى هى التى أجرت هذا التغيير ، الذى أحدثه الإنسان ، كما أنها هى التى حركت إرادة الإنسان نحو هذا التغيير . .

ومعنى هذا ، أن إرادة الله سبحانه وتعالى ، إرادة شاملة ، تدخل فى محيطها كل إرادة ، فلا إرادة لمريد، إلا تبعٌ لهذه الإرادة . . وأن إرادة الإنسان إرادة متحركة عاملة ، فى محيط إرادة الله العامة الشاملة . . ولـكنها لاتخرج فى تحركها وعملها عن إرادة الله . . ! وفى هذا يقول الله سبحانه : « لله الأمر من قبل ومن بعد » (٤ : الروم) ويقول سبحانه : « وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (٢٩ : التـكوير) .

* قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقومٍ سوءًا فلا مَرَدّ له ومالهم من دونه من والٍ » ـ هو تقرير لشمول الإرادة الإلـهية وعمومها ، وأنها إرادة نافذة ماضية ، وأن إرادة الناس لاتتحدّى إرادة الله ، ولا تحول بينها وبين أن تُمضى ماقضت به ، وليس للنّاس فيما يقضى به الله ويريده من ولىٍّ ينصرهم ، ويدفع مايريد الله بهم من سوء .

هذا ، مع أن للإنسان إرادته ومشيئته ، التى يجدها ، ويملك أموره بها ، دون أن تعطل إرادةُ الله العامة الشاملة إرادتَه ، أو تـكرهه على أمرٍ لايريده ، فإن تعطلت إرادته ، أو وقعت تحت سلطان قاهر لها ، رفع عنه التـكليف . . أو بمعنى آخر زالت عنه فى تلك الحال صفة الإنسان ، المريد المختار . .

وقد عرضنا لبحث هذه القضية ، من قبل ، فى مبحث خاص ، تحت

عنوان : (مشيئة الله ، ومشيئة الإنسان) عند تفسيرنا لقوله تعالى : «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » (١١١ : الأنعام) . .[1]

* قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرْق خوفاً وطَمَعاً وينشىء السّحابَ الثّقالَ » ـ هو عرض لمظهر آخر من مظاهر قدرة الله وهو أنه سبحانه وتعالى ، هو الذى ينشىء هذه السحب الثقال ، المحملة بالماء الغزير ، ويسيّرها فى جوّ السماء ، كما يسير السّفن على الماء ، وأنه سبحانه يرسل من بين تلك السّحب بروقاً لامعة ، هى إشارة سماوية تشير إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، حيث تنطلق تلك الشرارات النارية الملتهبة ، من هذا الماء الذى تحمله السحب .. !

— وفى قوله تعالى : « خوفاً وطمعاً » إشارة إلى أن هذه البروق الراعدة تثير فى النفوس مشاعر مختلفة مختلطة .. فيخافها بعض الناس ، ويخشى أن تكون صواعق مرسلة بالهلاك ، كما يقول سبحانه وتعالى بعد ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » . . على حين يرجوها بعض الناس ، وينتظر الغيث الهاطل من ورائها . .

وإلى هذا المعنى ذهب أبو الطيب المتنبّى حين يقول :

فتًى كالسحاب الجوْن تُخْشَى وتُرْتجَى يُرْجَى الحَيَا منها وتُخشى الصّواعق

* قوله تعالى : « ويسبّح الرّعْدُ بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » ..

المحال : الحوْل ، والطوْل ، والقوة .

والمعنى : أن هذا الرّعد الذى ينطلق من السّحب ، مدويًا هذا الدوىّ

---

(١) انظر ص : ٢٦٢ من الكتاب الرابع ـ تفسير الجزء الثامن.

الذى يملأ الآفاق ، هو صوتٌ منطلق فى الوجود ، بين يدى تلك السحب المحملة بالغيث ، ينادى بحمد الله ، ويهتف بكل موجود أن يصحوَ من نومه ، ويُفيق من غفلته ، ليستقبل هذه الرحمة المرسلة بحمد الله ، والشكران له ، على ماساق إلى عباده من نعم !

وفى جعل « الرعد » مسبِّحاً بحمد اللهِ إشارة إلى أن الرّعد دائماً يصحبه المطر ، وهذا يعنى أنه يبشر بتلك النعمة، ويزفّ إلى من يسمعون هذا الصوت ، أن رحمة الله قريبٌ منهم ، إذ كان من شأن الرعد أن يتبعه المطر دائماً .. وليس كذلك البرق ، الذى قد يصحبه مطر ، وقد لا يصحبه ، وهو الذى يسمّى البرق الخُلّب ، أى الذى يخدع ، حيث يُوعد بأن وراءه مطراً ، ثم يُخلف هذا الوعد . .

وليست الإشارة إلى تسبيح الرعد ، إلا إلفاتاً للإنسان ، ودعوة له إلى أن يسبّح ربه ويحمده ، وإلاّ ، فإنّ كل شىء يسبح بحمد الله دائماً ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحهم » .

وقوله تعالى : « والملائـكة من خيفته » معطوف على قوله تعالى « الرعد » أى يسبح الرعد بحمد الله ، وتُسبّح الملائـكة من خيفته ، أى من خوف ربّهم ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « يخافون ربّهم من فوقهم » (٥٠ : النحل) . .

— * قوله تعالى : « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحال » . . الضمير « هم » يُراد به المشركون بالله ، الذين لا يرجون رحمة الله ، ولا يخشون عذابه . فلا يَحمدون الله على تلك النعم التى أفاضها عليهم ، مع أن هذه النعم ذاتها تسبّح الله وتحمده ، أن جعلها رسولَ خيرٍ للناس ، ومصدرَ حياةٍ لهم . .

فكيف لايحمدها ، ولا يشكر لله من أجلها ، مَن كانت حياتهم معلقة بها ، ووجودهم رهن بوجودها ؟ أليس ذلك ضلالاً وسفهاً وكفراً ؟ وبلى .. إنه الضلال والسفه والكفر !

ثم إذا كان الملائكة ، وهم ماهم عند الله .. يخافون ربّهم ، ويسبحون بحمده ، ويشكرون له ، فكيف بهؤلاء المشركين الضالّين .. لايخشون الله ، ولا يخافون بأسه وعقابه ؟ لقد غرّهم بالله الغَرُور .. إنّهم يجادلون فى الله ، جِدَال مَن ينكره ، ويجحد نعمه ، ويستخفّ بيأسه ! وهو سبحانه آخذٌ بنواصيتهم .. إنه ذو الحول والطول ، شديد العقاب .. لن يُفلتوا منه ، ولن يَخْلُصوا من عقابه .

* « لَهُ دعــوةُ الحقِّ والذين يدعونَ من دونِه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسِطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دُعآء الـكافرين إلا فى ضلال » ..

فى هذا تسفيه لهؤلاء السفهاء الذين يَصْرفون وجوههم عن الله ، فلايدعونَه ، ولا يلجئون إليه ، وهو الحقّ الذى إذا دُعِىَ سَمِـع ، وإذا سُئِلَ أجابَ ، وأعطى .. ولـكنهم يَدْعون من دونه من لايسمع ولا يجيب ! « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة » (٥ : الأحقاف) .

— وفى قوله تعالى : « لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسطِ كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه » .

تصوير كاشف لهذا الضلال الذى عليه هؤلاء المشركون ، وهم يمدّون أيديهم إلى تلك الدُّمَى التى عبدوها من دون الله ، وعلّقوا آمالهم بها ، وانتظروا الخير الذى يرجونه منها .. إنهم لن ينالوا شيئاً .. إنهم مع آلهتهم تلك كمن يبسط يده إلى الماء ، يدعوه إليه أن ينتقل من حيث هو ، حتى يبلغ فاه ، ويرتوى

منه ! وهيهات .. فإن الماء لايسمع له ، ولا يستجيب لدعائه .. « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .. إنه دعاء لايجد له أذنا تسمع ، أو عقلا يعقل ، أو لسانا ينطق !

والسؤال هنا :

كيف كانت المعبودات التى يتخذها المشركون آلهة لهم من دون الله ـ مقابلة فى هذا التشبيه للماء .. مع أن الماء فيه حياة ونفع لمن يتصل به ! ويحسن الوِرْدَ إليه ؟ .. فهل فى هذه المعبودات شىء ، مما فى الماء من خير ونفع ، حتى يقع الشبه بينها وبين الماء ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو أن المنظور إليه فى هذا التشبيه ، هو العابدون لا المعبودون ، وهؤلاء المشركون الضالون ، لا المعبودات التى يعبدونها .. وذلك أنهم فى هذا التشبيه ينكشف سفههم وضلالهم ، وحماقتهم ، وأنهم والماء قريب منهم ، والظمأ يشوى أحشاءهم ، لايعرفون ـ لجهلهم وسفههم كيف ينالون منه حاجتهم ، فيبسطون أيديهم إلى الماء ، ويهتفون به أن يدنو منهم ، ويدخل أفواههم .. !

والحاجة ـ كما يقولون ـ تفتق الحيلة ، وحاجة القوم إلى الماء شديدة ، والوصول إليه ، والارتواء منه سهل ميسور ، يتهدّى إليه الحيوان بفطرته ، ولكنّ القوم قد أفسدوا فطرتهم ، وعطّلوا عقولهم ، فلم يكن لهم ما للحيوان الأعجم من حيلة !

ولو كان المشبّه به ، المقابل للمعبودات ، شيئاً غير مرغوب ومطلوب ، لما وقف القوم منه هذا الموقف الحريص المتلهف ، ولما اشتد بهم الكرب ، واستبدّت بهم الحسرة ، حين طال وقوفهم عليه ، ثم لم ينالوا شيئاً منه !

ومن جهة أخرى .. فإن من بين هذه المعبودات التى يتخذها المشركون

آلهة لهم من دون الله ، مافيه نفع وخير ، كالملائكة ، وبعض الصّالحين ، الذين قيل إن ودًّا وسُواعَ ، ويغوث ، ويَعُوق ، كانوا من صالحى العرب ، فلما ماتوا صنعوا لهم التماثيل ، وأطلقوا عليها أسماءهم ، ثم عبدوهم ..

فالملائكة ، وهؤلاء الصالحون من عباد الله ، ممن عبدهم الناسُ ، أو اتخذوهم شفعاء لهم عنده ـ هم أشبه بهذا الماء ، الذى فيه رىٌّ وحياةٌ ، وأنّ من يسلك سبيلهم ، ويتأسّى بهم ، ويرد موارد التقوى التى وردوها ـ يجد الرىّ لروحه ، والحياة لقلبه .. ولكن المشركين لم يحسنوا التعامل معهم ، والانتفاع بهم ، فهلكوا ، وطريق النجاة دانٍ منهم ، ماثل أمام أعينهم !

* قوله تعالى : « ولله يَسْجُد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال » ..

هو قَهْرٌ للمشركين وإذلال لهم ، وأنّهم من حيث لا يريدون ، ولا يدرون ، هم منقادون لله ، خاضعون له ، إذ كانوا تحت سلطانه القاهر ، وإرادته النافذة .. فهم إذ لم يعبدوا الله اختياراً وولاء ، عبدوه كَرهاً واضطراراً .. وأنهم فى الرّغام ، ومصيرهم إلى النار ، لأنهم عَصوا الله ، وكفروا به ، وأبوْا أن يعطوه ولاءهم مختارين !

وليس هذا شأن المشركين وحدهم .. بل إن الوجود كلّه ، فى سماواته وأرضه ، وما فى سماواته وأرضه ، ساجد لله ، خاضع لعزته وجبروته ، منقاد لإرادته ومشيئته .. فالمراد بالسجود هنا ، الخضوع والانقياد « طوعاً أو كرهاً » !

والوجود كلّه ـ ماعدا الإنسان ـ يسجد لله ، ويخضع لإرادته ، وينقاد لمشيئته « طوعاً » من غير تردد ، إذ لم يكن فيها ـ كما نعلم ـ كائن ذو إرادة ، تضعه أمام أوامر الله ونواهيه بين الإقدام والإحجام ، وبينِ الامتثال ،

والعصيان .. فيطيع وهو مُريد ، ويعصى وهو مُريد .. الأمر الذى ليس لكائن غير الإنسان .. وفى هذا يقول تعالى : « ثم استوى إلى السّماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين » (١١ : فصلت) .

أما الإنسان ، فهو الكائن المُريد ، الذى تقوم فى كيانه قوة موجهة ، هى التى تذهب به يميناً أو شمالاً ، وتقيمه على أمر الله ، أو تخرج به عنه .. فإذا استجاب لأمر الله ، واتبع سبيله كان نَغَماً متجاوبا مع هذا الوجود المنقاد لله طوعا ؛ وإذا لم يستجب لله ، وخرج عن طريق الحق الذى دعاه إليه ، كان نغما شاذاً ، ثم كان فى الوقت نفسه منقاداً لله « كرهًا » .. لأنه واقع تحت سلطان الله ، منقاد لمشيئته .. فما على هذا الإنسان الجهول لو انقاد لله طوعا ، كما هو منقاد كرهًا ؟

— وفى قوله تعالى : « وظلالهم » إشارة إلى أن ظلال هذه الكائنات ، ـ ومنها الإنسان ـ منقادة لله سبحانه وتعالى ، ساجدة لجلاله وعظمته .. فحيثما وقعت أشعة الشمس على كائن من الكائنات ، وقع ظلّه على الأرض .. فكان ذلك منه سجوداً لله ، وولاء له .. إنه لايملك الظل إلا أن يقع على الأرض .

وقوله تعالى : « بالغدو والآصال » .

الغدوّ : جمع غَدْو ، مؤنثه غدوة .. وأصله غُدُووْ . . على وزن فعول فأدغمت الواو فى الواو .. والغَدْو ، والغدوة ، أول النهار . .

والآصال : جمع أُصُل ، والأصل : جميع أصيل .. مثل نذير ونُذُر .. والأصيل آخر النهار ..

وفى قصر سجود الظلال على الغدو والآصال ، عرضٌ واضح لسجود هذه الظلال ، حيث تكون ظلال الأشياء فى أول النهار وآخره ظاهرة ممتدة ، يبدو

فيها ظل الشيء أضعاف أصله ، ثم ينكمش رويداً رويداً ، حتى يقع تحت قدميه عند الزوال ، ثم يبدأ فى الطول شيئاً فشيئا ، حتى يعود كما بدأ أول النهار ، فى طوله وامتداده ، أضعافا مضاعفة . إنها دورة كاملة للظل على الأرض ، أشبه بدورة الأفلاك فى مداراتها ..

وأقرب شيء إلى الإنسان ، وألصق الأشباه به ، هو ظله .. وهذا الظلّ يسجد لله .. فإذا كان الإنسان مؤمنا سجد ، وسجد معه ظله .. وإذا كان كافراً يأبى السجود لله ، فإنه ساجدٌ لله ـ كرها ـ بظله هذا الذى يسجد لله غدوة وأصيلا ، ومابين الغدوة والأصيل .. فهل يستطيع أن يحول بين ظله وبين أن يسجد لله ؟ فليجرب إذن .. وسيجد أنه كما لايملك أن يمنع ظله من السجود لله ، والانقياد لله ، فإنه لايملك نفسه من الانقياد لله ، والخضوع لسلطانه القائم عليه ، فى كل حركة يتحركها ، أو نفسٍ يتنفسه .. وليجرّب مرة أخرى إن كان يستطيع الخروج عن سلطان الله ! وهل يستطيع مثلا أن يعيد نفسه إلى الشباب إن كان شيخا ؟ وهل يستطيع أن يدفع عن نفسه عادية الجوع إذا امتنع عن الطعام يوما أو أياما ؟ وهل يستطيع أن يغلب النوم فلا ينام أبداً ؟ ثم أيستطيع أن يفرّ من الموت الذى هو ملاقيه يوما ؟ أليست هذه ، وآلاف غيرها من الضرورات القاهرة التى تتحكم فى الإنسان ، وتأخذه من مقوده ـ أليست من مظاهر الخضوع لله ، طوعا وكرها ؟ وبلى ! وإن الله سبحانه وتعالى ليقول : « يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمواتِ والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » (٣٣ : الرحمن)

الآيات : (١٦ — ١٨)

* « قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّنْ دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » (١٨)

التفسير :

بعد أن عرضت الآيات السابقة بعض مظاهر قدرة الله ، وقوة سلطانه ، وسعة علمه ، ثم ختمت هذه المشاهد بهذا الحكم الذى ألزم الوجود كلّه ، الانقياد لله ، والولاء له ، طوعاً أو كرهاً ـ جاءت هذه الآيات تخاطب العقل ، وتدعوه إلى الله ، وتضرب له الأمثال الحسية ، ليقيم من منطقها طريقه الذى يستقيم عليه ، فى التهدّى إلى الحقّ ، والإيمان بالله ، وإفراده بالألوهية ، ونبذ الشركاء والأنداد ، التى إذا قايسها العقل بالله ، كانت ضلالاً وكانت هباءً !..

قوله تعالى :

* « قل من رب السموات والأرض ؟ » ..

هذا سؤال ينبغى للعاقل أن يسأله ، وأن يجيب عليه ! .. فإن هذا الوجود

فى سماواته وأرضه ، لابد له من خالق قد خلقه ، وأجرى نظامه على هذا الترتيب المحكم البديع .. فإذا لم يسأل المرء نفسه هذا السؤال ، ولم تَثُر فى نفسه داعيةٌ له ، فها هو ذا السؤال يملأ سمعه .. فماذا يكون الجواب ؟ ومن ضاع منه الجواب بين سحب الجهل والضلال المنعقد على عقله وقلبه .. فهذا هو الجواب حاضر عتيد ..

* « قل الله ! » .. وهذا الجواب هو من بديهية العقل ، كما أن السؤال من بديهية العقل أيضاً .. وعلى هذا ، فإنه حكم لازم ، وقضاء قاطع لا مردّ له ..

وإذن فليكن الحساب والجزاء على هذا الحكم الذى لم يلتزمه المشركون ، ولم يأخذوا أنفسهم به ..

* « قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّا » ؟ .

والاستفهام هنا إنكارىّ ، يضع المشركين فى قفص الاتهام ، والإدانة .. إذ كيف لا يعطون ولاءهم لله ، ولا يخلصون له عبادتهم ، وهو خالق السموات والأرض ، على حين يجعلون ولاءهم وعباداتهم لتلك المخلوقات التى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّا ، والتى هى خلق من خلق الله ، تَدِين له بالولاء ، كما دان له كل مخلوق ؟ إنهم يسوّون فى هذا بين المتناقضات ، ويقولون إن الأعمى والبصير سواء ، وإن الظلمات والنور متعادلان ، وإن الباطل والحق متشابهان .. وإن المخلوق والخالق سيان ! وهذا منطق أحمق سفيه ، لا يقبله إلاّ من عميت بصيرته ، وختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ! ..

* « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ » هذا استفهام إنكارى أيضاً ، يسأل فيه المشركون عن تلك الآلهة التى عبدوها من دون الله ،

أو جعلوها شركاء لله .. أهذه الآلهة تخلق كما يخلق الله ؟ وهل لها فى هذا الوجود شىء خَلَقَته ، حتى يكون لهؤلاء المشركين وجه من العذر حين ينظرون - إن كان لهم نظر - فيرون أن لهذه الآلهة خلقاً خلقته ، وعندئذ يتشابه الخلق عليهم فلا يفرقون بين ماخلق الله ، وما خلق غير الله ، أذلك ما يقع عليه نظرنا إلى هذا الوجود ؟ وهل يستطيع مشرك أن يمسك بنظره مخلوقاً واحداً لهذه الآلهة المعبودة لهم ؟ « يأيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه .. ضعف الطالب والمطلوب » (٧٣ : الحج) فكيف يستوى من يخلق ومن لايخلق ؟ « أفلا تذكرون » ؟ . »

* — « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » . . لم يبق إذن إلا الصيرورة إلى هذا الحكم ، الذى لا حكم غيره ، وهو أن الله هو الخالق لكل شىء .. وأنه « الواحد » المتفرد بالخلق « القهار » الذى له كل مخلوق ، ويخضع لسلطانه كل موجود .. عظيم أو صغير . . فى السماء ، أو فى الأرض . . « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟.. » (٧٨ : النساء)

قوله تعالى :

* « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وَمِمّا يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثلُه ... »

بقدرها : أى بحجمها ، ومقدارها ..

الزبد : الرغوة التى تتكون من السائل حين يضرب بعضه ببعض ، كما يظهر ذلك فى لعاب البعير حين يهدر ويرغو ، أو لعاب الإنسان حين يثور ، ويرمى بالكلام فى اندفاع وقوة ..

والرابى : المرتفع ، ومنه الربوة ، وهى المكان المرتفع..و هذا مثل آخر ضربه الله سبحانه وتعالى للباطل والحق ، وأنهما أمران مختلفان ، اختلاف الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ..

الحق والباطل .. دولة ودولة

فهذا الماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الأودية ـ كلٌّ على قدر ما نزل من ماء ـ فيحمل معه فى جريانه واندفاعه ، غُثاءً ورغوةً وزبداً، فيختلط بالماء، ويعكر صفوه ، حتى ليبدو لعين الغِرّ الجاهل أن ما يراه هو غثاء وزبد ، وأن لا شىء وراء هذا .. ولكن الحقيقة غير ذلك ، إذ أن بطن الوادى ملء بالماء ، مُترعٌ بالخير ، وإن هذا الزبد إن هو إلا سحابة صيف لاتلبث أن تنقشع ، ولا يبقى إلا ماينفع الناس من ماء تفيض به الأنهار ، وتتفجر منه العيون ، وإذا هو حياة يَرِدُها الناس فتمسك حياتهم ، وحياة كل حىّ ! ..

هذه صورة واقعة فى الحياة ، يراها الناس جميعاً .. بَادِيهم وحاضرهم ، جاهلهم وعالمهم ..

وهناك صورة أخرى تشبه تلك الصورة ، قد لا يشهدها إلا أهل العلم والصناعة ، ولكنها على كل حال صورة لا تغيب عن المجتمع الإنسانى أبداً ، وهى تلك المعادن التى تسلط عليها النار ، فتنصهر ، وتتحول إلى مادة سائلة، أشبه بالماء ، حيث يستطيع الصانع أن يشكل منها ما يشاء من آنية ، وحُلىّ ! ..

فهذه المعادن حين تنصهر تحت حرارة النار ، يعلو سطحَها زبد أشبه بالزبد الذى يعلو سطح الماء المندفع بقوة الجريان من السيل المتدفق ، وإن هذه الرغوة التى تعلوا وجه المعدن المنصهر هى خبث يلقى به بعيداً عن جوهر المعدن حتى

يخلص للطرق والصقل ، ويصبح آنية نافعة ، أو حلية ثمينة معجبة ..

* — « كذلك يضرب الحق والباطل » أى يضرب بعضهما ببعض ، فى هذا الصدام الذى بين أولياء الحق ، وأتباع الباطل ، فينشأ من هذا الضرب ، وذاك الصراع « زبد » .. « فأما الزبد فيذهب جفاءً » أى يُرْمىَ به بعيداً ، فى جفاء وكرهٍ .. « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » أى ما ينفع الناس من الماء ، ومن المعادن هو الذى يبقى ، ويعيش مع الناس — ويكون سبباً فى حياتهم .. كالماء ، أو سبباً فى تمكنهم من أسباب الحياة ، ورفهها ونعيمها كالمعادن التى تصاغ منها الآنية والحلىّ ..

فالصراع الذى يقع بين الحق والباطل ، يثير فى الحياة غباراً ، ودخاناً ، يعكر من صفو الحياة حتى ليبدو لأول نظرة أن غير هذا الصراع أولى بالناس ، ولكن تلك هى سنة الحياة ، إذ كان من شأن الباطل دائماً أن يتحكك بالحق وأن يعترض سبيله ، وكان على الحق أن يعمل على الخلاص منه ، حتى يصفر وجهه ، ويتمكن الناس من الانتفاع به .. تماماً كما ينتفعون بالماء بعد أن يدور دورته ، ويخلص من الزبد الذى عاق به ! ! .

والذين يشهدون الصراع الدائر بين الحق والباطل ، ويرصدون مواقع القتال بينهما ، وما يقع من انتصارات وهزائم — هؤلاء قد يرَوْن للباطل دولة ، دونها دولة الحق ، ويروْن للمبطلين ، صولة ، دونها صولة المحقّين ، ومن أجل هذا نجد كثيراً من الناس يَضيقون بالحق ذرعاً ، ولا يصبرون على المكاره فى سبيل الانتصار له والدّفاع عنه.. وهؤلاء قد فاتهم أن هذه المكاره التى تحفّ بالحق ، هى الثمن الذى يؤديه أصحاب المثلُ العليا ، والنزعات الطيبة لما يجنون من ثمرات مباركة ، هى غذاء الأرواح ، وزاد القلوب ، وهى التى تلد الرجال ، وتربّى للإنسانية قادتها الراشدين ، وزعماءها المصلحين ..

فليس بمنكور أن يُهزم الحق فى معاركه مع الباطل .. فالحق والباطل فى صراع متلاحم لاينتهى أبداً .. فينتصر هذا مرة ، وينتصر ذاك أخرى ، حتى يظل هذا الصراع دائما ، لاتنقطع موارده ، ولا تنطفىء ناره .. ولو كان النصر لأحدهما على الآخر ضَرْبَة لازب ، لانتهى الصراع القائم فى هذا الوجود من من أول معركة ، ولكانت الحياة وجهاً واحداً .. حقاً أو باطلاً .. ولو كان هذا لسكن ريح الحياة ، ولخمدت جذوة الكفاح التى تدفع موكب الحياة فى قوه وانطلاق ، فيتولد من هذا الاندفاع كل ما أقام الإنسان على هذه الأرض من مدنية وعمران ..

إن الحياة فى هذا الكوكب الأرضى محكومة بهذا الصراع الأبدى ، بين قوى الخير والشر ، والحق والباطل .. فى ميزان ، تتراجح كفتاه ، وتضطربان هكذا أبداً ..

وهزيمة الحق فى أروع مظاهره ، وأكمل كمالاته ، ليست بالتى تنقص من قدره ، أو تقلل خطره ، أوتحمل أتباعه على الشك فيه ، أو الجفوة له .. فالحق وإن بدا أنه خسر المعركة فى بعض معاركه مع الباطل ، فإن هـذا لا يعنى أنه هزم ، وأسلم يده للباطل وأهله .. وإنما ينهزم الحق حين تنهزم مبادئه فى نفس أهله ، وتخف موازينه عندهم .. فذلك هو ميدان المعركة بين الحق والباطل ... فما دامت قلوب أهل الحق عامرة به ، وما دامت أرواحهم متعلقة بالحياة معه والعيش فى ظله ، فإنه لن يهزم أبداً ، ولو خسر معاركه فى ميدن الحرب والقتال ، وفيما يتقاتل من أجله الناس ، من متاع الدنيا وزخرفها ..

يقول الفيلسوف « جون ستيوارت » : إن من السخافة أن يتوهم المرء أن الحق لا لشىء سوى أنه حق — يشتمل على قوة غريزية ، ليست موجودة فى الباطل ، من شأنها أن تمكن الحق من التغلب على ضروب العقاب والتنكيل ..

إذ الحقيقة الواقعة أن مقداراً كافياً من العقوبات القانونية أو الظلم الاجتماعى جديرة بأن تحول دون انتشار الحق !..

ثم يقول الفيلسوف :

« ولكن الفضيلة الصادقة التى يتميز بها الحق ، هى أنه يمكن إخماده ، مرة ، ومرتين ، ومرّات ، غير أنه لابد ـ على مدى الدهور ـ من أن يظهر أناس يعاودون استكشافه المرة بعد الأخرى ، حتى يوافق ظهوره فى إحدى المرات ظروفاً ملائمة ، فيفلت من الاضطهاد ، ويجمع من الأنصار ما يمكنه من الثبات »

يريد هذا الفيلسوف أن يقول : « إن للحق أصولا مستقرة فى ضمير الإنسانية ، وأن هذه الأصول ، وإن حجبتها قوى الشرّ والبغى ، وغامت على شمسها سحب الضلال والزيغ ، فإنّ جوهرها النقىّ لاينال من ذلك شىء ، بل يظل هكذا على نقائه ، وصفائه ، وكرمه ، حتى تجىء الظروف المناسبة ، التى تُجلّى عن وجه الحقّ ماغَشيه من ضبابٍ ، وما خيّم عليه من ظلام .. وذلك إما بقوة تنبعث من كيان الحق ، كما تنبعث الحرارة من الشمس ، فتبدّد السحب والغيوم ، وإما بأن تنحلّ قوى الباطل من تلقاء نفسها ، فيذبل عُوده ، وتجف أوراقه ، كما تموت نبتة السوء ، وتصبح هشيما تذروه الرياح .. « كذلك يضرب الله الحقّ والباطل .. فأما الزَبَدُ فيذهب جُفَاء وأما ماينفَعُ النّاس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

والحق دائماً ثقيل الوطأة على الناس ، إلا من رزقهم ـ سبحانه ـ الإيمانَ الوثيق ، والعزم القوىّ ، وأمدّهم بأمداد لاتنفد من الصبر على المكاره ، والقدرة على احتمال الشدائد ، إذ الحق ـ فى حقيقته ـ مغالبة لأهواء النفس ، وقهر لنزعاتها ، وإيثار للآخرة على الدنيا ، وذلك من شأنه أن يجعل الإنسان فى حرب متصلة مع نفسه ، وما فيها من أهواء ونزعات ، حتى إذا أقامها على الحق

وصالحها عليه ، وأسلم زمامها له ـ كان عليه أن يواجه الناس ، وأن يجاهد فى سبيل الحق الذى عرفه ، وآمن به ، فيكون حرباً على المنكر ، بقلبه ولسانه ويده ، جميعاً . .

ومن هنا كان الصبر قَرينَ الحق فى كلّ دعوة يدعو إليها الإسلام ، فى مجال الخير والإحسان ، وفى كل مامن شأنه أن يقيم الإنسان والإنسانية على صراط مستقيم . .

ففى الدعوة إلى الصفح والمغفرة ، ودفع السيئة بالحسنة ، يكون الصبر هنا عُدّةَ مَن يمتثلون هذه الدعوة ، ويقدِرون على الوفاء بها ، وإلاّ لودخلوا المعركة بغير هذه العدة ــ عدة الصبر ــ لانحلّ عزمهم ، ولم يكن لهم من سبيل إلى احتمال تبعات هذه الدعوة . . فكان قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنةُ ولاالسيئة . . ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنّه ولىٌّ حميم * . وما يُلقَّاها إلاَّ الذينَ صَبروا وما يُلقاها إلا ذو حظ عظيم » (٣٤ ـ ٣٥ : فصلت) ـ جامعاً بين الدعوة إلى الصفح والمغفرة ، وبين الصبر ، الذى بغيره لايمكن حمل النفس على هذا المكروه عندها ، وهو دفع السيئة بالحسنة . .

وفى تنبيه الإنسان إلى الخطر الذى يُطلّ عليه من تسلط أهوائه ، وساوس شيطانه ، يقول الله تعالى : « والعصر * إن الإنسان لفى خُسْر » لايستثنى سبحانه أحداً من الصيرورة إلى هذا المصير : « إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصبر » .

هذا ، وللحق أصولٌ ثابتة فى الحياة ، هى الروح السّارية فى هذا الوجود ، وهى الغالبة لكل باطل ، حيث يكون له زبد ورغاء عند تشبثه بالحق ، وتعلقه بذاتيته ، كما تتعلق النباتات الطفيلية بأصول الأشجار الكريمة . . يقول سبحانه وتعالى : « خَلَق السموات والأرض بالحقّ . . تعالى عما يشركون » . . ويقول

جلّ شأنه: «وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق» (٣٨ ـ ٣٩ : الدخان) .. فعلى هذا الخالق بالحق قامت السموات والأرضُ وما فيهما من موجودات .. والحقهو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وكفي بالوجود أن ينتسب إلى هذا النسب الكريم، ليهزم كل باطل، ويقضى على كل ضلال.. ومن هنا كان دائما النصر للحق، ولأتباع الحق .. والهزيمة دائما للباطل وأهل الباطل .. «ولينصرن اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز» ..

* «للذين استجابوا لربهم الحسنى» ـ جملة من مبتدأ وخبر، والتقدير: الحسنى للذين استجابوا لربهم .. أى إن للذين استجابوا لربهم، وآمنوا به، واتبعوا سبيله، ـ العاقبةَ الحسنى، والجزاء الحسن .. «والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ..» فهؤلاء هم الزبد والغثاء، ليس لهم فى الآخرة إلا النار لا يجدون عنها مصرِفا، ولو كان لهم ملك ما فى الأرض جميعا، ومثله مضافا إليه، لقدموه فِدْية من هول هذا العذاب .. وهيهات! ..

ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الآية السابقة كانت مَثَلا مضروبا للحق والباطل وأنهما كثيراً ما يقع بينهما صراع، وقد يعلو الباطل على الحق فى بعض المواقف، كما يعلو الزبد صفحة الماء المتدافع من مسيل الوادى .. ولكنه لا يلبث أن يذهب هباءً، ويبقى ما ينفع الناس .. كذلك الذين استجابوا لله وآمنوا به، والذين لم يستجيبوا له، واتخذوا من دونه شركاء ..فالذين استجابوا لله هم أشبه بالماء .. والذين لم يستجيبوا لله هم هذا الزبد .. وإذا كان ذلك كذلك، كان لكل من الفريقين حسابه، وجزاؤه عند الله .. فكما لا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الزبد ولا الماء .. كذلك لا يستوى

الكافرون والمؤمنون . . أولئك أصحاب النار ، وهؤلاء أصحاب الجنة : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » (٢٠ : الحشر) .

الآيات : (١٩ — ٢٤)

* « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » (٢٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « أفمن يعلم أنّما أُنزل إليكَ من ربّك الحقُّ كمن هو أعمَى إنّما يتذكّر أولو الألباب »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى الآيات السابقة ، الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والزبد وما ينفع الناس . . وهى أمور متضادّة ، كتضاد الشر والخير ، والضلال والهدى . . كذلك الذين نظروا فى آيات الله فعرفوا أنها الحق من الله ، وأنها تنزيل من حكيم خبير ،

والذين عميت أبصارهم عن هذه الآيات ، فلم يروا منها شيئاً يهديهم إلى الله - هما عالمان متضادان .. هؤلاء مبصرون ، وأولئك عميٌ لا يبصرون !

والاستفهام فى الآية الكريمة مراد به التقريع والتسفيه لأهل الشرك والضلال ، الذين عميت بصائرهم عن التهدّى إلى الحق ، على ضوء ماتلا عليهم الرسول الكريم من آيات الله ..

— وفى قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » هو تنويه بالمؤمنين الذين قادتهم عقولهم إلى الحق ، فعرفوا الله ، وآمنوا به ، كما أنه تعريض بالمشركين واتهام لهم بالسّفه ، والغفلة ، وأنهم ليسوا من أصحاب العقول العاملة المبصرة !

* قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » هو صفة لأولى الألباب ، أصحاب العقول المبصرة ، والبصائر المدركة . .

وعهد الله الذى يوفون به ، هو كل عهد يقطعونه على أنفسهم لله ، أو للناس ، وقد جعلوا الله كفيلًا عليهم فيما أعطوْا من عهدٍ .. فالمؤمنون بالله حقاً هم الذين إذا أعطوْا مثل هذا العهد من أنفسهم ، بَرّوا به وَوَفوْا ، وأبى عليهم إيمانهم ، وولاؤهم لله أن يعطوا عهداً باسمه ، ثم يَغْدروا به وينقضوه ، فذلك مما لا يتفق مع الولاء لله ، والإكبار لذاته ، فضلاً عن أنه حطّة بالكرامة الإنسانية ، وإزراء بقدر الإنسان ، وإسقاط لمروءته . وفى هذا يقول الله تعالى : « وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . . إن الله يعلم ما تفعلون » (٩١ : النحل)

وأما الميثاق الذى لا ينقضونه ، فهو الميثاق الذى أخذه الله سبحانه وتعالى على أبناء آدم وهم فى عالم الأرواح ، كما يقول سبحانه وتعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا » (١٧٢ : الأعراف) وهذا الميثاق الذى أخذه الله على أبناء آدم ، هو

ما أودع فيهم من فطرةٍ سليمة ، من شأنها أن تتهدّى إلى الله ، وتعرفه طريقها إليه ، وتؤمن به ، لو أنها تُركت وشأنَها ، دون أن يدخل عليها ما يفسدها ، من وساوس الشيطان ، وغوايات المُغوين ، وضلالات المضلّين .. وهذا ما يشير إليه قول الرسول الكريم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، وإنما أبواه هما اللذان يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجّسانه »

ثم بعد هذا الميثاق ، جاء ميثاق آخر يؤكده ، ويذكّر به ، وهو دعوة الرسول لهم إلى الإيمان بالله ، وأخذه الميثاق عليهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : «واذكروا نعمةَ الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا» (٧ : المائدة) فنعمة الله هنا ؛ هى الرسول الذى جاءهم بكتاب الله إليهم ، والميثاق ؛ هو ما أخذه الرسول عليهم عند بيعتهم له على الإيمان ، حين قالوا : « سمعنا وأطعنا »

وإلى هذين الميثاقين ـ ميثاق الله ، وميثاق الرسول ـ يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذَ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » (٨ : الحديد) . . ففى هذه الآية ينكر الله سبحانه وتعالى على المتوقفين عن الإيمان ، أو المعرضين عنه ، هذا الموقف . . إذ ما كان لهم أن يترددوا فى الإيمان بالله ، أو يُعرضوا عن الإيمان به ، ورسول الله يدعوهم إلى الله ، ويذكرهم به ، ويقدم لهم بين يديه كتاباً من عنده . . هذا إلى الميثاق الذى أخذه الله عليهم من قبل وهم فى عالم الأرواح ، وهذا الميثاق هو الفطرة المودعة فيهم ، وهى وحدها كانت كافية لأن يتعرفوا إلى الله ويؤمنوا به ، إن كانت هذه الفطرة قد بقيت سليمة فيهم ، مهيأة لقبول الإيمان : « إن كنتم مؤمنين » أى إن كنتم ما زلتم على فطرتكم التى فطركم الله عليها .

* قوله تعالى : « والذين يَصِلون ما أمر الله به أن يُوصَلَ ويخشوْن ربّهم ويخافون سُوءَ الحساب » هو بيان لصفات أخرى من صفات المؤمنين ، بعد أن تأكد إيمانهم بالله ، ووفاؤهم بعهوده ومواثيقه .. فقد مدحهم الله سبحانه وتعالى بأنهم « يصلون ما أمر الله به أن يُوصَل »

والذى أمر الله ـ سبحانه ـ به أن يُوصَل ، هو الإيمان .. فهم بإيمانهم بالله بعد أن أصبحوا فى عالم الأشباح ، وصاروا أهلا للتكليف ـ هم بهذا قد وصلوه بإيمانهم الذى كان منهم وهم فى عالم الأرواح .. وهذا ما أمر الله به أن يوصل ، إذ كانت دعوة الرسل إلى الإيمان بالله ، دعوةً إلى وصل هذا الإيمان ، بإيمان الفطرة المستكنّ فيها .

ولهذا ذمّ الله سبحانه الكافرين بأنهم قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، فخانوا بهذا، عهدَ الله، ونقضوا ميثاقه ، وفى هذا يقول الحق جل وعلا : « إن الله لايستحيِى أن يضربَ مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربّهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون (٢٦ ـ ٢٧ البقرة) .. ويقول سبحانه : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدار » (٢٥ : الرعد)

فالكافرون قد نقضوا عهد الله الذى معهم ، بعد أن جاءهم رسله ليوثّقوه ، ويذكّروا به ، وهم بهذا الكفر قطعوا ماأمر الله به أن يوصل ، وهو أن يَصِلوا إيمان الفطرة المركوز فيهم ، بإيمان الدعوة على يد الرسل .. وهم بهذا الكفر قد أصبحوا أدواتِ هدم ، وإفساد ، فى كيان المجتمع الإنسانى . كما يقول سبحانه :

« ويفسدون فى الأرض . . أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

— وقوله تعالى : « ويخشوْن ربهم ويخافون سوء الحساب » بيان لبعض صفات أخرى للمؤمنين ، وهى أنهم يخشوْن ربهم ، ويخافون سوء الحساب يوم القيامة ، إذا جاءوا إلى هذا اليوم بما لايرضى الله من سيئات ومنكرات ، ولهذا ، فهم يتجنبون السوء ، ويجانبون المنكر ، خشية لله ، وخوفا من سوء الحساب ، يوم الحساب !

* قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئةَ أولئك لهم عُقبَى الدار » هو أيضاً بيان للصفات المكملة لتلك الأوصاف التى ينبغى أن تكون للمؤمنين بالله .. إيماناً حقاً . .

فهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم . . يصبرون على ما أصابهم من ضر ، وما مسّهم من أذى ، وما نزل بهم من مكروه ، يرجون بهذا ، الجزاء الحسنَ من الله على رضاهم بالمكروه ، وصبرهم على الضر ، إذ كان ذلك تسليماً منهم بقضاء الله ، وإيماناً بحقه سبحانه وتعالى فى مُلكه ، يفعل مايشاء ، لامعقّب لحكمه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » (١٥٥ : ١٥٦ البقرة)

ففى الصبر على المكاره ، تسليم لله سبحانه وتعالى بما قضى به ، وطمع فى رحمته ولطفه ؛ « إنه لاييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » (٨٧ : يوسف) وفى هذا يقول الرسول الكريم : « حُفّت الجنة بالمكاره » إذ كان فى استقامة الإنسان على طاعة الله ، قهر لأهواء النفس ، ومغالبة للشهوات . .

— وفى قوله تعالى : « ابتغاء وجه ربهم » إشارة إلى أن متوجههم فى احتمال الضر ، والصبر على المكروه ، إنما هو من أجل الظفر برضا الله عنهم . .

إذ كان ذلك هو مبتغاهم من احتمال المكاره ، والوفاء بالتكاليف الشرعية ، من عبادات ، ومعاملات وغيرها .. فالمراد بوجه ربهم هنا ، هو إقباله ــ سبحانه وتعالى عليهم ــ وقبوله لهم ..

ــ وفى قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة » ــ هو عطف خاص على عام ، إذ كان الصبر جامعاً لجميع التكاليف الشرعية ، ومنها إقامة الصلاة ، والإنفاق فى السر والعلن ، ودفع السيئة بالحسنة .. فهذه كلها مما لايقوم بالوفاء بهــا إلا من رزقه الله الصبر والاحتمال .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن الصلاة : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » (١٣٢ : طه) وما يشير إليه قوله سبحانه عن درء السيئة بالحسنة : « ولا تستوى الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عــداوة كأنه ولىٌّ حميم * وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقاها إلا ذو حظ عظيم »(٣٤ ــ ٣٥ : فصلت) ..

فالصبر هو مِلاك كل طاعة ، وميزان كل إيمان ، وعَقد كل عقيدة .. ولهذا جاء قوله تعالى : « والعصر * إن الإنسان لفى خُسرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوْا بالحق وتواصوْا بالصبر » ــ جاء جامعاً بين الحق والصبر ، إذ أنه لايقوم حق إلا قام من ورائه الصبر .. إذْ أنَّ أ كل حق يترصّده الباطل ، ويزحمه الضلال .. وتجلية الحق ، ودفع الباطل عنه ، يحتاج إلى مدد عظيم من الصبر والمصابرة ..

ــ قوله تعالى : « أولئك لهم عُقبى الدار » الإشارة هنا ترجع إلى أولى الألباب ، الذين عرفوا الله وآمنوا به ، واتصفوا بتلك الأوصاف الكريمة التى عرضتها الآيات السابقة .. فهؤلاء لهم عقبى الدار .

والعقبى : العاقبة .. وعاقبة كل أمر خاتمته ، وغايته ..

والدار هنا : هى دار الدنيا . .

« وعقبى الدار » أى الخاتمة التى خُتمت بها هذه الدار ، وهى عمل كل عامل فيها ، فمن عمل خيراً كانت عاقبته خيراً ، ومن عمل سوءًا كانت عاقبته بلاءً ونكالا . .

ولهذا جاء قوله تعالى : « لهم عقبى الدار » بإضافة العاقبة لهم ، ولم يجعلها عليهم ، بمعنى أن هذه العاقبة مما يملكه الإنسان ويحرص على اقتنائه ، إذا كان خيراً . . على حين أن العاقبة إذا كانت شرا ، نفر منها الإنسان ، وحاول أن يُفلت منها ، ويوليها ظهره ، ولكنها تُحْمل عليه حملا . . وإلى هذا يشير قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٢٨٦ : البقرة) .

* قوله تعالى : « جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » — هو بدل من قوله تعالى : « لهم عقبى الدار » . . أى أن عقبى الدار هذه هى « جنات عدنٍ » حيث تنتهى بالمؤمنين حياتهم الدنيا عند جنات عدنٍ . . « يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » أى أن هذه الجنات التى يجدها المؤمنون عند انقطاع حياتهم الدنيا ، هى لهم ، مفتحة أبوابُها ، يدخلونها هم ، ومن كان صالحاً لدخولها من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وفى هذا أنسٌ لهم جميعاً ، حيث يجتمع شملهم ، ويكمل نعيمهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم [1] من عملهم من شىء » (٢١ : الطور)

---

(١) ما ألتناهم : أى : ما نقصناهم .

— وفى قوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم .. فنعم عقبى الدار » .

بيان لما يدخل على المؤمنين من مَسَرّات ، وهم فى جنات النعيم .. إذ يُحَيّوْن فيها من ملائكة الرحمٰن ، تحية ترحيب وتكريم : « سلام عليكم بما صبرتم » وهم لايدخلون عليهم من باب واحد ، بل من أبواب كثيرة .. من يمين وشمال ، وأمام ، وخلف .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « تحيتُهم يومَ يَلْقَوْنه سلام » (٤٤ : الأحزاب) وقوله سبحانه : « أولئك يُجزوْن الغرْفَةَ بما صبروا ويُلقّوْن فيها تحية ، وسلاماً » (٧٥ : الفرقان) .

— وفى قوله تعالى : « سلام عليكم » من غير وصله بما قبله ، إشارة إلى أن دخول الملائكة عليهم ، هو فى ذاته سلام وأمن ، وهو تحية حيّةٌ ولولم ينطقوا بها .. ولهذا لم يجىء اللفظ القرآنى : يقولون « سلام عليكم » بل جاء هكذا : « سلام عليكم » ..

وفى قوله تعالى : « بما صبرتم » إشارة إلى أن الصّبر هو المطية الذّلول التى بلغت بالمؤمنين هذا المنزل الكريم ، ونقلتهم من عالم الفناء إلى عالم البقاء والخلود فى جنّات النعيم .. « فنعم عقبى الدار » أى فنعم عقبى دار الدنيا ، هذه الدار .. دار الآخرة . .

الآيات : (٢٥ — ٢٩)

* « وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ » (٢٩)

التفسير :

● قوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » ــ هو بيان للوجه الآخر من وجهى الإنسانية ، وهو وجه الكافرين ، والمشركين والمنافقين .. الذين نقضوا عهد الله الذى أخذه عليهم الرسول ، من بعد الميثاق الذى واثقهم الله عليه ، وهم فى عالم الأرواح .. وقد أشرنا إلى شرح هذه الآية من قبل : (الآية ٢١ من هذه السورة) .

* قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » ــ مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أنه لما كانت الحياة الدنيا ومتاعها مما يفتن الناس ، ويفسد عليهم فطرتهم ، ويحجب عنهم وجه الحق ، فيضل كثير منهم طريقه إلى الله .. لمّا كان هذا هو شأن الدنيا مع الناس ، فقد جاء قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » منبها هؤلاء الضالّين المتكالبين على الدنيا ، إلى أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، وأن الأرزاق بيد الله سبحانه ــ يبسطها لمن يشاء ، ويَقْدِرها أى يقبضها ، ويمسكها عمن يشاء ، وأنّ تخبطهم فى طرق الضلال ، وركوبهم مراكب النفاق لا ينفعهم فى شىء ، ولا يُنيلهم من الدنيا إلا ماقدّره الله لهم . .

— وفى قوله تعالى : « وفرحوا بالحياة الدنيا » ـ هو تشنيع على الضالّين ، واستخفاف بهم ، وتسفيه لأحلامهم ، إذ كان زخرف الحياة الدنيا ، وهذا المتاع الزائل الذى وقع لهم منها ـ هو مبتغى مسعاهم فيها ، ومبلغ حظهم منها ، فإذا وقع لهم منها شىء طاروا به فرحاً ، ولو اغتال ذلك إنسانيتهم ، وطمس على عقولهم وقلوبهم . .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى . . فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (١٦: البقرة) .

— قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلاّ متاع » إشارة إلى أن الحياة الدنيا هى مزرعة للآخرة ، يتزود فيها الناس ليوم الفصل . . فمن كان زاده التقوى ، ربح ، وسعد ، وفاز بنعيم الجنة ورضوان الله ، ومن تزوّد بالذنوب والآثام ، فقد خاب ، وتعس ، وكان لجهنم حطباً .

* قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لَوْلاَ أُنزل عليه آية من ربّه قل إن الله يُضلُّ من يشاء ويهدى إليه من أناب » .

هو بيان لتملاّت الكافرين والضالّين ، الذين يُدعَوْن إلى الإيمان بالله ، وتقرع أسماعَهم كلمات الله ، فلا يُصيخون إليها ، ولا يفتحون عقولهم وقلوبهم لها ، بل يركبون رءوسهم ، ويتنادوْن فيما بينهم : « لولا أنزل عليه آيةٌ من ربه ؟ » حتى لكأن هذه الآية التى يقترحونها هى اليد التى تشدّهم إلى الإيمان ، وتفتح آذانهم وقلوبهم إلى الله . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن يَرَوْا كلّ آيةٍ لايؤمنوا بها وإن يَرَوْا سبيلَ الرشد لايتخذوه سبيلاً وإن يروْا سبيلَ الغىّ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (١٤٦ : الأعراف) .

—وقوله تعالى : « قل إن الله يُضِلّ من يشاء ويهدى إليه من أناب » . . هو ردّ على تَعِلّات هؤلاء الكافرين ، ورَدْع لهم ، وأنهم لن يؤمنوا أبداً . . إذ أنهم لم يكونوا ممن أرادهم الله سبحانه للإيمان ، ودعاهم إليه ، لِمَا علم من فساد طبيعتهم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوْا وهم معرضون » (٢٣ : الأنفال) . . أما أهل الإيمان ، فقد دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه ، ويسّر لهم الإيمان به ، إذ كانوا على فطرة قابلة للخير ، مستجيبة للحق ، متهدّية إلى الإيمان ، والله سبحانه وتعالى يقول : « والذين اهتدوْا زادهم هدى » (١٧ : محمد) ويقول سبحانه : « ويزيد الله الذين اهتدوْا هدًى » (٧٧ : مريم) .

* قوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ـ هو بدل من قوله تعالى « مَن أناب » يعنى أنه سبحانه يهدى من أناب إليه من عباده ، أى رجع إليه ، ووجه وجهه إلى رحابه . . وهؤلاء هم المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول واطمأنت قلوبهم بذكر الله . .

—وفى قوله تعالى : « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » إشارة إلى أن من علامات أهل الإيمان ، أنهم إذا ذكروا الله ، أو ذُكّروا به ، اطمأنت قلوبهم ، واشتملت عليهم السكينة ، وغَشِيهم الأمنُ والسلام . .

—وفى قوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » توكيد لهذا الخبر الذى تضمنه قوله تعالى « وتطمئن قلوبهم بذكر الله . . »

* وقوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحُسنُ مآب » هو توكيد لقوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . . حيث أن ذكر الله يقيم الإنسان على الإيمان بالله ، ويمسك به فى مجال العمل الصالح ، فيحيا

حياة طيبة ، يجد فيها الأمن والسكينة ، فإذا كانت الآخرة ، وجد ما عمل من صالحات حاضراً ، فيسعد به ويهنأ .

والطوبى : مؤنث أطيب ، وهو الحسن الجميل من كل شيء . .

والمآب : المرجع ، والمراد به يوم القيامة . .

[ذكر الله . . واطمئنان القلوب به]

« ألاَ بذكر الله تطمئن القلوب » . .

وذكر الله هو تذكره ، فى استحضار جلاله ، وعظمته ، وقُدرته ، وكل ماله ــ سبحانه ــ من صفات الكمال والجلال . . فإذا ذكر الإنسان ربّه ، واستحضر جلاله وعظمته ، كان من هذا الذكر فى ظِلّ ظليل ، من جلال الله وعظمته ، وفى حِمًى لا يُنال من حياطته ، ورعايته ، وفى عزةٍ تصغر أمامها عزة كل عزيز فى هذه الدنيا ، إذ كان مُعتصمُه هو الله القوىّ العزيز ! « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراطٍ مستقيم » (١٠١ : آل عمران) .

فالذى يذكر الله وهو موقِنٌ بِهِ ، طامع فى رحمته ، معتصم بجلاله ، مُحتَمٍ بحِماه ، لائذٌ بفضله ، عائذ به ، من هموم الدنيا ، ومن ظلم الظالمين ، وبغى الباغين ــ يجد ربًّا قريباً منه ، سامعاً دعاءه مستجيباً له ، قال تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم » . . وقال : « فاذكرونى أذكركم » . . وقال جل شأنه « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشدون » (١٨٦ : البقرة) .

وليس ذكر الله الذى تطمئن به القلوب ، هو هذا الذكر الذى تردّده الألسنة ترديداً آلياً ، دون أن يكون منبعثاً من القلب ، دافئاً بحرارة الإيمان ،

منطلقاً بقوة اليقين ـ فمثل هذا الذكر لايعدو أن يكون أصواتاً مرددة ، أشبه بالجثث الهامدة . . لاروح فيه ، ولا معقول له . . ومن هنا تكون آفته ، فلا يطمئن به قلب ، ولاينشرح به صدر . .

أما الذكر الذى يقول فيه سبحانه وتعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . » ثم يؤكده بقوله : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فهو الذكر الذى ينبعث عن إيمان ، فتهتزّ له المشاعر ، وتدفأ به الصدور ، وتطمئن به القلوب .. ولهذا قدّم سبحانه الإيمانَ على الذكر . . حتى يكون للذكر أصل يرجع إليه ، ومنطلق ينطلق منه ، وهو الإيمان . . فإذا ذكر المؤمن بالله ربّه ، غرّدت فى نفسه بلابل البهجة ، وزغردت فى صدره عرائس الرضا ، واستولت عليه حال من الشجا الممزوج بالنشوة ، حتى ليكاد يكون كلّه عاطفة ترفّ بجناحى الصبابة والوجد ، وتحلق فى سماوات عالية ، مشرقة بنور الحق ، معطرة بأريج الصفاء والطهر .

ولايكون الذكر لله ذكراً يثمر هذه الثمرة ، التى يطمئن بها القلب ، إلا إذا انبعث من قلب عارفٍ بالله ، مدركٍ لما ينبغى له سبحانه ، من صفات الكمال والجلال ، فذلك هو الذى يفيض على القلب خشية عند ذكر الله ، وهو الذى يستثير مشاعر الولاء لله ، والإخبات له ، فتقشعر الجلود ، وتدمع العيون . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلتْ قلوبهم » (٢ : الأنفال) . . وقوله سبحانه : « وبشّر المخبتين * الذين إذا ذُكر اللهُ وَجلت قلوبهم » (٣٤ ـ ٣٥ الحج) وقوله جلّ شأنه « الله نزّل أحْسَن الحديث كتاباً متشابهاً مثانِىَ تقشعرُ مِنه جلودُ الذين يخشَوْنَ ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » . . (٢٣ : الزمر)

فإذا ذَكَرَ المؤمن ربه ، وقد تلبست به تلك الحال ، واستولت عليه هذه المشاعر ، قرُبَ من الله ، ودنا من مواقع رحمتـه ، وأحسَّ بَرْد السكينة يغمر قلبـه ، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهبّ عليه ، معطرة الأنفاس ، زاكية الأرواح .

إن الإنسان إذ يذكر حَدَثاً من الأحداث ، أو يستحضر صورة شخص من الأشخاص ، له به عُلْقة حب أو بُغض ، فإنه يجد فى كيانه لهذا الذكر ، ولذاك الاستحضار ما يهزّ كيانه ، ويثير عواطفه ، ويَهِيج أشجانه ، أو يبعث مخاوفه . .

وإلى هذا المعنى يشير الشاعر العربى فى مدح أحد الخلفاء . . إذ يقول :

خليفةَ الله إن الجـود أوديةٌ أحلّك الله منهـا حيث تجتمع

إن أخلف الغيث لم تُخلف مواطرُه أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسع

والشاهد هنا فى قوله : « أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع » فهو يريد أن يقول : إنه إذا نزل به ضيق ، أو كربه كرب ، وجرى ذكر الخليفة فى خاطره ، كان له من هذا سعة من ضيق ، وخلاص من كرب ، وراحة من عناء وهمّ .

ويُروى أن قيس بن الملوح (مجنون ليـلى) وهو فى زحمة الحجيج بمِـنًى ، سمع إنساناً يهتف بمن اسمها ليلى ، بل لعله عرف المجنون ، فأراد أن يَهيج لواعجه ، ويحرك أشجانه ، فهتف بهذا الاسم ، كأنه يستدعى ابنةً أو زوجاً له . .

وأيًّا ما كان ، فقد أثار هذا النداء بيا « ليلى » ثائرة المجنون ، وحرك بلابل أشجانه ، وعرَتْه حال من الصبابة والوجد . كان وصفه لها فى هذين البيتين ، تصويراً لبعض ما استطاع أن يمسك به من مشاعره . . يقول المجنون :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من مِنًى فهيّج أشجانَ الفؤاد وما يدرى

دَعَا باسم « ليلى » غيرها فكأنما   أهاج « بليلى » طائراً كان فى صدرى !

هذا بعض ماتثير ذكريات الأحداث ، وتذكّر الأشخاص ، فى مجال الخير والشر ، وفى مقام الحبّ والبغض .. فكيف يكون الحال عند مَن يذكر الله ، ويستحضر جلاله ، وعظمته ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وكل ما ينبغى له — سبحانه — من صفات الكمال والجلال ؟

إن الذاكر لله على تلك الصفة يجد نفسه فى حضرة مالك الملك ، القائم على هذا الوجود ، والمصرّف لكل موجود .. وإذا هو فى هذا المقام ذاهلٌ عن كل ماعدا الله ، مستخفّ بكل ماسواه ، موقن بأن ماهو فيه من خير أو شر ، هو مما قضى الله به ، وأنه لايكشف الضرّ إلا هو سبحانه ، ولا يسوق الخير إلا هو جل شأنه ، فوَعَى قوله سبحانه : « وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشفَ له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » (١٧ : الأنعام) وأخَذ من ثمراتها الطيبة المباركة ، زاداً طيباً مباركا ، فيه الشبع من كل جوع ، والرىّ من كلّ ظمأ ، والشفاء من كل داء .

فإذا ذكر الإنسانُ ربَّه هذا الذكر الذى يُدنيه من ربه ، والذى يشهد منه مايشهد من جلال الله ، وعظمته ، وقدرته ، ارتفع عن هذا العالم الترابىّ ، واستصغر كل شىء فيه ، فلا يأسى على فائت ، ولا يطير فرحاً ، ولا يأشر بطراً ، بما يقع ليديه من حُطام هذه الدنيا .. وهذا هو الاطمئنان الذى يسكن به القلب وتقرّ العين .. حيث لاحزْن ، ولا جزَع ، ولا خوف !!

« ألَا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

ذلك أن الداء الذى يغتال أمْنَ الناس ، ويَقُضُّ مضاجعهم ـ هو مايدخل عليهم من هموم الدنيا ، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها .. وإنه لا دواء

لهذا الداء إلا بالتّجأ إلى الله ، والفزع إليه ، وذلك بذكره ، وتذكّر سلطانه المبسوط على هذا الوجود ، وأمره القائم على كل موجود .. « ألا له الخلق والأمر .. تبارك الله رب العالمين » .

— وفى قوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » . وفى التعبير عن الإيمـان بالفعل الماضى « آمنوا » وعن الاطمئنان بفعـل المستقبل .. « تطمئن » — فى هذا إشارة إلى أن الإيمان حالٌ لايتحول عنها المؤمن ، وأنه لايوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمناً .. على خلاف الاطمئنان ، فإنه غير ملازم للمؤمن فى كل حال ، وإنما يقع الاطمئنان عند ذكر الله ، وكلما ذكر المؤمن ربه ، حين تعرض له عوارض القلق والجزع .

وهنا ، نود أن نشير إلى أن ذِكر الله الذى يمنح القلب اطمئناناً وأمناً ، يحسن أن يكون منظوراً فيه إلى صفة من صفات الله ، المناسبة لتلك الحال العـارضة ، التى أزعجت الطمأنينـة عن القلب ، وأطارت السكينـة والأمن من الجوانح .. !

فإذا كان الإنسان فى مواجهة مرض ، مثلا .. فى نفسه ، أو نفس من يحب . ذكر الله الرحمن الرحيم ، وذكر قدرته على كشف هـذا الضر ، ورفع هذا السوء !

وإذا كان فى يد سلطان جائر ، أو عدوّ متسلط قاهر ، ذَكَر الله القوىّ القـاهر ، الجبـار المنتقم .. فأراه ذلك ضآلةَ هـذا السلطان ، وصغَر شأن هذا العدو ..

وهكذا يذكر الذاكر ربّه ، فيرى فى وجهه الـكريم ، الصفةَ التى يتجلّى بها عليه ، فإذا هى السكَن لجوارحه ، والدواء لدائه ، والطمأنينة لقلبه . وهذا

مايشير إليه قوله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (١٨٠ : الأعراف) فبالاسم الذى ندعو الله به ، يتجلّى به الله ـ سبحانه ـ علينا ، فنرى فى سَنَا وجهه الكريم ، غُيوث رحمته ، ومواطر فضله ورضوانه .

ولعله من المناسب أن نذكر هنا قول الله تعالى : (فاذكرونى أذكركم) (١٥٢ : البقرة) : فالله سبحانه وتعالى لاينسى ، حتى يُذْكَر فيَذْكُر .. بل هو جل شأنه يذكرنا دائماً ، ذكرناه أو لم نذكره .. ولكن المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه ، هو أننا إذا ذكرناه وجدناه سبحانه حاضراً فى قلوبنا وعقولنا . . وأننا إذا لم نذكره ، فهو سبحانه حاضر كذلك ، ولكن هذا الحضور لانحسّ به ، ولا نتأثر له .

فإذا ذكر المؤمن ربّه ، وجد ربه تُجاهه .. وكأنه بغفلته عن ذكر ربه قد بَعُد عن الله ، فإذا ذكر ربه ذكره ربُّه ، وأشرق عليه بنوره السنىّ البهىّ .. وفى الحديث القدسى : « من تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هَرْولة » ..

فذِكر الله ، وامتلاء القلب بهذا الذكر ، يفيض على الذاكر أنواراً من جلال الله وبهائه ، وإذا هو فى حمًى عزيز لاينال ، وفى ضمان وثيق من أن يهون أو يذِلّ لغير الله الواحد القهار . .

وأسمى الذكر وأكمله ، هو ذكر العارفين بالله ، معرفة يطلعون منها على مايملأ قلوبهم جلالا وخشية لله ، حيث يشهدون من كمالات الله مالا يشهده إلا المقربون ، الذى رضى الله عنهم ورضوا عنه .. كما يقول سبحانه وتعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا » .. فهذا الودّ إنما يناله أولئك الذين يذكرون الله فيذكرهم الله ، ويعرفونه فيعرفهم . . « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض

ربنا ماخلقت هذا باطلاً ».. فهذا الذكر للمستبصر ، هو الذى يضىء الطريق الذى يسلكه الذاكر إلى ربه ، فيرى على ضوء هذا النور ، قدرةَ الخالق وجلاله ، وعظمته ، فيخشع قلبه وتسكن وساوسه .

فالذكر ـ كما قلنا ـ ليس مجرد كلمات يرددها اللسان ، وإنما هو نبضات قلب معمور بالإيمان بالله ، وخفقات وجدان ريّان بالرجاء فى الله ، والطمع فى فضله وإحسانه ، وذلك بعد أن يعرف المرء ربّه ، ويعرف ما ينبغى له سبحانه من كمالات ..

والرجاء الذى يقوم على غير إيمان ، ويستند إلى غير طاعة ، هو مكر بالله ، وخداع للنفس ، وعدوان على سنن الحياة التى أقام الله عباده عليها ، فجعل لكل عامل عمله ، ولكل غارس ثمرة ما غرس ! .

وحسنٌ أن يُحسن العبد ظنه بربه ، بل وأن يبالغ ما شاء فى هـذا الظن ، ولكن شَرِيطةَ أن يكون ذلك الظن نابعاً من الإيمان بالله ، ومستنداً على مايجد العبد من شواهد القرب من ربه . . فهنا يحق له أن يتمنى على ربه ، وأن يَدِلَّ دلال المحبوب مع محبوبه .. وفى الحديث الشريف : « رُبَّ أشعثَ أغبر لو أقسم على الله لأبرّه » .. وفى الخبر الثابت أن البراء بن مالك (وهو أخو أنس بن مالك) كان ممن يقسم على الله فيبَرُّ الله قسمه ، وكان المسلمون إذا اشـــتدت عليهم الحرب فى قتال المشركين ، يقولون : يا براء .. أقسم على ربك فيقسم على ربه فينتصرون ! .

والدعاء ، هو من ذكر الله . . حيث يوجِّه الداعى وجهه إلى الله ، طالباً الملجأ إليه ، والمدد من إحسانه وفضله .. يقول ابن قيم الجوزية فى تفسيره المسمى : « التفسير القيم » : إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمن للطلب منه ، والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ـ أى الدعاء ـ ذكر وزيادة كما أن الذكر سمّى دعاءً

لتضمنه الطلب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «أفضل الدعاء : الحمد لله» فسمّى الحمدَ دعاءً ، وهو ثناء محض ، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب ! .

ثم يقول ابن القيم :

«وتأمل كيف قال « تعالى » فى آية الذكر : « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة » وفى آية الدعاء : « ادعوا ربكم تضرعا وخُفْية » فذكر التضرع فيهما معاً ، وهو التذلل والتمسكن ، والانكسار ، وهو روح الذكر والدعاء .. وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذكر إلى الخوف ، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابدّ ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته ، والمحبة ما لم تقترن بالخوف ، فإنها لا تنفع صاحبها ، بل تضره ، لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات ، وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ومحبته له ، وتأليهه له .. فإذا حصل المقصود ، فالاشتغال بالوسيلة باطل !

« فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية عن قشرها ..

«وسبب هذا ، عدم اقتران الخوف من الله ، بحبه وإرادته (أى كونه مريداً له). ولهذا قال بعض السلف : « من عبد الله بالحب وحده ، فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده ، فهو حرورى [1] ومن عبده بالرجاء وحده ، فهو مرجئ [2] »

---

(١) الحرورى : نسبة إلى فرقة من فرق الخوارج ، تعرف بالحرورية ، الذين يقولون بالقدرة المطلقة للعبد .

(٢) المرجئة : من الفرق الخارجة على الملة الإسلامية ، وهى التى تتعلق بالرجاء من غير عمل .

ومن عبده بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن » .. وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة فى قوله سبحانه : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه .. ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف !..

وبعد فإن ذكر الله بالقلب واللسان ، هو خير زاد يتزود به الإنسان فى رحلة الحياة ، وخير رفيق يؤنسه فى طريقه الموحش ، حيث يجد فى جوار الله الأنس ، حين يستوحش الناس، ويجد الشبع والرىّ إذا أجدب الناس ، وكَلَبَ الزمان .. والله سبحانه وتعالى يقول : « فمن اتبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » .

الآيات : (٣٠ — ٣٤)

* « كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ

ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ » (٣٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خَلَتْ من قبلِها أمم لتتلوَ عليهم الذى أوحينا إليك .. » .

خَلَت : أى مضت ، وتركت ما كانت تشغله خالياً منها ..

وفى قوله تعالى : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم » ـ تنويه بقدر النبىّ ، وبشأن رسالته التى أرسل بها .. وأنها وإن تكن مسبوقة برسالات النبيين من قبله ـ فإنها ذات صفة خاصة ، وشأن فريد ، اختصت به ، حتى لقد أصبحت بهذه الخصوصية ، بحيث لا تشبه بالرسالات التى سبقتها ، وأنه إذا أريد تشبيهها فلا مشبه لها إلا ما كان مثلها .. وإذا لم يكن هناك ما هو مثلها ، شبهت بنفسها هى ، « كذلك أرسلناك » أى مثل إرسالك هذا الذى لاشبيه له ، أرسلناك .. « فى أمة قد خلت من قبلها أمم » أى أرسلناك فى أمة قد مضت من قبلها أمم ، وقد جرت على هذه الأمم سنة الله فى خلقه ، فكان فى الماضى منها عبرة وعظة لمن يخلفها ويجىء بعدها ..

وفى تعدية الفعل « أرسلناك » بحرف الجر « فى » بدل الحرف « إلى » الذى يتعدى به هذا الفعل دائماً ـ إشارة إلى أن النبىّ هو من صميم هذه الأمة حتى لكأنها أشبه بالظرف الذى يحتويه زماناً ، ومكاناً ، ومجتمعاً .. فهو ليس طارئاً على هذه الأمة ، مستدعًى إليها من خارج ذاتها .. وإنما هو فى الصميم منها ..

— وفى قوله تعالى: « لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك » إشارة إلى مهمة الرسول ، وأنها مهمة تبليغية ، يتلو على هذه الأمة ما أوحى إليه من كتاب ربه .. « وقل الحقّ من ربّكم فمن شآء فليؤمن ومن شـــآء فليكفر » (٢٩ : الكهف) .

— وفى قوله تعالى : « وهم يكفرون بالرحمن » تشنيع على المشركين ، وتهديد لهم ، وتسفيه لجهلهم العنيد . . إذ كانوا كلما تلا النبىّ كلمات ربه ازدادوا كفراً .. هكذا حالاً بعد حال ..

فجملة « وهم يكفرون بالرحمن » جملة حالية ، وصاحب الحال هو الضمير فى « عليهم » أى أنت تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن .. هذا شأنك ، وذلك شأنهم . ! فما أبعد الفرق بينك وبينهم .. أنت تسمعهم كلمات الله ، وهم يُسمعونك السّفَه والضلال .. وأنت تمدّ لهم يدك بالبرّ والإحسان ، وهم يرجمونك بالأحجار والحصى !

وفى ذكر الله سبحانه وتعالى باسمه الكريم « الرحمن » دون أسمائه الكريمة الأخرى ، مايشير إلى شناعة جرم هؤلاء المشركين ، الذين كلما تليت عليهم آيات الله زادتهم كفراً ، وضلالاً ، وأنهم إنما يكفرون « بالرحمن » الذى بعث فيهم رسولاً منهم ، يحمل بين يديه الدواء الذى يكشف عن قلوبهم ماران عليها من ضلال ، ويرفع عن أبصارهم ماغشيها من ظلام ..

أفذلك هو ماتُستقبل به رحمة الرحمن ؟ وأهذا مايُجزَى به المنعم على ما أنعم به من رحمة وهدى ؟ ذلك جحود لئيم ، وكفران سفيه .. !

ومع هذا ، فإن الرحمن الرحيم لم يعجّل لهم العذاب ، ولم يقبض يده الرحيمة عنهم ، بل لقد أمهلهم ، ويده الكريمة بالرحمة مبسوطة لهم ، ورسوله الكريم قائم فيهم ، يتلو عليهم آيات ربّه ، ويفتح لهم منها أبواباً واسعة من رحمة الله ..

فإن هم أبوْا أن يدخلوا فى دين الله ، حتى يموتوا على الكفر ، فذلك من شؤمهم ، ونكد حظهم .

* قوله تعالى : « قل هو ربّى لآ إلٰه إلا هو عليه توكلتُ وإليه متابِ » .

. . هذا هو موقف النبىّ ، بعد أن يبلّغ رسالة ربّه . . فليكفر من يكفر . . أما هو فمؤمن بربّه ، الذى لا إله إلا هو ، وهو متوكل عليه ، لا يلتفت إلى غيره ، ولا يطمع فى ثواب إلا منه .

* قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرتْ به الجبالُ أو قطّعتْ بِهِ الأرضُ أو كلّم به الموتى .. »

هو توكيد لهذا الكفر الذى انطبع فى قلوب أولئك الكافرين ، الذين كلما تليت عليهم آيات « الرحمن » لجّ بهم العناد ، والضلال . . فلم يزدادوا إلا كفراً على كفر ، وضلالا إلى ضلال ..

فلو نزل عليهم قرآن ، تخرج منه آيات مادية محسوسة ، من تلك الآيات التى كانوا يقترحونها على النبىّ ، فتسيّر بهذا القرآن الجبال ، أو تقطع به الأرض ، أو تتفجر به العيون ، أو يُبعث به الموتى من القبور ، وينادَون فيجيبون ــ لو نزل عليهم قرآن يرون منه رأى العين هذه الآيات ، لمَا آمنوا ، ولمَا أخذوا موقفاً غير هذا الموقف المنحرف الضال الذى هم فيه ..

والسؤال هنا : لماذا حذف جواب « لو » فى قوله تعالى : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ... » ؟

والجواب ــ والله أعلم ــ هو أنه لما كان ضلال هؤلاء المشركين وعنادهم قد بلغ الغاية فى هذا الباب ، بحيث تنطق شواهده ، وتشهد وقائعه ، بأن القوم ليسوا طلّاب حقيقة ، وإنما هم أصحاب مماحكات وجدل ــ لمّا كان هذا هو شأن القوم

وتلك هى حالهم ، فقد تُرك جواب « لو » الشرطية لدلالة الحال عليه ، وللإشارة إلى أن الجواب محمول مع الشرط ، وأنه جواب واحد لاسبيل إلى غيره ، وهو أن هؤلاء المشركين بالذات ، لن يؤمنوا أبداً ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « وإن يروا كلّ آية لايؤمنوا بها وإن يروْا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروْا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » (١٤٦ : الأعراف) وكما يقول سبحانه فيهم أيضاً « إن الذين حقتْ عليهم كلمةُ ربّك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يروُا العذاب الأليم » . (٩٦ ـ ٩٧ : يونس)

والتعبير بصيغة الماضى عن هذا القرآن الذى تسير به الجبال ، أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ، وهذا مايشير بأن هذه الآيات لو وقعت فعلاً أمامهم لم يؤمنوا بها . .

ومما يشهد لهذا الرأى الذى ذهبنا إليه فى تأويل هذه الآية هو الأخبار وقد تأول المفسرون لهذه الآية كثيراً من وجوه التأويل ، لم نجد فيها مانطمئن إليه .

* قوله تعالى : « بل لله الأمر جميعاً » ـ هو إجابة عن سؤال يرد على الخاطر بعد الاستماع إلى قوله تعالى : « ولو أن قرآناً سُيِّرتْ به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى » وما يفهم من هذا ، من أن هؤلاء المشركين لن يؤمنوا بالله أبداً .. والسؤال هو : لماذا لايؤمن هؤلاء المشركون ، بهذه الآيات التى يؤمن بها الناس ؟ وماذا يحجزهم عن الإيمان ، ويقيمهم على الشركِ والضلال ؟

وكان الجواب هو قوله تعالى : « بل لله الأمر جميعاً » أى أن الأمر كلّه لله ، لايُسأل عما يفعل ، وهو ـ سبحانه ـ إذ حجز هؤلاء المشركين عن الهدى ، وختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلم يروْا آيات الله الكونية ، ولم يسمعوا آيات الله المنزلة على نبيّه ، ولم يتحوّلوا عن طريق الشرك

والكفر ـ فذلك مشيئته فيهم .. « ولذلك خَلقهم » وليس لمخلوق أن يعترض على ما أراد الخالق به ! « ألاَ له الخلق والأمر .. تبارك الله ربّ العالمين » ..

* قوله تعالى : « أفلم ييئس الذين آمنوا ؟ » .

اليأس : هو القنوط ، وفقدان الرجاء .

والاستفهام هنا تقريرى ، يراد به أخذ اعتراف المؤمنين باليأس من إيمان هؤلاء المشركين ، وقطع الرجاء فى أن يكونوا يوماً من المؤمنين .. وأنه إذا كان عند المؤمنين بقيّة من أمل فى إيمان هؤلاء الذين اتخذوا آيات الله هزوًا وسخرية ، والذين كلما تليت عليهم آيات الله زادتهم كفراً على كفر ، ورجساً على رجس ـ إذا كان عند المؤمنين بقية من أمل فى إيمان مثل هؤلاء ، فليقطعوا حبل الرّجاء ، وليكونوا على يأس من أن يؤمنوا .. وأنّه إذا سأل سائل منهم : لماذا لا يُرْجَى من هؤلاء المشركين إيمانٌ ، ورسول الله فيهم ، وآيات الله تتلى عليهم ؟ فهذا جواب ماسألوا عنه : « لله الأمر جميعاً » وهؤلاء المشركون لم يُرد الله أن يطهّر قلوبهم من الشرك ! فإذا بقى بعد هذا من يسأل : « ولماذا لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم هم بالذات .. وقد طهّر قلوبَ كثير من إخوانهم الذين كانوا مشركين مثلهم فآمنوا واهتدوا ؟ » كان فى قوله تعالى : « أن لويشآء الله لهدى الناس جميعاً » ، الجوابُ الذى لاتعقيب عليه .. فتلك هى مشيئة الله فى عباده .. « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (٧ : الشورى) .. « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .. وهؤلاء المشركون هم ممن حقت عليهم كلمة الله .. « أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تنقذ من فى النار ؟ » (١٩ : الزمر) .

ونقرأ الآية الكريمة بعد هذا .

« ولو أن قرآناً سُيِّرتْ به الجبال أو قُطِّعَتْ به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى ..

بل لله الأمر جميعاً .. أفلم ييئس الذين آمنوا .. أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » ..

وننظر فيها على هذا الفهم الذى فهمناها عليه ، فنجد بيـانا معجزاً ، ونظماً متفرداً بالجلال والروعة ، والإعجاز ، وإن بدأ فى النظرة الأولى أنه غير جارٍ على مألوف النظم ، الذى تتشابك أطرافه ، وتتماسك مقاطعه .. حتى لقد ذهب المفسِّرون فى هذا مذاهب كثيرة ، كلها ليس فيهـا ما ينقع صدًى أو يشفى غليلا .. وكان أهداهم سبيلا من تأول قوله تعالى : « أفلم ييئس » بمعنى أفلم يعلم ، وجاء بشاهد من الشعر يشهد لهذا المعنى .. وهو تأويل فاسد متهافت .. وقد استعمل القرآن فعل اليأس هذا فى مواضع كثيرة من القرآن ، فلم يكن فى موضع منها ما يشهد لهذا المعنى !

وكان من أشنع المقولات التى قيلت هنا ، هى قول من قال : إن ييئس بمعنى يتبيّن ، وأن كاتب المصحف قد خلط فسوّى رءوس السِّينات فى « يتبيّن » فقرئت « ييئس » !!

وهذا قول ساقط ، لا يستحق أن نلتفت إليه ، أو نُلقى إليه بالا .. فإن القرآن الكريم لم يودع فى المصاحف إلا بعد أن أودع فى صدور الكرام الحافظين من الصحابة والتابعين .. فكان المحفوظ فى الصدور مهيمنا على ما كتب الكاتبون من كلام الله !

والعجب أن يقال مثل هذا القول الشنيع فى تفسير من التفاسير المعتمدة ، ولو على سبيل النقل والحكاية .. فإن فى ذلك طعنا فى صحة القرآن الكريم ، ومدخلاً للشك فى حفظه من التحريف .. الأمر الذى لا يطلب أعداء هذا الدين سلاحاً أمضى من هذا السلاح ، لطعنه طعنة فى الصميم .. !!

إن مثل هذا القول هراء ، لا يصح أن يقف أحد عنده ، أو ينظر إليه بمجرد نظر عابر .

وتسأل : ماذا حمل المفسرين على هذا ؟ ولا جواب ، إلا النية الحسنة ! ! فهؤلاء المفسرون هم أحرص الناس على كتاب الله ، وعلى توقيره ، والذود عنه ، وكشف مواقع الخير والهدى للناس منه . .

ولكن عن نية حسنة أرادوا الدفاع عن النظم القرآنى ، وإقامته على قواعد النحو التى استخلصوها من أساليب اللغة . . فكان منهم مثل هذه الزلات . . وفاتهم أن القرآن الكريم ، وإن جرى على مألوف العرب فى شعرهم ونثرهم ، هو — قبل هذا — أسلوب فريد ، تفرد بالكمال كله ، واحتوى الحسن جميعه ، وإلا لمّا أعجز العرب ، وأفحمهم ، وقطع نوازع الرغبة عندهم فى أن يعارضوه ، ولو بسورة من مثله !

ولا ندع الآية الكريمة ، دون أن نعيد النظر إليها مرة أخرى ، لنبحث عن السر فى هذا النظم الفريد الذى جاءت عليه ، حتى أنه لم يكن بين مقاطعها ترابط بحرف من حروف العطف !

فما سرّ هذا ؟

ونقول — والله أعلم — : إن الآية الكريمة فى هذه المقاطع القليلة ، قد عرضت أكثر من موقف ، ولأكثر من جماعة . .

فأولا : المشركون ، وعنادهم ، وضلالهم ، وأنهم لن يؤمنوا أبداً ولو جاءتهم كل آية كانوا يقترحونها على النبى .

« ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال أو قُطّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى .. »

فهذه جبهة المشركين .. وتلك حالهم ، وهذا حكم الله فيهم .. لن يؤمنوا أبداً ،

ولو جاءهم قرآنٌ يُتلى عليهم ، فتظل منه هــذه الآيات الـكونية المجسمة ، يرونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم : « ولو نزّلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين » . (٧ : الأنعام)

وثانياً : الذين يَعجَبون لهذا الحـكم الذى حُـكم به على المشركين .. سواء أكانوا من المؤمنين أو من المشركين . . وهؤلاء وأولئك جميعاً ، يلقاهم قول الحق سبحانه وتعــالى : « بل لله الأمر جميعاً » . . فلْتخرس الألسنة ، ولتخضع الرقاب !

وثالثاً : المؤمنون الذين كانوا لايزالون على طمع فى أن يلحق بهم آباؤهم أو أبناؤهم ، أوأزواجهم ، أو إخوانهم ، من هؤلاء المشركين — هؤلاء المؤمنون مطلوب منهم أن يريحوا أنفسهم باليأس من إيمان هؤلاء الذين يطمعون فى إيمانهم ، وأن يستمعوا لقوله تعالى : « أفلم ييئس الذين آمنوا ؟ » . .

ورابعاً : هذا اليأس الذى وقع فى نفوس كثير من المؤمنين الذين كانوا يطمعون فى أن يلحق بهم أهلوهم وإخوانهم ، وأن يخرجوا من ظلام الـكفر إلى الهدى والإيمان — هذا اليأس قد ترك مرارة وأسًى فى نفوس المؤمنين ، فـكان قوله تعالى :

« أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » — كان ذلك عزاء لهم ، إذ كانت تلك إرادة الله فيهم . . كما يقول سبحانه للنبى الـكريم : « إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء » (٥٦ : القصص) وكما يقول له سبحانه : « وما أكثرُ الناس ولو حَرَصت بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) وكما يقول له سبحانه أيضاً : « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يُضِلُّ وما لهم من ناصرين » (٣٧ : النحل) .

وهكذا أشرفت كلمات الله من عَلٍ على الناس جميعاً . . مؤمنين ، ومشركين ، وخاطبت كل فريق منهم الخطاب الملائم له . . وكان من مقتضى الحكمة ألا تجمع بينهما فى هذا الموقف جامعة ، الأمر الذى أوجب عزل مقاطع الآية بعضها عن بعض ، فلم يقم بينهما حرف عطف ، إذ كان داعية الحال تقضى بأن ينزع المؤمنون من قلوبهم كل عاطفة تعطفهم على المشركين من أهليهم وذوى قرابتهم ، وأن يستريحوا إلى اليأس من إيمانهم ، غير آسفين على هذا المصير الذى هم صائرون إليه . . إذ أن الأمر كله لله . . وأن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً . !

أفرأيت إذن كيف كان هذا الإعجاز فى النظم ؟ وكيف جاءت مقاطع الآية على هذا الوجه الذى جعل كل مقطع منها يكاد يعطى ظهره لصاحبه ؟ وهل فى غير كلام الله — سبحانه وتعالى — يجىء مثل هـذا النظم الذى يجعل من الكلمات شخوصاً ماثلة ، مائجة بالعواطف الجياشة ، الملتحمة فى هذا الصراع . . من داخل ذاتها ، ومن خارجها على السواء ؟

فسبحان من هذا كلامه . . « وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدّل لكلماته » . . !

* قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحلّ قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد » — هو إرهاص بما سيلقى هؤلاء المشركون والكافرون، من بلاء فى هذه الدنيا على يد المؤمنين . وإذ كما يئس المؤمنون من إيمان أهليهم وإخوانهم ، وصبروا على تلك المصيبة فيهم ، كذلك ينبغى عليهم أن يوطنوا أنفسهم على ألا يحزنوا ، ولا يأسوْا على ماسيحل بهؤلاء المشركين من بلاء ، وما يصيبهم من قوارع ، أى كوارث ونوازل ، ذلك أنهم قد استوجبوا بكفرهم ، هذا الخزى والبلاء فى الدنيا »

على يد المؤمنين ، الذين سينصرهم الله عليهم ، ويمكّن لهم من ديارهم وأموالهم . .

— وفى قوله تعالى : « تصيبهم بما صنعوا قارعة » إشارة إلى أن ماسيحل بالكافرين من خزى فى هذه الدنيا ، هو مما كسبته أيديهم ، ومما جرّه عليهم كفرهم وضلالهم . .

والقوارع التى أصابت هؤلاء الكافرين كثيرة . . منها ما أصابهم به المسلمون فى غزوة بدر ، وما رماهم الله سبحانه وتعالى به من خزى فى غزوة الأحزاب ، حيث يقول سبحانه : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » (٢٥ : الأحزاب) . . ثم ما كان فى فتح مكة ، حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرفاً على عُتاة قريش وجبابرتها ، وقد خشعوا بين يديه ، وضَرَعوا له فى ذلة واستكانة ، فقال :

« ما تظنون أنّى فاعل بكم » ؟ فقالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال — صلوات الله وسلامه عليه — : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ! » .

— وقوله تعالى : « حتى يأتى وعد الله .. إن الله لايخلف الميعاد » . . إشارة إلى أن هذه القوارع التى تحل بالكافرين لا ترتفع عنهم أبداً ، ما داموا فى هذه الحياة الدنيا ، وما داموا فى لباس الكفر ، وذلك إلى أن يأتى وعد الله وهو فتح مكة الذى وعد الله سبحانه وتعالى ، النبىّ والمؤمنين به فى قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » (٢٧ : الفتح) .. « إن الله لايخلف الميعاد » .. فقد صدق الله وعده ونصر عبده وفتح له البلد الحرام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ..

* قوله تعالى : «ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب» ـ هو عزاءٌ للنبي الكريم ، ومواساة كريمة له . لما كان يصيبه من أذى ، يُلقى به إليه قومه ، بلا مبالاة وبغير حساب .. فالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس أولَ من دعا إلى الخير فلقى الأذى ، ومدّ يده بالهدى ، فردّ السفهاء يده .. فلقد سبقه إلى ذلك كثيرون من رسل الله ، مستهم من أقوامهم البأساء والضرّاء .. ولكن الله سبحانه أملى لهؤلاء السفهاء ، أى أمهلهم ، وأفسح لهم فى الحياة وزينتها ، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .. كما يقول سبحانه : « فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرضَ ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت) .

— وفى قوله تعالى : « فكيف كان عقاب » . . وعيد لهؤلاء المشركين من قريش ، وإلفاتٌ لهم إلى ما أخذ الله به الظالمين قبلهم : وإنه لعقاب أليم .. وبلاء محيط ، يهلك الحرث والنسل ..

* قوله تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت .. » الاستفهام هنا إنكارى .. والهمزة بمعنى أىّ .. والتقدير : أىٌّ أحق بالعبادة ، من هو قائم على كل نفس بما كسبت ، فيعلم سرها وجهرها ، ويجزيها على ما تعمل من خير أو شر ، أم تلك الآلهة التى ولدتها الأوهام والضلالات ؟ .

وقد حُذف المعادل لهمزة التسوية استخفافاً به ، وهواناً له ، وتنزيهاً لله سبحانه أن يقارن به شىء من خلقه ، أو من ضلالات خلقه . ولهذا جاء النظم القرآنى عارضاً قدرة الله ، وأنه القاهر فوق عباده ، القائم على كل نفس بما كسبت .. ضارباً عن ذكر الآلهة التى افتراها المفترون ، وعبدها المشركون الضالون ..

* وقوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء » هو البديل من المقابل لقوله تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » فبدلا من أن يجىء النظم القرآنى هكذا : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أم تلك الأصنام الصماء الخرساء التى تعبدونها ؟ ـ جاء قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء » بدلا من هذا المقابل، الذى يعرض تلك الآلهة فى ميزان واحد مع الله سبحانه وتعالى .. وكان قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء » مشيراً إلى هذا المقابل من طرف خفى ، وعارضاً له فى معرض الزراية والاستخفاف ، كاشفاً عن وجه هذه المعبودات التى يعبدونها ، وأنها من صنع أيديهم ، أو من مواليد أوهامهم وضلالات عقولهم.. « وجعلوا لله شركاء !! » فهى مجهولة ، أى مصنوعة ، أو مختلقة .. « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » (٢٣ : النجم) .

وقوله تعالى :

* « قل سموهم » هو تحد لهؤلاء المشركين أن يكشفوا عن وجه هذا الخزى الذى فى أيديهم ، وأن يضعوا لهذه المواليد أسماء تُعرف بها ! فـكما استولدوا هذه الآلهة من ضلالاتهم ، كان عليهم أن يضعوا لـكل مولود اسماً !! ..

وفى مطالبتهم بتسمية آلهتهم تلك ، إشارة إلى أنها أشياء غير معقولة ، وغير متصوّرة ، وأنها لا يمكن أن تـكون لها أسماء دالة عليها .. إنها أوهام وخرافات وضلالات ، فإذا أطلقت عليها أسماء ، فهى إشارات عمياء ، ليس بينها وبين مسمياتها صلة ، من قريب أو من بعيد . .

فالاسم عادة صفة من صفات المسمى ، ودلالة من دلالاته .. فمن أسماء

الله سبحانه وتعالى .. الرحمن .. الرحيم .. الخالق .. البارىء .. المصور .. السميع .. البصير .. الرازق .. القوى . العزيز .. إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى ..

ومن أسماء تلك الآلهة : هُبَل ، وودّ ، وسُواع ، ويغوث ، ونسر .. وهى جميعها لا يراد منها إلا التفرقة بين هذه الدُّمى المنصوبة ، ليعرف بعضها من بعض كما كانوا يفعلون ذلك فى تسمية بعض حيواناتهم ، وأدواتهم ..

فطالبتهم بذكر أسماء آلهتهم تلك ، هو اختبار عملىّ لهم ، يضع بين أيديهم ما تكشف عنه هذه الأسماء من مسميات ، هزيلة تافهة ، لا يرجى منها خير ، ولا يخشى منها ضر ..

* قوله تعالى : « أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض .. أم بظاهر من القول ؟ » .

هو إشارة إلى أن هذه الأسماء التى أطلقوها على آلهتهم ، والتى وجدوا فى أنفسهم الجرأة على النطق بها ، وهى مما لا وجود لمسمياتها ـ إذ أن تلك الأسماء التى أطلقوها عليها، لا صلة بينها وبين تلك المسميات ، وإنما هى ـ كما قلنا ـ إشارات عمياء ، أرادوا بها أن تكون مجرد رمز ، أو إشارة ، يميزون بها بعضها من بعض ، كالأطواق والقلائد التى كانوا يميزون بها أغنامهم وكلابهم !

ونفى علم الله عن هذه المعبودات ، هو نفى لعلمه بها على تلك الصفة التى جعلوها لها .. وإنما يعلمها الله سبحانه وتعالى على حقيقتها التى هى لها ..

ـ وفى قوله تعالى : « فى الأرض » ـ إشارة إلى أن هذه الآلهة التى أطلقوا عليها تلك الأسماء ، هى من العالم الأرضى .. من أحجاره ، أو حيواناته .

ـ وفى قوله تعالى : « أم بظاهر من القول » إشارة أخرى إلى أن هذه الأسماء

التي أطلقوها على آلهتهم ، هى كلمات ، لامعنى لها .. وإنما هى أصوات ، تبدو فى ظاهرها كأنها كلام ، أما باطنها فأجوف لاشىء فيه !

* قوله تعالى : « بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم وصُدُّوا عن السبيل .. ومن يُضلل الله فما له من هادٍ » ..

هو الحكم المناسب لما كشف عنه الحال من هؤلاء المشركين ، وما اتخذوا من دون الله من آلهة ، وما جعلوا لتلك الآلهة من أسماء .. « بل زُيّن للذين كفروا مكرُهم » .. أى حَلاَ فى أعينهم هذا المكر ، وحسُن فى عقولهم هذا الضلال ، الذى صنعوه بأيديهم ، وغذّوه بأوهامهم وخيالاتهم ، فكان مكراً سيئاً .. « ولا يَحيق المكر السيىء إلا بأهله » فأضلّهم الله « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » يهديه ، ويرفع عن عينيه غَشَاوة الضلال ..

— وفى قوله تعالى : « وصُدُّوا عن السبيل » إشارة إلى أن قوة خارجة عنهم هى التى صدّتهم عن سبيل الله ، وحالت بينهم وبين الهدى . وتلك القوة وإن كانت خارجة عنهم إلاّ أنهم قد استدعوها بضلالهم وعنادهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٥ : الصف) .

— وقوله تعالى : « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » ـ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أخلى بينهم وبين أهوائهم ، ليضلّوا ، فضلّوا . .

* قوله تعالى : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشقُّ ومالهم من الله فى من واقٍ » .

هذا هو جزاء المكذبين الضالّين ، الذين حادّوا الله ورسوله .. « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » بما ينالهم على يد المؤمنين من هزيمة ، وبما تغلى به قلوبهم أبداً من حسرةٍ وكدٍ .. فالكافر همّه كله فى هذه الدنيا ، وحياته كلّه محصورة فى الأيام المعدودة التى يعيشها فيها .. فهو من أجل هذا ، حريص أشد الحرص

على كل مافى دنياه هذه ، فإذا فاته شىء منها ـ وما أكثر مايفوته ـ استبدّ به الجزع ، واستولى عليه اليأس ، وملكه الحزن .. وإن أصيب بموت قريب أو حبيب ـ وما أكثر مايُصاب ـ لم يجد شيئاً من ذلك العزاء ، الذى يجده المؤمنون الذين يفوضون أمرهم لله ، ويُسلمون مصيرهم إليه ، ويرجون العاقبة عنده ، ويحتسبون الصبر لديه .. ! وهكذا الكافر فى قلق دائم ، وجزع متصل، إذ لاحياة له وراء هذه الحياة ، حسب تقديره وتفكيره .. فحيثما التفت ، وجد العدم باسطاً يديه لاحتوائه ، والفناء فاغراً فاه لابتلاعه .. !

— « ولعذاب الآخرة أشق » .. وهذا عذاب لايتوقعه الكافر ، ولا يعمل حساباً له ، وإنما هو عذاب يجيئه على غير انتظار ، ويطلع عليه من حيث لايحتسب ..

— «وما لهم من الله من واقٍ » أى ليس هناك من يدفع عنهم هذا العذاب ، أو يخفف عنهم من شدته وهوله . .

الآيات : (٣٥ — ٤٣)

* « مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » (٤٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « مَثَلُ الجنةِ التى وُعد المتقون .. »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أنّه وقد ذُكر مصير المشركين فى الآية السابقة عليها ، فى قوله تعالى : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشقّ وما لهم من الله من واقٍ » ـ كان من المناسب أن يُذكرَ فى مقابل هذا المصيرِ المشئوم، المصيرُ الحسن الطيّب ، الذى أعدّه الله للمؤمنين المتقين من عباده ، ليكون فى ذلك إثارة لأشواق المؤمنين ، وتعجيل بتلك البشريات المسعدة لهم ، فى حين أنه يملأ قلوب المشركين حسرة وألمًا ، ويقطع أكبادهم كمدًا وحسدًا ..

ومَثَلُ الشىء مايماثله ، ويشبهه ، فى بعض الوجوه ، لافى كل وجه .. كما تقول مثلا : القط مثل النمر.. وهذه الفتاة مثل القمر ، وهذا الطفل مثل الزهرة .. فهناك وجه شبه يجمع بين المشبّه والمشبّه به ، وصفة مشتركة بينهما يلتقيان عندها .. والمَثَل يجمع أكثر من صورة من صور التشبيه ، فهو تشبيه مركّب .

—وفى قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون .. » إشارة إلى أن هذا المرض ليس للجنة ، فى ذاتها ، وإنّماهو عرض لجنّةٍ تشبهها .. إذ أن الجنّة التى أعدها الله المؤمنين المتقين من عباده ، لايمكن وصفها لنا ، إذ لاشىء مما فى دنيانا هذه ، يشبه أشياءها . كما ورد فى الأثر : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » .. فأشباه الجنة غير واقعة فى فهمنا أو تصورنا ، ومن ثَمّ لم يكن للكلمات التى نتعامل بها مجال ، لتصوير مالا نفهمه ولانتصوره .. فكان الحديث عنها بعرض صورة تشبهها ، هو أقرب شىء ممكن أن نتمثل فيه صورة لها ..

—وقوله تعالى :« مثل الجنة التىوُعد المتقون » .. مبتدأ ، وخبره محذوف، موصوف ، بقوله تعالى : « تجرى من تحتها الأنهار » . أى هى جنة تجرى من تحتها الأنهار .. والتقدير على هذا :« مثل الجنة التى وُعد المتقون » مثل جنة « تجرى من تحتها الأنهار . . أكلها دائم وظلها » .. فهذه الجنة التى تشبه جنة الآخرة موصوفة بصفتين .. تجرى من تحتها الأنهار . . وأكلها دائم وظلّها .. أى ثمارها دائمة لاتنقطع أبداً ، كما تنقطع ثمار الدنيا ، وظلها دائم ، أى مورقة مخضرة دائما ، لاتتغيّر كما تتغير أشجار الدنيا على مدار الفصول ..

* وقوله تعالى : « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النّار » تأكيد للوعد الذى وعده الله المتقين بهذه الجنة فى قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون » فهى لهم وحدهم ، على حين أن للكافرين النار .. فكل ينزل الدار التى هو أهلٌ لها ..

* قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتابَ يفرحون بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ومن الأحزابِ من ينكر بعضه » .

الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ..

والسؤال هنا : كيف كان يفرح أهل الكتاب بما أنزل على النبى ؟ وإذا كانوا على تلك الصفة فلماذا لا يؤمنون به ، ولا يستجيبون له ؟ بل لماذا كانوا حرباً عليه ، وحزْباً مع المشركين على الكيد له ؟

والجواب على هذا من وجوه :

أولا : أن هذا كان فى أول الدعوة الإسلامية ، وكان أهل الكتاب يرصدون مطلع النبىّ ، وينتظرون ظهوره .. فلما ظهر النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — توقعوا أن يكون مبعوثاً إليهم ، وإن كان من العرب ، وانتظروا فى تلهف ما ينزل عليه من آيات .. وإذ كان ينزل على النبىّ من آيات الله — فى أول الدعوة — هو دعوة إلى الإيمان بالله ، والانخلاع عن عبادة الأصنام — فإن أهل الكتاب ، لم يروْا فى هذا مايضيرهم ، أو يعارض الدين الذى هم عليه . . فكانوا لذلك يستبشرون بما ينزل على النبىّ فى تلك المرحلة من الدعوة ، فلما أن دكّ الإسلام حصون الشرك ، وهدم معاقله ، والتفت إلى أهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، كان منهم هذا الموقف اللئيم المخادع الذى وقفوه من النبىّ الكريم ، ورسالته . .

وثانياً : أن فى القرآن الكريم ذِكراً لليهود والنصارى . . وهذا الذكر منه ماهو فى مقام المدح لهم ، ومنه ماهو فى مقام الذمّ لمخازيهم ، والفضح لنفاقهم . .

فاليهود مثلاً ، كانوا يسمعون مانزل على النبىّ مثل قوله تعالى : « فإن كنتَ فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » (٩٤ : يونس) وقوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم

وأنى فضلتكم على العالمين» (٤٧ : البقرة) كما كانوا يسمعون ما نزل من القرآن فيما كان بين موسى وفرعون، ونجاتهم على يد موسى، وغرق فرعون وجنوده، وكان هذا مما يسرّهم، وينعش نفوسهم.. فيتلقّون ما نزل من القرآن فى مثل هذا، بالقبول والرضا.. فإذا نزل من القرآن ما يفضح الجوانب الخبيثة فيهم، ويكشف عن وجوه الشر المنطوية عليه صدورهم، مثل قوله تعالى فيهم: «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه» ١٣ : المائدة).. وقوله سبحانه: «ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً» (٥١ ـ ٥٢ : النساء) ـ إذا سمعوا مثل هذا من كلام الله، ساءهم وأفزعهم، فأنكروه، وأنكروا على الرسول رسالته كلها.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ومن الأحزاب من ينكر بعضه».. فالأحزاب هنا هم جماعات اليهود الذين كانوا حِزْباً على النبى مع مشركى قريش، ومن انضم إليهم من قبائل العرب، فهم لا ينكرون كل ماجاء فى القرآن، وإنما ينكرون منه ما فضح نفاقهم، وكشف تحريفهم لكتاب الله الذى فى أيديهم..

وكذلك كان شأن النصارى.. يفرحون بالآيات التى تحدث عنهم حديثاً فيه ذكر طيب لهم، كقوله تعالى: «لتجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» (٨٢: المائدة).. وكقوله تعالى: «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» (٣٣ : آل عمران) ومثل ماقصّ القرآن من سيرة مريم.. فكل هذا مما يرضاه النصارى من القرآن، ويمسكون به منه، أما ماجاء فى القرآن من

حديث عن عيسى عليه السلام ، وأنه عبد من عباد الله ، وليس ابناً لله ، ولا إلهاً مع الله ، وأن من يعبده على هذا المفهوم الخاطىء ، كان كافراً بالله ـ ساءهم ذلك وأنكروه . .

وثالثاً : ليس كل اليهود والنصارى وقف من الرسول الكريم ، ومن كتاب الله الذى بين يديه ، موقف الكفر به والتكذيب له ، بل كثيرٌ منهم كان على انتظار لظهور هذا النبيّ ، تحقيقاً للبشريات التى بشرت بها عنه التوراة والإنجيل . . فلما جاء النبيّ لم ينكروه ، بل تهيأت نفوسهم لاستقباله ، واختبار ماعنده من كلمات الله . . فكانت كلما نزلت آياتٌ من القرآن الكريم كشفت لهم دلائل جديدة تزيد من إيمانهم بالرسول ، ومن تيقّنهم بصدقه . . فيفرحون لذلك ويستبشرون . .

— قوله تعالى : « قل إنما أمِرْت أن أعْبُدَ الله ولاأشركَ به إليه أدعو وإليهِ مآبِ » . .

هو ردٌّ على موقف أهل الكتاب الذين ينكرون بعض ما أنزل على النبى ، وإنكار لموقفهم هذا من رسول الله ، وكتاب الله . .

فماذا ينكر أهل الكتاب من رسول الله ومن الكتاب الذى معه ؟

إنه يعبد الله . . إلهاً واحداً لاشريك له . .

وهو ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بهذه الدعوة يدعو عباد الله ، إلى الإيمان بالله . . إلهاً واحداً لا شريك له . .

فماذا فى هذا الكتاب الذى بين يدى الرسول ، والذى هو دستور دعوته ـ ماذا فيه مما يخرج عن هذه الدعوة حتى ينكره المنكرون ، ويكفر به الكافرون ؟

أليس أهل الكتاب مؤمنين بما فى كتبهم ؟ أو ليست كتبهم من عند الله

إله واحد ؟ إن كان ذلك كذلك ـ فلماذا ينكرون على النبيّ دعوته ، وهو إنما يدعو إلى الله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؟ « قل يـٰأهل الكتاب تعالوْا إلى كلمةٍ سَوَاء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله .. فإن تولوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٦٤ : آل عمران) .

— وفى قوله تعالى : « إليه أدعو وإليه مآب » أسلوب قَصْر ، يراد به أن الرسول لايدعو إلا إلى الله وحده ، وأنه إذا كان لأهل الكتاب دعوة إلى إله غير الله ، فلا شأن له بهم ، أمّا هو فإن دعوته إلى إله واحد .. لاشريك له .. وأن مآبه ومرجعه إليه .. فإذا كان فى أهل الكتاب من يَرَى له مرجعاً إلى غير الله ، فذلك رأيه ، وعليه تبعته .. أما الرسول فإنه لامرجع له إلا إلى الله ..

* قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه حُكما عربيًّا ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا واقٍ » ..

أى كهذا الذى أنت عليه أيها النبيّ ، وهو التزامك بالعبوديّة لله وحده ، ودعوتك الخالصة له ، وإيمانك بمرجعك إليه ـ كهذا الذى أنت عليه جاء الكتاب الذى أنزل عليك .. فالزَمْه ، واستقم عليه ، ولا تلتفت إلى ماجاء فى غيره من الكتب السابقة إن لم يكن مطابقاً له ، فهو الذى أنزله الله عليك حكما عربياً .. أى حاكما بأسلوبه العربى الذى نزل به ، على الكتب السماوية السابقة ، ومهيمناً عليها ..

فالحُكم هنا بمعنى : الحاكم المهيمن ، ذو السلطان ..

وجاء اللفظ القرآنى « الحكم » بمعنى « الحاكم » ولم يجىء بلفظه ، للإشارة

إلى أن القرآن الكريم هو « حُكْم » صدر من « حاكم » حكيم ، هو الله سبحانه وتعالى ..

وفى وصف « الحكم » بأنه عربى ، تنويه بشأن الأمة العربية ، ورفع لقدرها ، ولشرف لغتها التى حملت حكم الله الحكيم العليم على الإنسانية كلها ، بلسان العرب ، وعلى يد الرسول العربىّ ..

— قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولا واقٍ » ..

هو تعريض بما مع أهل الكتاب من ضلالات وأهواء أدخلوها على ماجاءهم به رسول الله من نور وهدًى .. ثم هو من جهة أخرى توكيد لما فى يد النبىّ من حق ، وأنه بهذا الحق قد عَلِمَ بما فى أيدى أهل الكتاب من أهواء ومفتريات ، وذلك حين التقى الحق الذى معه بالباطل الذى فى أيديهم ..

وتحذير النبى من اتباع أهواء أهل الكتاب ، مع العلم الذى علمه من أمرهم — هذا التحذير هو إشارة لما مع أهل الكتاب من باطل ، ينبغى على كل عاقل أن يحذره ، ويتوقى الخطر الذى يتهدد مَن يقترب منه .. حتى النبىّ نفسه ، مع ما يملك من قوى الإيمان ، ومع ما يحوطه من رعاية ربه ، إن اتبع أهواء هؤلاء القوم تعرض لنقمة الله ، ولم يكن له من ولىّ يدفع عنه بلاء الله ، أو يقيه بأسه إن جاءه !! فكيف بغير النبى من عباد الله ؟ إن الخطر شديد ، وإن البلاء داهم ، وإنه لا عاصم من أمر الله لمن ألقى نفسه فى لجج هذا الطوفان !.

* قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية .. وما كان لرسولٍ أن يأتىَ بآية إلا بإذن الله .. لكلِّ أجلٍ كتاب » .

فى هذه الآية ردٌّ على المشركين ، وتحديد لموقف النبى منهم ، بعد أن جاءت

الآية السابقة عليها ، فاضحة لأهواء أهل الكتاب ، محذرةً النبي من أن يلتفت إليهم ، أو يتعامل معهم بهذه الأهواء التي بين أيديهم ..

والمشركون ، كانوا ينكرون على النبي أن يكون إنساناً مثلهم ، يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون .. كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانهم : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » .. (٧ : الفرقان) ..

فجاء قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرّية » ليقرر أن هؤلاء الرسل كانوا بشراً ، وكان لهم ما للبشر ، من أزواج وذرية .. فلست أنت أيها النبيّ بِدْعا من الرسل حتى يُنكر منك المشركون ما أنكروا ! ..

— وفي قوله تعالى : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » هو ردٌّ على ما كان يقترحه المشركون على النبيّ ، كقولهم الذي حكاه القرآن عنهم : « لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقى إليه كنْزٌ أو تكون له جنّة يأكل منها » (٧ ـ ٨ الفرقان) وقولهم أيضاً : « وقالوا لن نؤمِنَ لك حتى تفجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتفجّرَ الأنهار خلالَها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتِيَ بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمِن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربّي هل كنتُ إلا بشراً رسولا » (٩٠ ـ ٩٣ : الإسراء) ..

فالرسول لا يملك من أمر نفسه إلا ما يملك سائر الناس من أمر أنفسهم .. إنهم جميعاً في قبضة الله ، وتحت سلطانه .. وليس لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلاّ بما يأذن الله له به من آياته . « قل إنما الآيات عند الله » (٥٠ : العنكبوت) ـ وهو

سبحانه الذى ينزلها بقَدَر : « لكل أجلٍ كتاب » .. فكل آية مرهونة بوقتها ، شأنها فى هذا شأن المواليد التى تولد ، والأحياء التى تموت .. فلا يولد مولود إلا بإذن الله ، وفى الوقت الذى قدّره الله له ، ولا تموت نفس إلا بإذنه ، وفى الوقت الموقوت لموتها ..

* قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبتُ وعنده أمُّ الكتاب »

المراد بالمحو والإثبات هنا ، هو ما يقع فى الوجود من آثار قدرة الله ، وتصرفاته فى الموجودات ، من إحياء وإماتة ، ومن بناء وهدم ، ومن زيادة ونقص ، ونهار وليل ، وزرع وحصاد .. إلى غير ذلك مما يجرى عليه نظام الوجود .. فهناك محوٌ وإثبات ، وإثبات ومحوٌ .. وكذلك الآيات التى يحملها رسل الله إلى أقوامهم ، هى واقعة تحت هذا الحكم ، يمحو الله منها ما يشاء ، ويُبقى منها ما يشاء .. وينسخ ديناً ، ويقيم ديناً ، ويمحو شريعة ويثبت شريعة..

وهذا كله ثابت فى علم الله .. فما يقع شىء فى هذا الوجود إلا وهو واقع فى علم الله الأزلىّ .. يظهر فى وقته الموقوت له فى علم الله ..

والمراد « بأم الكتاب» هو علم الله ، الذى يرجع إليه كل أمرٍ : «وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا فى كتابٍ مبين » (٥٩ : الأنعام)

* قوله تعالى : « وإما نرينّك بعض الذى نعدهم أو نتوفينّك فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا الحساب » هو وعيد لهؤلاء المشركين والكافرين جميعاً ، وأنهم فى معرض النقمة والبلاء ، من الله ، وسواء أوقع عليهم البلاء وحلّت بهم النقمة والنبىّ حىّ يرى بعض هذا ويشهده ، أو يموت قبل أن يرى ما توعدهم الله به ، فإن ذلك ليس من همّ النبىّ ، ولا مما يشغل نفسه به ، وإنما مهمته هى

أن يبلغَ رسالة ربّه ، ويدَعَ حسابَ المبلّغين لله سبحانه ، فهو ـ جل شأنه ـ الذى يتولى حسابهم وجزاءهم .

* قوله تعالى : « أولم يروْا أنّا نأتى الأرض نَنْقُصُها من أطْرافها والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب »

المراد بنقص الأرض ، ما يطرأ عليها من تغيير وتبديل ، وما يصيب الناس فى أرزاقهم وأعمارهم . . وإذا كان الذى يحدث فى الأرض من نقصٍ يحدث إزاءه مايقابله من زيادة ، إلا أن الأمر الذى أُريد الإلفات إليه هنا هو ما يحدث من نقص ، فى الأموال ، والأنفس ، والثمرات ، إذ كان ذلك هو الذى يهتمّ له الإنسان أكثر من اهتمامه لجانب الزيادة ، وإذ كان المقام هنا مقام تهديد بنقم الله ، حيث يرى المشركون والكافرون هذه الغيَر ، وتلك الجوائح التى تقع هنا وهناك فى أطراف الأرض ، وأنها ليست بعيدة عنهم ، ولا هم بمأمنٍ منها . .

ـ « والله يحكم لا معقّبَ لحكمه » أى أنه سبحانه إذا أراد أمراً نفذ ، دون أن يعترض عليه معترض ، أو يفلت منه مطلوب له : « وإذا أراد الله بقومٍ سوءا فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ » (١١ : الرعد)

ـ « وهو سريع الحساب » أى أنه سبحانه وتعالى بقدرته ممسك بكل شىء ، عالم بكل شىء . . لا يشغله شأن عن شأن ، ولا حساب أحد عن أحدٍ ، فلو أراد سبحانه حساب الناس جميعاً فى طرفة عين لكان ذلك كما أراد !

* قوله تعالى : « وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عُقْبَى الدار » ـ هو تهديد لهؤلاء المشركين والكافرين ، الذين تصدّوْا للنبىّ ، وآذوْه ، وبَهَتُوه وكذّبوا به . . وكان لهم فى هذا مكرهم وتدبيرهم . . ولكن أين يقع هذا المكر والتدبير من مكر الله

وتدبيره ؟ إنه قطرة من محيطات ، وهباءة من جِرم السموات والأرض !

ـ « يعلم ما تكسب كل نفسٍ » فيحاسب ويجازى . . لا يفلت مجرم من حسابه وعقابه . .

ـ « وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » . . وعند الحساب سيرىٰ الكفار بأعينهم لمن الفوز والظفر ، وعلى من الخزى والخذلان ؟

* قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لَسْتَ مُرْسلًا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علمُ الكتابُ » . .

بهذه الآية الكريمة تُختم سورة « الرعد » ، فيلتقى ختامها مع بدئها : « المر تلك آياتُ الكتاب والذى أُنزِل إليكَ من ربك الحقّ ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون » . . ثم يصافح هذا الختام بدء السورة التى بعدها « إبراهيم » : « الر كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراطِ العزيز الحميد * الله الذى له ما فى السمواتِ وما فى الأرض وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد » . .

ـ فقوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لست مرسلًا » ـ هو جواب الكافرين على هذا الكتاب الذى جاءهم النبىّ به ، والذى هو الحقّ الذى أنزل إليه من ربه . .

وقوله تعالى فى أول سورة « إبراهيم » ـ بعد هذه السورة : « الر كتاب أنزلناهُ إليك لتخرج الناسَ من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ـ هو ردٌّ على جواب هؤلاء الكافرين ، وردْع لهم ، وأنهم لم يخرجوا من الظلمات إلى النور ، ولم يأذن الله لهم بالخروج من تلك الظلمات . .

ـ وقوله تعالى : « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » إحالة للكافرين على موقف الحساب والمساءلة بين يدى الله ، وهو سبحانه حَكَم عدل بينهم وبين

للنبيّ ، عالم بما كان منه من أمانة فى تبليغ ما أمر بتبليغه من ربه ، وما كان منهم من تكذيب وبهت وكفر !

ـ وقوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » معطوف على فاعل الفعل « كفى » وهو لفظ الجلالة « بالله » والباء حرف جرّ زائد . . أى كفى الله شهيداً بينى وبينكم ، وكذلك من عنده عِلمُ الكتاب منكم ، أى أهل العلم ، فإنهم يعلمون أنى مرسلٌ من عند الله ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » (٢٠ : الأنعام) وقوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتابَ يفرحون بما أُنزل إليك » (٣٦ : الرعد) وقوله سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » (٥٢ : القصص) وقوله جل شأنه : « أوَلم يكن لهم آيةً أن يعلمَهُ علماء بنى إسرائيل » (١٩٧ : الشعراء)

فعلماء بنى إسرائيل يعلمون صِدق الرسول ، وصدق ما جاء به من عند الله . وإن كتمه بعضهم ، وآمن به بعضهم . . وهم شهود على الكافرين المكذبين من قومهم . . « وشهد شاهدٌ من أهلها » . « وكفى بالله شهيداً »

١٤ - سورة إبراهيم

نزولها : مكية بالإجماع .

عدد آياتها : اثنتان وخمسون آية .

عدد كلماتها : ثمانمائة وإحدى وثمانون آية .

عدد حروفها : ستة آلاف وأربعمائة وأربع وثلاثون حرفاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

* « الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٤)

التفسير :

قوله تعالى :

* « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . .

الذى نقوله هنا فى « المـر » هو ماقلناه من قبل فى « المـر » فى سورة الرعد ، وفى الحروف المقطعة ، التى بدأت بها بعض سور القرآن الكريم . . وهى أنها من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . . وأن ماجاء فى السورة بعد من آيات الله ، هو تأويل هذا المتشابه . .

وعلى هذا ، يكون : « آلر » مبتدأ ، وقوله تعالى : « كتاب أنزلناه .. » خبر لهذا المبتدأ . .

وقد أشرنا فى آخر سورة « الرعد » إلى أن بدء سورة « إبراهيم » هنا هو ردٌّ على قول المشركين والكافرين ، الذى حكاه القرآن الكريم عنهم ، فى قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لستَ مُرْسَلاً » . .

ففى قوله تعالى : « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ـ توكيد من الله سبحانه وتعالى لرسالة النبى ، وأنه يحمل بين يديه كتاباً أُنزل إليه من ربّه ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وذلك بإذن ربه الذى يهدى من يشاء ، ويضلّ من يشاء . .

— وقوله تعالى : « إلى صراط العزيز الحميد » بدل من « النور » . . والتقدير لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، إلى صراط الله العزيز الحميد ، ذلك الصراط ، الذى هو نور تستضىء به البصائر . .

وفى وصف الله سبحانه بهاتين الصفتين الكريمتين : « العزيز الحميد » تهديد للكافرين بعزة الله ، وسلطانه الغالب ، وتذكير للمؤمنين بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وأنه المستحق للحمد ، والحامد لعباده المؤمنين ما يقدّمون له من طاعات وقربات .

— وفى قوله تعالى: « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » - إشارة إلى عموم رسالة النبى الأمىّ، وشمولها الناسَ جميعاً..

* قوله تعالى: « اللهِ الذى له ما فى السّموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد.. » - هو من عطف البيان على قوله تعالى: « العزيز الحميد » .. فالعزيز الحميد، هو الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض، أوجدهما بقدرته وملكهما بعزته، واستولى عليهما بسلطانه..

— وفى قوله تعالى: « وويل للكافرين من عذابٍ شديد » تهديد للكافرين، ووعيد لهم بالعذاب الشديد، الذى ينتظرهم يوم القيامة، من مالك الملك، الذى إليه كل شىء، وبيده كل شىء.

* قوله تعالى: « الذين يستحبّون الحياةَ الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد » - هو كشف عن صفات أولئك الكافرين، الذين توعدهم الله بالعذاب الشديد، وتلك الصفات التى جرّتهم إلى الكفر، وأقامتهم عليه، وذلك أنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأفرغوا لها جهدهم، وأذهبوا فيها طيباتهم، على حين غفلوا عن الآخرة، وزهدوا فيها، ولم يعملوا أى حسابٍ لها.. وهم لهذا يَصدُّون عن سبيل الله.. يصدّون أنفسهم عن الإيمان، ويَصدّون الناس كذلك عن أن يؤمنوا بالله، ويأبَوْن إلا أن يركبوا طرق الضلال، وأن يركبها الناس معهم.
— « أولئك فى ضلال بعيد » لأنهم ضلوا، وأضلّوا، فكانت جنايتهم غليظة، وجرمهم شنيعاً.

* قوله تعالى: « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه ليبيّن لهم فيضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » .. هو بيان لحكمة الله فى إرسال الرسل، واختيارهم من بين أقوامهم، وذلك ليأنسوا إليهم،

ولا يستوحشوا منهم ، أو يأنفوا الانقياد لهم ، إذا كانوا من قوم غير قومهم ، ومن أمة غير أمتهم .

والمراد بلسان قومه ، جنسهم ، ولغتهم التى يتعاملون بها ، إذ كان اللسان هو أداة اللغة وترجمانها .. وإذ كانت اللغة هى التى تكشف عن وجه الإنسان ، وعن الأمة التى ينتمى إليها .

— وفى قوله تعالى : « ليبيّن لهم » إشارة إلى الحكمة التى من أجلها جاء الرسول إلى كل أمة ، منها ، وبلسانها ، حتى يفهموا عنه مايقول حين يتحدث إليهم « ليبين لهم » ما أمره الله به . . فببيانه ينكشف لهم الطريق إلى الله ، وبغير هذا البيان يظل الطريق بينهم وبين الرسول مسدوداً ..

— وفى قوله تعالى : « فيضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء » إشارة أخرى إلى أن هذا البيان الذى يبيّنه الرسول لقومه ، ليس فيه قَهْر لهم ، أو إلجاء واضطرار إلى الإيمان بالله . . ذلك أن الإيمان بالله ، هو بيد الله ، فمن شاء الله له الإيمان ، آمن ، ومن لم يشأ له أن يكون فى غير المؤمنين بقى على كفره ، ولن ينفعه هذا البيان الذى بيّنه الرسول شيئاً . . وذلك هو حكم الله فى عباده ، وسنّته فى خلقه . . يبعث رسله فيهم ، ويقوم الرسل بتبليغ رسالة الله إليهم ، وكشف الطريق إلى الله لهم .. ومطلوب من النّاس أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم إلى دعوة الله ، وأن يستجيبوا لها . فمن كانوا ممن أراد الله لهم الهدى والإيمان ، اهتدوا وآمنوا ، وحُسِبَ ذلك لهم من كسبهم ، ومن كانوا من أهل الكفر والضلال ، جَمَدوا على كفرهم ، وظلّوا على ضلالهم ، وحُسِب ذلك من كسبهم أيضاً . .

فإذا ذهبت تسأل : ماأثر هذه الرسالات التى يحملها الرسل إلى النّاس ،

وما جدّواها فيهم ، وقد غلبت مشيئة الله ، فكان المؤمنون مؤمنين بمشيئة الله ، وكان الكافرون كافرين بمشيئته ؟

إذا ذهبت تسأل هذا السؤال ، جاء الجواب فى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » . . العزيز الذى عزّت مشيئته ، وغلبت إرادته ، والحكيم الذى أقام العباد فيما أراد ، ووضعهم حيث شاءت حكمته ، وقضت إرادته .

وقد عرضنا مشيئة الله ومشيئة العباد فى مبحث خاص[1] .

الآيات : (٥ — ٨)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » (٨)

التفسير :

فى الآية (٤) من هذه السورة ، جاء قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم » . .

(١) انظر هذا البحث ص ٢٦٢ من الكتاب الرابع تفسير الجزء الثامن .

وفى قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأيام الله » . . تطبيق لهذا الحكم ، الذى قضى به الله سبحانه وتعالى ، وهو ألا يرسل رسولاً إلا بلسان قومه . .

فها هو ذا موسى ، عليه السلام ، وهو من بنى إسرائيل ، يبعثه الله — سبحانه وتعالى — رسولاً إلى قومه ، ليخلصهم من فرعون .. أولاً ، ثم يخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى والإيمان .. ثانياً . .

وأيام الله التى يذكرهم موسى بها ، هى تلك الأيام التى كانت لله سبحانه وتعالى ، فيها نعمٌ ظاهرة عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون ، وخلصهم من البلاء الذى يلقونه تحت يد فرعون . . ففى هذه النعم آياتٌ « لكلِّ صبّارٍ شكور » إذ لا يرى فى تلك الآيات ، آثارَ رحمة الله ، وعظيم نعمته ، إلا من كان قد وطّن نفسه على احتمال الضر ، والصبر على المكروه ، احتساباً لله ، ورجاء فى العافية ، واستشوافاً للرحمة والإحسان من فضله — فإذا أذِن الله بالفرج ، وهبّت أرواح الرحمة والعافية ، اتجهت القلوب المؤمنة بالله ، إلى الله بالحمد والشكر ، كما اتجهت إليه من قبل بالدعاء والتضرّع .

* وقوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه ياقومِ اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ـ هو ما امتثل به موسى أمر ربّه ، فى قوله تعالى له : « وذكّرهم بأيام الله » ـ وها هو هذا يذكرهم بأيام الله ونعمه التى أفاضها عليهم فى تلك الأيام . . فيقول لهم : « ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون » ثم بيّن لهم ما كانوا فيه ، وهم تحت يد هذا

السلطان الجبار، من بلاء. فقال: «يسومونكم سوء العذاب» أى يسوقونكم كما تُساق الأنعام، ولكن لا إلى المرعَى الذى تجد عنده شبعها وريّها، بل إلى العذاب، الذى تصْلوْن ناره، وتتقلبون على جمره..

يقال: سامه على كذا، أى حمله عليه، وأورده إياه.. وسام فلاناً الأمر: كلفه إياه ومنه السائمة، وهى الأنعام التى يسوقها الراعى إلى المرعى..

— قوله تعالى: «ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم» هو بيان لبعض ما كان يأخذ به فرعون بنى إسرائيل من بلاء.. إذ يذبِّح أبناءهم، ويستأصل ذراريهم، ويستحيي نساءهم، أى يبيح حرماتهن، ويعرضهن لما تستحى الحرّة منه.

وقيل: «يستحيون نساءكم» أى يستبقونهن أحياء، فلا يقتلونهن، كما يقتلون الأبناء.. وبهذا يتضاعف البلاء على الأمهات.. إذ يَلِدْن، ثم يُذبح أمامَ أعينهن ما يَلدن.. وفى هذا موت بطىء لهن، وعذاب أليم، تحترق به قلوب الأمهات.. ولهذا جاء قوله تعالى: «وفى ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم» — وصفاً كاشفاً لتلك الحال التى أخذ بها فرعونُ بنى إسرائيل من عذاب ونكال.

* قوله تعالى: «وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد».. تأذّن ربكم: أى أذِن، وحَكم، وقضى..

وما قضى الله به هو أنه — سبحانه — يزيد الشاكرين لنعمه وأفضاله، نِعماً وأفضالاً.. أما من كفر بالله، وبنعمه، فله عذاب شديد، وبلاء عظيم، فى الدنيا والآخرة جميعاً.

* قوله تعالى: «وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً

فإن الله لغنىٌّ حميدٌ » ـ أى إنّ كفر الكافرين لا يضرّ الله شيئاً ، كما أن إيمان المؤمنين لا ينفعه ، فهو الغنى عن خلقه .. إذ كيف يخلقهم ، ثم يحتاج إليهم ؟ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .

— وفى قوله تعالى : « فإن الله لغنىٌّ حميدٌ » — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى غنى عن عباده ، ومع غناه ، فإنه يتقبل من المؤمنين إيمانهم ، ويحمده لهم ، ويجزيهم عليه .. فضلاً منه وكرماً ، وتنويهاً بشأن الطيبات من الأعمال ، وتكريماً للصالحين من عباده .

الآيات : (٩ — ١٧)

* « أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » (١٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ؟ » — يجوز أن يكون من كلام موسى ، خطاباً لقومه ، وتذكيراً لهم بأيام الله ، وما يجرى فيها على عباده .. ويجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً ، خطاباً من الله — سبحانه وتعالى — للمخاطبين من أمة النبي « محمد » صلوات الله وسلامه عليه . .

والنبأ : الخبر ذو الشأن ، الذى يغطى ذِكره على ماعداه من الأخبار .

وفى هذا الاستفهام : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم » — تهديد للمخاطبين ، وإنذار لهم بأن يصيروا إلى مثل مصير هؤلاء الأقوام ، الذين كذبوا رسلهم ، ومكروا بهم ، إذا لم يبادر هؤلاء المخاطبون ، فيصدقوا برسول الله ، ويستجيبوا لما يدعوهم إليه ، مما فيه رشدهم وخيرهم . .

* وقوله تعالى : « قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله » — هو بيان لقوله تعالى : « الذين من قبلكم » .. فالذين من قبل هؤلاء المخاطبين ، هم قوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم ثمود ، وقوم صالح ، وأقوامٌ كثيرون جاءوا بعدهم ، وجاءهم رسل الله .. فكانوا جميعاً على طريق واحد ، من العناد والضلال ، والتكذيب برسل الله ، والكيد لهم .

* قوله تعالى : « جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديَهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك ممـا تدعوننا إليه مريب » — هو بيان لنبأ هؤلاء الأقوام ، وعرض لأخبارهم ، وكشف لمواقفهم من رسلهم . .

ويلاحظ أنهم أُدرجوا جميعاً فى ثوب واحد ، لافرق بين سابقهم ولاحقهم ، حتى لـكأنهم جماعة واحدة ، التقت برسول واحد . . وذلك لِـمَـا كان منهم جميعاً ، من خلافٍ على رسلهم،وإعنات لهم ، ومكرٍ بهم .. وكذلك الرسل ، هم أشبه برسول واحد ، إذ كانت محامل رسالتهم واحدة ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله ، والاستقامة على الهدى . .

فالرسل قد جاءوا إلى أقوامهم بالآيات البينات ، التى تحدِّث عن صدق رسالاتهم ، وأنها منزلة من عند الله ، وأنهم رسل الله المـأمورون بتبليغها إلى من أُرسلوا إليهم .

أما المرسَل إليهم — على اختـلاف أزمانهم وأوطانهم — فإنهم ردّوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : « إنا كفرنا بما أُرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . . »

تلك هى قولة أولئك الأقوام ، وذلك هو ردّهم على الدعوة التى دُعُوا إليها من رسلهم . .

— « فردّوا أيديهم فى أفواههم » وذلك كناية عن أنهم سَـدّوا على الرسل منافذ القول ، فلم يَدَعوهم يبلغون رسالات ربهم ، بل قعدوا لهم بالمرصاد، كلما همّوا بأن ينطقوا بدعوة الحق ، تصدّى لهم السفهاء ، والحمقى من أقوامهم ، يسخرون ، ويهزءون ، و يَلغُون و يَصخبون ، فـكأنهم بهذا قد وضعوا أيديهم على أفواه الرسل ، وحالوا بينهم وبين أن ينطقوا .

ويجوز أن يكون الضمير فى أفواههم عائداً إلى أولئك الأقوام ، وأنهم حين دعاهم الرسل إلى الإيمان بالله ، وضعوا أيديهم على أفواههم ، وردّوا عليهم قائلين : إنا كفرنا بمـا أُرسلتم به . . وذلك إشـارة إلى أنهم رفعوا أصواتهم بهذا المنـكر الذى استقبلوا به دعوةَ الرسـل ، ولم يقولوا ماقالوه فى شىء من الأدب والرفق . فإن وضع اليد على الفم وترديد الصوت من خلالها ، من شأنه أن يعطى الصوت قوة ووضوحاً .

ويجوز أن يكون ردّ أيديهم إلى أفواههم كناية عن أنهم استقبلوا دعوة الرسل لهم إلى الإيمان بالله ، بالصمت المطبق ، استخفافاً بهم ، واستنكافاً من الحديث معهم ، كما فعل ابن مسعود ـ شيخ ثقيف وسيدها ـ حين جاء النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى ثقيف يدعوهم إلى الله ، بعد أن يئس من قومه فى مكة ، فقال له ابن مسعود : « والله لا أكلمك أبداً .. لئن كنت رسول الله كما تقول ، فأنت أعظم من أن أكلمك ، وإن كنت كاذباً على الله ، فما أنت أهل لأن أرد عليك .. »

وعلى هذا التأويل ، يكون قولهم : « إنا كفرنا بما أرسلتم به » هو مما نطق به لسان الحال ، وأنبأ عنهم صمتهم ، وتجاهلهم لما يدعوهم إليه رسلهم ، وعدّهم ذلك لغواً من القول ، لايُستمع إليه ، ولا يردّ على قائله !

— « وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شَكّ مما تدعوننا إليه مريب » ـ أى أنهم إذا حالوا بين الرسل وبين الـكلام ، تكلموا هم بالباطل من القول ، والمنـكر من الـكلام ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنّا لفى شك يبعث الريب والاتهام لـكم أيها الرسل ، فيما تدعوننا إليه .

* قوله تعـالى : « قالت رسلهم أفى الله شكٌّ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفِرَ لـكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجَلٍ مسمًّى » ـ أى إذا كنتم

تشكُّون فينا ، فهل تشكون فى الله ، وفى وجوده ، وهو الذى خلق السموات والأرض؟ .. إن الشكّ فينا هو شك فى اللهِ ، إذ أن دعوتنا هى دعوة إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته .. وأنه إذا لم يكن لـكم فى الآيات التى بين أيدينا مايدعوكم إلى صدقنا ، ففى هذه الآيات الـكونية ، وفى خلق السموات والأرض مايدلكم على وجود الخالق ، وعلى تفرده بهذا الوجود .. ومن ثَمّ فليس من العقل أن تنـكروا دعوتنا . . هذا إذا كانت لـكم عقول تعقل وتتدبر !

— وفى قوله تعالى : « يدعوكم ليغفر لـكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجلٍ مسمًّى » هو إغراء لهؤلاء المـكذبين بالرسل أن يستجيبوا لله ، وأن يقبلوا دعوته التى يحملها إليهم رسله ، فإنه ـ سبحانه ـ لايدعوهم إلا إلى خير .. إنه يدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم ، وليؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى فلا يعجّل لهم العذاب ، الذى لابدّ هو واقع بالمـكذبين فى غير مَهَلٍ ، إن هم أصرّوا على ماهم عليه من كفر وضلال ، بعد أن جاءهم من الله هذا البلاغ المبين ..

— وفى قوله تعالى : « من ذنوبكم » إشارة إلى أن هؤلاء المدعوّين، هم كتل متضخمة من الذنوب ، وأنهم لن يستجيبوا جميعاً لدعوة الرسل ، وإنما الذى يستجيب منهم هو بعض قليل ، وهم الذين يغفر الله لهم ذنوبهم .. فالذى سيغفر من ذنوب هؤلاء الأقوام ، هو بعض من هذه الذنوب ..وعلى هذا ، فليبادر كل واحدٍ منهم إلى الإيمان بالله ، ليكون فيمن يغفر الله لهم ، وألا يكون فى المتخلفين الضالين . .

* « قالوا إن أنتم الا بشرٌ مثلنـا تريدون أن تصدُّونا عمّا كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » .

هى قولةٌ من فمٍ واحد ، تلقّاها القوم خَلَفاً عن سلف : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » — فهذه أول تهمة يتهم بها الرسل من أقوامهم ، وإنهم لن يكونوا

إلاّ بشراً مثلَهم كما يقول تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسانِ قومه » !

— « تريدون أن تصدُّونا عما كان يَعْبُد آباؤنا » — وتلك هى التهمة الثانية ، وهى ، أن الرسل يريدون أن يخرجوا بالقوم ، عما كان عليه آباؤهم من ضلال وكفر .. وتلك هى قاصمة الظهر عندهم .. وفى هذا يقول الله تعالى على لسان قوم صالح : « قالوا ياصالح قد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبدَ مايعبد آباؤنا ؟ » (٦٢ : هود) .. ويقول سبحانه على لسان أصحاب مدين : « قالوا ياشعيبُ أصلاتُك تأمرك أن نترك مايعبُد آباؤنا » (٨٧ : هود) .

— « فأتونا بسلطان مبين » . . وبعد هذا الاتهام ، يجىء التحدّى ، بطلب المهلكات التى أُنذروا بها ، واستعجال العذاب الّذى حُذّروا منه ! .

والسلطان المبين . هو الحجة القاطعة ، التى تَسْقط أمامها كل حجة !

* « قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشرٌ مثلـكم .. ولـكنّ الله يَمُنّ على من يشآء من عباده . . وما كان لنـا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله .. وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

ولم يكن للرسل أن يقولوا لأقوامهم غير هذا ، ولا أبلغ ولا أقطع من هذا . .

إنهم بشر .. مِثل أقوامهم .. فما الذى فى هذا ، مما ينكره المنكرون ؟

وإنه الحَسَد لهؤلاء الرسل — وهم بشر مثلهم — أن يكونوا سفراء بين الله وبين الناس .. ولماذا يختارهم الله دونهم ؟ .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان مشركى قريش فى إنكارهم على النبى أن يكون هو المصطفى لرسالة الله إليهم : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ؟ » وقد ردّ الله عليهم بقوله سبحانه : « أهم يقسمون رحمة ربّك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » (٣١ — ٣٢ : الزخرف) .

— وفى قول الرسل : « ولـكن الله يمنُّ على مَنْ يشاء من عباده » ردٌّ مفحم على هؤلاء الذين يُنكرون عليهم أن يكونوا رسلاً من عند الله ، حسدًا لهم ، واعتراضاً على مواقع رحمة الله، أن تنزل حيث تشاء مشيئته .. فهذه رحمة الله تنزل بالنّاس ، كما ينزل المطر ، فيكون غيثاً مدراراً فى موضع ، وقطرات قليلة فى موضع آخر .. حسب تقدير الله ، وحكمته .

— « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله » أى إن ماتقترحونه علينا من آيات ، هو مما لايدخل فى مضمون رسالتنا ، ولا يخضع لمشيئتنا .. وإنما الآيات عند الله ، وما أُذِن به لنا منها ، قد جئناكم به ..

— « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى إننـا وقد بلغناكم ما أمرنا به ، سنمضى لشأننا ، متوكلين على الله ،الذى عليه يتوكل المؤمنون به ، ويفوّضون أمورهم إليه .

* قوله تعالى : « وما لنا ألاَّ نتوكّل على الله وقد هدانا سُبُلَنا ولنصبِرنَّ على ما آذيتمونا وعلى اللهِ فليتوكل المتوكلون » ..

هو تقرير وتوكيد لتلك الحقيقة التى أعلنها الرسل ، وهى أنهم قد توكلوا على الله ، وأسلموا وجوههم له . . ولِمَ لايتوكلون عليه وقد اصطفاهم لأكرم رسالة ، وجعلهم مصابيح هدًى للناس ؟ لقد هداهم الله إلى الحق ، وأقامهم على صراطه المستقيم .. فكيف لايُسلمون أمرهم إليه ، وهو سبحانه الذى أخذ بأيديهم ، فأخرجهم من تلك الظلمات المطبقة على أقوامهم ؟

— وفى قوله تعالى : « ولنصبِرنَّ على ما آذيتمونا » هو بعض مايقدمه الرسل لله ، وهو الصبر على الأذى الذى يَلقَوْنه فى سبيل تبليغ رسالته ..

* قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنـكُمْ من أرْضِنَآ أو

لتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنا فأوحى إليهم ربّهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننّكم الأرضَ من بعدهم ذلكَ لِمن خافَ مقَامى وخَافَ وعيد » .

وإذا لم يكن فى السفاهة باللسان ، والتطاول بالقول ، مايقطع الرسل عن الدعوة التى يدْعون بها ، فليكن التهديد بالرجم ، أو الطرد من الوطن . . ذلك ماقدّره الضالون المعاندون ، وهذا ماعملوا له : ـ

— « لنخرجنكم من أرضنا » . . هكذا يقولونها فى غير حياء ، حتى لكأن الرسل غرباء عن هذه الأرض ، لاحق لهم فيها مثلهم . . !

— « أو لتعودُنّ فى ملّتنا » .. الملّة ، الدين ، والعقيدة . .

وعودة الرسل إلى ملّة قومهم ، إنما هو باعتبارهم خارجين عليها ، بالدِّين الجديد الذى يدعون إليه . . وهذا غاية فى الضلال والعناد ، إذ يجيئهم الرسل بالهدى الذى يحمله الدين الجديد إليهم ، فيدعون الرسل إلى أن يعودوا إلى دينهم الفاسد الذين يدينون به . !

— « فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين » . . وإذا كان لهؤلاء الكافرين أرض ، فإن لهؤلاء الرسل ربًّا . . وقد أوحى إليهم ربهم ، وأخبرهم بأنه سيهلك هؤلاء الظالمين ، الذين دفع بهم الظلم إلى أن يخرجوكم من أرضكم .. إنهم هم الذين سَيَخْرُجون من هذه الدنيا كلها . . إنهم لمأخوذون بنقمة الله ، وإنهم لهالكون . . !

— « ولنسكننّكم الأرضَ من بعدهم » فأنتم أيها الرسل الذين سيرثون هذه الأرض بعد هلاك هؤلاء الظالمين ، الذين أرادوا إخراجكم منها ..

— « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » أى إنّ ذلك الجزاء الحَسَنَ وهذا النصر العظيم ، إنما هو لمن خاف مقام ربّه ، وخشى بأسه ، فوقّره وعظّمه ، واتقى حرماته ، وعظم شعائره . . والرسل من هذا فى المقام الأول ، ثم من اقتفى أثرهم .

* قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبّارٍ عنيدٍ » . .

استفتحوا : أى طلبوا الفتح والنصر . .

ويصحّ أن يعود الضمير على الرسل ، أو على أقوامهم المكذّبين بهم . . بمعنى أن الرسل طلبوا من الله أن يحكم بينهم وبين أقوامهم ، كما يقول تعالى على لسان شعيب والمؤمنين معه : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » (٨٩ : الأعراف) . . أو بمعنى أن الكافرين هم الذين طلبوا أن يأتيهم الرسل بالعذاب الذى توعدوهم به .. كما يقول الله تعالى فى مشركى قريش بعد معركة بدر : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » (١٩ : الأنفال) .

وسواء أكان الاستفتاح من الرسل ، أو من أقوامهم المكذبين لهم ، فإن العاقبة واحدة ، وهى الخيبة والخسران للكافرين المكذبين : « وخاب كلُّ جبّار عنيد » ..

قوله تعالى :

* « من ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديدٍ * يتجرعه ولايكاد يُسيغه ويأتيه الموتُ من كلِّ مكان وما هو بميّت ومن ورائه عذاب غليظ » .

أى بعد هذا البلاء الذى ينزل بالجبارين المعاندين المكذبين برسل الله ــ بعد هذا البلاء الذى ينزل بهم فى الدنيا ، سيجيئهم (من ورائه) أى من بعده عذاب جهنّم ، حيث يلقون الأهوال ألواناً وأشكالاً .. فهناك الصديد الذى يُسقاه الجبارون .. مكرهين ، يتجرعونه جُرعةً جرعة ، وقطرة قطرة ..

ــ « ولايكاد يُسيغه » وهو توكيد لشناعة هذا الصديد ، وأنه لايساغ لشارب أبداً ، ولا يكون على أية درجة من درجات الإساغة .. وهذا أبلغ من أن يقال : « ولا يسيغه » لأن نفى الإساغة لايقطع بأن تكون هناك درجة من درجات الإساغة فى هذا الشراب ، ولكن نظراً لقلتها ، فقد شملها النفى . أما قوله تعالى : « ولايكاد يسيغه » فهو نفى قاطع لأى احتمال من احتمالات

الإساغة لهذا الشراب .. وهذا مثل قوله تعالى : « فمالِ هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً » (٧٨ : النساء) .

قوله تعالى :

— « ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميّت » .. إشارة إلى أن مايحيط بهذا الجبار العنيد يومئذ ، من بلاء ونكال، هو مما تزهق به الأرواح، وأن كلّ سوط من سياط هذا العذاب الذى ينوشه من كلّ جانب ، هو موت زاحف إليه ، ولكنه لايموت ، بل يظل هكذا أبداً ، يذوق عذاب الموت ، وماهو بميت .. « كلما نَضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (٥٦ : النساء)

وفى إفراد الضمير فى قوله تعالى : « وخاب كل جبّارٍ عنيدٍ » بعد قوله : « واستفتحوا » .

— فى هذا إشارة إلى أن العذاب الذى يُساق إلى الكافرين ، إنما يساق إليهم فرداً فردًا ، حتى لكأن كل مافى جهنم من بلاء ونكال ، هو للفرد الواحد من أهل جهنم : « من ورائه جهنم ويُسقى من مآء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذابٌ غليظ » .. فهنا نجد هذا الجبار العنيد نفسه وقد أُفرد وحده فى جهنم ، يتجرع صديدها ، ويحترق بنارها ، ويُشوَى على جمرها ، من غير أن يكون معه أحد ، يشاركه هذا البلاء ، ويقتسم معه هذا العذاب الغليظ .. وهذا مالا تتحقق صورته لو جاء النظم القرآنى هكذا : « وخاب الجبارون المعاندون ، من ورائهم جهنم ويسقون من ماء صديدٍ ، يتجرعونه ولا يكادون يسيغونه ويأتيهم الموت من كل مكان وماهم بميتين ومن ورائهم عذاب غليظ ».. فشتان بين نظم ونظم ، وبين قول وقول ، وتصوير وتصوير !

الآيات : (١٨ — ٢٣)

* « مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » (٢٣)

التفسير :

*قوله تعالى: « مَثَلُ الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف » ـ هو جواب عن سؤال ، يقع فى نفس من يسمع أو يرى؛ مايحلّ

بالكافرين من عذاب الله فى الآخرة .. فيسأل : أليس لهؤلاء الكافرين أعمال طيبة فى دنياهم ، تخفف عنهم هذا العذاب ، أو تصرفه عنهم ؟

والجواب : إن لهم أعمالا تُحسب فى الأعمال الصالحة النافعة لو أنهم كانوا مؤمنين .. أمّا وقد عملوا هذه الأعمال وهم على الكفر بالله ، فإن كفرهم يفسد كل صالح لهم ، ويُخبث كل طيب كان منهم .. ذلك أنهم وقد كفروا بالله لم يكن لهم عمل يتجهون به إلى الله ، ويرجون به المثوبة عنده .. فبطل بهذا كل عمل لهم ..

— وفى قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » — جمع بين الذين كفروا وأعمالهم ، حيث شملهم هذا الوصف : « كرمادٍ اشتدّت به الريح فى يوم عاصف » .. فالذين كفروا هم وأعمالهم يوم القيامة لا يُلتفت إليهم ، إلا كما يُلتفت إلى رماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .. إنهم وأعمالهم ريحٌ خبيثة تهبّ على أهل الموقف محمَّلة بهذا الرماد الثائر ، الذى تتأذى به العيون ، وتزكم الأنوف وتنقبض منه الصدور .. ولو جاء النظم هكذا : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرمادٍ اشتدت به الريح ، فى يوم عاصف — لو جاء هكذا ، لذهب هذا المعنى الذى كشف عنه النظم القرآنى ، والذى جمع بين الكافرين وأعمالهم كما تجتمع النار ومخلفاتها من رماد ! !

وفى تشبيه أعمال الذين كفروا بالرّماد ، دون التراب مثلا ، الذى هو أكثر شىء تحمله الريح — فى هذا التشبيه إشارة إلى أن الأعمال التى يجدها الكافرون يوم القيامة ، هى مخلّفات تلك الأعمال التى كانوا يعدّونها من الأعمال الصالحة .. وأنها وإن كانت صالحة فى ذاتها ، إلا أن كفرهم بالله قد أكلها كما تأكل النّار الحطب ، ولم يبق منها إلا هذا الرماد ، الذى ذهبت به العاصفة كل مذهب ..

فلم يبق منها حتى مجرد رمادٍ يُنتفع به على أى وجه من وجوه النفع ، ولكنه صار هباء معلقاً فى أذيال الرياح العاصفة !

فانظر كيف حمل هذا التشبيه من روعة التصوير ، ودقة المطابقة بين المشبّه والمشبّه به ، حتى لكأن روحاً واحدة تلبس جسدين !

* وفى قوله تعالى : « لايقدرون مما كسبوا على شىء » هو من تمام التشبيه ، وهو أشبه بوجه الشبه الجامع بين طرفى التشبيه .. فإنه كما لا يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد الذى تحمله الريح ، كذلك لايقدر الكفار على الإمساك بشىء من أعمالهم التى كانت لهم فى دنياهم .

* وقوله تعالى : « ذلك هو الضلال البعيد » ـ يمكن أن تكون الإشارة فيه إلى حال هؤلاء الكافرين ، وماهم عليه من ضلال ، وهو ضلال قد بَعُد بصاحبه عن طريق الهدى والنجاة ..

ويمكن أن تكون الإشارة إلى أعمال الكافرين يوم القيامة ، وأنها ضلّت عنهم ، وغابت وراء آفاقٍ بعيدة ، لاسبيل إلى الاهتداء إليها أبداً . .

* وقوله تعالى : « ألم ترَ أن الله خلق السّموات والأرضَ بالحقِّ إن يشأ يُذهبْكم ويأتِ بخلق جديد » .

الخطاب هنا للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو بعد هذا ـ خطاب عام ، لكل إنسان ، من شأنه أن يخاطَب . .

فى هذه الصورة التى تعرضها الآية الكريمة لقدرة الله ، وأن الله سبحانه خلق السموات والأرض ، خلقاً مقصوداً لحكمة يعلمها الله ، وليس عبثاً ولهوًا ، وأنه سبحانه كما خلق هذا الوجود قادر على أن يهلك الناس جميعاً ، وأن يأتى بخلقٍ جديد غيرهم ، من جنسهم أو من غير جنسهم ، وأن ذلك ليس بالعزيز على الله ،

أو المتأبّى على قدرته ـ نقول فى هذه الصورة يشهد الكافرون بعض مظاهر قدرة الله ، بعد أن أشهدتهم الآية السابقة يوم القيامة ، وموقفهم الذليل المهين فيها ، وأعمالهم الضائعة التى كانت لهم فى الدنيا ، فيكون لهم من ذلك واعظ يعظهم ، ويفتح لهم الطريق إلى الإيمان بالله ، إن كانت لهم عقول تعقل ، وكان لهم مأرب فى النجاة من عذاب النار الذى شهدوه ، وعاينوا أهواله ..

* قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغْنُونَ عَنّا من عذاب الله من شىء ؟ »

— «وبرزوا لله جميعاً » : أى انكشفوا بالعراء ، وجاءوا مجردين من كل شىء .. عراةً ، حفاةً .. لامال ، ولا ولد ، ولا جاه ، ولا سلطان !

فهذا مشهد من مشاهد القيامة ، وفيه يبرز النّاس جميعاً لله ، غير مستترين بشىء ، لايحتجب بعضهم عن بعض بجاه أو سلطان ، أو حجّاب ، وحراس ، أو حصون وقصور .. إنهم جميعاً عراةٌ بالعراء ..

وفى جانب من هذا المشهد يلتقى الضعفاء ، وهم عامة الناس ، وسوادهم ـ بالرؤساء ، وأصحاب السيادة والسلطان ، وقد كانوا قادتهم ، وأصحابَ الكلمة فيهم ، وفى هذا اللّقاء يفزع هؤلاء المستضعفون إلى سادتهم هؤلاء ، يسألونهم العون فى دفع هذا البلاء الذى أحاط بهم .. فهم كانوا مفزعهم فى الدنيا ، فهلاَّ كانوا مفزعاً لهم فى هذا اليوم العظيم ؟ وبم استحقوا إذن أن يكونوا فى مكان القيادة والسيادة ، إذاهم لم يكونوا لهم فى هذا الموقف ؟

* « إنا كنّا لكم تبعاً .. فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شىء » ؟ إنه لعار على المتبوع ألا يخفّ لنجدة تابعه، وقد كنّا رعيّةً لكم ، وأداة طيعة فى أيديكم ! فهيّا ادفعوا عنّا بعضَ هذا العذاب الذى نحن فيه !

* ويجىء الجواب : « قالوا لو هدانا الله لهديناكم » ! !

وهو جواب ماكر خبيث ، يحمل عذراً هو أقبح من ذنب !

لقد ألقى هؤلاء السادة الضالون ـ ألقوا بضلالهم على الله .. ولم يسألوا أنفسهم : لماذا أضلهم الله ؟ ألم يكونوا حرباً على الأنبياء ؟ ألم يكونوا أفواهاً نافخة لإطفاء كل شعلة من شعل الحق الذى حملوه إليهم ..

لقد أضلهم الله لأنهم أرادوا الضلال ، واستحبّوا العمى على الهُدَى ..

* « سواء علينا أجَزِعْنا أم صَبَرنا مالنا من محيص » .. المحيص : المفرّ ، والخلاص ، وأصله الحَيْدة عن المكروه ، يقال : حاص ، يحيص حيصاً ، وحيوصاً ، أي حاد ..

ويمكن أن يكون هذا من كلام الذين استكبروا ، كما يمكن أن يكون من كلام الذين استُضعفوا ، تعقيباً على هذا اليأس الذى جاءهم من جواب المستكبرين لهم .. كما يمكن كذلك أن يكون صوتاً مردّداً من هؤلاء وأولئك جميعاً .. ! فإن المتكبرين والمستضعفين قد أصبحوا فى قبضة العذاب ، ولن يُفلتوا أبداً .. سواء أجزعوا من هذا العذاب ، أم صبروا له .. وهيهات الصبر على هذا البلاء المبين ..!

* قوله تعالى : « وقال الشيطانُ لمّا قُضِيَ الأمرُ إن الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحقّ .. ووعدتكم فأخلفتكم »

وهذا طرف ثالث من أطراف الخصومة بين الضعفاء والمستكبرين ..

فإنه حين انتهى الموقف بينهما إلى هذا اليأس القاتل .. تلفتوا جميعاً إلى الشيطان ، إذ كان هو الذى أغواهم ، وأوقعهم فى شباكه ، وكأن لسان حالهم يقول له : ما عندك لنا ؟ لقد كنتَ أَنت الذى دعوتنا إلى هذا الضلال الذى أصارنا إلى هذا المصير .. فهل تَدعُنَا ، وقد ألقيتنا فى هذا البلاء ؟

ويجيئهم الجواب من الشيطان ، مفحما موئساً ..

— «إنّ الله وعدكم وعد الحقّ» على يد رسله وأنبيائه .. أما أنا فقد وعدتكم فأخلفتكم، ونكثت عهدى معكم، ونقضت عَقْدى الذى وثّقته لكم . . فذلك هو أنا، وهذا هو شأنى مع أتباعى .. وإذن فموتوا بغيظكم .. ألم يحذّركم الله منّى فى قوله تعالى : «ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين * وأنِ اعبدونى . . هذا صراط مستقيم» (٦٠ - ٦١ : يس) وفى قوله سبحانه : «يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبَويكم من الجنّة» (٢٧ : الأعراف)

* «وما كان لى عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لى فلاتلومونى ولُوموا أنفسكم»

وإن الشيطان ليس بين يديه قوة قاهرة، ملَك بها أمر هؤلاء الذين أضلّهم وأوقعهم فى شباكه .. إنه أشبه بالصائد الذى ينصب شباكه للطير، ويضع فيها الحبّ فتسقط عليها، وتَعلَقُ بها، وتصبح صيداً فى يده!

لقد دعاهم الشيطان إليه، وزيّن لهم الضلال وأغراهم به، فاستجابوا له، دون أن يستخدموا عقولهم التى وهبها الله لهم، ودون أن يستمعوا لكلمات الله على لسان رسله، يحذرونهم هذا العدوّ المتربص بهم، ويدعونهم إلى الفرار من وجهه، إلى حيث النجاة والسلامة، فى حمى الله ربّ العالمين . . فإذا كان هناك من يستحق اللوم فهو هم، لا الشيطان . . إن الشيطان يعمل لنفسه، ويؤدى رسالته فيهم . . أما هم فقد غفلوا عن أنفسهم، وباعوها لهذا العدوّ بيع السّماح .. بلا ثمن!

* «وما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ» - أى ما أنا بالمستجيب لصراخكم المخفّ لنجدتكم، وكذلك أنتم، لن تستجيبوا لى، إذا استصرختكم، ولن تهبوا لخلاصى مما أنا فيه من بلاء ..

والاستصراخ هو نجدة المستغيث المستصرخ .. يقول الشاعر :

إنَّا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ كان الصُّراخُ له قرعَ الظنابيب(١)

* « إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبلُ » .. أى إنى كفرت بهذا الشرك الذى جعلتمونى فيه معبوداً لكم من دون الله .. ويجوز أن يكون هذا إقراراً منه بالكفر بالله من قبل ، أى من قبلهم ، وذلك حين دعاه الله سبحانه مع الملائكة ، للسجود لآدم ، فسجد الملائكة وامتنع هو ، فطرده الله سبحانه ، ولعنه ، وأصبح من الكافرين .. فكأنه بهذا يقول لهم : إنكم تعلمون أنّى على الكفر ، وقد دعوتكم فأطعتمونى ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فأنا ـ كما تعلمون ـ قد كفرت بالله الذى أشركتمونى معه فى عبادتكم له .

* « إن الظالمين لهم عذابٌ أليم » .. هو حكم من الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المتخاصمين جميعاً .. من مستكبرين ، ومستضعفين ، وشياطين .. إنهم جميعاً ظالمون .. وليس للظالمين إلا أن يَصْلَوْا هذا العذاب الأليم الذى هم مُساقون إليه ..

قوله تعالى :

* « وأُدْخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها بإذنِ ربّهم .. تحيتهم فيها سلام »

وفى الجانب الآخر من مشهد النار وأهلها هذا المشهد ، تفتح أبواب الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيجدون فيها النعيم والرضوان ، ويلقَوْنَ فيها التحيّة والسلام .

ـ وفى قوله تعالى : « بإذن ربهم » إشارة إلى أن هذا الرضوان ، وذلك النعيم الذى صار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنما هو من فضل الله عليهم ، ومشيئته فيهم ، وليس ذلك لِما كان منهم من إيمان ، وعمل صالح ، وحسب ،

(١) الظنابيب : جمع ظنبوب ، وهو عظم الساق .

إذ أن هذا النعيم لا يَعْدِلُه عملٌ ، ولا يؤدّى حقّه إنسانٌ . . وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف ، إذ يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « لا يدخل أحدُكم الجنّة بعمله . . » قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنى الله برحمته » .

فالإيمان بالله ، والعمل الصالح طريق إلى جنّة الله ورضوانه ، ولكنهما لا يوصلان إليها إلاّ بإذن الله ، وعونه ، وتوفيقه .. إنهما أشبه بالطَّرَقات التى يُستأذن بها على ربّ الدار لدخول داره ، وإنه لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى ..!

الآيات : (٢٤ — ٢٧)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٢٤) تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » (٢٧)

[الكلمة الطيبة . . والكلمة الخبيثة]

التفسير :

المراد بالاستفهام فى قوله تعالى : « ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلا » هو الإلفات إلى هذا المثل ، والوقوف عنده ، ووقفة تدبّر ، وتذكر ، واعتبار . . فالمراد

بالاستفهام الأمر : أى انظر كيف ضرب الله مثلا .. والـكلمة الطيبة ، هى كل كلمة جاءت من واردات الحقّ ، والخير .. والـكلمة الخبيثة ، ما كانت من واردات الباطل ، والضلال ، والشر .. وكلمة « لا إله إلا الله » هى مجمع كل كلمة طيبة .. فمن لم تسكن إلى قلبه هذه الـكلمة لا يجىء منه طيب أبداً ..

وضرْبُ المثل : سوْقه وعرضه .. والأصل فيه ضرب الشىء بالشىء ليخرج منهما شىء آخر ، كضرب اللبن بالمخض ليخرج منه الزّبد .. ومنه الضّرَب وهو عسل النحل الذى يكون من ضَرْب أخلاط رحيق الزهر بعضها ببعض .

والمثل الذى ضَرَبه الله سبحانه وتعالى للـكلمة الطيبة ، هو الشجرة الطيبة : « ضرب الله مثلًا كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. »

والشجرة الطيبة .. هى أية شجرة يحصّل منها الناسُ النفعَ ، ويجنون الخير .. وأكثر الشجر الطيب طِيباً ، هو ما كثُر خيره ، واتصل عطاؤه ، وقلّ الجهد المبذول فى تنميته وتثميره ..

ولعل «النخلة» أطيبُ شجرة وأكرمها ، وأقربها وفاء بهذه الصفات التى وصف الله سبحانه وتعالى بها تلك الشجرة الطيبة : « أصلها ثابت .. وفرعها فى السماء .. تؤتى أكلها كلّ حين بإذن ربها .. »

فالنخلة أكثر الشجر ضرباً فى أعماق الأرض ، وأطولها امتداداً إلى أعنان السماء ، وهى لهذا كانت من الأشجار المعمّرة .. ثم هى من جهة أخرى أقلّ الأشجار المثمرة حاجة إلى عناية ورعاية ، وحراسة متصلة من الآفات .. فما هى إلا أن تَعْلَقَ نواتها بالأرض حتى تضرب بجذورها فى أعماق الثرى ، باحثة عن الماء ، حتى تبلغه ، وتقيم وجودها على مصدر دائم من الرىّ لا ينقطع .. وكما امتدت جذورها فى الأرض ، طال فرعها فطاول السماء ، باحثاً عن الضوء

الصافى ، والهواء النقى ، والعُزْلة الزاهدة . . بعيداً عن غبار الأرض ، وصَخَبِها وضوضائها .. ثم إن النخلة من جهة ثالثة أكثر الشجر المثمر جوداً وعطاءا . . يؤكل ثمرها رطباً ويابساً ، وعلى أصول شجره ، ومختزناً ، من غير أن يلحقه العطب ، أو يسرع إليه التلف . . ثم من جهة رابعة . . لا شىء من النخلة إلا وفيه نفع وخير .. خوصها ، وجريدها ، وليفها ، وعرجونها ، وكَرَبها . . فهى من إخمص قدمها إلى قمة رأسها ، منافع متصلة ، يمكن أن تقوم عليها وحدها حياة الإنسان ، مستغنياً بها عن كل شىء . . ولعلّه من أجل هذا كانت النخلة من نبت الصحراء ، حتى يكون ما فيها من ثراء وغنًى، تعويضاً لما فى الصحراء من جدبٍ وفقر ! ولعل فى قول رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « أكرموا عَماتِكم النّخل فإنهن خُلقن من طينة آدم » ـ لعل فى هذا القول ما يكشف عن وجه من وجوه الإعجاز النبوىّ ، وأنه كما قال الله سبحانه وتعالى فيه : « وما ينطق عن الهوى » ، إذ يلتقى قوله هـذا مع قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » دالاً على الشجرة الطيبة ، ومشيراً إليها . .

والسؤال هنا هو : إذا كانت الشجرة الطيبة ـ نخلة كانت أو ما يشبهها ـ على تلك الصورة من الرسوخ والثبات ، والعلوّ ، وعلى تلك الصفة من البركة والنفع ، فأين ما فى الـكلمة الطيبة من هذا كله ؟ وقبل هذا السؤال ، سؤال آخر .. وهو : ما هى الـكلمة الطيبة ، التى شُبهت بالشجرة الطيبة ..؟

نقول : إن الـكلمة الطيبة هى كل كلمة جاءت من واردات الحقّ والخير . . فـكل كلمة تتسم بتلك السِّمة ، وتحمل ضوءة من أضواء الحق ، ونفحة من نفحات الخير ، هى من الـكلِم الطيب ..

والـكلمُ الطيب كثير : لا يكاد يحصر .. تختلف أشكاله ، وتتعدد صوره ، وتـكثر أو تقلّ معطياته .. كما أن الشجر الطيب كثير ، تتنوع ثماره ، وتختلف

طعومه وتتفاضل مذاقاته . . كما يقول الله تعالى . « ونفضّل بعضَها على بعض فى الأُكُل » .

وكما قلنا : إن أكثر الشجر الطيّب طِيباً ، هو ما كثُر خيره ، واتصل عطاؤه ، وقلّ الجهد المبذول فى تنميته ـ نقول إن أكثر الكلم الطيب طيباً هو ما كثر خيره . واتصل عطاؤه . وقلّ الجهد المبذول فى تحصيله وفهمه .

وإذا كانت النخلة ـ كما قلنا ـ هى الشجرة التى تتمثل فيها هذه الصفات ، فإننا نستطيع أن نقول إن كلمة التوحيد . هى رأس الكلام الطيب كلّه ، وأطيبه جميعه . .

فكلمة « لا إله إلا الله » هى الكلمة الجامعة لكل خير ، المشتملة على كل هدى ، الموصلة إلى كل طيب ، وبغير هذه الكلمة لا تثبت للإنسان قدم على طريق الهدى ، ولا يطلع له نبت فى مغارس الخير . .

وليست الكلمة فى ذاتها ، من حيث هى كلمة ، هى التى يكون لها هذا الوصف من الطيِّب ، أو تكونَ لها تلك الأوصاف من الخبث .. وإنما الكلمة ـ طيبة كانت أو خبيثة ـ لا يظهر طيبها ، أو خبثها ، إلا إذا التقت بعقل الإنسان ، ونفذت إلى قلبه ، وسَرَت فى مشاعره ، وسكنت إلى وجدانه ـ عندئذ تُخرجُ خَبْأَها ، وتصرّح عن مكنونها ، وتعطى الثمر الطيب أو الخبيث الذى كان مستودعاً فى كيانها ـ إنها أشبه بالنواة من الشجرة ، والبذرة من النبات ، لا ينكشف ما بها ، حتى تعلق بالأرض ، وتترعرع ، وتنمو ، ثم تزهر ، وتثمر . . !

وكما أنه بالتجربة والاختبار ، قد عُرِف ـ مقدماً ـ ماتعطيه نواة هذه الشجرة أو تلك من ثمر ، حلو أو مرّ ، إذا هى غرست فى مغارسها وتهيأت لها أسباب

الحياة ، والنّماء ، كذلك يُعرف الكلام الطيب ، وما يثمر من ثمر طيب ، والكلام الخبيث وما يثمر من خبيث ، إذا هو وقع من النفوس الموقع ، الذى يهيىء له حياة ، ويقيم له وجوداً .

ونعود إلى كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » . . باعتبارها الأمّ الولود لكل طيّب . . فماذا نجد فيها من ثمار طيبة ؟ .

ونعود فنؤكد مرة أخرى ، أنّها من حيث هى كلمة ، مجرد كلمة ، يتلفظ بها اللسان ، ثم لا يعقلها العقل ، أو يمسك بها القلب ، أو تنفعل بها المشاعر — هى على لسان المتلفظ بها ، شبح كلمة ، أو صدى صوت ، لا مفهوم لها ، ولا ثمرة تُرجَى منها . . تماما كنواة الشجرة الطيبة تُلْقى على حجر صَلْد .

أمّا إذا صادفت هذه الكلمة الطيبة المباركة ، أذنا واعية ، وعقلاً ذاكراً ، وقلباً حافظاً ، ومشاعر مستجيبة للخير ، متجاوبة معه . . فقُلْ ما تشاء فيما تعطى هذه الكلمة الطيبة المباركة من أُكُل مباركة طيبة . .

فبكلمة « لا إله إلا الله » ينتقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة . . بهذه الكلمة المباركة الطيبة يستفتح الإنسان أبواب الخير كلها ، فى الأرض وفى السماء . . !

وبهذه الكلمة المباركة الطيبة يرتفع الإنسان فوق هذا التراب الذى يدبّ عليه ، إلى الملأ الأعلى ، فإذا هو من أهل هذا الملأ ، بل هو فى حضرة ربّ العزّة . . يناجيه ، ويتلقّى منه ما يهفأ به ، من فواضل كرمه ، وسوابغ وجوده وإحسانه ! .

وبهذه الكلمة المباركة الطيبة ، وبهذا المقام الكريم الذى ارتفع إليه صاحبها ، يُشرف الإنسان من علٍ على هذا الوجود الأرضىّ ، فيرى كل شىء فيه صغيراً . . الدنيا ومتاعها ، والمال وشهوته ، والسلطان وجاهه ، والشباب

وغروره ، والقوّة وطغيانها :. كلّ هذا يراه المؤمن بالله ، المستظل بعزته وقوته ـ يراه صغيراً فى عينه ، هيّنَ القدر ، ضئيل الشأن.. فى حسابه .

والكلمة ـ كما قلنا ـ مهما تكن طيبة محملة بكريم المعانى ، وجميل الصفات لا تعطى شيئاً من ذات نفسها ، إلاّ إذا صادفت النفسَ الطيبة التى تقبلها ، والمشاعر الكريمة النبيلة التى تَهَشّ لها ، وتتجاوب معها . . أما إذا صادفت نفسًا كزّةً ، ووردت على مشاعر سقيمة ، فإنها لا تؤثر أثراً ، ولا تَنِدُّ بشىء من طيبها وحسنها .

وكذلك الكلمة الخبيثة .. لا تبيض ، وتفرخ ، حتى تلتقى بالنفس الخبيثة ، وتخالط المشاعر الفاسدة ! .

وشاهد هذا ، وذاك ، واقع فى الحياة .

فدَعَوات الرسل والمصلحين والقادة والعلماء والحكماء ، ليست إلا كلماتٍ ، تحمل فى كيانها معانىَ الحق والخير ، وترسم من مفاهيمها مناهج العدل والإحسان . . ثم تدع للناس أن يتناولوها كيف شاءوا ، وأن يتعاملوا معها حسب ما أرادوا . . فمنهم من يجد فيها هُداه ، وصلاح أمره فى الدين والدنيا جميعاً .. ومنهم من لا يقيم لها وزناً ، ولا يرفع لها رأساً ، ولا يمدّ نحوها يداً ..

وبهذا تختلف حظوظ الناس من هذا الخير المتاح لهم .. فمنهم من يأخذ حظه كاملا ، ومنهم من لا ينال شيئاً .. وهكذا تتفرق السبل ، بين مهتد وضال ، ومستقيم ومنحرف ، وسعيد وشقى . !

إن ما فى عقل الإنسان من مدركات وتصورات ، وما فى كيانه من نوازع واتجاهات وميول ، هو من عمل الكلمة ، وإنه بقدر ما يتلقى العقل من كلمات ، يكون حظه من العلم والمعرفة ، وإنه بقدر ما فى هذه الكلمات من معانى الخير

والشر ، يكون اتجاه الإنسان إلى الخير أو الشر .. فالإنسان لا يعطى إلا ما عنده ، والإناء لا ينضح إلا بما فيه ..

والكلمات هى الرصيد الذى يملكه الإنسان ، وينفق منه ..

لهذا كان من تدبير الإسلام حراسةُ الإنسان ، من أن تدخل عليه كلمات السوء ، فتسكنَ فى كيانه ، وتتحول إلى كائنات حيّة تعيش معه ، وتوجه سلوكه ..

يقول الرسول الكريم :

« لا يقولنّ أحدُكم خَبُثَتْ نفسى ، ولكن لِيقُلْ لَقِسَتْ نفسى » .. واللفظان معناهما واحد ، وهو غَثَيان النفس ، وتهيّؤها للقىء ، ولكن النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ـ يأخذ المسلمين بأدب الكلمة ، ويحمى ألسنتهم من أن تعلق بها هذه الكلمات السيئة ، فتتخلق منها مشاعر خبيثة ..

فالكلمة ـ فى الواقع ـ ليست مجردَ حروف مرسومة ، أو أصوات مسموعة ، وإنما هى رسُل هدًى ورحمة وخير ، أو شياطين غوايةٍ وضلال وبــلاء . !

ومن أجل هذا ، كان احتفاء الإسلام بالكلمة ، وتقديره لها ، وحسابه لآثارها ومعطياتها .. فقد عَرَف الإسلامُ للكلمة قدرها وخطرها فى تفكير الإنسان ، وفى سلوكه . . إذ كانت كل ثمرات تفكيره ، من مواليد الكلمة ، وكان سلوكه ، من وحى هذا التفكير ومتطلباته . .

ومن تدبير الإسلام فى هذا ، أنه جعل القرآنَ الكريم المائدة التى يَرِدُها المسلمون ، فيتزودون من كلماته وآياته ، بالترتيل ، والاستماع ، فرضاً فى الصلاة ، ونافلة فى غير الصّلاة ..

يقول الله تعالى لنبيه الكريم : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزّلناه تنزيلا » (١٠٦ : الإسراء) ويقول له سبحانه : « ورتّل القرآن ترتيلا » (٤ : المزمل) ويقول له جلّ شأنه : « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتهجّدْ بهِ نافلةً لك عسَى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » (٧٨ — ٧٩ : الإسراء) .

ويدعو الله سبحانه المؤمنين إلى أن يغشَوْا مجالس القرآن ، وأن يستمعوا له فى صمت وخشوع ، حتى تنفذ كلماته إلى قلوبهم ، وتخالط مشاعرهم .. فيقول سبحانه : « وإذَا قُرِىء القرآنُ فاستمعوا له وأنْصِتوا لعلكم تُرحمون » (٢٠٤ : الأعراف) .

ويعرض القرآن الكريم صورةً من صور الاستماع إلى آيات الله وكلماته ، تتجلّى فيها قوة الكلمة الطيبة وأثرها ، حين تصادف الأذن الواعية ، والقلب السليم ، حتّى فى عالم الجنّ ، الذى من شأنه أن يَزْهد فى الخير، ويتنكّب طرقه .. يقول الحق جلّ وعلا : « وإذ صَرَفنآ إليْكَ نفراً من الجنّ يستمعونَ القرآن فلمّا حَضَروه قَالُوا أنْصِتوا فَلمَّا قُضى وَلَّوْا إلى قَوْمِهم مُنْذِرين * قالوا ياقومنآ إنّا سَمِعنا كتاباً أُنزل من بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لما بين يديه يهدى إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم * ياقومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفِرْ لكُمْ مِن ذنوبِكُمْ ويُجِرْكُم من عَذَب أليم » (٢٩ — ٣١ : الأحقاف) .

وكم من الجنّ ، والإنس ، من سَمِع كلمات الله وآياته فلم يجد لها صَدّى فى نفسه ، ولا أثراً فى وجدانه .. كما يقول سبحانه : « ويلٌ لكلّ أفّاكٍ أثيم * يَسْمع آيات الله تُتلى عليه ثم يُصِرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشّره بعذابٍ أليمٍ * » (٧ ـ ٨ : الجاثية) .

رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على أصحابه سورة الرحمن ، حتى فرغ ، قال : «مالى أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ منكم رَدًّا .. ماقرَأْتُ عليهم من مرة « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك نكذب .. فلك الحمد » ..

ومن جهة أخرى ، فإن الإسلام حذّر أهله من أن يستمعوا إلى زُور الكلام وباطِلِه ، ونَصَح لهم أن يفرّقوا بين الطيب والخبيث ، والحسن والقبيح ، فيستمعوا للطيب الحسن ويأخذوا به ، ويتجنبوا الخبيث القبيح ويعرضوا عنه : فقال تعالى : « فبشّرِ عبادِ الذين يستمعون القولِ فيتبعون أحْسَنَه أولئك الذين هداهُم الله وأولئك هم أولوا الألباب » (١٧ — ١٨ : الزّمر) .. ويقول جلّ شأنه فى وصف عباده المتقين : « والذين لايشهدون الزورَ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما * والذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعميانًا » (٧٢ — ٧٣ : الفرقان) .. ويقول سبحانه : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » (٥٥ : القصص) .

فاللغو من القول ، والزور من الحديث ، آفة تدخل على الإنسان ، وتندسّ فى مسارب تفكيره ، وفى خلجات وجدانه ، ثم إذ هى مع الزمن ، ومع مايرد عليها من كلمات السوء ـ نبتةٌ فاسدة ، لاتلبث أن تستغلظ وتستوى على سُوقها ، ثم تتداح وتمتد حتى تكون شجرة مشئومة تملأ كيان الإنسان ، وتظلل وجوده ، وتغذّى من ثمرها النكد الخبيث، مافى الإنسان من أفكار ، ومشاعر .. وإذا هذه الأفكار وتلك المشاعر أعمال وأقوال ، تذيع السوء فى النّاس ، وتمشى بالشرّ والفساد فيهم !

وننظر فى هذه الحياة ، فنجد أن كلّ مايقع فى الناس من خيرٍ أو شر ، هو فى الواقع أثر من آثار كلمة طيبة ، أوكلمة خبيثة .. فكلمة واحدة ينطق بها صاحبها

فإذا هى رحمة راحمة ، تزرع المودة ، وتثمر المحبّة والإخاء ، فتسكن بهـا فتنة ، وتنطفىء بها عداوة ، وتحجز الناس عن حَرْبٍ ، لو اشتعلت نارها ، لما خَمَدت حتى تحيل كل عامرٍ إلى خرابٍ ، وكل حياة إلى مواتٍ ..

فكم من الكلمات الطيبة ، والحِكم البالغة ، تعيش فى الناس منذ أزمانٍ ، إذا ذكروها طلعت عليهم بوجهها المشرق الكريم ، فكانت سَكَنًا للنفوس ، ودفئا للصدور ، وشفاء من وساوس الشرّ ، وخطرات السّوء ..

وكم من كلمات خبيثة مشئومة ، تعيش فى الناس ، أزمانا متطاولة ، فإذا ذكروها ، خرجت عليهم بما فيها من شياطين ، توسوس لهم بالشرّ ، وترمى إليهم بمعاول الهدم والتدمير ، فإذاهم نُذُر بلاء ، ودعاة شقاق ، وقذائف تدمير وتخريب . !

وهل الحرب والسلام ، إلا مواليد كلمات خبيثة أوقدت حربا ، أو كلمات طيبة أطفأت الحرب ، وأقامت الناس على سَلْم وعافية ؟

ونستمع مرة أخرى إلى قوله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابتٌ وفرعها فى السّماء * تؤتى أكلها كل حينٍ بأذن ربّها ويضربُ الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيـا وفى الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعَلُ الله مايشاء » .

نستمع إلى كلمات الله هذه ، وننظر إليها ، فإذا هى منهج متكامل فى التربية العقلية والخلقية والروحية ، بما تحقق للإنسان الذى يأخذ بهديهـا ، ويتأدب بأدبها ، من قوّى مدركة للحق ، ومتجاوبة مع الخير ، متهدية إلى منازل الـكمال والإحسان ..

فالذى تتمثل له الكلمة الطيبة ، على هذا الوجه المشرق الطيب ، الذى وصفها الله سبحانه وتعالى به ، ثم يجعل رصيده كلّه من الكلم الطيب ، آخذاً ومعطياً ـ الذى يسلك هذا المسلك ، لن يضلّ أبداً ، ولن يقع له أو منه ، مايسوء .. فهو شجرة طيبة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربّها !

والذى تتمثل له الكلمة ، على هذه الصورة المخيفة التى صورها الله سبحانه وتعالى بها ، فإنه يرى فى الكلمة الخبيثة ، وباء قاتلا ، وشرّا راصداً ، يُهلك من يلمّ بها ، ويطمئن إليها ..

(الآيات : (٢٨ — ٣٤)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٣٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار » ـ الاستفهام هنا يراد به التعجب من أمر هؤلاء الضالين الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وعَرْضُهم فى معرض الازدراء لأحلامهم ، والاستخفاف بأقدارهم ، والتسفيه لتصرفاتهم . .

وهؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، هم سادة قريش ، وأئمة الضلال والكفر فيهم .. والنعمة التى بدلوها كفراً ، هى القرآن الكريم ، الذى جاءهم بالهدى ، ليخرجهم من ظلام الجاهلية وضلالها ، إلى نور الحق والإيمان .. فأبوا إلا أن يردّوا هذه النعمة ، بل وأن يجعلوها نقمةً وبلاء عليهم ..

ذلك أن الجاهليين كانوا قبل البعثة المحمدية من أهل الفترة ، الذين لم تبلغهم رسالة سماوية .. فهم — والحال كذلك — واقعون تحت قوله تعالى : « وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء) . . أى أنهم كانوا غيرَ مُبتَلَين بالتكاليف الشرعية ، وغير محاسبين على ما يكون منهم . . فهم أشبه بالصغار الذين لم يبلغوا الحلم بعد .

فلما بعث الله سبحانه وتعالى فيهم رسوله بالهدى ودين الحق ، وبلّغهم الرسول ما أُنزل إليه من ربّه ، انقطع عذرهم ، ولم يكن لهم على الله حجة بعد هذا البلاغ المبين ، وفى هذا يقول تبارك وتعالى : « رُسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما » (١٦٥ : النساء) . .

وبهذا فإن الذين لم يدخلوا فى دين الله ، بعد بعثة النبى من الجاهليين ، قد أصبحوا فى عِداد الكافرين ، إذ قد كشفت الدعوة الإسلامية عن هذا الداء

الخبيث الذى كان مندساً فى كيانهم . . وكانت نعمة الإسلام التى لبسها من أراد الله لهم السعادة منهم . كانت هذه النعمة نقمةً وبلاء على من لم يستجب لرسول الله ، ولم يدخل فى دين الله . . وهكذا بدّل هؤلاء القوم نعمة الله كفراً . . إذ لبسوا بها ثوبَ الكفر ، وكانوا قبل بعثة الرسول فيهم ، على غير تلك الصفة .

ويجوز أن تكون النعمة التى بدّلها هؤلاء المشركون كفراً ، هى الفطرة السليمة التى أودعها الله فيهم ، فهم بفطرتهم مؤمنون ، ولكنهم بما أدخلوا على هذه الفطرة من أهواء وضلالات ، قد أفسدوها ، فلما التقوْا بالقرآن الكريم ، لم تستسغه فطرتهم الفاسدة ، ولم يجدوا فى هذه النعمة العظيمة التى ساقها الله إليهم ماينتفعون به ، بل نصبوا الحرب لها ، وحالوا بين الناس وبينها . . فكانت تلك النعمة بلاء عليهم ، ألبستهم لباس الكفر ، وهى التى جاءت لتخلع عليهم خِلَع الإيمان .

— وفى قوله تعالى : « وأحلُّوا قومهم دار البوار » إشارة إلى أن رؤساء القوم الذين تصدّوا للدعوة الإسلامية ، وحجزوا أتباعهم عنها ، هم الذين أنزلوا قومهم هذا المنزل الدّون ، وأوردوهم هذا المورد الوبيل . .

* قوله تعالى : « وجعلوا لله أنداداً ليُضِلّوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » .

الأنداد : جمع ندّ ، وهو المُساوى ، والمعادل . .

والمعنى : أن مِنْ سَفَه هؤلاء الضالّين ، المعاندين ، الذين أبوْا أن يستجيبوا لرسول الله ــ أنهم جعلوا لِله أنداداً ، ونظراء ، عبدوهم كما يَعبد المؤمن ربه ، ودانوا لهم بالولاء ، كما يَدين المؤمن لِله رب العالمين !

— وفى قوله تعالى : « وجعلوا » إشارة إلى أن هذا الفعل الذى فعلوه باتخاذ آلهة لهم من دون الله ، وجعلهم أنداداً له — إنما هو من صنع القوم ، ومن تلقيات أهوائهم ، وأن ذلك كله ضلال ، ما أنزل الله به من سلطان .

— وفى قوله تعالى : « لِيُضِلُّوا عن سبيله » إشارة أخرى إلى أنهم اتخذوا هذه الآلهة ، ليفتنوا بها الناس ، وليمسكوا بهم على طريق الضلال ، وليكون لهم بها دعوةٌ يجمعون الناس عليها ، ويأخذون بقودهم منها : طلباً للسيادة والسلطان .. ولهذا جاء قوله تعالى : « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » متوعداً لهم بهذا المصير السيء ، الذى هو فى حقيقته ، الثمرة المرّة لهذا الجاه والسلطان الذى تمتعوا به فى دنياهم ، وعاشوا معه فى مواقع الضلال والكفر ..

* قوله تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانيةً من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال » .

الخلال : المخالّة ، والموادّة ، والمواساة ، التى تكون بين الصاحب وصاحبه ، والخليل وخليله ..

وسمّى الصاحب خليلا ، لأن كلاًّ من الصاحبين يتخلل صاحبه ، ويدخل إلى مشاعره ، ويطّلع على مالا يطلع عليه غيره ..

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة كانت وعيداً للمشركين الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، فأبوا أن يقبلوا دين الله ديناً ، واتخذوا من دونه آلهة ليضلّوا الناس عن سبيل الله — فجاءت هذه الآية لتلفت المؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ، وآمنوا بالله ، أن يؤدوا لهذا الإيمان حقّه ، إذ ليس الإيمان مجردَ كلمات تقال ، وإنما هو دستور عمل ، وشريعة واجبات وتكاليف . وعلى رأس هذه الأعمال ، وتلك الواجبات : الصلاة ، والزكاة ..

فالصلاة حق الله على عباده ، والزكاة حق العباد على العباد . . حق الفقراء على الأغنياء . . ولهذا جمع القرآن بين الصلاة والزكاة ، فى مواضع كثيرة من القرآن ، حتى لا تكاد تذكر إحداهما إلا ذكرت معها الأخرى ، تصريحاً أو تلميحاً . .

ـ وفى قوله تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية » — عدول عن الخطاب إلى الغيبة ، إذ كان من مقتضى النظم أن يجىء الأمر هكذا : « قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناكم سراً وعلانية » فما سر هذا ؟

السر فى هذا — والله أعلم — هو أنه لكمال العناية بالصلاة والزكاة ، جعل الله سبحانه وتعالى الأمر بهما متوجهاً منه جل شأنه إلى عباده ، الذين شرّفهم بإضافتهم إليه بقوله : « قل لعبادى » ولم يشأ سبحانه أن يقطعهم عنه ، وأن يجعل النبى — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى يتولى أمرهم بقوله : « أقيموا الصلاة وأنفقوا مما رزقكم الله سراً وعلانيةً » وإنما جعل الرسولَ ناقلا خطابه إلى عباده ، كما يأمرهم ربّهم به !

— وقوله تعالى : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » .. اليوم هنا ، هو يوم القيامة ، حيث لا عملَ فى هذا اليوم . . وإنما هو يوم حساب على أعمال سلفت فى الدنيا . . حيث لا شفاعة لأحد فى أحد . . « يوم لا يُغنى مولًى عن مولًى شيئاً ولا هم يُنصرون » (٤١ : الدخان)

* قوله تعالى : « الله الذى خَلَق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجرىَ فى البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل

والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة توعدت المشركين الذين بدّلوا نعمـــة الله كفراً ، وجعلوا لله أنداداً ، على حين نوهت بشأن المؤمنين ، وأضافتهم إلى الله ، وشرفتهم بالعبودية لله — فجاءت هذه الآية ، والآيات التى بعدها تتحدّث عن قدرة الله ، وجلاله ، وعلمه ، وفضله على عباده . . من المؤمنين ، والـكافرين جميعاً . . وفى هذا العرض مجال لأن يراجع الـكافرون أنفسهم ، وأن يرجعوا إلى ربهم ، بعد أن يعاينوا آثار رحمته وبدائع قدرته . . على حين يزداد المؤمنون إقبالا على الله ، واجتهاداً فى العبادة . .

فالله سبحانه ، هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ، وهو الذى أنزل من السماء هذا الماء الذى تتدفق به الأنهار ، وتتفجر منه العيون ، وتحيا عليه الزروع ، وما يخرج منها من ثمر وحبّ .. وهو ــ سبحانه ــ الذى سخر الفلك ، وأجراها مع الماء ، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها .. وسخر الشمس والقمر تسخيراً منتظماً ، لا يتخلف أبداً ، وسخر الليل والنهار ، على هذا النظام البديع المحـكم ..

والمراد بالتسخير هنا .. التذليل ، والإخضاع ، والانقياد .. وذلك بإخضاع هذه المخلوقات لسننٍ وقوانينَ تحكمها ، وتضبط موقفها بين المخلوقات ، بحيث يمكن الإنسان إخضاع هذه المخلوقات والانتفاع بها ، إذا هو عرف القوانين الـكونية الممسكة بها . .

— وفى قوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه » .. إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، قد شمل العباد بلطفه ، وأنزلهم منازل إحسانه وكرمه ، فأقامهم

على خلافته فى هذه الأرض ومكنّ لهم من أسباب الحياة فيها ، فبسط الأرض ، وأنزل عليها من السماء ماءً ، وأجرى فيها الأنهار ، وفجر العيون ، وسخّر ما فى السموات من كواكب ، ونجوم ، وما فى الأرض من عوالم وكائنات . وأودع فى الإنسان عقلاً ، يقْدِر به على أن يهتدى إلى مواطن النفع من هذه الموجودات، وأن يقيم منها هذه الدنيا ، التى نسج من خيوطها هذا الثوب الجميل الذى تزدان به ، كما تزدان العروس فى ليلة عرسها .

هذا ، وليس المراد بقوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه » أن كل إنسان قد أوتى سُؤْله ، واستوفى كل مطلوبه من دنياه ، فهذا ـ وإن بدا فى ظاهره أنه خير ـ هو فى حقيقته آفة تغتال مطامح الإنسانية ، وتقتل آمالها ، وتدفن مَلَكاتها .. إذ لو توفرت لكل إنسان حاجته ، لمَا جدّ وسعى ، ولمَا تفتق عقله عن هذه العلوم والمعارف ، التى كشف بها أسرار الطبيعة ، وأخرج المخبوء فى صدرها ، وأقام له سلطاناً على هذا الكوكب الأرضى ، الذى جعله الله خليفةً عليه ..

وإنما المراد بقوله سبحانه : « وآتاكم من كل ما سألتموه » ـ هو الإنسانية كلها فى مجموعها ، وأن ما سخر الله لها من عوالم السموات والأرض ، وما أودع فيها من قوى التفكير والتدبير ، هو بمنزلة إعطاء الناس كل ما أرادوا.. فبين أيديهم كل ما يحتاجون إليه .. وليس عليهم لكى يحصلوا على ما يريدون إلا أن يعملوا ، ويجدّوا فى العمل ، وأن يديروا عقولهم على هذه الموجودات ، وأن يُلقوا بشباكهم فى كل أفق ، فتجيئهم ملأى ، باللآلىء والأصداف ، والدرّ والحصى ! وهذا يعنى أن هذه الدنيا ليست للإنسان وحده ، وإنما هى للإنسانية كلها ، وأن الناس فى مجموعهم أشبه بالجسد الواحد ، تتعاون أعضاؤه جميعاً على حفظ هذا الجسد ، وصيانته ، وتوفير أسباب الحياة الطيبة له ..!

ــ وقوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » إلفات إلى هذه النعم الكثيرة التى بين أيدينا ، والتى نجدها ــ لو التفتنا إليها ــ فى كل شىء يحيط بنا .. فى الهواء الذى نتنفسه ، وفى الضوء الذى تكتحل به عيوننا ، وفى اللقمة نجدها على جوع ، وفى شَربة الماء نأخذها على ظمأ ، وفى نسمة عليلة نستروحها بعد لفحة الهجير .. وفى إغفاءة بعد سهر ، وفى صحة بعد مرض .. وفى نجاح بعد إخفاقٍ .. وهكذا .. نحن فى نعم دائمة لا تنقطع أبداً .. يجدها الغنى والفقير ، والقوىُّ والضعيف ، والمريض والسليم .. وهى من الكثرة بحيث لا نلتفت إلا إلى ما نفقده منها ، ولا نشعر إلا بما بَعُد عنّا من وجوهها .. ولهذا جاء التعبير القرآنى عن هذه النعم بلفظ المفرد « نعمة » ــ « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. بمعنى أن النعمة الواحدة من نعم الله ، هى نعم كثيرة ، لا تحصى ، وأن أيًّا منها ــ وإن بدا صغيراً ــ لا يستطيع الإنسان أن يؤدى لله حقّ شكره .. فكيف ونعم الله ــ لا نعمته ــ تلبسنا ظاهراً وباطناً ؟ ومع هذا فإن الإنسان لا يحمد الله ، ولا يشكر له ، على ما أسبغ عليه من نعم ، بل يرى دائماً أنه مغبون .. ولهذا جاء وصف الله سبحانه وتعالى له بقوله : « إن الإنسان لظلوم كفار » .. أى أنه يظلم نفسه بحجزها عن مواقع الهدى ، وبحجبها عن مطالع الخير ، فلا يرى ما لله عليه من فضل ، فيكفر بالله ، ويرد موارد الهالكين ..

الآيات : (٣٥ — ٤١)

* « وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى

فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ » (٤١)

التفسير :

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ذكرت مشركى قريش الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، فعبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة من دون الله .. ولما كان هؤلاء المشركون هم من ذرية إبراهيم عليه السلام، الذى كان حرباً على الأصنام وعبّاد الأصنام ، والذى بنى هذا البيت الحرام ، وأرسى قواعد البلد الحرام ، فقد ناسب أن يُذكّر هؤلاء المشركون بأبيهم هذا، حتى يروا فى دعوة الرسول الكريم لهم ، دعوةً مجددة لدين أبيهم إبراهيم ، ولتسقط بهذا حجتهم التى يحاجّون بها النبى بقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » (٢٢ : الزخرف) .. فإذا كان لهم فى آبائهم أسوة ، فهذا هو إبراهيم أبوهم الأكبر ، فليتأسّوا به ، وليهتدوا بهديه !

* قوله تعالى : « وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى

وبنىّ أن نَعْبُدَ الأصنام »

هو تذكيرٌ لهؤلاء المشركين ، عبّاد الأصنام من قريش ، بموقف أبيهم إبراهيم من الأصنام ، وأنّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دعا ربّه أن يجعل هذا البلد الحرام ـ مكةَ ـ بلداً آمناً ، مؤمناً بالله ، وأن يجنّبه أى يُبْعِده وبنيه عن عبادة الأصنام ..!

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لإبراهيم دعوته فى البلد الحرام ، فجعله آمناً فى الجاهلية وفى الإسلام . أما فى بنيه . فقد استجاب له فى بعضهم ولم يستجب فى بعض آخر . . فكان منهم فى الجاهلية حنفاء يعبدون الله على دين إبراهيم ، كما كان منهم ـ وهم الأكثرون ـ عبّاد أصنام ، مشركون بالله .

وقد أخبر الله إبراهيم بأن دعوته هذه فى بنيه ، ليست مجابة على إطلاقها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتَمَّهُنَّ قال إنّى جاعِلُك للناسِ إماماً قال ومن ذُرِّيتِي قال لا ينالُ عهدى الظالمين » (١٢٤ : البقرة) .. فليس كلّ ذرّية إبراهيم ممن يتابعه ، ويكون على دينه إلى يوم القيامة . . وإلا لكان ذلك ضماناً موثقاً لكل من اتصل نسبه بإبراهيم أن يكون مؤمناً ، وهذا من شأنه أن يرفع التكاليف ، والابتلاء ، ويجعل مثل هذا الإيمان إيمان قهرٍ وإلجاء . ليس للإنسان فيه كسب واختيار .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى : « وإذ قال إبراهيم ربّ اجْعل هذا بلداً آمناً وارزق أهلَه من الثمراتِ من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتّعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » (١٢٦ : البقرة)

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ يدعو ربّه بما دعاه به ، يعلم هذه الحقيقة ، وأنه ليس كلّ بنيه إلى يوم القيامة ، ممن يهدى اللهُ .. ولهذا قال : « وارزق أهله من

الثمرات من آمن منهم » . . فدعا بالرزق لمن آمن ، دون من لم يؤمن . . وقد أجابه الله سبحانه ، بأنه لن يَحْرِمَ أحداً رزقه فى هذه الدنيا ، فهو سبحانه سيرزق من آمن ، ومن لم يؤمن ، فهذا الرزق هو متاعٌ قليل ، هو متاع الحياة الدنيا . . ولن يُحرم الكافر حظّه من هذا المتاع . . أما جزاء كفره فسيلقاه فى الآخرة : « قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير »

ففى أبناء إبراهيم إذن . . مؤمنون . ومشركون . . هكذا كان ، وهكذا يجب أن يكون ، تحقيقاً لقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن » . .

وهنا سؤال . . وهو :

لماذا ذكر إبراهيم البلد الحرام مرة منكّراً هكذا : « بلداً آمناً » ومرة معرفاً « البلد آمناً » ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو أنه قد كان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كما يحدّث التاريخ ـ أكثر من رحلة إلى البيت الحرام : الرحلة الأولى حين هاجر بإسماعيل وأمه ، وأنزلهما هذا المنزل ، وأقام هو وإسماعيل قواعد البيت الحرام . . وفى هذا الوقت لم يكن البلد الحرام قد ظهر إلى جوار البيت الحرام ، وإنما كان شيئاً مطوياً فى عالم الغيب لم يولد بعد ، ولهذا كان دعاء إبراهيم له : « ربّ اجعل هذا بلداً آمناً » . أى اجعل هذا المكان بلداً آمناً . . ثم بعد زمن ، عاد إبراهيم إلى هذا المكان مرة أخرى ، فوجد حول البيت الحرام قبائل قد نزلت على ماء زمزم مع إسماعيل ، ومنها قبيلة جُرهم التى أصهر إليها إسماعيل وتزوج منها . . ولهذا كانت دعوته الثانية لهذا البلد فى مواجهة بلد قائم فعلا ، فأشار إليه إبراهيم إشارة إلى شخص قائم أمام عينيه : « ربّ اجعل هذا البلد آمناً » !

* قوله تعالى : « ربِّ إنّهن أضْلَلنَ كثيراً من النّاس فمن تبعنى فإنّه منّى ومن عصانى فإنك غفور رحيمٌ »

فى هذه الآية :

أولا : خطاب الأصنام خطابَ العقلاء : « إنهن أضللن كثيراً من الناسِ » وفى هذا ما يكشف عن سَفَهِ المشركين الذين يعبدون هذه الأصنام ، وخفّة أحلامهم ، وأنهم يتعاملون مع هذه الأحجار كما يتعاملون مع الآدميين العقلاء .. وهذا لا يكون إلا عن سفاهة أحلام ، وسخَفَ عقول ، وصَغار نفوس . . إن هؤلاء الرّجال الذين يشمخون بآنافهم ، ويطاولون السماء بأعناقهم ، ليسوا إلا أطفالا فى مساليخ رجال . . فكما يتلهّى الأطفال بالدّمى ، ويخلعون عليها من مشاعرهم ، أسماء يخاطبونها بها ، كما يخاطب بعضهم بعضاً ، كذلك يفعل هؤلاء المشركون بتلك الدُّمى التى يشكلونها من الأحجار ، والأخشاب ، ويزينونها بالملابس والحلىّ ، كما يُزين الأطفال العرائس والدُّمى ! !

وثانياً : فى قول إبراهيم : « فمن تبعنى فإنه منى . . ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ـ إشارة إلى ما عند إبرهيم من علم بما لله فى عباده من حكمة . . وأن ذرّية إبراهيم لن تكون جميعها على طريق سواء .. فهم بين مؤمن يتبعه ، وكافرٍ يخرج عن الدين الذى دعا إليه . .

وثالثاً : فى قول إبرهيم : « ومن عصانى فإنك غفور رحيمٌ » تظهر عاطفة الأبوة ، كما تتجلّى تلك الصفة الكريمة التى حلّى الله سبحانه وتعالى بها إبرهيم ، والتى ذكرها سبحانه فى قوله : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (٧٥ : هود) . . فهو ـ عليه السلام ـ يَدَعُ العاصين من ذريته لمغفرة الله ورحمته .. وفى مغفرة الله ورحمته ، متسع للعاصين ، ورجاء للمذنبين .

● قوله تعالى : رّبنا إنى أسكنتُ من ذرِّيتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عند

بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعلْ أفئدة من الناس تَهْوِى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . .

هو استكمال لما دعا به إبراهيم ربه لإسماعيل وذريته ، إذ أسكنه فى هذا المكان القفر ، وأنزله فى هذا الوادى الجديب . .

فأول ما دعا به إبراهيم ربه ، لإسماعيل وذريته فى هذا الوطن ، هو الأمن : « ربّ اجعل هذا البلد آمناً » . . إذ كان الأمن هو ضمان الحياة ، وسَكَن النفوس ، والقلوب ، وإنه لاحياة لإنسان ، ولا نظام لمجتمع إلا فى ظل الأمن والسلام .. ثم كانت الدعوة الثانية بعد هذا ، وهى الإيمان بالله ، وذلك بعد أن يضمن الإنسان وجوده : « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام » .. ثم تجىء الدعوة الثالثة ، التى تمسك الإيمان فى القلوب ، وتمكّن له فى النفوس ، وهى لقمة العيش ، التى إن لم يجدها الإنسان ، هلك ، وطار صوابه ، وذهب إيمانه .. وفى هذا يقول إبراهيم :

— « ربنا إنى أسكنت من ذريتى » أى بعض ذريتى ، إذ كان ابنه الآخر وهو إسحق يعيش فى موطن غير هذا الوطن . . فإسماعيل الذى أسكنه فى هذا الوادى هو بعض ذريته ، لا كلّ ذريته . . « بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم » أى فى حِمَى بيتك المحرّم ، وهذا هو السبب فى أن اختار إبراهيم لإسماعيل هذا المكان القفر المنعزل .. فإنه وإن كان قفراً جديباً ، لا زرع فيه ولا ثمر ، فإنه مأنوس خصيب ، بنفحات الله ، محفوف برحمته ورضوانه . وحسب هذا الوادى أن يشرف بهذا الشرف العظيم ، فيكون وعاء حاملا لبيت الله .. أول بيت وضع للناس !

— « ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تَهْوِى إليهم وارزقهم من الثمرات » أى لكى تنتظم حياتهم ، وتطمئن قلوبهم ، ويؤدّوا ما فرض

الله عليهم من فرائض ، كانت دعوة إبراهيم ربّه ، أن يجعل قلوب الناس تميل إلى هذا المكان ، وتنجذب إليه ، وتتعاطف مع ساكنيه ، فيكون لهم من ذلك رزقٌ يُرْزَقونه من تلك الأمم التي تجيء إليهم ، وتلتقي بهم . .

وفى هذا إشارة إلى أن حياة الإنسان لا تنتظم إلا فى جماعة ، ولا تكتمل إلا فى مجتمع ، حيث كانت دعوة إبراهيم أن يَعْمُر هذا البلدُ بالناس ، وأن تتكاثر أعداد الوافدين عليه ، وذلك خير من الزرع والخصب . . فحيث كان الناس كان الخير ، وكان العمران ! . .

وفى المجتمع الذى تتوافر للإنسان فيه وسائل العيش ، ويجد فى كنفه الأمن والسلام ـ فى هذا المجتمع تخصب العواطف ، وتزدهر المشاعر ، وتتفتح البصائر إلى كثير من حقائق الوجود . . وهنا يجد الإنسان وجودَه الذى يستطيع أن يصله بالله، وأن يوثق صلته به ، حين يجد الجو الذى يسمح له بالنظر والتأمل، وهو مجتمع النفس ، مطمئن القلب . . ومن هنا أيضاً يستقيم للإنسان دينه ، فيؤدى ما لله عليه من حقوق ، لا تشغله عنها شواغل الحياة ، ولا تُذهله عنها مطالب العيش الملحّة ، المهددة للحياة ! .

— فى قول إبراهيم : « ربنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ».. تعليل كاشف عن أن إقامة الصلاة ، وما معها من واجبات مفترضة على المؤمن ، إنما تجىء بعد أن يجد الإنسان وجوده على هذه الأرض، ويضمن لهذا الوجود بقاء واطمئناناً . . !

فالإنسان مع الحرمان الشديد ، ومع الجوع المهدد بالهلاك ، لا يجد العقل الذى يعقل ، ولا القلب الذى يخفق خفقات الوجد والشوق . . فإذا عَبد اللهَ فى تلك الحال ، عبده وهو شارد اللّب خامد الشعور . . ومثل هذه العبادة ولا يجد فيها العابد ريحَ ربّه ، ولا يَنْسَم أنسام جلاله ، وعظمته . .

يقول الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ « لا تُشاوِرْ من ليس فى بيته دقيق ، فإنه مُوَلَّه العقل » . . أى لا عقل له ، إذ كان فيما ركبه من هم ، وما استولى عليه من مشاعر الأسى لصغاره الجياع ، ما يذهب بكثير من قواه العقلية والنفسية .

ومن هنا كان هذا الدعاء : « اللهم أصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى دينى الذى فيه معادى وعاقبة أمرى » كان دعاء جامعاً لخير الدنيا والآخرة .

هذا وليست كثرة المال ووفرة المتاع ، بالتى تقيم الإنسان دائماً على طريق مستقيم مع الله ، إذ كثيراً ما يكون المال ووفرته سببا فى صرف الإنسان عن طريق الحق ، وركوبه طرق الغواية والضلال . . ولكن الفقر القاهر والحاجة القاسية ، أكثر صرفاً للإنسان عن الطريق السّوىّ . . إلا من عَصَم الله ، وأمده بأمداد الحق والصبر .

وفى التعبير بكلمة « تهوِى » إشارة إلى الدافع الذى يدفع الناس إلى هذا المكان القفر الجديب . وأن هذا الدافع لن يكون طلباً لمالٍ أو متاع ، وإنما هو إشباع لهوًى فى القلوب ، وإرواء لظمأ فى النفوس ، واستجابة لأشواق تهفو بالأرواح إلى هذا المكان . . وذلك لا يكون إلا استجابة لدعوة الله ، وامتثالاً لأمره ، وتحقيقاً لركن من أركان دينه . . فكانت فريضة الحجّ ، هى دعوةَ الله إلى اجتماع المؤمنين فى هذا الوادى . . يجيئون إليه فى شوق ، وحنين . . وكأنهم على ميعاد مع أمل محبوب طال انتظاره ، وأمنية مسعدة ، عزّ الوصول إليها . . وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى بقوله : « وأذّنْ فى النّاس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » (٢٧ ـ ٢٨ : الحج) .

— وفى قوله تعالى : « لعلهم يشكرون » حثٌّ لأهل هذا الوادى وساكينه على أن يشكروا الله على هذا الفضل الذى ساقه إليهم ، حتى اخضرّ واديهم الجدب ، وأزهر وأثمر . . وذلك بأن يقيموا الصلاة ، ويؤدوا ما افترض الله سبحانه وتعالى عليهم من فرائض ، كانت الصلاةُ عمادها . . ولهذا اقتصر على ذكرها ، تنويهاً بها ، ورفعاً لقدرها ، وأنها هى الدين كلّه ، فإذا ضيعها المؤمن فقد ضيع كل دينه ، وإذا حفظها كان ذلك داعية له بأن يحفظ كل دينه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٤٥ : العنكبوت)

* قوله تعالى : « ربنا إنّك تعلم ما نخفى وما نُعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . . »

تشير هذه الآية إلى أن تقوى الله ، وشكره ، ليس بأعمال الجوارح الظاهرة وحدها ، وإنما بأن يُسلم الإنسان لله وجوده كلّه ، ظاهراً وباطناً ، وأن يُخلص له العبادة . . فالله سبحانه وتعالى : يعلم ما نخفى وما نعلن . . وحساب أعمالنا عنده ، بما تحمل من صدق وإخلاص . . فإذا تلبس بتلك الأعمال رِياء ، أو نفاق ، رُدّت على صاحبها ، وكانت وبالاً عليه . .

* قوله تعالى : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحقَ إن ربّى لسميع الدّعاء » . .

هو صلاة شكرٍ وحمد لله ، يرفعها إبراهيم لربّه ، على النعمة التى أنعم بها عليه ، إذ وهب له الولدَ بعد أن كبر ، وجاوز العمر الذى يُطلب فيه الولد . . فوهب الله له ولدين ، لا ولداً واحداً ، هما إسماعيل وإسحق . .

وهكذا تجىء رحمة الله من حيث لا يحتسب الناس ، ولا يُقدّرون . .

فهذا إبراهيم الذى بلغ من الكبر عتيًّا ، ولم يرزق الولد الذى

تَقَرُّ به العين ، قد بسط له الله سبحانه وتعالى يدَ رحمته ، فكان له أكثر من ولد . . !

وهذا الوادى الجديب ، الذى كانت تمتدّ العين ، فلا ترى فيه إلا مواتاً ، لاتهبّ عليه نسمة حياة أبد الدهر ـ هذا الوادى قد عاد لله بفضله عليه ، فإذا هو حياة زاخرة ، تحتشد فيه الأمم ، وتصبّ فيه أنهار الحياة ، المتدفقة بالنعم من كل أفق . .

وقد شكر إبراهيم ربّه على هذه النعمة ، التى جاءته على غير انتظار . . ، فليشكر أهل هذا الوادى ربهّم على هذا الخير الذى يَفيض به واديهم . . من غير عمل منهم !

* قوله تعالى : « ربّ اجعلنى مقيم الصّلاَة ومن ذُرِّيتى ربّنا وتقبل دعاء » فيه توكيد لدعوة إبراهيم التى دعا بها ربّه فى قوله : « ربّنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم » .. وفى هذا مافيه من تنويه بأمر الصّلاة، واحتفاء بشأنها .. ثم هو من جهة أخرى ، إشارة إلى أن أداء الصلاة على وجهها والمحافظة على أوقاتها ، وإخلاص القلوب لها ، وإخلاء النفس من الشواغل التى تشغل عنها .. وذلك أمر يحتاج إلى إيمان قوى ، وعزيمة صادقة ، يُستعان عليهما بالله ، ويُطلب إليه سبحانه العونُ والتوفيق فيهما . . ولهذا جاء قول إبراهيم ـ « رب اجعلنى مقيمَ الصلاة » صلاةً ضارعة إلى الله سبحانه أن يثبت قدمه على أداء هذه الفريضة ، وأن يجعله من مقيميها على وجهها . .

— وفى قوله : « ومن ذريتى » وفى التعبير بمن التى تفيد التبعيض ـ إشارة إلى أن دعاءه لذريته بأن يقيموا الصلاة ، لايشمل كل ذريته ، بل بعضهم ، ممن دعاهم الله إلى الإيمان به ، فآمنوا ، وأخبتوا ، وكانوا من المتقين . .

—وقوله : « ربَّنا وتقبّلْ دُعاءِ » .. هو دُعاء بأن يتقبل اللهُ منه ما يدعو به لنفسه ولذريته . . فإذا قبل الله سبحانه قوله : « وتقبلْ دعاءِ »ـ كان ذلك إذناً منه سبحانه بقبول مايدعوه به . . وكان مستجاب الدعوة عند الله . . وهذا غاية مايطمح إليه المؤمن مِن رِضا ربّه عليه ، ولطفه به ، ورحمته له . .

وقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ مستجابَ الدعوة عند ربّه . . وكان نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دعوةً مستجابة من دعوات إبراهيم ، حيث دعا إبراهيم ربّه بما حكاه القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى : « ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (١٢٩ : البقرة) .. وفى هذا يقول النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « أنا دعوة إبراهيم . »

* قوله تعالى : « ربّنا اغفر لِى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » هو دعوة عامة ، شملت المؤمنين جميعاً ، بعد أن بدأ إبراهيم بنفسه ، ثم بوالديه . .

وهذا أدب ربانىّ فى الدعاء ، ينبغى أن يلتزمه المؤمن ، وهو يدعو ربه . .

ذلك ، أن الدعاء هو استمطار فضلٍ من فضل الله ، واستنزال رحمة من رحمته . . ومن الغبن للداعى أن يدعو بهذا الخير ، ولا يأخذ نصيبه منه . . كما أنه من الأنانية والشحّ أن يحتجز الإنسان لنفسه هذا الخير المرتقب ، ولا يُشرك إخوانه المؤمنين فيه .. فرحمة الله واسعة ، وعطاؤه جزل .. ودعوة مستجابة تَسعد الناس جميعاً . .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمع وهو فى المسجد داعياً يدعو ، فيقول : « اللهم ارحمنى ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً » فقال صلى الله عليه وسلم

« لقد تحجّرت واسعاً » ؟ أى ضيقت ما كان شأنه السعة ، وأدخلت نفسك فى جُحر ، وكان بين يديك هذا الوجود الرحيب !

وهنا سؤال : كيف يدعو إبراهيم لوالده بالمغفرة ، وهو على ما كان عليه من كفر عنيد ، وضلال مبين ؟ كيف ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ما كان للنبىّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُربَى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (١١٣ : التوبة) وقد نزلت هذه الآية فى مشركى قريش ، الذين ماتوا على شركهم .. وقد كان النبىّ والمؤمنون يستغفرون لبعض هؤلاء المشركين ، فلما لَفَتَهم الله سبحانه إلى هذا ، وكشف لهم عن مصير هؤلاء المشركين ـ أمسكوا عن الاستغفار لهم ..

وكذلك كان شأن إبراهيم عليه السلام ، فإنه كان يستغفر لأبيه . على ما كان منه ، من جفاء وغلظة ، وعلى مالقيه منه من عناد وإصرار على الكفر . . وذلك طمعاً فى أن يهديه الله ، وأن يشرح صدره للإيمان ، فلما كشف الله له عن مصير هذا الأب ، تبرأ منه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدوّ للهِ تبرأ منه » (١١٤ : التوبة) .

وسؤال آخر : لماذا وقّت إبراهيم غفران الله له ولوالديه وللمؤمنين ، بيوم القيامة . . « يوم يقوم الحساب » ؟

والجواب على هذا ، هو أن يوم الحساب ، هو يوم الإنسان ، لا يومَ له قبله ، وأنه إذا ربح هذا اليوم ، وظفر فيه بالنجاة من عذاب الآخرة ـ وهذا لايكون إلا بمغفرة الله له ، وتجاوزه عن سيئاته ـ فذلك هو الفوز العظيم حقًّا .. أما إذا خسر هذا اليوم ، ولم يكن فيمن شملهم الله بعفوه ومغفرته ، فذلك هو الخسران المبين . .

فدعوة إبراهيم هذه مُدخرة له ، ولمن استجاب الله له فيهم من المؤمنين ، ليوم الحساب : « يوم تجد كل نفسٍ ماعملت من خير مُحْضراً وما عملت من سُوٓءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣٠ : آل عمران) .

الآيات : (٤٢ — ٤٥)

* « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَآ أَخِّرْنَا إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » (٤٥)

التفسير :

* قوله تعالى : « ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون . . » هو خطاب للنبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — ثم هو بعد هذا خطاب عام لكل من هو أهل للخطاب ، من المؤمنين والمشركين . . ثم هو تهديدٌ للمشركين ، وأخذٌ لهم وهم متلبسون بجرمهم ، وبموقفهم العناديّ اللئيم من النبي الكريم ، ومن كلمات الله سبحانه ، التي حملها إليهم ..

فالله سبحانه وتعالى مطلع على كل ما يعملون ، عالم بكل ما انطوت عليه صدورهم ، من تدبير سيء ، ومكر خبيث .. برسول الله ، وآيات الله . .

وهم إذ كانوا فى دنياهم هذه فى عافية ، ولم يؤخذوا بما أجرموا ، فليس ذلك عن غفلةٍ من الله تعالى عن أعمالهم ـ تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرا ـ وليس عن تجاوز عنهم ، إذ هم ليسوا أهلاً لأن يحلّوا فى ساحة المغفرة . . وإنما يؤخرهم الله ليومٍ تشخص فيه الأبصار ، أى تتجمد الأبصار ، فلا تَطْرِف ، لهول ماترى ، حيث يمسك بها هذا الهول ، ويشدّها إليه هذا البلاء ، فتسكن وتجمد !

* قوله تعالى : « مُهطعين مُقْنِعِى رءوسهم لايَرْتَدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » . . تبيّن هذه الآية حالاً من أحوال هؤلاء الظالمين ، وهم فى موقف الحساب والمساءلة ؛ وبين يدى هذا الهول العظيم ، الذى تنقلب فيه طبيعتهم ، ويغيب عنهم صوابهم ، وتفلت منهم جوارحهم . .

— وفى قوله تعالى : « مهطعين » إشارة إلى أنهم يساقون سوْقاً عنيفاً من قبورهم إلى ساحة المحشر . كما يقول سبحانه : « يومَ يَخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يُوفِضون » (٤٣ : المعارج) وكما يقول جل شأنه : « مهطعين إلى الداع . . يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » (٨ : القمر) .

والمُهطع : هو المسرع .

— وقوله تعالى : « مُقْنِعى رءوسهم » أى مطأطئى الرءوس ، ذلةً ، وانكساراً ، وضعفاً عن حمل هذا الهمّ الثقيل الذى ينوءون تحته ، من بلاء هذا الهول العظيم .

— وقوله تعالى : « لايرتدّ إليهم طرْفهم » أى مأخوذة أبصارهم ، إذا وقعت على هوْل من أهوال المحشر لَصِقت به ، ولم تَعُدْ إلى أصحابها . . فذلك هو اليوم الذى تشخص فيه الأبصار !

— وقوله تعالى : « وأفئدتهم هواء » أى قلوبهم فارغة ، معطلة عن أن تنبض بأى شعور ، أو تعى أى حديث ، مما استولى عليها من ذهول : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذاتِ حملٍ حملها وترى الناس سُكارَى وما هم بسُكارى ولكن عذابَ الله شديد » (١ — ٢ : الحج) .

* قوله تعالى : « وأنذرِ الناس يوم يأتيهم العذابُ فيقول الذين ظلموا ربنا أخِّرنا إلى أجلٍ قريب نُجِبْ دعوتك ونتبع الرُّسل أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال ؟ » .

هذا نذير آخر من نذُر يوم القيامة ، يأتى فى صورة من صور تلك المحاولات الكثيرة ، التى يحاولها أهل الشرك والضلال ، ليُفلتوا من عذاب هذا اليوم العظيم . وفى هذه الصورة يَضرع الظالمون إلى الله أن يعيدهم مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ، ليصححوا أخطاءهم ، وليكفّروا عن سيئاتهم ، وليأخذوا طريقاً غير الطريق الذى أخذوه . . إنه لو تحقق لهم هذا الرجاء لأجابوا دعوة الله ، واتبعوا رُسل الله . . وآمنوا كما آمن المؤمنون ، وكانوا فى عباد الله الصالحين ! ! . . هكذا يقولون وهم كاذبون .

— وفى قوله تعالى : « أو لم تكونوا أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال ؟ » تذكير للظالمين بما كان منهم فى دنياهم ، وقراءةٌ عليهم لصفحة من صفحات حياتهم المجللة بالسواد . . « أو لم تكونوا أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال ؟ » لقد كنتم فى دنياكم — وقد غركم الغَرور — على يقين بأنكم لن تُخلوا مكانكم منها ، ولن تتحولوا عنها أبداً . هكذا كنتم مع الدنيا ، ولو عدتم إليها لما كنتم أحسنَ حالا من حالكم الأولى معها . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون » (٢٨ : الأنعام) .

* وقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » .

فى هذه الآية ردٌّ على أولئك الذين ظلموا ، وبأن عودتهم مرة أخرى إلى الحياة لن تغير من أحوالهم شيئاً ، وأنهم لن يرجعوا عما كانوا .. ذلك لأن النُّذُر لا تقع منهم موقع العبرة والعظة .. فلو أنهم كانوا يأخذون من النذر عبرة وعظة ، لكان لهم فيما وقع تحت أبصارهم فى حياتهم الأولى ، مزدجر عما اقترفوه من آثام ، وفعلوه من منكرات .. فلقد سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، ورأوا مافعل الله بهم ، وما أخذهم به من عذاب ونكال . . ومع هذا فإنهم ساروا على نفس الطريق الذى سلكه أسلافهم هؤلاء .. من ظلم ، وبغى ، وضلال ، ولم يكن لهم فيما حلّ بهم نظر واعتبار . ! فكيف ينفعهم هذا الموقف الذى وقفوه فى الآخرة ، وعاينوا فيه ماأعد الله للظالمين من بلاء وهوان ؟ إن هذا من ذاك ، سواء بسواء ! وإنه إذا كان فى عذاب الآخرة عبرة لمعتبر ، فإن فى مصارع الظالمين فى الدنيا ، وفيما يأخذهم الله به من بأساء وضراء ، لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . وفى هذا يقول تبارك وتعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم . لا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفورٍ * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل .. أو لم نعمِّركم مايتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٦ — ٣٧ : فاطر) .

الآيات : (٤٦ — ٥٢)

* « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ

عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠) لِيَجْزِىَ ٱللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » (٥٢)

التفسير :

* قوله تعالى : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرُهم وإن كان مكرُهم لتزول منه الجبال » .

المكر : التدبير السيء ، والمراد به هنا ، ما كان من المشركين من مواقف مع الدعوة الإسلامية ، وما كانوا يبيتونه لها .

وعند الله مكرهم : أى أن هذا التدبير السيء ، وهذا الكيد الخبيث ، هو مما علمه الله منهم ، وسجله عليهم ، وسيحاسبهم عليه ..

والآية الكريمة ، تعيد هؤلاء الضالين ، إلى الحياة الدنيا ، بعد أن عرضتهم الآيات السابقة على النار ، وأشرفت بهم على أهوالها ، وأرتهم اليأس من العودة إلى الحياة الدنيا ، بعد الموت والبعث . ثم هاهم أولاء يستيقظون من تلك الأحلام المزعجة على هذا الواقع ، فإذا هم فى دنياهم لم يبرحوها بعد ، وقد كانت أمنيتهم أن يعودوا إليها ، ليصلحوا ما أفسدوا . . وها هم أولاء فى دنياهم تلك . . فماذا هم فاعلون ؟ إنهم لن يفعلوا غير ما فعلوا ، ولن يتحولوا عما هم فيه من كفر وضلال . .

— وفى قوله تعالى : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم » إلفات لهم إلى هذا الكفر الذى هم فيه ، وهذا الضلال المشتمل عليهم .. فهل سيظلّون على صحبتهم لهذا الكفر ، ومعايشتهم لهذا الضلال ؟ سنبصر ويبصرون !

—وفى قوله تعالى : «وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » إشارة إلى أن هذا المكر هو الذى جعلهم أعداء لله .. يكفرون به ، ويجعلون له أنداداً ، ويقولون فيه مقولات منكرة ، تلك المقولات التى تتأذّى منها السموات والأرض ، حتى لتكاد تتفطر منها رعباً وفزعاً أن يصيبها شىء من غضب الله، الذى سينزل بأصحاب هذه الأقوال . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدًّا * أن دَعَوْا للرحمن ولداً » (٨٨ — ٩١ : مريم) .

والمشركون وإن لم يقولوا بنسبة الولد إلى الله ، كما قالت اليهود : عزير ابن الله ، وكما قالت النصارى : المسيح ابن الله . . لكنهم قالوا : إن الملائكة بنات الله . . كما يقول الله تبارك وتعالى عنهم : « وجعلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً . . أشهدوا خلقهم ؟ ستُكتب شهادتهم ويسألون » (١٩ : الزخرف) .

* قوله تعالى : « فلا تحسبن الله مخلفَ وعده رُسلَه إن الله عزيزٌ ذو انتقام » — هو تثبيت للنبى الكريم ، وتطمين لقلبه ، بأن الله منجزٌ وعده إياه ، وهو النصر على كل قوى الشر والعدوان ، المتربصة به .. فهذا حكم لله فيما بين رسله وأقوامهم ، كما يقول سبحانه : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » (٢١ : المجادلة) . .

فالله سبحانه وتعالى « عزيز » يَغلِب ولا يُغلب .. « ذو انتقام » يأخذ

الظالمين بظلمهم ، ولا يَدَعهم يُفلتون من العقاب الراصد لهم .

* وقوله تعالى : « يوم تُبَدّل الأرض غيرَ الأرض والسمواتُ وبرزوا لله الواحد القهار ».. أى فى هذا اليوم تتجلى عزة الله سبحانه وتعالى ، ويتجلى انتقامه من الظالمين ، حيث توفى كل نفس ما كسبت .. وأنه إذا كان منه سبحانه وتعالى إمهال للظالمين فى الدنيا ، فإنهم إذا حشروا فى هذا اليوم ، أُخذوا بكل ما عملوا ، وذاقوا وبال أمرهم ، واستوفوا نصيبهم من العذاب الأليم ..

— وفى قوله تعالى : « تُبدل الأرض غير الأرض والسموات » إشارة إلى أنه فى هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ تتغير معالم هذا الوجود الذى عرفه الناس فى حياتهم الدنيا . .

فلا الأرض أرض ، ولا السماء سماء ، وذلك لما ترجُف به الأرض من أهوال ، كما يقول سبحانه : « يوم ترجُف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مَهيلا » (١٤ : المزمل) وكما يقول سبحانه : « إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فُجّرت * وإذا القبور بُعثرت * علمت نفس ما قدّمت وأخرت » (١ — ٥ : الانفطار) ..

* قوله تعالى : « وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قَطِرَانٍ وتغشى وجوهَهم النار » ..

مقرنين : أى يُقرن بعضهم إلى بعض ، ومنه القرين ، وهو الصاحب .. والأصفاد : جمع صَفَد ، وهو القيد .. والسرابيل جمع سربال ، وهو القميص . . القطران : « الزفت » ..

والمعنى : أنه فى هذا اليوم يُرى المجرمون وهم مقرنون فى الأصفاد ، أى مقيدون بالأغلال ، وقد قُرن بعضهم إلى بعض . . فكانوا كياناً واحداً ، مشدوداً إلى سلسلة ، قد شدّ كل واحد منهم إلى حلقة فيها .. إذلالاً لهم ،

وامتهاناً .. هكذا شأن المجرمين الذين يساقون إلى ساحة المحاكمة، ليستمعوا إلى حكم القضاء فيهم !.

وليس هذا فحسب، بل إنهم ليُعرَضون هذا العرض المهين، عراةً حفاةً .. قد طُليت أجسادهم بالقطران، فكان هذا القطران لباسَهم الذي يراهم الناس فيه، فى هذا اليوم العظيم .. « سرابيلهم من قطران » ..

وليس هذا فحسب أيضاً، بل إن لهم من نار جهنم لفحات، تداعبهم بها، ضرباً على وجوههم، ولطماً على خدودهم: « وتغشى وجوههم النار » أى تغطى وجوههم بلهيبها !.

ذلك منظر تقشعر منه الأبدان، وتنخلع منه القلوب .. تتجلى فيه نقمة الله، حيث تنزل بالظالمين، وتأخذهم أخذ عزيز مقتدر .. وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

* قوله تعالى: «ليجزى الله كلَّ نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب».

هو تعليل لهذا البلاء العظيم، وهذا الهوان المهين، الذى يلقاه هؤلاء الظالمون يوم القيامة، فهذا بما كسبته أيديهم، وقد كان من عدل الله سبحانه أن يعاقب المذنبين الظالمين، وأن يُثيب المحسنين المتقين. وهو سبحانه وتعالى يقول: « أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ؟ ما لكم كيف تحكمون» ؟ (٣٥ ـ ٣٦ : القلم)

ــ وفى قوله تعالى: « إن الله سريع الحساب » إشارة إلى أن كثرة المحاسَبين بين يدى الله تعالى، من محسنين ومسيئين، لا يكون منها إبطاء أو إمهال فى أن ينال كل عامل جزاء عمله، فالمحسنون يعجّل لهم جزاؤهم الحسن، حتى يسعدوا به، ويهنئوا بالعيش فيه، وحتى لا يستولى عليهم القلق، وتهجم عليهم الوساوس، وهم فى انتظار كلمة الفصل فيهم. وكذلك المسيئون، لن

يمهلوا فى لقاء العقاب الراصد لهم ، وذلك حتى تنقطع آمالهم فى النجاة ، فإن المحكوم عليه بالموت ، لا ينقطع رجاؤه حتى يلقى مصيره ، ويشهد الموت عياناً ..

* قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس . . وليُنذَروا به وليعلموا أنما هو إلٰه واحد وليذّكّر أولوا الألباب » .

— « هذا » إشارة إلى ما جاء فى آيات الله من هدًى ، فيه بيان للناس ، وبلاغٌ مبين . وحجة دامغة ، تخرس كل مكابر ، وتفحم كل معاند .. ففى كلمات الله التى حملها رسول الله إلى الناس ، بلاغ لهم ، وزاد طيّب ، يتزودون به فى طريقهم إلى الله ، ويبلغون به شاطىء الأمن والسلام ..

— قوله تعالى : « وليُنْذَروا به وليعلموا أنما هو إلٰهٌ واحد » معطوف على محذوف ، تقديره هذا بلاغ للناس ، ليدلهم على ربهم ، وليكون نذيراً لهم من عذابه ، إذا هم صمّوا وعموا عن الاستماع إلى آياته ، وليعلموا إذا تدبّروا هذه الآيات وعقلوها ، أن إلٰههم إله واحد لا شريك له ..

— وقوله تعالى : « وليذكر أولوا الألباب » معطوف على محذوف أيضاً .. تقديره — فإذا لم يكن لهؤلاء الضالين أسماع تسمع ، أو عقول تعقل ، أو بصائر تستبصر وتتذكر — فليُتركوا وشأنهم ، وليذكر أولو الألباب ، الذين ينبغى لهم ألا يمرّوا بآية من آيات الله ، دون أن يلتقطوا منها عبرة ، أو يأخذوا منها موعظة .

وننظر فى الآية الكريمة نظرة شاملة : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلٰه واحدٌ وليذكر أولوا الألباب » . ننظر فنجد :

أولا : أن القرآن الكريم هو بلاغ للناس جميعاً ، يحمل فى مضامينه أضواء مشعة ، تكشف الطريق إلى الهدى والإيمان : « هذا بلاغ للناس » .

وثانياً : أنه مع هذا البلاغ المبين ، وذلك البيان الكاشف ، فإن كثيراً

من الناس لا تكتحل أبصارهم بهذا النور ، ولا تتفتح قلوبهم لهذا الخير..
وكلّ حظهم من هذا البلاغ المبين أنه حجة عليهم، وإنذار لهم بالعذاب الأليم:
« ولينذروا به » .

وثالثاً : أن الذين نظروا فى آيات الله ، وأعطوها آذانهم وقلوبهم ، قد عرفوا بها طريقهم إلى الله ، وعلموا أنه إله واحد ، لا شريك له . . « وليعلموا أنما هو إله واحد » ..

ورابعاً : أن فى هذا الذى انكشف من أمر الناس ، وموقفهم من آيات.. بين ضال لم يزده هذا البلاغ المبين إلا عمىً وضلالاً . وبين مهتد ، زاده هذا البلاغ المبين هدًى وإيماناً ـ فى هذا وذلك عبرة وعظة ، فليعتبر بهذا أهل البصائر ، وليتذكر أولو الألباب والعقول . الذين هم أهلٌ لهذا الخطاب المبين ، من ربّ العالمين .



١٥ - سورة الحجر

نزولها : مكية . . نزلت بمكة . . بلا خلاف .

عدد آياتها : تسع وتسعون آية .

عدد كلماتها : ستمائة وأربع وخمسون كلمة .

عدد حروفها : ألفان وسبعمائة وستون حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم



الآيات : (١ — ٥)

* « الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » (٥)

التفسير :

مناسبة هذه السورة لما قبلها . هى أن ختام السورة السابقة كان قوله تعالى : « هذا بلاغٌ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هُوَ إلهٌ واحدٌ وليذكر أولو الألباب » ـ وهذا الختام يحدّث عن القرآن الكريم بأنه بيان مبين للناس ، وبلاغ يبلّغ بهم طريق الحق والإيمان — فكان مفتتح هذه السورة ـ سورة

الحجر — حديثاً آخر عن القرآن الكريم ، بأنه كتاب وقرآن مبين ، فكان هذا البدء مؤكداً لهذا الختام . .

* وقوله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين »

— « الر » مبتدأ ، وما بعده خبر ..

والإشارة بتلك ، مشار بها إلى آيات الكتاب ، والتقدير : « الر » تلك هى آيات الكتاب ، وآيات قرآن مبين . .

وفى الإشارة ، تنويه بهذه الآيات ، وإلفات الأنظار إلى جلالها وعلوّ شأنها ، وأنها إنما يشار إليها كما يُشار إلى النجوم فى أفلاكها ..

وفى الإشارة إلى القرآن الكريم بأنه « آيات الكتاب » ، وأنه « قرآن مبين » . وصفٌ للقرآن بصفتين :

الصفة الأولى : أنه آيات مكتوبة .. أى من شأنها أن تُكتب ، احتفالا بها ، واهتماماً بشأنها . وذلك فى أمة أميّة ، لم تكن تكتب شيئاً إلا مايشتد حرصها عليه ، وضنّها به ، أن يُفلت من ذاكرتها شىء منه .. وهذا مافعلته بالمعلقات ، وببعض العهود والمواثيق ذات الشأن العظيم عندها !

فإذا نُبّه المسلمون من أول الأمر إلى أن هذا الذى يتلوه عليهم رسول الله من كلمات ربّه ، يجب أن يكتبوه ، كان ذلك إلفاتاً لهم إلى أن تلك الآيات ، هى عهود ومواثيق بينهم وبين ربهم ..

إذا عرفنا هذا أدركنا السرّ فى أن كان أول ماتلقاه النبىّ من كلمات ربه هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربّك الذى خلق * خلق الإنسان من عَلَق * اقرأ وربّك الأكرمُ * الذى علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعلم » فكانت نعمة التعليم بالقلم ، وهى الكتابة ، معادلة لنعمة الخلق ، والحياة .. فكما أن الله ـ سبحانه ـ بالخلق

أوجد الإنسان من عدم ، كذلك بالعلم علّم الإنسانَ الكتابة ، فسوّى خَلْقه ، وأتمّ عليه نعمته ! وفى هذا إشارة إلى أن خَلْق الإنسان لن يكمل ويقوم على الصورة السوّية ، إلا إذا تجمل بالعلم ، الذى وسيلته الأولى ، التعلم ، الذى مفتاحه الكتابة والقراءة ! !

والصفة الثانية التى وُصف بها القرآن الكريم أنه « قرآن مبين » .. وفى هذا إشارة إلى أن آيات الله تلك ، لم تكتب ، ولم تودع فى كتاب ، لتعلّق كما علقت المعلقات ، وكما أودعت العهود والمواثيق بعد كتابتها فى أحراز ، وإنما كتبت آيات الله هذه ، لتقرأ وتُتلى ، ولتكون ذكراً دائماً على ألسنة المؤمنين ، تعمُر بها قلوبهم ، وتغتذى منها أرواحهم ، وتستبصر بها بصائرهم . !

* قوله تعالى : « رُبَمَا يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » . .

ربّ : حرف جر يفيد التقليل .. فإذا اتصلت به « ما » دخل على الأفعال ، وهو هنا مخفف « من رُبّ » الثقيلة .

هذا ، ولم يرد هذا الحرف فى القرآن الكريم إلاّ فى هذا الموضع .

وقد بذل المفسرون كثيراً من الجهد فى التأويل والتخريج ، ليجدوا لهذا الحرف وجهاً مفهوماً ، يستقيم مع الآية الكريمة .. وكان محصول هذا كلّه أقوالا متهافتة ، رأينا من الخير ألا نقف عندها ، وأن نأخذ بما أرانا الله سبحانه من فهم ، استراحت له النفس ، واطمأن إليه القلب ..

فالآية التى سبقت هذه الآية ، وهى التى بدئت بها السورة الكريمة ، تشير إلى القرآن الكريم ، وإلى آياته البينات .. « آلر تلك آيات الكتاب .. وقرآنٍ مبين » ..

ومقصود هذه الإشارة هو لفت الأنظار ، وتوجيه القلوب والعقول إلى

آيات الله تلك ، ففيها الهدى لمن نظر واعتبر .. ولكن قليل من الناس هم الذين ينظرون ، ويعتبرون، ويهتدون .. أما أكثرهم فهم عن ذكر ربّهم معرضون ، وبآيات الله ، وبرسله ، يمكرون .. ومن هنا كان المؤمنون دائماً قلّة بالنسبة إلى أهل الزيغ والضلال .. كما يقول الحق تبارك وتعالى : « وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصت بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) .. وكما يقول سبحانه : « ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ فأبى أكثر الناسِ إلا كُفُوراً » (٨٩ : الإسراء) .. وكما يقول جل شأنه : « وإن تطع أكثرَ من فى الأرض يُضلّوك عن سبيل الله » (١١٦ : الأنعام) .

— وفى قوله تعالى : « رُبَمَا يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » تقرير لهذه الحقيقة الواقعة فى الحياة ، وهى أن أكثر الناس هم الكافرون ، وأقلّهم هم المؤمنون .. وأن هذه الآيات البينات التى بين يدى النبىّ الكريم لن يكون منها أن تهدى الناس جميعاً ، فليوطّن النبىّ نفسه على هذا ، وليعلم أنه مهما اشتد حرصه على هداية قومه ، فلن يهتدوا جميعاً ، وحسبه أن يستنقذ من الكفر والضلال ، تلك القلّة الكريمة التى استجابت له .. فقليلها خير من كثير .

فليحمل النبىّ الكريم هذا النور الذى بين يديه ، وهو على علم بأنه يشق طريقه وسط ظلام كثيف ، وأن قلّة من الناس ، هى التى تكتحل عيونها بهذا النور ، فتتبعه ، وتهتدى به إلى الله !

وفى هذا عزاء للنبىّ ، وتسرية له من الهموم التى كان يعانيها ، من تأبّى قومه عليه ، وعنادهم له .. فتلك هى سنّة الحياة ، وأولئك هم الناس !!

فالآية الكريمة هنا ، هى خطاب خاص للنبىّ الكريم ، يُراد به أن يتخفف النبىّ كثيراً من مطامحه فى إقامة الناس جميعاً على طريق الإيمان ، حتى لا تذهب نفسه حسرةً ، على هؤلاء الذين يموتون بين يديه ، وهم على ضلالهم وشركهم ، كما

يقول الله تعالى : « فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عليهم حسرات » (٨ : فاطر) وكما يقول جل شأنه : « فلعلك باخعٌ نفسَكَ على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا » (٦ : الكهف)

وعلى هذا يكون معنى الآية .. ادعُ يامحمد بهذا الكتاب الذى معك ، وأنت على بعض الرجاء ، لا كل الرجاء فى أن تجد لدعوتك آذانًا تسمع ، وقلوبًا تفقه ، وتستجيب ، وتؤمن .. فادع إلى سبيل ربّك ، بآيات ربك ، وقل : لعلّ وعسى !! أو قل : « ربَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ! »

وهنا لابد من الإشارة إلى أمور :

أولا : المراد من كلمة « يودّ الذين كفروا » ..

فإن الود للشىء ، معناه الرغبة فيه ، وإيثاره على غيره ..

وهذا يعنى أن الإيمان لا يكون عن إكراه ، وإنما عن رغبة ، وحبّ ، وإيثار ..

وهذا يعنى ـ من جهة أخرى ـ أنه ليس للنبى أن يحمل المعاندين حملاً على الإيمان ، وألا يجيئهم إليه عن طريق الإحراج الأدبى ، تحت عواطف القرابة أو الصداقة .. إن ذلك يكون أشبه بطعامٍ طيب يتناوله مريض ، أو ممعود ، فى غير اشتهاء له ، ولا رغبة فيه .. فمثل هذا الطعام لاتهضمه المعدة ، ولا ينتفع به الجسم .. والمعنى : ربما يرغب الذين كفروا فى أن يَدِينوا بهذا الدّين .

وثانيًا : قوله تعالى : « الذين كفروا » حيث يبدو من ظاهر اللفظ أنه يشمل الكافرين جميعًا ..

ونعم ، هو كذلك .. فدعوة اللهِ إلى الإيمان به موجهة إلى الناس كلّهم .. وعين الرسول الكريم تنظر إليهم جميعًا ، ويده الكريمة ممدودة لهم كلّهم ..

حيث لايدرى مَن يستجيب له ، ومن لايستجيب .. فالإيمان مطلوب من الكافرين جميعاً .. ومطلوب منهم كذلك أن يجيئوا إليه برغبة صادقة ، ومودة خالصة .. تعمر القلب ، وتشرح الصدر ! ولكن قليل هم أولئك الذين يعرفون الحق ويؤثرونه على الأهل والولد ..

وسؤال يعرض لنا هنا .. وهو : كيف يؤدى النبيّ رسالته ، وكيف يعطيها كل مشاعره وأحاسيسه ، وهو على يقين من أنه لن يبلغ بدعوته إلى قلوب الناس جميعاً ؟ أليس فى ذلك توهينٌ لعزمه ، وإخماد لجذوة الأمل التى ينبغى أن تكون مشتعلة فى نفس كل داعية ، حتى يعطى دعوته كلَّ جهده ، وعزمه ، وصبره ؟

والجواب : أن النبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَل من قِبل ربه برسالة ، ومأمور بأن يبلغها ، وأن يجتهد فى تبليغها ، وأنه إن لم يفعل فما بلّغ الرسالة ، ولا أدّى الأمانة . .

وقد امتثل النبي أمرَ ربه ، وصَدَع به ، واجتهد الاجتهاد كلّه ، حتى لقد كادت نفسه تذهب حسرةً وأسًى على من كان يفلت من يده ، ويموت على الشرك والضلال من قومه ..

فهذا التوجيه الربانى الذى حمله قولُه تعالى إلى النبي الكريم : « ربما يودّ الذين كفروا لوكانوا مسلمين » — هـذا التوجيه ، هو دعوة إلى النبي — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتخفف من هـذا الشعور الضاغط عليه ، والمؤرِّق له ، وأن يكون على علم من أنه لن يهدى من أضلّه الله ، وختم على سمعه وقلبه .. وهم كثير غير قليل .. وقد عَتَبَ سبحانه وتعالى على النبي الكريم مشفقا عليه من هذا العناء الذى يُعَنّى به نفسه ، فى شد المعاندين شدًّا إليه ، وهم يدفعونه ، ويتأبّوْن عليه .. فيقول سبحانه : « أما من استغنى * فأنت له تَصَدّى * ؟ وما عليك ألاّ يزّكى ؟ » (٥ ـ ٧ : عبس) .

قوله تعالى :

* « ذَرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

فى هذه الآية مايؤيد الفهم الذى فهمنا عليه الآية السابقة ، من أنها دعوة إلى النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أن يَرْفُق بنفسه ، وألا يجعل من همّه أن يقيم الناس جميعاً على طريق الإيمان ، فذلك أمر لايقع أبداً .

— وفى قوله تعالى : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » توكيد لهذه الدعوة ، وإخلاء ليد النبىّ الكريم من الإمساك بهؤلاء الذين يَجْزِنُون عليه ، ويشرُدون منه .. فليدعهم وما اختاروا لأنفسهم من حياةٍ ، كل همهم فيها أن يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويتلهّوْا بالآمال الكاذبة ، التى تقيم لهم من دنياهم تلك ، عالماً من سراب ، تتراقص على أمواجه عرائس زائفة ، ينخدع لها الحمقى والسفهاء من الناس ، ويقطعون العمر فى جَرْى لاهثٍ وراءها !

— وفى قوله تعالى « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، الذين رضوا بهذه الحياة ، واطمأنوا بها ، وأذهبوا طيباتهم فيها ، واستهلكوا وجودهم فى لذاذاتها الفانية . . إنهم فى سَكرة يعمهون . . فإذا جاء أجلهم ، صَحَوا من سكرتهم ، ووجدوا ما عملوا من سوء حاضراً بين أيديهم ، يقودهم إلى عذاب السعير . .

قوله تعالى :

* « وما أهلكنا من قَرْيَةٍ إلاّ ولَهَا كِتابٌ معلومٌ * ما تسبق من أمّةٍ أجلَهَا وما يستأخرون »

فى هاتين الآيتين الكريمتين ، وعيد بعد وعيد ، لهؤلاء المشركين . . وأنهم إذا كانوا لم يُؤخذوا بكفرهم وعنادهم وضلالهم ، إلى هذا اليوم الذى هم فيه ، فما ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن بهلاكهم بعدُ ، وذلك لما اقتضته حكمته . . فلكل قرية لها عند الله أجل معلوم ، كما أن لكل إنسان

أجله الموقوت .. فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون « ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون » .. فلا يَغْترنّ هؤلاء الكافرون بإمهال الله سبحانه وتعالى لهم .. فذلك ابتلاء منه سبحانه كما يقول جلّ شأنه : « فإن تولّوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيدٌ ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون * وإن أدرى لعلّه فتنة لكم ومتاعٌ إلى حين » (١٠٩ — ١١١ : الأنبياء)

الآيات : (٦ — ١٥)

* « وَقَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » (١٥)

التفسير :

* قوله تعالى :

« وقالوا يٰأيها الذى نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون »

الذِّكر : هو القرآن ، كما يقول الحق سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

والآية الكريمة تحدث عن مقولة من مقولات المشركين المنكَرة ، وتكشف عن موقف من مواقفهم السفيهة ، من النبيّ ، إذ يَلقَوْن النبيّ بهذا الاستهزاء ، ويُلقون إليه بتلك السبّة المفضوحة .. « إنك لمجنون » .. يقولونها هكذا .. فى تأكيد وإصرار !

— وفى الإشارة إلى النبى بقولهم : « يأَيها الذى نُزّل عليه الذكر » استصغار للنبيّ واحقار له ، إذ ينادونه من مكان بعيد .. « يأَيها الذى » . مع إعراضهم عن ذكر اسمه . . ومناداته بالصفة التى جاءهم عليها ، إنما كأنه إنكار لتلك الصفة ، وتشنيعٌ عليه بها . . إذ كانوا ينكرون على النبى أن ينزل عليه هو الذكر ، من بينهم ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم : « أَأُلْقِىَ الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذّاب أشِر » (٢٥ : القمر)

* وقوله تعالى : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين » . . يكشف عما أراده المشركون بقولهم : « يأَيها الذى نُزّل عليه الذكر » وأَنهم إنما يقولون ذلك استهزاء وسخرية وتكذيباً ، ولهذا جاء قولهم : « لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » تحدّيا للنبيّ أن يدفع التهمة التى يتهمونه بها ، وهى الادعاء الكاذب ، بأنه يحمل إليهم آيات الله التى أُوحيت إليه . . فإن كان ذلك الذى يدّعيه حقًّا ، وأنه متصل بالسماء ، فليأت بالملائكة تحدثهم ، وتشهد له أنه رسول الله .. عندئذ يُعرف صدقه ، ويقبل قوله !

ولوما : حرف تحضيض ، بمعنى هلاّ .

* قوله تعالى : « ما نُنزّل الملائكةَ إلا بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرِين » أى لا ينزل الله سبحانه الملائكة ، استجابة لأهواء أصحاب الضلالات ، وإنما ينزلهم سبحانه بما يأمرهم به ، كالسفارة بينه وبين رسله ، أو كالعذاب الذى يرسلهم به إلى من يريد إهلاكهم من القوم الظالمين . وكل هذا حقّ من عند الله سبحانه .. !

— وفى قوله : « وما كانوا إذاً منظرين » تهديد لهؤلاء المشركين ، وأنهم إذا استجاب الله لهم ، ونزلت الملائكة عليهم كما يقترحون ، فإنهم لا ينزلون عليهم إلا بالهلاك والبلاء ، بعد أن نزلوا عليهم على يد رسوله بالرحمة والهدى .. وفى هذا يقول الله سبحانه : « وقالوا لولا أُنزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا ملكاً لقُضى الأمر ثم لا يُنظرون » (٨ : الأنعام)

* وقوله تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا لَهُ لحافظون » هو ردّ على هؤلاء المشركين الذين سخروا من النبىّ بقولهم : « يأيها الذى نُزِّل عليه الذكر » فجاء قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر » كَبْتاً لهؤلاء المشركين ، وردعًا لهم ، وإعلاناً بما يملأ صدورهم حسداً وحسرة .. فقد أبوْا إلا أن يجهلوا الجهة التى يقول النبىّ إنه تلقّى الذّكر منها ، فقالوا « نُزِّل عليه الذكر » ولم يقولوا — ولو على سبيل الاستهزاء — نزّل الله عليه الذكر .. فجاءهم قول الحق جلّ وعلا : « إنا نحن نزّلنا الذّكر » بهذا التوكيد القاطع .. ثم جاء قوله تعالى « وإنا له لحافظون » مؤكداً لهذا التوكيد .. إذ أنه سبحانه هو الذى يتولى حفظه من كل عبث ، وصيانته من كل سوء .. وهذا هو الدليل القاطع على أنه منزّل من عند الله .. فليحاولوا أن يبدّلوا من صورته ، أو يدسّوا عليه ما ليس منه .. فإنهم لو فعلوا ، لكان لهم من ذلك حجة على أن ليس من عند الله !

وقد حفظ الله القرآن الكريم ، هذا الحفظ الربانىّ ، الذى أبعد كلّ ريبة أوشكّ فى هذا الكتاب ، فلم تمسسه يد بسوء ، على كثرة الأيدى التى حاولت التحريف والتعديل ، فردّها الله ، وأبطل كيدها وتدبيرها .. وهكذا ظلّ القرآن الكريم ، وسيظل إلى يوم البعث ، حِمَى الله الذى تحرسه عنايته ، وتحفظه قدرته ، فلم تنخرم منه كلمة ، أو يتبدل منه حرف .. وتلك حقيقة يعلمها أولو العلم

من خصوم الإسلام ، كما يؤكدها تاريخ القرآن الكريم ، الذى تولى النبىّ الأمى كتابته فى الصحف ، كما تولى غَرْسه فى صدور المؤمنين . . كلمة كلمة ، وآية آية . .

سئل بعض العلماء : لم جاز التحريف والتبديل على الكتب السماوية السابقة ، ولم يَجُزْ هذا على القرآن الكريم ؟ فقال : « إن الكتب السماوية السابقة قد وَكَل الله حفظها إلى أهلها ، كما يقول الله تعالى : « إنا أنزلنا التوراةَ فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والرّبانيّون والأحبارُ بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شُهَداء » (٤٤ : المائدة) . فأهل الكتاب هم الذين « استُحفِظوا » أى وكلوا بحفظ كتبهم . . ومن هنا جاز أن يفرطوا فى هذه الأمانة التى فى أيديهم ، وأن يدخل عليها ما دخل من تبديل وتحريف . . أما القرآن الكريم فقد تولّى الله سبحانه وتعالى حفظه ، ولم يَكِلْه إلى أهله . . فقال تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون » . . ومن ثَمّ كان من المستحيل أن يُدْخل على القرآن الكريم ـ وهو فى حراسة الله ـ تغيير كلمة ، أو تبديل حرف ! ! .

والسؤال هنا : لِمَ وَكَلَ الله سبحانه وتعالى حفظَ الكتب السماوية السابقة إلى أهلها ، ولم يتولّ سبحانه وتعالى حَفظها ، وهى من كلماته ، كما تولّى ذلك سبحانه ، بالنسبة للقرآن الكريم ؟ .

والجواب على هذا ، والله أعلم :

أولاً : أن الكتب السماوية السابقة مرادةٌ لغاية محدودة ، ولوقت محدود ، وذلك إلى أن يأتى القرآن الكريم ، الذى هو مجمع هذه الكتب ، والمهيمن عليها . . وهو بهذا التقدير الرسالة السماوية إلى الإنسانية كلها فى جميع أوطانها وأزمانها . .

فلو أن الكتب السماوية السابقة، كان لها هذا الحفظ من الله سبحانه، لما دخلها هذا التحريف والتبديل، ومن ثمّ لم يكن للقرآن الكريم هيمنة عليها، ولم يكن ناسخاً لها.. الأمر الذى أراد الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم أن يجىء له.

وثانياً: هذا التبديل والتحريف الذى أدخله أهل الكتب السابقة على كتبهم، لا يدخل منه شىء على آيات الله وكلماته. كما لم يدخل شىء من ذلك على آياته الكونية، التى يغوى بها الغاوون، وينحرف بها المنحرفون.. وكما لا يدخل شىء من النقص على ذاته الكريمة، أو صفاته وكمالاته، إذا جدّف المجدفون على الله، ونظروا إلى ذاته وصفاته بعيون مريضة، وقلوب فاسدة، وعقول سقيمة.

* قوله تعالى: «ولقد أرسلنا من قبلك فى شِيَع الأولين، وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون».

الشِّيَع: جمع شيعة.. وشيعة المرء، من يجتمعون إليه من أهل وعشير..

— وفى قوله تعالى: «ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين» — إشارة إلى أن كل رسول أرسل من عند الله، كان مبعوثاً إلى قومه الذين يعرفهم ويعرفونه.. كما يقول سبحانه: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم» (٤: إبراهيم)..

— وفى قوله سبحانه: «وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون» مواساة كريمة للنبىّ، وتخفيف عليه، مما يلقى من قومه من عَنَت ومكروه.. فتلك هى سبيل الرسل مع أقوامهم.. كلها أشواك، يزرعها السفهاء والحمقى فى طريق رسل الله إليهم.. فليس الرسول إذاً بِدعاً من الرسل، فيما لقى من قومه، من سفاهات وحماقات، فلقد كان إخوانه الذين سبقوه من رسل الله،

يلقون مثلَ ما لقى، من استهزاء وتكذيب . . بل ومنهم من رُجم وقتل ، ولم يشفع لهم فى ذلك ، ما بأيديهم من هدى ، ولا ما بينهم وبين أقوامهم من آصرة النسب والقرابة .

* قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » .

يقال سلك الطريق : أى سار فيه ، ومنه قوله تعالى : « فاسلكى سُبُل ربك ذُلُلاً » (٦٩ : النحل) . . وسَلْكُ الشيء فى الشيء : إدخاله فيه ، ومنه قوله تعالى : « اسلك يدك فى جيبك » (٣٢ : القصص) . . وقوله تعالى : « فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين » (٢٧ : المؤمنون) ومنه السلك ، وهو الخيط الذى تنتظم فيه حبات العقد .

— وفى قوله تعالى : « كذلك » إشارة إلى أن ما كان من الأقوام السابقين من تكذيب لرسل الله ، واستهزاء بهم ، هو الذى كان من هؤلاء المجرمين الذين وقفوا من « محمد » هذا الموقف اللئيم ، فكذبوه ، وسخروا منه ، وآذوه بكل ما قَدَروا عليه من ألوان الأذى . . فكأن هذا الضلال المستولى على بعض النفوس الخبيثة والطبائع المنكرة ، هو داء متنقل ، وميراث موروث ، يأخذه الخلف عن السلف : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » . . أى أن الضلال القديم ، ينغرس فى قلوب هؤلاء المجرمين من مشركى قريش ، فيكونون أشبه بحبة من حبات هذا العقد الّذى ينتظم القبائح والمساوىء ، ويجمع الأشرار إلى الأشرار . .

* قوله تعالى : « لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » .

الضمير فى قوله تعالى : « لايؤمنون » يرجع إلى هؤلاء المجرمين ، وهم مشركو قريش ، والضمير « به » يعود إلى النبىّ الكريم ، الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين » .. والحديث عنه

بضمير الغائب ، تنويه بقدر النبي وتكريم له ، وإشعار بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتولّى الدفاع عنه ، ومحاسبة المجرمين على استهزائهم به .. ويجوز أن يكونَ هذا الضمير عائداً إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله تعالى : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

— وفى قوله تعالى : « وقد خَلَت سُنَّةُ الأولين » .. تهديد ووعيد لهؤلاء المجرمين من كفار قريش ، وأن سنّة الله التى مضت فى السابقين ، كانت الهلاكَ والبلاء للمكذبين ، والنصرَ ، والعافية للرسلين وأتباع المرسلين .. ولن تتبدل سنة الله مع هؤلاء المشركين مِن قريش ومَن معهم !

* قوله تعالى : « ولوفتحنا عليهم باباً من السّماءِ فظلوا فيه يَعرجون * لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون » .

عرج إلى المكان : صعد إليه ، والعروج ، هو الصعود من أسفل إلى أعلى . .

وسُكرَت الأبصار : عَمِيت وعَشِيت ، وزاغت ، شأن من تستولى عليه الخمر ، ويصيبه دُوَار السُّكر .

وفى الآيتين الكريمتين، مايكشف عن الضلال الكثيف المنعقد على قلوب هؤلاء المجرمين ، وأنهم ـ وهم فى هذا الضلال ـ لايرون لمعة من لمعات الهدى أبداً ، ولو جاءتهم كل آية مبصرة ..

فلو أن الله سبحانه فتح لهم باباً من السماء،فظلوا فيه يعرجون ويرتفعون صُعُدًا ، حتى يشهدوا الملأ الأعلى ،ومافيه من آيات ، تدعوهم إلى الإيمان بالله ـ لأنكروا ماتشهده حواسّهم،ولا تّهموا أعينهم بأنها قد وقعت تحت حدث من الأحداث ، فذهب بقدرتها على الإبصار .. أو لقالوا إن قوة خفية سَحَرتهم ، وخيّلت إليهم

هذا الذى يرونه . وهذا يعنى أنهم لن يؤمنوا أبداً ، ولو جاءتهم تلك الآيات التى يقترحونها على النبىّ . إذ أن لهم ، من ضلالهم ، مع كل آية مكر ، وفى كل معجزة قاهرة قول ..

الآيات : (١٦ — ٢٥)

* « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » (٢٥)

التفسير :

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى الآيات السابقة ، ما استولى على قلوب المشركين من ظلام كثيف ، وضلال مبين ، حتى لو أنهم أُصْعِد بهم إلى السماء ، وشهدوا ما فى الملأ الأعلى من آيات ، ما كان لهم فى ذلك طريق إلى الهدى والإيمان بالله ، ولاتّهموا حواسّهم ، وكذّبوا المُشاهَدَ المحسوس بين أيديهم ..

أما الذين يرون الحق ويتبعونه ، ويشهدون آيات الله ، ويتلقون العبرة والعظة منها — فهؤلاء لهم فى كل شىء آية ، ولهم من عقولهم معارج يعرجون بها إلى السموات ، وهم حيث هم ، على هذه الأرض لم يبرحوها ..

* وقوله تعالى : « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين » — إشارة إلى ماللعقول السليمة من قدرة على النظر فى ملكوت الله ، وارتياد مواقع العبرة والعظة من آياته المبثوثة فى هذا الملكوت ..

فهذه السماء ، وقد رفعها الله سبحانه بغير عَمَد ، وجعلها بروجاً ومدارات للكواكب والنجوم ، وزينها بتلك الكواكب ، وحلاّها بهذه النجوم — هذه السماء هى مَراد فسيح للأنظار ، ومَسْبحٌ مُعجِب للعقول .. ينظر الناظرون إليها ، فترتدّ إليهم أبصارهم منها وقد امتلأت عِبرة وعظة ، بما شهدت من جلال الله ، وقدرته وعلمه وحكمته .. « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمواتِ والأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلا » (١٩١ : آل عمران) .. فذلك هو مايعطيه النظر السليم لأهله ، من إيمان بالله ، وولاء لجلاله وعظمته .

* قوله تعالى : « وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلاّ من استرق السّمع فأتبعه شِهابٌ مبين » .

إشارة إلى أن السّماء ليست مَعْرجاً لأهل الأرض ، وإن كانت مَراداً لأبصارهم ، ومسبحاً لعقولهم .. وأن الشياطين — وهم من سكان الأرض — إن أرادوا العروج إلى السماء بما لهم من طبيعة قادرة على الإنطلاق إلى آفاق عالية بعيدة — هؤلاء الشياطين لايستطيعون أن يعرجوا إلى السماء ، وغاية مايمكن أن يبلغه أحدهم هو أن يُحلِّق بعيداً ، يريد أن يدنو من الملأ الأعلى ، ويسترق السمع ، إلى ما احتواه هذا الملأ من غيوب وأسرار .. وعندئذ يجد الشيطان

شهاباً راصداً يُرَمى به ، فيحترق ويهلك ، دون أن يقع على شىء من علم الله .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنّهم عن السّمع لمعزولون » (٢١٢ : الشعراء) .

وقوله سبحانه ، على لسان الجن : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسّمع فمن يستمع الآن يجد له شِهاباً رصدًا » (٩ : الجن) .

وهنا سؤال .. وهو : هل إذا كان الجن لايستطيع أن يعرج إلى السماء وأن يسترق السّمع ، فهل يستطيع الإنسان أن يعرج إلى السماء ، ويبلغ إلى هذا المدى الذى لم يبلغه الجن ؟

إن إرهاصات كثيرة تشير إلى أن الإنسان الآن فى طريقه إلى السماء ، وأنه كاد ينجح فى أن ينزل على القمر ، بعد أن ارتاده بمراكب ألقت بمراسيها على سطحه ، وهى تحمل عُددًا وآلات نقلت إلى الإنسان كثيراً من طبيعة هذا الكوكب .. فهل إذا نزل الإنسان إلى القمر أو إلى أى كوكب من الكواكب ، أيكون فى هذا مايتعارض مع الآية الكريمة ؟

والجواب على هذا ، أن الآية الكريمة لم تعرض للإنسان ، ولم تسلط عليه من السماء رجوماً ، كما سلطتها على الشياطين ..

وعلى هذا ، ، فإن الطريق إلى السماء مفتوح للإنسان ، وليس ثمّة مايحول بينه وبين أن يبلغ منها حيث وسع علمه وجَهْده .. إلاّ أن الذى لايبلغه الإنسان أبداً ، هو أن يخترق حجب الغيب ، ويعلم ما استأثر الله سبحانه وتعالى به من علم .. ذلك هو مايقطع به إيماننا ، ويحدّث به كتابنا .. أما ماوراء ذلك ، فهو فى مجال الاختبار لقدرة الإنسان .. والقرآن الكريم يفتح للعقل كل طريق لاختبار قدرته ، بل ويبارك عليه كل خطوة موفقة يخطوها إلى الأمام ، فى ارتياد معالم الوجود ، فى الأرض وفى السماء ، وكشف مايستطيع كشفه من أسرار هذا الكون ، فى أرضه وسماواته على السواء ! والله سبحانه وتعالى

يقول : « يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا .. لاتنفذون إلا بسلطان » (٣٣ الرحمن) . ففى الآية الكريمة إغراء وتحريض لِعالَمَىْ الإنس والجن ، على التسابق فى ارتياد هذا الكون ، والنفوذ من أقطار السموات والأرض ، والغوص فى أعماقهما ، ولكن ذلك لايكون إلا لمن ملك بين يديه القوة التى تمكن له من اختراق أطباق الأرض ، وأجواء السماء ، وتلك القوة هى التى أشارت إليها الآية الكريمة بكلمة « سلطان » .. والسلطان الذى يمنح الإنسان تلك القوة ، هو العلم .. فبسلطان العلم يمتلك الإنسان القوة ، وبتلك القوة وبالقدْر الذى يحصل عليه الإنسان منها ، يكون مبلغه من النفوذ فى أقطار السموات والأرض ..

ومع هذا ، فإن هناك حرماً إن دنا منه الشيطان احترق ، كما أن هناك عوالم لاحصر لها ، لاتطولها قدرة الإنسان ، ولا يبلغ علمه منها شيئاً : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .(٨٥ : الإسراء)

فإذا بلغ الإنسان بعلمه وقدرته أن يستوى على ظهر هذه الكواكب المتصلة بفلك الأرض .. فهيهات أن يبلغ شيئاً من العوالم الأخرى ، التى تبلغ المسافات بينها وبين الإنسان ملايين من السنين الضوئية .. اللهم إلا أن يخرج الإنسان عن طبيعته ، ويصبح خَلْقاً آخر ..

* قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسىَ وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ـ وكما فى السماء آيات لأولى الأبصار ، فإن فى الأرض آيات وآيات للناظرين ..

فهذه الأرض ، قد مدّها الله ، وألقى فيها رواسى ، أى غرس فيها جبالاً راسية ، وأنبت فيها من كل شىء موزون ، أى كل شىء بحساب وقَدَر ، مما

ينفع الناس ، والدواب ، والطير ، وكلّ حيّ يشارك الإنسان الحياةَ على هذه الأرض . .

فما أنبت الله سبحانه فى هذه الأرض ، وما بثّ فيها من نبات ، وحيوان ، وجماد .. كل هذا بقدَر مقدور ، وبحساب موزون بميزان الحكمة ، حتى يعتدل ميزان الحياة ، ويكون للناس مستقر فيها ومتاع إلى حين . . ولو اختلّ هذا الميزان ، بزيادة أو نقص ، لما صلُحت الحياة على هذه الأرض ..

* قوله تعالى : « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستمْ له برازقين » — هو تفصيل لما أجملته الآية السابقة فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » — فهذا الذى تخرجه الأرض ، هو مما يعيش فيه الإنسان ، وتحيا عليه الأحياء الأخرى ، التى لا يتولى الإنسان إطعامها . . من هوامّ ، وحشرات ، ووحوش ، وطيور محلقة فى السماء ، وأسماك سابحة فى البحار والأنهار .. وغير ذلك كثير ، مما لا يعلمه إلا خالقها سبحانه وتعالى .. فهذه الكائنات كلها يرزقها الله سبحانه ، ويقدّر لها أقواتها .

* قوله تعالى : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما نُنزّله إلا بقدر معلوم » — إشارة إلى أن كل شىء هو إلى الله سبحانه ، وفى يده جلّ شأنه ، وأنه ينزّل من كلٍّ شىء بقدر معلومٍ ، حسب ماتقضى حكمتُه ، مما يصلح به أمر الناس وتعمر الأرض .

* قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .. أى إن من قدرة الله سبحانه ، ومن حكمته ، أن أرسل هذه الرياح ، فجعلها لواقح يكون من نتائجها هذا المطر الذى ينزل من الماء .. فالريح هى التى تحمل بخار الماء ، فتنقله إلى أجواء باردة فى آفاق السماء ، حيث يصير سحابا .. ثم تدفع هذا السحاب ، فيصطدم بعضه ببعض ، ويتولد من هذا الصدام

شرارات ، هى البرق ، الذى يكون أشبه بإشارة إلى ميلاد المطر ونزوله .. كما يقول سبحانه وتعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً فترى الودْق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذاهم يستبشرون » (٤٨ : الروم)

والرياح لقاح للنباتات ، إذ تنقل لقاح كثير من ذكور النبات إلى إناثه، ولكن المنظور إليه منها هنا ، هو لقاحها للسحاب ، حيث جاء قوله تعالى بعد ذلك : « فأنزلنا من السماء ماءً » .. فالفاء هنا للسببية ، بمعنى أن هذا اللقاح ، هو الذى يتسبب عنه نزول الماء من السماء . .

هذا ، والقرآن الكريم يفرّق بين الريح ، والرياح .. فيذكر الرياح فى مواطن الخير والرحمة ، على حين يستعمل الريح فى مواطن البلاء والنقمة ..

ذلك أن الريح إذا كانت من مهب واحدٍ كانت عقيما ، لاتنتج شيئا ، أو تحمل سموما ، وأذى ، كما فى قوله : « وفى عادٍ إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم * ماتذر من شىء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم » (٤١ : ٤٢ الذاريات) وقوله تعالى : « فلما رأوه عارضا مستقبلَ أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا .. بل هو ما استعجلتم به.. ريح فيها عذاب أليم» (٢٤ : الأحقاف) .. فإذا أُفردت الريح فى مواطن الرحمة ، ألحقت بوصف حسنٍ ، يرفع عنها الصفة الغالبة عليها .. كما فى قوله تعالى : « وجَرَيْنَ بهم بريح طيّبة » (٢٢ : يونس) .

أما إذا كانت الريح من جهات مختلفة ، فإنه يلتقى بعضها ببعض ، فتتوازن، وتعتدل ، وتحمل الخير والرحمة ، وتكون لقاحا للسحاب ، وللنبات ..

— وفى قوله تعالى : « وما أنتم له بخازنين » إشارة إلى أن هذا الماء، هو مما فى يد الله ، وفى خزائنه ، وأن ليس لأحد أن يتصرف فيه إلا بما يأذن الله به منه ..

كما يقول سبحانه : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » .. فهو مما فى خزائن الله ، وفى ملكه ، وليس للناس قطرة منه إلا مايجود الله به عليهم منه ..

* قوله تعالى: « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .. هو كشف لبعض قدرة الله ، وأنه سبحانه بيده الحياة والموت .. وأنه ليس لهذه الحياة بقاء .. « كل شيء هالك إلا وجهه » (٨٨ : القصص) .. والله سبحانه يرث الأرض ومن عليها : « ونحن الوارثون » فلا يَغْتَرَنَّ أحد بهذه الدنيا ، وإن أعطاه الله الكثير من زهرتها ، وأفاض عليه الجزيل من متاعها .. فكلٌّ إلى زوال ..

* وقوله تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » .. هو كذلك كشف عن بعض علم الله ، وأنه سبحانه قد علم ما كان مَن خلق قبل أن يُخلقوا ، السابقين من الخلق واللاحقين .. « ألا يَعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير » .. (١٤ : الملك)

* قوله تعالى « وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » هو تقرير للبعث ، وأن الموت المحكوم به على الناس ، ليس هو نهايةَ الحياة الإنسانية ، بل هناك حياة أخرى بعد الحياة الدنيا .. فقد اقتضت حكمة الله ، أن يكون للناس حياة أخرى يحاسبون فيها على أعمالهم ، وينزلون فيها منازلهم حسب ما كان لهم من أعمال فى دنياهم ، وهو سبحانه « عليم » بما كان منهم ، لايعزب عن علمه مثقال ذرة من أعمالهم . .

الآيات : (٢٦ — ٥٠)

* « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » (٥٠)

التفسير :

تعرض هذه الآيات قصة خلق آدم ، وكيف خلقه الله سبحانه وتعالى من طين ، ثم نفخ فيه الحق جلّ وعلا من رُوحه ، ثم أمر الملائكة بأن يسجدوا له ،

فسجدوا إلاّ إبليس ، فقد أبى أن يسجد ، فلعنه الله وطرده .. ثم تذكر الآيات موقفَ إبليس من ربه سبحانه وتعالى ، وتحدّيه لآدم وذريته ، بإغوائهم ، وإفسادهم ، وخروجهم عن طاعة الله ، ثم طلبه إلى الله سبحانه أن يؤخره إلى يوم القيامة ، حتى تتاح له الفرصة فى أبناء آدم .. وقد أجابه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك ، وحذّر أبناء آدم منه ، ونبههم إلى هذا العدو المتربص بهم ..

وقد وردت هذه القصة فى أكثر من موضع من القرآن ، شأنها فى هذا شأن القصص القرآنى ، الذى جاء فى معارض مختلفة ، بين الإيجاز والتفصيل ..

وفى سورة البقرة عرضنا بالتفصيل لقصة خلق آدم ، وقلنا إنه لم يُخلق خلقاً مباشراً من التراب ، وإنما كان خَلْقه حَلْقةً فى سلسلة التطور .. وأنه إذا كان الطين مبدأ للخلق ، فإنه قد تنقل فى هذا الطين من عالم إلى عالم ، ومن خلق إلى خلق ، حتى كان الإنسانُ آخرَ حلقة فى سلسلة هذا التطور ، فظهر فيها الكائنُ العاقل .. وهو آدم ، أو الإنسان ..

ولا نعيد هذا القول ، وحسبنا أن نقف بين يدي الآيات الكريمة وقفاتٍ نطالع فيها وجهاً من وجوه الإعجاز القرآنى فى التكرار لمعارض قصصه ، والذى حَسِبه بعضُ الجهلاء السفهاء من المآخذ التى تؤخذ على القرآن ، وعدّوه قصوراً فى بلاغته ..

* « ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنون * والجانّ خلقناه من قبل من نار السَّموم .. »

فى هاتين الآيتين عرض موجز لخلق آدم ، وخلق الجانّ (إبليس) ، وبيان المادة التى خلق كلٌّ من آدم وإبليس منها ..

فآدم ، خُلق من صلصالٍ من حمأ مسنون . .

والصلصال : الطين الذى جَفّ حتى صار له صوت وصلصلة . .

والحمأ : الطين المتعفن . وهو الذى تخمّر فى ظروف معينة ، وبدأ يأخذ بحكم هذا التخمر صوراً وأشكالا ، ولهذا وصف « بالمسنون » أى المسوّى والمشكل فى أشكال وقوالب . .

وقد ورد فى آيات من القرآن الكريم ، أن آدم خلق من تراب ، ومن طين ، ومن طين لازب . .

وهذا يشير إلى أن التراب ، هو المادة الأولى التى كان منها هذا الخلق . . ثم تحول التراب إلى طين ، ثم تحول هذا الطين إلى طين لازب ، أى زَبَد ، ثم تحول هذا الطين اللازب إلى حمأ ، ثم أخذ هذا الحمأ صوراً وأشكالا فكان حمأ مسنوناً . . ثم تحول هذا الحمأ المسنون إلى صلصال كالفخار . . وهكذا سار الإنسان فى هذا المسار الطويل عَبْرَ ملايين السنين ، حتى ظهرت أول بشائر الحياة الإنسانية فى باكورة إنسان . . هو « آدم » !

أما « الجانّ » فقد خُلق قبل آدم ، وكان خلقه من نار السموم . . أى من لهب النار لا من جمرها . . فكان جسما هوائياً ملتهباً ، مشوباً بدخان . .

وقد ذكر فى القرآن الكريم ، الجِنُّ ، وإبليس ، والشيطان ، وكلها تعنى هذا المخلوق الذى أمره الله بالسجود لآدم ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين . .

وقد عرضنا لبحث هذه المسميات — الجن وإبليس والشيطان — فى الجزء الأول من هذا التفسير . . فليرجع إليها من شاء . .

* « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

هنا يُحدّث القرآن عن أن الله سبحانه وتعالى قد آذن للملائكة قبل خلق آدم ، وقبل ميلاده المنتظر فى سلسلة التطور ، آذنهم — سبحانه — بأن ينتظروا ميلاد هذا الكائن ، وأن يسجدوا له ساعة مولده ، سجود ولاء لله ، وتمجيد لقدرته وحكمته إذ يشهدون هذا الطين يتحرك فى أحشاء الزمن ، فيتمخض عن كائنات عجيبة .. ثم يلد أعجب مولود ، هو هذا الإنسان ، الذى ينطق ، ويعقل ، ويكون خليفة الله فى الأرض ، ويقف بين يديه الملائكة موقف التلاميذ من أستاذهم ، يتعلمون منه ما لم يكونوا يعلمون ..

فالسجود لآدم فى حقيقته ، سجود لله سبحانه ، فى مواجهة هذه الظاهرة العجيبة ، التى تتجلى فيها قدرة الله ، وتطلع منها على الملائكة آية من آياته ..

— وفى قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » — إشارة إلى أن آدم لم يظهر من الطين ظهوراً مباشراً ، وإنما ظل دهوراً طويلة فى بوتقة الزمن ، حتى استوى ونضج .. فالفاء فى قوله تعالى : « فإذا سويته » تفيد التعقيب ، ولكنه تعقيب يأخذ من عمر الزمن ملايين السنين .. « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

— وفى قوله تعالى : « فقعوا له ساجدين » — إشارة إلى كيفية السجود ، وأنه سجود لا يملك معه الملائكة أنفسهم ، بل يخرون ساقطين على وجوههم ، حين يأخذهم جلال الموقف ، وتغشاهم رهبته ..

والفعل « قَعُوا » هو أمر من الفعل « وقع » والأمر منه « قَعْ » فإذا أسند إلى واو الجماعة كان : « قعوا » .. أى اسقطوا وخِرُّوا ..

هذا ، وقد جاء أمر الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة بالسجود لآدم فى موضع آخر ، فقال تعالى :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٧١—٧٢ : ص) .

وهذا يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى ، قد لفت الملائكة أول الأمر إلى المرحلة الأولى من مراحل هذا الخلق الذى سيخرج من هذا الكائن البشرى .. وأن أول هذه المراحل، هى الطين .. وقد أخذ الملائكة منذ هذه اللفتة ، يرقبون هذا الطين ، ويلحظون مسيرته فى خط الحياة ..

ثم حين انتقل الطين إلى مرحلة أخرى،هى مرحلة الصلصال ، والحمأ المسنون ـ لفت سبحانه وتعالى الملائكةَ مرة أخرى إلى هـذا التغيير الذى حدث للطين ، والذى بدأ يأخذ طريقه متحركا نحو الغاية المؤدية إلىظهور هذا الإنسان الذى ستلده الحياة المتولدة من هذا الطين ، والذى يجب على الملائكةأن يستقبلوا مولده بالسجود فإن السجود لهذا المولود هو سجود لآيات الله ، وما تجلى فيها من رائع حكمته وقدرته . .

ويلاحظ أن هذين الأمرين الموجهين توجيها مباشراً إلى الملائكة بالسجود لآدم ، يتضمنان الصفة التى يكون عليها هذا السجود ، وهو أن يكون سجوداً مستولياً على كيان الملائكة ، بحيث يخرون خرًّا ، ويتهاوون هُويًّا : « فقعوا له ساجدين » .

[إبليس ومَن له سلطان عليهم]

* « فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين .. »

وإنها لجرأة عجيبة أن يخرج هذا المخلوق الشقىّ عن أمر ربه ، وأن يتحدّى

الله سبحانه وتعالى هذا التحدّى الوقاح السافر .. ولكن تلك هى مشيئة الله فى هذا المخلوق الشقىّ التعس .. وقد أراده ـ سبحانه ـ ليكون ، الظلامَ الذى يواجه النور ، والشرّ الذى يقابل الخير .. وبهذا تتمايز الأمور ، وتنكشف حقائق الأشياء .. إذ لولا الظلام ماعُرف النور ، ولولا الشرّ ما استبان الخير .. وهكذا كل ضدٍّ يكشف عن ضده .. « وبضدّها تتميز الأشياء » !

* : « قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » ..

وإنها لشقوة غالبة ، وبلاء مبين ، وضلال تعمى معه البصائر ، وتذهب العقول ..

يسأله الحق جلّ وعلاَ ، « مالك ألاّ تكون مع الساجدين » ؟ وذلك ليأخذ اعترافه من فمه ، وإلاّ فالله سبحانه عالم بما سيقول هذا الشقىّ ، مستغنٍ عن أن يسأل ، وعن أن ينطق إبليس بما نطق به ..

ولقد نطق إبليس بهذا التحدّى الوقاح ، « لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنون » .. وفى آية أخرى كشف إبليس عن حجته الضالة فى إبائه السجودَ لآدم ، فقال : « أنا خيرٌ منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ! (١٢ : الأعراف) .

ومن أين لهذا اللعين أن النار خيرٌ من الطين ؟ وماوجه الخيريّة فى النّار ؟ إنه الضلال ، ولا شىء غيره ، هو الذى زيّن لهذا الغوىّ رأيَه فى نفسه .. والله سبحانه وتعالى يقول فى أهل الغواية والضلال : « كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون » (٣٢ : الروم) ..

* : « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » .

ذلك هو جزاء الظالمين . . الطرد من رحمة الله ، واللعنة المصاحبة لهم إلى يوم القيامة ، حيث يلقوْن العذاب الأليم المعدّ لهم .

والرجيم هو المرجوم .. وما يُرجم به هنا هو اللعنة .

والضمير فى قوله تعالى « منها » يعود إلى الجنة التى كان فيها . .

* : « قال رب فأنظرنى إلى يوم يُبعثون . قال فإنك من المُنظرين . إلى يوم الوقتِ المعلوم » .

وهكذا يُعمى الضلالُ أهلَه ، ويُلقى بهم فى ظلمات المهالك ، فلا يخرجون من مَهْلكة إلا إلى مهلكة ..

فلقد أبت على إبليس شِقوتهُ إلاّ أن يشرب كأس اللعنة إلى آخر قطرة فيها .. فطلب إلى ربه أن يُمدّ له فى أجله ، وألا يعجّل له العذاب قبل يوم القيامة ، وذلك ليثأر لنفسه من هذا الإنسان الذى كان سبباً مباشراً فى طرده من رحمة الله ، وإلباسه لباس اللعنة .. بل وربما حدّثت هذا الشقىّ نفسُه أن يتحدى الله ، وأن يحاجّه فى آدم ، وفى أنه أفضل منه ، وأن امتناعه عن السجود له ، كان عن حق ، وأنه خير من هذا المخلوق ، وما كان للأعلى أن يسجدَ للأدنى ! ! هكذا يبلغ الغرور بهذا الأحمق المغرور ، فيقيم نظره كله على آدم ، ولا ينظر إلى الله سبحانه ، ولا يقع فى تصوره أن الله سبحانه هو الذى أمره بالسجود ، وأنه ينبغى للمخلوق أن يمتثل أمر الخالق ، دون مراجعة أو اعتراض !

ولو كان هذا اللعين قد نظر إلى نفسه ، ولم يُعمِه الحقد الأعمى — لكان له فى باب الرجاء عند الله متسع ، ولكان طلبه من الله أن يؤخره إلى يوم الدين ، التماساً للعافية من هذا البلاء الذى نزل به ، فيرجع إلى الله من قريب ، ويستغفر

لذنبه ، فيجد ربًّا غفوراً يقبل توبة التائبين ، ويكفر عنهم من سيئاتهم . . ولكنه أبى إلا أن يُهلك نفسه ، فى سبيل إهلاك غيره ، وإشباع شهوة الانتقام من عدوّه . .

* : « قال ربِّ بما أغويتنى لأزيننّ لهم فى الأرض ولأغوِينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين » .

الإغواء : الإضلال ، بتزيين القبيح ، والإغراء به .

وبهذا القَسَم يتحدى إبليس أبناء آدم ، ويلقاهم على طرق الضلال ، فيُغويهم بركوبها ، ويغريهم بمتابعة خطوه عليها ، ويمنّيهم الأمانىّ الكاذبة التى تُلقى بهم بين يديه !

فالباء فى قوله تعالى : « بما أغويتنى » هى باء القَسَم ، والتقدير : بحق ماأغويتنى : أى أضللتنى « لأزينن لهم فى الأرض » أى لأفتننهم بمَا على الأرض من أشياء ، أزينها لهم ، وأغريهم بها ، فيُشغلون عن ذكرك ، ويكفرون بنعمك ، فيقعون تحت طائلة نقمتك وعذابك .

وهذا القَسَم يكشف عنه قوله تعالى فى موضع آخر : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين » (٨٢ : ص) .

ويجوز أن تكون الباء للسببية ، أى بسبب إغوائك لى ، وأن تكون اللام فى قوله تعالى : « لأزينن » لام الأمر ، الداخلة على الفعل المضارع ، وأن إبليس قد ألزم نفسه بهذا العمل إلزاماً ، ليردّ به على هذا الإغواء .

وفى قصر التزين على الأرض ، إشارة صريحة إلى أن إبليس قد أغوى آدم وزين له حتى أكل من الشجرة ، وهو على هذه الأرض ، وفى هذا دليل على أن ميلاد آدم كان على هذه الأرض ، ولم يكن فى السماء . .

— وفى قوله تعالى : « إلا عبادك منهم المخلَصين » استثناء من هذا الوعيد الذى توعد به إبليس أبناء آدم . . فهو يعرف أن لله سبحانه وتعالى فى أبناء آدم أصفياء ، أخلصهم لنفسه ، واصطفاهم لطاعته ، وأرادهم لجنته . . وهؤلاء لا سبيل لإبليس عليهم . . فقد سبقه قضاء الله فيهم ، وأنهم من أهل جنته ورضوانه . .

والمخلَص : هو الخالص من كل سوء ، المصفّى من كل شائبة . .

أما من يتسلط عليهم إبليس ، ويتمكن من النّيل منهم ، فهم أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم ، ولا أن يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم » (٤١ : المائدة) .

* « قال هذا صراط علىّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا مَن اتبعك من الغاوين » .

— الإشارة فى قوله تعالى : « هذا صراط علىّ مستقيم » هى إشارة إلى الصراط المستقيم ، وهو الصراط الذى يسلكه السالكون إلى الله ، ممن رضى الله عنهم ، كما يقول سبحانه : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » . .

فهذا الصراط هو الذى يسلكه عباد الله المخلصون ، وليس لإبليس سلطان على أحدٍ ممن سلك هذا السبيل ، واستقام على هذا الصراط .. لأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه حراسة المستقيمين عليه ، من كيد الشيطان وإغوائه . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » . . فهؤلاء هم عباد الله المخلصون ، وقد أضافهم سبحانه إلى نفسه ، وأظلهم بحمايته ورعايته ، وحرسهم من كل شيطان رجيم . .

ويقوّى هذا المعنى قراءة من قرأ : « هذا صراط عَلِيٌّ مستقيم » أى هذا صراط عالٍ لا يناله إبليس بكيده ومكره ، وهو صراط الله ، الذى دعا عباده إليه .

— وقوله تعالى : « إِلّا مَن اتبَعَكَ مِنَ الْغَاوِين » . . هو استثناء من قوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .. وفى إضافة الناس جميعاً إلى الله سبحانه ، هكذا : «عبادى» ـ فى هذا إشارة إلى أن الإنسان ـ أى إنسان ـ يحمل فى فطرته ما يستطيع أن يدفع به كيد الشيطان ، فلا ينال منه . . هكذا هم عباد الله ، وهم الناس جميعاً . . ولكن من عباد الله من يعمل على إفساد فطرته ، فيعطى الشيطان فُرْصته فيه . . وبهذا يكون من الغاوين ، الذين أغواهم الشيطان ، فاستجابوا له ، وكانوا جنداً من جنده الضالين الغاوين .

* « وإن جَهَنَّم لموعدُهم أَجْمَعِين * لها سبعة أبواب لكلِّ باب منهم جزءٌ مقسومٌ » الضمير فى قوله تعالى : « لَموعدهم » يعود إلى الغاوين ، الذين ذكرهم سبحانه فى قوله : « إلا من اتبعك من الغاوين » . .

فهؤلاء الغاوون الضالّون ، من كافرين ، ومشركين ، ومنافقين ، وكل من عبد غير الله ، أو اتخذ مع الله شريكا ـ هؤلاء جميعاً يلتقون عند جهنم ، فهذا هو الموعد الذى يلتقون عنده . . فكما كان التقاؤهم فى الدنيا على الضلال والكفر ، كذلك يكون التقاؤهم فى الآخرة على أبواب جهنم وعذاب السعير .

— وفى قوله تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جزء مقسوم » إشارة إلى أن جهنم دركات ومنازل ، عددها سبعة . . وأن أصناف الضالين يُصَنَّفون حَسْبَ درجات ضلالهم إلى سبعة أصناف ، كل صنف منهم ينزل منزلة من منازل جهنم السبعة ، ويدخل إلى مكانه فيها من الباب الذى يؤدى به إلى هذا المكان .

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِين ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سرر متقابلين * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »

وإذا كان أولياء الشيطان قد نزلوا هذا المنزل لدُون ، يلقَوْن فيه مايلقَوْن من عذاب وهوان ـ فإن أولياء الرحمن ، وعباده الّذين لم يكن للشيطان سبيل إليهم ـ هؤلاء موعدهم جنات النعيم ، حيث العيون التى تُغذّى هذه الجنّة ، وتفجّر الحياة فيها . . فالعيون يحفّها دائماً الشجر ، والظل ، والثمر .

ـــ وفى قوله تعالى « ادخلوها بسلام آمنين » تحية طيبة ، يُؤْذَن بها المؤمنين بدخول الجنة ، على مسمع من أهل النار ، فيزيد شقاؤهم ، وتعظم مصيبتهم . .

وفى العدول من الغيبة إلى الخطاب احتفاء بالمؤمنين ، واستدعاء لهم من قِبَل الله سبحانه ، ليسمعوا هذا الأمر المُسعِد لهم من ربّ العالمين : « ادخلوها بسلام آمنين » . . ادخلوها إخواناً متحابين .

ـــ وقوله تعالى : « لا يمسّهم فيها نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِين » إشارة إلى الحياة التى يحياها أهل الجنة ، وأنها حياة أمن ، وسلام ، وراحة . . فلا عمل إلا ذكر الله ، والتسبيح بحمده ، والشكر لنعمه . . ومن تمام هذا النعيم أن الذى فيه لا يتهدده خوف من أن يفارقه هذا النعيم أبداً ، أو يفارق هو هذا النعيم . . بل هو نعيم دائم متصل « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض » .

* « نَبِّئْ عبادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرَّحيمُ * وأن عذابى هو العذاب الأليم . »

الخطاب هنا للنبى صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو خطاب لعباد الله جميعاً ، وبلاغ لهم كلهم ، بأنهم عباد الله ، وأن ربّهم الذى خلقهم وأضافهم إليه ، هو ربٌّ غفور رحيمٌ . . مغفرته شاملة ، ورحمته عامة ، تسع كل شىء . . وكذلك هو سبحانه ـ مع رحمته ـ ذو عذاب أليم ، لمن كفر به ، وأعطى

ولاءه لغيره ، أو لمن طمع فى رحمته ، ولم يَرْعَ حرماته ، مجترئاً عليه ، مضيفًا آثامه وذنوبه إلى رحمة الله ومغفرته . . فذلك مخادعة لله ، ومكرٌ بآياته .
فمن آمن بمغفرة الله الشاملة ، ورحمته الواسعة ، آمن به ربًّا كريمًا رحيماً ، محسناً ، وكان ذلك داعياً إلى حبّ الله وطاعته ، لا إلى عصيانه ومحاربته . . !

فالحال التى ينبغى أن يكون عليها العبد مع ربّه هى الطمع فى رحمته ، والخوف من عذابه . .

فالطمع يحرسه من اليأس إذا هو واقَعَ إثما ، أو ارتكب معصية . . والخوف يحرسه من أن يأتى الفواحش ، أو يترخّص فيها ، ولا يتأثم عندما يضعف أمام هواه ، فيقع فى المنكر . .

وقد امتدح الله المؤمنين لذين يَخْشَوْن ربّهم بالغيب ، والذين يُؤْتون ما آتَوا وقلوبهم وجلة من ألا يقبل منهم ذلك الإيتاء . . وفى هذا يقول تعالى : « والذين يؤْتُون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلَةٌ أنَّهم إلى ربّهم راجعون * أولئك يُسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » (٦٠ — ٦١ : المؤمنون) .

وقد روى عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « لو أنزل الله كتاباً أنه معذِّبٌ رجلاً واحداً لخفت أن أكونه ، أو أنه راحم رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونَه ، ولو علمتُ أنه معذِّبى لامحالةَ ، ما ازددت إلا اجتهاداً ، لئلا أرجع على نفسى بلائمة » .

ذلك هو ما عليه العقل السليم ، وما توحى به الفطرة ، التى لم تفسدها الأهواء وتغتالها الضلالات .

الآيات : (٥١ — ٦٠)

* « وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ » (٦٠)

التفسير :

فى هذه الآيات ، شرح لقوله تعالى : « نَبِّئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم » ..

ففى هذه الآيات نفحات من رحمة الله ومغفرته .. وفيها لفحات من بأسه وعذابه .. رحمته ومغفرته التى تحفّ بالمتقين من عباده ، وبأسه وعذابه الذى يحلّ بالضالّين الذين يتخذون الشيطان وليًّا من دون الله . .

* وفى قوله تعالى : « ونبّئهم عن ضيف إبراهيم » تذكير بقصّة إبراهيم عليه السلام ، إذ جاءه ملائكة الرحمن على هيئة بشرية ، فظنهم ضيفاً نزل عليه . وإذ كانوا قد دخلوا عليه فجاءة من غير استئذان ، فإنه وجد فى نفسه وحشة منهم وإنكاراً لهم .. فقال فيما بينه وبين نفسه : « قومٌ منكرون ! » كما ذُكر ذلك

فى موضع آخر من القرآن الكريم .. وهنا يقول لهم فيما بينه وبين نفسه أيضاً : « إنا منكم وَجِلون » أى خائفون .

* وفى قوله تعالى : « قالوا لاتوْجل إنّا نبشّرك بغلامٍ عليمٍ » إشارة إلى أن الملائكة قد وجدوا دلائل الخوف وأمارات النُّكر تظهر على إبراهيم ، فقالوا له : « لا توْجل » .. وهذا الموقف شبيه بالموقف الذى كان من الملائكة حين دخلوا على داود ، ففزع منهم ، ، فقالوا له.. لاتخف ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم .. قالوا لا تخفْ » (٢١ ـ ٢٢ : ص) .

ـــ وفى قولهم : « إنا نبشرك بغلام عليم » تعجيل بهذه البشرى ، لكى يطمئن قلبُه إليهم ، وتأنس نفسه بهم ، وكى يذهب هذا الخبرُ العجيب بهذا الخوف الذى دخل عليه فجأة .

* وقوله تعالى : « قال أبَشّرتمونى على أن مسّنى الكِبَر فبم تبشرون » .؟ إنكار من إبراهيم لهذه البشرى بالولد أن يجيئه ، وقد بلغ من الكبر حدًّا انقطع فيه الأمل من الولد ، وانصرفت الرغبة عنده عن طلبه ، إذ فات الأوان الذى تهفو فيه النفس إلى الولد ، ويشتد الطلب له ..

* وكان جواب الملائكة : « قالوا بشّرناك بالحقّ فلا تكن من القانطين » وكان هذا الجواب تصحيحاً لمشاعر إبراهيم نحو الولد ، وأنه إذا لم يكن هو الذى يطلب الولد بعد هذا العمر الذى بلغه ، فإن إرادة الله هى التى جاءت بهذا الولد فى هذا الوقت ، وفى هذه المرحلة من العمر .. وذلك هو الحقّ الذى لابدّ أن يقع .. ومن ثَمّ كان وقوعه فى هذا الوقت هو أنسب الأوقات ، حسب تقدير الله ، وكان تأخيره إلى هذا الوقت لحكمة يعلمها الله ، وإن خفيت على إبراهيم ، وغاب عنه ماوراءها من خير .

— وقوله تعالى : « فلا تكن من القانطين » .

القنوط : هو اليأس من أمر محبوب منتظر طال انتظاره ، حتى فات وقته .. وقد كان ذلك النصح من الملائكة لإبراهيم ، إلفاتاً له إلى مالله سبحانه من حكمة ، فى تقدير الأمور ، وتوقيت الأحداث ، وأنه إذا كان لإنسان مطلب خاص عند الله ، فليس له أن يوقّت له ، وأنه إذا وقّت له ، ثم لم يقع فى وقته فليس له أن ييأس من إجابة طلبه .. فإلى الله سبحانه وتعالى تقدير الأمور وتوقيتها .. وإن اليأس من تحقيق المطلوب بعد فوات الوقت الذى وقّته له ـ فيه انقطاع الرجاء من الله ، وصرف الوجه عنه .. وهذا مالا ينبغى من مؤمن يؤمن بالله ، ويعرف لله قدره .. ولهذا جاء جواب إبراهيم : « قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضّالون » ـ تقريراً لهذه الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم يكن قانطاً من رحمة الله ، ولكنه كان متعجباً دَهِشاً لهذا الأمر الذى طلع عليه فجاءة بولَدٍ غير منتظر !

وهنا سؤال هو : كيف يقع من إبراهيم هذا الدَّهَشَ الذى يبلغ حدّ الإنكار من أن يكون له ولد ، وهو الذى كان له ولد وهو « إسماعيل » عليه السلام ، الذى سبق مولدُه مولدَ إسحاق ؟

والجواب على هذا ، أن إبراهيم كان ينتظر الولد من امرأته سارة ، وأنه إذ طال انتظاره حتى مسّه الكبر ، وبلغت سارة سِنّ اليأس الذى لا يولد فيه لمثلها ـ اتجه إلى أن ينجب الولد من امرأة غيرها ، فكان له من زوجته « هاجر » ولده إسماعيل ، الذى انتقل به وأمّه إلى البيت الحرام ، وأسكنه وأمّه هناك حيث المكان الذى هو مكة الآن ..

وإذ لم يكن لإبراهيم غير « سارة » التى يعيش معها ، فإنه أنكر أن يكون له ولد منها ، بعد أن وصلا إلى هذه المرحلة من العمر !

وسؤال آخر .. هو :

الوصف الذى وُصف به الولد الذى بُشّر به إبراهيم هنا من الملائكة هو أنه غلام « عليم » ثم ذُكر هذا الوصف مرة أخرى فى قوله تعالى : « فأوجس منهم خيفةً قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم » (٢٨ : الذاريات) على حين أن هناك وصفاً آخر لولد بشّر به إبراهيم وهو أنه غلام « حليم » كما يقول سبحانه « ربّ هب لى من الصالحين * فبشرناه بغلامٍ حليم » (١٠٠ - ١٠١ : الصافات) ..

فما سرّ اختلاف الوصفين ؟ وما دِلالة هذا الاختلاف . ؟

والجواب :

أولا : أن وصف الغلام بأنه غلام « عليم » هو وصف للولد الذى بُشر به من الملائكة بعد اليأس ، وهو « إسحق » عليه السلام ..

وأما الوصف الذى وصف به الغلام بأنه غلام « حليم » فهو وصف لإسماعيل عليه السلام ، وأنه لم يجىء بعد اليأس ، وإنما جاء إجابةً من الله سبحانه لدعوة إبرهيم إذ دعا ربّه ، فقال : « ربّ هبْ لى من الصالحين » ..
وهذا مقام غير المقام الذى استقبل فيه البشرى بإسحق . . فهنا يدعو دعاء الراغب الطامع ، وهناك ينكر إنكار اليائس الذى انقطع طمعه فى الولد !

وثانياً : أن الوصف الذى وصف به الغلام بأنه « حليم » والذى قلنا إنه وصف لإسماعيل - هذا الوصف ، يشير إلى أن إسماعيل هو الذبيح ، وأن صفة الحلم ، هى الصفة التى تناسب الموقف الذى وقفه من أبيه حين قال له : « يابنىّ إنّى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » ؟ فكان جوابه : « يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » (١٠٢ : الصافات) .

وثالثاً : يجىء بعد هذا الموقف بين إبراهيم وإسماعيل قوله تعالى : « وبشّرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين » (١١٢ : الصافات) .

وفى هذا مايقطع بأن الذبيح هو إسماعيل .

وسنعرض لهذا الموضوع فى مبحث خاص إذا شاء الله ، عند تفسير سورة الصّافات . .

* قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنّا أرسلنا إلى قومٍ مجرمين » . .

الخطب : الأمر العظيم ، والشأن الجلل . .

وفى سؤال إبراهيم الملائكة عن شأنهم ، وعن الأمر العظيم الذى جاءوا له مايشير إلى أن ماجاء إليه الرسل لم يكن هو البشرى بالولد ، وأن هذه البشرى لم تكن إلا تطمينا لإبراهيم ، وإجلاء للروْع الذى استولى عليه . . وأنه بعد أن ذهب رَوْعه وأنِس إلى هؤلاء الملائكة الكرام . . سألهم : « ماخطبكم أيها المرسلون ؟ » فكان جوابهم : « إنّا أرْسِلْنا إلى قومٍ مجرمين » . . وهؤلاء القوم ، هم قوم لوطٍ . . وقد استثنِىَ منهم لوط وآله بقوله تعالى : « إلاّ آل لوطٍ إنا لمنجوهمُ أجمعين » . .

وهنا سؤال :

إذا كان هؤلاء الرسل من الملائكة ، قد جاءوا لمهمة خاصة ، وهى إهلاك قوم لوط ، فلم عرّج الرسل على إبراهيم ، ولم يذهبوا رأساً إلى لوط ، وهو نبىّ مرسل كما أن إبراهيم نبىّ مرسل ؟ . .

والجواب على هذا : هو أن لوطاً عليه السلام كان من قوم إبراهيم ، وممن استجاب لدعوته من دون قومه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « فآمن له

لوط وقال إنّى مهاجرٌ إلى ربىّ إنه هو العزيز الحكيم » (٢٦ : العنكبوت) . .

وقد خرج لوط من بين القوم ، واتخذ له موطناً قريباً من إبراهيم ، يدعو فيه إلى ربه ، بدعوة إبراهيم .. وكانت القرية التى أوى إليها لوط قريةً ظالمة فاسدة ، وكان أهلها ــ فوق شركهم ــ يأتون فاحشة ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين . كما يقول الله تعالى على لسان لوط لهم : « ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر » (٢٨ — ٢٩ : العنكبوت) ولهذا فقد عجل الله لهم العذاب فى الدنيا ، ولم يعجله لقوم إبراهيم ، إذ كان قوم إبراهيم مجتمعاً كبيراً يضمّ أمة فى إهلاكها قضاء على الحياة فى رقعة كبيرة من الأرض ، قبل أن يتسع العمران ، فيكون هلاكها أشبه بالطوفان الذى ذهب بقوم نوح .. أما قوم لوط ، فقد كانوا عُضْواً خبيثاً فى جسد هذا المجتمع الفاسد الذى يضم قومَ إبراهيم ، فكان من حكمة الله ، بَتْرُ هذا العضو الخبيث، والإبقاء على هذا الجسد الفاسد يعانى من دائه ، حتى يجىء من يطبّ له من رسل الله .. من ذرية إبراهيم .. !

وعلى هذا ، فإن مجىء الرسل إلى إبراهيم قبل ذهابهم إلى لوط ، هو مما تقتضيه طبيعة الأمور ، إذ كان لوط — وإن كان نبياً مرسلاً — هو من قوم إبراهيم ، ومن الذين تابعوه ، فكان إعلام إبراهيم بما سينزل على لوط من بلاء ، مما لا يغفل عنه أدب السماء . .

ولهذا فإن إبراهيم ــ عليه السلام ــ حين تلقّى هذا النبأ من الملائكة ، فزع وقال : « إن فيها لوطاً !! » (٣٢ : العنكبوت) وكان جواب الملائكة : « نحن أعلم بمن فيها » .. ولم يقف إبراهيم عند هذا الحد ، بل جعل يجادل

للملائكة فى هذا الأمر النازل بهؤلاء القوم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » (٧٤ — ٧٦ : هود) ..

الآيات : (٦١ — ٧٧)

* « فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » (٧٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون » ..

المرسلون ، هم الملائكة ، الذين كانوا مع إبراهيم منذ قليل .. وهنا تنتقل أحداث القصة من الموقف مع إبراهيم ، إلى لوط .. عليهما السلام ..

وكما وجد إبراهيم فى نفسه من مفاجأة الملائكة له ما وجد من فزع وتخوّف ـ وجد لوط هذه المشاعر منهم ، فقال : « إنكم قومٌ منكرون » .

وفى هذا الموقف نجد فرقاً بين إبراهيم ولوط ..

فإبراهيم قال ما قال فى همس ، وتخافت ، دون أن يَجْبَهَ الضيف بما يسوؤهم ، طاوياً تلك المشاعر فى صدره ، ممسكاً بها فى كيانه ، . فقال : « إنا منكم وَجِلُون »

أما لوط فإنه لم يستطع أن يغالب هذا الشعور الموحش الذى استولى عليه من القوم ، فواجههم بما وقع فى نفسه منهم ، وقال: « إنّكم قومٌ منكرون » .

ولهذا كان إبراهيم أهلاً لهذا الوصف الكريم ، الذى وصفه الله سبحانه وتعالى به فى قوله سبحانه : « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب » ..

ولعلّ مما يقوم للوط من عذر فى مجابهة القوم بهذا القول هو ما رآه فيهم من ملاحة وحسن ، مما يُغْرى قومه بهم ، الأمر الذى يسوؤه أن يقع لمن ينزل فى ضيافته ..

وهنا سؤال أيضاً .. وهو : لماذا كان الحديث عن لوط فى مجىء الرسل إليه غير موجه إليه ، بل كان موجهاً إلى آله .. هكذا : « ولمّا جاء آل لوط المرسلون » ؟ ولم التزم القرآن هذا التعبير فى كل مرةٍ ورد فيها مجىء الرسل إلى لوط ؟ ..

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن لوطاً عليه السلام كان هو وآل بيته ـ غير امرأته ـ كلّ من آمنوا بالله فى القرية .. كما يقول سبحانه وتعالى : « فما

وجدنا فيها غيرَ بيت من المسلمين » (٣٦ : الذاريات) .. وبهذا يكون لوط ومن آمن معه من آل بيته ، هم كيان واحد سليم ، فى مجتمع هذه القرية الفاسدة ، ومن هنا كان الحديث إلى لوط فى هذا الجسد الذى يضمه ويضمُّ أهله الذين آمنوا معه ، والذين هم أشبه ببعض أعضائه ! .

* قوله تعالى : « قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحقِّ وإنا لصادقون » . .

الامتراء : الجدل فى غير حق ..

وهذا هو الردّ الذى واجه به الملائكة إنكارَ لوط لهم ، فقد جاءوه ببشرى أشبه بتلك البشرى التى بشروا بها إبراهيم من قبله ، حين بشروه بغلام عليم . .

— وفى قولهم : « بل جئناك بما كانوا فيه يمترون » إضراب على تلك المشاعر التى وقعت فى نفس لوط منهم ، وأنهم ما جاءوا بما يخيفه ويؤذيه ، بل جاءوا لنجدته ، ولتصديق وعيده للقوم ، الذين كانوا يستخفّون بما أنذرهم به من عذاب الله ونقمته .. أى إننا لم نجىء بما يخيفك ، بل جئنا بالبلاء الذى كنتَ تتوعد به القوم فيمترون فيه ، ويكذبون به .. فهذا هو ما جئناك به ، وإنه للحقُّ الذى كنت تتحدى به القوم وهم يكذبون ويسخرون : « وإنا لصادقون » فيما نحدِّثك به ، فليُفرخ رَوْعُك ، وليطمئن قلبك ..

* قوله تعالى : « فأسْرِ بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم وَلاَ يلتفت منكم أحدٌ وامضوا حيث تؤمرون » ..

القطع من الليل : الجزء ، والبقية الباقية منه .. والمراد به هنا ، الجزء الأخير من الليل الذى يسبق الفجر ..

وهكذا دبّر الملائكة الأمور مع « لوط » ، وهو أن يَسْرى بأهله ، أى يخرج بهم ليلاً ، من غير أن يشعر به القوم ، وأن يكون هذا السُّرى فى آخر اللّيل ، وذلك بعد أن تسكن الحياة فى القرية ، ويستغرق القوم فى نوم عميق . . وأن يكون وراء أهله السّارين معه ، وعلى أثرِهم ، كالراعى وراء قطيعه .

— وفى قوله تعالى : « ولا يلتفت منكم أحد » إشارة إلى أن يقطعوا ما بينهم وبين القرية وأهلها من كل شعور يُلْفتهم إليها ، ومن كل عاطفة تعطفهم نحوها .

— وفى قوله تعالى : « وامضوا حيث تُؤمرون » إشارة إلى أن لوطا فى مسراه هذا لا يعرف الوجهة التى سيأخذها فى سيره ، وإنما سيُلْهَمُ ذلك من الله سبحانه ، وسيأتيه الأمر بالاتجاه إلى الجهة التى أرادها الله سبحانه وتعالى له . .

* قوله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمرَ أن دابر هؤلاء مقطوع مُصبحِين » .
أى أنهينا إليه ذلك الأمر ، وأفضينا إليه بما فيه ، وذلك عن طريق الوحى بوساطة هؤلاء الملائكة . . وهو أن « دابر هؤلاء القوم مقطوع مصبحين » أى مَهلِكهم هو الصبح ، بحيث لا تبقى منهم باقية . .

* قوله تعالى : « وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون » . .

لقد أدّى الملائكة مهمتهم مع لوط ، وأفضوا إليه بما جاءوا به . . ولكن كان ذلك بعد أن جاءه قومه ، حين علموا بهؤلاء الضيوف الذين نزلوا عنده ، يريدون الفاحشة بهم ، فأقبلوا إليه ، وقد طارت قلوبهم فرحاً واستبشاراً ، بهذا الصيد السمين ، الذى وقع فى الشرك ! وقد دفعهم لوط عنهم،مستبشعاً هذا الفعل المنكر فى ذاته ، ثم هو أشد استبشاعاً وإنكاراً له ، فى ضيوفٍ نزلوا عنده . . قائلا : « إن هؤلاء ضيفى . . فلا تفضحون . . واتقوا الله ولا تخزون . . »

وكان ردّهم عليه ، هو ما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله :

* « قالوا أو لم نَنْهك عن العالَمين؟ » أى ألم نحذِّرك من أن تتعرض لنا ، وأن تحول بيننا وبين أحدٍ من الناس أيًّا كانوا ، سواء أ كانوا من قومنا ، أو من أى قوم آخرين ؟ وهذا ما تشير إليه كلمة « العالمين » التى تشمل الناس جميعاً من كل جنس ، ومن كل أمة . .

* « قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين » . . وهكذا يدفع لوطٌ هذا المنكر بكل ما يملك من قوى الدفع . . لقد عَرَض على هؤلاء القوم الضالّين بناتِه ، ليتخذوا منهن زوجاتٍ لهم ، وليكون لكل منهم زوجة من نساء قريتهم . . فذلك هو الذى ينبغى أن يكون من الرجال . .

* « لعمرك إنّهم لفى سَكْرتهم يعمهون » . .

هذه الآية الكريمة ، جاءت معترضة فى ثنايا أحداث القصة . . وفيها التفات إلى النبيّ الكريم « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ـ ليرى صورة من صور الإنسانية الضالّة ، التى يستبدّ بها الضلال ، ويركبها النزَق والطيش ، فلا تستمع لرشد ، ولا تستجيب لنصح .

وفى القَسَم بالنبيّ الكريم ، تكريم له ، واحتفاء بشخصه ، وتمجيد لقدره ، ورفع لمنزلته . . فما أقسم الحق سبحانه وتعالى بإنسانٍ غير هذا الإنسان ، وفى ذلك إشارة إلى أنه واحد الإنسانية والممثل لها . . فقد أقسم الحق سبحانه وتعالى بكثير من العوالم الأخرى ، إذ كانت كلّها قائمة على ما خَلقها الخالق ـ سبحانه ـ دون أن تنحرف قِيد أُنملة .. أما عالم البشر وحده ، ففيه انحرافات لم يسلم منها إنسان ، إلا أنها فى رسل الله والمصطفَيْن من عباده لا تَعْدُو أن تكون ذبذبات خفيفة ، لا تعكرّ صفوهم، ولا تميل بهم عن الصراط المستقيم . .

ومحمدٌ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى هذا أكملهم كمالاً ، وأصفاهم صفاء !!
إنه الإنسان الذى تتمثل فيه الإنسانية كلها فى أعلى منازلها ، وأكرم صورتها .

والسَّكرة : ما يعترى الإنسانَ من ذَهاب عقله ، بمعاطاة خمر أو نحوها ، مما يذهب بالعقل . .

والعَمَه : العمى والضلال . .

* قوله تعالى : « فأخذتهم الصَّيحة مُشْرِقين » . الضمير فى أخذتهم ، يعود إلى قوم لوط، ومشرقين أى عند الشّروق . . شُروق الشمس . . والصيحة ، هى العذاب الذى أهلكوا به .

* قوله تعالى : «فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجِّيل» ـ هو بيان لآثار هذه الصيحة ، وأنها قلبت القرية ، فجعلت أعلاها أسفلها ، أى أنها أتت على بنيانها ، فجعلته أرضاً .. ثم تبع ذلك مطر من حجارة موسومة ، مُعَدّة ومحمّلة بالمهلكات ..

* قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسّمين » .. المتوسّمون هم الذين يستدلّون على حقائق الأشياء بالسِّمات الظاهرة أو الخفية منها .. وهذا لا يكون إلا عن نظر متفحّص ، وبصيرة نافذة ..

وهذا المصير الذى صارت إليه قرية لوط وأهلها ، قد خلّف وراءه كَوْماتٍ من تراب .. فمن رآها بنظر غافل ، وعقل شارد ، لم ير إلا التراب المهيل ، ومن تفحص فيما وراء هذا التراب ، رأى ما يجنى الضلال على أهله ، وما يخلف الهوى من شؤم وبلاء وراءه .

* قوله تعالى : « وإنها لسبيل مقيم » .. أى إن هذه القرية لا تزال من مخلفات الدمار والهلاك . . قائمة حيث كانت ، يراها كل من يمر بها فى هذه المواطن . .

* قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » أى فى هذه المخلفات آية لمن كان مستعداً للإيمان ، حين تلوح له دلائل الحق ، وتبدو له شواهده ..

ومن إعجاز القرآن هنا ما نجده فى اختلاف النظم بين فاصلتى الآيتين فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآياتٍ للمتوسمين » وفى قوله سبحانه : «إن فى ذلك لآية المؤمنين » . . ومن أسرار هذا الاختلاف :

أولا : أن المتوسّمين ـ وهم كما قلنا ـ أصحاب البصر الحديد والبصيرة النافذة ـ تتكشف لهم من ظواهر الأشياء أمور لا تتكشف لغيرهم من سائر الناس . . فهم يرون آيات ، على حين يرى غيرهم آيةً .. « إن فى ذلك لآياتٍ للمتوسمين» وذلك فيما تحدّث به أخبار القوم الظالمين . .

وثانياً : أن المؤمنين ، أو من فى كيانهم استعداد للإيمان ـ هؤلاء ، لا يحتاجون إلى كثير من الأدلة والبراهين ، حتى يُذعنوا للحق ، ويهتدوا إلى الإيمان ، وإنما تكفيهم الإشارة الدالّة ، أو اللمحة البارقة ، حتى يكونوا على طريق الإيمان . . « إن فى ذلك لآية المؤمنين » . . وذلك فيما تحدث به مخلّفات هؤلاء القوم الهالكين .

وثالثاً : أن الإيمان أمره هيّن ، ومراده قريب . . وأن القاصد إليه ، الباحث عنه ، لا يحتاج إلى معاناة نظر ، أو كدّ ذهن ، وكل ما يحتاج إليه فى تلك الحال ، هو أن يُخلى نفسه من التشبث ، والعناد ، والمكابرة ، وأن يلاقىَ وجه الإيمان بقلب سليم ، ورأى مستقيم . . عندئذ يرى أن الإيمان أقرب شىء إليه ، وآلف حقيقة عنده . . إذ كان جارياً مع الفطرة الإنسانية ، متجاوباً مع أشواقها وتطلعاتها .

هذا ، وقد جاء النظم القرآنى لقصّة لوط هنا ، مخالفاً لما جاء عليه فى مواضع

أخرى . . ذلك أن الملائكة هنا أخبروه بهلاك القوم ، وبما ينبغى أن يفعله هو وأهله حتى لا ينزل بهم ما ينزل بأهل القرية من دمار وهلاك ـ أخبروه بهذا قبل أن يعلم أهلُ القرية بهم ، وقبل أن يجيئوا إلى لوط يريدون الفاحشة فى هؤلاء الضيوف .. هكذا تحدث الآيات هنا . .

وفى مواضع أخرى جاء النظم القرآنى على غير هذا ، كما يقول الله تعالى فى سورة « هود » مثلا : « ولما جاءتْ رُسلُنا لوطاً سِىء بهم وضاق بهم ذَرْعاً وقال هذا يوم عصيبٌ * وجاءه قومه يُهْرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هُنّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تُخْزونِ فى ضيفى أليس منكم رجلٌ رشيدٌ * قالوا لقد علمتَ ما لنا فى بناتك من حقٍّ وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوةً أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنا رسلُ ربك لن يصلوا إليك فأسرِ بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك إنه مُصيبُها ما أصابهم إن موعدَهم الصبح أليس الصبح بقريب » (لآيات : ٧٧ ـ ٨١ : هود)

وترتيب الأحداث هنا غير ترتيبها فى النظم السابق . . كما ترى . . فما جواب هذا ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ هو أن الملائكة فى هذه الآيات ـ قد ألقوا بالبشرى إلى لوط ، حين التقوا به ، ورأوا ما دخل عليه منهم من خوف وفزع ، فقالوا له : « لا تخف إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » .. ثم جاءه قومه بعد ذلك ، وكان ما كان منهم معه ومع الملائكة .. فكان من لوط كرب وضيق مما حلّ بالملائكة ، وتشبث قومه بهم ، ومحاولة الاعتداء عليهم ، فكان حديث الملائكة له بقولهم : « إنا رسل ربك » توكيداً لما حدّثوه به من قبل ، وأنهم إذا كانوا على تلك الصفة فلن ينالهم أحد بمكروه . . ثم كان

من تمام ذلك أن يتلوا تذكيره بما حدثوه به من قبل ، وهو أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلى هؤلاء القوم الذين خلفوهم وراءهم ليلاقوا مصيرهم ..

الآيات : (٧٨ — ٨٤)

* « وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٨٤)

التفسير :

أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب .. والأيكة : الشجر الكثيف ، المجتمع بعضه إلى بعض ..

و « إنْ » فى قوله تعالى : « وإن كان أصحاب الأيكة » هى إنْ المخففة من الثقيلة .. واللام فى قوله تعالى : « لظالمين » هى لام التوكيد التى تدخل على خبر إنّ . . وقد دخلت هنا على خبر كان لأن كان هى ومعمولاها خبر لأنْ ، واسم إن ضمير الشأن ، والتقدير : وإنه كان أصحاب الأيكة لظالمين .

* قوله تعالى : « فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين » . .

الإمام : المقدّم ، والإمام من كل شىء مقدّمه ، لأنه يكون أمامه .. والمراد به هنا : الهادى والمرشد . . والمبين : الواضح البيّن . .

وضمير المثنى فى قوله تعالى : « وإنهما » يعود إلى قوم لوط ، وقوم شعيب . . وهذا ما يشير إليه عطف أصحاب الأيكة (قوم شعيب) على التعقيب الوارد على قصة قوم لوط ، وهو قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » فكان قوله تعالى بعد هذا التعقيب . « وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين » تعقيباً على هذا التعقيب ، ويكون المعنى : إن فيما وقع لقوم شعيب من بلاء ، لآية لمن كان مستعدًّا للإيمان ، متقبلا له ، وإن أصحاب الأيكة لظالمون ، إذ لم يجدوا فى هذه الآية عبرة وعظة لهم ، فانتقمنا منهم كذلك ، وقد كان بين يدى كل منهما إمام مبين يهديه ، يكشف له معالم الطريق ، فضلا عن الآيات التى كانت تطل عليهم من مصارع الظالمين فى القرون الغابرة .

* قوله تعالى : « ولقد كذّب أصحابُ الحِجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين » هو إشارة موجزة لقصة « ثمود » قوم «صالح » عليه السلام ، وسمّوا أصحاب الحجر ، لأن ديارهم كانت منحوتة فى الجبال ، فكانت حِجراً يحجرهم عن أىّ عدو يريدهم، من إنسان أو حيوان . . ومنه الحِجر ، وهو العقل ، وقد سمى حجراً لأنه يحجر صاحبه عن السوء ، ويعصمه من الزلل .

* قوله تعالى : « فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون »

الصيحة : الرّجفة ، وهى نفس البلاء الذى نزل بقوم لوط ، وقد أخذتهم «مصبحين» أى وقت الصبح ، كما أخذت قومَ لوط فى هذا الوقت «مشرقين» أى وقت الشروق .

وهذا هو السرّ فى الإشارة إلى قوم صالح هنا ، دون قوم « هود » ، كما اعتاد القرآن دائماً أن يذكرهما معاً . .

الآيات : (٨٥ — ٩٩)

* « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » (٩٩)

التفسير :

قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل »

* مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن ما أخذ الله به أهل الضلال والعناد ، ممن كفروا بالله ، وآذوا رسله ــ هو من سنن الله فى خلقه ، فإنه سبحانه ما خلق السموات والأرض إلا بالحق ، ولم يخلقهما عبثاً أو لهو ، كما يقول سبحانه : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » (١٦ . الأنبياء) . والإنسان

مما خَلَق الله، ولم يُخلق الإنسانُ عبثاً كما يقول سبحانه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون » (١١٥ : المؤمنون) . لقد خُلق الإنسان ليعبد الله، ويسجد لربوبيته، كما يقول جل شأنه : « وما خلقْت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥٦ : الذاريات) .. وقد خُصّ الجن والإنس بالذكر، لأنهما هما الكائنان اللذان فيهما إرادة قادرة على أن تنزع بهما إلى الانحراف عن عبادة الله، وعن الخروج عن طريقه المستقيم .. أو تستقيم على هدى الله.

— وفى قوله تعالى : « وإن الساعة لآتية » إشارة إلى حتمية الحساب والجزاء لهذين الكائنين — الجن والإنس — من بين المخلوقات جميعاً .. إذ أنهما — كما قلنا — هما الكائنان اللذان يقع منهما الانحراف، ويكثر فيهما المنحرفون عن طرق الحق، الذى أقام لله سبحانه وتعالى الخلق عليه.

فنى هذا الجزاء الذى يلقاه المنحرفون تقويم لهم، وإصلاح لشأنهم ..

— وفى قوله سبحانه : « فاصفح الصفح الجميل » عزاء للنبى، ومواساة له، وربط على قلبه، لما يلقى من عناد المعاندين، وسفاهة السفهاء من قومه .. فالساعة آتية، وفيها يُسوّى حساب هؤلاء الضالين، فَلْيلْقَ النبىُّ سفاهاتهم وحماقاتهم بالصفح الجميل، وليَدَعْهم ليوم الفصل : « يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعًّا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون » (١٣ — ١٤ : الطور) .

* وقوله تعالى : « إن ربك هو الخلّاق العليم » هو تعقيب على ماتضمنته الآية السابقة، من أن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وأن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما كسبت . وفى وصف الحق جل وعلا بأنه « الخلاق » إشارة إلى أنه يُبدع فيما خلق، يخلق السماء والأرض .. والنهار والليل، والمَلَك والشيطان، والإنسان الذى يعلو فيكون مع الملائكة، ويُسِفّ فيكون مع الشياطين .. وفى وصفه سبحانه بأنه « العليم » إشارة أخرى إلى أن هذا

التنويع فى الخلق ، إنما هو عن تقدير وعلم وحكمة . .

وفى إضافة النبي الكريم إلى ربه سبحانه وتعالى « ربك » ، إيناسٌ للنبى ، وتكريم له ، حيث تحفّه ألطاف ربه ، الذى يُدنيه إليه ، ويضيفه إلى رحاب ذاته العليّة .

* قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآنَ العظيم » .

اختُلف فى السبع المثانى .. ماهى ؟ فقيل إنها السبع الطوال من سور القرآن الكريم : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، (والأنفال ، والتوبة . باعتبارهما سورة واحدة) وقيل إنها الحواميم السبعة ، وهى غافر (المؤمن) والسجدة (فصلت) والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف .. وقيل إنها الفاتحة .. (أم الكتاب) .

والرأى الذى نطمئن إليه ، أن السبع المثانى ، هى الآيات السبع التى احتوتها أم الكتاب . .

وسميت مثانى لأنها ثناء خالص على الله . . ليس فيها قصص ، أو أحكام ، أو غير هذا مما تضمنه القرآن الكريم . . فهذه السبع المثانى هى :

* « بسم الله الرحمن الرحيم . .

* « الحمد لله رب العالمين . .

* « الرحمن الرحيم . .

* « مالك يوم الدين . .

* « إياك نعبد وإياك نستعين . .

فهذا ثناء خالص على الله سبحانه . وتسبيح بحمده ، وولاء بالعبادة له وحده ، واستمداد للعون منه وحده ، والبراءة من كل ماسواه .

* « اهدنا الصراط المستقيم

* « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . .

وهذا دعاء خالص لله سبحانه ، والدعاء تسبيح وعبادة ، بل هو ـ كما قيل ـ مخّ العبادة . .

فهذه الآيات السبع هى ثناء على الله . . سواء ما كان منها تسبيحاً صريحاً ، أو تسبيحاً فى صورة دعاء . .

والمثانى ، جمع مَثْناة ، وهى مَفْعَلة من الثناء ، اسم مَرّة ، أو مصدر ميمى . .

ـــ قوله تعالى : « والقرآنَ العظيم » عطف على « سبعاً » . من عطف الكل على الجزء ، إلفاتاً إلى الجزء ، واحتفاء به . . كما تقول أكلت العنب والفاكهة . .

واختصاص الفاتحة بالذكر ، مع أنها من القرآن الكريم ، للتنويه بها ، لأنها أم الكتاب ، وهى التى اختصت من بين آيات القرآن الكريم بأن تكون الذكر الذى يذكر به الله سبحانه وتعالى فى الصلاة . . فمن صلى بغيرها كانت صلاته ناقصة ، كما فى الأثر : « من صلّى بغير أم الكتاب فصلاته خِداج » أى ناقصة ، كما يولد المولود لغير تمام ، فيقال : وُلد خِداجاً . .

وفى وصف القرآن الكريم بقوله تعالى : « والقرآن العظيم » إشعار بأن تقديم أم الكتاب عليه ، وإن كان فيه تنويه بها ، ورفع لقدرها ، فإنه لا يُنقص من عظمة القرآن ، ولا ينزل من منزلته العالية التى لا تنال . . فهو القرآن العظيم .

* قوله تعالى : « لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة كانت تمهيداً لهذه

التوجيهات التى تلقاها النبى الكريم من الله سبحانه وتعالى . .

فقد ذُكِّر النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فى الآية السابقة بما بين يديه من نعمة عظيمة ، وفضل كبير من ربه . . فلقد آتاه الله السبع المثانى والقرآن العظيم . . وهذا عطاء لا توزن الدنيا كلها وأهلها ، بكلمة من كلماته . .

— وفى قوله تعالى : « لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » — استصغار لهذا الزخرف من الحياة الدنيا الذى جعله الله سبحانه وتعالى متاعاً لهؤلاء المشركين الضالين ، وإنه لا ينبغى للنبى الكريم أن يلتفت إلى شىء من هذا المتاع ، راضياً بهذا الفضل العظيم الذى بين يديه من كلمات ربه ، واصطفائه لتلقيها وحياً من السماء ، مستغنياً عن كل مافى هذه الدنيا من مال ومتاع .

— وفى قوله تعالى : « أزواجاً منهم » إشارة إلى كثرة من أنعم الله عليهم ، وابتلاهم بهذه النعم من المشركين .. فالأزواج كثرة ، والأفراد قلة . ثم إن التزاوج فى ذاته نعمة من نعم الله ، كما يقول سبحانه مذكّراً بهذه النعمة : « وخلقناكم أزواجاً » (٨ : النبأ) .

وفى قوله تعالى « منهم » تهوين لشأنهم ، وإضراب عن ذكرهم ، بالحديث عنهم بضمير الغائب ، فهم غائبون وإن كانوا حاضرين . .

— وفى قوله تعالى : « ولا تحزن عليهم » استخفاف بهم أيضاً ، وأنهم لا يستحقون أن يحزن النبى ، أو يجد فى نفسه شيئاً من هذا الضلال الذى هم فيه ، ولهذا المصير المشئوم الذى ينتظرهم .. فهم أهل لهذا الضلال ، وهذا المصير الذى هم صائرون إليه وإن كانوا أهله ، وقرابته .

— وقوله تعالى : « واخفض جناحك للمؤمنين » احتفاء بشأن المؤمنين ، ورفع لمنزلتهم ، وأن على النبى أن يلقاهم حَفِيًّا بهم ، مكرِماً لهم ، متجاوزاً عن هِناتِهم .

* قوله تعالى : « وقل إنى أنا النذير المبين » ـ هو إعلام للنبى بالأذان الذى يُؤذّن به فى الناس جميعاً ، وهو أنه النذير المُبين ، الذى يكشف لهم معالم الطريق إلى الهدى ، ويُريهم مغبة التنكب عن هذا الطريق ، وركوب طرق الكفر والشرك . . وقد قالها النبىّ الكريم صريحة لهم كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا النذير العُريان » أى الفَزِع ، كالنذير الذى جاء ينذر قومه بالهلاك المقبل عليهم ، فأعجله ذلك عن أن يلبس ملابسه ، فجاءهم عرياناً .

* قوله تعالى : « كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عِضِين » .

المقتسمين : الذين اقتسموا كلام الله ، فأخذوا بعضه ، وأعرضوا عن بعض.. وهؤلاء هم أهل الكتاب من اليهود الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزىٌ فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون » (٨٥ : البقرة) .. والعضين : جمع عضو ، وأصله عضوين. والتشبيه فى قوله تعالى : « كما أنزلنا على المقتسمين » يشير إلى المشبه ، وهو قوله تعالى « وقل إنى أنا النذير المبين » أى قل هذا القول لقومك ، كما قاله الرسل السابقون إلى أقوامهم ، فيما أنزلنا على هؤلاء المقتسمين من أهل الكتاب على يد رسلهم . . إذ كل رسول كان لسانه إلى قومه هو قوله : « إنى أنا النذير المبين » .

— وقوله تعالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » هو صفة للمقتسمين ، وكشف عن معنى ما اقتسموه ، وهو القرآن الكريم الذى قبلوا بعضه ، وردّوا بعضه ، فجعلوه أبعاضاً ، وهذا ـ فوق أنه كفر ـ هو سفه ، و مكر بآيات الله . . فإن الحقّ كيان واحد ، فإما أن يقبل كله ، أو يرد كلّه .. والقرآن الكريم إما أن يكون كلامَ الله ، فيقبل ، أولا يكون من كلام الله ،

فيردّ .. أما أن يقبل بعضه ويُردّ بعضه ، فذلك هو النفاق العقلىّ ، الذى يخون به المرء نفسه ، ويخادع منطقه .

* قوله تعالى : « فوربّك لنسألنهم أجمعين * عمّا كانوا يعملون » تهديد لهؤلاء المشركين المعاندين من قريش ، وهؤلاء المكذبين المنافقين من أهل الكتاب ، ولهذا جاء قوله تعالى «أجمعين » جامعاً لهم جميعاً فى موقف المساءلة والجزاء . .

* قوله تعالى . « فاصدع بما تُؤمر وأعرض عن المشركين » .

الصدع : أصله الشقّ فى المواد الجامدة .. ومنه قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٢١ : الحشر) .

والمراد بالصدع الذى أُمر به النبى هنا ، هو أن يكشف عما أوحى إليه من ربّه ، وأن يُظهره للناس ، ويبلغه إياهم .. والتعبير عن هذا بالصدع يشير إلى أمرين :

فأولاً : أن هذه المهمة التى يقوم بها النبى مهمة شاقة عسيرة ، من شأنها أن يتصدع لها كيان الإنسان ، كما تتصدع الأرض حين تنشق عن النبات المخبوء فى صدرها . . كما يقول جل شأنه : « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصّدْع » (١١ ـ ١٢ : الطارق) ، وإلى ثِقَل هذه المهمّة يشير قوله تعالى : « إنا سنُلقى عليك قولاً ثقيلا »(٥ : المزمل)

وثانياً : أن هذا الذى يصدع به النبىّ ويخرجه من صدره ، هو مما تتزوّد به النفوس ، وتحيا عليه القلوب ، كما تتزود الأجساد بما تخرج الأرض من حب وثمر ، يمسك وجودها ، ويحفظ حياتها ..

* قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » هو تطمين للنبىّ ، وتثبيت له على طريق دعوته ، وعون من الله له ، على أداء مهمته الثقيلة . وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيتولى حسابه

هؤلاء الذين يقفون فى طريقه ، يهزءون به ، ويسخرون منه ، وليس هذا منهم وحسب ، بل إنهم ليجعلون مع الله إلٰها آخر . . فجريمتهم جريمتان .. استهزاء بالنبيّ ، وكفرٌ بالله ، وواحدة منهما مهلكة لمقترفها ، فكيف بمن اقترف الجريمتين معاً ؟ .

— وفى قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَعلمون » تهديد ووعيد لهؤلاء المستهزئين بالرسول ، الكافرين بالله . .

* قوله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين » .

التعبير بفعل المستقبل « نعْلم » مع أن علم الله سبحانه وتعالى حاضرٌ — إشارة إلى أن ما كان من المشركين من استهزاء بالنبى ، وما يكون منهم ، فإن الله يعلمه علماً قديماً قبل أن يكون ، وعلماً مقارناً للفعل بعد أن يقع .

ومايقوله المشركون مما يضيق به صدر النبى ، هو مايرمونه به من قولهم : شاعر مجنون ، وقولهم : هو كاذب ، وقولهم : هو ساحر .. مما حكاه القرآن من مقولاتهم الحمقاء فى النبىّ الكريم ..

— وقوله تعالى : « فسبح بحمد ربّك وكن من الساجدين » هو إلفات للنبى ألاّ يعطى أذنه لهذا اللغو الذى يَلْغُو به هؤلاء المشركون ، وأن يدع أمرهم إلى الله ، فهو الذى يعلم مايأتون من منكرات فى جانب النبىّ ، والله سبحانه هو الذى يتولّى حسابهم ، ويكفيه استهزاءهم .. ومن ثَمَّ وجَب على النبىّ أن يتجه بكيانه كله إلى حمد ربّه ، والسجود له ، حمداً وشكراً ، على ما أولاه من نِعَمِه ، وأفضاله ..

— وقوله تعالى : «واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين» معطوف على ماقبله وهو

قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .. أى اجعل هذا التسبيح ، وذلك السجود ، عبادتك لله ، حتى آخر نَفَسٍ من أنفاسك فى هذه الحياة ، حيث يأتيك اليقين ، وهو وعد الله الذى يشهد عنده الإنسان مشاهد الحق ، وعندها يستيقن ما كان يؤمن به ، أو ينكره ، أو يشك فيه ، من لقاء ربّه ، ومن الحساب والجزاء .. فللإنسان عند لقاء الموت صحوة يطّلع منها على ماوراء هذه الدنيا ، فإذا مات ، رأى عالم الحقّ عِياناً .. وفى هذا يقول النبىّ الكريم : « الناس نيام . . فإذا ماتوا انتبهوا »



١٦ – سورة النحل

نزولها : مكية . . إلا آيات منها فمدنية

عدد آياتها : مائة وثمان وعشرون آية

عدد كلماتها : ألفان وثمانمائة وأربعون كلمة

عدد حروفها : سبعة آلاف ، وسبعمائة ، حرف ، وسبعة أحرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ – ٩)

* « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » (٩)

التفسير :

* بهذا البدء : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » تبدأ هذه السورة ، فيلتقى بدؤها مع ختام السورة التى قبلها ، وكأنه جواب على سؤال تلوّح به الآية التى كانت ختاماً للسورة السابقة ..

ففى ختام سورة الحجر ، كان قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ـ كان هذا مثيراً لبعض الأسئلة : ماهو اليقين ؟ ومتى هو ؟ وهل يطول انتظاره ؟

وقد جاء قوله تعالى : « أتى أمر الله فلاتستعجلوه » مجيباً على هذه الأسئلة . فاليقين : هو أمر الله ، وهو يوم القيامة ..وقد كان المشركون يسألون .. منكرين هذا اليوم ، ومستعجلين وقوعه إن كان له وجود ، وفى هذا يقول الله تعالى : « فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عَسَى أن يكون قريباً » (٥١ : الإسراء) .. ويقول سبحانه : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايُدريكَ لعل السّاعةَ قريب * يستعجل بها الذين لايؤمنون بها » (١٧ ـ ١٨ : الشورى) .

أما موعد هذا اليوم ، فعلمه عند الله .. ولكنه قريب .. وهل بعيد هو ذلك اليوم الذى ينتهى فيه عمر الإنسان ، ويفارق هذه الدنيا ؟ إن الموت قريب من كلّ إنسان ، فقد يُنتزع روحه وهو قائم ، أو قاعد ، أو سائر .فليس للموت نُذُر يقدمها بين يديه لمن انتهى أجله .. وإذن فالموت مصاحب لكل إنسان ، دانٍ منه ، مُمَكّن من انتزاع روحه فى أى لحظة من لحظات حياته .. وإذا مات الإنسان ، فقد قامت قيامته ، بمعنى أنه رحل من الدنيا ، دار الفناء ، إلى الآخرة ، دار البقاء ..

— وفى قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » تقرير لحقيقة واقعة ، وهى أن أمر الله ، وهو انتقال الناس من دار الفناء إلى دار البقاء ـ قد أتى فعلاً منذ كان للناس حياة على هذه الأرض .. فلِمَ يستعجلون أمر الله فيهم ، وهو موجود بينهم ، عامل فيهم ؟ إن الموت يأتى كلَّ يوم على أعداد كثيرة من الناس ، فمن لم يمت اليوم ، فهو سيموت غداً أو بعد غد فلم يستعجل الناس أمراً يطلبهم ؟

* وفى قوله تعالى : « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه لله سبحانه وتعالى عن هذا الشرك الذى هم فيه ، وعن هؤلاء الشركاء الذين يعبدونهم من دونه .. ثم هو إلفات لهم إلى أن يخرجوا من هذا المنكر الذى هم فيه ، وقد أظلّهم يوم القيامة ، ونزل بهم أمر الله .. فإنهم إن لم يسرعوا للفرار مما يعبدون من دون الله ، أدركهم الموت ، ووقعوا فى شباكه ولم يكن لهم ثمّة سبيل إلى النجاة ..

* وقوله تعالى : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » .

هو نذيرٌ بين يدى أمر الله الواقع ، ينذر هؤلاء المشركين ، أن يتخلصوا من شركهم ، وأن يخلصوا عبادتهم لله وحده ، وأن يتقوه ، ويحذروا عقابه ..

فهو سبحانه ـ رحمة بعباده ـ قد بعث فيهم رسله ، وأمرهم أن ينذروا الناس بما أُوحى إليهم من أمره ، الذى هو دعوة إلى الإيمان به ، والولاء له ، والبراءة من كل شريك ..

والرُّوح ، هو أمر الله الذى تحمله الملائكة إلى رسل الله ، وهو كلماته المنزلة على الرسل ، وسميت روحاً لأن فيها الحياة للناس ، فمن لم يأخذ حظّه منها ، فهو ميت ، وإن كان فى عالم الأحياء .. وفى هذا يقول الحق جلّ وعلا : « أَوَمَنْ كان ميْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النّاس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (١٢٢ : الأنعام) .

* قوله تعالى: « خلق السموٰات والأرضَ بالحقِّ تعالى عمّا يشركون * خلق الإنسانَ من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين » .

هو استعراض لقدرة الإلٰه الواحد ، الذى يدعو رسُلُ الله إلى عبادته وحده .. فهو سبحانه الذى خلق السمٰوات والأرض بالحقِّ .. فحقٌّ على هذه المخلوقات جميعها أن تعبده ، وأن توجه وجوهها إليه ..

— وفى قوله تعالى: «خَلَقَ الإنسانَ من نطفةٍ فإذاهو خصيم مبين » ـ إشارة إلى أن الإنسان ، وهو مما خلق الله ، قد خرج عن الولاء لله ، وكفر به ، ووقف خَصماً لله ، ويحاربه ..وهو ـ أى الإنسان ـ مخلوق ضعيف خُلِق من ماء مهين ، وجاء من نطفة أمشاج ، ولـكنّ قدرة الله ، قد صورت من هذا الماء المهين ، ومن تلك النطفة القذرة كائناً ، له عقل ، وله إرادة ، وقد كان جديراً به أن يرتفع بعقله وإرادته عن عالم الطين ، وأن يسمو إلى مشارف العالم العلوى ، إلا أنه قد استبد به الغرور ، واستولى عليه الهوى ، فـكان أن كفر بخالقه ، وجحد الرّبَّ الذى أنشأه وربّاه « إن الإنسان لظلومٌ كفّار »(٣٤:إبراهيم)

* وقوله تعالى : « والأنعام خلقها لـكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون * ولـكم فيها جَمال حين تريحون وحينَ تسرحون * وتحمل أثقالـكم إلى بلد لم تـكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم » . .

هذا عرض لبعض مظاهر قدرة الله ، وفضله على عباده ، الذين كفروا بنعمته ، وضلوا عن سبيله . فهو ـ سبحانه ـ الذى خلق الأنعام كلها ، ينتفع الإنسان منها فى وجوه كثيرة . فمنها كساؤه وغطاؤه ، الذى يدفع عنه عادية البرد والحر ، ومنها طعامه الذى يغتذى به ، فيأكل من لحمها ، ولبنها . . ومنها يجد الرّوْح لنفسه ، والبهجة لعينيه ، إذ يراها ، غادية رائحة بين يديه ، وعليها

يحمل أثقاله ، ويمتطيها ركوبةً له إلى أماكن بعيدة ، لم يكن يبلغها سعياً على قدميه إلا بشق الأنفس .. وذلك من رحمة الله به ، وشفقته عليه .. « إن ربكم لرءوف رحيم .. »

* وقوله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

هو تفصيل لهذا الإجمال الذى جاء فى قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » . فمن هذه الأنعام : الخيل والبغال ، والحمير .. وهى دواب الركوب والحمل ، ومراكب البهجة والمتعة ، حيث يستوى الإنسان على ظهرها ، فيجد لذلك ما يبهجه ، ويشرح صدره ، ويعلى فى الناس منزلته وقدره .

— وفى قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » إشارة إلى ماخلق الله من مخلوقات لا يعلمها إلا هو ، ولا يملك تسخيرها إلا هو ، إذ لا تخضع لسلطان الإنسان ، ولا تستجيب لعلمه .

— وفى قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » إشارة إلى أن من هذه الحيوانات ما هو مستجيب لحاجة الإنسان ، قد يسر الله سبحانه وتعالى طبيعته حتى توافق طبيعة الإنسان وتألفه ، ومنها ما هو جائر ، أى منحرف عن وجهة الإنسان ، غير متلاق معه ، أو آلف له .

— وفى قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » دفع لهذا الاعتراض الذى يندفع فى بعض الصدور ، حين يرى أصحابها هذه المخلوقات الكثيرة التى لا تفيد الإنسان . بل ربما كانت أعداءً تتربص الشر به ، وتتحين الفرصة للقضاء عليه ، فينكر خَلْقَ مثل هذه الحيوانات ، ولا يعترف لها بحق الوجود على الأرض ، إذ لا حكمة من خلقها ، ولا فائدة من وجودها ، فى تقدير الإنسان وحسابه .

وهذا خطأ من وجوه .

فأولا — ليس الإنسان وحده هو المالك لهذه الأرض ، المستقل بها .. بل إنه كائن من كائناتها ، ومخلوق من مخلوقات الله فيها . وكونه خليفة الله على الأرض ليس بالذى يمنع من أن يكون معه غيره .. بل أن خلافته لا تتم إلا إذا كانت له رعايا يسوسها ، ويقوم على تدبيرها . وأنه كلما تعددت هذه الرعايا، واختلفت صورها وأشكالها ، كان ضبط الإنسان لها ، وسيادته عليها ، دليلا على أهليته لهذه الخلافة ، واستحقاقه لها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (٣٨ : الأنعام)

وثانياً — ليس ما لا ينتفع به الإنسان دليلا على أنه غير ذى نفع له ، فقد يكون فيه نفع كثير للإنسان ذاته ، وإن خفى ذلك عنه .. وأنه إذا لم يكن فى مقدور الإنسان الآن أن يسخر كثيراً من المخلوقات ، وينتفع بها ، فقد يستطيع يوماً أن يجد الوسيلة التى تمكّن له من الانتفاع بها فى وجوه كثيرة .. فقد كان الإنسان الأول يخاف جميع هذه الحيوانات التى استأنسها اليوم وسخرها ، بل إنه كان ليعبد بعضها اتقاء لشرّه ، فأصبح الآن يتخذها مركبا له ! !

وثالثاً : أن هذه الحيوانات ، هى من قوى الطبيعة ، التى استطاع الإنسان بذكائه ، أن يذلل كثيراً من تلك القوى التى كانت فى وقت مّا قوى مخيفة ، تهدّد أمن الإنسان وسلامته ، فما زال بها حتى انقادت له ، وأصبحت قوة مسخرة بين يديه ، سواء أكانت تلك القوى من عالم الحيوان أو عالم الجماد ..

ومطلوب من الإنسان أن يوجّه مدركاته كلها ، إلى كل حَرُون شارد من هذه القوى ، ويتعرف إلى مواطن الخير فيها .. وبهذا تظل مدركات الإنسان عاملة غير معطلة ، تزداد مع الأيام قوةً وتمكيناً ..

رابعاً : لمــاذا يرى الإنسان هذه الانحرافات فى عالم الحيوان ـ وهى انحرافات من وجهة نظره هو ـ ثم لا يرى ما يموج فى مجتمعه الإنسانى من منحرفين وضــالين ؟ أليس هذا من ذاك سواء بسواء ؟ فـكما فى الناس مصلحون ومفسدون ، ومهتدون وضالون ، كذلك فى عالم الحيوان ، المسالم والشرس ، والأليف والمتوحش .. هـكذا أنتم أيها الناس ، وهـكذا عالم الحيوان .. « ولو شاء لهداكم أجمعين »

الآيات : (١٠ — ١٩)

* « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » (١٩)

التفسير :

ومن عالم الحيوان ، وما فيه من نافع وضار ، ومسالم ومشاكس ، إلى النبات الذى يتغذى من ضرع السماء ، فتتزين الأرض بأشجاره وأزهاره ، ويطعم الإنسان من حبّه وفاكهته .. ومن عالم الأرض وما فيها من حيوان ونبات ، إلى عالم السماء ، وما فيها من شمس وأقمار ونجوم ـ ففى كل عالم ، وعلى كل موقع منه ، نَظَر لناظر ، وعبرة لمعتبر .

وفى قوله تعالى : « وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون » ـ مظهر من مظاهر قدرة الله .. فهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء ، فيه حياة كل حىّ ، فيه حياة الإنسان ، وحياة الحيوان ، طعاماً وشراباً .

ـــ وقوله تعالى : « فيه تسيمون » أى فيه تَرْعَون أنعامكم .. وسُمّيت الأنعام سائمة ، لأنها تَسِمُ الأرض بأرجلها ، أى تترك فيها أثراً ، أو تسم المراعى بما تأكل منها ، فتترك آثارها عليها ..

* وفى قوله تعالى : « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيلَ والأعنابَ ومن كل الثمرات » .. بيان لما تخرجه الأرض من نبات يطعم منه الإنسان ، بعد أن أشارت الآية السابقة إلى ما تخرج الأرض من نبات ترعاه الأنعام ..

* قوله تعالى : « وسخّر لكم الليل والنّهار والشمس والقمرَ والنجومُ مسخّراتٌ بأمره .. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ـ إشارة إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية ، وما تفيض على الناس من نعم . فبقدرته ـ سبحانه ـ سخّر لنا الليل والنهار ، وجعلهما يتعاقبان ، على هذا النظام ، الذى قاما عليه ، وانتظم وجودنا به ..

ـــ وفى قوله تعالى : « والنجوم مسخراتٌ بأمره » .. يمكن أن تكون

الواو للحال ، والجملة بعدها حالاً ، من فاعل الفعل « سخّر » وهو الله سبحانه وتعالى .. والتقدير : وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، فى حال أن النجوم مسخراتٌ بأمره .. وبهذا يرتبط النظام الكونى للكواكب والنجوم بعضه ببعض ، وتنتظمه حال واحدة ، وهى التسخير لقدرة الله . .

ويمكن أن تكون الواو للاستئناف ، لا للعطف ، على اعتبار أن للنجوم ــ فى ظاهر الأمر ــ وضعاً غير وضع الليل والنهار والشمس والقمر .. إذ أن حركة الليل والنهار ، والشمس والقمر ، حركة تظهر آثارها ، وتنطبع صورتها على الوجود الأرضى ، بحيث يتأثر بها كل كائن فى هذا الوجود ، وينظم وجوده عليها .. وليس كذلك شأن النجوم .. إذ يمكن أن يُهمل الإنسان شأن النجوم ، فلا يلتفت إليها ، ولا يقيم وزناً لوجودها ، دون أن تتأثر حياته كثيراً بذلك ، أو يشعر بأن شيئاً ذا بال قد افتقده .. ومع هذا ، فإن للنجوم شأناً كشأن الشمس والقمر ، وأنها مسخرة بيد القدرة ، كالشمس والقمر ، وإن كان الإنسان فى غفلة عنها ، ولهذا جاءت فاصلة الآية : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » لتلفت العقل إلى هذه الظاهرة ، ظاهرة النجوم وحركاتها فى السماء ، وتسخيرها فى مداراتها ، وأن أصحاب العقول وحدهم هم الذين يرون هذه الظاهرة ، ويتعرفون إلى آثار رحمة الله وقدرته .. وأنه إذا التفت العقل إلى هذه النجوم التفاتاً جادًّا متفحّصا ، وجد عالماً رحيباً لاحدود له ، وأكواناً عجيبة تَذْهل لجلالها العقول ، وتخشع لروعتها القلوب .. إذ ليست هذه النجوم التى تبدو وكأنها حبّات من اللؤلؤ المنثور فى السماء ، إلا أجراماً أكبر من الشمس ، وأن أصغر نجم فيها يعدل جرم الشمس آلاف المرات ، وأن صغر حجمها ، وقلة ضوئها بالنسبة للشمس إنما مرجعهما إلى بعدها البعيد عنّا ، حتى ليبلغ مدى هذا البعد مئات الألوف ، وألوف الألوف من السنين الضوئية ، كما كشف عن ذلك علم الفلك . . ؟

ولعلك ـ بعد هذا ـ تدرك السرّ فى اختلاف فاصلة هذه الآية ، عن الآية التى قبلها ، والآية التى بعدها ، حيث جاءت ثلاثتها هكذا :

* إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ..

* إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ..

* إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون ..

(فاختُصّت آية الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، بأصحاب العقول ، كما اختصت بأن فيها « آياتٍ » لقوم يعقلون ، لا آيةً واحدة ! .. ففى كل نجم آيات وآيات) (على حين اختصت آية الماء والزروع ، بمن يتفكرون ، فيرون فيما وراء هذا الظاهر الذى يحجبه حواسّهم ، دلائلَ تدل على قدرة الله وعلمه وحكمته) .. (ثم كان الإلتفات إلى عالم النبات ، وإلى اختلاف ألوانه وطعومه آية بعد آية لقوم يذّكرون ، فيربطون بين هذه الوجوه المختلفة للنبات ، ويصلون بعضها ببعض) ..

* قوله تعالى : « وَمَا ذَرَأَ لَكم فى الأرض مختلفاً ألوانه .. إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يذّكرون » ..

ذرأ : خلق ، وأوجد .. والذرء : إظهار الشىء ..

والآية معطوفة على الآية التى قبلها ، والتقدير ، وسخر لكم الشمس والقمر ، وسخر لكم ماذرأ .. و« مختلفاً ألوانه » حال ..

والمعنى ، أن الله سبحانه قد سخّر لكم ما أنبت فى الأرض من نبات ، مختلف الألوان ، فجعله مستجيباً لكم ، جارياً على ما ألفتموه منه ، تغرسون الحب ، فينمو ، ويزهو ، ويثمر .. هكذا على نظام لايتخلّف أبداً .. إنه آلة مسخرة ، لايملك من أمره شيئاً .. إذ ليس له إرادة يمكن أن تخرج به عن السّنن المرسوم له ، والنظام الذى أقامه الله سبحانه وتعالى عليه .

* قوله تعالى : « وهو الذى سخّر البحرَ لتأكلوا منه لحماً طرِياً وتستخرجوا منه حِلية تلبسونها وترى الفلكَ مواخِرَ فِيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

تتحدث الآية هنا عن مَقطع من العالم الأرضى ، وهو مقطع البحار ، وما سخّر الله سبحانه وتعالى فيها من منافع للناس .. حيث يؤكل منها السمك ، ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان للزينة ، وتجرى فيها السفن ، تحمل الناس والمتاع من بلد إلى بلد . .

وفى هذه الآية أمور ..

فأولا : إفراد كلمة « البحر » .. وهذا يشير إلى أن عالم الماء كائن واحد ، وأن أجزاءه الداخلة فى اليابسة متصلة به ، بحيث ينبض كله بحياة واحدة ، ويأخذ جميعه مستوىً واحداً ..

وثانيا : لم تُذكر الأنهار ، مع أنها مصدر الماء العذب الذى يحيا عليه الإنسان والحيوان والنبات ، كما أنها كالبحر .. يؤكل منها السمك الذى يعيش فيها ، وتجرى عليها السفن ـ وذلك لأن الأنهار وليدة البحار ، فهى فرع من أصل ، وذِكر الأصل يغنى عن ذكر الفرع .. إنه أى البحر عالم وحده ، وسيجىء للأنهار ذكر فى مكانها ، حين يجىء ذكر الأرض ..

وثالثا : وصف لحم السمك بأنه لحم طرىّ ، إشارة إلى أنه يختلف عن لحم الحيوان ، من ضأن ، وبقر ، وجمل ، وغيرها .. لأن لحم السمك هشٌ ، طرى ، غير متماسك تماسك لحم هذه الحيوانات .. وهو لهذا هيّن المضغ ، سهل الهضم . .

ورابعاً : فى قوله تعالى : « وترى الفلك مواخر فيه » ـ عدول عن خطاب الجمع إلى المفرد ، وفى هذا مزيد عناية إلى هذه الظاهرة ، وتوجيه نظر

الإنسان إليها بذاته ، دون أن يكون نظره من وراء نظر الآخرين ، أو معهم ، وذلك ليَشهد بنفسه بعضَ مظاهر قدرة الله وحكمته ، فى هذه الفلك التى تمخر عباب الماء ، محمولة على ظهره بأثقالها ، وما عليها من إنسان ، ومتاع .. على حين أنك لو ألقيت فى هذا الماء حصاة لهَوَتْ إلى القاع ! فكيف بهذا الماء ، يحمل هذه السفن التى كالجبال على ظهره ، دون أن تهوى إلى قاعه ؟

* قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسِيَ أن تميد بكم وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون * وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون » ..

وفى مقابل هذا البحر ، ومافيه من نعم ، هذه الأرض اليابسة وما فيها لله من آيات ، وما تحدّث به تلك الآيات من قدرة الله ، وحكمته ..

— وفى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » وفى التعبير عن إرساء الجبال على الأرض بقوله تعالى : « ألقى فى الأرض » إشارة إلى أنها جاءت من علٍ ، وذلك لعلوّها وإشرافها على الأرض . وفى تعدية الفعل « ألقى » بحرف الجر « فى » بدلاً من « على » إشارة أخرى إلى أن هذه الجبال لم تُطرح على الأرض طرحاً ، بل غُرست فيها غرساً ، كما تُغرس الأوتاد فى الأرض .. كما يقول جل شأنه : « ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً » ؟ (٦ — ٧ : النبأ) .

— وقوله تعالى : « أن تميد بكم » علة كاشفة عن بعض الحكمة فى غرس هذه الجبال فى الأرض ، وذلك لأن وجودها على الأرض يعطى الأرض تماسكا وصلابة ، فلا تضطرب أو تهتزّ أو تذوب فى مياه البحار ، كما يذوب الملح فى الماء .

— وقوله تعالى : « وأنهاراً وسبلاً » معطوف على قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى » أى وشق فيها أنهاراً وسبلاً أى طرقاً .. وهذه الأنهار

والطرق ، هى التى تيسّر للإنسان الانتقال من مكان إلى آخر ، فتصل الناس ، بعضهم ببعض ، حيث يتبادلون المنافع بينهم ..

— وفى قوله تعالى : « لعلكم تهتدون » إشارة إلى ما لهذه الأنهار ، والسبل من آثار فى هداية الناس ، واتخاذها معالم يتعرفون بها وجوه الأرض ومكانهم منها ، ومتّجههم فيها ، ولولا ذلك لكانت الأرض أشبه بصفحة بيضاء ، ليس فيها شىء يُقرأ ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وعلامات » أى أن هذه الأنهار والسبل كما أنها طرق للسالكين يهتدون بها إلى وجهاتهم التى يقصدونها ، هى كذلك معالم ، وسِمات لبقاع الأرض المختلفة ، تميز بعضها من بعض .

ويجوز أن تكون « علامات » معطوفة على « أنهاراً وسبلاً » أى وجعلنا فى الأرض أنهاراً وسبلاً تهتدون بها ، وجعلنا فيها كذلك « علامات » تميز بعض الجهات عن بعض ، فبعض الأرض صحارى ، وبعضها غابات ، وبعضها أحراش ، وبعضها سهل ، وبعضها وعر .. وهكذا ..

— وقوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون » هو معطوف على قوله تعالى : « لعلكم تهتدون » بهذه الأنهار والسبل ، وتهتدون كذلك بالنجوم ..

وفى العدول عن الخطاب إلى الغيبة حيث جاء النظم القرآنى « وبالنجم هم يهتدون » بضمير الغائب ، على حين أن سياق النظم يقتضى أن يجىء بضمير المخاطب هكذا : ـ وبالنجم أنتم تهتدون ـ فى هذا العدول إشارة إلى أمور .. منها :

أولاً : أن النجوم فى السماء مشرفة على الناس جميعاً ، بحيث لا يراها أحدٌ دون أحد ، على خلاف الأنهار والسبل ، فإنها تختلف فى مكان عنها فى مكان آخر .. وتوجد فى أمكنة ولا توجد فى أخرى .. ومن هنا كان الخطاب

فى حال الأنهار والسبل ، ليكون ذلك فى مواجهة مَن عندهم الأنهار والسبل.. وكانت الغيبة فى حال النجم ، ليكون ذلك حديثاً عاماً للناس جميعاً غائبهم وحاضرهم .. ذلك أنه إذا كان الغائبون يهتدون بها ، فأولى أن يهتدى بها المخاطبون .. ومن ثمّ فلا داعى لذكرهم ، إذ هم مذكورون من باب أولى ..

وثانياً : الأنهار والسبل ، لايهتدى بها إلا كلّ من أعمل عقله ، وأجهد تفكيره ، وأحسن التدبير ، وإلا ضلّ الطريق .. فركوب الأنهار ، والطرق يحتاج إلى فطنة وذكاء ، وإلى جمع خاطر ، وحضور فكر .. ومن هنا كان مقتضى الحال أن ينبه إلى ذلك بهذا الخطاب..أما النجم فهو علامة ظاهرة ثابتة،لاتتبدّل ولا تتحول .. وما هى إلا نظرة يلقيها الناظر إليه ، حتى يكون على علم بوجهته التى يريد أخذها .. ومن ثمّ لم يكن ما يدعو إلى استحضار من يهتدون به ..

هذا وقد أفرد « النجم » هنا ، لأن النجم الذى يُهتدى به فى التعرف إلى الجهات هو نجم واحد ، وهو النجم القطبى .. وهذا لايمنع من أن يكون هناك نجوم أخرى يهتدى بها السّائرون فى الليل ، ولكنها ليست نجوماً ثوابت ، كالنجم القطبى .. فبعض النجوم تظهر صيفاً ، وبعضها شتاءً .

* أما النجم القطبى فهو ظاهر أبداً ، وفى مكان ثابت دائماً .. ومن أجل هذا اختص « النجم » بالذكر هنا ، حيث كان فى سياق تمداد نعم الله ، فيما هيأ سبحانه للناس من معالم للتعرف بها على مسالك الجهات والبلاد .. ولم يكن للنجم هذا الاختصاص ، حين كانت الإشارة إلى هذه النعمة إشارة عامة فى سياق نعم أخرى ، فذُكر مع غيره من النجوم فى قوله تعالى : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر » (٩٧ : الأنعام) .

* قوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون » هو تعقيب على هذه النعم التى بثّها الله سبحانه وتعالى فى الأرض ، وفى السماء ، وفى البحار ، وفى اليابسة .. وفى هذا استحضار لعظمة الله وقدرته ، فى مواجهـــة هؤلاء المعبودين الذين يعبدهم المشركون ، ويسوّون بينهم وبين الخلاق العظيم .. وفى تلك المواجهة يظهر قَدْر هذه المعبودات ، وتنكشف ضآلة شأنها عند من ينظر إليها ، وينتفع بما يجىء به إليه نظره منها ، إذا هو وازن ذلك بما يأتيه به النظر فى آيات الله ومبدعاته فى هذا الوجود ..

* قوله تعالى : « وإن تَعُدُّوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفورٌ رحيم » هو خطاب لأولئك الذين نظروا فى آيات الله ، وفى النعم التى أفاضها عليهـم ، وجعلوا يقرءون فى صحف الوجود هذه الآيات وتلك النعم ، وإنهم لن ينتهوا أبداً من القراءة ، ولن يطووا هذه الصحف ، إذ كلما نظروا إلى آيات الله ، جاءهم منها جديد ، لايحصيه عدّ ، ولا يحصره عدد ..

— وفى قوله تعالى : « إن الله لغفور رحيم » إشارة إلى أن هذه النعم التى أفاضها الله على عباده ، والتى لاتحصى عدداً ، لا يقوم بشكرها الشاكرون ، ولو أفنوْا أعمارهم يسبحون بحمد الله ويشكرون له ، ومع هذا فإن الله يقبل منهـم القليل من الشكر ، ويتجاوز لهم عن كثير .. « إن الله لغفور رحيم » ..

* قوله تعالى : « والله يعلم ماتُسرُّون وما تعلنون » .. أى أن شكر الشاكرين وحمدهم ، سواء أكان سرًّا أو جهراً ، هو معلوم لله ، وأنه مقبول عنده السرّ والجهر ، كما يقول سبحانه . « إن تُبْدوا الصدقات فَنِعِمَّاهى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » (٢٧١ : البقرة)

الآيات : (٢٠ — ٢٩)

* « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » (٢٩)

التفسير :

* قوله تعالى: « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » — هو جواب لمن أعماه الضلال ، فلم يجد الجواب لقوله تعالى : « أفمن يخلق كمن

لا يخلق أفلا تذكرون » .. فهؤلاء الذين جعلهم المشركون آلهة يعبدونهـم من دون الله ، لا يخلقون شيئاً ، بل هم مما خلق الله ، سواءً أ كانوا أحجاراً أو أناساً أو ملائكة .. فكل ما فى هذا الوجود مخلوق لله . وهو وحده سبحانه المتفرد بالخلق . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله . . أرونى ماذا خلقوا من الأرض . . أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هـذا أو أثارة من علم إن كنتم صـادقين » (٤ : الأحقاف) .

* قوله تعالى : « أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » هو حكم على هؤلاء المشركين الذين امتَهنوا عقولهم هذا الامتهان الذليل ، فعبدوا هذه المخلوقات ، ولم يفرقوا بينها وبين خالقها ـ فهؤلاء الضالون هم أموات غير أحياء، إذ لاحساب لهم فى عالم البشر ، وإنهم لايشعرون ـ أىّ شعور ـ أن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة ، وأن لهم يوماً يُبعثون فيه .. « وما يشعرون أيّانَ يبعثون » أى متى يبعثون .. والمؤمن وإن كان لايعلم متى يبعث ، فهو على يقين بأنه سيبعث بعد الموت ، ويعود إلى الحياة مرةً أخرى ..

— وفى قوله تعالى : « غيرُ أحيـاء » توكيد لموت هؤلاء المشركين ، موتاً أدبيًّا ، انسلخوا به عن عالم الإنسانية .. وهذا هو السرّ فى الإشارة إليهم بضمير الغائب فى قوله تعالى : « والذين يدعون من دون الله » .. ولم تجىء الإشارة إليهم بضمير المخاطب « تدعون » .. وذلك لأنهم ليسوا أهلاً لأن يُخاطبوا ..

* وقوله تعالى : « إلٰهكم إلٰه واحدٌ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .. هو خطاب المؤمنين ، وإلفات لهم إلى إلٰههم الذى يعبدونه ، وأنه إلٰه واحد ، لاشريك له .. أما المشركون ، الذين لايشعرون ـ

مجرد شعور بالحياة الآخرة ـ فإن قلوبهم منكرة لهذا القول الحقّ ، وهم مستكبرون، فلا يلتفتون إلى داعِى الحقّ الذى يدعو إلى الله ..

* قوله تعالى : « لاجَرَم أن الله يعلم مايسرّون وما يعلنون إنه لايحب المستكبرين » أى لاشك أن الله يعلم من هؤلاء المشركين ماتنطوى عليه قلوبهم المنكرة ، ومايظهر على ألسنتهم وأيديهم من أفعال السوء ، ومنكر القول ، وأنهم سيلقوْن جزاء هذا المنكر الذى هم فيه .. « إنه لايحبّ المستكبرين » فلا ينزلهم الله سبحانه منازل رضوانه ، بل يُلقى بهم فى عذاب السعير ..

* وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذآ أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين » هو عرض لبعض مايعلمه الله سبحانه وتعالى من أمر هؤلاء المشركين ، وأنهم إذا تُليت عليهم آيات الله أعرضوا عنها ، وقالوا ، «إن هى إلا أساطير الأولين»

والأساطير : جمع أسطورة ، وهى ما كتب ، وسُطّر .. و « الأولين » الماضيين .. و« أساطير الأولين » أخبارهم التى يتناقلها الناس عنهم ، فيكثر فيها ـ بحكم التداول ـ التحريف ، والتبديل ، ويدخل عليها من الغرائب مايجعلها من قبيل الخرافات !

وهنا سؤال : كيف يقال لهم : « ماذا أنزل ربكم » وهم ينكرون هذا ، ولا يعترفون بأن الله أنزل شيئا؟

والجواب : هو أن هذا تقرير للواقع ، وإلزام لهم به ، رضوا أو لم يَرْضَوا .. إنه الحقّ .. فليقولوا فيه ماشاءوا ..

ويجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين ، وفى هذا التفات إليهم ، واحتفاء بهم ، بإضافتهم إلى ربّهم ، على حين يُحرم المشركون من هذا الالتفات الكريم ، من ربّ العالمين .. والمعنى : إذا قيل لهؤلاء المشركين ماذا أنزل ربكم أيها المؤمنون

قالوا أى المشركون : « أساطير الأولين » أى هذا الذى تقولون إنه منزل من عند الله ، يقول عنه المشركون ، هو من أساطير الأولين ، وفى خطاب للمؤمنين تكريم لهم ، ومحاكمة المشركين ، وإشهاد لهم عليهم ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١٤٣ : البقرة)

* « ليحملوا أوزارهم كاملةً يومَ القيامة ومن أوزار الذين يُضلّونهم بغير علم .. ألا ساء مايزرون » .

يُجمع المفسرون على أن اللاّم فى قوله تعالى « ليحملوا أوزارهم » هى لام التعليل .. وعلى هذا يكون الفعل بعدها مسبّباً عن قول المشركين الذى قالوه فيما أنزل الله إنه « أساطير الأولين » .. ويكون المعنى أنهم إنما يحملون أوزارهم ، أى آثامهم وذنوبهم بسبب هذا القول المنكر ، الذى قالوه فيما أنزل الله ، فكان ذلك سبباً فى كفرهم الذى أثمر هذا الثمر الخبيث ، الذى يحملونه على ظهورهم ، ليحاسبوا عليه يوم القيامة ..

هذا ، وإنى أستريح إلى مفهوم آخر ، لهذه الآية ، وهى أن اللام هنا للأمر ، وأن هذا الأمر موجّه إلى هؤلاء المشركين ، وفيه استدعاء لهم أن يحملوا هذه الأوزار وتلك الآثام التى جرّتهم عليها هذا الموقف اللئيم الذى وقفوه من كتاب الله .. وأنّهم وإن كانوا سيحملونها يومَ القيامة ، فإنها محمولة عليهم منذ الآن .. وفى هذا ما يُلفتهم إلى مافوق ظهورهم من أحمال ثقال ، تدفع بهم إلى النار .. فإن كان فيهم بقية من عقل ونظر ، راجعوا أنفسهم ، وتخففوا من هذه الأوزار ، ورجعوا إلى ربّهم ..

— وفى قوله تعالى : « ومن أوزار الذين يضلونهم » .. « من » هنا للتبعيض ، أى أن هؤلاء السّادة والرؤساء من المشركين يحملون ذنوبهم كاملة ، مضافاً إليها بعض الذنوب التى تضاف إليهم من ذنوب أولئك الأتباع الذين

أضلوهم .. لأن هذا الضلال الذى غرسوه فى قلوب أتباعهم ، هو ثمرة مشتركة بينهم وبين هؤلاء الأتباع .. وكل واحد منهم سيحمل نصيبه من هذا الثمر الخبيث ..

— وفى قوله تعالى : « بغير علم » إشارة إلى هؤلاء الأتباع ، وأنهم إنما باعوا عقولهم لرؤسائهم ، وأعطوهم مقاودهم من غير تفكير ، أو مراجعة .. وفى هذا توبيخ لهؤلاء الأتباع ، ووصْمٌ لهم بالغفلة والسّفه ، كما أنه تهديد لهؤلاء السادة والرؤساء ، إذ غرّروا بأتباعهم وزينوا لهم الضلال .

— وقوله تعالى : « ألاَ ساَء مايزرون » تقبيح لهذه الأحمال التى يحملها أولئك الضّالون ، وتأثيم لحامليها ، وأنهم يحملون مايسوؤهم ، ويجلب البلاء عليهم .. والعاقل إنما يحمل مايحمل ، ابتغاء مايؤمّل فيه من خير ، وما يرجو من نفع .. أما أن يحمل مايؤذيه ويُرديه ، فذلك هو السّفه ، الذى ينزل بالإنسان إلى أخسّ مراتب الحيوان !

* قوله تعالى : « قد مَكَرَ الذين من قَبْلهم فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعد فَخَرَّ عليهم السّقْف من فوقهم وأتاهمُ العذاب من حيث لايشعرون » — هو إلفات لهؤلاء المشركين إلى عبر وعظاتٍ ، يرونها ماثلةً بين أيديهم ، إن عميت أبصارهم عن أخذ العبرة من أنفسهم .. ففى الأمم الغابرة ، كعاد وثمود ، التى لاتزال آثار العذاب الذى أخذها الله به — باقية ، يمر عليها هؤلاء المشركون ، وهم عنها غافلون — فى هذه الأمم مَثُلاتٌ وعبر ، إذ كان فيهم مافى هؤلاء المشركين من مكر بآياتٍ ، وكفر بها ، وتكذيب برسل الله ، وإعناتٍ لهم ، فأخذهم الله من حيث لم يحتسبوا ، ودمدم عليهم بذنوبهم ، فأصبحوا كهشيم تذروه الرياح .. فهل يُعجز اللهَ أن يأخذ هؤلاء المشركين كما أخذ أسلافهم ؟ أم أنهم

أخذوا على الله عهدًا ألا تجرى عليهم سُنّةُ الله فى الذين خَلَوْا من قبل ؟ « قل هاتوا برهانــكم إن كنتم صادقين » ! (٦٤ : النمل)

— وفى قوله تعالى : « فأتى اللهُ . بنيانَهم من القواعد » ـ إشارة إلى أن البلاء الذى نزل بهم كان بَلَاء ماحقاً ، أتى على حياتهم كلّها من أساسها ، واجتثّها من أصولها . . فلم يَبْقَ من آثارهم دارٌ ولا ديّار . .

— وفى قوله تعالى: « فخرّ عليهم السقف من فوقهم » تأكيد لهذا البلاء الشامل الذى أخذهم الله به ، من الأرض والسماء ، وأن السماء ـ وقد كانت سقفاً محفوظاً فوقهم ـ قد أطبقت عليهم ، ترميهم بحجارة من سجّيل ، وأن الأرض ، وقد كانت بساطاً ممدوداً تحتهم ، قد فغرت فاها لهم ، وألقت بهم فى بطنها . .

فالمراد بالسقف هنا ، السماء . . كما يقول سبحانه : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظا » وفى قوله تعالى : « من فوقهم » مع أن السقف لا يكون إلا من فوق توكيد لهذه الفوقية ، وإلفات إليها ، وإلى ماينزل منها من بلاء ، وقد كانت تنزل بالرحمة والغيث المدرار

قوله تعالى : « ثم يَوْمَ القيامة يُخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أُوتوا العلم إن الخزى اليوم والسُّوء على الـكافرين » .

الضمير فى « يخزيهم » يعود إلى المذكورين فى قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم » فهؤلاء الذين أخذهم الله بالبلاء فى الدنيا من الذين كذبوا الرسل ـ لم يُوَفَّوْا حسابهم بعد ، وأنهم إذا كانوا قد رُموا بهذا العذاب فى الدنيا فإن لهم فى الآخرة عذاباً أنـكى وأشدّ . . وإن من صور هذا العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة،هو هذا الخِزى الذى يَلْبَسُهم ، حين يُعرضون هذا العرض الفاضح على الملأ ، ويُسألون هذا السؤال الذى يكشف لهم جريمتهم ، حين يسألهم الحق

جلّ وعلا : «أين شركائى الذين كنتم تُشَاقُّونَ فيهم ؟» ثم يلتفتون فلا يجدون لهؤلاء الشركاء أثراً ، فيركبهم الكرب ، ويعروهم الهمّ والخزى ! .

والمشاقّة : الشقاق والخلاف . . وفى تعدية الفعل «تشاقون» بحرف الجر «فى» الذى يفيد الظرفية ، إشارة إلى أن خلافهم وشقاقهم كان منحصراً فى هؤلاء الشركاء . فلم تتسع مداركهم للبحث عن شىء وراء هذا ، بل جمدوا عليه ، ولصقوا به كما يلصق المرض الخبيث بأهله .

— وقوله تعالى : «قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليومَ والسُّوء على الكافرين» . هذا القول من شهود الحشر يوم القيامة ، من الملائكة ، والرسل ، وأتباع الرسل ، حيث وجمَ المجرمون فلم ينطقوا .

* قوله تعالى : «الذين تتوفّاهُمُ الملائكة ظالمِى أنفسهم فألقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نعمل من سُوء بَلَىٰ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» . . هو صفة لأولئك الذين قال فيهم أهل العلم : «إن الخزى اليوم والسُّوء على الكافرين» . . فهؤلاء الكافرون ، تتوفاهُمُ الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بإغراقها فى الضلال ، والتنكّب بها عن طريق الحق . . فإذا سِيقُوا إلى موقف الحساب فى ذلّةٍ وصغار «ألقَوُا السَّلَمَ» ـ أى أعطوا أيديهم مستسلمين لمن يقودهم إلى هذا المصير المشئوم ، الذى هم صائرون إليه ، وعلى ألسنتهم ـ التى مَرَنَت على الكذب والافتراء ـ هذا القول الكاذب ، يرددونه فى غير وعى : «مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوء» ! هكذا المجرم يُرَدِّدُ كلمات البراءة من ذنبه ، ويداه ملطّختان بدم قتيله ـ إنها كلمات عزاء ومواساة ، يتعلق بها المجرمون ، كما يتعلق الغرق بمتلاطم الأمواج ! .

— وقوله تعالى : «بَلَى إنَّ اللهَ عليم بما كنتم تعمَلُونَ» . . هو تكذيب لهم ، وقطع لهذا الأمل الكاذب الذى تعلقوا به ـ بلى ـ لقد

عملتم السوء كله ، إذ كفرتم بالله .. وإن الله عليم بما كنتم تعملون .. « ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (٢٢ ـ ٢٣ : فصلت) .

* قوله تعالى : « فادخلوا أبواب جهنمَ خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» هذا هو جزاؤهم ، وذلك هو مصير المتكبرين..

ـــ وفى قوله تعالى : « فادخلوا أبواب جهنم » ـ إشارة إلى تعجيل عقابهم ، وأنهم لايُنظرون،فما هو إلا سؤال.. يكونَ جوابَه إلقاؤهم فى جهنم . .

وأبواب جهنّم ، هى منازلها التى ينزلون فيها ، فلكل طائفة من الضالين بابٌ يَلِجُون منه ، إلى مثواهم من النار .. والمثوى : المنزل ..

الآيات : (٣٠ ـــ ٣٢)

* « وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٣٢)

التفسير :

والصورة التى تقابل الكافرين فى موقف الجزاء يوم القيامة ، هى صورة المؤمنين المتقين .. هكذا يواجه بعضهم بعضاً ، فيكون فى هذا إيلام فوق إيلام الكافرين ، ونعيم فوق نعيم المؤمنين ، إذ يتضاعف عندهم فضل الله عليهم ،

ورحمته بهم ، لأنهم نجوْا من هذا البلاء .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى فيما يتحدث به أهل الجنة : «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنّا كنّا قَبْلُ فى أهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السَّموم » (٢٥ ـ ٢٧ : الطور)

*وقوله تعالى : « وقيل للذين اتقوْا ، ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً » .. هو فى مقابل قوله تعالى فى مساءلة الكافرين : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » ..

فالذين اتقوْا ربّهم ، عرفوا طريقهم إلى الله ، واهتدوْا إلى مواقع الهدى مما أنزل الله على رسوله ، فحين سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا : « خيراً » أى أنزل ربنا خيراً كثيراً ، نتزود منه زاداً طيباً لدنيانا وآخرتنا : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » .. فما يتزوده المؤمن من الإيمان والتقوى ، كلّه طيب ، والجزاء عليه حسنٌ فى الدنيا ، ولكن مايجده المؤمن فى الآخرة من ثواب الله ، ونعيمه ، هو الذى يعتدّ به ، إذ كان خالداً باقياً ، لايقاس بالقليل منه ، مافى الدنيا كلّها من متاع

* وقوله تعالى : « جنّاتُ عدنٍ يدخلونها تجرى من تحتها الأنهارُ لهم فيها مايشاءون .. كذلك يجزى الله المتقين » .. هو عطف بيان على قوله تعالى : « ولنعم دار المتقين » .. فدار المتقين هذه ، هى تلك الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ماتشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين . خالدين فيها ..

— وفى قوله تعالى : « كذلك يجزى الله المتقين » تنويه بهذا الجزاء العظيم ، الذى لقيه المتقون ، من ربّهم ، وهو جزاء لايُنال إلاّ من الله الكريم الوهاب ، لأن مافى أيدى الناس جميعاً ، ومافى هذه الدنيا كلّها ، يخفّ ميزانه ، مع أدنى جزاء جُوزى به من نالهم الله برحمته ، وأنزلهم منازل رضوانه ..

* قوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكم

ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون » .. هو عطف بيان على قوله تعالى : « كذلك يجزى الله المتقين » .. فالمتقون ، هم الذين تتوفاهم الملائكة « طيبين » .. قد طابت نفوسهم ، وزكت أرواحهم ، بما مسّها من تقوى ، وما عَبَق عليها من إيمان .. فإذا جاء الملائكة لقبض أرواحهم ، أقبلوا عليهم فى بشر ، يحملون إليهم بشريات مسعدة ، حيث يلقونهم بالسّلام ، الذى لاخوف معه .. « يقولون سلام عليكم ..» ثم لاتكاد أرواحهم تفارق أبدانهم حتى يروا منازلهم فى الجنة ، وبين أيديهم مناد يناديهم : « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .. فتلك هى الجنة التى وُعدَ المتقون .. لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا يعملون . .

والسؤال هنا : كيف يقال لهم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون .. والمعروف أن دخول الجنة ، إنما هو فضل من فضل الله على عباده ، وليس ذلك من كسب العبد ، ولا بسبب ماقدم من صالح الأعمال ، إذ أن الجنّة لايستطيع أحدٌ أن يقدّم الثمن الذى تُنال به ،مهما بلغ من إيمانٍ وتقوى . وقد قال النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ « لايدخل أحدكم الجنة بعمله » قالوا : « ولا أنت يارسول الله ؟ » قال : « ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنى الله برحمته » .. فما تأويل هذا ؟

الجواب ـ والله أعلم ـ أن الإيمان والعمل الصالح ، هما المطلوبان من الإنسان ، ليحتفظ بإنسانيته على الصحة والسلامة من الرجس والدنس .. وإذ كان الناس فريقين : مؤمنا وكافراً ، وشقيًا وسعيداً ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار .. هكذا أرادهم الله ، ولهذا خلقهم ـ إذ كان الناس على هذا ، فإن المؤمنين الذين عملوا الصالحات هم أهل الجنّة ، والذين كفروا وضلّوا هم أهل النّار .. وفى إضافة المؤمنين إلى الجنة ، وإنزالهم منازل الرضوان فيها ، وحسبان ذلك بسبب إيمانهم وتقواهم ـ فى هذا تكريم من الله سبحانه وتعالى لهم ، وفضل من فضله

عليهم .. حتى إنه ـ سبحانه وتعالى ـ ليريهم من هذا أنهم أحسنوا ، وهذا جزاء إحسانهم ، وأنهم غرسوا فى مغارس الخير ، وهذا ثمر ماغرسوا ، وفى هذا مايضاعف نعيمهم ، حين يلتقون بيومهم الذى كانوا يوعدون ، فيقطفون ثمراً غرسته أيديهم ، وينزلون منازل هيأتها لهم أعمالهم . ! وليس كذلك من يجنى من غرسٍ لم يغرسه ، وينزل منزلا هو ضيف فيه ! .. وذلك مزيدٌ من ألطاف الله ، وإسباغ من نعمائه على عباده وأهل وُدّه ، كما يقول سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » .. وإلاَّ .. فالمؤمنون ، وأعمالهم .. مِلك لله ، إذ ليس للعبد شىء .. فهو وما ملكت يداه لسيده !

أما الكافرون والضّالون والخاطئون .. فإنّهم قد تحوّلوا بإنسانيتهم عن طبيعتها ، التى تألف الجنة وتسكن إليها ، واصطبغوا بالصبغة التى تطلبها جهنم ، وتدعوها إليها ، فكانوا لها حطباً .. والله سبحانه وتعالى يقول : « هذه جهنم التى كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » (٦٣ ـ ٦٤ : يس) .

الآيات : (٣٣ — ٤٠)

* « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَآئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (٤٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتى أمْرُ ربّك كذلك فعَلَ الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانُوا أنفسهم يظلمون » .

الخطاب هنا لهؤلاء المشركين من أهل مكة ، الذين قالوا فيما أنزل الله : هذا « أساطير الأولين » .. فكفروا بالله ، وكذبوا رسوله ..

والاستفهام إنكارى ، ينكر الله سبحانه وتعالى عليهم هذا الموقف المعادىّ الضّال ، الذى يقفونه من الرسول الكريم ، ومن آيات الله التى بين يديه .. فماذا ينتظرون بعد هذا البيان المبين ، وتلك الحجة الدامغة ! « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة » أى هل ينظرون فى هذا الموقف الضالّ إلاّ أن تأتيهم الملائكة ، تشهد لهم أن محمداً رسول الله ، وأن الكتاب الذى بين يديه هو كلمات الله ؟ لقد طلبوا ذلك فعلاً فيما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « وقالوا يأيها الذى نُزِّل عليه الذِّكرُ إنّك لمجنون * لَوْ مَا تأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصّادقين » (٦ ــ ٧ الحجر) ..أم هل ينظرون أن يأتى أمر الله ، وهو العذابُ الذى أخذ به الظالمين قبلَهم ، فيهلكهم بعذابٍ من عنده كما

أهلك الأولين ؟ وقد طلبوا هذا فعلا ، فقالوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال)

ـ وفى قوله تعالى : «وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون» إشارة إلى أن هؤلاء الذين أهلـكهم الله من القرون السابقة ، إنما أخذهم الله بذنوبهم ، وما ظلمهم الله بهذا العذاب ، بل هم أوجبوه على أنفسهم ، بكفرهم وضلالهم . . فـكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم ، إذ عَدَلوا بها عن طريق الأمن والسلامة ، ومالوا بها إلى طرق البلاء والهلاك ..

* قوله تعالى : « فأصابهم سيئاتُ ما عمـلوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . . هو بيان كاشف لما حلّ بهؤلاء الظالمين من بلاء ، وأن هـذا الذى نزل بهم هو من آثار ما عملوا من سوء ، ومن معقبات مكرهم بآيات الله ، واستهزائهم برسله . . وفى هـذا تهديد للمشركين الذين يحادّون رسول الله ، ويهزءون بآيات الله . .

* قوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولاحرّمنا من دونه من شىء كذلك فَعَل الذين من قبلهم .. فهل على الرّسل إلا البلاغ المبين »

هو عرض فاضح ، لمقولة من تلك المقولات الآثمة ، التى يرمى بها المشركون بين يدى شركهم ، ليتخذوا منها حجة يحاجّون بها رسول الله ، ويُلزمونه التسليم بها ، إذ يجيئون إليه بهذا المـكر السيىء ، حين يقولون : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ! » وتلك كلمة حق أريد بها باطل .. فلو أنهم آمنوا بمشيئة الله ، واعترفوا بسلطانه المطلق ، القائم على كل شىء ، لآمنوا بالله ، ولعبدوه ، واتبعوا رسوله ، الذى

يكشف لهم الطريق إلى الله . . ولكنهم لا يؤمنون بالله . . فكيف يؤمنون بأن له ـ سبحانه ـ مشيئةً غالبة ، وسلطاناً قاهراً ؟ وهل يتفق هذا القول الذى يقولونه مع اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله ؟ إن ذلك مما لا يستقيم مع منطق القول الذى يقولونه .. ولكن هكذا يفعل الضلال بأهله . . « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة)

ـ وقوله تعالى : « كذلك فعل الذين من قبلهم » هو وَصْلٌ لهؤلاء المشركين بمن سبقهم من أهل الضلال ، من القرون الغابرة .. إنهم ليسوا وحدهم هم الذين قالوا هذا القول . . فهم حلقة فى تلك السلسلة الآثمة ، التى تنتظم الظالمين ، وتجمعهم فى قَرَن واحد !

ـ وفى قوله تعالى : « فهل على الرّسل إلا البلاغ المبين » ـ هو قطع لتلك الحجة الكاذبة التى يحتجّ بها المشركون من كلّ أمة ، ومن كل جيل . . وأنهم إذ تنكبوا الطريق المستقيم ، وركبوا طرق الضلال ، وجعلوا القول بمشيئة الله دليلهم على هذه الطرق ـ فَلْيُتركوا وما هم عليه من شرك ، وماهم فيه من ضلال ، حتى يلقَوْا ما يلقى المشركون الضالون من عذاب الله . . فلقد أعذر الله إليهم ، وقطع حجتهم ، بما أرسل إليهم من رسل . . « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل » .. وليس على الرسل إلا البلاغ المبين .. وقد أدّى رسل الله رسالة الله ، وبلغوها إلى أقوامهم بلاغاً مبيناً واضحاً .. « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها » . .

* قوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كلّ أمةٍ رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هَدَى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين » ـ هو بيان لهذا البلاغ المبين الذى بلّغه رسل الله إلى أقوامهم . . ففى كل أمة بعث الله سبحانه وتعالى رسولا يدعوهم

إلى عبادة الله ، وإلى اجتناب الطاغوت ، وترك ما هم فيه من ضلال . . «فمنهم من هدى اللهُ ومنهم من حقّت عليه الضلالة » . . أى فمن هؤلاء الأقوام الذين جاءهم رسل الله ، مَن هداه الله وشرح صدره للإيمان ، فاهتدى إلى الحق ، وآمن بالله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، أى وجب أن يكون من الضالين ، إذ لم يُرد الله سبحانه وتعالى أن يهديه ، وأن يشرح صدره للإيمان . . وتلك هى مشيئة الله فى خلقه ، مشيئة غالبة قاهرة . . ولكن لا حجّة لأحدٍ على الله فيها . . وعلى الإنسان أن يسعى إلى الخير جُهْدَه ، وأن يقيم وجهه على هدى الله . . فإن اهتدى ، حمد الله وشكر له ، وإن ضلّ وغوى ، فليبْك نفسه ، وليؤثّم موقفه ، ويسأل الله العافية من هذا البلاء الذى هو فيه . . !

ـ وفى قوله تعالى : « فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ـ دعوة إلى إيقاظ تلك العقول النائمة ، لتنظر عَبْرَ القرون الماضية ، ولترى ما فى مصارع المكذبين برسل الله ، من عِبَرٍ وعظات . .

* قوله تعالى : « إن تحرصْ على هداهم فإن الله لا يهدى مَن يُضلّ وما لهم من ناصرين » . . هو عزاء للنبى الكريم ، ومواساة له فى مصابه فى الضالين المقيمين على ضلالهم من قومه . . ذلك أنه مهما حرص النبى على هداية هؤلاء الشاردين ، فلن يبلغ به حرصه شيئاً ، فيما يريد لهم من هدًى وإيمان . . إذ حقت عليهم الضلالة ، وغلبت عليهم شقوتهم . . «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . . أولئك الذين لم يُرِدِ الله أن يطهر قلوبهم» . . «وما لهم من ناصرين» ينصرونهم من دون الله ، الذى ابتلاهم بما هم فيه . .

* قوله تعالى : « وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعث الله من يموت . . بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

هكذا يلجّ أهل الضلال فى ضلالهم ، فيحلفون جهدَ أيمانهم ، أى أقصى

ما عندهم من أيمان قاطعة مؤكدة ، على أن الله لا يبعث من يموت . . وذلك فى مواجهة ما جاءهم الرسول به من ربه ، عن الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، فعجبوا أشدّ العجب ، أن يُبعث الموتى من قبورهم ، بعد أن تحتويهم القبور ، ويشتمل عليهم التراب ، ويصبحوا عظاما نخرة . . وفى هذا يقول الله تعالى عنهم : « وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كلَّ ممزّق إنكم لفى خلق جديد * أفترى على الله كذبا أم به جنّة .؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » (٧ ـ ٨ : سبأ)

وفى قوله تعالى : « بلى » تكذيب لهم . . أى أن الله يبعث الموتى . . كما يقول سبحانه : « زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلَى وربى لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم . . وذلك على الله يسير » (٧ : التغابن)

ـ وقوله تعالى : « وعداً عليه حقاً » هو توكيد لهذا التكذيب لحلفهم . . وأن هذا البعث واقع لا شك فيه ، وقد جعله الله وعداً . أوجبه على نفسه ، ولن يخلف الله وعده . . « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » حكمة الله فى هذا البعث ، ولا مالله من قدرة لا يعجزها شىء . .

* قوله تعالى : « ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » ـ هو كشف عن بعض الحكمة فى البعث ، الذى جعله الله وعداً عليه حقاً . . ففى هذا البعث تتبين للناس مواقفهم من الحق ، ويمتاز الخبيث من الطيب . . وهناك يستيقن الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما يدّعون لأنفسهم ولآلهتهم من مدّعيات باطلة ، وفيما يقولون عن البعث وإنكاره . . وفى هذا تهديد للكافرين ، ووعيد لهم بما يلقون فى هذا اليوم من فضيحة ، وخزى ، وهوان . .

* قوله تعالى : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » هو توكيد للبعث ، الذى جعله الله وعداً عليه حقاً . . وأن أمر البعث هيّن أمام

قدرة الله سبحانه وتعالى ، تلك القدرة التي يستجيب لسلطانها كل شيء . . . فما هو إلا أن يصدر الأمر الإلهى لأى شيء حتى يصدع هذا الشيء بما يؤمر به . . « إنما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون » .

الآيات (٤١ — ٥٠)

* « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ وَالْمَلَآئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٥٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنةً ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

مناسبة هـــذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات التى سبقتها ذكرت البعث وإمكانيته ، وكشفت عن بعض الحـكمة من وقوعه فى قوله تعالى: « ليبين لهم الذين يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .. » وإذ كان هذا وجهاً من وجوه الموقف يوم القيامة ، ناسب أن يذكر الوجه الآخر ، وهو وجه الذين آمنوا بالله ، وصدّقوا بآياته .. وأكرم مافى هذا الوجه الـكريم هم الذين هاجروا فى الله من بعد مامسّتهم الضر ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وذلك بما ساق إليهم المشركون من ألوان العسف والبـــلاء .. فهؤلاء سيوفّيهم الله سبحانه أجرهم مرتين .. فى الدنيا .. وفى الآخرة ..

فهم فى الدنيا سينصرون على عدوّهم ، وسوف تمتلئ أيديهم بالخير ، بما يمـكّن الله لهم فى الأرض .. أما فى الآخرة ، فلهم جنات النعيم ، ورضوان من الله أكبر .. وذلك هو الفوز العظيم ..

* وفى قوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله » إشارة إلى أن الهجرة جهاد فى سبيل الله ، ولهذا ضُمِّن الفعل « هاجَرَ » معنى الفعل « جاهد » ، فعدِّى بحرف الجر « فى » .. ويجوز أن يكون حرف الجر « فى » بمعنى الباء ، التى تفيد السببية .. ويكون المعنى : والذين هاجروا بسبب الله ، أى بسبب الإيمان بالله .. وفى الحديث : « عُذبت امرأة فى هرة » أى بسبب هرة ..

* وقوله تعالى : « لنبوئنهم فى الدنيا حسنةً » أى لننزلنهم منزلة حسنة فى الدنيا .. يقال : باء يبوء : أى رجع .. وسمّى المنزل مباءةً ، لأنه المرجع الذى يأوى إليه الإنسان بعد طوافه وسعيه فى الحياة ..

ولقد صدَق الله وعده ، فأيد المؤمنين بنصره ، ومكّن لهم فى الأرض ، وأذَلّ الـكافرين والمشركين .. والمنافقين ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ..

وهذا الوعد الذى وعده الله المؤمنين ، وأنجزه لهم لم يكن لأشخاصهم فرداً فرداً ، وإنما هو لهم كجسد واحدٍ ، ومجتمع واحدٍ . . هكذا المؤمنون ، فيما أصابهم ، من بلاء ، أو عافية ، فهم جميعاً فيه شركاء ، شأن الجسد حين تنزل به علة ، أو تلبسه عافية . . !

* قوله تعالى : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » هو عطف بيان على قوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله » . . فهؤلاء هم الذين صبروا على أذى المشركين ، واحتملوا فى سبيل الله مااحتملوا من مفارقة الأهل والوطن . . مخلفين كل شىء وراءهم ، فما كان لهم فى هجرتهم من مال ومتاع .. بل هاجروا متوكلين على الله ، معتصمين به ، مستغنين بما عنده .

* قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » — هو ردّ مفحم للمشركين الذين أبوْا أن يستجيبوا للرسول ، لأنه بشر مثلهم ، وقالوا : « أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذًا لفى ضلال وسُعُرٍ » (٢٤ : القمر) . . وقالوا ماحكاه القرآن عنهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟ » (٢١ : الفرقان) .

— فجاء قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » : ليُرى المشركين أمراً واقعاً ، لا سبيل إلى إنكاره ، أو الجدل فيه ، وهو أن كلّ رسل الله الذين بُعثوا فى الأمم التى سبقتهم كانوا « رجالا » أوحى الله إليهم بما شاء أن يوحيه إليهم من آياته وكلماته . . فإذا لم يكن عند هؤلاء المشركين علم بهذا ، فليسألوا أهل الذكر ، أى أصحاب العلم ، وهم أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . . فإن من واجب من لايعلم أمراً أن يسأل عنه أهل العلم ، قبل أن يتعامل به ، ويجادل فيه .

— وفى قوله تعالى : « إلا رجالا » إشارة إلى أن رسل الله جميعاً كانوا من

الرجال،ولم يكن أحد منهم من النساء ، وأنهم أوحى إليهم وهم رجال ، قد بلغوا الرشد ، وجاوزوا مرحلة الصبا والشباب ، وأنه لم يكن أحد من رسل الله من عالم غير عالم البشر .

* قوله تعالى : « بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون » هو متعلق بقوله تعالى : « نوحى إليهم »..أى نوحى إلى هؤلاء الرجال الذين اخترناهم لرسالتنا « بالبينات » أى بالآيات البينات ، وهى المعجزات المادية المحسوسة ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، ومعجزات عيسى . « والزبر » أى الكتب ، والصحف . . كصحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وكالتوراة والإنجيل ..

— وفى قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » التفاتٌ إلى النبى الكريم ، بهذا الخطاب الكريم من رب العالمين . . وأن الله سبحانه وتعالى قد نزّل إليه الذكر أى القرآن الكريم ، وسمّى ذكراً ، لأن فيه من آيات الله مايذكر الناس بالله سبحانه وتعالى ، ويلفت قلوبهم وعقولهم إليه . . كما أن فيه ذكراً باقياً للنبىّ الكريم وقومه ، كما يقول سبحانه : « وإنه لذكرٌ لك ولقومك » . . فهذا الحديث الطيب المتصل مع الزمن ، المردّد على أفواه الأمم، من سيرة النبى الكريم ، وسيرة أصحابه الكرام ، والهداة المصلحين من أئمة المسلمين وعلمائهم — هذا الحديث ، هو أثر من آثار هذا الكتاب الكريم، الذى أنزل على النبى الكريم ..

وفى تعدية الفعل « أنزلنا » بحرف الجر « إلى » بدل الحرف المطلوب له وهو « على » إشارة أن إنزال الكتاب لم يكن محمولا إلى النبى حملا ، جملة واحدة ، وإنما أُوحى إليه وحياً ، آيةً آية ، أو آيات آيات ..

وقد جاء قوله تعالى : « طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » كما جاء

الفعل فى آيات أخرى ، متعدياً بإلى وبعلى ، وذلك ليجمع بين نزول القرآن مفرقاً ، وبين الجهة العالية التى نزل منها .

— وفى قوله تعالى : «لتبين للناس مانُزِّل إليهم» إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى أنزل إلى النبىّ ، هو كذلك نُزّل إلى الناس .. فهم شركاء للنبىّ فى هذا الكتاب ، ومطلوب من كل إنسان أن يحسب أن هذا الكتاب هو كتابه المنزل عليه .. يفقهه ، ويعمل به ، ويدعو الناس إلى العمل به ، مقتفياً فى هذا أثر النبىّ ، مشاركا فى حمل الرسالة معه ، فى حال حياته ، أو من بعد وفاته .. !

وفى مخاطبة النبىّ بقوله تعالى : « أنزلنا إليك » ومخاطبة الناس بقوله سبحانه : « نُزّل إليهم » تفرقة من وجهين :

الأول : أن النبىّ الكريم خوطب خطاباً مباشرًا من الحقّ سبحانه وتعالى : « أنزلنا إليك » على حين أن الناس خوطبوا بفعل لم يُذكر فاعلُه هكذا « نُزّل إليهم » ، لأن التنزيل لم يكن مباشراً لهم ، بل كان بوساطة النبىّ ، الذى تلقاه بدوره عن طريق المَلَك .

الثانى : أن الفعل « أنزل » يفيد الجمع ، على حين أن الفعل نزّل ، يفيد « التفرّق » ، وهذا هو مايشير إليه الحال من أمر القرآن بين النبىّ والذين تلقوه منه .. فالنبى بالنسبة لهم هو المصدر الأول الذى تجيئهم منه آيات الله وكلماته .. وهم يتلقونها منه آية آية ، أو آياتٍ آياتٍ ، فناسب أن يخاطب النبى فى مواجهتهم بقوله تعالى : « أنزلنا إليك » .. وأن يخاطبوا هم بقوله تعالى : « نُزِّل إليهم » .

* قوله تعالى : « أفأمن الذين مَكَرُوا السيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرضَ أو يأتيَهم العذابُ من حيثُ لايشعرون » .. هو تهديد لهؤلاء الذين يكذّبون رسول الله من المشركين ، ويمكرون السيئات ، أى يدبّرون الأعمال السيئة ، ويرسمون خططها .. فالمكر هو إعمال الرأى والحيلة فى الأمور .. ومنه ماهو

حسنٌ ، ومنه ماهو سيِّىء . وهؤلاء إنّما مكرهم من النوع السيِّىء الذى يبعدهم عن الخير ، ويعرضهم للهلاك ، والبوار . «ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» فهل أمِنَ هؤلاء الذين يدبّرون السوء ، ويبيتون الشرّ والعدوان أن يخسف الله بهم الأرض ، كما خسفها بالظالمين من قبلهم ، أو يأتيهم العذاب بغتةً وهم لايشعرون ، كما أتى أمماً وأقواماً ، مكروا بآيات الله وكذبوا رسله ؟ : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٩٩ : الأعراف) .

* وقوله تعالى : « أو يأخذهم فى تقلّبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف .. فإن ربكم لرءوف رحيم » هو بيان لبعض الأحوال التى يقع فيها عذاب الله بأهل السوء والشقاق .. فهم إمّا أن يؤخذوا على حين غفلة .. وإما أن يلقاهم العذاب وهم فى يقظة ، حيث يتقلبون فى وجوه الأرض .. أو يحلّ بهم البلاء وهم « على تخوف » أى على توقع للبلاء ، بين يدى إرهاصات ، تهدّد به وتنذر بوقوعه .. إن عذاب الله يقع حيث يشاء الله ، ومتى يشاء .. وماهو من الظالمين ببعيد ..

وفى قوله تعالى : « إن ربكم لرءوف رحيم » إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من فضلٍ على هذه الأمة ، إذ عافاها مما ابتلى به الأمم السابقة ، حين عجّل لها العذاب .. أما هذه الأمة ، فقد أفسحَ الله سبحانه وتعالى للفجّار من أهلها فى الأجل ، حتى تكون لهم إلى الله رجعة ، حين يطول وقوفهم مع رسوله الكريم ، وبين يدى ماممه من كلمات ربّه .. وفى هذا مزيد فضلٍ من الله سبحانه على نبيّه ، إذ لم يفجعه فى قومه ، ولم يهلكهم بسبب خلافهم عليه ، ومكرهم السيىء به .. « إن ربّكم لرءوف رحيم » .. فهل يلقى هؤلاء المشركون المعاندون رأفةَ ربّهم بهم ورحمته لهم ، بالإقبال عليه ، ومصافاة رسوله ومودّته ؟ ذلك ما كان يجب أن يكون !

* قوله تعالى : « أو لم يَرَوْا إلى ماخلق اللهُ من شيء يتفيأُ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله وهم داخرون ».

تفيأ الظلُّ : تنقل من جهة إلى أخرى .. والداخر : الصاغر ، المستكين ..

وفى الآية الكريمة وعيد للمشركين ، واتهام لعقولهم الضالّة المظلمة ، التى أخرجتهم عن نظام الوجود كلّه ، فكانوا نغماً نشازاً ، لايتناغم مع لحن الموجودات ، المسبّحة بحمد الله ربّ العالمين . .

وقد أراهم الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة صورة محسوسة لهذا الوجود وقد سجد فيه كل موجودٍ ، ولاء لله ، وخشوعاً لجلاله وعظمته . .

فما خلق الله من شىء يرْوْنه ، فى عالم الجماد ، أو النبات ، أو الحيوان ، إلاّ كان له ظل ، يتبعه ، ساجداً على الأرض ، سجودَ العابدين الخاشعين . فى ذلة وانكسارٍ لله الواحد القهار ..

— وفى قوله تعالى : « ماخلق الله من شىء » إشارة إلى تلك الأشياء المحسوسة ، التى يحدّث جسمُها عنها ، وينبىء عن وجودها ، فهى ليست من عالم المعقولات ، ولهذا كان لها ظلّ ، لما فيها من كثافة ..

— وفى قوله تعالى : « يتفيأ ظلاله » خروج على مألوف النظم ، وهو إما أن يجىء هكذا : « يتفيّأ ظلّه » أو هكذا : « تتفيأ ظلاله » بمعنى أنه إذا أفرد الفاعل جاء الفعل مذكراً ، وإذا جمع الفاعل ، جاء الفعل مؤنثاً . ولكنه فى النظم القرآنى ، جمع بين الأمرين .. فجاء بالفعل مذكراً وبالفاعل جمعاً .. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، إذ دلّ بهذا على أن الفاعل ، وهو « الظل » هو مفرد فى أصله .. هو شىء واحد ، ولكنه فى أفعاله ، وحركاته ، بين القبض والبسط ، والتحرك من يمين إلى شمال ، يكون ظلالاً ، لاظلاً واحداً .. فهو جمع فى واحد ، وواحد فى جمع !! وهذا بيان لايكون إلا فى كلمات الله ، وفى كتابه المبين . .

* وقوله تعالى : « ولله يَسْجُد مافى السموات وما فى الأرض من دَابةٍ والملائكةُ وهم لايستكبرون » ـ هو استكمال لما قررته الآية السابقة من سجود ظلال الأشياء لله ، وأنها ليست وحدها هى التى تسجد لله سبحانه ، بل كل مافى السموات وما فى الأرض .. من كل دابةٍ تدبّ على الأرض .. ومن الملائكة فى السموات يسجدون لله ، وهم لايستكبرون . . يقول الله تبارك وتعالى فى آية أخرى :« ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال » (١٥ : الرعد) .

وخُصّت الدوابّ بالذّكر ، لأنّها من مخلوقات الأرض ، ذات الحسّ والحركة ، وهى دون الإنسان منزلة .. وخُصّت الملائكة بالذكر كذلك ، لأنها من عالم السموات ، وهى أشرف مخلوقاتها ..

وفى هذا قطع لكل حجة للإنسان ألا يكون فى الساجدين لله .. فإذا عَدّ نفسَه من عالم الأرض ، فهذه دوابّ الله كلّها تسجد لله .. فليسجد معها .. وإذا كان يرى أنّه فوق هذه الدواب ، فهذه مخلوقات السماء ، وهذه الملائكة أشرف مخلوقاتها وأكرمها عند الله ، قد سجدت لله فى ولاء وخشوع . فليسجد لله كما سجدت الملائكة ، أو كما سجدت الدوابّ !

* وقوله تعالى : « يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايُؤْمَرون » ـ هو وصف الملائكة الذين دأبهم العبادة ، وشأنهم السجود لله .. فهم ـ مع منزلتهم عند الله ـ يخافون ربّهم الذى علا بسلطانه على كل سلطان « ويفعلون مايؤمرون » به،من الله ، فى غير تردد أو تكرّه . إذهم أعرف بما لله فى خلقه ، وما على الخلق من واجب الطاعة والولاء للخالق ..

الآيات : (٥١ — ٦٠)

* « وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٦٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « وَقَالَ الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إلٰه واحدٌ فإيّاى فارهبون » ..

القول من الله سبحانه وتعالى ، هو أمر .. بمعنى أمر الله ..

وهو هنا أمر باجتناب منكر .. فالأمر واقع على نهى .. وهو قوله تعالى : « لا تتخذوا إلٰهين اثنين » .. فهو توكيد للنهى .. بترك المنهى عنه ، والإتيان بما يقابله وهو المأمور به ..

ويكون المعنى : لاتتخذوا إلٰهين اثنين، واعبدوا إلـٰها واحداً . .

وفى وصف الإلـٰهين بأنهما اثنان ، تجسيد لتلك الصورة التى تجمع بين إلـٰهين ، وتقابل بينهما مقابلة الشىء للشىء . .

وهذه صورة لاتتحقق أبداً ، إذ ليس لله سبحـانه وتعالى نظير يناظره ، أو شبيه يقابله . . إذ هـكذا يكون الإلٰه الذى يُعبد . . إلـٰها متفرداً بالـكمال والجلال . . لايشاركه أحد فى كماله وجلاله ، وإلا كان ناقصاً ، لايستحق أن يأخذ مكان التفرد ، وعلى العقل أن يبحث عن الإلٰه الذى لامثيل له ، ولا نظير، وإن البحث سينتهى به إلى الله الواحد الأحد . . الفرد الصمد . . « إنما هو إله واحدٌ » .

— وفى قوله تعالى : « فإياى فارهبون » هو دعوة إلى الله الواحد الأحد ، الذى يستحق العبودية ، وهو الذى يخافه الملائـكة ، وهم أقرب الخلق إليه ، فـكيف لايخاف ولا يرهب مَن هم دون الملائـكة من خلقه ؟

* قوله تعالى : « وله مافى السّموٰاتِ والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون » ؟

الواصب : الخالص ، المصفّى من كل شائبة . . ومنه قوله تعالى : « ولهم عذابٌ واصبٌ » (٩ : الصافات) أى خالص ، لايختلط به شىء غريب عنه ، يخفف من آثاره وأفعاله فى أهله ، الواقع بهم .

فلله سبحانه وتعالى مُلك السمٰوات والأرض ، لاشريك له ، وله سبحانه الدّين الخالص ، غير المشوب بشركٍ أو إلحادٍ ، فهو سبحانه طيب لايقبل إلا طيّباً . . كما يقول جل شأنه : « وادْعوه مخلصين له الدين » . (٢٩ : الأعراف) ويقول سبحانه : « ألاَ لله الدينُ الخالص » (٣ : الزمر) .

ومن كان هذا مُلكه وسلطانه ، وذلك دِينه الذى يُعبد عليه من خلقه .. فإن عبادة غيره كفر ، وعبادته على غير دينه الذى ارتضاه وأمر به ، ضلال .

* قوله تعالى : « وما بكم من نعمةٍ فمن الله ثم إذا مسّكم الضُّرُّ فإليه تجأرون » ..

الجأر ، والجؤار : رفع الصوت عالياً ..

والآية الكريمة ، تحدّث عما لله سبحانه وتعالى فى عباده من فضلٍ وإحسان .. فكل ماهم فيه من نعم ، هو من عند الله .. حياتهم التى يحيونها .. وحواسّهم ، وجوارحهم ، ونومهم ويقظتهم ، وطعامهم وشرابهم ، ومابين أيديهم من مالٍ وبنين .. كل هذا ، وأضعاف هذا مما يتقلبون فيه ، ويقيمون وجودهم عليه ، هو من عطاء الله ، ومن فضل الله ، ومن رحمة الله .. كذلك مايُبتلَى به الإنسانُ من ضُرٍّ هومن عندالله ، وهو سبحانه الذى يُدْعى لكشف الضر ، ويُرْجَى لدفع الشدّة ، كما يقول سبحانه : « قل أرأيتَكُمْ إن أتاكُمْ عذابُ الله أو أتتكم السّاعةُ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسَوْنَ ماتشركون » (٤٠ ـ ٤١ : الأنعام) .

* وقوله تعالى : « ثم إذا كشف الضُّرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربِّهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم .. فتمتّعوا فسوفَ تعلمون » .

— هو بيان لجحود الإنسان وكفرانه بفضل الله عليه ، ومكره بنعمه .. فهو إذا أصابته نعمة ، بَطِر ، وكفر ، وأعرض عن الله ، وإذا مسّه ضُرٌّ جأر إلى الله ، ورفع صوته شاكياً متوجعاً ، وعاهد الله لئن كشف الضُّرّ عنه ، ليؤمننّ بالله ، وليستقيمن على صراطه المستقيم ، فإذا كشف الله الضرَّ عنه ، نَسى ما كان يدعو إليه من قبل ، ولم يزده هذا الإحسان إلا ضلالاً وكفراناً .. وقليل هم أولئك الذين يذكرون فى هذا الموقف ربّهم ، ويشكرون له ما آتاهم من فضله..

وفى هذا يقول الله تعالى : « وقليلٌ من عبادىَ الشكور » . .

— وفى قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم » تهديد ووعيد ، لهؤلاء الذين يمكرون بنعم الله ، وينكثون عهدهم مع الله .. فليكفروا بما آتاهم الله من فضله ، وليتمتعوا بماهم فيه من نعمة ، فإن الله ـ سبحانه ـ لن يعجّل لهم العقاب ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ، وسوف يعلمون عاقبة ماهم فيه من كفر وضلال . .

وفى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب فى قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » مواجهة لهؤلاء الكافرين الضالين ، بالبلاء الذى ينتظرهم ، وبالعذاب المعدّ لهم .. وفى تلك المواجهة التى يجدون فيها ريح العذاب ـ ما يدعوهم إلى النظر إلى أنفسهم ، ومراجعة موقفهم الذى يُشرف بهم على شفير جهنم ..

* وقوله تعالى : « ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتُسألُن عمّا كنتم تَفْتَرُون » ..

—هو كشف عن وجه من وجوه الضلال ، التى يعيش فيها المشركون بالله ، وهو أنهم لايقفون بكفرهم بنعم الله عند حدّ جَحْدها ، وجحد المنعم بها ، بل يتجاوزون ذلك إلى أن يضيفوا هذه النعم إلى غير الله ، وأن يُقدّموها قُرباناً إلى ما يَعْبدون من دون الله ، من أصنام !

وهذا فوق أنه كفرٌ بالله ، هو عدوان على الله ، وحربٌ له ..

—وفى قوله تعالى :« لما لا يعلمون» حُذف المفعول به ، لإطلاق نفى العلم من هؤلاء المعبودين .. وأنهم لايعلمون شيئاً .. وفى هذا تشنيع على المشركين ، وتسفيه لأحلامهم .. إذ عَدَلوا عن التعامل مع ربّ العالمين ، الذى يعلم كل شىء ، إلى التعامل مع مالا يعلم شيئاً ..

— وفى قوله : « نصيباً ممـا رزقناهم » إشارة إلى أن ما بأيدى هؤلاء المشركين من نعم الله ، قد ضيعوا حق الله فيها ، مما كان ينبغى أن يقدموه منها صدقةً وزكاة ، ابتغاء وجه الله ، وجعلوه قرباناً يتقربون به إلى هذه الأحجـار المنصوبة ، ويرجون الجزاء منها على ماقدموه .

— وفى قوله تعالى : « تالله لتسألُنّ عما كنتم تفترون » وعيـــد لهؤلاء المشركين ، وأنهم مسئولون عن هذا الضلال ، وذلك الافتراء ، ومحاسبون على هذا المنـكر حساباً عسيراً ، يلقون جزاءه عذاباً أليما فى نار جهنم ..

* وقوله تعالى : « ويجعلون لله البناتِ سبحانه .. ولهم مايشتهون » .. هو بيان لوجه آخر من وجوه الضلال ، التى يلبسها المشركون حالاً بعد حال ..

فمن ضلالاتهم أنهم يجعلون الملائـكة بناتٍ لله .. فلم يكتفوا بأن جعلوا لله ـ سبحانه ـ ولداً ، بل جعلوه لايلد إلا البنات ، تلك المواليد التى لفظها مجتمعهم وزهد فيها ، واستقبلها فى تـكرّه وضيق .. وفى هذا مايكشف عن مدى جهلهم بما لله من كمال ، وما ينبغى أن يكون له من توقير .. فلقد أساءوا القسمة مع الله ، حين سوّوه بهم ـ ضلالا وسفهاً ـ فجعلوا له البنـــات ، وجعلوا لأنفسهم « مايشتهون » من الذكور .. وقد سفّه الله أحلامهم ، وكشف عُوَار منطقهم بقوله تعالى « أفرأيتم اللات والعزّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى * ألـكم الذّكر وله الأنثى * تلك إذًا قسمةٌ ضيزَى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهـا من سلطان إن يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس . » (١٩ ـ ٢٣ : النجم) .. وذلك حين أطلقوا على تلك الأصنام هذه الأسماء المؤنثة ، وادعوا أنها بنات الله ..

* وقوله تعالى : « وإذا بُشّر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مُسْودًّا وهو كظيم * يتوارَى من القوم من سُوءِ مابُشّر به أيمسكهُ على هُونٍ أم يدُسُّه فى التراب

ألا ساء مايحكمون » ـ هو بيان لتلك الحال من الانزعاج ، والكرب، والبلاء ، التى تستولى على هؤلاء المشركين من العرب ، حين يبشر أحدهم بأنه قد ولدت له أنثى .. هنالك ينزل عليه هذا الخبر نزول الصاعقة ، فيضطرب كيانه ، وتغلى دماء الكمد فى عروقه ، ويضيق صدره ، حتى لتختنق أنفاسه ويسودّ وجهه .. فإذا ظهر فى الناس جعل يتوارى منهم ، ذِلّةً وانكساراً ، حتى لكأنه لبِس عاراً ، أو جنى جناية . . ! وهذا جهل فاضح ، وضلال غليظ .. ولو كان معه شىء من النظر والتعقل ، لعرف أن هذا الأمر ليس له ، وأن ليس لأحدٍ أن يخلق ذكراً أو أنثى ، وإنما ذلك إلى الله وحده .. فلمَ يخجل من أن تولد له أنثى؟ ولم يمشى فى الناس مطأطىء الرأس ، ذليل النفس ؟ أيستطيع عاقل أن يتهمه بأنه جَنَى هذه الجناية المنكرة عندهم ، وأنه ولد بنتاً ولم يلد ولداً ؟ ذلك قول لايقال إلا فى مجتمع السفهاء والحمقى !

— وفى قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى » ـ إشارة إلى أن الولد نعمة من النعم التى يبشر بها ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وأن من شأن هذه البشرى أن تملأ قلب الوالد بالفرحة والبِشر .. تلك طبيعة الكائن الحىّ ، حين يولد له مولود .. يَهشّ له ويسعد به ، بمجرد أن يرى وجهه ، من قبل أن يتعرف عليه ، ويعلم أذكر هو أم أنثى !.. فما يتوقف الحيوان عن فرحته حين يستقبل ولده ، حتى يتبين الذكر من الأنثى . . بل إن مواليده كلّها سواء عنده .. هى قطعة منه ، وثمرة شجرة الحياة المغروسة فى كيانه ، والإنسان الذى يفرّق بين مواليده ، هو خارج على الفطرة ، منحرف عن سنة الحياة فى الأحياء..

— وقوله تعالى : « كظيم » أى مكظوم ، ممتلىء غيظاً ، وألماً .. ومنه الكِظّة : وهى الامتلاء من الطعام ..

— وقوله تعالى : « ألا ساَء مايحكمون » ـ هو تعقيب على هذا الموقف

المنحرف الضال ، الذى يقفه المشركون من مواليدهم ، من التفرقة فى الحكم بين الذكور والإناث ..

* وقوله تعالى : « للذين لايؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ولله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم » ..

المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لموقف المشركين من إضافتهم الإناث إلى الله ، وإضافة الذكور إليهم ، هو هذا الموقف الذى يقفونه هم أنفسهم مع مايولد لهم من ذكور وإناث ، وأنهم حين يبشر أحدهم بالأنثى ينزل به ماينزل من حسرة ، وحزن وبلاء .. فكيف ينسبون لله تعالى ، مالا يرضون نسبته إليهم ؟ ذلك مايعطيه المثل المضروب .. وتعالى الله سبحانه وتعالى عن أن يسوّى بينه وبينهم ، فلله سبحانه المثلُ الأعلى ، الذى لايقابل بمثل .. أما المشركون فلهم كل خبيث ، وكل خسيس ، يُضرب مثلاً لهم ، تُصَوّر به أحوالهم ، ويكشف به ضلالهم ..

— وفى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى هو « العزيز » الذى يعلو بعزته فوق كل مَثَل .. « الحكيم » الذى يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما .. حسب ماتقضى حكمته ..

(الآيات : (٦١ — ٦٧)

*« وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ

أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (٦٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابّة . »

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة كشفت عن وجوه كثيرة ، من وجوه الضلال ، التى يعيش فيها المشركون حين كفروا بالله ، ومكروا بآياته ، وجحدوا أفضاله وأنعامه ، فناسب ذلك أن يذكّرهم ـ سبحانه ـ بمزيد من فضله عليهم ، وهو أن هذه المنكرات التى اقترفوها جديرة بأن تسوق إليهم المهلكات ، وأن ينزل بهم مانزل بالظالمين قبلهم من نقم الله ، بل ويشمل البلاء كل مابين أيديهم من أنعام سخرها الله لهم ..

وفى التعميم الذى شمل الناس جميعا ، وما على الأرض من دابّة ، إشارة إلى أن رحمة الله لم تتخلّ عن الناس ، حتى فى مواقع البلاء ، والهلاك .. فلم يهلك الله الناس جميعا بسبب مايقع منهم من ظلم ، وشرك ، وكفر ، ولو أخذهم بظلمهم لما أبقى منهم باقية ، ولأخذ غير الظالمين بالظالمين ، بل ولما أقام حياة على هذه

الأرض ، من حيواناتها ودوابها .. إذ كانوا جميعا كيانا واحداً ، مطالبا بأن يقيم خلافة الله فى الأرض ، على صراطٍ مستقيم ..

* قوله تعالى : « ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى فإذا جآء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ـ أى ولكن شاءت رحمة الله بالناس ألا يُعجّل لهم العقاب ، وأن يقيمهم فى الحياة إلى أجلٍ مسمّى ، حتى تُتاح لهم الفرصة لإصلاح ما أفسدوا ، والرجوع إلى ربّهم .. إذ لاشك أن فى امتداد العمر للظالم رحمةً به ، حتى يراجع نفسه ، ويرجع إلى ربّه .. فإن لم يرجع إلى الله ، ويؤمن به فإن مطاولة الزمن له لم تضرّه ، فقد كان بكفره غير متقبل لجديد من الضرر .. إذ ليس بعد الكفر ذنب .

وإلى هذا المعنى يشير الإمام على كرم الله وجهه بقوله : « مَوْت الإنسان بعد أن كبِرَ وعرف ربّه ، خيرٌ من موته طفلا ، ولودخل الجنة بغير حساب » !

* قوله تعالى : « ويجعلون لله ما يكرهون وتَصفُ ألسنتُهم الكذبَ أن لهم الحسنى » ـ هو تنديد بالمشركين ، واستنكار لأفعالهم وأقوالهم جميعاً ، فهم يجعلون لله مايكرهون ، أى ينسبون إليه الإناث ، فيجعلون الملائكة بناته ، ويسمّون آلهتهم بأسماء مؤنثة ، ويقولون عنها إنها بنات الله ! وفى هذا يقول الله تعالى فيهم : « إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علمٍ إن يتّبعون إلا الظنّ وإن الظنّ لايغنى من الحق شيئاً » (٢٧ ـ ٢٨ : النجم) .. هذا ، على حين يجعلون لأنفسهم الذكور ، ثم لايقف بهم الضلال عند هذا ، بل يمنّون أنفسهم الأمانى المسعدة ، ويقولون إن لهم العاقبة الحسنى عند الله .. كما يقول الله تبارك وتعالى فاضحاً هذه الأمانى الخادعة : « أفرأيتَ الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وَولدا * أَطّلَعَ الغيْبَ أم اتخذ

عند الرحمن عهدا ؟ * كلا سنكتب مايقول ونَمُدُّ له من العذابِ مدًّا * ونَرِثه مايقول ويأتينا فرداً » (٧٧ ـ ٨٠ : مريم) .

— وفى قوله تعالى : « وتصف ألسنتهم الكذبَ أن لهم الحسنى » ـ إشارة إلى أنهم يصفون الكذب بغير صفته ، فهو قبيح ، خبيث ، لايثمر إلا القبيح الخبيث ، ولكنهم يعطونه صفة الشىء الحسن ، ويرجون من ورائه مايرجو المحسنون من إحسانهم ..

ولهذا ضُمّن الفعل تصف معنى القول : أى يقولون الكذب الذى يقولونه وهو قولهم « أن لهم الحسنى » .. فهو بدل من الكذب .

* قوله تعالى : « لا جرم أن لهم النار وأنهم مُفْرَطون » . أى لاشك أن لهم النّار ، وليست لهم الحسنى كما يزعمون .. وأنهم مُفْرَطون .. أى سابقون إلى النّار .. فهذا هو المجال الذى يسبقون فيه ، ويأخذون المكان الأولَ منه .. أما فى مقام الخير والإحسان فهم فى أنزل منزلة .

* وقوله تعالى : « تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلِك فزَيّنَ لهم الشيطان أعمالَهم فهو وليّهم اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ » .

فى القسم من الله سبحانه وتعالى باسمه الكريم تشريف للنبىّ ، ومداناة له ، وتلطف من الحقّ جل وعلا معه .. أى وحقّ ربّك ، لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا مبشرين ومنذرين ، فوسوس لهم الشيطان ، وزين لهم ماهم فيه من عَمَى وضلال ، فلم يستجيبوا ، لدعوة الحق ، ولم يردّوا على رسل الله إليهم ردًّا جميلا ، بل أعنتوهم ، ومدّوا إليهم ألسنتهم وأيديهم بالسوء والأذى .. فلا تأس على مايصيبك من قومك ، وما ترى من عنادهم ، وتأبّيهم على الحق الذى تدعوهم إليه ، فالشيطان يتولاهم اليوم ، ويقودهم كما تولّى الظالمين قبلهم ، وقادهم إلى موارد الوبال والهلاك .. « ولهم عذاب أليم » أى لأولياء الشيطان جميعاً عذاب أليم فى الآخرة .

* وقوله تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

هو بيان لحامل الرسالة التى أرسل بها النبىّ الكريم ، فالكتاب الذى أنزل إليه ، ليس فيه مايدخُل منه الضيم على أحدٍ ممن يستجيب له .. إنه لاينزع من أحدٍ سلطاناً ، ولا يعتدى على حرمة من حرماته ، بل إن كل مايحمله هو الخير ، والرحمة ، والأمن ، والسلام .. فهو نور يكشف معالم الطريق إلى الحق والخير ، ويقيم لمن يهتدى به فهماً صحيحاً للعقيدة التى يعتقدها ..

فالقرآن الكريم ميزانُ عدل وحق ، وفيصل مابين الحق والباطل وحَكَم مابين الخير والشر.. فما استقام على ميزانه ، فهو الحق والخير ، وما انحرف عنه ، فهو الباطل والضلال.. فعلى هديه يجتمع أهل الكتاب على كلمة سواء منه ، فيما اختلفوا فيه ، وإليه يحتكم أهل الهدى ، فيقضى بينهم بما يرفع الخصام والشقاق فيما كان سبباً فى خصامهم وشقاقهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسنُ تأويلا » (٥٩ : النساء) .. وقوله سبحانه : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله » (١٠ : الشورى) .. وفى هذا يقول الرسول الكريم فى صفة القرآن الكريم : « القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته » ففى مأدبة الله هذه الشفاء والرحمة ، والهدى والمعرفة .. إنه مأدبة علم وحكمة ، وخُلق ، وليس مأدبة معدة ، ولا طعام بطون ..

— وقوله تعالى : « وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون » .. هو بيان لما فى القرآن الكريم من معطيات الخير التى لاتنفد .. فهو إذا كان ميزان الحق والعدل الذى تردّ إليه الأمور ، وتنزل على حكمه الأحكام ، فإنه كذلك هدًى ورحمة ، لمن آمن به واهتدى بهديه ، واستظل بظلّه .. فهو الشفاء من كل داء ،

والعافية من كل سَقام ، والاستقامة من كل ضلال.. كما يقول الحق جلّ وعلا : «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٨٢ : الإسراء) وكما يقول سبحانه : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلتْ آياته ؟ أأعجمىٌّ وعربى ؟ قل هو للذين آمنوا هُدًى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمًى » (٤٤ : فصلت) .

* وقوله تعالى : « والله أنزل من السمآء مآءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها إن فى ذلك لآيةً لقوم يسمعون » .

مناسبةهذه الآية لما قبلها، هى أنه لمّا ذكر فى الآية السابقة ، أن القرآن الذى نزل على النبىّ ، هو شفاء لما فى الصدور وروحٌ للأرواح ، وحياة للنفوس ، فناسب أن يذكر ما ينزّل من السماء من ماء هو روح الحياة ، وحياة الأحياء .. وبهذا تتم نعْمة الله ، حيث ينزل على عباده من رحمته ، ماتحيا به حياتهم ، المادية والروحية ، جميعاً ..

وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيةً لقوم يسمعون » إشارة إلى أن الآية المبصرة هى التى يتلقّاها الناس من كلمات الله ، حين تتلى عليهم ، لا من تلك الآيات الكونية التى يرونها بأبصارهم .. فهذه الآيات الكونية وإن كانت موطناً للعبرة ، ومَرَاداً للتبصرة ، إلا أن كلمات الله التى تعيها آذان واعية ، وتتلقاها قلوب متفتحة ــ هذه الكلمات هى أوضح بياناً ، وأفصح لساناً ، وأفعل أثراً ، إذ هى النور الذى تنكشف على أضوائه الآيات الكونية المبثوثة فى الأرض والسماء .. وهذا هو السر فى أن جاءت فاصلة الآية الكريمة : « إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » ولم تجىء هكذا : « لقوم يبصرون » حيث كان ذلك هو التعقيب المناسب للآية التى تحدَّث عن الماء الذى ينزل من السماء ، وأثره فى إحياء الأرض .. وكل هذه صور تُرى ولا تُسمع » .

* قوله تعالى : وإن لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما فى بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين » ..

اختلف المفسرون ، وتعددت آراؤهم فى تأويل الضمير فى قوله تعالى : « مما فى بطونه » فهذا الضمير مفرد مذكر ، يعود إلى « الأنعام » والأنعام جمع ، فكان مقتضى هذا أن يعود الضمير إلى الأنعام مؤنثاً هكذا : « بطونها » .. إذ أن كل جمع غير عاقل ، يعود عليه الضمير مفرداً مؤنثاً . . وقد جاء على تلك الصفة فى قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » : « وإن لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تُحملون » (الآيتان : ٢١ — ٢٢)

فما تأويل هذا ؟ ولم اختلف النظم فى الآيتين ، فجاء فى آية النحل هكذا : « مما فى بطونه » على حين جاء فى آية « المؤمنون » : « مما فى بطونها » .

يقول المفسرون : إن الأنعام ، تجىء فى اللغة بمعنى المفرد ، كما تُستعمل جمعاً .. وقد استُعملت فى آية النحل بمعنى المفرد ، واستعملت فى آية «المؤمنون» الاستعمال الآخر الذى لها ، وهو الجمع ! ! ويأتون لهذا بكثير من الشواهد اللغوية للاستعمالين ..

والقول بأن « الأنعام » لفظ مفرد ، مثل ثوب « أخلاق » ونطفة (أمشاج) قول متهافت لا يُراد منه إلا الخروج من هذا الموقف بين يدى الآية الكريمة ، وتسوية نظمها على أية صورة ! !

فالقرآن الكريم لم يستعمل لفظ « الأنعام » مرة واحدة بمعنى المفرد ، على كثرة ماورد فيه من ذكر هذا اللفظ فى مواضع شتى . . فمن ذلك :

* « وأحلّت لكم الأنعام » . . (٣٠ : الحج)

* « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . . (١٢ : محمد)

* « فليبتكُنّ آذان الأنعام » .. (١١٨ : النساء)

* « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » (٥ : النحل)

* « كلوا وارعوْا أنعامكم » .. (٥٤ : طه)

* « متاعاً لكم ولأنعامكم » .. (٣٣ : النازعات)

هذا هو بعض ماورد فى القرآن الكريم من ذكر الأنعام .. وقد استعملت استعمال الجمع غير العاقل ، فعاد إليها الضمير مفرداً مؤنثاً . . كما أضيفت إليها «الآذان» جمعاً .. وكما أضيفت هى إلى الناس هكذا « أنعامكم » وليس بمعقول أن يرعى الناس جميعاً بهيمة واحدة ! !

والذى نراه فى مجىء الضمير فى آية النحل مفرداً مذكراً ، على غير مايقتضيه الاستعمال اللغوى ، هو أن الحيوان الذى يُشرب لبنه ، ويؤكل لحمه ، هو الحيوان المجترّ ، بخلاف الحيوان الذى له لبن ، ولكن لايحل شرب لبنه ، ولا أكل لحمه ، وهو غير مجترّ ، كالكلب ، والخنزير .

والحيوان المجترّ ، له خاصية فى جهازه الهضمى . . فله معدة ، وله مِعًى ، وله كرشٌ ، يختزن فيه الطعام ، ويعيد مضغه مجتراً . . بخلاف الحيوان غير المجتر فإنه ليس له هذا « الكرش » الذى يختزن فيه الطعام . .

ومن هنا يبدو الحيوان المجتر وكأنه لا يحمل بطناً واحدا كسائر الحيوانات ، بل يحمل بطوناً . . المعدة ، والمِعَى ، والكرش ، الذى هو أشبه بمجموعة من البطون . .

ومن هنا أيضاً جاء النظم القرآنى : « نسقيكم مما فى بطونه » مشيراً إلى

بطون هذا الحيوان المجتر الذى أحلّ شرب لبنه ، وأكل لحمه ، وأن الحيوان الذى ليس له هذه البطون لا يؤكل لحمه ، ولا يشرب لبنه . . !

ومن هنا — مرة ثالثة — كان على الإنسان أن ينظر فى الحيوان الذى يشرب من لبنه ويأكل من لحمه ، فإذا كان على تلك الصفة أكل من لحمه وشرب من لبنه ، وإلا أمسك عنه . .

فالآية الكريمة إذ تنبه الإنسان إلى ما فى بطون الأنعام من عبرة فى خروج اللبن من بين الفَرْث والدم تنبّهه كذلك إلى ما أحلّ له من الحيوان ذى اللبن ، ولهذا جاء وصف اللبن بهذين الوصفين : « لبناً خالصاً .. سائغاً للشاربين » .

وعلى هـذا يكون الضمير فى « بطونه » عائداً إلى الحيوان المجـترّ ذى البطون ، وذى اللبن الخالص ، السائغ للشاربين . . هذا الحيوان المنتقى من بين مجموعة الأنعام كلها ، فهو حيوانها الذى ينبغى أن يتجه النظر إليه فى هذا المقام ! مقام أخذ اللبن الخالص السائغ منه .

أما آية « المؤمنون » فلم يكن المراد منها التنبيه إلى هـذه الخاصية من الحيوان ، ذى اللبن الخالص السائغ ، حيث جاءت الآية هكذا : « وإن لـكم فى الأنعام لعبرة نسقيـكم مما فى بطونها ولـكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون » .. فهى تحدِّث عن الأنعام فى جملتها ، وعما يجنيه الناس منها من ثمرات ، ليس اللبن إلا بعضاً منها ، وليس فى الآية مافى آية النحل من إلفات خاصٍ إلى اللبن الصافى السائغ ، الذى يخرج بقدرة القدير ، وتدبير الحـكيم العليم .. من بين الفرث والدم . .

فآية النحل تُلفت الأبصار والبصائر فى قوة ، إلى هـذه الظاهرة العجيبة ، التى تحدِّث عن قدرة الله ، وإلى ماتملك القدرة من قُوَى التصريف والإبداع ..

فمن بين الفرث ، وهو « الروث » ، وبين الدم — يجرى اللبن الخالص ، السائغ ، دون أن تعلق به شائبة ، أو يمسه سوء ، يغير لونه أو طعمه ، أو ريحه .. ومن تلك الأخلاط التى تجمع من الأطعمة التى يتناولها الحيوان ، وتتجمع فى كرشه ومعدته — من تلك الأخلاط يخرج الفرث ، واللبن ، والدّم .. فيأخذ الفرث سبيله إلى المِعَى ، ثم إلى خارج الجسد ، ويأخذ اللبن مجراه إلى الضرع ، ويأخذ الدم مساره فى العروق ! دون أن يبغى بعضها على بعض ، أو يختلط بعضها ببعض ، حتى لكأن كلاًّ منها واردٌ من عالم لا يتصل بالعالَمْين الآخرين ، بأية صلة .. فتبارك الله رب العالمين ..!!

وفى تقديم قوله تعالى : « من بين فرث ودم » على قوله سبحانه « لبنًا » الذى هو مطلوب للفعل « نسقيكم » — فى هذا إلفاتٌ إلى الفرث والدم وما يخرج من بينهما ، وهو اللبن الخالص السائغ للشاربين .. فإنه قبل أن يقع لنظر الناظر هذا اللبن ، يلتقى نظره أولا بالفرث والدم ، الذى لا يُتصور أن يخرج منهما إلا ما يشاكلهما .. فإذا رأى بعد هذا أن ذلك اللبن الخالص السائغ يخرج من بين هذين الشيئين : الفرث والدم ، عَجِبَ لذلك كلَّ العجب ، وحمله ذلك على أن يقف عند هذه الظاهرة وقوفاً طويلا ، يشهد فيها آياتٍ من قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته .

* قوله تعالى : « وِمنِ ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .. « ومن » من هنا للتبعيض .. أى ومن بعض ثمرات النخيل والأعناب تتخذون سَكراً ورزقاً حسناً .. وهو ما يؤخذ من التمر ... من خلٍّ ، وما يتخذ من العنب .. من زبيب مثلا .. فليس كل ثمرات النخيل والأعناب ، يتخذ ، أى يصنع منها السكَر ، وغير السكر ، وإنما يؤكل أكثره من غير صنعة ، وقليله هو الذى يصنع من السَّكَر وغيره .. ولهذا عاد

الضمير فى «منه» على هذا البعض ، أو هذا القليل .. أى وبعض ثمرات النخيل والأعناب تتخذون، سكراً ورزقاً حسناً ...

والسَّكَر : ما يُسكر ، وهو الخمر . . والرزق الحسن ما يُصنع من التمر والعنب فى أغراض أخرى غير السَّكر . .

وفى هذا إشارة إلى أن السكر — وهو الخمر — رزق غير حسنٍ . . وإن سُمِّى رزقاً ، لأن كثيراً من الناس يصنعه ، ويبيعه ، ويعيش من العمل فيه . .

وهذه أول آية تنزل فى الخمر ، وتومئ إليه هـذه الإماءة التى تحقره ، وتسمه بتلك السمة التى تعزله عن الحسن من الرزق .

الآيات : (٦٨ — ٧٣)

* « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ

وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » (٧٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » .

الوحى هنا : الإلهام ، المركوز فى الفطرة التى فطر الله النحل عليها . .

فهكذا خلق الله النحل ، تتخذ لها بيوتاً فى الجبال ، وفى جذوع الأشجار ، وفى سقوف المنازل والحيطان ، ونحو هذا . .

وسميت أعشاش النحل بيوتاً ، لأنها قائمة على نظام دقيق بديع ، تحكمه هندسة دقيقة بارعة ، يحار فيها عقل الإنسان .

* وقوله تعالى : « ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

هو معطوف على ما قبله . . أى مما ألهمه الله سبحانه وتعالى النحل وجعله طبيعة قائمة فيها ، أن يكون طعامها من زهر الزروع وثمارها .. والتقدير: وأوحى ربك إلى جماعة النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً .. ثم كلى من كل الثمرات ..

— وفى توجيه الأمر إلى النحل فى قوله تعالى : « أن اتخذى من الجبال بيوتاً » .. وقوله سبحانه : « ثم كلى من كل الثمرات » ثم قوله تعالى : « فاسلكى سبل ربك ذللا » — وهذا الأمر إشارة إلى أن الوحى الصادر إلى النحل ليس أمراً تكليفياً ، وإنما هو أمر تقديرى ، ليس للنحل معه تفكير

أو تدبير ، بل هو أشبه بجهاز عامل فى كيان النحل ، أو قلْ هو الجهاز العامل فى كيانه . .

— وفى قوله تعالى : « فاسلكى سبل ربك ذُللا » المراد بالسبل هنا ما فى كيان النحل من غرائز فطرية ، هى التى تحكم حياته ، وتضبط سلوكه .

والأمر الموجه إلى النحل بأن يسلك سبل ربه ذللا ، هو إذْنٌ من الخالق جلّ وعلا ، للنحل أن ينطلق على طبيعته ، وأن يسير على ماتوجهه إليه غريزته ، حيث لاتتصادم هذه الغريزة ، بشىء غريب يدخل عليها من إرادة أو تفكير . . فالسبل التى تسلكها النحل فى بناء بيوتها ، وفى تناول طعامها ، وفى الشراب الذى تخرجه من بطونها . . كل ذلك يجرى على سَنَنٍ مستقيم لاينحرف أبداً ، ويسير فى طريق مذلل معبّد . . هو طريق الله ، وهو فطرة الله .

وقد عاد الضمير على النحل بلفظ المفرد المؤنث : « اتخذى . . ثم كلى من كل الثمرات . . فاسلكى سبل ربك . . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه » مع أن « النحل » اسم جمع مذكر ، وذلك أن المراد بالنحل هو « جماعة النحل » أو النحل فى جماعته ، من حيث كان النحل من الكائنات الحية التى لا تعيش إلا فى نظام جماعى ، تتألف منه وَحدة منتظمة ، أشبه بالوحدات الإنسانية ، فى أرقى المجتمعات ، حيث تتوزع أعمال الجماعة على أفرادها ، وحيث يؤدى كل فرد ماهو مطلوب منه فى غير فتور أو تمرد . .

ومن حصيلة العمل الذى تعمله هذه الجماعة ، ويشارك فيه ذكورها وإناثها ، وجنودها وعمالها ، والملكة ورعيتها — من هذه الحصيلة يتكون الشراب المختلف الألوان ، الذى فيه شفاء للناس .

— وقوله تعالى : « يخرجُ من بطونها شراب مختلف ألوانُه » —

هو جواب عن سؤال يقع فى الخاطر ، حين يستمع المرء إلى كلمات الله سبحانه وتعالى عن النحل ، وعن وحيه إليه ، وأمره له ، فيلفته ذلك كله إلى النحل ، وإلى أن يسأل نفسه ، ما شأن هذا النحل ؟ وما الرسالة التى يؤديها هذا المخلوق الضئيل الذي يتلقى من ربه وحياً كما يتلقى الأنبياء ؟ فيكون الجواب : « يخرج من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه » — تلك هى رسالة النحل ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، يتلوّن بلون الغذاء الذى يتناوله . . أما ثمرة هذه الرسالة.. وأثرها فى الحياة ، فذلك ما كشف عنه قوله تعالى : « فيه شفاء للناس » ففى هذا الشراب الذى يخرج من بطون النحل شفاء للناس . . أى إن فى تناول الناس له شفاء لكثير من أمراضهم وعللهم ، وليس لكل الأمراض والعلل . . ولهذا جاء التعبير القرآنى « فيه شفاء للناس » بالتنكير ، ولم يجىء : « فيه الشفاء للناس » ، الذى يدل بتعريفه على العموم والشمول ، وهذا من حكمة الحكيم العليم . . فلو كان شراب النحل شفاء من كل داء لأدخل الخلل على نظام الحياة الإنسانية ، التى لا تستقيم إلا مع الصحة والمرض معاً .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه من يشكو إليه مرض أخيه ، بداء فى بطنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اسقه عسلاً .. فسقاه فلم يُشفَ مابه ، فجاء إلى النبى — صلوات الله وسلامه عليه — شاكياً ، فقال : اسقه عسلا . . فسقاه .. فلم يذهب بدائه .. فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم شاكياً ، فقال : « صدق الله وكذب بطن أخيك » اسقه عسلاً .. فسقاه ، فشفى !

هذا ويجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى : « من بطونها » عائداً إلى السبل ، أى يخرج من بطون هذه السبل شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .. وهذا يعنى أن رسالة النحل فى هذه الحياة ، هى أن تسعى هذا السعى فى الحياة ،

وأن تسلك السبل التي يسّرها الله سبحانه وتعالى لها ، وأقام طبيعتها عليها ، بحيث لاحياة لها فى غير هذه السبل ، وأنه إذ تسلك النحل هذه السبل ـ ولابد لها أن تسلكها ـ يخرج من بطون تلك السبل شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .. وهذا يعنى مرة أخرى أن النحل ليس إلا أداة من الأدوات العاملة فى هذا الجهاز العظيم الذى يخرج من بطونه هذا الشراب .. وهذا يعنى مرة ثالثة ألا يقف نظر الإنسان عند النحل وما يخرج منه من شراب عجيب ، بل يجب أن يمتد النظر إلى آفاق فسيحة وراء أفق النحل .. فهناك الأزهار المختلفة التى يتغذّى عليها النحل ويمتص رحيقها ، وهى ألوان وطعوم .. كل لون منها ، وكل طعم ، فيه نظر لناظر ، وعبْرة لمعتبر .. فليس هذا الشراب المختلف الألوان الذى يخرج من بطون النحل ـ بأعجب من هذا الزهر المختلف الأصباغ الذى يخرج من بطون الأرض .. ثم هناك أيضاً هذا التجاذب ، والتوافق بين الزهر والنحل ، فإنه لولا هذا التوافق والتجاذب لما جاء هذا الشراب ، على صورته تلك .. فلو أنه كان من طبيعة النحل أن يتغذى بالحبّ ، أو اللحم ، أو ماشابه ذلك لَمَا كان هذا الشراب .. فبطون النحل التى أخرجت الشراب ، وبطون الأرض التى أخرجت الزهر ، هى جميعها جهاز واحد فى صنعة هذا الشراب المختلف الألوان ، الذى فيه شفاء للناس .

* وقوله تعالى : « واللهُ خلقكم ثم يَتَوَفَّاكُمْ ومِنكم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُر لِـكَيْ لاَ يعلم بَعْدَ عِـلْمٍ شيئاً إنّ الله عليمٌ قديرٌ » .. هو آية من آيات الله فى خلقه .. وهى الحياة والموت .. فقد قضت حكمة الله أن يقرن الموت بالحياة ، وأن يصله بها ، ويسلطه عليها ، مع اختلاف مدة الحياة التى يحياها الـكائن الحىّ .. ففى الناس مثلا من يموت جنيناً ، ومنهم من يموت شابًّا ، ومنهم من يموت شيخاً ، ومنهم من يمتدّ به الأجل حتى يبلغ من العمر أرذله .. ! على أن النهاية هى الموت .. !

وفى وقوف القرآن الكريم عند تلك الحالة التى يصل فيها الإنسان إلى أرذل العمر ـ إشارة إلى مايلبس الإنسانَ فى تلك الحالة من صور فى الحياة ، أشبه بما كان عليه فى أول مراحل العمر .. فيَضْمُرُ جسده ، وتضعف قواه ، وتتحول مشاعره ، ومدركاته ، إلى مشاعر الطفولة ومدركاتها ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ومن نُعَمِّرْه نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ » (٦٨ : يس) .

— وفى قوله تعالى : « يُرَدّ إلى أرذل العمر » إشارة إلى أن امتداد العمر بالإنسان ، ينتهى به عند نقطة معينة يبدأ بعدها الرجوع إلى الوراء ، من حيث بدأ رحلة الحياة ، وهو رجوع على وضع مقلوب ، منتكس ، يجرى على عكس الاتجاه الذى كان يأخذه فى أول حياته ، التى كان طريقه فيها يمشى به صُعُداً ، على حين أنه فى رحلة العودة إلى الوراء يهبط منحدراً ، حتى ليكاد يقع على مستوى نقطة البدء التى بدأ منها . . وهذا مايكشف عنه قوله تعالى « أرذل العمر .. » فالرذل هو الخسيس من كل شىء .. وتلك المرحلة المتقدمة من العمر هى أسوأ مراحل العمر وأرذله .. وقد أحسن المعرى فى قوله :

وكالنّار الحياةُ فمن رمادٍ أواخرها ، وأولها دخان

فأول العمر دخانٌ ، ثم يتكشف هذا الدخان عن نار ، هى شباب الحياة ، وجذوته ، ثم تخمد هذه الجذوة ، وينطفىء هذا الشباب ، فإذا هو رماد .. تسرى فيه بعض حرارة النار ، ثم يبرد شيئاً فشيئاً حتى يكون تراباً .. وذلك هو آخر مطاف الإنسان فى هذه الحياة .. !

— وفى قوله تعالى : « لكى لايعلم بعد علمٍ شيئاً » إشارة إلى أن هذا الإنسان الذى امتدّ به الأجل إلى هذا المدى ، قد عاد من رحلته الطويلة فى الحياة ، إلى النقطة التى بدأ منها .. فمن ولد لايعلم شيئاً ، انتهى إلى حيث لايعلم شيئاً ، كما يقول الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتِكم لاتعلمون شيئاً » ..

وفى الآية الكريمة صورة كاشفة لهذا الإنسان الذى مكّن الله سبحانه وتعالى له من القوى الجسدية والعقلية ، فاتخذ منها أسلحة يحارب بها الله ، ويتسلّط بها على خلق الله ، فلو أنه عَقَلَ ونظر إلى نفسه فى مرآة الزمن ، حين يمتد به العمر ، لرأى كيف يكون حاله من الضعف والوهن .. وإذن لأقام حسابه مع هذه القوة التى بين يديه على العدل والإحسان ، ولأبقى لنفسه رصيداً من الخير والمعروف .. يحتفظ به فى يد الحياة ، لتقدّمه له فى تلك المرحلة الحرجة فى حياته ..

* قوله تعالى : « واللهُ فضّل بعضَكم عَلى بعْض فى الرِّزق .. فما الذين فُضّلوا بِرادِّى رِزْقِهم على ماملكت أيْمانهم فَهم فيه سواءٌ أفبنعمة الله يجحدون » .. ؟

هذا التفاوت بين الناس ، فيما فضّل الله به بعضهم على بعض ، فى الرزق ، يشير إشارة صريحة إلى أنه ينبغى أن يكون هناك تفاوت بين الخالق والمخلوق .. ذلك أنه إذا كان الناس وهم من صنعة الخالق ، لم يطبعهم الله سبحانه وتعالى على صورة واحدة ، ولم يقمهم فى الحياة على درجة واحدة ، بل خالف بينهم فى الصورة ، واللون ، ففيهم الوسيم والدميم ، والطويل والقصير ، والأبيض والأسود ـ كذلك قسم الله معيشتهم فى الدنيا ، فجعل فيهم الغنىّ والفقير ، والمالك والمملوك ـ فكيف يسوغ بعد هذا أن يُسَوّى بين الخالق وماخلق ؟

فهؤلاء الذين وسع الله لهم فى الرزق ، وملأ أيديهم من الجاه والمال والسلطان ـ أيكون منهم من يردّ مابين يديه من مال ومتاع على من تحت يده من عبيد وإماء ، حتى يسوّى بينه وبينهم فى المأكل والمشرب ، والملبس ، وفى كل مظاهر الحياة ؟ ذلك مالا يكون ، وإن كان شىء منه ، فهو واقع ـ فى صورة لاتزيل الفارق بينه وبين مَن تحت يده ، وإن ارتفع بهم شيئاً قليلا !

فكيف يسوغ هذا الضلال لعقل هؤلاء الذين يجعلون لله أنداداً يُسوّونهم به ، وهم صنعة يده ، وغذِىّ نعمته ؟

ــ وفى قوله تعالى: « أفبنعمة الله يجحدون » إنكار لموقف هؤلاء المشركين ، من نعم الله ، التى أفاضها عليهم .. وتذكير لهؤلاء السادة من المشركين بما وسّع لهم من رزق ، ولوشاء لجعلهم فى المكان الذى فيه عبيدهم ومواليهم .. فإنهم بهذا الرزق الذى رزقهم الله إياه كانوا سادةً فى الناس ، وكانت لهم الكلمة المسموعة فيهم .. ثم هم ـ مع ذلك ـ أئمة يدعون الناس إلى غير طريق الله ، ويدفعون بهم إلى مهاوِى الهلاك .. وكان الأولى بهم أن يقيموا وجوههم إلى الله ، وأن يقدموا له ولاءهم وحمدهم ، فإذا لم يكن شىء من هذا ، فلا أقلّ من أن يَدَعوا عبادَ الله يعبدون الله ، لا أن يُضلّوهم ويَصدّوهم عن سبيله !

* قوله تعالى : « واللهُ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجِكم بنين وحفَدةً ورزقكم من الطيبات .. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » .

هذا رزق من رزق الله ، الذى جعله حظًّا مشاعاً فى عباده جميعاً ، وهو أنه سبحانه ، جعل بين الذكر والأنثى فى عالم الإنسان ـ كما هو فى عالم الحيوان ـ إلفاً ومودة ، بما بينهما من مشاكلة وتوافق فى الطباع ، الأمر الذى به يتم اجتماعهما ، وتآلفهما ، ثم مايكون من هذا الاجتماع والتآلف من ثمرات طيبة ، يقتسمان متعتهما منها ، هى البنون والحفدة ، وهم أبناء الأبناء ، أو هم الكبار من الأبناء ، الذين يكونون عضداً لآبائهم ، يسعوْن معهم ، ويحملون عبء الحياة عنهم ..

فالحفْد : السعى فى سرعة ، ومنه ماورد فى القنوت : « وإليك نسعى ونَحفِد » .. ثم إلى هذا الذى رزقه الله سبحانه وتعالى ، الناسَ من بنين وحَفَدة ،

مارزقهم به من طيباتٍ فى هذه الحياة ، مما يتقلبون فيه من فضل الله ونعمته .. وهذا كلّه من عطاء الله ، وهو جدير بأن يُحمد ويشكر .. ولكن كثيراً من النّاس يكفرون بالله ، ويجحدون فضله ويَجْعلون ولاءهم لغيره ، مما هو باطل وضلال .. « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » ؟ .. إن ذلك وضع مقلوب للأمور .. حيث يكون الباطل متعلَّق الإنسان وموطنَ رجائه ، بدَلا من الحق الذى ينبغى أن يكون متعلَّقه ومناطَ ولائه ورجائه .. وحيث يستقبل النعمة بالكفران والجحود ، بدلا من أن تُستقبل بالحمد والشكران ..

وفى العدول من الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى : « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ».. إبعاد لهؤلاء المنحرفين عن طريق الحق ، من أن ينالوا شَرف الخطاب من رب العالمين ، وأن يأخذوا مكانهم بين من هم أهلٌ لهذا الشرف العظيم ..

* وقوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » .. هو تسفيه لهؤلاء المنحرفين الضالين ، ووعيد لهم ، إذ تعلقوا بهذه الأوهام ، وخدعوا أنفسهم بهذا السراب ، فعبدوا من دون الله ، ما لا يملك شيئاً من هذا الرزق الذى ينزل عليهم من السماء ، ويخرج لهم من الأرض ، ولا يستطيع ـ هذا المعبود ـ إن هو حاول ـ أن ينال شيئاً ، وهو كله فى ملك الله ، وفى سلطان الله ..

الآيات : (٧٤ — ٧٧)

* « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٧٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون »

الأمثال : جمع مَثَل ، وهو شبيه الشيء ونظيره . .

وضرْب المثل : مقابلته بمثله ، حين يجمع بين النظير ونظيره ، أو الشيء وضده ، كما يقول سبحانه : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » والأمر هنا موجه إلى المشركين ، الذين يضربون أمثالا ، يقيمون منها حججاً لضلالهم ، وهى أمثال باطلة فاسدة ، تولدت من عقول مريضة ، وقلوب سقيمة . . كما يحكى القرآن بعض أمثالهم فى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسىَ خلْقه قال من يحيى العظام وهى رميم » . . (٧٨ : يس)

أما الأمثال التى يضربها الله ، فهى التى تكشف الطريق إلى الحق والخير ، لأنها أمثال مستندة إلى علم الله المحيط بكل شىء . . « إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

* وقوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لايقدر على شىء ومن رزقناه

منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ؟ الحمد لله .. بل أكثرهم لا يعلمون » .

هذا مثل من الأمثال التى يضربها الله .. وفيه الحجة البالغة ، والبيان المبين ، لما بين الحق والباطل ، من بُعد بعيد !

فهذا عبد مملوك .. هو فى يد مالكه ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً ..

وهذا إنسان رزقه الله رزقاً حسناً ، ليس لأحد عليه سلطان ، فهو ينفق من هذا الرزق الحسن كيف يشاء ، سراً وجهراً .. يعطى من يشاء مما فى يده ، ويحرم من يشاء !

فهل يستوى هذا ، وذاك ؟ هل يستوى العبد والسيد ؟ هل يستوى المملوك والمالك ؟ ثم هل يستوى المخلوق والخالق ؟ هل يستوى من لا يملك ومن يملك ؟ هل يستوى من لا يرزق ومن يرزق ؟

العقلاء يحكمون بداهة أن لا مساواة بين هذين النقيضين .. ثم يخرجون من هذا إلى الاتجاه إلى الله بالحمد على أن كشف لهم الطريق إليه ، وعرّفهم به ..

أما أهل الزيغ والضلال ، فإنهم لا يجدون فى هذا المثل شُعاعة من أضوائه ، بل يظلون على ماهم عليه من عمًى وضلال ..

— وفى قوله تعالى : « الحمد لله » إشارة إلى أن هذا هو منطق الذين يستمعون إلى هذا المثل ويعقلون ، فيؤمنون بالله ويحمدونه ..

* قوله تعالى : « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .. وهذا مثل آخر ، لِما بين الحق والباطل من تفاوت كبير ، وبُعد بعيد ..

هذان رجلان : أما أحدهما فأبكمُ ، مغلق الحواس ، والمشاعر ، والمدارك . لا يفهم شيئاً ، ولا يحسن شيئا .. إنه حيوان ، يُمسك به من مِقوده إلى حيث

يقاد .. وأما الآخر فعاقل رشيد ، حكيم ، يرتاد مواقع الخير ، ويلقى بشباكه فيها ، فتجيئه ملأى بكل طيب كريم . إنه على طريق مستقيم ، لا تزل قدمه ، ولا تتعثر خطاه ، ولا يضل به الطريق !

فهل يستوى الرجلان ؟ وهل هما فى ميزان الحياة ، وفى تقدير العقلاء ، على سواء ؟ ذلك ما لا يقول به عاقل ، ولا ينزل على حكمه إلا أحمق سفيه !

* قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير » .

ذلك هو ما يؤدّى إليه النظر فى هذين المثلين .. وهو أن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد وحده بجلاله ، وقيّومته على هذا الوجود .. لا يماثله شىء من خلقه ، ولا يوازن به كائن من مخلوقاته .. فله — سبحانه — غيب السموات والأرض .. يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيوفّى كل إنسان جزاء ما عمل .. وذلك فى يوم الحساب والجزاء ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

وهذا اليوم ، ليس ببعيد .. لا يحتاج مع قدرة الله إلى معاناة وجهد .. فما هو إلا أن يأذن الله به ، فإذا هو واقع فى لمحة كلمحة البصر ، أو أقرب .. « إن الله على كل شىء قدير » .

الآيات : (٧٨ — ٨٣)

* « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا

وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » (٨٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .. هو إلفات إلى قدرة الله ، وإلى مالهذه القدرة من سلطان حكيم ، وتصريف محكم .. ففى خلق الإنسان ، وفى أطواره التى مرّ بها ، ما يفتح للعقل كتاباً مبيناً ، يرى فى صحفه من مظاهر قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ، مايأخذ بالألباب ، ويأسر المشاعر ..

من أين جاء الإنسان ؟ وكيف كان هذا الكائن السميع ، البصير ، العاقل ، العالم ؟ ألم يكن نطفة ، ثم كان علقة ، ثم كان مضغة ، ثم جنيناً . . ثم طفلا ؟ ثم كيف بهذا الطفل ، الذى استقبلته الحياة أشبه بقطعة من اللحم المتحرك ، ثم هو يصبح هذا الإنسان الذى يقود سفينة الكوكب الأرضى ، ويقوم عليها خليفةً لله فيها ؟

— وفى قوله تعالى : « لعلكم تشكرون » توجيه للقوى العاقلة المدركة فى الإنسان أن تؤدى وظيفتها فيه ، وأن يفتح الإنسان منها طاقةً على هذا

الوجود ، فيرى ماالبسه من نعم الله عليه ، وإحسانه إليه ، فيحمده، ويشكر له ..

* قوله تعالى : « ألم يروا إلى الطير مسخراتٍ فى جوِّ السماء مايمسكهن إلا الله . . إنّ فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . . هو إشارة إلى آية من آيات الله ، خارج كيان الإنسان ، وعالمه الداخلى . . فإذا لم يكن فى الإنسان نظر يرى به ما بداخل كيانه ، كما يقول الله تعـالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٢١ : الذاريات) — فليُقِم نظره على هذا العـالم الخارجى . . وليوجه مدار نظره على هذا الطير السابح فى السماء ، الصَّافّ بأجنحته على هذا العالم الأثيرى ، وليسأل نفسه : من يمسك هذا الطير أن يقع على الأرض ؟ ومن أعطاه تلك القدرة التى يقهر بها جاذبية الأرض ، ويخرج بها عن سلطان هذه الجاذبية ، فلا يسقط كما يسقط الإنسان القوى العاقل إذا هوى من فوق شجرة ، أو دابة مثلا ؟ إن القدرة القادرة — قدرة الحـكيم العليم — هى التى تمسك بهـذا الطير السابح ، أو الصاف على موج الأثير . . فى جو السماء ! « ما يمسكهن إلا الله » .

أليس فى هذا آية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؟ بلى إنهـا لآية لقوم لايمـكرون بآيات الله ، ولايخونون أنفسهم بما تحدثهم به من الحق ، فينـكرونه فى عناد ومكابرة .

* قوله تعالى : « والله جَعَلَ لـكم من بيوتكم سكناً وَجَعل لـكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » ..

وإذا قَصُرت بعض الأنظار أن ترى مافى جوّ السّماء من طيور سابحة ، أو زاغت عن أن ترى وجودها الإنسانى ، وما بداخلها من آيات الله فيها ، فهذه آيات مبثوثة على الأرض .. لاتحتاج إلى نظر ، وإنما هى مما يمسك باليد ..

فهذه البيوت التى جعلها الله سَكناً للإنسان ، يأوى إليها ، ويجد فيها أُنْسَ النفس ورَوْح الروح ، بما يجتمع إليه فيها من زوج وَوَلد .. أليس هذا من نعم الخالق ومن سابغات أفضاله ؟ ثم هذه البيوت الخفيفة الحمل التى يتخذها الإنسان من جلود الأنعام ، أو مما على جلودها من أصواف وأوبار وأشعارٍ - أليست مما يسّرَ الله للإنسان ، ومكن له منها ؟

أفبعد هذا يجد العاقل متجهاً إلى غير الله ، يلوذ به ، ويُعطى ولاءه له ؟

* قوله تعالى : « والله جَعَلَ لكم مِمّا خلق ظلالاً وَجَعَلَ لكم من الجبال أكناناً وَجَعَلَ لكم سَرابيل تقيكم الحرّ وسرابيلَ تقيكم بأسكم كذلك يُتمُّ نعمته عليكم لعلكم تُسْلِمُون » ..أى ومن فضل الله على عباده أن جعل لهم - من غير صنعة منهم - ظلالا يستظلون بها من وقدة الشمس ، حيث يجدون هذه الظلال الفسيحة فيما أنبت الله من شجر ، كما جعل لهم - من غير عمل ولا جهد - أكناناً من الجبال ، يأوون إليها من البرد .. وذلك رحمة من رحمة الله بكثير من الناس الذين لايتسع حولهم أو حيلتهم ، لبناء البيوت ، وصَنعة المساكن .. كذلك من فضله سبحانه على عباده ، أن هيأ لهم أسباب العلم والمعرفة فنسجوا من الحرير ، والصوف ، والشعر ، والوبر .. وغيرها « سرابيل » أى ملابس يتسربلون بها ، ويغطون أجسادهم ، يتقون بها لفح الهجير ، ولذعة السموم .. ثم مكن لهم سبحانه ، من أن يتخذوا من الحديد سرابيل ، أى دروعاً يتقون بها عدوان بعضهم على بعض بالحراب والسيوف . .

وفى قصر منفعة السرابيل ، التى تتخذ لوقاية الجسم من عادية الحرّ ، على هذه المنفعة وحدها ، دون مايتخذ من الملابس لاتقاء البرد ، أو التجملّ والتزين - فى هذا إشارة إلى تلك المنفعة الخفية التى ربّما غفل عنها كثير من الناس ، حيث يحسبون أن اتقاء البرد ، هو الدافع الأول للإنسان على اتخاذ الملابس والأغطية

وقاية له .. وهذا وإن كان صحيحاً إلا أن اتقاء لفح الحرّ بالملابس لاتقلّ دواعيه عنها فى حال البرد. فإن لفح الهواجر، ولذعة السَّموم، تحرق الأجسام، وتشوى الوجوه، إن لم يتوقّها الإنسان بما يتسربل به ..

— وفى قوله تعالى: « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » الإشارة هنا، إلى تلك النعم السابغة الشاملة، التى تَلقَى الإنسان حيث كان، وتستقبله أنّى دعت حاجته إليها، وذلك مالا يُخلى إنساناً من واجب الشكر لله ذى الطول والإنعام ..

* قوله تعالى: « فإن تَوَلَّوْا فإنما عليك البَلَاغ المبين » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنها تعقب على تلك النعم التى أفاضها الله على عباده، ولم يحرم أحداً حظه منها .. وفى هذه النعم تتجلّى قدرة الله، وحكمته — فكان لقاء النبيّ قومَه بعد هذا العرض العظيم لآيات الله، وتذكيرهم بالله سبحانه، أنسَبَ الدواعى التى تدعو الإنسان إلى الله، وإلى الإيمان به .. فإن تولّى بعد هذا، فليس على الرسول إلا البلاغ المبين، وقد بلّغ الرسول أبين بلاغ وأوضحه ..

* قوله تعالى: « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » هو كشف عن هؤلاء المشركين، وما انطوت عليه نفوسهم من ضلال وظلام .. « يعرفون نعمة الله » ويشهدون آثارها فيهم وفيمن حولهم « ثم ينكرونها » ظلماً وبغياً. ومن نعم الله التى أنعم عليهم بها، هذا القرآن الكريم، الذى يعرفونه ويعرفون مافى آياته من حق وصدق .. ولكنهم يكابرون ويعاندون، فينكرونه، ويصمّون آذانهم عنه، ويغلقون قلوبهم دونه.

— وفى قوله تعالى: « وأكثرهم الكافرون » إشارة إلى ما استولى على قلوب الكثرة فيهم، من كفر صريح غليظ، كما يدل على ذلك تعريف الخبر

المحدَّث عنهم بالكفر.. بقوله تعالى : «وأكثرهم الكافرون».. أى الكافرون كفراً بالغاً الغاية التى ليس وراءها شىء منه..

الآيات : (٨٤ — ٨٩)

* «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» (٨٩)

التفسير :

* قوله تعالى : «وَيومَ نَبْعثُ من كلّ أمّةٍ شهيداً ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون».. هو وعيد للكافرين، ومايلقون يوم القيامة من ذِلّة وهوان، وما ينزل بهم من بلاء وعذاب.. ففى هذا اليوم تجىء كل أمة، ومعها رسولها الذى بُعث فيها، ليؤدّى فيهم الشهادة بين يدى الله، كما يقول سبحانه : «فلنسألنّ الذين أرسِل إليهم ولنسألَنّ المرسلين» (٦ : الأعراف) وكما يقول تعالى : «يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم» (٧١ : الإسراء).

— وقوله تعالى : « ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون » .. أى لايؤذن لهم بالكلام ، إذلالا لهم ، وكبتاً .. كما يقول سبحانه : « هذا يومُ لاينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون » أى ليقيم المذنب لنفسه عُذراً عما فعل من قبيح . والمراد بعدم الإذن لهم بالكلام هو فى تلك الحال التى يواجهون فيها رسلهم.. الذين يتكلمون .. أمامهم فيسمعون شهادة رسلهم فيهم دون أن ينطقوا بكلمة ، إذ ليس لهم كلمة يقولونها هنا ، بين يدى هذا الحق الذى تخرس معه الألسنة .

* قوله تعالى : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ، فلا يخفف عنهم ولاهم ينظرون » .أى حين يشهد الظالمون ، العذابَ ، ويستيقنون أنهم صائرون إليه ، يفزعون منه ، ويشتد بهم البلاء ، ويحيط بهم الكرب .. ولكن لامفزع لهم.. فذلك هو العذاب لذى أعدّ لهم ، ولن يُنظَروا ويُمهلوا ، بل يلقى بهم فيه قبل أن يَردّوا أبصارهم عنه .

* قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » .

هذا مشهد من مشاهدالقيامة . وفيه ، يُرى المشركون وقد دارت أعينهم تبحث عن طريق للنجاة ، من هذا البلاء المحيط بهم ، حتى إذا رأوا شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله تعلقوا بهم قائلين : « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك » .. إنهم هم الذين أضلونا ، ووقفوا فى طريقنا إليك . .

« فألقوا إليهم القول » أى رموهم بهذه الكلمات القاتلة التى قطعت هذا الحبل الذى تعلقوا به ، وظنوا أنهم ناجون . . « إنكم لكاذبون » أى إننا لم ندعكم إلى عبادتنا ، بل عقولكم الفاسدة ، هى التى أضلتكم ، وأرتكم منّا مارأيتم ، حتى جعلتمونا آلهة تُعبد من دون الله ..

*قوله تعالى : « وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ..»

أى حين أفلت من المشركين هذا المتعلق الكاذب الذى تعلقوا به ، وملأ اليأس قلوبهم ، أسلموا أمرهم لله ، وقد تخلّى عنهم ما كانوا يفترون على الله من أباطيل . .

* قوله تعالى : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » ـ وأولئك هم الذين كفروا بالله ثم لم يقفوا عند هذا الجرم الغليظ ، بل حالوا بين الناس وبين الهدى والإيمان ، فقعدوا لهم بكل سبيل ، وتسلطوا عليهم بكل سلطان ليردّوهم عن مورد الحق .. فهؤلاء لهم عذاب فوق العذاب الذى استحقوه بكفرهم .. وفى هذا يقول الله تعالى . « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » (١٣ : العنكبوت) .

ـــ وفى قوله تعالى : « بما كانوا يفسدون » بيان للسبب الذى من أجله ضوعف لهم العذاب ، وهو أنهم مع كفرهم بالله ، كانوا يفسدون فى الأرض ، ويفتنون الناس فى دينهم

* قوله تعالى : « ويوم نبعث فى كلّ أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتابَ تبياناً لكل شىء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين » . .

هو خطاب للنبىّ الكريم ، وبيان لموقفه من قومه يوم القيامة ، فهو الشهيد عليهم ، كما أن كل نبى سيكون شهيداً على قومه . .

ـــ وفى قوله تعالى : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » الإشارة هنا بهؤلاء ، تتجه أولا إلى أولئك المشركين ، الذين يتولّون كبر الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية ، ويحادّون الله ورسوله .. ثم إلى من بلغته الدعوة .

ـــ وقوله تعالى : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . .

هو بيان كاشف لاستحقاق النبي أن يقوم شاهداً على قومه ، وذلك لأنه قد جاءهم بالكتاب الذى تلقاه من ربّه ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه ، وليكون حَكَماً يحتكمون إليه ، ومنارَ هدى يهتدون به إلى الحق والخير ، وموردَ رحمة يستظلون به ، ويجدون الشفاء فى آياته وكلماته ، وبشير خيرٍ بما أعدّ الله المسلمين من حياة طيبة فى الدنيا ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم فى الآخرة ..

وخُصّ المسلمون بالذكر ، لأنهم هم أهل هذا الكتاب ، وهم المسمّون بالمسلمين ، كما يقول الله تعالى : « مِلّةَ أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قَبلُ » (٧٨ : الحج) فهم مؤمنون ومسلمون .. أما غيرهم من أتباع الرسل فهم مؤمنون أصلا ، مسلمون تبعاً .

[القرآن الكريم .. والحقائق الكونية]

هذا ، وقد أخذ بعض المفسرين من قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » أن القرآن الكريم يحوى فى آياته وكلماته علوم الأولين والآخرين ، ، وأنه خزانة المعارف كلها ، ماعرفت الإنسانية منها ومالم تعرف ، وجاءوا على هذا بشاهد آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى : « مافرّطنا فى الكتاب من شيء » (٣٨ : الأنعام) .. وهذا ماحدا بكثير من علماء المسلمين إلى أن ينظروا فى كتاب الله على أنه كتاب علمىّ ، يقرر حقائقَ علمية ، تكشف عن أسرار هذا الوجود ، وتحدّث عن القوانين المتحكمة فيه ، وخرّجوا على هذا كثيراً من الآيات الكريمة ، يقابلون بينها وبين ما كشف عنه العلم من أسرار الكون ، وقوانينه .

إن داء التحكك بالقرآن الكريم ، ومحاولة استخلاص علوم كونية ، وأسرار دفينة ـ داء قديم ، أصيب به كثير من الناس ، فانحرفت نظرتهم إلى كتاب الله

ونظروا إليه بعيون حولاء ، تذهب بآياته وكلماته مذاهبَ مختلطة إلى مقررات العلوم والفنون ، فتخرّجها عليها وتُلوى زمامها نحوها .. وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه ، فدخل منه كثير من أهل الأهواء والبدع ، يتأولون كلمات الله وآياته تأويلات فاسدة يدّعونها على القرآن ، ويقولون إنها من علوم الباطن التى احتواها كتاب الله واشتمل عليها ، والتى لا يعلم علمها إلا الراسخون فى العلم ! فـكان ذلك مدّعًى يدعيه كلّ ذى هوى يريد أن يَدْعَمَ مذهباً فاسداً ، أو ينتصر لفرقة مارقة .. وكان من ذلك مارأيناه فى تلك الفرق المنحرفة من فرق الشيعة والخوارج وإخوان الصفاء ، وغيرهم ممن تأولوا كلمات الله ، وصرفوا منطوق ألفاظها على غير ماوضعت له فى اللسان العربى ، الذى جاء عليه القرآن الـكريم ..

يقول الإمام الشاطبى : « إن كثيراً من الناس ، تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحدّ ، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين .. من علوم الطبيعيات ، والتعاليم ـ أى العـــلوم الرياضية ـ والمنطق ، وعلم الحروف ـ اليازرجة ـ وجميع مانظر فيه الناظرون ، من هذه الفنون وأشباهها ..

ثم يقول : « وربما استدلّوا على دعواهم بقوله تعالى : « ونزّلنا عليك الـكتاب تبياناً لـكل شيء ».. وقوله : « مافرّطنا فى الـكتاب من شيء » .. ونحو ذلك .. وبفواتح السور ـ وهى مالم يُعهد عند العرب ـ وبما نقل عن الناس فيها ، وربّما حكى ذلك عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وغيره ـ أشياء .. !

« فأما الآيات .. فالمراد بها عند المفسّرين ، مايتعلق بحال التـكاليف والتعبّد ، أو المراد بالـكتاب فى قوله تعالى : « مافرطنا فى الـكتاب من شيء » : اللوحُ المحفوظ ، ولم يذكروا فيهـا ـ أى التفاسير ـ مايقتضى تضمنه ـ أى القرآن ـ لجميع العلوم النقلية والعقلية .

« وأما فواتح السور ، فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً، كعدد الجُمّل الذى تعرفوه من أهل الكتاب ، حسب ماذكره أصحاب السير ، أو هى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك ، وأما تفسيرها بما لا عهد به ، فلا يكون »(١) .

هذا مايقرره الإمام الشاطبى فى جلاء لا يحتاج إلى تعقيب !

والذى يمكن أن نقوله ، هو أن القرآن الكريم هو مادة العلم ، ومائدة العلماء ، وأنه مادة لا تنفد أبداً بالأخذ منها ، بل تزداد على الأخذ وتعظم ، وأنه مائدة تسع الناس جميعاً ، وتغذّى عقولهم ، ومشاعرهم ، غذاء طيباً مشبعاً ، على اختلاف مداركهم ، وتباين مشاعرهم ..

وإن العلم هو الذى يجعل لنا نظراً كاشفاً لبعض مافى آيات القرآن الكريم من روائع وعجائب ، وإن العلم هو الذى يعين على فهم المستور من أسرار الكتاب الكريم ، وما أودع فيه من علم وحكمة ..

إن العلم ليلتقى مع القرآن الكريم لقاء الماء يدفع به السيل فى صدر المحيط ، فيذوب فيه ، ويصبح بعض مائه ، إذ ليس العلم كله ـ ماعرف الناس منه وما سيعرفون ـ إلا قطرةً أو قطرات من محيط هذا البحر الزخار ..

« قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربّى لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّى ولو جئنا بمثله مدداً » (١٠٩ : الكهف) .

فإذا انكشف للناس فى الحياة ضوءة من أضواء العلم ، فهى بعض مافى القرآن الكريم من علم ، إذ كان مجتمَع آياتِ الله ومكنون علمه .

هذا ، ومع قولنا بأن القرآن الكريم ، قد حملت آياته المطهرة ، أسراراً

---

(١) الموافقات للشاطبى : الجزء الأول : ص ٨١ .

عجباً ، تتكشف حالا بعد حال ، كلما جاء إليها الناس بمزيد من العلم والمعرفة ـ فإننا لانَعرِض القرآن الكريم على المخترعات العلمية ، ولا الآيات الكونية ، التى تنكشف للناس زمناً بعد زمن .. إذ ليس القرآن الكريم كتابَ علم يشرح للناس قضايا العلوم .. من طب ، وهندسة ، وفلك ، ورياضة وغيرها .. وإنما هو كتابُ عقيدة وشريعة ، يتجه أول مايتجه إلى ضمير الإنسان ، ليصحح صلته بخالقه ، ثم يقيم لهذه الصلة من التشريع ، مايمسك بها سليمة قوية فى كيانه .. فإذا تمّ ذلك ، صحح صلةَ الإنسان بالإنسانية ، ووضع لذلك من التشريعات مايقيم هذه الصلة بين الناس .. على أساس من الحق والعدل والإحسان ..

تلك هى المهمة الأولى للقرآن الكريم ، وقد انكشفت هذه الغاية من القرآن الكريم للمسلمين ، فى الصدر الأول للإسلام ، انكشافاً تامًّا ، فأخذوا حظهم كاملا منها ، على نحو لم يكن للخلف من بعدهم أن يبلغوا منه بعض مابلغوا ، على وجهٍ لم تشهد الحياة مثيلا له فى سموّ الإنسان وعظمته ، واستعلائه على كل ضعف بشرى ..

مهمة القرآن الكريم الأولى إذن ، هى أن يصنع هذا الإنسان المتكامل السوىّ فى مداركه ، وعواطفه ، ومشاعره .. أو بمعنى آخر هى أن يحفظ على الإنسان فطرتَه السليمة ، وأن يغذيها بهذا الغذاء السماوىّ ، الذى يقيمها على طريق الحق ، والعدل ، والإحسان . ثم يدع لهذا الإنسان وجودَه هذا ، يتعامل به مع الوجود كله ، فينظر فيه بعينه ، ويفكر فيه بعقله ، ويقطف من ثماره ماتطول يده ، ويبلغ عزمه ، وصبره ، وجَهده ..

هذا هو الإنسان الذى يتربّى فى حجر القرآن ، ويغتذى من أنواره .. هو الإنسان الذى يتقدم ركب الإنسانية فى عصره الذى يعيش فيه .. فإذا تخلف عن مكان القيادة والصدارة ، لم يكن هو الابنَ الذى ينتسب إلى القرآن ، ويُحسب على الإسلام .

إن القرآن الكريم ، لم يكن كتاباً قد جاء بمقررات علمية ، تشرح حقائق العلوم ، وتكشف أسرار الوجود ، وتضع فى أيدى الناس مفاتح هذه الأسرار . ولو كان هذا من تدبير القرآن ، ومن غاياته ، لما جاء على هذا الأسلوب ذى الرنين النفاذ والإشعاع اللماح من النظم ، بل لجرى على ذلك الأسلوب العلمىّ ، الذى تبرز فيه الحقائق العلمية مضغوطة فى قوالب من اللفظ ، أشبه بالأرقام الحسابية ، التى لايختلف عليها أحد ، ولا تكتم عن أحد شيئاً وراءها ..

ولو كان ذلك من شأن القرآن ، لما كان معجزة الدهر الخالدة ، ولأخذ الناسُ منه كل مافيه ، لأول عهدهم به ، ثم لم يطلعوا إلى جديد غيره ، شأن الكتب العلمية ، التى تعيش فى الناس زمناً ، ثم لايكادون يلتفتون إليها بعد هذا .

ولو كان ذلك من شأن القرآن أيضاً لكان ذلك داعيةً من دواعى التخدير العقلى للإنسان ، والتحريض له على الاستنامة فى ظل هذا الغذاء الممدود له على مائدة مهيأة ، لم يعمل لها ، ولم يسع إليها .. الأمر الذى يقطع الصلة التى أراد القرآن أن يقيمها بين أتباعه وبين هذا الوجود أبَدَ الدهر ، ينظرون فيه نظراً مجدداً ، ويطالعون فى صحفه آيات الله وكلماته التى لاتنفد أبداً ..

إنه ليس هذا من شأن القرآن أبداً ، ولا من تدبيره بحال .. فإن دعوة القرآن ، هى إيقاظ مشاعر الإنسان ، وتنبيه ملكاته ، وتوجيه نوازعه وسلوكه إلى العمل فى طريق مستنير ، واضح ، مستقيم ..

ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم متجهة إلى القلب أولا .. إلى المشاعر ، والوجدانات ، والأحاسيس المائجة فيه ، المتقلبة بين صفو وكدر ، وبين نور وظلام ، فإذا أصابها قبس من نور الحق الذى نزل به القرآن ، سَكَنَ مائجها ، وصفا

كدرها ، وانجلى ظلامها ، وأصبح الإنسان وقد اطمأن قلبه ، وعَمَرت بالحق جوانبه ، وخلت من وساوس الضلال نوازعه ..

إن القرآن الكريم ، هو شريعة ووازع معاً ، هو قانون ، وهو فى الوقت نفسه السلطان الذى يقيم أحكام هذا القانون .. أو هو بلغة العصر هو سُلطات : تشريعية ، وقضائية ، وتنفيذية .. جميعا ..

وبالكلمة ، وبالكلمة وحدها ، جاء القرآن ، ليقيم فى كيان المسلم قانوناً يدركه بعقله ، ويحتكم إليه بقلبه ، ويُمضيه بوجدانه ، وينفّذه بجوارحه .. ولن يكون ذلك للكلمة إلا إذا كانت كلمةَ الله ، كلمةَ القرآن ، التى تملك بسلطانها الإنسان كله : عقلَه ، وقلبه ، وضميره .. !

وننتهى من هذا إلى القول بأن القرآن الكريم ، هو تبيان لكلّ شىء ، كما وصفه تبارك وتعالى ، وأنه كما يقول الحق جلّ وعلا فيه : « مافرطنا فى الكتاب من شىء » .. ولكن لابما تحمل آياته وكلماته من حقائق علمية ، يجدها الناظرون فى منطوق تلك الآيات وهذه الكلمات ، أو فى مفهومها ــ وإنما بما تنير هذه الآيات وتلك الكلمات من بصائر ، وبما تكشف من عمًى ، وبما تمكّن للإنسان من قوى روحية وعقلية يستطيع بها أن يثبّت قدمه على طريق الحقّ ، ويتهدّى بها إلى مواقع الخير ..

فالإنسان الذى يعرف ربّه مهتدياً بهدى القرآن ، مستضيئاً بنوره ، هو إنسان قد عرف كلّ شىء يستطيع أن يبلغه العقل الإنسانى فى أعلى مستوياته ، وأرفع منازله .. فإذا بلغ الإنسان هذه المنزلة ، وارتفع إلى هذا المستوى كانت آيات الله وكلماته فى كتابه الكريم ، هى الوجود كله ، وكان الوجود بين يديه صفحاتٍ يقرأ فيها مايفتح الله له من أبواب العلم والمعرفة ..!

فهذا القصور العلمى الذى نحن فيه ، وهذا التخلف الاجتماعى الذى يضع

المجتمع الإسلامى فى مؤخرة العالم الإنسانىّ ـ هو نتيجة لازمة لانفصالنا عن هذا الدستور السماوى، الذى أمرنا الله باتباعه، ووعدنا الحياة الطيبة الكريمة فى ظله ..
ففى كتاب الله مفاتح العلم كلّها ، بما يفتح من بصائر ، وما يشرح من صدور ، وما يَعْمُر من قلوب ، وما يشيع فى النفوس من سلام ، ورضًى وطمأنينة ، وبهذا يقف الإنسان من هذا الكون وقفة خبير بصير ، وينظر إليه نظرة متوسّم دارسٍ ، يربط المسببات بالأسباب ، ويصل المعلولات بالعلل ، فإذا هذا الوجود وحدة متماسكة متناغمة ، يجتمع قريبها إلى بعيدها ، ويلتقى علوها مع سفلها ، بيد القدرة القادرة ، وتدبير الحكمة العالية .. « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خَلَق الموتَ والحياة ليبلُوَكم أيُّكُمْ أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سمواتٍ طباقاً ماترى فى خلق الرحمن من تفَاوُتٍ فارجع الْبَصَر هل ترى من فطور * ثم ارجع الْبَصَر كرّتين ينقلِبْ إليك الْبَصَرُ خاسئاً وهو حسيرٌ » !

والنظر الذى يدعو إليه القرآن الكريم ، ويوجهه إلى هذا الوجود ، ليس نظراً حالِماً مستسلماً لتلك المشاعر الغافية ، التى تُهَدْهِدُها نغمات الجمال والانسجام التى تتجلى فى صفحة الكون ، فذلك نظرٌ سَلْبى لايغنى من الحقّ شيئاً .. إنه أشبه بأحلام اليقظة ، وخيالات الشعراء .. وإنما الذى يدعو إليه القرآن الكريم، هو النظر اليقظ الجادّ ، الباحث عن الحقيقة ، فى أعماق الأشياء ، وإن صحبه فى ذلك مايصحبه من مشاعر الجمال والجلال ، فذلك هو الذى يشوقه إلى الحقيقة ، ويغريه بالبحث عنها والتعامل معها ، فيكون له من تلك المشاعر قوًى تعينه على البحث والدرس ، وتخفف عنه معاناة التأمل والتخيل .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «إن فى خَلْق السّموات والأرض وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكّرونَ فى خَلْق السّمٰواتِ

والأرضِ ربنا ماخلقتَ هذا باطلا سُبحانَك فقنا عذاب النار » .. فمن ثمرة هذا النظر الذى ينظر به أولوا الألباب فى خلق السموات والأرض ، هى تلك الحقيقة التى إليها يؤدى هذا النظر ، وهو التعرف على الله سبحانه وتعالى ، والاستدلال على وحدانيته ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وأن هذا الوجود ما خُلق إلا بالحق ، وما قام إلا على سُنَنٍ وقوانين تمسك به ، وتحفظ عليه وجوده ونظامه ..

الآيات : (٩٠ — ٩٧)

* « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٩٧)

التفسير:

* قوله تعالى: « إن الله يأمُرُ بالعدل والإحْسَانِ وإيتاءِ ذى القُرْبى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها، هى أنه وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة: « ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكلّ شىء وهدًى ورحمة وبشرى للمسلمين » ناسب أن يجىء بعدها بيان لما فى القرآن الكريم من تِبيانٍ لكل شىء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين.. وهذا ما ضمت عليه هذه الآية: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان.. »

فما فى القرآن الكريم كله، هو دعوة إلى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، ونهىٌ عن الفحشاء والمنكر والبغى..

فالعدل هو القيام على طريق الحق فى كل أمرٍ. فمن أقام وجودَه على العدل استقام على طريق مستقيم، فلم ينحرف عنه أبداً، ولم تتفرق به السبل إلى غايات الخير..

ومن أتبعَ العدلَ بالإحسان، نما الخير فى يده، وطابت مغارسه التى يغرسها فى منابت العدل..

وقد جاء الأمر بالعدل والإحسان مطلقاً، ليحتوى العدلَ كله، ويشمل الإحسان جميعه.. فهو عدل عام شامل.. حيث يعدل الإنسان مع نفسه، فلا يجور عليها بإلقائها فى التهلكة، وسوقها فى مواقع الإثم والضلال.. ويعدل

مع الناس فلا يعتدى على حقوقهم ، ولا يمدّ يدَه إلى ماليس له . ويعدل مع خالقه ، فلا يجحد فضلَه ، ولا يكفر بنعمه ، ولا ينكر وجودَه وقَيّومَتَه عليه ، وعلى كل موجود ..

كذلك الإحسان ، هو إحسان مطلق ، يتناول كل قول يقوله الإنسان ، وكل عمل يعمله .. وإحسان القول أن يقوم على سَنَن العدل ، والحق والخير .. وإحسان العمل ينضبط على موازين الكمال والإتقان .. كما يقول سبحانه : « وأحسنوا إن الله يحبّ المحسنين » (١٩٥ : البقرة) .

بل إن الإحسان ، هو الإيمان بالله على أتم صورة وأكملها ، بحيث لا يبلغ درجة الإحسان ، إلا من عبد الله على هذا الوجه الذى بينه الرسول الكريم ، فى قوله حين سأله جبريل ، وقد جاء على صورة أعرابى ، فقال : « ما الإحسان ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. »

— وقوله تعالى : « وإيتاء ذى القربى » هو عدل وإحسان معاً .. والإيتاء هو الإعطاء ، وفعله آتى ، بمعنى أعطى .. ولا يستعمل الإيتاء إلا فى مقام البرّ والإحسان .. والبر بذى القربى هو عدل ، لأنه وفاء لحق القرابة ، وهو إحسان إذا قدمته النفس فى سماحة ورضًى .

— وقوله تعالى : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » هو نهى عن محظورات ، فى مقابل ما أمر الله به من عدل وإحسان ، وبرٍّ بالأقارب . . وفى توارد الأمر والنهى على أمرٍ من الأمور ، توكيد للإتيان بالمأمور به ..

فالفحشاء ، ماقبُح من الأمور ، وعلى رأسها « الزنا » .. وإتيان الفاحشة ظلم للنفس ، وعدوان على حرمات الناس .. وفى هذا مجافاة للعدل . .

والمنكر ، كل ماتنكره العقول السليمة على من يفعله . . سواء أكان

قولا أو فعلا . . ولا يكون هذا إلا بالتخلى عن الإحسان فى القول أو العمل . .

والبغى : الجور ، والظلم ، وهضم الحقوق . وهو مجانب للعدل والإحسان معاً . .

— وقوله تعالى : « يعظكم لعلكم تذكرون » هو تنبيه لما تحمل آيات الله للناس من آداب . وأحكام ، تدعو إلى الحق ، والخير ، وتذكّر بهما ، وتفتح للعقول الراشدة والقلوب السليمة طريقاً إليهما . .

وهذه الآية الكريمة ، تجمع أصول الشريعة الإسلامية كلها .. فهى أقرب شىء إلى أن تكون عنواناً للرسالة الإسلامية ، ولكتابها الكريم ، إذ لا تخرج أحكام الشريعة وآدابها عن هذا المحتوى الذى ضُمت عليه تلك الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . وما فى كتاب الله كله هو شرح لما أمر الله سبحانه به من العدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغى .

* قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون » .

العهد : الميثاق ، يكون بين الناس والناس ، أو بين الناس ورب الناس ..

وعهد الله . . هو العهد الذى يوثّق باسمه ، ويقام تحت ظل سلطانه . .

ونقض العهد : نكثه ، وعدم الوفاء به . .

والكفيل : هو الضامن لما كَفَل من عهد .

ومعنى الآية الكريمة ، هو أمر ملزم المؤمنين بالله بالوفاء بعهد الله ، الذى وثّقوه باسمه ، وجعلوه كفيلا وضامناً لما عاهدوا عليه . . إذ كان باسمه تعالى

أمضى للتعاهدان ماتعاهدا عليه . . فأعطى أحدهما ماتعهّد به وعداً ، وأقام اسم الله تعالى كفيلا على هذا الوعد ، وقَبِلَ الآخر ما أعطى الأول ، مطمئناً إلى كفالة الله ، وإلى أن صاحبه لن يخون عهد الله !

وإنه لجرمٌ عظيم أن يُعطى الإنسان عهداً باسم الله ، ويتخذ من هذا الاسم الكريم مدخلا إلى ثقة الناس به ، واطمئنانهم إليه ، ثم يكون منه غدر وخيانة ! إنه عدوان على الله ، ومخادعة باسمه ، وسرقة تُحت ستارٍ من جلال الله وخشيته . . ! وتلك جرأة على الله ، واستخفاف بقدره ، وليس لمن يتعرض لهذا ، إلا أن ينتظر مايحلّ به من غضب الله ونقمته .

— وفى قوله تعالى: « إن الله يعلم ماتفعلون » تحذير من نكث العهد ، ومن التلاعب باسم الحق جل وعلا . . فهو — سبحانه — يعلم من بفى بعهده ، ويعرف لاسمه الكريم جلالَه ، ومن لايوقّر الله ، ولا يحفِل بالعهد الذى قطعه ، وأشهد الله عليه . . والله ـ سبحانه ـ غيور على حماه أن يُستباح . . فمن استباحه ، فقد أورد نفسه موارد الهالكين . .

* قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم أن تكون أمةٌ هى أَرْبَى من أُمةٍ إنما يبلوكم الله به ولَيُبَيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

الغزْل : مايُغزل من صوف ، وغيره . . ونقض الغزل : حلّه بعد فتله وغزله ، فيتقطع ، ويتفتت ، ولا يعود إلى مثل حالته الأولى لوأعيد غزله ، كشأن من يبنى ثم يهدم مابنى . . فلو أراد أن يبنى بما هدم ، لايستقيم له بناء . .

والأنكاث : جمع نِكث ، وهو مايكون من خيوط النسيج بعد نقضها ، لإعادة غزلها ونسجها ، بعد أن تصبح قطعاً مهلهلة .

الدَّخل : الفساد . والأمة : الجماعة . وأربى : أكبر قوة ، وأكثر عدداً .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يُعطون العهدَ باسمه تعالى ، ثم ينقضون ماعاهدوا عليه . . فهؤلاء هم أشبه بامرأة خرقاء ، تغزل غزلا محكماً ، ثم تعود بعد هذا فتنقض ماغزلته ، وأجهدت نفسها فيه .. وهذا لا يكون من عاقل ، يحترم عقله ، ويعرف لآدميته قدرها .. وهؤلاء الذين أعطوا العهد باسم الله ثم نقضوه ، كانوا قد أحكموا أمرهم ، ووثقوه ثم أفسدوه ، وأحلوا أنفسهم من هذا الميثاق الذى واثقوا الله عليه . .

— وقوله تعالى : « تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم » جملة حالية . . فهم إذ يتخذون أيمانهم التى يوثّقون بها العهود بينهم . ثم ينقضونها — هم أشبه بتلك المرأة التى تغزل غزلا ، ثم تعود فتنقضه ، قبل أن تنسجه ، وينتفع به !

وقوله تعالى : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » هو تعليل لنقض العهد ، واتخاذ الأيمان ذريعةً للإفساد ، وتلبيس الأمور على الناس ، وذلك أن هذا النكث بالعهد كان ممالأة لجماعة قوية على حساب جماعة ضعيفة . أى أنكم تتخذون أيمانكم التى لاتبرّون بها ، للإفساد ؛ لا للإصلاح ، حين تميلون عن الحق ، وتنحازون إلى جانب الأقوياء ، فتنقضون العهد الذى كان بينكم وبين الجانب الضعيف ، لتتحولوا بذلك إلى الجانب القوىّ .

وهذه الآية خاصة بحال من أحوال نقض العهد ، وهى تلك الحال التى يكون الداعى فيها إلى نقض العهد هو الميل إلى جانب الأقوياء ، والتخلّى عن جانب الضعفاء ، وذلك بأن يكون الناقض للعهد ، بينه وبين جماعة عهد موثق ، فإذا رأى جماعة أخرى ذات شوكة وقوة انضمّ إليها ، ونقض عهده الذى كان بينه وبين الجماعة الضعيفة ، غير ملتفت إلى هذا العهد الذى بينه وبينها .

أما مايتصل بنقض العهود عامة ، فقد جاء فى قوله تعالى بعد هذه الآية : « ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلا بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها . . . الآية » .

— قوله تعالى : « إنما يبلوكم الله به » .. الضمير فى به ، يعود إلى « عهدالله » الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » .. أى أن هذا العهد يقطعه المرء على نفسه ، ويجعل الله كفيلا عليه فيه ـ هذا العهد ، هو ابتلاء من الله ، وأمانة من الأمانات التى يطالب الإنسان بصيانتها والوفاء بها .. فمن وفّى بالعهد فقد أبرأ ذمته ، واستحق الجزاء الحسن من ربه ، ومن نكث ، فهو غريم لله سبحانه وتعالى ، وسيقتصّ الله منه .

قوله تعالى : « وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .. هو معطوف على محذوف تقديره : « ليعلم » . ومعنى الآية مرتبط بالآية قبلها ، والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى،إنما ابتلاكم بهذا التكليف ، وهو الوفاء بالعهود ، ليعلم المفسد من المصلح ، والناكث للعهد والمُوفِى به ، وليبين لكم يوم القيامة هذا الذى أنتم مختلفون فيه ، بين مفسدٍ ومصلح ، وعاصٍ ومطيع ، وناقض للعهد ، ومُوفٍ به .

* قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتُسألُنّ عما كنتم تعملون » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » — أى هذا الخلاف الواقع بين الناس ، هو مما قضت به حكمة الله فيهم .. فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، تجرى أمورهم جميعاً فيها على نمط واحد ، كما هو شأن الأمم الأخرى من عالم الحيوان ، لا اختلاف بين أفراد الأمة الواحدة منها ، فى سلوكها ، وفى منازع حياتها ، وأسلوب معيشتها ، حيث تسير جميعاً فى طريق واحد ، وعلى اتجاه واحد ، لايشذّ عنه فرد من أفرادها..وليس كذلك شأن الناس ، فكل فرد ، هو أمة فى ذاته. له مدركاته ، ومشاعره ، وأنماط سلوكه .. بحيث لا يكاد يتشابه إنسان بإنسان ، أو يلتقى

إنسان مع إنسان ، لقاء مطلقاً ! وفى هذا يقول الله تعالى : « ولو شاء ربُّك لجعل الناسَ أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحِمَ ربّك . ولذلك خلقهم » (١١٨ : ١١٩ هود) .

على أن اختلاف الناس هذا الاختلاف الذى لايتشابه فيه إنسان مع إنسان ، ليس بالذى يفرّق بينهم ، أو يقطع علائق الإنسانية التى تشدّ بعضهم إلى بعض ، وتجمع بعضهم إلى بعضٍ ، فهم وإن تفرقوا مدركاتٍ ، وطبائعَ ، ومنازع ، واختلفوا مشاربَ ومسالكوسُبلاً ـ هم مجتمعون على مورد الإنسانية ، حيث يجتمعون شعوباً ، وقبائل ، وأمماً .. ثم تضيق شقّة الخلاف بينهم شيئاً فشيئاً ، حتى تـكون خطاً واحداً يفصل بين المجتمع الإنسانىّ كله ، ويجعله فريقين : مؤمنين وكافرين . . مهتدين وضالين . حتى لـكأن ذلك فى أصل خِلقتهم ، كما يقول الله تعالى : « هو الذى خلقـكم . . فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .

— وقوله تعالى : « ولـكن يُضل من يشاء ويهدى من يشآء » .. هو بيان لمشيئة الله الشاملة ، التى إليها إضلال الضالين ، وهداية المهتدين ..

— وفى قوله تعالى : « ولتُسألُنَّ عما كنتم تعملون » تحريك لمشيئة الإنسان وإرادته ، مع إرادة الله سبحانه ومشيئته .. وذلك حتى لايعطل الإنسان وجوده كإنسان له إرادة ، وله مشيئة .

فمطلوب من الإنسان أن يُعمل إرادته ومشيئته ، وأن يُحركهما فى الاتجاه الصحيح الذى يقضى به العقل ، وتدعو إليه الشرائع السماوية ، وتحدده القوانين الوضعية . .

وكما لايُعْفى الإنسانُ نفسَه من التحلل من القوانين الوضعية ، بل يعمل على حراسة نفسه من الخروج عليها ، ويحذر الوقوع تحت طائلة العقاب المرصود له

إن هو خرج عليها ـ كذلك ينبغى ألا يُعفى نفسه من التحلل من القوانين السماوية، بل يجب أن يعمل على حراسة نفسه من الخروج عليها ، ويحذر الوقوع تحت طائلة العقاب المرصود له إن هو خرج عليها .. فهذا من ذاك .. سواء بسواء ..

إن الإنسان مسئول عن تصرفاته كإنسان رشيد ، وليس من شأنه أن يسأل الله سبحانه وتعالى عن مشيئته فيه ، ومايريده به .. فذلك إلى الله وحده .. يقضى فيه بما يشاء ويريد .!

* قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها وتذوقوا السُّوء بما صَدَدتم عن سبيل الله ولكم عذابٌ عظيم » ..

هو توكيد للوفاء بالعهود والمواثيق التى أعطيت باسم الله ، وتحذير من الاستخفاف بجلال الله الذى أُشهد على هذه العهود والمواثيق .. فإنّه لايجرؤ على النكث بعهد الله إلا من استخفّ بالله ، واتخذ من اسمه الكريم وسيلة يتوسّل بها إلى الغدر بالناس ، وأكل أموالهم بالباطل .. وذلك إن لم يكن كفراً صريحاً ، فإنه مدخل واسع إلى الكفر !

— وفى قوله تعالى : « فتزلّ قَدَم بعد ثبوتها » إشارة إلى أن الاستخفاف باسم الله ، ونقض العهد الموثّق باسمه ، هو مَزْلقٌ إلى الكفر ، حيث ينزلق الإنسان شيئاً فشيئاً إليه ، فتزل قدمه عن طريق الحق ، فإذا لم ينتزع نفسه ، مما وقع فيه ، مضى به الطريق إلى حيث يضع قدميه جميعاً على طريق الضلال .. ثم يمضى فيه إلى غايته .. وهذا مايشير إليه الحديث الشريف : « وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار . . وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ..

— وقوله تعالى : « وتَذُوقُوا السُّوءَ بما صَدَدْتُم عَنْ سَبِيلِ الله وَلكم عَذَابٌ عَظِيم » هو بيان للنهاية التى تنتهى إليها حال من يستخفّ باسم الله ، حتى

لايبالى بما يُعطى أو يأخذ به .. كاذبا ، حانثا .. فمثل هذا الإنسان لابد أن يَرِدَ يوما موارد الكفر ، ويتحول من الإيمان بالله ، إلى الكفر به ، إذ صدّ عن سبيل الله الذى كان قائما عليه ، وولى وجهه نحو الضلال ، وثبت أقدامه عليه .. وليس لمثل هذا الإنسان إلاّ أن يذوق السوء والهوان فى الدنيا ، والعذاب العظيم فى الآخرة ..

* قوله تعالى : « وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَنًا قليلا إنَّمَا عِنْد الله هُوَ خيرٌ لَكُمْ إن كنتم تعلمون * مَا عِندكم يَنفَدُ ومَا عِنْد الله باقٍ ولنجزينّ الذين صَبَرُوا أجرَهُمْ بأحْسَنِ مَا كانوا يَعْملون » .

هو تحذير ، بعد تحذير ، بعد تحذير ، من الاستخفاف بعهد الله ، وبالأيمان التى يَحلف بها الحالفون باسمه .. إذ أن مايبتغيه الناكثون لعهد الله ، والحانثون بيمينه ، هو التوسل إلى الحصول على متاع من متاع هذه الحياة الدنيا بغير حق .. وهذا المتاع وإن كثُر ، هو إلى زوال ، وهو قليل إلى مايعقِب من خسرانٍ وحسرة وندامة فى الدنيا والآخرة .. فلو أن الإنسان الذى أعطى عهداً باسم الله ، حفظ هذا العهد ، ووقّر الله فلم يحنث بيمينه ، ووطن نفسه على الصبر إزاء هذا المتاع الزائل الذى يَلُوح له من وراء الحنث بيمينه ـ لوأنه فعل هذا لوجد عاقبة ذلك خيراً كثيراً ، وجزاءاً حسناً جزيلا عند الله ، ولتقبّل اللهُ تعالى منه هذا العمل الطيب ، وجعله له عُدّة فى الدنيا ، وزاداً كريما طيبا فى الآخرة ، لايخالطه خَبَثٌ مما عمل من سيئاتٍ ، كما يقول الحق جلّ وعلاَ : « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسنَ ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة » (١٦ الأحقاف) .

* قوله تعالى : « مَن عَمِل صَالحا من ذَكَرٍ أو أنثى وهُوَ مؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيبةً ولنجزينهم أجرهُمْ بأحسنِ ما كَانوا يعملون » .

هو حكم عام بالجزاء الحسن على العمل الصالح مطلقا ، بعد الحكم الخاص بالجزاء الحسن على الوفاء بالعهد ، والصبر على احتمال تبعات الوفاء به ..

فالأعمال الحسنة جميعها مقبولة عند الله ، سواء ما كان منها من قول أو عمل ، سواء أكانت صادرة من ذكرٍ أو أنثى من عباد الله .. فالناس جميعا على اختلاف أجناسهم ، وتباينِ صورهم وأشكالهم ، سواء عند الله ، يخضعون لقانون سماوى عام ، لامحاباة فيه ، ولا تفرقة بين إنسان وإنسان.. إلا بالعمل ..

وقد خُصّ الذكر والأنثى بالذّكر هنا ، لأنهما يمثلان جانبي الإنسانية كلها ، إذ كانا مصدر المجتمعات الإنسانية كلها .. كما يقول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » (١٣ : الحجرات) .. ومن جهة أخرى ، فإنه إذا كان الاختلاف النوعيّ بين الذكر والأنثى أمام القانون السّماوى على منزلة سواء ــ كانت التسوية بين الناس جميعا أمام هذا القانون أحق وأولى ..

وقوله تعالى : « وهو مؤمن » جملة حالية ، وهذه الحالة قيد واقع على الشرط الذى لايتحقق جوابه إلا وهو مقترن بهذا القيد .. فالإيمان شرط لازم لقبول العمل الطيب ، والجزاء عليه .. وكل عمل لايسبقه إيمان بالله ، هو عمل ضالّ ، مردود على صاحبه .. لأنه قدّمه غير ناظر إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا محتسبٍ له أجراً عنده ، إذ كان غير معترف بوجوده .. فالعمل الصالح الذى لايزكيه الإيمان بالله ، أشبه بالميتة التى لم تدركها زكاة بالذبح ، ويذكر اسم الله عليها ..

وقوله تعالى : « فلنُحْيِيَنّه حياةً طيبةً » .. المراد بالحياة ، هى الحياة الدّنيا ، وطيب هذه الحياة يجىء من نفحات الإيمان بالله ، تلك النفحات التى تُثلج الصدر بالطمأنينة ، والرضا ، وتدفىء النفس بالرجاء والأمل ، بتلك القوة التى لاحدود لها ، والتى منها مصادر الأمور ، وإليها مصائرها .. وذلك كلّه من

عاجل الثواب الجزيل الذى أعدّه الله لعباده المؤمنين ، كما يقول تبارك وتعالى : « من كان يريد ثوابَ الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ..» (١٣٤ : النساء)

— فى قوله تعالى : « ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون » اختلف النظم هنا بعودة الضمير جمعا على أداة الشرط « من » بعد عودته عليها مفرداً فى قوله تعالى : «فلنحيينه حياةً طيبةً » ، وذلك ليتحقق أولا لكل من جنسى الذكر والأنثى هذا الحكم ، فإذا تقرر ذلك ، وعرف كل منهما أنه مجزىّ عن عمله ، بلا تفرقة من حيث النوع ـ عاد الضمير إلى من يشملهم الجنسين ممن يعملون الأعمال الصالحة ..من الناس جميعًا .

الآيات : (٩٨ — ١٠٢)

* « فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » (١٠٢)

التفسير :

* قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآية السابقة جاءت بوعدٍ كريم من رب كريم ، لعباده الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ، بأن لهم حياةً طيبةً فى الدنيا ، وأجرًا عظيمًا فى الآخرة ـ فناسب ذلك أن يُقَدّم للمؤمنين دستورَ

إيمانهم ، وكتابَ شريعتهم ، وهو القرآن الكريم ، وأن يُدْعَوْا إلى تلاوته ، ومدارسته ، وتلقِّى أصول الإيمان ، وشريعة العمل .. من آياته وكلماته . .

ومن آداب تلاوة القرآن ، أن يَستفتح التالى تلاوته بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . . وذلك أن قارئ القرآن إنما يلتقى بالله عن طريق كلمات الله التى يتلوها .. وإذ كان هذا شأنه ، فقد كان من المناسب فى هذا اللقاء الكريم أن يُخلى نفسه من وساوس الشيطان ، ومن كل داعية إليه ، وأن يَرجُم الشيطان بمشاعر الإيمان التى يستحضرها وهو يتهيأ للقاء الله مع كلمات الله . . ثم يستعين على ذلك بالله ، فيدعوه متعوّذاً به من هذا الشيطان الرجيم ، الذى رجمه الله سبحانه بلعنته ، وطرده من مواقع رحمته ..

فالدعوة إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، فى هذا الموقف الذى يقف فيه الإنسان بين يدى كلمات الله ، هى فى الواقع دعوة إلى إعلان الحرب من داخل الإنسان على هذا الشيطان ، الذى يتربص بالإنسان ، ويقعد له بكل سبيل . . وبهذا يُقبل قارئ القرآن على آيات الله بقلب قد أخلاه لها من كل وَسواس . . وبهذا أيضاً تؤثر كلمات الله أثرها الطيب فيه ، فينال ماشاء الله أن ينال من ثمرها المبارك .

* قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » — هو تعليل لتلك الدعوة إلى الاستعاذة من الشيطان الرجيم عند الاستفتاح بتلاوة القرآن الكريم . . وذلك أن الإنسان إذا ذكر الله ، واستشعر جلاله وعظمته، ولجأ إليه ، مستعيذاً به من وساوس الشيطان ، وكيده ، ومكره — إنه إذا فعل الإنسان ذلك فرّ الشيطان من بين يديه ، ونكص على عقبيه مستخزياً ذليلا ، ولم يكن له ثمّة سلطان عليه حينئذ ، لأنه أصبح بذلك من عباد الله الذين يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « إن عبادى ليس لك عليهم

سلطان » (٦٥ : الإسراء) . . وعباد الله ، هم الذين يتعاملون مع الله ، ويعادون عدوّ الله .

* قوله تعالى : « إنما سلطانه على الذين يتولّوْنه والذين هم به مشركون » . . الذين يتولون الشيطان هم الذين يُوالونه ، ويُسلمون إليه زمام أمرهم ، فلا ينظرون إليه نظر العدوّ المتربص بهم ، ولا يلقوْن كيده ، ومكره بأى شعور محاذر منه . . فهؤلاء هم أولياء الشيطان . . وهؤلاء هم الذين أصبحوا رعيّةً للشيطان ، يتسلط عليهم كيف يشاء ، ويسوقهم إلى المرعى الذى يريد . . وهو مرعًى وبيل . . لا ينبت فى أرضه إلا الخطايا والآثام . .

— وفى قوله تعالى : « والذين هم به مشركون » ـ الباء فى « به » للسببية ، والضمير يعود إلى الشيطان . . والمعنى أن الشيطان إنما يتسلط بسلطانه على من يستسلمون له ، ويتخذون وليًّا من دون الله ، ويصبحون بسبب هذا الولاء له ، من المشركين بالله . لأنهم عبدوا الشيطان من دون الله .

* قوله تعالى : « وإذا بدّلنا آيةً مكان آيةٍ والله أعلم بما يُنزِّل قالوآ إنما أنت مُفْترٍ . . بل أكثرهم لا يعلمون » .

[مع النسخ . . مرة أخرى]

أكثرُ المفسرين على أن الآية الكريمة نصٌّ فى تقرير النسخ فى القرآن ، وتبديل آية بآية . . ولهم على ذلك كلمة « بدّلنا » التى تدل على التبديل ، وإحلال آيةٍ مكان آية . . ثم قوله « والله أعلم بما ينزل » فيه قرينة دالة على أن التبديل واقع فى المنزَّل من عند الله ، وهو القرآن . . ثم مايظاهر هذا من قوله تعالى : « ما نَنسَخْ من آية أو نُنسِها نأت بخير منها أو مثلها » . . فهذه

الآية جاءت صريحة بلفظ النسخ ، على حين جاءت الآية السابقة بلازم النسخ ، وهو تبديل آية بآية ..!

ثم إنهم — بعد هـذا ، أو قبل هذا — يأتون شاهداً على ذلك بأكثرَ من رواية تحدِّث عن سبب نزول هذه الآية .. وأنها كانت ردًّا على المشركين ، الذين كانوا كلما ورد نسخ لحكم من الأحـكام التى كانت شريعة للمسلمين زمناً — قالوا : إن محمداً يقول مايشاء ، حسبما يرى . . ولو أن هذا القرآن كان من عند الله ، لمـا وقع فيه هذا التناقض فى الأحكام ، ولجاء الحـكم قولا واحداً ، لانقض له ، ولا تبديل فيه !!

هذه بعض مقولات القائلين بالنسخ ، وتلك بعض حججهم عليه . .

ونحن على رأينا الذى اطمأن إليه قلبنا ، من أنه لانسخ فى القرآن . . وأن هذه الآية الـكريمة — مع شيء من النظر والتأمل ، ومع إخلاء النفس من ذلك الشعور المتسلط على جمهور المسلمين من أن النسخ فى القرآن حقيقة مقررة ، تـكاد تـكون شريعة يَدين بها المسلم ، ومعتقداً يعتقده — نقول إن هذه الآية الـكريمة لاتفيد بمنطوقها أو مفهومها دلالة على النسخ . . وذلك :

أولا : منطوق الآية هو : « وإذا بدّلنا آية مكان آية » .. فلو كان معنى التبديل المحو والإزالة ، لمـا جاء النظم القرآنى على تلك الصورة ، ولـكان منطق بلاغته أن يجىء النظم هكذا : « وإذا بدّلنا آية بآية » . . ولمـا كان لـكلمة « مكان » موضع هنا . .

فـما هو السر فى اختيار القرآن الـكريم لـكلمة « مكان » بدلا من حرف الجر وهو الباء ؟ نرجئ الجواب على هـذا الآن ، إلى أن نفرغ من عرض القضية .

وثانياً : مفهوم كلمة « التبديل » بأنه محوٌ وإزالة ، أو تعطيل ونقض — يتعارض مع ماتنزهت عنه كلمات الله، من أى عارض يعرض لها ، فيغيّر وجهها ،

أو ينقض حكمها ، والله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً نبيه الكريم : « وتمت كلمةُ ربكِ صدقاً وعدلا .. لامبدّل لكلماته وهو السميع العليم » (١١٥ : الأنعام)

فكيف تُبدّل كلمات الله ، ويَنْسخ بعضها بعضاً ، وينقُض بعضها ما قضى به بعضُها ؟ والله سبحانه وتعالى يقول فى وصف كتابه : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا . قَيِّما » (١ ـ ٢ : الكهف) ويقول فيه سبحانه : « قرآنا عربيا غير ذى عِوَج لعلهم يتقون » (٢٨ : الزمر) ويقول فيه سبحانه وتعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » (٨٢ : النساء) .

وإذن فما تأويل هذه الآية ؟ وما المراد بالتبديل لآية مكان آية ؟

الجواب — والله أعلم — أن المراد بتبديل آية مكان آية هنا ، هو ما كان يَحدث فى ترتيب الآيات ، فى السور ، ووضع الآية بمكانها من السورة ، كما أمر الله سبحانه وتعالى . . وذلك أن آياتٍ كثيرةً كانت مما نزل بالمدينة ، قد وضعت فى سور مكية ، كما أن آيات مما كان قد نزل بمكة ، ألحقت بالقرآن المدنىّ . .

وهذا الذى حدث بين القرآن المكى والمدنىّ من تبادل الأمكنة للآيات بينهما ، قدحدث فى القرآن المكىّ ، والمدنى ـ كلٌّ على حدة ـ فكانت السورة المكية مثلا تنزل على فترات متباعدة ، فتنزل فاتحتها ، ثم تنزل بعد ذلك آيات آيات ، حتى يتم بناؤها . .

وعلى هذا ، فإن تبديل آية مكان آية ، هو وضع آية نزلت حديثا بمكانها الذى يأمر الله سبحانه وتعالى أن توضع فيه بين آيات سبقتها بزمن .. قد يكون عدة سنين . . !

فقد اتفق علماء القرآن على أن آيات نزلت بمكة ، ثم حين نزل من القرآن

فى المدينة مايناسبها ، أخذت مكانها فيه .. وهذا يعنى أنها نُقلت من مكانها فى السورة المكية ، إلى مكانها الذى كانت تنتظره أو كان ينتظرها .. فى السورة المدنية ..!

ومن أمثلة هذا ، قوله تعالى : « ومَا كَانَ اللهُ ليعذبهم وأنت فيهم » .. فهذه الآية مكية باتفاق ، وقد وضعت فى سورة الأنفال ، وهى مدنية باتفاق أيضاً ..

وهذا يعنى أن الآية من هذه الآيات كانت تأخذ مكانها مؤقتاً فى السورة المكية ، حتى إذا نزلت سورتها المدنية أخذت مكانها الذى لها فى تلك السورة ..

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه .. » إلى آخر سورة التوبة .. وهاتان الآيتان مكيتان ، وقد وضعتا بمكانهما من آخر التوبة ، وهى مدنية ..

وهكذا كان الشأن فى السور المكية ، فإنها كانت تستقبل جديداً من الآيات المدنية ، تأخذ مكانها المناسب لها بين آيات السورة ، حيث يأمر الله .. وذلك كثير فى القرآن الكريم ، وقلّ أن تخلو سورة مكية من دخولِ آية أو آياتٍ مدنية على بنائها ..

فهذا التدبير السماوى لبناء القرآن الكريم ، وترتيب الآيات فى السور ــ اقتضى أن تأخذ بعض الآيات أمكنة ثابتة دائمة ، بدلا من أمكنتها الموقوتة التى كانت تأخذها بين آيات أخرى غــير تلك الآيات التى استقرتِ آخر الأمر معها ..

ولا شك أن كثيراً من المشركين والمنافقين ، ومرضَى القلوب ، كانوا ينظرون إلى هذا التبديل والتغيير ، الذى كان يُؤْذِنُ النبى أصحابَه وكتاب الوحى

به ـ كانوا ينظرون إليه نظر اتهام للنبىّ بأنه إنّما يعيد بناء قرآنه ، ويغيّر ويبدل فيه ، ويصلح من أمره مايراه غير مستقيم عنـده ، شأنه فى هذا شأن الشاعر ، ينشىء القصيدة ، ثم يجرى عليها من التعديل والتبديل مايبدو له : حتى تستقيم لنظره ، وتقع موقع الرضا من نفسه .. هكذا فـكروا وقدّروا !

وإذن.. فما محمد والقرآن الذى معه ، والذى يجرى عليه هذه التسوية ، بالتبديل والتغيير فى بنائه ـ إلاّ واحداً من هؤلاء الشعراء ، الذين يجوّدون شعرهم ، ويسوّون وجوهه ، فيكون لهم من ذلك تلك القصائد المعروفة بالحوليّات التى يعيش الشاعر معها حولاً كاملا ، يعالج مافيها من عِوَج ، حتى تستقيم له !

وإذن ، فما دعوى محمد بأن هذا القرآن من عند الله ، إلا محضُ كذب وافتراء !

هكذا كان يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، فى النبىّ الـكريم ، حين كانوا يرونه يصنع هذا الصنيع فى ترتيب الآيات القرآنية فى سورها ، حسب الوحى السماوى الذى يتلقاه من ربّه ..

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء السفهاء بقوله : « قل نَزّله روح القُدُسِ من ربّك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى المسلمين » .

وروح القدس ، هو جبريل ، عليه السلام ، وهو السفير بين الله سبحانه وتعالى ، وبين النبىّ الـكريم ، بهذا القرآن الـكريم ..

— وقوله تعالى : « لِيُثَبِّتَ الذّين آمنوا » أى ليربط على قلوبهم ، ويقوّى عزائمهم ، ويثبت أقدامهم على طريق الإيمان ، بما ينزل عليهم من آياتٍ تؤنس وحشتهم ، وتـكشف لهم عن العاقبة المسعدة التى ينتهى إليها صراعهم ، مع قوى البغى والعدوان ..

فالثابت من تاريخ القرآن ـ كما قلنا ـ أن آياتٍ كثيرة نزلت ، ثم لم تأخذ مكانها فى السور التى هى منها ، إلا بعد زمن امتدّ بضع سنين .. !

فهذه الآيات التى سبقت سُورها ، إنما كانت للتعجيل ببشريات للنبىّ وللمؤمنين .. معه . .

فسورة الأنفال مثلاً ، وهى مدنيّة باتفاق .. قد ضمّ إليها سبع آيات كانت قد نزلت بمكة .. وهى قوله تعالى :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين * وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثلَ هذا إنْ هَذَآ إلاّ أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهمّ إن كانَ هذا هو الحقّ من عندك فأَمْطر علينا حجارةً من السَّمآء أو ائتنا بعذابٍ أليم * وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان اللهُ معذّبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذّبهم الله وهم يَصُدُّون عن المسجد الحرام وما كانوا أوليآءه إن أولياؤه إلاّ المتقون ولـكنّ أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيتِ إلاّ مُـكآء وتَصْدِيَةً فذوقوا العذابَ بما كنتم تـكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليَصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تـكون عليهم حسرةً ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جَهَنَّم يُحشرون » [٣٠ ـ ٣٦ : الأنفال] . .

ففى ظِلّ هذه الآيات استروح النبىّ والمؤمنون ـ وهم فى مكة ـ أرواحَ الأمل والرجاء ، ومن تلقاء هذه الآيات استقبل النبىّ والمؤمنون بشائر النّصر لهذا الدِّين ، الذى تَلَقّى على يد المشركين ألوانًا من الـكيد والمـكر ، وضروبًا من السفاهة والجهل . .

لقد كانت تلك الآيات ، وكثيرٌ غيرها ، هى الزاد الذى يتزود به النبى والمؤمنون ، أثناء تلك الرحلة القاسية التى قطعها النبى والمؤمنون معه فى شِعاب

مكة ودروبها ، من أول البعثة إلى أن أذن الله سبحانه وتعالى له بالهجرة .. وبهذا الزّاد تقوّى النبي والمؤمنون معه على حمل هذا العبء الثقيل خلال تلك الرحلة المضنية القاسية .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « قل نزّله روح القدس من ربك بالحقّ ليثبت الذين آمنوا » . وقد اختصّ الذين آمنوا بالذّكر هنا ، لأنهم كانوا فى حاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا الزّادِ ، ليثبتوا فى مواقفهم ، وليصبروا على هذا البلاء الذى كانوا فيه ، انتظاراً لهذا الوعد الكريم الذى وعدهم الله سبحانه وتعالى به ، فيما سيأخذ به المشركين من خِزْى وخِذلان ، كما يقول سبحانه : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليَصدّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها .. ثم تكون عليهم حسرة .. ثم يُغلبون .. والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » .. ولم يذكر النبيّ الكريم هنا لأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ محفوف دائما بألطاف ربّه ، وعلى يقينٍ راسخ من نصر الله .. فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ، ـ يحمل فى كيانه من قوى الحقّ والإيمان مالا تنال منه الدنيا كلها لو اجتمع أهلها على حربه والكيد له . وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه لعمه أبى طالب : « والله ياعمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر أو أهلِك دونه . . ماتركتُه » !

وهذه الظاهرة فى القرآن الكريم ، من تبادل الآيات أماكنَها خلال الفترة التى نزل فيها ، تقابلها ظاهرة أخرى ، وهى نزول القرآن منجّمًا ، خلال ثلاث وعشرين سنة ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، وإنما نزل آيةً آيةً ، وآياتٍ آياتٍ ، حتى كَمُلَ ، وتمّ بناؤه على الصّورة التى أراده عليها سبحانه وتعالى كما تلقاه النبي الكريم من جبريل ، فى العَرْضة الأخيرة التى كانت بينهما ، بعد أن تم نزول القرآن ، قبيل وفاة النبي بزمن قليل . .

فهذك إذن عمليتان ، قام عليهما بناء القرآن الكريم ، وهما :

أولاً : نزوله منجّما .. أى مفرقاً ..

وثانياً : نزوله غير مرتب الآيات فى السور ..

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن السبب الذى من أجله كان بناء القرآن على هذا الأسلوب .

أما عن نزول القرآن مفرقاً ، فالله سبحانه وتعالى يقول ردًّا على المشركين الذين أنكروا أن يجىء القرآن على هذا الأسلوب : « وقالَ الَّذين كَفرُوا لَوْلا نُزِّل عليه القرآن جُمْلةً واحدة ؟ كَذلِكَ لنثبت به فؤادَكَ ورتّلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحقّ وأحسَنَ تفسيرا » (٣٢ ـ ٣٣ : الفرقان) .

فتثبيت فؤاد النبى هو من بعض مافى نزول القرآن على تلك الصورة، من حكمة ..

وأمّا عن نزول القرآن غير مرتب الآى ، فقد رأينا أن من حكمته تثبيت قلوب المؤمنين ، بما تحمل إليهم الآيات التى تسبق سورها ، من بشريات ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدًى وبشرى للمسلمين » .

ففى هذا التدبير ، من نزول القرآن الكريم غيرَ مرتب الآى ، — فى هذا مايسمح بنزول بعض الآيات متقدمة زمناً على سورها التى ستلتقى بها ، وتأخذ مكانها فيها ، بعد أن يتم نزول القرآن كله ..

وفى هذه الآيات التى كانت تنزل متقدمة زمناً على سورها ، تثبيت لقلوب المؤمنين ، وهدًى لهم ، وبشرى بالمستقبل المسعد الذى ينتظر الإسلام ، وينتظرهم معه ..

ولو كان معنى قوله تعالى : « وإذا بدّلنا آية مكان آية » — لو كان معنى ذلك ، نسخَ آية بآية ، لما كان من المناسب أن يكون التعقيب على ذلك قولهَ تعالى : « ليثبّت الذين آمنوا وهدًى وبشرى للمسلمين » .. إذ أن النسخ للآيات القرآنية ، ليس من شأنه أن يثبّت قلوب المؤمنين ، بل إنه يكون داعيةً من دواعى الإزعاج النفسىّ ، بسبب تلك الآيات التى يعيش معها المسلمون زمناً ، ثم يتخلّوْن عنها . . ثم إنه من جهة أخرى لايحمل النسخ على إطلاقه ، بشرياتٍ للمسلمين . . إذ أن أكثر ماوقع النسخ — كما يقول القائلون به — على أحكامٍ مخففة ، نُسخت بغيرها ، مما هو أثقل منها ، كما يقال فى الآيات المنسوخة فى الخمر وفى الربا ، وفى حدّ الزنا ..

ثم — قبل هذا كله — إن هذه الآية : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفترٍ » . . هى مكية النزول ، بل من أوائل القرآن المكىّ ، حيث لم تكن قد شرعت الأحكام بعد ، فى العبادات ، والمعاملات ، وفى القتال ، وما يتصل به من غنائم ، وأسرى ، وغير ذلك مما يمكن أن يَرِد عليه النسخ ، إن كان هناك نسخ . . إذ أن النسخ ، إنما تناول الأحكام الشرعية وحدها .

هذا ، وقد استدل القائلون بالنسخ فى القرآن بآية أخرى ، هى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألقَى الشيطان فى أُمنيته فينسخ الله مايُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياتهِ والله عليم حكيم * ليجعل ما يُلقى الشيطان فِتنةً للذين فى قلوبهم مرض والقاسيةِ قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاقٍ بعيد » (٥٢ — ٥٣ : الحج) . . وسنعرض لهذه الآية فى موضعها إن شاء الله . . وحسبنا أن نقول هنا : إن النسخ وارد على مايُلقى الشيطان ، لاعلى آيات الله ، وأن الله سبحانه وتعالى يُحكم آياته ولاينسخها . . وإذن فلا نسخ فى آيات الله . .

ولعل فى قوله تعالى : « ولا تعجَلْ بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيُه » (١١٤ : طه) .. لعل فى هذا مايشير إلى شىء من هذا التدبير السماوى فى نزول القرآن غير مرتّب الآى ، إذ ربما كان صلى الله عليه وسلم تتنزل عليه الآية من القرآن ، غير منسوبة إلى سورة من السور التى نزلت ، فيبادر إلى وصلها بما سبقها أو لحقها ، حتى لاتظل فى عزلة ، بين سور القرآن التى تتلى فى الصلاة ، أو ترتّل فى غير الصلاة . . فجاء قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً » ليدفع عن النبى هذا الشعور من القلق على تلك الآيات المفردة أن يُنظر إليها غير تلك النظرة التى للقرآن الذى جُمعت آياته ، وتمت سوره ! . . فتلك دعوة للنبىّ ألاّ يعجل ببناء القرآن قبل أن يتمّ وحيه إليه به ، إذ مازال هناك قرآن كثير لم ينزل بعد ، وفى هذا القرآن الذى سينزل علم كثير ، يزداد به النبى علماً إلى علم . .

ويؤنسنا فى هذا الفَهم لتلك الآية الكريمة ، مانجده فى قوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جَمْعَه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبعْ قرآنه * ثم إن علينا بيانه » (١٦ ـ ١٩ : القيامة) . . ففى هذه الآيات ما يكشف عن مشاعر النبى نحو تلك الآيات التى كانت تتنزل مفردة غير منسوبة إلى سورة من السور ، وإشفاقه من أن تُفلت منه حيث لم ترتبط بغيرها من آيات القرآن وسوره .

وفى قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » تطمين للنبى بهذا الوعد الكريم من الله سبحانه ، بأنه جل شأنه ، هو الذى سيتولى جمع هذا القرآن المفرّق ، وبناءه على الصورة التى أراده الله سبحانه أن يُقرأ عليها .. وذلك ما كان بعد أن تمّ نزول القرآن ، وانقطع الوحى ، فكان القرآن على تلك الصورة ، التى تلقاها

النبىّ من جبريل ، فى العَرْضة الأخيرة للقرآن ، ثم تلقاها من النبى الصحابةُ وكتّاب الوحى . . ثم تلقاها المسلمون . . جيلا بعد جيل ، إلى يومنا هـذا ، وإلى يوم الدين . .

الآيات : (١٠٣ — ١٠٥)

* « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ » (١٠٥)

التفسير :

* قوله تعالى : « ولقد نعـلم أنهم يقولون إنمـا يعلّمه بشر . . لسانُ الذى يُلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربىّ مبين » . . هو رد على المشركين الذين أشار إليهم قولُه تعالى : « وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر » . . فهم — أى المشركون من قريش — يتهمون النبى — صلوات الله وسلامه عليه — بهذه التهمة ، وأنه يفترى على الله الكذب ، إذ يقول إن هذا القرآن منزل عليه من الله . . ثم إنهم لايقفون عند هذا ، بل يرمون النبىّ بأنه لايفترى هذا الافتراء من ذاته هو ، بل يستعين على ذلك بأهل العلم ، الذين يتصل بهم ، ويتلقى عنهم مايجىء به من مفتريات . . وذلك أنهم إذ يرون هذا العلم الذى تحمله آيات الله وكلماته ، لايرون أن مثل محمـد — وهو واحد منهم — يستطيع أن يكون عنده شىء من هذا ، ولـكنه باتصاله بأهل الـكتاب ،

وبأخذه عنهم ، يمكن أن يفعل هذا ، وأن يحدثهم بما يحدثهم به من أخبار الأولين ، وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى عنهم : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملَى عليه بكرةً وأصيلا » (٥ : الفرقان) . .

— وفى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » بالتعبير بفعل المستقبل — إشارة إلى أن علم الله محيط بهم ، وأنه سبحانه وتعالى يعلم ماقالوا ، وما سيقولون من تلك المقولات المنكرة ، التى يقولونها فى النبى الكريم ، وفى كتاب الله الذى بين يديه . .

— وفى قوله تعالى : « إنما يُعلِّمه بشر » — إلفات لهم إلى كلمة « بشر » وإلى أنه يجب أن يقفوا عندها ، وأن ينظروا فى هذا القول الذى يقولونه من غير رويّة ولا تدبر . . وهل فى استطاعة بشر — أيًّا كان — أن يأتى بمثل هذا القرآن ؟ أليسوا هم بشراً ؟ فما لهم إذن لايأتون بسورة من مثله ؟ . . ثم مالهذا البشر الذى يعلم محمداً الاَّ يأخذ مكان محمدٍ ، ويدّعى لنفسه هذا الذى يدّعيه محمد من أنه نبىّ ، وأنه متصل بالسّماء ، يتلقى منها هذا القرآن ؟

— وقوله تعالى : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمىٌّ .. وهذا لسان عربىٌّ مبين » .. هو فضح لهذا المنطق السقيم ، الذى أقام عليه المشركون اتهامهم للنبى . !

فالبشر الذى « يُلحدون إليه » .. أى يشيرون إليه ، ويتخذونه تُكَأَةً يتكئون عليها فى هذا الاتهام ـ هذا البشر ، هو رجلٌ أعجمىٌّ ، لايحسن العربية ، ولايستقيم لسانه عليها .. وهذا القرآن الذى بين يدى محمد ، هو بلسان عربىّ مبين ، قد تحدَّى ببيانه وفصاحته بلغاءهم ، وفصحاءهم ، وأهل اللَّسَنِ فيهم ، من خطباء وشعراء . فما لهم وهم أصحاب هذا اللسان ،ألا يقفوا لمحمد ، ويتحدّوه بقول كقوله ، وحديث كحديثه ؟ .. ثم مالهم لايتلقوْن أخبار الأولين من هؤلاء

الأعاجم ، ثم ينسجونها بلسانهم العربىّ كما نسجها محمد ؟ تلك حجة داحضة ، وقول هزل !

وقد اختُلف فى اسم هذا الأعجمى الذى يشير إليه المشركون ، كما اختُلف فى أهو يهودى أم نصرانىّ !

* وقوله تعالى : « إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذابٌ أليمٌ » .. الذين لايؤمنون بآيات الله ، هم هؤلاء المشركون ، وهم كلّ من فى قلبه مرض ، وفى عقله دخَلَ ، فلا يلتفت إلى آيات الله ، ولا يفتح عقله وقلبه لها ، بل يلقاها معرضاً منكراً ، ويمرّ بها مجانبًا مجافياً .. فهؤلاء الذين يقفون من آيات هذا الموقف ، لايهديهم الله ، ولا يُمدّهم بأمداد توفيقه وهدايته .. لأن « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » .. « ولهم عــذابٌ أليمٌ » جزاء هذا الضلال ، وهذا الصدّ عن آيات الله ..

* قوله تعالى : « إنما يفترى الـكذبَ الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الـكاذبون » ــ هو اتهام لهؤلاء المشركين ، بأنهم هم الذين يفترون الـكذب ويتعاملون به ، ولا يجدون حرجاً فى أن يكذبوا ، ويكذبوا ، فى غير حياء ! إنهم لايؤمنون بآيات الله ، ومن ثَمّ فهم لايؤمنون بالله ، ولا يخشوْن عقابه .. ولايجدون فى أنفسهم وازعاً يَزَعهم عن الـكذب والافتراء على الله ..

أما الذين يؤمنون بآيات الله ، فإنهم يؤمنون بالله ، ويوقّرونه ، ويخشون عذابه .. فلا يخرجون عن الجادّة ، ولايقبلون أن تـكون كلمةُ الـكذب من بضاعتهم !

وفى هذا دفاع عن النبىّ ، ودفع لهذا الاتهام المفترَى ، الذى يتهمه المشركون به .. كما أنه دمغٌ للمشركين بالـكذب والافتراء حيث حَـكمَ الله سبحانه وتعالى عليهم هذا الحـكم الأبدى بقوله : « وأولئك هم الـكاذبون » .. حتى لـكأن

الكذب مقصور عليهم وحدهم، من دون الناس جميعاً .. فهم أصلٌ فى الكذب والافتراء، ومن سواهم تبع لهم، يقتدى بهم، ويتعلق بأذيالهم ..

الآيات : (١٠٦ — ١١١)

* «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ (١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) * يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» (١١١)

التفسير :

* قوله تعالى : «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذابٌ عظيم» ..

فى هذه الآية أمور :

أولاً : مناسبتها لما قبلها .. فقد ذكرتِ الآياتُ السابقة، موقفاً من تلك

المواقف اللئيمة ، التى كان يقفها المشركون من النبىّ .. وهذا الموقف هو اتهامهم النبىّ ، بأنه افترى على الله هذا القرآن الذى جاءهم به ، وأنه إنما تلقى هذا القرآن من أحد علماء أهل الكتاب .. ولهذا كان تكذيبهم له ، وتصدّيهم لدعوته ، وتطاولهم عليه وعلى من آمن به ، بالضرّ والأذى .. وقد امتُحن كثير من المؤمنين فى أنفسهم .. كبلال ، وعمّار بن ياسر ، وأبيه وأمه ، حتى لقد مات بعضهم تحت وطأة العذاب الذى كان المشركون يرمونهم به ، فى غير رحمة أو مبالاة !

وفى مواجهة هذا البلاء الذى استمر بضع سنوات ، لم يكن أمام المسلمين إلا أن يهاجروا ، وأن يوطنوا أنفسهم على استقبال الأذى ، والصبر على المكروه حتى الموت .

وقد هاجر كثير من القادرين على الهجرة .. الذين يملكون أمر أنفسهم .. وتخلف كثيرون ، لم يكن أمرهم إلى أيديهم ، إذ كانوا فى جملة العبيد والإماء .. أو تحت حكم العجز والمرض .. ونحو هذا ..

وفى المتخلفين مَنْ صبر حتى مات تحت وطأة البلاء ، مثل سُميّة أم عمار بن ياسر ، ومنهم من رأى أن يُرِىَ المشركين منه ، أنّه قد استجاب لهم ، ورجع عن الدين الذى آمن به على يد محمد ـ فأعطاهم بلسانه مالم يسمح به قلبُه ، الذى ظلّ على إيمانه بالله ، وولائه للدِّين الذى دخل فيه .. ومنهم من أعطى المشركين بقلبه ما أعطاهم بلسانه .. فعاد كافراً .. ودخل فى الكفر فى غير تحرّج أو تأثّم ، بل اطمأن إليه ، وشرح صدره له !

ولا شك أن هذه حال أثارت البلبلة والاضطراب فى نفوس المسلمين ، وخاصة أولئك الذين انعقدت قلوبهم على الإيمان ، وإن صرحت ألسنتهم بالشرك ، تَقِيَّةً ، تحت حكم القهر والاضطرار .. فهم ـ والحال كذلك ـ

يعانون من صراع حاد ، بين ظاهرهم هذا الذين يعيشون به فى الناس ، وبين باطنهم الذى يعيشون فيه مع دينهم الذى أمسكوا به فى قلوبهم .. فكان من رحمة الله بالمؤمنين أن تقبّل مافى قلوبهم ، وتجاوز لهم عما قالوا بأفواههم .

— فقال تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَن أُكْرِه وقَلْبه مطمئن بالإيمان » .. فهذا الاستثناء يُخرج من أُكره ، فقال كلمة الكفر بلسانه ، واحتفظ فى قلبه بالإيمان الذى انعقد عليه .. ويلاحظ هنا أنه لم يتقرر فى الآية حكم لأولئك المستثنَيْن من الكفر ، بل تُركوا هكذا ، بمعزل من الكافرين ، الذين عادوا إلى الكفر بأفواههم وبقلوبهم جميعاً .. وهذا يعنى أن « التقيّة » وإن كانت باباً من أبواب التيسير والرحمة بالمؤمنين ، إلا أنها بابٌ محفوف بالخطر ، لايدخله الإنسان إلا على حذر وإشفاق ، وإلا ربّما يُمسك نفسه من التّلف .. فإن هذه حال لاينبغى أن يركن إليها المؤمن ، أو يطمئن إلى مقامه فيها .. إذ هو يلبس فيها ثوب النفاق ظاهراً .. ولا يجتمع إيمان ونفاق أبداً ..

رُوى أن المشركين من قريش أرادوا عمار بن ياسر ، وأباه ياسراً وأمّه سميّة ، على الكفر بعد أن أسلموا ، وأخذوهم بالبأساء والضراء ، فأبوْا ، فربطوا سميّة بين بعيرين ثم وُجِئتْ بحربة فى قُبلها ، وقالوا إنما أَسلمت من أجل الرجال ، فماتت ، ومات ياسر قتيلا كذلك ، فكانا أول قتيلين فى الإسلام ، أما عمار فأعطى المشركين بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقِيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عماراً كفر !! فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كلا . إن عمّاراً مُلِىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه !! »

ورُوى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين ، فقال لأحدهما ماتقول فى محمد ؟ قال : « رسولُ الله » فما تقول فىّ ؟ قال : وأنتَ أيضاً ..! فخلّى سبيله . . ثم قال للآخر : ماتقول فى محمد ؟ قال :« رسولُ الله » قال : فما تقول فىّ ؟ قال : أنا

أَصَمُّ ا فقتله .. فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى ، وأما الثانى فقد صَدَع بالحق .. فهنيئاً له » .

وثانياً : هذا النظم الذى جاءت عليه الآية الكريمة ..

فقد جاء نظم الآية على غير مألوف اللغة ، حيث جاء الشرط : « من كفر بالله من بعد إيمانه » ولم يُذكر له جواب .. ثم دخل على هذا الشرط استثناء : « إلاَّ من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ثم لم يذكر لهذا الشرط والاستثناء الوارد عليه جواب .. ثم ورد هذا الاستدراك : « ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم » ــ محمّلا بشرط ، وجواب .. أما الشرط، فهو الشرط السابق موصوفاً بمفهوم المخالفة للاستثناء الوارد على هذا الشرط ، وأما الجواب ،فهو الجواب الذى يصلح للشرطين معاً .. ولكنه اتجه إلى الشرط الثانى ، بعد أن وقع الاستثناء على الشرط الأول .. والتقدير : من كفر بالله منْ بعد إيمانه شارحاً بالكفر صدره فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم .. إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ..

هذا ما يدل عليه مفهوم الآية الكريمة ، وإن جاء نظمها على هذا الأسلوب الذى تراه ! !

والسؤال هنا هو : ماذا وراء هذا النظم الذى جاء على غير مألوف اللغة ؟

والجواب ــ والله أعلم ــ هو أن تلك الحال التى تعرضها الآية الكريمة من أحوال المؤمنين ، حين يُمتحنون فى دينهم ، ويتعرضون للفتنة فى عقيدتهم ــ هذه الحال ليست من الأحوال المألوفة للإنسان ، بحيث يروض نفسه عليها ، ويوطنها على احتمال مكروهها .. وإنما هى تجربة قاسية يلقاها الإنسان مرة واحدة فى حياته ، حين تحمله البلوى على أن يتبدّل ديناً بدين ، وعقيدة بعقيدة ، ولو كان ذلك فى ظاهر أمره ، وعلى مايرى الناس منه .. فليس الدين ثوباً يلبسه الإنسان زمناً حتى إذا بَلِى خلعه ، واستبدل به غيره .. وإنما هو أشبه بجلد

الإنسان ، وبالصبغة التى صبغه الله عليها .. فهو لون واحد لا يتغير ، ولا يتبدل !

هى تجربة قاسية إذن ، تلك التجربة التى يخرج فيها الإنسان عن دينه ، ولو ظاهراً ، تحت حكم القهر والتسلط .. حيث يعالج الإنسان فى كيانه الداخلى صراعاً صارخاً ، تتمزق معه مشاعره ، وتتصدع به وَحدة بنائه الفكرى ، وإذا هو فى تيه ، لا يطلُع عليه من آفاقه ، إلا مايزعجه ويؤرقه ..

ومن هنا جاء النظم القرآنى فى الآية الكريمة على هذا الأسلوب ، الذى يمسك بتلك المشاعر المضطربة ، ويصور تلك النفوس القلقة المذعورة ، التى انعقدت فى سمائها سحب متراكمة ، ترمى برعودها ، وبروقها ، وصواعقها ، فى غير مَهَل أو انقطاع ..

وهكذا يحكى النظم القرآنى بموسيقى ألفاظه ، ما تحدّث عنه الألفاظ بدلالة معانيها ، فيقع المعنى فى النفس موقعاً متمكناً ، حيث يدخل عليها مصوّراً ، مجسداً ..

* قوله تعالى : « ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين » .

الإشارة هنا إلى هذا الوعيد الذى توعد الله به سبحانه ، أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وعادوا إلى الكفر الذى كانوا فيه ، وأنسوا إليه كما يأنس الغريب بلقاء أهله ، بعد غيبة وفراق ، فلم يقع فى نفوسهم وحشة الكفر ، ولا تكرّهٌ له .

فهذا الغضب الذى صبّه الله عليهم ، وهذا العذاب العظيم الذى أعده لهم ، إنما هو بسبب أنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وآثروا العافية مع

الكفر ، على البلاء مع الإيمان . . ! « فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم » .

والإيمان — فى حقيقته — هو ابتلاء ، وأقلّ ما يُبتلى به المؤمن ، هو التكاليف الشرعيةَ التى تحمِلها أوامر الدين ونواهيه . . ثم فوق هذا ضروب من الابتلاء ، فى هذا الصراع الذى يكون بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، قد ينتهى آخر الأمر إلى الاستشهاد فى سبيل الله ! وفى هذا يقول الحق جل وعلا : « الٓمٓ * أحسب الناس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتَنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم فَليعلمَنّ الله الذين صدَقوا وليعلمن الكاذبين » (١ — ٣ : العنكبوت) .

— وفى قوله تعالى : « وأن الله لا يهدى القوم الكافرين » إشارة إلى سبب آخر من أسباب وقوع الكافرين تحت طائلة هذا الوعيد ، وهو أنهم من جِبِلّةٍ مظلمة ، لاتقبل النور ، ولا تتهدّى إليه . . فكان أن أضلهم الله ، وتركهم فى ظلماتٍ يعمهون .

* قوله تعالى : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » .

الإشارة « بأولئك » واردة على هؤلاء الكافرين الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ، بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وبأنهم حُرموا من هداية الله وتوفيقه ، لما انعقدت عليه قلوبهم من ظلام وضلال . . إذ قد طبع الله على قلوبهم ، وختم عليها بخاتم الكفر ، فلا تقبل إيمانا ، ولا تطمْئن إليه . . كما ختم الله على سمعهم ، فلا يسمعون كلمة الحق ، ولا يستجيبون لها ، وختم على أبصارهم ، فلا يبصرون مواقع الهدى ، ولا يتجهون إليها . . فكانوا فى غفلةٍ مطبقة ، عن كل ما يَصِلهم بالحق ، أو يُلفتهم إليه .

* قوله تعالى : « لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون » . . هو تعقيب على هذا العرض الكاشف لأولئك الذين كفروا ، وعَمُوا عن الهدى ، وصَمُّوا عن الداعى الذى يدعوهم إليه . .

فهؤلاء لاشك فى أنهم هم الخاسرون ، إذ يجيئون إلى هذا اليوم العظيم ، وليس معهم غير الكفر ، وحسبه جُرْماً ،أن يكون صاحبُه حَصَبَ جهنم خالداً فيها أبداً .

* قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

العطف « بثم » هنا ، هو عطف حَدَث على حدث ، وموقفٍ على موقف .. فهناك موقف الكافرين الذين لبسوا الكفر بعد أن دخلوا فى دين الله ، ونكصوا على أعقابهم لأول مسَّة مستهم من أذًى فى سبيل الله . . وهنا موقف لأولئك الذين لبسوا الكفر ظاهراً ، واستبطنوا الإيمان..تقيةً من تلف النفس ، وفراراً من وطأة البلاء .

وفرق كبير بين هؤلاء ، وأولئك . . ولهذا جاء العطف بالحرف « ثُمّ » ، الذى يشير إلى هذا الفاصل المعنوى الشاسع ، الذى يفصل بين الفريقين . . فأولئك كافرون . . وهؤلاء مؤمنون . . وما أبعد ما بين الكافرين والمؤمنين : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » .

وفى قوله تعالى : « ربك » بإضافة النبى الكريم إلى ربه الكريم ، مزيدٌ من الفضل والإحسان إلى رسول الله من ربه ، الذى يُضيفه إليه ، ويدعوه إلى ساحة كرمه وإحسانه ، وقد كُررت هذه الدعوة ، فكانت إحساناً إلى إحسان ، ولطفاً إلى لطف ، وحُقّ للنبى الكريم بهذا الإحسان أن ينزل من ربه هذه المنزلة التى لاتعلوها منزلة لبشر . . وكيف والله سبحانه وتعالى بقول له :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (١١٣: النساء) .ويقول له: « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

— وقوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا » .. هو تطمينٌ لقلوب أولئك الذين فُتنوا فى دينهم ، وأعطوْا كلمة الكفر بألسنتهم ، ولم يُعطوا من الإيمان الذى انعقدت عليه قلوبهم شيئاً . . فهؤلاء قد كشفوا عن حقيقة إيمانهم بهذا السلوك الطيب ، الذى أخذوا فيه طريقهم مع المؤمنين . . فهاجروا مع المهاجرين ، وجاهدوا مع المجاهدين ، وصبروا على مالقيهم من بلاء وشدة فى مواقف الجهاد . فوطّنوا أنفسهم على الموت فى سبيل الله ، دون أن تحدثهم أنفسهم بالفرار من وجه العدو .. فهؤلاء يغفر الله لهم ما كان منهم ، ويقَبلهم فى عباده المؤمنين ، المهاجرين ، المجاهدين .. وفى العطف « بثم » فوق أنه عزل للذين أعطوا كلمة الكفر بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ، عن أولئك الذين شرحوا بالكفر صدرًا — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — فيه إشارة إلى أن مغفرة الله لم تجئهم إلا بعد تراخ وإبطاء ، حتى لقد كادت لاتلحقهم ، وفى هذا مايُلقى ظلالا معتمة على التقية ، وأنه لا يلجأ إليها المؤمن إلا عند الضرورة القُصوى .

— وفى قوله تعالى : « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » إشارة إلى المغفرة التى عاد الله سبحانه وتعالى بها على أولئك المفتونين ، بعد أن هاجروا ، وجاهدوا وصبروا .. فقد رحمهم الله ، وغفر لهم ، وأدخلهم فى عباده المؤمنين ..

والضمير فى قوله تعالى : « من بعدها » يعود إلى تلك الحال التى تلبّس بها المفتونون حين فُتنوا فى دينهم ، وأعطوا كلمة الكفر بأفواههم ..

وفى عودة الضمير إلى تلك الحالة دون ذكرها ، إشارة إلى أنها شىء بغيض لايُذكر فى هذا المقام ، الذى لَبِس فيه أولئك المفتونون ثوبَ الإيمان ظاهراً

وباطناً ، والذى شملتهم فيه رحمة الله ومغفرته .. فكان من تمام تلك النعمة التى أنعم الله بها عليهم ألا يذّكّروا فى هذا المقام بما يسوءهم ، وألا تمسّ مشاعرهم ذكرياتُ هذا الماضى البغيض ، الذى انسلخوا منه وفارقوه .. ثم كان من الحقّ أن يُدْفَن هذا المنكر ، وألا يَرَى المؤمنون له وجها أبداً ..

* قوله تعالى : « يومَ تأتِى كلُّ نفسٍ تُجادِلُ عن نَفْسِها وتوفّى كلّ نفس ماعَمِلت وهم لايُظْلَمُون » .

هو تذكير بهذا اليوم العظيم ، يوم القيامة ، حيث يحاول كل إنسان جَهده أن يدفع عن نفسه شرّ هذا اليوم ، فيتعلّق بكلّ مايظن أنه مغنٍ عنه شيئاً فى هذا الكرب العظيم ، وحيث يكون الإنسان أكثر مايكون حاجةً إلى مغفرة الله ورحمته . فإذا ذكر الإنسان هذا اليوم فى دنياه ، وذكر مايستقبل الناسَ فيه من أهوال ، ثم ذكر رحمة الله ، ومغفرته ، اللتين ينالهما المتقون من عباده ، ويستظل بظلهما المؤمنون الذين يخشون ربّهم بالغيب ـ إذا ذكر الإنسان ذلك كلّه ، كان فى ذلك مايشدّ عزمه ويقوّى يقينه ، ويمسك به على طريق الإيمان ، وإن مسّه الضرّ ، وأصابه المكروه ..

ـ فقوله تعالى : « يومَ تأتى كل نفسٍ » متعلق بقوله تعالى : « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .. أى إن مغفرة الله ورحمته يتجليان فى هذا اليوم ، يومَ تأتى كل نفسٍ تجادل عن نفسها .. وليس هذا بالذى يقصر تجلّى رحمة الله ومغفرته على هذا اليوم ، إذ رحمة الله ومغفرته لايَحُدّهما زمان ، ولايحصرهما مكان .. ولكنّ الإشارة إليهما فى هذا الظرف ، إشارة إلى شدة الحاجة إليهما فيه ، وأنه إذا كان الإنسان فى حاجة دائمة إلى مغفرة الله ورحمته ، فإنه فى هذا اليوم أكثر مايكون طلباً لهما ، واحتياجا إليهما ..

الآيات : (١١٢ — ١١٩)

* « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حلالًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١١٩)

التفسير :

* قوله تعالى : « وضربَ اللهُ مَثَلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كلِّ مكانٍ فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوفِ بما كانوا يصنعون » ..

« الواو » هنا للاستئناف ، ووصل حَدَثٍ بحدث..

وهذا الحدث هنا ، هو المثل الذى ضربه الله لمن يعقل ، ويعتبر ، ويأخذ من مضرِب المثل عظةً وعبرة ..

والمثل المضروب هنا ، هو تلك القرية التى كانت آمنة مطمئنة ، بما يسوق الله إليها من نعم .. فبطِرتْ معيشتَها ، وكفرت بأنعم الله .

وقد اختلف المفسِّرون فى هذه القرية .. أهى قرية من قرى الأولين التى أهلكها الله ودمدم على أهلها ؟ أم هى مكة ..

والذى نميل إليه هو أن هذه القرية هى واحدة من تلك القرى التى أهلكها الله ، والتى أشار إليها الله سبحانه وتعالى بقوله : « وكم قَصَمنا من قرْيةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » (١١ : الأنبياء) .. وبقوله سبحانه : « وتلك القرى أهلكناهم لمَّا ظلموا وجعلنا لمهلِكهم موعداً » (٥٩ : الكهف) وبقوله تعالى : « وكأيِّن من قريةٍ أمليتُ لها وهى ظالمةٌ ثم أخذتها وإلىّ المصير » (٤٨ : الحج) .

فأية قريةٍ من تلك القرى الظالمة التى أهلكها الله بظلمها ، والتى عرف المشركون أخبارها وماحلّ بأهلها ـ أية قريةٍ من تلك القرى صالحة لأن تكون المثلَ المضروب لأهل مكة .. يرَوْن فى مخلّفاتها العبرة والعظة ، إن كانوا يعتبرون ويتعظون .. فلقد عرف مشركو قريش ماحلّ بالقرى التى حولهم من عذاب الله .. فيما قصّ عليهم سبحانه وتعالى من أخبار « سبأ » فى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربّكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبدّلناهم بجنتيهمْ جنتين ذواتىْ أُكلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » (١٥ ـ ١٧ : سبأ) .

فهذه القرية ـ مثلا ـ كانت ـ كما يقص القرآن الكريم من أخبارها ـ فى حياة طيبة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، تحفّ بها الجنات عن يمين وشمال ، فأكل أهلها من رزق الله ، ولم يشكروا له ، بل كفروا بنعمه ، ومكروا بآياته ، فأخذهم بالبأساء والضرّاء ، وبدّلهم بجنتيهم ذواتى الثمر الطيب ، والخير الموفور ، أرضاً قفراً لاتمسك إلا ببقايا حياة باهتة من شجر لايعطى إلا خسيس الثمر ، وقليله . . ! وهكذا كل من يكفر بنعم الله ، ويمكر بآلائه .

ـــ وفى قوله تعالى : « فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف » إشارة إلى ماحلّ بهذه القرية الظالمة من بلاء ، وما وقع عليها من بأس الله إذ جاءها ، فقد بدل الله أمنها وطمأنينتها ، جوعاً دائماً وخوفاً متصلا ، حتى لقد اشتمل عليها الجوع والخوف ، كما يشتمل الثوب على الجسد ويحتويه ، وحتى أنه كلما بلى هذا الثوب ، ألبسهم الله ثوباً غيره .. وهكذا ، لايخلعون ثوباً إلا لبسوا غيره ، ليذوقوا العذاب ، بما كانوا يصنعون ..

* وقوله تعالى : « ولَقَدْ جاءَهُم رَسُولٌ منهم فَكذّبوهُ فَأَخَذَهم العذابُ وَهُمْ ظَالمون » ـ هو إشارة إلى أن هذه القرية الظالمة ، التى حلّ بها هذا البلاء ، لم تؤخذ هكذا على غير حجّة قامت عليها ، بل لقد بعث الله سبحانه وتعالى إلى أهلها رسولا منهم ، فبلغهم رسالة ربّه إليهم ، ودعاهم إلى الإيمان بالله ، وإلى الاستقامة على طريق الحقّ والخير ، فأبوا إلا عناداً وكفراً .. فكان أن أوقع الله بهم البلاء ، كما يقول سبحانه : « وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء) .

* وقوله تعالى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » هو إلفاتٌ إلى أهل مكة خاصة ، وإلى كل ذى عقل ونظر ، أن يأخذوا العبرة من هذا المثل ، وأن يجدوا فى النعم التى أنعمها الله عليهم ،

داعيةً يدعوهم إلى شكر الله ، والولاء له .. وإلاّ حلّ بهم عذاب الله ، كما حلّ بتلك القرية الظالمة ..

- وفى قوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » تحريض المؤمنين على التمسك بالإيمان بالله ، وإخلاص العبادة له وحده ، وأن يقطعوا كل صلة كانت تصلهم بمعبوداتهم التى عبدوها من دون الله ، وذلك أنهم كانوا فى جاهليتهم يدّعون أنهم مؤمنون بالله ، وأنهم إنما يعبدون هذه الأوثان التى يعبدونها ليتقربوا بها إلى الله ، كما يقول الله سبحانه على لسانهم : « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى » (٣ : الزمر) .. وهذا ضلال مبين ، وشركٌ صُراحٌ بالله ، فهو سبحانه الذى تفرّد بالخلق والرزق ، فواجب أن يُفْرَد بالولاء والعبودية .

* قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » - هو بيان لتلك المآكل الخبيثة التى يجب على المؤمن بالله أن يتجنّبها ، حتى يكون مأكله حلالا طيباً . وتلك المآكل الخبيثة ، هى : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما ذكر اسم غير اسم الله عليه .. فمن اضطر إلى أخذ شىء من تلك المآكل ، « غير باغٍ ولا عادٍ » أى غير مُحلٍّ لها ، وغير متجاوز حدود الحاجة التى يدفع بها الهلاك الذى يتعرض له - « فإن الله غفور رحيم » أى يتجاوز للمضطر عن هذا المنكر الذى ألمّ به ، وعليه أن يخلّص نفسه منه فى أقرب فرصة تسنح له . إنه أشبه بالتقيّة ، التى يتقى فيها المؤمن بلسانه ، الأذى الذى يعرض له ، إذا هو وقع ليد عدوّ من أعداء الله . .

* قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذبَ إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون * متاعٌ قليل « ولهم عذاب أليم » ..

فى هذا تحذيرٌ لأولئك الذين تدعوهم أهواؤهم إلى إتيان المنكر ، فيسوّغونه بتلك الصفات الكاذبة التى يخلعونها عليه ، ويُلبسونه بها ثوب الحلال الطيب . . فما اشتهته أنفسهم جعلوه حلالا طيباً ، وإن كان فى حقيقته حراماً خبيثاً ، وما لم تَمِل إليه أهواؤهم وسَمُوه سمة الحرام ، وإن كان حِلاً مباحاً . .

— وفى قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام » إشارة إلى أن هذه المقولات التى يقولونها فى حِلّ الأشياء وحرمتها ، إنما هى مما أملته عليهم أهواؤهم ، وأنهم لم يحتكموا فيها إلى شرع أو عقل . .

— وقوله تعالى : « الكذبَ » بدل من ضمير النصب المحذوف ، وهو العائد على الاسم الموصول من الفعل « تصف » — أى ولا تقولوا لما تصفه ألسنتكم ، الذى هو الكذب ، فما تصف ألسنتهم إلا كذباً ، ولا تقول إلا زوراً وبهتاناً . .

— وقوله تعالى : « هذا حلال وهذا حرام » هو مقول قولهم ، أى إن قولهم عن مطعوماتهم ، هذا حلال ، وهذا حرام ، هو قول كذب ، قالوه لينتهى بهم إلى الافتراء على الله . . فاللام فى قوله تعالى : « لتفتروا على الله الكذب » هى لام العاقبة . .

— وقوله تعالى : « متاع قليل ولهم عذاب أليم » — هو تعليل لنفى الفلاح عن الذين يفترون على الله الكذب ، فإنهم بافترائهم الكذب قد خسروا خسراناً مبيناً . ذلك أن هذا الذى عاد عليهم من كذبهم وافترائهم ، هو شىء تافه ، استرضوا به أهواءهم فى هذه الحياة الدنيا ، فأوقعهم فى هذا الذى هم فيه ،

من عدوان على حرمات الله ، وعصيانٍ لله ، وشرك به .. وذلك هو الخسران المبين .. !

* قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قَصَصْنا عليك من قَبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون » .

هو ردٌّ على الذين هادوا ، أى اليهود ، الذين كانوا من وراء المشركين ، يُزكّون أفعالهم المنكرة ، ويقولون لهم : إن هذا الذى أنتم عليه فيما تحلّون وتحرّمون من مطاعمكم ، هو الحق ، وأنه من شريعة إبراهيم ، وأن مايحدثكم به محمدٌ ، هو مما يفتريه على الله .. فاثبتُوا على ما أنتم عليه ، ولا تستمعوا له .. !

وقد رد الله عليهم سبحانه وتعالى بقوله : « قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير .. فإنه رجس .. أو فسقاً أُهِلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم .. » (١٤٥ : الأنعام) .. ثم كشف سبحانه وتعالى عما أخذ به اليهودَ من عقاب ، فحرّم عليهم طيبات كانت أحلّت لهم ، نكالا لهم ، بسبب عدوانهم على حرمات الله ، وافترائهم عليه .. فقال تعالى : « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظُفُرٍ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومَهما إلا ماحملت ظهورُهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم .. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » (١٤٦ : الأنعام) .

ففى قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل » إلفات إلى هذا الموقف الذى وقفه اليهود من النبى ، حين دعا المشركين بكلمات ربه ، إلى أن يدَعوا الزور الذى أدخلوه على مطاعمهم ، كما ذكر الله لهم ذلك فى قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حِجرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعامٌ حرمت ظهورُها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه سيجزيهم

بمـا كانوا يفترون * وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » (١٣٨ — ١٣٩ : الأنعام) . . فجـاء اليهود إلى المشركين يكذبون النبى فيما يقول لهم عن ربه فى هـذه المطاعم ، فرمى الله اليهود بهذا الخزى الذى حملته إليهم الآية الـكريمة : « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر ... » .. فهذا الذى حرمه الله سبحانه وتعالى على اليهود فى تلك الآية هو ، ماأشارت إليه الآية : « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل » . . وهذا يقطع بأن آية الأنعام قد سبقت آية النحل نزولا . .

* قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . . هو دعوة كريمة من رب كريم ، إلى الضالين عن سبيله ، والشاردين عن الحق الذى يدعو إليه رسولُه ، أن يرجعوا إلى الله من قريب ، وأن يتوبوا إليه ، ويصلحوا من أنفسهم ماأفسدوا .. فإن فعلوا ، وجدوا ربًّا غفوراً رحيما ، يغفر لهم ما كان منهم ، ويدخلهم فى عباده المؤمنين ..

— والجهالة فى قوله تعالى : « عملوا السوء بجهالة » ليس المراد بها الجهل بالشىء ، والوقوع فى الإثم عن جهل بأنه إثم .. فهذا من المعفوّ عنه ابتداء ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان الله ليُضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون » (١١٥ : التوبة) .

وإنما المراد بالجهالة هنا ، مايركب المرء من نوازع الحميـة والعصبية ، وما يستولى عليه من حماقات الـكبر والعناد .. وهذا هو أكثر ما يحمل الناس على معاندة الحق ، ومعاداته ، ويدعوهم إلى إتيان المنـكرات ، وركوب الضلالات

وإلى هذا المعنى للجهالة ، يشير الشاعر الجاهلى ، عمرو بن كلثوم بقوله :

أَلَا لايجهلَنْ أحـــد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

فالدعوة هنا إلى الرجوع إلى الله ، دعوة عامة إلى كل شارد عنه ، مسوق بهواه ، محمول على مطية حميته ، وعناده .

وفى العطف « بثم » فى الموضعين هنا ، إشارة إلى هذا البعد البعيد ، الذى ينتقل به الإنسان من حال إلى حال ..

فالذين عملوا السوء بجهالة ، ثم كانت لهم إلى أنفسهم عودة ، وكان لهم معها حساب . . هم على حال مباينة بوْناً شاسعا ، لأولئك الذين يعملون السوء ، ثم لايقع فى أنفسهم مابسوؤهم منه ، ولا تمس ضمائرهم نخسة من آثاره . . فالأولون لا بد أن تـكون لهم إلى الله رجعة ، وقليل منهم من يمضى على طريق السوء الذى هو فيــه إلى آخره . . والآخرون هيهات أن يراجعوا أنفسهم ، ويرجعوا إلى ربهم . . وقليل منهم من يفعل . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السُّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما » (١٧ : النساء) . . وقوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصرُّوا على مافعلوا وهم يعلمون » (١٣٥ : آل عمران)

والذين انتقلوا من حال المراجعة مع أنفسهم إلى حال التوبة وإصلاح ماأفسدوا ، هم فى حالهم الثانية على بعد بعيد من حالهم الأولى .. ولهذا جاء العطف « بثم » فى قوله تعالى : « ثم تابوا » .

والضمير فى قوله تعالى : « من بعدها » يعود إلى التوبة ، المفهومة من قوله تعالى « تابوا » . . وهذا يعنى أن المغفرة والرحمة من الله تجىء بعد التوبة من الذنب ، لاقبلها . .

الآيات : (١٢٠ — ١٢٤)

* « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (١٢٤)

التفسير :

مناسبة ذكر إبراهيم — عليه السلام — هنا فى قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً » .. هو ماذُكر فى الآيات السابقة من موقف المشركين واليهود ، من أحكام الله ، فى حِلّ المطاعم وحرمتها . .

ولما كان كلٌّ من المشركين واليهود ينتسب إلى إبراهيم — عليه السلام — ويدّعى كل منهم أنه على دينه — فناسب هذا أن يُذكر إبراهيم — عليه السلام — ويذكر دينه الذى كان عليه ، وإيمانه بربه ، وشكره لنعمائه ، الأمر الذى لم يستقم عليه أىٌّ من الفريقين من أبنائه .

فإبراهيم — عليه السلام — كان أمة ، أى كان مجتمعاً وحده ، يؤمن بالله ، بين مجتمعات كلها على الشرك والكفر . . فهو بهذه الصفة يمثل أمة مميزة عن غيرها ، بالإيمان ، تقابل تلك الأمم التى تمثل الكفر . . فهو الإنسان المؤمن ، الذى يقابل بإيمانه الكفر والكافرين جميعاً .

وكان إبراهيم مع إيمانه بالله قانتاً ، أى خاشعاً لله ، مسلماً أمرَه له . . وكان « حنيفاً » أى مائلا عن طرق الضلال والكفر . . « ولم يك من المشركين » أى لم يشرك بالله أبداً ، ولم تستجب فطرته لأن يعبد ما كان يعبد أبوه وقومه ، فنشأ مجانباً لهذه الضلالات ، عازفاً عنها .

وفى وصف إبراهيم — عليه السلام — بأنه كان « حنيفاً » - إشارة إلى أن المجتمع الذى كان يعيش فيه إبراهيم كان مجتمعاً يسير على طرق الكفر والشرك ، حتى لكأن ذلك هو وِجهة الحياة فى زمنه ، وحتى لكأن الخروج على هذه الوجهة ، يعدّ ميلا وانحرافا . . وهذا مما يعظم من شأن إبراهيم ، ويرفع قدره فى العالمين ، بين أتباع الحق ، وأهل الإيمان . . فقد خرج إبراهيم بإيمانه عن هذا الإجماع المطلق ، وشق لنفسه ثقبا فى هذا الحائط الصفيق ، المضروب حوله من الكفر ، ونفذ إلى عالم النور ! ولهذا استحق إبراهيم بأن يوصف هذا الوصف الكريم من ربه ، بأن كان حنيفا . . والحنيف هو المائل .. ولكنه هنا ميل إلى الحق والهدى والإيمان . . ولهذا أيضا اختُصّ إبراهيم — عليه السلام — بهذا الوصف دون سائر الأنبياء .. إذ كان أمة وحده .

— وفى قوله تعالى : « وما كان من المشركين » تعريض بالمشركين من أهل مكة ، إذ كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم .. فكيف يكونون على شريعته ، وهم مشركون ، وهو الحنيف ، الذى لم يكن فى يوم من أيامه من المشركين ؟

* وقوله تعالى : « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » . . هو معطوف على خبر كان فى قوله تعالى : « كان أمة قانتا لله حنيفا . . . » أى وكان شاكراً لأنعم ربه ، إذ اجتباه ربه ، أى اصطفاه لرسالته ، وأخرجه من عالم الكفر المتكاثف حوله ، وهداه إلى الحق ، والخير ، والإيمان . .

وفى هذا تعريض باليهود ، الذين خرجوا على شريعة أبيهم إبراهيم خروجاً صارخاً ، فكفروا بأنعم الله ، ومكروا بآياته ، وكذبوا رسُله ، وتنكبوا طريق الحق ، وركبوا طرق الضلال .

* قوله تعالى : « وآتيناه فى الدنيا حسنةً وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .. هو عطف على قوله تعالى : « اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » :

وفى الحديث عن الله سبحانه وتعالى بضمير الغيبة فى قوله تعالى : « اجتباه وهداه » . . ثم الحديث عنه تعالى بضمير الحضور « وآتيناه » . . إشارة إلى تلك المنزلة التى بلغها إبراهيم عند ربه ، بعد أن اصطفاه لرسالته ، وهداه إلى دينه . . فقد استقام إبراهيم على هذا الطريق المستقيم ، مجتهداً فى الطاعة ، مخلصاً فى العبادة ، حتى اتخذه الله سبحانه وتعالى خليلا له ، وأقبل عليه بعطاياه ومِننه : « وآتيناه فى الدنيا حسنة » . . فهو عطاء كريم تناوله من ربه من غير واسطة .

والحسنة التى آتاها الله سبحانه وتعالى إبراهيم ، هى على إفرادها وتنكيرها ، تسع ببركتها وخيرها ، الناسَ جميعاً . . ومن ثمرات هذه الحسنة هذا الذّكر الطيب الذى لإبراهيم فى هذه الدنيا ، حيث كان من ذريته الأنبياء ، ومنهم : موسى ، وعيسى ، ومحمد ، أصحاب الرسالات السماوية التى يدين بها المؤمنون بالله ! .

وفى قوله تعالى : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » إشارة إلى ما لإبراهيم عند الله فى الآخرة .. فهو عند الله من الصالحين ، الذين سَلِمُوا من كل سوء ، فاستحقوا منازل الرحمة والرضوان ..

* قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

العطف بثم هنا ، إشارة إلى الفاصل الزمنى بين رسالة إبراهيم ، ورسالة محمد ، عليهما الصلاة والسلام . . وليس هذا الفاصل الزمنى على امتداده بالذى يفصل بين حقيقة الرسالتين ، فهما من معدنٍ واحد . . بل هما شىء واحد ، فى الأصل الذى قامتا عليه ، وهو توحيد الله ، وإخلاص العبودية .

* قوله تعالى : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

السبت هو اليوم الذى جعله الله لبنى إسرائيل ، يومَ طـــاعة وعبادة ، يتخففون فيه من شئون الحياة الدنيا ، ويراجعون أنفسهم فيما وقع منهـم من سيئات ، خلال أيام الأسبوع الستة .. وبذلك يمكن أن يجد الواحد منهم فرصته فى إصلاح نفسه ، وتصحيح أخطائه ، قبل أن يمضى بها الزمن فينساها ، أو تـكثر ويزحم بعضها بعضاً ، فيعجز عن معالجتها ، وتفتر عزيمته عن لقائها ..

هكذا كان يوم السبت ، لبنى إسرائيل ، يوماً خالصاً لله ، وفرصة مهيأة للتطهر من الآثام ، والتخفف من الذنوب . . شأنهم فى هذا شأن النصارى فى يوم الأحد ، والمسلمين فى يوم الجمعة ..فهذا اليوم من كل أسبوع ، هو أشبه بالمنازل التى ينزلها المسافر خلال رحلة طويلة شاقة ، حيث تتهيأ له فى هذا المنزل فرصة الراحة والاستجمام ، والتزود بالماء والطعام ، وإصلاح أدوات السفر ومعدّاته ، إلى غير ذلك مما يعين المسافر على قطع المرحلة القادمة ، من رحلته .. وهكذا .. حتى تنتهى الرحلة ، ويُلقى عصا التسيار !..

ولو أحسن بنو إسرائيل استقبال هذا اليوم ، واستقاموا على ما أمرهم الله به فيه ـ لـكان لهم من ذلك خير كثير فى دينهم ودنياهم جميعاً .. ولـكنهـم مكروا بنعمة الله وكفروا بها ، شأنهم فى هذا هو شأنهم مع كل نعمة أنعم الله بها

عليهم ، فخانوا الله فى هذا اليوم ، وجعلوه يوم لهو ، وعربدة .. فجعله الله نقمة عليهم ، وابتلاهم فيه بتحريم ، صيد البحر ، فلما لم يستقيموا مع هذا الأمر ، ضاعف عليهم البلاء ، فأمسك عنهم السمك أن يجدوه فى البحر إلا يوم السبت ، وبهذا وضعهم الله أمام هذا البلاء ، وأوقعهم فى هذا الحرج .. فإن صادوا فى يوم السبت أثِموا ، وإن لم يصيدوا حرِموا الصيد أبداً .. وفى هذا يقول الله تعالى : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُونَ فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » .. (١٦٣ : الأعراف)

ولم يحتمل القوم هذا البلاء .. فاعتدوا فى السبت ، وصادوا فيه ما حرم الله عليهم صيدَه .. فأخذهم الله بعذابه ، وأوقع بهم نقمته .. فمسخهم الله ، وألبسهم طبائع القردة ، كما يقول الله سبحانه : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. (٦٥ : البقرة) .

وأكثر من هذا .. فإن الله قد حرم عليهم أن يعملوا فى هذا اليوم عملاً ، وأن يتحولوا إلى جمادات لا حس لها ولا شعور .. وفى هذا تقول التوراة : « اذكرْ يوم السبت لتقدسه * ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك * وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك * لا تصنع عملا ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمَتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك ..

« لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » .

هكذا تقول التوراة فى الأصحاح العشرين من سفر الخروج ، ولكن بنى إسرائيل لم يستقيموا على هذا الأمر ولم يحتملوا الصبر على هذا التكليف ، الذى لا حرج فيه .. ولا إعنات ، فكثرت حوله تأويلاتهم الفاسدة، حتى أبطلوا

الأثر الطيب الذى كان سيعود عليهم منه .. ولهذا جاءهم الله سبحانه وتعالى بما هو أشقّ وأمرّ ، نكايةً بهم ، ولعنةً لهم .. فكان حكم التوراة بعد هذا هو : « ستة أيام يُعمَل كل عمل * وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبتُ عطلةٍ مقدس للرب * كل من يعمل فيه عملاً يقتل .. لا تُشعلوا ناراً فى جميع مساكنكم يوم السبت » هكذا تقول التوراة فى « الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر الخروج » . .

فالعمل فى يوم السبت ، يوجب على اليهودى القتل ، وهذا ابتلاء عظيم من الله سبحانه ، لهذا القطيع المعربد ، حتى يكونوا من هذا الابتلاء بين أمرين ، أحلاهما مر .. فإن عملوا أى عمل فى يوم السبت ، ولو فى دفع عدو مغير عليهم وقعوا تحت حكم الله ، وهو استحقاقهم للقتل ، وإن لم يعملوا كانوا صيداً دانياً لكل من يريد اقتناصه ..

وفى قوله تعالى : « إنما جُعل السبت على الذين اختلفوا فيه ».. هو بيان لما حل ببنى إسرائيل بافترائهم على الله فى يوم السبت ، وخروجهم على حكم الشريعة فيه ، بما تأوّلوا من تأويلات فاسدة ، أملتها عليهم أهواؤهم ، فكان لكل جماعة منهم رأى فيه ، وكلها آراء فاسدة قائمة على الهوى . .

— وفى تعدية الفعل « جُعل » بحرف الجر « على » إشارة إلى أن هذا اليوم جُعل لعنة على بنى إسرائيل ، بعد أن كان رحمة لهم .. فما كان للإنسان ، فهو خير ، وما كان عليه فهو شر ، كما يقول الله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وُسعها . . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٢٨٦ : البقرة)

— وقوله تعالى : « وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » تهديد لليهود ، وأنهم سيؤخذون بآثامهم التى حملوها معهم ، من تلك الخلافات التى وقعت بينهم فى شريعة الله الواضحة الصريحة ، التى لا تحتمل

تأويلا ، ولا تثير خلافاً ، إلا حيث تتنازعها الأهواء ، وتتوارد عليها النظرات الزائغة والعقول السقيمة .

الآيات : (١٢٥ — ١٢٨)

* « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ » (١٢٨)

التفسير :

بهذه الآيات تُختتم سورة النّحل .. وهى السورة التى تدعو إلى الإيمان بالله ، بما تكشف من آيات قدرته ، المبثوثة فى هذا الوجود ، والتى تحدّث كل آية منها عن قدرة الصانع ، وعلمه وحكمته ، كما تحدّث عن النعم التى أفاضها الخالق جلّ وعلا على الإنسان ، حيث أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وجعل له السّمع والبصر ، والفؤاد ، ثم سخّر له مافى السموات وما فى الأرض ، وهيأ له أسباب الانتفاع بما فى الأرض والسماء .. من عوالم وموجودات ..

ودعوة الرسول إلى الله سبحانه وتعالى ، إذ تحمل هذه الدلائل البيّنة على قدرة الله ، لا تحتاج إلى قوة قاهرة ، توجه إليها الأبصار ، وتفتح لها العقول والقلوب .. فإن القوة هنا تضرُّ ولا تنفع ، حيث أن العقل هو المدعوّ إلى

التعرف على الله ، والإيمان به ، وليس سبيل العقل إلى العلم والمعرفة ، هو القهر والقسر ، وإنما سبيله النّظر والاقتناع ، فى جوّ من الحرّية المطلقة ، البعيدة عن الضغوط المادية ، أو المعنوية . .

فالإيمان الذى يكون تحت أىّ مؤثر خارجى ، يَختِل العقل ، أو يقهره ، هو إيمان مدخول ، لايطمئن إليه القلب ، ولا تتأثر به المشاعر ، ولا يجنى منه صاحبه ما يجنى المؤمنون من إيمانهم من ثمرات طيبة مباركة . .

ولهذا كان أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم بأن تكون دعوته قائمة على هذا النهج الذى يمثل الكمال كلّه فى غرس المعارف ، وتربية النفوس : « ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة » . . ومن الدعوة بالحكمة مراعاةُ مقتضى الحال ، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون ، وأخذهم بالرفق والتلطّف ، واختيار الوقت المناسب للموعظة التى يراد وعظهم بها ، حتى تتقبلها النفوس ، وتنتفع بما فيها من خير . .

إن الرسول طبيب يحمل الدواء إلى العقول ، والقلوب ، والأرواح . . ومن هنا كانت مهمته عسيرةً شاقة ، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة ، تتدسس إلى خفايا النفس الإنسانية ، وتضع يدها على موطن الداء . ثم تختار من الدواء مايشفى العلة ، ويذهب بالداء . .

* وقوله تعالى : « وجادلهم بالّتى هى أحسنُ » هو بيان لمرحلة من مراحل الدعوة ، وهى المرحلة التالية ، للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . . فالرسول مطالب بأن يَعرض دعوته فى أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا تقبّل المدعوّون دعوةالرسول فى هذا الأسلوب ، من غير عناد أو جدال ، فذاك، وإن كان من المدعوين عنادٌ وجدال ، فلا يلقى النبىّ المعاندين المجادلين ، معانداً

مجادلاً ، فذلك من شأنه أن يعمّى على الحق ، وأن يسدّ المنافذ الموصلة إليه ، وإنما على الرسول أن يَلْقَى جدال المجادلين بالحسنى ، وأن يصرفهم عن هذا الجدل العقيم ، إلى ماهو أجدى وأنفع لهم . .

وقد أرى الله سبحانه وتعالى النبيّ المَثَل الأمثل فيما يلقى به المجادلين ، حين أجاب سبحانه وتعالى عن سؤال إلى المشركين عن الأهلة ، فقال تعالى : « يسألونك عن الأهلة . . قل هى مواقيت للناس والحج » (١٨٩ : البقرة) ففى هذا الجواب الحكيم ، دعوة للمشركين أن ينصرفوا عن هذا الجدل العقيم حول الأهلة ، وكيف تبدو صغيرة ، ثم تكبر ، ثم تعود صغيرة — إلى مافى هذه الأهلة ، ودورتها ، من آثارٍ يتعرفون بها المواقيت لأمور الدين والدنيا جميعاً . .

ذلك هو الجدل بالتى هى أحسنُ وأقوم . . وعلى هذا المنهج ينبغى أن يكون جدل النبيّ ، فى كل موقف يكون بينه وبين المشركين أو الكافرين ، جدال . .

* وقوله تعالى : « إن ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » — هو تهديد لأولئك الذين يجادلون بغير علم ، ولغير غاية ، إلا المراء والإعنات . . فالله أعلم بهؤلاء الضالين عن سبيله ، لايجتمعون مع المهتدين ، ولاينزلون منازلهم ، بل يُعزَلون عنهم ، ويلقى بهم فى عذاب السعير .

* قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين » . . قيل إن هذه الآية والآيتين اللتين بعدها نزلت بالمدينة ، بعد غزوة أحد ، ولهذا حسبت الآيات الثلاث من القرآن المدنى ، على حين أن السورة كلها — فيما عدا هذه الآيات الثلاث — مكية . .

والمستند الذى يقوم عليه القول بنزول هذه الآيات بعد غزوة أحد — هو مايُروى من أن المشركين حين ظفروا بالمسلمين فى غزوة أحد مثّلوا بالشهداء تمثيلا لم تعرفه العرب ، فبقروا بطونهم ، وصلموا آذانهم ، وجدعوا أنوفهم ، إلى غير ذلك مما يقال من أن المشركين ونساءهم فعلوه بالشهداء ، تشفيًا لما أصابهم فى يوم بدر ، حتى ليقال إن هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان ، بقرت بطن حمزة — رضى الله عنه — وأخذت كبده ، وأكلت شيئاً منها !

ثم تمضى الرواية فتقول : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، حين رأى مافعل المشركون بحمزة ، وغيره من الشهداء حزن لذلك حزناً شديداً ، وحلف لئن أظفره الله بالمشركين أن يمثّل بسبعين منهم .. وكذلك فعل كثير من المسلمين. فنزل قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين . . » . . فأخذ النبىّ بما هو خير ، ولم يعاقب المشركين بمثل ماعوقب به ، وكفّر عن يمينه . . واقتدى المسلمون به .

ومما يؤيد القول بأن هذه الآيات مدنية ، ما تضمنته من دعوة المسلمين إلى أن يعاقبوا بمثل ما عُوقبوا به ، أو يصبروا على ما أصابهم ، فذلك خير لهم ، وأولى بهم . . وتلك حال لم تكن للمسلمين فى مكة ، إذ كانوا ولا قدرة لهم على ردّ العدوان بالعدوان ، وإنما كان الصبر على المكروه ، هو كل عُدّتهم فى هذا الدور من الصراع الذى كان بينهم وبين المشركين . .

* قوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزَنْ عليهم ولا تك فى ضَيْقٍ مما يمكرون » — هو دعوة النبىّ الكريم إلى الأخذ بما هو خير له من الأمرين اللذين خيّره الله سبحانه وتعالى بالأخذ بأىٍّ منهما ، فى قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . .

فإذا كانت الدعوة إلى الأخذ بالصبر على سبيل التخيير فى جانب المسلمين عامة فإنها فى جانب النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمر وإلزام .

وقد اختُص النبىّ الكريم بالدعوة إلى الأخذ بالصبر وحده ، دون أن يعاقب بمثل ماعوقب به ـ لأن ذلك مقام لايحتمله إلا قِلة قليلة من الناس ، على رأسهم أنبياء الله ورسله . . ولهذا جاء أمر الله خاصة إلى النبىّ الكريم : « واصبرْ » . . ولم يجىء هكذا : « واصبروا » وإن كان هذا لا يمنع من أن يتأسّى المسلمون بالنبىّ فى هذا . . فهو قدوة المسلمين فى كل ماهو كمال ، وخير ، وإحسان . .

ـ وفى قوله تعالى : « وماصبرك إلاّ بالله » . . هو تطمين للنبىّ الكريم ، وتثبيت لفؤاده على التزام الصبر ، وإيناس له من وحشة هذا العبء الثقيل الملقَى عليه ، إذ أنه سيتلقى المدد والعون من الله ، وأن هذا الصبر الذى يُدعى إليه ، إنما هو صبرٌ عظيم ، لا تحتمله النفوس إلا بالاستعانة عليه بالله .. والله سبحانه وتعالى مُعينه ومُمدّه بألطافه .

وفى إضافة الصبر إلى النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « وماصبرك إلا بالله » ـ إشارة إلى أنه صبرٌ من طبقة عالية ، لاينالها إلا النبىّ الكريم ، المؤيد من الله ، والمزوّد منه سبحانه بالقوة والعزم على احتمال هذا النموذج الفريد من الصبر .. فهو صبر ذوصفة خاصة .. هو صبرالنبىّ صلوات الله وسلامه عليه ..

وقوله تعالى : «ولاتحزن عليهم» ـ هو عزاء للنبىّ الكريم ، فيما كان يجد فى نفسه من حزن وأسًى على قومه الذين غلبت عليهم شِقوتهم فماتوا على الكفر ، حَتْفَ أنوفهم ، أو فى ميدان القتال بأيدى المسلمين ..

ـ وقوله تعالى : « ولا تك فى ضَيْقٍ مما يمكرون » .. هو مواساة للنبىّ ، وتخفيف لما يقع فى نفسه من ألم ، إذ يرميه قومه بالضرّ والأذى ، ويبيّتون له

الكيد، ويدبرون له السوء.. كما يقول الله سبحانه وتعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبِتُوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» (٣٠: الأنفال).. فالله سبحانه وتعالى هو الذى يتولى عنه دفع هذا الكيد، وإبطال هذا المكر..

* قوله تعالى: «إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».. هو حكم عام لله سبحانه وتعالى فى عباده، وهو أنه سبحانه وتعالى، يتولّى المتقين المحسنين منهم، ويحوطهم برعايته، ويُمدهم بأمداد عونه ونصره.. وفى هذا الحكم يرى النبىّ الكريم أن هذه الأمداد التى يُمدّه بها ربّه، إنما هى مما قضى الله به فى خلقه، وأن هذا العطاء الكريم هو من نصيب المحسنين المتقين، وأنه بِقدْر مايبلغ الإنسان من إحسان وتقوى، يكون قربه أو بعده من معيّة اللهِ.. والنبىّ الكريم ـ لاشك ـ أوفرُ عباد الله حظًّا من التقوى والإحسان، فهو لهذا أكثرعباد لله قربًامن ربّه..

والمعيّة فى قوله تعالى: «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» هى معيّة القرب من ألطاف الله، والتعرض لنفحات رحمته وإحسانه.. كما يقول سبحانه وتعالى: «إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين» (٥٦: الأعراف).

والتقوى: أساسها الإيمان بالله.. لاتنبت مغارسها، ولا يثمر زرعها، إلا إذا غُرس فى تربته، وارتوى من مائه..

ومِلاك أمر التقوى، هو امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، أو كما يقول بعض العارفين: «هى ألاّ يراك الله حيث نهاك، وألا يفتقدك حيث أمرك».

أما الإحسان.. فهو التقوى فى كمالها وتمامها.. حيث يستقيم المؤمن على شريعة الله، ويلتزم حدوده، فيصطبغ بصبغة التقوى، التى يصبح بها من عباد

الله المحسنين المقربين.. وقد أجاب النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، حين سئل عنه ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقد كشف الله سبحانه عن حقيقة الإحسان فى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتقوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوْا وآمنوا ثم اتقوْا وأحسنوا والله يحب المحسنين » (٩٣ : المائدة) .. ففى هذه الآية مايكشف عن قيمة الإحسان ، ومكانة المحسنين . إذ هو الغاية التى يبلغها المؤمنون بإيمانهم ، وينالها المتقون بتقواهم ..

وعلى هذا ، يكون المتقون ، والمحسنون ، فى منزلتين من منازل الإيمان .. وأن كلاًّ من المتقين والمحسنين له شرف « المعيّة » مع الله .. وإن كان المحسنون أقرب قربا ، وأكثر عطاء ورِفداً ..

جعلنا الله سبحانه وتعالى من عباده الذين اتقوْا والذين هم محسنون ، وأنزلنا منازلهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، ونفعنا بهم فى الدنيا والآخرة ..

إنه سميع مجيب * والحمد لله رب العالمين .

* * *

تم بعون الله الجزء الرابع عشر ويليه الجزء الخامس عشر إذا شاء الله .

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الثامن

الجزءان: الخامس عشر والسادس عشر

من مباحث هذا الكتاب

- وقفة .. مع الإسراء والمعراج.
- الحقيقة المحمدية .. وما يقال فيها.

بنو إسرائيل .. ووعد الآخرة.

القرنين .. من هو وما شأنه.

ـناء .. والقـدر

وهل يردها الناس جميعا.

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

١٧ – سورة الإسراء

نزولها : نزلت قبل الهجرة بنحو عام ، فهى مكية . . وقيل إن فيها بضع آيات نزلت بالمدينة ، منها قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك » . . إلى قوله تعالى : « وقل ربّ أدخلنى مُدخل صدق » . . ومنها آية : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » . . وآية : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ »

ويقول « الفيروزابادى » فى كتابه « بصائر ذوى التمييز » : إن السورة مكية باتفاق ! !

عدد آياتها : مائة وإحدى عشرة آية . .

عدد كلماتها : ألف وخمسمائة وثلاث وستون كلمة . .

عدد حروفها : ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفا . .

[ما يقال فى تسمية السورة]

الرأى على أنها سُميت الإسراء . . لأنها بدأت بالإسراء ، ولأن الإسراء أعظم حَدَث فى حياة النبىّ ، بل وفى حياة البشرية كلها . . فلم يقع هذا الحدث فى الحياة البشرية ، إلا تلك المرّة . . فكان بذلك أعظم مَعْلم من معالم تلك السورة ، وحُقّ له أن يكون وحده دون غيره ، عنوانا لها .

هذا ، و « البيضاوى » فى تفسيره ، يسمّى هذه السورة سورة : « أسرى » جاعلاً فعل الإسراء « أسرى » ، هو العنوان للسورة ، دون تغيير فيه . .

* * *

ومن أعجب الأعاجيب هنا ، أن نجد لهذه السورة اسماً ، يجعله المفسّرون من بعض أسمائها ، على ما جرت به عادتهم من تكثير الآراء وحشدها ،

للأمر الواحد .. فجعلوا من أسماء هذه السورة ، اسم : « بنى إسرائيل » .. وواضح أن هذا الاسم دخيل منتحل ، تسلّل إلى المفسِّرين وأصحاب السِّير ، فيما تسلّل من الإسرائيليات، التى دسّها اليهود على هؤلاء العلماء ، فقبلوها منهم بحسن نيّة ..

ولو كان لبنى إسرائيل أن تكون لهم سورة باسمهم فى القرآن الكريم ، لكانت سورة البقرة ـ مثلا ـ أولى من الإسراء فى هذا المقام ، إذ كانت البقرة تحوى من أخبار بنى إسرائيل ، أكثر مما تحويه سورة الإسراء ، ومع هذا فقد أخذت السورة اسم البقرة ، وهى بقرة بنى إسرائيل ، ولم تأخذ اسمهم ! الأمر الذى يحمل على القول بأنه مستبعد أصلا أن يكون لبنى إسرائيل سورة باسمهم فى كتاب الله ، وإن كان لأبى لهب سورة باسمه !

ومن جهة أخرى ، فإنا نرى سوراً فى القرآن ، فيها حديث مستفيض عن بنى إسرائيل ، كسورة الأعراف ، وسورة طه ، مثلا ، ومع هذا فلم تُسمَّ أىٌّ منهما سورة بنى إسرائيل ! !

فلماذا كانت سورة « الإسراء » بالذات ، هى التى يدخل عليها هذا الاسم ، وينازعها شرف هذه التسمية التى سميت بها تلك السورة ؟

إننا نشمّ هنا ريح « اليهود » ونجد بصمات أصابعهم المتلصصة ، التى تريد أن يكون حديثُ « الإسراء » حديثاً خافتاً ، لا يُذكر إلا عند تلاوة الآية ، دون أن يجرى له ذكر عند الحديث عن سور القرآن الكريم ، كلما ذكرت آية من آيات هذه السورة ، ونسبت إليها الآية .. وذِكر السورة فى القرآن الكريم يجرى عادة أكثر من ذكر أى آية من آياتها .

هذه واحدة ، من فعلات اليهود فى حديث الإسراء !

وأكثر من هذا كيداً ، ومكراً ، ما أدخلوه على حديث الإسراء ذاته من زُور الأحاديث ، التى أخذها عنهم بعض العلماء،عن غفلة ، ونيّة حسنةٍ ، باعتبار أن هذه الأحاديث المبالغ فيها تُعلى من قدر النبىّ ، وترفع من شأنه .. وما دَروْا أن تلك المفتريات إذ تجتمع مع الحقّ ، تبعث حوله الشك والاتهام ، الأمر الذى يذهب بجلال الحقيقة وروعتها ، وإنما مردّ ذلك الجلال ، وتلك الروعة ، إلى قربها من الطبيعة البشرية ، ومداناتها للواقع المألوف .. وحسبنا شاهداً لهذا ، القرآنُ الكريم ، فى إعجازه الذى قَصُرت عن مداناته أيدى الإنس والجن ، ومع هذا ، فهو من كلامٍ لم يخرج عن مألوف اللسان العربىّ ، ولم يجاوز حدود اللغة العربية !

وسنرى فى حديث الإسراء ، مادخل على هذا الحديث من دسّ اليهود وكيدهم ، الأمر الذى ألقى شُبَهاً كثيرة عند من يستمعون إلى هذا الحديث وما اختلط به ، فلا يدرى المؤمن ماذا يأخذ من هذه الأحاديث وماذا يدع ، فلو أنه أخذها جملةً لما اطمأن إليها قلبه ، ولَمَا سكن إليها عقله ، ولو أخذ بعضاً وترك بعضاً ، لفقد الثقة فيما أخذ أو ترك .. جميعاً !!

[مناسبتها للسورة التي قبلها]

خُتمت سورة النحل ، التى قبل هذه السورة بقوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلا باللهِ ولا تحزَن عليهم ولا تك فى ضيقٍ مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم محسنون » .

وهذا الختام يحدّث عما كان يعانيه الرسول الكريم من ضِيق ، وما يجده فى نفسه من مشاعر الحزن والألم ، لِمَا يلقى من قومه وأهله من كيد ، ومايرى فيهم من عناد وإصرار على الكفر والضلال .. فناسب ذلك أن يُذكر معه ، ما كان من فضل الله على النبي الكريم ، بهذه الرحلة المباركة التى رأى فيها النبىّ

الكريم ماراى من آيات ربّه ، فوجد فى هذا ، الروْحَ لنفسه ، والانشراحَ لصدره ، والعزاء الجميل من مصابه فى أهله ..

ولعلّ فيما حدّث به ختامُ سورة النّحل مايكشف عن بعض حكمة الإسراء ، وأنه — كما سنرى — كان استضافة للنبيّ الكريم فى رحاب الملأ الأعلى ، ليستشفى مما نزل به من ضيق ، وما ألمّ به من ألم ، فى هذا الصراع الذى كان محتدماً بينه وبين قومه ، حتى لقد كانت تتنزّل عليه آيات الله تدعوه إلى أن يَرفُق بنفسه ، وأن يتخفف من مشاعر الحزن على أهله ، ألا يكونوا مؤمنين . وفى هذا يقول سبحانه « فلا تَذْهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ » (٨ : فاطر) ويقول جلّ شأنه : « أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) ويقول سبحانه : « إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء » (٥٦ : القصص) .. ويجتمع هذا كله فى قوله تعالى فى آخر سورة النحل : « ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضَيْقٍ مما يمكرون » ..

فناسب هذا الختام للسورة أن تجىء بعدها سورة الإسراء ، وما كشف الله لنبيه فى هذه الرحلة المباركة من جلال ملكوته ، وما أراه من أسرار علمه وحكمته !

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية : (١)

* « سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ آيَاتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (١)

١٠ ج

التفسير :

سُبحان : مصدر ، منصوب ، بفعل محذوف تقديره سبِّح ِاللهَ تسبيحاً ، أو سبّحه سبحاناً ..

أسرى : أسرى بكذا ، أى سار به ليلا .. وأصل الفعل من السرّ ، وهو ماخفى عن غير صاحبه من الأمور . . ولأن الليل يستر النـاس ، ويخفى شخوصهم وأفعالهم عن الناس ، فقد سُمِّى السير فيه سُرًى .. وسُمّى تحرك الليل نفسه ، سُرًى ، وذلك لأنه يقطع رحلته فى دورة الفلك من أول الليل إلى آخره دون أن يَدُلّ دليل على حركته ، إلا شواهد باهتة خفية لايراها إلا من يتربص له ، ويرصد مسيرته .. فأول الليل وآخره سواء ، فى مرأى العين .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « والفجر * وليال عشر * والشّفع والوَتْر * واللّيل إذا يَسْر * » .. فالليل نفسه يسرى ، أى يسير متخفيًا فى ظلام ، مستتراً به ، لاتنكشف حركته للناس .. !

وعلى هذا ، فـكل حركة ، أو عمل ، يكون فى خفاء يُمكن أن يطلق عليه لفظ « سُرًى » ، فيقال : أسريت بهذا الأمر أى فعلته سِرًّا ، دون أن يطلع عليه أحد . .

وقَيْد السُّرى باللّيل هنا ، يرادُ به تحقيق أمرين :

أولهما : اتخاذ الليل ستاراً للسير ، وظرفاً حاوياً له ، حتى لاتنفـذ إليه الأبصار ..

وثانياً : التحرك فى حَذَر ، وحيطة ، وفى خفاء ، دون جلبة أو ضوضاء .. الأمر الذى يعين على إنفاذ الأمر دون أن يفضح .. فإن الليل وإن كان ستراً

يحجب الأبصار ، فإن مع الأبصار التى حجبها الليل أسماعاً ، لايعطّل وظيفتها ظلام الليل ، بل سكونه يزيد من قدرتها على التقاط الأصوات ، والإمساك بها .. ولعلّ هذا هو مانلمحه فى قوله تعالى للوطٍ عليه السلام : « فأسرِ بأهلك بِقِطْعٍ من الليل » (٨١ : هود) وقوله تعالى لموسى عليه السلام : « فَأَسْرِ بعبادى ليلا إنكُمْ متَّبَعُون » (٢٣ : الدخان) .. فقد جاء الأمر إلى النَّبيّيْن الكريمين بالسُّرَى ليلا ، ليكون اللّيل ستاراً لهذا السير ، إلى جانب مايكون من حَذَر وحيطة واحتراس ، فى اخفاء كل حركة ، وكل صوت ، ينبيء عن هذا السير ، أو السُّرى . . ! ومن هنا سُمِّى النّبع الجارى فى سلاسة ، ورفق ـ سُمّى « سَرِيًّا » كما يقول سبحانه وتعالى لمريم : « فناداها من تحتها ألاَّ تحزنى قد جَعَل ربك تحتك سَرِيًّا » (٢٤ : مريم) .

وقد توسعنا فى شرح كلمة « أَسْرَى » وفى قيدها بظرف الليل ، لندرك السرّ فى قوله تعالى : « سُبْحان الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً » وأن قيد السُّرَى هنا بالليل ، وجَعْله وِعاء حاوياً له ، لم يكن توكيداً للخبر بأن الإسراء كان بالليل ، كما يقول بذلك المفسِّرون ، فهذا الظرف ـ فى رأيهم على هذا القول ـ ليس له أثر فى معنًى لفظ « الإسراء » . . إذ الإسراء أو السُّرى ـ عندهم ـ لا يكون إلا ليلًا . . فكلمة « ليلًا » عندهم لمجرد التوكيد ، بالتكرار ! !

وقد رأيتَ أن معنى الإسراء ، أو السُّرى ، هو الخفاء ، وأنه مشتق من السّرِّ ، وأنه وإن غلب السُّرى على اللّيل ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون بالنّهار إذا وقع الأمر فى ستر من الخفاء ، غير هذا الستر الطبيعى الذى يُتّخذ من الليل . .

* فقوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا » يشير إلى أمرين : أولهما : أن ظرف الإسراء كان ليلًا ، وثانيهما : أنه كان بحيث لم يشعر به أحد ، بل وقع فى ستر ، بحيث لم يلحظه أحد من المُتصلين بالنّبىّ ، القريبين منه ، الذين كانوا يشاركونه الحياة فى بيته ، وفى الحجرة التى كان ينام فيها .

ونستظهر من هذا أمرين أيضاً :

أولهما : أن الإسراء بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، كان بجسده ، ولم يكن بروحه الشريف وحده . . وأنه لو كان بروحه لما جاء التعبير القرآنى عنه بلفظ « أسرى » الذى يدلُّ فى ذاته على الستر والخفاء ، ولما جُعل هذا الستر فى مضمون ستر آخر هو الليل ، كما يقول سبحانه : « ليلًا » . .

وثانيهما : أن هذا الإسراء بالنبىّ الكريم ، لم يكن معجزة متحدّية ، وإنما هو رحلة روحيّة ، واستضافة من الله الرحمٰن الرحيم ، للنبىّ ، فى رحاب ملكوته ، حيث يشهد من ملكوت الله ، ويتزود من ألطاف الله ، ما لم يشهده بشر ، وما لم يتزود به إنسان !

هذا ، وقد كان للإسراء حديث طويل متصل ، امتلأت به كتب التفسير ، والسّيَر ، وقد دخل على هذا الحَدَث كثير من الخيال ، وكثير من الكذب والدسّ ، حتى كاد يختنق الشعاع المنبعث منه ، وتغيب عن نظر الناظر فيه ، مواقع العبرة والعظة منه . .

ولهذا رأينا أن نقف من هذا الحَدَث وقفة ، ندفع بها ما نستطيع دفعه من هذا الضباب المتكاثف حول « الإسراء » ، حتى يستطيع المسلم أن يرى وجه هذه الآية الوضيئة التى اختص الله سبحانه وتعالى بها خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . .

[وقفة مع الإسراء . . والمعراج]

قد رأينا فى مفتتح هذه السورة أنها تبدأ بقوله تعالى : « سبحان الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا من المسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير » .

فهذه الآية ، هى كلّ ما ذَكر القرآنُ ذِكراً صريحاً عن الإسراء . . وكان من أجل هـذا أن سُمِّيت السورة سورةَ « الإسراء » ، باعتبار أن « الإسراء » هو أبرزُ حدَث فيها ، وأظهر وجه من وجوه الأحداث التى عرضت لها هذه السورة .

وإذن ، فالحديث الحقّ عن الإسراء ، ينبغى ألا يخرج عن مضمون هذه الآية ، وألا يجاوز حدودها . .

والإسراء ـ كما يُفهم من هذه الآية ـ هو رحلة سماوية ، أرادها الله سبحانه لنبيّه الكريم ، ليريَه سبحانه وتعالى من آياته ، ما لا تراه العيون ، ولا تتظنّاه الظنون !

وحدود هذه الرحلة ـ كما يذكر القرآن ـ هى : من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس .

وزمانها ، لحظة من لحظات الليل . . كما يقول سبحانه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا . . »

فالآية صريحة فى « الإسراء » وفى أنه كان فِعلًا للنبى الكريم ، وأنه واقعة حقيقية ، وليس رؤيا منامية ، وإلاّ لما كان له ذِكر خاص فى سورة خاصة .

والذى يقف بالإسراء عند هذا الحدّ الذى قطعت به هذه الآية الكريمة ، يجد أن تلك الإضافات الكثيرة ، وتلك الذيول الطويلة التى عَلِقَتْ بحديث

الإسراء ، ليس من مُعطيات الآية الكريمة ، من جهة ، ولا تستدعيه غاية الإسراء ، ولا يحتاج إليها الكمال الذى يجب أن يكون عليه — من جهة أخرى . .

فالإسراء ، على ماتشهد به الآية — لم يكن — كما أشرنا من قبل — معجزة متحدية ، وإنما هو — كما قلنا — رحلة روحية إلى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، وأول قِبلةٍ للإسلام !!

دواعى هذه الرحلة :

كان الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — قُبيل الإسراء ، فى وجه خصومة عنيفة ظالمة ، من قومه .. يدعوهم إلى الرشاد والخير ، فيلقَوْنه بالتكذيب والبهْتِ ، ويرْمُونه بالسُّوء والأذى .. وهو رحيم بهم ، حريص على هدايتهم ، تكاد تذهب نفسه حسرةً عليهم ، إذ يراهم يتمزقون شُعَباً ، ويتقطعون أوصالاً بين يدى دعوته التى يدعوهم إليها ..

وليس حال أدعى من هذه الحال ، للخروج من هذا الجوّ الثقيل الخانق ، إلى جوّ آخر ، فيه راحة للصدر واسترواح للنفس !

ولكن : إلى أين المذهب والنبىّ قائم على دعوة السماء ، موجه برسالتها ؟ إنه لامفرّ للنبىّ — إن أراد أن يظل فى سجل الأنبياء — من أن يثبُت فى موقفه ، لايزايله ، ولا يتحول عنه أبداً ، وإن هلك ! وقد قالها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لعمّه أبى طالب ، حين دعاه عمّه إلى أن يترك ماهو فيه ، ويلْقى قومه بالموادعة ، حتى لا تتمزّق وحدة قريش ، ويقتل بعضها بعضًا ، فقال قولته الخالدة : « وَاللهِ يَا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِى يَمِينِى وَالْقَمَرَ فِى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، أو أهلك دونه » !

ولـكن .. هاهى ذى الأحداث تزداد شدة ، والشر يشتد اشتعالا ، فتأتمر قريش فيما بينها على أن تـكون جبهة واحـدة فى وجه النبى ، ومن يقف إلى جِواره من قومه . .

وقد أبت العصبية العربية على بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب — رهط النبى الأدنيْن — أبت عليهم العصبية العربية ، أن يتخلوْا عن النبى ، وأن يُسْلموه لقريش ، تنال منه ، وتستبد به !

وكان من هذا أن عمدت قريش إلى مقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وعقدت فيما بين بطونها واتخاذها عهداً ، على ألا يتعاملوا مع بنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، فلا يزوّجوهم ، ولا يتزوجوا منهم . ولا يأخذوا منهم أو يعطوهم . بل إنها القطيعة التامة فى كل شىء يتواصل الناس به .

وقد واجه بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، هـــذه الحرب الاجتماعية والاقتصادية ، بشجاعة وصبر ، وإباء ، وأبوْا أن يُعطوا الدنيّة فىهذا الامتحان ، الذى تُعرف فيه معادن الرجال .. فجمع أبو طالب — عميد بنى هاشم — أهلَه ، وانحاز بهم إلى شِعب أبىطالب [1] .. واستمر هذا الحصار ، نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد فيها غايته ، حتى سُمع أصوات صبيانهم يتضاغوْن جوعاً من وراء الشِّعب !

وطبيعى أن النبى الـكريم ، كان خلال هذه المحنة يحمل فى نفسه كل مالقى آل عبد المطلب ، وآل هاشم ، من جهد ومشقة . . فـكل ما كان يقع من آلام فى محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ، وفى جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع على مشاعر

(١) شعب أبى طالب : هو محلة انحاز إليها بنوهاشم مدة الحصار ، فسميت بهذا الاسم .

النبي ، ويَهيج خواطر الألم والإزعاج فى نفسه . قبل أن يصل إليهم . . أضعاف ما كانوا يجدون من ألم وإزعاج !

ذلك أنه — وهو النبي — يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لوحملها عنهم ، أو رَمى بها فى مكان سحيق . . فكيف بما يقع فى نفسه من هذا ، للآلام التى يراها فى أهله وذوى قرابته القائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى ، يرى أن ما نزل بأهله من آلام وشدائد ، خلال تلك المحنة ، إنما كان بسببه هو ، وأن ذلك الذى احتملوه من أجله ، لم يكن بسبب العقيدة والدّين ، وإنما كان من أجل القرابة والدم . ولو كان من أجل العقيدة والدين ، لهان الأمر ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدّوا ضريبة الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذى ينتظرهم من رب العالمين !

إن الآلام النفسية والروحية ، بل والجسدية ، التى احتملها النبى خلال تلك المحنة التى عاش فيها أهله . . كانت من أقسى مالقى النبى فى طريق دعوته من آلام .. إنه حمل آلام أهله كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . . فمن أجل النبىّ احتملوا هذه التجربة القاسية ، وفى سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجهوا هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

رحلة فى العالم الأرضى :

وحين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه فى نفس النبى ، وأصبح جو مكة ثقيلا خانقاً .. أراد — صلوات الله وسلامه عليه — أن يلتمس له متنفساً خارج مكة ، لعله يجد أعواناً على الحق ، وأنصاراً للخير ، يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته .

كان لابد أن يلتمس النبى لنفسه ولدعوته مجالا آخر خارج مكة ، بعد أن

لقىَ هو وأهله الأدنوْن مالقُوا من هذا البلاء الشديد ، أثناء الحصار الذى ضربته عليهم قريش نحو ثلاث سنين ..

ومما ضاعف من وقع الآلام فى نفس الرسول ، أن سقط فى ذلك الحين الجناحان اللذان كانا يَرِقّان عليه رحمةً وحناناً . ذلك أنه ما كادت تنتهى محنة الحصار ، ويفسد تدبير قريش ، وتُنْقض صحيفتها التى أبرم فيها هذا العقد الذى عقدته بينها لمقاطعة بنى هاشم ، بعد أن سلّط الله عليها الأرَضَةَ فأكلتها جميعاً ، إلا ماورد فيهامن ذكر اسم الله عز وجل — ما كادت تنتهى هذه المحنة . حتى مات عمه أبو طالب ، بعد خروجه بقومه من الشِّعب بستة أشهر . . ثم لحقت به الزوجة البَرّة الرحيمة السيدة خديجة ، بعد موته بثلاثة أيام !!

فانظر كيف ابتُلى النبى الكريم هذا الابتلاء فى عمه وفى زوجه ، وكيف تَفرُغ يده من كلّ قوة مادية على هذه الأرض كانت تقف إلى جانبه ، وتشد أزره ؟ ومتى كان ذلك ؟

إنه كان فى أحرج مواقف الدعوة ، وحين بلغ الأمر من الشدة والشقاق مداه ، بين قريش ، وبين النبى .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والمِحن التى مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر التى قضاها النبى الكريم بين قومه ، يغاديهم ، ويراوحهم بآيات الله وكلماته ، فلا يسمع منهم إلا مايسوء ، ولا يلقى منهم إلا ما يكره — نقول إن ذلك كله كان تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعداداً لاستقبال الطور الجديد من أطوارها — حيث ستشهد الأيام التالية أحداثاً جِساماً ، وتطورات خطيرة فى حياة هذا الدين الجديد . فسيلتقى النبى بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة ، وسيتلقّى أجوبة مختلفة لما يُلْقِى على الأسماع من آيات الله ، وسيهجر النبى موطنه ، ويهاجر إلى موطن

آخر ، وأقوام آخرين غير قومه .. وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويُبتلى النبى فى نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون فى هذه المعارك ، وسيقوم النبى على توجيه مجتمع إسلامى ضخم ، بعد أن يجيئه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً !

إن هـذا البلاء العظيم الذى ابتلى به الرسول ، هو — كما قلنا — إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى ، وإن هذا البلاء أشبه بعمل المحاريث والفئوس ، فى شقِّ الأرض ، وتقليب تربتها قبل أن يُلْقَى فيها الحَبُّ . . فذلك هو الذى يتيح لهـا الجو الصالح ، لأن تعطى خير مافيها من عناصر الإنبات ، لِما يُلقَى فيها من حَبّ !

نقول إنه فى هذا الجو الثقيل الخانق ، الذى كان يضيق به صدر الرسول فى مكة — خرج إلى الطائف ، يعرض نفسه ، ويقدّم دعوته إلى « ثقيف » يلتمس منهم الاستجابة له ، والنصرة لدعوته ، والمنعة بهم من قومه . . وكان معه فى رحلته تلك ، مولاه زيد بن حارثة !

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف ، عَمَد إلى سادة ثقيف وأشرافهم ، فدعاهم إلى الله ، فلم يَرَ منهم إلا إعراضاً ، وسفهاً ، وتكذيباً ، واستهزاء . . وكان فيما قال له صاحب كلمتهم : « والله لا أكلمك أبداً ! لئن كنتَ رسولا — كما تقول — لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك السلام ! ولئن كنت تكذب على الله . ماينبغى لى أن أكلمك ! ! »

إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلوم جَهول !

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خيرهم ، إن كان فيهم خير ، وقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : « أما إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى . . » إذ كَرِه رسول الله ، أن يبلغ ذلك قومَه عنه ، فيغريهم ذلك به ، ويدفعهم إلى

الانتقام منه ، ومضاعفة الكيد له ..ولكن القوم لم يفعلوا ، وبعثوا إلى قريش من يخبرها بما كان من أمر محمدٍ معهم ، ثم أغروْا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سِمَاطيْن (أى صفين) وجعلوا يَسْفَهون عليه ، ويرمونه بالحجارة حتى دَميت قدماه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شِجَاج فى رأسه !

وترك الرسول الكريم — بأبى هو وأمى — الطائفَ على تلك الحال ، وقد امتلأت نفسه أسًى وحسرة ، وفاض صدره ، ضيقاً وحَزَناً !

ولكن إلى أين المسير ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أى حال ، لا يزال يمسك منها على شىء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمع فى خير من أهلٍ أو صديق فيها !

وقبل أن يتخذ الرسول وجهته إلى مكة ، أسند ظهره إلى شجرة نائية هناك ، حتى تجتمع نفسه ، وتسكن خلجاته ؛ ويخف عنه بعض ما حمل من أهل ثقيف من آلام !

وفى ظل هذه الشجرة ، وجّه الرسول وجهه إلى ربّه ، يناجيه ، ويطلب العوْن والمدد من رحمته ، تخفق قلبه بهذا النداء الدافىء العميق ، وتحركت شفتاه بهذا الدعاء الندىّ العطر ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء فى مالك الملك ، ومَن بيده ملكوت السموات والأرض . . فيقول صلوات الله وسلامه عليه :

« اللهمّ . . أشكو إليك ضَعْفَ قوّتى ، وقلّةَ حيلتى ، وهوانى على الناس !

« ياأرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعَفين ، وأنت ربى . . .

« إلى مَن تَكِلُنى ؟ إلى بعيدٍ يتجهّمنى[1] ؟ أم إلى عدوٍّ ملّكته أمرى ؟

« إن لم يكن بك غضبٌ علىّ فلا أبالى . .

---

(١) أى يتنكر بى . والمراد بالبعيد ثقيف ، وبالعدو : قريش .

« غير أن عافيتك أوسع لى . .

« أعوذ بنور وجهك ، الذى أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحلّ علىّ غضبُك ، أو أن ينزل بى سَخَطُكَ .

« لكَ العُتْبَى حتى ترضَى (١)

« ولا حولَ ولا قوة إلا بك . .

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، المخلّقة بأنفاس النبوة الطاهرة ، اتجهَ الرسول إلى ربّه . . متضرعاً ، متوجهاً ، طالباً رِضا ربّه ورحمته ، فى صبر وحمد ، على السَّرّاء والضرّاء !

مَدَد غير منتظر :

وفى طريق الرسول الكريم من الطائف إلى مكة ، نزل منزلًا بمكان يُسمّى « نخلة » وقضى فيه ليلته ، ثم قام فى جوف الليل يصلّى ، ويتهجّد بكلمات ربّه ، فصُرف إليه نفرٌ من الجِنّ ، فاستمعوا له ، وباتوا الليل معه ، دون أن يشعر بهم ! . .

وفى الصّباح ، وقبل أن يُزايل النبىّ مكانَه الذى بات فيه ، تلقى خبر السّماء فى قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجِنِّ يستمعون القرآن ، فلما حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .. » . . (الآيات : ٢٩ — ٣٢) من سورة الأحقاف .

فكان هذا عزاء كريماً للرسول الكريم ، ومواساة رقيقة مست مشاعر النبىّ ، وذهبت بكثير مما خالطها من الألم والحزن ، فشاع فى كيانه الرّضا والاطمئنان . . إنه ليس وحده ، وإن صوت السماء متصل به ، وإن جندًا

(١) العتبى : ما يزيل آثار الأمر الذى استوجب العتاب أو اللوم .

من جنود الله — لا يرام — يحفّون به ، ويستمعون إليه ، ويؤمنون به ، وبالكتاب الذى أنزل عليه .

ومَن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من « الجنّ » . . الجنّ الذى يُضرَب به المثل فى الخروج على كل نظام ، والتأبّى على كل نداء ! .

فكيف لا يكون لهذا القرآن مثلُ هذا الأثر فى نفوس الناس ، وفى أضلّهم ضلالًا ، وأعتاهم عُتُوّا ؟

ولا شك أن فى هذا قدراً كبيراً من التنفيس عن رسول الله ، والتطييب لخاطره ، بعد تلك التجربة القاسية التى مرّت به فى الطائف . . وإنها لزاد يتزوّد به الرسول ، ويجد منه القوة على مواصلة السّير فى طريقه إلى قومه ، وفى مواجهة تحدّيهم له ، وعنادهم وتأبّيهم عليه ! .

وعلى هذا العزم ، ومع تلك القوة ، مضى الرسول إلى مكة ! .

ولا يجد الرسول قومه ، على غير ما عرف منهم .. إنهم على هذا الضلال المبين ، وعلى تلك العداوة له ، والخلاف عليه . . وأنه إذا كان قد وجد من استماع الجنّ إليه ، ما يشدّ عزمه ، ويدفع به إلى مواجهة قومه فى مكة — فإنه ما زال فى حاجة إلى أمدادٍ أخرى ، تثبّت قَدَمه ، وتشدّ عزمه ، وتلقى أضواء على هذا الظلام الكثيف المنعقد فى سماء مكة ، بينه وبين قومه .

لقد أبلى الرسول الكريم بلاءه ، فى الأرض ، واستنفد كل ما يُعطى ويأخذ منها ومن أهلها ، فكان لابد من عالم آخر ، يتزود منه بزادٍ روحى ، يُشيع فى كيانه قوًى مجدّدة ، لا تنفد على كثرة ما ينفق منها فى هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وهو خير الحاكين ..

فكانت رحلة الإسراء !

رحلة فى العالم العلوى :

وفى الإسراء إلى العالم العلوى .. يجد الرسول من آيات ربّه ، ومن دلائل قدرته ، وعجائب مَلَكوته ، ماتذوب فى عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضى وآلامه ..

فلم يكن الإسراء فى صميمه ، إلارحلةً روحية لرسول الله ، فى عالم النور ، وإلاّ استدناء له إلى مواطن الرحمة واللطف .. وإن ذلك لهو الجزاء الحسن للرسول على جهاده الصّادق ، فى سبيل الله ، وفى قيامه على أداء الرسالة التى أُرسل إليها ، واحتمل ما احتمل من أجلها ..

وماذا يكون للرسول من جزاء فى هذه الدنيا ، على مالقى فى سبيل الدعوة من عنَتٍ وإرهاق ، وما أصابه من ضُرٍّ وأذى فى نفسه ، وأهله ، وصحبه ؟ إن كلّ مافى الأرض لايقوم ببعض هذا الجزاء .. وإن الرسول الزاهد فى كل مافى هذه الأرض ، وما عليها من مال ومتاع .. فلم يكن إلا مافى السماء ، هو الذى يناسب حال الرسول ، ويليق به !

وقد ذَكَر القرآن الكريم حادثة الإسراء فى ، أول سورة الإسراء .. والذى ذكره من أمر الإسراء ، أنه وقع ليلا ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وقد وصف بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام ، فهو فى مكان قصىّ بالإضافة إلى المسجد الحرام .

يقول ابن إسحق فى سيرته : « وكان مَسراه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما ذُكر منه ، بلاء وتمحيصا ، وأمرًا من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه .. فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدًى ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدّق ، وكان من أمر الله على يقين .. فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ماعاين

من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصنع بها مايريد »[1] .

وقد طالع النبىّ على قريش بهذا الخبر ، وأنه أُسْرِى به فى ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فَبَهَتُوه ، وكذّبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيىء فيه .. وقال قائلهم : « هذا والله الإمْرُ[2] ، والله إن العِير لتطّرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مُقبلة .. أفيذهب محمد فى ليـلة واحدة ويعود إلى مكة » ؟

ولم يقف الأمر عند كفّار قريش ، بل تجاوزهم إلى ضعاف الإيمان ، ممن أسلموا ، فارتدّوا عن الإسلام ، وارتابوا ..

وتُحدِّث الروايات أن الكفار ذهبوا إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ لعلهم يجدون عنده ماوجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : « هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ، ورجـع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر : أنتم تـكذبون عليه ؟ فقالوا : هاهوذا فى المسجد يحدّث به الناس ! فقال أبو بكر : « لئن كان قاله لقد صدق ! فما يُعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليـل أو نهار ، فأصدقه .. فهذا أبعد مما تعجبون منه[3] » .

ونحن نشكّ فى هذه الرواية .. فما كان أبو بكر بالذى يَخْفَى عليه شىء من أمر النبىّ ، حتى يعلَمَه كفارُ قريش قبل أن يعلمه ، وما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يحدث بهذا الخبر العجيب قبل أن يلقى به أبا بكر ، وهو الذى كان أشبه بظلّ رسول الله ، لايفارقه أبداً !

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء ٢ ص ٢ .
(٢) الإمر بالكسر ـــ الأمر العظيم فى شناعته : « لقد جئت شيئاً إمرا »
(٣) زاد المعاد جزء ٢ والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

ونعود إلى « الإسراء » فنقول ـ كما قلنا من قبل ـ إنه كان شأناً خاصًّا بالنبيّ ، ورحلة روحيّة فى الملأ الأعلى ، أرادها الله سبحانه وتعالى له ، ليشرح بها صدره ، وينعش بها رُوحه ، ويُذهبَ بها ما ألمّ به من ضيقٍ وحزن ، بموت عمّه ، وزوجه ، وبتألّب قريش عليه ، وعلى آله ، وبما لقى من أهل الطائف من لقاء باردٍ ثقيل ، وردّ سمج قبيح .

وفى حدود هذا المعنى ينبغى أن نقيم نظرتنا إلى الإسراء .. فهو بهذا المعنى ، ليس معجزةً للتحدّى ، تقف من الناس موقف التعجيز لهم ، والتحدّى بالإتيان بمثلها ، وإنما هى إخبار بأمر شهده الرسول وحده .. فإذا حدّث به كان حديثه الصدقَ كلَّه ، لاينبغى لمن آمن بأنه نبىّ أن يكذّبه ، أويشك فى شىء مما يقول .. إنه أمين السماء .. لا يكذب أبداً .. هذا مبدأ يجب أن يسلم به كل من يدخل فى هذا الدين ، ويؤمن بالله ورسوله .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهُوا » (٧ : الحشر) .

إن حديث الإسراء اختبار عملىّ لإيمان المؤمنين .. فمن آمن بالله ، لا يكون إيمانه إيماناً حقًّا ، حتى يؤمن برسوله ، ولا يكون مؤمناً برسوله حتى يصدّق كل قولٍ يقوله ، ويُسلّم به ، قبل أن ينظر فيه ، أو يعرضه على عقله .. وإن كان ذلك لايمنعه من أن ينظر بعد هذا فى قول الرسول ، وأن يعرضه على عقله فذاك نظر غايته الفهم والإدراك لمرامى قول الرسول والعمل به ..

فهذه آيات الله التى كانت تنزل على الرسول الكريم ، إنها لم يقم عليها شاهدٌ بأنها كلام الله ، إلاَّ إيمان المؤمنين به ، بأنه رسول من عند الله ، وإن كان فى آيات الله ذاتها مايحدث عن إعجازها ، وأنها ليست من قول بشر .. ولكن هذا لايُعرف إلا بعد نظرٍ فى وجه آيات القرآن ، واستعراض مافيها من قوى الحق ، وشواهد الإعجاز !

هذا ماينبغى أن نقف عنده من حديث الإسراء ، فإذا كان لنا أن نمدّ النظر إلى ماوراء هذا ، فهو ماجاء من ذكر المسجد الأقصى ، وجعله مَعْلَماً من معالم الإسلام ، يناظر للسجد الحرام .. وفى هذا ، مايصل مشاعر المسلمين بهذين المسجدين ، ويجعلهما معاً آيتين من آيات الله فى الأرض ، يستظلّ المسلمون بظلهما ، ويقومون على عمارتهما وتأمين السّبل إليهما .. وهذا لا يكون إلا إذا كان هذان المسجدان داخل دار الإسلام ، وتحت يد المسلمين ، الأمر الذى يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن ، فى إخباره بالغيب ، الذى لم يكن يقع لنظر أحدٍ من المسلمين يومذاك ، أو يدور فى خواطرهم ..

وقد مكّن الله للسلمين من المسجد الأقصى ، ودخل هو وماحوله فى دار الإسلام ، منذ خلافةعمر بن الخطاب رضى‌الله عنه إلى اليوم ، وإلى مابعد اليوم ، وإلى يوم الدين .. وإنه على رغم مابذل أعداء الإسلام من جهود فى إخراج هذا البيت من يد المسلمين ـ فإنه لايلبث أن يعود إليهم ، كما يعود المسافر إلى أهله ، بعد رحلة ، قد تطول وقد تَقْصُر !

ونحن نكتب هذا ، فى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين من الهجرة (١٩٦٩ من الميلاد) وبيت المقدس فى يد اليهود ، منذ عامين تقريباً ، اليهود الذين عملوا لذلك من قبل ظهور الإسلام يوم كانوا خاضعين لحكم الرومان ، ثم عملوا له بعد الإسلام ، فأشعلوا الفتن ، وأقاموا الحروب ، وأغروا النصارى بالمسلمين ، حتى وقع الشر بينهم فى تلك الحروب التى اتصلت نحو قرنين ، والتى عرفت بالحروب الصليبية ..

— كل هذا ليجد اليهود فرصتهم إلى هذا البيت الحرام ، وهاهم أولاء قد وجدوها اليوم ، مستعينين بأموالهم ، وسلطانهم على أمريكا ، التى ساندتهم ، ووقفت وراءهم ، وأمدتهم بالعتاد والرجال والأموال . .

ولا ندرى السبيل الذى نستردّ به هذا البيت .. أهو بالحرب أم بالسلم ،

ولكن الذى ندريه ونستيقنه ، هو أن هذا البيت لابد أن يعود للمسلمين ، وأن يدخل فى دولة الإسلام ، وأن غربته فى يد اليهود ستنتهى حتما ، ويعود الغريب إلى أهله .. إن شاء الله ..

هذا عن الإسراء ..

أما المعراج ، فإن حديثه يطول .. ولكنا سنكتفى بلمحات نشير بها إليه ، لنكشف عن تلك المقولات التى قيلت فيه.. بلا حساب ، ولا تقدير ، حتى اشتبه فيه الحق بالباطل ، وغلب فيه الخيال على الواقع .

قصّـة المعراج :

والمراد بالمعراج ، هو عُروج النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أى صعوده إلى السماء ، من بيت المقدس بعد أن أسرى به إليه . .

والآيات التى يستند إليها الذين يصورون حديث المعراج هى ما جاء فى أول سورة النجم فى قوله تعالى : « والنجم إذا هوى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ » .

وهذه الآيات محتملة لكثير من التأويلات ، بحيث لا يُرى فيها المعراج إلاّ بعد جهد ، وطول نظار ، ومن خلال ثقب ضيقٍ جدًّا . . وذلك ليكون

المعراج فى حدود هذا الإطار، الذى يُومَأ فيه إليه إيماء، ولا يُتَحَدَّثُ عما احتواه من أسرارٍ وعجائب، لم يطلع عليها إلا الرسول وحدَه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. !

وقد رُويت عن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أحاديث عن المعراج، تحدّث بها إلى بعض أصحابه، فى بعض ما رأى من آيات ربّه، ولم تكن هذه الأحاديث إلا إشارات أشار بها الرسول الكريم إلى بعض ما رأى من ملكوت الله، مما تنشرح به صدور المؤمنين، ويزداد به إيمانهم نوراً ويقيناً ! وليس فى هذه الأحاديث - إن صحت - ما يتصل بالعقيدة، أو يضاف إلى الشريعة.

ولكن الذى يقرأ القصص التى صورت فيها رحلة المعراج، يجد فيها كثيراً من الدّسّ، والكذب، والتلفيق !

ولليهود هنا، فى هذه القصة، دور كبير فى دسّ الأخبار، وتلفيق الأحاديث، حيث المجال فسيح، يتسع لكل قولٍ يقال فى هذا العالم العلوّى، وفى المشاهد التى يمكن أن يشهدها من يصل إلى هذا العالم ويطوّف به..

وأبرز ما نراه من دسّ اليهود هنا، هو ما يروى فى حديث المعراج، من اللقاء الذى كان بين النبى وبين موسى - عليهما الصلاة والسلام - وأن موسى سأل النبىّ - صلوات الله وسلامه عليه - عما افترض الله على أمّته من الصلاة، فلما قال النبىّ لموسى: إنها خمسون صلاة افترضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين فى اليوم والليلة، قال له موسى: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تُطيق ذلك ».. ثم تقول الرواية: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجع إلى المولى سبحانه وتعالى، وسأله التخفيف فاستجاب له ربّه فجعلها أربعين، فلما عاد النبىّ إلى موسى وأخبره بما خفف الله سبحانه وتعالى من

الخمسين إلى الأربعين ـ قال موسى : ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . . ثم تمضى الرواية فتقول : إن النبىّ ما زال يراجع ربه ، فيخفف عنه ، ثم يعود إلى موسى فيطلب منه أن يسأل زيادةً فى التخفيف . . فكانت ثلاثين ، ثم عشرين ، ثم عشرة . . ثم خمسة . . وعندها قال النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لموسى : « لقد استحييت من ربى » . . ! ! وبهذا أصبحت فريضة الصلاة خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر ! ! .

هذه الرواية تشير إلى أمور . . منها :

أولًا : أن تجعل لموسى عليه السلام ، ما يشبه الوصاية على النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهذا من شأنه أن يجعل لليهود منزلة على المسلمين أشبه بهذه المنزلة . . هذا ، إذا جعلنا فى اعتبارنا أن هذا الخبر المدسوس ، إنما يحدّث به المسلمون ، دون أن يرى أحدٌ أن لليهود شأنًا فيه ، إذ كانوا ينكرون نبوّة النبىّ أصلًا ، فكيف يعترفون بعروجه إلى السماء ! وهذا ما يجعل لهذا الحديث ، هذا الأثر الذى أشرنا إليه !

وثانياً : ما وجه الحكمة فى أن يكون من تدبير الله سبحانه وتعالى أن تجىء فريضة الصلاة على هذا الأسلوب الذى يشبه أسلوب المناقصات ! ! والذى يبدأ بخمسين صلاة ، ثم ينتهى بخمسِ صلواتٍ ؟ وما الحكمة فى أن يغدو النبىّ الكريم ، ويروح بين موسى وربّه كل هذه الغدوات والروحات ؟ ألاَ غدوةٌ وروحة واحدة تكفى إن كان لابد من هذا ؟ .

إن ذكاء واضع هذه الرواية قد أبى عليه إلاّ أن يجيب عن هذه التساؤلات ، وأن يكشف عن وجه الحكمة فى هذا ، فيجعل من تمام الرواية : « أنها خمسٌ فى العمل وخمسون فى الأجر » ! !

وهذا الذى جعله واضع الرواية وجهاً داعياً إلى قبولها ، هو فى الواقع الوجه الذى يكشف عن ردّها .. إذ ليست الصلاة وحدها هى التى تختص بهذه المزية فى اعتبار الصلاة بعشر صلوات ، بل إن كل الأعمال الطيبة توزن عندالله سبحانه وتعالى بهذا الميزان ، كما يقول سبحانه وتعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

هذا ، وقد فصّل القاضى « عياض » فى كتابه « الشفا » ، مذاهب القول فى الإسراء والمعراج .. وهل كان مع الإسراء معراج ؟ وهل كان الإسراء بالروح وحده ؟ أو بالروح والجسد معاً ؟

يقول القاضى عياض :

« اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه — عليه الصلاة والسلام — بروحه أو جسده .. على ثلاث مقالات :

١ — فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحىٌ .. وإلى هذا ذهب معاوية ، وحُكى عن الحسن (البصرى) — والمشهور عنه خلافه — وإليه أشار محمد بن إسحاق .. وحجتهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس » وما حكَوْه عن عائشة رضى الله عنها من قولها : « ما فُقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

٢ — « وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة .. وهذا هو الحق . وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حية البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو قول الطبرى ،

وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين . . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين ، والمتكلمين ، والمفسرين .

٣ — وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة، إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء ، الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبى صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . . قال هؤلاء : « ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد عن المسجد الأقصى ، لذَكره ، فيكون أبلغ فى المدح . »

وبعد أن انتهى القاضى عياض من عرض هذه الآراء ، عرض رأيه هو ، فرجح جانب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً . . فقال :

« والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله ، أنه إسراء بالروح والجسد فى القصة كلها — أى الإسراء والمعراج — وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار ...

ثم يقول : « وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : « بروح عبده » ولم يقل « بعبده » وقوله تعالى : « مازاغ البصر وما طغى » . . ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم ، وافتتنوا به .. إذ مثل هذه المنامات لا ينكر . . بل لم يكن ذلك الإنكار منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال يقظته . »

* * *

وممن قال بأن الإسراء كان بالجسد والروح معاً .. البيضاوى فى تفسيره ، وقد أراد أن يخرج هذا الرأى على أسلوب البحث العلمى ، وأنه من الممكنات التى لا ينكرها العلم . . يقول البيضاوى : « والأكثر — أى من آراء العلماء —

أنه أسرى بجسده إلى بيت المقدس ، ثم عُرج به إلى السموات ، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ولذلك تعجّب قريش واستحالوه . »

ثم يقول : « والاستحالة مدفوعة بما ثبت فى الهندسة أن ما بين طرفى قرص الشمس ضعف ما بين طرفى كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، ثم إن طرفها ــ الشمس ــ الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى فى أقل من ثانية ! ! وقد بُرهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض ، وأن الله سبحانه قادر على كل الممكنات ، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة فى بدن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو فيما يحمله ، والتعجب من لوازم المعجزات . »

والذى نقف عنده من كلام البيضاوى هنا قوله : « وقد بُرهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض » . . وهذا يعنى أن الأجسام جميعها ترجع إلى أصل واحد ، وأن هذا الأصل قابل لجميع الأعراض التى تقبلها الأجسام ، بمعنى أن المادة التى شُكل منها كائن ما ، قابلة لأن يشكل منها كائن آخر مخالف له ، مع اختلاف فى نِسَب الأجزاء التى يتكون منها الكائن وفى أوضاع هذه الأجزاء ، بل إن ذلك نفسه واقع فى أجزاء الكائن الواحد . . فالعين مثلا هى من نفس المادة التى تخلّق منها الأنف ، أو الكبد أو القلب ، أو الشعر . . فكلها جميعاً ترجع إلى ما عرف اليوم باسم « الذرّة » أو ما كان يعرف قديماً بالجوهر الفرد . . فمن تكتّل الذرات تتكون الأجسام ، ومن الاختلاف فى بناء الذرات ، وترتيب أوضاعها ، تظهر الأجسام فى صورها وأشكالها . .

وهذا ما فهمه البيضاوى وقرّره فى قوله : « إن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض » يعنى أنه من الممكن أن يتحلل جسم الإنسان ــ مثلا ــ إلى ذرات فيصبح كائناً لطيفاً غير مرئى ، ثم يعاد تركيبه إلى وضعه الأصلى ، فيكون جسداً

كثيفاً كما كان . . كل ذلك فى لحظة خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب ، دون أن يخرج الجسد عن سلطان « الروح » فى حالىْ تحليله أو تركيبه . . ! وذلك هو الإعجاز أو المعجزة التى تظهر من انتقال النبى الكريم بجسده الشريف إلى المسجد الأقصى ، أو العروج به إلى السماء فى طرفة عين !

* * *

ونعود بعد هذا ، فنقول : إن الخلاف فى أن الإسراء والمعراج ، كان بالجسد ، وبالروح ، خلاف لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول الكريم فيه من ألطاف ربه ، وما رأى من آياته . . وإن قدرة الله سبحانه وتعالى لا تتقيد بتلك القيود التى تحكمها الضرورات البشرية ، وخير من هذا الخلاف الذى يذهب بجلال الإسراء ، ويعبث بالستر الخفىّ الملقَى علينا من عالم الروح — خير من هذا أن ننظر إلى الرسول الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحفّ به ألطاف ربه ، وتحدوه رعايته ، إلى حيث يسبح فى عالم الحق ، ويطْعَم بروحه من طيبات الملأ الأعلى . .

أما أن نجسّد العالم العلوىّ ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه ، فذلك مما يهوّن من خطر الإسراء والمعراج ، ويُزرى بقدرها ، ويَبخس من قيمتهما . .

إن الذى يطالع قصة الإسراء والمعراج ، على تلك الصورة أو الصور المجسدة التى تعرضها كتب السيرة ، والتفسير ، ليموت فى نفسه كثير من تلك المشاعر الروحية ، التى كان خليقاً أن يثيرها فيه حديث الإسراء والمعراج ، لو أُزيح من طريقه هذا الركام الكثير من العوائق والسدود . . ولا تنخدع لتلك الأصباغ الساذجة التى يلطخ بها القصاص وجه الحقائق المادية ، ليحملوا لها بتلك الأصباغ وجهاً تدخل به إلى العالم العلوىّ . فإن هذا « المكياج »

المصطنع يجعل منها مَسْخاً أكثر منها حقيقة ..

فالبُراق مثلا .. الذى يأخـذ فى حديث « الإسراء » لوناً بارزاً صارخاً — والذى يُهيأ للرسول ليتخذ منه مطية إلى العالم العلوى — هذا البراق ليس إلا « أتاناً » ركب عليه جناحان من ريش ، فصار أشبه بلعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم ..!

ثم هذا الحجر الذى يشُدّ إليه الأنبياء دوابهم عند المسجد الأقصى ، وتلك الحلقات المغروسة فى هـذا الحجر لتمسك المقاود واللُّجُم — إنها جميعها لتمسك بالمعانى الـكريمة العالية التى كان يجـدها المرء فى نفسه لو أزاح هـذا الحجر من طريقها ، وانزاحت معه اللُّجُم والمقاود والسروج وغيرها ، ممـا يكون فى مرابط الحيوان !

* * *

وعلى أىٍّ فإن الإسراء ، على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج النبىّ الـكريم عن بَشَرِيَّتِهِ ، ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذى هو « محمد » .. فقد عاد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد الإسراء ، ولقى قومه مؤمنين ، وكافرين ، فلم ينكر أحد من أمره شيئاً مما كان يعهد فيه .. حتى إن أعداءه أنفسهم لم يجدوا عليه أمارة من أمارات هذه الرحلة المباركة .. فإن خيرها كلّه كان مخبوءا فى كيانه ، منطوياً فى صدره ، سارياً فى روحه .. إنه شأن من شأن الله مع نبيّه ، وزاد روحىٌّ زوّده به ربّه ، تـكريماً له ، وترويحاً عن كيانه الجهد المـكدود .

وحديث المسلمين عن الإسراء ، ينبغى أن يكون حمدًا لله ، وتنزيهاً له ، وثناء عليه ، أن أنزل نبيّهم هذا المنزل الـكريم ، ورفعه إلى هذا المقام العظيم ،

وأفاض عليه ما أفاض من ألطافه ومِنَنه . . وهذا ما يدعونا إليه الله سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حَوْلَهُ لنريه من آياتنا إنه هو السميعُ البصيرُ » أى فسبّحوا الله واحمدوا له ، أن أسرى بعبده محمداً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن أراه من آياته وأسبغ عليه من آلائه ، ما هو أهل له عند ربّه « ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

الآيتان : (٢ — ٣)

* « وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » (٣)

التفسير :

مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما ، هى أنه لما كانت الآية السابقة التى افتُتحت بها السورة ، قد ذكرت تلك النعمة العظمى التى أنعم الله سبحانه وتعالى بها على النبىّ ، إذ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فى تلك الرحلة العجيبة ، التى رأى فيها ما رأى من آيات ربّه — فناسب ذلك أن يجىء ذِكْر النعم التى أنعم الله بها على عباده . . ولما كان أجلّ تلك النعم وأعظمها إرسال الرسل إلى الناس ، يحملون إليهم هُدَى الله ، ويدعونهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، ولما كانت التوراة التى نزلت على موسى ، هى الشريعة القائمة عند أهل الكتاب المعاصرين للنبوّة — من يهود ونصارى —

فقد كان ذِكر مُوسَى . . والكتاب الذى أُنزل عليه ، أقربَ وأولى ما يُذكر فى هذا المقام . . ولهذا جاء قوله تعالى :

* « وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلًا » .

فهذه الآية معطوفة على ماقبلها . والتقدير : سبّحوا ـ أيها الناس ـ ربّكم الذى أسرى بعبده محمد ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، والذى آتى موسى الكتاب وجعله هُدًى لبنى إسرائيل ، فوجب عليهم أن يشكروا الله ، وأن يأخذوا حظهم من هذا الهدى الذى جاءهم به رسول الله ، وألا يتخذوا من دون الله وكيلاً يتعاملون معه ، ويسندون إليه أمورهم ، ويجعلون عليه معتمدهم ! . .

[الحقيقة المحمّدية . . وما يقال فيها]

ونلمح فى هذا العطف سرًّا لطيفاً ، تشعّ منه دِلالات تشير إلى مقام النبى الكريم ، ومنزلته عند ربّه ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، هو هدًى فى ذاته وشخصه ، يقابِل الهدى الذى حملته التوراة إلى بنى إسرائيل !

فالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بما رأى من آيات ربّه الكبرى فى إسرائه ومعراجه ، وما حمل فى كيانه من معالم الحق فى هذه الليلة المباركة ـ قد أصبح هو فى ذاته كتاباً من كتب الله ، ورسالة من رسالاته ، يجد فيها أولو البصائر المشرقة ، وأصحاب القلوب السليمة ، ما يجد المؤمنون بالله ، فى آياته وكلماته من هدًى ونور .. وهذا مايحدّث به الحديث الشريف : « أنا رحمة مهداة » .. فالنبىّ الكريم فى ذاته ، هو رحمة ، بما نطق به من كلماته ، وبما استملى الناسُ من سيرته ، وبما اقتبسوا من أدبه وعلمه وحكمته . .

وإنّا لنجد مصداق هذا ، فى هذا المجتمع الإسلامى الأول الذى أقامه الرسول الكريم ، واستنبته من جَدْب الصحراء وقفرها ، وأطلعه من غياهب ظلامها ، وضلالها ..وذلك بما حمل إلى الناس من كلمات الله ، وبما أراهم من آثار كلمات الله فيه ، وتربيته له سبحانه وتعالى على منهجها ، فكان إنسانًا يقرأ الناسُ فى سيرته ـ قولا وعملا ـ منطوقَ كلماتِ الله ومفهومها ، كما تحدِّث السيدة عائشة رضى الله عنها ، فتصف خُلُقه عليه الصلاة والسلام بقولها : « كان خُلُقه القرآن » .

فما أعظمه من إنسان ! وما أكرمه من رسول ! وما أعلى مقامه فى العالمين !

وأحبّ هنا أن أقف وقفة قصيرة مع تلك المقولة التى تقال وتذاع بين المسلمين ، فيما يُعرف عند أصحابها « بالحقيقة المحمدية » .

فالذين يستمعون من المسلمين إلى هذا العنوان : « الحقيقة المحمدية » وما يجىء وراء هذا العنوان من حديث عن هذه الحقيقة ، قد يجدون فى صدورهم حَرَجا من أن يدفعوا عن هذه الحقيقة تلك الدعاوى التى يدّعيها عليها القائلون بها ، والتى يصوّرون فيها النبىّ الكريم هذا التصوير العجيب ، الذى يقطعه عن العالم البشرى ، بما يُضيفون إليه من صفاتٍ وأعمالٍ، لاتقتضيها طبيعة البشر ، ولا تثقل بها موازينه فى المصطفيْن من عباد الله !

إنها مقولات كثيرة مُغرقة فى الخيال ، تُضفى على ذات النبىّ أثوابًا فضفاضة ـ بل مهلهلة ـ من نسيج الوهم ، ومن واردات الخرافة ، يحسب بها أصحابها ـ عن إيمان ، أو عن كيدٍ ـ أنّهم إنما يمجّدون النبىّ ، ويُفردونه وحده بتلك المنزلة التى تتقطع دونها الأوهام والظنون !

ومن هنا ، كان خطر هذه المقولات وأثرها داهمًا مزلزلا، فى المجتمع الإسلامى،

إذ هي مقولات ـ كما قلنا ـ يجد كثير من المسلمين حَرَجاً في دفعها ، والوقوف لها .. لأنها كلّها ـ كما تبدو في ظاهرها ـ تمجيد في مقام النبيّ ، وإعلاء لقدره ، وإنه لأحبّ شيء عند المؤمن أن يُمجّد مقامُ النبيّ ، وأن يُعلى قدره ! وإنه لاحرجَ في هذا المقام من المبالغة والغلوّ .. فذلك خيرٌ ، والمبالغة في الخير خيرٌ !!

هكذا يَلْقى كثيرٌ من المسلمين تلك المقولات التي تقال في « الحقيقة المحمدية » .. حيث يستقبلها المسلم بمشاعره ، فيجد فيها ريحاً طيبة ، تحدّث عن مقام النبوة ، وكمالها ، فتتخدّر لذلك مشاعره ، وتغيب مدركاته ، وإذا هو مهيأ لقبول كل مايقال في هذا المقام .. فإذا صحا بعد هذا ، وجد كلماتٍ كثيرة قد علِقت بصدره ، ودارت في كيانه ، تحدّث عن النبيّ بأنه النّور الذي خُلق منه هذا الوجود ، وأنه الرّوح العظمى التي سَرَت في هذه الكائنات .. وأنه لولاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماخلق اللهُ هذا الوجود، ولما كانت أرض ولا سماء ، ولا شمس ولا قمر ، ولا كواكب ولا نجوم ، ولا ملائكة ولا لوح ولاقلم ! إلى غير ذلك من المقولات التي تقال في « الحقيقة المحمدية » ! ممـا لامستَنَدَ له من كتاب ، أو سنّة ، أو عقل ..

فالقرآن الكريم ، يقرر في مواضع كثيرة منه أن « محمداً » بشرٌ من رأسه إلى إخمص قدمه ..

فيقول سبحانه وتعالى ، آمراً نبيّه الكريم أن يُعلن الناس به : « قل إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يوحَى إلىّ أنّما إلهكم إلٰه واحد » (١١٠ : الكهف) ويقول سبحانه : « قلْ ما كنتُ بِدْعاً من الرسلَ وما أدرى مايُفعل بى ولا بكم » (٩ : الأحقاف) .

فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في الناس ، واحد من النّاس .. وهو ـ

صلوات الله وسلامه عليه — فى الرسل ، واحد من الرسل ، ليس بِدْعاً من بينهم !

فماذا يقول القرآن أصرحَ من هذا القول ، فى تحديد صفة النبىّ ، وأنه بشر لم تتخلّ عنه بشريته ، ولم يخرج هو عن بشريته بحال أبداً ؟

ثم ماذا يقول النبىّ عن نفسه أكثر وأوضح من هذا القول الذى أمره به ربّه أن يقوله ، حتى يدفع عن نفسه ماليس له ، مما يقوله عليه من يقولون من المغالين فيه ، هذا الغلوّ ، الذى هو وقول المتطاولين على مقامه ـ سفاهةً وجهلاً ـ والمتنقّصين لقدره ـ افتراء وكذباً على سواء ؟

بل وماذا يقول النبىّ أكثر وأصرح من قوله : « أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ـ حتى يُمسك هؤلاء المغالون فيه على طريق قاصدٍ مستقيم فى شأنه ؟

يتكىء القائلون بالحقيقة المحمدية ، وبالصفات التى يوردونها عليها ـ يتكئون على حديث يُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، هو قوله : « كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين ، وكنت نبيًّا ولا آدم ولا الطين » .. ويتخذون من هذا مُنْطلقاً ينطلقون به إلى اصطياد كل واردة وشاردة .. فلقد فتح عليهم هذا القول الذى يُفْهم منه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان نبيًّا قبل أن يُخلق آدم ـ نقول فتح عليهم هذا القول باباً بل أبواباً يَلِجُون منها إلى اصطياد المقولات التى تتخذ من هذا المفهوم منطَلَقاً إلى كل قريب وبعيد ، وإلى كل معقول وغير معقول ، حتى لقد اجتمع للقوم من هذا ، ماتسمع من تلك المقولات التى لاتنتهى ، ولا ينتهى حديث أصحابها عنها !

ولا نعرض لصحة هذا الحديث ، ولا لمكانه من القوة أو الضعف ..

بل نأخذه مسلّمين به ، قائلين بصحته .. سنداً ، ومتناً !

فماذا فى هذا الحديث ؟ بل ماذا وراءه مما يُسر أو يُعلن من الحقيقة المحمدية ؟

ولكن قبل أن نجيب على هذا ، نسأل القائلين بالحقيقة المحمدية عن معنى منطوق الحديث : « كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين . . وكنت نبياً ولا آدم ولا الطين ! . . »

أين كان « محمد » صلوات الله وسلامه عليه قبل آدم ؟

يقولون فيما يقولون : إنه كان درة أو ياقوتة فى العرش !

ونقول لهم بما يقوله الله سبحانه وتعالى فى المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثاً : « أشهدوا خَلْقَهم ؟ ستُكتَب شهادتُهم .. ويسألون» (١٩ : الزخرف) أفشهد هؤلاء القائلون بتلك المقولة ـ أشهدوا خلق محمد ؟

ثم نسأل ، هؤلاء القائلين بالحقيقة المحمدية : أين كان « محمد » قبل أن يولد لأبويه : عبد الله بن عبد المطلب ، وآمنة بنت وهب ؟ »

يقولون إنه مازال منذ آدم يتنقل من الأصلاب الزاكية إلى الأرحام الطاهرة إلى أن ولد ! ونقول : إنّ كل إنسان تنقّل منذ آدم من الأصلاب ، إلى الأرحام ، حتى انتقل من صلب أبيه إلى رحم أمّه .. فماذا فى هذا ؟

والحديث الذى يقول : « كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين ... » إن صحّ ـ فإنه لايَخرج عن هذا المعنى ،الذى فهمناه عليه . إذ تنقّل ويتنقل الناس جميعاً فى أصلاب الآباء ، وأرحام الأمهات !

فالحديث ـ إن صحّ ـ يشير بهذا إلى تلك الحقيقة التى يؤمن بها المؤمنون بالله ، وهى أن عِلم الله سبحانه وتعالى ، قد وسع كل شىء ، وأن هذه الموجودات كلها ، فى ملكوت السموات والأرض ، هى فى علم الله سبحانه وتعالى ، وأنها فى كتاب مكنون ، كما يقول سبحانه جَلّ شأنه : « وَمَا من غائبةٍ فى السَّمآء والأرض

إلا فى كتاب مبين » (٧٥ : النمل) وكما يقول تبارك وتعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . . إن ذلك على الله يسير » (٢٢ : الحديد) .

فالذى يفهم من هـذا الحديث — إن صحّ — أنه يحدّث عن علم الله سبحانه وتعالى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى علم الله نبياً قبل أن يخلق آدم ، ويتحقق له وجود على هذه الأرض . . وليس هـذا شأنَ النبى وحده ، بل هو شأن كل مخلوق ، إذ كان فى علم الله على تلك الصفة التى جاء ، أو يجىء عليها ، قبل أن يُخلق آدم ، بل وقبل أن يُخلق أى مخلوق فى السموات والأرض . . إذ قبل الخلق ، كان العلم ، وفى مستودعات هـذا العلم كانت المخلوقات جميعها ، قبل أن تُخلق وتبرز من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

وعلى هذا ، فلك أن تقول كنتُ جالساً على هذا الكرسى الذى أجلس عليه ، أو نائماً فى هذا المكان الذى أنام فيه ، أو آكلا من هذا الطعام الذى آكل منه . إلى غير ذلك مما أنت فيه من شئونك وأحوالك — لك أن تقول : « كنت على هذه الحال ، أو على هذا الشأن ، وآدم بين الماء والطين ، وكنت على تلك الحال وهذه الشأن ولا آدم ولا الطين . . » ! !

وبعد ، فإن الحقيقة المحمدية ليست هى تلك الصورة المشوهة المضطربة التى تتراقص فى عالم الخيالات والأوهام ، والتى تسبح فى سموات من الدخان والضباب . . وإنما هى تلك الحقيقة التى عاشت فى هذه الدنيا ، فكانت نوراً هادياً ، وسراجاً منيراً ، يجلّى غياهب الظلمات ، ويكشف للناس الطريق إلى الله ، وإلى الحق ، والخير . . ذلك هو محمدٌ رسول الله ، كما ينبغى أن يراه المسلم ، وذلك هو « محمد » رسول الله ، كما وصفه ربه جلّ وعلا : « يأيها النبىّ

إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »
(٤٥ — ٤٦ : الأحزاب) .

ثم لينظر أولئك الذين يتحدثون عن « الحقيقة المحمدية » هذا الحديثَ الأسطوريّ . . فهل يجدون للنبيّ فى دخان هـذا الحديث ، وجوداً ؟ وهل يحققون له ذاتاً ؟

إنهم قد يقولون : إنا نراه بعيون غير عيونكم ، وبقلوب غير قلوبكم ، وبمشاعرَ وأحاسيس غير مشاعركم وأحاسيسكم ! !

ونقول لهم : إننا لسنا من عالم الملائكة ، ولا من عالم الشياطين . . إننا بشر مثلكم نعيش على هذه الأرض.. ننظر بعيون بشرية ، ونتعامل بقلوب إنسانية ، ونعيش بمشاعر وأحاسيس آدمية ! وبهذا الكيان البشرى نرى محمـــداً ، ونتعامل معه ، ونُوليه قَدْره من الحب والاحترام والإجلال ، ونتخذه إمامنا وقدوتنا ، ونصلّى عليه ، ونطلب له المزيد من الدرجات العُلا عند ربه . . !
« قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىّ أنما إلـهكم إلهٌ واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١١٠ : الكهف)

إننا لم نلتق بمحمد إلا على أنه إنسان ، نعرفه ، ونعرف أصوله وفروعه ، وقد عاش بيننا أربعين سنة من عمره لم يكن فيه ولا له إلاّ ما فى الناس ، وإلا لما للناس ، حتى إذا شرّفه الله سبحانه وتعالى بالرسالة ، أصبح بهذا التشريف رسولا من رب العالمين ، شأن رسل الله جميعاً . . وهذه الرسالة لم تغير من بشريته شيئاً ، ولو كان شىء من ذلك لما أنكرت عليه قريش أن يكون بشراً ثم يكون رسولا . . وفى هذا يقول الله على لسانهم ، هذا القول الذى ينكرون فيه على الرسول رسالته : « أبعث الله بشراً رسولا ؟ » .(٩٤ : الإسراء)

فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، رسولاً من أنفسنا ، ورحمة وهدى للعالمين .

* * *

* قوله تعالى : « ذرّيةَ من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً » .

الذرية : أى النسل ، الذى تناسل من نوح وأبنائه ، وهى فُعلية ، من الذّرء ، وهو الخلق . . وأصلها : ذُرْئية .

أى أن بنى إسرائيل هؤلاء ، هم من أبناء وذرارى البقية الباقية من قوم نوح ، الذين آمنوا معه ، وحُملوا فى السفينة ، ونجوْا من الغرَق . .

وفى وصف بنى إسرائيل بهذه الصفة إلفاتٌ لهم إلى أنهم من ذرية قوم مؤمنين ، نجّاهم الله بإيمانهم من الغرق الذى حلّ بإخوانهم الكافرين . .

وإذن ، فخروج بنى إسرائيل من الإيمان الذى كان عليه آباؤهم الأولون ، وعودتهم إلى الكفر الذى كان عليه إخوان آبائهم هؤلاء — هو تضييع لهذا الميراث الكريم الذى تركه لهم آباؤهم ، ثم هو عدوان على الله ، وتعرّض لنقمته ، كما انتقم من عمومتهم ، فأغرقهم واجتثّ أصولهم .

وقد نُصب « ذُريةَ » على الاختصاص ، وقيل نصب بالنداء ، أى يا ذرية من حمل الله سبحانه ، مع نوح . .

— وفى قوله تعالى : «إنه كان عبداً شكوراً» تحريض لبنى إسرائيل على أن يلحقوا بنوح ، ويتأسّوْا به ، ويشكروا الله أن بعث فيهم رسولا ، وأنزل معه كتاباً يهديهم ويبين لهم طريق الحق !

الآيات : (٤ — ٧)

* « وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥)

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا » (٧)

التفسير :

قضينا : أى أوجبنا ، وقدّرنا ، وحكمنا . .

فهذا هو ماحكم الله سبحانه به ، على بنى إسرائيل ، وقضاه عليهم . .

[بنو إسرائيل . . ووعد الآخرة]

فقد حكم الله سبحانه وتعالى عليهم : أن يفسدوا فى الأرض مرتين [وهو قضاء لامردَّ له] ولهذا جاء الفعل مؤكداً : « لَتفسِدُنّ » . . فكأنه أمرٌ لهم بأن يفسدوا — وذلك لأنهم واقعون تحت هـذا القضاء الذى لا يُردّ ، حتى لكأنهم مأمورون به !

وهذا من ابتلاء الله لهم ، وغضبه عليهم ، لما سبق فى علمه ـ جل شأنه ـ من أنهم لن يستقيموا على هدًى ، ولن يسكنوا إلى عافية !

والفساد الذى ينضح من كيان بنى إسرائيل ، هو فساد يجىء عن بَطَر وكبر ، وكفر بنعم الله التى يُفيضها عليهم ، ولهذا جاء قوله تعالى : « ولتعلُنّ علوًّا كبيراً » معطوفاً على هذا الفساد ، مؤكداً لتأكيده ، حيث أنه كائن منه ، ومتولد من كيانه .. فهو علوّ فاسد ، نِتاج غرسٍ فاسد . فهم إنما يفسدون حين يمكن الله لهم فى الأرض ، ويُفيض عليهم الكثير من نعمه ، وعندئذ يستبدّ

بهم الغرور ، ويستولى عليهم الأشَرُ والبطر ، شأن أصحاب النفوس النكدة ، والقلوب المريضة ، إذا مستها رحمة من رحمت الله ، مكرت بها ، وأحالتها فى كيانها شرًّا وبلاء ، تتغذى منه ، وتُلقى بثمره النكد إلى كل ما حولها .. كالأرض الملح ، ينزل عليها الغيث ، فتتحول إلى برك ومستنقعات ، لا تفوح منها إلا الروائح العفنة ، ولا يتحرك على صدرها إلا الهوامّ والحشرات !

وفى قوله تعالى : « فى الكتاب » إشارة إلى أن ماقضى الله به فى بنى إسرائيل ، وألزمهم إياه — هو مما فى كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ .. وفى هذا توكيد لهذا القضاء المبرم ، المكتوب ، وأنه لا مفرّ منه . .

هذا ، ويرى « الزمخشرى » أن المراد بالكتاب هو « التوراة » متابعاً فى هذا مَن سبقه من المفسرين ، وقد تبعه على هذا الرأى من جاء بعده ..! وقليلٌ من المفسرين من قال بأن الكتاب هو « اللوح المحفوظ » باعتبار أن ذلك رأى مرجوح . .

والذى نقول به ، هو أن المراد بالكتاب ، هو الكتاب المسطور ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب .. كما يقول سبحانه وتعالى : « وعنده أم الكتاب » وهذا هو الأنسب والأولى فى هذا المقام .. وذلك لأمرين :

أولهما : أن الله سبحانه وتعالى قد وصف الكتاب الذى جاء به موسى — وهو التوراة — بأنه هدًى لبنى إسرائيل .. وليس يتفق مع هذا الوصف أن يحمل إليهم هذا الكتاب دعوة إلى الإفساد والتجبّر فى الأرض !

أما مافى كتاب الله المسطور ، فهو قَدَر مَقْدورٌ لهم ، خَفِى عليهم أمرُه ..شأنهم فى هذا شأن ماقُدّر على الناس من أقدار .. فهم — والحال كذلك — مدعوّون إلى الهدى ، بهذا الكتاب الذى جاءهم به موسى ، ثم هم — مع هذا — واقعون تحت هذا القضاء الذى حجبه الله عنهم !!

فالرسل — عليهم الصلاة والسلام — مطالبون بدعوة الناس إلى الله ، ومدّ أيديهم إليهم بالهدى الذى معهم والناس مطالبون بأن يُقبلوا على هذه الدعوة ، وأن يستجيبوا لها . ثم ينجلى الموقف آخر الأمر ، عن مؤمنين آمنوا بالله ، وانتفعوا بهذا الهدى ، وعن كافرين ، كفروا بالله ، ولم يأخذوا بحظهم من هدى الله .. وكلا الفريقين — من مؤمنين وكافرين —أَخَذَ الطريقَ الذى رسمه له القدر ، دون أن ينكشف له ماقدّر الله عليه ، ولا أن يجد فى نفسه أنه مقهور تحت سلطان هذا القَدَر ، وإنما هو مطلق العَنَان ، يأخذ الطريق الذى قدّره هو ، ورآه هو.. وهو عيْن ماقدره الله ، وقضى به !

وثانيهما : أنه لوحَمَلت التوراة إلى بنى إسرائيل هذا القضاء المقضى به عليهم ، فى صورة الأمر أو فى صورة الخبر .. لكان ذلك مما يُسقط التكاليف عنهم ، إذ يضعهم تحت أمرٍ نافذٍ لاسلطان لهم عليه ، ولا قدرة معهم لدفعه ، وتعالت حكمة الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ..

أما ما أنذر الله سبحانه وتعالى ، به بنى إسرائيل من سوء ، وما رماهم به من لعنة ، وما أخذهم به من مسخ ، فقد كان ذلك واقعاً على جماعات منهم ، بحيث يبقى بعد ذلك بقية منهم خارجة عن هذا الحكم .. وتلك البقية هى متعلق أنظار القوم جميعاً ، بحيث يَرَى كل واحد منهم أنه فى غير الملعونين ، والممسوخين ، وإن كان — فيما قُدّر عليه — فى الصميم منهم !

—وفى قوله تعالى : « لتفسدنّ فى الأرض مرتين » خبر محقق بأن الإفساد الذى يقع من القوم سيكون « مرّتين » يقعان على امتداد حياة بنى إسرائيل فى هذه الأرض..

وقد اختُلف فى الزّمن الذى يقع فيه هذا الفساد فى كلّ مرة من المرتين ، وهل وقعت هاتان المرتان أو لم تقعا بعد ؟ أم وقعت إحداها ولم تقع الأخرى ؟

والذى عليه أكثر المفسِّرين أن هاتين المرتين قد وقعتا بالفعل ، وأن إحداهما كانت عند الأسر البابلىّ ، على يد بختنصّر ، الذى استولى على دولة بنى إسرائيل ودمرها تدميراً ، وهدم بيت المقدس ، وساق القوم أسرى إلى « بابل » ..

وأما المرة الثانية ، فكانت بعد أن قتلوا النبىّ «أرميا » ، وقيل بعد أن قتلوا النبىّ « يحيا » . . !

والذى ينظر فى قوله تعالى : « لتفسِدُنّ فى الأرض مرتين ولتعلُنّ علوًّا كبيراً » يرى أن الإفساد الذى يقع من بنى إسرائيل مصاحبٌ لصفة دالّة عليه ، مُرْهِصةٍ به ، وهى أن يكونوا فى حال ؛ هم فيها أصحاب قوة متمكنة وسلطان ظاهر ، وعلوّ فى الأرض .. وأن هذا السلطان الظاهر لهم ، وهذه القوة العتيدة بين أيديهم ، وهذا العلوّ البادى لهم ، إنما هو نِعَم مستنبتة فى أرض فاسدة ، وغيث هاطل على مستنقع عَفِن .. ومن هنا يكون البناء الذى أقاموا منه سلطاناً ، وحصلوا منه على قوة ، وبلغوا به مابلغوا من علو ـ هو بناء فاسدٌ ، يحمل فى كيانه معاول هَدْمه وتدميره..

فإذا نظرنا إلى بنى إسرائيل من خلال هذه الصفة التى يكونون عليها حين يأخذهم الله سبحانه وتعالى بما يأخذ به الظالمين ، فيسلط عليهم من يرميهم بالنقم، ويأخذهم بالبأساء والضراء . . نجد أن تاريخ القوم يحدّث عن أنهم قد كانوا على تلك الصفة ، بعد سليمان عليه السلام ، الذى أقام لهم دولة ، وأنشأ فيهم مُلكا واسعاً عريضاً .. وأنهم بعد أن ورثوا هذا الملك العريض ، وملكوا هذا السلطان العتيد ـــ بغوْا وطغوْا ، وأقلقوا مَنْ حولهم من أمم وشعوب .. فسلط الله سبحانه وتعالى بعضهم على بعض أولاً ، فانقسموا إلى مملكتين ، مملكة « يهوذا » فى الجنوب ، وتضم بيت المقدس ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، وتضم سامُريا ..

ثم سلط الله على المملكتين من يضربهما الضربة القاضية ، ويقضى عليهما القضاء التام — فقام الأشوريون فى عام (٨٥٣ ق . م) وقضوا على مملكة إسرائيل ، وضموها نهائياً إلى أشور ، وقضوا على كل وجود للشخصية الإسرائيلية حيث وقع معظمهم تحت القتل ، ومن نجـا منهم من القتل ، وقع فى الأسر ، وأصبح سلعة تباع فى الأسواق ..

ولما ورث البابليون دولة الأشوريين فى العراق ، فعلوا فى مملكة « يهوذا » مافعله الأشوريون فى مملكة « إسرائيل » .

ففى سنة (٥٨٦ ق . م) غزا البابليون مملكة « يهوذا » بقيادة ملكهم بختنصر ، واستولوا عليها ، ودمّروا الهيكل ، وقادوا القوم ورؤساءهم أسرى ..

وهكذ أصبحت مملكة سليمان كلها تحت الحكم البابلى ، أو الأسر البابلى .

وعلى هذا يمكن أن نقول إن هذا الأسر البابلى هو الذى يشير إليه قوله تعالى : « فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الدّيار وكان وعداً مفعولاً » . فهذا الحدَث هو أقرب وأبرز بلاء وقع على بنى إسرائيل ، بعد أن أفسدوا فى الأرض وعلوْا علوّاً كبيراً ..

وليس يُعترض على هذا بأن « بختنصّر » لم يكن من المؤمنين بالله ، وإذن فلا يصحّ أن يُنسب إلى الله فى قوله تعالى : « عباداً لنا » فإن بختنصر — إذا صحّ أنه لم يكن مؤمناً بالله — ليس إلا عبداً من عباد لله ، فالناس جميعاً — مؤمنهم وكافرهم — هم عبيدُ لله . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنْ كلُّ مَن فى السموات والأرض إلا آتى الرحمنِ عبداً » (٩٣ : مريم) .

ويقول سبحانه لإبليس — لعنه الله — : « إن عبـادى ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين » فقـد أضاف الله سبحانه الناسَ جميعاً إليه . . هكذا : « عبادى » . . ومن عباده هؤلاء الغاوون .

وليس يُعترض على هذا أيضاً بقول من يقول : كيف يسلّط الله الكافرين على المؤمنين ، فقد كان بختنصر وقومه وثنيين ، على حين كان بنو إسرائيلَ أهل كتاب .. مؤمنين بالله ؟

والجواب : أن بنى إسرائيل ، وإن كانوا أهل كتاب ، فإنهم قد مكروا بآيات الله ، وبغوا فى الأرض ، وملأوا الدنيا من حولهم ظلماً وبغياً .. فهم — وإن كانوا مؤمنين ظاهراً — لم يكونوا أحسنَ حالا من الوثنيين فى أفعالهم السيئة المنكرة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وكذلك نُوَلّى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » (١٢٩ : الأنعام) وكذلك يبتلى الله الظالمين بالظالمين ، أو بمن هم أشد ظلماً منهم ، فهى نِقَمٌ تضرب فى وجه نقم ، وظلم يسوء وجوه الظالمين !

ثم جاء بعد هذا قوله تعالى : « ثم رَدَدنا لكم الكرَّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثرَ نفيراً » .. وفى هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أخذهم بعقابه ، وألقى بهم فى هذا الضَّياع زمناً ، كما فعل بهم حين ضرب عليهم التيه أربعين سنة ـ عاد الله سبحانه بفضله عليهم ، وأخرجهم من هذا البلاء ، بعد أن جعل من الآباء عبرةً للأبناء ..

ومعنى ردّ الكرة عليهم أنهم أخذوا مكان القوة ، على حين نزل القوم الذين ابتلاهم الله بهم إلى حال أشبه بتلك الحال التى كان عليها اليهود من الذلة والهوان ، وذلك حين أغار الفرس ، على البابليين ، واستولوا على أوطانهم ، وجعلوهم غنيمة لهم ، كما فعل البابليون ببنى إسرائيل .. « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (١٤٠ : آل عمران) .

وفى قوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيراً » إشارة إلى القوة التى لبسوها

بعد هذا الضياع ، وأنهم أصبحوا أصحاب شوكة أكثر من شوكة البابليين الذين ساموهم الخسف .. والنفير : الجماعة التى تنفر للحرب وتخفّ مسرعة إليها ..

ثم جاء بعد هذا قوله تعالى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » تحذيراً لبنى إسرائيل ، أن يركبوا الطريق الذى ركبه آباؤهم من قبل ، وأن يفسدوا فى الأرض كما أفسدوا ، فيحلّ بهم ماعرفوه من بلاء حل بآبائهم .

ثم إذا أعدنا النظر إلى بنى إسرائيل بعد الأسر البابلى ، لم نجد لهم دولةً ظاهرة ولا ملكا قائماً .. وإنما هم دويلات ممزقة ، متقاتلة فيما بينها ، تخرج من حكم البابليين لتقع تحت حكم الفرس فى سنة (٥١٨ ق . م) .. ثم تحت حكم الرومان ، إلى أن جاء الفتح الإسلامى .. الذى أدخل بيت المقدس فى دولته ، فأصبح المسجد الأقصى من مساجد الإسلام .. ليس لبنى إسرائيل شأن به منذ ذلك الوقت إلى يوم الناس هذا ..

وإذن ، فهناك المرّة الثانية ، وهى التى أشار إليها قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرّةٍ وليتبّروا ماعَلَوْا تتبيراً » ..

والسؤال هنا هو :

هل جاء وعد الآخرة .. أى المرة الثانية ؟ وإذا لم يكن قد جاء فمتى يجىء ؟ وما الإرهاصات الدالة عليه ؟

والجواب على هذا :

أولا : أن هذا الوعد — وعد الآخرة — كان إلى نزول القرآن الكريم غيرَ واقع ، وأنه سيقع فى المستقبل ، القريب ، أو البعيد . . والدليل على هذا مايحدّث به القرآن الكريم فى هذا المقام .

فقد تحدّث القرآن الكريم عن مجىء المرة الأولى هكذا :

« فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا » ..

وتحدث عن مجىء المرة الثانية هكذا :

« فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ماعلوْا تتبيراً » .

فالآيتان تحدثان عن المستقبل ، الذى يدل عليه الشرط : « إذا » .. وهذا يعنى أن المرتين على سواء ، فى تعليقهما بالمستقبل ، وقتَ نزول القرآن .. الأمر الذى يجعل القول بأن إحداهما قد وقعت ، والأخرى لم تقع .. قولا لا حجة عليه ، ولا مبرِّر له ..

ولكن الذى ينظر فى الآيتين ، يجد :

— أن الشرط الذى يعلّق الفعلين بالمستقبل ، هو منظور فيه إلى ما قضاه الله سبحانه وتعالى فى كتابه ، وجعله قَدَراً مقدوراً على بنى إسرائيل ، فى وقوع هاتين المرتين من الإفساد .. وعلى هذا يكون وقوع الأحداث المسطورة فى كتاب الله كلها ، لم تكن وقعت ، حين قضى الله بها ، وأودعها خزائن علمه ..

— وعند النظر فى الآيتين الكريمتين ، نجد أن النظم القرآنى قد خالَف بينهما .. فجعل ما وقع منهما عند نزول القرآن معبَّراً عنه بلفظ الماضى : « بعثنا .. جاسوا » .. على حين جعل المرّة التى لم تقع بلفظ المستقبل : « ليسوءوا وجوهكم .. وليدخلوا المسجد .. وليتبّروا » .

— ولو تساوت المرتان ، فى الوقوع ، أو عدم الوقوع ، عند نزول

القرآن ، لم يكن لاختلاف النظم فيهما سبب ظاهر ، وهذا أبعد مايكون عن بلاغة القرآن وإعجازه ، حيث لا تجىء كلمة أو حرف فيه ، إلا ومعها ما لاحصر له من أسرار !

وثانياً : إذا تقرر أن المرة الثانية ، لم تجىء حتى نزول القرآن الكريم .. فهل وقعت بعد هذا ، أم أنها لاتزال معلقة بالمستقبل ، لم تقع بعد ؟

والقرآن الكريم هو دليلنا فى الإجابة على هذا السؤال ..

ففى قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوْا تتبيراً » — فى هذه الآية نجد حديثاً عن « المسجد » .. والمسجد كما هو معروف مَعْلَمَ من معالم الإسلام ، وسِمة من سمات بيوت الله التى يتعبّد المسلمون فيها .. إذ كان السجود أبرز عمل من أعمال المسلمين فى الصلاة .. ولهذا فقد كان الاسم الذى يعرف به المسجد الأقصى هو : « بيت المقدس » حتى إذا أسرى الله سبحانه وتعالى بالنبى الكريم إليه ، أسماه — سبحانه — المسجد الأقصى .. وجعله بهذا الاسم ، القِبلة الأولى للمسلمين ، كما جعله بهذه التسمية ، مسجداً لهم يعبدون الله فيه .. ثم كان الوصف الذى يُعرف به المسلمون فى المجتمع الإنسانى هو سِمَةَ السجود الذى فى وجوههم . كما يقول تعالى : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .. ذلك مثلهم فى التوراة » (٢٩ : الفتح) .

فذِكْرُ « بيت المقدس » باسم « المسجد » يشير إشارة واضحة إلى أن المرة الثانية ، التى يقع فيها من بنى إسرائيل هذا الإفساد ، إنما تكون فى العهد الإسلامى ، وفى الوقت الذى يكون فيه بيت المقدس مسجداً للمسلمين ، على خلاف ما كان عليه من قبل ، حيث لم تشر الآية الأولى إلى المسجد ، من بعيد أو قريب .. بل جاءت الآية هكذا « فجاسوا خلال الديار » أى تنقلوا كما

يتماشون بين الديار ، وهذا يعنى أن العدو الذى ابتلاهم الله به ، كان متمكنا ، بحيث يمشى فى ديارهم ، ويتخلل طرقاتها دون أن يخشى أحداً .

ونسأل مرة أخرى :

هل وقعت المرة الثانية ؟ وهل جاء وعد الآخرة قبل يومنا هذا ؟

والجواب هنا نأخذه أيضاً من القرآن الكريم ، ثم من أحداث التاريخ . .

وننظر مرة أخرى فى الآية : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما عَلَوْا تتبيرا » .

فهناك حقائق تقررها الآية الكريمة ، وهى :

—أن الذين يتسلّطون على بنى إسرائيل فى هذه المرة ، سيدخلون المسجد الأقصى .. « كما دخلوه أولَ مرة » .

وهذا يعنى أموراً :

— أن الذين يدخلون المسجد الأقصى هذه المرة ، قد كان لهم دخولٌ إليه من قبل ، وأنهم إنما يفعلون فى هذه المرة ، مافعلوه فى المرة السابقة ..

— ودخول المسلمين المسجدَ الأقصى أولَ مرة ، كان فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقد ظل فى أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل فى هذه الأيام ، من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين للهجرة . .

نعم .. خرج المسجد الأقصى من يد المسلمين إلى يد الصليبيين . . ثم أعيد إليهم مرة أخرى ، على يد صلاح الدين . . ولم يكن لبنى إسرائيل حساب أو تقدير فى هذا الأمر ..

— ودخول المسلمين إلى المسجد الأقصى وانتزاعه من يد الصليبيين ، ليس له شأن بالدخول الذى سيدخله المسلمون ، بعد أن ينتزعوا هذا المسجد من يد بنى إسرائيل ، لأن بنى إسرائيل لم يدخلوا المسجد ، ولم يستولوا عليه منذ الفتح الإسلامى ، حتى وقع لأيديهم فى هذه الأيام .

— فهذه إرهاصة من إرهاصات المرة الثانية ، أو وعد الآخرة ، وهى أن يكون المسجد الأقصى فى يد بنى إسرائيل ، ثم يجىء إليهم مَن يُخرجهم منه ، وينتزعه من أيديهم ، وهم أولئك الذين كان «المسجد» مسجدَهم الذى « دخلوه أولَ مرة » ! وليس المسجد إلا مسجدَ المسلمين ، وليس الذى يدخله المرة الثانية وينتزعه من اليهود ، إلا المسلمين . .

— والإرهاصة الثانية ، هى الحال التى عليها اليهود أنفسُهم ، وهى أن يكونوا على الصفة التى وصفهم الله بها ، حين يفسدون فى الأرض ، ويَعْلُون علوًّا كبيراً ، وحين يدخل عليهم أصحاب المسجد كما دخلوه أول مرة ، ليسوءوا وجوههم ، أى يُلبسوهم الخزى والسوء ، وقد اختُصَّت الوجوه بهذا ، لأنها الصفحة التى ترتسم عليها أحوال الإنسان كلها ، وما يمسّه من خير أو شر ، وما يلقاه من نعيم أو بؤس .

والذى ينظر فى واقع بنى إسرائيل اليوم يجد :

أولا : أنهم منذ عهد سليمان لم تقم لهم دولة ، بعد الدولة التى خربها بختنصّر ، حتى قامت لهم دولة فى هذه الأيام ، هى المعروفة باسم « إسرائيل » والتى تدعمها وتسندها قوًى كثيرة من قوى البغى والعدوان .. التى تكيد للإسلام وتتربّص به .

ثانيا : أن هذه الدولة التى أقامها بنو إسرائيل هذه الأيام دولة ولدت من أحشاء الظلام ، تحمل معها كل ماعرفت الإنسانية من أدوات الشر ، والبغى ، والعدوان .. فقد ملكت بكيدها ومكرها ، كثيراً من الوسائل الخبيثة ، التى مكنتها من تلك القوة ، وأقامت بها هذه الدولة ..

فالمال الذى أقيمت به هذه الدولة ، هو عصارة تلك الدماء التى امتصها

لليهود من الأمم والشعوب ،فى شتى أقطار الأرض .. بما أشعلوا من حروب وبما أثاروا من فتن ، وبما اشتروْا من ضمائر وذِمم . .

وثالثاً : هذه الدولة ، هى غاية ما يمكن أن يبلغه بنو إسرائيل من علوّ ، وغاية ما يمكن أن تطوله أيديهم من إفسادفى الأرض ..

فهم الآن يضعون أيديهم على فلسطين كلها ، وعلى شبه جزيرة سينا من مصر ، وعلى مرتفعات جُولان من سوريا ..

وكل ذلك قد وقع ليد إسرائيل فى لحظة خاطفة ، من لحظات الزمن ، لاتتجاوز ستة أيام ، الأمر الذى جعل لبنى إسرائيل اسماً ذائعاً رهيباً فى العالم، جعلت تتغذى منه إسرائيل بمشاعر العظمة والزهو والغرور ، حتى تورّمت ، وأوشكت أن تنفجر ، مما بها من كِظة وامتلاء ، من الزهو والخُيلاء .. ومن هنا كان منهم ذلك البغى والعدوان ، والإفساد فى الأرض .. بنسف الدور ، وقتل الأطفال والنساء ، بلا وازع من حياء أو ضمير ، وبلا خوف من قوة رادعة فى الأرض ، أو فى السماء !

المرة الثانية إذن هى مافيه إسرائيل الآن .. من فسادٍ فى الأرض ، وعلوّ واستكبار .. فسادٍ إلى أبعد مداه ، وعلوّ واستكبار إلى غاية حدودهما .

أما الذى ينتظر بنى إسرائيل بعد هذا ، فهو مايقع تأويلا لقوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرةٍ وليتبّروا ماعَلَوا تتبيرا » .

والذى سيتولى هذا ــ بلاشك ــ هم المسلمون ، أصحاب المسجد ، الذين دخلوه أولَ مرة ، أيامَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذين سيدخلونه اليوم ــ إذا شاء الله ــ كما دخلوه أول مرة .

وفى قوله تعالى : « ليسوءوا وجوهكم » إشارة إلى هذا الخزى الذى سَيَلْبَسُ بنى إسرائيل ، حين تحل بهم الهزيمة ، ويقع بهم البلاء ، ويهوُون هُويًّا من هذا العلوّ الساحق ، الذى تسلقوا إليه متلصصين فى الظلام .. ويومَها يعرف العالم أنهم هم اليهود ، أجبن خلق الله ، وإن لبسوا جلود النمور والأسود !

— وفى قوله تعالى : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » ـ إشارة إلى صحوة جديدة ، ستبعث القوة ، وتعيد الحياة إلى الأمة الإسلامية ، وتجدد شبابها .. وإذا هى أقرب ماتكون إلى عهد الفتح الأول ..

وشواهد هذا البعث للأمة الإسلامية كثيرة .. فقد تحررت أوطان العالَم الإسلامى جميعها من الاستعمار ، وأخذت الحياة تدبّ فى أرضها الموات ، بما يتدفق منها من ينابيع الذهب الأسود « البترول » الذى أمدها بأقوى قوة تقوم عليها الأمم فى العصر الحديث ، وهى المال ، الذى يمكّن لها من العلم ، ومايقوم على العلم من أسباب المدنية والعمران ..

— وفى قوله تعالى : « وليتبّروا ماعلوْا تتبيرا » ..

التبار ، والتتبير : التدمير ، والإهلاك ..

وفى هذا إشارة إلى أن المسلمين سيجيئون بقوة قاهرة ، ذات بأس متمكن غالب ، يأتى على القوم ، وعلى كل مامعهم من سلاح وعتاد ..

فكلمة « ما » وهى اسم موصول لغير العقلاء ، يراد به بنو إسرائيل ، وما معهم من معدات الحرب ، وأدوات القتال ، التى جلبوها من كل مكان ، ورصدوها للشر والعدوان ..

إن بنى إسرائيل بغير معدات الحرب هذه ، لاحساب لهم ، ولا وزن .. ولهذا كان ميزان الأسلحة والمعدات أثقل من ميزانهم ، ولهذا أيضاً جاء التعبير بلفظ

« ما » تغليباً لغير العاقل ، وهو الأسلحة والمعدات، على العاقل ، وهم بنو إسرائيل كان السلاح والعتاد أرجح منهم كفةً ، وأعظم أثراً .. فإنهم بغير هذا السلاح شيء لا وزن له ..

إننا لنقطع عن يقين ، أن بنى إسرائيل معنا اليوم ، واقعون تحت قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيراً » ..

وإذن فالجولة التالية بيننا وبين بنى إسرائيل ، هى لنا ، وسندخل المسجد إن شاء الله كما دخلناه أول مرة ، وسنخزى القوم ونعرّيهم من كل مالبسوا من أثواب الزهو والغرور .. وسنقضى على هذه الدولة المولودة سفاحاً .. فلن تقوم لها قائمة إلى يوم القيامة ..

بقى هنا أمران ، نود أن نشير إليهما فى إيجاز ..

أما الأمر الأول : فهو أن هذه الدولة قامت تحت اسم « إسرائيل » ولم تقم تحت اسم « اليهود » أو دولة « يهوذا » ..

وهذا مايجعل لقوله تعالى : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسِدُنَّ فى الأرض مرّتين ... » متوجهاً إلى تلك الدولة القائمة تحت اسم « إسرائيل » الأمر الذى يجعل من العسير أن تدخل تحت حكم هذه الآية ، لو أنها اتخذت أى اسم آخر غير هذا الاسم .. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن ..

وأما الأمر الثانى : فهو ماجاء فى قوله تعالى فى آخر هذه السورة : « ولقد آتَيْنَا مُوسَى تِسعَ آيَاتٍ بيناتٍ فَاسْأَلْ بنى إسرائيلَ إذْ جاءَهم فقالَ له فرعون إنّى لأَظنُّك ياموسَى مَسْحوراً * قالَ لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاَءِ إلاَّ ربُّ السمواتِ والأرضِ بَصائرَ وَإنّى لأظنّك يافِرعونُ مثبوراً * فأراد أن يستفِزّهم من

الأرضِ فَأَغرقْناه ومن مَعَه جميعاً * وقُلْنَا من بعـده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض .. فإذا جآء وعدُ الآخرة جئنا بكم لفيفاً »..(١٠١ — ١٠٤ : الإسراء)

ونقف من هذه الآيات عند قوله تعـالى : « وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرضَ فإذا جآء وعْدُ الآخرة جئنا بكم لفيفاً » ..

ففى قوله تعالى : « وقلنا من بعده لبنى إسرآئيل اسكنوا الأرض » إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن سكنى بنى إسرائيل الأرض ، لن تـكون إلا سُـكنى ذليلة مهينة، لا يرتفعون فِيها عن هذه الأرض ، ولا يستعلون بآدميتهم عن الدوابّ التى تدبّ عليها .. فهم أبداً لاصقون بهذه الأرض ، يغوصون فى طينها ، ووحلهـا إلى أذقانهم ، بحثاً عما تعطى الأرض .. أما ما وراء هذا من مطالب الروح ، فلاحظّ لهم فيه ، ولا شُغل لهم به . . !

وثانيهما : أنهم سيشتشرّدون فى الأرض كلها ..فى طولها وعرضها .. إذ كان همّهم من سكنى الأرض ، هو البحث عن كل مرعًى فيها ، فهم يتتبعون مواقع الرعى حيث كانت ، وهذا ماتحدث عنه حياة اليهود ، حيث هم فى كل صقع من أصقاع الأرض ..

وفى قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفًا » ـ إشـارة إلى ماجاء فى قوله تعالى : فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً »

فبنو إسرائيل الذى جاءوا لوعد الآخرة ، واجتمعوا اليومَ فى فلسطين ، وأقاموا الدولة الواقعة تحت حكم الله الذى قضى به عليهم يوم يجىء وعـــد الآخرة ـ بنوإسرائيل هؤلاء ، قد جاءوا من كل أفق من آفاق الأرض مَسُوقين إلى حتفِهم ، مدعوّين إلى قَدَرهم المقدور ، فى قوله تعـالى : « فإذا جآء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً »..أى جمعنا كم من كل جهة .. فاللفيف من الناس : الجماعة

التى تجتمع من وجوه شتّى، كما يجتمع الناس فى الأسواق ، والأسفار.. ثم ينفضّ السوق ، ويتفرق السّفر! «والله غالب على أمره ولـكن أكثر الناس لا يعلمون» .

الآيات : (٨ — ١٤)

* «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (١٤)

التفسير :

* قوله تعالى : «عَسَى رَبُّكم أن يَرْحَمَكم وإن عُدْتُمْ عُدْنا وجَعلنا جهنم للكافرين حصيرا» ..

هو خطاب لبنى إسرائيل ، وإلفات لهم إلى بأس الله الذى لا يُرَدّ عن القوم الظالمين ، وأنهم بعد أن ينفذ فيهم قضاء الله ، ويقعوا تحت «وعدِ الآخرة» ان يُرفَع عنهم التكليف المفروض على كل إنسان .. فهم ـ شأنهم شأن الناس ـ

معرضون لرحمة الله ، إن نزعوا عماهم عليه من شر وفساد ، ورجعوا إلى الله ، واستقاموا على طريق الحق والخير .. فإن عادوا ــ بعد أن يُضربوا الضربة الثانية تلك ــ عاد الله سبحانه وتعالى عليهم بالبلاء ورماهم بالنقم ، وسلط عليهم من عباده من يأخذهم بالبأساء والضراء .. ثم حُشروا محشر الكافرين ، فكانت لهم النار حصيراً ، أى سجناً مطبقاً عليهم ، يُحصَرون فيه ، ولا يجدون لهم طريقاً للخلاص منه ..

* وقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقومُ ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أن لهم أجرًا كبيرا * وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن بنى إسرائيل قد تنكبوا طريق الحق ، وركبوا طرق الباطل والضلال ، فضربهم الله سبحانه وتعالى هاتين الضربتين المدمرتين ، وكانت إحدى هاتين الضربتين ، على يد المسلمين ، أصحاب المسجد ، الذى استولى عليه بنو إسرائيل .. فكان قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » دعوة لبنى إسرائيل إن هم أرادوا أن يُرفع عنهم بلاء الله ، وتستقيم طريقهم فى الحياة أن يؤمنوا بهذا القرآن ، الذى يهدى للطريق المستقيم وألا يبحثوا عن دواء غيره يطبّون به لدائهم ، إن أرادوا أن يخرجوا من هذا البلاء الذى ضربه الله عليهم .

— وفى قوله تعالى : « وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » إشارة إلى بنى إسرائيل ، وإلى أنهم المرادون بهذا الخطاب ، فهم لا يؤمنون بالآخرة ، كما يؤمن بها المؤمنون ، وإنما يرون أن الجزاء معجل فى هذه الدنيا ، وأن الجنة والنار هما فى هذه الدنيا ، حيث السعداء والأشقياء ، وحيث الأغنياء والفقراء .. هذه هى عقيدة بنى إسرائيل فى الآخرة .. وقد أشار إليهم سبحانه

وتعالى فى أول سورة البقرة بقوله : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .. فالمراد بهذه الآية هم اليهود .. والمطلوب منهم أن يؤمنوا بالآخرة وأن يستيقنوها .. فهم وإن ذكروا الآخرة لايذكرونها إلا بألسنتهم ، ولكن قلوبهم منعقدة على إنكارها ..

* قوله تعالى : « ويَدْعُ الإنسانُ بالشرّ دعاءَه بالخير وكان الإنسان عجولاً » .

تكشف هذه الآية عن حالٍ من أحوال الإنسان ، وهو أنه مولع بحبّ العاجل من المتاع ، يطلبه ، ويؤثره على الآجل ، وإن كان فيه من الخير أضعاف العاجل الذى طلبه وآثره .. !

ومن هنا ، كان أكثر الناس يطلبون الدنيا ، ويستوفون حظوظهم منها ، دون أن يتركوا للآخرة شيئاً .. وهذا مايحملهم على أن يهتفوا بالشرّ ، ويلحّوا فى طلبه ، حتى كأنه خيرٌ محقق .

ووصف مايستعجله الناس من متاع الحياة الدنيا بالشرّ ، إنما هو بالإضافة إلى الحال التى يتلبّس بها طالبوه ، حيث يصرفهم عن الآخرة ، ويُعمى أبصارهم عن النظر إليها .. فهذا المتاع ليس شراً فى ذاته ، وإنما هو شرٌّ بالنسبة لمن شُغلوا به عن الآخرة ، وأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، واستمتعوا بها .. وفى هذا أيضاً نَخْسَةٌ لبنى إسرائيل ، وأنهم طُلاَّبُ دنيا ، لاينظرون إلى ماوراءها ..

* قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهارَ آيتين فمحونا آية الَّليل وجعلنا آية النّهار مُبْصِرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحسابَ وكلّ شيء فصّلناه تفصيلا » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها .. أنها تكشف عن وجهين من وجوه الحياة المتسلطة على الناس ، وهما النور والظلام ، وهما أشبه بالوجهين اللذين يعيش فيهما الناس ، وهما وجها الخير والشرّ اللذان أشارت إليهما الآية السابقة ..

والليل والنهار آيتان من آيات الله ، تحدّث كل آية منهما عن قدرة الله ، وعن حكمته.. وكلٌّ منهما مكملة للأخرى،بل ومعلنة عنها ، ومحققة لوجودها.. فلولا الليل ما كان النهار ،ولولا النهار ماعُرف الليل ..

وكذلك الخير والشر .. آيتان من آيات الله فى الناس .. كلٌّ منهما مكمل للآخر ، ومعلن عنه ، ومحقق لوجوده .. فلولا الخير ما كان الشر ، ولولا الشرّ ماعُرف الخير ..

والدنيا والآخرة .. آيتان من آيات الله .. فى الناس .. فكل منهما مكملة للأخرى ، موصولة بها .. فلولا الدنيا ما كانت الآخرة ، ولولا الآخرة ما كانت الدنيا إلا لعباً ولهواً ، وما غرس الغارسون ماغرسوا فيها من معالم الحق والخير .. وما أعدّوا فيها هذا الزاد الطيب الكريم ،الذى ادخروه للآخرة .

—وفى قوله تعالى : « فمحونا آية الليل » إشارة إلى أن الليل موقف سلبىّ بالنسبة لحياة الإنسان .. يخلد فيه الإنسان إلى الراحة ، ويُسلم فيه نفسه للنوم ، ليعبِّئ ذاته بأسباب القوة ، والنشاط ، حتى يعمل فى وجوه الحياة حين يطلع النهار بآيته المبصرة !

والليل هو الليل ، وإن بدّد الناس ظلامه بتلك المصابيح التى تجعل منه نهاراً أو مايشبه النهار !

فهو سَكَن الناسِ ، وهو الظرف الذى يأخذون فيه حظهم من الراحة والنوم .. إنه أشبه بالدنيا ، والنهار أشبه بالآخرة ..!

أكثر الناس فى الدنيا ، فى ليل لايبصرون ، وفى سُبات لايستيقظون .. فإذا كانت الآخرة ، فهم فى نهارٍ مبصر ، وفى يقظة واعية مدركة .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديدٌ » (٢٢ : ق) .

— وفى قوله تعالى : « وجعلنا آية النهار مُبصرةً لتبتغوا فضلا من ربكم » إشارة إلى أن النّهار سعىٌ وعملٌ ، حيث يبصر فيه الإنسان طريقه ومَسْرَبه فى الحياة .. فلينتفع بهذه النعمة ، وليضع قدمه على طريق مستقيم ، حتى يتجنّب العثرات والزلات ..

وقد قرىء : « مَبْصرةً » بفتح الميم وسكون الباء ، وفتح الصاد .. اسم آلة .. أى جعلنا آية النهار آلة للإبصار ..

— وقوله تعالى: « ولتعلموا عدد السنين والحسابَ . » أى أن الليل والنهار ، إذ يقتسمان الزمن ، ويتداولانه فيا بينهما ، كان سبباً فى معرفة الزمن ، وفى رصد حركاته ، وعدّ السنين وحسابها .. وأنه لو كان الزمن ليلا سرمداً ، أو كان نهاراً دائماً ، لما عرف الناس الزمن حركة ، ولما تولّد لهم من حركته الأيام ، والسنون !

* قوله تعالى : « وكلَّ إنسان ألزمناه طآئره فى عنقه ونُخرجُ له يوْم القيامةِ كتاباً يلقاه منشوراً » . .

ألزمناه : أى أوجبنا عليه ، وأخذنا به ..

وطائره : عمله ، من خير أو شر .. وسمّى عمل الإنسان طائره ، لأنه حصيلة سعيه فى هذه الدنيا ، وقد كان العرب ، يتخذون من الطير فألاً يُجرْون عليه أعمالهم .. فإذا أطلقوا طائراً ، فطار من الشمال إلى اليمين ، تفاءلوا به وسمّوْه « سانحاً » وإذا طار من اليمين إلى الشمال ، تشاءموا به وسموه « بارحا » .. فأعمالهم كلها ــ على هذا التقدير ــ من خير أو شر ، هى مما جرى به الطير : سانحاً ، أو بارحاً ..

وقد ورد فى القرآن الكريم ، ماجرى على ألسنة الذين يتخذون من الطير

فألا ! فقال تعالى : « قالوا إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم » (١٨ : يس)
وقال سبحانه : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه .. ألا إنما طائرهم عند الله » (١٣١ : الأعراف) .

والمعنى : أن كل إنسان يأتى يوم القيامة ، وقد حمل معه حصيلة أعماله كلها ، التى عملها فى دنياه ، من خير أو شر ، وقد لزمته ، ونيطت به ، حتى لكأنها قلادة تمسك بعنقه ..

فهذه هى الحلية التى يتحلّى بها الإنسان من دنياه .. هى طائر ، قد علق بعنقه ، لايطير يميناً أو شمالا ، ولا يتحرك سانحاً أو بارحاً .. حيث لاعمل بعد أن يترك الإنسان هذه الدنيا .. لقد انقطع عمله ، وسكن طائره الذى كان يصحبه فى الشرّ والخير ونزل معه إلى قبره ، متعلقاً به ، كما يتعلق الطفل بصدر أمه ، ويشدّ يديه إلى عنقها ..

* وقوله تعالى : « ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورًا » .. أى أنه بعد أن يُبعث الإنسان ، يجد هذا الطائر قد أصبح كتاباً منشوراً .. « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ..

* قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » هو أمر إلى كل ذى كتابٍ أن يقرأ كتابه ، وأن يحاسِب نفسَه بما فى هذا الكتاب ، فهو ناطق مبين .. « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٢٩ : الجاثية)

الآيات : (١٥ — ٢٢)

* « مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَآءِ وَهَٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » (٢٢)

التفسير :

* قوله تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه وَمن ضلَّ فإنما يضلّ عليها ولا تزرُ وازرة وزر أخرى وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا » .

فى هذه الآية أمور :

أولا : أنها تعقيب على الأحكام ، والمقررات التى عرضتها الآيات السابقة ، وعرضت فيها المؤمنين ، والكافرين ، وحصيلة كل مايعمله الإنسان فى الدنيا ، وحسابه عليه فى الآخرة ..

— « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها » فما يعمله الإنسان من خير فهو له ، وما يعمله من شر فهو واقع عليه ، لايصيب أحداً غيره .. « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا يرَه ومن يعمل مثقال ذرّة شرًّا يرَه » .

ثانيًا : أنه لاتزر وازرة وِزْرَ أخرى .. فلا يُلْقى حمل أحد على أحدٍ ..

والوِزر : الحِمْل ، ويستعمل للدلالة على الأعمال السيئة ، إذ كانت هذه الأعمال عِبئًا على أصحابها ، بما يصيبهم منها من عَناء وضَنَى ، فصحّ أن تشبّه بالأحمال الثقيلة . .

ومعنى : « تَزِر » تحمل ، والوازرة الحاملة . .

وقد أُسند الفعل إلى « النفس » ولهذا أنّث . . والمعنى : ولا تحمل نفس حِمْل نفس أخرى . . كما يقول سبحانه وتعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » (٣٨ : المدثر) .

ثالثًا : أنه مما قضت به حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته بالناس ، أن يقيم حجته عليهم ، قبل أن يحاسبهم ، وذلك بدعوتهم إليه عن طريق رسلٍ يختارهم من الناس ، ليبلغوهم رسالة الله إليهم ، ويكشفوا لهم الطريق إليه . . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . . فإذا جاء الرسول إلى الناس لم يكن لهم على الله حجة فى أَخْذهم بالعذاب إن لم يستجيبوا لرسول الله ، ولم يؤمنوا بالله ! وإنه مما يُسْأله الكافرون ، والضالون يوم القيامة ، وهم يعرضون على الله سبحانه، هذا السؤال التقريرى : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكم يتلون عليكم آياتِ ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بَلَى ! ولَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٧١ : الزمر) .

* قوله تعالى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » .

قُرِىء فى هذه الآية « أَمَرْنَا » آمرنا ، بمدّ الهمزة ، وأمِرنا بكسر الميم ، وأمّرنا بتشديدها ، وفسّرت كلها بمعنى كثّرنا .

هذه الآية الكريمة تشير إلى قضاء الله سبحانه ، النافذ فى العباد ، وسنّته الجارية عليهم ، المطّردة فيهم . .

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أمراً استدعى له أسبابه ، ثم أجراه على هذه الأسباب ، وأقامه على سُنَنِه الكونية ..

وهو سبحانه مُبْدِعٌ ، قادر ، يقول للشيء كن فيكون .. وليست هذه الأسباب وتلك السُّنن حدوداً تحدّ من سلطان القدرة ، والإبداع .. وإنما هى فى ذاتها من عمل القدرة ، ومن آيات الإبداع ، إذ كانت الحكمة قائمةً مع الإبداع والقدرة.. وإلا فلو كانت القدرة قدرة مطلقة لا تتلبس الحكمة بها لكانت قوةً طاغيـــة ، ترمى بالفوضى ، والاضطراب .. تعالت قدرة الله عن ذلك علوًّا كبيراً ..

وصفات الله سبحانه وتعالى ، فى كمالها وجلالها ، ليست على هذا التصور الذى نتصوره ، من أنها صفات متعددة .. وإنما هى فى ذاتها صفة واحدة لله .. فكما أنه سبحانه واحد فى ذاته ، هو سبحانه واحد فى صفاته .. ولكن هذا التعدد فى الصفات ، إنما هو من حيث نظرتنا نحن إلى تجلِّيات الله سبحانه وتعالى ، فحين ننظر إلى العلم مثلا ، نَنْسُب العلم الكامل الشامل لله سبحانه وتعالى .. ولكنه علم من ؟ إنه علم الله المتصف بصفات الكمال كلها .. وهكذا الشأن فى كل صفة نصف الله جلّ وعزّ بها .. إنها صفة الله المتصف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقص ..

والآية الكريمة تحدّث ـ كما قلنا ـ عن قضاء الله فى عباده ، وسنّته فيهم ، وأنه ـ سبحانه ـ إذا قضى بأن يُهلك قريةً لم يهلكها حتى يقيم الحجة عليها ، بإرسال الرسل أولاً ، ثم بما يكون منها من عصيان الرسول ، وكفرٍ بالله ، وبما يسوق إليه الكفر من ضلال وفساد .. ثانياً .

ـــ وفى قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » إشارة إلى قضاء الله النافذ فيهم ، وأنهم ـ تحت حكم هذا القضاء ، لن يؤمنوا أبداً ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ ..

فكأنهم مأمورون بالكفر والعصيان ، وإن لم يكن ثَمّةَ أمرٌ ولا إلزام .. !
« إن الله لايأمر بالفحشاء » ..

وتسأل : ما الحكمة من إرسال الرسل إلى من حَقّ عليهم القول ؟

والجواب ، ماعلمتَ من قوله تعالى : « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا » وذلك لإقامة الحجة عليهم ، ولإظهار مالديهم من إرادة تواجه إرادة الله .. وإن كانت إرادة الله هى الغالبة !

وتسأل : مابال هؤلاء الذين حَقّ عليهم القول يعذّبون وهم مسوقون سَوْقاً إلى قَدَرِهم المقدور ؟

ولا جواب ، إلاّ أنّ هذه هى مشيئة الله فى عباده .. « ولذلك خَلَقَهم ».. ولا يُسأل الخالق عما يفعل فيما خلق : « لا يُسأل عما يَفْعل وهم يُسألون » (٢٣ : الأنبياء) .

وفى الإشارة إلى « المترفين » وهم أصحاب الثّراء ، الذى يعيش له أهله فى فراغ وبطالة — يعنى أن هؤلاء المترفين لايُرجى منهم خير ، ولا يُطبّ لدائهم بدواء .. فهم كائنات فاسدة هازلة ، لاتجدّ أبداً .. ثم هم مع هذا قدوة الناس ، وقادتهم بما لهم من ثراء !

— وقوله تعالى : « فحقّ عليها القول » ـ هو إشارة إلى ماقضى الله به فى عباده ، وماحكم به على هذه القرية ، من الهلاك والتدمير .. فقول الله : هو قضاؤه وحكمته .. وإحقاق القول : هو وقوعه ، ونفاذه . .

وأخذ القرية كلها بفساد المفسدين من أهل الترف فيها ، إنما لأن أحداً من أهل القرية لم يضرب على أيديهم ، ولم ينكر عليهم هذا المنكر ، والله سبحانه وتعالى يقول: «واتقوا فتنة لاتصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصة »(٢٥: الأنفال) .

* قوله تعالى : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » ..

أى من سنن الله فى عباده ، هذا الموت الذى كَتَبه عليهم ، وجعله حُكما واقعاً على كل حىّ .. وهذه القرون ، التى خلت من بعد نوح إلى اليوم ، قد هلك أهلها جميعاً ، وهم أعداد كثيرة ، تضمّ أمماً وشعوباً لا يعلمها إلا الله ، وقد مضوا جميعاً إلى ربّهم ، ليس معهم شىء مما كان لهم فى دنياهم ، إلا ماعملوا من خير أو شر ..

— وفى قوله تعالى : «وكفى بربّك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » .. — إشارة إلى أن علم الله محيط بكل ماعمل الناس ، لايعزُب عنه مثقالُ ذرة مما عملوا .. وخَصّ الذنوب بالعلم ، لأنها هى الخطر الذى يتهدد الناس ، حتى يحذروه ، فيُكتبَ لهم الأمن والعافية .. فإنه إذا توقّى الإنسان الذنوبَ ، استقام على طريق الحق والخير ، لأنها هى الوارد الذى يرد عليه ويفسد فطرته ..

* قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنّمَ يَصْلاها مذموماً مدحورًا » .

العاجلة ، هى الدنيا ، وما فيها من متاع ..

فمن قَصَرَ نظره على الدنيا ، وعمل لها ، ولم يلتفت إلى الآخرة .. فذلك هو كل حظّه ، وهو حظ قدّره الله تبارك وتعالى له ، لا أنّه جاء عن تقديره وتدبيره ، وإرادته .. فليس كل من أراد الدنيا بمستجيبة له ، وإنما الذى يُستَجابُ له منها ، هو ما أراده الله له ..

وفى هذا مايشير إلى أن طالب الدنيا قد بخَس نفسَه حظّها من الآخرة ، حيث لم يعمل لها ، ولم يصرف من همّه شيئاً إليها ، على حين أن طلبه للدنيا وحصر همّه فيها لم يجىء إليه بشىء إلا ما أراده الله له .. وهذا مايشير إليه قوله

تعالى: «منَ كان يُريد حَرْثَ الآخرة نزدْ له فى حَرْثه ومن كان يُريد حرث الدّنيا نُؤْتِهِ منها وما له فى الآخرة من نصيب» (٢٠ : الشورى).

— وفى قوله تعالى: «لمن نريدُ» إشارة إلى أن طالبى الدنيا لم يطلبوها إلا لأن الله سبحانه وتعالى أرادهم لها، وجعلهم من أهلها ..

— وقوله تعالى: «مذمومًا مدحورًا».

المذموم: المنحوس الحظ، والمدحور: المخذول ..

* قوله تعالى: «ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سعيها وَهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا».

هو الوجه المقابل لطلاب العاجلة .. وفى هذا الوجه يظهر أولئك الذين يريدون الآخرة، ويعملون لها .. وعملهم هذا محمود طيب، يشكره الله سبحانه وتعالى لهم، ويجزيهم الجزاء الطيب عليه ..

—وقوله تعالى: «وهو مؤمن» هوقيد وارد على العمل الذى يعمله العاملون للآخرة، حتى يكون عملا مبرورًا مشكورا، وهذا القيد هو الإيمان .. فكل عمل ـ وإن كان فى أصله حسنًا ـ لايُقبل عند الله، إلا إذا زكّاه الإيمان بالله، وبهذا يكون العمل مُرادًا به الله، ومبتغًى به مرضاتُه .. فيتقبله الله، ويُجزل الثواب عليه ..

* قوله تعالى: «كلاًّ نُمدّ هؤلاءِ وهؤلاء من عطآء ربّك وما كان عطآء ربك محظورًا» ..

هو تعقيب على ما كشفت عنه الآيات السابقة من العاملين للدنيا، والعاملين للآخرة .. فهؤلاء وهؤلاء جميعًا، إنما يُرزقون من فضل الله، وينالون من عطائه .. «وما كان عطاء ربّك محظورًا» فهو عطاء يشمل الخلق جميعًا ..

محسـنيهم ومسيئهم ..! فهذه النعم التى يتقلب فيها الذين لايؤمنون بالله ، هى من عطاء الله ، ولـكنهم فى عمًى وفى ضلالٍ : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة) . .

* قوله تعـالى : « انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض ولَلآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا » ـ هو إلفاتٌ إلى هذه الدرجات المتفاوتة بين الناس ، فيما أمدهم به الله سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا . . فهم ليسوا على حظ واحد فيما نالوا من حظوظ الدنيا .. إذ فيهم من وسّعَ الله له فى الرزق ، فملك القنـاطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفيهم من لايملك إلا ثوباً مرقعاً وكِسراتٍ من الخبز .. وبين هؤلاء وأولئك درجاتٌ ..

هذا كلّه فى الدنيا .. الناس على تفاوت كبير فى حظوظهم منها .. وهم فى الآخرة كذلك ، درجات متفاوتة ، وحظوظ متباينة .. فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .. وأهل الجنة درجات ، وأصحاب النار دَرَكات .. وشتّان مابين الدنيا والآخرة ، ومابين النـار والجنة .. « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .. إنها دار البقاء والخلود .. « فمن زُحزح عن النَّارِ وأُدْخِلَ الجنّةَ فقد فازَ وما الحياةُ الدُّنْيا إلامَتَاعُ الْغُرورِ » (١٨٥ : آل عمران) .

* قوله تعالى : « لاتجعلْ مع الله إلهاً آخَرَ فتقعد مذموماً مخذولا » .. الخطاب للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — وهو خطاب عام يشمل الناس جميعاً ، إذ كان صلوات الله وسلامه عليه — إمامَ الإنسانية ، ورسولَها ، وفى توجيه هذا النّهى للنبىّ مايشير إلى خطر الأمر المنهىّ عنه ، وإلى أنّه إن وقع من إنسان — أى إنسان — حَبِط عمله ، وساء مصيره .

وفى التعبير عن سوء المصير ، بالقعود ، مايشير إلى فداحة الخطب ، وأنه من الهول بحيث ينهار معه بناء الإنسان ، وتنحلّ قواه ، فلا يقدر على الحركة ،

بل يتهاوى ، ويسقط على الأرض ، وعن يمينه وشماله ، بقاياه ومخلّفاته ، التى لا يأتيه منها غير الذم والتأنيب ، على مافرط منه ، وإلا الخيبة والخذلان مما جمع وأوعى !

الآيات : (٢٣ — ٣٠)

* « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » (٣٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « وقضَى ربّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إمّا يبلُغنّ عندك الكِبَر أحدهما أو كِلاهُما فلا تقل لَهُمَا أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » .

فى الآية السابقة على هذه الآية جاء قوله تعالى : « لاتجعل مع الله إلٰهاً آخر » ـ جاء ناهياً ومحذراً ومتوعداً من يشرك مع الله إلٰهاً آخر ..

وفى هذه الآية جاءت دعوة الله الناس جميعاً إلى الإيمان بالله . فهذا ماقضى الله سبحانه وتعالى به فى عباده ، حين أخذ عليهم العهد ، وهم فى ظهور آبائهم .. كما يقول سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى..شهدنا » (١٧٢ : الأعراف) .. فالناس جميعاً ـ بحكم هذا العهد ـ مؤمنون بالله ، بفطرتهم ، يولد المولود منهم ، وهو على هذه الفطرة ، كما يقول الرسول الكريم : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصّرانه ، ويمجّسانه » .

ومن هنا يبدو إيمانُ الناس بالله وكأنه قضاء قضى الله به عليهم ، وألزمهم إياه .. فهم مؤمنون بالله ، بحكم فطرتهم المودعة فيهم ، ومطلوب منهم أن يستقيموا على هذه الفطرة ، وألاّ يخرجوا عنها .. فالإيمان بالله غريزة مركوزة فى كيان الإنسان ، أشبه بتلك الغرائز التى تتحكم فى سلوك الحيوان .. ولكن الإنسان حين يعقل ويدرك ، يصبح كائناً ذا إرادة ..وهو بهذه الإرادة قد يلتقى مع الفطرة ، وقد يصطدم بها .. ومن هنا يكون الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ..

ـــ وقوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » معطوف على ماقبله ، ويصحّ عطف النهى على الأمر ، والأمر على النهى ، لأنهما طلبيّان .. وفى النهى معنى الأمر.. فقوله تعالى : « وقضى ربّك ألا تعبداو إلا إياه » يحمل معنى الأمر ، وهو اعبدوا الله .. فحسن عطف الأمر عليه : « وبالوالدين إحساناً » ..

وقدّم معمول المصدر ، على المصدر ، للاهتمام به ، لأنه مطلوبُ الإحسان

وغايته .. وأصل النظم « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وإحساناً بالوالدين » .. ونصب إحساناً بفعل محذوف، تقديره « أحسنوا » ..

وفى عطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين، على النهى عن عبادة غير الله، مزيدُ اهتمامٍ بالوالدين، واحتفاء بقدرهما، وتنويه بفضلهما .. وذلك لأنهما هما السبب المباشر فى إيجاد الإنسان، حيث ينظر الناظر إلى مواليد الحياة، فيجد أنها ترجع إلى الذكر والأنثى، أو الأب والأم، وإن كان الخلق كله لله سبحانه وتعالى ..

ثم لا يقف أمر الوالدين عند حدّ ولادة المولود، بل إنهما يقومان على أمره، ويسهران على كفالته، وتنشئته، حتى يجاوز مرحلة الطفولة والصبا، وحتى فى مرحلة الشباب، لا تنقطع رعاية الأبوين، ولا عنايتهما بأولادهما ..

ومن هنا كان للأبوين هذا الحق فى عنق الأبناء، وهو حق توجبه المروءة، ويقتضيه العدل، قبل أن يوجبه الدين، وتقتضيه الشريعة ..

وقد دعت الشريعة إلى أداء هذا الحق، فى صورة عامة مجملة، وهو الإحسان إليهما، الإحسانَ المطلق، الذى يشمل كل خير، ويضمّ كل إحسان .. سواء بالقول، أم بالعمل .. فكل ماهو داخل فى باب الإحسان ينبغى على الأبناء أن يقدموه إلى آبائهم .. « وبالوالدين إحساناً » .

— وفى قوله تعالى : « إما يبلغن عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما » .

إشارة إلى مقطع من مقاطع الحياة، ومرحلة من مراحلها، يبلغها الأبوان، فيكونان فيها فى حال من الضعف والوهن، وذلك حين يتقدم بهما العمر .. وهنا قد يجد بعض الأبناء أن الفرصة ممكنة لهم فى أن يتخفّفوا من حقوق الوالدين، أو أن يسيئوا الأدب معهما ..

ولهذا جاء قول الله هنا منبهاً إلى تلك المرحلة التى قد يبلغها الأبوان من العمر، وما ينبغى أن يكون عليه سلوك الأبناء فيها معهما : « إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » .

و « إمّا » أصلها « إن » الشرطية ، « وما » الزائدة للتوكيد .

و « أفٍّ » صوت ، يدل على الضجر ، والضيق من قائله إلى المقول له ..

ولا تنهرهما : النّهر : الزجر ، والتعنيف فى الخطاب ..

فالآية الكريمة ، ترسم أدبَ الحديث مع الوالدين فى حال بلوغهما الكبر .. فالكلمة النابية تجرح مشاعرهما ، وتكدر خاطرهما ، والكلمة الطيبة تنعش روحيهما وتشرح صدريهما ..

إن الأبوين فى حال الكبر لا يحتاجان إلى كثير من الطعام أو الكساء ، أو غيرهما من متع الحياة ، وإنما الذى يحتاجان إليه فى تلك الحال ، هو الإحسان إليهما بالكلمة الطيبة ، إذ كان أكثر ما يملكانه ويتعاملان به فى هذه الحال هو الكلام ، أخذاً ، وعطاء ..

* قوله تعالى : « واخفض لهما جناحَ الذلِّ من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « وقل لهما قولا كريماً » ..

وخَفْض الجناح ، كناية عن لين الجانب ، ولطف المعاشرة ، ورقّة الحديث .

والإنسان فيه جانبان من كل شىء .. جانب الخير ، وجانب الشر .. جانب القوة ، وجانب الضعف ، جانب الشدة ، وجانب اللين ، وهكذا . .

وبين جانبى الإنسان إرادة ، هى التى تنزع به إلى أى الجانبين .. فهو فى

هذا أشبه بالطائر ، حين يريد الاتجاه إلى أية جهة ، يَخفض جناحه لها ، على حين يفرد الجناح الآخر ..

فكأنّ الإنسانَ حين دُعى إلى أن يلين لأبويه ، وأن يرّق لهما ، قد مُثّل بطائر أراد أن يأخذ هذا الجانب من جانبيه ، وهو جانب الرحمة والعطف ، فخفض جناحه ومال إليه ..

* قوله تعالى : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً » ..

هو تعقيب على ماتضمنته الآيات السابقة من النهى عن الشرك بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين .. وهذا التعقيب يقرر أنّ أساس الأعمال كلها ، هى القلوب ، وما تنطوى عليه ، من صلاح .. فإذا كان قلب الإنسان سليما ، ونيّته معقودة على الإيمان بالله ، والإحسان إلى الوالدين ، ثم كان منه زلّة أو عثرة ، فذلك مما لا يفسد على المؤمن إيمانه ، ولا يضيّع على المحسن إحسانه ، إذا هو رجع إلى الله من قريب ، وأصلح ما أفسد .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنه كان للأوابين غفورا » ..

والأوابون : جمع أواب ، وهو كثير الأوب ، أى التوبة والرجوع إلى الله .. وهذا يعنى أن الإنسان فى معرض الخطأ والزلل .. وأن الذى يصلح من خطئه ، ويصحح من عِوَجه ، هو رجوعه إلى الله ، وطلب الصفح والمغفرة منه .

* قوله تعالى : « وآتِ ذا القُربى حقَّه والمسكين وابْنَ السبيل ولا تبذّر تبذيرًا » .

هو دعوة إلى الإحسان إلى جماعات لهم حقوق على الإنسان ، بعد حقّ الوالدين ، وهؤلاء هم :

ذوو القربى : أى الأقارب . . غير الأبوين .. كالإخوة ، والأخوات ، والأعمام والعمّات ، وغيرهم ممن تربطهم بالإنسان رابطة القرابة والنسب ..

والمساكين : وهم وإن لم يكونوا ذوى قرابة قريبة من الإنسان ، فإنهم ذوو قرابة له فى الإنسانية ، وهم بعض المجتمع الذى هو منه ..

وأبناء السبيل : وهم الذين يقطعهم السفر عن أهلهم ، وما لهم .. فهم فى عزلة ووحشة ، وهم لذلك ، فى حاجة إلى من يؤنسهم ويُذهب بوحشتهم .

— وفى قوله تعالى : « وآتِ ذا القربى حقّه والمسكين وابنَ السبيل » إشارة إلى أن مايبذله الإنسان لهؤلاء الجماعات هو حقّ لهم عنده ! فإذا أداه لهم ، فإنما يؤدى ديناً عليه .. ثم هو مع أداء هذا الدين مثابٌ عند الله ، يضاعَف له الأجر، ويُجزل له المثوبة . .

وقد أطلق الحق ، فلم يُحدِّد ، ولم يُبيّن ، ليشمل كل ماهو مطلوب ، حسب الحال الداعية له .

— وفى قوله تعالى : « ولا تبذّرْ تبذيرا » مايشير إلى أمرين :

أولهما : الإغراء بالبذل والإنفاق .. وهذا على خلاف منطوق النظم « ولا تبذر تبذيرا » .. فإن النهى عن التبذير هنا ، يشير إلى أن الدعوة إلى الإنفاق قد وجدت أو من شأنها أن تجد قلوباً رحيمة ، وأيْدِياً سخيّة ، تنفق وتنفق ، حتى تجاوز حدّ الاعتدال إلى الإسراف ، والتبذير .. فجاء قوله تعالى : « ولا تبذّرْ تبذيرا » ليمسك المسرفين فى البذل والعطاء على طريق الاعتدال .!

وهذا الإغراء إنما هو لما يغلب على النفوس من شحّ وبخل ..

وثانيهما : النهى عن التبذير حقيقة .. وذلك أن بعضاً من الناس ، قد يشتد بهم الحرص على مرضاة الله ، وللمبالغة فى تنفيذ أمره ، فيجاوزون حدّ

الاعتدال ، ويجورون على أنفسهم ، سواء فى العبادة ، أم فى غير العبادة من القُربات والطاعات .. فإلى هؤلاء يكون النهى عن التبذير طلباً موجّهاً إليهم .. حتى يلتزموا الطريق الوسط ، كما يقول سبحانه ، فى مدح المنفقين : « والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً » (٦٧ : الفرقان) .

* قوله تعالى : « إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربّه كفورا » .. هو تنفير من التبذير ، والإسراف .. فى أى وجه من الوجوه ، حتى فى مجال الخير والإحسان ..وكفى بالتبذير نُـكراً أن يكون وجهه دائماً مصروفاً فى وجوه الشرّ ، وقلّ أن يظهر له وجه فى باب الإحسان .. ومن هنا كان مكروهاً على أى حالٍ ، إذ كان الغالبُ عليه هذا المُتّجه المنكر ..

* قوله تعالى : « وإما تُعرِضنّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربّك ترجوها فقُلْ لهم قولا ميسورا » .

الضمير فى « عنهم » يعود إلى المذكورين فى قوله تعالى : « وآتِ ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل » ..

والإعراض عنهم ، هو الإمساك عن إعطاء الحق الذى هو لهم .

والرحمة المرجوّة من الله : هى الرزق المنتظر من فضله سبحانه وتعالى ..

ومعنى الآية : إنك أيها الإنسان ، إن أمسكت لضيق ذات يدك عن أن تؤدّى حق ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، منتظراً رزقاً وسَعَةً فى الرزق من الله .. فلا يمنعنَّك هذا من أن تحسن إليهم بالـكلمة الطيبة « فقل لهم قولا ميسوراً » .. أى طيباً ليّناً ، فيه مسرّة لهم ، وجبر لخاطرهم ، وتيسير لمعسورهم ، وفى الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة » ..

* قوله تعالى : « ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقك ولا تبسُطها كلّ البسط فتقْعُدَ مَلوماً محسوراً » .

هو تحذير من الشحّ والبخل ، وقد صُوّر بهذه الصورة التى يبدو فيها البخيل الشحيح ، وقد غُلّت يده إلى عنقه ، فلا ينتفع بها فى أى وجه من وجوه النفع ، كما أنه لم يكن يوجهها بخير إلى أحدٍ .. فهى يدٌ معطلة ، فكان شدّها إلى عنقه إعلاناً عن صفتها التى أصبحت عليها ..

وكما أن الشحّ مذموم ، فكذلك السّرف مذموم .. كلاهما خروج عن حدّ الاعتدال ، الذى هو ميزان العدل ، والحكمة !

والبخيل والمبذر ، كلاهما ينتهى أمره إلى الندم والحسرة .. البخيل إذ لم ينتفع بما بين يديه من نعم الله .. والمبذر ، إذ ضيّع هذه النعم ، ولم يُبق على شىء منها ..

* قوله تعالى : « إن ربّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » ..

بسط الرزق : سعته وكثرته ..

وقَدْر الرزق : قلّته بالنسبة للرزق الكثير المبسوط ..

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يرزق الناس ، وهو سبحانه الذى يبسط الرزق ويوسعه لبعضهم ، على حين يعطى منه بقَدر لآخرين .. وهذا وذاك إنما هو بحساب وتقدير ، وعن علم وحكمة .. « إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » ..

الآيات : (٣١ — ٣٩)

* « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ

قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا » (٣٩)

﴿ العرب . وقتل الأبناء ، وأد البنات ﴾

التفسير :

رسمت هذه الآيات منهجاً متكاملا لبناء الإنسان على أسس سليمة ، وقواعد ثابتة ، من الحق ، والخير ، والإحسان . فى اجتناب منهيات هذه الآيات ، وإتيان مأموراتها ، ضمن لسلامة الإنسان ، وسعادته فى الدنيا والآخرة ، ولهذا جاء وصف هذا المنهج بأنه مما أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ، من معالم الحكمة ، كما يقول سبحانه : « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » .

* وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطئاً كبيرا » ـ هو وصاة للآباء بما يجب عليهما نحو أولادهم ، وذلك مقابل ما أوصى به سبحانه الأولاد ، بما يجب عليهم نحو آبائهم . .

والآباء ـ فى الواقع ـ فى غير حاجة إلى تنبيه إلى مايجب عليهم نحو أولادهم ، من صيانة ورعاية ، فتلك فطرة ، أقوى من أن تخضع لمؤثرات من الخارج ، تُضعفها ، أو تنحرف بها عن غير طريقها المرسوم لها .. فحبّ الأبناء غريزة فى كل كائن حىّ ، حتى النبـات ، الأمر الذى يجعل من الأصول قوة عاملة ، ساهرة ، على صيانة الفروع ، وتثبيت أقدامها فى الحياة ، وذلك لحفظ النوع ، الذى هو أقوى قوة عاملة فى الكائن الحىّ ..

والنهى عن قتل الأولاد ، إنما هو لمحاربة آفة عارضة ، أصابت بعض القبائل العربية فى الجاهلية ، فدفعت بهم إلى قتل أبنائهم ، ووأد بناتهم .!

والذى يتأمل فى هذه الظاهرة التى فَشَتْ فى بعض القبائل العربية ، يجد أنها إنما قامت أصلا على غريزة حبّ الآباء للأبناء ، وحرصهم على كَفَالتهم ، وضمان أمنهم وسلامتهم .. وذلك أن ما كان يلقاه الأعرابى من فقر ، وما يقاسيه من بلاء وضرّ فى سِنِى الجدب والمحن ، هو شىء مُفزع مخيف .. إذا نظر الأعرابى إليه وهو يتجه إلى بنيه ، ويمدّ يده إليهم ، ويبسط جناحه المشئوم عليهم ، هاله ذلك وأفزعه ، ورأى الموتَ لبنيه رحمة من هذا البلاء ، وشفاء من هذا الداء .!

لهذا ، كان التخلص من الأبناء ، عند الولادة ، هو المهرب الذى فرّ إليه بعض الأعراب بأبنائهم من وجه هـذا المستقبل الـكئيب الذى ينتزع أبناءهم من بين أيديهم ـ تحت وطأة الجوع ، ويسلبهم الحياةَ نَفَسًا نَفَسًا ، ويذيقهم الموت موتاتٍ ، لا موتةً واحدة !

قد يكون هو الجهل ، وسوء التدبير ، وفساد العقيدة ، ذلك الذى سوّل لبعض الأعراب أن يصنعوا بأبنائهم هذا الفعل الشنيع المنكر .. ولـكنْ ليس هو جفاف العاطفة ، ولا جفاء الطبع ، ولا بلادة الحس ، بل ربّما كان ذلك ـ كما قلنا ـ عن زيادة فى خصب العاطفة ، ورقة الطبع ، ورهافة الحسّ ، حيالَ

تلك الظاهرة ـ ظاهرة الميلاد ـ التى يرى فيها البدوىّ وجهَ الحياة مطلاً عليه ، فى صورة وليد أو وليدة له من بين هذا الموات المريض الذى يملأ كل دنياه ، وإذا هذه الحياة البازغة عنده ، محملة بألوان الضرّ والبلاء ، ملففة فى أكفان الموت الرهيب !

وفى « الرثاء » الذى نجده فى مخلفات الشعر الجاهلىّ ، ما يشهد لما فى الطبيعة العربية الجاهلية من تعلق بالحياة والأحياء ، وخاصة حياة الأبناء ، وفلذات الأكباد .. ففى تلك المقطعات من الشعر ، نَشَمُّ ريح أكبادٍ تحترق ، ونجد مسّ أنفاسٍ تلتهب ، ونحس أنين زفرات لاتكاد تنقطع ، وتساقط عبراتٍ لا تكاد ترْقأ .

فعلى الذين يتخذون من هـذا الفعل الذى كان يفعله بعض الأعراب بأبنائهم ـ شاهداً على وحشيّة العرب ، وفساد طبيعتهم ، وانتكاس البشرية فيهم ـ عليهم أن يصححوا نظرتهم إليهم ، وأن يردّوا هذه الظاهرة إلى أصلها الذى جاءت منه ، وسيرون من هذا ، أن قتـل بعض الأعراب لأبنائهم ، كان ـ حسب تقديرهم ـ حمايةً لهم من الموت البطىء ، وفراراً بهم من ملاقاة تلك الحياة القاسية المهلـكة . . ولأمرٍ ما تأكل بعض الحيوانات أبناءها . . كما تفعل القطط مثلا ، حين ترى أولادها فى معرض الهلاك ، من عدوّ يهجم عليها ، وينتزعها منها . . إنها حينئذ لا تجد مكاناً أميناً تغيبهن فيه عن عين عدوّها إلا بطنها الذى خرجن منه منذ قليل !

أمّا وأد البنات ، فهو فرع من هذا الأصل ، وهو قتل الأبناء خشيةَ الفقر . . وأنه إذا كان بعض الآباء يمسك البنين ، ويئد البنات ، فلأن البنات أقلّ احتمالاً من الأبناء ، ولأن فى تعرضهن لهذه الحياة القاسية ما قد يمسّ شرفهن ، ويُلحق العار بهن وبآبائهن ! ولهذا كان وأد البنات فاشياً أكثر من قتل الأبناء !

ولا نجد عاطفة للأبوة أرقّ وأحنى وأنبل من تلك العاطفة التى كان يحملها العربى « للبنت » وحسبنا أن نذكر قولَ أبى خالد المازنى ، وكان من « الخوارج » .. وقد لامه قَطَرىّ بن الفُجاءة على أن يكون فى القاعدين عن الحرب ، فقال :

لقد زادَ الحياة إلىّ حُبًّا بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعْدِى وأن يشربْن رنقاً[1] بعد صافِ
وأن يَعْرَيْن إن كُسِىَ الجوارى فتنبو العينُ عن كُومٍ عجاف[2]
ولولا ذاك قد سوّمت مُهرى وفى الرحمن للضعفاء كاف

والأبيات فى غنًى عن الشرح والتعليق .. فهى كما ترى من توهج العاطفة ، وصدق الشعور ، وقد جاءت نغماً رائعاً يأخذ بمجامع القلوب ، ويستولى على مواطن الحبّ والرحمة والحنان . .

وفى الشعر العربىّ كثير من مثل هذه المواقف التى تكشف عن تلك العواطف الرقيقة التى كان يحملها العربىّ لبناته ، صغيراتٍ وكبيرات .

الفقر إذن ، وماقد يقاسيه الأولاد من مسغبة قاتلة بيد الحرمان ، هو الذى دفع ببعض العرب ، إلى هذا الفعل المنكر ، الذى كانوا يفعلونه ، وأكبادهم تتمزق حسرة ، وقلوبهم تتنزّى ألماً ، ولهذا جاء قوله تعالى : « خشية إملاقٍ » كاشفاً عن العلّة التى من أجلها كان يقتل العربى ابنه ، أو أبناءه ، أو يئد بنته أو بناته .

وقد صحّح الله سبحانه وتعالى ماوقع فى تفكيرهم من خطأ ، أدّى بهم إلى

(١) الرنق : العكر .

(٢) الكوم : جمع كوماء ، وهى الناقة الفتية ، والعجاف : جمع عجفاء ، وهى المزيلة .

هذا التفكير السقيم ، وذلك السلوك المنحرف ، فقال تعالى : « نحن نرزقهم وإياكم ».. فهؤلاء الأولاد قد خلقهم الله ، كما خلق آباءهم من قبل ، وقد تكفّل بأرزاقهم كما تكفّل بأرزاق آبائهم ، حتى كبروا وصاروا آباء . . فلِمَ يقطعون على أبنائهم طريق الحيـــاة ؟ ولِمَ لايدعونهم يعيشون كما عاشوا هم ؟ إنّهم لايرزقونهم ، ولكن الذى يرزقهم ويرزق آباءهم ـ هو الرزّاق ذو القوة المتين .. الله ربّ العالمين ..

وفى تقديم رزق الأبناء على الآباء مايشير إلى أنهم جميعاً على سواء فى الرزق عند الله ، لايملك هؤلاء ، ولا هؤلاء رزقاً لأنفسهم ، وإنما يُرزقون جميعاً من فضل الله ..

—وفى قوله تعالى : « إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً » تأثيم لهذا الفعل ، وتجريم له ، وتشنيع عليه ، وأنه خطأٌ ارتكبه الآباء عن نيّةٍ حسنة ، ولكنه يحمل قدراً كبيراً من الشناعة والمنكر ، فهو خطأ وخِطْء معاً .. والخِطْء ، هو الذنب ، والخطيئة .

* قوله تعالى : « ولا تقْرَبوا الزِّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » .. ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآية السابقة تضمنت فيما تضمنت نسبةَ الأبناء إلى الآباء .. وهذه النسبة لاتُعرف إلا إذا كانت علاقة الرجل بالمرأة قائمة على أساسٍ سليم ، فلا يتصل الرجل بغير امرأته ، ولا تتصل المرأة بغير زوجها ..!

فاتصال الرجل بغير امرأته ، والمرأة بغير زوجها ، فيه عدوان على هذه الحرمة التى يجب أن تقوم بين الزوجين .. ثم فيه من جهة أخرى ، اختلاط للأنساب ، وضياعٌ للحقوق التى تقوم على هذه الأنساب ، فلا تكون هناك صلة جامعة بين آباء وأبناء .

والفاحشة ، والفُحْش : المنكر ، السيء ، القبيح . والوصف الملازم للزنا

دائماً ، هو أنه فاحشة ، حيث يُطلّ منه هذا الوجه المنكر الكريه ، الذى ينطق بالخيانة ، والعدوان . .

* قوله تعالى : « ولا تقتلوا النّفس التى حرّم الله إلا بالحقّ ومن قُتل مظلوماً فقد جَعَلْنا لوليّه سلطاناً فلا يُسْرِفْ فى الْقتل إنه كان منصورًا » . .

بعد أن نهت الآية السابقة عن قتل الأولاد بيد الآباء ، صيانةً للنفس من حيث هى نفسٌ ، ورعايةً لهذه الصلة الوثيقة ، وتلك الرابطة القوية التى تربط بين الآباء والأبناء ـ جاءت هذه الآية ناهية عن قتل النفس ـ أىّ نفسٍ ـ لتلك الاعتبارات التى تُمسك يد الآباء عن قتل أبنائهم .. فالناس جميعاً أبناء نفسٍ واحدة ، وإن تفرقوا شعوباً وقبائل ، واختلفوا ألسنة وألواناً .. فكما تقوم بين الآباء والأبناء صلة الدم التى تحجزهم ـ أو من شأنها أن تحجزهم ـ عن قتلهم ، كذلك تقوم صلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، من شأنها أن تكفّ يده عن قتله ..

ـــ وفى قوله تعالى : « إلا بالحقّ » قيد وارد على النهى المطلق ، وهو أنه وإن كان للنفس الإنسانية هذه الحرمة التى تعصمها من القتل ، فإن هناك بعضَ النفوس تُرفَع عنها هذه العصمة فتستحق القتل ، وذلك حين يستخفّ صاحبها بنفس غيره ، ويستبيح دمه .. هنا يكون القِصاص ، ويكون قتلُ القاتل ، حقّاً مشروعاً .. فذلك هو العدل الذى إن لم يستقم ميزانه بين الناس على هذا الوجه ، اضطرب أمنهم ، وشاع الفساد فيهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » وتُقتل النفس كذلك ، وقتلها حق ، فى حال الكفر بعد الإيمان ، والزنا مع الإحصان . فالكفر بعد الإيمان عدوان على الله ، وإهدار لآدمية النفس التى لبست الإيمان ، ثم خلعت هذا اللباس وارتدت الكفر .. إنها كانت حيّةً بالإيمان ، فأماتها صاحبها بالكفر ، فكان

الحكم عليها بالموت تحقيقاً لأمرٍ هي فيه ، فعلا.. وكذلك الزانى المحصَن ، قد اعتدى على حقّ غيره ،وغرس فى مغارسه، التى يستنبت منها حياة إنسانية مثل حياته .

وفى قوله تعالى : « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطانا فلا يُسرف فى القتل إنه كان منصورا » .

— الذى قُتل مظلوما ، هو الذى قُتل عدوانا وبغيا من غير جريرة استحق عليها القتل ، وهو أن يكون قاتلا لنفس بغير حق ..

والولىّ ، هو مَن يكون إليه أمر القصاص من القاتل ، سواء أكان قريبا ، أم سلطانًا .. والسلطان ، هو سلطان الحق،الذى فى يد ولىّ المقتول على القاتل .. فهو بهذا الحق يقتل القاتل . .

وليس لولىّ المقتول ، أن يجاوز الحق الذى له على القاتل ، فيقتل غير القاتل ، أو يقتل مع القاتل غيره ، كابن أو أخ .. كما أنه ليس له أن يمثّل بالقاتل .. وإنما هى ضربة بضربة ..!

فهذا هو الإمام علىّ — كرم الله وجهه — حين طعنه ابن ملجم — لعنه الله — هذه الطعنة الغادرة ، استدعى أبناءه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية — رضى الله عنهم — وأوصاهم فيما أوصاهم به ، فقال : « إن عِشتُ فأنا صاحب الحق ، إن شئتُ أخذتُ بحقى ، وإن شئت عفوتُ ، وإن مِتُّ فضربة بضربة ، ولا تُمثّلوا » .. فالتمثيل بالقاتل هو من الإسراف فى القتل الذى تضمنه النهى فى قوله تعالى . « فلا يُسرفْ فى القتل » ..

هذا ، السلطان ، الحاكم ، هو ولىّ دم كل قتيل يُقتل ممن هم تحت سلطانه .. وله أن يتولىّ قتلَ القاتل ، أوأن يُسلّمه إلى يد أولياء القتيل ، ليقتلوه هم بأيديهم ، شفاء لِما فى أنفسهم من حزن على قتيلهم ، ومن نقمة على قاتله .

* قوله تعالى : « ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالّتي هي أحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أشُدَّه وأوفوا بالْعَهْدِ إن العهد كان مسئولا » ..

تنهى هذه الآية عن حرمة من حرمات الله ، وهى مال اليتيم ، التى هى أشبه بحرمة النفس ، التى حرّم الله قتلها ، إلا بالحقّ .. فمال اليتيم ، قد حرّم الله سبحانه وتعالى أن يَقْرِبه أحد إلا بالتى هى أَحْسَن ، أى بما فيه إحسان إلى اليتيم ، وتنمية لماله ، وتثمير له .. وبهذا يستحق القائم على هذا المال أن يأكل منه ، فى مقابل الجهد الذى بذل فيه .. « ومن كان غنيا فليستعففْ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » (٦ : النساء) .

— وفى قوله تعالى : « ولاتقربوا » تنبيه إلى هذا الخطر ، الذى يتهدّد من يَقْرُب مال اليتيم ، ويطوف بحماه ، حيث نوازع النفس إليه ، ودواعى الطمع فيه ، إذ كان ولا قدرة لصاحبه على دفع يَد مَن يريده بسوء ..

— وفى قوله تعالى : « وأوفُوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » هو إلفاتٌ إلى الأوصياء على اليتامى ، وأن أموالهم هى أمانة فى يد هؤلاء الأوصياء ، فهذا عهد أخذه الله عليهم وألزمهم الوفاء به .. وإن العبث بهذا المال ، أو التفريط فيه ، أو العدوان عليه ــ هو نقض لهذا العهد ، وخيانة لتلك الأمانة .

— وفى قوله تعالى : « إن العهدَ كان مسئولاً » تنويه بهذا العهد ، وتشديد النكير على من يَغْدِر به ، إذ جاء النظم مصوراً العهد ، بتلك الصورة الحيّة العاقلة ، التى ترى وتعقل ما كان من أصحابها من غدر أو وفاء .. فإن هى سُئلت ، أجابت ، وكشفت عن حالها مع الغادرين أو المُوفين !

* قوله تعالى : « وأوفوا الكيل إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا » .

القسطاس: الميزان ، ويقول اللغويون والمفسرون، إن الكلمة فارسية معرّبة ..

وقد استعمل بمعنى العدل ، كما فى قوله تعالى : « وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخسِروا الميزان » ـ ونحن نرى أنها عربية صميمة ، فى بنائها ، وفى ميزانها الصرفى . .

وقد تصرّف القرآن الكريم فى هذه الكلمة على جميع الوجوه ، فجاء منها بالفعل .. فقال تعالى : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .. وبالمصدر فى قوله تعالى : « قل أمر ربّى بالقسط » وباسم الفاعل فى قوله سبحانه : « وأنا منا القاسطون » .. وهكذا تصرّف القرآن بهذه الكلمة كما يتصرف فى كل كلمة عربية متمكنة فى عروبتها ..

أما وزنها ، فهو جارٍ على وزن المصدر من الفعل الرباعى .. فقسطاس على وزن فِعْلال ، من قَسْطَسَ ، مثل دِحراج من دحرج ، وزلزال من زلزل ..

والتأويل : العاقبة ، وهو مايؤول إليه الأمر وما ينكشف مع الزمن منه ..

والآية ، تدعو إلى رعاية الحقوق ، وقيامها على ميزان الحق والعدل ، أخذاً وعطاء ..

والكيل والوزن ، هما أكثر ماتقع الخيانة فيهما ، ولهذا توعد الله سبحانه وتعالى الذين يعبثون بهما ، ولا يرعَوْن الأمانة فيهما ، فقال تعالى : « ويلٌ للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون * ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لربّ العالمين » .. بل إن الأمر لأكثر من هذا ، فقد بعث الله نبياً كريماً هو « شعيب » كانت رسالته قائمةً على رعاية الكيل والميزان . .

* قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إن السّمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنّكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلغ الجبال طولا » ..

اختلف النظم فى هاتين الآيتين عنه فى الآيات السابقة ، حيث جاء الخطاب فيهما بلفظ المفرد ، على حين كان الخطاب فى الآيات السابقة موجهاً إلى الجمع ..

والسرّ فى هذا ، هو أن المنهى عنه فى الآيات السابقة كان عن أمور لاتحقّق إلاّ بأكثر من شخص ، كقتل الأبناء ، الذى هو فى أضيق صوره لايتم إلا بين أب وابنه ، وكقتل النفس ،الذى لا يكون إلا بين قاتل ومقتول .. ومال اليتيم، الذى هو بين اليتيم والوصىّ عليه .. والزنا ، الذى بين رجل وامرأة ، وكذلك الكيل والميزان ، ونحوهما .. إنها عمليات لاتتم إلا بين آخذ ومعط ..

أما ماجاء فى قوله تعالى : « ولا تقف ماليس لك به علم » .. فهو شأن من شئون الإنسان وحده ، لايكاد يطّلع عليه أحد سواه ..

— ومعنى قوله تعالى : « ولا تقفُ » أى لاتَتَبعْ ..وأصله من القَفْو والقفَا ، وهو أن يتبع الإنسان خطوَ غيره ، ويسير وراءه ، أى يجىء من قفاه .. ومنه القافية فى الشِّعر ، لأنّها آخر البيت ..

وفى الآية الكريمة دعوة آمرة ، إلى إيقاظ مشاعر الإنسان ، وتوجيه مَلَكاته إلى هذا الوجود ، فلا يقول إلا عن علم ، ولاينطق إلا بما يُمليه عليه عقله ، ويوحى إليه به إدراكه ..

فالآية الكريمة تنهى عن أن يكون الإنسان إمّعةً ، يتبع كل ناعق ، ويجرى وراء كل داعٍ ، دون أن يكون له رأى فيما يعمل ويقول .. وهذا معناه تعطيل لمدركاته ، وعدوان على إنسانيته بحرمانهـا من حقّها فى التزوّد بزاد العلم والمعرفة ..

— وفى قوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ـ إشارة إلى ما للسمع ، والبصر ، والفؤاد من قوة قادرة على اصطياد

المعرفة ، وتحصيل العلم .. إنها أجهزة قادرة على أن تمكّن للإنسان من أن يتهدّى إلى مواقع الخير ، وأن يصل إلى مواطن اليقين من كل أمر يعرض له ، إذا هو أحسن استعمال هذه الأجهزة ، وأصغى لندائها .. إنها أجهزة عاقلة رشيدة ، فى كيان الإنسان العاقل الرشيد ، ولهذا جاءت الإشارة إليها بلفظ العقلاء : « أولئك » .. والفؤاد : هو القلب ، وما يتصل به من قوى الإدراك والشعور .

—وفى قوله تعالى : « كان عنه مسئولا » ـ إشارة إلى أن الإنسان سيسأل عن تلك الجوارح وهذه القوى التى أمدّه الله بها ، ليتعرف بها إلى الحق والخير ، فإن هو عطلها أو وجهها إلى وجوه الشر والفساد ، كان مسئولا عنها ، محاسباً على تفريطه أو إفراطه فيها ..

* قوله تعالى : « ولا تَمْشِ فى الأرض مَرَحاً إنك لن تَخْرِق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » ..

هو دعوة إلى الإنسان فى ذات نفسه إلى أن يعرف قَدره ، ولا يجاوز حدوده ..

فإذا كان فى الناس مَن يُزرى بقدر نفسه ، فلا يرى لها حقًّا فى أن تأخذ مكانها فى الحياة ، وموقفها مع الناس ، ويرضى لنفسه أن يُقاد فينقاد ، دون أن يفكر أو يقدر .. فإن فى الناس من يذهب به الغرور بنفسه إلى حدّ يجعله يقيم لنفسه مقاماً من مدّعياتٍ وأباطيل ، يطاول به السماء ، ويتعالى به على العالمين ..

وكلا الرجلين مذموم ، مجانب لطريق الحق والهدى .

والمحمود من الإنسان هو أن يأخذ طريقاً وسطاً .. فيستعمل قواه وملكاته بحكمة ، واعتدال ، ثم إذا بدا له أنه ممن آتاهم الله بصيرةً نافذة ، وعقلا راجحا ،

فلا يكن ذلك داعيةً له إلى التعالى على الناس ، وإلى النظر إليهم معجباً بنفسه ، مزهوًّا بعلمه .. فإنه مهما بلغ من قوة وعلم ، فإنه إنسان ، وفى حدود البشرية ينبغى أن يعيش .. وإنه مهما بلغ من قوة ، فلن يخرق الأرض بقدميه الواهيتين ، إذ يضرب بهما وهو يسير فى الأرض مرحاً .. وإنه مهما شمخ بأنفه ، ونفخ فى أوداجه فلن يطاول الجبال .. فلم إذن هذا الضَّرب على الأرض بالقدمين ؟ ولم هذا التشامخ بالأنف والتطاول بالعنق ؟ إن ذلك عناء لاجدوى منه ، ولا طائل تحته !

* قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربّك مكروها » .

لفظ الإشارة « ذلك » مشارٌ به إلى كل ماتقدم من منهيّات وأوامر ..

وأن هذا الذى وقع النهى عليه هو السيء ، المكروه عند الله ، يجب اجتنابه وحراسة الإنسان نفسه من أن يُلمّ به ..

* قوله تعالى : « ذلك مما أوْحى إليك ربُّك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى فى جهنم ملوماً مدحورا » ..

الإشارة « ذلك » إلى ماتحدثت به الآيات السابقة من منهيات ومأمورات، وهى من الحكمة التى أوْحى الله سبحانه وتعالى بها إلى النبىّ .. وفى الخروج عليها مَهلكة وضياع .

— وفى قوله تعالى : « ولا تجعل مع الله إلـهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحورا » إظهارُ مزيدٍ من العناية بهذا الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى من الحكمة ، وهو النهى عن الشرك بالله ، إذ كان الشرك بالله ـ عصمنا الله منه ـ هو كبيرة الكبائر ، لايصلح لإنسان مع الشرك عمل أبداً .. وليس للمشرك مصير إلا النار .

وفى توجيه الخطاب إلى النبي الكريم ، تشنيع على الشرك ، وتهويل لخطره ، وأنه مطلوب من النبيّ ـ وهو مَن هو عند الله ـ أن يحرس نفسه منه .. ويتوقّى المواطن التى يجىء منها .

فإذا كان هذا شأن النبيّ ، وهو المصطفى من بين عباد الله ، والمحفوف بألطاف الله ورحمته .. فكيف شأن الناس ، وهم فى مواجهة هذا الداء الخطير ؟ إنّهم فى حاجة إلى مراقبة شديدة ، وإلى حراسة دائمة ، من أن يندسّ إليهم هذا الداء ، فى سِرٍّ أو عَلَن .. فما أكثر المسارب الخفيّة التى ينفذ بها الشرك إلى الناس . .

الآيات : (٤٠ — ٤٤)

* « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » (٤٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتّخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما » ..

ذكرت الآية السابقة على هذه الآية ، الشركَ ، والخطر الذى يتهدّد الناس

منه .. فناسب أن تجيء هذه الآية ، لتضبط المشركين من أهل مكة ، وهم متلبسون بشركهم بالله ، وعبادتهم للملائكة واتخاذهم لهن ربات ، على حساب أنهن بنات الله !

وفى هذا الاستفهام إنكار عليهم ، وتوبيخ لهم أن يجعلوا لله البنات ، على حين أنهم لايرضون أن يولد لهم البنات .. فكيف يئدون البنات ، ثم يعبدونهن ؟ ثم كيف يجعلون لله البناتِ ، ويجعلون لهم البنين ؟ أهذا يتفق ـ حتى فى منطقهم ـ مع مقام الله الذى يعبدون بناته ؟ إنّ أقل مايقتضيه هذا المنطق أن يكون أبناء الله ذكوراً ، إذ كان الذكور عندهم فى مقام محمود محبوب ! ولهذا جاء قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذًا قسمة ضِيزَى » (٢١ ـ ٢٢ : النجم) . . منكراً عليهم هذه القسمة الجائرة ، مسفّهاً أحلامهم الفاسدة ، وتصوراتهم المريضة !

ـــ وفى قوله تعالى : « إنكم لتقولون قولا عظيما » اتهام لهم بهذا القول المنكر الشنيع الذى يقولونه على الله سبحانه وتعالى .. ووراء هذا الاتهام إدانة ، وعقاب راصد شديد !

وأصفاه بالشىء : اختصه به ، وجعله خالصاً له ..

وفى نسبة الإصفاء إلى الله : « أفأصفاكم ربكم » إشارة إلى أن الله سبحانه هو الذى يهب لكم مايهب من بنين ، إنه لايستقيم مع منطق أن يخصهم الله تعالى بالبنين ، ثم يجعل لنفسه البنات ؟

* قوله تعالى : « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدُهم إلا نفوراً » . .

التصريف : عرض الأمر على وجوه مختلفة ، حتى يظهر ظهوراً تاماً ، ويتضح وضوحاً مبيناً .. وفى القرآن الكريم معارض كثيرة للقضايا التى عرضها

على العقل الإنسانى ، حتى يراها على كل وجه من وجوهها ، وذلك زيادة فى البيان ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد هذا البيان المبين ..

— وفى قوله تعالى: « ليذّكّروا » إشارة إلى الحكمة من هذا التصريف الذى جاء فى القرآن لآيات الله .. وذلك ليكون للناس منه عبرة وذكرى ، حيث تلقاهم العِبرُ، ناطقةَ الدلائل والشواهد ..

— وفى قوله تعالى : « ومايزيدهم إلا نفوراً » إشارة إلى مافى الناس ، وخاصة هؤلاء المشركين من قريش ، من عنادٍ ، يُعمى أبصارهم عن الحق ، ويُصمّ آذانهم عن الاستماع إلى آيات الله وكلماته .. فلا يبصرون شيئاً ، ولا يعقلون حديثاً ..

*قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوْا إلى ذى العرش سبيلا » ..

فى هذه الآية ردّ على مفتريات المشركين ، على الله ، واتخاذهم آلهة يعبدونها من دونه ، ويجعلونهم شركاء له ، قائلين : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفَى ».

فالله سبحانه وتعالى ـ عند المشركين ـ هو إله مع آلهة ، وربّ مع أرباب ، وإن كان له المقام الأول فيهم..وهذا مالايجعل لله السلطان المطلق فى هذا الوجود ، بل يجعل لهذه الآلهة ، وتلك الأرباب شأناً معه ، كشأن الأمراء مع الملك مثلا.. الأمر الذى لابد أن ينتهى يوماً إلى منازعة وشقاق ، بين هؤلاء الآلهة وبين الإله الأكبر .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً » أى لو كان مع الله آلهة ، لتطاولت أيديهم إلى صاحب العرش ،ولنازعوه السلطانَ ، فرادى أو مجتمعين .. وهل سَلِمَ صاحب سلطان من أن ينازعه فى سلطانه مَنْ هم دونه من أمراء ، ووزراء ؟ فكيف يكون مع الله سبحانه وتعالى

آلهةٌ أخرى ثم لاينازعونه سلطانه ؟ وهل إذا وقع تنازع فى هذا الملكوت ، يستقيم له نظامه هذا الذى يقوم عليه ؟

* قوله تعالى : « سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيراً » ..

هو تنزيه لله ، وتقديس لمقامه أن يقال فيه هذا القول المنكر ، وهو مايقوله المشركون ، من أن لله أبناء ، أو بنات ، هن آلهاتٌ معه ..

* قوله تعالى : « تسبّح له السّمٰوات السّبع والأرض ومَن فيهن وإن من شىء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً » .

إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من مخلوقات ناطقة أو صامتة ، كبيرة أو صغيرة كلها ، تسبّح بحمده ، تسبيحَ ولاء وخضوع ، كما يقول جلّ شأنه : « إنْ كلُّ من فى السمٰوات والأرضِ إلاّ آتِى الرّحمٰنِ عبداً » (٩٣: مريم) وكما يقول سبحانه عن الملائكة : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مُكرَمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٢٦ ـ ٢٧ : الأنبياء) .

ـــ وقوله تعالى : « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .. أى إن هذه العوالم المبثوثة فى السموات والأرض ، تسبّح لله تسبيحاً لايفقهه إلا العالِمون ، الذين يَرَوْن فى تجاوب هذا الوجود ، وفى خضوعه للسنن التى أجراه الله عليها ، تسبيحاً وولاء ، وعبوديةً خالصة لله ربّ العالمين .. ففى التعبير بكلمة « تفقهون » إشارة إلى أن هذا التسبيح لايراه ولا يدرك معناه إلا أهل الفقه ، الذى اختُصَّ به الراسخون فى العلم .

ـــ وفى قوله تعالى : « إنه كان حليما غفوراً » إشارة إلى تلك المقولات الضّالة التى يقولها المشركون فى الله سبحانه وتعالى ، وأن الله سبحانه وتعالى ، قد أخذهم بحلمه ، فلم يعجّل لهم العقاب ، بل أفسح لهم فى الأجل ، ومدّ لهم فى العمر ، حتى يتاح لهم إصلاح ما أفسدوا ، ويرجعوا إلى الله ، ويستقيموا على طريق

الحق ، حيث مغفرة الله الواسعة التى تظلل بجناحها التائبين اللائذين بجناب الله ، الطامعين فى رحمته .

الآيات : (٤٥ — ٤٧)

* « وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » (٤٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « وإذا قرأتَ القرآن جعلْنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً » ..

الواو هنا للاستئناف ، والآية حديث مستأنف ، يكشف عن حال المشركين ، وهم فى حال يستمعون فيها إلى النبى ، وهو يقرأ القرآن .. إن الله سبحانه وتعالى قد جعل بينهم وبين النبىّ حجاباً مستوراً ، فلايصل شىء مما يقرأ من القرآن إليهم ، ولا ينفذ إلى قلوبهم ..

— وفى قوله تعالى : « لايؤمنون بالآخرة » إشارة كاشفة عن الداء الذى يسكن إلى كيان المشركين ، ويُفسد عليهم مدركاتهم وتصوراتهم وإيمانهم بالله . إنهم لايؤمنون بالآخرة ، ولا يرجون لقاء الله .. ومن هنا ، كانت الصلة بينهم وبين الله قائمة على هذا الضلال والفساد ..

—وفى قوله تعالى : « حجاباً مستوراً » إشارة إلى أن هذا الحجاب ، شىء معنوى ، غير محسوس ، لا يُرى ، فهو مستور عن نظر القوم .. إنه حجاب مضروب على آذانهم فلا تسمع ، وعلى قلوبهم فلا تعقل .

* قوله تعالى : « وجَعَلنا على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربّك فى القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نفوراً » ..

هو بيان لهذا الحجاب المستور ، الذى جعله الله سبحانه وتعالى بين المشركين وبين النبىّ ،وهو يقرأ القرآن ، ويرفع منه للناس معالم الهُدى..فهؤلاء المشركون قد جعل الله على قلوبهم أكنةً ، أى أغطية كثيفة ، أشبه بالجحر الذى يستكنّ فيه الحيوان ، ويعتزل فيه العالم الخارجى ، فلا يرى أحداً ، ولا يراه أحد .. كذلك جعل على آذانهم «وقراً » أى ثقلا فى السّمع ، فلا تسمع شيئاً .. فقد يحتجب الحيوان داخل كِنّه عن العالم الخارجى ، ولكن يظل مع ذلك متصلا به عن طريق السّمع .. أما هؤلاء المشركون ، فقد أخذ الله سمعهم وأبصارهم ، وختم على قلوبهم .. فهم أموات غير أحياء ، وإن خيل إليهم أو للناس أنهم أحياء .. يسمعون ، ويبصرون ، ويعقلون !

—وفى قوله تعالى : « وإذا ذكرتَ ربّك فى القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نُفوراً » ـ إشارة إلى ما ركبَ المشركين من ضلالٍ ، فى تصورهم لمقام الألوهية .. فهم يقبلون الاستماع إلى أى حديث يُذكر فيه الله مع الآلهة التى يعبدونها .. أما إذا ذُكر الله وحده فى قرآن أو غيره ، فذلك حديث بغيض إليهم ، يلقوْنه منكرين ، بل مذعورين ، إذا وقع على آذانهم : « ولّوْا على أدبارهم نفوراً » أى صدموا به ، فارتدوا على أدبارهم ـ كما ترتدّ الكرة ، اصطدمت بحائط !

* قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذهم نجْوى إذ يقولُ الظالمون إن تتبعونَ إلاّ رَجُلاً مسحوراً » ..

فى الآية الكريمة ، تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، الذين يستمعون إلى القرآن ، بقلوب مريضة ، ونيّاتٍ خبيثة ، منعقدة على الكيد ، لا نبتغى بهذا الاستماع طَلبَ هدًى ، أو التماسَ حق .. وإنما غايتها اصطيادُ المعاثر ، والوقوع على مايغذّى ضلالهم ، ويقيم لهم حجة على هذا الضلال .

— وفى قوله تعالى: « به» إشارة إلى تلك الأجهزة الفاسدة التى صحبوها معهم ، ليستمعوا بهـا إلى القرآن . . فهذا الذى يستمعون به من أجهزة ، إن هو إلا قلوب مريضة ، وطوايا خبيثة ، مبيّتة للشر ، راصدة للعدوان !

— وفى قوله تعالى : « إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى » فضحٌ لهؤلاء المشركين ، وهم يستمعون إلى القرآن .. إنهم يستمعون إليه متلصصين ، بعيداً عن أن يراهم أحد .. حيث تقع لآذانهم كلمات الله ، فيتناجَوْن فيما بينهم بها ، ويبحثون عما يقولونه من زُورٍ وبهتان فيها .. ثم تنتهى بهم تلك المناجاة إلى هذا الحكم الفاسد ، الذى يُصدرونه على القرآن ، وعلى النبىّ الذى يتلو هذا القرآن فيقولون : « إن تتبعون إلاَّ رجلاً مسحوراً » أى إن اتبعنا هذا الرجل فلن نتّبع « إلا رجلاً مسحوراً » قـد مسّه طائف من الجنّ ، فاضطرب عقله ، واختلّ تفكيره ، وأصبح يهذى بهذا القول الذى يردّده ، ولا يملّ ترديده .. « إن هو إلا رجلٌ به جِنّةٌ » (٢٥ : المؤمنون) .

الآيات : (٤٨ — ٥٢)

* « أنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوٓا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رُءوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » (٥٢)

التفسير :

* قوله تعالى : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فَضَلُّوا فلا يستطيعون سبيلا » ..

الأمر هنا « انظر » هو إلفاتٌ للنبيّ ، ولكلِّ مؤمن ، أن ينظر فى تلك المقولات التى يقولها المشركون ، وإلى تلك الأمثال التى يضربونها ، ويتخذون منها حجة على إنكار البعث . . وقد كانت تلك الأمثلة التى ضربوها مما أملته عليهم أهواؤهم الفاسدة ، وعقولهم المريضة ـ كانت سبباً فى أن ضلّوا هذا الضلال ، الذى ألقى بهم فى متاهات لا يستطيعون الخروج منها ، ولا يجدون فيها من يدلّهم على طريق يسيرون فيه ، حتى فى وسط هذا الضلال .. إنهم فى حيْرةٍ مطبقة ، يدورون فيها حول أنفسهم . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » حيث نفى الاستطاعة المطلقة عنهم ، إلى التعرّف على أى طريق .. ولو كان من طرق الضلال . .

وقُدّم الأمر بالنظر إلى تلك الأمثال التى ضربوها، على هذه الأمثال ، حتى يتهيأ الناظر إليها ، ويُخلى نفسه من كل نظر إلى غيرها .. وذلك لما فيها من فتنة وضلال .. الأمر الذى يدعو إلى إمعان النظر فيها ، حتى يتوقى الناظر إليها مافيها من شرٍّ مستطير ، وخطرٍ داهم ..

* قوله تعالى : « وقالوا أئذا كنّا عظاماً ورُفَاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً »

هذا هو المثل الذى ضربوه .. وهو مَثَل واحد ، وقد سمّى « أمثالا » لأنه

يحوى منكراً غليظاً ، تتولد منه منكرات .. إذ هو ينكر البعث أولاً ، وينكر قدرة الله ثانياً ، ثم يتولد من هذا وذاك مايتولد ، من كفر ، وضلال ، وشرك بالله ثالثاً

والاستفهام هنا ، استفهام إنكارى .. ينكرون فيه أن يُبْعثوا ، بعد أن تَبلَى أجسادهم وتصير ترابا .

والرُّفات : العظام المتحللة ، التى ضاعت معالمها ، وصارت ترابا فى التراب ..

* قوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبُر فى صدوركم .. فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أولَ مرّة فسيُنغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً » ..

ينغضون إليك رءوسهم : أى يحركونها فى إنكار ، وإباء ، وتكرّه .. شأن من يأخذ دواء مرّا ، فيأتى بهذه الحركة الجنونيّة برأسه ، من غير وعى !

والآية تردّ على المشركين هذا الضلال ، الذى ضربوا له مثلهم هذا .. إنهم يستنكرون أن يبعثهم الله بعد أن تَبلى عظامهم ، وتتحلل أجسامهم .. فدفع الله سبحانه مَثَلَهم هذا بمثَل هو أشدّ إنكاراً عندهم للبعث ، فقال تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم » .. أى كونوا على أية صفة هى أبعد وأغرب من صفتكم التى تكونون عليها بعد الموت.. كونوا حجارة جامدة ، لاصلة بين الحياة وبينها ، أو حديدًا ، أصلب من الحجارة ، وأبعد منها نَسَباً إلى الحياة .. أو كونوا أى خلق آخر يكبُرفى صدوركم ، ويكون أبعدَ من الحجارة والحديد استحالةً فى بعث الحياة فيه .. كونوا عَدَماً مطلقاً .. فإن قدرة الله سبحانه وتعالى لايُعجزها شىء .. وإنكم إذا أنكرتم هذا ، وقلتم : من يبعثنا إذا صِرْنا على هذه الحال أو تلك ، فهذا هو الجواب : « قل الذى فَطَركم أولَ مرة » إنه سبحانه ، قد خلقكم من ترابٍ وفطركم منه ، أى أنبتكم كما يُنبت

النبات ، الذى يَفْطِر الأرض ، أى يشقُّ وجهها .. وإذا قلتم فى إنكار : « متى هو ؟ » أى متى هذا البعث ؟ فهذا هو الجواب أيضاً : « عسَى أن يكون قريباً » . إنكم لاتعلمون وقته ، ولكنه آتٍ لاريب فيه ، وربما كان ذلك قريباً ، أقربَ مما تقدّرون وتتصورون .. « وعسى » فعل يفيد الرجاء ، وتوقع الحدوث لِما وقع عليه .. وهذا الرجاء إنما هو بالنسبة إلى المخاطبين .. وأنهم فى موقف الانتظار لهذا الأمر الذى لن يطول انتظارهم له ....

* قوله تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتُم إلا قليلا » ..

هو بيان لميقات هذا البعث الذى سأل المشركون عنه هذا السؤال الإنكارى ، بقولهم : « متى هو ؟ » ..

إنه اليوم الذى ينتظر أمرَ الله ، ودعوتَه الموتى من قبورهم ، كما يقول سبحانه : « ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون » (٢٥ : الروم)

— وفى قوله تعالى : « فتستجيبون بحمده » ـ مايُسأل عنه ، وهو : كيف يستجيبون لدعوة الله لهم من قبورهم ، بالحمد ، وقد جاء فى قوله تعالى فى سورة يس « ونُفِخ فى الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم يَنْسِلون * قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ » فهم ينادون هنا بالويل ، فكيف يستجيبون هناك بالحمد . والموقف هو هو ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ : أن هذا وذلك وإن كان منهم فى يوم البعث ، إلا أن كلاًّ منهما فى موقف غير الموقف الآخر .. فهم حين يُبعثون من قبورهم ، يحمدون الله ، على أن أحياهم بعد موتهم ، فالحياة نعمة تستوجب الحمد والشكر لله ربِّ العالمين .. ولكنهم حين يشهدون أهوال هذا اليوم ، يُنادُون بالويل ، إذ يرون بأعينهم المصير الذى هم صائرون إليه ، كما يقول سبحانه :

« ورأى المجرمون النـــار فظنّوا أنهم مُواقِعوها ولم يجدوا عنها مَصْرِفاً »
(٥٣ : الـكهف) .

ويصحّ أن يكون هذا الحمد على سبيل القهر ، إذ لا يملـكون من أنفسهم شيئاً ، فهم والحال كذلك ـ مُسْلِمون ، مستسلمون ، يحمدون الله على السَّراء والضرّاء . .

ــوفى قوله تعالى: « وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً » ـ إشارة إلى هذه الدنيا ، ومتاعها القليل الزائل .. فإنه مهما عاش الإنسان فيها ، ثم طويت صفحته منها ، وجد أن ماعاشه فى هذه الدنيا لم يكن إلا ساعةً من نهار ، كما يقول سبحانه وتعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيةً أو ضحاها » (٤٦ : النازعات) وكما يقول جل شأنه : « كأنهم يوم يَرَوْن مايوعَدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهار » (٣٥ : الأحقاف) .

الآيات : (٥٣ — ٥٧)

* « وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » (٥٧)

التفسير .

* قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحْسنُ إن الشيطان ينزغُ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوًّا مبينا » .

الواو ، فى قوله تعالى : « وقل لعبادى » للاستئناف ، وما بعدها كلام مستأنف ، موجّه إلى « عباد الله » ..

وعباد الله ، هم الذين أضافوا أنفسهم إلى الله ، فقبل الله سبحانه وتعالى ضيافتهم ، وأضافهم إليه ، إضافةَ تكريم هكذا : « عبادى » .. حتى لكأن غيرهم من المشركين والضالين ، ليسوا عباده ، الذين يستحقون إضافتهم إليه سبحانه ، وإن كانوا عبيداً له : « إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتِى الرحْمنِ عبداً » (٩٣ : مريم) .

— وقوله تعالى: « التى هى أحسنُ » أى القولة « التى هى أحسنُ » ، وهى الإيمان بالله واليوم الآخر ، على حين قال المشركون والكافرون القولة السيئة ، قولةَ الكفر بالله وباليوم الآخر .. فهذه القولة من عباد الله ، هى اعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، وذلك هو الذى يؤهّلهم لهذا المقام الكريم ، فيضيفهم المولى جل وعلا إليه : « عبادى » وقوله تعالى : « إن الشيطان ينزغ بينهم » أى يفسد بينهم ، ويعمل على إضلالهم ، وعباد الله هم الذين يحرسون أنفسهم منه ، ويردّون كيده إلى نحره ، كما يقول سبحانه : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » (٤٢ : الحجر) .

* قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إن يشأْ يَرْحَمْكم أو إن يَشَأْ يعذّبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا » .

هذه الآية ردٌّ على اعتراض ، قد يدور فى بعض الرءوس ، فيقول قائل :

لِمَ اختار الله أناساً من خلقه،فأضافهم إليه . وجعلهم عباداً له ؟ ولماذا لم يُضِف الناس جميعاً إليه ، وكلّهم عبيده ، وصنعة يده ؟

وقد جاء الجواب : « ربُّكم أعلم بكم » إنّه كما خلقكم بيده ، أقامكم بعدله وحكمته .. كلٌّ فى مكانه الذى أراده له .. « ألا يعلم مَن خَلق وهو اللطيف الخبير » (١٤ : الملك) .

إنه ليس لمخلوق شيء مع الخالق .. « إن يشأ يرحمكم » أيها المخلوقون ، فيجعلكم من عباده ، وأهل طاعته « وإن يشأ يعذّبكم » فيضلكم ، ويختم على قلوبكم . . وليس للمرحومين من الناس ، ولا للمعذبين منهم مذهب إلى غير هذا المقام الذى أقامهم الله فيه ، وأرادهم له : « لا يُسألَ عما يَفْعَلُ وهم يُسألون » (٢٣ : الأنبياء) .

— وفى قوله تعالى : « وما أرسلناك عليهم وكيلا » إشارة إلى أنه ليس إلى النبيّ أن يغيّر مِن قَدَر الله فى الناس شيئاً .. فمن قدِّر عليه الشقاء فهو من أهل الشقاء ، لا يتحول عنه أبداً ، ومن كُتبت له السعادة فهو من السعداء لن يدفعها عنه أحد .. وليس الرسولُ وكيلا على النـاس ، يدبّر أمرهم ، ويتسلط على مصيرهم ، وإنما هو بشير ونذير ، يؤذّن فى الناس بكلمات الله وآياته .. كما يقول سبحانه : « إنما أنت منذر ولـكلّ قومٍ هادٍ » (٧ : الرعد) .

* قوله تعالى : « وربّك أعلم بمن فى السموات والأرض ولقد فضّلنا بعضَ النبيّين على بعض وآتينا داود زَبورًا » .

فى الآية الـكريمة ردٌّ على شبهة قد تقع لبعض الناس من قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أوْ إن يشأ يعذبكم » .. إذ قد يسأل بعض الناس : لماذا كان هذا الحـكم واقعاً فى أبناء آدم ، حيث يُرحَمُ بعضهم ويُعذّب بعضهم ؟ فكان الجواب : إن ذلك هو حكم الله فى المخلوقات جميعاً ، فى السموات وفى

الأرض ، حيث يأخذ كل مخلوق حظًا مقدوراً له .. فيجيء على صفة خاصة ، وفى وقت معين ، ومكان محدود .. فيكون فى عالم الأرض ، أو السماء ، ويكون نباتاً ، أو حيواناً أو جماداً ، ويكون كوكباً أو مَلَكا .. وكلُّ مخلوق من تلك المخلوقات ، هو فى عالمه ، وفى جنسه ، آخذٌ وضعاً خاصاً به ، لايشاركه فيه غيره من عالمه ، أو جنسه !

تلك هى سنة الله فى خلقه : الإبداع فى الخلق ، والتّباين بين المخلوقات .. ثم بيّنت الآية بعد هذا صورة من صور التباين والاختلاف بين جماعات ، هم من صفوة خلق الله ، وهم الأنبياء .. فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم فى هذا المقام الكريم ، وفى تلك المنزلة العالية ـ ليسوا على درجة واحدة ، وفى مقام واحدٍ .. وإنما هم درجات عند الله .. وإن كانوا جميعاً فى مقام القُرب ، وفى منازل الرضوان ..

وهنا سؤال ، وهو : لماذا اختُصَّ داود عليه السّلاَم بالذِّكر ، هو والزبور الذى آتاه الله إياه ؟ وداود ـ عليه السلام ـ لم يكن فى منزلة إبراهيم ، خليل الله ، ولا موسى كليم الله ، ولا عيسى كلمة الله ، ولا محمد خاتم رسل الله . ولم يكن الزّبور فى منزلة التوراة أو الإنجيل أو القرآن .. فما تأويل هذا ؟

الجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن داود عليه السلام ، هو النبيّ الذى جمع الله سبحانه وتعالى له الملك والنبوة معاً ، كما جمعهما لابنه سليمان من بعده .. أى أن الله قد جَمع له الدنيا والآخرة جميعاً ، فآتاه للدنيا خيرَ مافيها ، وهو الملك ، وآتاه للآخرة خيرَ مالها ، وهو النبوّة .. ولهذا يقول تبارك وتعالى مخاطباً إياه : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهَوَى فيُضلَّكَ عن سبيل الله » .. ولهذا أيضاً لم يكن داود عليه السلام صاحبَ كتاب يحمل شريعة ، وإنما كان الزّبور الذى آتاه الله إياه ، صلواتٍ وتسابيح ، يمجّد

فيها الله سبحانه، ويشكر له .. إذ أن هذا الملك الذى فى يده يحتاج ـ كى يستقيم على ميزان الحق والعدل ـ إلى اتصال دائم بالله، حتى يدفع بهذا الاتصال مايعرض له من شهوة السلطان، ومُغْريات المُلك ..

وعلى هذا، فاختصاص « داود » بالذكر هنا، إنما هو لبيان أن التفاضل الذى يقوم بين الموجودات كلها، هو قائم بين الأنبياء والرسل .. فمنهم من جعله الله سبحانه نبياً ورسولا، ومنهم من جعله نبياً ولا رسالة له، إلا فى خاصة نفسه وأهله، ومنهم من جعله رسولا إلى قرية، أو أمة، ومنهم من جعله رسولا إلى الناس كافة، وذلك هو مما اختص به « محمد » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من بين رسل الله جميعاً .. وفى ذلك يقول الله تعالى : « تلك الرسل فضّلنا بعضَهم على بعض .. منهم من كلّم اللهُ ورفع بعضَهم درجاتٍ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » (٢٥٣ : البقرة) وداود ـ عليه السلام ـ قد جُمع له حظ الدنيا والآخرة جميعا .. فهو مَلِك ليس خالص المُلك، إذ يقوم على ملكه سلطان النبوة، وهو نبىّ غير خالص النبوّة، إذ يقوم على سلطان نبوته سلطان ملكه .. فهو نمط وحده بين أنبياء الله، وفى ملوك الأرض.

* قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلا » ..

هو تهديد للمشركين، ووعيد لهم، وتسفيه لعقولهم، إذ يعبدون من دون الله مالا يملك لهم ضرًّا ولا نفعا .. فهاهم أولاء وتلك هى معبوداتهم التى يعبدونها، فليدعوها لضُرٍّ مسّهم، أو لبلاء وقع بهم، فهل تستجيب لهم آلهتهم تلك ؟ وهل يسمعون أو يعقلون ؟ فكيف إذن يتعاملون مع من لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ؟ ولكنه السّفه والضلال.

* قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربّهمُ الوسيلة أيُّهم

أقربُ ويرجون رحمتَه ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » ..

المشار إليه هنا باسم الإشارة « أولئك » ـ هم المؤمنون الذين يعبدون الله ، إلٰها سميعاً بصيراً مجيباً .. وهؤلاء المؤمنون، هم فى مقابل أولئك المشركين الذين يدعون خُشُبًا مسنَّدة ، أو أحجاراً منحوتة .. لا تسمع ولا تبصر .. وشتان بين دُعاء ودعاء !

وفى الإشارة إلى المؤمنين من غير ذكرهم ، تنويه بهم ، ورفع لمنزلتهم ، وأنهم أعرف من أن يُعرَّفوا . .

ـ وفى قوله تعالى : « يدعون » وفى حذف المفعول به ، إشارة إلى أنهم يدعون من ينبغى أن يُدْعَى ، إذ لامدعوّ ـ على الحقيقة ـ غيره ، وهو الله سبحانه وتعالى ..

ـ وفى قوله تعالى : « يبتغون إلى ربّهم الوسيلة » بيان لما يدعو به المؤمنون ربّهم ، وهو أنهم يَدْعونه مسبّحين بحمده ، شاكرين لفضله .. فهذا هو دعاء المؤمنين : عبادةٌ ، وصلاةٌ ، وتسبيحٌ .. وفى هذا يقول الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشِىّ يريدون وجهه » (٢٨ : الكهف) ..

وابتغاء الوسيلة ، طلبها ، وإدراكها .. والوسيلة مايتوسَّل به ، ويتقرب به إلى الله ، من عبادات وقربات .

ـ وفى قوله تعالى : « أيّهم أقرب » إشارة إلى محذوف ، تقديره : أيهم أقرب إلى ربّه أكثر توسلا إليه بالطاعات والعبادات .. إذ أنه كلما قرب العبد من ربّه ، اشتدت خشيته له ، لازدياد معرفته بجلاله ، وعظمته ، فيشتدّ حرصه على مرضاته ، والتفانى فى العبودية والعبادة ، ليزداد من الله قربا ، كلما ازداد طاعة وخشوعا وعبودية .

—وقوله تعالى : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » هو بيان للدوافع التى تدفع المؤمنين إلى دعاء الله سبحانه ، وإلى ابتغاء الوسيلة إليه ، وهو الطمع فى رحمته ، والخوف من عذابه.. وتلك هى الحال التى ينبغى أن تقوم عليها الصلة بين العبد وربّه وهى منزلة بين الرجاء والخوف .. فالرجاء يدفع المؤمن إلى الإحسان ، والتزام الطاعات . . والخوف ، يحْرسه من العدوان على محارم الله ، ومواقعة الآثام والمعاصى .

—وفى قوله تعالى: «إن عذاب ربّك كان محذوراً » تعقيب على قوله سبحانه : « ويخافون عذابه » .. وهو أن هذا العذاب شديدٌ ، حيث يقع بأهله ، لا يدفعه عنهم من الله دافع ، وهو لهوله وشدته ، يحذره ويتوقى الدنوّ منه ، كلُّ من يطلب الأمن والعافية لنفسه .

ولم يأت فى النظم القرآنى تعقيب على قوله تعالى : « ويرجون رحمته » كما جاء التعقيب على قوله سبحانه : « ويخافون عذابه » .. لأن أكثر مايُؤْتَى النّاسُ من استخفافهم بعذاب الله ، أو غفلتهم عنه .. أمّا الرجاء فى مغفرته ورحمته .. فالناس جميعا واقفون على باب الرجاء ، حتى أن أكثرهم عصيانا لله ، ومحادّة له يتخذون من الطمع فى رحمة الله ، مدخلا يدخلون به على المعاصى فى جرأة فاجرة ، حتى ليقول صاحب الجنتين الذى كفر بربّه : « ولئن رُددتُ إلى ربىّ لأجدَنَّ خيراً منها منقلبا » (٣٦ : الكهف) .. وهذا مكر مع الله ، وتغريرٌ بالنفس .. إن من يرجو ويطمع فى رحمته ، يجب أن يكون ممن يخشاه ، ويتوقّى محارمه .. فإذا زلّ ، كان طمعه فى الله قائما على منطقٍ .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » .. (٥٦ : الأعراف)

هذا ، وفى لآية الكريمة وجه آخر ..

وهو أن المشار إليه فى قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون » هم المعبودون

الذين كان يعبدهم المشركون ، من ملائكة وغيرهم ، من عباد الله الصالحين ..

ويكون قوله تعالى : « يبتغون إلى ربهم الوسيلة » هو خبر لقوله تعالى : « أولئك الذين يدعون » .. أى أن هؤلاء الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، هم عباد من عباد الله المؤمنين به ، يبتغون رحمته ويتخذون الوسائل إلى مرضاته بالطاعات والعبادات ، وهم أبداً على رجاء فى رحمته ، وخشية من عذابه .. كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون » (٥٠ : النحل) وكما يقول جلّ شأنه : « وله من فى السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبّحون الليلَ والنهارَ لا يَفتُرونَ » (١٩ ـ ٢٠ : الأنبياء) .

الآيات : (٥٨ — ٦٠)

* « وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبلَ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا » (٦٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « وإن من قَرْيةٍ إلاَّ نحنُ مُهْلكوها قَبْل يوم القيامةِ أو مُعَذِّبوها عَذَابًا شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

« إن » حرف يفيد النفى .. بمعنى « ما » أى : مامن قريةٍ إلا نحن

مهلكوها قبل يوم القيامة .. فهذا حكم الله فى عبـاده .. « إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذاهم خامدون » (٢٩ : يس) .

وإهلاكُ ما يُهلك الله من القُرى ، هو تركها للزّمن ، يفعل فيها مايفعل فى الأحياء ، فإذا عمارُها خراب ، وإذا أهلها ترابٌ فى التراب .. كما يقول سبحانه : « كل شىء هالك إلا وجهَه » (٨٨ : القصص) .

أما عذاب ما يعذّب من القرى ، فهو ما يحلّ بتلك القرى من نقم الله ، فيأخذها بما أخذ به القرى الظالمة ، كقُرَى عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، حيث أهلكها الله سبحانه مرةً واحدة ، بما سلط عليها من عذاب

— وقوله تعالى : « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » تقرير لحكم الله فى خلقه . . وهو أن ذلك مما قضى الله به فى أم الكتاب ، وجرى به القلم وسطّره فى اللوح المحفوظ . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرٌ » (٢٢ : الحديد) .

وفى هذا ، إنذار لمشركى قريش ، ولقريتهم التى تقف من النبىّ هذا الموقف المدانى ، الظالم . . فتؤذى رسولَ الله ، وتصدُّ الناس عن سبيل الله . . إن هذه القرية لن تُفلت من هذا المصير الذى تصير إليه القرى جميعاً . . فإذا لم يأخذها الله سبحانه وتعالى ببأسه ، ويعجّل لها العذاب ، أخذها بسنته فى خلقه ، فابتلعها باطن الأرض فيما ابتلع قبلها من قُرًى وأمم !

* قوله تعالى : « وما مَنَعنَا أن نُرْسِلَ بالآيات إلا أن كذّب بها الأوّلون وآتينا ثمودَ الناقة مُبصِرةً فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » . .

فى هذه الآية ردٌّ على مقترحات المشركين التى كانوا يقترحونها على النبى ، وهى أن يأتيهم بآيةٍ كما أرسل الأولون إلى أقوامهم ، وجاءوهم بآيات مادية .. كعصا موسى ، ويد عيسى ، وناقة صالح ، وطوفان نوح !

فهذه الآيات ، التى يقترحها المشركون ، قد جاءت إلى أقوام مثلهم ، فكفروا بها ، ولم يروْا فيها الدلائلَ التى تدلّهم على الله ، وتهديهم إلى الإيمان به .. فكان أن أخذهم الله ببأسه ، وعجّل لهم العذاب .

وهذا هو السبب الذى من أجله ، لم يجىء الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى قومه بآية كتلك الآيات . . لأنها كانت بلاء على من جاءت إليهم ولم يؤمنوا بها ، ولن يكون حال هؤلاء المشركين مع أيّة آية يأتيهم بها النبى ، بأحسنَ من حال الذين سبقوهم .. والله سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء المشركين: « ولو فَتَحْنا عليهم باباً من السّماء فظلّوا فيه يَعْرجُونَ * لقالوا إنما سُكِّرت أبْصَارُنا بل نحن قومٌ مَسْحورون » (١٤ — ١٥ : الحجر) .

— وفى قوله تعالى : « وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً » وفى وصفها بأنها مبصرة إشارة إلى أنها كانت آية واضحة ، تعيش فى النّاس ، وتتمشّى بينهم ، يمرّون بها مُصْبِحين ومُمْسين . . وليست كعصا موسى ، ولا يد عيسى ، فكلتاهما تظهر المعجزة فيها بإذن من صاحبها ، ثم تختفى ، دون أنْ يُتاح للناس تقليبها ، وترديد النظر فيها . . وهذا هو بعض السرِّ فى اختصاص ناقة صالح بالذكر هنا ، إنها كانت تعيش مع الناس ، بين سمعهم وبصرهم . .

— وقوله تعالى : « فظلموا بها » إشارة أنها كانت سبباً فى أن اعتدوا عليها ، فأصبحوا آثمين ، ظالمين . . فحُقّ عليهم العذاب .

— وقوله تعالى : « وما نُرْسِل بالآيات إلا تخويفاً » أى ما نبعث بهذه الآيات

المادية إلا لتـكون نُذُرَ هلاك وبلاء لمن تأتيهم .. لأنه إذا لم يؤمن بها القوم المرسلَ بها إليهم - وهيهات أن يؤمنوا - كان لابد أن يقع العذاب بهم ، ويصبحوا فى الهالـكين . .

فمن رحمة الله بهذه الأمة ، أن لم تأتها الدعوة إلى الله بين يدى آية مادية . . فإنه لو حدث هذا ، لـكان فيه القضاء على أهل مكة التى طلعت منها شمس الدعوة الإسلامية ، ثم لانقطع ما بين النبىّ وقومه الذين يدعوهم إلى الله ، إذ لم يكن له — والأمر كذلك — قوم . . وبهذا تَطوِى الدعوة كتابها ، وينسحب الرسول من الميدان . .!

ولـكن الله بالغُ أمرِه . . فجاءت الدعوة الإسلامية على هذا الأسلوب ، لتعيش فى الناس ، ما دام الناس حياة فى هذه الحياة !

* قوله تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربّك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس والشجرةَ الملعونة فى القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » .

فى هذه الآية أمور :

— أولها : قوله تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربّك أحاط بالناس »

« إذ » هنا ظرفية ، تشير إلى وقت قيل فيه هذا القول للنبىّ .

فمتى كان ذلك ؟ وما هو القول الذى قاله سبحانه وتعالى للنبىّ ؟ وقبل هذا وذاك . . ما معنى الإحاطة بالناس ؟ وما المراد منها ؟

إحاطة الله بالناس ، علمه بهم ، علماً محيطاً ، كاشفاً لـكل شىء منهم ..

وإذن فـكل آية فى القرآن جاءت تحدّث عن علم الله ، صالحةٌ لأن تـكون هى هذا القول الذى قيل للنبىّ ، والذى دُعى هنا إلى تذكّره . .

وأقرب آية نجدها هنا ، هى قوله تعالى : « وربُّك أعلم بمن فى السموات والأرض » وقد ذُكرت قبل هذه الآية بثلاث آيات .. فتكون إذن هى الآية المقصودة ، ويكون وقتها معلوماً للنبى !

— ويكون معنى قوله تعالى : « وإذ قُلْنَا لَكَ إنّ ربّك أحاط بالنّاس » هو ردٌّ على المشركين الذين يقترحون الآيات المادية .. فهذه الآيات إنما ينزلها الله حسب مشيئته ، وبما يقضى به علمه فى عباده .

— ثانيهما : قوله تعالى : « وما جعلنا الرّؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ماهى الرؤيا ؟ وما الفتنة التى فُتن بها الناس منها ؟

اختلف فى الرؤيا التى أُريها النبى هنا .. وهل هى « الإسراء » ؟ أم أنها الرؤيا التى رآها وهو فى مكةَ من أنه سيدخل المسجد الحرام ؟ أم أنها الرؤيا التى أريها فى مكةَ أيضا من أنه سيكون بينه وبين قريش حرب ، وأن القوم سيُهزمون ؟ . وكان فيما نزل من القرآن المكى قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولّون الدّبر » حتى ليروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : « كنتُ لا أدرى أى الجمع يُهزم ، فلما كان يومُ بدر رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سَيُهزم الجمع ويُوَلون الدّبر » .. أى أنه عرف أن هذه الآية قد جاء يوم بَدر بتأويلها ..

ولا يُعترض على الرأى الأول بأن « الرؤيا » تشير إلى أن الإسراء كان رؤيا منامية ، مع أن الرأى المعوّل عليه أنها كانت رؤية اليقظة . ذلك أن الرؤيا تستعمل فى اللغة بمعنى الرؤية .. وخاصة إذا كانت الرؤية بالليل ، كالسير فإنه إذا كان فى الليل سُمّى سُرًى ، مع أنه فى حقيقته سير .

أما الفتنة التى فتن بها الناس من هذه الرؤيا ، فقد ارتدّ بعض ضعاف

الإيمان من المؤمنين ، بعد الإسراء . . كما أن رؤياه صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام ، كانت مثار اضطراب وَبلبال بين المسلمين ، حين جاء النبيّ بالمسلمين معتمراً قبل الفتح فردّته قريش ، وعُقد صلح الحديبية بينه وبينها . . وكذلك الشأن فى رؤياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سينتصر على قريش فى أول معركة معها . .

والرأى الراجح أن « الرؤيا » هى الإسراء ، وقد عَرَفْتَ الاعتراض على هذا الرأى ، ورددّنا عليه .

ــ وثالثها : قوله تعالى : « والشجرة الملعونة فى القرآن » .

ما الشجرة الملعونة فى القرآن ؟ ولم لعنت ؟ ثم لم كانت فتنة ؟

لم يذكر القرآن الكريم ، شجرةً موصوفة بتلك الصفة ، وهى اللعنة ..

ومن هنا ذهب المفسرون مذاهب شتّى فى هذه الشجرة ..

والذى نتخذه دليلاً فى بحثنا عن تلك الشجرة ، أنها ذات صلة بقريش ، وأنها مثار فتنة المشركين ..

وعلى هذا ، فإنا نجد فى القرآن الكريم شجرةً ذُكرت فى سورة « الصافات » وهى من القرآن المكى ، وقد تهدّد بها الله سبحانه وتعالى ، المشركين ، وأذاقهم طعامها النكد ، فى هذه الدنيا ، قبل أن يملئوا منها بطونهم فى جهنم ، فقال تعالى : « أذَلِكَ خَيرٌ نُزُلا أم شجرة الزّقوم * إنا جعلناها فتنةً للظالمين * إنها شجرةٌ تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوْباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلَى الجحيم » (٦٢ ــ ٦٨ : الصافات) . وفى سورة الواقعة ، وهى مكية أيضاً ، جاء قوله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون

من شجرٍ من زَقّومٍ * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شربَ الهِيم * هذا نُزُلُهم يومَ الدين » (٥١ - ٥٦ : الواقعة) وفى سورة الدخان ، وهى مكية أيضاً ، جاء قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يَغْلى فى البطون * كغلى الحميم » (٤٣ - ٤٦) .

فهذه الشجرة قد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى القرآن المكى ، وعرضها فى هذه المعارض ، مهدداً بها المشركين ، متوعدهم بها ، مذيقهم طعامَها الذى يغلى فى البطون كغلى الحميم .

وقد كان المشركون ، يستمعون إلى هذا القرآن ، ويتناجَوْن بما تملى لهم أهواؤهم وضلالاتهم فيه ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذهم نجوى » (٤٧ : الإسراء) .

وقد كانت هذه الشجرة مثار استهزاء وسخرية فيما بينهم ، كما أنها كانت مادة للعبث منهم بالمسلمين ، وبمعتقدهم فى صِدق الرسول ، الذى يقول لهم مِثل هذا القول .. إذ كيف يقول « محمد » بأن النار التى سيعذَّبُ فيها من لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، هى جحيم ، وأنها نار تلظى ، وَقودها الناس والحجارة - كيف يقول هذا ، ثم يقول إن هناك شجرةً أو أشجاراً من زقّوم تطلع فيها ، ثم تثمر ثمراً يأكله المعذّبون بتلك النار ؟ أهذا قول يتفق أوله مع آخره ؟ النار التى تأكل كل شىء ، تصلح لأن تكون مغرساً ومنبتاً لشجر ؟

وأكثر من هذا ، فقد بدا لبعض الذين سَفِهُوا أنفسهم من هؤلاء المشركين ، أن يتخذوا من هذا الوعيد الذى توعدهم الله به ، مادةً للتسلية ، والعبث ، إمعاناً فى الاستهزاء والسخرية ، ومبالغة فى التكذيب والتحدى ..

فمن ذلك ما رُوى عن أبى جهل أنه كان يقول : «هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ؟ وما نعرف الزّقوم إلا التّمرَ

بالزُّبد ، ثم يأمر جارية له ، فتحضر تمراً وزُبداً ، ثم يقول لأصحابه : تزقّموا » !

وقد وجَدَ هذا القول سبيلا إلى بعض ضعاف الإيمان ، وصغار الأحلام من الذين دخلوا فى الإسلام ، فوقع الشك فى نفوسهم ، فكان ذلك داعية لهم إلى أن يرتدُّوا عن الإسلام ، خاصة وأنهم فى وجه محنة قاسية ، وبلاء عظيم ، لايمسكهم عليه إلا إيمان وثيق ، فإذا زاحم هذا الإيمانَ شيء من هذه الشكوك الكاذبة ، التى يسوقها إليهم المشركون ، وجد ضعاف الإيمان منهم الفرصة سانحة للخروج من هذا البلاء ، بأوهى سبب !

وهذا ، مايشير إليه قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونة فى القرآن » ..

فهاتان آيتان من آيات الله المادية ، وهما القول بالإسراء ، والقول بتلك الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم .. وفى هاتين الآيتين فتنةٌ للناس ، أى لهؤلاء المشركين ، كما كانت الآيات المادية فى الأمم السابقة فتنةً لتلك الأمم ! وأنه إذا كان المشركون يريدون آياتٍ مادية فهاتان آيتان مادّيتان ، أو شبه ماديتين ، وقد كانتا فتنةً لهم .. فهل تزيدهم الآيات المادية إلا فتنة إلى فتنة ؟

— وفى قوله تعالى : « ونُخَوِّفُهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » إشارة إلى أن هذه الآيات المادية أو شبه المادية ، هى نذير بلاء وفتنة ، ومَطلع عذابٍ عاجل يقع بالمشركين ، إن هم أصروا على موقفهم هذا الذى يقفونه من آيات الله ..!

بقى أن نعرف لِمَ وُصفت الشجرة بأنها ملعونة ؟ ولم تُلْعن وهى لم يكن منها مايستوجب اللعن ؟

والجواب :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى قد وصفها بأنها تنبت فى أصـل الجحيم ،

ووصف طَلْعها ـ أى ثمرها ـ كأنه رءوس الشياطين .. والشيطان ملعون من الله .. فهى لهذا عدوّ مبين للإنسان ، الذى سيسوقه شؤمه إلى أن يطعم منها ، فيجب أن يحذرها ، كما يحذر الشيطان .. فناسب ذلك أن تبدو لأعين النّاس فى صورة الشيء الملعون ، الذى يُحذَر ، ويُتوَقّى .

وثانياً : أن وصف الشجرة بأنها ملعونة ، لاينبنى عليه أنها ملعونة من الله ، وإنما هو وصف بالنسبة لآثارها فيمن يذوق طعمها ، فهو طعام كريه ، لايطعمه إلا الخاطئون .. فإذا وصف الشيء بأنه مرّ المذاق ، أو خبيثه ، فهو بالنسبة لطاعمه .. وقد لايكون طعمه على تلك الصفة فى حقيقته ..

ثالثا : جاء فى قوله تعالى فى وصف الشجرة : « إنا جعلناها فتنة للظالمين » .. فهى فتنة ، كما أن الشيطان فتنة .. وقد جاء فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة فى القرآن » أى هى فتنة كذلك .. وهذا مما يرجح القول بأن المقصود بالشجرة هى شجرة الزقوم ، كما يقيم ذلك دليلا على أنها شجرة ملعونة ..

أما عن استنكار المشركين للجمع بين النار ، والشجر .. فذلك لجهلهم بقدرة الله ، أولا ، ولجهلهم بأسرار الطبيعة ثانياً .. فالنار ، والشجر ، والماء ، والطين .. وكلّ مايرون فيه من تناقض . هو من أصل واحـد ، ومن مادة واحدة ، وإن اختلفت صورُه وأشكاله .. وقد استطاع العلم الحديث أن يحوّل الأشـياء من حالٍ إلى حالٍ ، بإجراء بعض التغييرات فى تركيب عناصرها ، كتحويل الصلف إلى ابن ، والخشب إلى ورق مصقول ، أو حرير ناعم .. إلى غير ذلك مما يتحول به الشيء من النقيض إلى النقيض ..

بل إن الطبيعة نفسها لتقوم بهذه العمليات كل يوم ، فتحول الهواء الشفاف إلى ماء ، وتحول الماء إلى هواء .. كما تحول الماء السائل إلى ثلج جامد ، والملح

الذى يتغذى به النبات إلى مادة سكرية ، كما فى القصب ، وأشجار الفاكهة .

وقد أشار القرآن الكريم ، إشارة خاطفة إلى تحوّل الأشياء إلى طبيعة غير طبيعتها ، كالشجر يتحول إلى نار ، فيقول سبحانه : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون » (٨٠ : يس) .. ففى الشجر نار مستكنة ، كما أن فى النار ماء مستكنًا .. فليس إذن بالمستحيل أن يجتمع الشجر والنار ، وأن تنبت فى أصل الجحيم أشجارٌ تأخذ طبيعة النار ، وتتغذّى منها .

الآيات : (٦١ — ٦٥)

* « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » (٦٥)

التفسير :

* قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ قال أأسجد لمن خَلَقْتَ طيناً » ؟

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة أشارت إلى بعض ما يُفتن

به الناس من آيات الله ..كالإسراء ، وشجرة الزّقوم . . والأُولى ، نعمة وخير ، والثانية ، شرٌّ وبلاء . فناسب أن يجىء بعد شجرة الزّقوم ، التى فُتن بها المشركون ، شىء يشبهها ، هو مَضَلّة للمشركين ، وفتنة للغاوين ، وهو إبليس ، لعنه الله .

وقد دُعى إبليس من الله تعالى أن يَسجد لآدم ، فأبى واستكبر وقال : « أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ؟ » . . وقال فى موضع آخر : « أنا خيرٌ منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . . وقد كان خَلْق آدم من طين آية من آيات الله المادية ، وكان على إبليس أن يؤمن بها . . ولكن هذه الآية كانت سبباً فى كفره بالله ، وطرده من رحمته .

* قوله تعالى : « قال أرأيتَك هذا الذى كرّمْتَ علَىّ لئن أخرتَنِ إلى يوم القيامة لأحْتَنِكَنّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قليلًا » .

أرأيتك : أى أرأيت يا ألله . . والكاف حرف خطاب للمولى سبحانه وتعالى ، يؤكد الضمير المتصل قبله ، والمراد بالرؤية هنا ، العلم . . أى أعلمتَ يا ألله ! .

أحْتَنِكَنّ : أى أفسدنّ ، وأستولينّ . . احتنك الشىء : لاكَهُ فِى حنكه وعَلَكه ، كما تَعْلِكُ الدابّة لجامها .

وهذا تحدّ من إبليس ـ لعنه الله ـ لله سبحانه وتعالى ، فى آدم ، وأنه أضعف شأناً من إبليس ، وأنه إذ كان كذلك ، فكيف يسجد القوىّ للضعيف ؟ . . هكذا فكر إبليس وقدّر . ! .

* قوله تعالى : « قال اذهَبْ فمن تَبِعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » .

اذهب : أمر مراد به الطرد من رحمة الله . .

— وفى قوله تعالى : « فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم » إشارة إلى أن البلاء واقع على إبليس ، ومَن تبعه من أبناء آدم . . إذ كانوا فى اتّباعهم له أنصاراً له وأعوانا ، على هذا التحدّى الذى تحدّى به الله فى أبناء آدم . . وقد كان جديراً بهم أن يكونوا أعداء لهذا العدو لله ولهم . .

وفى هذا تسفيه لهؤلاء المشركين الذين اتبعوا آباءهم ، كما اتبع أبناء إبليس ، إبليس . فمتابعة الذرِّية لآبائهم ، مَضلّةٌ لهم ، إذ كان عليهم أن ينظروا لأنفسهم ، وأن يأخذوا الطريق الذى يؤدى إليه نظرهم . .

— وقوله تعالى : « جزاء موفورا » أى جزاءًا كاملاً ، لا ينقص منه شىء . . فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا يقصر مداه . .

* قوله تعالى : « واستفززْ منِ استطعتَ منهم بصوتك وأَجْلب عليهم بخيلِك ورَجِلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعِدْهم وما يَعدهم الشيطانُ إلا غروراً » .

استَفزِزْ : أى : أخِفْ ، وأَفزِع ، واستفزّ فلانٌ فلاناً : أى أخافه وأفزعه .

وأَجلبْ : أى : أجمِعْ أمرك ، وادع كل ما تملك من قوة .. وأجلب القوم ، جاءوا من كل صوب ، ومنه الجَلَب ، وهم التجار الواردون على السوق . .

والخيل : المراد بها راكبوها . .

والرَّجِل : جمع راجل ، وهو من يمشى على رجليه إلى غايته ، سواء فى حرب أو غيره . .

والأمر هنا ، يراد به الاستخفاف بإبليس ، وبكيده الذى يكيد به للناس .

والاستخفاف إنما هو بالإضافة إلى أبناء آدم . . فإبليس بما معه من كيد ومكر ، هو مدحور مخذول أمام الإرادة الصادقة ، والعزم الوثيق ، فهو أضعف من الإنسان ، الذى يعرف قدر إنسانيته ، ويحترم وجوده كإنسان كرّمه الله ، ورَفَع بين العالمين قدْرَه . . والله سبحانه وتعالى يقول بعد هذا : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٧٠ : الإسراء) : ويقول عن الشيطان : « إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً » (٧٦ : النساء) .

فليُعلن الشيطانُ الحربَ على أبناء آدم ، وليأت بكل ما معه من عَدد وعدّة . . وليجلب بخيله ورجله ، وليشاركهم فى أموالهم وأولادهم ، وذلك بما يفسد عليهم من أموال وبنين . . ثم إذا لم يجد فى ذلك ما يمكنه منهم ، فليأتهم متلطفاً ، متودِّدا ، بعد أن جاءهم مهدداً ، متوعداً ، مفسداً . . وليمدّ لهم فى حبل الأمانىّ ، وليكثر لهم من الوعود المعسولة الكاذبة .. فذلك كلّه لن يبلّغه شيئاً من أبناء آدم الذين جعلهم الله من أهل طاعته ، وأرادهم لجنته ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فهؤلاء هم أبناء آدم ، ليس لإبليس سلطان عليهم ، إلا من كان من أهل الشِّقوة والضلال . . فهؤلاء ـ بما سبق فيهم من قضاء الله ـ هم مستجيبون للشيطان موالون له . . إذ كانت أهواؤهم متفقة مع هواه ، ووجهتهم قائمة على وجهته .. إنهم ، وهو ، من أهل الشقاء والبلاء .

ـــوفى قوله تعالى : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » تحذير من الشيطان ، وأمانيه ومُغْرياته التى يمنّى بها الناس ، ويغريهم بها ، فما هى إلا ضلال فى ضلال ، وأباطيل لاتجىء إلا بالأباطيل !

وتحذير الناس من الشيطان ومغرياته ، وإن كان لايردّ شيئاً مما قضى به الله

فى عباده ، فإنه تحذير من الشر ، وترغيب فى الخير .. وعلى التحذير والترغيب يعتدل ميزان الناس ، حيث يجدون القانون الذى يحتكمون إليه .. وهنا يصحّ الابتلاء ، ويقع الاختبار .. فمن كان من أهل السعادة ، اهتدى بهدى الله ، وعمل بأوامره ، واجتنب نواهيه ، ومن كان من أهل الشقاء ، أخذ طريقه مع الشيطان ، فضلّ بضلاله ، وغوى بغوايته .. وكل مُيَسَّرٌ لِما خُلق له ..

* قوله تعالى « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » .

فعباد الله ، هم أولئك الذين سبقت لهم من الله الحُسنى ، وهؤلاء لاسبيل للشيطان إليهم ، إنهم فى عصمة منه بهذا القضاء الأزلىّ من الله فيهم .. وهو قضاء خفىّ لايعلمه أحد ، ولايدرى مخلوق إن كان من أهل السعادة أو أهل الشقاء .. ومن هنا كان السعى والعمل ، والتسابق إلى الإحسان ــ من مطلوبات الناس ، ومن مبتغياتهم .. لأن الإحسان هو الأمارة الدالة على الفوز والنجاة . فمن كان من أهل السعادة ، عَمِل عمل المحسنين ، ومن كان من أهل الشقاء عَمِل عمل المسيئين .. وفى الحديث : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايبقى بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل الجنة ! » .. وهكذا نحن فى الحياة .. طلاب العلم مثلاً : العاقلون المجدّون منهم ، هم على طريق النجاح عند الامتحان ، والمهملون الغافلون، هم على طريق الإخفاق ..

وقد يجدّ للعامل المجدّ مايصرفه عن العمل والجدّ ، فيُخفق ، ويجدّ للكسول المهمل ما يدفعه إلى الجدّ والتحصيل ، فينجح . وكل سائر إلى القدر المقدور له .. ولكن سنّة الله قائمة فى الناس : أن لاثمرة بغير عمل ، ولا حصاد إلا بعد زرع !

— وفى قوله تعالى: « وكفى بربك وكيلا » . . فى هذا ما يُسأل عنه ، وهو : كيف يخاطب إبليس بهذا الخطاب الذى يشعر بالقرب : « كفى بربّك » ؟

والجواب على هذا ، ـ والله أعلم ـ أن هذا الخطاب ليس لإبليس ، وإنما هو التفات إلى الإنسان ، الذى هو داخل فى عموم قوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وكأنهم بمشهدٍ من هذا الخطاب . . ثم إنه بدلاً من أن يجىء النظم بصيغة الجمع هكذا : « وكفى بربكم » جاء النظم القرآنى بصيغة المفرد « وكفى بربك » . . وذلك لينظر كل إنسان إلى خاصة نفسه ، وليعمل ما وسعه العمل على أن يتوقّى هذا الشيطان المترصد له ، والمتربص به ، وليكن مما يستعين به على ذلك أن يتوكل على الله ، وأن يستعين به ، وليجعل فى يقينه أنه من عباد الله ، الذين لا سلطان للشيطان عليهم . .

ويجوز أن يكون الخطاب للشيطان ، قهراً له : وإلزاماً له بسلطان الربوبية ، الذى خرج بكفره عن سلطانه . . وأنه مقهور مخذول ، ليس له على عباد الله سلطان ، وهو سبحانه وتعالى وكيلهم الذى يدفع عنهم كيده .

الآيات : (٦٦ — ٧٠)

* « رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ

ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » (٧٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « ربكم الذى يُزجى لكمُ الفلكَ فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً » . .

بعد أن خوطب الإنسان من الله سبحانه وتعالى ، بقوله : « وكفى بربك وكيلا » جاء الخطاب إلى النّاس جميعاً ، شارحاً هذه الوكالة ، وما يجىء منها إلى الإنسان من إمدادات الخير والإحسان من ربّ العالمين ، فالله سبحانه ، هو الذى سخّر للناس البحار والأنهار ، تجرى فيها الفلك بأمره حاملة الناسَ وأمتعتهم من بلد إلى بلد ، دون أن يطغى الماء على الفلك ، أو يمسكها على ظهره بلا حراك . . كما يقول سبحانه : « إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ » (٣٣ : الشورى) وهو سبحانه بهذه الوكالة القائمة على الناس قادر على أن يدفع عنهم ما يكيد به الشيطان لهم ، إذا هم آمنوا بالله واتخذوه وكيلا .

* قوله تعالى : « وإذا مَسَّكم الضُّرُّ فى البحر ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فلما نجّاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً »

وفى الحال التى تتعرض فيها الفلك لريح عاصف ، أو موج صاخب ، لا تجدون أيها الناس من يكشف هذا البلاء ، إلا الله . . « ضلّ من تدعون إلا إيّاه » فليس لمعبوداتكم التى تعبدونها سبيل إليكم وأنتم فى هذا الكرب . . إنهم قابعون هناك حيث تركتموهم فى معابدكم ، أحجاراً جاثمة ، أو جثثاً هامدة . . ولكن سرعان ما تنسَوْن أيها الناس فضلَ الله عليكم ، ورحمته

بكم : « فلما نجاكم إلى البَرِّ أعرضتم » عنه ، وأعطيتم وجوهكم لِآلهتكم . .
وهذا فوق أنه سفه وضلال ، هو كفران وجحود .

* قوله تعالى : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البَرِّ أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلًا » .

ولكن أين تذهبون ؟ إذا أنتم أمِنتم جانب البحر ؟ أوَ تخرجون من مُلك الله ؟ ثم أتدفعون بأس الله عنكم إذا جاءكم ؟ فهل تأمنون ، وأنتم فى البَرِّ أن يرسل الله عليكم ريحاً عاصفة ، محملة بالهلاك والدمار ، فتفرقكم فى الأرض ، وتدفنكم فى بطنها . . فإذا كنتم قد سلمتم من الغرق فى البحر ، فهل تعجز قدرة الله من أن تنالكم بالبلاء وأنتم على ظهر اليابسة ؟ وهل إذا وقع بكم هذا البلاء ، هل هناك من يتولى دفعه عنكم ؟ .

— وفى قوله تعالى : « جانب البر » إشارة إلى هذا الحِمَى وذلك الجناب الذى يجد فيه الإنسان طمأنينة وأمناً حين يضع قدمه على اليابسة ، بعد أن يترك البحر ومخاطره . . فهذا الجانب لا يَعصم من أمر الله ، ولا يردّ بأسه .

* قوله تعالى : « أم أَمنتم أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً » .

وهل أمنتم ، بعد أن نجاكم الله من الغرق وأنتم على ظهر السفين ، ثم كفرتم بالله ، ولم تذكروا فضله عليكم ورحمته بكم ــ هل أمنتم أن يعيدكم إلى البحر مرةً أخرى ، مسوقين إليه بسلطان قَدَرِه وقدرته ، ثم يرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم . . إنه انتقام من كفركم بالله ومكركم بنعمه عليكم . . فهل إذا أغرقكم الله فى تلك المرّة ، هل يكون لكم على الله حجة ؟ أليس هذا هو الجزاء العادل الذى أنتم أهل له بكفركم ، وضلالكم ؟ لقد أراكم الله سبحانه فضلَه ورحمته ، فأنكرتم الفضل والرحمة . . وهذا بلاؤه

ونقمته . . فهل تنكرون البلاء والنقمة ؟ « قل هو من عند أنفسكم »! . (١٦٥ : آل عمران) والتبيع : من يتبع غيره ، والمراد به هنا من يطالب الله بما يحلّ بالمشركين من بلاء .

* قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

هو استعراض عام لنعم الله على الناس جميعاً . . أبناء آدم .. فقد كرمهم الله سبحانه وتعالى بهذه الصورة التى خلقهم عليها ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، كما يقول سبحانه : « لقد خلقنا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تقويم » (٤ : التين) وكما يقول جلّ شأنه : « يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم * الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ » (٦ — ٨ : الانفطار) .

ومع هذا التكريم فى الخَلْقِ ، فقد سخر الله للناس مافى البرّ والبحر ، وأفاض عليهم من الخيرات والنعم ، وأقامهم على هذه الأرض ، وجعلهم خلفاءه عليها .. وهذا كلّه من شأنه أن يدعو الإنسان إلى الولاء لله ، وإفراده سبحانه بالحمد والثناء !

— وفى قوله تعالى : «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ـ مايُسأل عنه وهو : ما منزلة الإنسان بين المخلوقات ؟ وما المخلوقات التى فُضِّل عليها ؟ وما المخلوقات التى فُضّلت عليه ؟

صريح منطوق الآية يدل على أمرين :

أولهما : أن الإنسان فُضّل على كثير من المخلوقات التى بثّها الله سبحانه وتعالى فى هذا الوجود كلّه .

وثانيهما : أن هناك مخلوقات لا يَفْضُلها الإنسان ، وهى إما أن تـكون مساوية له فى الفضل ، أو هى أفضل منه ..

والذى لاشك فيه ، هو أن الإنسان فى أصل خِلقته ، أفضلُ المخلوقات التى تعيش معه على هذا الـكوكب الأرضىّ ، ولهذا جعـله الله خليفته فى هذه الأرض.. كما يقول سبحانه وتعالى : «إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة »

ولـكن هذه الخِلقة المهيأة لأن تـكون بمقام الخلافة لله تعالى على الأرض ، لايتحقق لها هذا ، حتّى تحقق هى ذاتيتها ، وتُخرج القوى الـكامنة فيها ، وتفجّر الطاقات المندسّة فى كيانها .. كالنواة التى تضمّ فى كيانها عناصر شجرة عظيمة ، أو نخلة باسقة .. تظلّ هـكذا شيئاً ضئيلا ميتاً ، حتى تندسّ فى صدر الثّرى ، ثم تتفاعل معه ، وتُخرج خَبْأها بعد جَهْدٍ وصراع .

أما الإنسان الذى لايعمل على الانتفاع بما أودع الله فيه من قوّى ، فسيظل كتلة باردة من لحم ودم ، لايرتفع كثيراً عن مستوى أدنى الحيوانات وأحطها منزلة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفلَ سافلين * إلا الذين آمنوا وعمـلوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون » (٤ ـ ٦ : التين) .

هذا هو مقام الإنسان فى العالم الأرضى ..إنه سيد المخلوقات كلها فى هذا العالم ، مادام محتفظاً بإنسانيته ، عاملاً على الارتقاء بوجوده .. أما المخلوقات التى فى غير هذا العالم الأرضى ، فلا شأن للإنسان بها ، كما أنها لاشأن لها بالإنسان ، ومن ثَمّ فالمفاضلة بينه وبينها شىء غير وارد ، وغير منظور إليه .. إذ لاتعـامل بين الإنسان وبين تلك المخلوقات !

الآيات : (٧١ — ٧٧)

* « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » (٧٧)

التفسير :

* قوله تعالى : « يومَ ندعوا كلَّ أناسٍ بإمامِهم فمن أُوتِى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُون فتيلا » .

الإمام : المقدَّم من كل شيء .. وإمام القوم : رئيسهم ، وصاحب الكلمة فيهم ..

والفتيل :النّتوء البارز فى شِقّ النواة ، ويُضرب به المثل فى الشيء الحقير .

والآية تنتقل بهؤلاء النـاس ، الذين كرمهم الله ، وفضلهم على كثير من خلقه ، وحملهم فى البر والبحر ، ورزقهم من الطيبات ــ تنتقل بهم من الدنيا ، التى يتقلّبون فيها ، ويسرحون ويمرحون ، فإذاهم بين يدى الله فى مقام الحساب

والجزاء يوم القيامة .. وإذا كل جماعة مع إمامها الذى كانت تتبعه ، وتنقاد له .. فأتباع الأنبياء مع أنبيائهم ، وأتباع الضلال مع أئمتهم .. وهكذا كل طائفة ، وكل جماعة ، وكل أمة ، مع إمامها ، وقائدها .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء » (٦٩ : الزمر) .. فالنبيون والشهداء ، يشهدون على أتباعهم بما كان منهم فى الدنيا ..

وليس علم الله سبحانه وتعالى بهم ، فى حاجة إلى من يقيم الشهادة عليهم ، ولكن هذه الشهادة هى خِزى وفضح للمجرمين ، بعرض مخازيهم على الملأ .

— وقوله تعالى : « فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يُظلمون فتيلا » هو عرض لأهل الفوز والنجاة فى الآخرة .. وهم الذين أخذوا كتابهم بيمينهم .. فهؤلاء يجدون مسرّة بلقاء كتابهم ، وتهشّ نفوسهم لقراءته ، والاستمتاع بما يرون فيه من أعمال طيبة ، تؤهلهم لرضوان الله ، والفوز بالجنة ..وفى هذا يقول الله تعالى: « فأمّا من أوتى كتابه بيمينه* فسوف يحاسَب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسرورا » (٧ ـ ٩ : الانشقاق) ويقول جل شأنه : « فأمّا من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤمُ اقرءوا كتابيه » (١٩ : الحاقة) .. إنه لسعيد بهذا الكتاب ، وإن الفرحة لتملأ كيانه ، فيطير بها فرِحاً هنا وهناك ، يدعو من يلقاه ليقرأ مافى كتابه ، وليشاركه هذه الفرحة ، فيتضاعف فرحه ، ويعظم سروره ..

وفى إفراد الضمير العائد على الموصول فى قوله تعالى : « فمن أوتى كتابه بيمينه » ثم إعادته إليه جمعاً فى قوله سبحانه « فأولئك يقرءون كتابهم » ـ فى هذا مايشير إلى أن كل واحد يُدْعى ليأخذ كتابه بيده..ثم إذا أخذ كلٌّ كتابه ، اجتمع بعضهم إلى بعض ، والتقى أهل اليمين بأهل اليمين ، وأهل الشمال بأهل الشمال .. ومن هنا كانت قراءة أهل اليمين لكتبهم فى صورة جماعية .. كل

يقرأ كتابه ، ويقرأ كتب أصحابه ! أما أهل الشمال .. فكل منهم فى شغل بما بين يديه من همّ ثقيل ! !

* قوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » هو بيان للجماعة المقابلة لأهل اليمين ، الذين أخذوا كتبهم بأيْمانهم ، وجعلوا ينظرون فيها ، ويقرءون أعمالهم الطيبة التى تبشرهم بالفوز والفلاح ..

ولم تذكر الآية أصحاب الشمال ذِكراً صريحاً ، وإنما دلّت عليهم بأوصافهم.. فهم عُمْى يوم القيامة ، لِمَا يغشاهم من كربِ هذا اليوم ، وما يَطلع به عليهم كتابهم الذى يأخذونه بشمالهم ، من نُذر الشؤم والبلاء .. فلا ينظرون إليه ، وإذا نظروا لم يبصروا شيئاً .. حيث مَلَكَ الرعب وجودهم ، وأخذ الفزع قلوبهم وأبصارهم ! إنهم كانوا عمياً فى هذه الدنيا ، فلم يروْا آياتِ الله ، ولم ينظروا فيما جاءهم به رسُلُ الله من هدًى ونور. . وهاهم أولاء فى الآخرة على ما كانوا عليه فى الدنيا ، قد غرقوا فى بحر متلاطم الأمواج من الكرب والبلاء ، فلا يجدون طريقاً للنجاة ، ولا يروْن وجهاً للفرار من هذا الهوْل العظيم ..

* قوله تعالى : « وإن كادوا ليَفْتِنونك عن الذى أوحينآ إليك لتفترىَ علينا غيرَه وإذا لاتّخذوك خليلا » ..

فتنه يَفْتِنُه عن الشىء فتوناً : أضلّه عنه ، وصرفه إلى غيره .

والافتراء : الاختلاق ، وتلفيق الأخبار ..

وفى هذه الآية ، يُردّ المكذّبون بالآخرة ، إلى الدنيا مرة أخرى ، بعد أن رأوْها عِياناً فيما يشبه أحلام اليقظة .. وما يكادون يصحون من غفوتهم تلك حتى يواجَهوا بما كانوا يأخذون به النبىَّ من عنتٍ ، وما يتهدّدونه من أذًى .. حيث يُريدونه على أن يترك آلهتهم ، ولا يعرض لها فى القرآن الذى يتلوه على

الناس بشىء يُنقص من قدْرها عندهم ، ويُنزل من منزلتها فى نفوسهم .. ويقولون له فيما يقولون : « ائت بقرآن غيرِ هذا ، أو بدّله » .. فيجيئه أمر الله : « قل ما يكون لى أن أبدّلَهُ من تلقاء نفسى .. إن أتبع إلا مايُوحَى إلىّ » (١٥ : يونس) .

ولا يجد هؤلاء الضالّون المتكبّرون مقنعاً فيما يجيبهم به النبيّ على مايسألون ، ولا يرضيهم منه ، أو يدفع عنه سَفَههم ، إلاّ أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ..

— وفى قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » إشارة إلى هذا الصّراع العنيف بين هؤلاء المشركين وبين النبىّ ، وإلى مايسوقون إليه من ألوان التهديد والوعيد .. حتى ليبلغ الأمر غايته من الشدّة والبلاء ، وحتى ليكادا لنبىّ يصل إلى حالٍ يوشك أن يُفلت فيها الأمر من يده ، إذ جاوز حدود ما تحمل الطاقة البشرية من جَهْدٍ وعَنَاء ، كما يقول سبحانه وتعالى فيما يعرض للرسل من بلاء : « حتى إذا استيئس الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » (١١٠ : يوسف) .

فهذا التصوير الموقف ، يكشف عن مَدَى ما يسوق الكافرون إلى النبىّ من أذًى ، وما يأخذونه به من عَنَت . . وأنه صلوات الله وسلامه عليه وهو فى مَعرِض هذه العواصف الهوجاء ، يمسك نفسه على الطريق الذى أقامه الله تعالى عليه ، ويضمّ يديه فى قوة وإصرار على الرسالة التى حمّلها الله إياه ، إلى أن يحكم الله بينه وبين قومه ! . .

— وفى قوله تعالى : « وإذاً لا تخذوك خليلًا » إشارة إلى أنه لو تحوّل النبىّ قليلًا إلى ممالأة قومه ، ونزل شيئاً مما يدعوم إليه ، لجاءوا إليه موادعين مسالمين ، ولَهدأت هذه العواصف المزمجرة حوله ، ولجرت سفينته فى ريح رُخاء ! .

* قوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِليهم شيئاً قليلًا »
بيان لفضل الله تعالى ، على النبيّ الكريم ، إذ شدّ أزره ، وثبّت على الحق قدمه ، فلم يزلّ ولم ينحرف .

— وفي قوله تعالى : « لَقَدْ كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلًا » إشارة إلى ما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم من رصيد عظيم من العزم والصبر ، وأنه — صلوات الله وسلامه عليه — مع هذا الكيد العظيم الذي يكيد له به قومه ، لو تُرِكَ وشأنَه لما تزحزح عن موقفه إلا شيئاً قليلاً . . ولكنّ أمداد السماء قد جاءته في وقتها فأمسكت به ، فربطت على قلبه ، وشدّت من عزمه وثبتت من قدمه . . وهكذا يصنع الله لأوليائه وأحبائه ، فيدفع بهم إلى مواطن البلاء ، حتى يُبْلُوا بلاءهم ، ويُعطوا كل ما عندهم ، وحتى إذا كاد يَفْرَغ كل ما معهم ، وينفد كلُّ ما لديهم ، جاءهم نصر الله ، وتتابعت عليهم أمداده .

— وقوله تعالى : « لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا » .

ركن إلى الشيء : مال إليه . .

والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يركن إليهم ، ولم يمل إلى ما يدعونه إليه ، ولو قِيدَ أنملة ، وإن كاد يفعل ذلك ، ولكن الله سَلّم . . ونحو هذا قول الشاعر :

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ وليتني تركت على عثمان تبكي حلائلُهْ

* وقوله تعالى : « إذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » .

أي لو فعلت هذا — أيها النبيّ — وملت هذا الميل القليل لكان حسابُك عسيراً . . فإن صغيرتك كبيرة ، لمقامك الكريم الذي أنت فيه ، وإنه على قدر علوّ مقامك يكون حسابك .

والمراد بضِعف الحياة وضِعف الممات ، مضاعفة العذاب فى الدنيا ، ومضاعفته فى الآخرة . . ومثل هذا قوله تعالى : « يا نساء النبيِّ من يأتِ منكُنّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يضاعفْ لها العذابُ ضعفين » (٣٠ : الأحزاب) .

— وفى قوله تعالى : « ثم لاتجد لك علينا نصيراً » إشارة إلى ما لله سبحانه من سلطان فى خَلقه ، وأنه ـ سبحانه ـ يُجرى حكمه فى عباده كما أراد ، دون أن يكون لأحد اعتراض على حكمه ، أو دفع له . .

* قوله تعالى : « وإن كادوا ليَستَفِزُّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلاً * سنةَ من قد أرسلنا قبلَك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلاً » .

استفزّه : أجْفله ، وأزعَجه . .

أى أن هؤلاء المشركين من قومك أيها النبىّ ، قد أعْنتوك ، وأجلبوا عليك بكل ما استطاعوا من صور البغى والعدوان ، حتى لأوشكوا أن يُخرجوك من الأرض ، أى يطردوك منها طرداً ، فلا يدعون لك موضعاً فيها ، تدعو فيه إلى الله ، وتبلغ رسالته . . وإنهم لو فعلوا لأخذهم الله بالعذاب ، ولَما بقيت لهم فى الأرض باقية بعدك . . فهذه هى سنّة الله فى الرسل من قبلك مع أقوامهم . وأنهم إذا تأبّوْا عليهم ، وأخذوهم بالبأساء والضرّاء ، أخرجهم الله من بين أقوامهم ، ثم صبّ على هؤلاء الأقوام عذابه ، فأهلكهم ، مصبحين ، أو ممسين .

وفى هذا تهديد المشركين ، وإنذار لهم ، وأنهم إن فعلوا بالنبىّ هذا الفعل أخذهم الله بما أخذ به الظالمين من قبلهم .

« سنةَ الله فى الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنّةِ الله تبديلاً » (٦٢ : الأحزاب)

الآيات : (٧٨ — ٨٢)

* « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱللَّيْلِ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (٨٢) .

التفسير :

*قوله تعالى : « أقم الصَّلَاة لدلوكِ الشمس إلى غَسَقِ اللَّيْلِ .. وقرآنَ الفَجْر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها . . هى أنه لما كانت الآيات السابقة قد حملت شيئاً من التلويح للنبىّ الكريم أن يُعِدَّ نفسه للصبر والاحتمال على مايلْقى من المكاره من قومه ، فقد ناسب أن تجىء هذه الآية ومابعدها ، محمّلة بالزّاد الذى يتزود به ، فى هذا الموقف المتأزّم ، الذى تنحلّ فيه العزائم ، وتزلّ الأقدام ، فيجد منه المدد الذى يقوّى عزمه ، ويثبت قدمه . وذلك بإقامة الصّلاة من دلوك الشمس ، أى من وقت الزّوال عند الظهر ، « إلى غسق الليل » أى ظلمته . .

—« وقرآنَ الفجر » أى وصلاة الفجر ، وهى صلاة الصبح، وسميت قرآناً ، لأن قراءة القرآن أظهر وجوهها . . « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » أى

ذا شأن عظيم ، يُلفت إليه الأنظار ، ويستدعى إليه المشاهدين . . وقيل إن هذا الوقت يحتشد فيه الملائكة ، حيث يلتقى ملائكة الليل ، وملائكة النهار . .

ودعوة النبيّ إلى إقامة الصلاة من وقت زوال الشمس عن كبد السماء ، إلى دخول الليل واشتداد ظلامه ، هو دعوة له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى إقامة أربع صلوات ، هن:الظهر ، والعصر ، والمغرب، والعشاء . . وأما صلاة الصبح ، فقد جاء الأمر بها فى قوله تعالى : « وقرآنَ الفجر » . . وقد أُفردت وحدها ، لما فيها من مشقّة ، ولما فى وقتها من بركة .

* وفى قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلةً لك عسى أن يبْعثك ربك مقاماً محموداً » ـ دعوة خاصة إلى النبى الكريم ، أن يتهجّد بالقرآن . . إلى جانب إقامة الصلاة المفروضة . . وقد كانت تلاوة القرآن هى عبادة النبىّ فى أول الدعوة ، حيث جاء أمر الله سبحانه وتعالى إليه بقوله : « يأَيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً * نِصفَه أو انقصْ منه قليلاً * أو زِدْ عليه ورتّل القرآن ترتيلاً . . » فلما فُرضت الصلاة ، ظلت تلاوة القرآن فريضة واجبة على النبىّ ، مندوبة ، للمؤمنين . .

والتهجّد : اليقظة بالليل بعد النوم . .

ومن الليل : أى من بعض الليل ، لا كلّه . . فحرف الجرّ « من » للتبعيض .

والنافلة : الزيادة ، على المطلوب . .

فالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، مطالب فى هذا ، بما لم تطالب به أمته ، وهو أن يقوم من الليل ، بعد أن ينزع عنه لباس النوم ، وأن يصحب القرآن معه ،

يصلّى به ماشاء الله له أن يصلّى . . وذلك واجبٌ عليه هو ، مندوب لأمّته . .

— وفى قوله تعالى : « عسَى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً » شرحٌ لصدر النبىّ ، وإغراء له بهذا التهجّد الذى تحمل فيه النفس ما تحمل من عناء ومشقة ، فذلك قليل فى سبيل مرضاة الله سبحانه ، والقرب منه ، والفوز بالمقام المحمود عنده . .

والمقام المحمود ، هو مجمع المحامد كلّها ، حيث لا يناله إلا من جمع المحامد جميعها . .

وفى التعبير عن الرفع إلى المقام المحمود ، وإحلال النبىّ به — فى التعبير عنه بالبعث ، إشعارٌ بأنّ هذا المقام هو مرتبة لن تصل إليها البشرية ، إذ لم تؤهلها لها طبيعتها . . فالإنسان الذى ينال هذا المقام كأنما خلق خلقاً جديداً . وانسلخ انسلاخاً يكاد يكون تامًّا عن طبيعة البشر . . ! وهذا هو سرّ من أسرار تصدير هذا الوعد الكريم من ربّ العالمين بفعل الرجاء « عسى » ليظل النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — متطلعاً إلى هذا المقام ، طامعاً فيه ، راجياً أن يبلغه . . وقد بلغه — صلوات الله وسلامه عليه — كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » ولا يتحقق رضاه — صلوات الله وسلامه عليه — إلا إذا تحقق له هذا الرجاء ، الذى تَعَلّقت به نفسه ، وهو أن يبعثه ربُّه مقاماً محموداً . .

* قوله تعالى : « وقل ربّ أدخلنى مُدخَل صدْقٍ وأخرِجنى مُخرَجَ صِدْقٍ واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » . . هو دعاء علّمه إياه ربه ، ليدعوَ به عند كل أمرٍ يعالجه ، ويعمل له ، وهو أن يستعين ربّه عليه ، بأن يُدخله مدخل الصّدْق إلى هذا الأمر ، ويسدّد خطاه عليه ، ويهيىء له الأسباب

المنجحة له ، حتى يخرج منه موفقاً ، بالغاً الغاية المرجوة منه . .

فالدخول إلى أى أمر مّا ، هو مباشرته ، والخروج منه ، هو الفراغ منه . . كالمعركة مثلاً فى ميدان القتال . . الدخول إليها هو الالتحام فى القتال ، والخروج منها هو انتهاء المعركة بانتصار أحد الفريقين المتقاتلين . .

والدخول مدخل الصدق إليها ، يكون أولًا وقبل كل شىء بتخليص دوافعها من البغى والعدوان ، بأن تكون دفاعاً عن حق ، ودفعاً لظلم . . ثم يكون ثانياً ، بالإعداد لها إعداداً روحياً ومادياً ، بتوطين النفس على الاستشهاد فى سبيل الله ، وباستيفاء وسائل الحرب ، وخطط القتال .

وهكذا كل أمر يعالجه النبىّ . . يدعو الله أن يكون دخولَه إليه من مدخل الحق ، لا يبغى غير الحق ولا يعمل لغير الحقّ . وأن يكون خروجه منه من مخرج الحقِّ ، فلا يتلبّس أثناء ممارسته لهذا الأمر بشىء من الباطل . .وهذا إنما يُستعان عليه بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء قوله تعالى : « واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » فبهذا السلطان الذى يُمدّه الله به ، يجد الحراسةَ القوية الأمينة، التى تدفع عنه كلّ عارض يعرض له من وهن أو ضعف أو خذلان .

* قوله تعالى : « وقل جآء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زَهوقاً » . . هو الوصف الكاشف لخاتمة أمور النبىّ كلّها ، قبل أن تجىء خاتمتها . . فكل أموره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سيدخلها مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وسيخرج منها مُخْرَجَ صِدْق ، مستنداً إلى سلطان الله ، مؤيَّداً بنصره . . وهذا إعلانٌ ـ مقدَّماً ـ بانتصار الحق الذى يدعو إليه النبىّ ، ويعمل له ، وهو دعوة الإسلام ، وهداية الناس إلى الله . .

وقد تحقق هذا . . فانتصرت دعوة الإسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ! . .

روى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، حين دخل مكة فاتحاً ، دخل الكعبة وفيها حشود حاشدة من الأصنام التى كان يعبدها المشركون ، فجعل صلوات الله وسلامه عليه ـ يدفع بها فى صدورها ، فتتهاوى على الأرض ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

* قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

هو إلفاتٌ إلى هذا القرآن الذى بين يدى النبىّ ، والذى يتلقى آياته وكلماته من ربّه ـ إنه هو الحقّ الذى فيه الشفاء لما فى البصائر من عمًى ، وما فى القلوب من ضلال ، وهو الرحمة التى تبسطها يد الرحمن الرحيم إلى عباده ليستشفوا بها من جهالتهم وضلالهم . . ثم هو الرائد الأمين الذى يُدخل المصاحب له مدخل الصدق ، ويخرجه مخرج الصدق ، ويجعل له من عند الله سلطاناً نصيراً .

والمؤمنون ، الذين يستجيبون لدعوة النبىّ هم الذين ينتفعون بكلمات الله وآياته ، ويجدون فيها الشفاء والرحمة .

أما الذين يشاقّون النبىّ ، ويصدّون عن سبيل الله ، فلن يزيدهم القرآن إلاّ ضلالًا إلى ضلالهم ، ومرضاً إلى مرضهم . . « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » (١٠ : البقرة) .

وفى قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء » إشارة إلى أن القرآن الكريم ، إنما يتنزل حالاً بعد حالٍ ، ولم ينزل جملةً واحدة . . وهذا يعنى أن كل ما ينزل من القرآن ، هو شفاء ورحمة ، سواء ما نزل ، أو سينزل . . لا أنّ بعضه فيه شفاء ورحمة ، وبعضه الآخر ليس فيه شفاء ورحمة ، كما يذهب إلى ذلك

أكثر المفسّرين .. فكل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، وكل القرآن لا يزيد الظالمين المكذبين به إلا خساراً وتباباً .

الآيات : (٨٣ — ٨٨)

* « وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (٨٨)

التفسير :

* قوله تعالى : « وإذا أنْعَمْنا على الإنسان أعْرَض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر كان يئوساً » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة عليها قد جاءت لتذكر الناس بنعمة من أعظم النعم عليهم ، وهى هذا القرآن ، وما يحمل إليهم من شفاء ورحمة : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

وإذا كان كثير من الناس يكفرون بنعم الله ، ويستقبلونها بالجحود والنكران ، فقد ناسب أن يجىء قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » ليكشف بذلك عن طبيعة مندسّة فى كيان الإنسان

فى عمومه ، وهو أنه إذا أبلمه الله نعمة من نعمه ، بَعُدَ عن الله ، وشُغل بهذه النعمة ، وأنه لايذكر الله إلا إذا مسّه الضرُّ .. فإذا ذَكِر الله فى تلك الحال ، ذَكَرَه وقد بَعُدت به الطريق عن الله إذ قطع كل صلة بربّه ، وهذا من شأنه أن يضعف ثقته بالله ، ويُؤْيسهُ من رحمته .. وهكذا الذين لايؤمنون بالله .. إنهم لايرجون ثوابه ، ولا يطمعون فى رحمته ، لأنهم لايعرفونه ، بل ولا يعترفون به إلاّ عند الشدّة والبلاء ، حيث تطيش أحلامهم ، ويضيع صوابهم .. وليس كذلك المؤمنون بالله ، إنهم على طمع دائم فى رحمته ، وعلى رجاء وثيق فى كشف مايحلّ بهم من سوء ، وما ينزل بهم من ضر .. « إنه لاييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون » (٨٧ : يوسف) .

هذا وفى الآية الكريمة باب فسيح من أبواب رحمة الله ، يدخل منه الناس جميعاً إلى حيث يجدون الرحمة والإحسان .. « قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » .. فسبحانك سبحانك من ربّ كريم رحيم .. وشاهت وجوه من اتجهوا إلى غيرك ، ومدّوا أيديهم إلى سواك .

* قوله تعالى : « قلْ كلٌّ يعْمل على شاكلته فربكم أعلمُ بمَن هو أهدى سبيلا » ..

الشاكلة : الطبيعة التى يكون عليها الإنسان ، وهى التى تحدد طريقه ومذهبه فى الحياة .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الناس ليسوا كلُّهم على شاكلة هذا الإنسان الذى تحدثت عنه الآية السابقة فى قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرُّ كان يَئُوساً » .. فمن الناس من يَقْدُر الله حقّ قَدْره ، إذا أنعم الله عليه ، شكر ، وإذا مسّه الضُّرُّ ، صبَر ، وانتظر فى أملٍ ورجاء رحمةَ الله ، وفضله ..

ـــ وفى قوله تعالى: « كلٌّ يعمل على شاكلته » تحريض لأهل الغواية والضلال أن يكونوا من أهل الهدى والاستقامة .. وأن تكون أعمالهم على صورة طيبة مرضية .. فالأعمال ، مشاكلة ، ومشابهة لأصحابها . فإذا ساءت الأعمال كان أهلها أهلَ سوء ، وإذا صلحت الأعمال ، كان أهلها أهلَ استقامة وصلاح .

ـــ وفى قوله تعالى : « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » ـ وفى إضافة الناس جميعاً إلى ربّهم ، دعوة لهؤلاء الشاردين عن طريق الحق ، أن ينظروا إلى أنفسهم ، وأن يعودوا إلى ربّهم ، حتى يكونوا أهلاً لأن يضافوا إليه ، وينزلوا دار ضيافته وكرمه ..

* قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الرُّوحُ من أمر ربّى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ..

« الواو » فى ويسألونك ، للاستئناف ، وهى فى نظمها هذا ، إنما تنادى بصوتٍ عالٍ فاضحٍ لهؤلاء الذين يسألون هذا السؤال الذى لايريدون به هدًى ، ولايبغون منه معرفة ، وإنمـا هو المِراء والجدل ، واللّجاج فى الضلال والعناد ..

وفى الحديث عن هؤلاء السائلين بضمير الغيبة « الواو » فى « ويسألونك » دون أن يجرى لهم ذكرٌ ـ فى هذا تجهيل لهم ، وإتاحة الفرصة لمن اشترك فى هذهِ الجريمة أن يفرّ بنفسه ، وأن يطلب السلامة بالبعد عن هذا الموطن ، الذى مَن ضبط فيه متلبساً بهذا التساؤل المنحرف عن طريق الاستفادة والمعرفة ـ كان فى وجه الاتهام والمؤاخذة ..

ـــ وقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربّى » أى من شأنه سبحانه وتعالى ، ومما وسعه علمه هو ، جَلّ شأنه . .

ـــ وفى قوله سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .. أمور .. منها :

أولا : الإشادة بمقام العلم ، والاحتفاء بأهله .. وأنه بقدر حظ الإنسان من المعرفة ، ومبلغه من العلم ، تكون منزلته ، ويكون قدره .. وأن الله سبحانه وتعالى ، وقد أحاط بكل شىء علما ، فإنه ـ سبحانه ـ قد استأثر بكثير من أسرار الوجود ، لايصل إليها علم العلماء .. وهكذا ، كل من حصّل شيئاً من العلم ، هو مستأثر بسرّ ما عَلِم ، مالك له ، متصرف فيه ، وإن على مَن أراد أن يكون له مكان فى هذا المقام ، فليطلب العلم وليلحق بركب العالمين ..

وثانياً : أن العلم الذى يحصّله العلماء ، وتتسع له المدارك والعقول .. هو علم قليل قليل .. لايبلغ شيئاً إلى جانب علم الله .. ويكفى الإنسانَ جهلا وصغاراً أنه يجهل نفسه ، ويجهل الروح السارية فيه ، والتى هى مبعث حيـــاته ، وحركته .. فكيف يكون له علم مع علم الله الذى وسع الوجود كله علماً وحكمة ورحمة .؟

وثالثاً : التحريض على طلب العلم ، والاستزادة منه ، حتى يكون هذا العلم القليل الذى نعلمه ، كثيراً ، نفيد منه فى أمور معاشنا ومعادنا .. فما أكثر مانجهل من عالمنا الأرضى المحدود الذى نعيش فيه ، وما أكثر ماينكشف لنا كل يوم من خباياه وأسراره .. فلنطلب العلم ، ولنجدّ فى الطلب .. ولكن ليكن ذلك لحساب العلم والمعرفة ، لا لإشباع شهوة المماحكة والجدل . .

هذا ، والرأى عندنا أن يكون المراد بالروح هنا القرآن الكريم ، فهو روح الأرواح ، وحياة النفوس ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بهذه الصفة فى قوله تعالى : « ينزّلُ الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لآ إلَه إلاّ أنا فاتقون » (٢ : النحل) وفى قوله سبحانه : « رفيعُ الدرجات ذو العرش يُلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذرَ يومَ التّلاقِ » (١٥ : غافر) .

فالروح هنا ، كلمات الله تنزل بها الملائكة على رسل الله ، ليبلغوها أقوامهم الذين أرسلوا إليهم .. وقد اتصلت كلمة الروح فى هاتين الآيتين بقوله تعالى : « من أمره » كما اتصلت فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » .. فكان الرّد عليهم : « قل الروح من أمر ربّى » .. وفى هذا قرينة على أن الروح هنا هو الروح هناك . .

وأصرح من هذا ، فى الدلالة على أن المراد بالروح هو القرآن الكريم ماجاء فى سورة الشورى فى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » (الآية : ٥٢) .. فالروح هنا صريح الدلالة على أن المراد به هو القرآن الكريم ..

وكذلك ماجاء فى سورة القدر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر * ومآ أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلِّ أمرٍ .. » ففى ليلة القدر تنزل الملائكة ، كما نزل القرآن الكريم فيها ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ..

وفى اقتران نزول « الروح » بقوله تعالى : « من أمر ربى » و « من أمره » و « من أمرنا » و « من كل أمر » إشارة إلى مايحمل القرآن الكريم من أحكام الله سبحانه وتعالى ، وما قضى به سبحانه، من أمر ونهى.. وخصّ الأمر بالذكر ، لأن النهى فى حقيقته أمر بالترك المنهىّ عنه ومجانبته ، فهو داخل حكما فى الأمر . .

وهذا المفهوم لكلمة « الروح » وأن المراد بها القرآن الكريم ، يسانده ماجاء فى الآية الكريمة بعد هذا « ولو شئنا لنذ هَبّن بالذى أوحينا إليك » حيث كان المشركون يسألون عن القرآن الكريم سؤال استهزاء ، من أين جاء به ؟

وعمن أخذه ؟ ومن أعانه عليه ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون .. فقد جاءوا ظلماً وزوراً » (٤ : الفرقان) .

وقد جاء الرد عليهم فى قوله سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أى فهذا القرآن وما اشتمل عليه من علم ، هو من بعض علم الله . .

* قوله تعالى : « وَلَئِن شئنا لنَذْهَبن بالذى أوحينا إليك ثُمّ لاَ تَجِد لَكَ بِه عَلينا وكيلا * إلاّ رحمةً من ربك إن فضله كان عليك كبيرا » .

المشيئة الإلهية هنا غير مرادة ولا واقعة ، لأنهـا معلقة بإرادة الله سبحانه وتعالى .. والله سبحانه وتعالى لايريدها .. فهى مشيئة غير مُشَاءة .. « فلو » حرف شرط ، يفيد امتناع الشرط لامتناع جوابه .. والتقدير : لوشئنا لنذهَبن بالذى أوحينا إليك .. ولـكننا لم نشأ ..

والغرض من هذا الشرط غير الواقع ، الإشارة إلى أنه ممكن الوقوع ، وأن إمكان وقوعه متوقف على مشيئة صاحب المشيئة .. ومنه قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . . ولـكنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يقع هذا ، ولذلك جاء التعقيب بعد ذلك : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك . . ولذلك خلقهم » وفى توكيد الفعل الواقعة عليه المشيئة : « لنذهَبنّ » ـ إشارة إلى ما لمشيئة الله سبحانه وتعالى من سلطان غالب لا يُدْفع ، وقوة قاهرة لا تردّ . .

وفى الآية إلفاتٌ إلى العلم الـكثير الذى اشتمل عليه القرآن الـكريم ، والذى ضُمّت عليه آياته وكلماته ،وأنه إذا أصغت الآذان إليه ، وتفتحت القلوب له ، ووردَتْ العقول موارده ـ وجـد عنده وارده ، والمتعاملون معه ، والآخذون منه ، مذخوراً لاينفد من العلم والمعرفة . . كما يقول سبحانه وتعالى :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وكما يقول جل شأنه : « أَوَلَمْ يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتْلى عليهم » (٥١ : العنكبوت)

فهذا القرآن ، وما حمل إلى الناس من هدًى ورحمة ، وما جمع بين دفتيه من علم ومعرفة — هذا القرآن ، وهذا شأنه ، قد غفل عنه هؤلاء الغافلون الجاهلون .. ولم يقفوا عند هذا ، بل تصدّوا له ،وحاربوه ، وقال بعضهم لبعض: « لاتسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون » (٢٦ : فصلت) .. ثم هاهم أولاء يجيئون من خَلْف القرآن ، ويتسلّلون من ورائه ، فى خُبْث ومكر ، يسألون سؤال من يطلب العلم ، ويبغى المعرفة ، وماهم بطلاب علم ، ولا روّاد معرفة . إذ لو كانوا كذلك لـكان فيما نزل عليهم من قرآن ما يملأ عليهم حياتهم علماً ومعرفة : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتابَ يتلى عليهم » ؟ (٥١ : العنكبوت) ..

— ففى قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهَبنّ بالذى أوحينا إليك » .. تهديد لهؤلاء المشركين بتحويل هذا القرآن عنهم ، ورفعه من بينهم ، وحرمانهم هذا الخير العظيم المَسُوق إليهم ! ولـكن رحمةَ الله سبحانه وتعالى بك أيها النبىّ وبقومك ، هى التى أمسكت هذا الخير عندهم ، وأبقته فيهم : « إن فضله كان عليك كبيراً » فبفضل الله سبحانه وتعالى عليك ، وإكرامه العظيم لك ، قد أبقى على قومك ، فلم يعجّل لهم العذاب ، ولم يقطع عنهم هذا الخير الذى حملتَه إليهم بين يَديك . . بل جعله الله سبحانه مائدةً ممدودة لهم ، ومورداً يردونه أنّى شاءوا ، غير مدفوعين عنه ، ولا محرومين منه .

* قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

الظهير : السَّنَد والمعين . . وهو الذى يسند إليه الإنسان ظهره ، فيكون قوةً من ورائه .

بعد أن أشارت الآيتان السابقتان إلى القرآن الكريم ، تلك الإشارة الدالة على ما فيه من علم غزير ،وخير كثير،قد غفل عنه المشركون ، وأنهم ـ إذ فعلوا ذلك — ليسوا أهلاً لأن يعيش بينهم هذا الخير وذلك العلم ، ولكن فضل الله العظيم ، على نبيّه الكريم ، قد أمسك على قومه هذا القرآن فيهم ، ليتداركوا أنفسهم ، وليأخذوا بحظهم منه . .

نقول : بعد أن أشارت الآيتان السابقتان إلى القرآن الكريم وموقف المشركين منه ـ جاء قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » — ليكون ذلك بياناً كاشفاً عن قدر هذا القرآن ، وعن علوّه الذى لا ينال ،وأنه رُوح من أمر الله ، يحيى موات القلوب والنفوس.

فهذا القرآن ، مع أن مادته مما يَصُوغ منها العرب شعرَهم ونَثرهم ، ومع أن كلماته وتراكيبه جارية على ألسنتهم ، معروفة لهم — هو معجزة قاهرة متحدّية للإنس والجنِّ ، أبَدَ الدهر ، فمن شاء منهم ، فليقف لهذه المعجزة ، وليتحدَّ هذا التحدى ، وليدْعُ إليه من استطاع من الإنس والجنّ ، ثمّ لينظر ماذا يكون هذا الذى استطاع هو ومن معه أن يأتوا به ، وليعرضوه فى مقام الموازنة والمقايسة بينه وبين القرآن العظيم ، ثم ليكن حُكمهم فى هذا هو مقطع القول فى إعجاز القرآن أو غير إعجازه ! وهو الجواب المفحم عن الروح الذى سألوا عنه !

نقول هذا ، ولا نحسب أحداً منذ نزل القرآن إلى اليوم ، قد دخل فى هذه التجربة ، ثم استقام له منها شبهة فى أن أى كلام ، مهما بلغ من البلاغة ، يدنو من سماء القرآن ، وينتظم فى عِقده . . وكيف وهو أرضٌ والقرآن سماء ، وهو حصًى والقرآن جواهر ؟!

رُوى أن أبا العلاء المعرى كان يردد قوله :

كم بُودِرت[1] غادةٌ كَعابُ   وعُمّرت أمُّها العجوزُ
أحرزها الولدان خوفاً   والقبر حرز لها حريزُ
يجوز أن تُبطىء المنايا   والخلد فى الدهر لا يجوزُ

ثم تأوّه مرات ، وتلا قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلاّ لأجل معدود * يَوْمَ يأتِ لا تَكلّمُ نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقىٌّ وسعيد » (١٠٣ — ١٠٥ : هود) .. ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زمانا ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه ، وقال : سبحان مَن تكلم بهذا فى القِدَم . سبحان مَن هذا كلامه !

وإنها لشهادة ناطقة على إعجاز القرآن ، وأنه يسقط بين يديه كل كلام وإن علا ، وأنه يستخذى بين يديه كل بليغ ، وأنه ملاك البلاغة ، وبزّ البلغاء[2] .

الآيات : (٨٩ — ٩٦)

* « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ

(١) بودرت : أى عاجلها الموت ، وهى كعاب أى صبية قد نهد ثدياها .
(٢) انظر فى هذا كتابنا « إعجاز القرآن » فى الجزءين الأول والثانى .

بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُل لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » (٩٦)

التفسير :

* قوله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفنا للناسِ فى هذا القرآن من كل مَثَلٍ فأبى أكثر النّاسِ إلا كفوراً » .

صَرَّفنا : بيّناً ، وكشفنا ، وذلك بعرض الأمر على وجوهه كلّها ، حتى ينكشف للناس جميعاً . . والتصريف التنويع ، ومنه تصريف الرياح ، وهو هبوبها من جهات مختلفة .

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى مافى القرآن الكريم من هذا الإعجاز الذى أعجز الإنس والجنّ ، جاء قوله تعالى : « ولقد صرفنا للنّاس فى هذا القرآن من كل مَثَلٍ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » — جاء ليكشف عن هذا الضلال المبين ، وذلك العناد الأعمى ، الذى يستبدّ بالناس ، فيُعميهم عن الحق ، ويصرفهم عن الهدى ، ويزين لهم الباطل . .

فهذا القرآن فى بيانه المبين ، وحجته المشرقة القاهرة ، وهذه الآيات التى صرّفها الله سبحانه وتعالى فى هذا القرآن ، والأمثال التى ضربها للناس فيه ، كلٌّ

هذا لم تُبْصره أبصار الضالين ، ولم تطمئن به قلوب المشركين ، بل إن ذلك قد زادهم نفوراً عن الهدى ، وبعداً عن الحق .. شأنهم فى هذا شأن كثير من الهوامّ والحشرات التى يأخذ ضوء النهار على أبصارها ، فتفرّ من كل مكان يلوح منه ضوء !

* قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً ».

هذا بيان لما كان عليه المشركون من عناد ومكابرة فى الحق .. فهم إذ عموْا عن آيات الله ، وإذ لم يروْا منها مايراه أهل السلامة والعافية ، لم يتّهموا أنفسهم ، ولم ينظروا إلى هذا الداء المتمكن منهم ، فلجّ بهم فى الضلال ، وساقهم إلى هذا التيه الذى هم فيه ، بل اتهموا القرآن نفسه ، وقالوا : « إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَر » « وإنْ هذا إلاأساطير الأولين اكتتبها ،فهى تملى عليه بكرةً وأصيلا » ثم راحوا يتحدّون النبىّ ، ويقترحون عليه فى مجال التحدّى أن يأتيهم بآياتٍ مادّية يرونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم ..

— « وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً » .. فهذه واحدة من مقترحاتهم .. أن يفجر لهم ينبوعاً من الأرض يتدفق منه الماء ، كما فعل موسى مع بنى إسرائيل بعصاه .

وأخرى .. هى أن تكون للنبىّ جنة من نخيل وعِنَب ، تجرى من تحتها الأنهار فى وسط هذه الصحراء الجديب .. « أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً » ..

وثالثة .. هى أن يسقط عليهم السّماء ، فتطبق على الأرض وتحيلهم وديارهم ترابا فى ترابها .

« أو تسقط السّمآء كما زعمت علينا كسفاً » .. والكِسَف : القطع ..

ورابعة .. وهى أن يأتيهم بالله ومعه الملائكة ..

« أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » .. والقبيل : مايقابل الشىء ويواجهه ، ومنه القِبلة ، لأنها فى مقابل من يتجه إليها ، ويقبل عليها ..

وخامسة .. وهى أن يكون له بيت عظيم ، وقصر مشيد ، كقصر كسرى أو قيصر ، تحتشد فيه الزخارف ، وتجتمع فيه ألوان الزينة والترف ..

« أو يكون لك بيت من زخرف » أى من ذهب .

وسادسة ، وهى أن يرقَى فى السماء ، ويُرَى صاعداً إليها ، كما تصعد الطيور الى مافوق السحاب ..

« أو ترقى فى السماء .. »

وإنهم لن يصدّقوا ماتراه أعينهم ، إذا هو صعّد إلى السماء ، فقد يكون ذلك من قبيل السّحر ، وإنّما الذى يجعل من صعوده إلى السماء آيةً عندهم ، أن يعود إليهم ومعه كتابٌ كالكتاب الذى جاء به موسى ..

« ولن نؤمِنَ لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » ..

فهذه مقترحاتهم المتحدية ، التى اقترحوها على النبىّ ، وله أن يختار أيًّا منها .. فإن أعجزته واحدة ، فليخترْ غيرها .. فإن أعجزته هذه المقترحات كلها ، فقد أُسقط فى يده ، وظَهر عجزُه ، وكان عليه أن يستسلم لهم ، ويدع مايدعوهم إليه ..

وفى هذه المقترحات أمور .. منها :

أولا : أنها صِيغت صياغة يَبْدو منها أن القوم قد أنْصفوا النبىّ ، ولم يجيئوا إليه متعنتّين ، حيث وضَعُوا بين يديه أكثرَ من سبيل ، فيتخيرّ أيسرها عليه ، وأقربها تناولاً منه ..

وثانياً : أنهم لم يَقْصِروا مقترحاتِهم على مطالب ذات نفع خاص بهم ، حتى يقال عنهم إنهم طُلاَّب منفعة ، وأصحاب أهواء .. فهم إذ طلبوا أن يُفجّر لهم من الأرض ينبوعاً ، طلبوا أن يسقط السّماء عليهم كسفاً .. وهم إذ طلبوا لأنفسهم أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً ، طلبوا له أن ينشيء لنفسه جنّةً من نخيل وعنب ، تجرى من تحتها الأنهار وليس نهراً واحداً ، كما طلبوا أن يقيم له قصراً مشيداً ، مزخرفاً ، مموهاً بالذهب .

وثالثاً : أن أصابع اليهود تبدو بصماتها واضحة على تلك المقترحات ، وأنهم هم الذين صاغوها للمشركين تلك الصياغة الخبيثة الماكرة .. إذهم أصحاب قدم راسخة فى هذا الضلال الذى كانوا يَلْقَوْن به رسلَ الله إليهم .. فقد سألوا موسى أن يُريهم الله جهرة ، كما يقول الله تعالى عنهم: « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (٥٥ : البقرة) . ومن مواقفهم الماكرة مع موسى أنهم أرادوا أن يمتحنوا قُدرته على الاتصال بالله ، فطلبوا إليه أن يأتيهم بطعام غير المنّ والسّلوى ، وهو طعام سماوى وضعه الله فى أيديهم.. فقالوا « فادع لنا ربّك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقِثّائها وفُومِها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » (٦١ : البقرة) .

فهذه المقترحات التى اقترحها المشركون على النبىّ لم يكن مرادًا بها إلاَّ التحدّى ، حتى ولو كان فى هذا التحدّى هلاكهم ! فقولهم : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً » هو من قبيل ماطلبه بنو إسرائيل ، من استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ! !

وقد أمر الله نبيّه أن يَرُدَّ على مقترحاتهم تلك بقوله سبحانه : « قُلْ سبحان ربّى هل كنتُ إلاَّ بشراً رسولا » ..

وقد تضمن هذا الرد أمرين :

أولها : أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس إلا بشراً مثلهم ، وأنه محكوم بهذه البشرية التى تحكمهم ، وأنه بحكم هذه البشرية ليس مما يُحسب عليه ، أو ينقص من قدره ألاّ يأتى بشىء من هذه المقترحات التى اقترحوها عليه .. لأنها خارجة عن حدود البشر .

وثانياً : أنه رسول ، ومن شأن الرسول ألاّ يخرج عن الحدود التى رسمها له مَن أرسله ، وإلا كان خائناً للرسالة ، وحينئذ يكون مايعمله أو يقوله هو لحسابه الشخصى ، وفى حدود مقدرته ..

والرسول حريص على أداء الرسالة التى أُمر بتبليغها ، ملتزم الحدودَ المرسومة له .. فإذا حدثته نفسه بالخروج عن حدود رسالته ، فمعنى هذا أنه انسلخ عن صفته تلك ، ولم يعُدْ رسولاً ، وأصبح مجردَ « بشر » لاصلة له بالسماء .. وإذا كان كذلك ، فإنه ليس له سبيل إلى الإتيان بشىء من هذه المقترحات التى يقترحها المشركون عليه ، والتى هى فوق طاقة البشر !

ففى هذا الرد المعجز : « هل كنت إلا بشراً رسولاً » إفحام لهؤلاء المشركين ، الذين يجهلون تلك البَدَهِيات ، وهى أن الرسول الذى يقترحون عليه هذه المقترحات ، هو بشر منهم ، قبل أن يكون رسولاً ، وأن كَوْنَه رسولاً لايُخرجه عن بشريته ، وأنه إنما يُعطى ماتقدمه له السماء ، كما يقول الله سبحانه وتعالى له : « قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إلىّ » (١١٠ : الكهف) وكما يقول سبحانه : « ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين » (٤٤ ـ ٤٧ : الحاقة) .

* قوله تعالى : « وما منَع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا أبعثَ الله بشراً رسولاً » ..

الناس ، هنا ، هم مطلق الناس ، فى كل زمان ومكان .. والمراد بهم

أولئك الذين يلقون رسلَ الله بالبهت والتكذيب ، ويقفون منهم موقف العناد والتحدّى ، وقد جاء النظم القرآنى بكلمة « الناس » على إطلاقها ، لأن الكثرة الغالبة فى الناس، هى التى لاتؤمن بالرسل ، وقليل منهم أولئك الذين يؤمنون.. كما يقول سبحانه : « وما أكثرُ النــاس ولو حرَصْتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) . .

والشبهة التى تفسد على هؤلاء الضالين رأيهم فى رسل الله ، وتصورهم للطبيعة التى يكونون عليها ـ هى أن الرسل الذين يكونون سفراء بين الله والناس ، ينبغى أن يكونوا ـ حسب تقديرهم ـ على مستوًى فوق مستوى البشر ، إذ لو كان من الممكن أن يتصل إنسان بالله ، لكانوا هم ـ أى هؤلاء الضالون المنكرون ـ أهلاً لهذا الأمر ، وأولى به من هذا الرسول ، الذى يدّعى تلك الدعوى على الله ..!!

فهذا الإنكار الذى يواجه به المشركون رسلَ الله ، إنما يقوم أساساً عند هؤلاء المنكرين ، على أمرين :

أولهما : أن البشر عموماً فى مستوى دون هذا المستوى الذى يستطيع فيه إنسان أن يتصل بالله ·

وثانيهما : أنه لو كان فى الإمكان أن يتصل إنسان بالله ، فلن يكونه هذا الإنسان الذى يدّعى أنه رسول من عند الله ! فهناك عندهم من هم أولى منه .. حتى لكأن ذلك مما يتزاحمون عليه من مظاهر الحياة المادية . . والله سبحانه وتعالى يقول : « الله أعلمُ حيث يجعل رسالته » (١٢٤ : الأنعام) .

* وقوله تعالى : « قل لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولا » ـ هو ردٌّ على هؤلاء الذين ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً ، ويرفضون التعامل مع أى إنسان يقول إنه رسول من ربّ

العالمين . . ويطالبون أن يكون للمبعوث إليهم مَلَكا من ملائكة الله ، أو الله ذاته ، كما يقول سبحانه على لسانهم : « وقال الذين لايَرْجُون لقاءنا لولا أُنزل عَلَيْنا الملائكةُ أو نَرَى رَبَّنَا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوْا عُتُوًّا كبيراً » (٢١ : الفرقان) .

— وفى قوله تعالى : « لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين » استبعاد لصلاحية المَلَك أن يؤدىَ رسالة الرسول بين الناس . إنه مَلَك ، وهم بشر . . فلو جاء إلى الناس على صورة غير صورة البشر لفُتنوا بِهِ إذا خاطبهم — وهو غير إنسان — بلسانهم وتحدّث إليهم بلغتهم .

ولو جاءهم فى صورة إنسان ، لظلّت الشبهة قائمة عندهم فى أن هذا الرسول بشرٌ . . وفى هذا يقول الله تعالى : « ولو جَعَلْنَاه مَلَكا لجعَلناه رجلاً ولَلَبسْنا عليهم مايَلْبِسون » (٩ : الأنعام) أى أنه إذا كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن يبعث إلى الناس مَلَكاً رسولاً لاقتضت حكمته أن يكون هذا الملك فى صورة بشرية كاملة ، حتى يمكن أن يلتقى بالناس ويبلغهم رسالة ربّه ! وهذا لا يغيّر من واقع الحال شيئاً . . فملَك فى صورة بشر . . هو فى حساب الناس بشر .

* قوله تعالى : « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » هو تهديد لهؤلاء المشركين ، بأن يتركهم النبىّ وشأنهم ، وماهم فيه من ضلال وعمًى ، بعد أن أبلغهم رسالة ربّه ، ورفع لأبصارهم أضواء الحق ، وأنوار الهدى . . والله شهيد على ما كان من النبىّ وما كان منهم ، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ، مطلعاً على ما يُسرّون وما يعلنون .

الآيات : (٩٧ — ١٠٠)

* « وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوٓا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُورًا » (١٠٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « ومَن يهد الله فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمْياً وبكما وصُمًّا مأواهم جَهَنَّمُ كلَّما خَبَتْ زدناهم سعيراً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد كشَفَتْ عن وُجوه منكرَة للمشركين ، الذين أعماهم الضلال ، وأصمهم الكبر ، فلم يرَوْا ما يشع من آيات الله من أضواء ، ولم يستمعوا إلى ماتحمل إليهم من هدى ، بل جعلوا يهزءون ويسخرون برسول الله ، وبكلمات الله ، ويجيئون إلى الرسول الكريم يتحدّوْنه بتلك المقترحات التى يقترحونها عليه ، وبتلك الأسئلة المتعنتة التى

يسألونه إياها — فناسب أن يجىء قوله تعالى : « ومَن يهدِ الله فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه » ليكشف عن طبيعة هؤلاء المشركين ، وأنهم ممن لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم ، وأنهم لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم .. فهؤلاء المشركون هم ممن حقّتْ عليهم كلمة العذاب ، وأنهم أصحاب النار ، وأنهم إن يُدْعَوْا إلى الهدى فلن يسمعوا ، ولن يهتدوا أبداً ..

هكذا كانت مشيئة لله فى هؤلاء الضالين المشركين ، ولن يَردّ عنهم مشيئةَ الله،ولىٌّ ولا نصير . وإذن فإنهم سيموتون على ما هم عليه من كفر وضلال، فإذا حُشروا يوم القيامة ، سُحبوا على وجوههم إلى جَهنم ، وجُرّوا إليها جرًّا ، كما يقول سبحانه وتعالى : « يَومَ يُسْحَبُونَ فى النَّار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سقر » (٤٨ : القمر) وفى سحبهم على وجوههم إذلال لهم وامتهان لإنسانيتهم ، وقد كانت هذه الوجوه تلبس ألواناً من الكبر ، والصَّعَر ، والتعالى على العباد .

— وفى قوله تعالى : « عُميًا وبكمًا وصُماً » إشارة إلى ما يحيط بهم من هول ، وما يَنزل بهم من كرب ، حتى لتذهب حواسّهم ، وتتعطل جوارحهم .. فلا يُبصرون ، ولا يتكلمون ، ولا يُسمعون .

— وقوله تعالى : « مأواهم جهنم » أى مصيرهم ، ومستقرّهم .

— وقوله تعالى : « كلّما خبَت زدناهم سعيراً » أى كلّما أخذت هذه النار فى الخمود ، وخفّ عليهم سعيرها ، زادت اشتعالاً وسعيراً ، وذلك مما يضاعف فى آلامهم ، ويزيد من عذابهم ، حيث تتغاير بهم أحوال العذاب ، فيتقلبون بين اليأس والرجاء ، وبين الموت والحياة .. وذلك هو العذاب فى أقسى صوره، وآلمها .. على خلاف ما لو كان العذاب الواقع بهم على حالٍ واحدة ، ولو كان بالغاً غايةَ الشدة ، فإنه بعد فترة من الزمن يصبح شيئاً رتيباً ، يجرى على وتيرة

واحدة ، أشبه بالمألوف المعتاد من مُرّ الأمور وحُلوِها .

* قوله تعالى : « ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنّا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » .

هو بيان للسبب الذى من أجله أُخذ هؤلاء الضالّون بما أُخذوا به ، من عذاب ونكال . . إنهم كفروا بآيات الله ، وبرسول الله ، وبما دعاهم إليه من الإيمان بالله ، وباليوم الآخر .. ولم يقع فى تصورهم أنهم يبعثون بعد الموت ، وشكّوا فى قدرة الله أن يعيد إليهم الحياة بعد أن يموتوا ويُصبحوا عظاماً نخرة ، ورفاتاً ضائعاً فى التراب .

والاستفهام هنا إنكارى ، حيث ينكر المشركون البعثَ ، ويقولون « إنْ هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين » (٢٩ : الأنعام) . . بل إنهم ليقسمون على هذا قَسَماً مؤكداً حتى يقطعوا على أنفسهم طريق النظر فى هذا الأمر أو التفكير فيه . . « وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (٣٨ : النحل) .

* قوله تعالى : « أو لم يروْا أن الله الذى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ والأرضَ قادرٌ على أن يَخْلُقَ مثلَهم وجَعَلَ لهم أجلاً لاريبَ فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً » . هو ردٌّ على هؤلاء المشركين الذين يكذبون بالبعث ، ويقولون منكرين : « أئذا كنّا عظاماً ورُفَاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » . . فلو أنهم كانوا على شىء من الإدراك السليم ، لرأوا فى قدرة الله سبحانه وتعالى ما ينزهها عن العجز . . فهى قدرة قادرة على كلّ شىء . . ولو لحقها العجز عن شىء مّا لما كانت من صفات الكمال الواجبة لله .

فهذا الوجود كله فى سمائه وأرضه ، هو بعض صنعة هذه القدرة . . وتلك

القدرة التي أوجدت السموات والأرض ومن فيهن ، قادرة على أن تخلق مثل ماخلقت . . فالخلق الثاني أهون من الخلق الأول ، الذي جاء على غير مثال . . « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٢٧ : الروم) . .

وبالتالي فإن خلق الناس من جديد ، وهم بعض هذا الوجود ، هو بالقياس إلى الطبيعة البشرية — أهون — من خلق السموات والأرض . . كما يقول سبحانه وتعالى : « لَخلق السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس .. ولكن أكثر الناس لايعلمون » (٥٧ : غافر) .

— وفي قوله تعالى : «قادر على أن يخلق مثلهم» مبالغة في الرد على المشركين المنكرين للبعث .. فالناس لايُخلقون خلقاً عند بعثهم من الموت ، وإنما البعث إعادة لما كانوا عليه .. ولكن جاء التعبير القرآني بلفظ الخلق ردًّا على قول المشركين : « أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » ؟

— وقوله تعالى : « وجعل لهم أجلاً لاريبَ فيه » . الفعل معطوف على قوله تعالى : « أو لم يروا » الذي يراد به الماضي ، بمعنى لقد رأوا ، وإن كانت هذه الرؤية لم ترْفَع عن أبصارهم هذا الضلال الذي هم فيه .. والمراد بالأجل ، هو الأجل الموقوت للبعث والقيامة ، وهو آت لاريب فيه .. كما يقول سبحانه : « وما نؤخره إلا لأجل معدود » (١٠٤ : هود) .

— وفي قوله تعالى : « فأبى الظالمون إلا كفوراً » وفي ذكر الظالمين باللفظ الظاهر بدلا من الضمير ،الذي يقتضيه السياق — في هذا مايكشف عن حقيقتهم ، وأنهم موصوفون بالظلم ، لبعدهم عن الحق ، ومكابرتهم في الحقائق المسلّمة ، وافترائهم على الله الكذب .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن أظلم ممن

افترى على الله الكذب وهو يُدْعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين » (٧ : الصف) .

* قوله تعالى : « قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمة ربّى إذاً لأمسكتم خشيةَ الإنفاق وكان الإنسان قَتُوراً » .. القتور . البخيل ، البالغُ الغاية فى البخل ، والإقتار : ضد الإسراف ، كما يقول سبحانه وتعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قَوَاماً » (٦٧ : الفرقان) .

وضمير الخطاب : موجه إلى هؤلاء المشركين ، الذين أشار إليهم قوله تعالى : « أو لم يروْا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يَخْلق مثلهم » ..

وفى العدول عن الغيبة إلى الخطاب ، ليواجَه المشركون بهذا الاتهام ، وليكونوا هم وحدهم الممثلين اللإنسانية فى هذه الصفة الذميمة ، صفة البخل ، الذى ينضح عن طبع جافٍ ، غليظٍ ، مستبدّ .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ذكرت فيما ذكرت عن المشركين ، أنهم أعنتوا النبىّ وأبوْا أن يستجيبوا له ، ولم يكن ذلك منهم عن جهلٍ بهذه المعجزة الكبرى التى جاءهم بها النبىّ ، فهم أعلم الناس بالقرآن ، وأنه فوق أن يأتى البشر بسورة من مثله ، ولكن آفتهم التى ذهبت بهم مذاهب الضلال بين يدى هذا الصبح المشرق المبين ، هى أن الذى جاءهم بهذه المعجزة ، بشر مثلهم . فكيف يكون لإنسانٍ مثلهم أن يستأثر بهذا الفضل ، ويستولى على هذا السلطان ؟ ـ فناسب ذلك أن يجىء قوله تعالى : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّى إذاً لأمسكتم خشيةَ الإنفاق وكان الإنسان قتوراً » وفى هذا مايكشف عن الطبيعة الكامنة فيهم ، بل الطبيعة الغالبة على الناس جميعاً ، وهى حسد الناس بعضهم لبعض ، لما ركّب فيهم من أثَرةٍ وحبٍّ للذات !

فلو أن إنساناً ملك الدنيا كلها بين يديه لاستحوز عليها لنفسه ، ولأبى أن يشاركه أحدٌ فيما ملك . . وأكثر من هذا . . فإنه لو أن إنساناً من الناس مَلَكَ خزائن رحمة الله التى لاتنفد أبداً على الإنفاق منها ، لما أعطى أحداً منها شيئاً .. لا لشىء ، إلا لأنه يريد بهذا أن يكون السّيد المفردَ بين الناس !

فالإنسان يرى أخاه الإنسان منافساً خطيراً له ، وفى مجال هذا التنافس يقوم ، بين الناس والناس التحاسد ، حتى ليتمنّى بعضهم لبعض الفقر والحاجة ! على حين أن الإنسان لايَنْفَس على المخلوقات الأخرى ماحباها الله به من قوة أو سلطان أو جمال ! وقد قيل : « لا كرامة لنبىٍّ فى وطنه » .. ولله درّ المعرّى إذ يقول :

أولو الفضل فى أوطانهم غُرَباء تَشِذُّ وتنــأى عنهم القرباء

ومن هنا كانت العداوة أشدَّ بين الناس كلّما تشاكلت أحوالهم ، وتقاربت ديارهم !

— ففى قوله تعالى : « لأمسكتم خشية الإنفـاق » كلام محذوف ، تقديره : لأمسكتم خشية أن تنفقوا فتتسع أرزاق الناس ، ويكثر الخير فى يدهم ، وفى هذا مايفوت عليكم مقام التفرّد ، والاستعلاء على الناس !

—وقوله تعالى : « وكان الإنسانُ قتوراً » هو حكم عام على الناس فى جملتهم ، وأنهم يمسكون أيديهم عن الإنفاق ، ولو كان لأحدهم مـلء الأرض ذهباً ، ليحقّق ذاته ، ويفْرِدها بين الناس بما جمع من كنوز الدنيا ..

والرسول الكريم يقول : « لو كان لابن آدم واديان من ذَهب لتمنّى ثالثاً ! ! » .. وإنه ليس به من حاجة إلى هذا الثالث ، بل إنه ليكفيه القليل مما ضُمّ عليه أحد الواديين.. ولكنه كما قلنا ــ الأثرةُ وحبّ الذات !

الآيات : (١٠١ — ١٠٤)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » (١٠٤)

التفسير :

* قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيّنات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحوراً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة عرضت المشركين ، وموقفهم من النبىّ إذ جاءهم بالمعجزة القاهرة ، البادية لهم فى كلمات الله ، فأبوا أن يستمعوا لها ، ووقفوا من النبىّ الكريم موقف التحدّى ، يطالبونه بآياتٍ مادّيةٍ محسوسة .. فناسب ذلك أن يُذَكَّروا بهذا المشهد من الحياة الماضية ، الذى أعاد التاريخُ سيرته فيهم ، فكانوا صورة مكررة له..

فهذه آيات مادية محسوسة .. ليست واحدة ، ولكنها تسع آيات بيّنات ، قد جاء بها موسى إلى فرعون ، وعرضها عليه ، واحدة واحدة ، وكل واحدة منها تحدّث بلسان مبين أنها من عند الله ، إذ كانت معجزةً محسوسة لاينكرها إنسان له عين يبصر بها .

فماذا كان من فرعون إزاءها ؟ لقد أنكرها ، وكفر بها ، وازداد معها

بغياً وعدواناً . وقال فى موسى تلك القولة التى يقولها المشركون فى « محمد » صلوات الله وسلامه عليه .. « إنّى لأظنك ياموسى مسحوراً » ..

فبين هؤلاء المشركين من قريش ، وبين فرعون نَسَبٌ قريب ، يجمعهما فيه ، الجبروت والطغيان ، واستغلاق القلوب ، وظلام النفس ، وضلال الرأى . .

وهذه المقترحات التى يقترحها مشركو قريش على النبىّ ، قد جاء بمثلها نبىّ من أنبياء الله إلى « فرعون » فلم يجد فيها مَقْنَعاً ، ولم يرَ إلا أنها كيد من كيد موسى ، وسحر من سحره .. ولو جاء النبىّ إلى هؤلاء المشركين بتلك الآيات ، أو ما يماثلها ، أو يزيد عليها ، لما تغيرّ موقفهم من النبى ، بل لزادهم ذلك ضلالا إلى ضلال ، وفتنةً إلى فتنة ..

والآيات التسع التى قدّمها موسى بين يدى فرعون .. هى : العصا التى يلقيها فإذا هى ثعبان مبين ، ويده التى يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء .. فهاتان آيتان ..

ثم ما أخذ الله به فرعون وقومه على يد موسى من السّنين ، وهى سنوات من القحط والجدب ، حيث كان النيل يجفّ .. ثم مارماهم الله به من الآفات المهلكة التى أتت على الزروع والثمار ، بعد أن أينعت وأثمرت ! .. فهاتان آيتان .. كما يقول سبحانه : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذّكَّرُون » (١٣٠ : الأعراف) . .

ثم ماسلّط الله سبحانه وتعالى على فرعون وقومه من الطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدّم .. كما يقول سبحانه : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم .. آياتٍ مفصلات » (١٣٣ : الأعراف) وهذه خمس آيات .. وقد شرحنا هذا فى سورة الأعراف . .

* وفى قوله تعالى : «فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحوراً» دعوة إلى بنى إسرائيل ، ليشهدوا على هذا الذى يقوله القرآن الكريم ، فيما يقصّ من خبر موسى وفرعون ..

وفى دعوة بنى إسرائيل إلى الشهادة هنا ، فضحٌ لهم ، ولماهم عليه من ضلال .. إذ أنهم يعلمون منذ اليوم الأول للرسالة الإسلامية ، أن رسولها مبعوث من عند الله ، وأن مابين يديه من قرآن ، هو كلمات الله .. وقد كان الواجب يقتضيهم ـ ديانةً وخلقاً ـ أن يؤازروا النبيّ ، وأن يؤيدوه فى دعوته ، وأن يؤدّوا الشهادة فى النبيّ على وجهها ، إذاهم سُئلوا من قريش .. لا أن يكونوا قوة مستترة وراء المشركين ، يمدونهم بكلمات الزور والضلال ، ويلقون بها بين يدى الدعوة الإسلامية .. حيث كان اليهود عند المشركين موضعَ ثقة فيما يتصل بالرسل والرسالات ، لأنهم أهلُ كتاب .. وقد ذَكر القرآن الكريم كثيراً من تلك المواقف اللئيمة التى كان يقفها اليهود من النبىّ ومن رسالته .. كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطّاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (٥١ : النساء) ..

* قوله تعالى : « قال .. لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السّموات والأرض بصائرَ وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً » ..

البصائر : جمع بصيرة ، وهى القوة العاقلة فى الإنسان ، التى تكشف له الأمور ، وتريه عواقبها .

والمثبور : الهالك .. وهو من الثبور ، أى الهلاك ..

ـ وفى قول موسى لفرعون : « لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السموات والأرض بصائر» ـ إشارة إلى أن هذه الآيات التى رآها فرعون، من شأنها أن تقيم

فى كيان من يراها ، علماً محققاً ، ويقيناً راسخاً بأنها من عند الله .. فهى آيات ناطقة ، لاتحتاج إلى أكثر من إنسان ، له مافى الإنسان من سمع وبصر وعقل ، إذا هو التقى بها ، ونظر فيها ، أرته من وجوهها مايشهد بأنها من عند الله ، وأن الرسول الذى جاء بها ، إنما هو رسول الله !

وإذن ، فمن شأن فرعون ـ إن لم يكن قد علم ـ أن يعلم أن هذه الآيات إنما نزلت من عند الله ، وأن موسى ليس إلا حاملا لها ، ومبلغاً إياها .. ! وهومايشير إليه قول موسى لفرعون : « لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السموات والأرض » .. أى إنك لتعلم هذا ، ولكن العناد والكبر ، يأخذان عليك الطريق إلى الإقرار بالحق ، والإذعان له ..

وفى الإشارة إلى الآيات بإشارة العقلاء « هؤلاء » مايدل على أنهن آيات تنطق بلسان مبين ، وتحدّث عن نفسها ، وتُبِين عن حقيقتها ، حتى لكأنها ذات عقل يدرك ، ولسان ينطق .

ـــوفى قول موسى لفرعون : « وإنى لأظنك يافرعون مثبورا » ردٌّ على قول فرعون له : « إنى لأظنك يا موسى مسحوراً » .. والظن هنا بمعنى اليقين ، سواء ظن فرعون ، أو ظن موسى .. ففرعون يقول عن يقين قائم على جهل وعناد ، وموسى يقول عن يقين ، يشهد به واقع الحال ، ويدلّ عليه ماركِب فرعونَ من كبر وعناد !

* قوله تعالى : « فأراد أن يستفزّهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً » .

الاستفزاز : الإفزاع ، والإزعاج ..

وإرادة فرعون ، هى همّه ، وتأهبه .. أى أنه عندما رأى فرعون مارأى من معجزات ، وأبى أن يؤمن بها ، وأعجزته الحيلة عن أن يتحدّى تلك المعجزات ـ أراد أن ينتقم من بنى إسرائيل ، الذين جاء موسى ليخلّصهم من

يده ، وَيخرج بهم من مصر ، وذلك بأن يبطش بهم ، ويقضى عليهم قضاء مبرماً ، حتى لا يكون لموسى موقف معه بعد أن يصبح أو يمسى فلا يجد لبنى إسرائيل أثراً ، ولـكن مكر الله به كان أسرع ، فساقه هو وجنوده إلى البحر ، حيث هلك وهلك كل من ركب البحر وراء بنى إسرائيل معه ..

* قوله تعالى : « وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً » .

اختلف المفسرون فى المراد من « الأرض » التى دُعى بنو إسرائيـــل إلى سكناها . . وأكثر الآراء على أنها الأرض المقدسة التى أشار إليها قوله تعالى على لسان موسى : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كَتَب الله لـكم » (٢١ : المائدة) .

كذلك اختلف المفسرون فى المراد بوعد الآخرة : فى قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة » ويكاد يكون إجماعهم على أنه يوم القيامة ..

والرأى الذى نَميل إليه ، أن المراد بالأرض ، هو مُطلَق الأرض .. وهذا يعنى أن يتبعثر بنو إسرائيل فى وجوه الأرض كلها ، وأن يتناثروا فى أقطارها ، كما يشير إلى ذلك قوله تعـــالى : « وقطّعناهم فى الأرض أمماً » (١٦٨ : الأعراف) .. وقد قُطّعوا أمماً ، وتناثروا فى آفاق الأرض كلها ..

وعلى هذا يكون المراد بوعد الآخرة هنا ، هو ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهَـكُمْ وليَدْخُلوا المسجد كما دخلوه أولَ مرّة » (٧ : الإسراء) ..

ويكون معنى الآية : أن الله سبحانه وتعالى قد حكم على بنى إسرائيل بأن يتقلبوا فى هذه الأرض ، فيجتمعوا ويتفرقوا ، فإذا اجتمعوا وقامت لهم دولة وسلطان ، فَسَدُوا وأفسَدُوا ، فيسلط الله سبحانه وتعالى عليهم من يضربهم بيد البلاء ، فيشتت شملهم ، ويمزّق جمعهم .. وأن هذا الجمع والتفرق سيقع منهم

مرتين..أما المرة الأولى ، فهى تجربة لهم ، فإذا كانت الثانية ، وعادوا إلى ما كانوا عليه فى المرة الأولى ، ضربهم الله سبحانه وتعالى الضربة القاضية ، التى لاقيام لهم بعدها .. وهذا يعنى أنه إذا جاء وعد المرة الآخرة ، جاء بهم الله سبحانه وتعالى « لفيفاً » أى من شتّى بقاع الأرض ، وعندئذ تقوم لهم دولة ، ولكنها دولة تحمل فى كيانها عوامل هدمها ، كما تقوم عليه هذه الدولة الآن ، من بغى ، وعدوان وعندئذ تحقّ عليها كلمة الله .. « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرّةٍ وليتبروا ماعلوْا تتبيراً » .

وأصل « اللفيف » من اللفّ ، وهو لفّ الشىء فى الشىء ، وإخفاؤه فيه .. ومنه الشجر الملتفّ ، وهو الذى تشابكت أغصانه ، فأطبقت على ماتملوه من أرض ، حتى لايكاد ينفذ إليها شىء من خارج ..

وهذا يعنى أن مجىء بنى إسرائيل إلى وعد الآخرة ، إنما يكون من حيث تاهوا وضلوا فى وجوه الأرض ، ولم يكن له وضع ظاهر فيها ..

وقد أشرنا إلى هذا فى أول السورة ، فى مبحث خاص ..

الآيات : (١٠٥ — ١١١)

* « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ

ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا » (١١١)

التفسير :

* قوله تعالى : وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل وما أرسلناك إلا مُبشراً ونذيراً » .

الضمير فى أنزلناه ، يعود إلى القرآن الكريم ، وليس هناك مذكور يعود إليه هذا الضمير ، وفى هذا مايشير إلى علوّ مقام القرآن ، وأنه أظهر وأشهر من أن يُذكر للدلالة عليه .. فإذا ذُكر الحقُّ الذى نزل من السماء ، واستقرّ حقًّا قائماً فى هذه الأرض ، مصاحباً للناس ـ كان ذلك مَعنيًا به القرآن الكريم وحده ، دون سواه .

وهنا سؤال :

كيف يكون ذلك الوصف خاصًّا بالقرآن الكريم وحده ، مع أن الكتب السماوية كلّها إنما نزلت بالحقِّ ، لأنها من عند الله ؟

والجواب على هذا ، هو أن هذه الكتب ، وإن تكن قد أنزلها الله سبحانه وتعالى ، بالحقِّ ، كما أنزل القرآن . . إلا أنها حين اتصلت بالنّاس ، عبثوا بها ، وغيّروا معالمها ، وأخفوا الحق الذى نزلت به . .

أما القرآن الكريم ، فقد أنزله الله سبحانه وتعالى بالحق ، وأنه سبحانه تولّى حفظ هذا الحقّ الذى نزل به ، فلم تُبدّل آياته ، ولم تحرّف كلماته .. وهذا هو بعض السرّ فى قوله تعالى : «وبالحقّ نزل» .. أى ملازماً للحقّ ، قائماً عليه .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون » . .

(٩ : الحجر) فالقرآن محفوظ بقدرة الله من أن تمتد إليه يد التحريف والتبديل .. فهو نعمة تامّة ، أنعم الله بها سبحانه وتعالى على هذه الأمة ، لتكون منارَ هدًى ورحمة للناس إلى يوم الدّين . أما الكتب السماوية السابقة ، فهى نعمٌ من عند الله ، ابتُلى بها من أنعم الله عليهم بها ، وشأنها فى هذا شأن كل نعم الله ، يُخْلى الله سبحانه وتعالى بينها وبين أهلها ، إن شاءوا حفظوها ، وإن شاءوا ضيعوها ..

ولهذا ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الكتب ، أمانةً فى يد القائمين عليها من أحبار ورهبان .. وهذا مايشير اليه قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون والأحبار بما استُحفظوا من كتابِ الله وكانوا عليه شهداء » (٤٤ : المائدة) فهم الموكَّلون بحفظ كتبهم التى هى أمانة فى أيديهم .. فإن شاءوا حفظوها ، وإن شاءوا ضيعوها ، شأنهم فى هذا شأنهم فى كل أمانة يؤتمن الناس عليها .. وقد ضيع أهل الكتاب هذه الأمانة ، فلم يَرْعَوها حقّ رعايتها ، بل مكروا بآيات الله ، فغيّروا وبدّلوا ، وألقوْا بأهوائهم فيهــا .. على هذه الصورة الشائهة التى فى أيديهم ..

— وفى قوله تعالى : «وما أرسلناك إلا مبشّراً ونذيراً » إشارة إلى أن مهمّة النبىّ هى إبلاغ هذا الكتاب ، والتبشير بما يحمل إلى الذين يؤمنون به من رضوان الله ، وثوابه العظيم لهم ، فى الدنيا والآخرة ، والإنذار بما يحمل إلى المكذبين ، من وعيد بالبلاء والنقمة وسوء المنقلب .! تلك هى وظيفة النبى مع هذا الكتاب الذى أنزله الله عليه . . أما حفظه ، فقد تولاّه الله سبحانه وتعالى. فليُفرِغ النبىّ جهدَه كلّه ، إلى إبلاغه للناس !

* قوله تعالى : « وقرآناً فرقناهُ لتقرأه على الناسِ على مُكثٍ ونزّلناه تنزيلاً » .

والواو فى قوله تعالى : « وقرآناً » هى واو العطف ، وما بعدها معطوف على الآية قبلها . . لتُثبت وصفاً آخرَ للقرآن . . فكما أنه نزل بالحق ، وبالحق استقرّ وثبت ، ولم يلحقه تبديل أو تحريف ــ هو كذلك نزل قرآناً منجّماً ، ولم ينزل مرة واحدة .

وفى تنكير « قرآناً » تنويه به ، ورفع لقدمه ، وأنه لتفرده بهذا الوصف ، مستغنٍ عن كل تعريف . . إذ كان هو وحده المستأهل لأن يُقرأ ، وأن يُؤثَر بالقراءة من كل قارىء .

و « فَرَقْناه » أى نزلناه مفرّقاً ، ولم ينزل كُلاًّ واحداً ، كما نزلت الكتب قبله . . وأصله من الفرْق ، وهو الفصل بين الشيئين ، كما يقول سبحانه وتعالى : « فانفلق فكان كلُّ فرق كالطود العظيم » (٦٣ : الشعراء) أى أن موسى حين ضرب البحر بعصاه انفلق ، وانشق ، فكان كل فرق ، أى جانب ، كالجبل العظيم وقد قرىء « فرّقناه » بتشديد الراء . . وهذا يؤيد المعنى الذى أشرنا إليه كما يؤيده قوله تعالى بعد ذلك : « لتقرأه على الناس على مُكثٍ » . . فهذا تعليل للسبب الذى من أجله أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على مُكث ، أى على زمن متطاول ، فنزل منجّماً ، أى مفرّقاً فى نحو ثلاث وعشرين سنة . . وذلك ليعيش النبىّ والمؤمنون معه ، على هذا الزاد الكريم ، المختلف الألوان ، والطعوم ، طَوال تلك المدّة التى كان القرآن يتنزل فيها ، وهم يرصدون مطلع كلِّ آية ، ويشهدون بزوغ كل كلمة . . وبهذا ظل النبى والمؤمنون معه خلالَ هذه السنين الثلاث والعشرين فى مقام الانتظار لهذا الضيف العظيم ، تطالع عليهم مواكبه موكباً ، موكباً ، وتلقاهم أضواؤه ، شعاعة شعاعة ، حتى إذا كان

آخر كوكبة فى مواكبه ، وآخر ضوءة بين السماء والأرض ـ أذّن مؤذّن الحق: « اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وعندها صافح النبىّ هذا الوافد الكريم ، فى موكبه الحافل ، وسَنَاهُ المشرق ، ثم ودّعه ، لينتقل هو — صلوات الله وسلامه عليه — إلى الرفيق الأعلى ، وليقيم القرآن فى الناس مقامَه ، حيث يجتمع عليه المسلمون ، ويستقبلون من آياته وكلماته إشارات الهدى ، إلى حيث الفلاح والنجاة ، فى الدنيا والآخرة جميعاً . .

— وفى قوله تعالى : « لتقرأه على الناس على مُكثٍ » وفى تعدية الفعل « قرأ » بحرف الجرّ « على » « على الناس » بدلاً من اللام : « للناس » . إشارة إلى علوّ هذا القرآن ، وأنه بحيث يشرف عليهم من عَلْيائه ، فيملأ وجودهم نوراً ، وألقاً ، وبحيث يكشف لهم كلّ خفيّةٍ ، إذا هم جعلوا أبصارهم إليه ، ووجهوا عقولهم وقلوبهم له . . فلا تُعمّى عليهم المسالك ، ولا تتفرق بهم السبل ، وفى هذا يقول الرسول الكريم « تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى أبداً : كتابَ الله وسنّتى » .

— وفى قوله تعالى : « ونزّلناه تنزيلاً » بيان للأسلوب الذى نزل به القرآن خلالَ هذا الزمن الذى نزل فيه ، وأنه نُزّلَ تنزيلاً . . أى نَزَل شيئاً شيئاً ، وهذا يعنى أن القرآن الكريم وإن تلقّاه النبىّ آية آية ، وآياتٍ آياتٍ ، وسورة سورة — فإنه فى جميع أحواله تلك ، هو القرآن الكريم كلّه . . ففى الآية الواحدة ، أو الآيات ، يُعرف القرآن الكريم ، ويُعرف أنه كلام ربّ العالمين ، وأنه المعجزة القاهرة المتحدية ، التى تَقْصُر دونها أيدى البلغاء ، وتخضع لجلالها رقاب الفحول من الشعراء والخطباء !

فالآيات القليلة التى تلقّاها النبىّ فى صَدْرِ دعوته ، كانت صورة مصغرة

للقرآن الكريم كله . . بها تحدّى قريشاً ، وبها أفحمهم وأعجزهم ! .

وإذا كان لنا أن نمثّل للصورة التى تنزل بها القرآن ، فإنه يمكن أن نرى فى القمر وفى مطالعه ومنازله ، أقربَ صورة له . . حيث القمر هو القمر فى جميع مطالعه ، وإن لم ينكشف من وجهه ، هلالاً ، ما انكشف منه ، بدراً . . إنه فى جميع أحواله آية من آيات الله ، وإن أية لمة بارقة منه هى إشارة مُبينة عنه ، ونبأ عظيم يحدّث عن بهائه وجلاله وروعته ! . . ومع هذا ، فإن العيون الكليلة لا تنبهر به ، والقلوب المريضة لا يروعها مايروع القلوب من هذا الجلال والجمال المطلّ به على الوجود . . تماماً كالقرآن الكريم الذى لم تتفتح له قلوب المستكبرين الضالين ، حتى بعد أن تم وكمل ، على حين انجذب إليه المهتدون المؤمنون مع أول آية من آياته ، ولأول إشارة من إشاراته . .

قوله تعالى :

* « قل آمنوا به أولا تُؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلَى عَلَيْهِم يَخِرُّون للأَذقانِ سُجَّداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وَعْدُ ربِّنَا لمفعولاً » .

فى هذه الآية إشارة إلى أن شأن أولئك المكابرين المعاندين ، الذين يقفون من كتابِ الله هذا الموقف المنحرف ، وينظرون إليه هذا المنظر المريض — إشارة إلى أنهم لا يُعلون من قدْر القرآن شيئاً ، إذا هم آمنوا به ، ولا يُنزلون من قدره شيئاً ، إذا هم أمسكوا أنفسهم على الكفر ، وأبوْا أن يعترفوا بأنه كلام الله ، وأن الرسول الذى جاء به هو رسول الله . . إنه مائدة الله الممدودة بهذا الخير الذى لا ينفد على كثرة الطاعمين منه ، ولا يفسد على مر الزمن لقلة الأيدى التى تمتد إليه ، وتنال منه . . فالشمس هى الشمس ، وإن اكتحلت بضوئها الأبصار ، أو عشيت عن ضوئها العيون !!

— وفى قوله تعالى : « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليه يَخِرّون

للأذقان سُجّداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعدُ ربّنا لمفعولا » . . في هذا إشارتان :

أولاهما : أن هذا القرآن لا يَقْدُره قَدْرَه ، ولا يعرف فضله ، إلا من انتفع بعقله ، وأحسن الاستماع إليه ، والتلقي عنه . . وأنّ أصحاب العقل والحجا وأهل العلم والمعرفة ، هم أقرب الناس نسباً إلى هذا القرآن — وأكثرهم معرفةً به ، وأصدقهم نظراً إليه ، وعِرفاناً بقدره وفضله .

وثانيتهما : أن هذا القرآن ، قد جعل للعرب عامة ، ولأهل مكة خاصة فضلَ السبق إليه . والوقوف على موارده . . فجاء إليهم بلسانٍ عربى مبين ، هو لسانهم الذى به يتعاملون . . ثم هو من جهة أخرى قد سعى إليهم ، وحلّ بينهم ، دون أن يبذلوا جَهْداً أو مالاً . . فإن هم أحسنوا استقبالَه ، وأخذوا بِحظّهم منه ، فذلك هو خيرهم المدعوّون إليه ، وإن هم أساءوا مَقامَه فيهم ، وغَلّوا أيديهم عن تناول قطوفه ، والأخذ من ثمره ، ارتحل عنهم إلى غيرهم ، ونزل عند مَن يعرف قدره ، ويُحسن الأخذَ عنه . .

والقوم الذين يتلفت إليهم القرآن فى هذا الموقف ، ويُؤذِن أهلَ مكة بالتحول عنهم إليهم ، هم أهل العلم ، من أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى . . فأهل العلم هؤلاء يعرفون قدْر هذا القرآن ويعلمون — بما عندهم من علم — أنه كلام الله ، وأن الرسول الذى يتلوه — هو رسول الله . . وأن هذا القرآن إذا يُتلى عليهم خشعوا له ، وخرُّوا على أذقانهم سجّداً بين يدى آياته وكلماته . . كما يقول سبحانه وتعالى فى القسيسين والرهبان من النصارى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تَرَى أعينَهم تفيضُ من الدمع مِمّا عَرَفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (٨٣ : المائدة) . .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى الآية : « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا

يُتلى عَليْهم يخرّون للأذقان سجّداً ، ويقولون سبحان ربّنا إنْ كان وعدُ ربّنا لمفعولا » ..

والذى ينبغى الالتفات إليه هنا ، هو أن أهل العلم من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين إذا يُتلى عليهم القرآن « يخرّون للأذقان سجّداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعدُ ربنا لمفعولا » — لم يكونوا قد وُجهوا بالقرآن بعد ، ولم يكونوا قد دُعوا إلى الإيمان به .. إذ كانت الدعوة لاتزال تمهدّ الأرض التى تركّز رايتها فيها ، وتجعل منها مُنطلقاً لرسالتها فى الناس جميعاً .. حيث تخيرت الأمةَ العربية التى نزلت بلسانها ، لحمل هذا الشرف العظيم .. ومع هذا ، فإن أهل الكتاب — وخاصة أهل العلم منهم — كانوا يرصدون مطلع النبوة ، ويشهدون هذا الصراع المحتدم فى مكة بين قريش وبين النبيّ الذى ظهر فيهم ، ومايتلو عليهم من آيات الله .. وكانت تلك الآيات ، تطرق أسماع العلماء من أهل الكتاب ، فيعرفون وجه الحق فيها ، فتخشع لذلك قلوبهم ، وتفيض بالدمع عيونُهم ويخرّون للأذقان يبكون !

وفى هذا الذى يتحدث به القرآن إلى أهل مكّة عن علماء أهل الكتاب ، وعن موقع كلمات الله وآياته هذا الموقع منهم — فى هذا تسفيه لأهل مكة ، ولتفلّتهم عن هذا الخير الوارد عليهم ، ثم هو من جهة أخرى تحريض لهم على أن يبادروا هذا الخير فيأخذوا حظهم منه ، قبل أن يفلت من أيديهم ، ويسبقهم إليه أهل الكتاب ، وهم الذين كانوا يَنفَسُون على أهل الكتاب هذا العلم الذى جاءتهم به رسل الله فى هذه الكتب التى فى أيديهم ، والذين كانوا يقولون ماحكاه القرآن عنهم : « لو أنّـآ أُنزل علينا الكتابُ لكنّا أهدى منهم (١٥٧ : الأنعام) .. فهاهم أولاء قد أُنزل عليهم الكتابُ الذى كانوا يتمنوّنه ، وهاهم أولاء يزوَرّون عن هذا الكتاب ، ويزهدون فيه ، بل ويرجمونه بأيديهم

وألسنتهم .. فهل بعد هذا السّفه سفه ؟ وهل مع هذا الغَباء غَباء !

— وفى قوله تعالى : «يخرّون للأذقان سجّداً» إشارة إلى عِظَم وقْع القرآن على قلوبهم ، وأنهم إذا تليت عليهم آياته استولت عليهم حالٌ من الخشية والرهبـة ، فسقطوا مغشياً عليهم ، بكيانهم كلّه . وألقوْا بثقل أجسامهم على الأرض ، ولصقت وجوههم بها . !

قوله تعالى :

* « ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » .

هو بيان لحال أخرى من أحوال أهل العلم من أهل الـكتاب ، إذا يُتلى عليهم القرآن .. فهم لأول الصدمة يخرّون على أذقانهم سجّداً .. ثم هم إذا صَحَوْا من سكرتهم قليلا ، وفاء إليهم ماعزب من عقولهم ، وجدوا أنفسهم مع آيات الله ، تطالعهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيخرّون للأذقان باكين ، لما عَرَفوا من الحق .. فيزدادون خشوعاً إلى خشوع ، وإيماناً إلى إيمان !

فهما إذن حالان للمستمعين إلى آيات الله ، من أهل العلم هؤلاء ..

الحال الأولى ، حين تلقاهم آيات الله ، وتطلُع عليهم كلماته لأول وهلة .. فإذاهم بين يديها فى حال من الجلال والرهبة ، تنعقد معه الألسنة ، وتسكن معه الجوارح ، وتخمد الأنفاس .. شأنهم فى هذا شأن من تبغته آية من آيات الله ، يرى فيها من الحسن والجمال مالم تشهده عين ، ولم يتصوره خاطر ، فيخرّ مغشياً عليه ، جلالاً ورهبةً ..

والحال الثانية .. أنه حين يعيشون مع هذه الآيات وقتاً ما ، ويأنسون إليها ، ويزايلهم بعضُ ماوقع عليهم أولَ الأمر من سطوة جلالها وجمالها ، عندئذ يجدون شيئاً من العقل يلقونه بها ، وإذا هى لعقولهم أبهى جلالاً ، وأروعُ

جمالا ، مما استقبلته منها أولَ الأمر مشاعرُهم .. وهكذا يلتقى عندهم على كلمات الله ، منطقُ العقل ، مع بداهة الشعور ، فيتأكد لذلك حكم البداهة .. « ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » .

قوله تعالى :

* «قل ادعوا الله أو ادعُوا الرحمٰنَ أيًّا ماتدعوا فله الأسماءُ الحُسْنَى ولا تَجْهَرْ بِصَلاتك وَلاَ تُخافِتْ بها وابتغ بين ذلك سبيلاً » .

فى هذه الآية يعود الخطاب إلى المشركين ، بعد أن وقفت بهم الآيتـان السابقتان إزاء أهل الـكتاب ، وأرتهم منهم أنهم يتعاملون مع هذا القرآن الذى لم يُدْعَوْا إليه بَعْدُ ، ويلقوْنه بهذا الاحتفـاء العظيم ، على حين أنهم ـ أى المشركين ـ يَلْقَوْن هذا القرآن الذى دعوا إليه ، بوجوه منكرة ، وقلوب مغلقة ، وعقول شاردة .

وفى تجديد الخطاب إليهم ، دعوة مجدّدة لهم إلى أن يتدبروا أمرهم هذا الذى هم فيه ، وأن يبادروا فيصلحوا موقفهم من القرآن ، ويصطلحوا معه ، ويلقوْه لقاء كريماً غير هذا اللقاء الذى كان منهم .. هذا إن كان لهم حاجة فى أنفسهم ، وفى استنقاذها من الضلال والضياع ! وإلا فهم وما اختاروا !

ــ وفى قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » تصحيح لمعتقد المشركين فى الله .. ذلك أنهم كانوا لا يعرفون عن الله إلا أنه « الله » أى الإلٰه الأكبر ، الذى يرأس الآلهة الآخرين ، الذين يعبدونهم من دونه .. من ملائكة وكواكب ، مثّلوها فى تلك الأصنام التى نحتوها من أحجار ، وسوّوها من خشب ، أو ذهب .. كاللات ، والعزّى ، ومناة ، وغيرها . .

فاسم « الله »هو عند هؤلاء المشركين ، هو العلَمُ الذى يطلقونه على الإلٰه الأكبر .. ليس له عندهم اسم أو صفة أخرى ..

ولهذا عجب هؤلاء المشركون حين كانوا يسمعون من النبيّ تلك الأسماء والصفات التي كن يذكرها فيما يذكر القرآن الكريم ، من أسماء الله وصفاته .. كالرحمن ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ،والعليم، والحكيم .. وكانوا يقولون : أإله هو أم آلهة هذا الذى يدعونا محمد إلى الإيمان به ؟ وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن .. قالوا وما الرحمن ؟ أنسْجُد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً » (٦٠ : الفرقان) .

فكان قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى » ــ تصحيحاً لمعتقدهم الفاسد فى الله ، وأنه سبحانه وتعالى ليس ــ كما تصوّروا ــ ذاتاً كذواتهم ، أو ذواتِ معبوداتهم ، يُطلق عليهم اسم واحد ، يُستدلّ به عليه ، ويتعامل معه به !

فالله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال كلها ، فأىّ وصف من أوصاف الكمال ، هو لِله سبحانه ، وهو اسمٌ وصفة معاً لذاته .. فالله ، هو الرحمن ، وهو الرحيم ، وهو العليم ، وهو السميع ، وهو البصير ، وهو الخالق ، وهو الرازق .. إلى ما يمكن أن تحمل اللغة من صفات الكمال والجلال ، التى لايشاركه أحد فيها ..

فكل اسم حسن يُدعى الله به ، ويتعبّد عليه ، هو إيمان بالله ، وإقرار بالعبودية له . وذلك بأية لغة ، وبأى لسان !

ــ وفى قوله تعالى : « ولا تجهرْ بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً » ــ هو بيان للأسلوب القاصد ، المستقيم ، الذى يدْعَى الله سبحانه وتعالى به ، ويتعبّد عليه ، وهو ألا يكون جهراً صارخاً بالدعاء ، وبالصلاة ــ وهى دعاء أيضاً ــ ولا همساً خافتاً به .. وإنما هو وسط بين هذا وذاك .. فالجهر الصارخ ، يَدْخل على الإنسان بشعورٍ خفىّ ، بأن الله بعيدٌ عنه ، لايسمع إلا إذا

نُودى نداء عاليًا ، ولهذا نَهى النبىّ أصحابه فى بعض أسفاره ، وكانوا كلّما عَلَوْا شَرَفًا من الأرض رفعوا أصواتهم بالتكبير - نهاهم أن يبالغوا فى هذا ، وقال : « إنكم لا تدعون رَبًّا أصمّ » .

أما الهمس بالدعاء والمخافتة به ، فإنه يعزل صاحبه عن أن يَسْمع ما يناجى به الله ، ومن ثَمّ فلا يتشكل له من دعائه من المعانى ما يصل شعوره بالله ، ويشدّ عقله وقلبه إليه ! .

* قوله تعالى :

« وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملكِ ولم يكن له وَلِىٌّ من الذُّلِّ وكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا » .

بهذه الآية تُختم هذه السورة الكريمة . . فيلتقى ختامها مع بدئها ، حيث بدأت بتسبيح الله وتنزيهه ثم خُتمت بحمده وتقديسه .

وكأنّ هذا الحمدَ هو مما أوجبه استقبال تلك المِنّة الكبرى التى مَنّ الله بها على عبده محمد ، إذ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

ثم لكأن هذا الحمد أيضاً هو بيان لصورة من صور الكمال التى يُدْعَى بها الله أو الرحمٰن ، كما جاء الأمر فى قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

ونُزّل قوله تعالى : « الحمدُ لِلهِ الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له وَلِىٌّ من الذل » ، فنجد أننا بين يدى صلاة هى الصورة المثلى للدعاء لذى أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ الكريم والمؤمنين معه ، أن يقيموا دعاءهم عليه فى قوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا » .

ــ ففى هذا الدعاء : « الحمدُ للهِ الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذُّلِّ » فى هذا الدعاء أكثر من ظاهرة .

فأولاً : مضمون الدعاء . . فهو فى كلمات قليلة ، قد جُمع فيها ما تفرق من صور الدّعاء ، فى مقام الولاء لله ، وإخلاص العبادة والعبودية لله . . فهو حمد لله ،وقصر هذا الحمدعليه وحده ، إذ هوإقرار بأن اللهسبحانهالمتفرد بالكمال، والمنزّه عن النقص ، فلا حاجة له إلى ولد يؤنس وحشته ، ويتخذ منه سنداً وعضداً ، ولا منازع له ، ولا شريك معه فى هذا الوجود ، ولا مُعين له فى القيام على هذا الوجود ، والإمساك بنظامه الحافظ له . . فحيث نظر ناظر ، فرأى قوةً لقوىّ ، أو عظمةً لعظيم ، أو سلطاناً لذى سلطان ، أو غِنًى لذى غنًى . . أو ما شا كل ذلك مما يكبُر فى صدور الناس ــ فالله سبحانه وتعالى له القوة كلها ، وله العظمة جميعها ، وله السلطان المطلق ، وله الغِنى الشامل ، وله الكمال فى كل شىء ، وإليه أمر كل شىء . . وهذا هو بعض السرّ فى أن خُتم هذا الدعاء بقوله تعالى : « وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ».. أى قل :الله أكبر ، الله أكبر .. تكبيراً مطلقاً ، من غير مقايسة أو مفاضلة . . الكبير فى كل مقام . . فهو ــ سبحانه ــ الكبير المتعال ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وثانياً : الكلمات التى خُتم بها هذا الدعاء ، قد انتظمت صورتها من حروف ، من شأنها أن تمسك من ينطق بها على حالٍ بين الجهر والتخافت ، حتى دون أن يكون ذلك عن قصدٍ منه .

بل إن الأمر لأكثر من هذا ، فلو ذَهَبَ من يتلو هذه الكلمات أن يجهر بها إلى حيث يبلغ صوته من العلوّ ، لأمسكت به عند طبقة معينة من الأداء الصوتى ، لايستطيع أن يرتفع فوقه ، وذلك لخلوّها من أى حرف من حروف المدّ . . وهى الواو ، والألف ، والياء . . الأمر الذى يحجز الصوت عن أن يذهب مذهباً فوق حدود الاعتدال . .

ومن جهة أخرى ، فإن الذى يتلو هذه الكلمات ، لو أراد أن يُخافت بها ، لتفلّتت منه ، وحملته حملًا على أن ينطق بها ، وأن يُجرِيَها خارج شفتيه .

وانظر ، فإنك تجد أكثر حروف هذه الكلمات من اللامات والميمات والدالات والذالات : « الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل » .

فهناك خمسة عشر لاماً وستة ميمات ، ودَالان ، وثلاثة ذالات .

ومخرج حرف اللام من طرف اللسان حيث يضرب فى مقدمة الحَلْق ، على حين أن الميم مخرجه من الشفتين ، ومخرج الدال والذال من أقصى طرف اللسان ، حيث يَضْرب فى الأسنان . .

فالحركة الغالبة عند النطق بهذه الكلمات ، هى حركة طرف اللسان مع الشفتين ، حيث لو أراد الإنسان أن يحرك لسانه بهذه الكلمات من داخل شفتيه ، لاضطر اضطراراً إلى أن يفتح شفتيه عند النطق بالميم ، ولو أراد أن يَزِمَّ شفتيه عند النطق بالميمات ، لوجد هناك ما يَقْسِره قسراً على أن يفتح شفتيه عند الالتقاء بثلاث واوات رُصدت له ، وأخذت مكانها فى مقاطع هذه الكلمات . . والواو حرف لا يتحقق نطقه نطقاً صحيحاً إلا بحركة الشفتين ، حركة تجمعهما ، ثم تفرقهما فى فتحة أشبه بنصف دائرة !

فسبحان مَنْ هذا كلامه ! سبحانه ! سبحانه ! !

١٨ - سورة الكهف

نزولها : مكية بالإجماع ، إلا بعض آيات اختلف فيها .

عدد آياتها : مائة وعشر آيات .

عدد كلماتها : ألف وخمسمائة وتسع وسبعون كلمة .

عدد حروفها : سبعة آلاف ، وثلاثمائة وستة أحرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

* « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » (٨)

التفسير :

بدأت هذه السورة بحمد الله ، فكان هذا البدء جواباً على ختام السورة التى قبلها ، واستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى فى الآية الأخيرة منها ، وهى

قوله تعالى : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذلّ وكبّره تكبيراً » .. فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب .. »

فقوله تعالى :

* « الحمدُ لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يَجعلْ له عوجاً » هو وجه آخر من وجوه الحمد لله سبحانه وتعالى . . فإذ استوجب الله سبحانه وتعالى الحمدَ لجلاله وعظمته ، وتنزهه عن أن يتخذ ولداً ، أو يكون له شريك فى الملك أو ولىّ من الذل ـ فإنه سبحانه ، مستوجبٌ الحمدَ كذلك على تلك النعمة الجليلة التى أنعم الله بها على عبده محمد ، فأنزل عليه هذا الكتاب الذى تستنير بآياته البصائر ، وتعمُر بتلاوته القلوب ، وتهتدى به العقول .. فتلك النعمة الجليلة هى التى تمت بها نِعم الله على الإنسان ، إذ خلقه ، ورزقه ، وسخر له مافى السموات ومافى الأرض .. « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (١ : الأنعام) فالذى يجعل لهذه النعم ثمراتٍ مباركةً طيبةً ، والذى يجعل إلى يد الإنسان ميزاناً يضبط به هذه النعم على وجه الخير والإحسان ـ هو تلك الهداية التى يستمدّها من هذا الكتاب الكريم .. وبغير هذا لايستطيع أن يُحسن الانتفاع بهذه النعم ، بل ربما تحولت هذه النعم فى يده إلى أسلحة قاتلة ، له وللناس معه.. فكان نزول هذا الكتاب من تمام نعم الله على عباده .. فاستوجب سبحانه الحمدَ والشكران .

وفى ذكر محمدٍ صلوات الله وسلامه عليه بالعبودية تكريم له من ربّه ، ورفع لمقامه ، إذ جعله عبداً استحق أن يضاف إليه سبحانه !

— وفى قوله تعالى : « ولم يجعل له عِوَجاً » إشارة إلى سماحة الشريعة الإسلامية ، التى جاء بها محمد صلوات الله وسلامه عليه ، والتى حملها هذا الكتاب

الذى لاعِوج فيه ، ولا خروج فى أحكامه وتشريعاته عن سَنَن الفطرة التى فطر الله الناسَ عليها ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتّبعوه ولا تتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله » (١٥٣ : الأنعام) .

فالقرآن الكريم لم يجىء بأىّ تكليف فيه حرج ، ومشقة ، كما جاءت الشرائع السابقة،التى حملت إلى المدعوّين إليها ، ضروبا من الإعنات والإرهاق . تأديباً ، وإصلاحاً ، لِما فيهم من اعوجاج حادّ ، كما فى شريعة موسى ، ووصايا عيسى ، فقد حرّم الله فى شريعة موسى على بنى إسرائيل طيباتٍ كانت أحلّت لهم كما يقول سبحانه : « فبِظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم » (١٦٠ : النساء) وكما يقول سبحانه : « وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذى ظُفُرٍ ومن البقر والغَنَم حَرّمنا عَليْهم شحُومَهما إلا ماحَمَلتْ ظهورُهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ ذلك جَزَيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون » (١٤٦ : الأنعام) ..

ومن البلاء الذى أخذ الله به بنى إسرائيل ، أن جعل من شريعتهم حُرمةَ العمل فى يوم السبت ، ولم يكن ذلك رحمةً بهم ، بل نكالا وبلاء ، كما يقول سبحانه : « إنما جُعل السبت على الذين اختلفوا فيه » (١٢٤ : النحل) .. أما وصايا السيد المسيح لهم ، فيكفى أن يكون دستورها قائماً على هذا المبدأ : « من لطمك على خدِّك الأيمن فحوّل له الآخَر أيضاً » .

* * *

ولاشك أن هذا عِوجٌ مقصود فى الشريعة التى شُرعت لهم ، ليقابل هذا العِوجُ مافيهم من عِوج !

أما هذه الأمة ـ أمة الإسلام ـ فقد عافاها الله من هذا البلاء ، وجعل شريعتها قائمةً على السماحة واليسر ، متجاوبة مع الفطرة التى فطر الله الناس

عليها ، كما يقول سبحانه : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٧٨ : الحج) .. فالله سبحانه ، قد اجتبى هذه الأمة واصطفاها ، ليُخرج منها خيرَ أمة أخرجت للناس .. !

هذا ، هو المعنى الذى أطمئن إلى فهم الآية الـكريمة عليه ، وإن كنتُ فى هذا لا أعرف أن أحداً من المفسرين قد نظر إليه ، أو عدّه مقولة من تلك المقولات الـكثيرة التى قيلت فى تفسير هذه الآية ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ..

وفى تعدية الفعل « يجعلْ » باللام « له » بدلا من « فى » ـ إشارة إلى أن هذا العوج الذى جاء فى الـكتب السابقة ـ تأديباً وتقويماً ـ لم يكن فى أصل هذه الـكتب ، وإنما هو « لها » أى أداة من الأدوات التى تملـكها ، لتؤدب بها الطغاة المتمردين .. فهذا العوج هو شىء تملـكه ، وهو خارج عن ذاتها ، وطبيعتها . .

وقوله تعالى :

* « قيِّما » .. هو حال أخرى ، من أحوال هذا الـكتاب الذى أنزله الله مستقيما لا عوجَ فيه ..

والقيِّم : هو الذى يهيمن على غيره ، ويضبط موارده ومصادره ..

وذلك هو شأن القرآن الـكريم ، مع الـكتب السماوية التى سبقته ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وأنزلنا إليك الـكتابَ بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الـكتابِ ومهيمناً عليه » (٤٨ : المائدة) .

قوله تعالى :

* « ليُنذِر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملونَ الصّالحاتِ أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً » .

البأس الشديد : هو العذابُ الأليم ، الذى توعّد الله سبحانه وتعالى به الذين لايؤمنون بالله ، ولا يعملون الصّالحات ، على خلاف الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ، فقد بشرهم الله سبحانه ، بالأجر الحسن ، والجزاء العظيم ، الذى يُفيضه سبحانه وتعالى عليهم ، من رضوانه ، ويُلبسهم إياه ، فلا ينزعه عنهم أبداً .

والآية لم تشر إلى صفة هؤلاء المنذَرين بالبأس الشديد ، اكتفاء بالوصف الذى استحقّه أصحابُ الأجر الحسن الذى يمكثون فيه أبداً ، وهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات ..

قوله تعالى :

* « ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * مالهم به من علمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ كلمةً تخرُج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » .

أعادت الآية الإنذار هنا ، لتواجه طائفــة من الذين لايؤمنون بالله ، ولا يَقْدُرونه حقّ قدره ، وهم الذين نسبوا إليه سبحانه وتعالى ولدا ، وهم اليهود ، الذين قالوا «عزير ابن الله » ، والنصارى ، الذين يقولون : «المسيح ابن الله » .

وفى اختصاصهم بالذكر هنا لإزالة شبهة قد تبدو من اعترافهم بوجود الله ، وإيمانهم به إلها .. فهذا الإيمان قد يجعل لهم مدخلا إلى المؤمنين بالله ، مع تلك المقولات الشنيعة التى يقولونها بنسبة الولد إليه .. ومن هنـا يشتبه أمرهم على المؤمنين ، ومن ثَمّ فلا يكون لقوله تعالى : « لينذر بأساً شديداً من لدنه » متوجّه إليهم ..

— فقوله تعالى : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً » عَزْلٌ لهؤلاء القائلين بتلك المقولة الشنعاء فى الله ، عن أن يكونوا فى المؤمنين . ! فإنه لايجتمع الإيمان بالله ، ونسبة الولد إليه .. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .

— وفى قوله تعالى : « مالهم به من علم ولا لآبائهم » .. إشارة إلى أن هؤلاء المعتقدين فى الله هذا المعتقد لاعلم لهم بما لله سبحانه من قدْر ، يتنزه به عن الصاحبة والولد ، وعن الشريك فى الملك ..

فالضمير فى « به » يعود إلى الله سبحانه وتعالى .. وهذا يعنى أن علمهم بالله هو علم ناقص ، مَشُوب بالأوهام والضلالات .. وليس الخَلَفُ خيراً من السّلَف فى هذا العلم بالله ، فهم جميعاً على جهل ، وسَفَه ، وضلال .. « مالهم به من علم ولا لآبائهم .. »

— وفى قوله تعالى: « كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم » تشنيع عليهم ، وتهويل لهذه الكلمة الحمقاء التى يقولونها فى الله ، وأنها قولة لاتستند إلى عقل ، ولا تقوم على منطق ، وإنما هى مما يجرى على الأفواه من لغو الكلام وساقطه !

— وقوله تعالى : « إن يقولون إلا كذباً » هو وصف كاشف لهذا القول الذى يقولونه فى الله ، سبحانه وتعالى ، وأنه قول كذب صُرَاحٌ وبهتان مفضوح ! وهذا ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى : « وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله . . ذلك قولهم بأفواهِهم يُضاهِئون قوْلَ الذينَ كفروا من قبل قاتلهم الله أنَّى يُؤْفَكون » (٣٠ : التوبة) . و « إن » حرف نفى ، بمعنى « ما » . . أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى :

* « فلعلك باخعٌ نَفْسَك على آثارِهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » .

الخطاب هنا ، للنبى صلوات الله وسلامه عليه . . والضمير فى قوله تعالى : « على آثارهم » يعود إلى مشركى العرب ، وخاصة مشركى مكة .

والباخع : من مات غمًّا ، والبخع ، هو الموت غمًّا ، و بَخَع بما عليه من حق: أقرّ به مكرهاً على مضض .

والأسف : الحزن الشديد ، الذى يجىء من رقة الشعور ورفاهة الحس .

وفى الآية دعوة إلى النبى الكريم ، أن يتخفف من دواعى الحسرة والأسف على قومه ، الذين يأبون الاستجابة له ، والإيمان بهذا الكتاب الذى يتلوه عليهم ، ويدعوهم إلى اتباعه .

— وفى قوله تعالى : « على آثارهم » تلويح بالتهديد لهؤلاء المشركين ، وبالهلاك المطلّ عليهم ، إذا هم أصروا على هذا الموقف المنحرف ، الذى يقفونه من النبى والكتاب الذى معه ، وأنهم فى معرض أن يُصبحوا أو يمسوا ، فإذا هم فى الهالكين ، وإذا هم أثرٌ بعد عَيْن .

* « إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لَهَا لنبلوَهم أيُّهم أحْسَنُ عملاً وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً » .

الأرض الُجرز : التى لا نبات فيها ، سواء كان ذلك لأنها لا تنبت أصلاً ، أو كان فيها نبات ثم اقتُلع من أصوله . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هو أنه لما كان الذى صرف المشركين عن الإيمان بالله ، وبالكتاب الذى أُنزل على رسوله ـ هو اشتغالهم بالحياة الدنيا ، وبالتكاثر والتفاخر بينهم ، فقد جاءت هذه الآية لتكشف لهم عن دنياهم هذه التى صرفتهم عن النظر فى آخرتهم ، وأن هذا المتاع الذى فى هذه الدنيا ، إنما جعله الله سبحانه وتعالى زينةً لها ، حتى يكون للناس نظر إليها ، واشتغال بها ، وعمل جاد نافع فيها . . وفى هذا ابتلاء لهم ، وامتحان لما يحصّلون منها . . فالذين يأخذون حظّهم من الدنيا ولا يَنْسَوْن نصيبهم من الآخرة ، هم الفائزون ، والذين يجعلون الدنيا همَّهم ، دون التفات إلى الآخرة ، هم الذين خسروا أنفسهم ، وباعوها بالثمن البخس . . فهذه الدنيا وما عليها ، ومن عليها . . كل هذا إلى

زوال ، ولا يبقى من ذلك إلا ما ادخره المؤمنون المحسنون من زاد طيب فى دنياهم ، ليوم الحساب والجزاء .

أصحاب الكهف

الآيات : (٩ — ٢٦)

* « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)

* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » (٢٦)

التفسير :

حرصنا على أن نأتى بقصة أصحاب الكهف ، فى هذه الآيات الثمانى عشرة ، حتى تكون تلاوة هذه الآيات فى نظمها هذا الذى جاءت عليه ، صورةً كاملة لتلك القصة . .

والآيات ـ كما ترى ـ واضحة المعنى ، بحيث تقع القصة والأحداث التى ضُمّت عليها ، لأدنى نظر ، بمجرد تلاوتها . .

ومع هذا ، فقد رأينا أن نقف وقفة ، مع هذه القصة ، نُمْعن فيها النظر . إلى ما وراء « النظرة الأولى » وسنرى ، أن هناك أعماقاً بعيدة لانهاية لها . . وأننا كلما زدنا الآيات نظراً ، أطلعتنا منها على مذخُوراتٍ من الأسرار ، التى تخلب اللبّ ، وتُذهل العقل . .

ونبدأ أولا بشرح بعض المفردات ، التى ربّما كانت الحال داعيةً إلى إلقاء نظرة أولى عليها :

فى الآية : (٩) .. « الكهف » : هو الغار الواسع فى الجبل ، «والرقيم » : المرقوم ، المُعْلَم ، ويمكن أن يكون ذلك هو بعض الآثار المنحوتة فى هذا الكهف ، كأعمدة عليها نقوش ، أو كتماثيل قائمة على مدخل الكهف ، على ما كان مألوفاً فى الزمن القديم . . فهناك إذن كهف ، ومرقّمات وآثار متصلة بهذا الكهف .

وفى الآية : (١١) .. « ضربنا على آذانهم » : الضرب : إيقاع الشىء على الشىء . . والضرب على الآذان : إحاطتها بما يحجبها عن السمع ، كضرب الخيمة على من بداخلها . . ومنه قوله تعالى : « وضُربَت عليهم المسكنة » .

وفى الآية : (١٤) « ربطنا على قلوبهم » : أى شددنا على قلوبهم ، وأمسكنا بها من أن تطير شعاعاً من الجزع أو الخوف . « والشَّطَط » : البعد ، والمراد به فى الآية : البعد عن الحق .

وفى الآية : (١٦) « ينشر لكم ربكم من رحمته » : أى يبسط لكم من رحمته .. و« المِرفق » : ما يُرتفق به ، ممّا يقوم عليه شأن الإنسان فى أمور معاشه

ومعاده . . وكأنه الرفيق الذى يُعينه ويؤنس وحشته .

وفى الآية : (١٧) « تزَاورُ عن كهفهم » : أى تميل ، والمزورّ عن الشىء : المائل عنه . . « تقرضهم » أى تقطعهم ، وتنحاز عنهم ، كما يقطع المِقراض «المقصّ» الشىء ، ويفرق بين أجزائه .

وفى الآية : (١٨) .. «الوصيد» : باب الكهف ، الذى من شأنه أن يُوصَد على من بداخله . . والمراد به فى الآية مدخل الكهف . .

وفى الآية: (١٩) .. « فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكم »: الورق : الفضّة ، مضروبة أو غير مضروبة . . « أزكى طعاماً » : أى أطيبه وأطهره ، بحيث لا يعلق به دنس أو رجس . « يتلطف » : يترفّق ، ويأتى الأمر بلطف ولباقة .

وفى الآية : (٢٠) .. « يظهروا عليكم» يطّلعوا عليكم، ويعرفوا مكانكم .

وفى الآية : (٢١) .. « أعثرنا عليهم » : أى أطلعنا الناس على أمرهم ، وكشفناهم لهم عن غير قصد منهم لذلك ، وإنما هو صدفة على غير توقع .

وفى الآية : (٢٢) « رجماً بالغيب » : أى ظنّا ووهماً . . كأنهم يرجمون شيئاً محجبا فى الظلام لا يرونه ، وقد يصيبون وقد يخطئون . . « فلا تُمارِ فيهم » أى لا تجادل .. « إلا مراء ظاهراً » .. أى غير متعمق فيه ، أو متجاوز حدود ما نطق به القرآن من أمرهم . .

« عرض القصة »

وقبل أن نعرض القصة ، كما تحدثت عنها الآيات ، نرى أن نعرض كلمة موجزة عن « القصة » كفن من فنون القول ، وعن مكانتها فى فنون القول ، من شعر ، ونثر ، ومَثَل ، وحكمة . . وما إلى ذلك مما يُنسج من كلمات اللغة وعباراتها .

كلمة عن القصة :

القصّة فى هذا العصر ـ كما هى فى كل عصر ـ أفضلُ وسيلة للتربية والتهذيب . . فمن طريق العرض القصصى لحوادث القصة وأشخاصها ، تتفتح أشواق النفس إلى متابعة هذا العرض ، وإلى المشاركة الوجدانية ، فى مواقف القصة ، وأحداثها ، وأزمانها ، حتى لكأن القارىء أو المستمع ، أو المشاهد ـ جزء منها ، وواحد من أشخاصها ، يأخذ الموقف الذى يرتضيه لنفسه من بين مواقفها ، ويعيش مع كل حَدَث من أحداثها ، متأثراً به ، ناظراً إليه ، كلما وقف مثل هذا الموقف من الحياة . . إذ لا تنتهى القصة ، حتى يكون المستمع لها ، أو القارىء أو المشاهد قد عاش فى تجربة نفسية ، وقطع مرحلة ، تطول أو تقصر ، حسب طول القصة أو قصرها ـ مرحلة تترك فى كيان الإنسان آثاراً عقلية ، ووجدانية ، وروحية ، أشبه بتلك الآثار التى يتركها الصوت على صفحة لوح التسجيل . . بعضها عميق ، وبعضها ضَحْل الغور ، حسب قوة الإحساس وضعفه ، وتبعاً لتلقى القارىء أو السامع ، أو المشاهد ، وتجاوبه أو تباعده ، من القصة .

ولا تبلغ القصة مبلغاً من النفس ، ولا تصل أحداثها ومؤثراتها إلى وجدان الإنسان ومشاعره ، إلاّ إذا أُحكم تصويرها ، وجرت على اتجاه العقل والمنطق ، وتجاوبت مع واقع الناس والحياة . . وإلا كانت خرافة ، إن جنح بها الخيال ، وحلقت فى عوالم لا يعيش فيها الناس ولا يتصورونها . . أو كانت غثة باردة ، إن هى أمسكت بالأمور التافهة ، التى لا يلتفت إليها أحد ، ولا يَعْلَق بها نظر !

والقصة الناجحة ، هى التى يُنتزع موضوعها من أحداث الحياة وواقع الناس ، أو ما يمكن أن يكون من أحداث الحياة وواقع الناس . . ثم يجرى

أشخاصها فى هذا المنطَلق، وتوضع كل شخصية فى المكان المناسب لها . .

ولا نريد أن نجعل القصة موضوع هذا البحث ، فإن الحديث عن القصّة ، وما يجب أن يتوفر لها من عناصر النجاح يتطلب بحثاً خاصاً مستقلاً[1] ، ليس هنا موضعه ، ولا موضوعه . . وإنما تلك إشارة مجملة تشير إلى ما للقصة من أثر فى التربية والتهذيب ، وأنها من هـذه الناحية أداة قوية من أنجح أدوات التربية فى يد المصلحين والمربّين .

* * *

والقرآن الكريم ـ وهو مدرسة المسلمين ، وجامعة المجتمع الإسلامى ـ لم يُغْفل شأنَ القصة ، فهو يعتمد عليها فى كثير من المواقف ، لتكون وسيلة من وسائله الفعّالة ، فى تقرير الحقائق ، وتثبيتها فى النفوس ، وفى تجليتها للعقول ، وفى الكشف عن مواطن العبرة والعظة فيها .

وقَصَص القرآن الكريم ، قَصصٌ جادٌّ ، مُساقٌ للعبرة والعظة ، وليس فيه مجال للتسلية واللهو ، وليس من غايته ترضّى الغرائز المريضة ، أو تملّق الرغبات الفاسدة ، التى كثيراً ما تكون مقصداً أصيلاً من مقاصد القصة عند كثير من كتاب القصص ، الذين يجذبون القراء إليهم بهذا المَلَق الرخيص للغرائز الدنيا ، التى تعيش فى كيان الإنسان ، وتترقب الفرصة السانحة التى تستدعيها ، وتقدم « الطُّعم » المناسب لها .

وعناصر القوة فى القصص القرآنى مستمدة من واقعية الموضوع وصدقه ، ودقة عرضه ، والعناية بإبراز الأحداث ذات الشأن فى موضوع القصة ، دون التفات إلى الجزئيات التى يشير إليها واقع الحال ، وتدلّ عليها دلالات ما بعدها

---

(١) ذلك ما عرضنا له فى كتابنا ـ : « القصص القرآنى » .

وما قبلها من صور . . وذلك مما يَشُوق القارىء ويوقظه ، ويفرض عليه مشاركة فعّالة فى تكملة أجزاء القصة ، واستحضار ما غاب من أحداثها ، وهذا ما يجعله يندمج فى القصة ، ويعيش فى أحداثها ، ومن ثَمّ يتأثر بها ، وينتفع بما فيها من عظات وعِبَر .

قصة أصحاب الكهف

وقصة أصحاب الكهف من القصص القرآنى ، الذى خلا من عنصر المرأة ، على خلاف كثير غيرها من قصص القرآن الذى كان للمرأة دور فيه . . كما أن موقف أبطالها جميعاً ، موقف تغلب عليه السلبيّة .. ليس فيه صراع ظاهر ، ولا صدامٌ محسوس بين طرفين ، يقف كل منهما من صاحبه موقف الخصومة والتحدّى ، ثم الكيد والصراع ، ثم الانتهاء إلى نهاية بغَلَبة أحد الطرفين ، وانهزام الطرف الآخر .

ليس فى قصة أصحاب الكهف شىء من هذا الصراع ، مع أية قوة من قوى الحياة ، طبيعية كانت أو بشرية ، بل إن الأمر لأكثر من هـذا ، حيث نرى الأشياء كلها متعاطفة حانية على هؤلاء الفتية ، لا تلقاهم إلا بما هو خير لهم ، وأصلح لشأنهم .

ولا شك أن خلوّ القصة من عنصر المرأة ، يُفْقدها كثيراً من مقومات الحياة والقوة ، بما يثير ظهورُ المرأة من عواطف ، وما يوقظ من مشاعر . . فالمرأة فى القصة ، داعية من دواعى الإثارة والتشويق ، لا يكاد يُعرف للقصة طعم بغيرها . . كما أن خلوها من الأزمات ، والمصادمات ، يُلقى عليها ظلالاً من الجمود ، والركود ، ويعقد حولها جوًّا من السآمة والملل .

فإذا خلت القصة من المرأة ، ثم جاءت أحداثها — مع ذلك — سلبية ،

كان ذلك أدعى إلى فتورها ، وضعفها ، وزيادة البرودة فيها . . فإن السلبية معناها انسحاب الأشخاص ، والأحداث ، إلى الوراء ، والاتجاه إلى حيث العزلة والانزواء ، فلا تتبعهم عين ، ولا يَشْخَص إليهم شعور !.

* * *

وننظر فى قصة أصحاب الكهف ، كما عرضها القرآن الكريم ، وقد خلت شخصياتها من المرأة ، كما تجردت أحداثها من الإيجابية ـ ننظر فى هذه القصة فنرى القرآن الكريم ، قد ألبسها الحياة ، وخلع عليها رُوحاً من روحه ، حتى لقد تحركت أمكنتها ، ونطق صامتها ، وجرت الحياة قوية دافقة فى كل ما شمله موضوعها من كائنات ، حية وجامدة ، وناطقة ، وصامتة . . وكان هذا الحسن فى العرض ، وهذه الدّقة المعجزة فى تحريك الأحداث ، عِوضاً عن حسن المرأة ودلّها ، وبديلاً من مواقف الإيجاب ، وتفاعل الأحداث . ولولا هذا العرض المعجز ، لما كانت هذه القصة قصة ، ولما خرجت عن أن تكون خبرًا يُروى ، أو حديثاً ينقل .

* * *

وسورة « الكهف » التى سُمّيت هذه التسمية به ، لم يكن فيها قصة أصحاب الكهف وحدهم ، وإنما ورد فى هذه السورة ثلاث قصص أخرى . . هى قصة الرجلين : المؤمن والكافر ، وما انتهى إليه أمر كل منهما . . ثم قصة موسى والعبد الصالح ، ثم قصة ذى القرنين ، وما جرى على يديه من أحداث . . كما سنرى .

ويلاحظ أن هذه القصص ـ شأنها شأن قصة أصحاب الكهف ـ قد خَلَت جميعها من عنصر المرأة . . ثم يلاحظ أيضاً أن حوادثها جميعها من الخوارق المعجزة ، التى يعجز الإنسان عن تصوّرها فى عالم الواقع ، إلاّ أن يكون

له دِين يصله بأسباب السماء ، فيُضيف هذه الأحداث إلى قدرة القادر . . رب العالمين .

فنوْمة أصحاب الكهف ، على تلك الصورة العجيبة ، طَوَال هذا الزمن المتطاول ، ثم يَقَظَتُهُم بعد مئات السنين . . وإحاطة التدمير والتخريب بهذه الروضة الأريضة على هذه الفُجَاءة ، التي لا تتصل بها أسباب ولا مقدمات . . وهذه الأحداث التي يجريها الرجل الصالح على غير ما يبدو من طبائع الأشياء ، والتي ينظر إليها « موسى » نظر عَجَب واستنكار ، ثم يظهر له فيما بعد أن هذا هو الوجه السليم لها . . وذو القرنين ، وما مكّن الله له فى مشارق الأرض ومغاربها ، والحاجز العجيب الذى أقامه فى وجه يأجوج ومأجوج ــ كل هذه الأحداث ، معجزات قاهرة ، تدعو الإنسان إلى أن يقف طويلًا حيالَها ، ثم لا يجد لها سندًا يُضيفها إليه ، إلا أن يكون الإلٓه القادر ، الذى ينبغى أن ينفرد بالألوهية . . فلا يكون للإنسان معبود سواه ، يولّى وجهه إليه ، ويخلص العبودية له .

فقصّة أصحاب الكهف ، تجىء مع هذه القصص ، وكأنها جميعها قصة واحدة ، تخدم جميعها دعوةَ التوحيد ، والتعرف على الخلاق العظيم ، وما أودع فى الموجودات من آيات قدرته ، وعلمه ، وحكمته .

* * *

ونعود لقصة أصحاب الكهف ، من حيث هى قصص فنى ، يعالج فكرة ، ويهدف إلى غاية !

وأول ما يطالعنا من هذه القصة أنها تُعرض فى صورتين :

الصورة الأولى ، صورة مصغرة ، تُضغط فيها الحوادث ، وتُطوى فيها الأزمان والأمكنة ، فلا تتجاوز الآيات التى ترسم هذه الصورة ــ ثلاثًا ، هى :

قوله تعالى :

* « إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشداً (١٠) فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا (١١) ثم بعثناهم لنعلم أىّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدًا (١٢) »

هذه هى القصة مجملة ، وهى فى هذا الإجمال تمسك بالقصة كلها ، وتبرز أهمّ العناصر المراد عرضها فيما بعد ، على صورة ينفسح فيها المجال لتحرّك الأحداث ، وانطلاق الأشخاص . .

وهذا الملخص الموجز للقصّة ، يثير الشوق ، ويحرّك الرغبة للتعرف على ما وراء هذه الإشارات واللمحات . . وهنا يستجيب القرآن لداعى الحال ، فيعرض القصة ، مفصّلة بعض التفصيل ، مسلّطاً الأضواء على الجوانب المثيرة من موضوعها ! .

ونودّ أن نشير هنا إلى أنه قبل بدء هذا العرض الموجز للقصة ، قد سبقها تمهيد بارعٌ ، يؤذِن بأن حَدَثاً من الأحداث المثيرة يوشك أن يطلع وراء هذا التمهيد ، وبهذا يتهيأ الحضور للقاء هذا الحدث ، ويستحضرون له ما تفرق من مشاعرهم ، وما شَرَدَ من خواطرهم .. وأشبه بهذا الصنيع تلك الطَّرَقَات الخفيفة التى تسبق عرض القصة على مسارح التمثيل . . حيث تنبه الجمهور ، وتستحضر وجودهم لما جاءوا لمشاهدته . .

وهذا التمهيد الذى سبق القصة ، هو قوله تعالى :

* « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا »

فهناك كهف ، وهناك رقيم ، وأصحاب هذا الكهف وذاك الرقيم . . وأنهم . . ــ أى أصحاب هذا الكهف والرقيم ــ آية من آيات الله المعجبة ، المبثوثة فى هذا الوجود . . وأنهم على ما اشتملت عليه قصّتهم من آية مُعْجبة معجزة ، ليسوا

بأعجب ولا أعجز من أية آية من آيات الله .. فإن أصغر ذرّة فى هذا الوجود ، لو صادفها عقل رشيد ، ونظرت إليها عين مبصرة ، لرأت فيها من آياتِ الله مايملأ القلب عجباً ودهَشاً .. ولكن النّاس ـ إلا قليلا منهم ـ لايُلفتهم إلى آيات الله إلا ماتلقاه حواسّهم لقاء مباشراً . حيث يتحرك أمام أعينهم ، ويتحدث إليهم بما فى كيانه من آياتٍ ومعجزات .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وكأيِّن من آيةٍ فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٥ : يوسف) .

فهذا التمهيد ، هو نخْسة قويّةٌ تُنبه الغافلين ، وتوقظ النائمين ، وتنحى باللائمة على أولئك الذين لايفتحون عيونهم ، ولا يوجهون عقولهم على هذا الوجود ، الذى كلّ ذرة من ذراته ، وكل موجود ـ وإن صغر فى العين ، وخفة ميزانه فى التقدير ـ هو آية باهرة معجزة ، من آيات الله .

وإذن فليست قصة أصحاب الكهف ، التى يكثر الطالبون للتعرف عليها ، ويُلحّ المجادلون وأدعياء العلم فى معرفة ماعند النبى منها ـ ليست هذه القصة بأعجب فى ظاهرها وباطنها ، من قصّة نواةٍ أو حبّة ، تدفن فى التراب ، ثم لاتلبث أن تكون نبتةً مخضرة ، تجرى فيها الحياة ، كما تجرى فى الوليد ينفتق عنه رحم أمه .. ثم إذاهى بعد زمن ماقد علت ، واستوت على سوقها ، وأخرجت زهراً ذا ألوان زاهية معجبة ، يفوح منها ريح عطر .. ثم ، وثم .. إلى آخر قصتها !

* * *

ثم بعد هذا التمهيد ، وبعد هذا العرض الموجز للقصة .. يبدأ العرض .. عرض القصة كلها .. فى كلمات متناغمة ، تتردد منها أصداء موسيقى خافتة عميقة ، كأنها تجىء من بُعد بعيد ، فى أغوار الزمن السحيق .. فتنقل المشاعر والعواطف

فى براعة ، ولطف ، إلى حيث الماضى البعيد ، الذى عاشت فيه أحداث القصة وأشخاصها ..

فيقول الله تبارك وتعالى :

* « نحنُ نقصُّ عليك نبأهم بالحقِّ . . إنّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدًى (١٣) وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربُّ السّموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً (١٤) هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً (١٥) وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربكم من رحمته ويهيِّئْ لكم من أمركم مِرفقاً (١٦) .

« وترى الشمس إذا طلعت تزاوَرُ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرِضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً (١٧) .

« وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فِراراً ولملئت مِنهم رُعباً (١٨) .

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بِوَرِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطّفْ ولا يشعرن بكم أحداً (١٩) إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى مِلتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً (٢٠) .

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حقٌّ وأن السّاعةَ لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً (٢١) .

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم رجمًا بالغيب ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تُمارِ فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحدًا (٢٢) ولا تقولن لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً (٢٣) إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً (٢٤) .

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً (٢٥) قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض .. أبصر به وأسمع .. مالهم من دونه من ولى ولا يُشرك فى حكمه أحداً » (٢٦) .

* * *

والقصة بهذا التصوير الرائع المثير المعجز ، تنقل القارىء إلى جوّها الممتدّ فى الزمن السحيق ، من أول أن يبدأ العرض .. فلا يجد فرصةً بعد هذا للانفصال عن هذا الجوّ ، بل يظل فى رحلته تلك البعيدة فى أعماق الزمن ، مبهورَ الأنفاس ، مشدود الأحاسيس ، متوتّر المشاعر .. حتى تنتهى القصّة ويُسدلَ الستار ! !

فهؤلاء فتيةٌ .. فيهم شباب ، وقوة ونَضارة .. قد هَدَتهم فطرتهم السليمة منذ مطلع شبابهم ، قبل أن يمتد بهم العمر ، وينضج عليهم ماتفيض به بيئتهم من ضلالات وجهالات ، وإذا هم يخرجون على مألوف قومهم ، وينكرون ماعليه آباؤهم من كفرٍ وإلحادٍ .

إن الشباب دائماً ، هو مطلع الثورات ، ومهبّ ريحها ، حيث التفتّح للحياة ، والقدرة على التفاعل معها .. فإذا ولّى الشباب فهيهات أن تتحرك فى الإنسان رغبة إلى اتجاه غير الاتجاه الذى قطع فيه هذه المرحلة الممتدة من عمره ..

وفى وصف القرآن الكريم لهم : « إنهم فِتيةٌ آمنوا بربّهم وزدناهم

هُدًى » ، إشارة إلى أنهم اتجهوا إلى الله ، ووضعوا أقدامهم على الطريق إليه ، فاستقبلهم الله سبحانه وتعالى بألطافه على الطريق ، ودفع بهم إلى مرفأ الأمن والسلامة . . وهذا يعنى أنه مطلوب من الإنسان أن يتحرك نحو الغاية التى يقصدها ، فإن كانت حركته على طريق الخير ، وجد من الله سبحانه العون والسداد ، وإن كان على طريق الضلال والفساد ، تركه الله لهواه ، وأسلمه لشيطانه . . !

— وفى قوله تعالى : وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السموات والأرض لن ندعُو من دونِه إلهاً لقد قلنا إذًا شططا » ـ فى هذا توكيد للعون الذى أمدّهم الله به ، منذ أن اتجهت قلوبهم إليه ، وانعقدت نيّاتهم على الإيمان به .

— وفى قوله تعالى : « إذ قاموا » إشارة إلى أن ماتتجه إليه القلوب ، وتنعقد عليه النيّات ـ وإن كان مقدّمة طيبة من مقدمات الفوز والنجاح ـ سيظلُّ جسداً هامداً ، حتى تَنْفُخ فيه الإرادة ، وينضجه العمل ، فإذا هو كائن سوىّ الخلق ، دانى القطوف .

وهؤلاء الفتيـة ، لم يقفوا عند حدّ النيّة ، بل « قاموا » أى تحركوا ، وعملوا ، فربط الله على قلوبهم تلك التى اتجهت إليه ، وشدّ على هذه النيّات التى انعقدت على الإيمان به . .

* * *

وإذ يتجه الفتية إلى الله هذا الاتجاه القوىّ الخالص من شوائب الشرك ، وإذ تفيض قلوبهم إيماناً يباعد بينهم وبين قومهم ، فلا يشاركونهم فيما هم فيه من ضلال الوثنية وسخافاتها ـ عندئذ يجـدون أنهم غُرباء فى قومهم ، معرضون للسخط ، والإزدراء ، ثم القطيعة ، ثم الطرد ، وربما القتل !

إنهم قلة صالحة فى مجتمع فاسد . . فليطلبوا لهم وجهاً فى الأرض . . والإساءت

العاقبة ، ووقع البلاء ، وتعرضوا للفتنة فى دينهم ، الذى ارتضوْه وآمنوا به .

* * *

وتَنَاجَى الفتية فيما بينهم ، وارتادوا مواقع النجاة والسلامة لهم ، ولدينهم ..

إنه الفِرَارُ إلى أرض غيرِ هذه الأرض ، والهجرةُ إلى بلد غير هذا البلد !

ولكن كيف يكون هذا ، والقوم لهم بكل طريق ؟

إن على مقربة من المدينة ، وعلى الطريق الذى انتوَوْا أن يأخذوه إلى موطنهم الجديد ـ كهفاً يعرفونه . فليتخذوه ستراً لهم ، يختفون به عن أعين القوم أياماً ، حتى يفتقدهم القوم .. ثم يطلبونهم ، ثم لايجدون لهم أثراً !

فإذا سارت الأمور على هذا التقدير .. خرجوا من الكهف ـ وقد نامت عنهم أعين الرقباء ـ ثم تابعوا السير إلى حيث ينتهى بهم المطاف إلى الجهة التى يريدونها . .

* « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ الله فأووا إلى الكهفِ يَنْشُرْ لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مِرْفقا » .

أرأيت إلى هجرة الرسول ، وما كان لغار « حِراء » فيها ؟ إنه كهفٌ مثل كهف أصحاب الكهف هذا ، ولكأن القرآن الكريم يجىء بهذه القصة ، وتتنزل آياتها على جماعة المسلمين ، وهم فى مكة يلقوْن مايلقوْن من عَنَتٍ وكيد وبلاء فى سبيل عقيدتهم ـ لكأن القرآن إنما يجىء بهذه القصة فى هذا الوقت ، ليربط على قلوب تلك الجماعة القليلة المستضعفة من المؤمنين ، وليريَهم مثلا طيباً للمؤمنين الذين يسكن الإيمان قلوبَهم ، ويملأ مشاعرهم ، استجابةً لدعوة الفطرة من غير نبيّ ولا كتاب .. ثم لكأن فيما اتجه إليه أصحاب الكهف من الهجرة بدينهم ، إشارة واضحة إلى منافذ الفَرَج والخلاص ، من مواطن الكيد والبلاء ، بالتحول من دار إلى دار ، والانتقال من بلد إلى بلد ! !

وغير بعيد أن تكون هجرة المسلمين إلى الحبشة ، من وحى هذه القصة ..

وغير بعيد أيضاً أن تكون الخطة التى رسمها الرسول وصاحبه أبو بكر ، فى هجرتهما إلى المدينة ، منظوراً فيها إلى تلك القصة أيضاً .. فقد جعل الرسول وصاحبه من غار «حراء» كهفاً يؤويهما أياماً ، إلى أن تنقطع عنهما عين المتربصين من أشرار قريش . . ثم يكون بعدها الاتجاه إلى المدينة التى كانت مقصد الرسول وهجرته . . !

* * *

ونعود إلى القصّة ... فنرى عجباً عجاباً ..

دنيا صامتة ، يخيّم عليها السكون والوحشة ، وغار يأخذ مكانه فى هذه الدنيا الصامتة ، وهذا السكون المطبق ، وتلك الوحشة الخانقة .. !

ولقد ألقى الفتية بأنفسهم فى جوف الكهف ، كما تُلقَى بضع حصيات فى جوف المحيط ..

ولكن سرعان مايتبدل الحال ، ويأتى القرآن بآياته المعجزة ، فيكشف عما وراء هذا الصمت من حياة متدفقة ، وإذا بنا بين يدى هذا الغار الموحش المخيف ، إزاء مسرح يموج بالأحداث المُجاب .

ولا نرى فى هذا المقام أروع ، ولا أصدق من كلمات الله فى عرض الموقف، وكشف هذه الأحداث .

* « وترى الشمس إذا طلعت تزَاورُ عن كهفهم ذاتَ اليمين وإذا غرَبتْ تقرضهم ذاتَ الشِّمالِ وهُمْ فى فجوةٍ منه .. ذلك من آيات الله .. من يهدِ الله فهو المهتد ومن يُضْلل فلن تجِدَ لَهُ وليًّا مُرْشداً * وتحسَبُهُمْ أيقاظا وهُمْ رقودٌ ونقلّبهُم ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال وكلبُهم باسطٌ ذراعَيه بالوصيد لواطلعت عليهم لوليت منهم فِراراً ولملئت منهم رعباً » .

فالشمس هنا كأنها جزء من هذا الكهف ، قد شُغلت به عن الدنيا كلّها ، وجعلت مدار فلكها حوله وحده ، حتى لكأنها مسخرة لمن هم فى هذا الكهف دون الكائنات كلها ، وحتى لكأنها أمٌّ حانية عليهم ، ترعاهم بعينها ، وتُظلّهم بظلها : « إذا طلعت تَزَاوَرُ عن كهفهم ذات اليمين .. وإذا غربت .. تقرضهم ذات الشمال ! » .

وهنا تأخذ الحياة تظهر شيئا فشيئا ، فى هذا السكون المطبق .. فهؤلاء النيام يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال .. وكلبهم قائم بالحراسة فى مداخل الكهف « باسط ذراعيه بالوصيد ! » .

إنه لمنظر عجيب ! حياة تدب فى هذا الموات العريض .. حيث لا يقع فى الوهم أن كائناً حيًّا يسكن إلى هذا الكهف ، الذى يفغر فاه ليلتهم كلَّ من يدخل إليه ، اللهم إلا أن تكون جماعة من الجن ، أو نفراً من الشياطين : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فِراراً ولملئت منهم رعبا » .

ثم ما هى إلا كَرّةٌ من كرات الزّمن ، حتى تكتمل الحياة ، ويصحو القوم ، ولا تزال على أعينهم أطياف الكرى .. يتثاءبون ، ويتمطّون ، وبين التثاؤب والتمطِّى ، يدور بينهم حديث متخافت ، متخاذل ، متكسّر .. يصحب معه بقيةً من أثر هذا النعاس الثقيل .. وإنك لا تجد أبرع ولا أروع ولا أدقّ ولا أصدق من كلمات الله ، فى تصوير هذا المشهد ، الذى تتحرك فيه الكلمات متثاقلة متباطئة تتقلّع من أفواههم كما تتقلّع خُطا المقيد يمشى على كثيب من الرمال !

* « قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم .. قالوا ربكم أعلم بما لبثتم .. فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة .. فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه . . وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً » .

وانظر كيف بدأ هذا الحديث .. بتلك القافات المتكررة ، ومافيها من ثِقَل وتقلّع ، ثم تلك الواوات والياءات ، وما فيها من رخاوة وتميّع .. إنك لوذهبت تُسرع بقراءة الآية الكريمة : « قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم » لما استجاب لك لسانُك ، ولمَقَلَته تلك الكلمات والحروف، عن أن يجاوز الحركة البطيئة المقدورة له فى هذا الموقف .. وإلاّ تعثّر واضطرب .

ثم يأخذ النعاس ينجلى شيئا فشيئا ، حتى يصحو القوم صحوة واعية ، فإذاهم يتدبرون أمرهم ، ويأخذون فى العمل .. وإذا الكلمات تحيا على شفاههم ، وتأخذ طريقا جادًّا حازما ..

— « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطفْ ولا يُشعرنَّ بكم أحدا » !

* * *

وينتقل المنظر من الكهف إلى المدينة .. وإذا رسول الجماعة يسعى هناك ، مقتصدا فى مشيته ، مكثرا من التلفّت التائه فى هذا العالم الغريب ، الذى يراه كما يرى النائم حلما يطوّف به فى عالم غير عالمه الذى عاش فيه !

وفجأة ينكشف أمر الرجل لأهل المدينة ، وإذا هو ظاهرة غريبة ، أشبه بالظواهر الكونية التى تَبغَت الناس .. وإذا رجّة طاغية تستولى على المدينة كلها ، وإذا الناس جميعا إلى حيث الرجل ، كأنما يساقون إلى الحشر ..

والذى انكشف للقوم من غرابة الرجل ، هو غرابة هيئته فى زيّه ، ثم إن الذى نمّ عليه كذلك ، هو هذا النقد الذى قدّمه ليشترى به طعاما ..

فالزّى الذى يتزيّا به الرجل قديم ، من زمن مضى لا يلتقى مع زىّ القوم فى هذا الوقت الذى طلع عليهم فيه ، إذ أن الناس يستحدثون فى كل زمن زيًّا

غير زىّ الآباء والأجداد ، وكذلك النقد الذى يتعاملون به ، إنه يأخذ صورًا وأشكالا فى كل عصر ..

وبهذا الزىّ ، وهذا النقد .. افتضح أمر الرجل للقوم ، وبدا واضحًا أنه من عالم غريب عنهم ..

أما مايقال من أن فتية الكهف قد تغيّرت حالهم الجسدية ، فطالت شعورهم حتى جاوزت قاماتهم ، وطالت أظافرهم .. إلى غير ذلك من العوارض التى تعرض لمظهر الإنسان بفعل الزمن ـ مايقال من هذا فهو غير صحيح ، والدليل على بطلانه ، أنه لو كان شىء من هذا قد عرض للفتية أثناء نومهم لرأوا هذا ظاهرا فيهم ، حيث يرى بعضهم بعضا ، ولأنكروا أنفسهم قبل أن يُنكرهم الناس .. ولما قالوا : « لبثنا يومًا أو بعض يوم »

والأقرب إلى ماتشير إليه أحداث القصّة ، أن الفتية لم يتغير منهم شىء ، منذ ناموا إلى أن بُعثوا من رقدتهم ، بل جمدوا على الحال التى دخلوا فيها الكهف ، وأسلموا أنفسهم للنوم .. وهذا أبلغ فى الدلالة على ماللقدرة الإلهية ، من سلطان على الوجود ، وعلى الأسباب والمسببات جميعا .

* « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعدالله حقٌّ وأن الساعة لاريب فيها .. إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانًا ربّهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدًا » .

فقد اختلف رأى القوم فى شأن الفتية ، وما يُصنع بهم بعد أن ماتوا ، ثم انتهى الرأى إلى أن أقاموا مسجدا عليهم ، تكريما لهم ، واعترافا بأنهم من أهل الإيمان ..

ويُخيل المرء أن القصة قد انتهت ، وأن هذه هى خاتمتها .. ولكن سرعان ماتنتقل به القصة عبرَ القرون ، وتطوّف به فى الأمم والشعوب ، فيسمع

أصداء القصة تتردد فى كل أفق ، وتجرى على ألسنة الأمم ، يتناولها الناس بتعليقاتهم ، على ما اعتاد الناس أن يصنعوه مع كل حدث عجيب من أحداث الحياة . . وإذا الأحاديث مختلفة ، والأخبار متضاربة ، كلٌّ يحدّث بما وقع له فى تصوره ، مما اجتمع لديه من مختلف المقولات . .

* « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم . . ويقولون خمسة سادسهم كلبُهم رَجْمًا بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . . قل ربّى أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل » .

ويخيّل للمرء مرة أخرى أن القصة قد انتهت ، ولكن ما إن يستريح لهذا الخاطر ، حتى تظهر له تلك المفاجأة الكبرى التى تملأ النفس عجبا ودهشا .

فالقصة إلى الآن تكاد تدور فى محيط الواقع الممكن . .

جماعة أنكروا باطل قومهم ، حين أشرقت قلوبهم بنور الحق ، ثم فرّوا بدينهم خوفَ الفتنة فيه ، فلجأوا إلى الكهف ليختفوا فيه أياماً . . ثم أخذتهم فى الكهف نومة ، استيقظوا بعدها جياعاً ، فبعثوا أحدهم إلى المدينة يجلب لهم طعاماً حلالاً . . ثم كان أن وقع المحذور ، وعرف القوم أمرهم وكشفوا سرّهم . .

قصة تحدث كثيراً فى الحياة ، يستمع إليها المرء ، وينتهى منها ، ولا يكاد يدهش لشىء فيها ، إلا ما تحمله الآيات من روعة التصوير ، وبراعة العرض ، وإعجاز البيان .

ولكن ما يكاد المرء يطمئن إلى هذا ، حتى يفجأه هذا الخبر المذهل :

* « ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائةٍ سنين وازدادوا تسعاً » .

يالله ! . .

نومة تستغرق هذه المئات من السنين ، ثم يكون بعدها يقظة وحياة ؟

« ذلك من آيات الله »

ولا جواب غير هذا !

* * *

وقفة أخيرة مع القصة

ولا نريد أن نترك القصة دون أن نقف وقفة قصيرة مع بعض تلك التلبيسات التى يَدْخل بها بعض الدارسين الذين يتأثّرون خُطَا المستشرقين ، الذين ينظرون إلى القرآن نظرتهم إلى أى عمل بشرىّ . . فالقرآن عندهم هو من عمل « محمد » ضَمّنه ما وقع فى خاطره وتأملاته من آراء .

يقول أحد هؤلاء الدارسين للقصص القرآنى ، وهو يستدعى من شواهد القرآن ما يؤيد به زعمه الذى يزعمه فى القصص القرآنى ، وهو أنه يستملى مادته من أساطير الأولين . . يقول فى قصة أصحاب الكهف :

« أما قصة أصحاب الكهف ، فنقف منها فى هذا الموطن — أى موطن الاستدلال على أسطورية القصص القرآنى — كما يتخرص ـ عند مسألتين : الأولى : مسألة عدد الفتية ، والثانية : مدة لبثهم فى الكهف . .

ثم يتحدث عن المسألة الأولى . . فيقول :

« أما من حيث العدد ، فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم فى دقة (كذا) وإنما ردّد الأمر بين ثلاثة ، ورابعهم كلبهم ، وخمسة وسادسهم كلبهم ، وسبعة وثامنهم كلبهم . .

« وليس يخفى أن القرآن الكريم ، قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة (كذا !) التى يتوجه بها إلى النبىّ ، وهى قوله تعالى : « قل ربِّى أعلم

بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل . . فلا تُمارِ فيهم إلاَّ مِرَاءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .

ثم يسأل هذا العالِم ببواطن الأمور ، فيقول :

« ما معنى هذا التردد فى العدد ؟ وما معنى هذه النصائح ؟

ثم هو يجيب :

« لا نستطيع أن نقول : إن المولى سبحانه وتعالى كان يجهل عدد الفتية من أصحاب الكهف ، وأنه من أجل هذا لم يقطع فى عددهم برأى ! فالمولى سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وإنه يعلم السرّ وأخفى !

« وإنما نستطيع أن نقول : إن هذا لم يكن إلا لحكمة .. والحكمة فيما نعتقد هى أن المطلوب من النبىّ عليه السلام أن يُثبت أن الوحى ينزل من السماء (! !) وأن يثبت ذلك لا بالعدد الحقيقى للفتية من أصحاب الكهف ـ فذلك لم يكن موطن الإجابة ـ وإنما بالعدد الذى ذكره اليهود من أهل المدينة المشركين من أهل مكة ، حيث ذهب وفدهم ليسأل عن أمر محمد ، أنبىّ هو أم متنبىء . . وإذ كان أحبار اليهود قد اختلفوا فى العدد ، وذَكَر كل منهم عدداً معيّناً ، كان على القرآن أن يَنْزِل بهذه الأقوال ، حتى يكون التصديق من المشركين بأن محمداً عليه السلام نبىّ ! ولو ذكر القرآن العدد الحقيقىّ وأعرض عن أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمداً لم يعرف الحقيقة . . وليس وراء هذا إلا أن الوحى لا ينزل من السماء ! ! » .

ولا نذهب مع هذا الباحث إلى أكثر من هذا ، فلا نعرض رأيه فى عدد السنين التى ذكرها القرآن عن نومة أهل الكهف ، ويكفى أن نردّ هذا الاتهام الصريح للقرآن الكريم . . فإن هذا القول يصيب القرآن فى صميمه .

فأولّا : إذا سلمنا بأن القرآن قد جاء فى قصصه بما يطابق ما عند اليهود

من معارف ، وذلك ليثبت لهم ، ولمن تلقّى عنهم من مشركى مكة - صدقَ محمد ، وأنه نبيّ يوحى إليه من ربّه ، وأنه لو جاء بالواقع الذى يخالف ما عندهم لما سلّموا به - نقول : لو سلمنا بهذا القول فى القرآن لكان معنى هذا ، أنه كان عليه أن يجرى مع اليهود إلى آخر الشوط ، فلا يجىء بشىء مما يخالف ما هم عليه من مذاهب وآراء ، ولكان عليه ألا يقول فى المسيح غير ما قالت النصارى من أنه ابن الله ، بل ولما كان له إلا أن يقول بما يقول به المشركون أنفسهم فى آلهتهم ، وذلك حتى يُسلّموا له ، وينتهى الأمر عند هذا الحدّ ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ألهذا إذن جاءت رسالة محمد ؟ وألهذا أيضاً جاءت رسالات الرسل ، تجرى على ما عند الأقوام من آراء ومعتقدات ؟ وأين مكان الرسالة إذاً فى الناس ؟ وما محتواها ؟ إذا كانت لا تخرج على ما عند المرسَل إليهم ؟

ونقول فى عدد أصحاب الكهف : إن القرآن الكريم لم يذكر فى عدد أصحاب الكهف قولًا له ، وإنما ذكر ما يجرى على ألسنة الناس من حديث عنهم ، وعن عددهم ، على مدى الأزمان ، حاضرها ومستقبلها . . ولهذا جاء التعبير القرآنى : « سيقولون » ولم يقل قالوا . . ولو كان من تدبير القرآن أن يردد أقوال اليهود ، لينال بذلك موافقتهم ، ويأخذ منهم شهادة بأن القرآن وحىٌ من عند الله ، لكان من الحكمة أن يأخذ بقول واحدٍ من هذه الأقوال ، وينتصر له ، وبهذا يوقع الخلاف بين أصحاب هذه الأقوال المختلفة ! .

ثم نسأل : كيف يكون فى موافقة القرآن لمقولات اليهود المتضاربة المختلفة فى عدد الفتية ما يحمل عند اليهود وعند المشركين دليلًا على أن القرآن وحىٌ ؟ ألا تكون التهمة قائمةً بأن محمداً قد تلقّى هذه المقولات من اليهود

أنفسهم ، كما يقال إن مشركى مكة قد تلقوها منهم ؟ فما هو الجديد الذى جاء به محمد ليشهد له بأن القرآن وحى من عند الله ؟ وهل كانت هذه المقولات من الأسرار التى احتفظ بها اليهود فيما بينهم ؟ وكيف تكون سرًّا وهى على هذا الخلاف الشديد بينهم ؟ كلام لامعقول له أبداً .

أما التعليل الذى يمكن أن يُفهم عليه إغفال القرآن لذكر العدد الحقيقى لأصحاب الكهف ، والقطع به ، فهو ماجرى عليه أسلوب القرآن فى كل موقف يلتقى فيه بأصحاب المِراء والجدل ، الذين يريدون أن يسوقوه إلى المماحكات والمهاترات ، التى لاتنتج إلا اضطراباً وبلبلة . . والقرآن يعرف طريقه إلى غاياته التى يريدها ، فهو لايقف عند هذه المواقف ، ولايلقاها بما يقدره أصحابها من صرفه عن وجهته ، وشَغْله بهذا اللغو من الكلام عن رسالته !

ففى كل مرّة كان يُسأل فيها النبىّ سؤالا متعنّتا ، لايُراد به كشف حقيقة ، أو جلاء غامضة ـ كان يدع السائلين لما هم فيه ، ويصرف وجهه عنهم ، ليلقى الحياة كلها ، بالجواب الذى فيه نفع للناس ، وهدًى للعالمين !

سأل المشركون النبىّ عن الهلال : مابالُه يبدو صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً ؟ .

وكان الجواب : « يسألونك عن الأهلة .. قل هى مواقيتُ للناس والحجّ ، وليس البِرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البِرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » ! .(١٨٩ : البقرة)

وكذلك الشأن فى فتية أصحاب الكهف . . إن العبرة الماثلة فى قصتهم ، ليست فى عددهم قلّ أو كثر .. فليكونوا ثلاثة ، أو مائة ، أو ألفاً .. أو ماشئت من عدد . . وإنما العبرة ، هى فى موقف هؤلاء الفتية من الضلال الذى كان

مطبقاً على البيئة التي يعيشون فيها . وفى تخليص أنفسهم من هذا الضلال ، وفى التضحية بالأهل ، والمال ، والوطن ، فى سبيل العقيدة ، والفِرار من وجه الفتنة فيها !.

وماذا يعود على من يقف على هذه القصة ، إذا هو علم على وجه التحديد ، عدّةَ هؤلاء الفتية وعدد السنين التى لبثوها فى كهفهم ؟ .

إن كثرة العدد أو قلته ـ سواء فى الأشخاص أو فى السنين ـ لا يقدّم ولا يؤخّر كثيراً أو قليلاً ، فى مضمون القصة ومحتواها ، وفى الأثر النفسى الذى تحدثه ، وفى المعطيات التى تجىء منها وتقع موقع العبرة والعظة !

وفى قوله تعالى : « فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ، ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً » إلفات إلى النبىّ الكريم ، بألا يقف من مقولات القائلين فى أصحاب الكهف ، وفى تحديد الزمن الذى عاشوا فيه ، والبلد الذى كانوا من أهله ، وفى أسمائهم ، وأسماء ملوكهم ، ورؤسائهم . . إلى غير ذلك ـ ألا يقف النبىّ من هذه المقولات موقف الباحث الطالب للحقيقة . . فكل هذه قشور ، لا لباب فيها ، وإنما اللباب ، هو الأحداث والمواقف ، واتجاهات تلك الأحداث وهذه المواقف . .

والمراد بالمراء الظاهر هنا ، هو ، ألا يدفع النبىّ ما يقول القائلون فى عِدّة أصحاب الكهف ، وأسمائهم ، وأزمانهم ، وغير هذا ، وألا يستقصى الحقيقة فى هذا . فالحقيقة ، وما وراء الحقيقة ، سواء فى هذا المقام !

فأى جديد يدخل على محتوى القصة إذا كان عدد أصحاب الكهف كذا أو كذا ، أو كان أسماء أبطالها فلاناً ، وفلاناً وفلاناً ، أو غير فلان وفلانٍ وفلانٍ ؟ وقل مثل هذا ، فى الزمن الذى الذى لبثوه فى الكهف ، وفى البلد الذى جرت فيه أحداث القصة !

الآيات : (٢٧ — ٣١)

* « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » (٣١)

التفسير :

الملتحد : الملجأ ، الذى يميل إليه الإنسان فراراً من شىء يتهدده . . ومنه الإلحاد ، وهو الميل عن طريق الحق . . فراراً من أضوائه المسلطة على الباطل الذى يحرص عليه أهله .

الفرط : الإسراف فى الشىء ، وتبديده ، وتضييعه . . وهو ضدّ التفريط . والسرادق : الفسطاط ، المحيط بما فيه . والمهل : خُثارة الزيت ، ونفايته ، وقيل ، هو النحاس المذاب . . والمرتفق : مايرتفق به الإنسان ، ويعتمد عليه

فى معاشه ، فيجعله رفيقاً له . . والسندس : الرقيق من الديباج . . والإستبرق : الخشن الغليظ من الديباج .

قوله تعالى :

* « واتل ما أوحِىَ إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً » .

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى : « فلا تمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفتِ فيهم منهم أحدًا . . . الآية » وما بين الآيتين ، وهو قوله تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنينَ وازدادوا تسعاً * قل الله أعلم بما لبثوا له غَيْبُ السموات والأرض أبْصِرْ به وأسمع ما لهم من دونه من ولىّ ولا يشرك فى حكمه أحداً » . . هذا الفصل بين الآيتين ، لا يقطع الصلة بينهما ، إذ كان ما فُصل به بينهما هو أشبه بالتعقيب على الآية السابقة على هذا الفاصل ، إذ قد نُهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أن يمارى فى أخبار القوم إلا مراءً عابراً ، لا يقف طويلاً عنده ، ولا يستفتى فى شأن أصحاب الكهف أحداً ممن يُظَنُّ عندهم علم منه . . وكذلك مما يدخل فى النهى عن المراء هذا الخبر الذى جاء به القرآن عن مدة لبثهم فى الكهف ، وهو ثلاث مائة سنين وتسع سنوات ، فهذا الخبر الذى أخبر به الله سبحانه وتعالى عن مدة لبثهم فى الكهف ــ سوف يمارى فيه المارون ويطعنون فى صدقه وإذن فقد كان على النبىّ ألا يقف لهذه المماراة، بل يلقاها فى غير اكتراث ، وليقلْ لنفسه ، وللمؤمنين ، وغير المؤمنين : « اللهُ أعلمُ بما لبثوا له غيب السموات والأرض » فعلمه سبحانه هو العلم الحق ، وما سواه فظنون وأوهام . . وقد قال الله سبحانه قولَهُ الحقّ « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » .

ــ ثم كان قوله تعالى : « واتل ما أُوحى إليك من كتاب ربك . . الآية »

طيًّا لهذا الحديث عن لُبث أصحاب الكهف فى الكهف ، وإلفاتاً للنبىّ إلى كتاب الله الذى معه ، وإلى ما نزل إليه من ربّه ، فى شأن أصحاب الكهف ، الذين يكثر الحديث عنهم ، ويدور الجدل حولهم . . وإنه بِحَسْبِ النبىّ فى هذا أن يتلو ما أوحى إليه من كلمات ربّه ، وألا يُلقى أذنه إلى ما يدور فى مجالس القوم وأنديتهم ، من حديث عن أصحاب الكهف . . فما جاء به القرآن الكريم ، هو الحق الذى لا يُنقض أبداً ، ولا يتبدّل على الزمن ، بما يستجدّ من أخبار ، وما ينكشف من آثار : « لا مبدّل لكلماته » .

— وفى قوله تعالى : « ولن تجد من دونه ملتحداً » توكيد لقوله تعالى : « ولا تستفت فيهم منهم أحداً » . . والملتحد هو الملجأ ، وهو الذى يفرّ إليه الإنسان فى الأزمات ، وليس للنبى ملجأ إلا الله ، فى كل أمرٍ يطرقه ، وفى هذا الامتحان الذى يُمتحن به فى أصحاب الكهف من المشركين ، وأعوان المشركين .

قوله تعالى :

* « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

قيل إن هذه الآية نزلت فى شأن بلال وصهيب ، وغيرهما من المستضعفين من المسلمين الأولين ، فى مكة ، وأنها دعوة للنبىّ الكريم أن يجعل عاطفته كلها مع هؤلاء المستضعفين ، وألا يصرفه عنهم صارفُ الاهتمام بأصحاب السيادة والرياسة فى قريش ، طمعاً فى هدايتهم إلى الله ، ليكون له منهم سندٌ للدعوة الإسلامية ، وقوة تدفع عن المسلمين الأذى والضرّ ، مما لا تفتر قريش عن سوْقه إليهم .

وإذا صح سبب نزول هذه الآية على هذا الوجه ، فإن المراد بها قبل كل

شىء ، هو مواساة كريمة وعزاء جميل من رب كريم ، لهؤلاء المستضعفين ، الذين نظر إليهم ربّهم ، فجعلهم فى هذا المقام الكريم الذى يوجّه إليه وجهُ النبىّ كلّه ، دون أن يعطى المشركين لفتة منه ! فإنه شتان ما بين هؤلاء وأولئك . . فهؤلاء المسلمون المستضعفون، قد آمنوا بربّهم ، يدعونه بالغداة والعشىّ ، وأولئك المشركون ، قد ألهتهم دنياهم ، وأعماهم ضلالهم ، فشُغلوا عن النظر فى أنفسهم ، وضلّوا الطريق إلى ربّهم .

— وفى قوله تعالى : « واصبر نفسك » إشارة إلى أن هذا الجانب الذى يقفه النبى مع أصحابه المستضعفين ، هو جانب فيه شدة وبلاء ، ومعاناة ، لا يصمد له إلا أولو العزم والصبر ! إنه انحياز إلى الجانب الضعيف ، وإيثار له على الجانب القوىّ ، ذى الجاه والسلطان .

— وفى قوله تعالى : « وكان أمره فرطا » تسفيه لهؤلاء المشركين ، وماهم فيه من عنادٍ يسوقهم إلى الهلاك ، ويخرجهم من الدنيا ، وقد خسروا الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى :

* « وقل الحقُّ من ربِّكم . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . إنّآ أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يَشْوِى الوجوه بئس الشراب وساءَتْ مرتفقاً »

فى هذه الآية وعيد شديد لهؤلاء المشركين الذين لجّوا فى طغيانهم ، وعدوانهم . . فقد أعدّ الله لهم « ناراً أحاط بهم سُرَادِقُهَا » أى ضربت عليهم النار ، فكانت سُرادقاً يشتمل عليهم ، لا يخرجون منه أبدا . . إنها دارهم ، لا دارَ لهم غيرها . . وإن استصرخوا فيها طالبين الغوثَ ، كان الصُّرَاخ لهم ، والإسراع لنجدتهم ، هو أن يُسْقَوْا ماء آسنا ، يَغْلِى ، فيشوى الحرُّ المتصاعد

منه وجوههم قبل أن يصل إلى أفواههم . . ذلك هو نُزُلهم ، وتلك هى عيشتهم . . فبئس الشراب شرابهم ، وبئس العيش عيشهم !

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات إنّا لا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملًا * أولئكَ لهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجرِى مِنْ تحتِهِمُ الأنْهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهَبٍ ويلبسُونَ ثياباً خُضرًا من سندسٍ وإستبرق متكئين فيها على الأرائك . . نعم الثوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتفقًا »

هذا هو الوجه الآخر من وجوه الناس يوم القيامة ، وهم المؤمنون ، الذين آمنوا ، ثم أتبعُوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ، فهؤلاء لا يَضيع أجرُهم عند الله . . فقد أعدّ لهم سبحانه جنات عدن ، أى جنات الخلود ، لا يخرجون منها أبداً . يقال : عدَن فى المكان ، أى أقام واستقرّ .

هذه الأنهار التى تجرى من تحت الجنات ، وتلك الأساور من ذهب التى يحلّوْن بها ، وهذه الثياب الرقيقة من السندس ، وما فوقها من استبرق ، وتلك الأرائك التى يتكئون عليها . . هذا كلّه ، هو بعض ما يجد أصحاب الجنة فى الجنة ، مما كانت تشتهيه أنفسهم فى الدنيا ، ولا يجدون سبيلًا إليه ، إما لقِصَرِ أيديهم عنه ، وإما لنزولهم طوعاً عما فى أيديهم ، إيثارًا لدينهم ، واستعلاء على متاع هذه الحياة الدنيا الذى لا بقاء له . أما مافى الجنة من نعيم ، فهو مما لم ترَه عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

الآيات : (٣٢ — ٤٤)

* « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (٤٤)

التفسير :

الصعيد : التراب .. والزّلق : الذى لانبات فيه .. والحسبان : المبالغة فى الحساب ، والمراد به أنه من تقدير الله ، وأنه واقع بحساب وبقدر .

غوراً : أى غائراً ، قد انسرب فى باطن الأرض ..

فى هذه الآيات مَثَل ضربه الله سبحانه وتعالى لرجلين ، أحدهما مؤمن بالله ، والآخر كافر به ..

فالرجلان بهذا الوضع يمثلان الإنسانية كلها ، إذ كان الناس أبداً فريقين : مؤمنين ، وكافرين .. مستجيبين لدعوة الرسل مؤمنين بها ، أو منكرين لها ، خارجين عليها .. وإذ كان ذلك من كسبهم واختيارهم ، فقد استحق كل أن ينال جزاء ماعمل : « وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

والرجلان اللذان تعرضهما الآيات ، يقف كل منهما فى الجانب الذى اختاره ، وحرص عليه ، واعتزّ به ..

أما الكافر .. فقد وسّع الله له فى الرزق .. فجعل له الله سبحانه وتعالى : « جنّتين من أعنابٍ » وهاتان الجنّتان قد تكونان فى قطعتين من الأرض، تنعزل كل منهما عن الأخرى .. فهما فى مرأى العين جنّتان ، وقد تكونان جنّة واحدة ، ولكنها لاتساع رقعتها ، تبدو وكأنها جنتان ..

والرأى الأول هو المقول به هنا ، حيث جاء حديث القرآن عنهما باعتبارهما جنتين ، لكل جنة كيانها ، واعتبارها ..

وقد حُفّت هاتان الجنتان بالنخيل ، ليكون ذلك أشبه بسور لهما .. إلى جانب التمر الذى يجىء من هذه النخيل ..

وليس هذا ، فحسب ، فإن بين أشجار العنب زروعا أخرى ، من حبٍّ ، وفاكهة ، وغيرها .. فهما إذن جنّتان فى أعدل بقعة .. تربتها خصبة ، وماؤها كثير .. « وفجّرنا خلالهما نهراً » .. ولهذا كان ثمرهما كثيراً مستوفياً : « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » أى لم ينقص شىء مما ينبغى أن تعطيه الأرض الطيبة من ثمرات مايغرس فيها .. ثم إلى جانب هذا كان للرجل مال آخر يثمّره وينمّيه ، كالأنعام ، وغيرها : « وكان له ثمر » .

هذا هو الرجل الكافر .. صاحب خير كثير أفاضه الله عليه ، ورزق واسع

ابتلاه الله به .. وكان شأنه ـ لو عَقَل ـ أن يحمد الله ، ويذكر ما ألبسه من نِعَمه .. ولكنه لم يفعل هذا ، بل كفر بالله ، ولم يوجه إليه وجهاً ، أو يرفع إليه بصراً ..

وليته وقف عند هذا ، بل لقد استبدّ به الغرور ، وركبه الطيش والنّزَق ، فأخذ يكيد للمؤمنين ، ويغريهم بالضلال ، ليفتنهم فى دينهم .. إذ كانوا مع إيمانهم بالله ، فى فقرٍ ومعسرة ، وهو مع كفره بالله ، فى هذا الغنى الواسع ، وذلك الثراء العريض !! فلِمَ الإيمان بهذا الإله إذن ؟ وما جَدْوى التعلق به إذا كان المتعاملون معه ، على تلك الحال من الفاقة والبؤس ؟ هذا هو المنطق الذى يبشّر به هذا الكافر ، فى الناس ، ويحاجّ المؤمنين به .

« فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفرًا » .

هذا موقف من مواقف الفتنة ، يُلقِى بها هذا الكافر بين عينى المؤمن . إنه أكثر من صاحبه المؤمن مالا وأعزّ نفرًا ! ولا سبب لهذا إلا لأنه كافر .. وصاحبه مؤمن ! ذلك هو منطق مَنْ أعمى الله أبصارهم وختم على قلوبهم . يقول لصاحبه : « أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفرًا » ولو كنتَ على ما أدين به لكنت مثلى ، ولكان لك ما لى ، من مال ، وبنين ، وجاه ، وقوة !

ولم يقف الضلال بهذا الضّال عند هذا ، بل لقد أخذ بيد صاحبه ، يطوف به فى جنتيه ، حتى يريَه بعينيه هذا النعيم الذى ينعم به مَن كفر بالله !! .. ويمضى الرجل المؤمن معه فى رحاب هذه الجنات العريضة .. ولعلّ صاحبه قد هيأ له أكثر من مجلس فيها ، وأعدّ له أكثر من لون من ألوان الطعام من ثمارها . !

وينتظر الكافر أن تتحرك فى نفس صاحبه شهوةٌ إلى هذه الجنات ، أو يبدو فى عينيه إكبارٌ وإعظام لها ولصاحبها ـ فلا يرى شيئاً من هذا كلّه ، يدخل على نفس صاحبه ، أو يقارب مابينه وبينه قِيدَ أنْمُلة ..

وهنا ، يجىء الكافر إلى صاحبه من ناحية أخرى ، فيُسمعه بأذنه مارآه بعينه ، لعل الكلمة هنا تفعل مالا تفعله الصورة . . واستمع إلى تصوير القرآن لهذا المشهد ، وهو يصف الرجل وقد دخل بصاحبه إحدى جنتيه :

* «ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسه قال مآ أظن أن تبيدَ هذه أبداً * ومآ أظن السّاعة قائمة ولئن رُددت إلى ربّى لأجِدَنّ خيراً منها منقلباً » .

هكذا يكيد هذا الضالّ لصاحبه ، ويجىء إليه بما يظن أنه يملأ قلبه حسرة وحسدًا .. فيتحدث عن جنّته هذا الحديث الذى يتيه فيه فخراً وزهوا ، بما يملك بين يديه ، من ثراء طائل ، وجاه عظيم .. إنه ينظر إلى جنّته كأنه يراها لأول مرة ، فيقول : « ما أظن أن تبيد هذه أبدا » .. ثم ينظر فى وجه صاحبه ليرى وقع هذه الكلمة على مشاعره ، فيرى استنكارا وامتعاضاً ، وتعجباً ، من هذا الغرور الذى يُذهل صاحبه عن بَدَهيّات الأمور .. فهل رأى هذا الأحمق الجهول ، فيما يدور فى دنياه هذه ، شيئاً لايبيد أبدا ؟ وهل هذه أولُ جنّة كانت فى هذه البقعة ؟ ألا يجوز أنها قامت على أنقاض دُور كانت عامرة ، أو جنات كانت خيرا من جنته ؟

ولكنّ هذا الغوىّ الضالّ لايرعوى عن غيّه وضلاله ، ولايجد فيما رأى على وجه صاحبه من أمارات الاستنكار ، والاستهجان ، مايمسك لسانه عن هذا المذيان .. فيُتبع قولته : « ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا » بقولة أشنع منها ، وأمعن فى الضلال .. فيقول : « وما أظنّ السّاعة قائمة » ! وهكذا يُخلى شعوره من كلّ خاطرة تخطر له ، عما وراء هذا العالم المادىّ الذى هو غارق فيه ! !

ويتفرّس مرّة أخرى فى وجه صاحبه ، ليرى وقع هذه الكلمة عليه ، إذ هى ركيزة إيمانه ، وأساس معتقده ، بعد الإيمان بالله ..! وربّما كرّر هذه القولة مرة

ومرة : « وما أظن الساعة قائمة » ! .. وذلك إنما يقوله ويكرره إمعاناً منه فى الكيد لصاحبه ، والسخرية به ، وبالدين الذى يدين به . !

ثم لا يقف هذا الآثم الجهول عند هذا الحدّ ، بل يقطع على صاحبه تلك الخواطر التى تنبعث من إيمانه ، والتى تمسك به على طريق الإيمان ، وتبعث فى نفسه العزاء بما سيلقى فى الآخرة من جزاء حسنٍ عند الله ، ذلك الجزاء الذى يُزرى بكل ما يملك الناس جميعاً فى هذه الدنيا من مالٍ ومتاع — فيقول لصاحبه : « ولئن رددتُ إلى ربّى لأجدَنّ خيراً منها منقلباً » .. فلست وحدك ياصاحبى الذى يذهب بحظّه الذى يؤمّله فى الحياة الآخرة .. فأنا كذلك سيكون لى فى الآخرة — إن كانت هناك آخرة — حظ خير من حظك ، ومقام خير من مقامك .. فكما أنا وأنت فى هذه الدنيا على ما ترى ، كذلك سنكون فى الآخرة على هذا الحال .. أنا صاحب جنات خيرٍ من هذه الجنات .. وأنت كما أنت ! فالوضع هناك هو الوضع هنا .. تماماً كما ننتقل أنا وأنت من بلد إلى بلد .. لن يغيّر هذا الانتقال من حال أىٍّ منا شيئاً !

وهكذا يذهب الضلال بأهله إلى تلك المذاهب الممعنة فى السّفه والجهالة ، فيرون حقائق الأمور مقلوبة على وجوهها ، وهم فى هذا الوضع المنكوس الذى أقاموا فيه رءوسهم مقام أرجلهم .. وفى هذا يقول الله تعالى : « أفمن زُيّن له سُوء عمله فرآه حسناً » (٨ : فاطر) ويقول سبحانه : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مَسّهُ الشّرُّ فيَئُوسٌ قَنُوطٌ * ولئن أذَقْناهُ رَحْمَةً مِنّا منْ بعد ضَرّاء مَسّتْهُ ليقُولَنّ هٰذا لِى وَمَآ أظُنُّ السّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلَىٰ رَبّىٓ إنّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » (٤٩ — ٥٠ : فصلت) .

وهنا يأخذ الموقف بين الرجلين وضعاً آخر . فيتكلم المؤمن ، ويستمع الكافر . .

* « قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرتَ بالذى خلقك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رجلاً » ؟ .

فهذا هو محصّل ما وقع فى نفس المؤمن من هذا الحديث الطويل ، الذى تحدث به الكافر ، صاحب الجنتين ، المدلّ بجاهه وثرائه .. إنه لم يستطع بحديثه هذا ، وبما استعرض على الطبيعة من خيرات جنتيه ، وما يؤمله فى الآخرة من جنات خير منهما ـ لم يستطع أن يغيّر من موقف صاحبه ، أو يؤثر فى إيمانه شيئاً . . فيلقاه صاحبه بما اعتاد أن يلقاه به ، من إنكارٍ عليه لهذا الضلال الذى هو غارق فيه ، « أكفرت بالذى خلقك من ترابٍ ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً ؟ » .

وفى توجيه الخطاب إليه بصيغة الماضى . . هكذا : « أكفرت » بدلاً من صيغة الحاضر : « أتكفر » إشارة إلى أن هذا التنكر الذى هو فيه ، ليس أمراً مستحدثاً عنده ، بل هو داء قديم ، سكن فى كيانه ، واستقر بين مَسرى الدم من عروقه ، لا يغيره شىء . ولو كان ذلك مما يمكن أن يتغيّر لكان له فى هذا الموقف الذى وقف من جنتيه ، ورأى فيهما ما رأى من آيات الله وآلائه ـ ما يَخفق له قلبه ، وترِقّ به مشاعره .

وفى هذه الصورة التى رسمها المؤمن لصاحبه ، وأراه فيها وجوده كله ، منذ كان تراباً ، ثم كان نطفة ، ثم كان علقة ، فجنيناً ، فوليداً ، فطفلا ، فرجلا مكتمل الرجولة كما هو الآن ، يختال تيها وعجباً ـ فى هذه الصورة ينظر المؤمن إلى صاحبه ، فيكره أن يكون على سَمت هذه الصورة التى شوهها الكفر ، ومسخها الضلال .. وفى سرعة خاطفة ينتزع نفسه من جنب صاحبه ، ويعزل شخصه عنه .. ثم ـ وبسرعة خاطفة أيضاً ـ يرسم لنفسه صورة ارتضاها ، واطمأن إليها . . فيقول :

* « لكنا هو اللهُ ربى .. ولا أشرك بربى أحداً » ..

فها هو ذا أنا . . أنا هُو الذى تراه أيها الصاحب والذى عرفت موقفه من قبل .. « الله ربى ولا أشرك بربى أحداً » أما أنت فكما رأيتَ وعلمتَ ! .

فالضمير : « هو » — كما أحبّ أن أفهمه — هو ضمير الغيبة ، المقابل لضمير الحضور « أنا » المدغم فى حرف الاستدراك لكن ..

وبهذين الضميرين : ضمير الحضور ، وضمير الغيبة ، تتحقق للرجل المؤمن صورتان : صورة حاضرة له بعد أن دخل الجنتين ، مجدِّدة للصورة الماضية التى كانت له قبل أن يدخل مع صاحبه جنتيه .. فهو هو لم يتغير منه شىء ، بعد تلك التجربة المثيرة التى أدخله فيها صاحبه ، وأراد بها أن يجرّه وراءه ، فى طريقه القائم على الكفر والضلال ! .

وإذ ينكشف كل من الرجلين لصاحبه على هذا الوجه . . يعود المؤمن إلى صاحبه ، ناصحاً هادياً ، لا كما جاء إليه صاحبه مُضلاً مُغوياً . . فيقول له :

* « ولولا إذ دخَلْتَ جنّتك قُلْتَ ما شاء الله .. لا قوّة إلا بالله . . إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالا وولداً . . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنّتِكَ ويرسلَ عليها حُسْباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . . أو يُصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً » .

وفى هذا العرض ، يكشف المؤمن لصاحبه الموقف الذى كان جديراً به أن يقفه ، حين دخل جنّتيه ، ورأى فيهما ما رأى من بديع صنع الله ، وروعة قدرته ..فيقول : « ماشاء الله » أى هذا ما شاءه الله وقدّره لى . . ولو شاء غير هذا لكان .. فسبحانه له الحمد ، والشكران . . وليس لى من هذا الذى بين

يدى شىء . . فأنا العاجز الضعيف ، الذى لا يملك من أمره شيئاً . . « لا قوة إلا بالله » . . فما لم يكن للإنسان عون من الله ، فهو الضائع المخذول . .

ثم إذ لم يكن من « الكافر » أن يقول هذا القول ، ولم تحدثه نفسه بشىء منه . . لوّح له صاحبه بهذا النذير الشديد ، وقرعه بتلك القارعة المزلزلة : فقال له : انظر إلىّ « إن ترنِ أنا أقلّ منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنّتك » . . فذلك ليس بالذى تعجز عنه قدرة الله . . فالله سبحانه يملك الناس ويملك ما بأيدى النّاس ، وبسلطان قدرته ، وبتقدير حكمته ، يبدّل أحوالَ الناس كيف يشاء ، فيُفقر ويغنى ، ويُذلّ ويُعزّ ، ويضع ويرفع . . فإذا كنتُ كما ترانى الآن أقلّ منك مالاً وولداً ، فغيرُ بعيد على الله أن أصبح أو أمسى ، فإذا أنا أكثر منك مالا وأعزّ نفراً . .

وليس الأمر واقفاً عند هذا ، بل إنه من الممكن أن يقع فى يدىّ من المال والبنين أكثر مما معك ، ثم إن هذا الذى معك يفرّ من بين يديك ، فتلتفت فلا تجد منه شيئاً . .

وانظر إلى قوله تعالى : « فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنّتك ويرسل عليها حُسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً » . . ثم أمعن النظر فى هذا العطف بين الفعلين : « يؤتين » و « يرسل » حيث تتجلّى من ذلك قدرة الله فى التبديل والتغيير ، ففى الحال التى يرسل الله فيها رحمة من رحمته إلى هذا الفقير المعدم ، فيُلبسه ثوب الغِنى ، يرسل على هذا الغنىّ ما يذهب بغناه ، وإذا هذه الجنة الزاهية الزاهرة ينقضّ عليها « حسبان » من السماء ، أى جائحة ، تجىء فجأة ، وتهبّ من حيث لا يدرى أحد ، فتعصف بها ، وتجعلها رماداً ! أو يغور هذا الماء المتدفق من هذا النهر الذى يقيم حياتها ، فإذا هى وقد جفت شرايين الحياة منها ، وأخذت تموت موتاً بطيئاً بين عينى صاحبها الذى لا يملك لدائها دواء . .

والذى تذهب نفسه حسرةً مع كل يوم يطلع عليها وعليه . .

وقد صَدَق حَدْس الرجل المؤمن ، وصحّ ما توقعه لصاحبه هذا الذى أطغته النعمة ، فنصب لله الحربَ ، يقاتل أولياءه ، ويصدّهم عن دينه ، ويُضلّهم عن سبيله . .

* « وأحيط بثمره .. فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها .. ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا .. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً » .

وهكذا تجىء الخاتمة ، وتحقّ كلمة الله على القوم الظالمين .. وإذا هذه الجنة وقد أحيط بها ، وشملها البلاء من كل جانب ، وإذا صاحبها يقف على أطلالها كما يقف الأب على أشلاء أبنائه ، وقد نزلت بهم نازلة أخذتهم جميعاً .. « فأصبح يقلب كفيه » حسرةً وكمداً .. « على ما أنفق فيها » من مال وجُهد « وهى خاوية على عروشها » .. لاترقّ لنحيبه ، ولا تستجيب لصراخه ، بل تظل هكذا خاوية على عروشها ، لاتُريه منها إلا هذا الموات الذى يزيد فى حسرته ، ويضاعف من آلامه ..

— فقوله تعالى : « وهى خاوية على عروشها » حال كاشفة عن حاله ، وهو يندبها ، ويقطّع نَفْسه حسرة عليها ، وهى بين يديه جثة هامدة ، لا يُجدى معها هذا العويل الصارخ ، وهذا النحيب المتصل . .

— وقوله تعالى : « ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً » هو حكاية لقوله الذى سيقوله يوم القيامة ، يوم يُساق إلى موقف أشدّ هولاً ، وأقسى قسوةً من هذا الموقف الذى هو فيه إزاء جنته تلك الخاوية على عروشها . . ففى هذا اليوم تشتد حسرته ، ويتضاعف ندمه ، ويقول فيما يقول : « يا ليتنى لم أشرك

بربى أحداً » . . ولكن أنّى له أن يصلح ما أفسد ؟ لقد فات وقت الندم . . وهل نفعه بكاؤه ، وأغنت عنه حسرته فى الدنيا ، حين أخذ الله جنّته ، وأرسل عليها حُسباناً من السماء ، فأصبحت خاوية على عروشها ؟ إن يكن ذلك قد ردّ عليه ما فات ، فقوله يوم القيامة : « ياليتنى لم أشرك بربى أحداً » قد يكون له أثر فى إصلاح ما أفسد . . وأما وقد هلكت جنته إلى غير رجعة ، فإنه هو أيضاً هنا فى الهالكين المعذبين فى النار ، من غير أملٍ فى الخروج مما هو فيه .

ولو كان قوله : « ياليتنى لم أشرك بربى أحدًا » . . لو كان هذا قولًا قاله فى دنياه ـ كما يقول بذلك بعض المفسِّرين ـ لكان له فى هذا القول رَجعة إلى الله ، ولا نتقل به من الكفر إلى الإيمان ، فإنه لا زال فى دار عمل .

* وقوله تعالى : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرًا » . . هو تعقيب على موقف هذا الكافر الذى لجّ به كفره . . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . أما فى الأولى فقد أهلك جنته أمام عينيه وبين أهله وقومه ، وأما فى الآخرة : فهو إلى مصير أسوأ من هذا المصير الذى أحرق كبده ، وأذلّ كبرياءه . . وليس له هنا أو هناك من فئة ينصرونه ، ويحولون بينه وبين أمر الله فيه . . « وما كان منتصرًا » هو بذاته وبما كان يجده فى كيانه من عزة وقوة . .

* وقوله تعالى : « هنالك الولايةُ لِلهِ الحقِّ هو خير ثواباً وَخَيْرٌ عُقْبًا » .

« هنالك » : الإشارة هنا إلى يوم القيامة ، وإلى كل موقف يكون بين الحق والباطل .

والولاية : النصرة ، والتأييد ، والعون . .

والمعنى : أنه فى يوم القيامة ، حيث يشتد البلاء ، ويعظم الكرب ،

وتدور أعين الناس فى كل مدار ، باحثين عمن يدفع عنهم هذا البلاء ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الخلاص والنجاة . . فيتلفت الصديق إلى صديقه ، والابن إلى أبيه ، والأخ إلى أخيه ، والعابد إلى معبوده الذى كان يعطيه كل ولائه ، ويفوض إليه كل أموره . . ولكن لا أحد يسأل عن أحد ، ولا أحد يَعنيه شأن أحد . . « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

والمؤمنون بالله وحده ، هم الذين يجدون ولاءهم لله سبحانه ، هو الذى قد خفّ لنجدتهم ، فى ساعة العسرة ، وأخذ بيدهم إلى جانب النجاة . . فكل ولىّ كان للإنسان فى دنياه قد فرّ عنه فى هذا الموطن ، أما من كان ولاؤه لله ، فقد وجد هذا الولاء إلى جانبه ، مؤيداً له ، وناصرًا !

فالولاية الحقّ ، هى ما كانت لله ، حيث لا تخذل صاحبها أبدًا . . أما وَلاَيةُ غير الله ، فإنها سراب خادع ، إذا جاءه الإنسان لم يجده شيئاً .

والضمير « هو » يعود إلى معنى الولاية ، وهى الإيمان بالله ، والالجأ إليه ، فذلك خيرٌ « ثوَابًا » أى جزاء وخير « عقباً » أى عاقبة ، حيث الجنة والنعيم المقيم . .

الآيات : (٤٥ — ٤٩)

* « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم

مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (٤٩)

التفسير :

* قوله تعالى :

« واضرب لهم مثل الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا » .

فى الآيات السابقة على هذه الآية ، ضرب الله مثلًا لرجلين ، أحدهما كافر ، والآخر مؤمن ، وهذان الرجلان ـ كما قلنا ـ يمثلان الإنسانية كلها ، فالناس جميعاً رجلان : كافر ، ومؤمن . . والكافر إنما كانت آفته تلك من واردات الحياة الدنيا ، وزخارفها ، والاغترار ببهجتها وزينتها . . وهذا ما كشفت عنه الآيات السابقة ، فى المحاورة التى كانت بين الكافر وصاحبه ، واغتراره بما بين يديه من مال وبنين .

— وفى قوله تعالى : «واضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » الآية ، ما يكشف عن الصورة الحقيقية لهذه الدنيا ، التى ينخدع لها الناس ، ويفتنون بها ، ويبيعون من أجلها آخرتهم ، ويقطعون بسببها كل صلة تصلهم بالله رب العالمين . .

فهذه الدنيا ، وما يموج فيها من ألوان الزخارف والمُتَع ، وصور الجاه والسلطان ، لا تعدو أن تكون زرعاً ، زها واخضرّ ، وأزهر ، وأثمر . .

ثم جاء الوقت الذى يُحصد فيه . . فإن لم يحصد ، قطعت الأرضُ صلتها به . . فصار هشيمًا ، وحطامًا . تذروه الرياح كما تذرو التراب !

— « وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ مُقْتَدِرًا » فيخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ ، ويقيم من الأرض الجديب جنات وزروعاً ، ويحيل الجنات والزروع إلى جدب وقفر . . وكذلك يَخْلق الناس من تراب ، ثم يعيدهم ترابًا ، ثم يردّهم بشرًا سويًّا ! .

قوله تعالى :

* « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » .

تشير الآية إلى أبرز لونين وأزهاهما فى هذه الحياة الدنيا ، التى يُفْتَنُ الناس بها ، ويُشْغلون بها عن الله ، وعن الحياة الآخرة ، وهما المال والبنون . . وقدم المال على البنين ، لأنه المطلب الأول للإنسان ، فكل إنسان طالب المال، وليس كل إنسان طالبًا للولد . . فكثير من الناس لا يطلبون الأولاد ، بل يعيشون بغير سكن إلى زوجة ، ولكنهم جميعاً لا يستغنون عن طلب المال . . ومع هذا فإنه إذا حصل الإنسان على الولد ، تعلق قلبه به ، وكان الولد عنده مقدّمًا على المال !

فالمال والبنون ، هما أشدّ مظاهر الحياة فتنةً للناس ، وأكثرها داعية لهم ، وأقواها سلطانًا عليهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم .. » (١٥ : التغابن) .

— وفى قوله تعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملا » إشارة أخرى إلى ماهو خير من الأموال والأولاد ، مما يمكن أن يحصّله الإنسان فى هذه الحياة الدنيا .. وتلك هى « الباقيات الصالحات » التى هى الإيمان بالله ، الذى هو رأس الأعمال الصالحة التى أمر الله بها من عبادات ، ومعاملات ،

وأخلاق .. فهذا هو الذى يبقى للإنسان ، ويجده حاضراً يوم القيامة ، أماماسواه فهو سرابٌ ، وقبض الريح لايجد الإنسان منه شيئاً .. « يوم لاينفع مالٌ ولا بنون * إلاّ من أتى الله بقلب سليم » .. ووصْفُ الباقيات بالصالحات ، هو عَزْلٌ لها عن باقيات غير صالحات ، وهى المنكرات التى عليها أهل الضلال والكفر ، إذ هى باقية لهم يجدونها يوم القيامة ، ويجدون منها الحسرة والندامة

قوله تعالى :

* « ويوم نُسيّر الجبال وترى الأرض بارزةً وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً »

الواو هنا للاستئناف ، لعرض صورة للحياة الآخرة ، التى أشارت إليها الآيات السابقة تلميحاً فى قوله تعالى : « والباقيات الصالحات » حيث أن هذه الباقيات الصالحات لاتتجلّى آثارها كاملة ، إلا يومَ القيامة . .

وفى هذا اليوم تتبدل الأرض غير الأرض والسموات .. فتسيّر الجبال وتزول عن مواضعها ، حيث تسوّى بالأرض . وإذا الأرض كلها « بارزة » أى عارية ، لايخفى منها شيء ، وإذا الناس جميعاً قد حشروا بعد أن خرجوا من قبورهم ، ولم يترك منهم أحد .

قوله تعالى :

* « وعُرضوا على ربّك صفّا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرةٍ .. بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » .

بيان لعرض الناس على الله بعد الحشر ، وفى هذا العرض يكون الحساب ، ثم الجزاء ، حيث يلقى كل عامل جزاء ماعمل .. من خير أو شر : « فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٧ ــ ٨ : الزلزلة) .

ــ وفى قوله تعالى : « وعُرضوا على ربّك صفّاً » إشارة إلى أن هذا العرض الذى يجمع الإنسانية كلها ، والخلائق جميعها ، هو عرض ينكشف فيه كل

إنسان ، ويظهر فيه كل مخلوق ، فلا يختفى أحد فى زحمة هذه الجموع الحاشدة .. فهم جميعاً فى عين القدرة صفٌّ واحد ، يأخذ كلٌّ مكانه ، ويلقى حسابه وجزاءه .. « يومئذ تُعْرَضون لاتخفى منكم خافية » (١٨ : الحاقة) .

— وفى قوله تعالى : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرة » إشارة إلى أن الناس يجيئون يوم القيامة ولا شىء معهم ، مما كان لهم فى الحياة الدنيا ، من مال وبنين ، وما كان بين أيديهم من جاه وسلطان .. لقد جاءوا عراةً حفاةً ، عُزْلا من كلّ شىء ، ضعافاً ، مجردين من كل قوة ، كما ولدوا عراة ، حُفاة ، لا شىء معهم !

— وفى قوله تعالى : « أول مرة » إشارة إلى الخَلْق الأول للإنسان ، وهو خَلْق الميلاد .. وفيه إشارة أيضاً إلى أن الأطوار التى ينتقل فيها الإنسان من الطفولة إلى الصبا والشباب ، والكهولة والشيخوخة .. وإلى مايجدّ للإنسان فى هذه الأطوار من أحوال التملك ، والتسلط ، وغيرها ــ إنما هى جميعها من تدبير الله سبحانه وتعالى للإنسان ، ومن صنيعه به .. فكأنه فى تنقله من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، هو خلق جديد له .. غير الخلق الأول الذى وُلد به ! ولكن البعث إنما يكون على صورة أشبه بصورة الميلاد ، من حيث التعرّى من كل شىء مَلَكه الإنسان فى الدنيا .

— وقوله تعالى : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » هو خطاب خاص موجّه إلى أولئك الذين أنكروا البعث : « وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لايبعث اللهُ من يموت » (٣٨ : النحل) ..

قوله تعالى :

* « ووُضع الكتابُ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالِ هذا الكتابِ لايغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّك أحداً » ..

الكتاب هنا ، هو الكتاب الذى سجلت فيه الأعمال ـ كل الأعمال ، الصالحة ، والسيئة .. كما يقول سبحانه : « وإذا الصحف نُشرت » (١٠ : التكوير) .. حيث ينكشف لكل إنسان عمله ، من خير أو شر .. « يومئذ يَصْدُر النّاسُ أشْتَاتاً لِيُرَوْا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرّة شرًّا يره » (٦ ـ ٨ : الزلزلة) .

ويعجب الذين كانوا لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، مما يطّلع عليهم به هذا الكتاب .. لقد أحصى عليهم كل شىء .. ويقولون : « مالِ هذا الكتابِ لايُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها » . . إنهم ما كانوا يحسبون أن شيئاً من هذا سيقع ، وأنه إذا وقع فلن يكون على تلك الصورة التى فضحت كل شىء كان منهم فى دنياهم .. « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٢٩ : الجاثية) ..

الآيات : (٥٠ — ٥٣)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآئِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوآ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » (٥٣)

التفسير :

* قوله تعالى : « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجنِّ فَفَسق عن أمر ربّه أفتتّخذونه وذرّيته أولياء من دونِي وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بَدلا » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد عرضت الناس بين يدى الله يوم القيامة ، فإذاهم مؤمنون ، وكافرون .. مؤمنون قد آمنوا بالله ، واستجابوا لدعوته على يد رسله ، وكافرون قد خرجوا عن أمر الله ، وعصوْا رسله .. وهنا صورة فى الملأ الأعلى، تشبه هذه الصورة التى وقعت فى الأرض .. حيث جاءت دعوة الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجدوا امتثالا لأمر الله .. ولكن كائنا من كائنات الملأ الأعلى قد غلبت عليه شِقوته ، ففسق ، أى خرج عن أمر ربّه ، وأبى أن يسجد !! فطرده الله من الملأ الأعلى ، وألقى به إلى العالم الأرضى ، صورةً للتمرد والعصيان ، ودعوة من دعوات الإغواء والإفساد والفسوق عن أمر الله ، إلى جانب الدعوة التى يحملها رسل الله إلى الناس بالهدى والإيمان ..

وفى قوله تعالى : « أفتتخذونه وذرّيته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ ؟ » تحذير للناس من هذا العدوّ ، الذى لعنه الله وطرده من رحمته ــ تحذير لهم من أن ينقادوا له ، فمن انقاد له فقد فسق ، أى خرج عن أمر ربّه ، كما فسق هذا الرجيم الملعون عن أمر ربّه ، وكان وضعه فى المجتمع الإنسانى المؤمن ، كوضع إبليس من الملائكة ..

ــ وفى قوله تعالى : « بئس للظالمين بدلا » إشارة إلى هذا الخسران المبين الذى لحق أهل الضلال الذين استغواهم الشيطان فغوَوْا ، وخُيّروا بين الهدى

والضلال ، وبين الله والشيطان .. فانحازوا إلى جانب الشيطان وركبوا معه مركب الغواية والضلال ..

قوله تعالى :

* «ما أشهدتهم خَلْق السّموات والأرضِ ولا خَلْق أنفسهم وما كنتُ متخذ المضلّين عضداً » ضمير النصب فى قوله تعالى : « ما أشهدتهم » يراد به أولئك المعبودون ، الذين يعبدهم المشركون من دون الله !

فهؤلاء المعبودون أيًّا كانوا ، هم ممن زيّن الشيطان للنّاس عبادتَهم ، حيث أضلّهم ، وأعمى أبصارهم ، ثم دعاهم فاستجابوا له ، وعبدوا من المعبودات من صوّره لهم ، وأراهم فيه الإلهَ الذى يَعْبدونه .. ومن هنا صح أن يكون كلّ من عبد غير الله ، عابداً للشيطان ، أصلا ، وإن كان فى واقع الأمر عابداً صنما ، أو إنساناً ، أو مَلَكاً .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك .. أنت وليّنا من دونهم .. بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون » (٤٠ — ٤١ : سبأ) .

— وفى قوله تعالى «ماأشهدتهم خَلْقَ السّموات والأرضِ » تشنيع على أولئك الذين يعبدون غير الله ، ويستجيبون لدعوة إبليس ، وذريته .. فإن إبليس لم يكن هو وذريته إلا خلقاً من خلق الله ، وأنهم ليس لهم سلطان مع الله ، فما شهدوا خلق هذا الوجود ، وما فيه من سموات وأرضين ، بل إنهم لم يشهدوا خلق أنفسهم .. إذ كيف يشهد المخلوق خلق نفسه ؟ وإذن فما سلطان هؤلاء المخلوقين على الناس ، وهم خلق مثلهم ؟ وكيف يقبل مخلوق أن يستذلّ لمخلوق مثله ، بل ويعبده ، من دون الله ؟ .

— وفى قوله تعالى : « وما كنتُ متخذَ المضلين عَضُداً » عرض لإبليس

وذريته فى هذه الصورة الساقطة من بين المخلوقات جميعاً ، وأنهم مضلّون ، مفسدون .. وأنه إذا جاز أن يتخذ الله سبحانه وتعالى من خلقه عَضُداً ، أى معيناً ـ وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ فإنه لن يتخذ أرذل خلقه ، وأبعدهم من رحمته .. إنه لا يستقيم أبداً أن يقرّب الإنسانُ أبغضَ الناس إليه ، ويتخذهم أعواناً له ، وبين يديه من هم أحباؤه ، وأصفياؤه ، وأهل ودّه ؟ فكيف بالله سبحانه وتعالى ، وبحكمته وعلمه بخلقه ؟

قوله تعالى :

* « ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فَدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً » .

الموبق : المَهْلك ، وهو هنا النار التى يلقى فيها المشركون .

وهذه الآية عرض عام لما يكون بين المشركين ، وبين من اتخذوهم شركاء من دون الله ، حين يجدّ الجدّ ، وتقع ساعة الحساب .. عند ذلك ينادى منادى الحق على هؤلاء المشركين : أن ادعوا شركاءكم الذين زعمتم ، أى الذين اصطنعتموهم من مزاعم أوهامكم وظنونكم .. « فَدَعَوْهم .. فلم يستجيبوا لهم » .. بل أنكروهم ، وأنكروا أن لهم صلة بهم .. أو لم يستجيبوا لهم أصلا ، إذ كان ماعبدوه وهماً باطلاً ، لاوجود له .. « وجعلنا بينهم موبقاً » أى جعلنا بين المشركين وبين من أشركوا بهم « موبقاً » أى حاجزاً من النار يُلقى فيها هؤلاء المشركون ، دون أن تمتد إليهم يد من هؤلاء الشركاء الذين كانوا يعبدونهم ، ويُلْقون إليهم بالمودة والولاء ، فهذا الذى كان بين المشركين وبين معبوداتهم من ولاء ومودة ، قد صار هلاكا ، ووبالا ، وناراً تلظّى !

وفى قوله تعالى : « شركائى » بإضافتهم إليه سبحانه وتعالى ، مع أنهم ليسوا شركاءه على الحقيقة ـ فى هذا عرض لتلك الجريمة الشنعاء على أعين هؤلاء

المجرمين، ليروا فى هذا الموقف ماذا كان منهم من منكر غليظ ، إذ جعلوا لله شركاء ! إن ذلك أشبه بعرض جثة القتيل على قاتله ، وهو مقودٌ إلى القصاص منه ، حتى يعاين من ذلك، الحالَ التى سيصير إليها ، وهى أن يقتل كهذه القِتلة !

قوله تعالى :

* « ورأى المجرمُونَ النّار فظنّوا أنّهم مواقِعوها ولم يجدوا عنْها مَصْرفًا » .

المجرمون هنا ، هم هؤلاء المشركون ، الذى عُرضوا فى هذا العرض الذى جمع بينهم وبين من أشركوا بهم من دون الله .. فقد أمروا أن يدْعوا شركاءهم ، فلما دعوْهم ولم يستجيبوا لهم ، تلفتوا فإذا هى النّار بين أيديهم .. فلما رأوها ظنوا أنهم واقعون فيها .. وقد صدق ظنهم فى هذه المرة ، وأصبح يقيناً واقعاً .. إذ لامصرف لهم عنها ، ولانجاة لهم من الوقوع فيها ..

الآيات : (٥٤ — ٥٩)

* « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ آيَاتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ

لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » (٥٩)

التفسير :

بعد هذا العرض الكاشف الذى جاءت به الآيات السابقة ، لمواقف المؤمنين والمشركين ، وأولياء الرحمن وأتباع الشيطان ، ومايرى هؤلاء وأولئك من جزاء فى الآخرة ـ بعد هذا ، تعود آيات القرآن الكريم ، فتلتقى بالمشركين من أهل مكة مرة أخرى ، وتذكرهم بما يُتْلَى عليهم من آيات الله .. فيقول سبحانه :

*« ولقد صرّفنا فى هذا القرآن للناس من كلّ مثلٍ وكان الإنسان أكثَرَ شىء جَدلا » وفى الإشارة إلى القرآن الكريم بقوله تعالى : « هذا القرآن » ـ وهو معروف لهؤلاء المخاطبين ـ تنويه بشأن هذا القرآن ، وبمقامه العالى الرفيع ، الذى لايراه إلا من رفع رأسه عن تراب هذه الأرض ، واستشرف ببصره إلى مطالع الحق فى آفاقه العليا ، عندئذ يأخذ الإنسان الوضع الذى يمكن أن يرى فيه من معالم الوجود ، مالم يكن يرى منها شيئا ، وهو ينظر إلى موقع قدميه !

والتصريف : هو الإرسال ، والبعث ، والسوْق .. ومنه تصريف الرياح ، وهو هبوطها من أكثر من جهة .. وتصريف الأمثال : سوقها ، وبعثها ، مثلاً بعد مثل ..

وكلّ مثل فيه العبرة والعظة ، وفيه مايفتح للعاقل الطريق إلى الحقّ والهدى .. فكيف وهى أمثال كثيرة ، تلتقى مع كل عقل ، وتتجاوب مع كلّ فهم .. ولكن الجدل والمراء ، آفة الإنسان ، والحجاز الذى يحجز عقله عن أن يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين النور والظلام ! « وكان الإنسانُ

أكثر شىء جدلا » .. فتلك هى بليّة الإنسان ، ومضلّة الضالين ، ومهلك الهالكين ، من أبناء آدم .

قوله تعالى :

* « وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربّهم إلاّ أن تأتيهم سُنّةُ الأولين أو يأتيهم العذابُ قُبُلا » .

الناس هنا ، ليسوا مطلَق الناس ، ولكنهم المكابرون المعاندون ، الذين غَلَبَتْ عليهم شِقوتهم ، فركبوا رءوسهم ، وأبوا أن يُصيخوا لصوت الدّاعى الذى يَدْعوهم إليه ، وهم مشرفون على هاوية سحيقة تُلْقِى بهم فى مهاوى الهلاك .. والهدى الذى جاءهم : هو القرآن الكريم .

فهؤلاء الأشقياء الضالون ، لم يمنعهم مانع من خارج أنفسهم أن يؤمنوا ، ويستغفروا ربّهم على مافرط منهم فى جَنْب الله ، وفى جَنْب رسل الله ـ مامنعهم من ذلك إلا مارُكّب فيهم من عنادٍ عنيد وجدلٍ سقيم ، وأنهم ـ وهذا شأنهم ، وتلك حالهم ـ لن يؤمنوا « إلا أن تأتيهم سنّةُ الأولين » وهى وقوع البلاء بهم ، وأخذهم بما أخذ الله به الضالين المكذبين قبلَهم ، من هلاك مبين ، لايُبقى لهم أثراً .. « أو يأتيهم العذابُ قبلا » أى أو حين يطلع عليهم العذاب فيرونه عِيانا ، مقبلا عليهم ، كما رأى فرعون الموتَ مقبلا عليه .. فقال : « آمنت » !

ففى النظم القرآنى الذى جاءت عليه الآية حذف ، يدل عليه السياق .. وتقديره : « وما منع الناسَ شىء أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربّهم ـ ولكنهم لن يؤمنوا ـ إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذابُ قبلاً » .

قوله تعالى :

* « وما نُرْسِلُ المُرْسَلين إلا مُبشّرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطِل ليدحضوا به الحقّ واتخذوا آياتى وما أنذروا هُزُوًا » .

أى إنه ليس هناك قوة خارجة عن كيان الإنسان تُرغمه على الإيمان بالله ..
وإن رسل الله الذين أُرسلوا لهداية الناس ، ودعوتهم إلى الحق ، لايملكون
هذه القوّة التى تحمل الناس حملاً على الهدى ، وتكرههم إكراها على الإيمان :
« وما نُرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فتلك هى مهمّة الرسل ، وهذه
هى وظيفتهم فى أقوامهم . . يبلغونهم رسالة ربهم ، وما تحمل إليهم من
مُبَشِّراتٍ ومُنْذِرات ..

— وفى قوله تعالى : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق» بيان
لموقف المعاندين الضالين ، من دعوة الرسل ، وأنهم يلقون رسالة الله ، ودعوة
الرسل بالمراء والجدل ، وليس بين أيديهم فى هذا الجدل ، إلا الباطل يرمون به
فى وجه الحق ، يريدون به أن يُدحضوه ، أى يوقعوه ويهزموه..

— وفى قوله تعالى : « واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوًا » تهديد ووعيد لهؤلاء
الذين يسخرون بآيات الله ، ويهزءون برسله ، وبما ينذرونهم به من عذاب الله ،
فيقولون فيما يقولون: « فَأْتِنَا بما تعدنا.. إن كنت من الصادقين» (٣٢ : هود) .

* قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ
مَا قَدَّمَتْ يداه إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا »

وإنه لا أظلم من إنسان جاءه من يذكّره بآيات ربّه ـ وكان من شأنه
بما معه من عقل أن يذكر آيات ربه المبثوثة فى هذا الوجود ، ويتهدّى إليه ،
ويؤمن به ـ من غير أن يدعوه أحد « فأعرض عنها » وأصمّ أذنه عن الاستماع
إليها ،« ونَسِيَ ما قدّمتْ يداه » من آثام وضلالات » .

إنه لهو الظلم أعظم الظلم ، وهو الضلال أظلم الضلال ، أن يقع الإنسان

فى الوحل ، ثم يجىء من يمدّ يده إليه لاستنقاذه ، بعد أن يكشف له الحال الذى هو فيه ، فيأبى أن يسمع ، ويمتنع أن يجيب ! .

وانظر إلى تلك المنّة العظيمة ، بإضافة هذا الإنسان الجحود ، إلى « ربّه » واستدعائه إليه باسمه تعالى : وبابآ لائه التى يضفيها عليه ، وهو يأبى إلا نفوراً ، وإلا إمعاناً فى الكفر والضلال ! .

—وفى قوله تعالى : « إنا جعلنا على قلوبهم أكِنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً » بيان للعلة الكامنة فى هؤلاء الضالين ، الذين أعرضوا عن آيات الله ، واتخذوا آياته وما أنذروا به هُزُواً ، وتلك العلّة هى أن الله سبحانه وتعالى ـ لحكمة أرادها ـ قد جعل على قلوبهم « أكِنّة » ، أى حُجباً تحجبها عن الهُدى ، وأن تفقه آيات الله ، وجعل فى آذانهم « وقراً » أى صمماً ، فلا تسمع ما يتلى عليها من آيات الله . . فهم لهذا لن يهتدوا أبداً : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة) . « أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمَى أبصارَهم » (٢٣ : محمد) .

* قوله تعالى : « وربّك الغفور ذو الرّحْمَةِ لو يؤاخِذُهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعِدٌ لن يجدوا من دونه موئلا » .

الموئل : الملجأ ، والمهرب . . والخطاب للنبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، وفحوى الخطاب مراد به قومه . . وإذ كشفت الآية السابقة عن جحود الإنسان ، وكفره بآلاء ربّه ، وإعراضه عن الاستماع لدعوته إليه ـ فقد جاءت هذه الآية لتكشف عن سعة رحمة الله ومغفرته لعباده ، وهم على حرب معه ومع أوليائه . . فقد وسعتهم رحمته ، ومغفرته ، فلم يعجل سبحانه وتعالى لهم العذاب ، ولم يأخذهم بما هم أهل له من نقمة وبلاء ، كما أخذ الأمم السابقة من قبلهم ، بل أمهلهم ،

وأفسح لهم المجال لإصلاح ما أفسدوا من أمرهم ، والرجوع إلى ربهم من قريب . .

وهذا ـ ولا شك ـ من خصوصيات هذه الأمة ، التي اختصها الله بها ، تكريماً لرسوله الكريم ، حيث يقول سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٣٣ : الأنفال) . . وأكثر أنبياء الله ورسله ، قد شهدوا بأعينهم مصارع أقوامهم .. ولكن هذه الأمة قد عافاها الله من هذا الابتلاء ، وأكرم نبيّها فلم يفجعه فى أهله وقومه .. وكان من تمام هذه النعمة على النبي الكريم وعلى أمته ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يَدَع هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، حتى رأى بعينيه قومه جميعاً يدخلون فى دين الله أفواجا ، ورأى العرب جميعاً أمّةً مؤمنة بالله ، وحتى تلقّى من ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ هذا الثناء العظيم على أمته بقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس .. تأمرون بالمعروف ، وتنهوْن عن المنكر . . وتؤمنون بالله (١١٠ : آل عمران)

وفى قوله تعالى : « بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موْئلا » ـ إشارة إلى أن مغفرة الله ورحمته ، لا يدفعان بأسه عن القوم المجرمين .. فهناك حساب ، وهناك جزاء ، تُوفّىَ فيه كل نفس ما كسبت .. وليس لأحد سبيل إلى الفِرار من هذا الحساب ، وذاك الجزاء ! .

قوله تعالى :

* « وتلك القرى أهلكناهم لمّا ظلموا وَجَعَلْنَا لمهلكهم موعداً » .

الإشارة هنا ، إلى تلك القرى التى أهلكها الله من قبل ، كقرى عاد ، وثمود ، ولوط . . فهذه القرى وغيرها ممن كفروا بآيات الله وعصوا رسله ، قد أهلكهم الله ، وعجّل لهم العذاب فى الدنيا ، ولم يمهلهم كما أمهل أهل هذه القرية « مكة » والقرى التى حولها ، رحمةً منه سبحانه وإكراماً لنبيه

للكريم . . وفى هذا تهديد لمشركى مكة ، وإلفات لهم إلى أنهم واقعون تحت حكم القوم الهالكين ، فتلك هى سنة الله التى قد خلت فى عباده ، لمن كفروا بالله ، وعصوا رسله . . وقد كفر أهل مكة بالله ، وعصوا رسله . . وإن فيما أخذ الله به القرى الظالمة من قبلهم لعبرة لهم . . وعلى هذا فإنه وإن أمهل الله أهل هذه القرية ، فلم يعجل لها الهلاك ، فإنهم هالكون لا محالة : « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

فالضمير فى « لمهلكهم » يعود إلى أهل مكة ، وهو أولى من عوده إلى أهل القرى المشار إليها فى أول الآية .. إذ كان قوله تعالى : « لما ظلموا » يحمل معه الموعد الذى أهلكوا فيه ، وهو عند ظلمهم وكفرهم بالله ، وعدوانهم على رسلهم .. فعود الضمير إلى أهل مكة الذين أشار إليهم قوله تعالى : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يُؤاخِذُهُمْ بِمَا كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلًا » .. أولى من عوده على أهل القرى ، إذ يحقق معنًى جديداً ، فيه تهديد لمشركى مكة ، وقطع لآمالهم فى هذه الحياة ، وتصحيح لظنونهم الكاذبة ، وأمانيهم الباطلة ، وأنهم ليسوا خالدين فى هذه الدنيا . .

الآيات : (٦٠ — ٦٤)

* « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ

فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِمَا قَصَصًا » (٦٤)

التفسير :

فى هذه الآيات ، وما بعدها ، قصة عجيبة ، وحدث عَجَب ، بين موسى ، والعبد الصالح.. حيث تجرى الأحداث فى مُتّجه على غير مألوف الحياة ، وما اعتاد الناس أن يُجْروا أمورهم عليها ..

وقبل أن نلتقى بآيات الله ، وما تحدث به عن تلك القصة ، نودّ أن نشير إلى أمور :

أولها : أن هذه القصة لم تذكرها التوراة .. ومن ثَمّ فقد أنكرها اليهود وأنكروا أن يكون « موسى » المذكور فيها هو موسى بن عمران رسول الله .. ! ! وهذا ماجعل كثيراً من المفسِّرين يقيمون لهذا الإنكار من اليهود وزنا ، ويجعلون من مقولاتهم عن « موسى » هذا ، أنه رجل آخر غير موسى ابن عمران ، ثم يحاولون أن يجعلوا له نسباً لا يتفقون عليه .. فهو عند بعضهم موسى بن مشيا بن يوسف بن يعقوب ، وعند آخرين ، هو موسى بن أفرائيم بن يوسف .. إلى كثير من تلك المقولات التى لاحدود لها ..

وهذا كله مردود على أهله ، سواء اليهود ، أو مَن جعل لمقولاتهم حساباً فى هذا المقام . .

فليس فى القرآن الكريم أىُّ ذِكرٍ فى غير هذا الموضع لموسى ، غير موسى رسول الله ، فإذا ذُكر « موسى » فى أى موضع من القرآن ، فهو « موسى » رسول الله ، مادام ذكره مجرداً من كل وصف خاص ، يفرّق بينه وبين موسى رسول الله .

وليس إنكار اليهود حجةً على القرآن ، وليس عدم ذكر هذه القصة فى التوراة حجةً على القرآن كذلك .. وذلك :

١ — أن القرآن مصدِّقٌ للكتب السابقة — ومنها التوراة — ومهيمن عليها .. فهى جميعها تبع له ، وليس هو تابعا لها . .

٢ —أن التوراة قد دخلها كثير من التحريف ، والتبديل ، والحذف ، والإضافة .. وقد ذهب بهذا مالها من حجة على أنها هى كتاب الله ، الذى يلتزم المؤمنون بكل ماجاء فيه ..

٣ — ليس كل ماجاء فى القرآن عن موسى وقومه قد ذكرته التوراة ، وما ذكرته التوراة لايتفق أكثره مع ماجاء فى القرآن .. ومن ثمَّ فلا وجه لاختصاص هذه الحادثة بالإنكار . . من جهة اليهود .. فقد أنكروا كثيراً مما جاء فى القرآن من أحداث ، بل لقد أنكروا ماهو موجودٌ فعلا فى التوراة مما تحدّث به القرآن من رجم الزانى ، وقد أشرنا إلى هذا عند تفسير قوله تعالى : « وكيف يحكّمونك وعندهمُ التوراة فيها حكم الله » (٤٣ : المائدة) . وأكثر من هذا ، فإنهم أنكروا مافى التوراة من وصف لرسول الله ، كما يقول تعالى : « الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة » (١٥٧ : الأعراف)

٤ — هذه الحادثة أمر خاص بموسى ، ودرس من دروس العلم العالى ، الواقع على مستوى فوق مستوى الحياة الإنسانية .. وهو حدَث يمكن أن يقع لموسى ، أو لغيره من الناس ، نبياً كان أو وليًّا من أولياء الله ، أو عبداً من عباده الصالحين .. ومع هذا ، فإن ذكر « موسى » مجرداً من كل صفة ، لايعنى إلا موسى الذى له ذكر فى القرآن ..

وثانيها : هذه المقدِّمة التى تمهد بها الآيات القرآنية لهذا اللقاء ، الذى وقع بين موسى والعبد الصالح ، يثير بعض التساؤلات ، كأن يقال :

ماداعية هذا الحوار الذى بين موسى وفتاه ؟ وماشأن هذا الحوت ؟

وما متعلّق القصة به ؟ وما هذه الصخرة التى جاوزها موسى وفتاه ثم عادا إليها ؟.
وأخيراً : ماذا لو خلت القصة من كل هذا ، ووقع اللقاء بين موسى والعبد الصالح من غير هذه المقدّمات ؟ أفى ذلك ما يذهب بشىء من مواقع العبرة والعظة التى جاءت القصة من أجلهما ؟

والجواب على هذا :

أولا : أن القصة ـ كما قلنا ، وكما سنرى ـ تجرى أحداثها فى اتجاه على غير الاتجاه المألوف للناس ، حسب تقديرهم وتفكيرهم . . وإذ كان موسى سيدخل فى هذه التجربة ، وسيجرى مع هذه الأحداث على صورة يرى فيها أنه يسير فى وضع مقلوب ، حيث أنه يمشى القهقرى ، على حين أنه يريد أن يتجه إلى الأمام لغاية يقصدها ـ إذ كان ذلك كذلك ، فقد كان من الطبيعى أن يعانى شيئاً من هذه التجربة بنفسه ، ومع إنسان يفكر على مستوى تفكيره ، ويجرى فى الحياة على ما اعتاد الناس منها ، وهو فتاه الذى كان رفيقَ رحلته . .

فموسى مع فتاه . يسيران سيراً مُجِدّا إلى غاية يقصدانها ، وهى الصخرة ، التى سيلتقى عندها موسى مع العبد الصالح .. ومع هذا يمرّان بتلك الصخرة ، ويأويان إليها ، ثم يجاوزانها ، حتى يُجهدهما السفر .. ثم ينكشف لهما فيما بعد ، أن هذه الصخرة ، هى الصخرة المطلوبة ، فيعودان إليها مرة أخرى .. ولو كان لموسى شىء من هذا العلم الذى سيكشفه له العبد الصالح لَمَا دار هذه الدورة الطويلة ؛ ولما بذل كل هذا الجهد الضائع !

إن موسى هنا يبحث عن حقيقة مادّية وهى « الصخرة » ومع أن الصخرة كانت تحت قدميه ، فإنه لم يرَها ، ولم يتعرف عليها .. ولو رُفع عنه حجاب الغيب للزم مكانه ، ولما سعى هذا السّعى المجهد ..

وفى هذا درس بليغ للإيمان بالقَدَر المتحكّم فى مصائر النـــاس .. وأنه

لوانكشف للناس ماقدّر لهم لما سَعَوْا ، ولما تحركوا ، ولجمدت الحياة بالناس حيث هم .. لايعملون ، ولايتحركون !

وخذ مثلا « الغلام » الذى قتله العبد الصالح .. أترى لو انكشف لأبويه منه ما انكشف للعبد الصالح .. أكانا يبغيان الولد ؟ بل أكانا يتزوجان ؟ .. وقلْ مثل هذا فى كل شأن من شئون الحياة ، خيرها وشرها . . أكان أحد يتحرك إلى غاية أبداً ؟ وكيف والغايات ـ بحكم القدر ـ تَطلب الناس ، ولا يطلبونها ؟ أمّا ونحن محجوبون عن أقدارنا ، فإننا ـ بحكم الرغبة فينا ـ نسعى إلى أقدارنا ، ونسلك إليها مسالك مستقيمة أو معوجة .. حتى نبلغها .. وتلك هى سنة الحياة فينا ، والقوة الدافعة لنا إلى السعى والكماح . .

يتحرك الناس ويتحركون .. ثم ينتهى بهم المطاف إلى ما يَحْمَدون أو مالا يَحمدون .. ولو انكشفت لهم عواقب الأمور لوقفوا حيث هم ، ولما ركبوا المخاطر والأهوال .. ولكنهم ـ مع هذا ـ مدفوعون إلى أقدارهم ، يركبون إليها كل هول وخطر .. يقول ابن الرومى :

أقدِّم رجلاً رغبةً فى رغيبةٍ ... وأمسك أخرى رهبةً للمعاطب

أخاف على نفسى وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب

ألاَ من يُرينى غايتى قبل مذهبى ! ... ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب ؟

وثانياً . أن موسى يريد أن يحصّل علماً .. والعلم هو أعظم وأكرم مايطلبه الإنسان فى الحياة .. وشأن العلم وتحصيله ، شأن كل ثمرة طيبة ، يريد الإنسان الحصول عليها .. لابد من مجهود يُبذل ، وإنه على قدْر الجُهد المبذول ، تكون الثمرة التى تقع ليد الطالب .

ومن هنا كان على موسى إذن أن يبذل من جُهده هذا الذى بذله ، حتّى يصل إلى النبع الذى يريد أن يُروى منه ظمأه ، ويَشْفى عنده غليله ، وينال طَلِبتَه . . !

أما الحوت ، فهو حدث عارض من أحداث هذا الموقف ، ولون من ألوانه ، حتى تكتمل الصورة ، شأنه فى هذا شأن الفتى الذى صحب موسى ، وشأن الصخرة ، وشأن البحر .. ولولم يكن الحوت لكان هناك شىء آخر يقوم مقامه .

ونعود إلى الآيات ، وسينكشف لنا عند النظر فيها ، ماتزداد به هذا القول. بيانًا ووضوحًا .

قوله تعالى .

* « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُبًا » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة قد نعَتَتْ على المشركين عنادهم وضلالهم ، وتأبيهم عن الهدى ، وقد جاءهم عَفْوًا صفواً من غير أن يسعوْا إليه ، ويبذلوا الجهد فى طلبه ، وقد كان جديراً بهم ، أن يطلبوا الهدى لأنفسهم ، وأن يبذلوا فى ذلك الجهد والمال . . ولكنهم لم يفعلوا .. سفهاً ، وغفلة ! فإذا جاءهم الهدى ، وطلبهم قبل أن يطلبوه ، ثم زهدوا فيه ، وردوه ردا منكرا ، كان ذلك سفهاً فوق سفه ، وغفلة فوق غفلة . .

وهذا نبى كريم من أنبياء الله ، هو موسى عليه السلام ، قد كلمه ربه ، وأنزل عليه آياته وكلماته ، ومع هذا ، فهو لا يزال يطلب العلم ، ويجدّ فى تحصيله ويبتغى المعرفة ، ويسعى للاستزادة منها . .

وفى هذا ما يكشف عن مدى ما ركب سفهاء قريش وحمقاها ، من جهل فاضح ، وكِبر صبيانى غشوم ! إذ كانوا يرون أنهم لايحتاجون إلى علم ، حتى ولو كان هذا العلم يطرق أبوابهم ، ويدخل عليهم بيوتهم ! ..

— وقول موسى لفتاه : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » .. يريد به أنه على نية صادقة ، وعزم وثيق ، من أمره هذا الذى هو متجه إليه ، وأنه لا ينقطع عن السير إليه حتى يبلغه .. فمعنى لا أبرح أى لا أزال ، وهو فعل من أفعال الاستمرار ، وخبره محذوف ، تقديره لا أبرح سائراً .. ومجمع البحرين ملتقاهما ..

وقد اختلف فى البحرين .. ما هما ؟ وأين ملتقاهما ، أو مجمعهما ؟

والذى أميل إليه ، أنهما خليج السويس ، وخليج العقبة ، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبى ، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالا ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء .. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما .. أى هو مجمعهما ، وهو مجمع البحرين ..

ويقوّى هذا الرأى عندنا ، أنّ تحرّك موسى بعد خروجه ببنى إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء ، حيث ضُرب فيها التيه على بنى إسرائيل أربعين سنة .

ومن جهة أخرى ، فإن رأس شبه الجزيرة الجنوبىّ صخرى ، تكثر فيه الصخور ، والآكام ، وتتشابه فيه معالم تلك الصخور ، الأمر الذى اختلط به على موسى وجه الصخرة التى كانت موعداً له مع هذا العبد الصالح ، الذى جدّ فى طلبه ..

أما ما يذهب إليه بعض المفسرين من أنه « طنجة » حيث يلتقى البحر الأبيض بالبحر المحيط ، فهو بعيد إلى حد الاستحالة !

وأيا ما كان الأمر ، فإنه ليس للبحرين ، أو لمجمعهما شأن فى كبير مضمون القصة ومحتواها . .

— وقوله تعالى : « أو أمضى حُقُباً » هو حكاية لقول موسى لفتاه ، وتتمة لما قاله له .. من أنه لا يزال هكذا سائراً حتى يبلغ مجمع البحرين وأنه إذا لم يبلغ مجمع البحرين ، و لم يهتد السبيل إليه ، فسيظل ماضياً فى سيره ، لا يتوقف أبداً..وفى هذا مايشير إلى أن موسى — عليه السلام — وهو يطلب مجمع البحرين ، لم يكن يعلم على سبيل القطع واليقين أين يجتمع هذان البحران ، وإنما هو يتظنّى ذلك ظناً . .

وهذا ما يكشف عنه قوله « لا أبرح » التى تفيد أنه لا يكف عن الطلب والبحث .. وأما قوله : « أو أمضى حُقُباً » فهو يكشف عن حرصه الشديد على تحقيق هذه الرغبة ، حتى أنه إذا لم يبلغها فى المدى الذى قدره ، فإنه لن يكف عن السعى ، بل يظل هكذا طولَ حياته ، راصداً لهذه الغاية ، ساعياً إليها . . شأن من تتسلط عليه رغبة ، ويستولى عليه أمل ، فيعيش حياتَه كلها ساعياً لهذه الرغبة ، جارياً وراء هذا الأمل ، إلى أن يتحقق أو يموت دونه .

والحُقُب : الأزمان المتقطعة ، تجىء زمناً بعد زمن ، والحِقبة : القطعة من الزمن ، وجمعها القياسى : حِقَب لا حُقُب .. ولكن النظم القرآنى أصل يقاس عليه ، ولا يقاس هو على ما ضُبط من مقاييس اللغة .

وقوله تعالى :

* « فلما بلغا مجمع بينِهما نسيا حوتَهما فاتخذ سبيلَه فى البحر سَرَباً » .

هذه حادثة وقعت فى طريقهما إلى مجمع البحرين .. لقد بَلَغاه فعلا ، ولكنهما لم يكونا يدريان أن هنا هو مجمع البحرين .. !

ويظهر أن موسى وفتاه لم يكونا قد سارا سيراً طويلا ، حسبما كان ذلك

فى تقديرها ، شأن من يطلب أمراً عظيما ، ويسعى وراء أمل ضخم ، فيرصد له من كيانه عزماً وثيقاً ، ويهيىء نفسه — سلفاً — لملاقاة الشدائد والأهوال فى سبيله .. فإذا عرض له المطلوب من قريب ، أو لاحت له بعض أماراته ، لم يلتفت إليه ، ولم يقع فى ظنه أنه هو الذى يجدّ فى طلبه !! إنه أبعد من هذا ، وإن الثمن المطلوب له لأغلى مما بذل له !!

وهنا يستكثر المفسرون من الأقوال فى « الحوت » الذى كان معهما ، والذى نسياه عند مجمع البحرين !

والذى نؤثر أن نقول به ، هو أن هذا الحوت ليس إلا سمكة من أسماك البحر ، وحوتا من حيتانه ، وأنهما قد اصطاداه ، أو صِيد لهما ، وحملاه حيًّا معهما ، ليمكث أطول مدة ، دون أن يتعفن ، حتى يعدّاه طعاما لهما .. والحوت أكثر أنواع السمك احتمالا للحياة خارج الماء .. ولعلّ هذا هو السرّ فى اختيارهما لهذا النوع من السمك ، ليكون زاداً لهما يتزودان به فى رحلتهما .

ولقد غفل الفتى عن أمر هذا الحوت ، فانسرب منه إلى البحر .. إذ كانا يمشيان على الشاطىء ويتخذانه دليلا لهما إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين .. فهما يسيران على شاطىء أحد البحرين إلى أن يلتقى بشاطىء البحر الآخر .. حيث يكون مجمعهما ، وحيث توجد الصخرة ! .

* « فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ! وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا » .

أى فلما جاوزا مكانهما الذى كانا فيه عند مجمع البحرين ، وسارا حتى أجهدهما السير ، وهما يطلبان هذا المجمع ، قال موسى لفتاه : « آتنا غداءنا لقد

لقينا من سفرنا هذا نصباً » أى تعباً شديداً ، نحتاج معه إلى شيء من الراحة ، وشيء من الطعام ، حتى نقوى على مواصلة السير .. وقد أسرع الفتى ليعدّ الطعام ، ويهيء الحطب والنارَ ، ليشوى عليها الحوت الذى معهما .

وبحث الفتى عن الحوت فلم يجده .. وهنا تذكر أنه نسى الحوت عندما أويا إلى الصخرة ، واستراحا قليلا عندها .. فقال لموسى فى أسفٍ ، وعجب من أمره : « أرأيتَ إذ أوينآ إلى الصخرة ؟ . فإنى نسيت الحوتَ ! ! وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » وأحمله معى فيما أحمل من زادٍ ومتاع .. ثم إنه لم يمهل موسى ، وينتظر رأيه فى هذا الأمر ، بل اندفع إلى البحر ، ليصطاد شيئاً يجعلانه غذاء لهما .. « واتخذ سبيله فى البحر عجباً » أى أنه اتجه إلى البحر فى قوة وعزمٍ حتى يكفّر عن فعلته تلك ، التى عدّها إهمالا منه ، ولايجبره إلا أن يسدّ هذا النقص ، ويأتى بحوت كهذا الحوت الذى ضاع ، أو بشيء يغنى غَنَاءه . . ! ولهذا كان منه هذا الأسلوب العجب فى الاندفاع نحو البحر . !

* وقوله تعالى : « قال ذلك ما كنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً » .

القصص : تتبع الأثر ..

وهنا يتذكر موسى أمارة من تلك الأمارات التى يتعرف بها إلى المكان الذى يلتقى عنده بالعبد الصالح .. فالعبد الصالح هناك عند صخرة ، عند ملتقى البحرين .. ولكن عند ملتقى البحرين صخور لا حصر لها ، تمتد إلى مسافات بعيدة ، قد تبلغ مسيرة أيام .. فأى الصخور هى ؟ إنها صخرة يفقد موسى عندها شيئا من متاعه ، على غير قصدٍ منه ، وإلاَّ ماعُدّ هذا فقداً .. هكذا كانت الأمارة الدالة على التقائه بالعبد الصالح .. وقد تكون هذه الأمارة وحياً تلقاه من ربّه ، أو رؤيا رآها فى منامه ..

وأما وقد فُقد الحوت عند تلك الصخرة التى أويا إليها .. فتلك إذن هى

الصخرة المقصودة .. ولهذا ، لم يلتفت موسى إلى فتاه ، ولا إلى ما كان من نسيان الحوت ، بل اتجه إلى المكان الذى عنده الصخرة ، قائلا : « ذلك ما كنا نبغ » أى ذلك هو المقصد الذى كنا نقصده ، والموضع الذى نبحث عنه .. « فارتدّا على آثارهما قصصا » أى فعادا إلى الوراء ، يقصان آثارهما التى تنتهى بهما إلى حيث أويا إلى الصخرة ، التى نسى الحوت عندها ..

ذلك ـ فى تقديرنا ـ هو أقرب مفهوم إلى تلك الآيات ، وما ضُمّت عليه من أسماء ، ومسمّيات .. أما ماذهب إليه المفسّرون من مقولات ، لايحتملها النظم القرآنى على أية صورة من صور الاحتمال ، فذلك مارأينا أن نصرف النظر عنه ، فهو أقرب إلى الأساطير والخرافات منه إلى أى شىء آخر !!

الآيات : (٦٥ — ٧٨)

* « فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤)

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » (٧٨)

التفسير :

فى هذه الآيات تبدأ أحداث هذا الحدث العظيم الذى كان موسى على موعد معه ، والذى من أجله قطع هذه الرحلة المثيرة ، واحتمل ما احتمل من جهد وعناء .

وهنا يلتقى الرجلان : موسى والعبد الصالح ، ويقول المفسرون ، والمحدثون عن هذا العبد الصالح إنه « الخضر » الذى يصفونه بصفات عجيبة ، هى من بعض واردات ماتشير إليه الآيات ، والتى يبدو فيها أستاذاً كبيراً يعلّم نبياً من أنبياء الله ..

والقرآن الكريم ، لم يتحدث عن هذا العبد الصالح أكثر من وصفه بأنه عبد من عباد الله ، آتاه رحمة منه ، وعلمه من لدنه علما .. ولاشك أن هذا الوصف يضفى على صاحبه من الألطاف الربانية مايرفع مقامه إلى أعلى عليّين ، حيث يشهد من عالم الغيب مالم يُظهر اللهُ سبحانه عليه أحداً إلا من ارتضى من عباده .. أما ماذهب إليه أكثر المفسّرين من مقولات فى « الخضر » وفى أن يملأ هذه الدنيا حياة وأنه يطوف بآفاق الأرض ، ويردّ السلام على كل من يسلّم عليه ،

وأنه يظهر لبعض الناس ويتحدث إليهم .. فذلك كلّه من وراء ماتحدث به آيات القرآن الكريم .

وهذا اللقاء الذى وقع بين موسى والعبد الصالح لم يدم طويلا ، ولم تجر فيه بينهما إلا أحداث ثلاثة ، أوقعت بينهما خلافا حادًّا ، ثم انتهت بفراق . .

ويبدأ اللقاء بين العبدين الصالحين ، بأن يعرض موسى على صاحبه أن يقبله تابعا له ، يتعلم من علمه ، ويغترف من بحره .. وذلك فى تواضع كريم وأدب نبوىّ عظيم .. فيقول :

* « هل اتّبعك على أن تعلّمَنِ مّما عُلّمت رُشداً ؟ » .

وفى هذا العرض أمور :

١ — استئذان مصحوب برجاء ، وتلطّف ..

٢ — أن يكون موسى تابعا يقفو أثر متبوعه ، ويمشى فى ظله .

٣ — أن تكون غاية هذه الصحبة ، وتلك المتابعة ، تحصيلَ العلم والمعرفة ، فيفيد موسى علما ، وينال العبد الصالح أجراً .

٤ — هذا العلم الذى عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه ، بل هو علم عُلّمه ، وإذن فهو مطالب بأن يعلّم كما عُلّم ..

٥ — هذا العلم المطلوبُ تعلّمُه ، هو مما يكمُل به الإنسان ويَرْشُد .. فهو علم يهدى إلى الحق ، وإلى الرشاد ، لا إلى الضلال والفساد .

ويستمع العبد الصالح إلى هذا العرض من موسى، فيرى أن العلم الذى عنده ، والذى يطلب موسى تناول شىء منه ، هو علم لا يستسيغه عقلُه ، ولا يقبله منطقه ، فيقول له فى وداعة ولطف :

* « إنك لن تستطيع معىَ صبرا * وكيف تصبِر على مالم تُحِطْ به خُبرْا » ؟

أى إن العلم الذى معى ، هو علم فوق إدراك العقول وتصوراتها .. وإذن فلن يكون مبعثَ اطمئنان لك ، إذ يرفضه عقلك ، ويتأبّى عليه منطقك .. والعلم الذى يفيد صاحبَه ، هو العلم الذى يحيط به عقله ، وتتسع له مداركه ، فينزل عنده منزل القبول والاطمئنان .. فإذا لم يكن كذلك أضرّ ولم ينفع ، وأثار فى النفس قَلَقًا ، واضطرابا ، وعقد فى سماء الفكر ، سُحباً من الشكوك والريب .

وإذ يتلقّى موسى هذا الرد ، يجد أن الفرصة تكاد تفلت منه ، ويرى سعيه الذى سعاه قد جاء بغير طائل .. ولكنه لابد أن يمضى فى التجربة إلى غايتها ، خاصة وقد أثار هذا القول غريزة حبّ الاستطلاع عنده ، وأغراه بأن يخوض عباب هذا البحر ، ولو خاطر بنفسه .. فقال فى أدب نبوىّ رفيع :

* « ستجدنى إن شآء الله صابراً ولا أعصى لك أمرًا » .. هكذا ينبغى أن يكون أدب الطلب والتحصيل ..

وإزاء هذه الرغبة الملحّة من هذا التلميذ الحريص على طلب العلم والمعرفة ، يرضى الأستاذ أن يكشف لتلميذه عن بعض ما عنده ، ولكنه يشترط لنفسه ، كما اشترط التلميذ من قبل لنفسه ، أن تكون صحبتُه غايةً لطلب العلم .. فيقول :

* « فإن اتّبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدثَ لك منه ذِكراً » .. أى إن اتبعتنى فعليك أن تلزم الصمت ، ولا تنطق بكلمة ، ولا تنبس ببنت شفة ، حتى أكون أنا الذى يدعوك إلى الكلام فيما أريدك عليه ..

وهنا تبدأ الرحلة ، فى رحاب هذا العلم الربّانى ..

* « فانطلقا .. حتى إذا ركبا فى السفينة خَرَقَها » .. وهكذا تبدأ الجولة الأولى بهذا الحدث ، الذى يدور له رأس موسى ، ويأخذ عليه العجب كلّ

سلطان على نفسه . . فيصرخ فى وجه أستاذه قائلا :

* « أخرقتها لتغرق أهلها . ؟ لقد جئت شيئاً إمْراً » ! ! فما هكذا يعمل العقلاء ، وما هكذا تجرى أعمال أهل الصلاح والتقوى . . إنه عدوان صارخ على الأبرياء . . لامبرّر له ، ولا عُذر لمرتكبه !

والإمر : المنكر من الأمر . .

ويتلقى العبد الصالح هذه الثورة المتوقعة من موسى ، فى رفق ولطف . . فلا يزيد على أن يقول له :

* « ألم أَقُلْ إنّك لن تستطيع معىَ صبراً ؟ » .

وهنا يتنبّه موسى إلى الشرط الذى كان قد اشترطه عليه صاحبه ، وصحبه هو عليه . . فيقول معتذراً فى أدب كريم :

* «لا تؤاخذْنى بما نسيتُ ولا ترهقْنى من أمرى عُسْراً » .. أى هذه هفوة فتجاوز لى عنها . . وخذنى برفق ، ولاتشتدّ علىّ ، وأنت تعلم من أول الأمر ثِقَلَ هذا الذى تُلقيه علىّ من علمك . .

* « فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله » !

وهذه فَعْلة أشد من سابقتها وقعاً ، وأفدح خطباً ، وأنكر نُكراً . . إذ كانت الأولى فى متاع من متاع الدنيا . . أما هذه ، فقد وقعت على نفسٍ إنسانية بريئة براءة الطفولة . . لم تقترف إثما ، ولم تأت منكرا . . ومن أجل هذا ينسى موسى وجودَه كلّه ، ولايذكر الشرط الذى بينه وبين صاحبه ، ولا يلتفت إلى زلّته التى زلّها منذ قليل مع أستاذه ، واعتذاره له . . فيصرخ صرخة عالية مدوّية :

* « أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس ؟ لقد جئتَ شيئاً نكرا » . . هكذا يُلقى فى وجه أستاذه بهذا الاتهام الصريح .. « لقد جئت شيئاً نكراً ! » وكان فى المرة الأولى قد لقيه بالاتهام فى مواربة وعلى استحياء : « لقد جئت شيئاً إمراً » . . فالموقف هنا إزاء جريمة صارخة لايمكن أن يقوم لها ـ حسب تقديره ـ عذر أبداً . . وإن كان يمكن أن يُقام لخرق السفينة ـ ولو على سبيل المراء والجدل ـ عذر . .

* وهنا ، يأخذ الأستاذ تلميذه بشيء من الشدّة ، والتأنيب .. فيقول :

« ألم أَقلْ لك إنك لن تستطيع معى صبراً » ؟ ففى كلمة « لك » نخسة قوية ، ويد تمتد إلى موسى من صاحبه فتفرك أذنه !

ولا يجد موسى أمام هذا البعد البعيد الذى بين منطلقه ومنطلق صاحبه ، إلا أن يحسم الموقف ، ويقطع الشوط الذى إن طال بينهما إلى أبعد من هذا المَدَى ، لم تُحمد عاقبته ، وربما تصارعا ، وتقاتلا إذ لم يَعُدْ اللسان أداةً قادرة على سدّ هذه الثغرات الماثلة بينهما . . فيقول :

* « إن سألتُك عن شيء بَعْدها فلا تصاحبنى . . قد بلغتَ من لدنّى عذراً » .

لقد وجد موسى لصاحبه العذر فى ضِيقه به ، ولَوْمه له . . إنه قد صحبه على شرط ، وها هو ذا يخرق الشرط مرة ، ومرة . . وهو بسبيل أن يخرقه مرات إذا طال الطريق بهما . .

* « فانطلقا . . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوْا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يُريد أن ينقضّ فأقامه . . »

وهذا عمل لايقبله عقل ، ولا يستسيغه منطق .. قرية ، ينزلان بها ، ويطلبان

إلى أهلها أن يُنزلاهما فيهامنزلَ الضَيفان ، فلا يجدان منهم إلا الصدّ ، والدّفع.. قرية ماتت فيها كل مشاعر الإنسانية ، وذهبت منها كل معانى المروءة . . ومع هذا يجدان فيها خَرِبة ، لا يأوى إليها إلا الهوامّ ، فيغشيانها ، ليجدا فيها من السّكن مالم يجداه عند أهلها . . ثم يريان فيها جدارًا « يريد أن ينقضّ » قد تصدّع بنيانه ، وارتعشت أوصاله ، وكاد يهوى إلى الأرض . . وهنا يدعو العبد الصالح عزمه وقوته ، فيقيم هذا الجدار المتداعِى ، وإذا هو وقد دبت الحياة فى كيانه ، فثبتت قواعده ، واعتدل قوَامه ! !

ويرى موسى هذا ، فيعجب ويدهش ، ويفيض به الكيل ، ثم لايملك أن يحتفظ بما يزمجر فى صدره من مشاعر الغيظ والألم . . فيقول لصاحبه :

* « لو شئت لاتّخذت عليه أجراً » ؟

وفى هذه القولة لم يُلْقِ موسى بكل ما عنده . . ولكنّه ، وقد عرف أن تلك هى الحاسمة القاطعة لما بينه وبين صاحبه ، وإنه ليعزّ عليه أن ينْهى هذه الصحبة ، التى حرص عليها ، وتوقع العلم الكثير المفيد منها ـ يعزّ عليه أن ينهيها على هذا الوجه ، ولم يحصّل علماً ، ولم يُفدْ معرفةً ، وإنما كل محصوله منها هو تلك المتناقضات ، التى يقع كثير منها فى كل لحظة من لحظات الحياة ، وفى كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، على مختلف مستوياتها . .

— نقول إن موسى لم يُلْق بهذه القولة المستكينة الضارعة ، إلا ليجد لها عند صاحبه قبولاً ، فلا يحتسبها عليه ، ولا يعدّها مما ينقض الشرط الذى بينهما، فيمضى به إلى غاية أخرى ، لعلها تكشف له علماً ، أو تجىء إليه بجديد غير هذا الذى مازال صاحبه يطْلُع به عليه !

ولكن العبد الصالح لايلتفت إلى المشاعر التى تلبّست بها هذه القولة ،

بل يأخذها كما هى . . إنها اعتراض ولا شك ، وإنها خروج على الشرط الذى اشترطه على صاحبه : « فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدثَ لك منه ذكراً » ! وهنا يسمعها موسى منه .. حكماً قاطعاً : « هذا فراقُ بينى وبينِك » ! .

فقد بلغ الأمر بينهما غايته ، ولم يَعُد ثَمة أمل فى أن يلتقيا على طريق واحد . .

ولكن .. لِمَ كان هذا العناء الذى عاناه موسى ، حتى التقى بهذا الرجل الذي قيل له إنه سيجد عنده من العلم ما لم يجده عند غيره ؟ فأين هو هذا العلم ؟ إن يكن ما حصّله موسى من تلك التجربة ، هو هذا الذى وقع فى نفسه من أحداثها . . فما أغناه عن هذا العلم ، الذى بلبل خاطره ، وشتت مجتمع رأيه ، وألقى فيه ما ألقى من وساوس وظنون !

وإنه ما يكاد موسى يستمع إلى شىء من هذه الخواطر ، حتى يطلُع عليه صاحبه بقوله :

* « سأنبّئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً » !

أهكذا الأمر إذن ؟

أهناك نبأ وراء هذه الأحداث ، غير مايُحدّث به ظاهرُها ؟ وماذا عسى أن يكون هذا النبأ ؟

وإنه لنبأ عظيم ! سنرى فيما ينكشف منه علاجاً لقضية من أعقد القضايا التى واجهها العقل الإنسانى ، وهى مشكلة « القضاء والقدر » .. التى نرجو أن نعرض لها ــ إن شاء الله ــ بعد أن نرى تأويل العبد الصالح لموسى « مالم يستطع عليه صبراً » .



الآيات : (٧٩ — ٨٢)

* «أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا» (٨٢)

التفسير :

كان لابدّ للمعلّم أن يكشف لتلميذه عن خفايا هذه التجربة المثيرة ، التى أراه منها ظاهراً لايستقيم على أى منطق ، ولايتفق مع أى عاقل ، ولايلتقى مع تقدير أى إنسان سليم الإدراك .. إنها أمور تدور لها الرءوس ، وتضطرب معها العقول .. وإن موسى لفى حيرة بالغة من أمر صاحبه هذا ، الذى جاءه ليطلب العلم عنده ، بتوجيه من ربّه .. وحياً ، أو إلهاماً !

وقد فعل المعلم ماتقضى به الحكمة ، ويعتدل به ميزان التربية السليمة — فلم يَدَع تلميذه نهباً للوَساوس والشكوك ، بل إنه ما كاد يُؤْذِنه بالفراق ، وبإنهاء هذه التجربة التى أدخله فيها ، حتى أخذ يشرح له حقيقة الموقف ، ويكشف له عن الوجه الخفىّ من كل حَدَث من تلك الأحداث الثلاثة .. فكانت قولته له : « هذا فراق بينى وبينك » مشفوعةً بقوله : « سأنبئك بتأويل مالم تَسْتَطِـع عليه صبراً » .

وهنا فى هذه الآيات ، تأويلُ كلٍّ حَدَث منها ..

وفى كلمة « تأويل » إشارة إلى أن هذه الأحداث ـ كما بدت فى ظاهرها ـ لاتعدو أن تكون أشبهَ بالأحلام ، التى لها مفهوم يغاير منطوقها فى صورته ، وأن هذا المفهوم لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ، وذلك كتأويل « يوسف » لرؤيا الملك ، التى عجز العلماء عن تأويلها ، وقالوا : « أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » . (٤٤ : يوسف)

فالأحداث التى أجراها العبد الصالح بين يدى موسى أشبه بهذه الرُّؤى ، وإن كانت أبعدَ فى المفارقة ، بين منطوقها ومفهومها .

وتأويل الحدث الأول ، هو كما يقول العبد الصالح :

* « أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبَها وكان وراءهم ملك يأخُذ كل سفينةٍ غصباً . »

هكذا الأمر إذن ؟

إنه كما يبدو الآن عمل من أعمال البرّ والرحمة لأصحاب السفينة .. وقد كان يُرى من قبل عدواناً عليهم ، وظلماً صارخاً لهم ..

إن هذا الخرْق الذى أحدثه العبد الصالح فى السفينة ، قد جعلها سفينةً معطوبة ، مَعيبة ، لاتصلح للغرض الذى من أجله كان الملك يستولى على السفن ، وينتزعها من يد أصحابها ، قهراً وقسراً .. وبهذا تخطَّتْ عينُ الملك هذه السفينة ، حين رآها على تلك الحال ، وبهذا أيضاً سلمت السفينة من هذا العدوان ، وبقيت فى أيدى أصحابها المساكين ، الذين يعملون عليها ، ويُرزقون منها .

أما هذا العطب الذى لحق بالسفينة ـ أيًّا كان – فإنه ممكن إصلاحه ..

— وفى قوله : « وكان وراءهم ملك » لاتعنى كلمة « وراءهم » أن الملك نفسه

كان على أثرهم ، وإنما تعنى أن سلطان الملك قائم عليهم ، كما فى قوله تعالى : « من ورائه جهنم » (١٦ : إبراهيم) أى أنها مسلطة على هذا الظالم ، محيطة به ، لايفلت منها ..

هذه واحدة !

وقد تلقّاها مُوسى بأُذن واعية ، وقلبٍ متفتّح .. فأشرق وجهه ، ولمعت عيناه ببريق السّكينة والرضا .. ثم هاهوذا يصبح كلّه كِياناً مستمعاً لِما يقول صاحبه ، فى أمر هذا الغلام الذى سفك دمه ، من غير ذنب ظاهر !

ويجيئه الجواب فى غير مَهَل :

* « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنَيْن فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبْدلهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْما » .

ويقع فى نفس موسى شىء من هذا التأويل . !

إنه تأويل مستند إلى احتمالات المستقبل ، وقائم على توقعات يمكن أن تقع أو لاتقع !! وكيف لموسى أن يتحقق من إرهاق هذا الغلام لوالديه ـ بعد أن يكبر ـ بما يكون منه من طغيان وفجور ، وإفسادٍ فى الأرض ، وكفر بالله ؟ وكيف يحكم على هذا الغلام البرىء بما سيكون منه بعد سنين ؟ إن ذلك مجرد فرض يُفترض !

وأكثر من هذا ، فإن كلمة « فخشينا » تُشعر بأن العبد الصالح نفسه لايرى الأمر أكثر من مجرد احتمال غير متيقَّنٍ .. إنه مجرد خشية .. والخشية قد تقع ، وقد لاتقع !

ولكن يقوم بين يدى موسى شاهد يدفع هذه الوساوس ، ويذهب بتلك الشكوك ..

فأولا : لقد رأى السفينة التى أعطبها صاحبه ، قد سلمت من يد الملك ، على حين أخذ كل السُّفن التى كانت صالحة للعمل ، مثلها ، قبل أن يصيبها العطب !

فهو إذ يجىء إلى أمر الغلام وما يقال فيه ، إنما يجىء إليه ومعه هذا الشعور الذى ملأ قلبه طمأنينة وتسليما لصاحبه ، الذى يرى مالا يراه .

وثانياً : كان موسى يعلم مقدّماً أنّه بين يدى عبدٍ من عباد الله الصالحين ، قد آتاه الله من العلم ما استحقّ به أنَ يكون أستاذاً لنبىّ من أنبياء الله .. اصطفاه الله لرسالته ، وكلّمه تكليماً مباشراً ، بلا واسطة .. فإنّ مَن كان هذا شأنه ، لا يُتهم فى أخباره ، وأفعاله ، وإن احتاج المرء إلى تأويلها ، وتوضيحها ، حتى يطمئن قلبه ، وتسكن وساوسه .

وثالثاً : يعرف موسى عن يقين أن وراء تحركات الأحداث قوة قادرة قاهرة ، هى التى تضبط حركاتها ، وتجرى بها إلى قَدَر معلوم ، سواء أ كان ذلك مما يتفق مع تقدير الناس لمجريات أمورهم ، ومنطلقات سعيهم ، أولا يتفق.. وعلى هذا ، فإنه ليس بالبعيد المستغرب — عند موسى — أن يكون هذا الذى كرهه من صاحبه وعدّه شراً ، هو أمر محبوب فى عاقبته ، خير فى مآله الذى يؤول إليه ..

— فإذا كان قد وقع فى نفس موسى شىء من هذا التأويل لمقتل الغلام ، فإن فى نفس موسى أيضاً كثيراً من قوى الإيمان التى تدفع هذه الشكوك التى ساورته ..

وأما قول صاحبه : « نخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً » .. فإنه محمول على أمرين :

أولهما : أن هذا الغلام الذى هو شرٌّ كلُّه ، وبلاء على الإنسانية ، بما يحمل فى كيانه من طغيان ، وفساد ، وكفر — هذا الغلام — وذلك شأنه — إن

تأذّى به المجتمع الذى يعيش فيه ، فإن ما ينضح منه من الأذى النفسىّ على أبويه المؤمنيْن ، هو أضعاف مضاعفةٌ لما يجده غيرهما من شروره وآثامه ، إذ كان هو غرسهما الذى غرساه ، وكان الشرُّ الواقع على المجتمع منه ، هما — لسبب أو لآخر — شركاء فيه ..

فالخشية التى يصورها العبد الصالح هنا ، هى خشيته على هذين الأبوين الصالحيْن المؤمنيْن ، وما يدخل على قلبيهما من حسرةٍ وكمدٍ على مصابهما فى ابنهما هذا ، ثم فى مصاب الناس به .. وإذا كان ذلك لم يقع بعد ، فهو مما يخشى أن يقع لو ترك الغلام يأخذ مسيرته فى الحياة .. والخشية لا تكون إلا مما لم يقع ، لا مما وقع ..

وثانيهما : أن هذا الغلام ، هو بلاء على نفسه ، وأنه نبتة سوء ، لو تركت حتى تبلغ مداها ، لأوردت صاحبها موارد الهالكين .. فكان موته فى هذه المرحلة من عمره رحمةً به ، إذ عاجله الموت قبل أن يبلغ مبلغ التكليف ، وقبل أن يأتى ما كان يمكن أن يأتى به من آثام .. فالخشية هنا ، خشية منه ، كما أنها خشية عليه ..

أما عزاء هذين الأبوين الصالحين المؤمنين عن فقد هذا الغلام ، فهو ما كشف عنه العبد الصالح فى قوله :

* « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً » ..

والزكاة : الطهر ، والنقاء ، والصلاح والتقوى ..

والرُّحم : الرحمة التى تكون بين المتراحمين ، من أبناء وآباء ، وإخوة وأصدقاء ..

فهذا الولد الذى سيُرزَقُه هذان الأبوان خلفاً لابنهما القتيل ، سيكون لهما

فيه قرةُ عين ، وأنسُ نفس ، ومسرة قلب .. مما يريان فيه من صلاح وتقوى ، وما يجدان منه من برٍّ بهما ، وإحسان إليهما ..

ثم إن بين يدى موسى — مع هذا كله — مثلا ماثلا له ، فيما كان بين نوح وابنه .. فقد جعله الله سبحانه وتعالى فى المغرقين ، ولم يُقدّر له أن يكون فى الناجين المؤمنين .. لقد أغرقه الله أمام عينى أبيه .. وكان العزاء الذى عزّى الله سبحانه وتعالى به نوحاً،قولَه سبحانه له ، : « يانوح .. إنه ليس من أهلك.. إنه عمل غيرُ صالح » ! ! (٤٦ : هود)

فماذا يبدو من فرق بين هذا الغلام الذى قتله العبد الصالح ، وبين ابن نوح الذى أغرقه الله ؟.. إنه القَـــدَر الذى أجرى حكمه على هذين الابنين ، ولم ينـكشف أمر القدر لنوح إلا بعد أن أنبأه الله فى قوله تعالى : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ».. تماماً كما لم ينـكشف أمر القدر لموسى إلا بعد أن أنبأه العبد الصالح بقوله : « وأما الغلام فـكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً » . .

بقيت مسألة الجدار ! .

ويبدو وجه اللقاء بين ظاهرها ، وباطنها بعيداً ، أبعد من الحدَثَيْن السابقين ..

ذلك أنه إذا أمكن أن يُلتمس لأمر السفينة وجه يُحمل عليه ما أحدث العبد الصالح فيها من خرق ، وإذا أمكن أن يقال فى قتل الغلام قول ـ فإنه لا يمكن أن يُلتمس لأمر هذا الجدار وجه ، ولا أن يقال فيه قول — إذا أخذت الأمور بظاهرها — إلا أن يكون ذلك على سبيل المغالطة والسفسطة . .

فإذا قيل إن خرق السفينة كان لشيء من المعابثة أو اللهو ، أو لامتحان

صبر أصحابها ، واستخراج ما عندهم من حكمة وعقل ، فى مواجهة هذا التصرف الشاذ .. وإذا قيل إن قتل الغلام كان عن خطأ غير مقصود ، أو كان عن فراسة تفرسها فيه العبد الصالح ، فرأى فيه — وهو غلام — الرجلَ الذى سيكونُه حين يبلغ مبلغ الرجال ، ويملأ الدنيا بغياً وعدواناً ومحادّة لله ، وكفراً به . . فأخذه بجزاء الذين يحاربون الله ، ويسعون فى الأرض فساداً ..

نقول إذا أمكن أن يقال هذا أو ذاك ، أو غير هذا أو ذاك ، فى خرق السفينة ، وفى قتل الغلام ـ فأى قول يمكن أن يقال فى شأن هذا الجدار المتداعى ، الذى ينقضه العبد الصالح ثم يعيد بناءه ؟

إن الذى كان من الممكن أن يكون من العبد الصالح إزاء أى شىء يراه فاسداً فى أهل هذه القرية ، التى استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ـ هو أن يدع هذا الفساد على حاله ، يعيش فى أهل هذه القرية الظالمة ، أو يغريه بهم ، ويَهيجه عليهم ، فيكون العقاب الذى يؤخذون به مسلطاً عليهم من قريتهم .. فإذا جاوز الأمر هذا ، وأخذ العبد الصالح أهلَ القرية بالصفح والمغفرة ، ثم جاوز هذا أيضاً إلى أن يدفع شرّا يأتيهم من قبل هذا الجدار المتداعى ـ فليكن ذلك بهدمه ، حتى لا يسقط على من يجلس إليه ، أو يمر به ! أما أن ينقض هذا الجدار ، ثم يقيمه .. فذلك مالا يحتمله أى وارد من واردات الظن ، أو الوهم ! خاصة ، وأن الفعلتين السابقتين كانتا من العبد الصالح ، قد وقعتا ـ فيما يبدو ـ عدواناً منه بغير حق ، وإساءة إلى من لم يقع منه سوء .. ، وكان الظن بالفعلة التى تأتى بعدهما أن تجرى فى هذا الاتجاه ، وأن يُرمى أهل القرية بصواعق مهلكة أو يتركوا وماهم فيه .. أما أن تقابل إساءتهم بهذا الإحسان ، فذلك تيار مضادّ للتيار الذى كانت تجرى فيه سفينة موسى وصاحبه ، ومن شأن هذا أن يحدث دوامة تضطرب فيها السفينة اضطراباً مجنوناً ، ثم لا تلبث أن تهوى إلى القاع !!

ولا يَترك العبدُ الصالح لتلميذه فُسحة من الوقت ، يُسير فيها تفكيره فى هذه المدارات التى تزمجر فيها الأعاصير ، والزوابع ، بل إنه سَرعان ما يكشف له وجهَ الحقيقة سافراً ، وإذا موسى يجد هذه الكلمات تنفذ إلى أعماقه ، فتنزل على قلبه بَرداً وسلاماً ، وتدفع سفينته فى ريح رُخاء ، إلى شاطىء الطمأنينة والسلامة .

* «وأما الجدار . فكان لغلامين يتيمين فى المدينة .. وكان تحته كنز لهما .. وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما . . » .

وماذا يقول موسى بعد هذا القول ؟

إن يكن ثَمّة قول يُقال . . فهو تلك الخاطرة التى تخطر له ، وهو يصل مجرى الأحداث بعضها ببعض ، فيقول فيما بينه وبين نفسه : إذا كان صلاح الأب قد امتد إلى ولديه ، فنفعهما وحفظ لهما كنزهما الذى تركه لهما من بعده — فكيف لا ينفع إيمان الأبوين وصلاحهما ، هذا الغلام الذى قُتل ؟ وكيف لا ينفع صلاح الأبوين فى استنقاذ ولد واحدٍ ، على حين ينفع صلاح أب وحده ، فى استنقاذ ولدين ؟

وما يكاد موسى يلتفت إلى هذا ، وإلى غير هذا ممّا ساوره من خطرات ، حتى يلقاه أستاذه بقوله :

* « رحمةً من ربك .. » !

إنها رحمة الله ، يُنزلها حيث يشاء ، ويختصّ بها من يشاء .. حسب ماتقضى به حكمته ، ويحكم به علمه فى خلقه .. كما يقول سبحانه : « نصيب برحمتنا من نشاء » (٥٦ : يوسف) وكما يقول جلّ وعلا : « والله يختصّ برحمته من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم » (١٠٥ : البقرة) .

والأمر كله فى حقيقته ، قائم على الرحمة ..

فخرق السفينة ، كان ـ كما آل إليه الأمر ـ رحمةً بأصحابها .. !

وقتل الغلام ، كان ـ كما آل إليه الأمر ـ رحمةً به ، وبأبويه ، ورحمة بالناس . . !

وإقامة الجدار ، كان ـ كما آل إليه أمره ـ رحمةً بالغلامين اليتيمين !

إن أمر الله ، وقضاءه فى خلقه .. حيث كان ، وعلى أية صورة وقع ، هو رحمة .. من ربّ رحيم ! وهذا مايشير إليه قوله سبحانه : « ورحمتى وسعت كل شىء » (١٥٦ : الأعراف) .

ورحمةُ الله إنما تجرى بأسباب ، وتنزل حيث تنزل بقوًى مسخرة ، تدفع بها إلى المواطن المسوقة إليها ، بقَدَر مقدور ، وتقرير معلوم .

وهذا حكم يقرره الأستاذ لتلميذه ، فيرى من هذا الحكم أن أستاذه ليس إلا سَحابةً تحمل غيثا ، تدفع بها قدرة الله ، إلى حيث يُراد لها أن تنزل .. فيقول له :

* « وما فعلته عن أمرى..! » .

إنه لا أمر له مع أمر الله .. وماهو إلا رسولٌ يفعل ما أمر الله به ، فيمن أرسله إليه .. شأنه فى هذا شأن تلميذه « موسى » الذى أمِر بأن يبلّغ رسالةَ ربّه إلى من أرسله الله إليهم من عباده !

وهنا يصافح الأستاذ تلميذه ، مودِّعا .. بقوله :

* « ذلك تأويل مالم تَسْطِـعْ عليه صبراً » !

ويفترق الصاحبان ـ ويأخذ كل منهما طريقه فى الحياة ، على ما كانا يعهدان من قبل . . !

أما العبد الصالح .. فطريقه قائم على مستوى القَـدَر ، المختفى وراء سُتُر

الغيب ، المحجب بنور الله ، لايراه إلا بنور من هذا النور .. « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٤٠ : النور) .

وأما موسى .. فيأخذ طريقه القائم على مستوى الحياة ، وما ينكشف له منها ، حسب تقديره ، وتفكيره ، كإنسان ذى بصيرة مشرقة ـ إن انكشف له شىء لم ينكشف لغيره ، فقد غابت عنه أشياء ، وأشياء !

وهنا إشارة لابد منها ، إلى هذا الاختلاف الذى جاء عليه النظم فى قول العبد الصالح لموسى ، حين وصل الأمر بينهما مداه ، فقال له : « سأنبّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً » ثم فى قوله له ، بعد أن أنبأه بما لم يستطع عليه صبراً ، إذ قال : « ذلك تأويل مالم تسطعْ عليه صبراً » .

فهناك قولتان تبدوان وكأنهما على سواء : « تستطع » و « تسطع » وهما كذلك فى غير القرآن الكريم . . ولكنهما فى كلام الله ليستا على سواء ، فى الميزان ، الذى جاء عليه النظم القرآنى ، وإعجازه القاهر المتحدّى !

فكلمة « تستطع » فيها شدة ، وقسوة ، ومُصارحة مكشوفة ، بالعجز عن الاستطاعة . . وقد قالها العبد الصالح هكذا صريحة مكشوفة ، ليقطع بها الرحلة مع تلميذه . . .

ولكن حين جلس إلى تلميذه مجلس المعلّم ، الذى يكشف لتلميذه ، معالم الطريق المظلم أو المشرق ، الذى كان يطوّف به فيه ـ جاءه بهذه الكلمة « تَسطِع » وقد اقتطع منها هذا المقطع الحادّ ، فإذا هى كلمة وديعة رقيقة فيها هروب من المواجهة الصريحة المتحدّية ، وعليها مِسحة من الحياء والخفر !

* * *

ومما ينبغى الالتفات إليه أيضاً ، هذا الاختلاف فى موقف العبد الصالح من

الأحداث الثلاثة ، ومكانُه منها ، ودورُه فيها . .

فهو فى حدث السفينة يقول : « أردت أن أعيبها » مُضيفاً الفعل إليه ، وجعله عن إرادة منه وحده . .

وفى قتل الغلام ، يقول : « نخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً » . . مضيفاً الفعل هنا إلى ضمير المتكلمين « نا » .

أما فى إقامة الجدار ، فيقول : « فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربّك » مضيفاً الفعل إلى الله وحده . .

ولا شك أن وراء هذا الاختلاف فى الموقف الذى يأخذه العبد الصالح من هذه القضايا ، والدور الذى يبدو فيه على مسرح أحداثها ـ لا شك أن وراء هذا الاختلاف أسراراً لطيفة ، إذا كُشف الحجاب عن بعضها ، أشرقت منه وجوه وضيئة ، من الإعجاز المبين ، لآيات الله وكلماته . .

فمن تلك الأسرار ، لهذا الاختلاف فى موقف العبد الصالح من هذه الأحداث ، أنه فى حادث السفينة نسب الفعل إليه بقوله : « أردت أن أعيبها » وذلك لأن أثرَ الحدث جاء فى أعقاب الفعل مباشرة ، بحيث لم يكن هناك وقت بين خَرْق السفينة ، وصرف نظر الملك أو أعوانه عنها ، للعيب الذى كان فيها . . ولو كان هناك وقت بين خرق السفينة ، وبين مرور الملك أو أعوانه بها ، بحيث يسمح لأصحابها بإصلاح ما أفسد العبد الصالح منها لما سلمت من أخذِها من أيدى أصحابها . . ولما كان للخرق الذى أحدثه فيها حكمة . .

وذلك أمرٌ إن لم يلحظه موسى فى حينه ، ولم يدرك السرّ الذى من أجله سلمت السفينة المعطوبة لأصحابها ـ فإنه قد وقع منه موقع اليقين حين كشف له صاحبه

عنه ، وأراه أن هذا العيب هو الذى فوّت على الملك فرصة الاستيلاء عليها . .

فهذا ، الفعل من العبد الصالح ، هو مما يجرى مجرى العادة فى أفعال الناس على مستوى الظاهر . . ولو أمكنت الفرصةُ أصحابَ السفينة أن يُحدثوا فيها ما أحدث العبد الصالح لفعلوا ، ولكن وسائلهم إلى هذا كانت محدودة ، والأمر أسرع من أن يَنتظر تلك الوسائل المحدودة القاصرة .. فلما أن فعل العبد الصالح مافعل لم ينكر عليه أصحاب السفينة فَعلته ، وإلا لأمسكوا به وبصاحبه . . ولكنهم . . وقد رأوا فى هذا الفعل الحكيم الحاسم مايحقق إرادة كانت تراودهم ولا يجدون سبيلاً لتحقيقها ـ أمسكوا عن أن يقولوا شيئاً ، أو يُحدثوا أية حركة تُنبىء عن أن أمراً قد حدثَ ، حتى لا يفتضح هذا الفعل ، الذى ربّما عدّوا صاحبَه الذى فعله واحداً من جماعة حركة مضادة للملك ، قائمة فى وجه هذا الفعل الظالم الذى يُجريه على أصحاب السفن ! !

إذن .. فالأمر هنا لايخرج عن أن يكون إرادة بشرية ، إزاء أمرٍ عارض، يأخذه الإنسان بتقديره ، ويُجريه بإرادته . . اوحُقّ للعبد الصالح أن يقول : « فأردت » ناسباً الفعل إلى إرادته . .

أما فى قتل الغلام ، فإن الأمر مختلف ، حيث كانت المسافة بعيدة بين دواعى قتله عند العبد الصالح ، وبين ظاهر الحال من أمر هذا الغلام . كما أن الحكمة التى سيكشف عنها العبد الصالح لموسى من قتل هذا الغلام ، معلّق تحقيقُها بمستقبل بعيد يستغرق من الزمن ،مدّة الحمل بطفل ، ثم ولادته ، ثم بلوغه مبلغ الرجال ، حيث يبدو صلاحه ، وينكشف معدنه . .

وهذا كله من شأنه أن يُوقع فى نفس موسى كثيراً من الشكوك والريب حول تقبّل هذا التعليل الذى تعلل به صاحبه لقتل الغلام . .

ولهذا جاء إليه صاحبه من علٍ ، فتحدث إليه بلسان الذى يعرض نفسه

فى مستوى غير المستوى الذى كان يخاطبه فيه ، بعد خرق السفينة . .

إنه هنا يملك من العلم ما ينبغى أن يذكره موسى إن كان قد نسيه حين جاءه يطلب التعلم من علمه . . ولهذا قال له بضمير المتكلم المعظم نفسه : « فخشينا » ولم يقل « فخشيت » ثم قال : « فأردنا » ولم يقل « فأردت » . . إنه هنا ـ وإن كان عبداً من عبيد الله ـ يحدّث بنعمة الله عليه ، وبما آتاه من رحمته ، وما علمه من لدنه من علم ، وأنه يستند إلى قوى خفية ، ينطق عنها ، ويحدّث بجلالها وعظمتها .

وأمام الجدار ، فقد رأى العبدُ الصالح أن يعود فى الحديث عنه إلى مكانه الطبيعى من قدرة الله ، وأنه لا إرادة له مع إرادة الله ، وأن حديثه عن نفسه بضمير المتكلم المعظم لذاته لم يكن إلا من قبيل التحدث بنعمة الله عليه . . ولهذا قال لصاحبه . . « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » . . فنَسب الأمر كله إلى الله سبحانه ، وأضافه إلى إرادته جلّ شأنه .

هذا وجه من وجوه النظر فى هذا الاختلاف الذى جاء عليه النظم القرآنى لحديث العبد الصالح عن نفسه . .

ووجه آخر . . وهو وجه يمكن أن يُرى فيه العبدُ الصالح قد أضاف الفعلين الأولين — خرقَ السفينة وقتل الغلام — إلى نفسه ، لما يبدو فى ظاهرهما من ظلم وعدوان ، على حين أضاف إقامة الجدار إلى الله سبحانه وتعالى ، إذ كان — كما يبدو — عملاً من أعمال الخير والإحسان . .

ووجه ثالث . .

وهو أن الأحداث الثلاثة ، فى مجموعها ، تصور مشيئة الله سبحانه وتعالى ومشيئة الإنسان . .

ففى خرق السفينة . . إرادة مطلقة للإنسان ، ومشيئة خالصة له ، يتصرف بها كيف يشاء . . هكذا : « فأردت أن أعيبها » .

وفى قتل الغلام ، تبدو مشيئة الإنسان مختلطة مع مشيئة الله ، داخلة فيها . . هكذا : « فخشينا » . . « فأردنا » . . فهذا الضمير يشير إلى أن العبد الصالح ليس وحده هنا ، وإنما هو مع مشيئة مُشِيء ، وإرادة مُريد !

وفى إقامة الجدار . . يتجرد العبد الصالح من كلّ مشيئة وإرادة . . إنه هنا ليس أكثر من أداة منفذة لمشيئة الله ، عاملةٍ بإرادته . .

وهكذا الإنسان ، فى هذه الحياة ، وفى كل ما يأخذ أو يدع من أمورها . . إنه يمرّ فى ثلاث مراحل ، مع كل أمر يعالجه . .

المرحلة الأولى . . يبدأ فيها العمل ، وكأنه مطلق من كل قيد يتسلط على إرادته . .

والمرحلة الثانية . . يُعالج فيها العمل ، وهو مُصطحب هذا الإحساس بالحرية الكاملة فى أخذ الاتجاه الذى يتجهه . . ولكنه يجد أثناء العمل ما قد يعترض طريقه ، فيعثر ، أو ينحرف ، أو يأخذ طريقاً غير هذا الطريق الذى بدأ منه . .

والمرحلة الثالثة . . يأخذ فيها العمل صورته النهائية ، ويصبح أمراً واقعاً ، مؤثراً فى حياة صاحبه بما يسرّ أو يسوء ، وبما يحمد أو يكره . .

وهذه المرحلة الأخيرة التى ينتهى عندها العمل ، هى الإرادة العليا ، وهى القَدَر المقدور ، الذى لابد أن يصير إليه الأمر .. مهما تكن إرادة الإنسان على وَفق هذه الإرادة أو خلافها . . !

تلك هى بعض الأسرار التى لاحت لنا من خلال نظرنا الكليل .. وهناك

أسرار لا تُحصى ، يراها ذوو الأبصار التى اكتحلت بنور الحق ، فترى ما لا تراه العيون .

* * *

ويحسن بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة « مع القضاء والقدر » .. حيث كانت قصة موسى والعبد الصالح درساً عملياً لهذه القضية ، التى يتحكك بها العقل ، ويدور فى فلكها مسير الإنسان ومصيره ..

[القضاء .. والقدر .. والإنسان ..]

موضوع القضاء والقدر لايعتبر مشكلة يعالجها العقل ، ويلتمس الحلول لها ، إلا إذا نظر إليه من جانبين معاً : جانبٌ يتصل بالله ، وجانب يتصل بالإنسان .. وهذا يعنى أن الذى ينظر فى هذه المشكلة ، لابد أن يكون من المؤمنين بالله ، أو على الأقل من المؤمنين بما وراء المادة . . أما الماديّون الذين يقيمون وجودهم ، ويسوّون حسابهم على مستوى العالم المادى ، فليس القضاء والقدر من المشكلات التى تلقاهم على طريق الحياة ، وتوجّه أبصارهم إليها ، وتُلفت عقولهم نحوها . .

وتبدو المشكلة — عند المؤمنين بالله ، أو المؤمنين بما وراء المادة — هكذا :

إذا قلنا إنّ الإنسان مخيّر ، كان مَعنى هذا أنه مطلق من كل سلطان ، وأن ليس بينه وبين الله ، أو بينه وبين أية قوة أخرى غير منظورة — علاقة ، تحدّ من مجرى حياته ، أو تؤثر فى تصرفاته . .

وفى حدود هذا القول ، لا مجال للنظر فى القضاء والقدر ، حيث يبدو

الإنسان خارجاً عن دائرة المؤثرات التي تجعل للقضاء والقدر شأناً معه . .

وإذا قلنا إن الإنسان مجبر ، كان معنى هذا أن شيئاً ما وراء الإنسان ، يُملى عليه ، ويؤثر فى إرادته ، أو يعطل مشيئته . .

وهنا تبدو الصلة واضحة بين الإنسان وبين القضاء والقدر . . وهى صلة تظهر آثارُها فى تصرفاته ، وفى موقفه حيال كل أمر يعرض له . .

ولكن هاتين المقولتين ، لم يُسلِّم العقل الإنسانى بأىٍّ منهما ، تسليماً مطلقاً . . إذ كان الواقع العملىّ ينقض كل مقولة منهما ، إذا أُخذ بها على إطلاقها . .

فالإنسان — كما يبدو له — حرّ من جهة ، ومقيد من جهة أخرى . . إنه مطلق ، تماماً — كما يبدو — ولكن يرى أن قوةً خفية تأخذ عليه طريقه إلى ما يريد . . قوة غير منظورة ، تقيّد إرادته المطلقة تلك . .

فهو مختار يفعل ما يشاء ، وهو مجبر حيث يَفْعل أو يُفْعل به مالا يشاء !

وبين الاختيار والجَبْر ، عاشت الإنسانية حائرة مضطربة ، قلقة .. تقول بالاختيار ، وتحلم به ، وتتمنّاه .. ولكن الواقع يفجؤها بما يُلغى هذا الاختيار ، ويعطل وجودَه .. وإذا هى أى الإنسانية ، ريشة فى مهب الريح ، يسوقها القَدَر إلى حيث يشاء ..

وتقول بالجبر ، فلا يصدّقها الواقع الذى تعيش فيه . والذى ترى صفحته فى آثار تفكيرها ، وثمار إرادتها ، وعزيمتها . .

فلا هى . . أى الإنسانية ، فى الاختيار المطلق ، ولا هى فى الجبر المطلق .. إنها تعيش متأرجحة بينهما . . هى فى اختيار وجبر معاً . . ذلك ما يشعر به كل إنسان فى ذاته ، وتشعر به الإنسانية فى مجموعها . . وذلك من الجلاء والوضوح ، بحيث لا ينكره إلا أهل الجدل والمِراء ! !

ولكنّ القدْرَ الذى فى الإنسان ، من جبر أو اختيار ، هو الذى يضع الأمر موضعَ الخفاء والحيْرة . . ويقع من الناس موقعاً يثير الجدل والخلاف حقًّا .

كم فى الإنسان من جبر ؟ وكم فيه من اختيار ؟ لا أحَدَ يدرى . . فتلك مسألة تختلف من إنسان إلى إنسان . . بل إنها تختلف فى الإنسان نفسه ، حسب الحالة التى يواجهها ، وحسب الظروف المحيطة به ، والمشاعر المستولية عليه . . على ما سنرى . من خلال هذا البحث .

ما القضاء ؟ وما القدر ؟

القضاء :

لم يُذكر « القضاء » فى القرآن الكريم بلفظه هذا ، وإنما ذُكرت مشتقاته ، فى آيات كثيرة .. فذُكر فى صورة فعل كقوله تعالى : « فقضاهُنَّ سبع سمٰواتٍ فى يومين » (١٢ : فصلت) وقوله سبحانه : « والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء » (٢٠ : غافر) وفى قوله تعالى : « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً » (٢٣ : الإسراء) كذلك ورد من مشتقات « القضاء » : اسم المفعول فى قوله تعالى : « وكان أمراً مقضيا » (٢١ : مريم) واسم الفاعل فى قوله سبحانه : « فاقض ما أنت قاضٍ » (٧٢ : طه) .

والذى ينظر فى هذه الآيات ، يجد تقاربا واضحاً بين المعانى التى تدور حولها مشتقات القضاء ، وأنها تلتقى جميعاً عند معنى واحد ، هو : الفصل ، والحسم فى الأمر ، وأن قضاء الأمر معناه إنجازه ، وحسمه ، من جهة قادرة ممكنة

مما تقضى به . . « منه القضاء ، وهو الفصل فى الخصومات ، ومنه القاضى الذى يفصل بين المتخاصمين .

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره :

« أن « القضاء » يكون بمعنى « الأمر » كقوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » : .

« ويكون بمعنى « الخلق » . . كقوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات فى يومين » .

« ويكون بمعنى « الحكم » . . كقوله تعالى : « فاقض ما أنت قاض » . .

« ويكون بمعنى « الفراغ » . . كقوله تعالى : « قُضى الأمر الذى فيه تستفتيان » (٤١ : يوسف) . .

« ويكون بمعنى الإرادة ، كقوله سبحانه : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٤٧ : آل عمران) .

« ويكون بمعنى « العهد » . . كقوله تعالى : « وما كنتَ بجانب الغربىّ إذ قضينا إلى موسى الأمر » . . (٤٤ : القصص)

والذى ينظر فى هذه المعانى التى ذكرها القرطبى « للقضاء » يرى أنها جميعاً تنزع منزعاً واحداً ، وتلتقى عند معنى واحد ، هو الفصل ، والحسم .

فالأمر . . والخلق . . والحكم . . والفراغ . . والإرادة . . والعهد . . كلها تنبىء عن حسم الأمر وإنجازه . . قولاً ، أو فعلاً .

القَدَر :

ورد فى القرآن الكريم ، لفظ «ق . . د . . ر» مصدراً ، وفعلاً ، واسم فاعل

قال تعالى : « إنا كلَّ شىء خلقناه بقَدَر » (٤٩ : القمر) وقال سبحانه : « وقدّر فيها أقواتَها فى أربعة أيام سواء للسائلين » (١٠ : فصلت) ومعنى هذا فى المصدر ، ومشتقاته : التقديرُ ، ووضع الشىء فى موضعه المناسب له ..

عن عكرمة عن الضحاك ، قال فى قوله تعالى : « وقدّر فيها أقواتها » أى أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعاشهم ، من التجارات ، والأشجار ، والمنافع ، فى كل بلدة ، مالم يجعله فى الأخرى ..

* * *

من ذلك نرى أن دائرة القَدر أشمل وأعمّ .. من دائرة القضاء ..

فالقَدَر تدبير .. والقضاء حكم ..

القدر تصميم .. والقضاء تنفيذ ..

يقول الإمام الغزالى ..

القَدَر : اسم لما صَدَر مقدَّراً عن فعل القادر ..

والقضاء : هو الخلق ..

« والفرق بين القضاء والقدر ، أن القدر ، أعمّ ، والقضاء ، أخصّ ..

« فتدبير الأوليات قَدَر ..

« وسوْق تلك الأقدار بمقاديرها وهيئاتها إلى مقتضياتها ، هو القضاء .

« فالقَدَر .. إذن .. تقدير الأمر بدْءا .

« والقضاء .. فصل ذلك الأمر وقطعه ، كما يقال : « قَضَى القاضى »[1]

أما الفيلسوف « ابن سينا » فيرى عكس هذا ..

(١) من كتاب فرائد اللآلى من رسائل الغزالى ص ١٥٦ .

يرى أن القضاء أعمّ من القدر ، وسابق عليه ..

يقول :

« القضاء .. هو عِلم الله المتعلّق بالكلّ ، على النظام الأكمل الذى يكون فى الوجود .

« والقَدَر .. هو إفاضة الكائنات على حسب مافى علمه . فالكلّ صادر عن الله ، ومعلوم له ، وكلُّ ذلك بقضاء وقدر »[(١)] .

أما ابن عربى .. الفيلسوف المتصوّف ، أو الصوفى المتفلسف ، فإنه فى التفرقة بين القضاء والقدر ، على رأى يتفق ورأى ابن سينا .. فهو يقول :

« القضاء .. حكم الله ..

« والقَدَر .. تقدير ذلك الحكم ..

« والتقدير .. تابع للحكم .. والحكم تابع للعلم »[(٢)]

ونحن على رأينا ، الذى يوافق رأى الإمام الغزالى فى أن « القدر » أعم، و « القضاء » أخصّ .. لأن آيات الكتاب الكريم توحى بهذا الفهم لكل من القضاء والقدر .

ونستطيع أن نتصوّر ـ مجردَ تصوّر ـ إن صح فهمنا هذا ـ أن القَدَر ، هو الأسباب التى أودعها الله سبحانه فى المخلوقات ، بحيث لوجرت إلى غاياتها لنتج عنها مسبباتها التى تلازمها ، والتى لاتتخلّف أبداً ..

فالنار ـ مثـلا ـ سبب الضوء ، والدفء ، والإحراق .. فإذا أُوقدت

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى .. جزء ٣ ص ١٥٣ .
(٢) النصوص .. لابن عربى .

النار .. أخرجت ضوءا ، وأعطت دفئاً ، وأحرقت مايتصل بها من الأشياء التى أودع فيها الخالق من الأسباب مايجعلها قابلة للاحتراق .. ففى كل شىء قَدَر ، أى أسباب ، وكيفيّات تنتج مسببات ، فإذا تلاقت تلك الأسباب المودعة فى الأشياء ، كانت قضاء .

فالمسببات التى تحدث من تلاقى الأسباب بعضها ببعض ، هى القضاء ، فإذا تلاقت الأسباب ، فتوافقت أو تدافعت فهى فى دائرة القدر .. أما مايقع من هذا اللقاء بين الأسباب ـ فى توافقها أو تدافعها ـ من مسببات فهو القضاء .. فالقدر كوْن ، والقضاء ظهور !

الأسباب والمسببات :

اختلفت آراء المفكرين من الفلاسفة ، والفقهاء فى الصلة بين الأسباب ومسبباتها .. واتسعت شقّة الخلاف بينهم حتى بلغت درجة التضادّ .

فبينما ينكر بعضهم التلازم بين السبب والمسبب ، إذ يقرر بعضهم حتمية هذا التلازم ، وعدم تخلفه فى حالٍ أبداً .. بل إن بعضهم تمادى فى هذا ، فجعل الأسباب قوّى عاملة ، تعمل فى وعيٍ وبصيرة ، وذلك حين رأوها تعطى نتائجها دون أن تنحرف ، أو تضلّ .. وكان من هذا أن آمن كثير من هؤلاء، بالطبيعة ، وعدّوها كائناً عاقلا .. يحمل فى كيانه مقوّمات وجوده ، مستغنياً عن مدبّر يدبّر أمره ، ويقوم عليه .. ولاشك أن هذه النظرة إلى الطبيعة وأسرارها ، هى نظرة محدودة ، قصُرت عن أن ترى القدرة القادرة التى تربط عوالم الموجودات كلها برباط وثيق محكم ، بحيث تجعل منها كياناً واحداً ، يجرى لغاية واحدة ، فى حكمة ، ونظام .. « ماترى فى خَلْق الرحمن من تفاوت » (٣ : الملك) .

هذا ، والفلسفة الحديثة تؤيد الرأى القائل بفاعلية الأسباب ، وبالترابط بين

الأسباب والمسببات .. وما كان للفلسفة الحديثة أن تقرر غير هذا ، بعد هذا التقدم العلمىّ ، الذى أحرزه الإنسان فى كل مجال .. وليست القوانين التى استخدمها العلم فى كشف أسرار الطبيعة إلاّ من نسيج الأسباب وتفاعلها .. فهذا الاطراد فى ظواهر الطبيعة ، هو الذى أتاح للعلماء وضعَ قوانين ثابتة لطبائع الأشياء ولما تُحْدثه الأسباب من احتكاك بها .. وبهذا أمكن تسخير قوى الأشياء بمقتضى هذه القوانين ، كما أمكن التنبؤ بما سيحدث قبل حدوثه ، اعتماداً على معرفتنا السابقة بخواصّ الأشياء ، وبالآثار التى تحدث عند تحريك أسبابها المودعة فيها .

وقد رأى الأشاعرة ـ وهم الذين يمثلون الرأى السّنّى ـ أن لا تلازم بين الأسباب والمسببات ، ورفضوا أن يسلّموا بوجود أى قانون للطبيعة ، واستبعدوا البديهة القائلة : بأن الأسباب المتماثلة تولد نتائج متماثلة ..

وقد بنوْا رأيهم هذا ، على أساس أن التلازم بين الأسباب والمسبباب ، فيه تحديد لقدرة الله على كل شىء ، إذ أن هذا التلازم يَحدّ من قدرة الله ، ويجعل للأسباب قوة ملزمة لله . .

وهذا رأى لا نسلّم به ، ولا نرتضيه رأياً يراه المسلم حيث لا نرى فى التلازم بين الأسباب والمسببات ما يراه الأشاعرة ، من أن فى ذلك تحديداً لقدرة الله ..

فالله سبحانه وتعالى ، قد أقام الوجود على نظام ، وأجراه على سنن أودعها فيه .. كما يقول سبحانه : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبحون » (٤٠ : يس) .. فإذا كان من نظام الكون الذى أوجده الخالق جل وعلا ، أن الشمس تطلع من الشرق ، وأن الأرض تدور

حولها .. فهل فى هذا تحديد لقدرة الله ؟ وهل فى خضوع هذه الأكوان لهذا النظام المودع فيها إلا استجابة لقدرة الله ، وخضوع لمشيئته ؟

وللفيلسوف المسلم « محمد إقبال » رأى يجرى مع رأى الأشاعرة ، فى نتائجه ولكنه يختلف معهم فى مقدماته .

فإقبال يرى أسباباً قائمة فى الأشياء.. ولكنه يرى — مع هذا — أن الأسباب تعمل فى ظل قدرة ، حكيمة ، عليمة . . ومن ثمّ فإن الحوادث التى تنتجها الأسباب ليست مواليد آلية ، جاءت متكررة ، وإنما كل حادثة لها ذاتية مستقلة .. إنها خلق جديد ، تقوم القدرة الإلـهية على إبداعه وتكوينه . .

« الأشاعرة » لا يعترفون بوجود أسباب مطلقاً .. وإنما يقولون بالخلق المتجدد من غير أسباب !

و « إقبال » يقول بالأسباب ، ولكنها — فى رأيه — أسباب يَقْظَى واعية ، تتخلق منها الحوادث ، تخلقاً يحفظ لكل حادثة ذاتيتها المستقلة .. فلا تنتظم فى ركبِ حوادثَ صماء متتابعة ، متماثلة .. لا نهاية لها .. !

يقول « إقبال » :

« فتقدير شىء ما ، ليس قضاءً غاشماً يؤثّر فى الأشياء من خارج . . ولكنه القوة الكامنة ، التى تحقق وجود الشىء وممكناته التى تقبل التحقّق ، والتى تكمن فى أعماق طبيعته ، وتحقق بالتالى وجودها فى الخارج، دون إحساس بإكراه من وسيط خارجى . .

« ومن ثَمّ فإن تكامل وحدة الديمومة ، لا تعنى أن هناك حوادث تامة التكوين ، أشبه بأن تكون فى أحشاء الحقيقة، لتسقط منها واحدة واحدة ، كما تسقط حبات الرمل فى الساعة الرملية !!

« والواقع أن كل نشاط خالق ، هو نشاط حرّ .. فالخلق يضاد التكرار ، الذى هو من خصائص الفعل الآلى .. » [1]

والذى نود أن نقرره ، هو أن فى كل شىء أسباباً مودعة فيه ، وأن الأسباب تُنتج مسبباتها ، عند تحريكها بأسباب أخرى مناسبة لها ..

أما التلازم بين الأسباب والمسببات ، فليس يعنينا أن يكون هذا التلازم محكما مُصْمتًا لا يتخلف،أم أن تكون فيه خلخلة تسمح بتخلف للسببات عن الأسباب ، ما دمنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى ، هو خالق الأسباب ، وهو خالق المسببات ! والتلازم أو غير التلازم هو مما قضت به حكمته ، وشاءته مشيئته وعلمه . .

ولكن الذى يجب أن نعرفه ، وأن نقيم وجودنا عليه ، هو أن مِلاك أمرنا فى هذه الحياة قائم على أن نحرك الأسباب المودعة فى الأشياء ، على الوجه الذى اهتدت إليه عقولنا ، وأن ننتظر النتائج المقدرة لهذه الأسباب ، على حسب ما نتوقعه ونرجوه منها .

فنحن نبنى حياتنا على المستقبل أكثر من الحاضر الذى نعيش فيه .. وهذا المستقبل إنما نبنيه على أسباب نحركها ونرقب ثمرتها .. إننا نزرع وننتظر الحصاد، وهيهات أن يزرع زارع ولا يجنى ثمرة ما زرع ، وهيهات أن نجنى ثمراً دون أن نزرعُ مايعطى هذا الثمر !!

يقول الفيلسوف « إقبال » :

« فالنفس وهى مطالبة بالعيش فى بيئة مركبة .. لا تستطيع أن تحتفظ

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى .. لإقبال ص ٦١ .

بوجودها فى تلك البيئة دون أن تردها إلى نظام يعطيها — أى النفس — نوعاً من الضمان فيما يتعلق بسلوك الأشياء الموجودة حولها ..

« وعلى هذا ، فإن نظر النفس إلى بيئتها باعتبارها نظاماً (مكوناً) من علة ومعلول ، هو وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها . .

« والواقع أن النفس — بتأويلها للطبيعة على هذا النحو — تفهم بيئتها ، وتسيطر عليها ، فتحصل بهذا على حريتها ، وتزيدها قوةً ونماءً »[1] .

(*)

ونود هنا أن بعد هذه المقدمة ، أن ندير النظر إلى قصة موسى والعبد الصالح ..

ففى هذه القصة درس عملىّ ينكشف منه وجه القضاء والقدر ، ومدى ما يمكن أن تَطُولَه يد الإنسان ، وتبلغه قدرته ، تحت سلطان القضاء والقدر ، وما يعمل فيه الإنسان من أسباب ، وما يقع له من مسببات . .

لقد كان موسى فى هذه القصة ، ممثلا للإنسانية فى حدودها التى أقامها الله عليها ، وفى تصرفاتها مع الأشياء على مقتضى ما تعلم منها بإمكانياتها المحدودة ، على حين كان العبد الصالح ، ممثلا للعالم العلوى ، عالما ما وراء المحسوس ، يستملى معارفه من عالم النور . . فيرى بعين الغيب ، عواقبَ الأمور ، ويصل إلى نتائجها الحاسمة ، قبل أن تتحرك الأسباب ، وتتولد المسببات !.

موسى يمثّل الإنسان ، من حيث هو كائن محدود القدرة ، لايرى من الأشياء إلا ما على السطح ، أو ما وراء السطح بقليل . . أما أعماق الأشياء

---

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٢٤ .

وأما صميمها ، فليس له إليها سبيل مهما يبلغ علمه ، ومهما تكن معارفه . . إن له حدوداً لا يتجاوزها ، وله مجالات لا يخرج عليها ، وهو فى هذه الحدود يعمل، وفى هذه المجالات يتحرك — حسب تفكيره وتقديره . .

ثم مع هذا ، فإن الأشياء تتحرك حركتها المقدورة لها . . وهى حركات قد تتفق مع حركات الإنسان ، وقد لا تتفق . .

والشىء الذى ينبغى أن نؤكده ، هو أن العلم والمعرفة ، يكشفان للإنسان من حقائق الأشياء ، بقدر ما يحصّل الإنسان منهما .. فكلما ازداد علماً ومعرفة اتسعت أمامه الآفاق التى ينظر فيها إلى هذا الوجود ، وتكشف له حقائق كثيرة كانت محجوبة عنه وراء هذه الآفاق التى أخفاها عنه الجهل ، وضآلة المعرفة . .

والذى نودّ أن نؤكده أيضاً ، هو انه مهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة فلن يبلغ من العلم بحقائق هذا الوجود ، إلا قدراً ضئيلا ، لا يعدل حبّة رمل من هذا الكون العظيم .. والله سبحانه وتعالى يقول . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥ : الإسراء) .

* * *

وهنا نستطيع أن نحدد مكان الإنسان من القَدَر ، ونتعرف إلى المجال الذى يعمل فيه كل منهما : الإنسان والقَدَر ..

فالقَدَر هو « دولاب » ينتظم الوجود كله ، وتتحرك كل أجزائه ، حَسْبَ القُوى التى أودعها الخالق جل وعلا فى كل موجود .. وكل موجود يتحرك حركته فى الاتجاه ، وفى المدى المقدور له .. وأقرب شبه لهذا ما نرى فى « دولاب » بخارى أو كهربىّ ، يدور بجميع أجهزته وأجزائه ، ثم إن جميع هذه الأجهزة ، وتلك الأجزاء ، مع اختلاف حركاتها تحقق آخر الأمر غاية واحدة ،

وتعمل جميعها لهدف واحد .. فلا يرى الرائى منها إلا حركة واحدة ، وإلا اتجاهاً واحداً.. هكذا يرى المهندس الميكانيكى أو الكهربى حركات الجهاز، الذى يقوم عليه ، ويديره .. إنه يعرف وضع كل قطعة منه ، كما يعرف وظيفتها ودورها الذى تؤديه ..

أما من ينظر إلى هذا الجهاز نظراً سطحياً بغير علم ، فإنه لايرى فيه إلا أشياء صاخبة مضطربة ، يضرب بعضها وجه بعض !

كذلك هذا الوجود الذى نحن فيه ، وهذا العالم الذى تقلنا أرضه ، وتظلنا سماؤه ـ حيث ننظر ، فلا نرى ـ لعلمنا القاصر .. إلاَّ فوضَى ، وإلا اضطرابا ، وإلا تخالفاً وعناداً بين كل موجود وموجود ، الأمر الذى يُوقع بين الموجودات هذا الصراع الحادّ المتصل .. سواء فى ذلك عالم الجماد ، وعالم الأحياء .. فالبحر تُهيجه العواصف وتثيره الرياح ، وهو بالتالى يَصْخَب ويموج ، ويضرب بأمواجه العاتية فى أصول الجبال ، فتتصدع وتنهار .. والجبال بدورها ، تتصدى للرياح العاتية فتلطم وجهها ، وللسحب السائرة ، فتمزّق أوصالها ، وتُلقى بها تحت أقدامها .. وكذلك الشأن فى عالم النبات والحيوان ، والإنسان .. هى فى صراع دائم ، فيما بينها وبين الموجودات القريبة أو البعيدة منها .. والإنسان بخاصة يواجه الموجودات كلها ، ويدخل معها جميعها فى صراع ، لايُلقى معها سلاحه إلا إذا استسلمت له ، وأعطته ولاءها ..

هكذا يبدو الوجود غارقا فى الفوضى ، لمن ينظر إليه نظراً شارداً ، لايستصحب معه فيه عقلَه ، ولايفتح له قلبه ..

أما حقيقة هذا الوجود ، فهو نظام محكم دقيق ، وتناغم منسجم رائع ، وتجاوب بين كل ذرة من ذراته ، وكل موجود من موجوداته .. « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البَصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر

كرّتين ينقلبْ إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير » (٣ ـ ٤: الملك) ..

أرأيت إلى جماعة كبيرة من العازفين على مجموعات متعددة من آلات الموسيقى ، يقومون على أداء لحن رائع منسجم متناغم ؟

إن الذى لايحسن لغة الموسيقى ، ولايعطى أذنه وقلبه لهذا اللحن الذى يجتمع من هذه الأنغام التى ترسلها أيدى العازفين ، وأفواههم وأرجلهم ، من تلك الآلات التى يقومون بالأداء عليها ـ لايرى إلاّ فوضى مجنونة متخبطة ، ولا يسمع إلا ضجيجاً وصخبا وتلاطماً . . أما حقيقة الأمر ، فهو ـ عند الموسيقى ـ على خلاف ذلك تماما . . إنه يرى تآلفاً وتلاقياً ، ويسمع تجاوباً وتناغماً ، فيجد لذلك رَوْح رُوحه ونشوة فؤاده ، ويقظة وجدانه ..

ذلك أشبه شىء بالوجود فى نظر مَن يعلم ومن لايعلم !

وننظر مرة أخرى إلى ماكان بين موسى والعبد الصالح ..

لقد كان موسى يسير فى اتجاهه الإنسانى .. ويأخـــذ طريقه على قدر ماينكشف له من عوالم الوجود ..

على حين كان العبد الصالح يسير فى اتجاه الدولاب القَدَرِىّ .. ويأخذ الأمور على الوجه الذى تستقيم فيه مع حركة هذا الدولاب القدرىّ .. وقد وقع الصّدام ، بل والصراع بين الاتجاهين ..

والواقع أنه لم يكن ثَمّة خلاف بين هذين الاتجاهين .. إذ كل منهما مُنْتهٍ إلى نهاية واحدة ، يلتقيان عندها ..

وكل مافى الأمر ، أن الحركة القَدَرية فى هذه المرحلة القصيرة التى صَحب فيها موسى صاحبه ، قد وجدت فى العبد الصالح مفسِّراً لها ، وكاشفاً عن وجهها، ولولا هذا لظلّت فى عينى موسى وفى تفكيره قدراً لايدرى له مفهوماً ، ولا يعرف

لهُ متأوّلا .. تماماً كما يقع لعينى الإنسان منا كلّ يوم من مئات الأحداث ، فى نفسه ، وفى غيره ، دون أن يعرف وجه الحكمة فيها.. ولو أننا وجدنا مثلَ العبد الصالح من يكشف لنا عما وراء هذه الأحداث ، لَمَا أصابنا همّ ، ولَمَا بِتْنا على قَلَق، لِما وقع أو يتوقع من سوء ، وما نزل أو ينزل من مكاره ، ولظهرت لنا هذه الأحداث آخذةً أتمّ وضع وأصلحه لنا ، ولنظام الوجود العام كله .. وهذا ماتشير إليه المأثورة الإسلامية : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » !

وإذن .. فالماديون الذين ينكرون القدر ، هم محقّون ومبطلون فى آن ..

هم محقون ، لأن كل مايُنسب إلى القدر ، ويضاف إليه ، ليس شيئاً خارجا على سُنَن الكون ، ولا مطلقاً من العلل والأسباب التى تحكم الوجود وتُمسك بكل موجود .. وغاية مافى الأمر ، أن هذه العلل ، وتلك الأسباب مطوية عنّا ، بعيدة عن واقع علمنا ، وأنها لو انكشفت لنا لمَا كان فيها إلا مانراه فى كل أمرٍ نعلم حقيقته ، ونعلم العلل والأسباب المتحكّمة فيه ..

وهم مبطلون .. لأن العلم الذى فى أيديهم ، والذى يستطيعون به النظر فى الوجود ـ هو علم قاصر محدود ، لايحمل من الطاقات الضوئية ، إلا شعاعات باهتة متكسّرة ، لاتنفذ إلى أعماق الوجود ، ولا تكشف إلا بعضَ مايظهر على حافَاته وحواشيه .. وعلى هذا ، فإنه ستظل موجودات الوجود كلها ـ فيما عدا هذه القشور منها ـ بعيدة عن متناول العلم، مجهولةَ الأسباب والعلل .. وهى التى تطلع علينا حين تطلع ، قَدَراً مقدوراً . . لانعرف لها تأويلا ، ولا ندرى لها تفسيراً !

* * *

والعبرة الماثلة لنا من قصة موسى والعبد الصالح ، هى أن نُلزم أنفسنا الأخذ بالأسباب الظاهرة لنا ، وأن نصرّف أمورنا بمقتضى هذه الأسباب التى تقع فى

تفكيرنا وتقديرنا ، وألا نتطلّع إلى ماوراء ذلك .. ففى هذا ـ وفى هذا وحده ـ ضمان لاستقامة تصرفاتنا ، مع مايَصْلُح عليه أمرنا ، وأمر المجتمع الإنسانى الذى نعيش فيه ..

إن القوى المحدودة التى أودعها الله فينا ، هى التى تتفق اتفاقا تامًّا مع الوجود الذى أقامنا الله عليه ، ومع الموجودات التى أوجدنا الله معها ..

فجوارحنا ، ومدركاتنا ، مضبوطة على أعدل وضع يمكن أن يعطينا من الحياة أكبَر قدْر يمكن أن نأخذه منها ، وأن ننتفع به على الوجه الملائم لنا .. ولو خرجت مدركاتنا وحواسنا عن هذا المعدَّل ـ بالزيادة أو النقص ـ لاضطرب وجودنا ، وفسد نظام حياتنا ..

فالماء الذى نشربه ، والذى نراه نظيفاً ، سائغا ـ إذا نظرنا إليه بما وراء أبصارنا ـ كالمجهر مثلا ـ رأيناه مَسْبَحا لجيوش كثيرة من الحيوانات .. وهو بهذه النظرة يتحول ـ فى تصورنا ـ من طيّب سائغ ، إلى ماء تعافه النفس ، وتقزّز منه ، ونموت عطشا دون أن تُقدم على شَرْبة منه ..

وكذلك قلْ فى كل ما نأكل وما نشرب . إننا لانرى فى مأكولنا ومشروبنا مانكره ، ولكنا إذا نظرنا إليه بعيون مِجْهرِيّة ، تبين لنا أن هناك عوالم سابحة فيه ، من غرائب المخلوقات ، تأخذ طريقها إلى جوفنا ، دون أن نراها ، فلا يهنئونا مع ذلك طعام ، ولا يسوغ لنا شراب ! وقلْ مثل هذا فى المسموعات ، والمشمومات والمذوقات ، إذا نحن جئناها بحواس أقوى أو أضعف من حواسّنا .. إنّها تقع منا موقعا بغيضا كريها ..

من الخير إذن ، ومن الرحمة بنا أن نعيش فيما خَلَقنا الله بما خَلَقنا به ، وألاّ نذهب إلى أبعدَ مما قُدّر لنا .. بل نجعل الأسباب المعروفة لنا ، هى الأساس الذى نتصرف بمقتضاه ، فى تعاملنا مع الحياة ، وملابستنا للموجودات .. ثم ليكن

قبل هذا كلّه ، إيماننا بقدرة الخالق ، وبتقديره لكل شيء ، وأننا إنما نعمل لتحقق إرادته مما أودع فى الكائنات من أسباب ، وبما جعل لها من مسببات .. فهذا الإيمان هو الذى يسند الإنسان فى صراعه مع الحياة ، وهو الذى يشدّ عزمه ، ويدفع به إلى غايات لايتطلع إليها أولئك الذين فقدوا هذا الإيمان ..

وشتّان بين من يعمل ، وهو على يقين بأنه فى رعاية ربّ الأرباب ، وأقوى الأقوياء ، وبين إنسان يعمل معزولاً عن الشعور بهذا الإيمان .. يعمل فى حدود جهده البشرى المحدود ، دون سند أو ظهير !

إن النعمة فى كل صورة يتلقاها المرء عليها ، لايدخل منها على قلب المؤمن بالقَدَر ، زَهْوٌ ولا خُيَلاَء .. لأنها من عند الله !

وإن البلاء ، والشدّة ، والضرّ .. لايقع منها على قلب المؤمن بالقَدَر ، يأس ولا قنوط من روح الله .. « إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » .. الكافرون بالله ، وبما قدّر الله !

* * *

والقدر بهذا المفهوم لايُخلى الإنسان من مسئولياته ، إزاء الحياة ، وإزاء التكاليف المنوطة به فيها .. فهو مطالب بأن يَجْهَدَ جَهْده ، ويُبلى بلاءه فى كل أمر يَعْرِض له ، وأن يلقاه بكل حَوْله وحيلته ، وأن يجىء إليه بعلله وأسبابه ، التى يراها ويقدّرها .. فإن هو فرّط أو قصّرَ ، كان مَلوما ، وكان أهلا للجزاء الذى يناسب تفريطه ، وتقصيره .

فليس إيمان المؤمن بالقَدَر ، وبأنه صائر آخر الأمر إلى المصير المقدور له — ليس هذا الإيمان بالذى يُخلى المؤمنَ من المسؤليات المنوطة به .. فهو مطالب بأن يُقدِّر ويفكر ، ويدبّر ، ويعمل بالقدْر الذى يُسْعِفُه به تفكيره ، ويحتمله جهده ..

وهذا ـ على الأقل ـ هو الذى يُعْفيه من المسئولية أمام عقله وضميره !

* * *

وفى نظرة الإسلام إلى القدَر ، تلك النظرة التى يبدو منها القدر غائبا كحاضر ـ فى هذه النظرة يقوم القَدَر على الناس ، سلطانا رحيما ، يفيئون إلى ظلّه الظليل ، إذا هم أضنام السير ولفحهم الهجير وأقعدهم الإعياء !

فالقَدَر فى التفكير الإسلامى ، لايلتقى به المسلم إلا عند آخر المطاف من سعيه الذى سعى ، وعمله الذى عمل ، لا أن يقدّمه بين يدى كل عمل ، فإن هذا من شأنه أن يَقعد بالإنسان عن أن يعمل أو أن يسعى ، تاركا زمامه للقَدَر ، يتصرّف كيف يشاء ..

وفى هذا اللقاء الذى يَلتقى فيه الإنسان مع القدر ـ بعد كل عمل لاقبله ـ فى هذا اللقاء يُلْقِى الإنسان بوجوده كلّه ، وبما أصاب ، أو أصيب به ـ يُلقى بهذا كله فى ساحة القَدَر !

فإن يكن قد أصاب خيرًا لم يقل قولة قارون من قبل : « إنما أوتيته على علمٍ عندى » (٧٨ : القصص) بل يقول قولة المؤمنين الشاكرين : « هذا من فضل ربىّ ليبلونى أأشكر أم أكفر » (٤٠ : النمل) .

وإن أصابته مصيبة ، أو مسه ضر ، لم يقل : « أنّى هـذا ؟ » (١٦٥ : آل عمران) .

بل يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » (١٥٦ : البقرة) أو يقول : « فصبر جميل » (١٨ : يوسف) .

أما غير المؤمن ، فإنه لا يلتقى بهذا الوجه الكريم فى السراء أبداً ، ولا يتلقى هذا العزاء الجميل فى الضراء أبداً ..

إنه إن أصاب خيراً، أشِر وبَطِر، وطغى وبغى، وإن أصابته مصيبة احترق بنارها، كمداً وحسرةً، دون أن يجد لمصيبته عزاء من إيمان، أو مواساة من قدر!

وانظر إلى هذا العزاء الجميل الذى عزّى الله سبحانه وتعالى به النبىّ والمؤمنين فيمن أصيبوا فيهم من الشهداء فى غزوة أحد: «يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرةً فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير» (١٥٦: آل عمران).

و «لو» هذه، هى التى تُدمى قلوب الذين لا يؤمنون بالله، ولا يستسلمون لقدر الله، فى أعقاب الشدائد والملمات، وهى التى تَنْكأ جراحهم كلما عملت يد الزمن على التئامها!

وفى الحديث الشريف كما رواه مسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كان كذا وكذا؟! ولكن قل: قَدّر الله، وما شاء الله فعل.. فإن لو تفتح عمل الشيطان».

* * *

وهنا أمر نحب أن نقف عنده، وهو أن الرضا، الذى يستقبل به المؤمن ما يقع من مقدرات القدر — ليس هذا الرضا عن قهر وإلزام، وإنما هو عن إرادة واعية مدبّرة مقدّرة.. ذلك أنه ليس من الدين، ولا فى الدين - أعنى الإسلام - ما يحول بين الإنسان وبين حقه الطبيعى، فى معالجة الواقع، وفى محاولة تغييره بكل ما يملك من وسائل كريمة سليمة، ناظراً إلى الله، طامعاً فى رحمته، مستمداً العونَ والتوفيقَ من لدن رب رحيم كريم..

إن الرضا بالواقع الكريه البغيض ، ليس فى الإسلام ، ولا من الإسلام .. لأن ذلك معناه إهدار لعقل الإنسان أن يفكر ، وتعطيل لإرادته أن تعمل ووقوف بالحياة أن تتحرك ، بل وتمكين للشر أن يستشرى ، واعتراف للباطل أن يقيم حيث شاء .. آمناً مطمئنا ، لا يلقاه أحد بإنكار ، ولا يزعجه مُنكِر بسوء ! ..

وكلاّ .. فإن هذا غير سبيل الأحياء فى الحياة ، كما هو غير سبيل الدِّين والمتدينين ..

وتاريخ الإسلام ، يحكى فصولا طويلة ، مُثِّل فيها هذا الدور الغبىّ الدخيل على الإسلام ، فقتل فى الناس الهِمَم الصادقة ، وأطفأ من صدورهم وقدة العزمات المتوثبة لملاقاة البغى وردع الباغين .. وذلك حين قام فى الناس من يدعونهم إلى الاستسلام للقدر ، والرضا بالمقدور .. وتلك كلمة حق أريد بها باطل .. إذ كانت أشبه بمخدّر ثقيل ، أمات فى النـاس مشاعر الإحساس بكل ظلم ، فاستساغوا طعمه، واستناموا فى ظلّه ، يَجتَرّون كل ما يُلْقَى إليهم من عسف ، ومايساق إليهم من بلاء .. وإنه لولا هذا ما استطال حكم أمراء السوء ، ولا امتدّ سلطان الملوك والسلاطين الباغين المفسدين ، دون أن يلقاهم أحدٌ بنكير ، أو يؤاخذهم مؤاخذ بما اقترفوا من مظالم ، وما ارتكبوا من آثام ..

إن مهمّة الرسل ، والمصلحين فى الناس ، إنما هى فى صميمها ثورة على أوضاع قائمة جائرة ، وحربٌ على مظالم صارخة ، هى فى نظر الحق والعدل منكرات يجب أن تزول ، وهى عند البغاة والمتسلطين حق مشروع ، ثم هى عند أدعياء الإيمان قَدَر مقدور !

* * *

ولا نريد أن ندع هذا البحث فى « القضاء والقدر » قبل أن نذكر رأياً

« لابن القيّم » فى هذه القضية ، يعتبر ـ فى رأينا ـ مقطع الفصل فيها ، عند المؤمنين بالله ، وبما لله من أحكام فى عباده ..

يقول ابن القيّم فى كتابه : « روضة المحبين » :

« فأحكام العالم العلوىّ والسّفلىّ وما فيهما ، موافقةٌ للأمر . .

إما الأمر الدينىّ ، الذى يحبّه الله ويرضاه ، وإما الأمر الكونىّ الذى قدّره وقضاه ..

« وهو سبحانه لم يقدّره ـ أى الأمر الكونىّ ـ سُدًى ، ولاقضاه عبثاً ، بل لِما فيه من الحكمة والغايات الحميدة ، وما يترتب عليه من أمور ، يحبّ غاياتها وإن كره أسبابها ومبادئها ..

« فإنه .. سبحانه وتعالى ـ يحبّ المغفرة ، وإن كره معاصىَ عباده ، ويحبّ الستر ، وإن كره مايَستر عبدَه عليه ،ويحبّ العتق وإن كره السبب الذى يُعتق عليه من النار .. ويحب العفو ، وإن كره مايعفو عنه من الأوزار .. ويحبّ التوّابين وتوبتهم ، وإن كره معاصيهم التى يتوبون إليه منها .. ويحب الجهاد وأهله ، بل هم أحبّ خلقه إليه ، وإن كره أفعال مَن يجاهدونهم ..

ثم يقول :

« وهذا باب واسع ، قد فُتح لك ، فادخلْ منه ، يُطلعك على رياض من المعرفة مونقة ، مات من فاتته بحسرتها ، وبالله التوفيق .

ثم يقول :

« وسِرّ هذا الباب ، أنه ـ سبحانه ـ كامل فى أسمائه وصفاته ، فله الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، الذى لانقص فيه بوجهٍ ما ..

وهو - سبحانه - يحب أسماءه وصفاته ، ويحب ظهور آثارها فى خَلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله . .

فإنه - سبحانه - وِتْرٌ يحب الوِتر .. جميلٌ ، يحب الجمال .. عليمٌ ، يحب العلماء .. جوَاد ، يحب الأجواد .. قوىّ ، والمؤمن القوىّ أحبّ إليه من المؤمن الضعيف .. حَيِيٌّ ، يحب أهل الحياء .. وفىّ ، يحب أهل الوفاء .. شكور ، يحبُّ الشاكرين .. صادق ، يحبّ الصادقين .. محسن ، يحبّ المحسنين ..

« فإذا كان - سبحانه - يحبّ العفو ، والمغفرة ، والحلم ، والصفح ، والستر - لم يكن بُدٌّ من تقدير الأسباب التى تظهر آثار هذه الصفات فيها ، ويَستدلّ بها عبادُه على كمال أسمائه وصفاته ، ويكون ذلك أدعى إلى محبته ، وحمده ، وتمجيده ، والثناء عليه بما هو أهله .. فتحصُل الغاية التى خُلق لها الخلق .. وإن فاتت من بعضهم ، فذلك الفوْت سبب لكمالها وظهورها ..

« فتضمّن ذلك الفوْتُ المكروهُ له - سبحانه - أمراً هو أحبّ إليه من عدمه !

« فتأمّل ، هذا الموضع حق التأمل ..

« وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم ، حين يجمعهم فى صعيد واحد ، ويوصّل لكل نفسٍ ماينبغى إيصاله إليها من الخير والشرّ ، واللذة والألم ، حتى مثقال الذّرة ، ويوصّل كلَّ نفسٍ إلى غاياتها التى تشهد هى أنّها أولى بها . .

« فحينئذٍ ينطق الكون بأجمعه ، بحمده ، تبارك وتعالى ، قالاً (أى قولاً) وحالاً ، كما قال سبحانه وتعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش يُسبحون بحمد ربّهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » فحذف

فاعل القول ، لأنه غير مُعيّن ، بل كل أحدٍ يحمده على ذلك الحكم الذى حكم فيه .. فيحمده أهل السموات ، وأهل الأرض ، والأبرار والفجّار ، والجنّ والإنس .. حتى أهل النار ! قال (الحسن البصرى) وغيره : « لقد دَخلوا النار وإن حَمْدَه لَفى قلوبهم » ..

« وهذا – والله أعلم – هو السر ، الذى حُذف لأجله الفاعل ، فى قوله : « قيل أدخلوا أبوابَ جهنم خالدين فيها » وقوله : « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » كأنّ الخلق كله ، نطق بذلك وقاله لهم .. والله تعالى أعلم بالصواب » ا . هـ

الآيات : (٨٣ — ٩٨)

* « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ

فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » (٩٨)

التفسير :

الذِّكر : الخبر ، والحديث عن الأمر بمايذكَر به .

مكنّا له فى الأرض : جعلنا له مكاناً ذاسلطان فيها ..

السبب : مايتوصل به إلى أمر من الأمور . . وهو فى الأصل : الحبل الذى يصل شيئاً بشىء .. ويقال للباب الذى يُدْخل منه إلى المكان : سبب ..

عين حمئة : الحمأة : الطين الأسود ، والعين الحمئة : التى اسودّ ما فيها من طين . . وقرىء : « عين حامية » أى شديدة الحرارة . . كما فى قوله تعالى : « وأما من خفّت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية * » . (٨ — ١١ : القارعة) السّدّان : مثنىّ سَدّ ، والسدُّ : الحاجز بين الشيئين ، ويسمى الجبل سدًّا ، لأنه يحجز بين ما بين يديه وما خَلْفَهَ .

زُبَر الحديد : القطع العظيمة منه . . واحدتها زبرة: كغرفة .

الصَّدَفَان : مثنىّ صَدَف ، والصّدَف جانب الجبل ، ولايقال له صدف حتى يكون فى مقابله صدف آخر . . فكأن أحدهما صَادَف الآخر ، وقابله .

القِطْر : النحاس المذاب ، لأنه يقطر كما يقطر الماء .

أن يظهروه : أى أن يتسلقوه ، ويركبوا ظهره ، لملامسته وارتفاعه..

النقب : الثقب والخرق فى الجدار ، ينفذ من جانبه إلى الجانب الآخر ..

[ذو القرنين .. من هو ؟ وما شأنه ؟]

فى الخمس عشرة آية السابقة قصّة رجل ذى شأن عجيب ، بين يديه قوّى ، ومعه سلطان ، قلّ أن يقع مثلهما ليد إنسان ..وسمى ذا القرنين لبلوغه المشرق والمغرب ، فكأنه حاز قرنى الدنيا .

ومن أجل هذا كانت المناسبة قوية بين قصة هذا الرجل ، وبين قصة العبد الصالح .. صاحب موسى ، فجاءت هذه القصة وراء قصّة العبد الصالح ، تالية لها .

ثم إنه ـ مع هذا ـ يوجد بين القصّتين ، أكثرُ من وجهٍ من وجوه الشبه . .

فأولا : العبد الصالح ، وذو القرنين ، كلاهما ممن اختصه الله سبحانه وتعالى بشىء من فضله ورحمته . .

فالله سبحانه وتعالى يقول عن العبد الصالح : « عبداً من عبادنا . . آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » .

ويقول جل شأنه فى ذى القرنين : « إنا مكّنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً » .

والفرق بين الرجلين فيما اختصهما الله تعالى به ، أن ما أصاب العبد الصالح من فضل الله ، كان علماً لدنيًّا ، ارتقى به فوق مستوى العلم البشرى ، على حين أن ما أصاب ذا القرنين كان تمكيناً فى الأرض،وهدايةً إلى الأسباب التى تدعّم هذا التمكين ، وتحرسه من الآفات التى تجعل من تلك القوة الممكنة،

أن تكون أداة بغى وعدوان .. فكان بهذا على مستوى من الحكمة والتدبير وحسن السياسة للملك ، بما يكاد ينفرد به بين أصحاب الملك والسلطان ..

وعلى هذا يمكن أن يقال : إن العبد الصالح نسيج وحده فى العلم الذى معه ، وإن ذا القرنين ، نسيج وحده كذلك فى دنيا الملوك والسلاطين ، أصحاب الجاه والسلطان ..

وثانياً : الأحداث التى اشتملت عليها كلتا القصتين ..

ففى كل منهما ثلاثة أحداث ، هى التى كشف عنها القرآن من أمر صاحبى القصة ..

فخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار .. هى الأحداث الثلاثة التى جرت على يد العبد الصالح ..

وبلوغ مغرب الشمس ، وبلوغ مشرقها ، وإقامة السدّ .. هى أحداث ثلاثة ، من أحداث ذى القرنين ..

ثالثاً : تحركات الرجلين ..

كانت لكل منهما ثلاثة مُنْطَلَقات .. كل منطلق إلى غاية من الغايات الثلاث ، التى تولد من كل غاية منها حدث ..

فالعبد الصالح ، ينطلق فى كل مرّة ، ومعه صاحبه موسى .. وكأن موسى هو السبب الذى كان عنه منطلقه إلى كل غاية من غاياته الثلاث : « فانطلقا ».. « فانطلقا » .. « فانطلقا » .

وذو القرنين ، ينطلق فى كل مرة ، ومعه سبب ، يتبعه سبب ، حتى يبلغ غايته .. « فأتبع سبباً » .. « ثم أتبع سبباً » .. « ثم أتبع سبباً » !

ورابعاً : أسباب العبد الصالح ، تجرى على مستوًى قَدَرى، فوق مستوى البشر ..

أما أسباب ذى القرنين فتجرى على مستوى العقل البشرى ، حيث يأخذ الأمورَ بأسبابها الظاهرة التى تبدو لعين العاقل ، البصير ، العالم ..

ومع هذا ، فإن أسباب كلٍّ منهما تلتقى عند نهايتها بما هو مطلوب ومحمود ..

وهذا يعنى أن مستوى البشرية ، يستطيع أن يرتفع بما يكتسب من العلم والمعرفة إلى حيث يجرى فى طريق مستقيم ، تتكشف فيه لبصيرته مواقع الحق والخير ، فلا يخطىء الغاية ، ولا يضل السبيل ..

وهذا يعنى من جهة أخرى أن العلم المكتسب : إذا صادف قلباً سليما ، وعقلا حكيما ، ونفساً مطمئنة ، كان أشبه بما يفاض على الإنسان فيضاً ، مما يفتح الله للناس من رحمته ، فضلا ، وكرماً ، من غير كسب !

ذلك أن فى الإنسان ــ كل إنسان ــ قَبَسةً من العالم العلوىّ إذا أمدّها الإنسان بالسعى والجدّ فى تحصيل المعرفة ، ونفخ فيها من روحه وعزمه ، ظلت مضيئة مشرقة ، ثم ازدادت مع السعى والجدّ ضياء وإشراقاً ..

أما إذا أهمل الإنسان هذه القبسة العلوية التى فى كيانه ، ولم يُمدّها من ذات نفسه بالوقود المناسب لها ، خَبَتْ ، ثم انطفأت وخمدت !

« تساؤلات .. وتصورات »

وفى أحداث القصة أمور لفتت إليهــا الأنظار ، وأثارت كثيراً من التساؤلات ، التى أدت بدورها إلى كثير من المقولات المتضاربة ، الناجمة فى

أكثرها عن تصورات وأوهام : دون أن يكون لها مستند من واقع ، ولا قبول من عقل ، ولا إجازة من منطق ..

ومن هذه التساؤلات ، والمقولات ، ما دار حول ذى القرنين والأسباب التى معه ، ومغرب الشمس ومطلعها ، ويأجوج ومأجوج ، والسدّ الذى أقيم دونهم ..

فكل أمر من هذه الأمور أصبح قضية ، كثر المتخاصمون فيها ، وكثرت مُدّعَيات كل طرف من أطراف الخصومة عليها ، بحيث كان على من يريد النظر فى أية قضية منها ، أو أن يتعرف على وجه الرأى فيها — أن يستمع إلى عشرات الأقوال المتناقضة ، التى يدعمها أصحابها بأحاديثَ تروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبآراء تستند إلى الأجلاء الأعلام من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم ، كعلىّ بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وابن عباس .. وغيرهم ..

ولا نريد أن نشغل أنفسنا بهذه المقولات ، ما صح منها وما لم يصح .. وذلك لأمرين :

أولهما : أن أية مقولة تقال فى هذه الأمور ، لاتزيد من قيمتها ، ولا تنقص من قدرها فى ميزان العبرة والعظة الماثلة منها .. إذ لاتعدو هذه المقولات التى قيلت أو تقال فى هذه المسميات أن تكون ذيولا وإضافات ، لاتغير شيئاً من ذات المسمىّ.. تماما كالاسم الذى يطلق على المسمى .. إنه ليس أكثر من إشارة يشار بها إليه ، أو رمز يستدل به عليه ! ! أما ذاته وحقيقته ، فلا يؤثر فيها الاسم الذى يطلق عليها ، ولا يغير من صفتها شيئاً ..

وثانيهما : أن هذه المقولات مبثوثة فى كتب التفاسير ، والحديث ، والقصص .. بحيث لايحتاج الأمر فى الوقوف عليها عند من يُهمُّه أمرها ، إلى

كبير مشقة .. فما هي إلا أن يمد يده إلى أي كتاب منها حتى يقع على ما يريد وأكثر مما يريد !

وعلى هذا ، فإننا سنقتصر على إشارة دالة على كل مشخص من هـذه المشخصات ، حسب مفهومنا له ..

فأولا :

﴿ ذو القرنين ﴾

هو الإسكندر الأكبر ، ملك مقدونيا ، من بلاد اليونان . . والذي استطاع أن يضم بلاد اليونان كلها إلى ملـكه الذي ورثه عن أبيه ، ثم استطاع كذلك أن يوسع دائرة مملـكته شرقاً وغرباً ، حتى ضمّ إليه بفتوحاته معظم العالم المعمور الذي كان معروفاً في وقته .. فبلغ الصين والهند شرقاً ، ودارت في فَلَك دولته قرطاجنة ، ومصر ، والشام ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، والهند ، وأطراف الصين ..

أما سبب امتداد ملـكه جهة الشرق لا الغرب ، فلأن الشرق في ذلك الحين ، كان هو مركز النشاط الإنساني ، ومطلع العلوم والفنون ، والآداب ، وكان هو الذي يناظر بلاد اليونان التي كانت الشعلة المضيئة في الظلام المنعقد على أوربا في ذلك الحين .. ولهذا كان الاحتكاك دائماً في هذه العصور الغابرة ، واقعاً بين بلاد اليونان ، وفارس ، وما بينهما . .

وقد تتلمذ الإسكندر على الفيلسوف اليوناني العظيم ، أو المعلم الأول « أرسطو » . . وساعده نبوغه العبقري على أن يهضم فلسفة « أرسطو » في فترة قصيرة ، وأن يتمثلها تمثيلاً صحيحاً ، وأن يصفّيها من كلّ شائبة .. فكانت تلك الفلسفة غذاء صالحاً لهذا العقل السليم المتفتح لاستقبال كل ما يُمدّه

بطاقاتٍ من النور ، تزداد بها بصيرته نفوذاً إلى أعماق الأشياء ، والوصول إلى لبابها . .

فالإسكندر ، بذكائه وعبقريته ، وباستعداده الموروث للملك والسلطان ـ استطاع أن يحوّل فلسفة « أرسطو » إلى واقع عمليّ ، وإلى قوة منطلقة معه لتحقيق آماله الكبيرة ، وبناء هذه الدولة العظيمة التى تحركت لها همته ، على أساسٍ وطيدٍ ، من العدل والإحسان ..

وذو القرنين ـ كما يذكره القرآن ـ رجل مؤمن بالله ، التقى فيه هذا الإيمان بطبيعة قوية ، تنفى الخبث ، وتعاف المنكر من الأمور ، وتأبى أن تنزل إلى مايمسّ المروءة ، ويجور على الشرف والكرامة . .

فكانت خطواته كلّها قائمة على طريق الحق ، والعدل ، والخير ..

والإسكندر ، أشبه الناس بذى القرنين هذا ؛ فقد كان مؤمناً بالله ، وقد فتح له الطريقَ إلى هذا الإيمان أستاذُه « أرسطو » ، الذى كان موحِّدًا ، يقول بالصانع الأول ، وبالعقل الأول ، وبالمحرّك الأول ، وبالسبب الأول .. إلى غير ذلك من المقولات ، التى تجعل على الوجود قوةً عاقلة ، يدور فى فلكها كل موجود !

وإذا كانت تصورات « أرسطو » لِله سبحانه وتعالى يحفّها الغموض ، فإنها تصورات فى صميمها ، تبلغ بمن يأخذ طريقه معها على هدًى وبصيرة ـ إلى التصوّر الصحيح لله سبحانه وتعالى ..

وليس بالبعيد أن يكون « الإسكندر » قد اهتدى فى طريقه إلى الله بما لم يهتد إليه أستاذه ، فآمن بالإله متفرد بكل كمال ، منزّه عن كل نقص .. لايشاركه أحد فى ملكه ، مما كان يقول به أستاذه ، وتقول به الفلسفة اليونانية ، من العقول السبعة ، التابعة من العقل الأول ، والعاملة معه .. !

وعلى أىّ ، فإن ذا القرنين ، سواء أكان هو الإسكندر الأكبر ، أو غيره من عباد الله ، فإنه على صفتين :

أولهما : أنه ذو سلطان متمكن ، وأنه ـ بما آتاه الله من عقل وحكمة ، ومن ملك وسلطان ـ قد اجتمع له من الأسباب ما يمكّن له من الحصول على مسببات لم تجتمع ليد أحد غيره ، وفى هذا يقول الله تعالى : « إنا مكّنّا لَهُ فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً » وليس المراد بقوله تعالى : « من كل شىء » العمومَ والشمول ، لجميع الأشياء . . وإنما المراد به كل شىء يصلح به أمره ، ويقوم عليه سلطانُه . . ومثل هذا قوله تعالى على لسان الهدهد عن ملكة سبأ : « وَأُوتِيَتْ من كل شىء ولها عرش عظيم » (٢٣ : النمل) ومثله قوله تعالى على لسان سليمان : « يٰأَيُّها الناسُ علمنا منطق الطير وَأُوتينا من كل شىء » (١٦ : النمل) . . فالمراد بكل شىء فى الموضعين : ما يصلح عليه الأمر ، ويتم به نظام الحياة فى المستوى الطيب الكريم . .

وثانية الصفتين اللتين يتصف بهما ذو القرنين : أنه مؤمن بالله ؛ وأنه أقام هذا الملك الواسع العريض على الحق ، والعدل والإحسان ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً نكراً » فهو فى هذه الآيات يخاطَب من الله وحيا أو إلهاماً ، كما أنه فى هذه الآية أيضاً يقوم داعية لله يدعو إلى الإيمان بالله . . ثم هو مؤمن بالآخرة وبالجزاء الأخروى ، يأخذ الكافرين بالله بالبأساء والضراء فى الدنيا ، ثم يَدَعُهم ليلْقوا فى الآخرة العذاب الشديد النُّكر الذى لا تعرفه الحياة ، ولا يذوق مثله الأحياء فى الدنيا . .

ومما يدل على إيمانه بالله ، ما تكرر على لسانه من إضافته إلى ربّه . .

فيقول : « ما مكّنّى فيه ربى خير » . . ويقول : « هذا رحمة من ربّى » . .
ويقول : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » .

[الأسباب التى بين يدى ذى القرنين]

والأسباب هى الوسائل التى يُتوسل بها إلى نتائج ومسببات . . وقد تـكون هذه النتائج ، وتلك المسببات أسباباً إلى نتائج ومسببات . . وهكذا . . أسبابٌ يتوسل بها إلى مسببات ، ثم مسبّبات تـكون وسائل يتوسل بها إلى مسببات . . ثم تـكون هذه المسببات ، وسائل إلى مسببات . . فى سلسلة تتصل حلقاتها ، ويتكون من كل حلقة منها سلسلة من الأسباب والمسببات . . بحيث ترتبط أحداث الحياة كلها بهذه السلاسل ، وتلك الحلقات ، كما ترتبط بالشجرة أغصانُها ، وفروعها ، وأوراقها .

وما آتاه الله سبحانه وتعالى ذا القرنين من أسباب لـكل شىء . . هى تلك الوسائل السليمة الصحيحة ، المؤدّية إلى مُسبّباتٍ طيبة كريمة ، قائمة على الخير والإحسان . .

وقد يكون للشىء أكثر من سبب ، وأكثر من وسيلة يتوسل بها إليه . . وبعض هذه الأسباب سليم كريم ، وبعضها ملتوٍ خبيث . .

فالحصول على المال مثلا ، يمكن أن يُتوسل إليه بالعمل الجادّ ، وبالـكسب الحلال ، كما يمكن أن يتوسّل إليه بأسباب كثيرة فاسدة ، كالسّرقة ، والغصب ، والاحتيال ، والنصب ، والغشّ ، والرّبا . . ونحو هذا . .

وفى قوله تعالى : « وآتيناه من كل شىء سبباً » إشارة إلى أن الأسباب التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى يد ذى القرنين ، وأقام نظره وقولَه عليها ، هى الأسباب السليمة الصحيحة المعزولة عن الأسباب الفاسدة الظالمة . . وهذا

هو السرّ فى النظم الذى جاء عليه النظم القرآنى ، من إفراد كلمة « سبب » ، ليكون ذلك إشارة دالة على أنه سبب واحد ، متخيّر من بين كل الأسباب ، وأنه السبب الصالح السليم فيها ، أو هو أصلح وأسلم الأسباب .. ويكون معنى النظم : « وآتيناه من كل شىء سببا » .. أى آتيناه سبباً من كل شىء يعالجه ، ويعمل فيه ، وهو السبب الموصِّل إليه على أكمل صورة وأعدلها .. وفى تنكير السبب ، مايغنى عن وصفه ، إذ أن هذا التنكير يحمـــل فى كيانه ـ مع هذا الأسلوب الذى عليه النظم القرآنى ـ تنويهاً به ، ورفعاً لقدره ، واستعلاء بمكانته بين الأسباب المتداخلة معه فى الوصول إلى الغاية المتّجه إليها ..

﴿ مغرب الشمس .. ومطلعها ﴾

تحدثت الآيات عن بلوغ ذى القرنين مغرب الشمس ، ومطلع الشمس .. وأنه تحرك غرباً حتى بلغ مغرب الشمس ، وتحرّك شرقا حتى بلغ مطلعها ..

وقد حمل ذلك كثيراً من المفسّرين على الخوض فى تحديد المكان الذى تغرب فيه الشمس ، والمكان الذى تطلع منه .. وكثير من الخائضين فى هذا الأمر كانوا على علمٍ من هذا الذى نعلمه نحن اليوم من أمر الفلك ، وأن الشمس لاتغرب أبداً .. وأنها إذا غربت من أفق من آفاق الأرض كانت فى شروق على أفق آخر من آفاقها ..!

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن غروب الشمس وشروقها ، فهو حديث منظور فيه إلى الواقع المشاهد من حياتنا ، فى تعاملنا مع الشمس .. فنحن نراها تَغربُ وتُشرق كل يوم ، على الأفق الذى نعيش فيه من الأرض . .

فذو القرنين ، يرى ـ كما نرى ـ الشمسَ تغرب وتشرقُ كلَّ يوم .. وقد ذكر القرآن الكريم وصفاً للمكان الذى بلغه ذو القرنين غرباً ، والذى كانت

تغرب فيه الشمس ، على مستوى نظره : « وجدها تغرب فى عين حمئة » أى أنها كانت فى نظره تسقط وتختفى عند عين حمئة : أى عين ماء فيها طين قد اسودّ كثيرا ، وكأنه الحمم . . أو هى « عين حامية » كما قرىء بها . . أى شديدة الحرارة . . وكما وصف القرآن الكريم هنا طبيعة الأرض التى تغرب فيها الشمس ، وصف المجتمع البشرى الذى كان يعيش هناك ، فقال تعالى : « ووجد عندها قوماً ، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » . . فهم قوم غير مؤمنين بالله . .

أما مطلع الشمس ، فلم يصف القرآن طبيعة الأرض التى تطلع منها ، وإنما وصف طبيعة الجماعة الإنسانية كانت التى تقيم هناك . . فقال تعالى : « وَجَدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً . . » أى أنهم على حالٍ من البدائية ، بحيث لا يرتفعون كثيراً عن مستوى الحيوان . فهم عُراة أو شِبه عراة . . لا تكنّهم بيوت مصنوعة ، ولا تسترهم ثياب منسوجة . يأوون إلى الكهوف والمغارات .

ولهذا اختَلَفَ موقف ذى القرنين من الجماعة البشرية ، هنا وهناك . . فالجماعة التى وَجَدها عند مغرب الشمس ، كانت على مستوًى من الفهم والإدراك ، ولديها مايؤهلها لأن تتحمل التكاليف ، وتُدْعى إلى الإيمان بالله . .

ولهذا ، وقف عندها ذو القرنين ، وامتثل ما أمره الله فيها بقوله سبحانه : « ياذا القرنين : إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حُسْناً » فكان موقف ذى القرنين هنا جامعاً الأمرين معاً . . « أما من ظلم فسوف نعذّبه ثم يُردّ إلى ربّه فيعذبه عذاباً نكراً * وأمّا من آمن وعمل صالحاً ، فله جزَاءً الحسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً » . .

أما الجماعة التى وجدها عند مطلع الشمس ، وهى الجماعة التى كانت فى مرحلة الطفولة الإنسانية ، فقد تجاوزها ، ولم يقف طويلا عندها ، ولم يَعرض عليها

الإيمان بالله ، إذ كانت بحيث لاتعقل تلك الدعوة ، ولاتجد لها مفهوماً ، فهى ـ والحال كذلك ـ لم تبلغ مبلغ التكليف بعد ، وقد تركها تعالج أمورَها على مايقع فى تصورها الطفولىّ ، حتى يُنضجها الزمن ، ويبلغ بها مبلغ الرجال !

ولا نقع فيما وقع فيه الذين سبقونا من المفسّرين من الرجم بالغيب حول تحديد المكان الذى غربت عنده ، أو طلعت منه ، شمس ذى القرنين .. ويكفى أن نشير إلى أنّهما لم يكونا أقصى الأرض غرباً ، أو أقصاها شرقاً .. فقد صرّح القرآن الكريم ، بأن ذا القرنين ، بعد أن بلغ مطلع الشمس ، جاوز هذا المكان ، حتى بلغ بين السّدّين .. أى الجبلين ، أو الحاجزين ، إذ كان كل منهما يحجز ماوراءه عما هو أمامه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدّيْن وجد من دونهما قوماً لايكادون يفْقهون قولاً » .. وقرىء « يُفْقهون » بضمّ الياء ، وكلا القراءتين على معنى سواء ، فى أن القوم مازالوا فى درجة متأخرة من الإنسانية ، وأنهم وإن ارتفعوا قليلاً عن هؤلاء القوم الذين صادفهم عند مطلع الشمس إلا أنهم مازالوا فى مرحلة الصِّبا ، لايحتملون تبعات التكاليف ، ولهذا كان موقفه منهم موقفاً وسطاً ، فلم يَدْعهم إلى الإيمان بالله ، لأنهم دون مستوى هذه الدعوة ، ولم يتركهم وشأنهم ، بل أخذهم بشىء من الوقاية والرعاية ، حتى يَرْشدُوا ويبلغوا مبلغ الرجال ، وهم على وشك أن يبلغوه فأقام لهم هذا السدّ الذى يحميهم من عواصف الشر التى تهبّ عليهم من جيرانهم : « يأجوج ومأجوج » .

﴿ يأجوج .. ومأجوج ﴾

لم يُشر القرآن إلى يأجوج ومأجوج بأكثر من هذا الوصف الذى يصفهم به جيرانهم ، وأنهم مفسدون فى الأرض ، وهم لهذا يطلبون من ذى القرنين أنه

يجعل بينهم وبين هؤلاء المفسدين سدًّا ، يدفع عنهم عدوانهم . .

* « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعَلَ بيننا وبينهم سدًّا » .

— « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » .. هذا هو كل ما كشف عنه القرآن من « يأجوج ومأجوج » .

ولكن يظهر أن غرابة الاسم « يأجوج » ومزاوجته مع « مأجوج » الذى يشبهه فى غرابته ، قد أغرى المفسِّرين ، وغيرهم من أصحاب السِّيَر بأن يخلعوا على المسمّى من الصفات الغريبة ، والأوصاف العجيبة ،مالا يكاد يقع لخيال الذين ألفوا ليالى « ألف ليلة وليلة » : فهم ـ أى يأجوج ومأجوج ـ بين طويل يبلغ طوله عشرات الأمتار ، أو قصير لايجاوز ذراعاً ! وقل مثل هذا فى أفواههم ، وأسنانهم ، ورءوسهم ، وشعورهم،مما لايكاد يكون إلا فى عالم الشياطين والمردة ، فى تصورات الذين يتحدثون عنهما ..

إن « يأجوج ومأجوج » هذين الاسمين فى غرابتهما ، وازدواجهما كانا مادة خصبة لتوليد الصور الغريبة ، وتأليف الروايات المختلفة ، حتى يستقيم المسمّى على دلالة الاسم ، وحتى لقد سمح الخيال بأن يقال : إن هذين الاسمين عربيان ، وإن يأجوج ، مشتق من أجيج النار ، وهو هذا الصوت الرهيب الذى تشهق به النار حين يتأجج وقودها ويندلع لهيبها .. كما أن مأجوج ، مشتق من الموج والاضطراب .. يقال ماج البحر : أى اضطرب وهاج .. !

ولعلّ أغرب ماقيل فى هذا المقام من مقولات ، أن آدم كان قد احتلم ، فوقعت نطفته على الأرض ، وكان أن تخلّق من هذه النطفة كائن هو الأب الأكبر لهؤلاء القوم ! !

وهذا وكثير غيره مما قيل فى يأجوج ومأجوج ، هو — كما قلنا — بعيد غاية البعد عن منطوق القرآن ، كما أنه بعيد غاية البعد عن الحقيقة الممكن تصورها .. فما عُرف فى التاريخ البعيد ، أو القريب ، جماعة بشرية لها شىء من هذه الأوصاف .. وما عرف فى أبناء آدم هذا التفاوت البعيد فى الصفات الجسدية ، وإن وجد بينهم تغاير فى الألوان ، وفى الأخلاق والعادات، وتفاوت فى العقول والملكات .. ولكن مع هذا التغاير وذلك التفاوت — لا يبدو منهم جميعاً ما يقطع نسب بعضهم عن بعض ، ولا يدفع نسبة بعضهم إلى بعض . .

وعلى هذا ، فإنانقول بأن «يأجوج ومأجوج» هما جماعة أو جماعات من تلك القبائل المتخلفة ، التى تسكن الآجام والغابات،وتأوى إلى الكهوف والمغارات ، والتى لم تبعد كثيراً عن حياة الحيوانات المتوحشة المفترسة ، وتسبب كثيراً من القلق والإزعاج للجماعات القريبة منها والتى أخذت حظاً من المدنية والعمران .. وحسبنا أن نذكر هنا المغول وما أحدثوا من إفساد للحضارة الإسلامية ، مما لم تحدثه أعظم الزلازل ، وأعتى الأوبئة وأشدها هولا وفتكا . . !

﴿ السد ، وما أقيم منه ﴾

كان السد الذى أقامه ذو القرنين ، استجابة للقوم الذين لقيهم بين السدين — كان أقل أحداث هذه القصة إثارة للبحث ، وتوليداً للصور والخيالات . .

وذلك أن القرآن الكريم قد تحدث عن هذا السد بشىء من التفصيل ، لم يدع لأصحاب الخيال أن ينطلقوا بخيالاتهم فيه إلى مدى بعيد..

وفى هذا يقول الله تعالى :

* « قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض . . فهل

نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ » .

* « قال ما مكني فيه ربي خيرٌ فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً » .

* « آتوني زُبَرَ الحديد .. حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا .. حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً » ..

هذه هي قصة إقامة « الردم » كما سماه ذو القرنين ، أو « السد » كما طلبه القوم ..

إن مادته من قطع الحديد ، التي جمعها القوم من كل مكان . وجعلوا منها جسراً كبيراً يسدُّ الفراغ الذي كان بين الجبلين ، والذي كان ينفذ منه يأجوج ومأجوج إلى القوم ..

وقد أمر ذو القرنين القوم أن يوقدوا على هذا الحديد ، النارَ ، وأن يستعملوا المنافيخ كي يشتدّ اشتعال النار . وينصهر الحديد ..

فلما تم له ذلك، دعا القوم إلى أن يأتوا (بالقِطر) وهو النحاس المذاب ، فيفرغوه فوق هذا الحديد المنصهر ، فيمسك بعضه ببعض ، كما يفعل الملاط بأحجار البناء ..

ولا شك أن الحديد لم يكن هو كل مادة البناء التي بُنِي بها « الردم » .. وإنما كان هو العنصر القوي فيها ، بل هو كذلك العنصر الغريب غير المألوف في البناء ..

ولهذا اختص بالذكر .. وهناك الأحجار ، والرمال ، وغيرها مما اتخذ في مادة البناء مع الحديد ، والتي بها أمكن تسوية السدّ ، وإلا لو كان السدّ حديداً خالصاً لاحتاج إلى مالا تحتمله الطاقة البشرية ، وخاصة في هذا الزمن البعيد ، مع تلك الوسائل البدائية المحدودة للحصول عليه ..

ومن تمام هذا التدبير الحكيم فى إقامة « الردم » أن يختبر ، وأن يرى منه القوم ثمرة هذا الجهد العظيم الشاق الذى بذلوه فيه ..

وقد رأى القوم رأى العين الأثر العظيم الذى كان لهذا « الردم » .. فقد مضت الأيام ، والشهور ، دون أن يطرقهم طارق من هذا الشرّ الذى كان يبغتهم مُصبحين وممسين ، وكذلك رغم المحاولات التى بذلها يأجوج ومأجوج ، لتسلقه ، أو إحداث نقب أو ثقب فيه ، ينفذون منه ، كما يقول تعالى :

* « فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً »

هذا هو الذى نطق به لسان الحال ، وتحدث به القوم ..

وحين رأى ذو القرنين هذا قال :

« هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقًّا » .

أى أن هذا الرّدم ، هو رحمة من رحمة الله ساقها الله سبحانه وتعالى ، إلى هؤلاء القوم على يديه ..

ووعد الله هنا ، قد يكون مراداً به يوم القيامة ، وقد يكون مرادًا به الأجل المقدور فى علم الله لبقاء هذا الرّدم .. والرأى الأول هو الأولى ، إذ كانت الآية التاليةلهذه تومىء إليه ، وهو قوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً » ..

وهذا يعنى أن هذا الرّدم قد صار أشبه بجبل من تلك الجبال المتصلة به من طرفيه ، وأنه باق ما بقيت فإذا جاءت أشراط الساعة ، دُك هذا الردم ودكت الجبال كلها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى سورة أخرى :

« وحُملت الأرض والجبال دُكّتا دكة واحدة » (١٤ : الحاقة) .

وهكذا تنتهى مسيرة ذى القرنين ، يصحبه فيها عقل حكيم ، وقلب سليم ، متخذاً إلى غاياته الأسباب المستقيمة مع العدل والإحسان . .

إنه يضع فى مسيرته تلك آثارَ أقدام الإنسان الرشيد ، المهتدى بعقله ، الموقظ لضميره .. فكاد الإنسان بتحريك ملكاته ، وإطلاق قوى الخير فيه — كاد — يتعادل ميزانه مع ميزان الإنسان الذى يتلقى فيوض العلم العلوى ويقيم خطواته على هديها ..

وهكذا يستطيع الإنسان أن يُثبت أنه كائن له إلى العالم العلوى سبيل ، وأن بينه وبين الملأ الأعلى طريقاً يصل مابين الأرض والسماء . . !!

* * *

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى مابين قصة ذى القرنين ، وقصة العبد الصالح من تلاقٍ وتوافق فى أكثر من وجه . . كما أشرنا إلى ذلك من قبل . .

والذى نود أن نشير إليه هنا من وجوه هذا التلاقى والتوافق ، هو ماجاء فى قصة العبد الصالح من قوله لموسى ، حين أراد فراقه : « سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً » فلما نبأه بتأويل هذا قال له : « ذلك تأويل ما لم تسطِع عليه صبراً » . .

وهنا فى قصة ذى القرنين يجىء قوله تعالى : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً » .

فيجىء فعل الاستطاعة فى القصتين ، بتاء المطاوعة مرة ، ويجىء بغير التاء مرة أخرى . .

وقد قلنا إن هذه التاء تدل على زيادة فى الشدة والقسوة ، حيث يفترق بها فعل عن فعل . .

وهنا ــ فى قصة ذى القرنين ــ نجد نفس الشىء . . حيث أن القوم أرادوا أن يصعدوا السدّ صعوداً فما « استطاعوا » .. وأما حين أرادوا أن يحدثوا فيه نقباً فما « استطاعوا » . . ومعالجة النقب أشدّ صعوبة من محاولة التسلق .. !!

الآيات : (٩٩ — ١١٠)

* « وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » (١١٠)

التفسير :

* قوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج فى بعض ونُفِخَ فى الصور فجمعناهم جمعاً * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » .

هو معطوف على قوله تعالى : « فإذا جاء وَعْدُ ربىّ جَعَلَه دكّاء وكان وعد ربّى حقاً » . . أى أنه إذا جاء الأجل الموقوت عند الله لقيام ـ هذا السدّ وبقائه ـ دُكَّ هذا الرّدم الذى أقامه ذو القرنين ، وانطلقت جماعات يأجوج ومأجوج إلى ما كانت تنطلق إليه من قبل ، ونفذت إلى هؤلاء القوم الذين احتموْا من عدوانهم بهذا الردم . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « حتى إذا فُتِحتْ يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدبٍ يَنْسِلُون * واقترب الوعد الحق . . » (٩٦ ـ ٩٧ : الأنبياء) .

ـ فقوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » يبيّن ماسيقع فى هذا اليوم ، أى اليوم الذى يأذن فيه الله سبحانه وتعالى بزوال هذا السدّ من مكانه ، ونهاية دوره . . ففى هذا اليوم ـ وهو أيام وأعوام ـ تتبدل معالم الأرض ، وينهال هذا الردم ، وينفتح السدّ فيما بين يأجوج ومأجوج ، وبين الجماعات المتحضرة التى كانت فى حماية بهذا السدّ من فسادها . . وعندئذ يختلط بعضهم ببعض ، ويموج بعضهم فى بعض ، وتعصف بهم عواصف الشرّ والفساد حتى يُفنى بعضهم بعضاً . ثم بعد قليل أو كثير من الزمن ، ينفخ فى الصور ، فيُبعث الموتى من قبورهم ، ويساقون إلى المحشر ، وعندئذ يرى الكافرون جهنم بارزة ، يتلظى لهيبها . . كما يقول سبحانه : « ورأى المجرمون النّار فظنّوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً » (٥٣ : الكهف) .

ــ وقوله تعالى : « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعاً » هو وصف كاشف لهؤلاء الكافرين ، الذين عُرِضت عليهم جهنم عرضاً تنخلع منه قلوبهم فزَعاً ، وتمتلىء به نفوسهم رُعباً . . فهؤلاء الكافرون كانوا فى غفلةٍ عن الله ، وعن دعوة الحق التى كان يحملها إليهم رسل الله . . إذ كانت أعينهم فى غطاء عن ذكر الله ، فلم ينظروا فيما خلق الله فى السموات والأرض . . ثم إنهم إذ عَموْا عن آياتِ الله ، ولم تتجه إليها عقولهم ، ولم تتفتح لها قلوبهم ـ أصمّوا آذانهم عن آيات الله التى يحدثهم بها رسل الله . .

ــ وفى قوله تعالى : « وكانوا لايستطيعون سمعاً » إشارة إلى ماختم الله به على سَمْعِهم .. فهم ـ والحال كذلك ـ مصابون بهذا الصمم عن كل ما هو حق وعدل ، وخير .. أما ما كان من واردات السوء ، والشرّ ، فهم أسمع الناس له ، وأكثرهم استجابة لندائه . .

* قوله تعالى : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء .. إنا أعتدنا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً » .

المراد بالذين كفروا هُنا ، هم اليهود والنصارى ، ومن كان على شاكلتهم ، ممن ألَّهوا غير الله من عباده ، كما قالت اليهود عزيرٌ ابن الله ، وكما قالت النصارى ، المسيح ابن الله ..

فهؤلاء ، وإن كانوا أهل كتاب ، قد خرجوا على تعاليم كتبهم ، وأفسدوا المعتقد الصحيح ، الذى جاءهم به رسل الله ، فاتخذوا من عباد الله آلهة ، وجعلوا ولاءهم لهم ، من دون الله ..

وفى النظم القرآنى حذفٌ دلّ عليه السّياق ، وتقديره : أحسب الذين

كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، ثم لايلقون جزاء هذا العمل الفاسد الأثيم ؟ كلا . . « إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلاً » وإذ كانوا بعملهم هذا قد دخلوا مداخل الكفر ، وأصبحوا فى زمرة الكافرين ، فإن جزاءهم هو جزاء الكافرين ، ولا جزاء للكافرين إلاّ جهنم التى جعلها الله المنزل الذى ينزلونه يوم الدّين . .

قوله تعالى :

* « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيُهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هُزُواً » .

الاستفهام هنا خبرى ، يراد به الكشف عن المجرمين ، وعن الطريق الذى ركبوه ، حتى وصلوا إلى هذا الذى هم فيه من كفرٍ وضلال .

وفى سوق الخبر فى مساق الاستفهام ، إثارة الانتباه إلى ما وراء هذا الاستفهام من جواب عليه . . ولو جاء الخبر مباشراً لما كان له هذا الوقع على النفس ، حين تتلقاه بعد هذا الاستفهام المثير لحبّ الاستطلاع !

والآيتان تقرران حكماً هو : أن أخسرَ الناس أعمالاً ، وأبخسهم حظاً بما عملوا ، هم هؤلاء الذين يركبون الطريق المعوج ، طريق الضلال ، وهى فى حسابهم وتقديرهم أنها طريق خير وفلاح .. فمثل هؤلاء لايُرجى لفسادهم صلاح أبداً ، إذ لا تكون منهم لفتةٌ إلى أنفسهم ، ولا نظر إلى ماهم فيه من سوء ، حيث يرون أنهم على أحسن حال وأقوم سبيل !

إن الذى يركب الشرّ ، وهو عالم أنه على طريق الشر ، لايعيش مع نفسه

فى حالٍ من السِّلم والرضا ، بل يظل هكذا قلقاً ، مضطرباً ، من تلك الحال التى هو عليها . . وقد يبلغ به الأمر إلى حد يستطيع معه أن يكسر القيد الذى قيّده به ضعفُه ، فى مواجهة شهوات نفسه الأمارة بالسوء ، وعندها يجد أنّه قادر على التحرك فى الاتجاه الصحيح الذى كان يَهُمّ به ، ولا يستطيعه . . فما أكثر ما يعرف الناس أنهم على غير طريق الهدى ، وأن ماهم فيه من ضلال ، هو من واردات الضعف المستولى عليهم ، وأنهم ــ والحال كذلك ــ يودّون لو كانت بهم قوةٌ تمكن لهم من تخطى هذه الحدود التى أقامهم فيها ضعف العزيمة ، وغلبة الهوى . . كما يقول الشاعر :

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العَيْر والنزوان

أما من يركب الضلال ، ويأتى المنكر ، وهو على هذا الفهم السقيم ، الذى يزين له الباطل ، ويبيح له المنكر — فإنه لن ينتهى أبداً عن غيه ، ولن يُفيق أبداً من سكرة ضلاله .. وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

« أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً » (٨ : فاطر) ويقول سبحانه : « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (١٢ : يونس) .

فهؤلاء الذين زين لهم سوء عملهم ، فلم يروا ماهم فيه من كفر وضلال ، فمضوا فى كفرهم وضلالهم ، ولم يستمعوا لنصح ناصح ، ولم يستجيبوا لدعوة داع يدعوهم إلى الهدى ، وينذرهم بلقاء يومهم هذا — هؤلاء الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، لن يقام لأعمالهم وزن يوم القيامة : « إن هؤلاء متبَّرٌ ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » (١٣٩ : الأعراف) .

وفى الآيتين إشارة إلى هذا المعتقد الفاسد الذى يعتقده المعتقدون بألوهية عزير ، والمسيح .. فهم — مع هذا المعتقد — على يقين بأنهم على الحق، وأنهم

إنما يرجعون فى معتقدهم هذا إلى نصوص من كتبهم المقدسة ، التى أوّلوها هذا التأويل الفاسد ، الذى أقام لهم من عباد الله آلهة يعبدونها من دون الله .

—وفى قوله تعالى : « ذلك جزاؤهم جهنم » الإشارة إلى الجزاء الذى يجازى به هؤلاء الكافرون . . فاسم الإشارة مبتدأ ، وجزاؤهم خبر ، وجهنّم بيان لهذا الجزاء ، وكأنه جواب عن سؤال هو : ما جزاؤهم هذا ؟ فكان الجواب : جهنم . .

وهذا الجزاء سببه كفرهم بالله ، واتخاذهم آياته ورسله هُزُوًا . . فقد استهزءوا بآيات الله التى بين أيديهم ، فحرفوا وبدلوا فيها ، وتأوّلوا ما أبقوْا عليه منها تأويلًا فاسداً . . وكما استهزءوا بآيات الله بهذا المسخ الذى غيّروا به وجوهها ، استهزءوا برسل الله ، إذ غيّروا وجوههم ، وألبسوها أقنعة تثير الضحك والسخرية ، حيث يبدو الإنسان مَسخًا هزيلاً ، وشبحاً باهتاً ، ودخاناً متصاعداً يمثل إنساناً قدماه على الأرض ، ورأسه فى السماء !

* قوله تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفِرْدَوْس نُزُلا * خالدين فيها لايَبْغُون عنها حِوَلا » .

فى هاتين الآيتين ، عرض للصورة الكريمة ، التى يكون عليها المؤمنون يوم القيامة ، وللجزاء الكريم الذى يلقوْنه يوم الجزاء .. فعلى حين يصْلَى الكافرون العذاب الأليم ، ينعم المؤمنون بنعيم الجنّة ورضوان الله ، وفى هذا مايزيد من حسرة الكافرين ، ويضاعف من عذابهم ، بالقدْر الذى يزيد من نعيم المؤمنين ، ويضاعف من سرورهم ورضوانهم .

* قوله تعالى :

« قل لو كان البحرُ مِدَادًا لـكلمات ربِّى لنفِد البحرُ قَبلَ أن تنفَدَ كلماتُ ربِّى ولو جئنا بمثله مَدَدًا » . .

هو بيان لقدرة الله ، ونفوذ سلطانه ، وتفرده بالألوهية . . وأن كلماته ، وهى التى تنفذ بها مشيئته فى خلقه ، لا تنفد أبداً ، يقول الحق جلّ وعلا للأمر « كن فيكون » . . وهذا يعنى دوام الأمر والخلق أبداً .. كما يقول سبحانه : « ألاَ له الخلق والأمرُ . .تبارك الله ربُّ العالمين » (٥٤ : الأعراف) .

—وقوله تعالى : « لو كان البحر مداداً لـكلمات ربّى » هو مثل قوله تعالى : « ولو أنَّ ما فى الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نفدت كلمات الله » (٢٧ : لقمان) وهذا كله تصوير لقدرة الله ، وبسطة سلطانه ، وقيوميته على كل شىء .

* قوله تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أنا بَشَرٌ مِثْلُـكُمْ يُوحَى إلَىَّ أنَّما إلٰهُـكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كان يرجو لقاء ربِّه فليعمل عملا صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً » .

بهذه الآية تختم سورة الـكهف ، بتقرير بشريَّةِ الرسول ، وأنه وجميع رسل اللهِ ، ليسوا إلا خلقاً من خلق الله ، وعبيداً من عبيده ، اختصهم الله برحمته ، واصطفاهم لرسالته . .

وكما تقرر الآية بشريّة الرسول ، تقرّر الطريق السَّوىّ الذى ينبغى أن يستقيم عليه الإنسان كى يكون فى عباده الله الصالحين المؤمنين . . وهذا الطريق إنما يقوم على الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح، الذى لا يجد الإنسان غيره فى هذا اليوم ، مركباً يدفع به إلى شاطىء الأمن والسلام ، ويفتح له أبواب الجنة والرضوان . .

ويلتقى ختام السورة مع بدئها . . فى تقرير وحدانية الله ، وتنزيهه عن الشريك والولد .! فقد جاء بدؤها : « لينذرَ بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ما كثين فيه أبداً * وينذرَ الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لَهُمْ به من علم ولا لآبائهم كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذِباً » وهكذا يجىء ختامها : « قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً » .

فإذا ادعى المدّعون من أهل الكتاب ، أو غيرهم ، أن لله ولداً ، من هؤلاء الذين اصطفاهم الله لرسالته ، وآتاهم من فضله ، ما زاغت به عيون الضالين ، حتى حسبوا أن هذا الاصطفاء وهذا الفضل ، هو لقرابة أو نسبٍ لله - إذا ادعى المدّعون الضالون نسبة أحدٍ إلى الله ، فإن محمداً براء من هذا ، وبرىء ممن يضمه بهذا الموضع .. فما هو إلاّ بشر من البشر ، وإنسان من الناس ، وعبد من عباد الله ، وأنه إذا كان يدعو الناس إلى الله بكلمات الله التى معه ، فذلك من فضل الله عليه ، وهذه الكلمات التى يدعو بها إنما هى وحى أوحاه الله إليه ، لهداية الناس ، وخيرهم وسلامتهم .

* * *

١٩ – سورة مريم

نزولها : مكية . . وقيل إلا بعض الآيات منها فمدنية

عدد آياتها : ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » (٦)

التفسير :

مناسبة هذه السورة لسورة الكهف قبلها ، أنها اشتملت على آيات وخوارق ، على نحو ما اشتملت عليه سورة الكهف ، التي ضُمّتْ على هذه الآيات العجيبة . . في أصحاب الكهف ، وفي صاحب الجنّتين ، وفي موسى ، والعبد الصالح . . ثم في ذى القرنين ، وما جرى على يديه !.

وفي سورة مريم هذه ، تعرض السورة آيات من قدرة الله ، نجدها في استجابته سبحانه لدعوة عبد من عباده هو زكريّا عليه السلام ، إذ رزقه الولد على الكبر ، وعلى ما كان من امرأته من عُقْم . . كما نجد تلك الآية العجيبة في ميلاد المسيح – عليه السلام – من غير أب !

كما نجد المناسبة أيضاً : بين قوله تعالى : فى آخر سورة الكهف : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » وبين قوله تعالى فى مطلع سورة مريم : « واذكر فى الكتاب مريم ... » إلى قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .. فعيسى عليه السلام ، ليس إلا كلمةً من كلمات الله التى لا تنفد . . كما يقول سبحانه : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم » (١٧١ : النساء) .

قوله تعالى :

* « كهيعص » . . .

بهذه الأحرف الخمسة تبدأ السورة ، وهى تكاد تكون فريدة فى هذا البدء ، بذلك العدد الكثير من الحروف ، لا يشاركها فى هذا إلا سورةُ الشورى ، فقد بدأت مثلها بخمسة أحرف مرتبة على هذا النحو : « حم * عسق » . . وقد انفردت كل منهما بأربعة أحرف ، واشتركتا معاً فى حرف واحد هو العين .

ولا نستطيع أن نعلل لهذه الكثرة من الحروف ، فذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن الذى لا يزال سراً محجباً لم ينكشف لنا . وإن يكن قد انكشف للراسخين فى العلم ، فجعلوه سراً ، لم يؤذن لهم البوح به !

قوله تعالى :

* « ذِكر رحمة ربك عبدَه زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً » .

— « ذكر رحمة ربك » « ذكر » خبر لمبتدأ محذوف تقديره ، هذا ، و « عبده » مفعول به للمصدر « ذكر » و« زكريا » بدل من « عبده » .

— ومعنى « ذكر رحمة ربك » أى : هذا خبر رحمة ربك ، وألطافه بعبده زكريا . .

— وقوله تعالى : « إذ نادى ربه نداء خفياً » بيان للظرف الذى كانت فيه مهابة أنسام هذه الرحمة . . . وإذ كانت رحمة الله لا تنقطع عن عباده المؤمنين وخاصة من اصطفاهم لرسالته ، فإن ذكر الرحمة ، والحديث عنها فى هذا الظرف ، هو لبيان مزيد هذه الرحمة ومجيئها فى صورة ، تكاد ـ لما حملت من ألطاف ـ تكون رحمة خاصة تستحق الذكر والتنويه .

والنداء هنا معناه : الدعاء ، كما ذُكر ذلك فى قوله تعالى : « هنالك دعا زكريا ربه » (٣٨ : آل عمران) .

والنداء الخفى : هو الدعاء فى سرٍّ ، دون جهر ومعالنة . . إذ كان ذلك فيما بينه وبين ربه .. بعيداً عن أعين الناس ، وأسماع الناس .

وقد يكون هذا الدعاء من خواطر النفس ، وأمانىّ الفؤاد . ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى ، قد سمعه ، وعلمه ، وجعله قولا مصوّراً فى كلمات ، منطوقا باللسان . . وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى :

* « قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً * وإنى خِفت الموالىَ من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا » .

هذا هو الدعاء الذى دعا به زكريا ربه . .

وقد بدأه أولا بهذا التذلل والتشكّى إلى الله .. وفى هذا الموقف ، يقف العبد من ربه الموقف الذى ينبغى أن يكونه . . فهو عبد ضعيف ، فقير ، ذليل ، بين يدى السيد القوى العزيز . . مَنْ بيده ملكوتُ السموات والأرض .

وهكذا ينبغى أن يكون الأدب من العبد بين يدى ربه . . وبهذا يكون فى معرضٍ من أن يؤذنَ له بالقرب من ربه ، وأن يلقى الرضا والقبول .

— « إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » .

ووهن العظم ، ضعفه ودقته .. وإذا ضعف عظم الإنسانِ وَوَهَى ، أوشك أن ينهار بنيانه ، وأن تنقض أركانه . . فهيكل الإنسان هو هذا العظم ، الذى يقوم به شكله ، وتتحدد به هيئته ..

وقوله : « وهَنَ العظم منىّ » أبلغ فى الإبانة عن الضعف ، وذهاب القوة ، من قوله : « وهن عظمى » .. إذ أن القول الأول يشير إلى أنه لاعظم معه ، بل لقد ذهب هذا العظم ، وما بقى منه فإنه لاغَنَاء فيه .. أما القول الآخر فإنه يحدِّث عن أن معه عظماً ، وأنه لازال يملكه ويحرص عليه ..

— وقوله : « واشتعل الرأس شيباً » أبلغ كذلك فى الإبانة عن استيلاء الشيب على الرأس كلّه ، من قوله : « واشتعل رأسى شيباً » .. فإن فى النظم الذى جاء عليه القرآن دلالةً على أن هذا الرأس كائن غريبٌ يكاد ينكره صاحبه ، لأنه أصبح بهذا الشيب على صورة غير تلك الصورة التى عهده صاحبُه عليه منذ عرف أن له رأساً .. فهذا الرأس كان أسود الشعر ، أو أصفره .. ثم هاهوذا يراه وقد استحال إلى بياض معتم ، كرمادٍ تخلّف من النّار !

— وقوله : « ولم أكن بدعائك ربّ شقيًّا » استحضار لما لله سبحانه وتعالى من سوابق الإحسان ، وسوابغ الفضل على هذا العبد .. فما خَذَله ربّه أبداً ، فى أى موقف لجأ إليه فيه ، وماردّ ربه يده فارغة فى أىّ حالٍ مدّ إليه يده فيها .. وهو فى هذه المرّة على رجاء من أن يُستجاب له فى يومه ، كما استجيب له فى أمسه !

— وقوله : « وإنى خِفتُ الموالىَ من ورائى وكانت امرأتِى عاقراً فهبْ لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيًّا » ..

هذا ـ وبعد أن أدّى زكريًّا مايجب من الولاء لربّه ، واللّجأ إلى فضله وإحسانه ،

وهو ماينبغى أن يؤديه العبد لسيده ومالك أمره ـ هنا يبدأ زكريا يعرض حاجتَهُ ، ويكشف عن الحال الداعية إلى هذا الطلب ، الذى مدّ به يده إلى ربّه . .

إنّه لا وَلَدَ له ، والولد رغيبة تهفو إليها نفوس الآباء والأمهات ، لافرق فى هذا بين إنسان وإنسان ، حيث يجد المرء فى الولد امتدادًا لحياته ، وروْحا لروحه، وأنساً لقلبه . . !

وقد كان زكريا ـ شأنُه شأن كل رجل ـ يرجو أن يكون له ولد من صلبه ، يتلقّى عنه رسالته فى الحياة من بعده ، وهاهوذا قد بلغ من الكبر عتيًّا ، ولم يرزق الولد ، وهو يرى من أهله وقرابته ، من ينتظر موته ليرث مخلّفاته ، وكانوا شرار بنى إسرائيل .. فحزن لهذا ، واشتدت رغبته فى الولد ، ليقطع به على هؤلاء الطامعين فيه ، والمتعجلين موته ـ آمالهم . . ولكن أنّى يكون له ولد ، وقد بلغ من الكبر مابلغ ، إلى ماعليه امرأته من عقم ؟

ولم يكن بين يدى زكريا إلاّ هذه الخواطر ، يردّدُها فى صدره ، ويتعزّى بها بينه وبين نفسه ، ويدعو ربّه أن يجعل من هذه الخواطر ، واقعاً فى يده .

— وفى قوله : « يرثنى ويرث من آل يعقوب » . . مايُسأل عنه .. وهو : كيف يطلب أن يكون له ولد يرثه ، والأنبياء لاتورث .. كما فى الحديث : « نحن معاشرَ الأنبياء لانُورث .. ماتركناه صدقة » ؟

والجواب على هذا ، هو أن الميراث ، هنا ليس ميراثَ مالٍ ، ولا متاع ، وإنما هو ميراث خلافة ، يقوم فيها الخلف مقام السّلف . حيث يكون الولد وارثاً لاسم أبيه ، واصلا سلسلة النسب الممتدة من الأجداد ، إلى الآباء ، إلى الأبناء ..

الآيات : (٧ — ١٥)

* « يا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن

قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » (١٥)

التفسير :

فى هذه الآيات نجد ما يأتى :

أولا : قد استجاب الله لزكريا ماطلب ، وهو فى مقام الدعاء لم يبرحه بعد .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى آية أخرى : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيي » (٣٩ : آل عمران) كما يشير إلى هذا أيضاً ، ماجاء عليه النظم القرآنى فى هذه الآية ، حيث لم تُصدّر بقول ، بل جاءت بقول القول هكذا : « يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيي » .. وهذا يعنى أن زكريّا كان فى مقام التخاطب مع الله سبحانه وتعالى .. فهو يدعو ، والله سبحانه وتعالى يسمع ويجيب .

وثانياً : أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى اختار للولد اسمه ، فسمّاه « يحيي » .. وهو اسم لم يسمَّ به أحدٌ قبله ..

وفى تسميته بيحيي ، إشارة إلى أنه سيبقى له ذكر مخلّد فى هذه الحياة ، وأن

حياته ستمتدّ بعد موته ، بما يجرى على ألسنة الناس من ذكره ، فى مقام الحمد والثنـاء . . !

وثالثاً : أن عجب زكريّا ودهَشَه من أن يُولد له ولد ، وهو يعلم أن الله سبحانه لايُعجزه شيء ، وأنه إذ يعلم هذا فقد طلب الولد ، وهو فى حال لايولد منه ومن امرأته العقيم ولد ـ نقول : إن عجبه ودَهَشَه لم يكن متوجهاً إلى الله سبحانه وإلى قدرته ، وإنّما كان عَجباً ودَهَشاً من نفسه ومن زوجه أن يكون لهما ولدٌ ، وأن يراهما الناس وقد وُلِدَ لهما بعد هذا الزمن الطويل الذى عاشاه بغير ولد .. وقد جاء قوله تعالى : « قال كذلك قال ربُّك هو علىّ هيّن وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئاً » ـ جاء هذا القول من الله تعـالى ، ليسكن به قلب زكريّا الذى طارت به الفرحة ، واستبدّت به المفاجأة بهذا الأمر العجيب !

ورابعاً : استعجل « زكريا » الإمساك بهذا الولد الذى كان حُلم حياته ، فأراد ألاّ يخرج من هذا المقام الذى هو فيه ، دون أن يكون بين يديه أثر من هذا الولد ، يمسك به ، ويتعلل بالحياة معه ، حتى يحين مولده ، ولهذا قال : « ربّ اجعلْ لى آيةً » ! فهو يريد الآية التى يرى من خلالها وجه هذا الغلام ، الذى طال انتظاره له .. فجاء قوله تعالى : « آيتك ألاّ تـكلِّم الناس ثَلاثَ ليالٍ سَويًّا » .. فكانت آيته أن يَحبِس الله لسانه عن الكلام لغير علة ثلاثةَ أيام ، وثلاث ليالٍ كاملةً ، لايتعامل مع الناس فيها إلا بالرمز والإشارة . .

وقد جعلَ بعض المفسِّرين هذه الآية ضرْباً من الأدب ، أو نوعاً من العقوبة لزكريا ، على اعتبار أن طلب الآية إنما هو لطلب اليقين من قدرة الله !

وهذا فهمٌ لا يستقيم ، مع تلك النعم ، وهذه الألطاف التى يُفيضها الله على عبده زكريا ..

والفهم الذى نستريح له هنا ، هو أن هذا الصوم عن الكلام إنما كان عبادة يتقرب بها زكريا إلى الله ، إزاء تلك النعمة التى أنعم الله بها عليه .. ثم هو إشارة إلى الناس الذين سيطلع عليهم زكريا بأن حَدَثاً عجيباً سَيحْدث ، وأنهم فى وجه معجزة ، وشيكة الوقوع .. وهذا ما كان من موقف مريم حين ولدت عيسى ، فقد أمرها الله سبحانه وتعالى ، أن تَلْقَى قومَها صائمة عن الكلام يوماً . . كما سيأتى فى هذه السورة

وقد عرضنا لهذا الأمر فى سورة آل عمران ..

وخامساً : فى قوله تعالى : « يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » نداء من الله ليحيى الذى سيولد .. فهو مخاطب من الحق سبحانه وتعالى ، وهو فى عالم الغيب ، كما يخاطَب أبوه زكريا ، وهو فى عالم الشهادة .. إن هذا الغائب الذى لم يوجد بعد ، هو وهذا الحاضر الموجود ، على سواء عند الله ، ومع قدرة الله ، وفى علم الله .. وكما يعقل الكائن الحىّ الرشيد العاقل ، مايخاطبه الله سبحانه وتعالى به ، كذلك تعقل النطفة ، أو ما ستتخلق منه النطفة . . ! !

وهكذا سيكون « يحيى » على هذه الصفة التى وصفه الحق سبحانه وتعالى بها ، وندبه إليها ، وهو أن يأخذ الكتاب — أى التوراة بقوة أى بجدّ ، واجتهاد فى تحرّى أحكامها ، والاستقامة على تلك الأحكام . . وأنه سيبلغ مبلغ الرشد والكمال ، وهو فى سن الصبا . . « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً » . . والحكم هنا ، هو الحكمة التى يحكم بها فى الأمور التى تعرض له ..

الآيات : (١٦ — ٣٦)

* « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ

أن يتّخذ من ولد سُبحانه إذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون (٣٥) وإنّ الله ربّى وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» (٣٦)

التفسير :

هذه الآيات تحدث عن قصة مريم ، وعن ميلاد المسيح عيسى ابن مريم ، على تلك الصورة العجيبة ، التى جاءت على غير مألوف المواليد من الأحياء فى عالم البشر خاصة .

وقد ذُكرت هذه القصة فى سورة آل عمران ، تالية لقصة ميلاد يحيى ، كما جاءت على هذا الترتيب هنا . .

غير أننا إذ نكتفى بما قلنا فى تفسير الآيات الواردة عن هذه القصة فى آل عمران .. نودّ أن نفسر هنا بعض المفردات ، ثم نشير إلى ما لا بد من الإشارة إليه من مضامين القصة الواردة هنا . .

انتبذت : انتحت ناحية ، وأخذت مكاناً خاصاً . . وفى التعبير عن هذا بالانتباذ ، ما يشير إلى أنها كانت فى حال خاصة،تتكرّه فيها أن تختلط بالناس ..

والرُّوح : المَلَك ، ويغلب أن يكون وصفاً خاصاً بجبريل عليه السلام ..

والبغىّ : الفاجرة الزانية .. وهو من البغى والعدوان ..

أجاءها المخاض : ألجأها واضطرها . . والمخاض ما يعترى المرأة وقت الولادة .

والنَّسْىُ المنسىّ : الشىء التافه الذى لا يحرص أصحابه على الإمساك به ، ولا يذكرونه إذا ضاع منهم ..

والسَّرِىّ : النهر الصغير ، الذى يسرى فى رقة وسكون .. والسَّرِىّ : العظيم من الناس ، المحمود فيهم ..

والشيء الفَرِىّ : هو الغريب العجيب ، الذى يجىء على غير مألوف الناس ، فيفرى : أى يخرق عاداتهم . .

***

والذى نريد أن نشير إليه من هذه القصة :

أولا : قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم » هو تنويه بشأنها ، وذلك بإفساح مكان لها فى القرآن الكريم ، تذكر فيه ، مع من يذكر من عباد الله المخلصين ..

وثانياً : فى سورة آل عمران ، جاء قوله تعالى : « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » (٤٥ : آل عمران) . . فالخطاب موجه إلى مريم من جماعة من الملائكة .. وهنا فى سورة مريم يكون الخطاب بينها وبين ملاك واحد : «فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . . «قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » . . فما وجه هذا الخلاف فى الموضعين ، والقصة واحدة ؟ .

ونقول :إن المراد بالملائكة هناك هو عالم الملائكة،الممثل فى واحد أو أكثر كما فى قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » (١٧٣ : آل عمران) حيث يصح أن يكون القائل واحداً من الناس لا جماعة منهم ..

والذى يشهد لهذا أنه حين استمعت مريم إلى ما حدثها به عالم الملائكة وأظهرت عجباً واعتراضاً على ما حُدّثت به — كان الذى تولى دفع هذا العجب

وردَّ هذا الاعتراض ، مَلَك واحد .. كما جاء فى قوله تعالى : « قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء » (٤٧ : آل عمران) ..

وثالثاً : لم تشر الآيات فى آل عمران إلى أن أحداً من الملائكة قد تمثل لها فى صورة بشر ، وهنا قد أشارت الآيات إلى أن « الروح » قد تمثل لها بشراً سوياً ..

فما جاء هنا مكمل للصورة التى جاءت هناك ، شارح لها ، على حين يمكن أن تستقل كل صورة بالكشف عن الحدث ، دون أن يختلف وجه الحقيقة بينهما ..

ورابعاً : فى قوله تعالى : « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة » إشارة إلى أن عيسى عليه السلام قد ولد ميلاداً طبيعياً من رحم أمه ، كما يولد غيره من الناس ، وكما تلد الأمهات أبناءهن .. وأن مريم قد حملت به حملا طبيعياً ، حتى إذا استوفت مدة حمله ، وأحست بالمخاض لجأت إلى جذع نخلة ، واستندت إليها ، حتى تجد القوة على دفع الحمل من رحمها ..

وخامساً : قوله تعالى : « فناداها من تحتها ألاَّ تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » ..

اختُلف فى المنادِى لها : أهو مَلَك ؟ أم وليدها الذى بدأ يتحرك إلى العالم الخارجى ؟ ..

والذى نأخذ به ، هو أن المنادىَ لها ، لا يكون ملكاً ، إذ لو كان ملكاً لناداها من عُلُوّ ، وهو الجهة المتنزل منها .. وأنه إذا كان المنادِى ملكاً فلِمَ يجىء إليها من تحت لا من فوق ؟ وإذن فالمنادِى لها هو مَنْ كان تحتها بالفعل ، وهو وليدها ! ..

وفى حديث وليدها إليها فى هذا الوقت ، ما يكشف لها عن التجربة التى

ستواجه بها قومها منه ، حين تدعوه إلى الكلام ، فيتكلم . . ولو أن عيسى لم يكن قد تكلم إليها ، وأسمعها صوته من قبل ، لما وجدت الجرأة على أن تلقى قومها بالطفل ، ثم تلقاهم بهذا التحدّى ، وهو أن تدعوهم إلى الاستماع إليه ! ومما يؤيد هذا الرأى قراءة من قرأ : « فناداها مَنْ تحتها » باعتبار « من اسم موصول » يقع فاعلا ، للفعل ، « نادى » . .

وسادساً : فى قوله تعالى : « يا أخت هٰرون » . .

اختلف فى هرون هذا .. من يكون ؟ أهو هرون النبىّ أخو موسى ؟ أم هو أخ لها من أبيها ؟ أم هو رجل صالح معروف بين قومها بالتقوى ؟ أم هو رجل فاجر يضرب به المثل عندهم لكل من يأتى منكرا ؟

والذى نأخذ به أن « هرون » هذا هو هرون النبىّ ، وقد أضيفت إليه ، ولم تضف إلى موسى ، لأنها كانت من نسل هرون ، ولأن موسى لم يعقب نسلا .. وأضيفت إليه إضافة أخوة ، لا إضافة بنوّة ، لأن أبناء هرون ، وذريته المتعاقبة منهم لم يكونوا على حال واحدة من الاستقامة والتقوى ، ففيهم الصالح ، وفيهم الفاسد ، .. فهى وإن كانت بنت هرون نسباً ، هى أخته وصِنْوه استقامةً وصلاحاً ! ..

وسادسها : قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحقّ الذى فيه يمترون * ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضىٓ أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ..

هو تعقيب على القصة ، وعلى ميلاد هذا المولود على تلك الصورة التى أوقعت كثيراً من الناس فى الضلال ، فاتخذوا منه إلٰها ، وجعلوه وجها من

وجوه ثلاثة جعلوها لله ، هى الأب ، والابن ، وروح القدس ..

وهذا التعقيب ، قد يكون على لسان عيسى عليه السّلام . . كاشفاً به عن حقيقته ، وأنه إن يكن قد وُلِدَ لغير أب ، أو تكلّم يوم مولده ، فإن ذلك لم يكن ليخرجه عن حدود البشرية ، ولم يكن ليجعل له إلى الألوهية سبيلاً من أى وجه ، وعلى أية صفة . . وقد يكون ذلك قولاً ينبغى أن يقوله كل من يستمع إلى آيات الله التى تحدّث بها القرآن ، عن مولد عيسى ، فيصدّق بها ، وينظر من خلالها إلى جلال الله وعظمته ، وتفرّده بالخلق والأمر . .

فالذين يمترون فى عيسى ، ويجادلون فى أمره ، بين مَن يرميه بأنه ابن سفاح ، وبين مَن يقول إنه إله أو ابن إله ـ هؤلاء الذين يمترون فيه ، قد كشف لهم عيسى عن وجهه ، وتحدث إليهم بلسانه . . إنه عيسى بن مريم ، وذلك هو القول الحق الذى ينبغى أن يقال فيه . . فهو ابن امرأة ، لم تجىء به من رجل ، وإنما من نفخة تلقتها من روح الله . . وانتماؤه أولاً وأخيراً إلى أمّه ، التى حملت به ، ووضعته وأرضعته . أما القول بأنه ابن الله ، فهو قول آثم ، سفيه « ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ . . سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » ولو شاء — سبحانه — أن يخرج عيسى إلى هذه الدنيا من غير أب أو أم لَمَا كان ذلك بالمعجز لقدرة الله .. « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٥٩ : آل عمران) .

ويكفى أن يكون آخر ما نطق به عيسى أن قال : « إنى عبد الله » ويكفى أن يكون آخرَ ما نطق به فى مهده : « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » — يكفى هذا ليكون شهادة تبطل كل قول يقال فيه ، غير الذى نطق هو به .

الآيات : (٣٧ — ٤٠)

* « فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » (٤٠)

التفسير :

قوله تعالى :

* « فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم » .

الأحزاب ، هم الطوائف والجماعات ، التى اختلفت فى شأن المسيح ، وهم اليهود والنصارى ، على مختلف مذاهبهم فيه . .

فاليهود ، يقولون عنه إنه ابن زنى ، أو إنه ابن رجل كان يخدم مع أمّه فى الهيكل ، اسمه يوسف النجار . .

والنصارى ، يقولون : إنه ابنُ الله ، أو إنه هو الله ذاته ، يمثّل أحد أوجه الثالوث المقدس لله ــ كما يزعمون ــ وهو وجه الابن . .

والفاء فى قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب » هى فاء التفريع ، التى تفيد العلّيّة والسببية ، حتى لكأن دعوتهم إلى عبادة الله ، واعتبار المسيح عبداً من عباده الله ــ لكأن هذا كان داعياً لهم ، إلى أخذ هذه السبل الضالة المنحرفة . .

وهكذا الطباع غير السليمة ، تتلقى النّصح بقلوب مريضة ، تتأبّى عليه ، وتأبى إلا أن تأخذ بالوجه المخالف له . .

— وقوله تعالى : « فويلٌ للذين كفروا من مَشهدِ يوم عظيم » هو وعيد ، وتهديد لهؤلاء المختلفين فى شأن المسيح ، وفى النظر إليه على مستوى دونَ ، أو فوقَ مستوى رسولٍ من رسل الله . . فكل من قال فيه قولاً يخرج به — صعوداً ، أو نزولا — عن هذا المستوى ، فهو كافر ، له الويل والهوان من عذاب يوم القيامة .

قوله تعالى :

* « أَسْمِعْ بهم ، وأَبْصِرْ يوم يأتُونَنَا لكن الظالمون اليوم فى ضلالٍ مبين » .

— « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا » ، هو تعجب من رفاهة سمعهم ، وحدّة بصرهم ، يوم القيامة .

والمراد بهؤلاء المتعجّب من سمعهم وبصرهم ، هم أولئك الكافرون ، الذين اختلفوا فى أمر المسيح هذا الخلاف الأثيم الضالّ ، فلم يسمعوا ما قيل لهم على لسان المسيح ، ولم يعقلوه ، ولم يكن لهم من أبصارهم وبصائرهم ما يعدل بهم عن طرق الضلال التى ركبوها ، فمضوا على هذا الضلال ، ودخلوا به مداخل الكفر ، حتى ماتوا على ماهم عليه . . من ضلال وكفر .

فهؤلاء الذين أصمّوا آذانهم ، وأغمضوا أعينهم فى الدنيا ، سيكونون يوم القيامة على حال من قوة السمع ، وحدّة البصر ، بحيث لا تفوتهم همسة ، ولا تغيب عن أعينهم كبيرة أو صغيرة . . هنالك تتردد فى آذانهم أصداء ما سمعوا من آيات الله ، وينكشف لأعينهم ما عَمُوا عنه فى دنياهم من أمارات الهدى . .

فلا يملكون إلا الحسرة تقطّع أكبادهم ، وإلا الألم ينهش صدورهم لِمَا فاتهم من أمور كانت تَرِدُ على سمعهم ، وتحتشد أمام أنظارهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا فكشفنا عنْكَ غِطاءكَ فبَصَرُكَ اليَومَ حديدٌ » (٢٢ : ق) .

— وقوله تعالى : « لكن الظالمون اليومَ فى ضلال مبين » . . لكن هنا للاستدراك والتعقيب على هذا الوصف الذى يكون عليه هؤلاء الظالمون يوم القيامة . . إنهم يوم القيامة سامعون مبصرون . . لكنهم اليوم ، أى اليوم الذى هم فيه فى الدنيا ، فى ضلال مبين ، لايسمعون ولا يبصرون .

قوله تعالى :

* « وأنذرهم يومَ الحسْرةِ إذ قُضِىَ الأمر وهم فى غَفْلةٍ وهم لايؤمنون » .

هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر له صلوات الله وسلامه عليه بأن ينذر المشركين ، وأن يحذّرهم من يوم الحسْرة ، وهو يوم القيامة ، حيث تشتد فيه حسرة الذين غفلوا عن هذا اليوم ، ولم يعملوا له ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ويومَ يَعَضُّ الظالمُ عَلَى يديه » (٢٧ : الفرقان) . وقوله سبحانه : « يوم ينظر المرء ما قدّمتْ يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً » (٤٠ : النبأ) .

وفى توجيه الأمر بالإنذار إلى المشركين ، بذكر ضميرهم ، العائد على غير مذكور . . هكذا : « وأنذرهم » فى هذا إشارة إلى أنهم بعض هؤلاء الضالين الكافرين الذين ذكروا قبلهم فى قوله تعالى : « أسمع بهم وأبصر يومَ يأتوننا » . . فأهل الضلال ـ أيًّا كانوا ـ هم كِيان واحد ، لا خلاف بين من تقدّم منهم ، أو تأخر ، ولا فرق بين من يكون من هؤلاء القوم ، أو أولئك . . !

وفى قوله تعالى : « إذ قُضِىَ الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » تخويف لهؤلاء المشركين . وإلفات لهم من أن تفوتهم الفرصة ، ويُفلت منهم العمر ، قبلَ أن ينزعوا لباس الكفر والضلال ، ويلبسوا لباس الهدى والإيمان . .

قوله تعالى :

* « إنا نَحْنُ نَرِثُ الأرض ومن عَلَيها وإلَيْنا يُرْجعون » . .

هو تذكير لهؤلاء المشركين ، بأن ماهم فيه من شغل بمال وبنين ، ومن انصرافٍ عن الآخرة ، والعمل لها ـ إن هذا لن يكون لهم منه شىء ، إذا هم فارقوا هذه الدنيا ، وأنه إذا ورثهم أبناء ، وورث الأبناء أبناء .. إلى ماشاء الله ، فذلك كله إلى نهاية ينتهى عندها ، حيث لا وارث إلا الله سبحانه .. وحيث يُحشر الناس إليه مجرّدين من كل ما كان لهم فى الدنيا من مالٍ ، وولد ، وأهل ، وصديق ، وجاه وسلطان !

الآيات : (٤١ — ٥٠)

* « وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَـٰأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَـٰأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَـٰأَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَـٰإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ

لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » (٥٠)

التفسير :

مناسبة قصة إبراهيم مع أبيه هنا ، هى أنها تمثل للنبى صلى الله عليه وسلم صورةً من الصراع الحادّ بين الإيمان والكفر ، والمؤمنين والكافرين ، وأن هذا الصراع قد يبلغ الحدّ الذى يفرق بين الابن وأبيه ..

وإذن ، فإنه ليس للنبىّ أن يأسى كثيراً على ما وقع أو سيقع بينه وبين أهله وقومه ، من فرقة واختلاف ، وقد جاءهم لينذرهم يوم الحسرة ، ويُلفتهم إلى تلك الفرصة السانحة لهم للخلاص مما هم فيه من ضلال ، وإلا فالويل لهم من يوم عظيم !

ومن قصة إبراهيم مع أبيه تنكشف أمور .. منها :

أولا : هذا الأدب فى الخطاب ، من الابن إلى أبيه .. حيث تُصدَّرُ كل دعوة من إبراهيم إلى أبيه بقوله : « يا أبت » .. وقد تكرر هذا النداء الرقيق الحبيب ، أربع مرات ..

وهذا ، فوق أنه أدبٌ يوجبه حقُّ الأبوّة ، هو أدب تقتضيه النبوة ، ويقضى به الأسلوب الذى تقوم عليه دعوتها فى الناس كما يقول سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن .. »

وانظر فى قوله : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشطيان وليا » .. كيف يدعوه باسم « الرحمن » ويحذره مما هو فيه من منكر غليظ ، لا تناله فيه رحمة الرحمن ، تلك الرحمة التى وسعت كل شىء .. !

فإذا كان « الرحمن » لا يرحمه فى تلك الحال التى هو فيها ، فكيف بالله ، المنتقم ، الجبار ؟؟

إنه مدعوٌّ الآن إلى الرحمة من رب رحيم ، فإذا لم ينته عن غيّه وضلاله ، فإن مع هذه اليد الرحيمة ، يدَ النقمة والبلاء حيث يصبح وإذا هو من أولياء الشيطان وأتباعه .. وليس للشيطان وأولياء الشيطان إلا الخزى والبلاء العظيم ..

وثانيا : وكما هو الشأن دائما فى أهل الضلال ، وأصحاب الشناعات .. إنه لا يجىء منهم إلا ما هو منكر وشنيع ، من قول أو فعل .. وهذا داء مستحكم فيهم ، لا يجدى معه لين ، ولا تخفف من حدته عاطفة رحم وقرابة .. !

فها هو ذا الأب الضال العنيد ، يَلجّ فى ضلاله ، ويستبد به كفره ، فلا تَندَّ منه قطرة من عاطفة نحو ابنه ، ولا يلقى هذا النداء الذى ينادى به بأحب اسم يسمعه الآباء من أبنائهم : «يا أبت» — لا يلقى هذا النداء عنده أذنا تصغى إليه ، ولا قلبا ينفتح له .. وإذا هذا الأب الضال العنيد يرجم ابنه البار الرحيم ، بهذا القول المنكر الغليظ :

« يا إبراهيم .. لئن لم تنته لأرجمنك .. واهجرنى مليًّا » !

هكذا يقولها « يا إبراهيم » .. ولم يقل يا بنى ، أو يا ولدى .. ثم يتبع ذلك بهذا التهديد : « لئن لم تنته لأرجمنك .. » !! أهكذا تبلغ غلظة القلب ، وعمى البصيرة ، حتى تنزع من صاحبها كل عاطفة ، وحتى يجد الأب اليدَ التى تطاوعه

على رجم ابنه ؟ أ إلى هذا الحد ينحدر الإنسان إلى مالا يرضى به الحيوان لنفسه مع أولاده ؟

ولقد أفاق الرجل من سَكرة جهله ، وضلاله ، حين نطق بهذه الكلمة « لأرجمنك » ورأى أن ابنه قتيل بيده ، وأنه دمه يسيل فيغطى الأرض من حوله.. ومع هذا فلم تكن هذه الصحوة لتعيد إلى الرجل ماعَزَب من عقله ، أو لتصحح ما انحرف من عاطفته ، بل إن كلّ ما كان لهذه الصحوة ، هى أن جعلته يذكر أنه أبٌ قد كانت بينه وبين هذا الإنسان الذى يهمّ برجمه ، شئون وشئون . . وهذا ما جعله يُمسك يديه عن هذا الفعل الآثم ، فيصرخ فى إبراهيم : أن اغْرُبْ عن وجهى ، قبل أن يعود إلىّ جنونى ، وأفتك بك ! !
وهذا هو سرّ العطف بين قوله تعالى : « لئن لم تنته لأرجمنك » وقوله تعالى : «واهجرنى مَلِيًّا » الأمر الذى يشير إلى أن هنا كلاماً محذوفاً بين المتعاطفيْن ، تقديره : فانْجُ بنفسك« واهجرنى مليًّا » أى اهجرنى زمناً طويلا ، وليكن إلى الأبد !

وانظر كيف استقبل إبراهيم هذه الثورة العاصفة المجنونة ، وكيف ردّ هذا الُحمق الجهول ، بتلك القولة الكريمة الحانية : « سلام عليك .. سأستغفر لك ربى .. إنه كان بى حَفِيًّا » !! أى إن ربى كان مكرماً لى إكراماً عظيما .. وكما أكرمنى ربى ، سأكرمك بالاستغفار لك ؛ وطلب المغفرة من ربّى !

إنها الكلمة الجديرة بأن تكون من خليل الرحمن ، الذى وصفه سبحانه وتعالى بقوله . « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيبٌ » (٧٥ : هود) .

فما يكون هذا الحلم ، ولا تلك الوداعة ، ولا ذلك الرفق ، إلا من مثل هذا النبىّ الكريم ، الذى أدبّه ربّه أدباً رفعه به إلى مقام الخليل !

ويأخذ إبراهيم طريقه إلى ربّه ، ويَدَع أباه وقومه ، وماهم فيه من عمًى

وضلال ، بعد أن دعاهم إلى الهدى فأبوا ، ومدّ يده إليهم بالخير فردّوه ، وتوعدوه ، « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّى عسَى ألا أكون بدعاء ربّى شقيًّا » .. ولن يشقى من يتجه إلى ربّه ، ويبسط إليه يده ، سائلا متضرعاً ..

* وفى قوله تعالى : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبْنَا له إسحق ويعقوب وكلاًّ جعلنا نبيًّا » .

فى هذا مايُسأل عنه .. وهو : لماذا اختُصّ إسحق ويعقوب بالذكر هنا ، ولم يذكر إسماعيل ، مع أنه الابن الأول لإبراهيم ، ومع أن يعقوب ليس ابنَ إبراهيم ، وإنما هو ابن ابنه إسحق ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن إسماعيل كان قد ولد لإبراهيم ، وأن إبراهيم كان على يأسٍ من الولد من امرأته «سارة» أمِّ إسحق إذ كانت عقيما .

فذكر إسحق ، هنا ، هو تذكير بتلك النعمة التى جاءت على غير انتظار ، بل جاءت على يأس من أن تقع .. وهى ـ فى صورتها تلك ـ أشبه بالجزاء المعجّل على هذا البلاء العظيم ، الذى كان من إبراهيم فى موقفه من أبيه ومن قومه ، وهذا مايشير إليه تقييد هذه الهبة بهذا الظرف ، الذى اعتزل فيه إبراهيم قومَه ، وما يدعون من دون الله . كما يقول سبحانه وتعالى : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب » .

ومن جهة أخرى ، فإن ميلاد إسماعيل من أمّه هاجر ، كان ميلاداً من امرأةٍ لم تحكم عليها ظواهر الأمور بالعقم .. فهو ـ والأمر كذلك ـ ميلاد طبيعىّ ، يجرى على المألوف من حياة الناس .

أما ذِكر يعقوب ، وهو ابن الابن ، وليس ابناً مباشراً ، فهو إلفات إلى زيادة المِنّة ، ومضاعفة الإحسان ، حيث يرى إبراهيم أن ولده إسحق لايُبتلى

مما ابتُلى به هو من تأخير الولد عنه إلى سِنّ الشيخوخة ، وإلى حمل نفسه على مرارة اليأس من الولد .. !

هذا ، وسيأتى لإسماعيل ذكر خاص ، فى الآيات التالية ، كما سنرى ..

الآيات : (٥١ — ٥٨)

* « وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » (٥٨)

التفسير :

فى هذه الآيات ، ذِكْرٌ لبعض من أنبياء الله ورسله.. هم موسى ، وإسماعيل ، وإدريس .. ثم هارون باعتباره نبيًّا ، غير رسول ..

وقد وصف الله سبحانه وتعالى موسى بأنه كان مُخْلَصاً .. أى أخلصه الله سبحانه وتعالى له ، واختصه بكلامه .. ثم وصفه سبحانه بأنه كان نبياً ، أى يجمع بين الرسالة والنبوّة ، ثم وصفه سبحانه وصفاً ثالثاً ، بأنه نودى من الحق

جلّ وعلا فقال تعالى : « وقربناه نجيا » أى قرب من حضرة الحق جلّ وعلا إلى حيث ناجاه ، كما يناجى الخليل خليله .. كما يقول سبحانه فى آية أخرى : « وكلم الله موسى تكليما » (١٦٤ : النساء) .

وبهذه الأوصاف استحق موسى أن يقدَّم على رسل وأنبياء ، كانوا أسبقَ منه زماناً ، كإسماعيل ، وإدريس .. وهذا التقديم ـ وإن رفع من قدر موسى ـ لاينُقص من قدر هذين النبيين الكريمين ، « تلك الرسل فضّلْنا بعضهم على بعض .. منهم من كلّمَ اللهُ ورفَعَ بعضهم درجاتٍ » (٢٥٣ : البقرة) .

وفى قوله تعالى عن موسى : « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيًّا » تكريم ، فوق تكريم لموسى ، وأنه إذ لم يوهبْ له الوَلَدُ ، فقد وهُبَ له نبىٌّ يعمل إلى جانبه ، فى الرسالة التى نُدبَ لها ..

وفى قوله تعالى عن موسى أيضاً : « وناديناه من جانب الطور الأيْمن وقرّبناه نَجيًّا » .. تحديد المكان الذى نُودى منه موسى ، وهو أنه كان بالجانب الأيمن من الطور ، حين تلَقى نداء الحقّ جلّ وعلاَ ..

والجانب الأيمن من الطور ، هو الجانب الغربىّ منه ..

وهذا التحديد الجغرافى لمكان النداء ، يشير إلى أن موسى كان قادماً من مدين فى طريقه إلى مصر ، وأنه فى متوجّهه هذا كان يخترق أرض الطور ، التى يشرف عليها الجبل المسمى بهذا الاسم فى صحراء سيناء على ساحل البحر الأحمر .. فكان الجانب الغربى من الطور على يمين موسى ، والجانب الشرقى على يساره.. وحين ناداه ربه ، سمع النداء من جانبه الأيمن ، وهو الجانب الغربىّ من الطور ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربىّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » (٤٤ : القصص) .

قوله تعالى :

* « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا ، نبيــا » ..

الصفة البارزة الموصوف بها إسماعيل فى ديوان الأنبياء والمرسلين ، هى ، أنه « كان صادق الوعد » ..

والوعد ، هو قوله لأبيه : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وذلك حين قال له أبوه : « يابنىّ .. إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » (١٠٢ : الصافات) ..

وصِدقُ الوعد فى أنه كان قولا صدقه العمل، فلم يكن قوله لأبيه : « يا أبت افعل ما تؤمر » مجرد قول يقال ، ولكنه كان مصحوبا بنية صادقة على إمضاء هذا القول إلى غايته .. وقد تبين هذا حين جاءت ساعة التنفيذ .. فاستسلم إسماعيل لأمر ربه ، وأعطى رقبته للسكين .. كما يقول سبحانه وتعالى : « فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدّقتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين » (١٠٣ — ١٠٥ : الصافات) :

قوله تعالى :

* « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً عليــا » ..

إدريس عليه السلام ، هو من ذرية آدم الأولين ، وهو جدٌّ أعلى لنوح ولهذا اختُصّ بالذكر لأنه ليس من الأنبياء الذين جاءوا من ذرية إبراهيم ..

والذين لم يذكروا هنا كعيسى ، ومحمد ، عليهما الصلاة والسلام ، ففى ذكر إبراهيم ذكر لهما ، لأنهما من ذريته .. كإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ..

أما ذكر إسماعيل — وهو ابن إبراهيم — فهو تنويه خاص به، إذ كان من ذريته خاتم النبيين محمد، صلوات الله وسلامه عليه ..

هذا، ولم يُلحق بإدريس وصف الرسول، إلى جانب الوصف بالنبوة .. فهو - بهذا - نبى، وليس برسول ..

قوله تعالى :

* « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذُرِّيَّة آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً » ..

الإشارة هنا « أولئك » مشارٌ بها إلى المذكورين فى الآيات السابقة، من النبيين .. وهم موسى، وإسماعيل، وإدريس ..

وهؤلاء الأنبياء الثلاثة، يمثلون الصور كلها التى جاء عليها أنبياء الله ورسله ..

فموسى يمثل الأنبياء المرسلين، أصحاب الكتب السماوية، والرسالات، الخارجة عن نطاق الأهل والأسرة، إلى القوم، والأمة ..

وإسماعيل .. يمثل الأنبياء المرسلين، الذين لم تكن لهم شريعة خاصة، ولم يكن بين أيديهم كتاب سماوى منزل عليهم، وكانت دعوتهم إلى الله مقصورة على آل بيتهم ..

وإدريس .. يمثل الأنبياء غير المرسلين ..

وهذا يكشف عن بعض السر فى أن ذكرهم فى هذه الآيات لم يجىء على حسب ترتيبهم الزمنى، بل جاء على حسب درجاتهم فى مقام النبوة ..

فهؤلاء الأنبياء الثلاثة ، موسى ، وإسماعيل، وإدريس، يمثلون وجوه النبوة، فى درجاتها الثلاث :

والإشارة إليهم بأولئك ، هى إشارة إلى جميع الأنبياء والمرسلين ، الذين أنعم الله عليهم من النبيين !

وحرف الجر « من » فى قوله تعالى : « من النبيين » هو للبيان ، وليس للتبعيض .. إذ أن كل النبيين ، هم من الذين أنعم الله عليهم ، بهذه النعمة الجليلة، التى لاتعدِلُها نعمة فيما أنعم الله به على عباده من نعم ! وهم جميعاً ممن هداهم الله ، واجتباهم . . هداهم إلى الحق ، والإيمان ، واختصهم بنعمة النبوة والرسالة ، أو النبوة وحدها .

وأما حرف الجر « من » فى قوله تعالى : « من » ذرية آدم و « ممن » حملنا مع نوح .. و « من » ذرية إبراهيم وإسرائيل » — هـذا الحرف فى مواضعه الثلاثة للتبعيض .. أى إن هؤلاء النبيين الذين أنعم الله عليهم هم من بعض ذرية آدم ، وهم بعض من آمن مع نوح وحُمل معه فى السفينة ، وهم بعض ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . . إذ ليس كل أبناء هؤلاء وذرياتهم من النبيين ، ولا ممن هداهم الله واجتباهم ،بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى الآية التالية لهذه الآيات وهى قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهواتِ فسوف يلقون غيًّا » ..

الآيات : (٥٩ — ٦٣)

* « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ

ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا » (٦٣)

التفسير :

الخلْف بسكون اللام ، الفاسد ، الضالُّ من الذرية ، على خلاف الخلف ، بفتح اللام .. فكأن الخلْف خلَف يجمع بين الخلَف والخُلف .. وهذا من الصيغ القرآنية العجيبة ، التي تزداد بها اللغة ثراء ، وتزدان حسنا ..

وقوله تعالى :

* « فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ..

هو تهديد لهؤلاء الضالين ، الذين خرجوا على سَنَن الفطرة السليمة ، كما خرجوا على واجب الولاء والطاعة لآبائهم المكرمين من عباد الله ، واتبعوا الغاوين والمفسدين من الآباء ..

— وفى قوله تعالى : « أضاعوا الصلاة » تنويه بشأن الصلاة ، ورفع لقدرها إذ كانت الصلاة عمادَ الدين ، فى كل شريعة ، وكل ملة ..

وقد نوه الله سبحانه وتعالى بإسماعيل عليه السلام ، فجعل دعوته بالصلاة فى أهله ، رسالةَ رسول .. « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » ..

وقوله تعالى : « فسوف يَلْقَوْن غيًّا » وعيد بالعاقبة السيئة التى سيؤول إليها أمرُ هؤلاء الضالين ، الذين أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشهوات ..

والغىّ : هو الضلال .. وقد جُعِلَ فى مقام الهلاك والعذاب فى جهنم ، لأن القوم كانوا غُواةً ، وأنهم سيلقونَ هذا الغىّ ، وسيجدونه حاضراً يوم القيامة ، وبه سيردُون مورد الهلاك ، وبه يَصْلَوْن العذاب !

قوله تعالى :

* « إلاّ من تابَ وآمن وعَمِل صالحاً فأولئك يَدْخُلون الجنّة ولا يُظلمون شيئاً » . .

هو استثناء منقطع ، و « إلاّ » بمعنى « لكنْ » .. وبهذا الاستثناء يُفتح باب النجاة من هذا المهوى الذى هَوَى فيه الضالون إلى جهنم .. فمن دخل هذا الباب ، وتاب عما هو فيه من منكرات وضلالات ، وصحّح إيمانه بالله ، فهو من عباد الله ، الذين سيلقاهم فى الآخرة برضوانه ، وبجنات لهم فيها نعيمٌ مقيم .. « فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً .. »

وقوله تعالى :

« جناتِ عدنٍ التى وَعَدَ الرحمنُ عباده بالغيب إنه كانَ وعدُه مأتيًّا ».

هو بيان للجنّة ، التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « فأولئك يدخلون الجنّة » فهى فى سعتها جنات ، وإن كانت جنّة واحدة .. وهى جناتُ عَدْنٍ ، أى خلود وإقامةٍ ، لايتحول عنها أهلها أبداً ، وهى التى كانت وعداً تلقّاه المؤمنون بالله من ربّهم فى الدنيا ، فآمنوا بهذا الوعد على الغيب ، دون أن يَرَوْه ، وقبل أن يتحققوا منه عِياناً .. إنه إيمان بالله ، وبكل كلمات الله .. فهو إن يكن وعداً ، فإنه حاضرٌ فى يقين المؤمنين ، وهم بهذا الوعد أوثق مما فى

أيديهم .. « إنّه كان وعدُه مأتيا » أى آتيا ، أو يُؤتَى إليه الموعودون به .. لايتخلّف أبدا .. إن لم يجئهم جاءوا هم إليه .

وقوله تعالى :

* « لايَسْمَعُونَ فيها لَغْوًا إلاّ سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » .

هو وصف لهذه الجنة ، أو تلك الجنات ، وأن أهلها فى أمن وسلام ، لايسمعون فيها كلمة لاغية عابثة ، فإن اللغو والعبث هو شغل الفارغين التافهين أما أصحاب الجنة فهم كما وصفهم سبحانه وتعالى : « فى شُغل فاكهون » (٥٥ : يس) وشغلهم هو هذا النعيم الذى يملأ كل لحظة من لحظات وجودهم .. و « إلا » فى قوله تعالى : « إلا سلاماً » بمعنى لكن ، أى لايسمعون لغواً ، ولكن يسمعون سلاماً ..

— وفى قوله تعالى : « ولهم رزقهم فيها بكرةً وعَشِياًّ » إشارة إلى أن أهل الجنّة قد تُركوا وماهم فيه من نعيم الجنّة ،يطعمون منه ، وإنما هم مع هذا محفوفون برعاية الله ، آخذون من عَطائه ، الذى يلقاهم به بكرة وعشياًّ .. فكل ماينال أهل الجنة من صنوف النعيم ، هو رزق من رزق الله ، المجدَّد عليهم ، حالاً بعد حالٍ .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « كلّما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذى رُزِقْنا من قبلُ وأُتوا به متَشابهاً » (٢٥ : البقرة) ..

قوله تعالى :

* « تلك الجنّة التى نُورِثُ من عبادنا من كان تقيّا » .

الإشارة هنا تنويه بالجنة ، التى ذُكرت بأوصافها ، وأوصاف أهلها فى الآية السابقة ..

فهذه الجنّة المُشار إليها هنا ، هى الجنة السابقة ، والتقدير تلك هى الجنة

التي جعلها الله سبحانه وتعالى ميراثاً لمن كان تقياً من عباده ، أى مؤمناً به ، مستقيما على أوامر شريعته ونواهيها . فيأتى ما أمر الله به ، ويجتنب ما نهى الله عنه ..

وفى التعبير عن دخول الجنة بالميراث ، إشارة إلى أن أهلها ممكّنون من كل نعيم فيها ، يتصرفون فيه كيف يشاءون ، كتصرف الوارث فيما ورث .. لا يبخل على نفسه بشيء منه ، إذ كان ذلك الميراث من غير كسبه ، بل جاءه صفواً عفواً ..

والجنة ، هى ميراث للمتقين ، لم يكن نزولهم منازلها إلا برضوان الله ، ورحمته .. وإلا فإن ماعملوه فى دنياهم من طاعات وماقدموه من صالح الأعمال ، لا يؤهّلهم لدخولها .. كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف : « لايدخل أحدكم الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنى الله برحمته » ..

الآيات : (٦٤ — ٧٠)

* « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ

أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا » (٧٠)

التفسير:

قوله تعالى:

* « وما نتنزّل إلا بأمرِ ربّك له مابين أيدينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك وما كان ربّك نسيًّا » ..

ضمير المتكلم فى قوله تعالى: « وما نتنزّل » يعود إلى الملائكة، المأمورين من قِبَل الحقّ سبحانه وتعالى بما يُتكلفون به من تصاريف فى العالم الأرضى .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: « تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمرٍ » (٤ : القدر) .

والمتحدث عن الملائكة هنا هو جبريل عليه السلام، إذ كان هو الملك الموكّل بالاتصال بين الله سبحانه وتعالى وبين رسله الكرام، والمأذون له بالحديث إليهم. أما غيره من الملائكة فلهم شئون أخرى ..

وقيل فى سبب نزول هذه الآية، أن الوحى قد احتبس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مدة، حتى وجد الوحشة فى نفسه، وحتى لقد قالت قريش إن ربّ محمد ودّعه وقلاه .. وإلى هذا يشير قوله تعالى: « والضّحى والليل إذا سَجَى * ماودّعك ربّك وما قلى » .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الآيات السابقة ذكرت الأنبياء والرسل، وهم الذين أنعم الله عليهم من عباده بالرسالة، واختصهم بالنبوّة .. وإذ كان الملائكة هم السفراء بين الله سبحانه وتعالى وبين رُسله، فإنه فى هذا المقام قد

يقع فى تصوّر بعض المشركين أن يتنزّل عليهم الوحىُ وأنّهم إذا عبدوا الملائكة أو تقربوا إليهم ، قد يكون لهم ما كان لهؤلاء الأنبياء ، ومنهم محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ، الذى يحدّث قريشاً بأنه يُوحَى إليه من ربه !

— فكان قوله تعالى : « وما نتنزّل إلا بأمر ربّك » قطعاً لهذه الأمانىّ الباطلة ، التى يُمَنّى بها بعض المشركين أنفسهم ، حتى لقد قالوا ماحكاه القرآن عنهم : « لَوْلاَ نُزِل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ » (٣١ : الزخرف) وما حكاه عنهم فى قوله سبحانه : « لولا أنزل علينا الملائكة » (٢١ : الفرقان) .

وقوله تعالى : « له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك » إقرار من الملائكة بما لله سبحانه وتعالى من سلطانٍ مطلق ، لايملك أحد معه شيئاً ، حتى أقرب المقربين إليه ، وهم الملائكة .. إن الله سبحانه وتعالى يملكهم ، ويملك كل مايعملون فيه .. فى ماضى أمرهم ، ومستقبله ، وما بين ماضيه ومستقبله ..

— وقوله تعالى : « وما كان ربّك نَسِيًّا » هو مما أعلنه الملائكة عن علمه سبحانه وتعالى وقدرته .. وأنه جلّ شأنه لم يكن عن نسيان منه ، هذا التأخير فيما يوحى به إليك أيها النبىّ .. تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً .. وإن هذا التأخير لحكمة يعلمها الله ، وعن تقدير قدّره ..

قوله تعالى :

* « ربّ السّموات والأرضِ وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته .. هل تَعْلَمُ له سَمِيًّا » ..

هو عرض لبعض قدرة الله ، وبسطة سلطانه .. وأنه سبحانه ربّ السموات والأرض وما بينهما ، وما فيهما من عوالم ومخلوقات ..

ولهذا فهو وحده ـ سبحانه ـ المستحقّ للعبادة .. « فاعْبُدْه » أيها النبيّ « واصطبر لعبادته » أى وطّن نفسكِ على العبادة وتَحَمّـل أعبائها .. فهى تكاليف ، لايقوم بها على الوجه الأكمل إلا مَن راض نفسه على الصبر .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لـكبيرةٌ إلا على الخاشعين » (٤٥ : البقرة) .. وما يشير إليه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ واصطبرْ عليها » (١٣٢ : طه) .

* وقوله تعالى : « هل تعلم له سَمِيًّا » استفهام يراد به نفى الشبيه والمثيل لله سبحانه وتعالى .. والسَّمِىُّ ، هو الذات المسماة باسم من أسماء الألوهية ، مثـل الرّبّ ، والإله .. ونحو هذا ، فهذا المسَمّى وإن أخذ الاسم فإن هذا الاسم ، لا يعطيه شيئاً مما لله سبحانه وتعالى ، من قدرة ، وعلم ، وحكمة ، وإحياء ، وإماتة وغير هذا مما تفرّد به المولى ، جلّ وعلا ..

قوله تعالى : * « ويقول الإنسان أئذا ماَمتُّ لسوف أُخْرَجُ حياًّ » ..

هو إنـكار لهذا القول المنـكر الذى يقوله الذين لايؤمنون بالبعث ، وهو استبعادهم أن يُبعثَ الموتى ، بعد أن تبلى أجسادهم ، وتحلل وتصير تراباً ..

والإنسان هنا ليس إنساناً بعينه ، وإنما هو جنس للإنسان ، يدخل فيه كل مَن يقول هذا القول ، ويعتقده ..

وقوله تعالى:*« أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أنّا خَلَقْناهُ من قبلُ ولم يَكُ شيئا » ..

هو ردّ على هذا الإنسان الذى يمثل الإنسانية الضالة المنكرة للبعث ، التى يقال على لسانها هذا القول : « أئذا ما متّ لسوف أخرج حياًّ ؟ »

أفلا يذكر هذا الإنسان كيف كان خلقه ؟ ثم ألا يذكر أين كان هو قبل أن يولد ؟ لقد كان عَدَماً ، لاوجود له ، ثم صار هذا الـكائنَ الذى يقف من ربّه موقف المحادّ المحارب ؟

ثم لينظر هذا الإنسان : أَخَلقُ مخلوقٍ من عدم .. أهونُ ، أم خَلْق مخلوقٍ

من بقايا مخلوق ؟ لينظر فى هذه القضية على مستواه البشرىّ ، وسيرى أن إيجاد شيء من عدم ؛ مستحيل استحالة مطلقة ، أما إيجاد شيء من حطام شيء ، فهو واقع فى حدود الإمكان ، المتاح للإنسان .. !!

فإذا كان ذلك كذلك فى حدود الإنسان ، المخلوق ، الضعيف .. أفيعجز الله القادر القوىّ ، الذى خلق الإنسان من عدم ـ أن يعيد هذا الإنسان مرةً أخرى ، بعد أن يرجعه إلى العدم ، أو ما يشبه العدم ؟ ..

« وضرب لنا مثلا .. ونسى خلقه .. قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يُحييها الذى أنشأها أول مرة .. وهو بكل خلق عليم » (٧٨—٧٩ : يس) ..

قوله تعالى : * « فوربك لَنَحْشُرنهم والشياطينَ ثم لنُحضرنّهم حول جهنم جِثيًا .. »

الخطاب هنا للنبىّ ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفى القسَم له بربّه وإضافته إلى ربّه ، تكريم عظيم له ، واستدناء له من ربّه ، وإفضاء إليه بهذا الخبر ، الذى يردع الظالمين ويفزعهم ..

فهؤلاء المشركون ، الضالون ، المكذبون بيوم الدّين ، سيحشرون مع الشياطين ، حشراً واحداً ، يجمع بينهم .. إذ كانوا على شاكلة واحدة .. ثم هم بعد هذا الحشر مدعوون إلى جهنم ، يساقون إليها سَوْقاً ، ويجتمعون حولها ، جاثين على ركبهم ، فى هوان وذلة ، حيث يشهدون بأعينهم المنزلَ الذى سينزلونه منها !

* قوله تعالى :

« ثم لننزعن من كل شيعة أيُّهم أشدُّ على الرّحمٰن عِتيًّا * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيًّا » ..

ننزعن : نخرجَنّ ، والنزع إخراج الشيء بشدة وقوة ، وقهر .

والشيعة : الجماعة على رأى واحد ، يلتقون عنده ، ويتناصرون عليه ..

والعتِيّ : العُتُو ، والمشاقّة ، والخلاف القائم على الظلم ..

والصِّلِيُّ : الاصطلاء بالنار والقرب منها ، والمراد به هنا : الاحتراق بها ..

والآيتان تصوران بعض مشاهد القيامة ، وما يقع للظالمين ، والضالين، من أهوال فى هذا اليوم العظيم ..

ففى هذا اليوم يُحضر المجرمون جميعاً ، حول جَهَنّم ، جاثين على ركبهم ، حيث لا يستطيعون القيام على أرجلهم ، مما أصابهم من هولٍ ، انحلّت به عزائمهم ، وانهدّت منه قواهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فما استطاعوا من قيام » (٤٥ : الذاريات) .. ثم إذا اجتمع جمع هؤلاء المجرمين حول جهنم ، انتُزع من بينهم أئمة الضلال فيهم ، وقادة الكفر منهم ، ثم يُلقى بهم فى جهنم ، حيث يشهد أتباعهم بأعينهم مايلقوْن من بلاء ، سيلقوْنه هم عما قليل ، وحيث يرى هؤلاء الأئمة أن زعامتهم وإمامتهم فى الدنيا ، لم تكن إلاّ وَبالا عليهم ، وأن أتباعهم أحسنُ حالا منهم ، وأن مواقع الضَّلاَل والفتن ، وإن كانت كلها سوءا ووبالاً ، فإن المتأخر فيها خير من المتقدم ، والتابع أدنى إلى السلامة من المتبوع .. وفى المثل : « كن فى الفتنة ذنَبًا » !

— وفى قوله تعالى : « أيهم أشدُّ على الرحمن عِتيًّا » ـ فى هذا مايسأل عنه .. وهو : لم عُدِّى المصدر « عِتِىّ » بحرف الجرّ « على » الذى يفيد الاستعلاء .. بمعنى « أيهم أشد عتيًّا على الرحمن » .. وكان يمكن أن يكون النظم هكذا : « أيهم أشد للرحمن عتيًّا » بتعدية المصدر بحرف الجرّ « اللام » الذى يفيد المِلك ، ثم التفلّت من هذا المِلك ! ! فما سِرُّ هذا؟

نقول : ـ والله أعلم ـ إنّ ذكر الصفة الكريمة « الرحمن » هنا ، دون صفات المولى جلّ وعَلاَ ، كالقوىّ والعزيز ، والقادر ـ إن هذا يشير إلى شناعة هذا الُجرم الذى يتلبس به المجرمون ، ويتخذون به موقفاً معادياً ، ومحاربًا ،

لأرحم الراحمين ، الذى لوشاء لمسخهم قردةً وخنازير ، ولوشاء لرماهم بكل داء ، ولأخذ سمعهم ، وأبصارهم ، وسلط عليهم من الأوبئة مايجعل أنفاسهم تتقطع أنينا وصراخا .. إلى غير ذلك مما فى قدرة الله ، ومما رأوا منه مارأوا فى بعض الناس منهم ..

فهؤلاء المجرمون ـ وتلك رحمة الله بهم ـ يخرجون عن طاعة الرحمن ، بل ويحاربونه ، بل ويستعلون على الولاء له ، والانقياد لأمره ..

والصّورة تمثل معركة بين هؤلاء العُتاة المجرمين ، وبين رحمة الله .. حيث تدعوهم الرحمة إلى رحابها ، وتفسح لهم الطريق إليها ، وهم يتأبّوْن عليها ، ويتفلّتون منها .. فهم فى هذا أشبه بالمغالبين لرحمة الله ، وهذا أسوأ مايمكن أن تكون عليه حال إنسان .. من شقاء غليظ ، لاتنفذ إليه فيه بارقة من رجاء فى عافية ، أو خروج من بلاء . . . !

الآيات : (٧١ — ٧٢)

« وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » (٧٢)

التفسير :

قوله تعالى : * « وإن منكم إلاّ واردها كان على ربك حتماً مقضيًّا * ثم نُنجّى الذين اتقوا ونذرُ الظالمين فيها جِثيًّا » .

[جهنم . . هل يَرِدها الناس جميعاً ؟]

الضمير فى واردها يعود إلى جهنم ، المذكورة فى قوله تعالى : « ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثيًّا » ..

أمّا الضمير فى « منكم » فقد اختُلف فيه ويكاد إجماع المفسّرين ينعقد على أن المراد به الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم .. بمعنى أن كلّ إنسانٍ ، حتى الأنبياء ، والرسل ، سيردون النار ويمرُّون بها ، ويشهدون أهوالها ، دون أن يُصيبهم منها أذًى ، بل ستكون برداً ، وسلاماً عليهم .. ويأتون على هذا الرأى بأحاديث ، وأقوال تشهد له !! ثم يقوى من هذا الرأى عندهم قوله تعالى : « ثم ننجّى الذين اتقَوْا ونذَرُ الظالمين فيها جثيًّا » ! ثم هم ـ من جهـــة أخرى ـ يدفعون ماقد يثور فى النفس من تخوّف على المؤمنين من هذه التجربة التى يمرّون بها ، والتى إن سلمت منهــا أجسامهم ، فلن تسلم منها مشاعرهم ـ هم يدفعون هذا ، بأن المؤمنين حين يمرّون بجهنم ، ثم يَخْلُصون منها إلى الجنة ، يشهدون عظمة النعمة وجلالها ، التى أنعم الله بها عليهم ، إذ عافاهم من هذا البلاء العظيم ، الذى رأوه رأى العين !!

ونحن نردّ هذا القول ، ونأخذ بما هو أولى وأكرم بكرم الله ، وفضله ، وقدرته على إبلاغ نعمته إلى عباده المخلصين ، خالصةً من كل شائبة أو كدر !

فنقول : إن الضمير فى « منكم » يعود إلى هؤلاء المجرمين الذين سِيقُوا إلى جهنم ، واجتمعوا حولها جاثين على ركبهم ، لم يدخلوها بعد .. ثم يُنتزع من بينهم أئمتهم ، وقادة الضلال والكفر فيهم ، فيلقى بهم فى جهنم .. كما جاء فى قوله تعالى : « ثم لننزِعَنّ من كلِّ شيعة أيهم أشدُّ على الرحمٰن عِتيًّا * ثم لنحن أعلم بالّذين هم أولى بها صِليًّا » .

وإلى هنا لم يكن قد انكشف أمر الأتباع ، المتعلقين بهؤلاء الأئمة .. فجاء قوله تعالى : « وإن منكم إلاّ واردها » ليكشف لهؤلاء الأتباع عن مصيرهم

وأنهم مأخوذون بما أخذ به هؤلاء القادة الذين سبقوهم إلى جهنم ! « وإن منكم إلاّ واردها . كان على ربك حتما مقضياً » أى أمراً قضى به الله سبحانه وتعالى على الظالمين ، من الكافرين ، والمشركين ، وأصحاب الضلالات أن يردوا جهنم ، وأن يقفوا على هذا المورد الوبيل ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » (١٤٠ : النساء) وكما يقول جل شأنه : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١١٩ : هود) وكما يقول سبحانه : « إنكم وما تَعْبُدُون من دون الله حَصَبُ جَهَنَّم أنتم لها واردون » (٩٨ : الأنبياء) .. فجهنم هى الُحكم الذى قضى به الحق جل وعلا على أهل الشِّقوة من الناس . .

ثم إنه ليس يصحُّ أن يكون من تكريم المؤمنين فى هذا اليوم ، وعلى رأسهم الأنبياء ، والرسل والصديقون ، والأولياء ، والأبرار ، والشهداء — ليس يصح أن يكون من مظاهر تكريمهم أن يدخلوا فى هذه التجربة القاسية ، وأن يردوا هذا المورد الجهنمى ، وهم إنما سعَوا إلى الله ، وأحبّوا لقاءه ، ليخلُصُوا من أكدار الدنيا . . فهل مما يقع فى التصور أن يكون أول مايلقَوْنه فى الآخرة ، هو هذا الوجه الكريه المشئوم منها ، وهو جهنم ؟

وكيف يرد المؤمنون وعلى رأسهم الأنبياء والرسل ، هذا المورد الذى لايردُه إلاّ الخاطئون ، والذى يصفه الحق تبارك وتعالى بقوله عن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وبئسَ الوِرْدُ الْمَوْرُودُ » (٩٨ : هود) ؟

ثم كيف ، والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الذين سَبقت لهم منّا الُحسنى أولئك عنها مُبعدون * لا يسمعون حسيسَها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون *

لا يحزُنُهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » (١٠١ ـ ١٠٣ : الأنبياء) فهذا صريحُ قولِ الله تعالى ، فيما يلقى المؤمنون الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، من كرامة ، وتكريم ، فى هذا اليوم ، إنهم مبعدون عن جهنم ، لا يسمعون حسيسها .. فكيف يردونها ؟ ثم كيف يدخلونها ؟ إنه على أى حال دخول فى محيط هذا البلاء العظيم ، وإن خرجوا منه من غير أن يصيبهم من لظاها أذى ! والمثل يقول : « حسبكَ من شرٍّ سماعه » فكيف بلقائه ، والانغماس فيه ؟

ـ أما قوله تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًّا » .. فهو معطوف على قوله تعالى : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيًّا * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا * وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » .. فهذه الآيات تصور موقف الضالين والكافرين يوم القيامة ، وما يلقون من بلاء وهوان ، وأنهم جميعاً واردون جهنم على دفعات . الرؤساء أولا .. ثم المرءوسون ثانياً ..

ـ وفى قوله تعالى : « ثم ننجِّى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًّا » بيان لما يكون للمتقين ، ولعباد الله المكرمين فى هذا اليوم من تكريم ، حيث يفوزون بالنجاة من هول هذا اليوم ، ومن عذابه الأليم .. كما يقول سبحانه « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرةً وسروراً » (١١ : الإنسان) .. أما أهل الشِّقوة فيتركون على ما هم فيه من بلاء وضنك ، ونكالٍ ، حيث يشهدون بأعينهم هذا الركب الميمون ، تزفه ملائكة الرحمن ، إلى جنات النعيم ، وإلى ما يرزقون فيها من كل طيب وكريم ..

وتقديم الفصل هنا فى أمر أصحاب النار ، على الفصل فى أصحاب الجنة ، هو

الذى تجىء عليه أحداث القيامة يومئذ ، حيث يُؤتى بالمجرمين أولا . ثم يقضى فيهم بدخول النار .. ثم يجاء بالمؤمنين فيقضى فيهم بدخول الجنة ..

وحكمة هذا ، هى أن يعجل لأهل النار بالنار ، حتى تنقطع آمالهم من أول الأمر ، بأنْ لا مكان لهم فى الجنة ، وأن لا مطمع لهم فى أن يكونوا من الناجين ، وذلك مما لا يتحقق ، لو بدىء بالفصل فى أصحاب الجنة ، حيث يعيش المجرمون لحظات تداعبهم فيها الآمال ، وتتحرك فى نفوسهم الأطماع أنهم قد يكونون فى هؤلاء الآخذين طريقهم إلى الجنة ، وأن دورهم لم يأت بعد ، كما يقول سبحانه : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم .. ونادوا أصحاب الجنّة أن سلام عليكم .. لم يدخلوها وهم يطمعون » (٤٦ : الأعراف) .

وفى تقديم الفصل فى أصحاب النار على الفصل فى أصحاب الجنة ، جاء قوله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربِّها ووُضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحقِّ وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون * وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً .. » (٦٩ — ٧٣ : الزمر) .

وجاء قوله تعالى أيضاً : « يوم يأت لا تَكلَّم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد * فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سُعِدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غيرَ

مجذوذ » (١٠٥ — ١٠٨ : هود) .

* * *

هذا ويمكن أن تؤول الآية الكريمة على وجه آخر ، وهو أن قوله تعالى :

« وإن منكم إلا واردها » يراد به أهل النار جميعاً ، على اختلاف حظوظهم السيئة منها .. سواء فى هذا مَن يخلدون فى النار من الكافرين والمشركين والمنافقين ، أو من كان من المؤمنين ، أصحاب الكبائر والصغائر ..

ثم يجىء قوله تعالى بعد ذلك : « ثم ننجى الذين اتقوا » محتملا أن يراد به بعض أهل النار ، وهم أولئك المؤمنون من أصحاب المنكرات .. فهؤلاء — لا شك — غير مخلدين فى النار ، وإنما هم فيها أشبه بالمسجونين سجناً مؤقتاً ، سيخرجون منه حتما بعد استيفاء المدة المحكوم على كل واحد منهم بها .. ثم بعد هذا قوله تعالى : « ونذر الظالمين فيها جثياً » مبيناً المصير الذى يعيش فيه الظالمون من الكافرين ، والمشركين ، والمنافقين ، بعد أن انكشف المصير الذى صار إليه من كانوا معهم فى النار من عصاة المؤمنين ..

* * *

الآيات : (٧٣ — ٧٦)

* « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ

مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » (٧٦)

التفسير :

بعد أن عرضت الآيات السابقة جهنم وأهوالها ، وعَرْضَ أهل الضلال عليها ، ثم إلقاءهم فيها .. جاءت هذه الآيات بعد ذلك لترد هؤلاء الضالين إلى الحياة التى كانوا فيها ، بعد هذه الرحلة المرهقة التى رأوا فيها جهنم عِيانًا ، وطلع عليهم من أنفاسها الملتهبة ما يكظم منهم الأنفاس ، ويشوى الوجوه ..

جاءت هذه الآيات ، لتعرض هؤلاء الضالين المشركين ، بعد تلك التجربة، لترى أثرها فيهم ، وفى موقفهم من الدعوة إلى الإيمان بالله ، والاستجابة لرسول الله — وإذا هم على غيهم وضلالهم : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات » أى واضحات مشرقات : « قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين » نحن أم هؤلاء الذين مع محمد . . ؟

أى الفريقين منا ومنهم « خيرٌ مقاماً وأحسن نديًّا » أى خير حياةً ، وخير تمكنا من هذه الحياة ، وأحسن مظهراً ، حيث يضمنا نادينا ، وحيث يجتمعون هم إلى محمد ؟ إننا فى نعمة ظاهرة ، وفى حياة رافهة ، وفى مجالس عامرة بسادة القوم ، ووجوه الناس .. وهم بين عبيد أرقاء ، وبين فقراء لا وزن لهم فى الناس ، ولا مكانة لهم فى المجتمع ..

واللام فى قوله تعالى : « قال الذين كفروا للذين آمنوا » : إما أن تكون لام التعدية ، وعلى هذا يكون القول من الذين كفروا موجهاً إلى الذين آمنوا . .

وإما أن تكون متعلقاً بمحذوف ، تقديره « محتقرين » أو « كائدين » للذين آمنوا .. أى قال الذين كفروا محقرين للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاماً . . ؟

— وفى قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسنُ أثاثاً ورئياً .. » تهديد لهؤلاء المشركين ، وتسفيه لجهلهم وضلالهم ، إذ تمسكوا بهذه الدنيا وجعلوا كل وجودهم لها — فهؤلا الضالون لن يخلدوا فى هذه الدنيا ، ولن ينفعهم ما جمعوا من مال ، وما استكثروا من بنين .. إنهم هالكون لامحالة ، طال الزمن بهم أم قصر .. فإن شكّوا فى هذا ، فلينظروا فى الأمم التى خلت من قبلهم ، وما كان بين هذه الأمم من أصحاب أموال ، ورياسات . كانوا أكثر منهم مالاً ومتاعاً ، وأبهى منظراً ، وأعظم جاهاً وسلطاناً .. فأين هؤلاء ؟ لقد هلكوا فيمن هلك .. وسيهلك هؤلاء المشركون — سادة ومسودين — ولن تبقى منهم باقية ! .

قوله تعالى :

* « قل من كان فى الضلالة فليَمْدُدْ له الرحْمٰن مدًّا » .

أى من كان على تلك الحال من الاستغراق فى الضلالة ، واستهلاك وجوده فيها ، فإنه لن يرجع عن ضلالته ، ولن يستمع لنُصح ناصح ، أو عِظة واعظ .. وإذن « فليمدد له الرحْمٰن مَدًّا » وليترك له الطريق مفتوحاً إلى غايات الضلال ، فلا يضيّق الله عليه فى الرزق ، ولا يبتليه بشىء فى نفسه أو ولده ، حتى لاينصرف عن هذا الضلال ، الذى هو غارق فيه .. كما يقول سبحانه : « أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين » هو تكريم لهم ، وإحسانٌ منا إليهم ؟ كلا .. ولكن « نسارع لهم فى الخيرات » (٥٥ — ٥٦ : المؤمنون) .

—وفى قوله تعالى : « من كان فى الضلالة » إشارة إلى أنه مستغرق فيها ، وأن الضلالة ظرف قد احتواه ، واشتمل عليه ، فلا مخرج له منه . .

وفى فعل الأمر : « فليمدد له الرحمنُ مدًّا » إشعار بأن هذا قضاء قضاه الله سبحانه وتعالى فى أهل الضلال ، وأوجبه جل شأنه على نفسه ، كما أوجب رحمته لمن سبقت لهم من الله الحُسنى .. فكأن ذلك أمر تقتضيه حكمة الله من الله . . !

وفى إسناد فعل الأمر إلى « الرحمن » إشارة أخرى إلى أن هذا المدّ من الله سبحانه وتعالى للمشركين إنما هو ـ مع مافيه من خذلانٍ لهم ـ محفوف بالرحمة ، إذ لوشاء الله سبحانه ، لأخذهم بذنوبهم ، ولعجّل الله العذاب فى الدنيا ، ولما أمهلهم تلك الفسحة من العمر ، ليكون لهم فيها نظر إلى أنفسهم ، وعودة إلى الله . .

* « حتّى إذا رأوْا مايُوعَدُونَ إما الْعَذَابَ وإمّا السّاعة فسيعلمون مَن هو شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً » ..

حتى حرف غاية إلى هذا المد الذى يمده اللهُ للمشركين ، وأنه منتهٍ بهم إلى أمرين :

إما العذاب فى الدنيا ، بمهلكة يصبّها الله سبحانه عليهم ، ويأخذهم بها ، أو بالهزيمة والخزى على أيدى المؤمنين ، فيما سيكون بينهم وبين المسلمين من قتال ، كما يقول سبحانه : « قل هل تربصون بنآ إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » (٥٢ : التوبة) .

وإما عذاب الآخرة .. فإنهم إن أفلتوا فى الدنيا من هذا العذاب أو ذاك ، فإنهم لن يفُلتوا من عذاب الآخرة الذى ينتظرهم ، كما يقول سبحانه :

« أم يقولون نحن جميعٌ منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدُّبُر * بل الساعةُ موعدهم والساعة أدهى وأمرُّ * إن المجرمين فى ضلالٍ وسعر * يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر » (٤٤ ـ ٤٨ : القمر) .

وعندئذ ، سيعلم هؤلاء الضالون : « من هو شر مكاناً وأضعف جنداً » وسيرون أىّ الفريقين « خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ »

قوله تعالى :

* « ويزيد اللهُ الذين اهتدوْا هدى والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ مردًّا » .

هو بيان لِما يلقى المؤمنون المهتدون من إحسان الله سبحانه إليهم ، وألطافه بهم .. إنه سيمدهم فى الدنيا بالهدَى ، ويزيدهم فلاَحاً إلى فـلاحٍ ، وإيماناً مع إيمان ، على حين يخذل الله سبحانه المشركين ، ويمدّ لهم فى الغى والضلال ..

— وفى قوله تعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربِّك ثواباً وخير مردًّا » تعقيب على ما للأعمال الصالحة من آثار طيبة ، تثمر لأهلها ثمراً طيباً .. إنهم غرسوا فى مغارس الخير ، وقد بارك الله عليهم فيما غرسوا ، وحرسه لهم من الآفات والمهلكات ، وهاهم أولاء وقد نضج الزرع ، وطاب الثمر . !

والمردّ : المرجع ، والمآل ، والعاقبة ..

الآيات : (٧٧ — ٨٧)

* « أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » (٨٧)

التفسير :

قوله تعالى :

* « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً » ..

الاستفهام هنا للتعجب ، والمخاطب هو النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم هو خطاب لكل من هو أهل للخطاب ..

والتعجب ، والعجب ، هو من أمر هذا الذى كفر بآيات الله ، ولم يؤمن بأن لهذا الوجود إلهاً خالقاً ، وربّا قائماً على ماخلق ـ ومع هذا الإنكار لله من هذا الكافر الجهول ، يُقسم بأنه سيؤتَى فى الآخرة ـ إن كانت هناك آخرة ـ سيؤتى مالا وولداً ، كما أوتى فى هذه الدنيا ، الكثير من المال والولد !

هكذا يذهب الشيطان بأوليائه ، تلك المذاهب البعيدة فى الضلال ، ويقيم لهم حججاً من الوهم والخيال ، فهم كافرون بالله ، إذا لم تكن هناك آخرة .. وإذن لاخسران عليهم من هذا الكفر .. وهم مؤمنون بالله إن كانت هناك آخرة ، وإذن فلن يفوتهم حظهم الكبير إن كان للناس هناك حظوظ من مال وبنين ! ! « كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون » (١٢ : يونس) .

قيل إن هذه الآية نزلت فى بعض مشركى قريش ، ولم يتفق المفسرون على واحد بعينه ، قيل فيه هذا القول ..

وهذه الروايات المتعارضة المتضاربة فى أسباب النزول ، تدعونا إلى أن نسقط هذه الآراء جميعها ، ولا نأخذ بواحدٍ منها ، إذ أن ذلك يعد ترجيحاً بلا مُرجّح !

والذى نطمئن إليه ، هو أن الآية تشير إلى الرجل صاحب الجنتين ، الذى جاء ذكره فى سورة الكهف ، فى قوله تعالى : « ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربّى لأجدنّ خيراً منها منقلباً » .. (٣٦ : الكهف) .

فالآية إلفات إلى قصة هذا الرجل ، وقد سمعها المشركون من قبل ، فيما كان يتلوه النبىّ عليهم من آيات ربّه .. وهذا يعنى أن سورة مريم ، قد نزلت متأخرة عن سورة الكهف .

قوله تعالى :

* « أطّلَع الغيبَ أم اتخذ عند الرحمٰن عهداً » .

هو استفهام إنكارى ، يُنكر فيه على هذا المتألّى على الله .. الكافر به ، هذا الادعاء الذى يدعيه ، وأنه سيؤتى يوم القيامة مالا وولداً .. مثل ما أُوتى فى الدنيا المال والولد .. فهل اطّلع الغيب ، وقرأ ماسطر له فى علم الله ؟ أم أنه اتخذ عند الله عهداً بذلك ؟ . . إنه لاهذا ولا ذاك ، فكيف صحّت عنده هذه الدعوى ، وعلى أى أساس أقامها ؟ إنه لاشىء إلاّ الوهم الذى يُمليه الضلال ، ويزين وجهه الهوى « أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً » (٨ : فاطر) .

قوله تعالى :

* « كلاَّ .. سَنَكْتُبُ مايقول ونَمد له من العذابِ مدًّا * ونرثه مايقولُ ويأتينا فردًا » ..

كلا ، كلمة ردع ، وزجر ، وتكذيب لهذا الادعاء الفاسد .. ونفى مؤكَّد لهذا الافتراء .. فلن يُؤتَى هذا الشقى مالا ولاولداً ، وإنما سيكتب عليه قوله هذا مع ما يكتب من أقواله وأفعاله المنكرة ، ثم يكون حَصَادُ هذا كلِّه لامالا ولا ولداً ، وإنما هو المزيد من العذاب ، والمضاعفة من البلاء ..

أما مافى يديه من مال وولد ، فى هذه الدنيا ، فسيخرج من يديه ، ويصبح ميراثاً لغيره لايمسك بيده شيئاً منه يوم القيامة ، بل يأتى فرداً ، عارياً ، حافياً ، كما ولد من بطن أمه .. عارياً حافياً !

قوله تعالى :

* « واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزًّا » :

الضمير فى « واتخذوا » يعود إلى المشركين الذين ذُكروا من قبل فى قوله تعالى : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خيرٌ مَقَامًا وأَحْسَنُ نديًّا » ..

فهؤلاء المشركون ، قد اتخذوا من مستولدات أوهامهم وضلالاتهم ، آلهة يعبدونهم من دون الله ، ويرجون عندهم الخير ، ويلتمسون منهم العون ، والقوة ، والتمكين فى الأرض ..

قوله تعالى .

* « كلاَّ .. سَيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا » ..

أى ولكن هؤلاء الآلهة التى هى صنعة أولئك المشركين ، سينكرونهم يوم القيامة ، وينكرون صلتهم بهم ، بل ويكونون شهادة قائمة عليهم بما يفضحهم ، ويملأ قلوبهم حسرةً وندماً ..!

قوله تعالى :

* « ألم تَرَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزًّا * فلا تعجل عليهم إنما نَعُدّ لهم عداً » ..

الاستفهام هنا للأمر .. وتقديره انظر كيف أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين .. تؤزهم أزًّا .. أى تغريهم إغراء ، وتدفعهم إلى الضلال دَفعاً ..

فالمشركون ـ والحال كذلك ـ مدفوعون دفعاً إلى هاوية مهلكة ، لا فكاك لهم منها .. إن هناك قوًى خفية تدفع بهم إلى الشر ، وتغريهم به ، وتوردهم موارده ..

وإذن ، فلا تعجل عليهم ، واصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم ، وسترى قضاء الله فيهم .. فإنهم مأخوذون بذنوبهم ، التى تزداد كل يوم يمضى من حياتهم فى هذه الدنيا .. وهذه الذنوب محصاة عليهم ، معدودة فيما يُمدّ لهم من سيئات وآثام .. فكلما طالت أيامهم فى هذه الدنيا ، كثرت أحمالهم من الذنوب ، وضوعف لهم العذاب .

قوله تعالى :

* « يوم نحشرُ المتقين إلى الرحمٰن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » .

« يوم » ظرف ، متعلق بمحذوف دلّ عليه قوله تعالى : « إنما نعد لهم عداً » فهذا العدّ الذى يُحصى على المشركين أفعالهم المنكرة ، يلزم منه الجزاء

والعذاب .. والتقدير إنما نعدّ لهم عدًّا، فنأخذهم بما كسبوا، يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ..

وحشر المتقين إلى الرحمن، جَمْعهم إلى ساحة فَضْله وإحسانه، فى هيئة وفدٍ كريم، يَفِد إلى جنابٍ كريم، حيث ينزل منازل الإكرام والإعزاز ..

وسوق المجرمين إلى جهنم ورداً، هو دفعهم إليها، وسوقهم نحوها، كما تساق الأنعام .. فهم أشبه بقطيع من الماشية يساق إلى المذبح، ولا يدرى ماذا يراد به هناك!

وفى التعبير عن المشركين بالمجرمين، وصف لهم بالصفة البارزة فيهم، والتى هى لازمة من لوازم الشرك .. فالمشرك مجرم آثم ..

ومعنى «ورداً» واردين، جمع وارد، والوارد، من يرد الماء ليشرب ويرتوى من ظمأ .. وهؤلاء إنما يردون عِطاشاً ليرتووا .. ولكن لايجدون هناك إلا حميماً وغسّاقا، كما يقول سبحانه: «ثم إنكم أيُّها الضّالون المكذّبون * لآكلون من شَجَرٍ من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربونَ عليه من الحميم * فشاربون شُربَ الهِيم * هذا نُزُلهم يوم الدِّين» (٥١ ـ ٥٦ الواقعة)

قوله تعالى:

* «لايملكون الشفَاعة إلاَّ من اتخَذَ عند الرحمٰن عَهْداً».

أى إن هؤلاء المجرمين المساقين إلى جهنّم، الواردين حياضها على ظمأ يحرق أكبادهم ـ لايملكون مايشفع لهم عند الله، ويَعدِلُ بهم عن هذا المورد الوبيل الواردين عليه .. لكن من اتخذَ عند الرحمن عهداً، وأمضَى هذا العهد ووفَى به، فإن له شفاعةً عند الله .. فى نفسه، وفى غيره أيضًا ..

ومن هذا العهد مايشير إليه قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفُسهم

وأموالهم بأن لهم الجنّة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن .. ومن أوفَى بِعَهْدِه من الله » (١١١ : التوبة) فهذا عهد عاهد الله عليه المجاهدين فى سبيله ، وقد اتخذ المجاهدون هذا العهد من الله ، ووفوْا به ، فكان شفاعة لهم عند الله من عذاب جهنم ..

والإيمان بالله ، وبشريعة الله ، هو عهد بين المؤمن وربّه ، فإذا وَفَى بما عاهد اللهَ عليه ، أنجز الله له ماوعده من رضوانه ، وفى هذا يقول الله تعالى : « ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » (٦٠ ـ ٦١ : يس) ..

الآيات : (٨٨ — ٩٨)

* « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » (٩٨)

التفسير :

الإدّ : الأمر المنكر ، الذى يُثقل كاهل صاحبه ، ويقصم ظهره ..

يتفطّرن : يتشققن ، خوفاً وإشفاقاً من هذا البهتان العظيم ..

قوماً لُدًّا : أى ذوى لَدَدٍ وشدّة فى الخصومة ، ولجاجة فى الجدل ..

الركز : الصوت الخفيض ..

وقوله تعالى :

* « وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السمواتُ يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرّ الجبال هدًّا » .

هو عرض لمقولة من مقولات الضالين ، وهم تلك الطوائف من اليهود والنصارى ، الذين نسبوا إلى الله الولد ، فقالت اليهود : عزيرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ..

وفى الإخبار بقولهم هذا ، تهديدٌ لهم ، ووعيد شديد ، بما سيلقوْن من وراء هذا الافتراء ، الذى فزعت له السموات والأرض ، حتى لقد اضطرب كيانهما ، فكادت السموات تنشقق ، وكادت الأرض تتصدع وتنخسف ، وكادت الجبال تنهدُّ وتتهاوى ..

فمن يمسك على هذه الموجودات وجودَها ، ومن يحفظ عليها نظامَها ، إذا كان لله ولد ؟ إن إلهاً يتخذ ولداً لأعجز من أن يقوم على أمر نفسه ، فضلا عن أن يدبّر وجود غيره ويحفظه ..

— وقوله تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدًّا » هو ردٌّ على تلك المقولة المنكرة .. قد نطق به الوجود كلّه ، الذى يرى آثار الله فيه ، وتدبيره له — نطق به منكِراً هذا القول المنكر .. الذى جاء به الضالون ، من واردات الإفك والزور .

قوله تعالى :

* « أن دعَوْا للرحمٰن ولداً * وما ينبغى للرحمٰن أن يتخذ ولداً * إن كلُّ من فى السموات والأرضِ إلا آتِى الرحمٰنِ عبداً » .

هو بيان ، وتفسير للضمير فى قوله تعالى : « منه » أى تكاد السموات يتفطرن ، والأرض تنشق ، والجبال تنهدّ ، من أن يَنْسُبَ هؤلاء الضالّون ولداً إلى الله .. إذ مايصحّ ، ولايجوز أن يتخذ الرحمن ولداً .. فما يُتَّخَذ الولد ، إلاّ ليَسُدَّ حاجةً فى نفس والديه . . والله سبحانه وتعالى فى غنًى مطلق عن أن يحتاج إلى شىء ، فكل مافى السمواتِ والأرضِ مِلكُ لله ، خاضع لمشيئته ، كلهم عبد ، وعابدٌ له ..

* وقوله تعالى :

* « لقد أحْصَاهم وعدَّهم عدًّا * وكلُّهم آتيه يَوْمَ القيامة فرداً » .

هو بيان لقدرة الله تعالى ، وسلطانه على هذا الوجود ، وأن كلّ موجود فيه ـ صغر أم كبر ـ هو بيد القدرة الممسكة به ، العالمة بكل مافى ظاهره وباطنه .. وكل إنسان سيأتى يوم القيامة فرداً ، لايصحبه أهل ، ولا ولد ، ولا مال ، ولا متاع . . فهؤلاء الضالّون مُحْصَوْن فى علم الله ، معروفون بذواتهم وأعمالهم ، ومعدود عليهم كل نفس يتنفسونه ، فلا يقع فى ظنهم أنهم غائبون عن الله ، تائهون فى خضمّ هذا الوجود . . !

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل الله لهم الرحمن ودًّا » .

وأهل الفوز من الناس جميعاً ، هم أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فهؤلاء ، حين يأتى الناس يوم القيامة ، ولا شىء معهم ـ سيأتون هم ومعهم صالح أعمالهم ، التى تقربهم إلى الله ، وتدنيهم من رحمته ، وتنزلهم منازل مودّته وألطافه ..

قوله تعالى :

* « فإنما يسّرْناه بلسانك لتبشر به المتقين وتُنذر به قوماً لُدًّا » .

الضمير فى يَسّرْناه ، يعود إلى القرآن الكريم ، الذى لم يجر لهم ذكر فى هذا العرض الذى جاءت به الآيات السابقة .. وفى هذا تنويه بفضل القرآن ، وأنه هو المذكور فى هذا الموقف ، والملجأ الذى يلجأ إليه الناس ، ويجدون فيه الهدى ، والنجاة من أهوال يوم القيامة .

فهذا القرآن ليس مما يخفى أمره على من يريد الهدى ، ويلتمس النجاة .. إنه لا هدى إلا منه ، ولا نجاة إلا بالتعلق به .. وإنه ممهد السبل ، واضح المناهج ، قريب التناول .. إنه يخاطب القوم بلسانهم الذى يتخاطبون به ، فلا غموض فيه ولا إبهام .. إنه ليس سجعاً كسجع الكهان ، ولا تمتمة كتمتمة السحرة .. ولكنه بلسان عربى مبين .. وهذا الأسلوب الذى جاء عليه القرآن بلسان النبىّ ، ولسان قومه ، إنما ليكون حجة قائمة على الناس .. يدعوهم إلى الله ، وإلى الإيمان به ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .. فمن آمن ، وعمل صالحاً ، فيا بشراه بما يلقى من نعيم الجنات ورضوان الرحمن .. ومن أبى ، وأعرض .. فيا لخسرانه ، ويا لحسرته .. يوم لا ينفع مال ولا بنون ..!

—وفى قوله تعالى : « وتنذر به قوماً لُدًّا » إشارة كاشفة إلى تلك الآفة التى حجزت المشركين عن الاهتداء بهذا الهدى ، والاستضاءة بذلك النور .. وإن آفتهم لهى هذا اللجج فى الخصومة والجدل ، كما يقول سبحانه فيهم : « بل هم قومٌ خَصِمون » (٥٨ : الزخرف) .

قوله تعالى :

« وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ . . هل تُحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً » . .

هو تهديد لهؤلاء المشركين ، وأنهم إذا أمسكوا على ما هم عليه من عناد وضلال ، فإنهم سيخرجون من هذه الدنيا بأخسر صفقة . .

فما هى إلا أيام يعيشونها فى هذه الدنيا ، ثم يطويهم التراب ، كما طوى أمماً وقروناً كثيرةً من قبلهم ، فأصبحوا تراباً هامدين ، لا يُذكر لهم أثر ، ولا يُسمع لهم نبأ ! . .

* * *

٢٠ - سورة طه

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « مريم » .

عدد آياتها : مائة وخمس وثلاثون آية .

عدد كلماتها : ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف ومئتان واثنان وأربعون حرفا .

مناسبتها للسورة التي قبلها

خُتمت سورة مريم بقوله تعالى : « فإنما يَسَّرْنَاهُ بلسانك لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وكَمْ أَهْلَكنا قبلهم من قرن هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُم رِكْزًا » .

وبدئت سورة طه بقوله : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٓ * إلا تَذْكِرَةً لمن يخشى » .

والختام ، والبدء ، على سواء في تذكير النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه ليس مسئولًا عن هداية الناس ، وحملهم حملًا على الإيمان بالله . . وإنما دعوته هي تبليغ رسالة ربّه . . والرسالة - كما يحملها القرآن الكريم - واضحة بيّنة ، لا تحتاج إلى جَهْدٍ يُبذل وراءها ، ليكشف عن مضامينها . . إنها لا تحتاج - لكي يجنى الناس ثمراتها - إلا إلى آذان تسمع ، وعقولٍ تعقل ، وقلوبٍ تعي « فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها » (٤١ : الزمر) « وقل الحَقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » (٢٩ : الكهف)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

* « طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (٤) ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ (٥) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » (٨)

التفسير :

* قوله تعالى :

« طه » . .

قيل : إن طه ، منادى ، ومعناه : يا رجُلُ . . وقيل : إن « طه » بمعنى رجل هو فى اللغة النّبطية ، وقيل فى السُّريانية . . وقيل فى لغة بعض القبائل العربية ، واستدلّ القائلون بهذا ، بأشعار أوردوها . .

والرأى عندنا ، أن « طه » حرفان ، هى : الطاء والهاء ، وقد بدئت السورة بهما ، على ما بدئت به بعض السّور . . مثل : حمٓ ، ويسٓ . .

ولعل أقرب مفهوم لهذين الحرفين هنا ، هو أنهما من السهولة ، والوضوح ، بحيث لايخفى أمرهما على ناطق باللسان العربى . . وهكذا شأن القرآن الكريم ، فى آياته وسوره ، وفيما حَمَل إلى الناس من أحكام ، وشرائع ، ومواعظ . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى آخر سورة مريم : « فإنما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ » . .

فهو ميسّر للذكر والفهم ، كتيسير طاء وهاء ، فى وضوحهما ويسرهما ، نطقاً ، ومدلولاً . .

قوله تعالى :

* « مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » .

فى هذه الآية الكريمة نفحة من نفحات السّماء ، ورَوْحٌ من رحمة الرّحمٰنِ ، يتلقاها النبىّ الكريم ، من ربّه ، وهو فى هذا المعترك الصاخب بينه وبين قومه ، الذين لج بهم العناد ، وأعماهم الضلال ، فركبوا رءوسهم ، وأبوا إلا خلافاً عليه ، وسخرية به ، وإيذاءً له . . وهو البارُّ بهم ، الحدِب عليهم ، الحريص على هدايتهم ، واستنقاذهم من الضلال والهلاك . .

وليس يدرك ما كان يجد النبىّ من خلاف قومه عليه ، من أسًى وحسرة ، إلا من يستمع إلى قوله تعالى فى وصف الله سبحانه للرسول بقوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم » (١٢٨ : التوبة) .

وليس يتصور مدى ما كان يحمل النبىّ من آلام ، وما يكابد من مشقات ، وهو يدور حول هؤلاء السفهاء من قومه ، ليجد منفذاً ينفذ منه إلى مواقع الهدى منهم ومواطن الاستجابة فيهم — ليس يتصور هذا ، إلا من يستمع إلى قوله تعالى ، ناصحاً لنبيه داعياً إياه إلى الرفق بنفسه ، والمصالحة مع كيانه ، الذى كاد يتمزق ألماً وضيقاً وحسرة عليهم . .

إذ يقول سبحانه وتعالى له : « فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات » (٨ : فاطر) ويقول جل شأنه : « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » (١٣٧ : النحل) ويقول جل من قائل : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (٦ : الكهف) ويقول سبحانه :

« أفأنت تُكره النـــاس حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) .·.

هكذا كان يعيش النبيّ مع قومه ، فى عطفه ورحمته ، وهم فى غلظتهم وسفاهتهم .. وهكذا كانت تنزل عليه آيات ربه ، تدعوه إلى الترفق بنفسه ، والتخفف من حرصه .. وهو — صلوات الله وسلامه عليه — بما ملأ الله به قلبه من رحمة ، لايكاد يمسك من نفسه هذا التيار المتدفق من الرحمة والحنان ، حتى تغلبه رحمته ، وإذا هو على هذا الطريق المسدود .. يهتف ولا مجيب ، وينادى ولا مستمع !

— وفى قوله تعالى: «ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى» أكثر من نصح للنبىّ ، إلى الرفق بنفسه .. بل إنه شىء أقرب إلى العتاب واللوم .. ولكنه عتابٌ فى مقام الفضل والإحسان ، ولوم فى موطن المبالغة فى الفضل والإحسان ، شبيه بقوله تعالى : « يأيها النبىّ لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » (١ : التحريم) ..

فالقرآن الكريم هو رحمة الله المنزلة على عباده .. فكيف يشقى به النبىّ ، ويحمل منه هذا العبء الثقيل الذى تنوء به الجبال ؟ كيف هذا ، وهو الذى من حقّه أن يأخذ من هذه الرحمة النصيبَ الأوفى ، والحظ الأعظم ؟

إن الله سبحانه وتعالى ، ما أنزل عليه القرآن الكريم ، ولا اختصه به ، إلا ليسكب به فى قلبه السكينة والمسرة ، وإلا ليملأ به كيانه روحاً ، وأنساً ..!

فكيف يشقى به ، ويحمل منه هذا العناء الشديد ؟

— « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » فرفقاً بنفسك ، ودع هؤلاء الغواة الضالين وشأنهم ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك ..

قوله تعالى :

* « إلا تذكرة لمن يخشى » ..

تذكرة مفعول لأجله ، للفعل فى قوله تعالى : « ما أنزلنا عليك القرآن » أى ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى ، لا لتشقى به وتحمل نفسك هذا العناء الشديد المتصل ، الذى أنت فيه .

فمن كان عنده استعداد لقبول الهدى ، فإنه لأول لقاء له مع القرآن الكريم ، جدير به أن يؤمن ، ويستجيب لله وللرسول .. وأما من كان ممن ختم الله على قلبه ، وجعل على سمعه وبصره غشاوة ، فإنه لن يهتدى أبداً ، ولو قضيت العمر كله ، تأتيه من كل جانب . وتلقاه بكل سبيل ..

واختصاص أهل الخشية بالتذكرة والانتفاع بالقرآن ، لأنهم هم الذين ينظرون إلى عواقب الأمور ، ولا يعيشون ليومهم كما يعيش أهل السفاهة والضلال .. فإن من خشى العواقب استعمل عقله ، وقلّب وجوه الأمور التى تعرض له ..، فاستبان له وجه الحق منها .

قوله تعالى :

* « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العُلَى » .

تنزيلا مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره تنزل ، أى تنزل هذا القرآن الذى أنزله الله عليك تنزيلا ممن خلق الأرض والسموٰات العلى ..

والمراد بالتنزيل أنه نزل منجما ، مفرقاً ، لا دفعة واحدة .. وهذا من أمارات الرفق بالنبىّ الكريم ، كما يقول سبحانه : « كذلك لنثبت به فؤادك » .

قوله تعالى :

* « الرّحمن على العرش استوى » ..

هو بيان لقدرة الله تعالى ، وبسطة سلطانه على هذا الوجود الذى أوجده ..

فهو سبحانه قد استوى على عرش هذا الوجود ، وانفرد بمقام الملك والحكم فيه ، لا ينازعه أحد ، ولا يشاركه شريك من صاحبة أو ولد ! ..

وقد كثر القول بين أصحاب المقولات ، من فرق المعتزلة ، والقدرية ، والمجسّدة ، وغيرهم — كثر القول والخلاف فى تأويل العرش ، والاستواء على العرش .. وخير ما قيل فى هذا المقام قول الإمام مالك وقد سئل عن تأويل الآية ، فقال للسائل : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .. وما أراك إلا مبتدعا » .. فمن ذا الذى يعلم العرش ؟ ثم من ذا الذى يعرف ذات ربّ العرش ؟ وإن كان ذلك فوق العقل ، فكيف يُعرف شأن ذات لا سبيل إلى أن تعرف ؟ .

قوله تعالى :

* « له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى »

هو بيان ، لقدرة الله ، وسعة سلطانه ، ونفوذ أمره إلى كل موجود فى هذا الوجود ، عُلوه وسفله . . وهذا لا يكون إلا لمن ملك هذا الوجود مُلكَ قُدْرة وحكمة وعلم ، بحيث يقوم الوجود كله على ميزان مستقيم ، لا يهتزّ أية هزّة ، وإلا لما كان لهذا المالك أن يستوى على العرش ، وأن يستقرّ عليه ، وأن يدوم له استقرار ا .

قوله تعالى :

* « وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى » .

ومن دلائل ما لله سبحانه وتعالى من علم ، أنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تنطوى عليه الصدور ، وما تتلبس به المشاعر .

والمعنى : إن تجهر بالقول ، سَمِعَكَ السميعُ العليم ، وإن تُسِرّ به ،

أو تطوه فى صدرك ، فإنه يسمعه ويعلمه . . « فإنه يعلم السِّرَّ وأخفى » أى وما هو أخفى من السرّ ، وهو حديث القلب وهجسات الخاطر . . وذلك هو الله الذى لا إلٰهَ إلاّ هو . . « له الأسماء الحسنى » أى له من الأسماء كل ماهو كال كله ، وحسن جميعُه . . « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحْمٰن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » . . فأى اسم يُفرِدُ اللهَ بالـكمال والجلال ، ويخصّه بالربوبية والألوهية ، فهو من أسمائه ، التى يُدْعى بها ، ويُتعبّد له بذكرها .

الآيات : (٩ — ١٦)

* « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ » (١٦)

التفسير :

فى هذه الآيات ، والآيات التى ستأتى بعدها ، ذِكْر لقصة موسى عليه السلام . .

والذى ذُكِر من قصة موسى هُنَا ، يمثّل مقطعاً كبيراً من حياته . . وذلك من بدء اختياره للرسالة ، ولقائه فرعون ، وما كان بينه وبين السحرة ، ثم خروجه مع بنى إسرائيل ، وغرق فرعون . . ثم ما وقع لبنى إسرائيل من

فتنتهم وعبادتهم العجل ، وما جرى بين موسى وأخيه هرون ، ثم ما جرى بين موسى والسامرىّ الذى صنع العجل ، ودعا القوم إلى عبادته .

أما ذكر ميلاد موسى ، وإلقائه فى اليم ، وعودته إلى أمه . . فقد جاء فى أثناء القصة ، تذكيراً لموسى بنعمة الله عليه ، ورعايته له ، تلك الرعاية التى نجا بها من فرعون حين أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه فى اليم ، فساقه اليمّ إلى يد فرعون ، الذى كان يطلب قتله ! ! فحفظه وربّاه ، واتخذه ولداً ! .

ومناسبة قصة موسى وفرعون لهذا البدء الذى بُدئت به هذه السورة ، هو تذكير للنبىّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بما تنطوى عليه قلوب الظالمين من ظلم ، وما تتلبّس بهم عقولهم من ظلام وضلال ، وأنهم فى وجه الآيات المشرقة عُمْىٌ لا يبصرون ، وفى مواجهة الحق السافر يشهرون أسلحة الجدل والعناد ، ويصطنعون مع الحق معركة ، يُلقون فيها بكل مالديهم من سفاهة ، وسخرية واستهزاء . .

فموقف موسى من فرعون ، هو نفس الموقف الذى يقفه النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ــ من هؤلاء الفراعين ، من سادة قريش ، وقادة الكفر والضلال فيهم .

وفى هذا جذب للنبىّ من دائرة الضيق والأسى ، التى هو فيها ، حُزْناً على قومه ، وحسرةً على أنه لم يستطع أن يَطِبَّ لدائهم ويشفى العلل المتمكنة منهم . . إنهم ليسوا أحسنَ حالاً من فرعون ، الذى لم يستطع موسى بآياته المحسوسة ، أن يشفى داءه ، ويذهب بعلته . . فليمتْ هؤلاء الفراعين بدائهم ، كما مات فرعون بدائه . . ولن يَنْدبهم أحد ، ولن يأسَى على مصابهم قريب أو حبيب .

راحوا فما بكت الدنيا لمصْرَعهم ... ولا تعطّلت الأعيــــادُ والجُمَع

وتبدأ القصّـة بهذا الاستفهام ، الذى يثير أشواق النفس إلى الاستماع للجواب عن هذا السؤال المثير :

* « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنّى آنَسْتُ ناراً » أى لمحتها ، وفى التعبير عن رؤية النار بالفعل « آنست » الذى يدلّ على الأنس بها ، والبشاشة بوجودها ، ما يشير إلى أن موسى كان فى وحشة ليل بَهيم ، فى هذه الصحراء التى لا أحد فيها .. فهو فى وحشة الليل ، ووحشة الوحدة . . فلما رأى النار ، وجد شيئاً من الأنس والطمأنينة ، لأن النار لا بد أن يكون عندها مَن أوقدها . . وكان موسى قادما من مدين إلى مصر ومعه زوجه بنت شعيب عليه السلام .

* « لعلّى آتيكم منها بقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّـارِ هُدًى » . . فهو إذ يتجه إلى حيث تشتعل النار ، إنما يرجو أن يأتى منها « بقبس » أى شىء من الحطب المتّقد ، أو يجد عند النار من يَدُلّه على الوجهة التى تتجه به إلى مصر . .

وفى قوله : « على النار » بدلاً من « عند النار » إشارة إلى أن الوقت كان بردا ، وأن من يُوقد النار إنما كان يوقدها ليستدفىء بها ويعلوها . .

* « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى * إنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » .

وما كاد موسى يبلغ النار ، حتى نُودِىَ من قِبَلِ الحقّ جلّ وعلا : « ياموسى إنى أنا رَبُّكَ . . فاخْلَعْ نعليك » تأدبا ، لأنك فى مقام تخاطب فيه ربّك ويخاطبك . . « إنك بالواد المقدس طوى » أى بالوادى المبارك ، المطهّر ، الذى باركه الله وطهّره بمناجاتك فيه ..

وطوى : هو اسم البقعة من هذا الوادى ، أو هو نفس الوادى .

— « وأنا اخترتك » واصطفيتك لرسالتى . . فأنت منذ الآن رسول من رسلى . . « فاستمع لما يوحى » إليك منى . .

* « إننى أنا الله ، لا إلهَ إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » .

فهذا أول ما يستقبل الرسول من أمر ربّه . . أن يعرف ربّه ، ويعرف صفاتِه ، ثم يعبده كما أمره . . « إننى أنا الله » فاعرف من يخاطبك . . « إننى أنا الله . . لا إلهَ إلاّ أنا » ليس هناك إله غيرى . . وإذ تقرر ذلك ، وعرفته وآمنت به « فاعبدنى » أى كن عبداً لى ، وعابداً . . « وأقم الصلاة لذكرى » . . أى اجعل الصلاة هى العبادة التى تذكرنى بها . . وخُصَّت الصلاة بالذكر من بينِ العبادات ، لأنها هى المناجاة التى يناجى بها العبد ربّه ، ويكشف فيها عن ولائه ، وما ينطوى عليه قلبه من تعظيم لله ، وولاء له ، وانقياد وخضوع لجلاله وعظمته . .

* « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزَى كل نفسٍ بما تَسْعى » .

وممّا ينبغى أن يؤمن به الرسول قبل أن يبدأ رسالته ، أن يؤمن بالآخرة ، كما آمن بالله ، وأن يستيقن أنها آتية لا ريب فيها . .

— وفى قوله تعالى : « أكادُ أُخفيها » إشارة إلى أن الساعة غيب من غيوب الله ، وأنها محجبة وراء سُتر الغيب ، وأن الذى يؤمن بها إنما يؤمن إيمانَ غيب ، لا إيمان شهادة ومعاينة . . ومع هذا ، فإنّ هناك من الأمارات ، والدلائل ، ما يجدها العقل بين يديه ، ليستدلّ منها على أن الحياة الدنيا ليست هى مبدأ الإنسان ، ونهايته ، وأنه لابد أن يكون وراء هذه الحياة حياةٌ أرحبُ وأوسع ، لُتجزَى فيها كلّ نفسٍ بما عملت فى هذه الدنيا . . وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « أكاد أخفيها » ولم يجىء النظم القرآنى « أخفيتها » فهذا التعبير القرآنى يحمل فى طياته إشارة مضيئة إلى أن الإنسان مطالب ــ بما أودع الله

سبحانه وتعالى فى كيانه من قوّى عاقلة مدركة ـ بأن يتجنب الشر ، ويتجه إلى الخير ، وأن يتنكب طرق الضلال ، ويأخذ طريق الهدى ، وبذلك يكون مهيئاً تِلقائيًّا للقاء الآخرة ، وللفوز برضوان الله فيها . . أما من زهد فى عقله ، وتنكر لفطرته ، فركب طريق الغواية والضلال ، فإن ما يلقاه فى الآخرة من عذاب وبلاء ، هو الجزاء العادل الذى يستحقه .

وهذا يعنى أنه إذا لم تـكن هناك آخرة ، أو حساب وجزاء ـ فإنه كان جديراً بالإنسان أن يحاسِب نفسه ، ويقيمها على ما هو أكرم لإنسانيته ، وأحفظ لقدرها وكرامتها . .

— وقوله تعالى « أكاد أخفيها » أى أكاد ألاّ أنبىء أحداً عنها ، وألا يقع فى حساب الناس أنها آتية ، حتى يعمل كل بما فى طبيعته ، وحتى يُجزى كل بما هو أهل له ، إذا جاء يوم الحساب ، على غير حساب أو انتظار من الناس .

ولـكن رحمة الله بعباده ، قد شملتهم ، فأُنذروا بهذا اليوم قبل أن يقع ، وحُذّروا بما فيه من نـكال وبلاء للضالين والمنحرفين ، ووعدوا بما فيه من خير ونعيم ورضوان ، للمؤمنين المتقين . .

* « فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى »

وفى هذا إشارة إلى بنى إسرائيل ، وتعريض بإيمانهم بالآخرة ، إذ كان إيمانهم بها إيماناً غير مستيقن . . وإنما هو متلبس بالشكّ ، والظنون . . ذلك أنهم لا يؤمنون إلاّ بما هو مادىّ ، يَجُبَهُ حواسّهم ،وفى هذا يقول الله عنهم : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرةً » (٥٥ : البقرة) يقولون هذا عن الله وآيات الله تنزل عليهم من السّماء ، يرونها رأى العين ، ويعيشون فيها ، فـكيف بيوم القيامة وليس فى أيديهم شىء منه ؟

الآيات : (١٧ — ٢٤)

* « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ » (٢٤)

التفسير :

فى هذه المرحلة من رسالة موسى ، يبدأ الاستعداد للمرحلة الثانية ، التى هى رسالته إلى قومه بنى إسرائيل ، وذلك بعد أن يخلصهم من يد فرعون .

ولكن قبل أن تبدأ هذه المرحلة ، وقبل أن يُدْعى موسى إلى لقاء فرعون ، تكون له وقفة بين يدى ربّه ، يهيئه فيها لهذا اللقاء المثير المخيف .

وها هو ذا موسى يستمع إلى نداء ربه ..

* « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » إن موسى يعرف ما بيمينه ، ولهذا قال على الفور :

* — « هى عصاى أتوكأ عليها .. وأهشّ بها على غنمى .. ولى فيها مآرب أخرى » ..

وهذا الوصف المستغرق لصفات العصا ، إنما هو لما وجد موسى من غرابة السؤال ، ووقعه على نفسه .. فليس بين يديه إلا عصا كسائر العصىّ .. يتوكأ عليها ، ويهشّ بها على غنمه ، ويردّ بها كل عادٍ عليه ، أو يعاق عليها أدواته ..

أو نحو هذا مما تستخدم له العصىّ فى يد من يحملونها ..

وكأنّ موسى قد استشعر من هذا السؤال أنه يحمل شيئاً منكراً ، لايليق بمن يخاطبه الله ، ويصطفيه لرسالته،أن يحمله .. ولهذا أعطى عصاه كل الأوصاف التى يحملها من أجلها ..

وفى هذا الوصف يتحقق موسى أن عصاه هذه ليست إلا عصاً من العصىّ التى يحملها الرعاة ، والتى يقتطعونها من أغصان الأشجار ..

وإذن فليعلم موسى من أمر هذه العصا ما لم يكن يقع له فى حُسبان ! .

* « قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى » ..

ولا شك أن موسى قد فزع واضطرب .. وقد فزع واضطرب فعلا ، وولّى مدبراً ولم يُعقب .. كما يقول سبحانه فى موضع آخر .. « فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولى مدبراً ولم يعقب » (٣١ : القصص) ..

ولهذا جاء قوله تعالى له :

* « قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ..

وهكذا أخذ موسى العصا ، فإذا هى على ما كان يعهدها عليه ..

* « واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء .. آية أخرى » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « خذها » أى خذ العصا ، « واضمم يدك إلى جناحك » .. ولهذا جاء الأمر هنا غير مسبوق بالقول !

ــوقوله تعالى : « آية أخرى» منصوب باسم فعل محذوف ، تقديره : إليك آية أخرى ، إلى تلك الآية الأولى ، آية العصا،التى عرفتها .. ويمكن أن يكون منصوباً على الحال من قوله تعالى : « تخرج بيضاء» حالة كونها آية أخرى ، إلى الآية السابقة ، وهى العصا ..

* « لنريك من آياتنا الكبرى » أى فعلنا ذلك لتشهد ما لنا من قدرة، وما بين أيدينا من آيات .. فهذه بعض آياتنا، وإن آياتنا كثيرة لا تنتهى، عظيمة لا تُحدُّ .. !

وإذا عرفتَ من بعض مظاهر قدرتنا ما قد عرفت، فلا يهولنّك أمرٌ وإن عظم، ما دمت مندوباً من قبلنا، داعياً باسمنا . .

* « اذهب إلى فرعون إنه طغى » .. ولا يخيفنك طغيانه، ولا يروعنّك سلطانه .. إنك — بتأييدنا لك — أشد منه قوة، وأعز سلطاناً ..

الآيات : (٢٥ — ٤١)

* « قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » (٤١)

التفسير :

ويتلقى موسى أمر ربه بلقاء فرعون .. ويقع اسم فرعون من نفسه موقعاً يثير الرعب والفزع .. إنه فرعون بجبروته ، وعتوه ! !

فيضرع إلى الله أن يُعينه على مواجهة هذا البلاء ، وأن يُذهب ما به من اضطراب وفزع !

* « قال ربّ اشرحْ لِي صدرى » حتى يتّسع لامتثال أمرك ، ويتقبله قبولاً حسناً ، فلا يضيق به ، ولا يجد حَرَجاً منه . .

* « ويسّرْ لى أمرى » . . فإن الموقف خطير ، والأمر عظيم . . فإذا لم يكن منك العوْن والتيسير ، فلا طاقة لى به ، ولا حيلة لى فيه . .

* « واحلُلْ عقدةً من لسانى يفقهوا قولى » أى امنحنى بياناً وقدرة على محاجّة فرعون ، وغلبته ، حتى يفقه هو والملأمن حوله ، قولى ، ويعقلوه ، وحتى لا تأخذهم العزّة بالإثم ، فلا يقبلوا قولاً ، ولا يتمهلوا حتى أبلغهم ما أُرسلت به إليهم ، وأسمعهم إياه ، بل يعاجلوننى بالردّ ، وربما بالعقاب قبل أن أبلّغ رسالة ربى .

* « واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى » . . أى واجعل لى معيناً يُعيننى على أداء رسالتى إلى فرعون ، وليكن هذا المعين هو هرون ، أخى ، فهو بحكم عاطفة الأخوة حريص على سلامتى ، يقف إلى جانبى فى ساعة العسرة ، ولا يتخلّى عنّ . .

والوزير ، هو المعين المساعد ، وهو من المؤازرة ، والمعاونة . .

* « اشدد بى أزرى * وأشركه فى أمرى » أى اجعله ردءاً لى ، يقوّى ظهرى . . واجعله شريكا لى فى هذا الأمر الذى ندبتنى له ، وأكرمتنى به . . فلا تخصنى وحدى بالكرامة دون أخى . .

* « كى نُسَبِّحكَ كثيراً * ونذكركَ كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً » أى بهذا الإحسان الذى تحسن به إلى هرون أخى كما أحسنت إلىّ ، تتضاعف نعمك علينا ، ويعظم إحسانك إلينا ، وبدلاً من أن يشكرك لسان واحد ، سيشكرك لسانان ، لسانى ، ولسان أخى . . فأنت أعلم بنا ، وبما تريده لنا من فضل وإحسان « إنك كنت بنا بصيراً » .

* « قال قَد أُوتيتَ سؤلَكَ يا مُوسَى » .. السُّؤل : ما يُسأل من خير .. وأوتى سُؤْلَه : أى أُجيب إلى ما طلبه من ربّه .

* « ولقد مَنَنّا عليكَ مَرّةً أخرى * إذ أوحينا إلى أمِّك ما يُوحى * أنِ اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمِّ فَلْيلقه اليمّ بالساحِل يأخذه عدو لى وعدوٌّ له وألقيت عليك محبّةً منى ولتُصنع على عينى * إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقرّ عينُها ولا تحزَن وقتلت نفساً فنجيناك من الغمِّ وفتناكَ فتونا . فلبثت سِنينَ فى أهل مَدْين ثم جئتَ على قَدَرٍ ياموسى * واصطنعتك لنفسى » .

فى هذه الآيات عرض ، للفترة الأولى من حياة موسى وهى الفترة التى تخطتها الآيات السابقة ، فعرضت موسى وهو فى دور الرجولة التى أصبح أهلاً فيها لتلقّى الرسالة من ربّه . .

وقد جاءت هذه الآيات حديثاً لموسى من ربّه ، يذكّره فيها بنعمه عليه ، وإحسانه إليه من قبل الرسالة .. فهو سبحانه قد نظر إليه بعين اللطف والرعاية ، منذ ولادته ، بل ومن قبل أن يولد . . فقد وُلد موسى فى حال كان فرعون فيها مضيّقاً الخناق على بنى إسرائيل ، مسلّطاً أعوانه على قتل كل مولود ذكر يولد لهم . . وكانت أم موسى حاملاً به ، حاملة معه الهمّ الثقيل الذى يؤرّق ليلها ، ويُشقى نهارها .. إنّها تحمل فى كيانها وليداً تستقبله يد الذابحين إذا أطلّ بوجهه على

هذه الدنيا ، بل ربما أخذته يدهم قبل أن يولد ، فشقّوا بطنها عنه ، وأخذوه حيًّا أو ميتًا . . !

— وفى قوله تعالى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى » إشارة إلى أن ما أوحى به إليها إنما كان مما يناسب هذه الحال التى هى فيها ، ولهذا صُدِّر الوحى بكلمة « ما » الدالة على التعميم ، والتى فسِّرت بقوله تعالى : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ » وهو ما أُوحى إليها به . .

وفى العدول عن أن يكون النظم القرآنى هكذا : ضعيه فى التابوت ثم ضَعيه فى اليم — إلى ما جاء عليه النظم القرآنى : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه ، فى اليمّ » — إشارة إلى أن الخطر المطلّ عليها من أعوان فرعون ، كان داهمًا دانيا ، وأنها إذا لم تعجّلْ بهذا العمل أُخذ وليدها منها .. ولهذا عطف قذفه فى اليم على قذفه فى التابوت بحرف الفاء ، الذى يفيد التعقيب المباشر ، دون فاصل زمنى بين الأمرين . .

والتابوت ، أشبه بالصندوق ، يُسوّى من خشب أو نحوه .. وفى قوله تعالى : — « فلْيُلقه اليمّ بالساحل » أمر من الله سبحانه وتعالى إلى اليمّ ، وهو النهر ، أن يُلقى موسى إلى الساحل ، وألا يبتلعه فى كيانه . . وهذا إشعار لأم موسى بالطمأنينة على وليدها ، وأن اليمّ لن يبتلعه ، وقد تلقّى هذا الأمر من صاحب الأمر فيه .

— وكذلك ما جاء فى قوله تعالى : « يأخُذْه عدوّلى وعدوّله » . . إنه أمر لفرعون أن يأخذ هذا الوليد . . وفرعون هذا عدوّ لموسى . . ومع هذا ، فإنه لا يملك من أمر نفسه ، إلاّ أن يأخذ عدوّه هذا ، ويربيه ، ويجعله ابنًا له !! فما أعظم قدرة الله ، وما أمكن سلطانه ! .

— وفى قوله تعالى : « وألقيت عليك محبةً منّى ولتُصنع على عينى » إشارة إلى ماصنع الله لموسى ، إذ جعل عدوّه الذى يطلب قتله ، محبًّا له ، حبَّ الآباء

للأبناء ! وهكذا يربّى موسى فى ظل من رعاية الله سبحانه وتعالى ، تلك الرعاية التى تجعل له من الشرّ خيراً ، ومن العدوّ صديقاً . . ! « إن ربّى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » (١٠٠ : يوسف)

ثم كان من تدبير الله لموسى ، أن أعاده إلى أمه ، فجمع بينه وبينها فى بيت فرعون لتكون له مرضعاً . . مرضعاً لابن فرعون هذا المتبنّى ! !

ومن لطف الله بموسى أن نجّاه من يد فرعون ، وكان فرعون قد طلبه ليقتصّ منه بقتيل قتله . . فنجَا موسى ، وهرب إلى مدين . . ثم هاهو ذا يعود إلى مصر ، ليلاقى فرعون مرة أخرى !

فهل مع هذا ، وبعد هذا ، يخشى موسى بأسَ فرعون وبطشه ؟

إنه قد فوّت على فرعون فرصتين كانتا قد سنحتا لقتله من قبل . .

فهل كان مع موسى حَوْل أو حيلة يدفع بهما عن نفسه ما كان سينزل به فى كلتا الحالين . . حين كان فرعون يطلبه وليداً ، وحين كان يطلبه قاتلا ؟

فكيف يخشى فرعونَ الآن ، بعد أن قهره مرتين ، وهو لا شىء . .

أما الآن فهو يحمل بين يديه آيتين ، معجزتين ، متحدّيتين . . يَحَارُ فرعون فيهما ، ويَخْزَى أمامهما ، ويفتضح كِبره وَجَبَرُوته بهما ، على الملأ من قومه . .

ثم كيف يخاف بأسَ فرعون وجبروته ، والله معه . . يخاطبه ، ويؤيده ؟

ولهذا جاء بعد هـذا الإعداد الكامل لموسى ، وبعد أن ملأ يديه من السلاح السماوى القاهر الذى لا يغالب — جاء الأمر إلى موسى بأن يلقى فرعون ، وهو أمرٌ قد تلقاه من قبل فى صيغة موجزةٍ ، أشبه بالإشارة إلى هذا الأمر المجدّد . . كما سنرى فى الآيات التالية .

الآيات : (٤٢ — ٥٦)

* « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ » (٥٦)

التفسير :

ولا يتوجه الأمر هنا إلى موسى وحده ، بل إليه وإلى أخيه هرون . .

* « اذهب أنت وأخوك » فأنت الآن لست وحدك . . « بآياتى » أى ومعكما آياتى التى وضعتها بين يديكما « ولا تنيا فى ذكرى » لا تضعفا ولا تفترا

فى ذكرى بل اجعلا ذكرى حاضراً فى قلبيكما ، جارياً على لسانيكما .. فهو الزاد الذى يمنحكما القوة على اقتحام هذا الهول الذى أنتما مُقدمان عليه .

* « اذهبا إلى فرعون » فهذه هى وجهتكما . . إنها إلى فرعون . . « إنه طغى » وتكبر ، وعلا فى الأرض ، وقال لقومه أنا ربكم الأعلى . .

* « فقولا له قولًا ليِّنًا لعلَّه يتذكر أو يخشى » . . فهذا شأن الحكماء مع الجهلاء ، وموقف الأطباء من المرضى . . اللين واللطف ، والموادعة .. فإن لقاء السفاهة بالسفاهة ، والجهل بالجهل ، هو نفخ فى النار الموقدة ، وإمداد لها بالوقود ، الذى يزيدها اشتعالًا وتأججاً . .

* « قالا ربَّنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » .

كم كان فرعون باغياً متسلطاً ، وجباراً عنيداً ؟ وكم أوقع فى قلوب الناس من فزع ورعب ، حتى كاد يكون ذلك طبيعةً متمكنة فيهم ، لا يمكن مغالبتها إلا باستئصالها بعملية أشبه بتلك العمليات الجراحية ، التى تغيِّر من خَلْق ذوى العاهات ! ؟

وإلاّ فما بال موسى ، وقد رأى من آيات ربّه ما رأى ، فى كل مرحلة من مراحل حياته ، ثم أُمِدَّ من السماء بهذه الأسلحة من المعجزات القاهرة المتحدية ، ثم كان إلى جانبه أخٌ له ، رفده الله سبحانه وتعالى به ، وجعله عوناً وظهيراً له ـ ما باله لا يزال مع هذا كلّه يخشى فرعون ، ويرهبه ؟ إن ذلك ليس إلا لما كان عليه فرعون من جبروت أوقع به فى قلوب الناس هذا الخوفَ الرهيب ، الذى يندسّ فى كيان الناس ، ولا يخرج أبداً ! .

ومعنى « يَفْرُط » أى يَعْجَل علينا بالعقوبة ، قبل أن يسمع منا ما أرسلنا به إليه ، « أَوْ أَنْ يَطْغَى » أى يتجاوز هذا إلى العدوان على ذاتك والتطاول على مقامك العلىّ .

* — « قال لا تخافآ إنَّنِي معكما أَسْمَعُ وَأَرَى » .. وفى ظلِّ هذا الوعد الكريم من الله سبحانه، يجد موسى وهرون ما يسكُن به خوفهما ، وتثبت به أقدامهما .

* « فأتياه فقولآ إنَّا رسولا ربِّكَ فَأَرْسِلْ معنا بنى إسرآئيل ولا تُعَذِّبْهُم قد جئناك بآية من ربِّك والسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتبع الهدى » .

وهكذا يُلقى الله سبحانه وتعالى إليهما بمحتوى الرسالة ، ويلقِّنهما الكلمات التى يقولانها لفرعون ، فى هذا الإيجاز الخاطف ، وفى تلك العبارات القصيرة المتتابعة ، التى تشبه طلقات المِدفع !

* « إنا رسولا ربك ..

* « فأرسل معنا بنى إسرائيل ..

* « ولا تعذبهم ..

* « قد جئناك بآية من ربك ..

* « والسلام على من اتبع الهدى ..

إن فرعون لا يصبر على الاستماع ، وإنّ أحداً لا يجرؤ على أن يجرى معه حديثاً ممتداً .. فما اعتادت أذنه أن تسمع كلاماً ، وإنما هو الذى يتكلم . وسَرْعان ما تتحول الكلمات إلى أفعال ..

ولهذا كان هذا التدبير الحكيم ، بتلخيص الرسالة التى جاءه بها موسى وهرون من ربهما ، وإيجازها هذا الإيجاز المعجز !

لقد أدى الرسولان رسالة ربهما .. وهاهما ذان الآن يستعدان لمواجهة العاصفة .. ولكن لا تزال للرسالة بقية ، وإن ظهر أنها أنهيت بهذا السلام الذى ختمت به . وإنه لا بأس من أن يستمع فرعون أو لا يستمع إلى بقية الرسالة ، فقد استمع

إلى الصميم منها ، وما بقى هو أشبه بالتذييل لها ، والتعقيب عليها .. ولهذا يقول الرسولان ، فى صوت خفيض ، وهما يتراجعان إلى الوراء :

* « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » !

إنه أشبه بالحديث إلى النفس ، أكثر منه بالحديث إلى فرعون ..! إنهما لا يواجهان فرعون بهذا القول باعتباره مقولا من مقولاتهما ، وإنما هو وحىٌ أوحى إليهما به .. وإنهما ناقلان لهذا الوحى .. لا أكثر ولا أقل ..

ويدهش فرعون لهذه المفاجأة ، التى طلع بها عليه هذان الرسولان ، وتضل من وعيه الكلمات التى سمعها ، ولا يمسك منها إلا بالكلمة الأولى منها . . « إنا رسولا ربك » .

ويقلّب هذه الكلمة « ربّك » ويوردها على ذاته الإلٰهية ، فيرى أن الرسولين يَنسبانه إلى ربّ . . وهذا هو النكر أعظم النكر ؟ أربٌّ يضاف إلى ربّ ؟ إنه إن تكن ثَمّةَ إضافة فهو الربّ الأعلى الذى تضاف إليه الأرباب . . وإنه إذا جاز أن يكون للناس رب . فلن يكون له هو رب ..

ولهذا اتجه إلى موسى مخاطبا فى تهكم واستنكار ..

* « قال : فمن ربكما يا موسى ! » إنه لا ينتسب إلى رب ، فإذا كان لموسى وهرون رب غير فرعون فليقولا له من هو ؟ ولهذا لم يقل فرعون : من ربى هذا ؟ بل قال من ربكما أنتما ؟

وكان جواب موسى :

* « قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقَه ثم هدى » ..

وفى هذا الجواب ، تحدٍّ لفرعون ، وأنه ليس هو ربًّا بهذا الادعاء الكاذب الذى يدعيه ، ويقبله منه قومه !

ربنا خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء .. فهل لك يا فرعون فى هذه المخلوقات مَن خلقته ودبرت أمره ؟

إن الرب الخليق بهذا الاسم ، الجدير بهذا الوصف ، هو من يخلق ، ويرزق ، ويحيي ، ويميت .. فمن خلقت يافرعون؟ ومن أحييت ؟

— وقوله : « أعطى كل شيء خلقه » أى خلق كل مخلوق على الصورة التى بها يستقيم وجوده .. فكل شيء مخلوق بتقدير ، وحساب . .

— وقوله : « ثم هدى » هو من تمام الخلق ، حيث أودع الخالق العظيم ، فى كل مخلوق ، ما يتهدّى به إلى حفظ ذاته ، وبقاء نوعه . .

وهذا دليل على أن كل مخلوق — صغر أو كبر — هو عالم بذاته ، فى تقدير الله سبحانه وتعالى ، وتصويره له ، وقيامه على أمره ..

وقد وَجِم فرعون لهذا الجواب المفحم . . فأدار الحديث إلى وجه آخر . .

* « قال فما بال القرون الأولى » ؟ ..

ولِمَ القرون الأولى ؟ وهل فَرَغْتَ يافرعون من النظر فى نفسك ، وفيمن حولك ، وما حولك ؟

إنها مماحكة ، يراد بها التضليل ، والتمويه على من حوله ..ليروْا منه أنه قد أخذ بقول موسى ، وبوصفه لربه . . وحتى لكأن هذا الوصف ينطبق عليه هو .. وإذن فلا خلاف ! !

ويجيب موسى على هذا السؤال الماحك :

* « قال علمها عند ربى .. فى كتاب .. لا يضل ربى ولا ينسى » . .

لم يشأ موسى — فى هذا الجواب — أن يجرى مع فرعون فى هذا التيه ، وأن يبتعد عن غايته التى جاء من أجلها ..

ولهذا جاء إلى فرعون بالجواب على تلك الصورة : « علمها عند ربى » أى لا أعلم من أمرها شيئاً .. وإنما علم ذلك عند ربى .. ثم أتبع ذلك بقوله : « فى كتاب » أى أن أخبار هذه القرون السابقة وأحوال الشعوب والأمم الغابرة ، مسطورة فى كتاب .. ثم لكى يقطع على فرعون الطريق إلى أن يسأله « وهل ربك ينسى حتى يسجل ما يقع من أحداث ؟ » — لكى يقطع الطريق إلى هذا ، قال : « لا يضل ربى ولا ينسى » أى أن هذا الكتاب الذى تسجل فيه أحداث الوجود ، إنما هو بعض علم الله ، كما أن هذا الوجود هو بعض قدرته .. أما ربى فإنه لا يضل ولا ينسى ..

هذا هو ردّ موسى على فرعون ، وجوابه على هذا السؤال الماحك الغبى ..

أما قوله تعالى :

* « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى * ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » ..

أما هذه الآيات الأربع ، فإنها معترضة بين أحداث القصة ، لتذكّر بنعم الله ، وتزيد فى العرض لدلائل قدرته ، ثم إنها من جهة أخرى فاصل بين مجرى الأحداث ، يخرج فيه الناس من هذا الجو المتأزم ، إلى رحاب هذا الوجود ، حيث يستمعون فيه إلى هذا النشيد العلوى ، المسبح بحمد الله ، المحمل بجلائل نعمه وأفضاله على عباده ..

— « الذى جعل لكم الأرض مهداً » أى مهاداً ، وبساطاً ممتعاً ، « وسلك لكم فيها سبلا » أى طرقاً تسلكونها فى البر والبحر .. « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » أى أخرجنا بهذا الماء عالم النبات كله من حشائش ، وزروع ، وأشجار .. وهو عالم متزاوج كعالم الحيوان والإنسان ، فيقوم التوالد فيه كما يقوم فى عالم الإنسان والحيوان .. بالإلقاح بين الذكر والأنثى ..

— « كلوا وارعوا أنعامكم » إنه أمر يراد به التذكير بهذه النعمة العظيمة ، التى تقوم عليها الحياة للناس ولأنعامهم ..

— « إن فى ذلك لآيات » أى فى هذه المعارض من قدرة الله ، المبثوثة فى هذا الوجود آيات مبصرة « لأولى النهى » أى العقول الواعية ، والبصائر المدركة ..

— « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » ..

أى هذه الأرض التى أنتم عليها ، والتى جعلها الله بساطاً ومعاشاً لكم ، هى أمكم التى خلقكم الله منها ، وهى القبر الذى يضمكم ، ويعيدكم إلى التراب كما كنتم ، وهى التى تنشق عنكم ، فتخرجون منها مرة أخرى ، إلى الحياة الآخرة ..

— « ولقد أريناه آياتنا كلّها فكذب وأبى » .. وإذا كان فى آيات الله تبصرة لأولى الأبصار ، فإن هناك من لا يهتدى بها ، ولا يجد فيها هادياً يهديه إلى الله .. ومن هؤلاء أو على رأس هؤلاء ـ فرعون الذى أراه الله آياته كلها .. فأراه من المحسوس آيات ، وأراه من المعقول آيات .. فكذب وأبى أن يستجيب لما دُعى إليه من هدًى وإيمان ..

والآيات المحسوسة هى ما كان بين يدى موسى من معجزات ، والآيات

المعقولة هى ما حدّثه به موسى عن ربّه، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

* فهذه الآيات بمحسوسها ومعقولها، تمثل الآيات كلّها التى لا تنتهى عدًّا.

الآيات: (٥٧ — ٧٠)

«قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ» (٧٠)

التفسير:

لقد أسقط فى يد فرعون، وبكلمات قليلة موجزة قطع موسى عليه حبل

المماحكة والجدل . . فجاء إلى موسى من الجانب الذى يستند فيه إلى جبروته وسلطانه ، بعد أن خذله المنطق وأفحمه . . جاء إلى موسى يتّهمه بأنه ساحر ! .

ولم تذكر القصة هنا ما كان من موسى من إلقاء العَصا ، بين يدى فرعون ، فانقلبت حيّة تَسعى ، وما كان من إدخال يده فى جيبه ، ثم إخراجها بيضاء مشرقة من غير سوء ! ـ لم تذكر القصة هذا الحدَث ، فقد جاء ذكره فى أكثر من موضع من القرآن الكريم . .

وهذا يعنى أن تكرار القصة الواحدة ، فى القرآن ، يعنى ترابط أجزائها ، بحيث يكمل بعضها بعضا ، كما سنعرض لذلك ، فى بحثنا : « التكرار فى القصص القرآنى » ، إن شاء الله عند تفسير سورة القصص .

قلنا : إن فرعون جاء إلى موسى بسلطانه الغَشوم ، يتهمه بالسِّحر ، وأن ما بين يديه لايعدو أن يكون مما يتعامل به كهنة فرعون من سحر ! فقال له:
* « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى » . ؟

وإذن ، فالمعركة لن تكون بين فرعون وموسى .. ولكنها ستكون بين موسى وسَحرة فرعون ! فهذا هو مكانُ موسى فى نظر فرعون ! ولهذا بادر فرعون بإعلان البدء بالمعركة . .

* « فاجعل بيننا وبينَك مَوْعداً لا نُخلفه نحنُ ولا أنت » .. وأدخل فرعون نفسه فى المعركة باعتباره شاهداً متفرجاً ، يرفّه عن نفسه ، بما يرى من ألاعيب السحر وفنونه !

* « مكاناً سُوًى » أى واختر مكانا مبسوطاً مستوياً ، يَسع الجموع الحاشدة التى ستشهد هذا السّحر ، وفنونه ، وحِيَله ! ! .

* «قال موعدكم يومُ الزينة» ـ هذا الموعد ، هو يوم العيد، حيث يخلو الناس، ويفرغون لهذا اليوم . . « وأن يُحشر الناس ضحى » وأن تكون ضحوة العيد

هى وقت اللقاء ، حيث شباب النهار ، وضحوة الشمس ، فلا يخفى على المشاهدين شيء ! وهكذا تحدّد المكان والزمان لهذا اللقاء المثير .

* « فتولّى فرعون فجمع كيده ثم أتى » فى هذه الكلمات القليلة المعجزة ، قصة طويلة ، تضم أحداثا كثيرة ، مما كان من فرعون فى جمع السحرة ، وحشدهم ، وتخيّرهم ، واختبار وسائلهم ، وتخيّر المناسب القوىّ منها . . كل هذا جمعته كلمة واحدة هى « كيده » فالكيد هنا ، هو السحرة ، والسّحر ، وأدوات السحر . .

* « قال لهم موسى . . ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيُسحِتكم بعذابٍ وقد خاب من افترى » .

إن كل ما معهم هى مفتريات ، وأباطيل ، قد لفّقوها ، وأخرجوا منها تلك الألاعيب التى تخدع ، ولكنها لا تقنع ! .

— وقوله : « فيُسحِتَكُم بعذاب » أى يأخذكم بعذاب يستأصلكم .. وأصل السّحت : مايُستأصل من قشر الرأس ، ومنه السُّحت : وهو الحرام ، الذى يهلك صاحبه ويورده النار ، كما فى الحديث : « كل لحم نبت من سُحتٍ فالنار أولى به » .

* « فتنازعوا أمْرَهم بينهم وأسَرُّوا النجوى * قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمِعوا كيدكم ثم ائتُوا صفًّا وقد أفلح اليوم من استعلى » .

لقد كثر صَخَب السّحرة ، وضجيجهم ، وتضاربت آراؤهم فيما يلقون به موسى . . ثم اختلَوْا بأنفسهم ، حتى لا يفتضح أمرهم . . وكان مما تناجَوْا به أنهم فى مواجهة ساحرَيْن يريدان أن يفسدا على فرعون وقومه أمرهم ، وأن يخرجاهم من أرضهم ، وأن يبدّلا دينَهم . . وليس لدفع هذا الخطر إلا أن

يُجْمعوا أمرهم ، ويوحّدوا كلمتهم ، ويلْقَوْا هذين الساحرين صفًّا واحداً ، وجبهةً واحدة . . إنّ الأمر جدّ ليس بالهزل ، فإمّا حياة وإما موت ! .

* « قالوا يا موسى إما أن تُلقِى وإما أن نكونَ أولَ من ألقى » .

وحين اجتمع للسحرة رأْيهم ، خرجوا على موسى يدعونه إلى النزال . . وجاءوا إليه مستعلين ، متمكّنين مما فى أيديهم . .

يخيّروه بين أن يبدأ هو للمركة ، أو يبدءوها هم ! .

* « قال ألقُوا » .

وهكذا لقيهم موسى . . لقد أعطاهم الجولة الأولى . . وأتاح لهم الفرصة فيه ، وأمكنهم منه ، إن كانت بين أيديهم القوّة للقضاء عليه . .

وهذا التدبير من موسى ، وإن يكن مما تقتضيه آداب الحرب ، ومقابلة الخصم بمثل ما قابله به من فضل ـ فإنه هو الموقف الذى كان لا بدّ له أن يتخذه ، حيث يُفرغ القوم كل مافى أيديهم ، ثم إذا ضربهم الضربة القاضية ، لم يكن لقائل أن يقول إنّه لم يتح لهم فرصة كى يعملوا فيه أسلحتهم ، ولو أتيح لهم هذا . . فلربما قضوْا عليه ، قبل أن يقضى عليهم ! .

* « فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخيَّل إليه من سِحرِهم أنها تَسعى » .

لقد ألقى القوم بكل كيدهم ، وإذا حبالهم وعصيُّهم ، بماعُمِل فيها من حِيَل ، يخيّل للناظر إليها أنها حياتٌ تسعى .

* « فأوجس فى نفسه خِيفةً موسى » .

لقد وقع فى نفس موسى ، من هذا الصّخب واللّجب الذى أثاره فرعون وقومه حين ألقى السحرة بعصيّهم ـ لقد وقع فى نفس موسى شىء من الرهبة والخوف . . حتى ليكاد الأمر يُفلت من يده . .

* « قلنا لا تخفْ إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تَلْقفْ ما صَنَعوا إنما صنعوا كيدُ ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

لقد جاءت نجدة السماء إلى مُوَسى ، فربطت على قلبه ، وثبتت قدمَه ، فألقى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون . .

* « فألقى السَّحَرةُ سُجَّداً * قالوا آمنا بربِّ هرون وموسى » .

وهكذا انتهت المعركة فى لحظة خاطفة . . فلا طعن ولا ضرب ، ولا كرّ ، ولا فرّ . . لقد أعطى السّحرة يدَهم لموسى ، وآمنوا بالله ربّ العالمين . .

إنها ضربة واحدة ، انتهى بها كلّ شىء . . وإذا الحبال والعصىّ قد اختفت من الميدان . . إنها جميعاً فى جوف الحية . . لم يبْق منها فى مرأى العين رأس ولا ذنب ! .

وهكذا يشهد فرعون بعينه تلك الهزيمة المنكرة ، التى حَشَد لها كل كيده ، والتى جمع لها فى يوم الزينة الجموع الحاشدة لتشهد الضربة القاضية التى يضرب بها فرعون هذا الساحرَ الذى جرؤ على لقائه وتحديه . .

وهكذا يجىء تدبير الله فوق كل تدبير ، وتعلو كلمته كل كلمة . . وإذا هذه الجموع الحاشدة كأنما دعاها موسى ، واستجلبها من كلّ مكان ، لتُعلن فى الناس هذه الضربة القاصمة التى تلقاها فرعون على ملأ من الناس ! .

ولا يجدِ فرعونُ ما يَفْثأ به غضبه ، ويمسح فيه خزيه ، إلّا السّحرة . . وها هوذا يضرب فى وجوههم ضرباتٍ مجنونة ، ويرميهم بكل ما بين يديه . . ثم يتوعدهم بالموت على أبشع صورة وأشنعها . .

الآيات : (٧١ — ٧٦)

* « قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ » (٧٦)

التفسير :

والتهمة التي يُلقى بها فرعون في وجه السحرة ، ويتهددهم بها ، هي أنهم قد تواطئوا مع موسى على هذا الأمر ، وأن موسى ليس إلا واحداً منهم ، بل إنه كبيرهم الذي علمهم السحر !

وإذن ، فإن فرعون لم يغلب في هذه المعركة، إلا لأنها كلها كانت جبهة واحدة، ولم يكن فرعون في الجبهة المقابلة التي تلقى هذه الجبهة وتقاتلها ، وتقضي عليها ..! إنها جميعاً جبهة سحرة تآمروا عليه واتحدوا ضده ! وليس موسى إلا كبيرهم ومعلمهم ! ..

* « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ » .

هذه أول تهمة تُدين السحرة عند فرعون . . إنهم آمنوا بموسى قبل أن يأخذوا إذن فرعون وإجازته !! حتى لكأنّ الإيمان بالله ، عمل من أعمال

للسيادة التى فى يد الحاكم ، لا يمارسه الإنسان إلا بإذن من السلطان ، فهو أشبه بأملاك الدولة ، التى تحتاج إلى إذن خاص لتملكها والانتفاع بها ..!!

وإذا كان للسلطان أن يملك من الناس ما يملكون من مال ومتاع ، ويتسلط على الكلمة ينطقون بها ، أو يأخذ عليهم السبيل إلى أى وجه يتجهون إليه — فهل يملك السلطان من الناس ، ما تكنّه السرائر وما تنطوى عليه القلوب ؟ .

هكذا خيل لفرعون أنه يملك من الناس كل شىء ، حتى خفقات قلوبهم ، وخلجات صدورهم ، فأنكر على السحرة أن يؤمنوا قبل أن يأذن لقلوبهم أن تستقبل أنوار الهدى ونفحات الإيمان !! .

* « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » ..

ولهذا تواطأتم معه ، وكدتم هذا الكيد ، الذى أخرجتم به الناس ليشهدوا تلك المعركة الخاسرة !

* « فَلَأُقَطِّعن أيديَكم وأرجلَكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولَتَعْلَمُنّ أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقى » .

لقد اختلق فرعون التّهمة ، ولفق الجريمة ، ثم حكم ، دون أن يسمع دفاعاً ، أو يسمح لأحد أن ينطق بكلمة !

وعلى تلك الميتة الشنعاء يعرض فرعون السحرة ، ويُعِدُّ العدّة لتنفيذها فيهم ..

— وفى قول فرعون : «أينا أشد عذاباً وأبقى » إشارة إلى ما تهدد به موسى السحرة ، قبل أن تبدأ المعركة ، وذلك فى قوله : « ويلكم لا تفتروا على الله كذباً .. فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » .

فالعذاب الذى تهددهم به موسى ، هو عذاب مؤجل ليوم القيامة .. وهذا

العذاب لا يدركِ مداه إلا من يؤمنون بالله وباليوم الآخر ..

وإذن فالذى وقع فى السحرة من هذا التهديد ، هو مجرد توقعات لهذا العذاب ، كما تصوره فرعون ..

أما العذاب الذى سيأخذهم به فرعون ، فهو عذاب حاضر واقع فى الحال ؛ وهو عذاب — على تلك الصورة — فظيع مَهول !

ولهذا وازن فرعون بين عذابه ، والعذاب الذى توعد موسى السحرةَ به ، وأراهم أن عذابه أشد : «ولتعلمن أينا أشد عذاباً» أعذابى الحاضر ، أم العذاب الذى يهددكم به موسى ؟ وأنا ، أم موسى «أبقى» لكم، وأملك لأمركم ، وأقدر على التسلط عليكم ؟

* « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا.. فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا .. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر.. والله خير وأبقى» ..

وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان ، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر ، والبحث ، والتحليل ، والتعليل .. إنه حينئذ إيمان يخالط المشاعر ، ويملك القلوب ، ويأسر العقول ، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف ، قوةً هائلة ، تتحدى الجبابرة ، وتستخف بأعظم الأهوال ، وأشد الخطوب ..

وهل كان يقع فى الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون ، وعابديه ، الذين ولدوا ـ كما ولد آباؤهم — فى ظل ربوبيته ، وسلطان ألوهيته — هل كان يقع فى الحسبان أن يجىء يوم يقف فيه هؤلاء « العباد » فى وجه هذا « الإله » موقف التحدّى ، بل والاستخفاف والسخرية ؟ ولكنه الإيمان ، يفعل المعجزات ، ويقلب الأوضاع والمواضعات !

وقولهم : « والذى فطرنا » .. يمكن أن يكون معطوفاً على قولهم: «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات » أى لن نقدمك ونختارك على تلك البينات والدلائل التى كشفت لنا عن وجه الحق ، وأرتنا الله ربَّ العالمين ، الذى فطرنا وأوجدنا، والذى حجبتنا عن رؤيته الضلالات والأباطيل التى كنا نعيش فيها . ويمكن أن يكون هذا قسما منهم بالله الذى عرفوه منذ الآن ، وآمنوا به ..

— وقولهم : « والله خير وأبقى » هو رد على قول فرعون لهم : « ولتعلمن أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى » ..

قوله تعالى :

* « إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا * ومن يأتِهِ مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جناتُ عَدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى » ..

هذه الآيات ، هى تعقيب ، على هذا المشهد من مشاهد القصّة ..

وفى هذا التعقيب ، إلفاتٌ إلى مواقع الإيمان من قلوب المؤمنين ، وإلى ما يحصّله المؤمنون من ثمراتٍ لهذا الإيمان .. كما يجد فيه المشاهدون لموقف فرعون من السحرة ، ما أعد الله للمجرمين من عذاب ونكال ..

وإذن فالقضية هكذا :

« من يأت ربّه مجرماً فإن له جهنمَ .. لا يموت فيها ولا يحيا » .. فهذا هو جزاء المجرمين ، الذين يلقوْن الله بجرمهم ، ولم يتطهروا منه بالإيمان والتوبة .. إن لهم جهنم ، لا شىء لهم غيرها .. وهم فيها بين الموت والحياة .. « لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها .. » (٣٦ : فاطر) .

وأما « من يأتِهِ مؤمنًا قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدرجات العُلَى »

وتلك الدرجات هى « جنات عدنٍ » أى جنات خلود ، « تجرى من تحتها الأنهار . . خالدين فيها » لا يبغون عنها حولاً . . « وذلك جزاء من تزَكَّى » وتطهر من ذنوبه وآثامه ، بالإيمان ، والعمل الصالح ، فأصبح أهلًا لأن ينزل منازل الطهر والنور ، فى جنات النعيم .

الآيات : (٧٧ — ٨٢)

* « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ » (٨٢)

التفسير :

بعد هذا التعقيب ، يجىء فصل جديد من فصول القصة ، حيث تنتقل الأحداث إلى مسرح آخر . . تتغير فيه المشاهد ، وتنطلق فى اتجاه غير الاتجاه الذى كانت تسير فيه . .

فهذا موسى، عليه السلام ، يتلقى وحياً من ربه بأن يَسْرِى ليْلاً ببنى إسرائيل ، متخذاً وجهته نحو الشرق إلى سيناء ، ويعبر بهم البحر ، صانعاً لهم طريقاً يبساً

بعصاه التي يضرب بها البحر ، فينشق ، وينحسر ماؤه عن الأرض .. فإذا هى طريق يَبَس ، كأن لم يمسسه الماء من قبل . .

وقبل أن ينطلق موسى بقومه ، يسمع كلمات ربّه : « لاتخاف دَرَكاً ولا تخشى » فيمتلىء قلبه طمأنينة وأمنا إنه لا يخاف (دركا) أى لحاقا من فرعون وجنوده . . وإنه لايخشى البحر ، حين يلقاه معترضاً طريقه إلى النجاة من يد فرعون الذى يجدّ فى طلبه . .

فالخوف ، هو مما يجيئه من ورائه .. والخشية ، مما يلقاه من أمامه .. وإنه لاخوف ولا خشية ، مع عون الله ، وتأييده !

وها هو ذا فرعون يحث السير بجنوده ، طلباً للحاق بموسى . . ويمضى فى طريقه ، حتى يركب الطريق اليبس الذى ركبه موسى وقومه منذ قليل ..

وقد أعماه الغيظ ، وحبّ الانتقام ، من أن يقف على رأس هذا الطريق قليلا ، ويسأل نفسه : كيف قام هذا الطريق وبأى يد أقيم إنه ليعلم عن يقين أن لا طريق بين عَبْرَىْ هذا البحر ؟ أفلا تلفته هذه الظاهرة إلى هذه المعجزة التى بين يدى موسى ؟ ولـكن أنّى للعُمْى أن يبصروا ؟ « فإنها لاتعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

لقد أورد فرعون نفسه وقومه موارد الحتوف : « فغشيهم من اليمّ ماغشيهم » .. أى غطاهم من البحر ماغطاهم من مائه الغَمْر .. « وأضل فرعون قومه وما هدى » !

وهكذا يُسدل الستار على هذه المأساة ، التى طوت فرعون وقومه فى لمحة خاطفة .. !

ولا تذكر القصة ماصنع فرعون بالسحرة ، وهل أمضى حكمه فيهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وصلّبهم فى جذوع النخل .. أم أنهم أفلتوا من يديه ، ونجوْا فى زحمة هذه الأحداث ؟

يمكن أن يكون فرعون قد ألقى بالسحرة فى السجن ، وانتظر تنفيذ حكمه فيهم حتى يفرغ من موسى وقومه .. كما يمكن أن يكون قد أمضى فيهم حكمه ..

إن الأمرين يستويان . . فإن يكن السحرة قد هلكوا بيد فرعون ، فليسوا هم بأول أو آخر مستشهدين فى سبيل العقيدة .. وإن يكونوا قد نجوا من هذا البلاء ، فقد نجا كثير غيرهم من المؤمنين ، وأفلتوا من يد البغاة والمتجبرين . .

فليس المهم إذن هو أن يهلك المؤمنون أو يسلموا ، وإنما المهم هو أن يَثْبتوا على إيمانهم ، ويوطدوا النفس على احتمال كل بلاء ، وملاقاة كل شدة . . ثم لاعليهم أن يسلموا أو يعطبوا ، مادام قد سلم لهم إيمانهم ، وظل بمكانه المكين من قلوبهم ..

ثم هاهم أولاء بنو إسرائيل ، قد وجدوا نعمة الله وخلصوا من يد فرعون ، ونجوا من هذا العذاب المهين الذى جعله طعاماً وشراباً لهم ..

* « يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم » . : فاذكروا هذه النعمة ، وارعَوْها ، ولا تفسدوها بالمكر بها ، والتنكر لها . .

* « وواعدناكم جانبَ الطور الأيمن » أى هذا هو موعد لقائى بكم ، حيث تنزلون بالجانب الأيمن من الطور ، وحيث يتلقى نبيكم موسى ما أُوحِى به إليه من كلمانى . . فاستمعوا له ، وخذوا بما يُوحَى إليه ، واستقيموا عليه . .

* « ونزلنا عليكم المنَّ والسلوى » . . وفى هذا المكان الجديب القفر . . ستجدون طعامكم طيبا حاضراً .. « إنه المن والسلوى » . .

والمن : هو مادة كالعسل تنزل من السماء كالندى ، فتنعقد على ما تعلق به من شجر أو حجر ..

والسلوى : طائر يشبه السُّمانَى . .

* « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغَوْا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يَحْلِلْ عليه غضبى فقد هوى » . .

فمن هذا الطعام الطيب ـ المن والسلوى ـ كلوا ، وانعموا ، واشكروا لله الذى رزقكم . . ولا تطغوا فى هذا الرزق ، الذى جاءكم من غير عمل . .

ـــ وفى قوله تعالى : « ولا تطغوا فيه » إشارة إلى هذا الرزق الذى أفاضه الله عليهم ، بلا حساب ، حتى لقد كان ظرفاً يحتويهم ، ويشتمل عليهم ، ويحفّ بهم من كل جانب . . إنه خير كثير ، ورزق غَدَق .

وهذا الرزق الغَدَق ، إذا صادف نفوساً خبيثة ، بشمت به ، وتداعت عليها العلل والأسقام ، وتحول به الإنسان إلى حيوان ضارٍ شرس . . كما يقول سبحانه : « إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى » (٦ ـــ ٧ : العلق) . .

ـــ وفى قوله تعالى : « فيحلّ عليكم غضبى ومن يَحْلِلْ عليه غَضَبى فقد هَوَى »

تحذير لبنى إسرائيل ، وتهديدٌ لهم من أن تُبطرهم هذه النعمة ، ويغرّهم بالله الغَرُور . والويل لمن تعرض لغضب الله . . إنه يهوِى إلى مكان سحيق ، حيث الهلاك والبلاء .

وقد بَطِر بنو إسرائيل ، ومكروا بآيات الله ، وكفروا بنعمه ، فحلّ عليهم غضبه ، ونزلت بهم لعنته . . كما أخبر الله تعالى عنهم فى آياتٍ كثيرة . . فهم المغضوب عليهم فى كل موضع من القرآن الكريم ، ذُكر فيه غَضَبُ الله . . فمن ذلك قوله تعالى : « وضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضبٍ مِنَ اللهِ (٦١ : البقرة) وقوله تعالى : « ضُرِبَتْ عليهم الذلة أينما ثُقِفُوا إِلاَّ بحبلٍ

من الله وَحَبْلٍ من النـاس وبآءوا بِغَضَبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة » (١١٢ : آل عمران) .

* « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لمن تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحاً . . ثم اهتدى » . .

فالله سبحانه وتعالى يُمِدّ للظالمين ، ويُمهلهم ، ليكون لهم فى ذلك فُسْحة من الحياة ، يُراجعون فيها أنفسهم ، ويرجعون إلى الله ، تائبين مستغفرين . . وعندئذ يجد هؤلاء الراجعون إلى الله أبواب القبول مفتحة لهم ، ويد الرحمة ممدودة إليهم . .

وفى قوله تعالى : « ثم اهتدى » . . إشارة إلى أن التوبة لا تُقبل إلاّ إذا صَحّت نيّة التائب ، وصَدّق نيّته العملُ . . فاستقام على طريق الهدى ، ولم يلتفت إلى طريق الضلال الذى قطع مسيرته فيه ، وجاء إلى الله تائباً . .

الآيات : (٨٣ — ٩٨)

* « وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ

لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » (٩٨)

التفسير :

وبهذه الآية تختم القصة . . وفى ختامها ينكشف بنو إسرائيل ، حيث يرون بأعينهم المنحدر الذى انحدروا إليه ، فلقد كفروا بالله ، وجعلوا من العجل إلها يعبدونه من دون الله !

فما أجدت معهم هذه الآيات ، ولا رفعت عن أعينهم ما عليها من الغشاوة ، ولا أزاحت عن قلوبهم ما ران عليها من الضلال . . !

لقد كان موسى على موعد مع ربّه ، ليتلقى الألواح ، وما كتب له فيها . .
وفى قوله تعالى :

* « وما أعجلك عن قومك يا موسى » إشارة إلى أن حدثا قد حدث فيهم

من بعده ، وأنه وقد جاء يستعجل لهم الخير ، قد طعنوه من وراء ظهره ، وأفسدوا كل ما أصلحه منهم ! ولكنه لم يكن يدرِى ماذا حدث . .

ولهذا جاء جواب موسى :

* « هم أولاء على أثرى » أى أنهم على ما تركتهم عليه ، يسيرون على المنهج الذى رسمته لهم ، ويتأثرون خُطاىَ فى طاعتك وابتغاء مرضاتك . .

* « وعجلت إليك رب لترضى » ـ هذا هو الجواب عما سأل الله سبحانه وتعالى موسى عنه .. أما ما سبق ذلك ، فهو جواب عما استشعره موسى من ذكر قومه فى سياق هذا السؤال . .

وتلقى موسى ما أذهله ، وأشعل نار غضبه :

* « قال فإنا قد فَتَنّا قومك من بعدك وأضلَّهم السامرى » .

فهؤلاء هم قومه . . وما أحدثوا . . إنهم ليسوا على أثرِه كما كان يظن . . لقد ضلوا ، ووقعوا فى فتنة عمياء ! .

ـ وفى قوله تعالى : « فتنّا قومك » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى خلّى بينهم وبين أنفسهم ، وما ينضح منها من مكر وضلال ، فتركهم ليد السامرىّ يضلّهم ويذهب بهم فى مذاهب الضلال كيف يشاء ! . .

* « فَرَجَعَ موسَى إلَى قَوْمِهِ غضبان أَسِفاً * قال يا قومِ أَلَمْ يعِدكم ربُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ؟ أَمْ أَرَدْتمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكم غضبٌ من ربكم ؟ فأخلفتم موعدى ؟ »

والأسِفُ ، هو الحزين الذى يكاد يقتله الحزن . .

والوعد الحسن الذى وعد الله بنى إسرائيل ، هو أنه أنزلهم هذا المنزل من جانب الطور الأيمن ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى . .

وفى قول موسى :

* « أفطال عليكم العهد ؟ » استفهام إنكارى ، يُراد به أن العهد الذى بينهم وبين الله لم يَطُل ،حتى ينسَوْه . وأنه ليس هذا عهداً تلقوه عن آبائهم وأجدادهم ، بل هو عهد معقود مع هذا الجيل نفسه ! فكيف يُنسى هكذا سريعاً ؟

وفى قوله :

* « أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم » ؟ .

هو إنذار لهم بتلك العاقبة السيئة التى تنتظرهم من هذا الفعل الذى فعلوه ، ولم ينظروا فى عواقبه . .

وقوله :

* « فأخلفتم موعدى » .. معطوف على محذوف ، تقديره ، أم ظننتم بى الظنون فأخلفتم موعدى معكم الذى واعدتكم عليه ، وهو أن أعود إليكم بعد مناجاة ربى ؟ . .

ويجىء جواب القوم فى هذا الأسلوب الخبيث :

* « قالوا ما أخلفنا موعدك بِمَلْكِنا . . »

إنهم يُلْقُون التهمة عنهم بهذا الاعتذار الصبيانى : « ما أخلفنا موعدك بملكنا ! » أى بإرادتنا ، واختيارنا ، فقد كنا إزاء أمرٍ لاخيار لنا فيه . . وإليك ما حدث فاحكم . .

* « ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم .. فقذفناها . . »

وزينة القوم هى الحلى التى كانوا قد سلبوها من المصريين ، ليلةَ خروجهم من مصر . .

والأوزار : الأحمال جمع وِزر . .

وعبّروا عن الحلىّ ، بالأوزار ، لأنها كانت كثيرة من جهة ، ولأنها كانت نهبًا واختطافًا من جهة أخرى .. فتحرّجوا من أن يحملوا هذا الحلىّ ، وقد رزقهم الله كفايتهم من المنّ والسلوى .. هذا إلى أنه لم تكن بهم من حاجة إلى المال ، فى هذا المكان الذى اعتزلوا فيه الناس ..

وانتهزها السامرى فرصة ، فألقى بما فى يديه على هذا الحلى الذى قذف به القوم .. « فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار » أى عجلا مجسداً ، فيه حياة وله خوار .. أى يخرج من فمه هذا الصوت المعروف للبقر ..

* « فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى .. فنسى » ..

إنه ما كاد ينظر القوم إلى هذا العجل ، الذى خرج من هذا الحلى ، حتى فُتنوا به ، وحتى أطلّ عليهم منه وجه العجل الذى كان يعبده فرعون وقومه .. فقالوا : « هذا إلٰهكم وإلٰه موسى » الذى ذهب إليه ، ليلقاه هناك بعيداً عنا ، فنسى نفسه هناك .. وفاته أن يدرك حظه من لقاء ربه معنا هنا !!

وفى الانتقال بالحديث من الخطاب إلى الغيبة ، إشارة إلى أن الذين واجهوا موسى أولا بقولهم : « ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها » — هؤلاء هم الذين سبقوا إلى أن يبرئوا ساحتهم .. وأن كل ما فعلوه هو أنهم تخلصوا من هذا الحلى المغتصب الذى كان معهم !!

— أما قوله تعالى : «فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى » — فهو مما نطق به لسان الحال ، وكشف عنه الواقع .. وهو ردٌّ على هؤلاء الذين جاءوا فى جلود الحملان الوادعة .. قائلين إنهم لم يفعلوا منكرا ، بل فعلوا ما يحمدون عليه .. وهو التخلص من هذا المال الحرام !!

قوله تعالى :

* «أفلا يَرَوْن ألاَّ يرجعُ إليهم قولا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً» .

هو تعقيب على هذا الحَدَث،وفيه تسخيف لعقول القوم ، وتسفيه لأحلامهم وأنهم لو كانت بهم مَسْكة من عقل لما رأوا فى هذا الحيوان إلهاً ، يعبدونه ، ويرجون منه ما يرجو العابدون من ربهم !

فهل إذا تحدثوا إلى هذا الحيوان .. يُرجع إليهم قولا ، ويرد إليهم جواباً ؟ وهل لهذا الحيوان حول وطول يقدر به على النفع لعابديه ، أو الضر لذابحيه ؟ فما أحط الإنسان ، وما أنزل قدره ، حين يتخلى عن عقله . .

قوله تعالى :

* « ولقد قال لهم هرون من قبلُ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى» ..

هو تعقيب أيضاً على هذا الحدث ، يُذكر فيه لهرون موقفُه من هذا الأمر المنكر ، وأنه وقف للقوم ، وأنكر عليهم ما هم فيه ، وأنهم وقعوا فى فتنة عمياء ، وأن هذا ليس ربهم ، وإنما ربهم الرحمن ، الذى لو لم يأخذهم برحمته لمسخهم على هذه الفعلة ، قردةً وخنازير ! !

ولكن القوم مضوا فى ضلالهم ، وأبوْا أن يستمعوا لهرون ..

وكان ردهم عليه أن : « قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » .. وإنهم ليقولون هذا ، وقد قطعوا من قبل بأن موسى قد ضل طريقه، فهلك ، ولن يعود !

ومن عجب أن التوراة تذكر فى صراحة أن الذى صنع العجل ودعا القوم إلى عبادته ، هو هرون عليه السلام ..

تقول التوراة فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج :

« ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هرون ، وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه .. فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها .. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا .. »

أهذا فِعل يكون من نبى من أنبياء الله ، ورسول من رسله ؟ «سبحانك هذا بهتان عظيم » (١٦ : النور)

وليس هذا الذى تقوله « التوراة » عن « هرون » إلا واحدة من تلك الشناعات الكثيرة التى سوّد بها اليهود وجه التوراة ، بما حملوا إليها من مفتريات وأباطيل ، على الله ، وعلى أنبياء الله ، وعلى عباد الله !!

ثم تعود أحداث القصة إلى التحريك من جديد . .

فها هو ذا موسى — عليه السلام — يتجه إلى أخيه هرون ، ويأخذ برأسه وبلحيته فى عنف وقوة .. قائلا :

* « ياهرون .. مامنعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتبعن .. أفعصَيت أمرى ؟ » أى مامنعك أن تأخذ الجانب الذى أنا عليه من الإيمان بالله ، وأن تنحاز إليه أنت ومن اتبعك ؟ « أفعصيت أمرى ؟ » ..

والأمر الذى أمره به موسى ، هو قوله له ، حين ذهب لمناجاة ربّه : «اخْلُفْنِى فى قومى وأَصْلِح ولا تتبعْ سبيل المفسدين » (١٤٢ : الأعراف) .. وجاء جواب هرون :

* « قال يا بنَ أمَّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى .. إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل ولم ترقُبْ قولى » ..

إنه لم يلق أخاه بالشدّة التى لقيه هو بها ، وإنما عرف لأخيه قدره ومقامه ، وأنه كليم الله ، وأن هرون وزيره .. فقال فى لطف ورقة : « يا بن أمَّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى » بل أطلق سراحى ، ودعنى أبين لك ماحدث ..

إنى خشيت أن أعتزل القوم أنا ومن كان معى ، ممن لم يرْضَ مافَعلَه القوم ـ فتقول لى : إنك فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم تتبع ماقلت لك حين دعوتك إلى أن تخلفنى فيهم ، وأن تصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين .. وقد رأيتُ أن الفرقة بين القوم ستُحدث تصدعا وشقاقاً ، وربما قتالا .. فرأيت أن أدع الأمر على ماهو عليه ، بعد أن نصحتُ واجتهدت فى النصح ، حتى تأتى أنت وتعالج هذا الداء بما ترى ، أو بما يريك الله !

ويدع موسى أخاه . ويلتفت إلى السامرى :

* « قال فما خطبك ياسامرىّ ؟ » أى ماشأنك ؟ وماذا فعلت ؟

* « قال « بصُرتُ بما لم يبْصُروا به .. فقبضت قبضةً من أثر الرسول .. فنبذتها .. وكذلك سوّلتْ لى نفسى » .

ـ قوله : بصُرتُ بمالم يبْصروا به » .. أى رأيت مالم يرَ القوم .. وهو أنى رأيت أثراً من آثار المَلَك الذى كان يتحدث إليك .. فقبضت قبضة من التراب حيث موضع قدمه .. وعلمت أن المَلَك روح خالص ، وأن فى آثاره على الأرض أثراً من الروح .. هكذا قدرت .. وقد رأيت أن أجرّب الأمر فصنعت من الحلىّ تمثالا على هيئة عجل .. ثم ألقيت فيه بهذا الأثر ، فدبت فيه الحياة ، وانطلق منه الُخوار .. ففتن القوم به .. وعبدوه !

وكان ردّ موسى على السامرى :

* « قال فاذهبْ فإن لك فى الحياة أن تقول لامِسَاسَ » .

هذا هو عقابك فى الدنيا ، أن تتحاشى الناس ، ويتحاشاك الناس . . وألا تمسّهم ، ولا يمسّوك ، فإن فَعَلْتَ أو فُعل بك ، أصبت بالحمى ، أو مسّك شواظ من نار .. وهذا هو عقاب الدنيا .. وهو من جنس عمله ، فقـد أراد بالعجل الذى صنعه ، أن يجمع النـاس حوله ، وأن يكون ذا سلطان فيهم .. فـكان أن حرمه الله هذا السلطان ، بل وأخرجه من أن يعيش مـع أحد ، أو يتصل بأحد ، بهذا الداء الذى رماه به . .

* وقوله : « وإنَّ لك موعداً لن تُخْلَفَه » .. الموعد ، هو الوعد ، وهو يوم القيامة .. وهو موعد الناس جميعاً للحساب والجزاء .. ومن بين الناس السامرىُّ هذا ، فإنه سيبعث ، ويحاسب ، ويجازى على ما كسب .

* وقوله : « وانظر إلى إلـهِكَ الذى ظَلْتَ عليه عاكفاً لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نَسْفاً » .. هو خطاب من موسى إلى السامرى ، وإلى بنى إسرائيل جميعاً .. وخصّ السامرىّ بالخطاب ، لأنه رأس الفتنة ، ومدبرها ، ومخرج هذا الإله للناس ، فى العجل الذى صوّره ..

فهذا الإله و العجل الذى ظلّ عليه القوم عاكفين ، يعبدونه ، ويقدمون القرابين إليه ــ سيمثل به موسى أشنع تمثيل أمام أعينهم .. إنه سيحرقه ، ثم يطحنه طحناً ، وينسفه نسفاً ، حتى يصير رماداً .. ثم يلقى به فى اليم .. فهل يمثل هذا يفعل بالإله ؟ وهل يكون إلهاً من لايدفع عن نفسه مايُفعل به من مكروه ؟

*وقوله تعالى : « إنما إلـهكم الله الذى لآ إله إلا هو وسع كل شىء علماً » .. هو من قول موسى ، تعقيباً على هذا الفعل الذى فعله بالعجل ، وأرى القوم منه بأنه ليس إلا شيئاً من هذه الأشياء القائمة بينهم ، من جماد أو حيوان .. وبأنهم

كانوا على ضـــلال مبين ، وجهل غليظ ، حين عبدوا هذا الـكائن ، واتخذوه إلهاً ..

ولـكن هل ينتفع القوم بهذه التجربة الحيّة ؟ وهل تخلُصُ نفوسهم للإيمان بالله والاستقامة على سبيله ؟

إن الأيام ستـكشف منهم عن أخبث طباع ، والأم نفوس ركبت فى الناس !

الآيات : (٩٩ — ١٠٤)

* « كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » (١٠٤)

التفسير :

بدأت قصة موسى بتوجيه الخطاب إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى .. « وهل أتاك حديث موسى .. » ثم جاءت الآيات بعد هذا تحدّث بهذا الحديث .. فهو إذن حديثٌ مساقٌ إلى النبىّ ، صلوات الله وسلامه عليه .. تسريةً له ، وتثبيتاً لفؤاده ، بما يشهد من مواقف النبيين مع أقوامهم ، ومواقف أقوامهم منهم ، وما يلقى النبيون من معاندين ، وضالّين ، وسفهاء ..

ثم إذا انتهت القصة ، عاد الخطاب إلى النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ توكيداً للخطاب الأول ، وتذكيراً به ، وأن هذه القصة ، وغيرها من القصص القرآنى ، إنما كانت من أجل النبيّ .. ثم إنه من جهة أخرى إيناسٌ له صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الصلة الدائمة بينه وبين ربّه ، بهذا الخطاب الذى يخاطب به من ربّه .. ، فى ثنايا الآيات التى تتنزل عليه .

وقوله تعالى :

* « كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً » ..

إشارة إلى أنه بمثل هذا القصص يقصّ الله على النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنباء ماقد سبق من أحوال الرسل والأمم .. وأن قصة موسى هذه ليست إلا واحدة من القصص الذى سيقصه الله سبحانه وتعالى على النبيّ ، فيما سينزل من القرآن بعد هذا ..

ـــ وفى قوله تعالى : « وقد آتيناك من لدنا ذكراً » ـ إشارة أخرى إلى أن القرآن الذى بين يدى النبيّ ، وما فيه من آيات ، دالّة على قدرة الله ، وما فيه من شرائع وأحكام ـ هو ذكر لمن يتذكر ، وعظة لمن يعتبر ، وأن هذا القصص ليس إلا من بعض آيات الله التى تحمل العظة والعبرة ..

قوله تعالى :

* « من أعرض عنه فإنه يحملُ يومَ القيامة وِزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِملاً » ..

أى من أعرض عن هذا القرآن ، ولم يُقبل عليه ، وينتفع به ، ويأخذ بما فيه من عبر وعظات ، وأحكام وشرائع ـ من أعرض عن هذا « الذكر » فإنه قد خاب وخسر ، وجاء يوم القيامة حاملا « وزراً » أى إثما عظيما ، ينوء به

كاهله ، ويعيا به جهده .. لأنه يحيا بغير نور ، ويسعى على غير هدى ..

ثم يتجه الخطاب بعـد هذا إلى المعرضين جميعاً عن هذا الذكر .. إنهم سيحملون هذا الوزر أبداً ، لايتخلّى عنهم ، ولا يُرفع عن كواهلهم .. وهو حمل يَسوء حامليه يوم القيامة ، ويصبّ عليهم البلاء صبًّا ..

والسرّ فى إفراد الخطاب أولا ، ثم فى جمعه ثانياً « من أعرض عنه . . . وساء لهم » ، هو ــ والله أعلم ــ أن الإعراض عن الذكر حال من أحوال الإنسان فيما بينه وبين نفسه .. لاينكشف لغيره من الناس ، إلا ماشفّ عنه عن ظاهره ، أما ما انطوى عليه باطنه ــ وهو الذى يمثل الحقيقة ، فإنه سرّ بين الإنسان وخالقه ..

أما يوم القيامة ، فلا سرّ ، حيث تُفضح الأعمال ، وينكشف المستور .. وهنا يجتمع المجرمون إلى المجرمين .. وإذا هم جميعاً على حال سواء ..

قوله تعالى :

* « يوم يُنْفَخُ فى الصُّور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً » . .

الظرف هنا « يوم » هو بدل من الظرف فى قوله تعالى : « وساء لهم يوم القيامة حِملا » فيوم القيامة ، هو يومُ النفخ فى الصور ، حيث يُحشر المجرمون يومئذ زُرْقاً ، أى زرق الوجوه ، لما يركبهم يومئذ من همّ وكرب ، وما يظهر على وجوههم من آثار هذا الهم ، وذلك الكرب ، إذ كانت الوجوه هى التى تكشف عما يقع على مشاعر الإنسان من سوء أو مسرة . . كما يقول سبحانه وتعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يُفعَل بها .. فاقرة » (٢٢ — ٢٥ : القيامة) .

وكما يقول سبحانه فى وجوه أهل النعيم « تعرف فى وجوههم نَضْرةَ النعيم » (٢٤ : المطففين) وفى وجوه أهل الشقوة والجحيم : « ووجوه يومئذ

عليها غَبَرَة * ترهقها قترة * أولئك هم الكَفَرة الفَجَرة» (٤٠ ـ ٤٢ : عبس).

والزرقة التي تعلو الوجوه، هي أولى الدلالات على انحباس الدم وتجمده في كيان الإنسان، مما يعاني من ضيق وبلاء!

قوله تعالى:

«يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون.. إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»..

يتخافتون: أي يتحدثون بحديث خافت، يسترونه بينهم.. فيقول بعضهم لبعض «إن لبثتم إلا عشرا» أي: مالبثتم إلا عشراً، أي عشر ليال في دنيا كم هذه التي كنتم فيها..

— وقوله تعالى: «نحن أعلم بما يقولون» إشارة إلى علم الله سبحانه وتعالى بكل ما يُسِرّ به بعضُهم إلى بعض، وبكل ما يجرى في خواطرهم..

— وقوله تعالى: «إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً» أي ونحن أعلم بما يقوله «أمثلهم طريقة» أي أعدلهم قولا، وأقربهم إلى الحال التي يجدونها في أنفسهم: «إنْ لبثتم إلا يوماً» أي ما لبثتم إلا يوماً.. فهذه الدنيا، وما تقلّب فيه أهلها، من نعيمها، وسلطانها، لا تبدو لأهلها يوم القيامة إلا أشبه بيوم، طلعت شمسه، ثم غربت.. «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (١٨٥: آل عمران)..

الآيات: (١٠٥ — ١١٤)

* «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

ٱلدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » (١١٤)

التفسير :

ذكرت الآيات السابقة على هذه الآيات ، يومَ القيامة ، وما يقع للظالمين فيه ، وما يجرى بينهم من أحاديث متخافتة .. وكان مما يسأل عنه من شأن هذا اليوم . . هذه الجبال . . وهل تبقى على ما هى عليه ؟ فكان السؤال ، وكان الجواب :

* « ويسألونك عن الجبال » أى ما شأنها يوم القيامة ؟ وهل تظلّ قائمة ؟ وهلاّ يجد الناس فيها يومئذ عاصما يعتصمون به فى مغاراتها وكهوفها ، من هول هذا اليوم .. « فقل ينسفها ربى نسفاً » أى يدكها دكًّا ، ويهدّها هدًّا ، فإذا هى تراب على هذا التراب : « فيذرها قاعاً صفصفاً » أى يتركها ، ويصيرها ، « قاعاً » كهذه القيعان التى كانت تعلوها ..

والقاع : الأرض المنخفضة.. والصفصف : المستوى من الأرض ..

* « لا ترى فيها عوجاً » حيث تُسوى بوجه الأرض ، فتكون هى والأرض بساطاً واحداً ، لاعوج فيه ، لأن الموج إنما يبدو فى الأماكن البارزة ..
* « ولا أمتًا » أى لا ارتفاعاً ولا انخفاضاً ، بل كلها على سواء ..

وقوله تعالى :

* « يومئذ يتبعون الداعى لا عِوج له .. وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » ..

أى فى هذا اليوم ، يستجيب الناس — بعد أن يبعثوا من قبورهم — يستجيبون لصوت الداعى الذى يدعوهم إلى المحشر ، دون أن ينحرفوا أو يتلبثوا ..

* « وخشعت الأصوات للرحمن » أى سكتت الأصوات ، خشيةً وجلالا لله سبحانه وتعالى « فلا تسمع إلا همساً » فلا يكون هناك إلا الهمس والتخافت ..

قوله تعالى :

* « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » .

أى فى هذا اليوم لا تنفع الإنسانَ شفاعة فى نفسه إلا من أذن له الرحمن بالقول ، والمحاجّة عن نفسه .. ثم كان قوله هذا مقبولا عند الله ، مرضياً عنه ..
والمراد بالقول ، هو القول الذى يعرض فيه الإنسان أعماله فى الدنيا ، من خير وشر ، وحسن وقبيح .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا .. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٣٨ : النبأ) ..

قوله تعالى :

* « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » . .

أى أن الله سبحانه يعلم من أمر عباده كل شىء .. فما ينطقون به ، وما لم ينطقوا به ، هو فى علم الله ، لا يعزب عنه شىء . أما هم فإنهم لا يحيطون علماً بالله سبحانه وتعالى ، ولا يدركون كنهه وحقيقته ..

قوله تعالى :

* « وعَنَتِ الوجوه للحىّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » . .

أى فى هذا اليوم تعنو الوجوه ، وتخضع الرقاب لله الحى القيوم .. لا تملك نفس لنفس شيئاً .. « وقد خاب » وخسر فى هذا اليوم « من حمل ظلماً » أى من جاء وهو يحمل على كاهله « ظلماً » أى منكراً من المنكرات

وأفدح الظلم وأبهظه ، هو الشرك بالله كما يقول سبحانه :

« إن الشرك لظلم عظيم » .. وذلك هو البلاء العظيم ، والخسران المبين .

قوله تعالى ..

* « ومن يَعْمَلْ من الصالحاتِ وَهُوَ مؤمن فلا يخافُ ظلماً ولا هضماً »

أى أما من جاء بالصالحات من الأعمال ، وكان مؤمناً بالله ، فإنه فى أمان من أهوال هذا اليوم .. « فلا يخاف ظلماً ولا هضما » .. بل سيجد الجزاء الحسن لِما عمل ، ويوفّى أجره كاملا ، بل ويضاعف له أجره . . « ولا يظلم ربك أحداً » . .

والهضم : هو الجور على الحقوق ، وبخسها ونقصانها ..

قوله تعالى :

* « وكذلك أنزلناه قرآناً عربيًّا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » ..

أى بمثل هذا التّصريف ، والتنويع ، فى عرض مايُعرض من صور الوعيد لهذا اليوم ، والتخويف منه ـ صرّفنا ، وعَرَضْنا هذه المعارض من أهوال الآخرة ، وما يلقى الظالمون فيها .. وذلك ليكون للناس من ذلك مايحملهم على اتقاء أهوال هذا اليوم ، بالإيمان بالله ، والأعمال الصالحة التى تنال مرضاته .. فإن لم يتقوا هذا اليوم ، ويعملوا له ، فلا أقلّ من أن يُحدث لهم هذا التصريف والعرض لعذاب هذا اليوم ـ ذكراً ، أى تذكراً له ، وإحساساً به .. فإذا صحبهم هذا الإحساس ، كان من شأنه أن يَحيدَ بهم عن طريق الضلال يوماً إلى طريق الهدى والإيمان ..

أما من لايكون لهم من هذا التصريف مايبعثهم على التقوى ، أو استصحاب الخوف من عذاب الله ـ فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ..

ــ وفى قوله تعالى : « أنزلناه قرآناً عربياً » إشارة إلى هؤلاء المشركين من قريش ، وأن هذا التصريف من الوعيد ، قد جاءهم بلسان عربىّ مبين ، بحيث لاتخفى عليهم دلالاته ، وإذن فلا عذر لهم ، إذاهم عموا عن النظر فى آياته البينات !

قوله تعالى :

* « فتعالى الله الملكُ الحقّ .. ولا تعجلْ بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه وقل رب زِدنى علماً » ..

« فتعالى الله الملك الحق » أى تنزّه ، وعَلاَ ، وعظم ، سبحانه وتعالى

جلّ شأنه .. فهو « الملك الحقّ » له الملك وحده ، لايشاركه فيه غيره ، ولايملك معه أحد شيئاً .. فهو - سبحانه - المالك مِلكاً حقيقياً لكل موجود ..

وفى هذا المقطع من الآية تمجيد لله ، وتنزيه له .. لأنه سبحانه وحده المستحق للتنزيه والتمجيد ، والحمد ، إذ خَلَق الوجود ، وأقام كل مخلوق فيه ، وهداه إلى ماهو أصلح له ، ورسم للناس طريق الهدى ، وأبان لهم معالمها ، وبعث فيهم رسله ، مبشرين ومنذرين .. « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل » (١٦٥ : النساء)

* « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه » ..

هو دعوة للنبى صلى الله عليه وسلم ألاّ يعجل بقراءة ماينزل عليه من القرآن ، من قبل أن ينتهى جبريل - مبلّغ القرآن - من الإفضاء بكل ما أُمر بتبليغه ..

وقد كان النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، كلّما سمع آية أو بعض آية من جبريل ردّدها خوفاً من نِسْيانها .. ثم يصل ماسمع بما يَسْمَع .. وذلك حرصاً منه صلى الله عليه وسلم ، على ألا يفوته شيء من كلمات ربّه ..

- فجاء قوله تعالى : « ولا تعجلْ بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه » - إرشاداً ، وتعليما ، للنبيّ ، وتوجيهاً كريماً لحسُن الاستماع لآيات الله .. كما يقول سبحانه : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا » (٢٠٣ : الأعراف) ..

وقد جاء فى موضع آخر ، قوله تعالى : « لاتحرّكْ به لسانك لتعجل به * إنَّ علينا جَمْعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه » (١٦ - ١٩ : القيامة) ..

وجاء فى موضع ثالث ؛ قوله سبحانه : « سنقرئك فلا تنسى » (٦ : الأعلى)

وهذا كلّه تطمين للنبيّ ، وإزالة لمخاوفه من أن يفوته شيء من كلام ربّه .. فالله سبحانه وتعالى سيُقرئه ، والله سبحانه وتعالى ، سيحفظ عليه ماقرأ ، فلا ينسى . .

— وفى قوله تعالى : « وقل ربِّ زدْنى علماً » .. أى اطلب المزيد من العلم ، فيما ينزل عليك من آيات ربك .. فهذا الذى أخذته من كتاب الله ، هو قليل بالنسبة إلى الكثير الذى لم ينزل عليك بعد . . فلا تعجَل ! ! وصبراً ، فإن ماعند الله لك ، كثير ..

الآيات : (١١٥ — ١٢٧)

* « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ

تُنْسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ » (١٢٧)

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد عَهِدنا إلى آدم من قبلُ فَنَسِيَ ولم نَجِد له عزماً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة عليها ، قد جاءت إلى النبىّ الكريم منبهة له ألا يعجل بالقرآن ، وألا يسبق الوحى ، حتى ينتهى جبريل من أدائه ..

وهذا الذى ينزل من القرآن الكريم ، هو عهد بين النبىّ وربّه ، وأن من واجبه أن يتثبت منه ، وأن يقف طويلا عند آياته وكلماته ، حتى يقوم بالوفاء بهذا العهد ، على أكمل كماله ، وأتم تمامه ..

وهذا عهد كان بين الله سبحانه وتعالى ، وبين آدم .. وقد نسى آدم هذا العهد ، فكان أن وقع فى المعصية ..!

والله سبحانه وتعالى يريد أن يعصم النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مما وقع فيه آدم .. ولهذا ، فهو سبحانه ، يدعوه إلى التثبت من الوحى .. ثم يعرض له صورة يمكن أن تحدث له ، إذا لم يتثبت مما يتلقى من آيات ربّه ..

والعهد الذى عهد به سبحانه وتعالى إلى آدم ، هو قوله سبحانه وتعالى : « وقلنا يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (٣٥ : البقرة) .

— وقوله تعالى : « فنسى » أى نسى آدم عهد ربّه ، وأكل من الشجرة !

وفى التعبير عن مخالفة أمر ربّه وأكله من الشجرة ، بالنسيان ، إشارة إلى ماشمل الله سبحانه وتعالى به آدم من لطفه ورحمته .. فتاب عليه ، وغفر له ، وجعل معصيته تلك من قبيل مايقع من الإنسان من سهو ونسيان !

— وقوله تعالى : « ولم نجد له عزماً » إشارة إلى أن آدم قد ضعف أمام إغراء الشيطان له ، ولم يجد العزم الذى يمضى به أمر ربّه ، ويُخْزِى به الشيطان الرجيم ، ويَكبته !

قوله تعالى :

* « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » .

هو استعراض لقصة آدم ، وعهد الله إليه ..

وفى القصة تقديم وتأخير . فقد قُدمت خاتمتها على أحداثها ، فقوله تعالى : — « ولقد عهدنا إلى آدم .. » هو ختام القصة ، أو التعقيب عليها ، وَقُدّم للاهتمام به ، ولإلفات النبىّ إليه ، لأنه هو المقصود من القصة هنا ..

قوله تعالى :

* « فقلنا يا آدم .. إن هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى » ..

وتوجيه الخطاب إلى آدم فى قوله تعالى : « فتشقى » إشارة إلى أن آدم هو الذى يحمل العبء الأكبر فى مواجهة الحياة ، إذا هو خرج من الجنة ..

قوله تعالى :

* « إن لك ألا تجوعَ فيها ولا تعرَى * وأنك لاتَظْمأ فيها ولا تَضْحَى » .

تلك هى جنة آدم . . !

إنها غابة من تلك الغابات الكثيفة ، التى تكثر فيها الفاكهة والظلّ والماء .

فمن فاكهة تلك الجنة يأكل هو وزوجه . . فلا يجوع . . ومن ماء الينابيع يشرب ، فلا يظمأ . . وفى أكناف الغابة يستكن ، ولا يخرج للعراء . .

وفى ظلال الأشجار ، يتّقى أشعة الشمس .. فلا يَضْحَى . . أى لا يجد الحرّ الذى يتسلط عليه من الشمس ، حين يكون بالضِّحّ ، أى العراء ..

تلك — فى رأينا — هى جنة آدم ، وهى جنة أرضية ، وآدم فى هذه الجنة ، أو الغابة لم يكن إلا الثمرة الأولى التى نضجت على هذه الأرض ، من شجرة الحياة . .

وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص،فى الجزء الأول من كتابنا هذا : « التفسير القرآنى للقرآن » . .

قوله تعالى :

* « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم . . هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبَدَت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .. وعصى آدم ربه فغوى » . .

ولقد استجاب آدم لإغراء الشيطان ، ولدوافع نفسه للكشف عن هذا السر المضمر فى تلك الشجرة ، التى نُهى عن الأكل منها . فأكل منها هو وزوجه . وهنا تكشفت لهما الحقيقة من أمرهما ، ونظرا إلى وجودهما — لأول مرة — نظرة واعية مدركة ، فرأيا أنهما على حال من العرى ، لا تليق بهما . . فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ليسترا به عورتيهما . .

— وقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » إشارة إلى موقف آدم بعد أكله من الشجرة . لقد عصى ربه ، عصاه لأنه أصبح ذا إرادة ،

تجيء منها الطاعة ، كما يجيء منها العصيان ! وهو بهذا العصيان قد « غَوَى » أى ضلّ ، إذ اتبع الجانب المنحرف من إرادته ، ولم يتبع الجانب المستقيم منها .

قوله تعالى :

« ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى » . .

إشارة إلى أن الله سبحانه ، قد تجاوز لآدم هذا ، عن فعلته تلك . . إذ كانت أولَ زلّة له ، وهو يضع أول قدم له على طريق الإنسانية . . ثم هداه ربّه بعد هذا ، وثبت قدمه على الأرض ، بما فتح له عقله من آفاق واسعة فيها ، لاتزال تتسع يوماً بعد يوم . . إلى ماشاء الله .

قوله تعالى :

* « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منّى هدًى فمن اتّبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » .

والهبوط هنا ، هو الخروج من الجنة أو الغابة ، إلى حيث الحياة الواسعة الرحيبة . .

والخطاب هنا للآدميين ، الذين خرجوا من عالم الغابة ، إلى عالم الإنسان فى شخص آدم وزوجه . . وهم فى هذا العالم ، متنافسون ، متنازعون،متعادون . . تتفرق بهم السبل ، وتنحرف الاتجاهات . . وقد كان من رحمة الله بهم أن بعث فيهم رسله ، يحملون فى أيديهم مصابيح الهدى . . فمن اتبع هدى الله ، فلا يضلّ ولا يشقى . . ومن أبى ، وأعرض عن ذكر الله والاستقامة على هداه ، فإنه سيحيا فى هذه الدنيا حياة تعسةً ضالة ، يضرب فيها فى ظلام ، لايرى فيه بصيصاً من الأمل والرجاء . . ثم يُحشر يوم القيامة أعمى ، حيث يشتد به

الـكرب، وتَغيمُ فى وجهه المرئيات ، فلا يرى إلا ظلاماً وضلالاً .

قوله تعالى :

* « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

وفى ذلة وانـكسار ، يسأل الظالم ربه : « لم حشرتنى أعمى وقـد كنتُ بصيراً ؟ » فى الدنيا . . ويأتيه الجواب من الحق سبحانه وتعالى : « كذلك » أى كهذا العمى الذى أنت عليه فى الآخرة ، كنت فى الدنيا ، إذ أتتك آياتنا فَعَميت عنها ، وأهملت النظر فيها . . « وكذلك اليوم » أى فى هـذا اليوم ، يوم القيامة « تُنْسَى » أى تترك فيما أنت عليه من عَمًى . .

قوله تعالى :

* « وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمِنْ بآياتِ رَبّه ولعذابُ الآخرة أشدّ وأبقى » .

أى بمثل هذا الجزاء نجزى من أسرف على نفسه ، ودفع بهـا فى متاهات الضلال ، ولم يؤمن بآيات ربه التى عُرضت عليه . . إنه يُحشر يوم القيامة أعمى . . ثم إن وراء هذا عذابا هو أشدُّ من هذا العمى ، وأبقى أثراً .

الآيات : (١٢٨ — ١٣٥)

* « أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ

فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَى » (١٣٥)

التفسير :

* قوله تعالى :

« أفلم يهدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم .. إن فى ذلك لآياتٍ لأولى النهى » ..

الاستفهام هنا للإيجاب والتقرير .. ويهدى : يبيّن .. والنُّهَى العقول، حيث تنهى أصحابها عن المنكرات من الأمور ..

ويكون المعنى .. أن القرآن الكريم قد بيّن لهؤلاء المشركين ما حل بالأمم السابقة قبلهم ، وما صار إليه أمرهم ، بعد أن عمروا الأرضَ أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون ، وقد كان فى ذلك عبرة لمن يُدير نظره ، ويُلفت عقله إلى هذه العبر والمثلات .. ولكن القوم فى غفلةٍ معرضون ..

— وقوله تعالى : « يمشون فى مساكنهم » جملة حالية ، وصاحب الحال ضمير الغائب العائد على المشركين فى قوله تعالى : « قبلهم »

قوله تعالى :

* « وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من ربِّك لـكان لزاما وأجل مُسمى » .

الـكلمة التى سبقت من الله سبحانه وتعالى ، هى قوله تعالى للنبى الـكريم :

« وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذِّبهم وهم يستغفرون » فلولا هذه الـكلمة التى أعطاها الله سبحانه وعداً لنبيه الـكريم « لـكان لزاما » أى لـكان أمراً لازماً لامحيصَ عنه ، وهو أن يحلّ بهؤلاء المشركين ، الذين عصوْا رسول الله ما حلّ بغيرهم من القرون السابقة ، الذين عصوْا رسل الله ..

— وقوله تعالى : « وأجلٌ مسمًّى» معطوف على قوله تعالى : « كلمةٌ سبقت » .. أى لولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمًّى لـكان لزاما . . وقُدِّم جواب لولا على بقية الشرط ، للاهتمام به ، والإلفات إليه .. وأن كلمة الله هى الرحمة التى رحمهم بها بفضل مقام النبىِّ الـكريم فيهم .. فلعلّ هؤلاء المشركين يعرفون نعمة الله فيهم ، ومقام النبى بينهم ..

والأجل المسمى ، هوما قَدّر لهم من آجال فى هذه الدنيا ..

قوله تعالى :

*« فاصبرْ على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبِّحْ وأطراف النهار لعلك ترضى » .

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو دعوة له بالصبر على ما يكره من أقوال المشركين المنـكرة التى يرمونه . . بها وليجعل من تسبيح ربّه ، وذكره وحمده وشكره ، غذاءه الذى يتغذّى به ، ودواءه الذى يتداوى به ، فى أوقات

مختلفة من الليلَ والنهار . . قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وفى أجزاء من الليل ، وأطراف من النهار . . وبذلك تسكنُ نفسه ويطمئنّ قلبه .. «ألاَ بذكر الله تطمئن القلوب » (٢٨ : الرعد) .

قوله تعالى :

* « ولاَتمُدَّنَّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدُّنيا . . لنفتنَهم فيه .. ورزق ربّك خيرٌ وأبقى » .

والخطاب هنا أيضاً للنبى ، ومن ورائه كل من اتّبعه ، وسلك سبيله ..

—وقوله تعالى : «ولا تمدّنّ عينيك» نهى يرادبه النصح والإرشاد ، وذلك بألا يلتفت النبىّ والمؤمنون إلى ما بين أيدى هؤلاء المشركين من أموال وبنين وألا يقع فى نفسه ، أو أنفس المؤمنين ، أن ذلك الذى أمدّ الله بعض المشركين، به ، من نعمة ، هو تكريم لهم ، وإحسان منه سبحانه وتعالى إليهم .. بل هو ابتلاء وامتحان لهم ، ليرى منهم سبحانه أيشكرون أم يكفرون ؟ . . وها هم أولاء قد كفروا به ، وحادّوه ، وحاربوا رسوله ، وبهذا تحولت هذه النعم إلى سيئات وأوزار ، تضاف إلى رصيدهم مما كسبوا من سيئات وأوزار . .

— وفى قوله تعالى : « أزواجاً منهم » إشارة إلىأن ما يتمتع به المشرك من عَطَاء الله هو شركة بينه وبين زوجه ، التى هى متعة من متعه ؛ وهو متعة لها . .

فالمرأة كالرجل هنا ، فى أنها مبتلاة بنعم الله ، ومحاسبة عليها . . فإن شكرت ، وآمنت ، وعملت صالحاً أخذت بحظها من رضوان الله ، وإن جحدت وكفرت ، وخالطت الآثام ، فعليها وزر ما عملت ، وستلقى جزاءها من عذاب الله .

— وفى قوله تعالى: « زهرةَ الحياة الدنيا » إشارة إلى أن ذلك المتاع الذى ف

أيدى الناس ، هو زهرةٌ من زهرات الحياة الدنيا ، يبهج العين ، ويسرّ القلب.. ولكنّه لا يعمّر طويلا ، بل سرعان مايذبلُ ويجفّ ، ثم يصير حطاما .. تماماً كالزهرة . تملأ العين بهجة ومسّرة ، ثم تموت وشيكا !!

و « زهرة » منصوب على أنه مفعول ثانٍ للفعل : « متّعنا » لتضمنه معنى « أعطينا » .

— وفى قوله تعالى : « ورزق ربّك خيرٌ وأبقى » ـ إشارة إلى مابين يدى النبىّ الكريم من رزق عظيم .. هو القرآن الكريم ، ثم تلك الرسالة الشريفة التى اصطفاه الله لها ، وتخيّره لتبليغها عنه إلى عباده ! فأى رزق خير من هذا الرزق ؟ وأى عطاء أكرم وأوفر من هذا العطاء ؟ إنه أشرف قدراً ، وأعظم أثراً ، وأخلد ذكراً من كلّ مافى هذه الدنيا من مال ومتاع !

قوله تعالى :

* « وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبر عليها .. لانسألك رزقا .. نحن نَرْزُقُكَ والعاقبة للتقوى » ..

هو دعوة للنبى الكريم أن يدعو أهله من زوج وولد ، وكلّ مُؤمن ومؤمنة ، إذ كانوا جميعاً أهله ، وهو القيّم عليهم ، والمدبّر لأمرهم ـ أن يدعوهم جميعاً للصلاة ، إذ هى الصورة المُثلى الكاملة لذكر الله ، وحمده وشكره ..

— وقوله تعالى : « واصطبر عليها » أمرٌ بالمداومة عليها ، وإن كان فى تلك المداومة شىء من العنَاء .. فذلك تكليف ، وللتكاليف أعباؤها وأثقالها ، وإلا ما استحقّ القائمون بها حمداً ، ولا استوجبوا أجراً ..

— وفى قوله تعالى : « لانَسألك رزقاً » ـ إشارة إلى أن الصّلاة التى يؤديها النبىّ ومن معه من المؤمنين لله ـ ليست سدًّا لحاجة الله سبحانه وتعالى إليها ،

فالله سبحانه فى غنًى عن العالمين .. وكلّ مايتقدم به المؤمنون والمتقون إلى الله من طاعات وقرباتٍ عائد إليهم ، حيث تطهر به قلوبهم ، وتزكو به نفوسهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : « ما أريد منهم من رزقٍ وما أريدُ أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (٥٧ ـ ٥٨ : الذاريات) ويقول سبحانه فى هَدْى الأضاحى : « لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٣٧ : الحج) .

— وفى قوله تعالى : « نحن نرزقك » مقابلة لقوله تعالى : « لانسألك رزقاً » أى بل نحنِ نرزقُك، ونتفضّل عليك ابتداء وانتهاء ..

— وقوله تعالى : « والعاقبة للتقوى » ـ إشارة إلى أن مايؤديه النبىّ والمؤمنون لله سبحانه وتعالى من عبادات ، وقربات ، هو مما يُدَّخر لهم ، ويبقى .. كما يقول سبحانه : « والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أملا » (٤٦ : الكهف) .

وفى إسناد العاقبة إلى التقوى ، لا إلى الأعمال الصالحة ، إشارة إلى أن الأعمال الصالحة هى وسائل إلى غاية ، والغاية هى التقوى .. التى هى ثمرة الأعمال الصالحة ..

قوله تعالى :

* « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربِّه ؟ أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ؟ » ..

القائلون هذا القول هم المشركون .. وفى حكاية قولهم ، إعلان لهم بتلك التهمة ، وعرضهم فى ساحة الاتهام بها ، والحساب عليها ..

والآية التى يطلبونها ، ويلحّون فى طلبها ، هى آية مادية ، يرونها رأى

العين ، ولو كانت عذاباً يسقط عليهم من السماء ، أو بلاء يطلع عليهم من الأرض ..

وفى قولهم : « من ربّه » استهزاء بالنبىّ وسخرية به ، وسفاهة عليه منهم .. وقد ردّ الله عليهم بقوله : « أو لم تأتهم بيّنة ما فى الصحف الأولى ؟ »

والبيّنة هى القرآن الكريم ، والنبىّ الكريم معاً .. كما يقول سبحانه : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صُحفاً مطهّرة * فيها كتب قيمة » (١ ــ ٣ : البينة) .

والصحف الأولى ، هى صحف إبراهيم وموسى ، كما يقول الله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى » (١٨ ــ ١٩ : الأعلى) .

والقرآن والرسول هما بيّنة لما فى الصحف الأولى ، أى هما بيان لها ، ومعلّم لما جاء فيها .. فهو المصدِّق لها ، والمهيمن عليها ..

قوله تعالى :

« ولو أنا أهلكناهُم بعذابٍ من قبله لقالُوا ربّنا لولآ أرسلتَ إلينا رسولا فنتّبعَ آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى » .

هو تهديد للمشركين ، وأنهم فى معرض العذاب بعد أن نزل عليهم القرآن ، وبلّغهم الرسول آيات ربّه .. وأنهم لاحجة لهم إذا هم وقعوا تحت عذاب الله ، وأخذوا بما أخذ به الظالمون قبلهم .. فهم ــ والأمر كذلك ــ لايستطيعون أن يقولوا : ربّنا لَوْلآ أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تأخذنا بهذا العذاب ؟ إنك لو أرسلت إلينا رسولاً لآمنا به ، ولما حلّ بنا الذل والخزى ، ولما نزل بنا ما نزل من بلاء !

لقد قُطعت حجتهم .. فهذا رسول الله بينهم ، وهذا كتاب الله يُتلى عليهم .. فماذا هم قائلون لو أخذهم الله ببأسه ، وأوقع بهم عذابه ؟

قوله تعالى :

* « قُلْ كلٌّ متربّص .. فتربصوا .. فستعلمون مَن أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى » ..

وبهذه الآية تُختم السورة الكريمة ، لتُنهى موقفاً من مواقف الدعوة ، بين النبىّ والمشركين ..

إنهم قد أُبلغوا رسالة ربّهم ، وقد صُرّفت لهم الآيات ، وضربت لهم الأمثال ، وأقيمت الحجج والبراهين .. وهاهم أولاء على مفترق الطرق .. فإما أن يأخذوا يميناً أو شمالا .. إما أن يؤمنوا بالله ، ويستجيبوا لرسول الله ، فتسلم لهم دنياهم وآخرتهم جميعاً .. وإما أن يصدّوا عن سبيل الله ، ويأخذوا طريقهم مع أهوائهم وشياطينهم ، فيخسروا الدنيا والآخرة معاً .. وستكشف الأيام مايكون منهم .. وسيعلم الظالمون لمن عقبى الدار !

* * *

بعون الله تم الكتاب الثامن ، ويليه الكتاب التاسع إن شاء الله . وفيه تفسير الجزءين السابع عشر والثامن عشر . . وعلى الله قصد السبيل ، ومنه سبحانه السداد والتوفيق ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب التاسع

الجزءان: السابع عشر والثامن عشر

من مباحث هذا الكتاب

- الخيرُ .. والشرُّ.
- أولياءُ اللهِ .. وما يُبتلون به
- الغرانيق العُلا .. قصتها ومن أين جاءت؟
- حديث الإفك .. عبرة وعظة.
- "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء" .. ما تأويله؟
- "الله نور السموات والأرض" .. ما تأويله؟

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

٢١ – سورة الأنبياء

نزولها : مكية . . بلا خلاف

عدد آياتها : مائة واثنتا عشرة آية

عدد كلماتها : ألف ومائة وثمان وستون كلمة .

عدد حروفها : أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون حرفاً .

وسميت سورة الأنبياء لكثرة مَن ذُكر فيها من الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم



الآيات : (١ — ٩)

* « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥) مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ (٩) »

التفسير :

مناسبة هذه السورة لما قبلها : خُتمت سورة طه بالتنديد بالمشركين من أهل مكة ، وبمشاقتهم لرسول الله ، وتأبّيهم على الهدى الذى يدعوهم إليه ، ثم إنهم وقد بعث الله فيهم رسولاً بلّغهم رسالة ربّه ، فلا حجة لهم على الله ، إذا أخذهم بعذابه ، ولا سبيل لهم إلى أن يقولوا : « ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبعَ آياتِك من قبل أن نَذِلّ ونَخزَى » .. ثم تختم السورة بهذا النذير المطلّ عليهم ، وقد تُركوا بمنقطع الطريق ، بعيدين عن أن يَضعوا أقدامهم على طريق الهدى : « قل كلٌّ متربّصٌ فتربصوا فستعلمون من أصحابُ الصِّراطِ السَّوىِّ ومن اهتدى » .

وفى مفتتح هذه السورة ـ سورة الأنبياء ـ تُطلّ على المشركين نُذُر هذا اليوم ، وهم على موعد معه ، وإن كانوا فى غفلة وذهول عنه .. « اقترب للناس حسابُهم ، وهم فى غفلةٍ معرضون » ..

* قوله تعالى :

« اقترب للناسِ حِسَابُهم وهم فى غفلةٍ مُعْرِضِونَ * مايأتيهم من ذِكرٍ من ربِّهم مُحدَثٍ إلاَّ استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبُهم وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلاَّ بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » .

الناس هنا ، هم هؤلاء المشركون ، من أهل مكة ، ثم يدخل معهم كلُّ الناس ، الذين غفلوا عن ذكر الله ، وعن العمل ليوم الجزاء ..

وفى النظم القرآنى « اقترب للناس حسابُهم » وفى الخروج به عن مألوف النظم ، وهو : « اقترب حساب الناس » ـ فى هذا توكيد لحسابهم ، وشدّهم به شدًّا وثيقاً لايُفلتون منه .. وشتان بين النظمين : اقترب للناس حسابهم .. واقترب حساب الناس . . !

— « وهم فى غفلة معرضون » أى وهم فى غفلةٍ مطبقة عامة .. غفلةٍ عن كل ماهو حق ، وخير ، كما يدل على ذلك تنكير الغفلة . وليس هذا فحسب ، بل إنهم مع غفلتهم هذه العامة الشاملة ، « معرضون » عن كل داع يدعوهم إلى أن ينظروا إلى أنفسهم ، وأن ينتبهوا من غفلتهم ..

والغفلة قد تكون لأمرٍ عارض ، بحيث إذا نُبّه الإنسان تنبه ، وإذا دُعى أجاب.. ولكن غفلة هؤلاء القوم ، غفلةٌ مستولية عليهم ، آخذة بكل حواسّهم ومدركاتهم : « وإن تدْعهم إلى الهُدى فلن يهتدوا إذاً أبداً » حيث أنهم مع هذه الغفلة المستولية عليهم ـ بعيدون عن دَعَوات التنبيه ، لا يلقونها إلا من وراء ظهورهم .. فهم عنها معرضون ..

* « مايأتيهم من ذِكر من ربّهم مُحدَث إلا استمعوه وهم يلعبون » .. هكذا شأن هؤلاء الغافلين .. تطرق أسماعَهم دعواتٌ متتابعة ، مجدّدة ، تجيئهم من كل جانب ، وتطلع عليهم من كل أفق .. ومع هذا فهم على ماهم عليه ، من غفلة ، ولهو ، وعبَث ..

والذّكر المحدَث ، هو مايتنزل من آيات الله ، حالا بعد حال ، ويتجدّد زمناً بعد زمن .. وهؤلاء المشركون الغافلون على حالٍ واحدة ، مع كل ماينزل من آيات الله ؛ يسمعونها بآذان لاتصغى إلى حق ، وبقلوب لاتتفتح لقبول خير ..

* « وأسَرُّوا النّجوَى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشرٌ مثلكم .. أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » ..

النجوى : التناجى فيما بينهم ..

وإسرار النجوى : مبالغتهم فى إخفاء ماتناجوْا به من منكرِ القول ، حتى يُحكموا كيدهم ، ويصِلُوا إلى رأى يجتمعون عليه ، ثم يطلعون على الناس به .. إنهم

يأتمرون فيما بينهم ، ليتفقوا على الكيد الذى يكيدون به لرسول الله ، ولآيات الله .

— وقوله تعالى : « الذين ظلموا » هو بدل من الضمير فى « أسرّوا » .. أى أن هؤلاء الذين أسرّوا النجوى ، هم ظالمون ، قد ظلموا أنفسهم بعزلها عن موارد الهدى ، وقطعها عن مناهل الخير ..

—وقوله تعالى : « هل هذا إلا بشر مثلُكم .. أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » هو بيان لما تناجى به القوم ، وأتمروا فيما بينهم على اصطياده ، من واردات أوهامهم ، وضلالاتهم .. « هل هذا إلا بشر مثلكم » ؟ وإذا كان بشراً مثلنا فكيف يكون له هذا المكان الذى يطلّ عليكم منه ، من هذا العالم العلوىّ ؟ « أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » ؟ وإذاً فكيف نَقْبل على أنفسنا أن نجىء إلى هذا الخِدَاع ونحن نراه رأى العين ؟

وهل يليق بعاقل أن يرى من يدعوه إلى خَتْله ، والاحتيال عليه ، ثم يأتيه طائعاً ؟هكذا يديرون هذا اللّغو ، ويسْمُرون به !

* قوله تعالى :

« قال ربّى يَعْلَمُ القوْل فى السّمآء والأرض وهو السّميع العليم » .

قُرِىء : « قُلْ ربى يعلم القول فى السماء والأرض » .

وعلى كلتا القراءتين ، فإن الآية ردٌّ على ماتناجى به المشركون وأسرُّوه .. حتى إذا أحكموا نَسْجه ، أعلنوه فى هذا القول المنكر : « إن هذا إلاَّ بشرٌ مثلُكم .. أفتأتون السِّحْرَ وأنتم تبصرون » .. وأن الله سبحانه يعلم ما أسروا وما أعلنوا ، فهو سبحانه يعلم كل مايقال فى السماء والأرض ، وهو « السميع » الذى يسمع نجوى القلوب ، « العليم » الذى يعلم ماتكنّ الضمائر .. « وأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » (١٣ : الملك) .

* قوله تعالى :

« بل قالوا أضغاثُ أحلام .. بل افتراه .. بل هو شاعرٌ .. فليأتنا بآيةٍ كما أرسل الأولون » .

هو فضحٌ لما تناجى به القوم ، وكان مما جرى به الحديث بينهم .. فقالوا فيما قالوه عن القرآن الكريم : هو « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام ، وهلوسة نائم ، معتلّ المزاج ، مخبول العقل . . وإذ لم يرتض بعضُهم هذا القول ردّوه ، وقالوا : « بل هو شاعر » أى من واردات الشعر ، ومن نسج أخيلته .. وإذ لم يرض بعضهم هذا القول أو ذاك قالوا : « فليأتنا بآيةٍ كما أُرسل الأولون » أى ندع محاجّته فى هذا الكلام الذى يلقيه علينا ، ويقول عنه إنه معجزته التى يقدّمها بين يدى رسالته ، وليأتنا بمعجزة غير كلامية ، فإن مجال الكلام متّسع لكل قائل .. فإن كان رسولا من عند الله ، كما يدّعى ، فلِمَ لم يأتِ بمعجزة نراها ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، ويد عيسى ؟ عندئذ يمكن أن يكون له وجه يلقانا به على طريق دعوته ، ويكون لنا نظر فيما يدّعيه .. !

فانظر إلى كلمات الله ، وقد أمسكت بالقوم وهم على مسرح الجريمة ، ثم أخذت ماجرى على لسان كل ذى قول قاله فى هذا المجلس الآثم . .

« قالوا : أضغاث أحلام .. بل افتراه .. بل هو شاعر .. فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » .

لقد ذهب كل فريق منهم بقول من هذه الأقوال .. !

وقد نُسبت كل مقولة إليهم جميعاً .. إذ كانوا كلهم شركاء فيما قيل .. فالمتكلم والسامع جميعاً ، شركاء فيه .

* قوله تعالى :

« ما آمنَتْ قبلَهم من قريةٍ أهلكناها .. أفَهم يؤمنون » .

هو ردٌّ على ما اقترحه المشركون من أن يأتيهم النبيّ بآية كآيات المرسلين قَبلَه..

فهل آمن أهل القرى الذين جاءتهم تلك المعجزات ؟ لقد كفروا بتلك الآيات ، فأهلكهم الله .. وهل شأن هؤلاء المشركين غيرُ شأن من سبقهم ؟ إنهم لوجاءتهم آية كتلك الآيات لن يؤمنوا ، ولن ينجوا من هذا المصير الذي صار إليه المكذبون قبلهم . . أفليس من الضلال إذن أن يستعجلوا ما فيه هلاكُهم ؟ .

* قوله تعالى :

« وما أرسلنا قبلَكَ إلاَّ رجالاً نُوحى إليهم .. فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لاتعلمون » .

إنهم ينكرون أن يكون رسول الله بشراً مثلهم .. فعلى أية صورة يكون الرسول المبعوث من الله إليهم ؟

ولِمَ يكون رسولُهم غيرَ بَشَر ، ورسلُ الله كلهم كانوا من البشر ، ومن بين أقوامهم ؟ إن لم يعلموا هذا فليسألوا أهل العلم ، الذين لايخفى عليهم هذه الحقيقة السافرة .

وقيل إن « أهل الذكر » هنا ، هم أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى .

والأولى أن يكون « أهل الذكر » هم كلُّ من عنده علم بهذا ، سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم . .

* قوله تعالى :

« وما جَعَلْناهم جَسَداً لايأكلون الطّعامَ وما كانوا خالدين » .

أى أن هؤلاء الرسل ، مع أنهم بشر ، فإن اختيارهم للرسالة ، لم يغير شيئاً من بشريتهم . .

فهم مثل سائر البشر ، تحكمهم ضرورات البشرية .. يأكلون ، ويشربون وينامون ، ويفرحون ، ويحزنون . ثم يموتون . .

والجسد : هو المادة المتجسدة . والرسل مادة متجسدة ، وليسوا من عالم الملائكة النورانى الشفاف . .

* قوله تعالى :

« ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » .

ذلك ما لرسل الله عند الله . . إنهم على وعد الله لهم بالنصر ، هم ومن اتبعهم من المؤمنين وقد صدقهم الله وعده ، فأنجاهم وأنجى من آمن بالله من أقوامهم ، ممن شاء الله لهم الهدى . . فمن شاء الله لهم الهدى اهتدوا ، فلم يصبهم شىء مما يحل بالمكذبين الضالين من أقوامهم ، من هلاك وعذاب . .

الآيات : (١٠ — ١٨)

* « لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) »

التفسير :

* قوله تعالى :

« لقدْ أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكرُكم أفلا تعقلون » .

فى هذه الآية تنويه بالأمة العربية ، ورفع لقدرها ، باختيارها من بين الأمم لتكون الوجهَ الذى تلتقى به رسالة الإسلام ، والرايةَ التى يجتمع عليها الداخلون فى دين الله ، وليكون لسانها هو اللسانَ الذى يحمل كلماتِ الله ، ويُكتب له الخلود بخلودها .

وفى قوله تعالى : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً » إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله الكريم هو مُنْزلٌ كذلك على قومه العرب . . فالرسول منهم ، والكتاب المنزل عليه هو كتابهم ، ومنزل إليهم . . وإذ كان هذا هو الحال ، فإن من الخسران لهم أن يتخلوْا عن هذا الخير الذى ساقه الله إليهم ، واختصّهم به ، وإنهم إذا لم يبادروا ويأخذوا حظهم من هذا الخير ، أوشك أن يُفلت من أيديهم ، ويَعْدل عنهم إلى غيرهم ، كما يقول سبحانه : « وإن تتولّوْا يستبدلْ قوماً غيركم . . ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد) وفى تنكير الكتاب ، تعظيم له ، ورفع لقدره ، وأنه أعرف من أنْ يُعرَّف بأداة تعريف . . فهو بهذا التنكير علَمٌ لا يشاركه غيره فى هذا الاسم .

وفى قوله تعالى : « فيه ذكركم » تحريض للعرب على أن يَنْشدوا الهدى من هذا الكتاب ، ويستظلوا بظله ، ففى هذا عزّهم ، ومجدهم ، وخلود ذكرهم فى العالمين . .

وفى هذا أيضاً إشارة إلى ما يكشف عنه المستقبل من موقف قريش ، والعرب ، من الدعوى الإسلامية ، وأنهم جميعاً سيدخلون فى دين الله ، وسيبقى ذكر العرب خالداً ما ذُكر الإسلام الخالد .

فالعرب ـ كما فى المأثور ـ هم : « مادّة الإسلام » . . وبجهادهم فى سبيل الله امتدّ ظلّ الإسلام ، واتسعت رقعته ، ورفرفت أعلامه فى كل أفق من آفاق الدنيا . .

وفى قوله تعالى : « أفلا تَعقلون » نَخْسة رقيقة ، تدعو هؤلاء القوم ، وتدفع بهم دفعاً إلى أخذ حظهم من الكتاب المنزل إليهم . . إنها غمزة حبّ ، وإغراء ، ودفعة من يد كريمة رحيمة وَدود ! !

* قوله تعالى :

« وَكَمْ قَصَمْنَا من قَرْيَةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بَعْدَها قوما آخرين » .

هو تعريض بأهل القرية « مكة » ، وتهديد لهم بأن يُسلكوا فى عداد القرى الظالمة التى قصمها الله ، أى أهلكها ، وقطع دابرها . . ثم أقام مكانهم « قوما آخرين » . والقصم : القطع الحاسم ، وهو أشدمن القضم .

* قوله تعالى :

« فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يَرْكضون » .

البأس : العذاب ، والبلاء .

أى فلما أراد الله أن يأخذ الظالمين بظلمهم ، ساق إليهم بأسه وعذابه . . فلما استشعروا وقوعَ العذاب بهم ، بما طلع عليهم من مقدماته ونُذُره ، ذُعروا، وأخذوا يركضون ، أى يجرون مسرعين فى فزع واضطراب ، فِراراً من تلك

القرية ، وخوفاً من أن ينهار عليهم بنيانها ، أو تُخسف بهم أرضها .

* قوله تعالى :

« لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكِنِكم لعلكم تُسْألون » .

هذا هو صوت الحال ينادبهم : إلى أين ؟ قفوا حيث أنتم ، ولا تركضوا كركض الحُمُر المستنفرة .. إنكم لن تفلتوا من هذا البلاء النازل بكم ..

ولمن تتركون دياركم وما حشدتم فيها من متاع ، وما جلبتم إليها من مُتَع ؟ .

وكيف تتركون هذا الذى أنتم فيه من ترفٍ ونعيم ؟ ارجعوا . أفتذهبون وتتركون هذا الذى أذهبتم حياتكم ، واستهلكتم أعماركم فى إعداده وجمعه ؟ ارجعوا ، ولو كان فى ذلك هلاككم . . إن السفينة لتغرق ويغرق معها كل شىء لكم . . فما حياتكم بعد هذا ؟

وفى قوله تعالى : « ومساكنكم » إشارة إلى ما للوطن ، والسَّكن ، من مكان مكين فى قلب الإنسان .. وأنه شىء أحبّ وآثر من كل مايحرص الإنسان عليه ، وأن نعيم الإنسان لايجتمع إلا فيه ، ولا يتمّ إلا به . . وإن الغريب الذى لاوطن له ولا سكن ، هو إنسان ضائع شقىّ ، وإن طَعِمَ أطيبَ المطاعم ، ولبس أفخر الملابس ، ونزل أحسن المنازل . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم » (٦٦ : النساء) .

فجاء هنا الخروجُ من الديار ، معادلا لقتل النفس !

وفى قوله تعالى : « لعلكم تُسألون » استهزاء بهم ، وسخرية من مشاعرهم

التي يداعبها الأمل بالنجاة فى هذا الركض الذى يركضونه . .

فهم مسئولون لا محالة عما كانوا فيه من ضلال ، واستغراقٍ فى الترف الذى أذهلهم عن النظر فى أنفسهم ، وطلب النجاة قبل وقوع البلاء بهم . . وقد جاء الإخبار بسؤالهم فى صورة الرجاء ، الذى يمكن أن يقع أو لا يقع ، وذلك لتتحرك فى صدورهم مشاعر الأمل فى النجاة ، ثم إذا هم تحت ضربات البلاء ، وقد أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . فياخيبة الأمل ! لقد بَرقت بوارقه، ثم انطفأت ، فإذا هم فى ظلمات يَعمهون .

* قوله تعالى :

« قالوا يا ويلنا إنا كنّا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » .

وهكذا أصبحوا وجها لوجه مع عذاب الله النازل بهم ، لا يملكون معه إلا التنادِى بالويل ، وإلا أن يندبُوا حظهم المنكود ، ويرجعوا على أنفسهم باللائمة والندم ، ولات ساعة مندم ! وهكذا تظل تتعالى صيحاتهم ، ويتعاوى صُراخهم ، إلى أن تخمد أنفاسهم ، ويصبحوا جثثا هامدة ، كحصادِ هشيم ، تذروه الرياح .

* قوله تعالى :

« وَمَا خَلَقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » .

أى أن الله سبحانه وتعالى ما خلق شيئاً عبثاً ولهواً . . فالسماء والأرض وما بينهما من كائنات وعوالم ، إنما خُلقت لحكمة مُرادة لله سبحانه وتعالى ، ولقصدٍ حكيم قصده من خلقها . .

وكذلك الناس ، لم يُخلقُوا عبثاً ، وإنما خُلقوا ليعْمُروا الأرض ، ويَعبدوا

الله فيها ، ثم يُردّوا إلى الله ، ليحاسبوا على ما عملوا ، وليلقى المحسن منهم جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته . . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرْجَعون » (١١٥ : المؤمنون) .

* قوله تعالى :

« لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لَدُنَّا إنْ كنّا فاعلين » .

هو توكيد ، لما تضمنته الآية السابقة ، من أن خلق المخلوقات ، علوها وسفلها ، ناطقها ، وصامتها ، لم يكن للهو والعبث ، وإنما كان خلقاً قائما على ميزان الحكمة والتقدير . . وأنه سبحانه لو أراد أن يتخذ لهواً لاتخذه من لدنه أى من ذاته ، أو لأقام له فى الملأ الأعلى مسرحاً للهو ، ولم يقمه على هذه الأرض . . تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .

ويجوز أن تكون « إن » هنا نافية بمعنى « ما » أى ما كنا فاعلين ذلك . . تعالت عن ذلك حكمتُنا .

* قوله تعالى :

« بل نقذفُ بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . ولكم الويل مما تصفون » .

القذف : إلقاء الشيء ، ورميه بقوة وشدة . .

والدمغ : وَسم الشيء بسِمة تغيّر معالمه . . والزاهق : الهالك ، والضائع .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يضرب الباطل بالحق ، ويدمغه به ، فإذا هو زاهق ، أى ذاهب ومنهزم . .

وهكذا آيات الله وما تحمل من حق ، إنها تلتقى بما يختلقه المبطلون من ضلالات وأباطيل ، فتدمغها ، وتزهقها ، وتخنق أنفاسها ، وإذا تلك المفتريات والأباطيل ، دخان وهباء ، لا يمسك أصحابها منها بشيء . . والمثل المحسوس فى هذا ، عصا موسى ، وعصىّ السحرة . . إن العصا ، حق من الحق ،

وعصىّ السحرة باطل من أباطيل . . فلما التقت العصا بالعصىّ ألقت بها فى غياهب الظلمات . . فلم يجد أصحابها لها ظلا . . «وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف مايأفِكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون» (١١٧ ؛ ١١٨ ـ الأعراف)

— وفى قوله تعالى: « ولكم الويل مما تصفون» تهديد للمشركين ، ووعيدلهم بالويل والهلاك ، الذى يأتيهم من هذه الأباطيل التى يعيشون معها ، بمايصفون به الله سبحانه وتعالى من صفات لاتليق بجلاله وعظمته ؛ كنسبتهم الملائكة إلى الله ، وقولهم إنهم بنات الله ! .

الآيات : (١٩ — ٢٩)

* « وَلَهُ مَن فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ ٱتَّخَذُوٓا ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ (٢٩) »

التفسير :

* قوله تعالى :

« وله من فى السموات والأرض ومَن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليلَ والنهار لايفترون » .

لايستحسرون : أى لايملّون ، ولا يكِلّون . .

لايفترون : أى لايتراخوْن ، ولا ينقطعون عن العبادة ، لحظة ، أو فترة.

والآية والآيات التى بعدها ، تكشف عن بعض سلطان الله ، وتحدث عن بعض ماله من قدرة قادرة على كل شىء ، ممسكة بكل شىء . .

فهو ـ سبحانه ـ المالك لمن فى السموات والأرض ، من عوالم . . من الذرة ، ومادون الذرة ، إلى الكواكب فى مساراتها ، والنجوم فى أفلاكها . . إلى الملائكة الذين هم عنده ، حافّين بالعرش . . وهو سبحانه المتصرف فى هذه الموجودات ، الموجه لها ، المقدّر لوضعها الذى تأخذه فى هذا الوجود .

وإذا كان هذا سلطان الله ، وتلك قدرته الآخذة بناصية كل شىء ، فإنه من غير المعقول أن يكون شىء مِن خلْقه ذا سلطان معه ، أو خارجا عن سلطانه . .

والملائكة ، الذين هم عند الله بهذا المكان الرفيع ، لم تخرج بهم منزلتهم هذه عن أن يكونوا عباداً من عباد الله ؛ يدينون له بالولاء ويتقربون إليه بالعبادة : «يسبحون الليلَ والنهار لايفترون » . . إنهم فى عبادة دائمة متصلة ، وذكر لله لايفترون عنه !

والسؤال هنا ، هو : إذا كان الملائكة على هذا الصفاء النورانى الذى خُلقوا منه ، وعلى تلك العبادة الدائبة ؛ والطاعة الدائمة ، فلم هذا الخوف ؟ ولم

تلك الخشية ؟ كما يقول سبحانه : « ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » (١٣ : الرعد)

والجواب على هذا ، هو أن الملائكة لقربهم من الله سبحانه وتعالى ، ولكمال معرفتهم بماله سبحانه وتعالى من جلال وكمال — هم أكثر عباد الله ولاء لله ، وانقياداً له ، وفناء فيه . . فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ومن كان إلى الله أقرب كان لجلاله وسلطانه أرهب . ! يقول الله سبحانه وتعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » . . فالعلماء بالله ، العارفون به ، هم أكثر الناس خشية له ، وولاء لذاته . . والملائكة يعلمون أكثر مما يعلم العالمون من جلال الله وسلطانه ، وعظمته . .

* قوله تعالى :

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون »

هو تسفيه لعقول هؤلاء المشركين ، الذين يعبدون مما على الأرض ، من ناطق أو صامت ، مثل أولئك الذين اتخذوا من البشر آلهة ، أو من الأحجار أصناماً ينحتونها ويعبدونها . . فهؤلاء أحمق عقولا ، وأغلظ جهلا من أولئك الذين عبدوا الملائكة ، وإن كان هؤلاء وأولئك جميعاً فى ضلال مبين . . فلا الملائكة المقربون ، ولا الجن ، ولا البشر ، ولا الأحجار ، ولا أى شىء مما خلق الله ، مما يصح فى عقل عاقل أن يجعل له إلى الله نسباً ، فضلا عن أن يجعله إلهاً مع الله ، يشاركه التصريفَ والتدبير .

وفى قوله تعالى : « من الأرض » إشارة إلى مدى الانحطاط العقلى ، الذى وصل إليه أولئك الذين يعبدون ما على هذه الأرض من مخلوقات . . فهى من معدن هذا التراب الذى تدوسه الأقدام ، فكيف يكون هذا التراب المشكّل فى أى صورة من الصور ، إلهاً يُعبد من دون الله ، ويُرجى منه مايرجو المؤمنون بالله ، من الله رب العالمين ؟ .

وقوله تعالى : « هم ينشِرون » . . يمكن أن يكون استفهاماً . . تقديره أم ينشِرون ؟ أى أهؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من الأرض ينشرون الأموات ويبعثونهم من قبورهم ، كما يفعل الله ؟ والاستفهام هنا إنكارى . .

ويمكن أن يكون جملة خبرية ، هى صفة للآلهة ، وتكون الآية كلها مبنية على الاستفهام الإنكارى ، ويدخل فيها إنكار الجملة الخبرية ، كذلك . .

* قوله تعالى :

« لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون » .

هذه قضية ، هى تعقيب على ماوُجه به المشركون الذين يتخذون من عباد الله ، فى السماء أو فى الأرض : آلهةً ، فإن ذلك سفه وجهل ، وسوء تقدير لما ينبغى أن يكون للإله المعبود ، من صفات الكمال والجلال المطلقَين ..

وإذا كان الإله الذى يستحق العبادة موصوفاً بصفات الكمال المطلق ، فإن هذه الصفات ـ فى إطلاقها ـ لاتكون إلاّ لإله واحد ، لايشاركه أحدٌ فيها ، إذ لو شاركه غيره فيها ، أو كان له مثلها ، لَما كان له الكمال المطلق ، ولما كان له التفرد بالألوهية .. إذ الكمال المطلق صفة واحدة ، لايتصف بها إلا موصوف واحد ، هو الله سبحانه ..

ومن جهة أخرى .. فإن هذا الوجود ، فى علوه وسفله ، وفى سمائه وأرضه ـ لو قام عليه أكثر من ذى سلطان واحد مطلق ، لما استقام أمره ، ولما استقرّ نظامه ، ولكان لكل ذى سلطان أن يتصرف فيما له سلطان عليه ، ولذهب كل منهم مذهباً ، فمضى ذا مشرّقاً ، ومضى ذاك مغرّباً .. وأخذ هذا يميناً ، وأخذ ذاك يساراً .. فيتصادم هذا الوجود ، وتتضارب الموجودات ، وينفرط عقدها ، وتتناثر أشلاؤها ..

فالإنسان مثلا ، وهو العالم الأصغر ، الذى يناظر العالم الأكبر .. يقوم على مَلَكة التفكير فيه ، عقل واحد .. ويقوم على تغذيته بالدم ـ الذى هو مِلاك حياته ـ قلب واحد ..

وتصوّرْ أن يكون لإنسان عقلان .. ماذا يكون حاله ؟ وكيف يكون مقامه فى عالم البشر ؟ إن لكل عقل مدركات ، وتصورات وتقديرات .. فبأى عقل يسير ؟ وبأى عقل يَحكم على الأشياء ويتعامل معها ؟ إنه بهذين العقلين إنسانان لا إنسان واحد ..

إنه ذو شخصية مزدوجة ، تتصارع فيها العواطف والنوازع ، وتقتتل فيها الآمال والرغبات ، ثم لايسكن هذا الصراع ، ولا ينتهى هذا القتال ، حتى يتحطم هذا الكائن العجيب ، الإنسان .. له رأسان ، أو عقلان ..!

وقلْ مثل هذا فى القلبين ، اللذين يُفسد أحدهما عمل الآخر ، وينقض أحدهما مابناه صاحبه ..

والله سبحانه وتعالى يقول : « مَاجَعَلَ الله لرجل من قلبين فى جوفه » (٤ : الأحزاب) .

وقلْ مثل هذا فى الجماعات البشرية .. إن كل جماعة يجب أن يكون على رأسها رأس واحد .. وإلاّ فالتنازع والتصادم ، والفساد ..!

وقوله تعالى : « فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون » ..

هو تنزيه لله سبحانه عما يصفه به الواصفون ، من صفات لا تخصّه بالكمال المطلق ، بل تجعل له شريكا فيها ، ويكون له بمقتضى ذلك سلطان مع سلطان الله ، وعرش كعرش الله .. فالله سبحانه منزه عن أن يكون على تلك الصفة .. إنه سبحانه الإلآه المتفرد بالخلق والأمر ..

* قوله تعالى :

« لَا يُسأَل عما يَفعَل وهم يُسألون » ..

هو أيضاً تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أن يكون كهذه الآلهة التى يعبدها هؤلاء الضالون .. فهذه الآلهة ، هى من مخلوقات الله ، وهى خاضعة لمشيئته فيها ، يصرّفها كيف يشاء ، ويحاسب العاقل منها على ما كان منه .. أما هو سبحانه ، فلا يسأل عما يفعل .. إذ لا يسأله إلا من هو فوقه ، وهو ـ سبحانه ـ فوق كل ذى فوق .. « يخلق مايشاء ويختار .. ما كان لهم الخِيرَةُ » (٦٨ : القصص) .

* قوله تعالى :

« أم اتخذوا من دونه آلهةً .. قل هاتوا بُرْهانكم .. هذا ذِكْرُ مَن مَعِىَ وذِكْرُ من قَبْلِى .. بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » ..

« أمْ » هنا للإضراب ، بمعنى بل ..

والمعنى : أنه مع هذه البَدَهيّات التى تقع فى متناول كلّ عقل ، والتى تقضى بما لا يدع مجالا للشك ، بأنه لا يمكن أن يكون لهذا الوجود إلا إله واحد ، يقوم عليه ، ويدبّر أمره ـ مع هذا ، فإن هؤلاء الضالين المشركين قد عَمُوا عن هذه البدهيات ، وقصُرت أفهامهم عن إدراكها ، وساغ لهم أن يعبُدوا أكثر من إله ، وأن يوزّعوا عقولهم وقلوبهم بين أرباب وأشباه أرباب ، ولم يحاولوا أبداً أن يُجيبوا على هذا السؤال : « أأربابٌ متفرقون خير أم اللهُ الواحدُ القهارُ » (٣٩ : يوسف) .. كما لم يحاولوا أن يقيموا دليلا يقبله العقل ، ويرتضيه المنطق لعبادة هذه الآلهة المتعددة !

وفى قوله تعالى : « قل هاتُوا برهانكم » دعوة لهؤلاء المشركين أن يرجعوا إلى عقولهم ، وأن يأتوا منها بالدليل والحجة على مايعبدون من دون الله ..

« ومن يَدْعُ مع الله إلهاً آخر لابُرهانَ له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون » (١١٧ : المؤمنون) ..

وقوله تعالى : « هذا ذكرُ مَن مَعِيَ وذِكرُ من قبلى » .. هو إشارة إلى القرآن الكريم ، الذى بين يدى الرسول ، وهو برهانه على الإله الذى يعبده ، ويدعو الناس إلى عبادته .. وهذا القرآن كما هو حجة وبرهان للرسول الكريم، هو حجة وبرهان لهؤلاء المشركين الذين يدعوهم الرسول إلى الإيمان بالله ، كما أنه حجة وبرهان على أهل الكتاب .. « هذا ذِكرُ من معى وذكر من قبلى » .. فمن مع الرسول هم هؤلاء المشركون .. والذين مِن قبله هم أهل الكتاب .. والقرآن الكريم حجة على هؤلاء وأولئك جميعاً ..

وقوله تعالى : « بل أكثرهم لايعلمون الحق .. فهم معرضون » .. هو اعتذار لكثير من هؤلاء المشركين ، الذين عَموا عن طريق الحق ، فركبوا رءوسهم ، وأبوْا أن يستمعوا لداعى الحقّ ، وأن يستجيبوا له .. ومن ثَمَّ ، فإن الرسول قائم فيهم ، لايتخلى عن مكانه بينهم ، ولا يُمسك عن دعوتهم ، وكشف معالم الطريق لهم ، حتى يُبْصروا من عمًى ، ويهتدوا من ضلال ..

وقد كان .. فما زال الرسول يُغادى هؤلاء المشركين ، ويُراوحهم ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، على مَدَى ثلاث وعشرين سنة ، حتى استنارت بصائرهم ، وتفتحت قلوبهم ، وما كادت تختم الرسالة ، وتنزل آخر آية من آياتها ، حتى آمن هؤلاء المشركون ، ودخلوا فى دين الله أفواجا .. وكان مختتم الرسالة قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً » (٣ : المائدة) .

* قوله تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحى إليه أنه لآ إله إلا أنا فاعبدون »

تلك هى ملاك دعوة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، وهم بشر مثل هؤلاء البشر .. ودعوتهم جميعا هى أنه لا إله إلا الله ، وأنه وحده المستحق لأن يُفرد بالألوهية والعبادة .. فكانت دعوة كل رسول إلى قومه مفتتحة بهذا النداء : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه » ..

* قوله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . . سُبْحانه .. بل عبادٌ مُكرَمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » ..

هو إشارة إلى أهل الكتاب ، الذين أشار إليهم سبحانه وتعالى فى قوله : « وذكرُ مَن معى » فأهل الكتاب هؤلاء ، من اليهود والنصارى ، قد جاءهم رسولان ، كريمان ، بشران ، من عباد الله هما : موسى ، وعيسى ، عليهما السلام ، فدعواهم إلى الإيمان بالله وحده ، ولكنهم قلبوا وجه هذه الدعوة ، فجعل النصارى المسيحَ ابناً لله ، وجعل اليهود عزيراً ابن الله . كما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« وقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قولَ الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (٣٠ - ٣١ : التوبة) .. وقد ردّ الله عليهم هذا الزعم الباطل بقوله : « بل عبادٌ مُكرَمون » أى أن المسيح وعُزيراً والأحبار والرهبان ، هم من عباد الله ، أكرم بعضهم واصطفاه لرسالته ، كما أكرم واصطفى كثيراً من عباده ورسله بالنبوّة والرسالة ، وكما أكرم كثيراً منهم بالإيمان .

وقوله تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » هو صفة لهؤلاء العباد المكرمين ، الذين اتخذهم الضالون آلهة من دون الله ، فهؤلاء الرسل ، هم على طاعة مطلقة لله .. لا يسبقونه بالقول ، فلا يقولون إلا ما يقال لهم من قِبَل الحق ، ولا يعملون عملاً إلا ما يأذن الله لهم به .. فكيف يكون مَن هذا شأنه إلـهاً مع الله ؟ وهل يكون إلـها من لا يملك من نفسه الكلمة ، ولا العمل ؟

* قوله تعالى :

« يعلم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يَشفعونَ إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يَقُل منهم إنى إلهٌ من دونه فذلك نَجزِيهِ جهنم كذلك نجزى الظالمين » .

أى أن هؤلاء العباد المكرمين من رسل الله ، لا يعلمون إلاَّ ما علمهم الله ، ولا يملكون إلا ما يأذن الله لهم به .. وهو سبحانه يعلم من أمرهم ما لا يعلمون ، فيعلم « ما بين أيديهم » أى ما لم ينكشف لهم من مسيرة حياتهم بعدُ ، ويعلم « ما خلفهم » أى ما انكشف لهم من ماضى حياتهم قبل أن يتلبسوا به .. « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » أى ولا يملكون الشفاعة لأحد ، إلا لمن ارتضى الله سبحانه وتعالى لهم أن يشفعوا فيه ، تكريماً لهم ، ومضاعفة لإحسانه إليهم . « وهم من خشيته مشفقون » أى وهم ـ مع هذا الإيمان ، وهذا الولاء ـ على خشية وإشفاق من الله ، ومن بأس الله وعذابه ..

ـ وقوله تعالى : « ومن يقل منهم إنى إلَه من دونه فذلك نجزيه جهنم .. كذلك نجزى الظالمين » ـ هو استبعاد لأن يكون مِن رسل الله قولٌ كهذا القول الذى يقوله فيهم الضالون ، الذين اتخذوهم آلهة .. ولو فُرض ـ وهو فرض محال ـ أن يقول أحدٌ منهم إنى إلَه من دون الله ، فلا يعصمه قربه من الله ، وإكرامه إياه ، من أن يؤخذ بما يؤخذ به أى عبد من عباد الله ، يقول هذا

القول .. فهو ظالم من الظالمين ، ولا مصير له غير مصيرهم ..

فإذا كان هذا هو شأن المقربين إلى الله ، فكيف يكون شأن غيرهم ؟ إن ميزان العدل واحد للناس جميعاً .. لا ترجح فيه كفة أحد على أحد إلا بالعمل الصالح . .

« فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية » (٦ : ١١ : القارعة) .

الآيات : (٣٠ — ٣٥)

* « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حىّ أفلا يؤمنون » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة عليها قد كشفت عن وجوه

الضالين ، من الكافرين والمشركين ، وعرضت تصوراتهم المريضة ، لجلال الألوهية وكمالها ، حتى لقد بلغ بهم الإسفاف فى ضلال العقل ، وسخف النظر ، ما أوردهم هذا المورد الذى ينزلون فيه إلى هذا المنحدر من الضلال ، فيعبدون أحجاراً ، وحيوانات ، وأناسىّ ، ويجعلونها آلهة ، تخلق ، وترزق ، وتحيى ، وتميت . . !

فجاءت هذه الآية تُلفت هؤلاء الضالين إلى ما هم فيه من ضلال وشرود عن عن الله ، الواحد ، المتفرد بالألوهية والملك والسلطان . .

وفى اختصاص الذين كفروا بالذكر هنا ، لأنهم هم الذين عمُوا عن هذه الآيات فضلّوا وكفروا ، أما المؤمنون فقد كان لهم نظر دائم إلى هذا الوجود ، وتفكير متصل فى أسراره وعجائبه ، فهم كما وصفهم الله سبحانه فى قوله :

« يَذْكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم * ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقْتَ هذا باطلا سبحانك فقِنا عذاب النار » (١٩١ : آل عمران) . .

وفى قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهما » إلفات إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، وإلى ما أبدع وصور فى هذا الوجود . .

فالسموات والأرض ، كانتا شيئاً واحداً ، وكتلة متضخمة من المادة . . « كانتا رتقاً » أى منضماً بعضهما إلى بعض ، فلا سماء ، ولا أرض . . بل كَوْن لا مَعْلم فيه . . ثم كان من قدرة الله ومن علمه ، وحكمته ، أن أقام من هذا الكون المتضخم ، هذا الوجود ، فى سمائه وأرضه ، وما فى سمائه من كواكب ونجوم ، وما على أرضه من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد . . « كانتا رتقاً

ففتقناهما » أى فصلنا بعضهما عن بعض .. فكانت السماء ، وكانت الأرض . ثم كانت من السموات ما فيهن من عوالم ، وكان من الأرض ما فيها من مخلوقات . .

كانت السموات والأرض كتلة ، أشبه بالنطفة التى يتخلق منها الجنين . . فمن هذه النطفة كان هذا الإنسان ، بل هذا الكون الصغير ، وكان هذا الخلق السوىّ الذى هو عليه . .

وقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حىّ » ـ إشارة إلى هذا العنصر العظيم من عناصر الحياة ، وهو الماء . . فهو أصل كل حىّ ، وبذرة كل حياة فى عالمنا هذا الذى نعيش فيه . . فالإنسان ، والحيوان ، والنبات ، قِوامها جميعاً الماء ، الذى به لبست ثوب الحياة ، ومنه تستمد بقاءها ، ووجودها . . فإذا افتقدت الماء عادت إلى عالم الموات . .

وهذه حقيقة قد أصبحت من مقررات العلم الحديث ، الذى أثبت أن نشأة الحياة على هذه الأرض قد ظهرت أول ما ظهرت على شواطىء الأنهار . . فكانت أولَ أمرها ظلالا باهتة للحياة ، وإشارة خافته إليها ، ثم أخذت تنمو شيئاً شيئاً فى بوتقة الزمن على مدى ملايين السنين ، حتى ملأت هذه الدنيا ، فى صور متعددة ، وأشكال مختلفة ، لاتكاد تقع تحت حصر .

— وفى قوله تعالى : « أفلا يؤمنون » نخسة لهؤلاء الضالين ، أن ينتبهوا ، وأن يوقظوا عقولهم ، ويفتحوا أبصارهم على هذا الوجود ، وما أبدع فيه الخالق وصوّر . .

فلو أنهم أداروا عقولهم على هذا الوجود ، بقلوب سليمة ، ومشاعر متفتحة لانكشف لهم من أسراره ما يحدّثهم أبلغَ الحديث عن قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ، المبثوثة فى كل ذرة من ذرات هذا العالم . . وإذن لآمنوا بالله ،

وأخبتوا له ، ولا متلأت قلوبهم خشية ورهبة لسلطانه العظيم ، الآخذ بناصية كل شيء ، ولأفادوا من ذلك علماً كثيراً يمكّن لهم فى الأرض ، ويسخر لهم من قواها مازال متأبياً عليهم ، بعيداً عن متناول أيديهم . .

فالإيمان لايقع من القلب موقعَ الاستقرار والاطمئنان ، إلا إذا جاء عن علمٍ بالله ، وبما لله من صفات الجلال والكمال . .

* قوله تعالى :

« وجعلنا فى الأرض رواسىَ أن تميدَ بِهم وجعلنا فيها فجاجاً سُبلاً لعلهم يهتدون » .

هو إلفات إلى ما صَنَع الله سبحانه وتعالى بالأرض ، بعد أن فَصَلها عن مادة الوجود ، وصورها على تلك الصورة . . فقد جعل الله سبحانه وتعالى فيها جبالا راسية ثابتة ، تشدُّها ، وتُمسك بها أن تميد وتضطرب ، وجعل فى هذه الجبال فِجاجا ، أى فجوات ، وهى سبل يسلكها الناس فى انتقالهم من جهة إلى أخرى . ويجعلون منها معالم يتعرفون منها إلى الأماكن والجهات ، حتى لايضلّوا فى أسفارهم . .

* قوله تعالى :

« وجَعَلْنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » .

وكما أوجد الله سبحانه الأرض على هذه الصورة ، وجعل فيها رواسى ، وفجاجاً سبلا ، كذلك أقام السماء كما نرى ، سقفاً محفوظاً بيد القدرة ، فلا يقع علينا . .

وفى قوله تعالى : « وهم عن آياتها معرضون » إشارة إلى مافى السماء

من آيات ناطقة بقدرة الله ، شاهدة على علمه وحكمته . . ببنائها القائم ، وبما تتزين به من كواكب ونجوم . . ولكن هؤلاء الضالين ، المشركين ، فى غفلةٍ عن تلك الآيات الباهرة ، لا يُلْقون إليها نظراً ، ولا يُديرون نحوها عقلاً . .

وفى إضافة الآيات إلى السماء ، إشارة إلى عظمة هذا العالم العلوى ، وأن السماء كون عظيم ، وأن كل ما لاح فى هذا الكون ، هو آية من آيات هذا الكون العظيم . .

وفيما كشف العلم عنه من هذا العالم العلوىّ ، ما يبهر العقول ، ويعجز الخيال . . وهو إلى جانب مالم ينكشف أشبه بذرة من عالم الرمال ، أو قطرة من عالم الماء فأين العقول التى تنظر ؟ وأين البصائر التى تستبصر ؟

* قوله تعالى :

« وهو الذى خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمس والقمرَ كلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون » .

هو عرض لبعض مظاهر قدرة الله ، التى أشارت الآيات السابقة إلى بعض منها . . ومن مظاهر القدرة الإلهية خَلْق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وإجراء كل منها فى فَلَك خاص به ، ومدار لا يتعداه . .

وفى التعبير عن حركة الليل والنهار، بالخَلق ، إشارة إلى مالهما من وجود ذاتىّ غير عارض ، وأن وجودهما مقصود لذاته ، حيث يأخذان من الوجود ويعطيان ، شأنهما فى هذا شأن الإنسان المكلّف ، المطلوب منه رسالة يؤديها فى الحياة . . وشأنهما كذلك شأن الشمس والقمر ، فهما أى الليل والنهار ، وإن كانا مظهراً من مظاهر حركة الأرض حول نفسها ، إلا أنهما صاحبا سلطان على كل ما يقع

فى فلكهما ، كما للشمس سلطان على كل مايقع فى فلكها ، . ولهذا جاء قوله تعالى : « كلٌّ فى فلك يسبحون » مسنَداً فيه الفعل إلى هذه المخلوقات بضمير العاقل ، ليشير بذلك إلى أنها كائنات تسير على هدًى ، فلا تزلّ ، ولا تنحرف، حتى لكأنها موجهة بإرادة عقل رشيد حكيم . . فهى وإن بدت لنا أنها غير عاقلة ، فإن نظامها الذى تجرى عليه ليدلّ على أنها تتحرك بتوجيه قوة عاقلة حكيمة ، إن لم تكن فى ذاتها فهى قائمة عليها . .

أما حين لاتراد هذه المخلوقات لذاتها ، وإنما تُراد آثارُها ، أو بعضُ آثارها ، فإن التعبير القرآنى عن ذلك يجىء بلفظ « الجَعْل » لا « الخلق » . . مثل قوله تعالى : « وجَعَل الليل سكناً والشمسَ والقمرَ حُسْباناً » (٩٦ : الأنعام) وقوله سبحانه : « وجعلنا الليلَ والنهار آيتين فمحونا آيةَ الليل وجعلنا آيةَ النهار مبصرة » (١٢ : الإسراء) . .

وفى ضمير الجمع العاقل فى « يسبحون » إشارة إلى أنه وإن كان لكل مخلوق من هذه المخلوقات فَلَك يسبح فيه ، فإنها جميعاً ينتظمها فلك عام ، هو فلك الوجود كله ، الذى يحوى كل فلك !

* قوله تعالى :

« وما جَعَلْنا لبشَرٍ من قَبْلك الْخُلْدَ أفإن مِتَّ فَهُمُ الخالدون » .

كان المشركون يستثقلون مقام النبىّ الكريم فيهم ، وقد ساقوا إليه من ضروب السّفه ، وألوان الأذى ، النفسى والمادى ، فى نفسه ، وفى أصحابه ، مالا يحتمله إلا أولو العزم من الرسل . . فلما ضاقوا به ذرعاً ، وأعيتهم الوسائل فى صده عن دعوته إلى الله ـ كان مما يُعزّون به أنفسهم ، ويمنّونها الأمانىّ فيه ، أن ينتظروا به تلك الأيام أو السنين الباقية من عمره ، وقد ذهب أكثره ،

ولم يبق إلا قليله ، فقد التقى بهم الرسول الكريم وقد جاوز الأربعين، وها هو ذا صلوات الله وسلامه عليه ، لايزال بينهم وقد نيّف على الخمسين ، وإذن فهى سنوات قليلة ينتظرونها على مضض ، حتى يأتيه المنون !

وهذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « أم يقولون شاعر نتربّص به ريْبَ المنون » (٣٠ : الطور) .

فجاء قوله تعالى : « وما جَعَلْنا لبشر من قبلك الخلد » مسفّهاً هذا المنطق السقيم ، الذى جعلوه أداة من أدوات الغَلَب فى أيديهم . فالموت حكم قائم على كل نفس . . فإذا مات النبىّ ، فليس وحده هو الذى يصير إلى هذا المصير ، وإنما الناس جميعاً ، صائرون إلى هذا المصير .. فكيف يكون الموت أداةً من أدوات المعركة بينهم وبين النبى ؟ وكيف يكون سلاحاً عاملا فى أيديهم على حين يكون سلاحاً مفلولا فى يده ، إذا صحّ أن يكون من أسلحة المعركة ؟ ولهذا ردّ الله عليهم بقوله : « أفإن مِتَّ فَهمُ الخالدون ؟ » .. فما جوابهم على هذا ؟ إنهم لن يُخَلَّدوا فى هذه الدنيا ، فما هذه الدنيا دار خلود لحىّ .. « إنك ميت وإنّهم ميتون » (٣٠ : الزّمر) . . إن المعركة بين حق وباطل ، فما سلاحهم الذى يحاربون به فى هذا الميدان ؟ إنه الباطل ، وإنه لمهزوم مخذول : « إن الباطل كان زهوقاً »

* قوله تعالى :

« كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشّرِّ والخير فتنةً وإلينا ترجعون »

هو جواب على هذا السؤال الذى جاء فى الآية السابقة : « أفإن مِتَّ فهم الخالدون » ؟ وهو جواب ينطق به لسان الحال ؛ ويشهد له الواقع .

وفى قوله تعالى : « ذائقة الموت » إشارة إلى أن للموت طعما ، تجده النفوس حين تفارق الأجساد ..

وهذا الطعم يختلف بين نفس ونفس .. فالنفس المؤمنة تستعذب وِرده ،

وتستسيغ طعمه ، لِما ترى فيه من خلاص لها من هذا القيد ، الذى أمسك بها عن الانطلاق إلى عالمها العلوى ، حيث تُروِى ظمأها ، وتبرّد نارَ أشواقها ، وتنعم فى جنات النعيم التى وعد الله المتقين ..

أما النفس الضالة الآثمة ، فإنما يحضرها عند الموت ، حصادُ ماعملت من آثام ، وما ارتكبت من منكرات ، وتشهد ما يلقاها من غضب الله وعذابه ، فتكره الموت ، وتجد فيه ريح جهنم التى تنتظرها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو تَرَى إذ الظالمونَ فى غَمَرَاتِ الموت والملائكةُ باسطوا أيْدِيهم أخرِجُوا أنفسَكم » (٩٣ : الأنعام) وقوله سبحانه : « فلا تُعجبُك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذّبهم بهافى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (٥٥ : التوبة) .

وفى قوله تعالى : « ونبلوكم بالشّرِّ والخير فتنة وإلينا ترجعون » إشارة إلى مايقع للناس فى دنياهم مما يرونه شراً أو خيراً .. فذلك كله ابتلاء لهم ، واختبار لما يكون منهم مع الشرِّ من صبر أو جَزَع ، ومع الخير من شكر أو كفر ..

فما تستقبله النفوس مما يُكره ، هو ابتلاء لها على الرضا بقضاء الله ، والتسليم له .. وما تستقبله مما يحبّ ، هو امتحان لها كذلك ، على الشكر والحمد لما آتاها الله من فضله وإحسانه ..

فالنفوس المؤمنة ، لاتجزع من المكروه ، ولا تكفر أوتبطر بالمحبوب ، لأن كلاًّ من عند الله ، وما كان من عند الله فهو خيرٌ كله ، محبوبٌ جميعه .. هكذا تجده النفوس المؤمنة بالله ، العارفة لجلاله ، وعظمته ، وحكمته ..

أما النفوس الضالّة عن الله ، فإنها إن أصابها شىء من الضرّ ، جَزِعَت ، وزادت كفراً وضلالا ، وإن مسّها الخير ، نفرت نِفار الحيوان الشرس ، واتخذت من نعمة الله سلاحاً تحارب به الله ، وتضرب فى وجوه عباد الله ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « إن الإنسان خُلق هَلوعاً * إذا مسّه الشرُّ جَزُوعاً * وإذا مسّه الخيرُ منوعاً * إلا المصلّين * الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يُصدّقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربّهم مشفقون * » (١٩ - ٢٧ : المعارج) .

ونحبّ أن نقف هنا وقفة ، مع قضية « الخير والشرّ » .. نعالج فيها مايدور فى بعض الرءوس من تساؤلات عن « الشرّ » وعن الحكمة فى أن يقع فى هذه الحياة ، وعن ابتلاء الناس به ، وعن نسبته إلى الله .. إلى غير ذلك مما سنعرضه مفصلا فى المبحث التالى :

[الخير .. والشر]

التّلازم بين الخير والشر :

ينزع العقل دائماً إلى المزاوجة بين الأشياء التى تعرض له ، وتدور فى محيط تفكيره .. فلا يكاد أمر من الأمور يقع فى مجال النظر العقلى ، حتى يستثيرَ له العقلُ من عالم الواقع ، أو عالم الخيال ، كائناً آخر ، يقف منه موقف التضادّ والعناد ، ليرى فيه كل الصفات السلبية للأمر الذى بين يديه .. فإذا ذاق المرء طعماً حلواً ، ذَكر الطعمَ المرّ ، وإذا لمس اللين استشعر الخشِن ، وإذا فكر فى الحق ، تذكّر الباطل .. وهكذا تعيش الأشياء ، من المعانى والمحسوسات ، فى عالم الحسّ والفكر ، مَثْنَى .. مثنى .. الأمر وضدّه .

ومُحالٌ أن يعترف العقل فى عالم الواقع ، بالوجود الفَردىّ لشىء من الأشياء ، أو معنى من المعانى .. حتى لكأن الأشياء والمعانى كائنات حيّة ، لا يضمن بقاءها ووجودها ، إلا هذه المزاوجة ! التى تجمع بين الشىء ومقابله ، كما تجمع فى عالم الأحياء بين الذكر والأنثى ..!!

إن الحقيقة الفردية لاوجود لها في منطق العقل ، فهو لا يعرف الشيء ، ولا يعترف به ، إلا إذا عرف المقابل له ، ولو كان هذا المقابل عدماً وسلباً .. فهو إن عجز عن أن يجد في عالم الواقع مايقابل أو يضاد الشيء الذي بين يديه ، انتزع من صفات العدم والسلوب لهذا الشيء ، مشخّصاتٍ يقيم منها شخصية تقابله مقابلة التضاد والعناد .. فالوجود يقابله العدم ، والحياة يقابلها الموت .. وهكذا ..

يقول الفيلسوف الأمريكي « وليم جيمس » : « إننا لاندرك تمام الإدراك ؛ القضيةَ الصادقة ، حتى نعلم مضمون مايناقضها من قضايا كاذبة .. فالغلط ضروري ليُظهر الحقيقة على أحسن منوال ، كما أن ظلام الجانب الخلفي ـ في آلة التصوير ـ ضروري ليظهر صفاء الصورة ونضارتها » .

ولعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كلمته المأثورة : « من لم يعرف الشرّ جدير بأن يقع فيه » .

وعن طريق هذه الثنائية للأشياء ، استطاع العقل أن يبعث الحياة في الكائنات الجامدة ، وأن يقيم من المعاني المجرّدة مشخصات ، حين يجمع بين المتضادات ، ويقابل بين المتناقضات ، فتتعاند ، وتتصادم ، ويتولد من تعاندها وتصادمها واحتكاكها ، شراراتُ المعرفة ، التي تكشف للعقل عن حقيقتين في وقت معاً ، عند معالجته لحقيقة واحدة .. هما : الشيء وضده ، أو الشيء ومقابله .

وعن هذه الثنائية ، نشأ هذا التلازم بين الخير والشر .. فإذا ذُكر الخير ، ذُكر معه الشرّ ، وظهرا معاً في مجال الفكر متقابلين ، تقابل الصورة وسالبها في عمل المصورة « الفتوغرافية » .

والسؤال هنا هو : هل هذا التلازم بين الخير والشر أمر واقع في الحياة ؟

أم أنه مجرد عملية من عمليات العقل ، وطريقة من طرائقه فى فهم الأشياء ، وكشف الحقائق ؟

وسؤال آخر .. هل هناك خير ؟ وإذا كان .. فما هو ؟ وهل الشر قائم إلى جانب الخير أبداً ؟ وإن كان .. فماهو ؟ وما الصلة بينه وبين الخير ؟

الخير والشر .. وواقع الحياة :

ولعلّ أكثر الكلمات دَوَراناً على ألسنة الناس ، كلمتا الخير والشر .. فما عرض لإنسان أمر ، أو وقع له شىء ، إلاّ نظر إليه من جانبى الخير والشر ، وإلاّ أخذه بأحد الوصفين : الخير والشر .. إن هاتين الكلمتين ، هما ميزان الحياة الذى يقدّر به الإنسانُ كلّ شىء يأخذه أو يدعه .. الخير فى كِفة ، والشرّ فى الكفة الأخرى .. هكذا تجرى حياة الناس ، وهكذا تجىء تصرفاتهم ويقع سلوكهم ، على حسب مايشير إليه مؤشر الميزان ، من رجحان إحدى الكِفتين على الأخرى .. فإذا تعادلتا ، توقف الإنسان ووقع فى حيرة بين مايأخذ وما يدع !

إننا جميعاً نقول بالخير والشر .. نعرفهما ، ونعمل ونتعامل فى حدودهما ، ونزن حظوظنا من كلّ شىء بهما ..

ومع هذا ، فإن من بعض الفلاسفة والمفكرين مَن ينكر وجودهما ، ولايعترف بأن فى الحياة خيراً أو شراً ..

فهل يَقبل واقع الحياة هذا الرأى ؟ وهل انطوت صفحات الخير والشر من هذا الوجود ، إذعاناً لهذا الرأى ، ونزولا على حكمه ؟

ولكن .. مهلا ..

ماهو الخير ؟ وماهو الشرّ ؟

إننا نتحدث منذ أخذنا فى هذا الحديث ، عن الخير والشر ، كأنهما حقيقتان واقعتان ، متفق على ما هيتهما ، متعارف على الحدود القائمة بينهما .. مع أن الواقع غير ذلك ..

فمع اعتراف المعترفين بالخير والشرّ ، فإن خلافاً كبيراً قد وقع بينهم فى تحديد الصورة ، التى يكون بها الخير خيراً والشرّ شرًّا ..

ما هى الضوابط التى تضبط معنى الخير ؟ والتى إن تحققت فى أمر من الأمور عُرف أنه خير ؟ وإن تخلّف بعضها وتحقق بعضها عُرفت نسبة الخير فيه ؟

إنه بغير هذه الضوابط ستتفرق بالناس السُّبل ، حيث تعدد المفاهيم للخير والشرّ . على حسب تعدد الناس ، وحسب ما يرون ، وما يُقـدِّرون . فلا يلتقون على طريق واحد فيما يأخذون أو يدعون ، ولا فيما يحمدون أو يكرهون ، ولا فيما يثيبون أو يعاقبون .

ما الخير إذن ؟

يكاد يكون الخير أمراً بَدَهياً ، لـكثرة إِلْفِ الناس له ، وإحساسهم به .. فهو لهذا لا يكاد يُضبط أو يحصر داخل حدّ محدود .. إنه مشاع فى الناس ، واقع فى إحساسهم .. كل يراه من الأفق الذى يعيش فيه .. فيبدو لبعض الناس فى صورة المتاع الجسدى من طعام وشراب ، ولباس ، وغير هذا مما هو من حظ الجسد ، على حين يراه آخرون فى ألوان من الأدبيّات ، التى تعلو بالروح ، وتسمو بالوجدان .. وبين هذه الآفاق الصاعدة والآفاق النازلة ، درجات لا تـكاد تحصى ، وتـكاد تـكون على تعداد الناس .. فرداً فرداً ..

ولـكن إذ قد اختلفت معايير الناس فى الخير — وهذا أمر طبيعى — لاختلاف رغباتهم ، وتنوع مطالبهم ، فليس معنى هذا ألا يكون هناك خير ،

وإنما هذا الاختلاف فى ذاته ، دليل على وجوده !

ولعل أولَ إحساس بالخير ، جاء عن طريق إحساس مادىّ ، يقع على الجسد من أمور تتصل بحاجات الإنسان الجسدية ، التى تمسك عليه الحياة ، وتدفع عنه أسباب الفناء . فالشىء الذى كان يسدّ حاجة الإنسان البدائى، ويشبع جَوْعته — أيًّا كان هذا الشىء — هو خير وخير كثير ..

من أجل هذا كانت تلك الموجودات من حيوان أو نبات أو جماد ، معبودات للإنسان الأول ، حيث ظهرت له ، فى صورة نافعة أو ضارة ، وذلك ليرجو خيرها ، ويدفع شرها ..

ومن هنا كان تعدد الآلهة التى عبدها الإنسان فى خطواته الأولى فى الحياة .. فعبد كل شىء ، إذ كان يرى مصيره مرتبطاً به ، فى مجال النفع والضر على السواء ..

ثم حين خطا الإنسان خطوات إلى الحياة ، وتعرف على وجوه الأشياء ، وأخضعها لسلطانه — ترك عبادتها شيئاً فشيئاً ، ثم ما زال بها يدفعها عن مقام التأليه والتقديس حتى انتهى به الأمر إلى جمعها جميعاً تحت دائرتين : دائرة تسع كل ما هو خير ، وأخرى تجمع كلّ ماهو شر ..

فالخير جميعه يصدر عن قوة عليا ، كما أن الشرّ كله يصدر عن جهة عليا كذلك ، تناظر قوة الخير ، وتقابلها ..

وهكذا انتهى الإنسان فى مرحلة متأخرة من حياته إلى عبادة الخير ، والشر ، ولم يستسغ أن يجمع بين الخير والشر فى دائرة واحدة ، فيجعلهما صادرين عن قوة واحدة عليا .. لأنه فهم أن الخير لا يلتقى أبداً مع الشر ، وأن الذى يصنع الخير ، لا يصنع الشر !

فلسفة المثنوية :

وقد اطمأن الإنسان إلى هذا المعتقد ، واجتمعت له فيه ، نفسُه المشتتة ، وعاد إليه فكرة اللاهث ، الذى كان يجرى وراء كل هذه الآلهة التى لا حصر لها ..

ومنذ هذا الوقت استطاع الإنسان أن يتأمل ، وأن يُطيل التأمل فى هذين الإلٰهين ، اللذين احتويا جميع الآلهة ، وانتزعا كل سلطان على هذا الوجود ..

ولقد نشأ عن هذا التأمل الطويل العميق فى هذين الإلٰهين ، فلسفة لها أسلوبها الذهنى والمنطقى ، ولها أحكامها القائمة على البرهان والاستدلال ..

ولعلّ أقدم نظر لبس ثوبَ الفلسفة فى العقيدة « المثنوية » هو نظر حكماء الفرس ، الذين انتهى بهم الرأى إلى القول بإلٰهين يحكمان العالم ، ويتحكمان فى مصيره ، وهما : إله الخير ، وإله الشر .. وقد رمزوا لإله الخير بالنور « يَزْدان » ولإله الشرّ بالظلام « أهْرَمَن » .

وقد تفرقت بفلاسفة الفرس وحكمائها السبل حول النظر فى هذين الإلٰهين ، وسلطان كل منهما فى هذا العالم ، وفى الصدام والصراع الذى لا بد أن يقع بينهما ، إذ كانت طبيعة كل منهما على خلاف حادّ مع طبيعة الآخر .

فذهب فريق منهم إلى أن « يزدان » — وهو النور — أزلىّ قديم ، وأما « أهرمن » — وهو الظلام — فحادث مخلوق ..

وفى زمن متأخر جاء « زرادشت » بمذهب يخالف هذا المذهب ، فقال : إن الله واحد قديم ، لا شريك له ولا ضد ولا ندّ .. وهو الذى خلق النور و الظلام ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة .. ولكن الخير والشرّ ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حدث بامتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان للعالم وجود !!

وهما — أى النور والظلام — يتقاومان ، ويتغالبان ، إلى أن يغلب النورُ الظلامَ ، والخيرُ الشرَّ ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ..

والبارىء تعالى هو الذى مزجهما وخلطهما لحكمة رآها فى التركيب .. ويرى « زرادشت » أن النور هو الأصل ، وأن وجوده وجود حقيقى ، وأمّا الظلمة فتبع له .. كالظل بالنسبة إلى الشخص .. ولما كان البارى يُرى أنه موجود ، وليس بموجود ، فقد أبدع النور ، وحصل الظلام تبعاً .. لأن من ضرورة الوجود التضادّ » [1] .

ونلاحظ هنا أن هذا الرأى يقارب كثيراً ما تقول به التوراة فى سفر التكوين .. فما تحدّث به التوراة يكاد يكون نقلاً حرفيًّا له !

كما يلاحظ أيضاً أن قول « زرادشت » بأن الخير والشرّ ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حدثت من امتزاج النور والظلمة — يلاحظ أن هذا القول يتفق مع أحدث النظريات الفلسفية والأخلاقية التى تقول ، بأن الخير والشر لا يوجدان خالصين .. فالخير ممتزج بالشر ، والشرّ معه الخير .. « فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً » ..

الخير والشر فى معايير الفلسفة الحديثة :

ولا بد لنا من نظرة إلى عصرنا هذا ، وإلى نظرته إلى الخير والشر ، عند العلماء ، والفلاسفة ، ورجال الدّين والأخلاق ..

فلقد عَنيت الفلسفة الحديثة بالسلوك الإنسانى ، وجعلت الإنسان موضوعاً بارزاً من موضوعات الدراسة والنظر فى منهجها .

كان ماوراء الطبيعة فى الفلسفة القديمة ، هو كل مايَشغل الفلاسفة ، ويسيطر على تفكيرهم .. فجاءت نظرياتهم تخطيطاً لصور من المثاليات القائمة على

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى . . ج ٢ ص ٦٩ وما بعدها .

التصورات والفروض .. وطبيعى ألا يكون للإنسان حظ بارز فى هذه الفلسفة .

وكانت دعوة « أرسطو » إلى النظر فى عالم الواقع والحسّ ، فى كلمته المشهورة: « اعرف نفسك » - كانت هذه الدعوة جديرة بأن تؤتى ثمارها، لو أنها تناولت الإنسان من حيث هو كائن حىّ من كائنات الطبيعة .. ولكن هذه الدعوة نقلت الفلسفة من النظر فى السماء ، إلى النظر فيما وراء المحسوس من الإنسان . . من روح ، ونفس ، وعقل ، ولم توجّه النظر إلى المادة ، ومظاهر الطبيعة التى يعيش الإنسان فيها ، بل ويعيش منها وعليها ..

أما فى هذا العصر ، ومنذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد فُتن الناس بالواقع التجريبى ، الذى يقوم على الاختبار الحسىّ ، وأصبحت المعامل التجريبية لعلوم الطبيعة وظواهرها ، ميدانَ للصراع العقلى بين العلماء . . فتلون التفكير الفلسفى بالصبغة العملية ، وتغير منهج الفلسفة .. فبعد أن كانت مراحل التفكير الفلسفى تبدأ من السماء ، ثم تنتهى أو لا تكاد تنتهى إلى الأرض — أصبحت الفلسفة تبدأ من الأرض ، ثم تنتهى أو لا تنتهى إلى السماء .. !

وطبيعى أن يظفر الإنسان بالنّصيب الأوفر من عناية الفلاسفة المعاصرين.. إذ كانت الطبيعة موضوعَ فلسفتهم ، وكان الإنسان هو أعلى ، وأعظم ظاهرة فيها ..

ولما كان الخير والشرّ جانبين بارزين فى تفكير الإنسان ، وفى سلوكه ، فقد عُنيت بهما الفلسفة ، فيما عُنيت به من شأن الإنسان ، وحاولت الفلسفة جَهْدها أن تحدد « القيمة » لكل من الخير والشرّ ، وأن تضع الموازين والضوابط لهما . .

وتصور.. كيف يكون الحال ، لو عرف الناس ميزاناً دقيقاً يَزِنون به تصرفاتهم ــ قبل أن تقع ــ وتبينّوا جانب الخير ، وجانب الشر منها ؟ إن إنساناً لن يمدّ يده ، أو يسعى برجله، إلى شر أبداً .. وكيف وقد استبان له وجه الخير والشرّ ، على الصورة التى يقعان بها ؟ .

وقد تقول : إن كثيراً من الأمور يعرف الناس وجهَ الخير والشرّ فيها ، ومع هذا ، فإنهم يواقعون الشرّ وعيونهم مفتوحة له ! فهناك شرّ صُراح لاخفاء فيه ، ومع هذا فإنه واقع فى سلوك الناس .. قد تقول هذا !

ونحن نوافقك على هذا الاعتراض، ولكن على شرط أن تتفق معنا على أن مثل هذا الشرّ غير مصحوب « بالحتمية » التى تجعل وقوعه أمراً لازماً ، لامفرّ منه ، عند الذين يتلبّسُون به على الأقل .. فإن هناك صوراً من الاحتمالية تثور دائما فى وجه ما يبدو أنه شرّ محض !

وهذه « الاحتمالية » هى الضباب الذى يُخفى كثيرا من وجوه الشرّ ، فيما هو شر ، وهى السراب الخادع الذى يضلل الإنسان ، ويغريه بفعل ما هو شر ، وإن كان يراه رأى العين !!

ولا شك أن رغباتنا ، وعواطفنا ، تلعبان دوراً هاما ، فى مجال العمليات الاحتمالية ، فتقويها أو تضعفها ، على حسب ماعندنا من رغبات وعواطف نحو الشر الذى نقف إزاءه ، وما عندنا من إرادة ، وعزم ، وثورة ، على ضبط هذه الرغبات ، وكبح جماح تلك العواطف !!

ومع هذا ، فإننا نقول : إنه من الخير أن يظلّ الخير والشرّ فى هذه السّحب التى تحجب الكثير من معالمها ، فيكون « للاحتمالية » مكانها فى الخير أن يكون شراً ، وفى الشرّ أن يكون خيراً ــ وبذلك تقوم دواعى العمل ، ويكون للحياة

دورانها ، وللناس سعيهم فى كل وجه ، فيعملون فيما يحسبون أنه خير ، وإن جاء بالشر ! ! « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

ولو استبان للناس وجهُ الخير صريحاً ، لكان ركب الحياة كلُّه متجها إلى هذا الوجه وحده ، ولكان الناس على طريق واحدٍ ! !

ولكن أى ركب هذا الذى يأخذ طريقا واحداً ؟ إنه ركب جامد صامت لا حركة فيه .. إنه أشبه بالتيار الموجِب فى القوة الكهربائية .. لا يعمل ، ولا يتحرك ، ولا تصدر عنه فاعلية فى إحداث حرارة أو ضوء ، إلا إذا اتصل بالتيار السالب ، وتفاعل معه ! .

إن معالجتنا للأمور ، لا تظهر نتائجها إلا بعد أن نفرغ منها ، ونخرج من أيدينا ، ولو استدارت لنا عواقب الأمور ، فرأيناها قبل أن نعالجها ، لكان شأننا فى الحياة غير هذا الشأن ، فما أخطأ مخطىء ، ولا خسر خاسر ، ولا أصيب مصاب .. وهكذا ، مما يقع للناس ، مما يسوؤهم .. ولكان شاعراً كابن الرومىّ على غير ما كان عليه ، من الخوف ، والتردد ، والعجز ، عن لقاء الحياة . . ولَمَا قال هذا القول ، مصوراً به نفسَه :

أُقَدِّمُ رِجلاً رغبةً فى رَغيبةٍ وأُمسك أخرى رهبةً للمعاطب

ألا مَن يُريني غايتى قبل مذهبى ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب !

* * *

ونعود فنقول إن للفلسفة الحديثة ، وإن بدأت بالنظر إلى الإنسان ، ممثلا فى المجتمع الإنسانى ، فإنها انتهت بالإنسانية ممثلة فى الإنسان . . بمعنى أن الإنسان من حيث هو كائن له ذاتيته ، وله مدركاته ، ومشاعره ـ هذا الإنسان هو الذى أصبح مركز الدائرة التى تدور حولها الفلسفة الحديثة .. وإذا كان لها نظر إلى

المجتمع الإنسانى ، وإلى الروابط التى تربط الفرد بالجماعة ، فهو نظر جانبى يجئ تبعاً للنظرة المتجهة اتجاهاً مباشراً إلى الإنسان وحده .

ومن هنا كان الحكم على الخير والشر - فى تقدير الفلسفة الحديثة - قائماً على أساس فردى بحت ، بمعنى أن الفرد - والفرد وحده - هو الذى له أن يحكم على هذا الأمر بأنه خير أو شر ، ثم إنه ليس هذا بالذى يمنع من أن يجئ غيره فينقض عليه حكمه ، فيرى ما رآه غيره خيراً ، شراً ، وما رآه شراً ، هو عنده خير ..

وعلى هذا ، فهناك - عند الفلسفة الحديثة - خير وشر ، ولكن لا ذاتية للخير أو الشر ، بل هما أمران اعتباريّان ، فالخير ما رآه الإنسان خيراً . والشر ما رآه شراً .. وإنه لا خير ولا شرّ فى حقيقة الأمر ! !

وفى هذا يقول الفيلسوف الأمريكى « وليم جيمس » : « إن الإنسان هو مصدر الخير والشرّ ، والفضيلة والرذيلة .. إن الخير خير بالنسبة له ، والشرّ شر بالقياس إليه .. إن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيَم فى ذلك العالم ، وليس للأشياء من قيمةٍ خُلقية إلا باعتباره هو » !!

ويمكن أن يكون هذا الرأى تلخيصاً للفلسفة الحديثة ، وإن دخلت عليه بعض الألوان والأصباغ ، فإن اللون الغالب فيه هو هذا اللون الذى يجعل للإنسان وحده تقييمَ الأشياء ، وتصنيفها ، ووضعَ كل شىء منها فى موضعه من الخير والشر ، والحسن والقبح .. !

الخير والشرّ فى نظر الإسلام :

لا تحفل الشريعة الإسلامية بالنظر الفلسفى فى حقائق الأشياء ، ولا تُعنَى بالجدل اللفظى حول ماهيتها ، لأن غاية هذه الشريعة ليست تربية الملكات

العقلية ، ولا تخريج الفلاسفة والحكماء ، وإنما رسالتها تقوم أساساً على تقويم السلوك ، وتهذيب النفوس ، وإقامة مجتمعات إنسانية على مبادىء الخير والعدل والإحسان .

ومن هنا ، لا نجد فى الشريعة الإسلامية تلك التعريفاتِ الجامعة المانعة — كما يقولون — للخير والشرّ ، والحقّ والباطل ، والحسن والقبيح ، وغير ذلك من الصور التى عُنِى الفلاسفة والأخلاقيون ، بتحليلها ، والتعرف على عناصرها ، وجمع الصفات المميزة لكل واحد منها . .

فإذا قال الفلاسفة والأخلاقيون : « إن الحق هو كذا ، والخير هو كذا ، والحسن كذا — لم نجد فى كتاب الله ولا سنّة رسوله قولا عن الحق .. ما هو؟ والخير ما هو ؟ والحسن ما هو ؟ وإنما نجد دعواتٍ إلى الحق ، والخير ، والإحسان ، وإغراء بها ، وتحريضاً عليها ، ورصداً للجزاء الحسن لمن استقام عليها .. كذلك نجد عكس هذا ، إزاء كل ما هو باطل ، وشر ، وخبيث ! .

ولم يكن إغفال الشريعة الإسلامية لرسم حدود الفضائل، وتقويم الأخلاق عن تهوين لشأنها ، أو استصغار لخطرها .. وكيف وغاية الشريعة ومقصدها أولا وأخيراً ، إنما هو تقويم الأخلاق ، وتربيتها ، وإقامتها على منهج سليم مستقيم ! وكيف والنبىّ الكريم يجمل عنوان رسالته ، ويحصر مهمة نبوته فى هذا المجال وحده : فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ؟

فليس عن تهوين إذن من شأن الأخلاق ، ولا عن استصغار لخطرها ، هذا الاتجاه الذى اتجهت إليه الشريعة فى إغفالها البحث عن « ماهية » الأخلاق .. إذ كان مقصد الشريعة وهدفها — كما قلنا — هو الجانب العملى

للأخلاق .. الجانب السلوكى ، الذى لا يُغنى فى تعديله وتقويمه ، الجدلُ الفلسفى، أو النظر المنطقى ، وإنما الذى يُرجى منه النفع فى هذا المقام ، هو إثارة مشاعر السموّ النفسى فى الإنسان ، ووصله بالمجتمع الإنسانى بصلات الأخوة ، والحنان والرحمة .. فذلك هو الذى يقيم من الإنسان إنساناً صالحاً فى بناء مجتمع صالح .

فالقرآن الكريم يحضّ على الأعمال الصالحة ويزكيها ، ويرفع منازل أهلها، ويَعِدهم بجنات الله ورضوانه عليها . .

يذكر القرآن الكريم « التقوى » فى مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً * يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم » ..(٧٠ ـ ٧١ : الأحزاب)

فما هو العمل الصالح ؟ وما هى التقوى ؟ وما القول السديد ؟ .. كل ذلك لم يشأ القرآن الكريم أن يعرض له بالكشف عن « ماهيته » ورسم حدوده ..

نعم ، هناك أمور واضحة صريحة فى باب الخير ، كما أن هناك أموراً واضحة صريحة فى باب الشر .. ولكنها على هذا الوضوح ، ومع تلك الصراحة ، لا تقع من النفوس موقعاً واحداً .. فإذا اتفقت النفوس على أن العدل جميل .. فإنه فى نفس عمر بن الخطاب مَثَلا ، غيرُه فى نفس كثير من الناس .. هو خير لا شك فيه .. تدعو إليه الشريعة وتأمر به ، و تثيب عليه .. ولكنها لا تستطيع أن تضعه فى معادلة جبرية . أو تحلله تحليلا كيماوياً .. إنه العدل ، وكفى! وإنه الخير وكفى ! « الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات » هكذا يقول الرسول الكريم .. وليست الشبهة فى الحلال فى ذاته ، أو الحرام فى ذاته ، وإنما تقع الشبهة فى الملابسات التى تلابس الحلال أو الحرام ، وفى الوضع الذى يكون عليه الإنسان إزاء ما هو حلال وحرام . . !

أتُترك الأمور إذن بلا ضابط هكذا ؟ . .

كلا .. ومن قال هذا ؟

إن ربّان السفينة إذا أدار محركها أو فرَدَ قلوعها ، هو هالك لامحالة ، إذا هو لم يعرف الوجهة التي يتجه إليها ، وإذا لم يكن معه « بوصلة » أو مايشبهها ، ليستعين بها على معرفة الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وإذا لم يكن معه « بوصلة » أخرى أو مايشبهها ، يقيس بها الأعماق ، أو يستدلّ بها على مهاب الرياح !

والإنسان هو سفينة فى محيط هذه الحياة .. رَبّانه العقل ، وقلوعه النفس ، ونزعاته وأهواؤه ، هى التى تملأ قلوعها وتدفعها . . !

لابد إذن من « بوصلة » تضبط سيره ، وتحدد وجهته . .

وما غفلت قدرة الحكيم العليم عن هذا .. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .. وكيف ، وهو الذى أعطى كلّ شىء خلقه .. ثم هدى » ؟

لقد أودع الخالق العظيم فى الإنسان أدقّ « بوصلة » وأضبطها .. إنها « القلب » .. وحسبك بالقلب السليم « بوصلة » عاملة فى سفينة الحياة !

لقد اعتمد الإسلام على القلب فى تقويم الأخلاق ، وفى التعرف على الخير والشر ، والحسَن والقبيح .. ووكل إليه الفصلَ فى خير الأمور وشرها ، وحَسَنها وقبيحها . .

إن القلب فى نظر الإسلام ، هو العين الباصرة ، التى تكشف للإنسان مسالكه ، وتحديد المستقيم والمعوجّ من طرقه ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتجه إلى القلب وتتحدث إليه .. فيقول سبحانه وتعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (٣٧ : ق) ويقول

سبحانه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله .. ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢٨ : الرعد) .

والرسول الكريم ، ينوّه بشأن القلب ، ويكشف عن آثاره فى الإنسان ، فيقول - صلوات الله وسلامه عليه - « ألاَ وإن فى الجسد مضغةً ، إذا صلَحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه .. ألا وهى القلب » ..

ويقول الرسول الكريم فى تعريف الخير والشر ، وفى التعرف عليهما : « البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ماحاك فى النفس ، وتردّد فى الصدر .. استفتِ قلبك وإن أفتاك الناسُ وأفتوك » ..

الإسلام إذن ، يعترف بالخير والشرّ .. لأنهما أمران واقعان فى الحياة ، يعيشان فى الناس ، ويعيش فيهما الناس .. وقد جاءت الشريعة الإسلامية آمرةً بالخير ، ناهية عن الشر .. وأشارت إلى أمور بذاتها عدّتها خيراً ، وأخرى اعتبرتها شرًّا .. ثم جمعت الخير كله فى دائرة واحدة هى « المعروف » وطوت الشر كله تحت حكم واحد ، هو « المنكر » : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » .

فالخير هو « المعروف » أو وجه بارز من وجوه المعروف ، والشر هو المنكر ، أو وجه كالح من وجوه « المنكر » ..

والسؤال هنا - ونحن فى معرض البحث عن الخير والشر - إذا كان الخير أمراً محموداً ، ودعوةً من دعوات السماء إلى لقائه ، والعمل به - فلم كان هذا الشرّ ؟ وماحكمة وجوده ؟

الشرّ موجود .. هذه حقيقة مسلّم بها ، لاسبيل إلى إنكارها ، أو تجاهلها !

أمّا ، لماذا وجد ؟ وماحكمة وجوده ؟ وهلاّ محّضت الحياةُ للخير ، وخلصت الشرّ ؟ ..

أما هذا ، فهو الذى يدور حوله الخلاف ، ويكثر فيه الجدل . .

وقد تجنب الإسلام ـ منذ قام ـ إيقاظَ هذه الفتنة ، فلم يطرق بابها من أية جهة ، ولم يُشر إليها من قريب أو بعيد .. والحكمة فى هذا ظاهرة .. إذ لاجدوى من أن يقيم الإسلام لوجود الشرّ علةً أو عللا .. إنه موجود .. وكفى . . « وحسبُك من شرٍّ سماعُه » ! .. والحزم كل الحزم فى توقّيه ، ودفعه ، والخلاص منه ..

إنه لمن السفاهة الغليظة ، والخسران المبين ، أن يرى الإنسان حيواناً يريد أن ينقضّ عليه ويفترسه ، ثم لا يطلب النجاة لنفسه ، بل يستغرق فى تأملات سخيفة ليجيب على هذا السؤال : ماهذا الحيوان المؤذى ؟ ولم كان ؟

لم يُرد الإسلام أن يسوق أتباعه إلى هذه المواقف الخاسرة .. بل صرَفهم عنها صَرْفاً ، وخلّى بينهم وبين الحياة بخيرها وشرها ؛ بعد أن أراهم منازل الخير وثمراته ، وأطمعهم فيه ، ودعاهم إليه ، ثم أراهم مزالق الشرّ ، ومغباته ، وخوّفهم منه ، وتوعدهم على الاتصال به ..

أليس ذلك هو النهج القاصد ، والطريق المستقيم فى تقديم الأخلاق وتربية النفوس ؟

لقد كان ذلك هو طريق الإسلام ، وكان ذلك هو موقفه حيالَ هذه القضية .. لم يوقد نارها ، ولم يُلْقِ لها وقوداً . .

ولكن حين اتصل المسلمون بالأمم المجاورة ، وعرفوا شيئاً من فلسفة اليونان والهند ، وشيئاً من معتقدات الفرس ، تحركت فى نفوسهم هذه الفتنة « الخالدة » .. لماذا وُجد الشر ؟

وقد فتحت الإجابةُ على هذا السؤال باب فتنة ، أخذ يتسع شيئاً فشيئاً ،

حتى دخله المسلمون جميعاً ، وانقسموا إلى فرق وطوائف ، ولكل فرقة مقولاتها ولكل طائفة حُجَجها .. حتى كان من ذلك الجدلِ محصولٌ وفير من الكلام !!

ولا نريد أن نعرض لهذا الجدل ، فهو مبسوط فى كتب علم الكلام (١) .

والذى نحبّ أن نقرره هنا . . هو أن الإسلام يوجّه اهتمامه أولاً وقبل كل شىء ، إلى مجاهدة الشر الذى يعيش فى مجال الناس فعلاً ، وإلى محاولة التغلب عليه ، والانتصار للخير ، والانحياز إلى جانبه . فذلك هو الجدير بالإنسان ، من حيث هو إنسان ، يحترم عقله ، ويستهدى بقلبه ، ومن حيث هو كائن اجتماعى ، يعيش فى المجتمع الإنسانى .. ومن خيره وخير الجماعة أن يكون عضواً فى هذا المجتمع الكبير ، يسعد بسعادته ، ويشقى بشقائه . .

إن الإسلام ، لا يضع الشرّ فى مجال العدم بالنسبة للخير ، بل يراه كياناً قائماً بذاته إزاء الخير . . فالشر ـ فى نظر الإسلام ـ ذاتية قائمة فى الحياة ، وعلى الناس أن يأخذوا حِذرهم منه ، وأن يعملوا له حساباً فى موازنة الأمور التى تَعرِض لهم .

لقد حاول كثير من مفكرى الإسلام ، أن يهوّنوا من شأن الشرّ ، وأن يجعلوا وجوده فى الحياة، شيئاً عارضا ، يجىء فى ثنايا الخير !

وكأنهم أرادوا بهذا أن يبرّئوا صُنع الله من هذا النقص ، الذى يلحق بالوجود ، إذا قيل إن الشرّ قد نجم فيه !!

وهذا دفاع غير موفق .. إذ أنه ينكر أمراً واقعاً يعيش فى الناس .. وهو الشرّ .. وكان خيراً من هذا الدفاع أن يعترفوا بالشر .. ولكنه شرٌّ لا يرتفع

(١) انظر فى هذا كتابنا « القضاء والقدر .. بين الفلسفة والدين » .

إلى أكثر من ضرورات الحياة .. الحياة الإنسانية ، التى يُعتبر الشرّ فيها عنصراً من العناصر العاملة فى دفع عجلة الحياة ، ودوران دولاب العمل فيها ..

يقول الجاحظ : « اعلم أن المصلحة فى ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها ، امتزاجُ الخير بالشر ، والضارّ بالنافع ، والمكروه بالسارّ ، والضّعة بالرفعة ، والكثرة بالقلّة .. ولو كان الشرّ صِرفاً، لهلك الخَلْق، أو كان الخير محضاً لسقطت المحنة ، وتقطعت أسباب الفكرة ..

ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخيير، ذهب التمييز ، ولم يكن للعالِم تثبت وتوقف وتعلم ، ولم يكن علم ، ولا يُعرف باب التدبير، ولا دفع المضرّة ، ولا اختلاف المنفعة ، ولا صبرٌ على مكروه ، ولا شكرٌ على محبوب ، ولا تفاضلٌ فى جانب ، ولا تنافسٌ فى درجة ، وبطلت فرحة الظفر ، وعِزّة الغلبة .. ولم يكن على ظهرها (أى الدنيا) مُحقٌّ يجد عزّ الحقّ ، ومبطل يجد ذُلّ الباطل ، وموقّن يجد بَرْدَ اليقين .. ولم يكن للنفوس آمال ، ولم تتشعّبها الأطماع[1] » .

فالجاحظ هنا يكشف عن الدور ، الذى يؤديه التفاوت بين الأمور ، فى امتداد مجال التنافس بين الناس ..

إن الاختلاف بين الأشياء فى مجال الخير والشرّ ، هو الذى يملأ كل فراغ فى الحياة ، ويُفسح لكل إنسان مكاناً فى قافلة الحياة ، حسب استعداده ونزعاته .. وهكذا تتحرك الحياة كلها ، فى آفاقها الصاعدة والنازلة، على السواء ! .

والذى ينظر إلى الحياة نظرة فردية جانبية ، يرى هذا التفاوت بين الناس

---

(١) الحيوان : للجاحظ .. جزء : ١ ص : ٩٦ .

وأوضاعهم فى هذه الحياة . . فيرى قمما عالية ، بينما يرى سفوحاً ، ومنحدرات ، بل وحفراً . . ولـكنه إذا نظر إلى الحياة عامة شاملة ، لم ير إلا وَحدة منتظمة ، وإلا سطحا مستويا ، لانُجود فيه ، ولا منحدرات .. كالذى ينظر من طائرة محلّقة فى آفاق السماء ، إلى مدينة واسعة الأرجاء . إنه يرى دورها وقصورها ، وأكواخها،ونواطح سحبها ـ فى مستوى واحد .. كسطح أملس ، لا فرق بين الأكواخ والقصور ..

يقول الفيلسوف الأمريكى « بوردن باركرباون » : « إن أفراد الناس يؤثر بعضهم فى بعض ، وقد يعارض بعضهم بعضاً .. لـكن هذا التضادّ بينهم ، وهذا الانفصال والتجزؤ ، يذوب كله فى عنصر واحد يحتويهم جميعاً . . وما قد يبدو فى عالم الجزئيات تضادًّا ، إن هو فى حقيقة الأمر إلا اتساق ، لو نُظر إليه من أعلى نظرة ترى تفصيلات الوجود كلها واحدةً فى كلٍّ واحد » .

فهذا الفهم للحياة ، لاينكر وجود الشرّ وذاتيته فى واقع الحياة الإنسانية ، ولـكنه حين يرتفع بالنظر عن الحياة الإنسانية الفردية ، وعن مستوى هذه الأرض ، لايرى إلا عالماً مُشرقاً ، يفيض بالحسن والجمال .

إن حواسّنا ، ومشاعرنا ، ومداركنا ، مضبوطة على مستوى هذا الوجود الأرضى الذى نعيش فيه .. وهذا التناقض ، والتضادّ ، والتعاند ، الذى نراه ـ هو مما يقتضيه وجودنا ، وتولده حاجاتنا ، وتحققه مدركاتنا وحواسنا .

ويقول الجاحظ : « وأظنك ممن يرى الطاووس ، أكرمَ على الله من الغراب ، وأن الغزال أحبّ إلى الله من الذئب . . فإنما هذه أمور فرّقها الله الله تعالى فى عيون الناس ، وميّزها فى طبائع العباد ، فجعل بعضها أقربَ بهم

شبهاً ، وجعل بعضها إنسيًّا ، وجعل بعضها وحشيًّا ، وبعضها عَادِياً ، وبعضها قاتلا ..

وكذلك الدُرَّة والخَرَزة ، والتمرة ، والجمرة .. فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى مايريك العقل ..

« وللأمور حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول .. والعقل هو الحجة .. وقد علمنا أن خَزَنة النار من الملائكة ، ليسوا بدون خزنة الجنة ، وأن مَلَكَ الموت ليس دون ملك السحاب ، وإن أتانا بالغيث ، وجَاب الحياة »[1] .

والذى يَعْنينا من هذا الكلام ، أن الموجودات إنما تأخذ كيفيتها على حسب مدركاتنا ، أو بمعنى أصح ، أننا نكيّف الموجودات حسب وقوعها على حواسنا ومدركاتنا ..

وإذا كان الإسلام قد جعل معيار الأخلاق وتقويمها إلى بصيرة الإنسان ، يحتكم فيها إلى قلبه ، ويَرْجعُ فيها إلى ضميره ـ فإنه لم يَغْفُل عن الجانب الضعيف فى الإنسان ، ذلك الجانب الذى تهبّ من جهته الأهواء الذاتية ، والشهوات الشخصية ، فتثير الاضطراب فى كيان الإنسان ، وتنذره بالهلاك الذى يتهدد سفينته الضاربة فى محيط الحياة . . ففى كيان الإنسان نفس أمّارة بالسوء ، ورغبات نزّاعة إلى الهوى . .

لهذا كانت تعاليم الإسلام ، موجهةً إلى تقوية هذا الجانب الضعيف فى الإنسان ، ودعمه بكل مايضمن للإنسان الأمنَ والسلام من هذا الجانب ، لوأنه اتبع وصايا الشريعة ، وعمل بها .

---

(١) الحيوان .. للجاحظ . جزء ١ ص ١٩٧ .

ومما جاء به الإسلام فى هذا :

أولا : أنه جعل الخير خيراً فى ذاته ، والشرّ شرًّا فى ذاته ، ولم يلتفت إلى تلك التصورات الذهنية لطبيعة الشر والخير ، وإنما نظر إليهما على أنهما كائنان قائمان فى الحياة ، يشعر بهما المرء ، ويجد آثارهما فى نفسه . .

فالنار إذ يستدفىء الإنسان بها خير ، والنار إذ تحرقه ، شر . . إنها خير وخير محض فى حال ، وشر وشر محض فى حال .. هذا جانب الخير يراه الإنسان فى الأشياء حين يقيسها إلى نفسه ، ويحكم عليها بما تقتضيه مصلحته . . ومثل هذا جانب الشر ، الذى يراه الإنسان فى الأشياء ، حين يأخذها بمعياره الشخصى الذاتىّ أيضاً .

ولا تحسبنّ الإسلام يجعل الخير والشر محصورين فى دائرة الإنسان الذاتية ، وفى الجانب الحسّىّ من هذه الدائرة .. أى جانب اللذة والألم .. وكلاّ .. فهذا جانب وإن لم ينكره الإسلام فى تقويم الخير والشر ، لأنه قائم فى الحياة ، لا يستطيع الناس الانفصال عنه ، إلا أن الإسلام ـ فوق هذا ـ يعلو بهذا الإحساس ، فيرتفع ، عن الجانب المادّى إلى الجانب الروحى ، ومن جانب الذاتية الفردية فى الإنسان ، إلى جانب المجتمع الإنسانى من أضيق حدوده إلى آخرها ، امتداداً واتساعاً .. ومن أجل هذا كانت دعوة الإسلام إلى التخفف من متاع الدنيا ، كما كانت دعوته إلى البذل ، والإيثار ، والتضحية ، ثم كان وعده بالثواب والعقاب ، والجنة والنار فى الآخرة .

وثانيا : كشف الإسلام للناس عن كثير من وجوه الخير والشرّ ، إذ نصّ على كثير من الأمور اعتبرها خيراً ، ودعا الناسَ إليها ، وأمرهم بها ، ووعدهم الجزاء الحسن عليها .. كالصدق ، والصبر ، وبرّ الوالدين ، والإحسان إلى الناس ، بالقول والعمل ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم

بالعدل .. وكثير غير هذا ، مما ثبت عند الناس خيرُهُ ، ووجدوا آثاره الطيبة فى حياتهم الخاصة والعامة على السّواء .

وكما كشف الإسلام عن كثير من وجوه الخير ، كشف كذلك عن كثير من وجوه الشرّ ، كالقتل ، والسرقة ، والخمر ، والميسر ، والزنا ، والربا ، والكذب ، وشهادة الزور ، والغيبة ، والنميمة ، والنفاق ، والغش ، والظلم والبغى ، والعدوان ، وكثير غير هذا ، مما جاء به القرآن ، وبيّنته السنّة المطهرة ..

ولا شك أن الإسلام إذ يكشف عن وجوه الخير والشر ، فإنما ليؤكد ما استقرّ فى ضمير الناس ، وما وقع لعقولهم وقلوبهم من هذه الوجوه كلها ، وبهذا تلتقى فى قلب المسلم كلمة السماء ، مع منطق العقل ، وواقع الحياة . . فيُقبل على الخير ، ويعيش معه ، وينأى عن الشرّ ، ويحاذر الاتصال به !

وإنه لا حجة لذى عقل على أن الله سبحانه هو الذى أوجد الشرّ ، كما أوجد الإنسانَ الذى يتعامل معه ، وإذن فلا يُحاسب على لقاء شىء كتب عليه أن يلقاه ـ لا حجة لذى عقل على هذا ، فإنه كما أوجد الله الشرّ ، أوجد الخير، ثم دعا إلى الخير ، وحذّر من الشرّ ، وجعل للإنسان عقلا ينصرف به إلى الخير والشرّ . ثم جعل للخير أثراً طيباً فى عاجل الإنسان وآجله ، وجعل للشر أثراً سيئاً فى عاجله وآجله .. فإذا انصرف الإنسان عما ينفعه إلى ما يضرّه ، وآثر مايسوؤه على ما يسرّه ، فهو الذى جلب على نفسه ما جَلَب من مكروه ، لأنه هو الذى آثره ، ورضى به !

إن الحياة بخيرها وشرها ، أشبه بمائدة ممدودة ، عليها ألوان من الأطعمة ، بعضها طيب ، يفيد الجسم وينمّيه ، وبعضها خبيث يُعطب الجسم ويفسده . وعلى كل لون من ألوان الطعام لافتة تحدد صفته ، وتكشف عن حقيقته ، وأثره

فيمن يتناوله . . وليس هذا فحسب ، بل إنه يقوم على هذه المائدة ناصح أمين ، يدعو إلى الأكل من الطيب ، ويحذر من مدّ الأيدى إلى الخبيث : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيّبا .. ولا تتبعوا خطوات الشيطان .. إنه لكم عدوٌّ مبين » (١٦٨ : البقرة) على أنه ليس لهذا الناصح أن يمسك بأيدى الآكلين على هذا الطعام أو ذاك : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » (١٤ : القيامة) .. « قد جاءكم بصائرُ من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِىَ فعليها » (١٠٤ : الأنعام) ..

إن الإسلام ليحترم الإنسان ، ويرفع قدره ، ويُعْلى منزلته ، ويخرج به عن دائرة الطفولة إلى مجال الرشد ، وحمل المسئولية .. وقد أمدّه الإسلام بأمداد الرعاية والهداية ، بما بعث من رسول كريم ، يحمل بين يديه آيات الله وكلماته وضيئة مشرقة ، تجلو غياهب الرِّيب ، وتكشف وجوه المنكر ، فالحلال بيّن والحرام بيّن .. وما على الإنسان إلا أن يُجمع رأيه ، ويحزم أمره على اختيار الطريق السوىّ .. طريق الخير ، والحق ، والإحسان .. واجتناب الطرق المليئة بالمعاثر والمهالك .. طرق الشر ، والبغى ، والعدوان ..

أما التحكك بالماحكات والسفسطات ، فجدل عقيم لا يلد إلاّ البوار والهلاك .. والعاقل من دان نفسه قبل أن يُدان ، وتوقّى الشرّ قبل أن يقع فيه .

الآيات : (٣٦ — ٤٧)

« وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ

مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

التفسير:

* قوله تعالى:

«وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا، أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون» ..

مما كان يلقى به المشركون النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الاستهزاء به، والسخرية منه، ورميه بقوارص الكلم، وفحش القول .. فذلك هو سلاح من أسلحة الجاهلين، الذين لا يحسنون غير السفاهة والفحش، حين تقهرهم الحجة، ويخرسهم البرهان ..

— وفى قوله تعالى : « وإذا رآكَ الذين كفروآ إن يتخذونك إلا هُزُوًا .. »
« إن » هنا بمعنى « ما » النافية ، أى مايتخذونك إلا هُزواً .. وهذا تهديد لهؤلاء الكافرين ، وفضحٌ لما يدور فى رءوسهم ، وتتلمظ به شفاههم ، وتتغامز به عيونهم . إنهم إذا رأوا النبىّ تحركت هذه الكلاب التى تنبح فى صدورهم ، فأرسلوها نظراتٍ حانقةً ، وأطلقوها كلمات محمومة مجنونة ، ترمى النبىّ من بعيد ومن قريب . . فليست هناك كلمة طيبة تخرج من أفواههم ، أو نظرة وادعة تطرف بها عيونهم ..

— وقوله تعالى : « أهذا الذى يذكر آلهتكم » .. هو بعض مايجرى على ألسنتهم من سفاهة .. والاستفهام هنا للاستهزاء والاستنكار ، واستصغار قدْر النبىّ الذى يتطاول إلى هذه الآلهة ، فيذكرها بما يذكر من سوء عابديها !

— وقوله تعالى : « وهم بذكر الرحمن هم كافرون » جملة حالية .. أى أنهم يقولون هذا القول فى النبىّ وينكرون عليه أن يذكر آلهتهم ؛ وأن يجترىء على مقامها ، فى حال هم فيها قائمون على جُرْم غليظ ، إذ كفروا بالرحمن ، الذى وسعتهم رحمته ، فلم يعجل لهم العذاب ، وأفاض عليهم من فضله وإحسانه ، فلم يقطع أمداده عنهم .. فمالهم يَغَارُون على آلهتهم الصماء الخرساء ، ولا يغارون على مقام الله « الرحمن » وقد أجْلَوْه من قلوبهم ، وأخْلَوْا مشاعرهم من كل توقير له ؟

* قوله تعالى :

« خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ سأُريكم آياتى فلا تستعجلون » .

الإنسان هنا ، هو مطلق الإنسان .. فكل إنسان مفطور على حبّ العاجل يستعجل كل شىء .. الخير والشرّ .. كما يقول الله تعالى : « وكان الإنسان عَجَولا » (١١ : الإسراء) .

ولهذا كان مما دعت إليه الشرائع السماوية « الصبر » الذى هو الدواء الذى يخفف من هذا الداء ..

وفى هذا يقول سبحانه : « واستعينوا بالصبر والصلاة » (٤٥ : البقرة) ويقول : « والعصر * إن الإنسان لفى خُسْرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوْا بالحق وتواصوْا بالصبر » (سورة العصر) .

فالصبر هو زاد المؤمنين ، وهو عُدّتهم فى مواجهة الحياة ..

أما من تخففوا من هذا الزاد ، فإنهم أبداً فى همٍّ وقلق ، تمرّ الأيام بهم بطيئة ثقيلة .. يريدون أن يجتمع لهم فى يومهم كلُّ ما يمكن أن تَطُوله أيديهم ، وتمتد إليه آمالهم .. إنهم يريدون حياتهم يوماً واحداً أو ليلة واحدة ، كليلة جنود الحرب ، يقضونها ليلة صاخبة لاهية ، يُفرغون فيها كلّ مافى جيوبهم ، ويُلقون فى وقودها كل ما معهم من مالٍ ومتاع .. أما الغد فلا نظر إليه ، ولاحساب له ..

والمشركون يستعجلون كل شىء .. حتى الهلاك ، والبلاء الذى أُنذروا به ، ويقولون فى إلحاح ولجاج : متى هو ؟

— وفى قوله تعالى : « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » هو الجواب على ما يستعجل به المشركون من عذاب الله ، ومن الخزى الذى سيحل بهم يوم يجىء نصر الله والفتح .. وهو تهديد للمشركين ، بما سيلقون على يد المؤمنين من هوانٍ وذلة ، يومَ يروْن آياتِ الله ، ويوم تَهزِم الفئة القليلةُ الفئةَ الكثيرة !

* قوله تعالى :

« لو يعلم الذين كفروا حين لايكفّون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم وهم لا ينصرون » ..

جواب الشرط هنا محذوف ، وتقديره : لو يعلم الذين كفروا ماينتظرهم من بلاء وعذاب يوم يأتيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، لَمَا استعجلوا ما أنذروا به من عذاب الله .

— وفى قوله تعالى : « ولاهم يُنصرون » إشارة إلى أنهم لن ينصروا فى هذه الدنيا ، بل ستحلّ الهزيمة بهم ، وأنهم لن يجدوا فى الآخرة من ينصرهم من بأس الله إذا جاءهم .

* قوله تعالى :

« بل تأتيهم بغتةً فتَبهتُهم فلا يستطيعون ردّها ولاهم ينظرون » .

الضمير فى « تأتيهم » يراد به السّاعة التى يكذبون بها ، ويستعجلونها ..

فالساعة لاتأتيهم حسب تقديرهم ، وحسب موعدٍ معلوم لهم .. بل ستأتيهم بغتة ، أى مباغتة ، ومفاجأة « فتبهتهم » أى تخزيهم ، وتفضح معتقدهم فيها .. « فلا يستطيعون ردّها » أى دفعها ومنعها .. إنها بلاء واقع بهم ، ليس لهـا دافع .. « ولاهم ينظرون » أى لاينتظر بهم فى الدنيا ، حتى يصححوا معتقدهم ، ويهيئوا أنفسهم للقاء هذا اليوم ..

* قوله تعالى :

« ولقد استهزىء بِرُسُل من قَبلِكَ فحاق بالّذين سَخِروا منهم ما كانوا به يستهزئون » ..

هو عزاء للنبىّ ، وتسريةٌ لمـا يلقى من قومه من أذى ، ومايواجَه به من استهزاء وسخرية .. فهو ليس وحده من بين رسل الله ، الذى وقف منه قومه هذا الموقف اللئيم ، بل إن كثيراً من رسل الله قد أعْنَتَهم أقوامهم ، وأغروْا بهم السفهاء منهم ..

— وقوله تعالى : « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » هو تهديد لهؤلاء المشركين ، وأنه سيحيق بهم ماحاق بالمستهزئين من قبلهم برسل الله ، وسيلقون حساب هذه السخرية عذاباً ونكالا ..

* قوله تعالى :

« قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون » .

الكلأ ، والكلاءة : الحفظ والرعاية ، والحراسة . . يقال : كلأه الله : أى حرسه وحفظه . . ومنه الكلأ ، وهو العشب الذى ترعاه الماشية ، والذى عليه قوام حياتها . .

والمعنى : من يكلؤكم أيها المكذبون الضالون المشركون ، ويحفظكم من الله إن أراد بكم سوءاً ، أو أخذكم بعذاب من عذابه بالليل أو بالنهار ؟ أهناك مِن آلهتكم ومعبوداتكم مَن يدفع عنكم بأس الله إن جاءكم ؟ انظروا إلى هذه الآلهة وماذا يمكن أن يكون لها من حول وطول أمام حول الله وطوله ؟ إنه لاشىء إلا العجز والاستخزاء . .

وفى الآية الكريمة إشارتان :

الأولى فى قوله تعالى : « يكلؤكم » وقد جاءت بمعنى يحفظكم ، ويحرسكم . . وفى التعبير عن هذا بالكلاءة إشارة إلى أن الإنسان ـ مهما ملك من جاه وقوة وسلطان ـ هو كائن عاجز ضعيف ، محتاج إلى قوة عليا ، ترعاه ، وتُمدّه بأسباب الحياة والبقاء .

والإشارة الثانية فى قوله تعالى : « من الرحمن » وقد جاءت هذه الصفة الكريمة من صفات الله سبحانه وتعالى ، لتشير إلى واسع رحمته ، وعظيم فضله ، وأنّ هؤلاء المشركين الضالين ، قد بالغوا فى غيّهم ، وضلالهم ، ومحادّتهم لله

ورسوله ، حتى إن رحمة الله ـ مع سعتها ـ تـكاد تطردهم من رحاب فضلها وجودها . .

— وفى قوله تعالى : « بل هم عن ذكر ربهم معرضون » ـ إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ، قد شُغلوا بما هم فيه من لهو ومتاع ، وأنهم لهذا لا يذكرون الله ، وأنه إذا جاءهم من يذكّرهم بالله ، ويعرض عليهم آياته وكلماته ، أعرضوا ، وسفِهوا . . وذلك غاية فى الضلال والخسران . . إذ أنه قد يغفل الإنسان عن الخطر الذى يتهدده ، وينسى أو يتناسى المكروه الذى يترصده ، فإذا هلك فى هذا الوجه ، كان له بعض العذر عند نفسه أو عند الناس ، أما من يُنبَّه إلى الخطر فلا ينتبه ، ويحذَّر من البلاء فلا يرعوى ، فإنه إذا لقِىَ مصيرَه المشئوم ، لم يجد من يَعْذِره ، أو يَرْثى له . .

* قوله تعالى :

« أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نَصْرَ أنفُسِهم ولا هم مِنّا يُصْحَبُون » .

هو مطالبة لهؤلاء المشركين الذين لجوّا فى ضلالهم وطغيانهم ، أن يأتوا بمن يمنعهم من دون الله ، ويدفع عنهم بأسه إن جاءهم . . فليسأل المشركون أنفسهم هذا السؤال : ألهم آلهة تمنعهم من دون الله ؟ فإن هم عَمُوا عن حقيقة آلهتهم ، وقالوا : نعم ، إن لنا آلهة نعبدها ، ونرجو نَصْرَها وعونها ـ إن هم قالوا هذا الضلال ، وجدوا فى قوله تعالى : « لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون » ـ ما يردّ عليهم هذا السّفه ، ويُبطل هذا الباطل .. فإن هذه الآلهة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، ولا ردّ السوء إذا وقع بها ، فـكيف تنصر غيرها ، وتدفع السوء عنه ؟ .

— وفى قوله تعالى : « ولا هم منا يصحبون » إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ،

لا يجدون من آلهتهم نصراً ، كما أنهم لا يجدون من الله عَوناً ، ولا نصراً . . إذ لا عمل يشفع لهم عند الله ، ويردّ عنهم بأسه ، فلا يصحبون من الله بعون أو نصر . .

* قوله تعالى :

« بل متّعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العُمُرُ أفلا يَروْنَ أنّا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفَهم الغالبون » .

أى أن هؤلاء المشركين قد مدّ الله لهم ، فى ضلالهم ، ولم يعجّل لهم العذاب بل متعهم ، كما متّع آباءهم المشركين من قبلهم ، حتى استوفَوْا آجالهم . . وقد حسبوا ـ لضلالهم ـ أن الله غافل عما يعمل الظالمون ، وأنهم بمنجاة من بأس الله ، لِما فى أيديهم من مال ومتاع . . وذلك ظنهم بربّهم هو الذى أرْداهم . .

لقد جَهلوا قَدْرَ الله ، ولم يرجوا له وقاراً ، ولم يخشوْا له بأساً .. ولو نظروا فيما بين أيديهم وما خلفهم لرأوا كيف تأتى غِيَرُ الله ، وكيف يقع بأسه بالظالمين فكم أهلك الله قبلهم من قرون ؟ وكم أذلّ من جبابرة ؟ وكم بدّل من أحوالٍ وأوضاع ؟ فهل بقى حال على حاله ، أو ظل ذو سلطان فى سلطانه ؟ أم أنهم هم القوة التى لاتُغلب ولا تنزل بها الأحداث والغِيَر ؟ « أفلا يروْن أنّا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغـالبون ؟ » والاستفهام الأول للأمر ، والثانى للتهديد ..

والمراد بالاستفهام الأمرى : إلفات المشركين إلى مايقـع من غير الله فى الناس ، وأنه سبحانه القوى القهار ، يُذلّ الجبابرة ، ويُرغم أنوف المتـكبرين ، فإذا هم فى لباس الذلة بعد العزة ، وفى دار الهوان بعد الـكرامة ، وفى ضنك العيش بعد النعمة والرفاهية . هذه سنة الله فى هذه الدنيا ، فلا شىء فيها يبقى على حالٍ ، بل كل شىء إلى زوال : « أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من

أطرافها » ؟ فالنقص لأطراف الأرض هو النقص فى النعم ، من مال ، ومتاع ، وبنين ، ومن قوة وصحة ، ومن جاه وسلطان ، يقابل ذلك زيادة فى هذه النعم ، وذلك بما يقع من تبدل فى أحوال الناس .. حيث تنتقل هذه النعم من يد إلى يد ، ومن جماعة إلى جماعة ، ومن أمة إلى أمة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .. فيلبس الفقير ثوب الغنى ، كما يلبس الغنىّ ثوب الفقر ، وهكذا الحال فى كل نعمة .. فالدنيا : حياة وموت ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض .. إلى غير ذلك مما يتقلب فيه الناس من شئون ..

وهذا هو السرّ فى التعبير القرآنى : « من أطرافها » حيث أشار ذلك إلى أطرافٍ من الأرض ، أى جوانب منها . وهى الجوانب التى تمثل سلب النعم ، أما الجوانب الأخرى التى تساق إليها النعم ، فهى مسكوت عنها فى هذا المقام ، الذى هو مقام تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، الذين طال عليهم العهد وهم فى تلك النّعم التى أنستهم ذكر الله ، والتى هى على وشك أن ترحل عنهم ، وتفلت من أيديهم .. فإنهم لا يستطيعون دفع بلاء الله إذا نزل بهم : « أفهم الغالبون ؟ » .

وقد ذهب أكثر المفسّرين إلى أن هذه الآية مدنية فى السورة المكية ، وأقاموا معناها على أن نقصان الأرض من أطرافها ، هو إشارة إلى مايغلب عليه المسلمون من أرض المشركين والكافرين .. وأن المسلمين ينقصون الأرض التى فى أيدى الكافرين بالفتوحات الإسلامية ، وبضمها إلى أيديهم ..

وهذا المعنى بعيدٌ فى نظرنا .. وذلك من وجوه :

أولا : أن فتح المسلمين للأرض ، وضمها إلى حوزة الإسلام ليس نقصاً للأرض ، بل هو زيادة فيها ، ونماء لها .. إذ كان ذلك الفتح مما يبارك على الأرض خيرها ، ويضاعف ثمرها ، بما ينشر فيها من عدل ، وأمن ، وسلام ..

وثانياً : أن الله سبحانه وتعالى أضاف هذا النقص للأرض من أطرافها ـ أضافه إليه ، سبحانه ..

وثالثاً : أن المقام مقام تهديد للمشركين ، بهلاكهم ، وتبديل أحوالهم .. إن لم يكن ذلك ببلاء عاجل يأخذهم الله به ، كان ذلك بحكم الزّمن وبسنن الله الكونية التى أجراها على الناس .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « قد علمنا ماتَنْقُصُ الأرض منهم وعندنا كتابٌ حفيظ » (٤ : ق) .

ورابعاً : السورة كلها مكية ، ولا معنى لأن يقال إن هذه الآيةَ وحدَها هى الآية المدنية فيها ، حيث أن سياق النظم يجعلها قطعة من هذه السورة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما بعدها وما قبلها .

* قوله تعالى :

« قل إنّما أنذرُكم بالوحىِ ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدعاء إذا مايُنذَرون » .

هو تنبيه لهؤلاء المشركين الغافلين ، الذين إذا ذُكروا بآيات ربّهم أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلى مايُدْعون إليه من هدًى وخير .. وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ الكريم أن يَخُصّهم بهذا الأسلوب الزاجر ، وأن يقرعهم بتلك المقرعة الموجعـــة ، حتى تتأثر لذلك قلوبهم القاسية ، وتستشعر به مشاعرهم المتبلّده ، وطباعهم الجافية الغليظة . .

فهم يعرفون أن ماينذرهم به النبىّ ، هو وحى يوحَى إليه من ربّه .. إذ هكذا يقول لهم ، وهم لهذا يكذبونه ، ويستكثرون عليه أن يكون على صلة بالسماء ..

— وفى قوله تعالى : « أنذركم بالوحى » ـ مع أن الأمر قائم بينهم وبين النبىّ على أن ماينذرهم به هو الوحى ـ فى هذا التصريح بأن ماينذرهم به هو الوحى تشنيع عليهم ، وعلى الغفلة المطبقة عليهم ، وعلى الظلام الكثيف المخيم على

عقولهم وقلوبهم . فهذا الذى ينذرهم به النبىّ ، هو من الإشراق والوضوح بحيث لايخفى على ذى عقل ونظر أنه وحى من عند الله ، ولـكن أنى للعُمى أن يُبصروا ، وللصُّمّ أن يسمعوا ، وللحمقى أن يعقلوا ويَعُوا ؟ فـكان لابد أن يُنخَسوا هذه النخسة ، وأن يُقرعوا بتلك المقرعة ، وأن يقال لهم عن هذا النور، إنه نور ، وعن هذه الشمس ، إنها الشمس ! !

* قوله تعالى :

« ولئن مسّتهم نفحةٌ من عذابِ ربِّك ليقولُنّ ياويلَنآ إنّا كنّا ظالمين » .

فهؤلاء المشركون ، الذين غرّهم بالله الغَرور ، فأمنوا مكره ، واستخفوا بيأسه — هم على حالٍ من الضعف والاستخزاء يكادون يكونون بها مَثَلاً فريداً فى الناس .. فهم إذا مسّتهم نفحة من عـذاب الله جزعوا ، وانحلّت قوامم ، وأكثروا من الصياح والعويل ، ونسوا ماكانوا عليه من تشامخ وتعالٍ .. ولم يجدوا شيئاً من العَزاء والصبر ، على نحو مايجد المؤمنون حين يبتلون من الله بشىء من الضر .

والمسُّ : دون اللّمس .. والنفحة من العذاب : أهون شىء فيه وأقله ، وهو بالنسبة للعذاب أشبه بالرحمة ، ولهذا عُبّر عنه بالنفحة ، التى يغلب استعمالها فى الخير ..

فهذا العذاب الذى يَمسهم الله به ، هو أقل العذاب ، وهو يُعتبر نعمة ورحمة بالنسبة إلى العذاب ! فـكيف إذا وقع بهم العذاب نفسُه ، لانفحة منه ؟

* قوله تعالى :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكَفى بنا حاسبين » .

القسط، والقسطاس : العدل .

ووضع الموازين : إقامتها ، ونصبها لتوزن أعمالَ الناس فيها . . وحبة الخردل : حبة ضئيلة لا تكاد تُمسك بها الأصابع .. والآية الكريمة . نذير لأولئك المشركين ، الذين أشركوا بالله ، وأعرضوا عن ذكر الرحمن ، وظنوا أنهم فى حِمًى من بأس الله ، بجاههم ومتاعهم .. وهَبْ أنهم قطعوا العمر فى لهو ولعب ، ونعموا بما فى أيديهم من مال وبنين ، فإنهم لابدّ ميتون ، ثم إنهم لمبعوثون ، ومحاسبون على ما عملوا من سوء .. فهناك حساب وجزاء ، حيث تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ مُحضَراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . .

وفى جمع الموازين ، إشارة إلى أن لكل إنسان ميزاناً توزن به أعماله ، فلا ينتظر غيرَه حتى يفرغ من حسابه ووزن أعماله .. بل إن الإنسان الواحد ، له موازين كثيرة ، بعضها لسيئاته ، وبعضها لحسناته .. ولكل عمل من أعماله السيئة أو الحسنة ميزان ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمّه هاوية » (٦ — ٩ القارعة) . .

— وفى قوله تعالى : « وكفى بنا حاسبين » إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى وإلى ضبطه لأعمال الناس ، ومحاسبتهم عليها ، دون أن يُفلت أحدٌ من هذا الحساب ، أو يقع فى حسابه خطأ ، ولو كان مثقال حبة من خردل .. فسبحان من وسع كل شىء علماً .

الآيات : (٤٨ — ٧٣)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ

مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) * وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ
مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا
بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا
إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا
إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)
قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ
إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ
الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ
لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ
وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)
وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا
لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وَلقد آتينا موسى وَهرون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » ..

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد ذكّرت المشركين وما جاءهم به النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — من هدى ورحمة ، فعموا وصموا ، وأعرضوا .. وفى ذكر موسى وهرون ، وما آتاهما الله من كتاب ، يكشف عن أمرين :

أولهما : أن النبىّ ليس بِدعاً فيما جاء به قومه من هَدْى السماء ، بل إن أنبياء كثيرين ، ومنهم موسى وهرون ، قد جاءوا إلى أقوامهم بآيات الله وكلماته ..

وثانيهما : أن اليهود ، على رغم ماجاءهم من آيات الله الحسية إلى جانب آيات الكتاب ، لم يستقيموا على دعوة الحق ، بل كان لهم مكر بآيات الله ، وكفرٌ بها .. وفى هذا تعريض باليهود ، وبأنهم على ضلال ، وأنهم مدعوون إلى أن يصححوا عقيدتهم على ضوء هذا الكتاب الذى بين يدى الناس ، والذى سيلقاهم به النبىّ بعد قليل . .

— وفى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين » ما يحتاج إلى بيان :

فما الفرقان ؟ وما الضياء ؟ وما الذكر ؟

أهى شىء واحد ؟ وأن الفرقان هو الضياء ، وهو الهدى ، وهو الذكر ؟ أم هى الفرقان ، والضياء ، والذكر ؟

اختلف المفسرون فى هذا :

وذهب أكثرهم إلى أن « الفرقان » هو الآيات الحسّية كالعصا واليد .. اللتين كانتا من آيات موسى .. وأن « الضياء » هو « التوراة » وكذلك « الذكر » ..

وذهب بعضهم إلى أن ثلاثتها شىء واحد،هى« التوراة » . فهى فرقان يفرق بين الحق والباطل ، وهى ضياء يكشف معالم الطريق إلى الحق ، والخير ، والإحسان ، وهى ذكرٌ وموعظة ، لمن يطلب الذكر والموعظة ، ولمن كان فى قلبه إيمان وتقوى .. حيث يذكر فتنفعه الذكرى ..

ونحن نميل إلى هذا الرأى ، حيث أن الآيات المادية قد ذهبت آثارها ، ولم يكن لها أثر إلا فيمن شهدوها ، ورأوا آثارها بأعينهم ..

ونسبة إتيـان الفرقان لموسى وهرون ، مع أن موسى هو الذى أوتى هذا الـكتاب ، لأن هرون كان مشاركاً لموسى فى الدعوة إلى الله بهذا الـكتاب كما قال الله تعالى : « قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

وفى قوله تعالى : « للمتقين » تعريض باليهود ، وبأنهم لا يتقون الله ، ولهذا فهم لا ينتفعون بهذا الفرقان ، والضياء والذكر ، الذى فى أيديهم ، ولا يوقرونه، بل لقد عبثوا به ، وغيروا وبدّلوا فيه ..

— وقوله تعالى : « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » صفة للمتقين .. وفى هذا الوصف تعريض باليهود ، وبأنهم ليسوا على هذه الصفة ، وأنهم ماديّون ، لا يتعاملون إلا بالحسيات ، ولهذا فهم لا يؤمنون بالله إلا إيماناً طفيفاً ، قلقاً ، ولهذا أيضا فهم لا يعملون للآخرة ، ولا يشفقون مما يلقاهم فيها من عذاب الله .. إذ كان عذابها غير حاضرٍ بين أيديهم .. إنهم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يقيمون حياتهم على التعامل به ..

* قوله تعالى :

« وهذا ذِكْرٌ مُبارك أَنْزَلناه أفأنتم له منكرون » .

الإشارة هنا إلى القرآن الكريم .. والإشارة إليه بهذا ، الذى يدل على قرب المشار إليه ، إشارة إلى قربه من الأفهام ، ويُسْر تناوله ، والانتفاع به ، والاهتداء بهديه ..

والضمير فى قوله تعالى : « أفأنتم » قد يكون خطاباً للمشركين ، وفيه تهديد لهم ، وتعريض باليهود . .

أى أفأنتم منكرون لهذا الذكر ، غير آخذين بهديه ، كما هو الشأن عند اليهود مع كتابهم ؟

وقد يكون الخطاب لليهود ، والمعنى أفأنتم منكرون لهذا الكتاب ، كما ينكره هؤلاء المشركون ، وقد عرفتم وجهه بما عندكم من كتاب الله الذى فى أيديكم ؟ . .

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » . .

ومناسبة ذِكر إبراهيم هنا ، لأنه صاحب دعوة ورسالة كموسى ، وهرون ، ومحمد ، ولأنه أبو هؤلاء الأنبياء .. ومن جهة أخرى ، فإن موقف إبراهيم من قومه ، هو نفس الموقف الذى يقفه محمد من قومه ، وما يعبدون من أصنام .

وإتيان الله سبحانه وتعالى إبراهيمَ رشده ، أى منحه الإدراك السليم ، والقلب النقىّ ، الذى يأبى بطبيعته قبولَ الرجس والخبث .

— وقوله تعالى : « إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » .. متعلق بقوله تعالى : « عالمين » أى وكنا به عالمين ، حين قال لأبيه وقومه هذا القول : « ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ فلقد أنكر عليهم ما هم فيه من عمًى وضلال ، إذ عكفوا على عبادة هذه التماثيل التى صوروها بأيديهم من خشب وأحجار .

والعكوف على الشىء : مداومة الاتصال به حالا بعد حال .

ويمضى الحوار بين إبراهيم وقومه ... وكلما جاءهم بحجة دامغة ، التووْا عليه ، وردوا المنطق بالسفاهة .. يقول لهم : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ .

وكان جديراً بهم — لو عقلوا — أن ينظروا إلى هذه التماثيل ، وأن يتعرفوا على حقيقتها ، وعن الآثار التى تُجنى منها لمن يعبدها .. إنها لاتسمع ، ولا تعقل ، ولا تملك ضراً ولا نفعاً ، . فكيف يعطيها إنسان ولاءه ، وينفق عمره فى سبيلها ؟

ولكنهم لاينظرون فى شىء من هذا ، بل يردون عليه ، بداهة :

— « قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » ! .

هذا هو كل ماعندهم .. إنهم أطفال صغار ، لاحلوم لهم .. أو قرود تقلد ماترى ، فى غير إدراك . أو وعى لما تقلده ! .

* « قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » ..

إنه ليس حجة أن يضل إنسان لأن من قبله كان على ضلال .. وماجدوى أن يكون للإنسان عقل ينظر به فى الأمور ، ويتعرف إلى ماهو حق أو باطل ، وخير أو شر !؟ ولم إذن يستعمل الإنسان عينيه ، ولا يستغنى عنهما فى التعرف

على الأشياء حوله ؟ إن هذا المنطق يقضى بأن يُغمض الإنسان عينيه ، ثم يضع يده على كتف أى ذى عينين ، ليقوده ويتبع خطاه !

هكذا فى تهكم وسخرية ، يلقون هذا المنطق المشرق . . وهكذا يستقبلون الجِدّ بهذا الهزل الأحمق .

* « قال بل ربكم ربّ السمٰوات والأرض الذى فطَرَهُنّ وأنا على ذٰلكم من الشاهدين » .

لقد أضرب إبراهيم عن سَخَفهم هذا ، وقطع عليهم الطريق إلى هذا الهزل الذى أرادوا أن يسوقوه إليه ، ومضى يقرر الحق الذى يدعوهم إليه : « ربكم ربّ السموات والأرض الذى فطرهن » هذا هو الربّ الذى يجب أن يُعْبد ، وإن كان لا يُرى ، فإن آثاره تدل عليه ، وتشهد على عظمته ، وجلاله ، وقدرته وعلمه ، وقد آمن إبراهيم بهذا الإله ، وشهد شهادة الحق له . .

* « وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين » . .

لقد أسرّ إبراهيم ذلك فى نفسه ، وأراد أن يُريهم هذا القول فى صورة عملية ، بعد أن لم يجد القول آذانا تسمع ، أو قلوباً تعِى . . فهذا هو الأسلوب الذى يمكن أن يعامَل به الأطفال ، وصغار العقول من الرجال . .

وقد صدّر إبراهيم النية التى انتواها فى شأن الأصنام ، بالقسم ، حتى يؤكد هذه النية التى صح عليها رأيه فى هذا الموقف ، وحتى لا يرجع عنها إذا هو زايل موقفه هذا ، وبرَدت حرارة الموقف ! .

والكيد للأصنام ، هو إعمال الحيلة ، وإحكام التدبير فيما يريده بها .

* « فجعلهم جُذاذًا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » .

وهكذا كان إبراهيم وتدبيره . . لقد دخل على مرابض الأصنام فى غفلة من عابديها ، ثم أعمل فيها يده تحطيما ، وتكسيرا ، حتى جعلها « جذاذا »

أى قطعاً صغيرة متناثرة . . إلا كبيرَ هذه الأصنام ، فإنه أبقى عليه . لأمرٍ أراده ، سيكشف عنه فيما بعد . . وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة الصافات : « فَرَاغَ الَى آلِهتِهِم فَقال ألا تأكلون ؟ . مالكم لاتنطقون ؟ . فراغَ عليهم ضَرْباً باليمين . » (الآيات : ٩١ — ٩٣)

* « قالوا من فعلَ هذا بآلهتنا .. إنه لمن الظالمين » ..

وحين رأى القوم آلهتهم حُطاماً ، وقد جاءوا إليها عابدين ، أخذتهم الحيرة والدهشة ، واستولت عليهم حال من الذهول والوجوم .. فلما زايلتهم تلك الحال ،جعلوا يتساءلون: « من فعل هذا بآلهتنا ؟ » يقولونها ولايسألون أنفسهم : كيف يُفعل بآلهتهم هذا ، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها مايكاد لها به ؟ أآلهة تحتاج إلى من يحرسها ويحميها ؟ لم يلتفتوا إلى شيء من هذا ، بل مضوْا يبحثون عن الجانى الذى فعل تلك الفعلة .. « إنه لمن الظالمين » !

* « قالوا سمعنا فتًى يذكرهم يُقال له إبراهيم » ..

والتفت القوم إلى من يَحقِرُ هذه الآلهة ، ويُبغض مقامها فيهم ، فلم يجدوا غير إبراهيم ، الذى أنكر عليهم عبادتها ، وسخر من قبلُ بهم وبها !

* « قالوا فأتوا به على أعين الناسِ لعلّهم يشهدون » ..

وجاءوا بإبراهيم ، ووضعوه موضع المساءلة والاتهام ، على أعين الناس ، وبمشهد من الجموع الحاشدة ، التى هزّها هذا الحدث العظيم !

* « قالوا : أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا ياإبراهيم » ؟ .

* « قال : بل فعله كبيرهم هذا . . فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟ » .

بهذا الأسلوب الساخر القاتل ، يجيب إبراهيم على اتهام القوم له . أنا لم أفعل هذا بتلك الأصنام ، بل الذى فعله ، هو كبيرهم هذا ، الذى ترونه قائماً على هذه الأشلاء ! لقد قامت بينه وبين أتباعه معركة ، وليس هذا ببعيد ،

فما أكثر ما يقع الخلاف بين المتبوع والتابعين، وما أكثر ما يملك المتبوع من القوة والسلطان ما يضرب به أتباعه الضربة القاضية .. وليس من المستبعد إذن أن يكون قد وقع خلاف بين هذا الصنم الكبير، وبين أتباعه، فأخذهم ببأسه، ونكّل بهم هذا التنكيل الذى ترون!

فإن كنتم لا تصدقون .. «فاسألوهم .. إن كانوا ينطقون» أى إن كان فى قدرتهم أن ينطقوا، وأن يكشفوا عن الجانى الذى جنى عليهم، وحطم رءوسهم، ومزق أشلاءهم!

ولم يَرَ إبراهيم أن يسألوا هذا الصنم الكبير .. بل دعاهم إلى أن يسألوا المجنى عليهم، فهم أعرف بمن جنى عليهم، إن كان بهم قدرة على الكلام .. أما الجانى فقد ينكر جنايته، ولا يكشف عن فَعلته .. وهذا هو السرّ فى أن طلب إبراهيم إليهم أن يسألوا المجنى عليهم لا الجانى ..

هذا، وقد أكثر المفسرون فى الحديث عن اتهام إبراهيم الأصنام، ودفع التهمة عنه .. ودخلوا فى جدل طويل حول هذا الكذب، والمواطن التى يباح فيها للمرء أن يكذب، وعدّوا هذا الذى كان من إبراهيم من الكذب المباح المتجاوز عنه .. لأنه من قبيل التقيّة، التى يجوز المؤمن فيها أن ينطق بكلمة الكفر إذا تعرض للبلوى، ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ..

والأمر لا يحتاج إلى شىء من هذا، فما قال إبراهيم هذا القول، وهو يُقدِّر أن القوم يصدقونه، أو يأخذون به .. وعندئذ يمكن أن يقال إن هذا كذب مباح ومعفوّ عنه .. وإنما قال إبراهيم ما قال، استهزاءً بالقوم، وسخرية منهم، وكشفاً لهم عن حقيقة هذه الأحجار .. ولهذا ردّوا عليه قوله: «لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون»! أى إنك تقول هذا القول ساخراً مستهزئاً، لأنك

تعلم أنهم لا ينطقون .. وإذن فلا كذب من إبراهيم ، وإنما هو الحق الصراح ، فى أسلوب مجازى !!

* « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » .

أى إنه حين جابهم إبراهيم بهذا الجواب بُهتوا ، ووقع فى أنفسهم هذا القول الذى قاله ، أنه حق ، وأنهم على ضلال ، وما كان لهم أن يعبدوا هذه الدُّمى ، وتلك الخشب المسندة .. إنها لحظة خاطفة أشرقت فيها أنفسهم بنور الحق ، واستبان لهم على ضوء هذه اللمعة أنهم على ضلال ، وأنهم قد ظلموا أنفسهم بهذا الضلال الذى هم فيه ، ولو وجدت هذه الشرارة المنطلقة من أعماق فطرتهم ، شيئاً من العقل المستبصر ، والبصيرة النافذة — لاشتعلت هذه الشرارة فى كيانهم ، ولأضاءت عقولهم وقلوبهم ، ولطردت هذا الظلام الكثيف الجثم عليهم .. ولكن ما أن كادت هذه الشرارة المضيئة تنطلق ، حتى نفخ فيها الهوى ، والضلال ، فماتت فى مهدها ، وخَبَتْ فى مكانها !

* « ثم نكسوا على رءوسهم .. لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون » ..

لقد صحّ وضع القوم فى الحياة ، حين أوقفهم إبراهيم على أقدامهم ، وأراهم من آلهتهم ما هى عليه من ذِلّة وضعف واستسلام ، فرأوا وجه الحق مشرقاً مضيئاً .. ولكن سَرْعان ما غلب عليهم ضلالهم ، فعادوا إلى وضعهم الأول المنكوس ، ونكسوا على رءوسهم ، فرأوا الأشياء فى وضعها المقلوب ، كما كانوا يرونها من قبل ..رأوا الحق باطلاً ، والباطل حقاً .. وعادوا إلى إبراهيم يحاجّونه بهذا الضلال : « لقد علمتَ .. ما هؤلاء ينطقون » ؟

* «قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أفٍ لكم ولِما تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون » ؟

هكذا كان ردُّ إبراهيم على القوم، إنه ينكر عليهم هذا الضلال الذى هم فيه، حتى إنهم ليعترفون بألسنتهم على هؤلاء الآلهة بأنهم فى عجز ظاهر، وأنهم لا ينطقون .. «لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون» .. هكذا يقولونها فى بلاهة وغباء .. فيَجَبَهُهم إبراهيم بهذا الردّ المفحم: «أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟» .. أفيصحّ بعاقل لعلم هذا العلم من أمر تلك الأصنام، ويعرّيها من كل قوة، ثم يعود إليها خاضعاً ذليلاً، يتخاضع بين يديها، ويعفر وجهه بالسجود تحت أقدامها؟ إن ذلك لا يكون من إنسان فيه مَسْكة من عقل .. ولهذا أتبَعَ إبراهيم هذا القول بقوله:

«أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله .. أفلا تعقلون»؟ وربما قال إبراهيم هذا فيما بينه وبين نفسه، فبعد أن واجههم بهذا الإنكار: «أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟» رجع إلى نفسه، فأدار فيها هذا الحديث بينه وبينها ..!

وكلمة «أفٍّ» هنا، معناها: بعداً لكم ولما تعبدون من دون الله. فالتأفف من الشيء، يشير إلى التأذى منه، والضيق به .. وهو حكاية الصوت التى يُحدثه الإنسان بأنفه وفمه، حين يشمُّ ريحاً خبيثة .. ثم أتبع ذلك بهذا الاستفهام الإنكارى: «أفلا تعقلون»؟ أى أمالكم عقول كسائر الناس، حتى تستسيغوا هذا المنكر، وتسكنوا إليه؟.

* «قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين».

هذا هو موقف العاجز، أمام حجة العقل والمنطق .. إنه لا يملك إلا أن يتحول إلى حيوان، ينطح بقرونه، وينهش بمخالبه وأنيابه!

لقد اتهموا إبراهيم، وأدانوه، وأصدروا حكمهم عليه: «حرّقوه»! هكذا بكلمة واحدة يقضُون قضاءهم فيه ..

اهجموا عليه .. حرقوه ..

وفى قولهم : « وانصروا آلهتكم » تحريض على إمضاء هذا الحكم وإنفاذه، فهو انتصار لا لأشخاصهم ، وإنما هو انتصار لآلهتهم .. فمن لم يقف معهم فى هذه الجبهة المدافعة عن الآلهة ، ومن لم يضرب بيده فى وجه هذا المعتدى عليها ، فلينتظر غضب الآلهة ، وما يحلّ به من بلاء !!

وفى قولهم : « إن كنتم فاعلين » تحريض بعد تحريض ، على إنفاذ الحكم الذى حكموا به على إبراهيم ..

أى إن كنتم منتصرين لآلهتكم ، غير خاذلين لها ، فحرقوا إبراهيم ، وانصروا آلهتكم . أما إذا خذلتموها .. فهذا أمر آخر !!

* « قلنا يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم » .

وهكذا أمضى القوم حكمهم فى إبراهيم ، فأوقدوا ناراً عظيمة ، وألقوه فيها .. ولكنّ رحمة الله تداركته ، وعنايته أحاطت به ، فلم يَخْلص إليه من النار أذى ، بل كانت برداً وسلاماً عليه ..

وفى قوله تعالى : « على إبراهيم » .. بذكر إبراهيم ، بدلا من الضمير ــ فى هذا تكريم لإبراهيم ، ورفع لقدره ، وتمجيد لاسمه !

وانظر إلى قدرة الله .. النّار المتأججة الجاحمة ، يُلقىَ إبراهيم فى لهيبها المتضرّم دون أن يجد لهذه النار أثراً من الحرارة .. بل لقد تحولت إلى برد يحتاج المرء معه إلى نار تدفئه !

فكان قوله تعالى : « وسلاماً » هو الأمر الذى صدعت له النار فأعطت برداً لطيفاً لاتقشعر منه الأبدان .. بل هو أشبه بنسائم العشىّ بعد نهار قائظ ..

* « وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » .

أى إنهم أرادوا أن يكيدوا لإبراهيم، وأن يقضوا عليه بهذه الميتة الشنعاء .. فنجاه الله منهم ، وألبسهم ثوب الخسران فى الدنيا ، إذ لم ينالوا من إبراهيم منالا ، وأعدّ الله لهم فى الآخرة عذاباً عظيما . .

* « ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالَمين » .

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن خلص إبراهيم من النار ، خلّصه كذلك من يد هؤلاء الضالين ، فاعتزلهم، « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » . وقد نجّى الله معه لوطاً ، لأن لوطاً عليه السلام ، هو وحده الذى استجاب له ، وآمن به ، كما يقول سبحانه : « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم » (٢٦ : العنكبوت) .

* « ووهبنا له إسحاق ويعقوبَ نافلةً وكلاًّ جعلنا صالحين » .

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن نجّى إبراهيم من قومه ، أكرمه الله تعالى ، وأقام له من نسله قوماً ، فوهب له إسحق ، ثم وهب له لإسحق يعقوب ، وبارك نسله وكثّره ، فكان أمة .. وفى قوله تعالى : « نافلةً » — إشارة إلى أن يعقوب لم يولد لإبراهيم ، وإنما ولد لابنه إسحق .. فهو ابن ابن له وليس ابناً . . فهو بهذا نافلة، أى زيادة على الولد الموهوب.

وفى قوله تعالى : « وكلاًّ جعلنا صالحين » إشارة إلى أن إسحق ويعقوب لم يكونا مجرد ولدين ، بل كانا ولدَين صالحين ، من عباد الله الصالحين ، كما كان أبوهما إبراهيم ، صالحاً من الصالحين . .

* « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

أى ولم يكونوا صالحين فى أنفسهم وحسب ، بل كانوا دعاةَ صلاح ، وأئمة هدًى ، يدعون الناس إلى الخير ، ويهدونهم إلى طريق الفلاح .

وفى قوله تعالى : « يهدون بأمرنا » إشارة إلى أنهم كانوا رسلا ، يوحى إليهم من عند الله . وبهذا الوحى يبشرون الناس وينذرونهم ، ويدعونهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعمل الصالحات .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » أى أن ما أوحاه الله إليهم هو فعلُ الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ..

وفى قوله تعالى : « وكانوا لنا عابدين » إشارة إلى أن هؤلاء الرسل لم تُلهم دعوة الناس إلى الهدى ، عن ذكر ، الله ولم يصرفهم ذلك عن أن يأخذوا حظهم كاملاً من عبادة الله ، وذِكره فى كل لحة وخاطرة .

الآيات : (٧٤ — ٨٢)

* « وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٨٠) ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين (٨١) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٨٢) »

التفسير :

* قوله تعالى : « ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » ..

لما كان لوط — عليه السلام — هو الذى استجاب لإبراهيم من قومه ، واتبعه وآمن به ، فقد كان من فضل الله سبحانه وتعالى عليه، أن اصطفاه للنبوة، وآتاه حكماً وعلماً ، إذ كان هو النبتة الصالحة من بين هذا النبت الخبيث كله .. ثم نجاه الله سبحانه وتعالى من العذاب الذى أخذ به قومه وأهلك به قريته ، التى كانت تعمل الخبائث ، وتأتى المنكر جهاراً .. وهكذا ينصر الله المتقين من عباده ، ويفيض عليهم من كرمه وإحسانه ، ويأخذ الظالمين المفسدين بالعذاب البئيس ، جزاءً بما كانوا يعملون ..

قوله تعالى :

* « ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » ..

« ونوحاً » معطوف على « لوطاً » وهو عطف حدَث على حدث ، وقصة

على قصة .. والتقدير ونذكر نوحاً إذ نادى ربه من قبل هذا الزمن الذى كان فيه هؤلاء الأنبياء .. إبراهيم، ولوط ، وموسى ، وهرون .. « فاستجبنا له » أى أننا استجبنا دعاءه الذى دعانا به ، على قومه ..

ودعاء نوح على قومه ، هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر » (١٠ : القمر) وفى قوله سبحانه : « وقال نوح ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً » (٢٦ : نوح) .

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لنوح ، فأهلك قومه جميعاً بالغرق ، ونجاه هو ومن آمن معه ، وما آمن معه إلا قليل ..

و « الكرب العظيم » : هو الطوفان ..

وفى قوله تعالى : « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا » — جاء حرف الجرّ « من » بدلاً من « على » الذى يقتضيه الفعل ، فإن « نَصَرَ » يتعدّى بعلى لا بمن تقول نصرت فلاناً على فلان .. وذلك لأن الفعل هنا تضمّن معنى الانتقام والانتصاف لنوح من قومه ، إذ كانوا هم الذين اعتدوْا عليه ، وبادءوه بالسفاهة ، وتوعدوه بالسوء ، وتهددوه بالرجم — فكان نصر الله له انتصافاً لنوح منهم ، وانتقاماً له من عدوانهم عليه .. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا » أى أخذنا له بحقه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، واعتدوا على رسولنا ، وانتصفنا له منهم .

ولو جاء النظم القرآنى على ما يقضى به مطلوب الفعل « نصر » فكان النظم هكذا « نصرناه » على القوم الذين كذبوا بآياتنا ، لمَا أعطى الفعل هذا المعنى الذى أفاد النصر، والانتقام معاً ، والذى دلّ على أن القوم كانوا معتدين، ظالمين .. ولوقف بمعنى النصر عند حدود هذا المعنى المجرد،الأمر الذى يمكن أن يفهم منه النصر على أنه نصر بين متخاصمين ، لايُعرف منهما المحقّ من المبطل

منهما .. وكثيراً ما ينتصر المبطل ، ويُهزم الحق ، فى مرحلة من مراحل الصراع الدائر بين الحقّ والباطل ! فسبحان من هذا كلامه ، الذى لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . .

قوله تعالى :

* « وداود وسليمانَ إذ يحكمان فى الحَرْثِ إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » .

نفشت فيه غنم القوم : أى عاثت فيه فساداً ، وانطلقت ترعى بغير مُمسك يمسك بها على مكان معين من الحرث .. وأصل النفش : الانتشار ، ومنه قوله تعالى : « كالعهن المنفوش » . . والحرث : هو الزرع ، الذى هيئت له الأرض وحُرثت ، وبذر فيها الحب . . وليس هو الزرع الذى ينبت من غير جَهد إنسانى .

وداود وسليمان ، هما النبيان الكريمان ، من ذرية إبراهيم ، ومن أبناء يعقوب .. وداود هو الأب ، وسليمان هو الابن .

وهذه الآية الكريمة تُمسك بحدث من الأحداث التى وقعت لداود وسليمان . . وكان داود فى مجلس الحكم والفصل بين الناس ، فيما يقع بينهم من خصومات .

وقد ذكر القرآن الكريم لداود قصة أخرى من قصص الفصل فى الخصومات وهى قصة الأخوين اللذين كان لأحدهما نعجة وللآخر تسع وتسعون نعجة . . وقد جاء فى أعقاب هذه القصة قوله تعالى : « ياداود إنا جعلناك خليفةً فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله » (٢٦ : ص) .

وفى هذه القصة ، يشير القرآن إشارة لامحة إلى أن داود لم يعرف كيف يفصل فى هذه القضية ، أو أنه فصل فيها فصلا لم يُصب مقطع الحق منها . . وهذا لايعيب داود عليه السلام ، ولا ينقص من قدره ، لأنه فَصَلَ بما أدى إليه اجتهاده . . فإذا أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران . . هذا هو حكم المجتهد ، الذى تجرد من هواه . . ولا شك أن داود كان أبعدَ ما يكون عن الهوى .

— ففى قوله تعالى : « ففهمناها سليمان » إشارة إلى أن سليمان هو الذى عرف وجه الحق فى هذه القضية ، ووقع على الرأى الصحيح فيها . . وذلك بفَهمٍ آتاه الله سبحانه وتعالى إياه .. كما يقول سبحانه : « ففهمناها سليمان » وقوله تعالى : « وكلاًّ آتينا حكما وعلماً » هو تعقيب على قوله تعالى « ففهمناها سليمان » الذى قد يُفهم منه أن سليمان قد أوتى فهماً من الله وأن داودَ قد حُرِمَ هذا الفهم ، فكان ذلك دافعاً لهذا الوهم .. إذ أن كلاًّ من داود وسليمان ، قد لبس من فضل الله ومن إحسانه حُللاً ، وأن كلاًّ منهما قد أوتى من الله حكماً وعلماً . . ولكن هذا لايمنع من أن يكون أحدهما أكثر علماً من الآخر ، فالعلم درجات لاحدود لها ؛ والله سبحانه وتعالى يقول : « نرفع درجات من نشاء وفوقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٌ » (٧٦ : يوسف) .

والقرآن الكريم لم يكشف عن تفاصيل هذه القضية . ولم يتحدث عن الحكم الذى حكم به داود فيها ، ولا عن وجهة نظر سليمان فيما حكم به أبوه .. ذلك أن كل هذا لايقدّم شيئاً فى تحقيق الغاية التى جاءت لها القصة ، وهو أن الفصل فى الخصومات بين الناس أمر خطير ، يحتاج إلى علم واسع ، وبصيرة نافذة ، ونفس تجردت من كل هوى ، وإلا كان الخطأ والزلل ، الذى من شأنه إن شاع أفسد حياة الناس ، وأغرى بعضهم ببعض . . ومن جهة أخرى

فإنه مهما بلغ الإنسان من علم ، ومهما أوتى من نفاذ بصيرة ، ومن قدرة على التجرد من الهوى ، ومهما تحرّى العدل واجتهد فى تحقيقه ، فإنه قد يقع له أحياناً من المشكلات مايَغيمُ عليه فيه وجهُ الحق ، ويغيب عنه وجه الصواب .. ومن هنا كان على مَن يقوم للفصل فى الخصومات ، أن يكون على حذر دائماً ، وألاّ يعجل بالرأى الذى يظهر له لأول نظرة ، بل يقلب وجوه النظر كلها ، ويعرض بعضها على بعض .. فما كان منها أقرب إلى الحق والعدل أخذ به .. وفى هذا يقول النبي الكريم : « إنما أنا بشر وإنكم لتختصمون إلىّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه ، فإنما ، هى قطعة من النار ، فليأخذها أو يدعها .. » .

هذا — والله أعلم — هو المقصد الذى جاءت له هذه القصة .. وهى فى هذا النظم الذى جاءت عليه ، مؤدية ـ فى أكمل أداء وأتم صورة ، وأعجز إعجاز وإيجاز — المقصد الذى قصدت إليه .

أما القصة ، فهى ـ كما جاءت فى روايات المفسرين وأصحاب السير ـ تتلخص فيما يلى ، وهو مما يُروى عن ابن عباس : كان لجماعة زرع ، وقيل كرم تدلّت عنا قيده ، وكان لآخرين غنم ترعى قريباً من هذا الزرع أو الكرم ، فغفل عنها رعاتها ، فانطلقت إلى الزرع ، فانتشرت فيه ، وعاثت فى أرجائه .

وجاء أصحاب الزرع يشكون أصحاب الغنم إلى داود ، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ! .. فلما لَقِىَ سليمانُ أصحابَ الغنم قال لهم : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ، فقال : لو وَلِيتُ أمركم لقضيت بغير هذا ، فلما علم داود بذلك دعاه ، فقال : كيف تقضى بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث فيكون لهم أولادها وألبانها وصوفها ومنافعها ، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الحدّ الذى كان عليه ، أخذه أصحاب الحرث ، وردوا الغنم إلى أصحابها . فقضى داود بهذا !!

وهكذا رأى داود وجه الحقّ ، فأخذ به، ولم يمسك بحكمه الذى استبان له أولاً ..

قوله تعالى :

* « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطيرَ وكنا فاعلين ؛ وعلمناه صنعةَ لَبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » .

« صنعة لبوس لكم » : اللبوس هنا ما يُلبس للحرب ، من دروع وغيرها .

« تُحصنكم » أى تكون لكم حِصناً ووقاية فى القتال .

«من بأسكم » : أي من عدوان بعضكم على بعض .. والبأس : الشدّة ، والقوّة .

وهذه الآية هى تفصيل لمجمل قوله تعالى : « وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً » ، وهى - من جهة أخرى - دفع لهذا الوهم الذى قد يتسرب لبعض العقول من قوله تعالى : « ففهمناها سليمان » والذى قد يقع منه فى الفهم انتقاصٌ لقدر داود عليه السلام . .

فداود عليه السلام . نبيّ كريم عند الله ، محفوف بفضله وإحسانه . . ومن فضل الله عليه أنه سخّر معه الجبال والطير ، تسبّح جميعها بحمد الله ، وتشكر له . . فإذا سبّح بحمد الله ، وجد الوجود كله من حوله ، من جمادٍ وحيوان ، يسبّح معه ، ويأتمّ به فى هذا التسبيح ، فيكون من ذلك كلّه نشيد متناغم ، يملأ أسماع الكون ، فتفيض به مشاعر داود ، ويرتوى منه قلبه ، ويصبح كيانُه كلّه نغماً منطلقاً بتمجيد الله ، مترنّماً بتقديسه وحمده .

وفى قوله تعالى : « وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير » إشارة إلى أن هذه الكائنات ، من جبال وطير ، مسخراتٌ من الله ، لتسبيحه وتمجيده ، كما سُخّر داود من الله لتسبيحه وتمجيده، وأنها قد انضمت مع دواد وتجاوبت معه، وائتلفت به . . وهذا ما جعل لداود هذا الإحساس بها ، حين أزيل الحجاب بينه وبينها،

الأمر الذى لايشاركه فيه كثير من العابدين المسبّحين . . وإلاّ فإن الوجود كله فى أرضه وسمائه ، وفيما تحتوى أرضه سماؤه ، يسبّح بحمد الله ، ويصلّى له ، ويمجّده ، كما يقول سبحانه : « وإنْ من شىء إلاّ يُسبّح بحمده ولـكن لاتفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) . . وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « مع داود » بدلاً من « لداود » . . فالجبال والطير هنا مسخرة معه للتسبيح والتمجيد ، وليست مسخرة له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبالُ أوِّبِى معه والطّيْرَ » (١٠ : سبأ) .

وفى قوله تعالى : « وكنا فاعلين » ـ إشارة إلى أن هذا الفضل من الله سبحانه على داود ، كان بتقديره ، وبما أوجبه جلّ شأنه على نفسه من الإحسان إلى المحسنين من عباده . . وقد كان داود أحسن خلق الله صوتاً . . وقد جعل « الزّبور » ترانيمَ ، ذات نغمٍ شجى ، يسبح فيه بحمد الله . . فتتجاوب مع صوته الـكائنات من جماد وحيوان . .

قوله تعالى :

* « وعلمناه صَنْعةَ لَبوس لـكم لتُحصنـكم من بأسِـكم . . فهل أنتم شاكرون » .

أى أن من فضل الله تعالى على داود ، أن علمه صنعة الدروع . بعد أن ألان له الحديد ، كما يقول سبحانه : « وَأَلَنّا له الحديدَ أنِ اعْمَلْ سابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْد » (١٠،١١ : سبأ) .

وفى قوله تعالى « لتُحصنكم من بَأسِكم » إشارة إلى أن هذه الدروع ، هى مما يدفع به الله بأس الناس ، ويَردّ به عدوان بعضهم على بعض . . وهى نعمة تستوجب من الناس الحمد والشـكر لله رب العالمين .

وهنا سؤال :

كيف تكون هذه الدروع نعمة من نعم الله ، تستوجب الحمد والشكر ، وهى أداة من أدوات الحرب ، وعُدّة من عُدده ؟ ثم هى من جهة أخرى ، قد تكون قوةً من قوى البغى والعدوان ، يفيد منها أهلُ البغى والعدوان أكثر مما يُفيد منها أهلُ الاستقامة ، والسلامة ؟

والجواب على هذا ، من وجوه :

أولاً : أن هذه الدروع فيها حَصانة ، وصِيانة لكثير من الدماء التى كان يمكن أن تُراق ، وللأرواح التى كان يمكن أن تُزْهق فى القتال الذى يلتحم بين الناس . . فهى ـ كما ترى ـ عاملٌ مخفف من ويلات الحرب ، ودافع لكثير من شرورها . . فلو قُدِّر أن يلتقى فى ميدان القتال أعداد من المقاتلين بدروع وآخرون مثلهم بغير دروع ، لكان حصيد الحرب ، وحصيلتها من الدماء والأرواح فى الميدان الأول ، أقلّ بكثير جداً مما يقع فى الميدان الآخر . . إذ كان الأولون يقاتلون وهم فى هذه الحصون من الدّروع ، على حين يقاتل الآخرون وهم فى مَعْرِض الهلاك مع كل طعنة أو ضربة ! : فهذه الدروع نعمة تستوجب الشكر من الناس جميعاً ، أقويائهم وضعفائهم على السواء ..

ولا يُدفع هذا ، بالقول بأن هذه الدروع قد تُغرى الناس بعضهم ببعض ، وتدفع بهم إلى القتال ، إذ يجدون فى أيديهم ما يدفع عنهم خطر الحرب ، ويُبعد من احتمال الموت فيها . .

فهذا القول ، وإن بدا فى ظاهره شيئاً مقبولا ، إلا أنه فى حقيقته قائم على غير هذا الوجه ..

ذلك أن كل قوّة مستجلبة غير القوى الجَسدية الإِنسان ، هى متاحة للقوىّ والضعيف منهم ، وأن الضعيف ، يستطيع بهذه القوى المستجلبة أن يُبطل

فضلَ صاحبِ القوة الجسدية عليه، وبهذا يتعادل الأقوياء والضعفاء، ويكون من ذلك أن يُكبَح جماح أصحابِ القوى الجسدية، التى كانت أظهر قوةٍ عاملة، فى مجال البغى والعدوان وفى تسلط الأقوياء على الضعفاء..

وننظر فى المجتمع الإنسانى اليوم، فنجد أن اختراع القنبلة الذرية، التى هى أشنع ما عرف من أدوات التدمير والإهلاك.. قد كانت فى أول أمرها يوم وقعت ليد أمة من الأمم، كانت مصدرَ خطر عظيم فى يد هذه الأمة، تكاد تهدد به العالم، ولكن سَرْعان ما سمت غيرها من الأمم إلى امتلاك هذه القوة الرهيبة، وسَرْعان ما بطل مفعولها أو يكاد يبطل، حيث أنها نذير بالشرّ العظيم للأطراف المتحاربة بها جميعاً.. وهنا نلمح إشارة مضيئة من قوله تعالى: «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون» - تشير إلى قوله تعالى: «وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم.. فهل أنتم شاكرون» فالقصاص إزهاق نفس، ولكن فيه حياة لنفوس، إذ أن القصاص يَقْتُل فى نفوس كثير من الناس ممن تحدثهم أنفسهم بالقتل - يقتل فيهم تلك النزعة الداعية إلى القتل، خوفاً من أن يقتل القاتل بمن قتله.. وكذلك الدروع التى يلبسها المتحاربون، هى وقاية لكل منهما من عدوان الآخر عليه..

وليس هذا شأن الدروع وحدها، بل هو شأن كل وسائل القتال، والدفاع. فهى وإن كانت أداة تدمير وهلاك، هى فى الوقت نفسه عامل رَدْع وزجر.. بل إنها دعوة إلى السلام، وإخماد نار الحروب، إذا توازنت القوى بين الأمم. وقد كان من تدبير الله تعالى، أن وضع هذه الدروع أولَ ما وضعها فى يد نبيّ كريم، لا يكون منه بغى أو تسلط.. ثم أصبحت مِلكا مشاعا فى الناس جميعاً..

وثانياً: أن القرآن الكريم فى حديثه عن الدروع، وعن أنها نعمة تستوجب الشكر، إنما يتحدث إلى المجتمع الإنسانى، الذى من طبيعته البغى

والعدوان ، والذى من شأن القوىّ فيه أن يبغى على الضعيف ، والذى إن كفّ فيه بعض الناس أيديهم عن الناس ، لم تكفّ الناسُ أيديَهم عنهم . وعلى هذا فإن حديث القرآن عن الدروع ، هو حديث عن واقع الحياة ، وعما يدور فى حياة الناس .. فامتلاك الناسِ لأدوات الحرب لا يُغْريهم بالحرب ، ولا يفتح لهم باباً لم يدخلوه ، فهم فى حرب دائمة . . وهذه الدروع وغيرها من أدوات الدفاع حماية للناس من الطعنات والضربات .

وثالثاً : هذه الدروع أو لَبوس الحرب ، لها دور سلبىّ لا إيجابى ، بمعنى أنها ـ فى ذاتها ـ تدفع الشر ، وتردّه ، ولا ينطلق منها شر إلى أحدٍ .. كما هو الحال فى السيوف ، والحراب ، والمدافع ، وغيرها . . إنها أداة دفاع ، وليست أداةَ هجوم .. إنها تتلقى الضربات ، ولا تضرب ، ولا يُضرب بها .

قوله تعالى :

* « ولسليمان الريح عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنّا بكل شىء عالمِين » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطيرَ » .. أى وكذلك سخّرنا لسليمان الريح عاصفةً .. وقد بيّنّا فى الآية السابقة السرّ فى تعدية الفعل « سخّرنا » بأداة المعية « مع » وعدم تعديته بلام الملك « اللام » وقلنا إن الجبال والطير لم تكن مسخرة لداود ، بل كانت مسخّرةً لتسبّح بحمد الله معه .. فهى مصاحبة له ، فى التسبيح .. وليست مسخرةً لخدمته ..

أما هنا ، فإن الريح مسخرةٌ لسليمان ، خاضعة لأمره ، قد جعلها الله سبحانه وتعالى ، مطيةً ذَلولا له ، تجرى بأمره رُخاء حيث شاء ..

وفى قوله تعالى : « عاصفةً » إشارة إلى قوة انطلاق هذه الريح ، وأنها فى قوة العاصفة فى اندفاعها ، ولكنها فى رقة النسيم ولينه فى سيرها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى آية أخرى : « تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب » (٣٦ : ص) . فهى عاصفة ورُخاء معًا ! ! هذا كلام الله ! !

—وفى قوله تعالى : « إلى الأرض التى باركنا فيها » إشارة إلى مَسْبح هذه الريح ومسراها ، وأنها لاتتجاوز حدود الأرض المقدسة ، ولا تعمل خارج سمائها . .

وهذا ما ينبغى أن يُفهم عليه قوله تعالى : « ولسليمانَ الريح غُدُوُّها شهرٌ ورواحُها شهر » (١٢ : سبأ) فقد تضاربت أقوال المفسّرين فى هذه الريح ، وفى امتداد مُلك سليمان بها ، وأنها كانت تقطع به ملكه فى شهر ذاهبةً ، وشهرٍ راجعةً . . وهذا مالا يتسع له ملك سليمان بحالٍ أبداً . .

والمعنى الذى تُفهم عليه هذه الآية الكريمة ، هو المعنى الذى يشمّ من قوله تعالى : « تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها » وهو أنها فى « غدوّها » أى مسراها فى غَدوة النهار ، تقطع من المسافة ما يقطعه السائر على قدميه ، أو على دابته فى شهر.. كذلك « روَاحها » وهو رُجوعها آخر النهار .. يُقدّر بمسيرة شهر للراجل أو الراكب .. والغَدوة قد تكون ساعة أو ساعتين ، أو ثلاثا ، أو أكثر ، وكذلك الرّوْحة .

قوله تعالى :

* « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكُنا لهم حافظين » .

أى وسخرنا لسليمان « من الشياطين » أى من بعض الشياطين لا كلّهم ،

من يغوصون له فى البحار ويستخرجون اللؤلؤ والمرجان وغيرها .. « ويعملون عملاً دون ذلك » أى أقل من هذا العمل ، كأن يُسخّروا فى البناء ، وحمل الأحجار ، وغير هذا . . كما يقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى : « والشياطينَ كلّ بنّاء وغوّاصٍ » (٣٧ : ص) .

وفى قوله تعالى : « وكنا لهم حافظين » إشارة إلى أنهم محكومون بقدرة الله ، وأن تلك القدرة هى الحافظة لهم ، والممسكة بهم ، على خدمة سليمان ، وطاعة أمره . . ولولا هذا لتفلّتوا منه ، وخرجوا عن طاعته ، فليس سليمان هو الذى سخر هذه الشياطين ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى سخرها له . .

الآيات : (٨٣ — ٩١)

* « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَٱلَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) »

التفسير :

[أولياء الله وما يُبْتَلَون به]

قوله تعالى :

* « وأيوب إذ نادى ربّه أنّى مسّنىَ الضُرُّ وأنت أرحم الراحمين » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث » وهو عطف قصة على قصة . أى واذكر أيوب إذ نادى ربّه » .

وذكر أيوب فى هذا المقام،هو ذكر له دِلالته العظيمة ، وذلك من وجوه :

أولا : أن أنبياء الله وأصفياءه يُبْتلَوْن بالضرّ ، كما يبتلى الناسُ ، بل وكما يُبتلى شرار الناس .. وأنه كما يُبتلَى الناس بالخير والشرّ ، كذلك يبتلى الأنبياء بالخير والشر ..

فأنبياء الله وأصفياؤه ، يُبتلون من الله فيزدادون إيماناً وقربا منه ، وطمعاً فى رحمته .. وأعداء الله يبتلون فيزدادون بعداً من الله ، وكفراً به ، ومحادّة له .

وثانياً : أن أنبياء الله وأصفياءه ، إذا ابتلوا فى شىء من أنفسهم أو أموالهم ضرعُوا إلى الله ، وبسطوا إليه أكفهم وولّوا إليه وجوههم ، وطرقوا أبوابَ رحمته بالدعاء والرجاء .. فباتوا على أمن من كل خوف ، وعلى طمع ورجاء من كل خير ..

وثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى ، يتقبل من عباده المخلصين مايدعونه به ، فلا يقطع أمداد رحمته عنهم ، ولا يخيّب رجاءهم فيه .

وانظر إلى هذا الأدب النبوى العظيم ، فى مناجاة الخالق جلّ وعلا .. فأيوب ـ عليه السلام ـ مع هذا البلاء العظيم ، الذى شمله فى نفسه وأهله وماله

جميعاً ، لم يستبدّ به الجزع ، ولم تستول عليه الحيرة ، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم .. بل ظَلّ مجتمعَ النفس ، ساكن الفؤاد ، رطب اللسان بذكر الله .. فلما اشتد به الكرب ، ورهقه البلاء ، وأراد أن يذكر نفسه ، ويشكو لربّه مايجد ، لم يزد على أن يقول بلسان رطب بالصبر ، وبأنفاس نديّة بالإيمان : « أنّى مسّنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين » وكان أن سمع الله دعاءه ، واستجاب له ..

* « فاستجبنا له .. فكشفنا مابِه من ضُرٍّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم .. رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين » .

وهكذا يجزى الله المحسنين الصابرين .. كما يقول سبحانه : « إنما يُوَفّى الصابرون أجْرَهم بغير حساب » .. لقد كشف الله عن أيوب الضر الذى أصابه فى جسده ، ورزقه من البنين والأموال ضعف الذى ذهب منه ..

وقوله تعالى : « رحمةً من عندنا » أى أن ذلك العطاء كان رحمةً منّا ، أصبنا بها عبداً من عبادنا المخلصين .

وقوله تعالى : « وذِكرى للعابدين » معطوف على « رحمة » أى وكان ذلك الذى فعلناه بعبدنا « أيوب » تذكرةً وموعظةً « للعابدين » أى الذين يعبدون الله ، ويُحسنون عبادته ، ويصطبرون عليها ..

فالعابدون بما لهم من صلة بالله ، ربّما يقع فى نفوسهم أنهم بمنجاة من الابتلاء بالشر ، إذ لايكاد يقع فى تصوّر الناس أن من وثّق صلته بالله ، وتقرب بالعبادات والطاعات إليه ، هو فى مأمن مما يقع للناس من ضرّ وأذى ، فى نفسه أو ولده أو ماله .. وإلاّ فما ثمرة هذه الصلة ، وما فضل الطائعين على العاصين ، والأولياء على الأعداء ؟

هذا ماجاء قوله تعالى : « وذكرى العابدين » لينبه إليه ، وليصحّح مشاعر العابدين خاصة ، بهذا الذى كان منه سبحانه لعبــده أيّوب ـ عليه السلام ـ وما ابتلاه به ، فى نفسه ، وأهله ، وماله ، بما لم يكد يُبتلى به أحد من عباد الله . . !

وقد كان أيوب ـ عليه السلام ـ من خير العابدين المقربين إلى الله ، حين مسّه الضرّ ، كما كان من خير الصابرين على البلاء ، الطامعين فى رحمة الله ، المطمئنين إلى قضائه فى عباده ، الواثقين بحكمته وبعدله . . بعد أن لبسه الضرُّ وعاش فيه .

وإذن فليس المؤمنون ، العابدون ، الساجدون ، بمعزل عن الابتلاء بالضرّ والأذى ، بل إنهم أكثر الناس تعرضاً للبلوى ، وذلك ليبتلى الله مافى صدورهم ، وليمحص مافى قلوبهم .. والله سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين :« لتُبلوُنّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً » (١٨٦ : آل عمران) ويقول سبحانه : « أحسب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايُفتنون » (٢ : العنكبوت) .

فأولياء الله وأحباؤه هم أكثر عباد الله تعرضاً للابتلاء ، إذ كان ذلك هو الدواء المرّ ، الذى تذهب الجرعة منه بكثير من أمراض النفوس وعللها ، وهو النار المحرقة ، التى تنصهر فى حرارتها معادن الرجال ، فتصفّى من الخَبَث وتُنقّى من الغُثاء والزّبد ! وبهذا تظهر عظمة الإنسان ، وتصفو موارده ، ويصبح ـ على مايبدو عليه من ضعف ، وفقر ـ أقوى الأقوياء ، وأغنى الأغنياء ، ينظر إلى الدنيا ، وحُطامها ، وما يتفاخر به الناس فيها من مال ، وجاه ، وسلطان ـ نظرته إلى أطفال يتلهوْن بلعبهم ، ويزْهون بالجديد من ثيابهم !

ثم لعلك تسأل : أما كان غيرُ هذا البلاء ، أولى بهم ، وهم أحبابُ الله وخُلصاؤه ؟ أوَ ما كان الإحسانُ إليهم بالخير أليق من التوجه إليهم بالمساءة

والضُرّ ؟ وإذا لم يكن الإحسان .. فهلا كانت العافية من البلاء ؟ وإذا كان هذا الابتلاء مراداً لغاية هى تطهير النفوس ، وتزكيتها ، وتخليصها من الآفات والعلل .. فهلا كان ذلك بالإحسان والإنعام .. وقدرة الله لا يُعجزها شىء ، ولا يحدّها حدّ ، ولا يقيدها قيد ؟

والجواب عن هذا كله :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى كما ابتلى بالخير ، ابتـلى بالشر ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » (٣٥ : الأنبياء) .. وقد ابتلى الله ـ سبحانه ـ سليمانَ عليه السلام بالـكثير الغَدَق من النعم ، فسخّر له الريح والجنّ ، وعلّمه لغة الحيوان والطير ، وجعلها جنوداً من جنده ، ووضع بين يديه من القوى الظاهرة والخفية ، ماجعل له ملـكا وسلطانا لم يكن لأحد من بعده كما يقول الله سبحانه وتعالى : « قال ربّ اغفرلى وهب لى ملـكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » (٣٥ : ص) وقد أجاب الله سبحانه وتعالى ماطلب ، فقال سبحانه : « فسخّرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطينَ كل بنّاء وغواصٍ * وآخرين مُقرنين فى الأصفاد * هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب » (٣٦ ـ ٣٩ : ص) حتى إن سليمان نفسه ليستكثر هذا الإحسان الذى لايكاد يتسع له وجوده ، فيقول : « يأيها الناسُ عُلِّمنا مَنْطق الطيْر وأُوتينا من كلِّ شىء إن هذا لهو الفضل المبين » (١٦ : النمل) وحتى إنه ليجد نفسه عاجزاً عن الوفاء بشكر القليل من هذا الفضل العظيم ، فيقول : « ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » (١٩ : النمل) .

فالابتلاء بالإحسان والخير ، عند من يعرف قدر الإحسان ، وفضل المحسن وجلاله وعظمته ـ لا يقلّ مئونة وعبئا ، عن الابتلاء بالمساءة والضر .. إنه ابتلاء !

وقد ابتلى الله سبحانه بعض أوليائه بالضر والمساءة، فكان ذلك — فى حقيقته — إحسانا إليهم، إذ سلك بهم مسالك الخير والإحسان، وزادهم من الله قربا ومن رضاه رضًى وزُلفى ..

وانظر كم لقى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم — وهو صفوة خلق الله، وخاتم رسله — كم لقى على مسيرة دعوته، وفى سبيل رسالته، من أذى؟ وكم احتمل من مساءة وضرّ؟

أفرأيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرج إلى ثقيف، يرجو عندهم من استجابة لله ورسوله، ما أبته عليه قريش، حتى إذا التقى بسادة ثقيف، وعرض عليهم الإيمان بالله، ردّوه أشنع رد، ثم أغروا به سفهاءهم، فرجموه حتى أدموه .. ثم أرأيت إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وقد أخذ طريقه إلى خارج ثقيف، وهو يحمل هذا الهمّ الثقيل، حتى إذا بلغ إلى حيث انقطع عنه صوت الكلاب البشرية التى كانت تنبحه، أسند ظهره إلى ظل شجرة هناك، ومولاه زيد يضمد جراحه.. ثم ما كادت نفسه تهدأ، وأنفاسه تنتظم، حتى رفع رأسه إلى السماء، وناجى ربه، بتلك الكلمات الضارعة المشرقة، التى تنبض حياةً بمشاعر الإيمان، وأنفاس التسليم والرضا .. استمع إليها ..

« إلهى .. أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس!

« يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى.

« إلى من تكلنى؟ .. إلى بعيد يتجهمنى؟ أو قريب ملكته أمرى؟

« إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى.

« غير أن عافيتك هى أوسع لى!

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة — أن يحلّ علىّ غضبك ، أو ينزل بى سَخَطك .

« لك العُتْبىَ حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك . . »

إنها مناجاة ، يتنفس فيها النبي أنفاس العافية ، ويطعم منها طعم الرضا ، ولهذا طالت تلك المناجاة ، ومشت كلماتها الهوينا على شفتى رسول الله ، كأنها تحمل أثقالا من الهموم التى ألمت به ، وتنطلق بهـا فى قافلة طويلة ممتدة بين الأرض والسماء ! !

ثم انظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وقد أحاط به المشركون ، وتعاورته سهامهم ورماحهم ، وكادت تصل إليه سيوفهم ، وقد شُجّ صلوات الله وسلامه عليه ، وكُسرت ثنيتاه ، واستُشهد كثير من أصحابه وأحبابه ، ومن بينهم عمه ، أسد الله ، حمزة بن عبد المطلب . ومع هذا ، فما قال النبي فى هذا المقام ، إلا القولة التى لايقوى لها إنسان غيره فى هذه الدنيا . . قال — صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اهدِ قَومى ، فإنهم لايعلمون » ! !

وكما ابتلى الله سبحانه ، أولياءه بالبأساء والضراء ، ابتلى أعداءه بالنعماء والسراء ، فكان ذلك بلاءً عليهم ، ونقمة من نقم الله بهم . . لقد زادتهم تلك النعم بُعدًا عن الله ، وعَمًى عن الحق ، وضلالا عن الهدى .

والقرآن الكريم يذكر لنا قارون ، كمثل من أمثلة الابتلاء بالنعم ، عند من لايقدرُ على الوفاء بها ، ولا يَقْدُرها قدرها ، فكان أن عجل الله له الهلاك فى الدنيا ، ثم أعدّله عذاب السعير فى الآخرة . . وكذلك فرعون ، الذى بسط له فى السلطان ، وأمدّه بموفور النعم ، فما زاده ذلك إلا كفراً بالله ، ومحادة له . . فمات تلك الميتة الشنعاء ، وكان مثلا وعبرة لأولى الأبصار . .

أما فى الآخرة ، فهو إمام من أئمة الضلال ، وقائد من القواد إلى عذاب الجحيم . . « يَقْدُم قومَه يوم القيامة ، فأوردهم النارَ ، وبئس الورد المورود » (٩٨ : هود) .

وثانياً : لاشك أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يُعفىَ أولياءه من البلاء وأن يجعل ابتلاءهم بالسراء لابالضراء، وأن يجعلهم طبيعة قائمة على الحمد والشكر ، وفطرة مفطورة على الاحتمال والصبر .

ولكن هذا وإن كان مما يفعله الله ببعض عباده وأحبابه ، كما كان ذلك لسليمان — فإن هناك درجة فوق تلك الدرجة ، وهى درجة الابتلاء بالضراء ، حيث يجد الإنسان نفسه وكأنه فى صراع ضارٍ مع الحياة وخطوبها ، وحيث يرى نفسه وكأنه جبل راسخ شامخ تتحطم على صخوره الصلدة ، الأمواجُ الصاخبة، وتتكسر تحت أقدامه القويّة ، العواصف العاتية .. وحيث يرى آخر الأمر وقد انتهى هذا الصراع ، وانجلى غبار المعركة ، وإذا به وبين يديه راية النصر ، وعلى جبينه تاج الفوز والظفر !

لقد كسب المعركة بهذا الجهد الذاتى ، وبهذا الثمن الغالى الذى قدمه من ذات نفسه ، عرقاً متصبباً . وأرقاً متصلا ،وعملا دائباً ..

وهذا مايجعل للنصر هذا الطعم الحلو ، الذى لايعرف مذاقه إلا من ابتُلى وصبر ، وجاهد وبذل ، وحرم نفسه النوم فى ظل الراحة والرفاهة ، وبات ليله ساهراً ، ونهاره عاملاً ..

وإنه لفرق كبير بين من يجد بين يديه طعاماً طيباً حاضراً عتيداً ، لم يبذل فيه جهداً ، ولم يتكلّف له عملا ، وبين من فرغت يده من كل شىء ، فيجدّ ويعمل فى غير وَناء أو فتور ، وهو على مابه من حرمان ومسغبة ، حتى إذا اجتمع له من سعيه مايهيىء به لنفسه طعاماً ، كانت عنده كل لقمة من هذا الطعام ، أشهى وأطيبَ من تلك المائدة الحافلة بطيب الطعام

والمثل لهذا ، مانجد فى حياة الوارث الذى يعيش على ماورث ، وبين العامل الذى يعيش من عرقه وكدحه وجهده . . ! فحياة الوارث حياة رتيبة مملة ثقيلة ، ذات لون واحد ، لايتبدل ، بينما حياة العامل خصبة مليئة بالحياة والحركة ، وتغاير الطعوم والألوان .

ونجد هذا فى الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — فأصحاب الرسالات الكبرى منهم ، هم الذين ابتُلوا بالبأساء والضراء .. وعلى قدر ابتلائهم كانت منزلتهم عند ربهم .

إبراهيم عليه السلام ، ابتلى بإلقائه فى النار .. وبالأمر بذبح ولده إسماعيل بيده ، فكان خليلَ الرحمن وأبا الأنبياء ..

وموسى عليه السلام ، ابتُلى من أول حياته ، بإلقائه فى اليم رضيعاً ، ثم بقتله المصرىّ ، وطلب فرعون له ، وفراره إلى مدين . . ثم بلقاء فرعون ، ومواجهته بالدعوة إلى الإيمان بالله . . ثم كان ابتلاؤه الأكبر فى حياته بين بنى إسرائيل ، وفى خلافهم عليه ، وشرودهم منه . . فكان كليمَ الله .

وعيسى — عليه السلام — نشأ فى حِجْر الابتلاء . . تنعقد حوله ، وحول أمه التهم والظنون ، حتى إذا ظهر فى اليهود ، كان بينه وبينهم هذا الصراع الطويل المرير ، حتى لفّقوا له التهم ، وقدموه للحاكم الرومانى ، وطلبوا إليه أن يحكم عليه بالصلب ، حسب شريعتهم ، ولم يسترح لهم بال حتى حَكَمَ لهم بصلبه ، وحتى شُبّه لهم أنهم صلبوه . . وكان كلمة الله .

ومحمد — صلوات الله وسلامه عليه — قد لقى من قومه ألوان المساءة فى كل لحظة من لحظات تلك السنوات الثلاث عشرة التى قضاها فى مكة قبل الهجرة .. فلما هاجر كانت حياته قسما مشاعاً بين الدعوة إلى الله ، والجهاد

فى سبيل الله .. يقوم ليله ، ويصوم نهاره .. وما شبع من طعام قط ، ولا نام إلا على حشية من ليف.. وهو الذى كان يستطيع — لو أراد — أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن ينام على فراش من حرير .. فكان خاتمَ الأنبياء وصفوةَ الخلق ..

وهكذا نجد الابتلاء بالضراء أرجحَ كفة من الابتلاء بالسراء ، فى ميزان الصياغة لمعادن الرجال ، وصبّهم فى قوالب الكمال والإحسان .. ولهذا كان أولو العزم من الرسل ، هم الذين ابتلوا وامتحنوا أشق امتحان ، وأثقل ابتلاء ..

وثالثاً : الابتلاء بالشرّ ليس ضربةَ لازب لأولياء الله وأحبابه وأصفيائه ، ولكنه الشأن الغالب عليهم ، لأن ذلك أشكلُ بطبيعتهم ، وأقربُ إلى نفوسهم ، لأنهم كلما ازدادوا من الله قرباً انكشف لهم أمر الدنيا ، ومتاعها الغرور ، فنظروا إليها نظرة استخفاف واستصغار ، لكل ما فيها ومن فيها ، ثم إذا هم رأوا تكالب الناس وتزاحمهم على مواردها ، زادهم ذلك إحقاراً لها ، وبعداً عنها .

فهذا الذى نرى فيه أولياء الله وأصفياءه ، من فاقة ، وضرّ ، وحرمان، ونعدّه بلاءً أو ابتلاءً ، هو — فى الواقع — مطلب لتلك النفوس العظيمة ، ورغبة محببة لهذه القمم العالية من عباد الله ..

إنهم يزهدون فيما تطلبه النفوس ، راضين.. وإنهم ليجدون فى الحرمان، من الغبطة والرضا ، مالا يجده الواجدون من متع الحياة ومسراتها ..

وهكذا تطلب كل نفس غذاءها الذى يَهنَئُوها ، ويطيب لها .. وشتان بين الكلاب والأسود.. حيث تتقاتل الكلاب على الجيف ، على حين تموت الأسود جوعاً ولا تدنو منها ..

رابعاً — يبتلى المحسنون والصالحون من عباد الله بما يبتلَوْن به ، وهم على وعدٍ من الله سبحانه وتعالى ، بأن وراء الضيق فرجاً ، وبأن مع العسر يسراً .. وأنهم إن صبروا اليوم على الضرّ والأذى ، فإنهم لعلى موعد بلقاء غدٍ ينجلى فيه الكرب، وتنقشع غمامات الضر .. «وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» (١٥٥ — ١٥٧ : البقرة) ..

وكما قيل ، من أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لايراه إلا المرضى ، فكذلك كل نعمة من نعم الله ، لايذوق حلاوة طعمها، ولا يَعرف جلال قدرها إلا من حُرمها ، وطال حرمانه وافتقاده لها ، فإذا لقيها بعد هذا ، عرف كيف فضل الله عليه ، وكيف إحسانه إليه ، ومن ثم يعرف كيف يؤدّى لله بعضَ ما يجب له ، من حمدٍ وشكران ..

(*)

قوله تعالى :

* « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌّ من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » ..

جاء ذكر إسماعيل ، بعد ذكر أيوب ، لأن كلا منهما قد ابتُلى ابتلاء عظيما من الله ، وكلاً منهما كان من الصابرين على ما ابتلى به .

فأيوب ، قد كان فى عافية ، وفى نعمة ظاهرة ، ثم ابتلاه الله فى نفسه وماله وولده جميعاً .. فصبر راضياً بحكم الله فيه ، مطمئناً إلى مواقع الرحمة منه ..

وإسماعيل .. قد رأى أبوه فى المنام أنه يذبحه بأمرٍ من ربه ، فلما أخبره بأمر الله ، وطلب إليه رأيه ، لم يتردد فى الجواب ، وقال : « يا أبت افعل

ما تُؤمرُ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ..

وقُدِّم أيوب على إسماعيل ، مع أنه فرع من إبراهيم ، وإسماعيل أصل . . لأن أيوب طالت محنته ، وطال انتظاره فى موقف البلاء سنين ، وهو صابر ومصابر ، ولم يضجر ، ولم يتكثر من الأنين والشكوى . أما إسماعيل فقد كان ابتلاؤه لساعة من الزمن ، ثم انجلى الكرب وزالت المحنة .. ومن جهة أخرى ، فإن إسماعيل كان — فى مواجهة هذا الابتلاء ما يزال غلاماً ، لم يقع فى نفسه ، وقوعاً واضحاً كاملا أثرُ هذا الفعل الذى هو مساق إليه . . ولهذا كانت البلوى ، أو كان الجانب الأكبر منها واقعاً على أبيه إبراهيم ، ومن أجل هذا كان حسابها مضافاً إلى إبراهيم ، وإن كان لإسماعيل حسابه ، وهو حسابٌ وإن قلَّ — بالإضافة إلى أبيه — هو شىء عظيم رائع ، ترجُح به موازينه فى الصابرين من عباد الله .. وذلك على حين كان أيوب فى دور الرجولة ، وفى حال لبس فيها الشباب ، والصحة ، وذاق حلاوة الغنى ، وعرف طعمها ، فكان انتزاع هذا كله منه ، أشدّ وقعاً وأمرّ طعماً مما لو وقع عليه ابتداء .

هذا وقد ذُكر مع إسماعيل « إدريس » و « ذو الكفل » .

أما إدريس فهو ممن ذكرهم الله من أنبيائه ، كما يقول سبحانه : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً : » (٥٦ : مريم) .. ولم يَذكر القرآن عن إدريس أكثر من أنه كان نبياً وكان من الصابرين .. فلم يكن له فى القرآنُ قصة كقصة ، صالح ، وهود ، وإبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وغيرهم من رسل الله ..

وأما « ذو الكفل » فلم يذكر إلا فى هذا الموضع ، وقد اجتمع مع النبيين الكريمين : إسماعيل وإدريس ، وشاركهما فى صفة الصبر .. كما يقول سبحانه « كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » ..

وقد ذهب معظم المفسرين مذاهب شتى فى « ذى الكفل » وكان أضعف الآراء عندهم فيه، أنه نبى، من أنبياء الله ..

والرأى عندنا والله أعلم — أنه نبيّ، وأن أبرز صفة فى حياته كانت صفة الصبر .. أما رسالته، وأما قومه، فشأنه فى هذا شأن إدريس، الذى لم يذكر له القرآن رسالةً ولا قوماً .. كما أننا نرجح أنه زكريا ـ عليه السلام ـ لأنه هو الذى كَفَل مريم، كما يقول الله تعالى: « وكفلها زكريّا »

وتسأل: ما حكمة ذِكر إدريس وذى الكفل، هذا الذكر الذى لا يحوى إلا اسميهما دون أن تلحق بهما قصة تستملى منها العبرة والعظة ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — أن ذكرهما فى القرآن الكريم لم يكن مساقاً للعبرة والعظة، ففيما حدث به القرآن من قصص الأنبياء أكثر من عبرة وعظة .. وإنما كان ذكرهما تكريماً لهما، وحفظاً لاسميهما الكريمين على الزمن، ونظمهما فى عباد الله المصطفين من أنبيائه ورسله ..

وفى هذا تحقيق لأمرين:

أولهما: ما يجده الأحياء الذين يشهدون هذا الحديث، من إحسان الله سبحانه وتعالى إلى المحسنين من عباده، بعد أن يتركوا هذه الدنيا، وذلك برفع ذكرهم، وتخليد آثارهم، وفى هذا ما يغرى بالإحسان، وبتمجيد المحسنين ..

وثانيهما: ألا يُحرم هذان النبيان نصيبهما من دعاء المؤمنين على امتداد الأزمان، حيث يصلّى المصلون على أنبياء الله، وحيث يذكرهم الذاكرون واحداً واحداً.

قوله تعالى:

* وذا النون إذ ذهَبَ مغاضباً فظَنّ أن لن نَقْدِر عليه فنادى فى الظلمات

أن لآ إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغمِّ وكذلك ننجى المؤمنين » .

ذا النون : هو يونس — عليه السلام — والنون : هو الحوت ، وجمعه نينان .. وقد نسب إليه يونس ، لأنه عاش فى بطنه زمناً — كما سنرى . .

وقوله تعالى : « إذ ذهب مغاضباً » إشارة إلى أنه اختلف مع قومه ، فتركهم وذهب بعيداً عنهم ، مغاضباً لهم .

وفى قوله تعالى : « مغاضباً » إشارة إلى أنه استجلب المغاضبة ، واستعجلها ، وأنه وإن ظهر له من قومه ما يثير الغضب ، ويدعو إلى القطيعة ، إلا أنه كان جديراً به أن يصبر ، ويصابر ، وألاّ يأخذ القوم بأول بادرة ، فيتخلى عن مقامه فيهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، مخاطباً النبىّ الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » (٤٨ : ن) .

ففى هذا تعريض بيونس — عليه السلام — وأنه لم يصبر الصبر المطلوب من الأنبياء ..

وقوله تعالى : « فظن أن لن نقدر عليه » أى ظن أن لن نقدر على محاسبته على هذا الموقف ، وعقابه عليه . .

ولم يكن من يونس عليه السلام هذا الظن بربه ، وبقدرته ، وإنما حاله التى كان عليها هى التى تعطى هذا الوصف له .. فهو قد فعل فعل من يظن أنه يفعل ما يفعل ، ثم لا يجد محاسباً على مافعل . .

قوله تعالى : « فنادى فى الظلمات أن لآ إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

هنا كلام مضمر ، يشير إليه العطف بالفاء « فنادى » .. وهذا المضمر ، قد ذُكر فى آيات أخرى من القرآن الكريم ، وفى هذا يقول سبحانه : « وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مُليم » (١٣٩ — ١٤٢ : الصافات) .

فحرف العطف « الفاء » يشير إلى هذه الآيات .. والمعنى أن يونس لما ذهب مغاضباً قومَه ، ظانًّا أن لن نقدر عليه ، أبق (أى هرب) « إلى الفلك المشحون » أى الذى شحن وامتلء بالناس والأمتعة ، حتى فاض ، وكاد يغوص فى الماء .. وإنقاذاً للسفينة من الغرق رؤى أن يُتخفف من أمتعتها ، ثم من بعض الراكبين فيها ، وقد ارتضى الركاب أن يقترعوا فيما بينهم على مَن يُخلى السفينة ، ويلقى بنفسه فى الماء ، ولو كان فى ذلك هلاكه ، إذ أن فى هلاكه نجاة كثيرين .

وقد وقعت القرعة على يونس فيمن وقعت عليهم ، ليلقوا بأنفسهم فى البحر .. « فساهم فكان من المُدحضين » أى الساقطين ، المخذولين .. وأرض دحض أى زَلَق ، لا تمسك قَدَمَىْ من يمشى عليها ، وحجة داحجة : أى ساقطة ، غير مقبولة . .

فلما ألقى يونس بنفسه فى الماء ، التقمه الحوت . « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » والمراد بالنداء ، الدعاء ، والتسبيح لله . . كما يقول سبحانه : « فلولا أنه كان من المسبِّحين * للبثَ فى بطنه إلى يوم يُبْعَثون » و « الظلمات » هى هذا الظلام الكثيف المشتمل عليه فى بطن الحوت ، حيث لا ينفذ إليه شعاعة من ضوء .

وقد ذكر المفسِّرون أن هذه الظلمات ، هى ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ..

وأنه لا حاجة إلى هذا التكلّف ، لإيجاد وجهٍ لجمع الظلمات .. والبحر نفسه هو ظلمات ، وبطن الحوت ظلمات وظلمات .. فما الحاجة إلى الليل ، حتى تصبح الظلمة ظلمات ؟ وهل فى أعماق البحر ، أو فى جوف الحوت، حساب لليل أو النهار ، والظلام والنور ؟ .. والله سبحانه وتعالى يقول : « أو كظلمات فى بحرٍ لُجِّىٍّ يَغْشاهُ موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض »(٤٠ : النور) إن ما فى أعماق البحر ، ليست ظلماتٍ وحسب ، وإنما هى ظلمات ، فوق ظلمات ، فوق ظلمات !

وقوله تعالى : « فاستجبنا له ونجيناه من الغمِّ وكذلك ننجى المؤمنين » أى أن الله سبحانه قد استجاب دعاء يونس ، ونجّاه مما هو فيه من غمٍّ ، وكذلك يُنجى الله المؤمنين ، مما ينزل بهم من سوء ، وما يصيبهم من بلاء ..

ويونس لم يَدْعُ إلا بقوله : « لا إله إلا أنتَ سبحانك إنى كنت من الظالمين » .. فهو دعاء لم يطلب فيه نجاةً أو خلاصاً من هذا البلاء الذى هو فيه .. ففيم استجاب الله له ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أنه دعا بأفضل دعاء يقتضيه حاله ، ويطلبه موقفه . إنه قد أُتِىَ من قِبَل نفسه ، وإنّ نفسه هى التى أوقعته فى هذا البلاء ، ودفعت به إلى هذا الموقف الذى هو فيه ، فهو فى دعائه هذا يطلب البراءة من نفسه ، والنجاة من شرها كلها ، وذلك بإخلاص العبودية لله ، والبراءة من كل شىء ، حتى من نَفْسه هذه ، والاستسلام لله الذى لا إله إلا هو ..

وإنه إذا خَلَص من نَفْسِه ، وبرىء من أهوائها ونوازعها ، فقد خلص من كل سوء ، وأمِن كل مكروه .. ومن هنا كان خلاصه من بطن الحوت ، وكانت نجاته من هذا البلاء .. وهكذا كل من يُضيف وجوده إلى الله ،

ويبرأ من نفسه وما توسوس له به .. إنه يكون أبداً على شاطىء النجاة ! .

قوله تعالى :

* « وزكريا إذ نادى ربّه ربِّ لاتذَرنى فرداً وأنتَ خيرُ الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيي وأصلحنا له زوجَه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رَغَباً وَرَهباً وكانوا لنا خاشعين » .

وزكريا ـ عليه السلام ـ كان مُبْتلًى بالحرمان من الولد ، وقد طال انتظاره له ، وتطلعهُ إليه ، حتى بلغ من الكبر عِتيًّا .. فلما بلغَ الحدّ الذى يقع عنده اليأس ، لم يكن من اليائسين من رَوْح الله، فدعا ربّه ، وناجاه فيما بينه وبين نفسه ، فقال : « ربّ لا تَذَرنى فرداً وأنتَ خير الوارثين » . .

ـــ وفى قوله : «وأنت خير الوارثين» تعقيب على قوله : « لاتذرنى فرداً » أى إن لم تستجب لى ، وتهب لى من يؤنسنى ، ويرثنى من الولد ، فتلك هى مشيئتك ، وهى منّى بموضع الاستسلام والرضا ، فإذا لم يكن لى الولد الذى يرثنى ، فأنت خير الوارثين .. ترث الأرض ومن عليها . .

ــ وفى قوله تعالى: « وأصلحنا له زوجه » إشارة إلى ما كان فى امرأته من عُقم ، وأنها بهذا العقم لم تكن صالحة للحمل والولادة ، فأصلحها الله سبحانه وتعالى ، وجعل من المرأة العقيم امرأة ولوداً ..

ــ وقوله تعالى : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين» .. الضمير فى «إنهم» يعود إلى زكريا ، وزوجه ، وولدهما يحيي .. فهم جميعاً كانوا على حالٍ متقاربة من الإيمان بالله ، والطمع فى رحمته ، والخوف من عذابه والخشوع لعظمته وجلاله ..

والرّغَب : الرغبة ، والطمع . . والرّهبُ : الخوف ، والخشية .

قوله تعالى :

« والتى أحصنَتْ فَرْجَهَا فنفخنا فيها من رُوحنا وَجَعَلْناها وابنها آيةً للعالمين » .

التى أحصنت فَرجها ، هى مريم ابنة عمران . . ولم تُذ كر باسمها لأنها لم تكن من الأنبياء ، والمذكورون هنا جميعاً أنبياء ، ومنهم ذو الكفل ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ .

وقد ابتليت مَرْيم بهذا الابتلاء ، الذى تكشّف عن نعمة سابغةٍ ، وفضلٍ عظيم ، لم يكن لأنثى غيرها . .

لقد حَمَلت بنفخة من روح الله ، وجاءت بالمسيح عليه السلام .. وذلك بعد أن مرّت بهذا الامتحان القاسى ، وواجهت من أهلها وقومها هذا الاتهام ، الذى لم يكن ليدفعه عنها ما عُرفت به فى قومها من طهر لايحوم حوله شك ، ومن عفة لايطوف بها دنس .. ومع هذا فقد واجهت المحنة ، واحتملتها فى صبر ، مستسلمة لأمر الله ، راضيةً بحكمه ، وكان عاقبة أمرها أن كانت هى وابنها آيةً للعالمين ، تتجلّى فيها قدرة الله ، وماله فى عباده المخلصين من فضل وإحسان ..

لقد كانت هى آية من آيات الله ، إذ ولدت من غير أن تتصل برجل ، وكان ابنها آية من آيات ، الله إذ وُلد بنفخة من روح الله ، من غير أب .

الآيات : (٩٢ — ١٠٤)

* « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون » .

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أولئك المصطفين من رسله وأنبيائه وعباده الصالحين . . من نوح الذى يعدّ الأب الثانى للإنسانية بعد آدم ، إلى إدريس ، الذى يقال إنه كان من ذرية نوح الأقربين ، إلى إبراهيم أبى الأنبياء .. إلى مريم أمّ آخر نبيّ فى بنى إسرائيل ـ بعد ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء المكرمين من عباده ، من ذكور وإناث ، ومن بعيدٍ عهدهُ وقريبه ـ عقّب على ذلك بقوله تعالى : « إن هذه أمتكم » . إشارة إلى أن هذا هو المجتمع الإنسانى ،

وتلك هى الأمة الإنسانية ، التى يبعث الله فيها رسله ، ويصطفى منها من يشاء من عباده .. فهذه هى الأمّ التى ينتسب إليها كل إنسان ، وفيها هذه الوجوه المشرقة التى عرضتها الآيات السابقة ، والتى ينبغى أن يقيم الناس وجوههم عليهم ، وأن يقتدوا بهم ، فهم جميعاً من طينةٍ واحدة ، وإنما يكون التفاوت بينهم بالجهد الذى يبذله الإنسان منهم ، لإعلاء إنسانيته ، ورفعها عن هذا الطين ! !

وفى قوله تعالى : « أمةً واحدةً » إشارة إلى تلك الوحدة التى تجمع الناس جميعاً . وتجعل منهم مجتمعاً واحداً ، وإن اختلفوا ألسنةً ، وتباينوا ألوانا ، وتناءوا دياراً وأوطاناً ..

وقوله تعالى : « وأنا ربكم .. فاعبدون » أى أنه سبحانه ربّ جميع الناس ، وراعيهم وكالئهم ، فكلهم خَلْقُه وصَنعة يده ، وكلهم غَذِىُّ نعمته وإحسانه . تقلّهم أرضه ، وتظلهم سماؤه ، وتغاديهم وتراوحهم نِعَمُه .. وإذا كان هذا صَنِيعَه بهم ، وشأنه فيهم ، فهو المستحق للعبادة والطاعة والولاء ..

فمن شَرَد عن الله ، وبَعُدَ عن مكانه الذى ينبغى أن يأخذه بين عباده ، وأبى أن يستمع لناصح ، أو يستجيب لداع ، أو يَحفِل بنذير ، فقد سعى بنفسه إلى حتفه ، وأزهق روحه بيده ..

وانظر مرة أخرى فى قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمةً واحدةً . . وأنا ربكم .. فاعبدون » تجد هذه المعادَلة :

هذه أمتكم .. أمةً واحدةً .

وهذا أنا ربكم . . إله واحد . . لاربٌّ لكم غيره .

والنتيجة اللازمة لهذه المعادلة هى :

« فاعبدونِ »

إذ أنتم مربُوبون ، وأنا الرّبُّ ..

أنتم العِباد ، وأنا ربّ العباد ..

أنتم العابدون .. وأنا المعبود ..

قوله تعالى :

* « وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون » .

واو العطف هنا تشير إلى معطوف عليه محذوف .. وهذا المحذوف هو من تفريعات الأمر الذى أمر به الناس فى قوله تعالى : « فاعبدون » . . وهو جواب عن سؤال مقدّر يقتضيه الحال وهو : ماذا كان من الناس إزاء هذا الأمر الذى أُمروا به ؟ فكان الجواب ، لم يكونوا على طريق واحد ، بل اختلفوا ، وتقطعوا شيعاً وأحزاباً . . فكان منهم المطيع ، وكان منهم العاصى . منهم المؤمن ، ومنهم الكافر . . منهم عابد الرحمن ، ومنهم عابد الشيطان . . « تقطّعوا أمرهم بينهم » .. وفى إضافة الأمر إليهم ، إشارة إلى أنه الأمر الذى هو مِلاك صلاحهم وفلاحهم ، وهو الإيمان الله .

— وقوله تعالى : « كلٌّ إلينا راجعون » أى أن كل فريق منهم راجع إلى الله ، ومحاسب على ما كسب من خير أو شر . .

* قوله تعالى :

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمِنٌ فلا كفران لسعيه . . وإنا له كاتبون » .

هو بيان لما يكون عليه الناس عند رجوعهم إلى الله يوم القيامة .. فمن عمل

صالحاً وهو مؤمن ، تقبّل الله عملَه ، وكتبه له .. وسيجزيه عليه الجزاء الأوفى . .

— وقوله تعالى : « وهو مؤمن » هو قيد لقبول الأعمال الصالحة ، فلا يُقبل من غير المؤمنين عمل وإن كان صالحاً ، إذ لم يُزَكّه الإيمان بالله ، وكل عمل لا يزكّيه الإيمان بالله ، هو باطل ، لاوزن له.

قوله تعالى :

* « وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لايَرْجِعون » .

هو بيان للوجه المقابل المؤمنين ، وهو وجه الكافرين . . وقد جاء النظم القرآنى على هذا الأسلوب ، ليكشف عن حال هؤلاء المجرمين فى الدنيا ، والآخرة معاً ..

فهم فى الدنيا مُعرّضون للهلاك ، الذى يعجّل للظالمين . . وهم فى الآخرة واقعون تحت عذاب الله ، مسوقون إليه ، يتمنّون أن يعودوا إلى الدنيا ، ليُصلحوا ما أفسدوا .. ولكن هيهات .. هيهات . .

— وقوله تعالى : « وحرامٌ على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون » أى ومحكومٌ على أية قريةٍ هلكت ألا يرجع أهلها مرة أخرى إلى الدنيا ، أو أن يَفرّوا من هذا العذاب المعدّ لهم .

وفى التعبير عن الحكم بلفظ الحرام ، تأكيد لهذا الحكم ، وجعل عودتهم إلى الدنيا من المحرمات ، التى إن ارتكبها المجرمون ، فإنها لاتجىء من عند الله! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، فكما كتب سبحانه على نفسه الرحمة ، حرّم سبحانه على نفسه أن يُرجِع الموتى إلى الدنيا مرة أخرى ، وإنما يبعثهم للحساب والجزاء .

* قوله تعالى :

« حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوج وهم من كل حدبٍ ينسلون » . .

يأجوج ومأجوج ، وهم من الجماعات المفسدة فى الأرض ، وقد ذكرهم الله تعالى فى قصة ذى القرنين ، وقد أقام ذو القرنين فى وجوههم سدّاً ، حتى لاينفذوا منه إلى مواطن العمران ، ويعيثوا فى الأرض مفسدين . .

وفى هذا يقول ذو القرنين عن السدّ : « هذا رحمةٌ من ربى .. فإذا جاء وعدُ ربى جعله دكّاء وكان وعد ربى حقّاً » وفى قوله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » إشارة إلى انهيار هذا السدّ ، وفتح الطريق ليأجوج ومأجوج إلى الأمم المجاورة لهم . .

والحَدَب : المكان المرتفع ، ومنه الأحدب ، الذى برز ظهره ، وعلا . ثم انحنى .. ومنه الحَدَب ، وهو الميل والعطف ، وينسلون : أى يجيئون فى خِفة وانطلاق . . كأنهم جراد منتشر . .

هذا ، وقد ربط القرآن خروج يأجوج ومأجوج بقرب الساعة . . والساعة قربت من يوم نزول القرآن ، كما يقول تعالى : « اقتربت الساعةوانشق القمر » وكما يقول سبحانه : « اقترب للناس حسابهم » .

وعلى هذا ، فليس بالمستبعد أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا من هذا السدّ ، بعد أن تداعى وانهار . . ومن يدرى ؟ فلعلهم التتار الذين طلعوا على الدولة الإسلامية ، وأتوا على معالم الحضارة ، فى عاصمتها بغداد ، وفى كل ماوقع لأيديهم من كل عامر ، حتى لقد قيل إنهم ألقوا بما حوت الخزائن من كتب فى نهر دجلة ، وكان هذا شيئاً كثيراً سُدّ به النهر ! وربما كانت أمة الصين ، التى كانت تعيش فى شبه عزلة عن العالم ، وها هى ذى اليوم تتجمع وراء

حدودها ، وقد ملكت فى يدها القنبلة الذرية . . وإنه ليس ببعيد هذا اليوم الذى تغزو فيه العالم كلّه . . بهذا السلاح الرهيب . . !

وقد تحدثنا عن يأجوج ومأجوج ، وما قيل فيهم من مقولات ، فى تفسير سورة الكهف .

* قوله تعالى :

«واقترب الوعدُ الحقّ فإذا هى شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا . . يا ويلنا قد كنّا فى غَفْلَةٍ من هذا بل كُنَّا ظالمين » .

والوعد الحق . . هو يوم القيامة . . شاخصة أبصار الذين كفروا : أى جامدة ، لاتَطْرِف ، من شدّة ماترى من هول .

والآية معطوفة على محذوف ، هو غاية « حتى » فى قوله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » .

والتقدير : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون ، وقع الفساد والاضطراب ، واقترب الوعد الحق . حيث هذا النذير الذى يقوم بين يدى هذا اليوم ، وهو ذلك الهول الذى تَشخص له أبصار الذين كفروا يوم القيامة . .

— وفى قوله تعالى : « فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » إشارة إلى أن اقتراب الساعة ، وظهور أماراتها ، ومنها خروج يأجوج ومأجوج ـ يطلع منه على الكافرين ماتَشْخص به أبصارهم ، فتظل الحدَق معلقةً فى الأعين ، ثابتة لاتتحرك ، للهول الذى يرونه . . إنهم فى طريقهم إلى الفزع الأكبر . . إلى جهنم ، أعاذنا الله منها . .

وقوله تعالى : « يا وَيْلَنَا قَدْ كُنا فى غفلةٍ من هذا بل كنا ظالمين » . . هو حكاية لما يتنادى به الكافرون يومئذ ، وهم فى فزع القيامة ، وبين يدى

يومها الموعود . . إنهم يدعون بالويل والثبور ، ويندبون أنفسهم وهم على طريق الهلاك .

* قوله تعالى :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون » .

هو صوت الإغاثة الذى يُغاث به الكافرون ، وهم يولولون ، ويندبون . . وإنه لصوت مفزع ، يدخل عليهم بما يزيدهم كرباً وجزَعاً : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » أى إنكم الحصى الذى تحصَب به جهنم ، أى إنهم يلقون فيها هم وآلهتهم كما يلقى بالحصى فى حفرة ، بلا وزن ولا حساب .

* قوله تعالى :

« لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون » .

أى لو كان هؤلاء الذين يعبدهم المشركون ، آلهةً ما وردوا جهنم ، ولادخلوها معهم . . إذ كيف يكون إلٰها من يُلقىَ به فى جهنم ؟ « وكل فيها خالدون » أى كل من هذه الآلهة وعابديها، واردون جهنم وخالدون فيها . . وهؤلاء وأولئك جميعاً يعانون من ألوان العذاب أهوالا ، فأنفاسهم فى جهنم زفير متصل ، مما يلفظونه من أجوافهم التى تغلى ، وليس لهم فرصة يأخذون منها شهيقاً وإن كان من لهب جهنم ، وقد أصابهم الصمم من هذا الزفير المتلاحق ، الذى لايأذن لشيء يدخل إلى كيانهم .. والمعبودون هنا هم أولئك الضالّون المغرورون الذى دعوا الناس إلى عبادتهم وأقاموا أنفسهم آلهة عليهم .

قوله تعالى :

* « إن الذين سبقت لهم منّا الحُسْنى أولئك عنها مُبْعَدُون * لا يَسْمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزعُ الأكبر

وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

تعرض هذه الآيات الثلاث ما يلقى المؤمنون يوم القيامة من ربهم ، من كرامة وتكريم . . وقد وصفُوا بأنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، لأن إيمانهم بالله ، وتوفيقهم للأعمال الصالحة ، لم يكن إلا بما سبق من علم الله بهم ، وإرادته فيهم ، وأنهم كانوا فى علم الله ، وبمقتضى إرادته من أصحاب اليمين . . هكذا خلقهم الله أزَلاً . . فلما جاءوا إلى هذه الدنيا ، جَرَوْا على ما علم الله منهم ، وعلى ما أراد لهم ، فآمنوا ، وعملوا الصالحات ، و كانوا من عباد الله المكرَمين . .

فالإيمان والكفر ، والهوى والضلال ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار . . كلّ ذلك فى علم الله القديم ، وفى إرادته السابقة . . كما يقول سبحانه : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) وكما يقول جلّ شأنه : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (٧ : الشورى) .

وقد شرحنا هذه القضية فى مبحث خاص تحت هذا العنوان : « مشيئة الله . ومشيئة العباد » .

فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله الحُسنَى ، هم مبعدون عن تلك النّار التى يتقلب على جمرها ، ولهيبها ، الكافرون والضالون . . فلا يخلص إلى المؤمنين شىء من حرّها ، ولا يصل إلى أسماعهم حِسٌ من زفيرها وشهيقها « لا يسمعون حسيسها » حتى لاتتأذى مشاعرهم بهذه الأصوات الرهيبة ، المفزعة ، « وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » أى أنهم يَلْقَوْن فى الجنة ما تشتهى أنفسهم ، من نعيم دائم لاينقطع أبداً . . « لايحزنهم الفزع الأكبر » أى أنهم لا يجزعون ليوم القيامة ولايفزعون منه ، إذ ملأ الله قلوبهم طمأنينةً وأمناً ، بما أراهم من فضله ، وبما استقبلتهم به الملائكة من بشريات بهذا الفضل ، إذ الملائكة

يلقونهم على أول الطريق فى هذا اليوم ، ويقولون لهم : « هذا يومكم الذى كنتم توعدون » أى هذا اليوم يوم جزاؤكم ، ونعيمكم ، ورضوانكم ، الذي وعدكم الله به ، ولن يخلف الله وعده . . فهيّا استقبلوا ما وعدكم الله من رضوان ، وجناتٍ لكم فيها نعيم مقيم .

قوله تعالى :

* « يومَ نَطْوِى السماء كطىّ السّجِلِّ للكتب كما بدأنا أول خَلْقٍ نُعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين » .

« يوم نطوى السماء » ظرف متعلق بقوله تعالى : « لايحزنهم الفزع الأكبر » لايحزن الذين لهم من الله الحسنى ، الفزعُ الأكبرُ فى هذا اليوم ، الذى نَطوِى فيه السماء كطىّ السجل للكتب ، وهو يوم القيامة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . ويصح أن يكون هذا الظرف « يوم نطوى السماء » متعلقاً بقوله تعالى : « نُعيده » أى نعيد الخلق كما بدأناه ، وذلك يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب .

وطىّ الشىء ، ضمه ، ولَفّه كما يُلفّ البساط ويُطوى .

وطى السماء ، ضمها ، ولفّها ، فينكشف هذا السقف المعقود بها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وفُتِحت السماء فكانت أبواباً » . . فالسماء تطوى كما يُطوى السجلّ ، بما كتب فيه ، فهى تطوى بعوالمها كلها ، من كواكب وشموس وأقمار . .

والسجلّ : أصله الحجر ، الذى يُكتب عليه ، ثم استُعمل لكل ما يكتب عليه ، من جلد وورق ونحوه . . وللكتب : أى على الكتب . . والكتب بمعنى المكتوبات .

وهذا التحول فى العوالم العلوية والسفلية ، إنما هو تصوير لما يقع فى مفهوم

الإنسان ، حين ينتقل إلى الدار الآخرة ، حيث يشهد الوجود على غير مايقع لحواسه ومدركاته وهو فى هذه الدنيا .

وهذا يعنى أن الإنسان بعد أن يفارق هذا الجسد ، يعود إلى عالم الرّوح ، فينطلق من أسر هذا الجسد المحدود ، ويسبح فى عالم ماوراء المادة ، وهناك يرى الأرض ، والسماء غير السماء .. كما يقول سبحانه : « يوم تُبدل الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ وبَرَزوا لله الواحد القهار » (٤٨ : إبراهيم) .. فهذا التبدل هو تبدّل فيما يقع على تصورات الإنسان ومدركاته ، بانتقاله من العالم المادى إلى العالم الروحى .. وإلافإن العوالم ثابتة على ما أقامها الله سبحانه وتعالى ، فى هذا النظام المحكم ..

فالأمر إذن ، ليس كما يتصور الذين أخذوا أوصاف يوم القيامة التى جاء بها القرآن ، على هذا التصور الذى تذهب به معالم الوجود كلّه ، وتنقلب أوضاع السموات والأرض ..

وكلاً ، فإن هذا الوجود العظيم ، ليس للإنسان ، ولا من أجل الإنسان ، وإنما الإنسان ذرة من ذراته ، وشىء من أشيائه .. وإن التغير والتبدل واقع عليه هو ، فتتغير لذلك مدركاته ، ويرى الوجود ، والموجودات بعينٍ غير التى يراها عليه ، وهو فى هذا الكيان المادى .. وذلك يوم يُكشف هذا الغطاء المادىّ ، الذى يحجب نظر الإنسان ، ويحصره فى هذه الدائرة المحدودة الضيقة ، وعندئذ يرى مالم يكن ليراه فى عالمه المادىّ ، كما يقول سبحانه : « فكشفنا عنك غِطاءك فَبصرُكَ اليوم حديد » (٢٢ : ق) .

وإذا صحّ الحديث الذى يُرْوَى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « من مات فقد قامت قيامته » فهذا يعنى أن كل من مات وانتقل إلى العالم الآخر ، يرى الوجود قائمًا على هذه الصورة التى يصوّر فيها القرآنُ مشاهدَ القيامة ، ومايتبدل

من معالم الوجود .. فهو تبدل فى مدركات الإنسان وفى تصوراته ، بعد خلاصه من الجسد وتحرره من أسر المادة ..

—وقوله تعالى : « كما بدأنا أولَ خلق نعيده » أى أننا نُعيد الموتى وننشرهم كما خلقناهم ابتداء ، فلا يصحّ للمشركين والكافرين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، أن ينكروا هذا البعث ، وأن يستبعدوه .. فهو أهون من الخلق ابتداء « أوَ ليس الذى خلق السموات والأرضَ بقادرٍ على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلّاق العليم » .. « وضرب لنا مثلا ونَسِيَ خَلْقَه قال من يحيى العظام وَهِى رميمٌ * قل يحييها الذىٓ أنشأهآ أول مَرّةٍ وهو بكلّ خلق عليم » (٧٨، ٧٩ : يس)

— وفى قوله تعالى : « أولَ خلقٍ » وفى تنكير « خلقٍ » مايفيد الاستغراق والعموم ، فهو بمعنى أول كل خَلْقٍ .. كما يفيد أيضاً أن كلّ مخلوق له خلق خاصٌ به ، وأن له من علم الله وقدرته وحكمته ، نصيبَه المقدور له .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنّا كلّ شىء خلقناه بقَدَر » (٤٩ : القمر) .

— وقوله تعالى : « وعداً عليناآ إنّا كنا فاعلين » أى إن إعادة الموتى إلى الحياة مرةً أخرى ، للحساب والجزاء ، هو أمر قضى الله به ، ولا رادّ له .. وفى هذا يقول سبحانه : « ثم إنكم بعد ذلك لميّتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (١٥ ــ ١٦ : المؤمنون) ويقول جل شأنه : « زَعَم الذين كفروآ أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » (٧ : التغابن) .

وهذا وعدٌ من الله، ولن يُخلف الله وعده وقد أكّده سبحانه بقوله : « إنا كُنّا فاعلين » .. وهو وعدٌ لايحتاج إلى توكيد ، عند المؤمنين ، وإنما التأكيد منظور فيه إلى الكافرين ، الذين يكذبون بيوم الدين .

الآيات : (١٠٥ — ١١٢)

* « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد كتبنا فى الزّبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » ..

المراد بالزّبور هنا — والله أعلم — الكتب السماوية ، التى هى بعض الكتاب « الأم » ، كتاب الله ، وهو مستودع علمه الذى لا ينفد ..

وأصل الزبور : القطعة من الشىء وجمعه زُبَر ، كما يقول تعالى : « آتونى زُبَر الحديد » والذكر : على هذا التقدير ، هو أم الكتاب .

والمعنى ، أن الله سبحانه وتعالى كتب وقضى فى الكتب المنزلة على رسله بعد أن كان ذلك مسطوراً فى الكتاب الأمّ — « أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » ..

والمراد بميراثهم الأرض ، أنهم هم الذين ينتفعون بحياتهم فيها ، ويتزودون فيها الزاد الطيب ، الذى يلقونه يوم القيامة ، فيكون لهم مطية يجوزون بها النار إلى الجنة ، حيث ينعمون بنعيمها الخالد .. فهذا كلّ مايجنى من ثمر ، وما يحصل من خير فى هذه الدنيا ، وهو الذى يستحقّ أن يسمى ميراثا ..

أما غير المؤمنين ، فإنهم مهما ملكوا من هذه الدنيا ، ومهما وقع لأيديهم منها من مال ، وجاه ، وسلطان ـ فلن يكون لهم من هذا شىء فى حياتهم الآخرة ، بل سيكون عليهم وبالا وحسرةً ، على حين تمر بهم حياتهم الدنيا ، وكأنهـــا ضحوة يوم أو عشيته .. « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها » . (٤٦ : النازعات) .

فالمراد بالميراث هنا ، الميراث النافع ، الذى يبقى لما بعد الموت ، حيث يجده الإنسان ، وكأنه فى حياته الثانية ، قد ورث حياته الأولى .. أو كأنه هذا الحىّ فى الآخرة ، الذى ورث هذا الميت الذى كان فى الدنيا .. وهذا هو بعض السرّ فى التعبير بكلمة « يرثها » ..

قوله تعالى :

* « إن فى هذا لبلاغًا لقوم عابدين » ..

أى إن فى هذا الذى تحدّث به القرآن الكريم من قصص ، وما فيه من عبر ـ لبلاغا ، أى لبيانا كاشفا شافيا .. أو أن فى هذا الحكم الذى ضُمّت عليه الآية الكريمة : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر .. » ـ إن فى هذا لبيانا مبينا وحجة قاطعة ، يتلقى منها العابدون العبرةَ والعظة .

والمراد بالعابدين ، المؤمنون ، وقد ذُكروا بالصفة الغالبة عليهم ، وهى التعبد لله ، والولاء له .. فلا يكون المؤمن مؤمنا إلا إذا عبد الله ، وذَكره ذكرا متصلا ..

* قوله تعالى :

وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين » .

الخطاب للنبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، وأن الله سبحانه وتعالى إنما أرسله رحمةً للناس جميعاً .. كما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « أنا رحمة مُهْداة » ..

ويسأل سائل :

كيف يكون النبيّ صلوات الله وسلامه عليه رحمةً للعالمين جميعاً . الناس كلّهم أسودهم وأحمرهم ، وما بين أسودهم وأحمرهم ، وقليلٌ من كثير هم أولئك الذين آمنوا به واهتدوا بهديه ، وانتفعوا برسالته ؟ كيف هذا ، وقوله تعالى « للعالمين » يفيد العموم والشمول ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ من وجوه :

أولا : أن الهدى الذى جاء به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو خير ممدود للناس جميعاً ، وهو رحمة غير محجوزة عن أحد ، بل إنها مبسوطة لكل إنسان ، أيّا كان لونه وجنسه . . وفى هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له مُلك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون . . » (١٥٨ : الأعراف) فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة مهداة ، يطرق بها بابَ كل إنسان ، من غير أن يطلب لذلك أجراً ، وليس على النبي ـ بعد هذا ـ أن يُرغم المتأبّين عليه أن يقبلوا ما يقدمه هديةً لهم . . إنه أشبه بالشمس ، وهى رحمة عامة لكل حىّ . . ولكنّ كثيراً من الأحياء يَعْشَوْن عن ضوئها ، وكثير من الأحياء ، إذا آذتهم

ضوؤها انحجروا وقضوا يومهم فى ظلام دامس .. فآية النهار قائمة ، ولكنها بالنسبة لهم منسوخة غير عاملة .

وثانياً : أن الذين آمنوا بهذا النبىّ ، والذين يؤمنون به فى كل جيل من أجيال الناس ، وفى كل أمة من الأمم ، وفى كل جماعة من الجماعات ، هم رحمة فى هذه الدنيا على أهلها جميعاً ، إذ كانوا ـ بما معهم من إيمان ـ عناصرَ خير ، وخمائر رحمة ، ومصابيح هدًى .. وبهم تنكسر ضراوة الشر ، وتخفّ وطأة الظلم ، وترقّ كثافة الظلام .

وثالثاً : هذا الكتاب الذى تلقّاه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وحياً من ربّه ، وهذه الآيات المضيئة التى نطق بها ، والتى وعتها الآذان ، وسلجتها الصحف .. كل هذا رحمة قائمة فى الناس جميعاً ، وميراث من النور والهدى ، يستهدى به الناس ، ويصيبون منه مايسع جهدهم ، وما تطول أيديهم من خير ..

وعلى هذا ، فالمراد بالعالمين ، الناس جميعاً ، منذ مبعث النبىّ ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أرسلناك » الذى يفهم منه أن الرحمة كانت منذ إرساله ومبعثه ، صلوات الله وسلامه عليه ..

قوله تعالى :

* « قل إنما يوحى إلىّ إنما إلٰهكم إله واحد .. فهل أنتم مسلمون » .

هذه هى الرحمة التى يؤذّن بها النبىّ فى الناس ، ويقدمها هديةً لهم .. « أنّما إلٰهكم إله واحد » .. هذا هو مفتاح الرحمة ، وذلك هو مفتاح الهدَى .. فمن أمسك بقلبه هذا المفتاح ، ثم أداره ، فقد وضع يده على كنوز الخير كلها ..

— وفى قوله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » . . هو تحريض للناس جميعاً على الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة ، التى خفّ محلها ، وغلاَ ثمنها . . إنها كلمة واحدة : « لا إله إلا الله » فما أخفها على اللسان ، وما أطيب بَرْدَها على القلب ، وما أقوم سبيلها إلى العقل ! ! فهل يلتوى بها فَمٌ ؟ وهل يضيق بها صدر ؟ وهل يزوَرّ بها عقل ؟ إن ذلك لا يكون إلا عن آفات تغتال فطرة الإنسان ، وتفسد كيانه .

— وانظر فى قوله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » ؟ لقد طلب منهم الإسلام أولا ، وهو الإقرار باللسان ، بهذه الكلمة السمحة السهلة . . ثم إنها بعد هذا كفيلة بأن تفعل فعلها فى كيان الإنسان ، وتؤتى ثمراتها الطيبة المباركة كلّ حين . . إنها هى الكلمة الطيبة التى أشار إليها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « ألم تر كيف ضَرَب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابت وفَرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » (٢٤ ، ٢٥ إبراهيم) .

إنها كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وأنت ترى فى هذا سماحة الإسلام ، وأسلوبه الرائع المعجز فى دعوة الناس إلى الهدى . . إنه يلقاهم بأيسر السبل ، وأخفّ الأمور . . حتى إذا ذاقوا حلاوة الإيمان ، واطمأنت قلوبهم بكلمة التوحيد ، وجدوا فى أنفسهم القُدرة على احتمال التكاليف الشرعية ، والوفاء بها . . إنها المدخل الذى يدخل منه الإنسان إلى الإيمان . . ثم يغرس ما شاء أن يغرس من خير ، ويجنى ماقدر الله له أن يجنى من ثمر ! !

فى سنن أبى داود عن جابر بن عبد الله قال : « اشترطت ثقيف على النبىّ

صلى الله عليه وسلم ، أن لاصدقةَ [١] عليها ولا جهاد ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « سيتصدّقون ويجاهدون إذا أسلموا » !

ولا شكّ أن هذا أقوم أسلوب ، وأعدل منهج فى التربية ، حيث التدرج من السهل إلى الصعب . . خطوة خطوة ، حتى يبلغ المرء مأمنه ، وحتى يدخل الإيمان قلبه ، ويخالط مشاعره .

قوله تعالى :

* « فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذنتكُم على سواء . . وإن أدرىَ أقريب أم بعيدٌ ما توعدون * إنّه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون »

وهذا هو موقف النبى ودعوته ، ممن لم يستمعوا له ، ويستجيبوا لما يدعوهم إليه . . « فقل آذنتكم على سواء » أى أعلمتم بما أرسلت به إليكم . . والأمر بينى وبينكم الآن ، وبعد أن توليتم قد عاد إلى ما كنّا عليه من قبل . . أنا على دينى ، وأنتم على دينكم . . وأنا لى عملى ، وأنتم لكم عملكم . . أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ، وستعلمون عاقبة ما أنذرتكم به . . أما متى يكون هذا ؟ فعلمه عند ربى ، وما أدرى أقريب هذا أم بعيد ؟ إن ربى الذى يعلم كلّ شىء ، لايخفى عليه من أمركم شىء . . سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ! .

قوله تعالى :

* « وإنْ أدرى لعله فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين » .

إنْ هنا هى المخففة من إنّ الثقيلة ، وليست نافية ، كما جاءت فى الآية

(١) المراد بالصدقة هنا ، الزكاة ، وهى ركن من أركان الدين .

السابقة : « وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » . . على ما ذهب إليه المفترون . .

والمعنى : إننى وإن كنت لا أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ، فإننى أدرى هذا الذى أنتم فيه من شرود عن الله بما فى أيديكم من مال ومتاع . . لعله فتنةٌ لكم ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » وإنه « متاعٌ إلى حين » أى متاع إلى أجل محدود لا تتجاوزونه .. فلستم خالدين فى هذه الدنيا ، وليس فى أيديكم ضمان لهذا المتاع الذى معكم ، فقد تصبحون وليس فى أيديكم شىء منه ..

وقد جاء الخبر مصحوباً بـ«لعلّ» التى تفيد الرجاء،لأن ذلك الخبر ليس على سبيل القطع بالنسبة للمخاطبين جميعاً .. فإن فيهم من يثوب إلى رشده ، ويستجيب للدعوة ، ويدخل فى دين الله ..

قوله تعالى :

* « قال ربّ احكم بالحقّ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

هو حكاية لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الذى يعقّب به على هذا الموقف الذى بينه وبين المشركين ، الذين يقفون منه هذا الموقف المعادىّ فيدعو ربّه أن يحكم بينه وبين هؤلاء المشركين ، والضالين « بالحق » ، فيعطى كلاًّ حقّه .. ماله ، وما عليه .

والله سبحانه وتعالى لايحكم إلا « بالحق» وفى قول النبىّ « احكمْ بالحق » تطمين لهؤلاء المشركين الضالين ، وهو أنه إذ يدعوهم إلى الاحتكام إلى الله ، فإنما يدعوهم إلى من يحكم بالحقّ ، وهو لا يطلب من الله سبحانه محاباةً له ، إذ كان مؤمناً بالله وهم أعداء لله .. إنه لايريد غير الحق ، من الحق جل وعلا وهذا شأن الواثق من الحق الذى فى يده ..

ويجوز أن يكون المراد « بالحق » هنا ، الحقّ الذى يعلمه النبيّ ، وينتظره من ربّه .. فأل فى « الحق » للعهد ، أى الحق المعروف ، المعهود عند الله ، وليس طلب النبيّ الحكمَ بالحق إلا إحالةً للأمر الذى بينه وبين قومه إلى صاحب الأمر يقضى فيه بحكمه .

وقوله تعالى : « وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون » .

هو خاتمة هذه السورة . . .

وفى هذه الخاتمة يُنهى النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ موقفَه مع قومه ، ومع الضالين والمعاندين ، بأن يتركهم لحكم الله فيهم ، وقضائه بينه وبينهم ، وهو حكم عدل ، وقضاء حق ..

أما مايجد النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من خلافهم عليه ، واتّهامهم له ، ورَمْيهم إياه بتلك الرّميات الطائشة ، كقولهم عنه : إنه شـاعر ، وإنه مجنون ، وإنه ساحر ـ فذلك مما يستعين الله على حمله منهم ، من غير أن يحمل لهم ضغينة ، أو يخرج به ذلك على غير مايريده من الله لهم ، من هداية ، إلى أن يدعو عليهم ، كما دعا كثير من الأنبياء على أقوامهم ، فأُخذوا بعذاب الله ، ووقع بهم البلاء وهم ينظرون . . فما جاء صلوات الله وسلامه عليه إلا رحمةً للعالمين ، وهو بهذه الرحمة حريص على أن ينال قومُه وأهله حظَّهم منها .. فإن لم ينَل المعاندين والمنكرين شىء من هذه الرحمة ، فلا أقلّ من ألا يصيبهم عذاب فى هذه الدنيا ، كما أصيبت الأمم الأخرى .. أمّا فى الآخرة فأمرهم إلى الله ، يحكم فيهم بما شاء ، وهو أحكم الحاكمين . .

ولقد مضى النبيّ فى طريق دعوته ، صابراً ، مصابراً ، يلقى المساءة بالإحسان

والأذى بالمغفرة ، حتى إنهم ليخرجونه من البـلد الحرام ، ويزعجونه من بيته وأهله .. ثم يجمعون جموعهم فى جيش لجَب ، يريدون أن يدخلوا عليه المدينة موطنه الذى هاجر إليه ، فيلقاهم النبىّ بهذا العدد القليل من أصحابه فى بدر ، فتكون الدائرة عليهم ، وينصر الله النبىّ وأصحابه نصراً عزيزاً .. ثم لا يأخذ القوم من هذا آيةً ، ولا يتلقون منها عبرة وعظة ، بل يعاودون الـكرة فى العام التالى ، ويجيئون إلى المدينة طالبين الثأر لبدر ، وقد حشدوا للمعركة ، ما يملـكون من قوة .. ويلتقى بهم النبى وأصحابه من المهاجرين والأنصار فى أحد .. وينتصر المسلمون أولا ، ثم يُهزمون ، ويصاب النبىّ ويسيل دمه ، وتنكسر رباعيته ، ويُقتل نفَرَ كِرامٌ من أهله وأصحابه ، ومنهم عمّه حمزة ، ويرفع رسول الله بصره إلى السماء ، وفى قلبه أسى وحسرة ، وكأنه يهمّ أن يسأل ربّه أن يأخذ له من هؤلاء المعتدين الآثمين .. ولـكن تغلبه عاطفة المودة والرحمة ، وإذا هذه الكلمات الحانية الودود تدفـع من طريقها تلك الـكلمات الثائرة الغضبَى ، وإذا شفتاه المباركتان ، الطيبتان ، المحسنتان ، تردّدان فى ضراعة ضارعة : « اللّهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون » ..

فيا رسول الله ، ويا خير خلقه ، ويا صفوة أنبيائه ، ويا خاتم رسله .. عليك صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته ..

ويا رسول الله ، ويا رحمته المهداة للعالمين . عليك صلوات الله وملائـكته والمؤمنين « إن الله وملائـكته يُصلون على النبىّ .. يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليما » ..

* * *

٢٢ - سورة الحَجّ

نزولها : اختُلف فيها ، فقال بعضهم : إنها مكية إلاّ آيات ، وقال آخرون : إنها مدنية إلاّ آيات . . ونحن نغلّب الرأى القائل بأنها مدنية إلا بعض آيات منها فمكية . . ويكفى أن تسمّى سورة الحجّ ، والحجّ إنما فُرض بعد الهجرة .

عدد آياتها : ثمان وسبعون آية .

عدد كلماتها : ألفان ومائتان ، وإحدى وتسعون كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا .

مناسبتها للسورة التى قبلها

كانت سورة الأنبياء ـ السابقة على هذه السورة ـ حديثاً متصلاً عن أنبياء الله ورسله ، وما ابتلاهم الله سبحانه وتعالى به من ضرّاء وسرّاء ، ثم كانت عاقبتهم جميعاً إلى العافية فى الدنيا ، وإلى رضا الله ورضوانه فى الآخرة . . وقد بدئت هذه السورة ـ سورة الأنبياء ـ بهذا الخبر المثير : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » ثم ختمت السورة بهذا البلاغ المبين ، الذى جاء به قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عِبَادِيَ الصالحون » ثم تلتها الآيات التى تحدث عن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنه المبعوث رحمةً للعالمين ، وأنه لا يحمل الناس حملاً على الهدى الذى بين يديه ، فمن تولّى ، فما على النبىّ من أمره شىء . . والموعد الآخرة ، حيث يفصل الله بين العباد . .

وقد جاءت سورة الحج فبدأت بهذا الإعلان ، أو هذا النذير الصارخ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » .

وواضح مابين بدء هذه السورة ، وبدء سورة الأنبياء وخاتمتها ، وما بين بدئها وختامها من تلاقٍ وتلاحم . . بحيث يمكن أن تقرأ سورة الحج فى أعقاب سورة الأنبياء ، من غير فاصل بالبسملة ، وكأنها بعض منها ، وتعقيب على مقرراتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٢)

* « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) »

التفسير :

* « يا أيها الناس اتقوا ربكم . . . »

بهذا الإعلام الصارخ المدوّى تبدأ السورة الكريمة ، منذرة الناس بهذا اليوم العظيم ، يوم القيامة ، منبهة لهم من غفلتهم ، ملفتة لهم إلى ما هنالك من أهوال تشيب منها الولدان ..

والإعلان عام للناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، المنتبه لهذا اليوم ، والمعدّ نفسه له ، ومن أنكره وكفر به ، أو كان فى غفلة عنه ..

وذلك التعميم الذى يشمل الناس جميعاً ، إنما هو لأن أهوال هذا اليوم لايكاد يتصورها أحدٌ ، لأنها تخرج عن دائرة التصور البشرى ، وتجىء على صورة لم تقع للناس فى حياتهم الأولى ، على رغم ماوقع لهم من أهوال ، وما نزل بهم من بلاء .. ومن هنا كان الذين يؤمنون بالآخرة ، ولايعملون لها ، مطالبون بأن ينتبهوا ، وأن يعملوا أكثر مما عملوا .. فإنهم - على يقظتهم ، وعلى خوفهم من لقاء ربّهم ، وعلى إعدادهم ليوم اللقاء - إنهم مع هذا كله أشبه بالغافلين .. فإن الهول شديد ، وأن الموقف لايمكن تصوره .. ومن هنا أيضاً كان المؤمن فى حاجة دائمة إلى تذكر هذا اليوم ، وإلى الحياة معه ، وإلى العمل له ، وإنه مهما أكثر من عمل ، فإنه قليل إلى المطلوب منه لهذا اليوم ، لوعلم هَوْلَه ، وتصور صورته .

* وقوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » هو عَرض لهذا اليوم العظيم ، ومايقع فيه من أهوال ، وما يطلع به على الناس من مُفزعات .. والزلزلة ، الهزّة والرِّعدة ، وهى الإرهاصات التى تقوم بين يدى هذا اليوم .

قوله تعالى :

* « يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عمّآ أرضَعَتْ وتَضَع كل ذات حَمْل حَملَها وترى الناسَ سُكارى وماهم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد » .

هو « لَقَطَات » من مشاهد هذا اليوم .. فمجرد رؤية مايطلع فى هذا اليوم، يأخذ على الناس عقولَهم ، وأسماعهم وأبصارهم .. فتذهل كلّ مرضعةٍ عمّآ أرضعت ، وتضع كلُّ ذات حَمْلٍ حملها .. حيث لايملك أحد - مع هذا البلاء - شيئاً من نفسه ، فتتعطل فيه الأجهزة « العاملة » الإرادية منها وغير الإرادية .. ويصبح مجرد شبح يتحرك كما تتحرك الأشباح !

والصورة هنا مجازية ، فليس هناك مرضع حتى تذهل عن رضيعها، ولاحامل

حتى تلقى بما فى رحمها . . والمراد أنه لو طلعت الساعة على الناس فى دنياهم ، وأرتهم زلزلة منها ، لذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، ولألقت كل ذات حمل حملها . . ويجوز أن يكون المراد بوضع الحمل العموم والشمول ، أى كل شىء يُحمل ، سواء أكان مافى الأرحام من أجنة ، أو مامع الناس من أمور يُشغلون بها ، ويحرصون عليها . . وبهذا يكون المراد بذات الحمل : النفس .

ويمكن أن تكون هذه الصورة حقيقية ، وأن من يشهد من الناس إرهاصات الساعة ، ونذرها ، قبل أن تقع ، يقع لهم هذا . . فكيف بالساعة نفسها ، حين ينكشف أمرها كله ؟ .

وقوله تعالى : « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

هو عرض لصورة من صور الساعة بين يدى نُذُرها . . فهذه النذر تقلب أوضاع الحياة ، وتطلع على الناس بما لم يروْه فى حياتهم من مذهلات . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « واقترب الوعد الحقّ فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . . ياويلنا قد كنا فى غفلَةٍ من هذا . . بل كُنَّا ظالمين » (٩٧ : الأنبياء)

الآيات : (٣ — ٥)

* « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

فلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها . أنهـا تعرض وجهاً من وجوه المشركين ، المكذبين بيوم القيامة ، التى جاءت الآيتان السابقتان منذرتين بها ، محذرتين من أهوالها . . ومع هذه الأهوال العظيمة ، والأحداث المزلزلة التى تلقى الناسَ يوم القيامة ، فإن كثيرا من الناس لاهُونَ عنها ، مستخفّون بها ، يأخذون كل حديث عنها مأخذ السخرية والعبث ، بهذا الجدل العقيم ، الذى يُسلم المرء فيه عقلَه لهواه ، فيرمى بالكلام على أى وجه يقع . .

— وفى قوله تعالى : « ويتبع كل شيطان مريد » إشارة إلى أن هذا الصنف من الناس ، لا يسعى إلى تحصيل علم فى الأمر الذى يجادل فيه ، وهو البعث ، وكأنه أمر لا يعنيه ، ولا يريد أن يدخل على نفسه أىّ شعور به ، يزحزح تلك المشاعر التى ارتبط بها بالدنيا . . فهو منقاد لهواه ، متبع لشيطانه . . وهو شيطان قوى بالنسبة لهذا الإنسان الأحمق ، الذى التقى هواه مع هوى الشيطان !

قوله تعالى :

* « كُتب عليه أنه من تولاّه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » .

هو وصف للشيطان ، وهو أنه قد كُتب عليه ، أى حكم عليه من الله سبحانه وتعالى ألا يتولاه ، ويستجيب له ، إلا الضالّون الخاسرون من عباده :

كما يقول سبحانه وتعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (٤٢ الحجر) . وكما يقول جل شأنه : « اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » . (٦٣ : الإسراء)

الحياة .. وخالق الحياة

* قوله تعالى :

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

أكثر ما يكون الجدل فى قضية الإيمان يدور حول « البعث » حتى إن كثيراً من الذين يعترفون بوجود الإله الخالق ، الذى بيده ملكوت السموات والأرض ، يكذبون ، أو يشكّون فى إمكان البعث ووقوعه . وهذا ناشىء عن فساد فى العقيدة ، وعن قصور فى إدراك بعض ما لله سبحانه وتعالى من كمال مطلق ، فى ذاته وصفاته .. وأن قدرته سبحانه مطلقة من كل حد وقيد ..

وإذا كان للشك فى البعث ما يبرره عند الذين يُنكرون الله ، ولا يؤمنون بوجوده ، فإنه ليس له وجه يُقبل عليه من الذين يقولون إنهم يؤمنون بإله واحد!! وهذا شأن اليهود ، فإنهم مع إيمانهم بالله ، فإن تصورهم المريض لجلال الألوهية وعظمتها ، جعلهم ينظرون إلى الله ، وكأنه كائن مادىّ محدود ، لا يقدر على إعادة الأجسام بعد البِلى والدثور .. ثم كان حبهم للحياة ، وتعلقهم بها مُباعداً

بينهم وبين ذكر الموت ، وتصوره ، وتصوّر ما بعده .. فإنّ ذِكر البعث لا يجيء إلا بعد الإيمان بالموت كحقيقة واقعة، ثم استحضاره والإعداد له ولما بعده.. فهم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى فى قوله : « ولتجدنّهم أحرصَ الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدُهم لو يعمَّر ألف سنة » (٩٦ : البقرة) .. فهم ومشركو العرب على سواء ، فى تصورهم للبعث ، فقد كان مشركو الجاهلية يؤمنون بالله ، ولكنه إيمان باهت مختلط بكثير من الضلالات ، الأمر الذى جعلهم ينكرون البعث ويقولون : « ما هى إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (٢٤ : الجاثية) .

وهذه الآية الكريمة تشرح قضية البعث ، وتعرضها هذا العرض المحسوس الواضح ، الذى تكاد تمسك به اليد ، ومن هنا كان العرض عاماً ، يُدْعى إليه الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، عالمهم وجاهلهم :

— « يأيها الناس » . . اسمعوا هذا النداء ، واشهدوا هذا العرض . . ثم احكموا بما ترون . .

— « إن كنتم فى ريب من البعث » . . فانظروا أولاً فى هذه الصورة ، وتابعوا سيرها ، خطوة خطوة ، لتروا كيف بدأت ، وكيف انتهت ، ثم كيف كان البدء . . وكيف كانت النهاية :

— « فإنّا خلقناكم » . . هكذا . .

— « من تراب .. » حيث كنتم بعض هذا التراب الذى ترون .لا وجود لكم ولا أثر يدلّ عليكم . .

* « ثم من نطفة . . » أى ومن هذا التراب نبتت شجرة إنسانية ، هى الإنسان الأول . . ثم كان تناسلكم وتوالدكم ، كما تتوالد ، وتتناسل

الكائنات الحية . . حيث يبدأ التناسل والتوالد بالنطفة ، وهى ماء التناسل فى الكائن الحىّ . .

* « ثم من علقة » . . وهى صورة أولى من صور النطفة ، حيث تنعقد النطفة .

* « ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » هى صورة أولى من صور العَلَقة ، حيث تتحول إلى قطعة من اللّحم ، أشْبه بلقمة مُضغت حتى أصبحت أشبه بقطعة من العجين .. وهذه المضغة قد تكون مهيأة لاستقبال الحياة ، فتماَق بالرحم ، وتستقر فيه ، حتى تستوفى مراحل نموّها ، وتصبح جنيناً ، ثم وليداً يخرج إلى الحياة ، وقد تكون غير مهيأة للحياة ، فيلفظها الرحم ..

— « لنبيّن لكم .. » أى هذه المراحل التى تحول بها التراب ، إلى مادة تأكلونها ، ثم تخلّق من هذا المادّة « النطفة » التى هى بذرة الحياة ، ثم تحولت النطفة إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة .. وهذه المضغة تقف على عتبة الحياة ، وتطرق بابها .. فإما أن يؤذن لها بالدخول ، فتأخذ طريقها حتى تخرج من الباب الآخر كائناً حيًّا ، وإما أن تُردّ ، وتعود إلى عالم التراب ، الذى جاءت منه — هذه المراحل الأولى هى إعداد للحياة ، وتمهيد للأرض التى تنبت فيها .. تماماً كالبذرة من الحبّ ، تمهدّ لها الأرض ، ثم تودع فى التراب ، ثم يُساق إليها الماء ..

وإلى هنا تكون كل وسائل الإنبات مستكملة مستوفاة فى ظاهر الأمر .. وهذا هو المطلوب من الإنسان أن يعمله ، وأن يستكمل أسبابه حتى يجىء المسبّب . . !

ولكن بين الأسباب والمسبب ، نظر لناظر ، وعبرة لمعتبر !

فإذا كان الإنسان يملك أن يهيء الأرض ، ويبذر البذر ، ويسوق إليه الماء .. فهل له يدٌ يمكن أن يمدّها إلى تلك الأسباب المهيأة ، والتي هي كلها أدوات لم يكن من صُنعه شيء منها ، بل كل سبب منها مسبب عن أسباب .. وكل سبب من هذه الأسباب ، مسبب عن أسباب أخرى .. وهكذا — نقول : هل له يد يمكن أن يمدّها إلى تلك الأسباب ، فيخرج منها النبات الذى بَذَر بذرته ، وانتظر ثمرته ؟

وإذا كان الإنسان يملك أن يجد فى كيانه النطفة ، ثم يهيء المكان الذى يقذفها فيه ، ثم يقذف بالنطفة فى هذا المكان المهيأ لها — فهل له مجال هنا فى أن يزحزح تلك النطفة التى نزلت بمكانها المهيأ لها ، ثم جَهَدت جَهْدها ، فكانت علقة ، ثم كانت العلقة مضغة — نقول : هل له مجال هنا فى أن يزحزح تلك النطفة — وقد أصبحت مضغة — إلى أبعد من هذا ، وأن ينفخ فيها نفخة الحياة ، وأن يمسك بها فى الرّحم ؟

جواب واحد ، ينطق به الحال ، ويشهد له الواقع ، وهو : « لا » ! إنه لاحول للإنسان ولا طول له ، فى هذا الأمر أو ذاك ، وإنه ليس إلا العجز والتسليم ، ليدٍ قادرة ، خالقة ، مبدعة .. لاحدود لقدرتها ، ولا نهاية لإبداعها .

واستمع إلى قوله تعالى :

« أفرأيتم ماتُمْنُون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » (٥٨ — ٥٩ : الواقعة) .

هذا ، عن النطفة ، وعن آيات القدرة القادرة ، وآثارها فيها ..

« أفرأيتم ماتَحْرُثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ * لو نشاء لجعلناه حُطَاماً فظلتم تَفَكّهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون » (٦٣ — ٦٧ : الواقعة) ..

وهذا عن النبات ، وعن قدرة القادر ، وصنعة الصّانع ، فى أمر هو أقرب إلى الإنسان . وأيسر ـ فيما يبدو له ـ من عملية الخلق المعقدة ، فى عالم الحيوان . . فهل له فى هذا أو ذاك يدَان ؟

وإلى هنا ونحن ما زلنا بعدُ على شاطىء الحياة ، بعيداً عن أعماقها وأغوارها . !

فإذا غرق الإنسان وهو ما زال على اليَبَس ، فكيف به إذا خاض الماء ، أو غاصَ فى أعماقه ؟

إنه لأسْلَم للإنسان إذن أن يقف حيث هو ، وأن يَظَلّ على الشاطىء ، يشهد ببصره ، أو ببصيرته ما يرى من آيات الله ، وآثار قدرته ورحمته فى تلك « المضغة » ! .

وأيّة مضغة ؟ إنها المضغة ، المخلّقة ، التى نفخ فيها الخالق النفخة الأولى للحياة . .

أمّا المضغة غير المخلقة ، فقد وقفت عند الشاطىء . . ترابا مع هذا التراب .

فلنبدأ إذن فى متابعة هذه النطفة « المخلّقة » ، ولنرصد مسيرتها . . مرحلة مرحلة . .

* « ونقرُّ فى الأرحام ما نشاء » . .

فها هى ذى النطفة الآن فى سفينة الحياة . . وها هى ذى السفينة تتحرك رويداً على صَدْر هذا المحيط العظيم . .

* « ثم نُخرجكم طفلاً » . .

وها هى ذى السّفينة تضرب فى ثَبَج المحيط ، وتختفى رويداً رويداً عن

الأنظار . . ثم ها هى ذى تعود بحملها ، وقد ثَقُلَت ، وكادت تتقطع أنفاسها ، وتسقط فى اليمّ بما حملت ! ولـكن يد القدرة القادرة تمسك بها ، حتى تبلغ الشاطىء ، وتُلقى بما حملت !

وما هذا الحمل الذى ألقت به على شاطىء الحياة ؟ ومن أين جاءت به ؟

إنه تلك النطفة ، أو المضغة التى أقلعت بها من الشاطىء . . ثم دارت بها تلك الدورة الطويلة ، فتخلّق من هذه المضغة هذا « الطفل » الذى هو صورة كاملة مصغرة من هذا الإنسان الذى دَفَع به إلى السفينة نطفةً ، ثم ها هو ذا يستقبله إنساناً ! وما أبعد ما بين النطفة والإنسان ، فيما ترى العين ، ويشهد العقل . . وما أقرب ما بين النطفة والإنسان فى يد الخالق ، المبدع ، المصوِّر ! .

ثم ما هذا الطفل ، أو ذلك الإنسان المصغر ؟

إنه كائن لا يملك من أمره شيئاً . .

ولـكن مهلاً ، فإن يد القدرة ممسكة بيده . . فانظر كيف تجعل من هذا الطفل رجلاً ، كما جعلت من النطفة طفلا !

* « ثم لتبلغوا أشدّكُم » .

فها هو ذا الطفل فى يد القدرة القادرة ، تمدّه بأسباب النماء والقوة ، يوماً بعد يوم وحالاً بعد حال .. وإذا هذه الـكومة من اللحم المتحركة فى كيانها المحدود ، تحبو ، ثم تقفز كما تقفز الضفدع ، ثم تمشى على أربع كما تمشى الدواب ، ثم تقوم منتصبة القامة ، تمشى على رجلين . . ثم . . وثم ، وثم..حتى يبلغ أشده ويصير رجلاً . .

وهذا هو الإنسان فى أتمّ صورة وأكملها . . لقد كمل جسمه ، وعقله . . وبلغ أشدّه .

واللام فى قوله تعالى : « لتبلغوا » هى لام العاقبة والغاية . . أى غاية النضج الإنسانى . .

وهنا تبدأ لهذا الكائن مسيرة أخرى . .

* « ومنكم من يُتَوَفّى ، ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلمَ من بعد علمٍ شيئاً » .

وإذ يبلغ الإنسان - مرحلة الشيخوخة - من العمر ، يقف وقفةً على عتبة الموت ، أشبه بتلك الوقفة ، التى وقفتها المضغة ، على باب الحياة ! فكما كانت المضغة هناك مخلّقة أو غير مخلّقة ، يكون « الشيخ » هنا مخلّفاً من حصاد الموت ، أو غير مخلّف . .

وهذا يعنى . .

أولاً : أن حدود الحياة الإنسانية ، تنتهى غالبا عند مرحلة الشيخوخة . . حيث يستوفى الإنسان غايته ، ويعطى الحياة كلّ ماعنده ، ويأخذ منها كلّ ما هو قادر على أخذه منها .

وثانياً : أن هذا لا يمنع من أن يسقط على هذا الطريق كثير من الناس ، قبل أن يبلغوا هذه المرحلة . . من أجنّةٍ ، وأطفال ، وصبيان ، وغلمان ، وشباب . . تماماً كما تتساقط بعض ثمار الفاكهة ، زهراً ، أو حِصْرِماً ، أو رُطَباً. كما لا يمنع أيضاً من أن يجاوز الإنسان مرحلة الشيخوخة ، فيكون من مخلفات الحياة . . تماماً كمخلفات الثمر ، الذى يجفّ ، وهو لا يزال ممسكا بغصن الشجرة . .

وثالثاً : إمساك الحياة ببعض « الشيوخ » حتى يبلغوا أرذل العمر ، هو وجه مقابل لحياة الطفولة فى الإنسان . . حيث ينحدر الإنسان شيئاً فشيئاً ، ويتدلّى قليلاً قليلاً حتى يقع على الأرض ، فيصبح كومة من اللحم ، يضرب برأسه على الأرض لتفتح له رحمها ، وتهيىء له مكاناً فيه . . تماماً كالجنين ، حين تفتّح له رحم أمه . . فخرج منه . .

إنها دورة فى نصف دائرة . . أشبه بالشمس فى شروقها وغروبها . .

ثم لابد أن تتم هذه الدورة لتكون دائرة كاملة ، فهذا هو نظام الكون فى أفلاكه جميعاً ، إنها تدور فى دائرة كاملة . . والإنسان ما هو إلا كون من هذه الأكوان . . يشرق ، ثمّ يغْرب ، وبذلك يتم نصف دورته . . أما النصف الآخر فيقطعه وراء هذا العالم ـ عالم الظاهر ـ ثم يعود ليطلع من جديد فى عالم الظهور ! .

وفى التعبير القرآنى عن امتداد العمر إلى مابعد الشيخوخة بقوله تعالى : « أرذل العمر » إشارة إلى أن هذه النهاية التى ينتهى إليها الإنسان فى مسيرة حياته، هى أرذل مرحلة ، وأخسّها، وأسوؤها فى حياته .. إذ بها يتحول الإنسان إلى كائن هو مسخ لهذا الإنسان . . حيث تأخذ منه الحياة كل يوم شيئاً ، وتستردّ شيئاً فشيئاً مما كانت قد أعطته . .

لقد استقبلته الحياة وليداً ، فأرضعته من ثديها ، النّماء ، والقوة ، والإدراك ، والعلمَ ، والمعرفة .. وما يزال هذا دأبها به حتى يبلغ غايته ، ويستوفى كل مايمكن أن تعطيه طبيعته . . وهنا تَدَعه الحياةُ ينفق مما أخذ منها ، وفى كل يوم ينقص رصيده الذى ادخره، من النماء والقوة والإدراك والعلم والمعرفة .. وهكذا يتقاصّ

ظل هذا الرصيد شيئاً فشيئاً حتى يصبح ظلالا باهتة . . ثم يختفى ، ويذوب ، كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس . .

وشتّان بين بدء الحياة وختامها .. بين وَهَج الطفولة وتوقدها ، وخمود الشيخوخة وبرودتها .. بين إقبال الحياة وإدبارها .. بين الشروق والغروب، بين رحلة الحياة ورحلة الموت ! !

— وفى قوله تعالى : « لـكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً » هو عرض لصورة الحياة والموت معاً،فى هذا الإنسان الذى رُدَّ إلى أرذل العمر، ونُـكّس فى الخلق.. هو حىٌّ ميت ، أو ميت حىّ . . إنه يعود من حيث بدأ ، فقد جاء إلى الحياة لا يعلم شيئاً ، كما يقول سبحانه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتـكم لا تعلمون شيئاً .. » (٧٨ : النحل) وها هو ذا يعود طفلا « لا يعلم من بعد علم شيئاً » ..

والتعليل بقوله تعالى : « لـكيلا يعلم » لا يتَوَجّه به إلى إنسان بعينه ، وإنما هو موجّه إلى الناس عامة ، وإلى منـكرى البعث خاصة ، ليَروْا فى هذا الإنسان ، الشاهد الحىّ ، الذى ينطق بأن الحياة والموت وجهان متقابلان ، وأنه كما يموت الحىّ ، يحيا الميّت ..

وفى نظرة مشرقة صافية يمكن أن تتجلّى فى قوله تعالى : « يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميّت من الحىّ » (٩٥ : الأنعام) صورة من صور إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحىّ ، فى مسيرة الإنسان على طريق الحياة ، من مولده إلى مماته .. أى من طفولته إلى أرذل عمره وتنـكيسه فى الخلق . .

فهو فى بدء طفولته .. ميت حىّ .. وهو فى أرذل عمره حىّ ميت !

وما أدقّ وأبرع قولَ المعرّى :

وكالنّار الحياة .. فمن رمادٍ أواخرها وأولهــا دخان

فالحياة ـ كما يصورها المعرى ـ جذوة من نار ، تبدأ دخانا ، وهو أول ما يكون من النار ، ثم تنتهى إلى رماد ، وهو آخر ما يكون منها ..

* وفى قوله تعالى : « وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَت وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج » ..

عرض لصورة من صور الإحياء ، والبعث ، يراها أولو الأبصار ، حالاً بعد حال ، فيما يُسفر عنه وجه الأرض ، من حياة متجددة عليها ، ومن أثواب تلبسها ، وحِلىّ تتحلى بها ، بعد أن كانت أرضا مواتا ، لا مَعْلم من معالم الحياة فيها . .

فهذه الأرض الجديب القفر ، يأخذها الإنسان بنظره اليوم ، فإذا هى ـ كما يرى ـ موات فى موات ، وصمت مُوحش رهيب ، كصمت القبور . . ثم إذا أصابها الماء ، وغاثها الغيث ، « اهتزت » هِزّة الحياة ، ونبضت عروقها ، وسرت الروح فى أوصالها . . « وَرَبتْ » ونمت كما ينمو الطفل . . « وأنبتت من كلّ زوج بهيج » فإذا كرّ الناظر إليها ببصره كَرّةً أخرى ، رأى هذا الموات قد أصبح حياة مزهرة مثمرة ، تملأ العين بهجة ومسرّة .

فماذا إذن ينـكره المنـكرون من بعث الموتى ؟ وهل هذه القبور وما ضُمّت عليه من جثث وأشلاء ورفات ، تتراءى فيها صور الآدميين الذين عَمَروها ـ هل هذه القبور أبعد من بعث الحياة فيها ، وإخراج خَبْئها ـ من الأرض الجديب الميتة ، التى أحياها الله ، فاهتزت وربت ، وأنبتتْ من كل زوج بهيج ؟ ذلك مالا يقبله عقل ، ولا يرضاه منطق ! .

تلك هى « قضية البعث » . . وهذه هى حيثياتها ، يجدها الإنسان فى نفسه هو ، من مولده إلى مماته .. فإن أعياه النظر إلى نفسه ، وجدها فى الأرض التى يمشى عليها . . فإن عَمِى عن هذا وذاك ، فهيهات أن يرى وجه الحق أبداً . فإن ذلك العمى من عمى القلب ، الذى ليس لمصابٍ به شفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٤٦ : الحج) . .

* * *

وهنا نحب أن نقف وقفةً مع عملية « الخَلْق » وبعث الحياة فى المخلوقات .

فهذه العملية ، عملية « الخلق » ، هى مما استأثر الله سبحانه وتعالى به ، ليس لأحدٍ من مخلوقاته أن يكون له معه شركة فيه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « ألا لَهُ الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف) . . هكذا على سبيل القَصْر . . فلِله وحده ـ بلا مشاركة ـ « الخلق » وهو الإيجاد ، والتصوير ، وبعث الحياة فى الموجودات والمصوّرات . . « والأمر » وهو التقدير ، لخلقْ ما يخلق وتصوير ما يصور . . « ألا له الخلق والأمر » .

هذا ، وتتطلع الإنسانية دائماً إلى كشف هذا السرّ ـ سرّ الحياة ـ ويحاول العلماء والباحثون أن يصلوا إلى تلك الحقيقة ، وأن يضبطوا قوانينها ، وأن يضعوا أيديهم عليها ، حتى يكون لهم أن يَخلقوا ما يشاءون من مخلوقات ، وأن يتحكموا فيما يخلقون . . من إناث أو ذكور ، على اختلاف الألوان والصور ! .

وقد أجرى كثير من العلماء تجارب عديدة فى هذا المجال ، وزرعوا واستنبتوا فى مخابرهم خمائر للحياة .. ولكن ذلك كلّه لم يصل بهم إلى شيء

مما أرادوا ، وكلّ ما أمسكوا به فى أيديهم ، هو صور باهتة ، إن دلّت على شىء ، فإنما تدلّ على تأكيد هذه الحقيقة ، وهى أن « الخلق » لله وحده ، وأن غاية العلم ، لا تتجاوز أبداً أكثر من هذه الوقفة على شاطىء الحياة ، بعيداً عن لمس بحرها العميق . .

إن كلّ ما يجريه العلماء من بحوث ، وما يضعونه من موادّ فى مخابيرهم وأنابيبهم ، هو من عناصر الحياة نفسها ، التى خلقها الخالق جلّ وعلا . . وأن هذه الأطياف من الحياة التى تُطلّ على العلماء من مخابيرهم وأنابيبهم ، إنما هى من بذور الحياة التى أوجدها الخالق ، وقدّر لها سُبلاً تسلكها ، لتثمر ثمر الحياة ، فغيّر العلماء سبيلها ، وعَدَلوا بها عن طريقها المرسوم ، الذى خطّته لها القدرة الإلهية .. !

فإذا نجح العلم فى هذا التدبير ، واستطاع أن يصل إلى شىء من صور الخلق - وهيهات - فإن ذلك لايعدو أن يكون نَبْتَةً من نبات تلك البذرة التى أوجدها الخالق ، وكل ما كان من العلم والعلماء، هو أشبه بنقل نبات من تربة غير تربته ، واستنبات نوع من النبات فى غير موطنه .

والذى نحبّ أن ننبه إليه هنا ، هو أن الإسلام - شريعةً وعقيدة - لا ينظر إلى تلك المحاولات التى يحاولها العلم فى حقل الحياة - نظرة متكرهة أو معادية، بل إنه يزكّى هذا البحث العلمى ، ويطلق للإنسان العنَان فى البحث والدرس ، وإجراء ما يشاء من التجارب فى عملية الخلق ، فهذا كله قراءة فى كتاب الكون ، وتأمل وتدبّر فى آيات الله . . وما يصل إليه الإنسان من كشوف علمية ، وحقائق كونية ، هو منظور إليه من جانب الإسلام على أنّه رسالة العلم ، فى الكشف عن قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته .. الأمر الذى يفتح للناس الطريقَ إلى الإيمان بالله ، ويُجلّى عن عقولهم وقلوبهم غياهب الشك والشرك

والإلحاد .. وهنا يمكن أن يقوم العلم فى الدعوة إلى الله ، مقامَ الرسل والأنبياء ! . .

ومن جهة أخرى ، فإن العلماء الذين يبلغ بهم علمهم هذا المدى الذى يَطْلُعون منه على الناس بهذه الآيات المعجزة ـ هؤلاء العلماء هم فى الواقع آية من آيات الله . . فما هم إلا صنعة الخالق ، الذى خلق فسوّى ، فجعل من ابن الماء والطين ، هذه القوة القادرة على أن تجىء بهذا الإعجاز العظيم . .

فمَرْحَى بالعلم ، ومزيداً من آياته ومعجزاته . . فحصاد هذا كلّه ، وثمر هذا كله ، عائد إلى الإنسان ، فى حياته المادية والعقلية والروحية . . وما كان لدين ـ أى دين ـ أن يعطل ملكات الإنسان ، أو يقيد يديه عن العمل فى كل مجال يستطيع العمل فيه ـ سواء أخطأ أم أصاب ، مادام يطلب الخير ، ويُلقى إليه ، بشباكه فى الأرض أو فى السماء . . !

على أن هناك حقيقة ، نودّ أن نضعها بين يدى العلماء ، دون أن نقطع الطريق عليهم فيما هم سائرون إليه ، نحو البحث عن الحياة ، واستيلاد الأحياء ، أو خلقهم ، ودون أن نُدخل اليأس عليهم ، ونوصد فى وجههم هذا الباب . .

فنحن وإن كنا على يقين بأن العلم ـ فى عالم البشر ـ لن يخلق الحياة أبداً ، فإننا ندعو إلى مزيد من البحث والانطلاق فى هذا المجال إلى أبعد غاية ، فإن هذا البحث ـ فى الواقع ـ لن يضيع هباءً ، بل إنه سينمّى معارف الإنسان ، ويزيده علماً إلى علم ..

ومن يدرى ؟ فلعل العلماء إذا أخطأهم الوصول إلى « الحياة » وفاتهم الحصول على سرّها ، لعلهم يجدون فى طريقهم أسراراً أخرى ، هى أجدى على

الإنسانية وأنفع لها ، فيما يدفع عن هذه « الحياة » ما يعانيه الناس من غوائل الأوبئة والأمراض . .

أما الحقيقة التى أريد أن أصارح العلماء بها ، فهى ما صرّح به القرآن الكريم فى الجزء الأخير من هذه السورة ، وهو قوله تعالى :

« يأيها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له .. إن الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .. وإن يَسْلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه .. ضعف الطالب والمطلوب » .

فهذه آية متحدّية ، للناس ، ولِما يعبد الناس من مخلوقين يرونهم آلهة ، بما فى أيديهم من سلطان مادى أو روحى . .

فالناس ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة .. « لن يَخلقوا ذباباً » .. وهو أضأل المخلوقات وأضعفها .. « ولو اجتمعوا له » .. واحتشدوا له من أقطار لأرض كلها ، وجاءوا بكل ما معهم من علم . .

والذباب لا يعدو أن يكون دودة متخلّقة من مخلفات المواد القذرة والمتعفنة، فهو — بهذه الصورة — أدنى مراتب الحياة ، وأنزل منازلها . . ومع هذا فإن الناس كلهم ان يخرج من أيديهم بكل ما معهم من علم ، أن يخلقوا ذبابةً واحدة !

وأكثر من هذا ، فإن هذا الذباب الذى عجزوا عن خلقه ، هو — فى حال من أحواله — أقوى منهم ، وأقدر على الكيد لهم . . وأنه إذا سلبهم شيئاً لا يستنقذونه منه ، ولا يستطيعون له ردّا ..

والذباب أنواع كثيرة .. منه الذباب المعروف ، ومنه ذباب الفاكهة ، ومنه الزنابير وغيرها . .

فهب أن طائفة من هذه الطوائف ، خَلَت بطعام فالتهمته ، أو وقعت على شجرة من أشجار الفاكهة فأتت عليها ـ أيكون فى مستطاع أحد أن يستردّ ما أكل الذباب ؟ ذلك محال . .

وفى التعبير عن أكل الذباب « بالسلب » إشارة إلى أن ما أكله لم يكن عن رِضًى من أصحاب هذا المأكول . . فهو أشبه بالسلب والغصب ، وفى هذا إظهار لضعف الإنسان ، ووقوعه تحت بأس هذا المخلوق الضعيف ، الذى يعدّ أضعفَ ما خلق الله ، فى عالم الأحياء !

وفى قوله تعالى : « ضعف الطالب والمطلوب » تعريض بالإنسان ، وبغروره الذي يخيّل إليه أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً . . إنه والذباب على سواء ، كلاهما عاجز ضعيف . . وإن كان الذباب ـ فى بعض الأحوال ـ أقوى منه ، وأقدر على الكيد له !

وليس هذا التصوير لضعف الإنسان ، استخفافاً به ، وإطفاءً لجذوة الطموح المتّقدة فى كيانه ، وإنما هو استشفاء للإنسان من داء الغرور ، الذى كثيرا ما يستبدّ به ، ويفسد عليه وجوده ، فإذا هو ـ وقد استوى على ظهر الغرور ـ قوة غاشمة ، وإعصار مجنون ، وعاصفة هوجاء ، تُهلك الحرث والنسل ، حتى إذا انطلقت إلى غايتها دارت حول نفسها دورة ، ثم هَوَت كما تهوى الصاعقة فى الوحل والطين !

إن الإسلام ليستقبل كل ما يفتح به العلم للناس من أسرار الوجود ، فى حفاوة وإعزاز ، إذ كان ذلك ـ كما قلنا ـ هو الطريق المستقيم إلى الله ، وهو الذى يقيم العقول والقلوب على الإيمان بالله ، إيمانًا مصفًّى من كل ريب ، مبرأ من كل ضعف . . فهذا الكون هو كتاب مفتوح لكل ناظر ، وآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود ، هى مَرَادٌ لأنظار العلماء ، ومَسْبحٌ لخواطرهم ومداركهم . .

وليس على أحدٍ حرج فى أن ينظر فى الـكون كيف يشاء ، ويسبح فى الوجود حيث يريد . . بل إن هذا الوجود لا يُحسن التعاملَ معه ، ولا يقطف من جنى ثمره الطيب ، إلا أهلُ العلم والمعرفة،وأنه على قدر ما يبلغ الإنسان من العلم يكون حظه من التلقى والانتفاع بهذا الخير المخبوء فى صدر الـكون . . والله سبحانه وتعالى يقول : «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون » (٤٣ : العنـكبوت) .

ومرة أخرى .. مَرحَّى بالعلم ، ومزيداً من جهاد العلماء ، ومن فتوحاتهم فى آفاق هذا الوجود ، الذى على الرغم من هذا السعى الجادّ لـكشف أسراره ، وعلى الرغم مما يبذل العلماء فى كل عصر ، وفى كل أمة من جهود مضنية وتضحيات سخية فى هذا المجال ـ فإن الإنسانية ما زالت على الشاطىء بعدُ ، لم تـكد تبتلّ أقدامها من بحر المعرفة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٨٥ : الاسراء) .

* * *

الآيات : (٦ — ١٤)

* « ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ

اُطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ذلك بأن الله هُو الحقّ وأنّه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا يب فيها وأن الله يبعثُ من فى القبور » .

الإشارة هنا ، إلى هذا العرض الرائع المعجز ، الذى كشف عن آيات الله المبثوثة فى هذا الوجود ، والتى تتجلى فيها عجائب قدرة الله ، وحكمته ، وعلمه ، وذلك فيما تحدثت به الآية السابقة عن خلق الإنسان ، وتطوره فى الخلق ، من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة ، ثم الميلاد ، والطفولة ، والصّبا ، والشباب ، والكهولة والشيخوخة ، وما بعد الشيخوخة .. فذلك البيان ، إنما هو ليرى منه الناس دلائلَ الإيمان بأن الله هو الإله الحقّ ، وما سواه باطل وضلال ، وأنه ـ سبحانه ـ يحيي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، لا يُعجزه شىء ، ولا تقف أمام قدرته حدود أو سدود . , فإذا أخبر ـ سبحانه ـ أن الساعة آتية ، فذلك وعدٌ حقّ ، لا بدّ من أن يتحقق ، وليس لمؤمن بالله هذا الإيمان الذى قام على النظر فى عجائب صنع الله ـ ليس لمؤمن عندئذ أن يسأل بعد هذا ، عن إمكانية البعث ، وعن الصورة التى يكون عليها . . وإنما عليه أن يؤمن إيمانًا مطلقًا بأن الساعة آتية ، وأن الله يبعث من

فى القبور .. أما متى تأتى فذلك علمه عند الله .. وأما كيف يكون البعث فذلك إلى قدرة الله ! !

قوله تعالى :

* « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتابٍ منير » .

تحدّثت الآيات السابقة عن صِنف من المجادلين بغير علم حيث يتصدّى الواحد منهم بجهله ، لكل رأى ، ويدخل فى كل قضية ، آخذًا الطّرف المنحرف منها ، دون أن يكون له رأى نَظَرَ فيه بعقله ، وهُدِى إليه بتفكيره . وإنما هو الخلاف عن هوًى وعمًى ، ليثبت وجودَه أمام نفسه ، ويُعلن عن ذاته بأنه من أصحاب الرأى ، وأنه إذا كان للعلماء ما يقولون ، فإن له هو ما يقول ! !

وفى هذه الآية أصناف من الناس ، يجادلون بغير علم من أنفسهم ، أو بهدًى من غيرهم ، أو عن كتاب صحيح فى أيديهم ، ليجمع الواحد منهم هذه الضلالات كلها . فيكون جاهلا فى نفسه ، ثم يكون متأبّيًا على من يدعوه إلى العلم ، ثم يكون مع هذا غير ناظر فى كتاب صحيح .. ومع هذا فهو يجادل فى الحق ، ويدفعه بيديه دفعًا .

وقد يجادل أحدهم وهو جاهل لا علم عنده ، ولكنّه يردّد كلمات سمعها من غيره دون أن يعقلها ، ويتعرف إلى ما فيها من هدًى وضلال . ثم يتخذ من هذه الكلمات مادة للجدل .. وقد يستند أحدهم فى جدله إلى كتابٍ قد دخل عليه الافتراء والكذب ، فاختلط فيه الحق بالباطل .. وفى ذلك تعريض بأهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ الذين زيفوا التوراة ، ثم استقبلوا بها النبىّ يجادلونه ، ويحاجّونه بما فيها من أحكام وأخبار ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولا كتابٍ منير » . فالكتاب الذى كان منحرفًا ، غير ملتزم طريق الحق ، كان قوة عاتية من قوى الضلال والفساد . إنه يقود إلى الضلال والظلام ..

* قوله تعالى :

* « ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ » .

أى أن هذا المجادل المجهول ، يجادل ، وهو ثانٍ عطفَه ، أى مائل بجنبه ، تيهاً وكبراً ، واستنكافاً عن أن يسمع دعوة الحقّ ، وهو مُقبل عليها بوجهه ، بل يعطيها ظهره ، أو يلقاها بجنبه ، إمعاناً فى الكبر ، ومبالغة فى العناد .

وفى قوله تعالى : « ليضل عن سبيل الله » ـ إشارة إلى أنه بفعله هذا قد أراد أمراً ، هو إضلال نفسه ، وإبعادها عن الخير . . إنه يحسب أنه يكيد بهذا لمن يدعوه إلى الله ، وهو فى الواقع إنما يكيد لنفسه ، ويوردها موارد الهلال ، كما يورد الذين اتبعوه هذا المورد .

« له فى الدنيا خزى » وذلك بما يَرى من إعزاز الله للنبىّ والمؤمنين ، ومن خذلانه سبحانه وإذلاله لجبهة الكافرين والمشركين ، الذين كان هذا الضالّ مظاهِراً لهم ، ومحارباً فى جبهتهم . .

« ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » وكما أنه لم يكن يقع فى حسابه أن يجىء اليوم الذى تنهار جبهة الكفر ، وتتعفّر فيه جباه الكافرين بالتراب ، وقد جاء هذا اليوم الذى أخزاه وأذله ـ كذلك لم يكن يقع فى تقديره أن يُبعث ، وأن يجىء يوم القيامة ، وأن يحاسب على ما قدم من آثام ـ ألا فليعلم أن هذا اليوم آياتٍ لاريب فيه ، وسيلقى العذاب المهين فى الآخرة ، كما لقى الخزى والهوان فى الدنيا . .

* قوله تعالى :

« ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

أى أن ذلك العذاب الذى يساق إليه هذا الضال وأمثاله ، إنما هو بسبب ما قدمت يداه من سوء ، فوجد هذا السوء حاضراً ، ينتظره على مشارف جهنم . . « وأن الله ليس بظلاّم للعبيد » . . بل يجزيهم بما عملوا من حسن أو سوء : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم) .

وفى نفى المبالغة فى الظلم عن الله فى قوله تعالى : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ـ إشارة إلى أن ما يلقى الضالون ، والآثمون من عذابٍ فى الآخرة ، جزاء ما عملوا ـ هو عذاب شديد ، وبلاء عظيم ، لم يعرفه الناس فى حياتهم الدنيا . . وحتى أن الناظر إلى سوء هذا العذاب ـ ليستكثره ، ويرى أن لا ذنب ـ وإن عظُم ـ يستحق به صاحبه بعض هذا العذاب ، وحتى ليقع فى نفسه أن ظلماً شديداً وقع على هذا الإنسان المنكود ، الذى يُشوى بنار جهنم ، هكذا على مدى السنين والدهور . . لا يموت فيها ولا يحيا . . وكلا ، فإنه لاظلم ، ولا مبالغة فى ظلم ، وإنما هو الحق ، والعدل ، وإن كان عذابَ السعير ، والخلود فى هذا العذاب . .

قوله تعالى :

* « ومن الناسِ من يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابتْه فتنة انقلب على وجهه خَسِرَ الدنيا والآخرة . . ذلك هو الخسران المبين » .

وهذا صنف آخر من الناس ..

وهذا الصنف ، يقف على مفارق الطريق بين الإيمان والكفر . . يضع إحدى رجليه على طريق الإيمان ، ويضع الأخرى على طريق الكفر . . إنه

يعبد الله على حَرْف ، أى على جانب واحد ، دون أن يعطى الله وجودَه كلّه . فإن أصابه فى دنياه خير ومسّته عافية ، اطمأن ، ووضع رجليه معاً على طريق الإيمان . .

وإن أصابه شىء ابتلى به فى ماله ، أو ولده أو نفسه « انقلب على وجهه » أى أعطى الإيمان ظهره . . وأنكر الله ، وتنكّر له ، ونسى نعمته عليه ، وإحسانه إليه .

وهذا نفاق مع الله ، أقبح وجهاً ، وأشد نكراً من النفاق الذى يعيش به المنافقون فى الناس . . إنه مكرٌ بالله ، واستخفاف به

— وفى قوله تعالى : « خَسِر الدنيا والآخرة » إشارة إلى أن هذا النفاق مع الله يقضى على صاحبه بخسرانِ الدنيا والآخرة جميعاً . . فهو قد خسر الدنيا ، لأن ما ابتلاه الله ، لايدفعه عنه هذا الكفر بالله ، الذى لقى به ابتلاء الله له . . وهو قد خسر الآخرة ، لأنه سيلقى الله على كفره هذا ، وللكافرين عذاب أليمٌ .

وقوله تعالى : « ذلك هو الخسران المبين » أى الخسران العظيم الواضح ، الذى ليس فيه شبهة . . إذ كانت خسارة الدنيا فيه محققة ، لأنها وقعت فعلاً ، ولو كان مؤمناً بالله ، لوجد فى التسليم له والرضا بقضائه ، عزاءً يخفف من مصابه ، ويهوّن من مصيبته .. وخسارة الآخرة ستتحقق أيضاً ، لأنها واقعة لاشك فيها ، إذ هكذا سيعلم هذا الذى يعبد الله على حرف ، وإن فتنَه الابتلاء ، وأضلّه عن سواء السبيل ..

قوله تعالى :

* « يدعو من دون الله مالا يضرّه ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ».

أى أن هذا الضالّ ، الذى يعبد الله على حرف ، إذا ولّى وجهه إلى غير الله ، حين يُبتلى من الله بضُر ـ فإنما يزداد ضلالاً إلى ضلال ، وابتلاء إلى ابتلاء ، لأنه يفرّ من وجه الله ، ويفزع من بلائه إلى من لا يملك ضرًّا ولا نفعاً . .

إنه جُهد ضائع ، وعمل فاسد . . وذلك هو الضلال البعيد . .

وفى تقديم الضرّ على النّفع ، إشارة إلى أن هذه المعبودات التى تُعبد من دون الله ، لا تملك الضرّ ، الذى يملكه لله وحده ، والذى يفرّ منه هذا الضال الذى إن شاء الله ضاعف عليه البلاء ، ورماه بالضرّ بعد الضرّ . . ففى هذا تهديد لهذا الضال ، أن يأخذه الله ، بابتلاء آخر ، يتبع هذا الابتلاء الذى ابتلى به ، وكفر بالله من أجله ..

قوله تعالى :

« يدعو لَمَن ضرُّهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير » .

أى أن هذا الضال الذى دعا غير الله لكشف ضرّه ، إنما يدعو من يضرّ ولا ينفع ، وفيه يصدق قول القائل :

المستجير بعمرٍو عند كُربته كالمستجير من الرمضاء بالنّار

فالالتجاء إلى غيرِ الله ، مَضلة ، إذ لا يملك أحدٌ معه من الأمر شيئاً . .

« وإن يمسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هُو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله » (١٠٧ : يونس) .

وهؤلاء الذين يلجأ إليهم المكروبون ، من أصنام، أوحيوان ، أو إنسان، إنما ضرّهم أقرب وأكثر من نفعهم . . ذلك أنهم إن وَجد فيها عابدوهم بعض الراحة النفسية بما يداعب خيالهم من آمال كاذبة ، وهم يفزعون إليهم ،

ويتضرعون تحت أقدامهم ، فإن الأمر سينجلى عن خيبة ، وينكشف عن حسرة إذ كان قد فاتهم أن يُعملوا جهدهم فى علاج البلاء الذى وقع بهم ، أو أن يوطنوا النفس على احتماله . . فإذا انكشف الأمر عن عجز هؤلاء المعبودين عن مدّ العون فى هذا الموقف ، كان الخطب أفدح ، والمصيبة أعظم ..

وهكذا شأن كثير من الذين يفزعون إلى الأضرحة ، ويتعلقون بأبوابها ، وأستارها ، ويتمسحون بأعتابها وترابها ، كلما مسّهم ضر ، أو كربهم كرب .. فتراهم هناك يقضون أيامهم ولياليهم فى ترديد عبارات الرجاء ، وطلب الغوث ، غيرَ ناظرين إلى ما طرقهم من أحداث ، وما حلّ بهم من ضرّ ، فلا يعالجونه بالجدّ والعمل ، ولا يلقونه بالأسباب العاملة فى دفعه ، أو تخفيف أثره ، منتظرين هذه القوى الخفية التى يلمحونها من وراء تلك الأضرحة أن تقوم عنهم بما كان يجب أن يقوموا هم به ، وأن تتولى عنهم ما كان ينبغى أن يتولوه هم بأنفسهم . .

ومن غير دخول أو تعرّض إلى ماتضمّ هذه الأضرحة من صلاحٍ وتقوى فيمن أودعوا فيها من عباد الله الصالحين .. ومن غير اعتراض أو تعرض لما لأولياء الله من كرامات فى الدنيا . ومن غير بحث أو جدل فيما قد يكون أو لايكون من اتصال كراماتهم فى حياتهم ، وبعد موتهم ـ فإن الذى يقضى به العقل ، وتوجيه سنن الحياة ، هو أن تعالج الأمور بأسبابها ، وأن يؤتى إليها من أبوابها ، وأن يلقاها الأحياء بواقع الحياة ، وألاّ يُسلموها إلى تلك الغيبيّات التى لايرون مجرياتها ، ولا يدرون ما تأتى وما تدع من أمور . .

هذا ما يقضى به العقل ، وما تفرضه سنن الحياة . . ! وهو عين ما يقضى به الإيمان بالله . . حيث أوجب الإيمان على المؤمنين أن يعملوا ، وأن يواجهوا الحياة بعقولهم ، وحواسّهم ، وقواهم العقلية والجسدية معاً ، وأن يتقبلوا بعد هذا

ما يعطيهم جهدهم من ثمر قليل أو كثير ، فإن أصابهم خير حمدوا الله وشكروا له ، وإن أصابهم ضرّ استعانوا الله بالصبر عليه ، والتمسوا العافية وكشف الضرّ منه .. !

هذا هو سبيل المؤمنين ، الذين يمتثلون أمر الله سبحانه بالعمل ، كما يقول سبحانه : « وقل اعملوا » ثم يسلمون أمورهم كلّها له سبحانه .. غير ناظرين إلى غيره ، أو طامعين فى غير فضلٍ من فضله أو رحمة من رحمته .. !

هذا وقد أشرنا إلى هذا فى مبحث خاص ، تحت عنوان : « الوسيلة والتوسل » فليرجع إليه من شاء [1] .

وفى قوله تعالى : « لبئس المولى ولبئس العشير » هو ذمٌّ لهؤلاء المعبودين لا من حيث ذواتهم وأشخاصهم ، وإنما من حيث العون الذى ينتظره العابدون منهم .. فهم لا يملكون لهم من الله شيئاً ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » (١٤ : فاطر) .. فالذمّ متجه إلى الثمرة المرجوّة من هؤلاء المعبودين .. إنها سراب ينخدع له أولئك الذين تتعلق أبصارهم به ، وتنعقد آمالهم عليه ..

والمولى : هو القريب ، والسيد .. الذى يرجى عونه ونصرته .

والعشير : المعاشر من أهل وأقارب ..

ويجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى المعبودين ، من أصنام أو أوناس يدعون الناس إلى عبادتهم ..

---

(١) انظر الكتاب الثالث من التفسير القرآنى للقرآن .

* قوله تعالى :

« إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى من تحتها لأنهار إن الله يفعل مايريد » .

هو صورة مقابلة للمشركين والكافرين ، وما حصلوه من التعبد لغير الله .. فقد كان جزاؤهم الخزى فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة ..

أما الذين تعبدوا لله ، وأعطوه ولاءهم ، ودانوا له بالطاعة ، وتقربوا إليه بالأعمال الصالحة ، فقد ربحوا ربحاً عظيما ، حيث أعزهم الله فى الدنيا ، وأنزلهم فى الآخرة منازل الرضوان ، فى جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار .

وفى قوله تعالى : « إن الله يفعل ما يريد » إشارة إلى سلطان الله وقدرته ومشيئته المطلقة ، وأنه يفعل ما يريد ، دون معترض أو معوق ، أو معقب .. وفى هذا تعريض بالآلهة التى يعبدها الضالون من دون الله ، حيث هى فى قيد العجز ، لا تملك ضرًّا ولا نفعاً ..

الآيات : (١٥ — ١٨)

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيدُه ما يغيظ » .

هذه الآية تعرض تجربة عملية ، تدعو إليها أولئك الذين يعبدون الله على حرفٍ فيؤمنون به إن أصابهم خير ، ويكفرون به إن مسهم ضر ..

وهذه التجربة وإن لم يمكن إجراؤها إجراء واقعياً ، فإنه يمكن أن تمثّل وتُتَصور تصوراً ..

وهو أن يمد الإنسان سبباً ، أى حَبْلاً إلى السماء وأن يتخـــذ من هذا الحبل سلّماً يصعد به إلى أعلى ، ويرق إلى منازل العزة والسيادة — فإن فعل هذا ، وحدثته نفسه أن هذا لا يحقق له شيئاً مما يريد ، فليقطع هذا الحبل ، ثم لينظر هل ينفعه كيده . . هذا فى قطع الحبل ؟ إنه قَطَع السبب الذى كان من الممكن أن يصعد به ، وإنه ليس من وسيلة إلى ذلك إلا بمثل هذا الحبل الممدود . . وأما وقد قطع الحبل ، فإنه سيهوى إلى الأرض ، ويسقط جثة هامدة لاصقاً بالأرض ، لا يبرحها أبداً ..

والصورة — كما قلنا — قائمة على التمثيل ، والتخييل ..

فالذى يؤمن بالله ، هو كمن مدّ حبلاً بينه وبين ربه ، وأمسك بالسبب الذى

يستطيع به أن ينال من الله ماوعده ، من عزة ونصر فى الدنيا ، وخير ونعيم كبير فى الآخرة ..

فإذا شك هذا المؤمن فى أن ينال من الله ما وعده ، وهو ممسك بهذا السبب الذى بينه وبين ربه ، فليقطع هذا السبب ، وليخل يده منه .. ثم لينظر ماذا يكون من أمره ؟ أنه سيجد نفسه قد سقط على هذا التراب ، ولصق به ، ثم لا يكون له بعد ذلك سبيل إلى أن يتحرك نحو هذا الخير القائم على طريق هذا السبب الممدود بينه وبين السماء ! . .

إن الإيمان بالله هو السبب — ولا سبب غيره — الذى يمكن أن ينال به الإنسان القربَ من ربه ، والتعرض لفضله وإحسانه .. فإذا قطع هذا السبب ، فقد قطع كل سبب يُدنيه من الله ، ويفتح له مغالق السعادة والرضوان ..

فإذا وقع لهذا المؤمن بالله ، ما تَضيق به نفسه من البلاء ، وما يظنّ به الظنون بربّه ، فليكفر بالله ، ثم لينظر ماذا يُجدى عليه كفره ؟ هل يكشف عنه البلاء الذى نزل ؟ وهل يدفع عنه الضرّ الذى وقع به ؟ إن يكن قد نفعه ذلك — وهذا محال — فليمسك بكفره ، وإلا فليمدّ إلىّ الإيمان ، وليشدّ يده عليه ، وإن أضرّه الضرّ ، وكربه الكرب . . إنه ممسك بحبل النجاة فى متلاطم الموج ، وإن من الضلال أن يقطع هذا الحبل مختاراً ، ففى ذلك ضلال مُحقق ، على حين أنه يكون فى معرض النجاة ما دام مُمسكاً بحبل النجاة !

قوله تعالى :

* « وكذلك أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وأن الله يهدى من يريد » .

الإشارة هنا إلى هذه الآية الكريمة ، وما فيهامن حجة قاطعة ، ومَثل واضح بيّن ، على أن طريق النجاة هو الإيمان بالله ، وأن هذا الإيمان هو حبل النجاة ،

فمن لم يمسك به فهو فى الهالكين ، ومن أمسك به ، ثم قطعه فهو فى الهالكين أيضاً .

والضمير فى « أنزلناه » يعود إلى القرآن الكريم ، وأن آياته كلّها آياتٌ بيّنات كهذه الآية البيّنة ، التى صورت الإيمانَ بالله هذا التصوير الواضح البين .

وفى قوله تعالى : « وأن الله يهدى من يريد » — إشارة إلى أن آيات الله مع وضوحها وبيانها ، لا يهتدى بها ، إلا من أراد الله له الهداية ، وفتح بُصره وقلبه إليها ، وأراه الهدى والنّور منها . . « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً » (١٧ : الكهف) .

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنّصارى والمجوسَ والذين أشركوا . . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . . إنّ الله على كل شىء شهيد » .

هذا بيان للناس جميعاً ، على اختلاف مُعتقدهم فى الله . . وهم :

الذين آمنوا إيماناً خالصاً بالله . وهم المؤمنون .

والذين هادوا . . وهم اليهود .

والصابئون . . وهم من أنكروا وجود الخالق أصلًا . .

والنصارى . . وهم الذين عبدوا المسيح من دون الله .

والمجوس . . وهم الذين عبدوا النّار ، تقرباً إلى الله ، كما عبد المشركون الأصنام ، تقرباً إلى الله .

— هؤلاء هم الناس جميعًا ، وهؤلاء جميعًا يفصل الله بينهم يوم القيامة ، ويميّزَ المهتدين من الضالين منهم ، ويجزى كُلاًّ بما كسب . . « إن الله على كل شىء شهيد » فهو — سبحانه — عالم بكل فريق منهم ، وبكل فرد من كل طائفة فيهم ، لا تخفى عليه خافية ، من كبير أعمالهم وصغيرها .

هذا ، ويلاحظ هنا :

أولاً : «أن الذين هادوا والصابئين ، والنصارى » ، والمجوس ، والذين أشركوا . . هؤلاء جميعًا ليسوا فى عداد المؤمنين بالله . . وذلك لما شاب إيمانهم من قليل أو كثير ، من الضلال والفساد . . ولهذا جاء ذكرُهم كأصناف أخرى ، خارجة عن صنف المؤمنين .

وثانياً : جاء نظم هذه الآية فى سورة المائدة هكذا :

« إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » (الآية : ٦٩) .

والناظر فى الآيتين يرى :

أولًا : أن الآية الأولى ـ آية الحج ـ لم تعتدَّ بإيمانٍ غير إيمان المؤمنين بالله . وأن الآية الثانية ـ آية المائدة ـ قد دَعَت المؤمنين وغير المؤمنين من هؤلاء الطوائف إلى الإيمان بالله والعمل الصالح ، وأن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . وذلك لأن الإيمان ـ لكى يكون إيماناً صحيحاً ـ لا بد أن يصحبه عمل ، فالإيمان بلا عمل ، كلا إيمان . . ومن هنا كان على المؤمنين لكى يدخلوا فى الحكم الذى قضت به الآية ، وهو قوله تعالى : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ـ كان عليهم أن يكملوا إيمانهم بالعمل الصالح ، فهم بغير العمل الصالح مؤمنون ، وغير مؤمنين !.

وثانياً : أن الآية الأولى ـ آية الحج ـ عطفت « الصابئين » عطف نسق على ما قبلها ، كما عطفت ما بعدها عطف نسقٍ عليها ، حيث دخل الجميع تحت حكم النصب بأداة النصب « إنّ » . . على خلاف ما جاء فى آية المائدة ، حيث انقطع « الصابئون » قبلهم ومن بعدهم . . فما السرّ فى هذا ؟

والسرّ ـ والله أعلم ـ أن آية المائدة تدعو المؤمنين وغير المؤمنين إلى

منزلة لا ينالها إلا من يحقق الأمرين معاً : الإيمان ، والعمل الصالح .

والمؤمنون . . مؤمنون ولا شبهة فى إيمانهم .

واليهود . . مؤمنون ، وفى إيمانهم شبهة ، وهى أنهم يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون باليوم الآخر .

والنصارى مؤمنون بالمسيح ابناً لله ، فهو إيمان مشبوه .

أما « الصابئون » فهم لا يعترفون بإله قائم على هذا الوجود ، بل هم دَهريّون ، أو طبيعيون .

ولهذا ، عُزِلوا عن هذه الطوائف الثلاث ، لأنهم أبعد الناس عن الإيمان ، ومع هذا فإن شأنهم شأن هؤلاء المؤمنين على اختلاف وضعهم من الإيمان ، وأنهم إذا آمنوا بالله وعملوا الصالحات ـ دخلوا فى هذا الحكم العام : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أما مَن ذُكروا فى آية الحجّ فهم على منزلة واحدة فى الحكم الذى يؤخذون به يوم القيامة ، وهو أن الله يفصل بينهم ، على الحال التى يكون عليها كل منهم ..

وثالثاً : لم تذكر آية المائدة ، المجوسَ ، ولا المشركين ، على حين ذكرتهم آية الحج . .

والسرّ فى هذا ـ والله أعلم ـ أن المجوس والذين أشركوا ، هم على صورة مشابهة لليهود والنصارى فى إيمانهم إيماناً مشوباً بالضلال . . فلم يُذكروا عند الدعوة إلى تصحيح إيمانهم ، لأن فساد إيمانهم أظهر من فساد إيمان اليهود والنصارى ، إذ كان مع اليهود والنصارى شبهة إيمان بالكتب السماوية التى معهم ، على حين لم يكن المجوس والمشركين شىء من هذا ، فهم مطالبون ـ من باب أولى ـ بتصحيح إيمانهم ، بصورة ألزم من مطالبة اليهود والنصارى

بتصحيح معتقدهم فى الله ، وإيمانهم به . . ففى ذكر اليهود والنصارى ذِكرٌ ضمنىٌّ — ومن باب أولى — المجوس والذين أشركوا .

أما فى موقف الفصل والحساب والجزاء ، فكل طائفة على منزلتها . . فكان لا بدّ من ذكر المؤمنين ، ومِن ذِكر مَن معهم شبهة من الإيمان ، وهم اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، ومن لا شبهة من إيمان معهم ، وهم الصابئة والمشركون . . وذلك حتى لا يقع فى وهم المجوس والذين أشركوا ، أنهم غير مأخوذين بهذا الحكم ، وأنهم ناجون من الحساب والجزاء . . ففى موقف الفصل والجزاء يأخذ كلٌّ مكانَه ، لا مع الطائفة التى ينتمى إليها وحسب ، بل سيأخذ مكانه الخاصّ به فى الطائفة التى هو منها

قوله تعالى :

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ وكثيرٌ منَ النَّاسِ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

فى هذه الآية تعريض بالكافرين والمشركين ، وغيرهم ، ممن لا يُعطون ولاءهم خالصًا لله . . فَعلى حين أن الوجود كلّه قائم على هذا الولاء المطلق الخالص لله — فإن كثيراً من الناس — والناس وحدهم فى عالمنا — يخرجون على هذا الولاء العام المطلق لله ، ويأبون أن يسجدوا له ، فإن سجدوا كان سجودهم لغير الله . . وهذا فوق أنه كفر بالله ، وجحود بآلائه ونعمه ، هو شرود وضلال عن الاتجاه العام ، الذى يتجه إليه الكون كلّه ، وسِباحة متحدية للتيار المادر الذى لا يغالب ، والذى لا يلبث أن يغرق فيه كلّ من سبح فى غير مجراه !

إن من فى السموات ومن فى الأرض ، من عوالم ومخلوقات كبيرة أو صغيرة ، عاقلة ، أو غير عاقلة ، حيّة أو جامدة .. كلها تسبّح بحمد الله ، وتنقاد لمشيئته ، وتخضع لأمره .. إلاّ هذا الصنف الشقىّ الضالّ من بنى الإنسان ! وإن هؤلاء الأشقياء ، لفى عُزْلَةٍ عن هذا الوجود ، بل وفى حربٍ معه .. إنهم أشبه بجماعة من الخارجين على نظام المجتمع والعابثين بحرماته ومقدّساته .. فالمجتمع كله حربٌ عليهم ، وإنهم لن يُفلِتوا من عقابه ! .

وتسبيح الكائنات بحمد الله ، هو فى جَرَيانها على سُنَن الله التى أقامها عليها .. فهى لا تخرج أبداً عن هذه السُّنَن ، ولا تُفْلِت من عِقْد الوجود الذى انتظمت فى سلكه ، وكانت حبّة من حبّاته .. « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُون ! » (٤٠ : يس) وفى هذا انقياد لله ، وولاء له ..

والإنسان وحده ـ فيما يظهر لنا ـ هو الذى منحه الله إرادة عاملة ، ومشيئة تسمح له بأن يختار الطريق الذى يرضاه ، دون قهر أو إلزام .. وليست كذلك الكائنات الأخرى ، التى لا تملك هذه الإرادة ، ولا تجد تلك المشيئة ، إنها مُسَخَّرَةٌ ، على حين أن الإنسان مخيّر ومريد .. إنها لا تملك من أمرها شيئاً ، على حين أن الإنسان هو سيد نفسه ، ومالك أمره .. وهذا تكريم من الله له ، إذ جعله سبحانه وتعالى على صورة أقرب إلى صورته ، فجعله مُريدًا ، عالمًا ، مختاراً .. كما يشير إلى ذلك الحديث : « خلق الله آدم على صورته » .

وهذا التكريم ، هو ابتلاء لآدم ، وهو الأمانة التى حَمَلها ، وأبت السموات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها .. وكان عليه أن يَثْبت لهذا الامتحان ، وأن يؤدى الأمانة التى حملها ، حتى يكون أهلاً لهذا التكريم ،

وإلاّ كان عليه أن يتحمل تبعة نكوصه وتخاذله ، وأن يتجرع مرارة هذا الإخفاق ، وأن يخلع ثوب الإنسانية ، ليعيش مَسْخاً قَزَماً ، مشوّه الخلق بين أبناء جنسه ، الذين اعتدل خلقهم ، وسلمت لهم فطرتهم ، وذلك هو الشقاء الأليم والعذاب المهين ..

— قوله تعالى : « وكثير من الناس » معطوف على قوله سبحانه : « يسجد له من السموات ومن فى الأرض » .. أى ويسجد له كثير من الناس ..

— وقوله تعالى : « وكثير حق عليه العذاب » هو استئناف ، أى وكثير من الناس لا يسجدون لله ، فحق عليهم العذاب .. أى وجب ولزم ..

وفى قوله تعالى : « عليه » بدلاً من « عليهم » إشارة إلى أن هذا الصنف من الناس الذى أبى السجود لله ، هو فى عداد غير العقلاء .. « أولئك كالأنعام بل هم أضلّ » (١٧٩ : الأعراف) فهم وإن كانوا أعداداً كثيرة ، أشبه بكيانٍ واحد يجمع كتلة متضخمة من الضلال والفساد ..

قوله تعالى : « ومن يُهِنِ الله فماله من مُكْرِم » ـ هو موجّه إلى تلك الجماعات التى شردت عن الحق ، وضلّت عن سواء السبيل ، وهى كلّ الطوائف غير المؤمنة التى أشار إليها سبحانه تعالى فى قوله : « وكثير حق عليه العذاب » .. فهؤلاء ممن أهانهم الله ، إذ لم يَدْعهم إليه ، ولم يُنْزلهم منازل رضوانه ، فشرَدُوا وضلّوا .. فالكفر بالله هو أمارة الإهانة من الله للكافر ، إذ لم يكن أهلاً لأن يُدْعَى إلى جناب الله ، مع مَن دُعوا إليه من عباده الذين آمنوا ، لِمَا اشتمل عليه كيانه من داء خبيث ، لا ينبغى له أن يخالطه الأصحّاء ومعه هذا المرض ، الذى يغتال إنسانيته ، ويفسد معالمها .

— وقوله تعالى : « إن الله يَفْعل ما يشاء » هو ردٌّ على سؤال أو تساؤل ،

قد يرد على لسان بعض الناس .. وهو : لماذا أهان الله هؤلاء الذين لم يؤمنوا به ؟ ولماذا لم يدعهم إلى الإيمان ، كما دعا المؤمنين وأراد لهم الإيمان ؟

فكان الجواب : « إن الله يفعل ما يشاء » ! فمن كان له حيلة فليحتل ، ومن كان له مع الله شيء فليأت به ! .. فلتخرس الألسنة إذن ، وليحمد المؤمنون الله أن هداهم إلى الإيمان ، وليدعُ الضالون ربهم أن يهديهم . . « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا » (١٧ : الكهف)

الآيات : (١٩ — ٢٥)

* « هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثيابٌ

من نارٍ يُصبّ من فوق رءوسهم الحميم * يُصْهَرُ به ما فى بطونهم والجلودُ * ولهم مقامع من حديدٍ * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . . » .

الخصمان : هما المؤمنون ، والكافرون على اختلاف ضلالاتهم . .

واختصامهم فى ربهم ، هو اختلافهم فيه . . فالمؤمنون على طريق إلى الله ، والمشركون والكافرون ومن على شاكلتهم ، على طرق شتى تختلف عن هذا الطريق . . فهذا الاختلاف ، هو أشبه بالخصام الذى يفرّق بين المتخاصمين . .

ثم بينت الآيات بعد هذا ، ما أعدّ الله لكل من هذين الخصمين المختصمين فى الله ، من عذاب ، أو نعيم .

— « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار » أى أنهم يلبسون النار ، أو تلبسهم النار ، فيكونون كياناً واحداً معها ، بحيث تشتمل على الجسد كلّه ، وتغطيه ، كما يُغطى بالثوب !

ثم مازال هناك شىء من الجسد لاتغطيه الثياب ، وهو الرأس ، الذى يغطى بالعمائم ، والتيجان ، ونحو هذا . .

وإذن فلتتوج رءوسهم ، ولكن بتيجان من نار ، وبعمائم من جهنم .

— « يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم » ، وهو الماء الذى يَغْلى . فيشوى وجوههم ثم يتخلل تلك الثياب ، فيصهر مافى بطونهم من أمعاء ، وأكباد ، وقلوب ، وغيرها مما تحويه البطون . . كما يَصْهر الجلود ، ويذيبها فتكون كتلة مذابة مع اللحم والعظم . .

وليس هذا فحسب . . بل إن لهم طرائف يُطرَفون بها ، كما كانوا

يطرقون فى الدنيا بألوان النعيم الذى شغلهم عن الله .. فهناك « مقامع » أى مطارق من حديد .. لعلها تعمل تلقائيا من نفسها .. كلما أرادوا أن يخرجوا من ثيابهم النارية تلك ، أخذوا بهذه المقامع ، فرُدُّوا فيها .. وقيل لهم اخسئوا ، وذوقوا عذاب الحريق..

وهذه الصور من ألوان العذاب ، هو مما يتصوره الناس فى الدنيا ، بل ومما يأخذون به بعضهم بعضاً .. فكم من صور هذا العذاب الجهنمىّ استخدمه الجبابرة والظلمة فى تعذيب من يخرج على سلطانهم ، ويتحدّى تسلطهم وجبروتهم ..

فهذا العذاب الدنيوى يجده المجرمون يوم القيامة حاضراً عتيداً ، فيما يجدون من صور شتى من عذاب الآخرة ، وذلك ليذوقوا ما أذاقوه للناس فى دنياهم ، وليُسقَوْا بكأس كانوا يجدون اللذة فى أن يتجرع الناسُ مرارتها ، سواء أكان عذاب الآخرة حسياً أو معنويا ، جسديا أو نفسيا ، وليست هذه الصور الحسيّة التى ذكرها القرآن لعذاب الآخرة ، من ثياب من نار ، ومن مقامع من حديد ، ومن سلاسل وأغلال ، ليست بالتى تتنافى مع العذاب النفسى، فما أكثر ما تتجسد صور العذاب فى النفس ، ويجد الإنسان الآلام النفسية وقعاً مثل مايجده من الآلام الجسدية .. وأقرب مثل لهذا ما يقع للإنسان فى حال النوم من رؤًى وأحلام مزعجة ، أو مسعدة . . إنه يعيش فيها بكيانه كله ، جسداً وروحاً،وإن كان الواقع أن الروح هى التى تتلقى هذه الرؤى وتلك الأحلام ، وتتعامل بها ، وهى فى انطلاقها بعيداً أو قريباً من الجسد . .

قوله تعالى :

* « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّاتٍ تجرى من تحتها

الأنهارُ يحلّوْن فيها من أساوِرَ من ذَهَبٍ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حريرٌ » .

فى ذكر الله سبحانه وتعالى هنا ، هذا الذكر المؤكد ، تكريم للمؤمنين ، واحتفاء بهم ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى إدخالهم الجنة ، ولا يدع هذا للملائكته .. مبالغةً فى تكريمهم ، فضلاً منه ، وكرماً ، ورحمة . . « إن الله يدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار » . .

فإذا أدخلهم الله سبحانه وتعالى الجنة ، حُلُّوا فيها بأساور من ذهب ، ولؤلؤاً ، فى مواضع شتّى ، من أجسامهم ، كأن يكون لهم من اللؤلؤ قلائد ، أو تيجانٌ ، ونحو هذا ، هذا إلى ما يلبسون من ملابس رقيقة ، من حرير . .

وهذه الحلىّ ، وتلك الملابس ، هى مما كان يشتهيه المؤمنون فى الدنيا ، وقد فاتهم أن ينالوه فيها . فكان مما ينعمون به فى الجنة أن ينالوا ما كانت نفوسهم متطلعة إليه .. فهو غائب ينتظرهم .. وليس هذا كل ما يلبسون ، أو يتزينون .. بل هناك مالا حصر له من ألوان الملابس والزينة ، مما لم يخطر على قلب بشر . . فهذه الألوان من صنوف الطعام والشراب ، والملابس ، والأنهار ، والظلال ، والقصور وغيرها ، مما جاء ذكره فى القرآن ، مما يلقاه أهل الجنة ـ هو مما كانوا يطلبونه فى الدنيا ، ولا يأخذون حظهم منه ، أو ينالون منه شيئاً . . وكان من تمام الإحسان إليهم ، أن يعرض عليهم كل هذا فى صورته الكاملة ، كما لا مطلقاً . .

قوله تعالى :

* « وَهُدُوا إلى الطيب من القول وَهُدُوا إلى صراط الحميد » .

أى أنهم كما طاب وحسن ظاهرهم ، طاب وحسن كذلك باطنهم . .

فلا ينطقون لغواً ، ولا يسمعون لغواً . . « تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين » . .

والصراط الحميد ، هو صراط الله . . وقد هُدُوا إلى أن يحمدوه حمداً دائماً متصلا ، لأنه هو سبحانه المستأهل للحمد ، ولأن نعمه التى أفاضها عليهم تستوجب منهم أن يلزموا هذا الصراط ، ولا يحيدوا عنه لحظة . .

قوله تعالى :

* « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجدِ الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِ ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذقه من عذاب أليم » .

خبر إن محذوف دل عليه قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . . أى أن هؤلاء الذين كفروا ، ولم يقفوا عند كفرهم ، بل وقفوا للناس بالمرصادِ ، يصدونهم عن سبيل الله ، ويحولون بينهم وبين الاتصال بالمسجد الحرام ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وجعل فيه للبادين ــ وهم أهل البادية ــ مثلَ ما للعاكفين ــ وهم المقيمون من أهل مكة ــ من حقٍّ فى الاتصال بهذا البيت ، والطواف به ، والصلاة فيه . .

هؤلاء الذين كفروا ، ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام . . هم أشنع الناس جُرْماً ، وأغلظهم إثماً . . إنهم ليسوا كافرين وحسب ، بل إنهم أضافوا إلى كفرهم الوقوفَ فى وجه للتجهين إلى الله ، وإلى بيت الله ــ هؤلاء لهم عذاب مضاعف ، فوق عذاب الكافرين . . أما هذا العذاب فقد عرفوا بعضاً منه ، وهو ما أُعد للكافرين ، كما بيّنه سبحانه وتعالى فى قوله : « فالذين كفروا قطعت لهم ثيابٌ من نار يُصَب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به مافى بطونهم

والجلودُ ولهم مقامع من حديد . . » . . فهم أولاً مأخوذون بهذا العذاب الذى يؤخذ به الكافرون . . أما ما فوق هذا ، فعلمه عند الله . . وهو شىء فوق المدارك والتصورات .

وفى قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم » جاء فيه الفعل : « يُردْ » متضمنا معنى « يسعى » . ولهذا عُدّى بحرف الجرّ فى ، وهذا التضمين للدلالة على أن الإرادة هنا لا يقع عليها هذا الوعيد ، حتى تكون عملاً وسعيا .

الآيات : (٢٦ — ٣٣)

* « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) »

التفسير :

[مناسك الحج . : ومشاهد القيامة]

قوله تعالى :

* « وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بِى شيئاً وطهرْ بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » .

بوأنا : أى هيأنا ، وأعددنا . . وأصل البوء الرجوع إلى المنزل ، والسّكن إليه . .

— وقوله تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » أى هيّأناه له ، وأعددناه . . وقد عُدِّى الفعل باللام ، لأنه تضمن معنى الإعداد ، والتمكن . . والأصل فى الفعل أنه يتعدّى بنفسه لمفعولين . . تقول : بوأتك المنزل ، بمعنى أسكنتك إياه .

— وفى قوله تعالى : « مكانَ البيت » إشارة إلى أن الإعداد كان المكان لا للبناء الذى أقيم على المكان ، وهو البيت . . وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى قد أعدّ هذا المكان ، وهيأه ، وأضفى عليه ، ما شاء سبحانه ؛ من البركة والرحمة . . أما البناء ، فقد أقامه إبراهيم ، ومعه إسماعيل على هذا المكان المبارك . .

فالبركة أصلا فى المكان . . ثم شملت البناء الذى أقيم عليه وهو البيت فصار البيت مباركا فى المكان المبارك .

— وقوله تعالى : « أن لاتشرك بى شيئاً » . .المصدر المؤول متعلق بمحذوف ، تقديره : وأمرناه ، أو قلنا له . . أن لا تشرك بى شيئاً » . . فإن هذا المكان الطاهر المبارك ، لا ينزله إلا طاهر مبارك ، مبرأ من الشرك ..

— وقوله تعالى : « وطهّر بيتى للطائفين والقائمين والرُّكّع السجود » .. أى

وطهره من الشرك ، واجعله خالصاً لله ، ولعباده المؤمنين به ، الذين يجيئون إلى بيته طائفين ، قائمين ، راكعين ، ساجدين . .

— وفى قوله تعالى : « والقائمين والركع السجود » إشارة إلى أن هذا البيت سيكون لتلك الأمة الإسلامية ، التى سيكون السجود مَعلماً من معالم صلاتها ، وحدها دون غيرها من أصحاب الديانات السماوية كاليهود والنصارى ، ولهذا كانت سِمة المسلمين التى يُعرفون بها بين الأمم ، هى هذا الأثر الذى يتركه السجود فى الجبهة ، وقد وُصفوا بهذا الوصف فى التوراة كما يقول سبحانه وتعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مَثَلهم فى التوراة » . (٢٩ : الفتح)

وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة ، وإحسانه إليها ، إذ أعدّ لها هذا البيت قبل أن يُبعث فيها رسول الله ، ويجىء إليها برسالة الإسلام . . وفضلاً عن هذا ، فإن إعداد إبراهيم لهذا البيت ، وإقامته بيده ، يقابله من جهة أخرى إعداده لرسالة الإسلام ، إذ كان هو أبا الأنبياء ، وكانت رسالةُ من أرسلوا من ذريته ، كموسى وعيسى أشبه بتلك اللبنات التى رفع بها إبراهيم القواعد من البيت ، فلما جاء الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ برسالة الإسلام ، كمُل البناء ، وأصبح البيت مهيأ لاستقبال « القائمين والرُّكع السجودِ » . .

قوله تعالى :

* « وَأَذِّن فى الناس بالحجّ يأتوكَ رجالا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميقٍ » .

الأذان : الإعلام ، ورفع الصوت بالأمر المراد الإعلام به . .

والرّجال : المُشاة ، الذين ينتقلون على أرجلهم . . . جمع راجل أو رَجْل ، يطلق على الذكر والأنثى .

والضامر : النحيف ، الذى خَفّ لحمه من الجهد والتعب . .

والفج العميق : الطريق الطويل بين مرتفعين . .

والمعنى أن الله سبحانه ، أمر إبراهيم ـ بعد أن أقام البيت ـ أن يؤذن فى الناس ، ويدعوهم إلى الحج إلى هذا البيت . . فإنه إن فعل ، وَجَد الآذان التى تسمع هذا النداء وتستجيب له ، وإذا الناس من كل مكان قريب وبعيد ، قد جاءوا لحج هذا البيت ـ يجيئون إليه ماشين على أقدامهم ، كما يجيئون إليه راكبين من جهات بعيدة ، فتهزل مطاياهم من طول السفر ، وقلة الزّاد ، ويصيبها الضمور ، وخفة اللحم .

ـــ وفى قوله تعالى : « يأتين من كل فج عميق » بنون النّسْوة، لغير العاقل من الإبل والدوابّ ونحوها التى يعود إليها هذا الضمير ـ فى هذا ما يشير إلى بُعد الشقة التى جاءت منها هذه الدواب براكبيها ، وأنها قطعت طرقاً طويلة موحشة ، لا أنيس فيها ، فكانت هى وراكبوها كياناً واحداً طوال هذه الرحلة ، حيث تقتسم معهم طعامهم وشرابهم ، وتستمع إلى أحاديثهم وحُدائهم . .

فاكتسبت بهذا من مشاعر الألفة والأنس ، ما جعلها أقرب شىء إلى الإنسان منها إلى الحيوان ، حيث أنِس الإنسان بها ، كما يأنس برفيق سفره ! فحقّ لها ـ والأمر كذلك ـ أن تُخاطب خطاب العقلاء . .

قوله تعالى :

* « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارَزَقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعِموا البائس الفقير » .

اختُلف فى عدد الأيام المعلومات تلك .. فهى معلومات الزمان ، مجهولة العدد ..

فقيل ، هى الأيام العشرة الأولى من ذى الحجة ، ويؤيد هذا ماروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أيّام أعظم عند الله ولا أحبّ إليه العملُ فيهن من هذه الأيام ، فأكثروا فيهن التهليل والتكبير والتحميد » . . وعلى هذا فسّرَ بعضُ الصحابة الليالى العشر فى قوله تعالى : « والفجر وليالٍ عشر » بأنها هى تلك الأيام العشر . . وقيل إن الأيام المعلومات، هى يوم النحر وثلاثة أيام بعده .. وقيل يوم النحر ، ويومان من بعده .. وقيل يوم عرفة ، ويوم النحر ، ويوم آخر بعده .

ولام التعليل فى قوله تعالى : «ليشهدوا منافع لهم . . » متعلق بقوله تعالى فى الآية السابقة : « يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر » . . أى يأتى الحجيج إلى هذا البيت ليشهدوا منافع لهم ..

والمنافع التى يشهدها الوافدون إلى بيت الله الحرام، كثيرة ، متنوعة ، تختلف حظوظ الناس منها . .

فهناك منافع روحية تَفيض من جلال المكان وروعته وبركته ، على كلّ من يطوف بحماه ، وينزل ساحته ، وذلك بما يغشى الروح من هذا الحشر العظيم الذى حُشر فيه الناس ، على هيئة واحدة ، فى ملابس الإحرام ، مجرّدين من متاع الدنيا ، وما لبسوا فيها من جاه ، وسلطان . . إنهم هنا فى هذا الموطن الكريم على صورة سواء ، فيما يأتون من أعمال الحج من ، سعى ، وطواف ، ووقوف بعرفة ، ورمى للجمرات . . ومن تلبية ، وتضرع ، وتعبّد لله ربّ العالمين .. إنهم فى مشهد أشبه بمشهد الحشر يوم القيامة .. حيث تعنو الوجوه للحىّ القيوم ، وحيث تخشع الأصوات لجلاله وقيومته . . ولعلّ هذا

بعض السرّ فى مجىء آيات الحج فى هذه السّورة التى بدئت بهذا العرض المثير لأهوال القيامة ومفازعها : « يٰأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » . . فما أقرب الشبه بين موكب الحجيج ، وبين الحشر فى هذا اليوم العظيم . .

إن الحجّ نفسَه ، هو صورة مصغرة للحياة الآخرة ، التى تبدأ من الموت ، ثم البعث ، والحشر ، والحساب ، والجزاء .

ولقد أحسن الإمام النسفى ، رضى الله عنه ، فى تصوير هذه الفريضة ، وفى عَقْد الشّبه بينها وبين الحياة الآخرة .

يقول ـ رضى الله عنه ـ : « فالحاج إذا دخل البادية ، لا يتكل فيها إلا على عَتَاده ، ولا يأ كل إلا من زاده ، فكذا المرء إذا خرج من شاطىء الحياة ، وركب بحر الوفاة، لاينفع وَحْدَتَه إلا ما سعى فى معاشه لمعاده ، ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده .

« وَغَسْلُ مَنْ يُحْرِم ، وتأهبُه ، ولُبْسُه غيرَ المَخيط ، وتَطَيّبه ـ مرآةٌ لما سيأتى عليه ، من وضعه على سريره ، لغُسله وتجهيزه ، مطيباً بالحَنُوط ، ملففا فى كفن غير مَخيط ! .

« ثم المُحرمُ ، يكون أشعثَ حيران . . فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان .

« ووقوف الحجيج بعرفات ، آملين ، رَغَبًا وَرَهَبًا ، سائلين خوفاً وطمعاً ، وهم من بين مقبول ومخذول ـ كوقف العَرَصَات ، لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإِذْنِهِ ، فمنهم شَقِىٌّ وَسَعِيد . .

« والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء ، هو الشَّوْق لفصل القضاء !

« ومِنَى ، هو موقف المُنَى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين . .

« وحَلْق الرأسِ والتنظيف ، كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف .

والبيت الحرام ، الذى من دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال ، أنموذج لدار السلام ، التى هى من نزلها بقى سالماً من الفَنَاء والزوال . . . »

وهناك منافع عقلية ، ومادية يحصلها الحجاج عن قصدٍ وغير قصدٍ ، حيث يلتقى بعضهم ببعض وينظر بعضهم فى أحوال بعض ، وفى البلاد التى جاءوا منها ، وما فى هذه البلاد من صور الحياة ، وأعمال النّاس ، وثمرات أفكارهم وأيديهم ، وذلك فيما حملوه معهم من آثار الحياة عندهم ، وما كان لهم من جديد ومستحدث . . وبهذا يتبادلون المعرفة ، كما يتبادلون السِّلع بينهم ، بيعاً وشراء ، ، أو يتهادونها ، مودة وإخاء .

— قوله تعالى : « ويذكروا الله فى أيام معلومات » . . الأيام المعلومات هى أيام الحج ، التى تتم فيها أعمال هذه الفريضة . . وهى فى أرجح الأقوال عشرة الأيام الأولى من ذى الحجة .

والذكر المراد هنا هو هذا الذكر الخاص ، الذى يكون فى أعمال الحج . . فكل عمل من أعمال الحج هو ذكرٌ لله . . فالإحرامُ ذكر ، والطواف بالبيت الحرام ذِكر ، واستلام الحجر الأسود ذِكر . . والسعى بين الصفا والمروة ذِكر . . والوقوف بعرفة ذِكر ، ورمى الجمرات ذِكر . . وحركات الحاج وسكناته فى أيام الحجّ كلّها ذِكر . . حيث يلهَج الحجيج دائماً بالتلبية ، والتكبير . .

— وقوله تعالى : « على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » هو متعلق بمحذوف دلّ عليه قوله تعالى : « ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » والتقدير ويذكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . .

هذا ، ويكاد إجماع المفسِّرين ينعقد على أن قوله تعالى : « على ما رزقهم من بهيمة » متعلق بقوله تعالى : « ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » . . وعلى أن ذكر اسم الله فى هذه الأيام المعلومات واقعٌ على « ما رزقهم من بهيمة الأنعام » وهى الهَدْى المُساق إلى بيت الله ، بمعنى أنهم يذكرون اسم الله عند نحر ما يقدّمون من هَدْى . .

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن قيد ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام فى تلك الأيام المعلومات غير مقبول ، وذلك من أكثر وجه :

فأولًا : ذِكر اسم الله على بهيمة الأنعام لا تختصّ به أنعام الهَدْى وحدها ، بل هو أمر واجب فى كل ما يُذبح من حيوان للأكل ، سواء ما كان منه هَدْيًا أو غير هَدْى ، وأنه لا يحلّ أكل حيوان ذُبح من غير أن يذكر اسم الله عليه ، وهذا صريح فى قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . . وإنه لفسق » . . (١٢١ : الأنعام) وفى قوله سبحانه : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » (١١٨ : الأنعام) . . فقد جاء النهى فى الآية الأولى صريحًا قاطعًا ، كما جاء الأمر بالأكل فى الآية الثانية : « مما ذكر اسم الله عليه » متضمنًا النهى ـ بمفهوم المخالفة ـ عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه .

وعلى هذا ، يكون تخصيص ذكر اسم الله فى الأيام المعلومات ، وقصره على بهيمة الأنعام ـ لا محلّ له ، إذ لا جديد فيه ، الأمر الذى يجعل الآية معطلة عن إعطاء معنًى يستفاد منها . وذلك مما تنزّهت عنه آيات الله وكلماته . وفى هذا يقول ابن حزم فى كتابه « المُحلَّى » ردًّا على من يقول بأنه لا يجوز أن يضحّى ليلًا ، محتجًا بقوله تعالى : « ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من

بهيمة » . . وبأن الله تعالى ذَكَرَ الأيامَ ولم يذكر الليالى . . يقول ابن حزم فى معرض الرد على هذا :

« لأن الله تعالى لم يذكر فى هذه الآية ذبحاً ، ولا تضحية ، ولا نحراً ، لا فى نهار ، ولا فى ليل ، وإنما أمر الله تعالى بذكره فى تلك الأيام المعلومات .. أفتُرى يحرم ذكره فى لياليهن ؟ إن هذا لعجب ! [1] .

وحقٌّ لابن حزم ـ رضى الله عنه ـ أن يعجب ، ويعجب ! .

وثانياً : جاء فى آية أخرى بعد هذه الآية ، أمرٌ خاص بذكر اسم الله على بهيمة الأنعام هذه ، التى تُساق هَدْياً للبيت الحرام ، وذلك فى قوله تعالى : « والبُدْنَ جَعَلْنَاها لكم من شعائر الله . . لكم فيها خير . . فاذكروا اسم الله عليها صَوَافَّ . . فإذا وجَبَتْ جنوبُها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ » (الآية : ٣٦) .

وهذا الأمر الخاص بذكر اسم الله على أنعام الهدى عند ذبحها ، هو تنويه بهذه الذبائح ، وإشعار بأنها قربان لله ، وأنها شعيرة من شعائر الله ، وعمل من أعمال الحج ، وأنها ليست لمجرد الأكل ، وإنما هى للبرّ والإحسان إلى الفقراء ، حيث يطعمون من لحومها ، ويشاركون أصحابها فى الأكل منها . .

فليس الأمر بذكر اسم الله على هذه الأنعام عند نحرها ، هو إنشاء لهذا الأمر ، بل هو توكيد للأمر العام بذكر الله على ما يذبح ، وأن ذكر الله هنا ينشىء شعوراً خاصاً بأن هذه الأضاحى ليست ملكا خاصاً لأصحابها ، وإنما هى قسمة بينهم وبين الفقراء ! .

---

(١) المحلى : الجزء السابع ص ٤٤٦ .

وثالثاً : قَصْر ذكر اسم الله فى الأيام المعلومات ، على بهيمة الأنعام (الهدى) قد أوقع المفسرين والفقهاء فى خلافٍ شديد ، فى تحديد الميقات الذى تُذبح فيه الأضاحى . . وهل تذبح يوم النحر ، أو فى الثلاثة الأيام المكملة ليوم النحر ، أو لآخر يوم من ذى الحجة ؟ فى كل هذا آراء . .

ذلك . . أن ذكر اسم الله فى أيام معلوماتٍ ، قد أفسح للمفسرين والفقهاء مجال النظر فى هذه الأيام ، التى تذبح فيها الأضاحى . . إنها أيام ، وليست يوماً . . وإذن فقد لزم الاجتهاد فى تحرّى الوقت المناسب من هذه الأيام لذبحها . . وقد كان ! !

ففى رأى أبى يوسف ومحمد ـ صاحبى أبى حنيفة ـ أنها أيام النحر ، وعدّتها ثلاثة أيام . . يوم العيد ، ويومان بعده . .

وعن الشافعى ، والحسن وعطاء ، أنها أربعة أيام ، يوم العيد ، وثلاثة أيام بعده . .

وعند ابن سيرين ، يوم واحد ، هو يوم النحر .

وعند أبى سلمة ، وسليمان بن يسار ، أنها إلى هلال المحرم . . !

فأى يوم من تلك الأيام يُنحر فيه الهدى ، هو مُجزٍ فى حدود هذه المقولات .

وهذا كلّه ـ فيما نرى ـ مخالف لقوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر » حيث قرن الأمر النحر بالصلاة ، التى هى صلاة العيد ، لا مطلق الصّلاة . . حيث يتحلل الحجيج من إحرامهم ، وحيث يختمون أعمال الحجّ بهذا القربان ، وحيث ينالون شيئاً من حظوظ الدنيا بهذا الطعام من اللّحم فى هذا اليوم ، وحيث يشتركون جميعاً فى هذه المائدة التى دعاهم الله إليها ،

وهم فى ضيافة بيته المحرّم . . وهذا مما لا يمكن تحصيله إذا وقع الذبح بعد هذا اليوم ، حيث يتفرق الحجيج ، ويأخذ كل طريقه إلى العودة من حيث أتى . . ثم من جهة أخرى نرى أعمال الحج كلها تجرى فى صورة جماعية . . وليس هناك من حكمة ظاهرة فى إفراد الهَدى بهذا التحلل من قيد الجماعية فى الوقت الذى يذبح فيه !

هذا ، وربّما فهم بعضهم من قوله تعالى : « ليذكروا اسم الله » على أن « اسم الله » لا يُذكر إلا عند الذبح ، أما الذكر بمعناه المطلق ، فهو ذكر الله مثل قوله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً » (٢٠٠ : البقرة) وقوله تعالى : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (١٠ : الجمعة) وقوله سبحانه : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (٣٥ : الأحزاب) . . فحيث أريد ذكر الله ، أى تَسْبيحُه وحمده لم تُقرن به به كلمة « اسم » على حين أن كلمة « اسم » قد جاءت مع لفظ الجلالة عند إرادة تزكية الحيوان وذبحه ، كما فى قوله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » (١١٨ - ١١٩ : الأنعام) وقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » (١٢١ : الأنعام) .

نقول : لعل هذا هو الذى جعل أكثر المفسّرين والفقهاء يخصصون ذكر اسم الله فى آية الحج بالذكر على بهيمة الأنعام عند الذبح .

ونقول : إن اقتران كلمة « اسم » بلفظ الجلالة هكذا : « اسم الله » لا ينهض دليلًا على اختصاص ذكر اسم الله بذبح الحيوان . . فقد جاء فى آيات أخرى ، الدعوةُ إلى ذكر الله ، مقترنة بلفظ « اسم » كما فى قوله تعالى :

« سبّح اسم ربك الأعلى » (١ : الأعلى) وقوله سبحانه : « قد أفلح من تزكّى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فَصَلّى » (١٤ ـ ١٥ : الأعلى) وقوله جل شأنه : « فسبِّحْ باسم ربك العظيم » (٥٢ : الحاقة) .

وعلى هذا ، فإن المراد ـ والله أعلم ـ من ذكر اسم الله فى الأيام المعلومات ، هو ذكره ذكراً عاماً مطلقاً بكل اسم من أسمائه جلّ وعلا . . ثم ذكرُ اسمه ذكراً خاصًا على بهيمة الأنعام عند ذبحها .

وشبهة أخرى ربما وردت على تفكير بعض المفسِّرين الذين خصصوا ذكر اسم الله فى الأيام المعلومات ، وقصروه على بهيمة الأنعام المسوقة هَدْياً للبيت الحرام . . وتلك الشبهة هى تعدّى فعل الذكر بحرفِ الجرّ « على » فى قوله تعالى : « ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . . فإن تعدّى هذا الفعل بحرف الاستعلاء « على » قد يكون قرينة عندهم على أن ذكر اسم الله هنا إنما يقع على بهيمة الأنعام ، ولو كان ذكراً عاماً لما تعدّى الفعل بحرف الجرّ هذا ، الذى يشير إشارة واضحة إلى الشىء المراد ذكر اسم الله عليه .

وجوابنا على هذا ، أن تعدية فعل الذكر بحرف الجرّ « على » لا يقضى بأن يكون الحرف للاستعلاء ، وأن يكون الاستعلاء واقعًا على بهيمة الأنعام ، وإنما الذى يقتضيه المقام هنا ، هو أن يكون حرف « الجرّ » للسببية لا للاستعلاء ، كما فى قوله تعالى : « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم » (١٨٥ : البقرة) أى بسبب هدايته لكم ، وتوجيه قلوبكم وعقولكم إلى الإيمان به . .

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » أى يذكروا اسم الله بسبب ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وذللها لهم ، وأحلّ لهم لحومها .

وعلى هذا ، فإن الرأى ـ والله أعلم ـ أن يتعلق قوله تعالى « على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » بفعل يدلّ عليه الفعل السابق ، ويكون النظم القرآنى هكذا : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات (ويذكروه) على بهيمة الأنعام » . . هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى :

* « ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » .

هو تعقيب على ما جاء فى قوله تعالى فى الآية السابقة : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . . فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

والمعنى : أنه بعد هذه الأعمال التى تتم بها فريضة الحج ، يعود الحجيج إلى أنفسهم ، لينظروا فى شئونهم الخاصة التى أهملوها فى أيام الحج ، ولم يلتفتوا إليها ، حيث استغرقهم الاتجاه الخالص إلى الله

وأول ما ينظرون فيه ، هو قصّ شعورهم ، وتقليم أظافرهم ، وهذا أول مدخل يدخلون به إلى الدنيا ، بعد أن خرجوا منها منذ أول لحظة دخلوا بها فى ملابس الإحرام . . وهذا ما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى : « ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ » .

والتفث : ما يَعْلَق بالإنسان من قَذَر يتأذّى به ، ويطلب الخلاص منه .

وهو بهذا المعنى أشبه بالرفث . . وهذا يعنى أنه حاجة من حاجِ الإنسان ، ومن مطالبه الجسديّة . . سواء أكان ذلك بدفعها ، أو بجلبها . .

وفى قوله تعالى : « ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ » إشارة معجزة إلى أن هذه الأمور وأمثالها ، وإن كانت من حاجات الإنسان ، فإنها ليست من صميم مطالبه التى ينبغى أن تكون فى الاعتبار الأول عنده ، مما يتصل بحاجات العقل والروح ،

ومما يكسو الإنسانَ من معانى الإنسانية ما هو خليق به ، وبالكمال الذى ينبغى أن يقيم وجهه دائماً عليه . .

إنه لابأس من أن يأخذ الإنسانُ حظه من مطالب الجسد ، فيتجمل فى مظهره ، ويسوّى من صورته ، ولكن على ألا يشغله ذلك عمّا هو أولى ، وأكرم . وهو تجمّل الباطن وتسويته على أكمل صورة وأحسنها، علماً ، وخلقاً . . فذلك هو الإنسان الذى يريده الإسلام . .

إنه يريده حَسَنَ الظاهر والباطن ، جميلَ المظهر والمخبر ، نظيفَ الإناء وما يحتويه الإناء . . !

وقوله تعالى : « وليوفوا نذورهم » . . أى ليؤدوا لله ما كانوا قد نَذَرُوه ، تقرباً إليه ، من ذبائح ، وصدقاتٍ وغيرها . . وإن خير وقت للوفاء بهذه النذور هو فى هذا الوقت ، وفى هذا الموطن . . بل إن هذا يكاد يكون أمراً لازماً هنا ، حيث سَبَق آخرَ عمل من أعمال الحج ، وهو الطواف بالبيت العتيق ، طواف الوداع . . كما يقول سبحانه بعد ذلك : « وليطوّفوا بالبيت العتيق » . . فبالوفاء بالنذور ، وبالطواف بالبيت ، تختم أعمال الحج . . وكما كان أولُ أعمال الحج ، هو لقاء البيت العتيق والطواف به طواف تسليم ، يكون آخر عمل من أعمال الحج ، هو الطواف بالبيت ، طواف وداع واستئذان وشكر ، لما لقى فى رحاب هذا البيت من ألطاف الله ، وأفضاله ، وما تلقى من آلائه ونعمائه . .

ووصف البيت بالعِتق ، لأنه أول بيت لله وضع للناس على الأرض . . فالعِتق هنا من العتاقة ، وهى القِدَم ، الذى هو صفة من صفات الله . . فإذا كان القِدَم فى مقام الفضل والإحسان ، فهو تقدّم فى الدرجة ، وسبق فى الإحسان . . وبهذا يكون أهلاً لأن يأخذ مكان الإمامة على غيره . . وقد استحق المؤمنون السابقون من المهاجرين والأنصار أن يكونوا وجهَ الإسلام ،

وقدوة المسلمين ، وأن يكونوا أقربَ عباد الله إلى الله كما يقول سبحانه : « والسابقون السابقون * أولئك المقرَّبون * فى جنَّات النعيم * ثُلَّةٌ من الأولين * وقليل من الآخِرين * على سُرُر موضونة * متكئين عليها متقابلين » (١٠ ـ ١٦ : الواقعة) .

ووصفت الخيل الكريمة بالعتق والعتاقة ، فيقال خيل عتاق ، لأنها تسبق غيرها من الخيل ، ووصف الرقيق الذى تحرر من الرق بأنه عتيق ، لأن سبق الأرقاء الذين لم يتحرروا .. إلى التحرر . .

وفى التعبير عن الطواف « بالتطوّف » إشارة إلى الإكثار منه ، وأنه أكثر من طوافٍ واحد . . فالفعل « تطوّف » أكثر حروفاً من « طاف » !

قوله تعالى :

* « ذلك ومن يُعظّم حُرُماتِ الله فَهُوَ خيرٌ له عِنْد ربه وَأُحِلت لكم الأنعام إلا ما يُتْلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قولَ الزور » .

« ذلك » إشارة إلى ما جاءت به الآيات السابقة من أحكام . . أى ذلك الذى جاءت به الآيات السابقة قد علمتموه . . وأمر آخر ، يجب أن تعلموه وتعملوا به ، وهو أن « من يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

وتعظيم حرمات ، الله هو الالتفات إليها ، وتقديرها قدرها ، فى غير استخفافٍ بها . . فهى أمر عظيم .. من استخفّ بها هلك ، ومن لم يأخذ حِذره منها هَوَى وسقط .. وكان من الضالين ..

وقوله تعالى : « وَأُحلَّت لكم الأنعام إلا ما يُتْلى عليكم » ـ هو تطبيق عملىّ لحرمات الله .. فهناك من بهيمة الأنعام ، ما أحله الله ، وهناك ما حرّمه

منها .. وهذا المحرّم هو من حرماتِ الله الواجب تعظيمها ، وتوقى الاستخفاف بها ، والدنوّ منها ..

وما يُتلى ، هو ما ذكر فى كتاب الله من البهائم المحرمة ، وهى التى جاءت فى قوله تعالى : « حُرِّمت عليكم الميتة والدّم ولحمُ الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكيتم وماذُبح على النُّصب وأن تستقسموا بالأزلام .. ذلكم فسق » (٣ : المائدة) . وهذا يعنى أن هذه الآية نزلت بعد آية الحج . . وهذا هو الثابت من تاريخ النزول القرآنى . . إذ كانت المائدة من آخر سور القرآن الكريم نزولا .

وقوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان »

الرّجس : الدّنَس والقَذَر .

والأوثان : الأصنام ونحوها ، مما يُشكّل ويصوّر ، من جمادات، ليُعبد من دون الله .. و « من » فى قوله تعالى : « من الأوثان » بيانية .. أى فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان .. فهى كلها رجس وخَبَثٌ، وقَذَر ، ولا ينضح منها إلا ما هو رجس وخبث وقذر .

وقوله تعالى : « واجتنبوا قولَ الزور » .

الزور : هو الباطل من القول ، والخارج على الحقّ . . وسمّى زورا ، لأن الصدور السليمة تزورّ به ، وتضيق بحمله . . ولا تتسع له إلا الصّدور المريضة ، والنفوس السقيمة .

وفى قرن « الزور » بالأوثان ، إشارة إلى شناعته ، وإلى أنه مأثم غليظ ، يعادل الشرك بالله . . بل إن الشرك نفسه هو ثمرة فاسدة من ثمار الزور . . إذ الشرك فى صميمه ، افتراء على الله ، وتزيين للباطل ، وتزويق للزور .

وهذا ما وُصف به المشركون فى موقفهم مِن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، إذ يقول جلّ شأنه : « وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزُوراً » (٤ : الفرقان)

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قالوا : بلى يارسول الله . . قال « الشرك بالله وعقوق الوالدين » . . وكان متكئاً فجلس فقال : « ألا وشهادةُ الزور وقول الزور . ألا وشهادةُ الزور وقول الزور .. ألاَ وشهادة الزور وقولُ الزور » .. قالوا : فما زال — صلوات الله وسلامه عليه — يكرّرها حتى قلنا لا يسكت ! » .

قوله تعالى :

* « حنفاءَ للهِ غيرَ مشركين به ومن يشركْ باللهِ فكأنّما خرّ من السماء فتَخْطَفُهُ الطير أو تَهْوِى به الريحُ فى مكان سحيق » .

الحنفاء : جمع حنيف ، وهو المائل عن طرق الضلال إلى طريق الهدى . .

وقوله تعالى : « حنفاء لله » حال من الفاعل فى قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قولَ الزور » أى اجتنبوا هذه المنكرات ، وأنتم حنفاء لله ، أى مخلصين الدّين لِلهِ وحده ، غير مشركين به ..

— وقوله تعالى: « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريحُ فى مكان سحيق » .

هو تهديد ونذير لمن يشرك باللهِ ، ويعدل عن طريق الإيمان الخالص به .. فإن من يفعل هذا ، فقد عرّض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك .. إنه أشبه بمن سقط من علو شاهق ، فوقع على الأرض أشلاء ممزقة ، تكون طعاماً

لجوارح الطير .. أو تقذف به الريح فى مكان سحيق، كبطن محيط ، أو غَوْر بئر . فلا يخفّ أحد لنجدته ..

* قوله تعالى :

« ذلك .. ومن يعظم شعائر الله فإنها من تَقْوَى القلوب » .

الشعائر جمع شعيرة : وهى ما يستجيش مشاعرَ الإنسان ، ويحرك وجدانه .. ويراد بالشعائر ، العبادات ، والطاعات ، وكلّ ما يتقرب به العبد إلى الله .

ويذهب أكثر المفسّرين إلى أن الشعائر هنا ، هى الهَدْى المساق إلى الحرم، وأنها إنما سُمِّيت شعائر لأنها تُشْعَر أى تعلم بشعيرة - أى حديدة - تُشرط بها فى الجانب الأيمن من سنامها . .

والرأى عندنا — والله أعلم — هو ما ذهبنا إليه ، من أن المراد بالشعائر هنا العبادات كلها ، ومنها مناسك الحج ، وأعماله ، ومنها الهَدْى أيضا .

أما تعظيم شعائر الله ، فهو فى أدائها على وجهها ، فى اطمئنان ، وإخبات لله ، وولاء لجلاله وعظمته . .

وأما تعظيم شعيرة « الهَدْى » فهو برعايتها ، وإكرامها ، وإنزالها من النفس منزلة الإعزاز . لأنها منذ الوقت الذى اختيرتَ فيه لتكون هَديًا ، قد أصبحت خالصةً لله ، وأنها منذ ذلك الوقت إلى يوم النحر فى ضيافة مُهديها إلى الله . . ولهذا وجب عليه أن يكرمها ، ويحسن ضيافتها ، فلا يركبها ، ولا يحمل عليها ، ولا يعرّيها من أصوافها وأوبارها ، ما دام قد أعدّها للهدى . .

ثم إن من أمارات الإكرام لها أن تُعْلَمَ بعلامة مميزة لها ، وأن تعلق فى رقبتها قلادة ، تحلّيها وتزينها ، وتجعل لها مَيْزة على غيرها ..

ومن جهة أخرى ، فإنه مطلوب من كلّ مسلم ـ حاجًّا أو غير حاجّ ـ أن يَرعى للهدى هذه الحرمة ، فلا يعتدى عليه ، بالسرقة ، أو انتزاع ما قلد به من قلائد . . فهذا الهَدْى هو هدىُ الله ، وليس أصحابُه المتقدمون به إلى الله إلا رُعاةً له . . إنه أشبه بناقة صالح .. له حرمته ، كما كان للناقة حرمتها ، وقد توعّد الله سبحانه وتعالى ثمودَ بالهلاك ، إن هم نالوها بسوء : « هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكلْ فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » (٧٣ : الأعراف) .

وفى هذا يقول الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهرَ الحرام والهدىَ والقلائد » (٩٧ : المائدة) فقد جعل الله سبحانه وتعالى قلائد الهدى ـ فضلاً عن الهدى نفسه ـ قرينةَ الشهرِ الحرام ، فى حرمتها وما ينبغى للناس أن يعظموه منها ..

ثم لعلك تسأل : لم هذا التعظيم للحيوان ؟ ولم هذه المراسم التى تتخذ له ؟ أليس ذلك ضرباً من ضروب الوثنية التى جاء الإسلام لحربها ، والقضاء عليها ؟ .

والجواب على هذا : أن الحجّ رحلة روحية خالصة ، يخرج فيها الحاج من عالم المادة ، إلى عالم الروح ، وأن أعمال الحج التى تَلْقاة على طريق رحلته الروحية تلك ، مقدّرة بهذا التقدير . .

فالتجرّد من الملابس ولُبْس غير المَخيط ، والمهاجرة من الوطن ، وترك الأهل والولد والمال ، والطواف حول البيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، واستلام الحجر الأسود ، أو تقبيله ، ورمى الجمرات ـ كلها أعمال ومراسم ، تبدو فى ظاهر الأمر متصلة اتصالاً وثيقاً بذوات الأشياء ، لا بربّ الأشياء . . ولكنها فى حقيقة الأمر ، راجعة أولاً وأخيراً ، إلى الله سبحانه وتعالى ، إذ كانت تلك الأعمال

وهذه المراسم ، إنما أدّاها الحاجّ امتثالاً لأمر الله ، وولاء وطاعة لما أمر به ، وإنه ليس للعبد المؤمن بالله ، أن يراجع الله فيما يأمره به ، وأن يطلب الحكمة لهذا الأمر .. وإنما المطلوب منه ، هو أن يمتثل ، ويأتى ما أمر به من غير تردد .. فهذا ابتلاء من الله ، يَبتلى به عباده ، ليظهر منهم ماهم عليه من طاعة أو عصيان . وقد كان أمر الملائكة بالسجود لآدم ، ابتلاءً وامتحانًا لهم ، فسجد الملائكة ، وأبى إبليس أن يسجد ، وقال : « أنا خير منه ، خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين » (١٢ : الأعراف) . فكان من الهالكين . .

فهذه الأعمال التى يأتيها الحجيج ، هى امتحان وابتلاء لهم ، فى باب الطاعة والامتثال لأمر الله ، فى غير تردد أو مراجعة . . وإلا فهو العصيان والكفر . . نعوذ بالله منهما .

وتعالت حكمة الله . . فإنه سبحانه وتعالى ، لم يبتلِ المؤمنين بهذه الأعمال ابتداء ، ولم يَلْقَهم بها على أول طريق الإيمان ، بل جاءهم بها بعد أن يكون المؤمن منهم قد قطع شوطاً طويلاً على طريق الإيمان ، حتى اطمأن قلبُه به ، وسكنت نفسه إليه ، وثبتت قدمه عليه .

فأولا : فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، لم يفرَض الحجّ إلا فى زمن متأخر ، حيث فرض بعد الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، وكان بهذا آخر ما فُرض من أركان الإسلام .

وهذا يعنى أن المسلمين الذين خرجوا من الجاهلية إلى الإسلام ، قد التقوا بالحج ، بعد تلك الفترة التى عاشوها فى الإسلام .. يؤمنون بوحدانية الله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان . . وتلك فترة كافية لتثبيت قواعد الإيمان فى قلوبهم ، وإجلاء كل داعية من دواعى الوثنية والشرك منها .

وثانياً : أن المسلم ـ فى أىّ زمن ـ لا يؤدى فريضة الحجّ إلا بعد أن يكون قد تمرّس بالإيمان ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان . . وكثيراً ما يكون ذلك زمناً طويلًا يمتدّ إلى عشرات السنين . . فإذا جاء إلى الحجّ ، والتقى بأعماله ، لم يكن فى خاطره أية طَرْفةٍ يطْرِف بها إلى أماكن الحجّ وأشيائه ، إلا على أنها من شعائر الله ، وأنها مَعْلَم من معالم الله ـ سبحانه ـ على هذه الأرض ، وأن تعظيمها هو تعظيم لله ، ومبالغة فى الامتثال لأمره ، حيث يقوم التعامل بين الحاج و بين ذوات أشياء هى من آيات الله . . وإنها فى هذا لأشبه برسله ، « مَن يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله » (٨٠ : النساء) .

وثالثا: فى قوله تعالى : « فإنها من تَقْوَى القلوب » إشارة إلى أن تعظيم هذه الشعائر ، هو تعظيم لله ، يتجلّى فيها درجة إيمان المؤمنين ، وينكشف بها ما عندهم من تَقْوَى . . إذ كانت هذه الأعمال ـ كما تبدو فى ظاهرها ـ خارجةً عن منطق العقل . . ! والإيمان ـ فى حقيقته ـ هو حبّ خالص لله ، والحبّ إذا كان صادقاً ، لا يَسْمع صوتَ العقل ، ولا يستجيب له ، وإنما يتلقى من القلب ، ما يحدّثه به ، ويدعوه إليه . . ولهذا جاء قوله تعالى : « فإنها من تقوى القلوب » ليكشف عن أن تعظيم هذه الشعائر ، وإتيانها فى إيمانٍ وإخلاص ، وحب وشوق ـ إنما هو من وحى القلوب ، ومن خفقات الإيمان الثابت فيها ، ومن إشارات التقوى المتمكنة منها . . وفى الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب ، وهو يقبّل الحجر الأسود حين قال : « أعلمُ أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبّلك ما قبلتك » ـ فى هذه الكلمة ما يكشف عن هذا الحبِّ لِلّهِ ، ولرسول الله ، ومتابعته فى كلّ قولٍ ، وعملٍ ، وإن جاء هذا القول أو العمل ، فوق مدارك العقول ! . . ومن أجل هذا فقد وقف القرآن الكريم هذه الوقفات الطويلة

المستأنية مع مناسك الحج ، ودعا أكثر من مرّة إلى رعايتها ، وتعظيمها ، وذلك ليدفع هذا الشعور الذى قد يتسلّط على الإنسان من التراخى فى أداء هذه الأعمال ، وتلك المراسم ، أو أدائها فى استخفاف وتكرّه ، الأمر الذى يذهب بالثمرة الطيبة ، والمعانى الكريمة التى تدخل على نفس الحاج من هذه الأعمال ، إذا هو أداها على وجهها الصحيح ، ممتثلًا أمر الله فيها ، شارحًا بها صدرَه ، مُسلِمًا لها وجوده ، مضيفًا إليها مشاعره .

وهكذا يقيم الإسلامُ المسلمين على منطق العقل ، ومشاعر القلب معًا . .

فهو إذ يدعوهم إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، يجىء إليهم عن طريق العقل ، فيقيم لهم الحجج ، وينصِبُ الأدلة والبراهين ، حتى يقع الإيمان منهم موقع اليقين . . لأنه هو الأساس الذى تقوم عليه كل دعوة للإسلام ، وكل أمر من أوامره ، ونهى من نواهيه . . فإذا كان الإيمان بالله عن نظر واقتناع ، كان التسليم واجبًا بكل ما يأمر به الله ، أو ينهى عنه . .

ثم كانت الصلاة . . وكان الصوم . . وكانت الزكاة . . وكلها أعمال يلتقى فيها منطق العقل ، مع مشاعر القلب ، وإن كان منطق العقل فيها أكثر من منطق الشعور ، أو مساويًا له .

ثم أخيرًا ، كان الحج . . فكان مشاعر خالصة ، أو شبهَ خالصة ، حيث يكاد العقل يُخلِى مكانه للقلب ، ليأخذ حظّه كاملًا ، كما أخذ العقل حظّه كاملًا من الإيمان بالله ! . . وبهذا يعتدل ميزان الإنسان ، وتتوازن مداركه مع مشاعره ، ويتآخى عقله مع قلبه . . وذلك هو الإنسان فى أعدل صورة ، وأحسن تقويم ، وأتم وضع ! !

قوله تعالى :

* « لكم فيها منافعُ إلى أجل مسمًّى ثمّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق » .

الضمير فى « فيها » يعود إلى قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » على اعتبار أن من هذه الشعائر بهيمةَ الأنعام ، المُساقة هدياً إلى بيت الله . .

والمعنى ، أن ما يُساق إلى البيت الحرام من هَدْى ، هو أمانة فى أيدى أصحابه ، وأن لهم أن ينتفعوا به الانتفاع الذى لا يسوءه ولا يتضرر منه . . كالانتفاع بلبنه مثلاً . .

وفى قوله تعالى : « ثم مَحِلُّها إلى البيت العتيق » تذكرة بالجهة التى سيُهْدى إليها هذا الهَدْى ، وأن ذلك من شأنه أن يجعل لهذا الهَدْى حرمةً ورعاية خاصة .. إذ كان آخذاً طريقَه إلى بيت الله ، مع الآخذين طريقَهم إليه ، فله حرمة ينبغى أن تؤدَّى ، وله ذِمام يجب أن يُرعَى .. فهو بعضُ وفْدِ الله إلى، بيت الله ! !

وسمّى البيت الحرام بالبيت العتيق ، لأنه أول بيت وضع للناس ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدًى للعالمين » . . فهذه الأولية ، هى فى مقام الإحسان والخير ، سَبْقٌ له خطره وقدره . فكلمة عتيق هنا تضاهى كلمة « عريق » ، أى هو عريق وقديم فى مقام الخير والإحسان . فكما سبق السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار إلى الإسلام ، واستحقوا بهذا السبق ما خصّهم الله سبحانه وتعالى به من فضل وإحسان . فكذلك هذا البيت ، إذ كان أولَ بيت لله على هذه الأرض ، فقد استحق أن يكون أكرم بيوت الله على الله ، وأولاها بالإجلال ، والاحتفاء .. من عباد الله

الآيات : (٣٤ — ٣٧)

* « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولكلّ أمّة جعلنا مَنسكا ليذكروا اسم الله عَلَى ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » .

المنسك : اسم مكان ، يؤدّى فيه النسك . . والنّسك : هو ما افترض الله على عباده من قربات يتقربون بها إليه .

والمخبتين : المطيعين ، المطمئنين ، الذين يؤدون أوامر الله فى رضا واطمئنان .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل أمة « منسكا » أى مَعلَماً من

معالم دينهم ، يُدْعَون فيه إلى التقرب إلى الله بالذبائح ، وذكر اسمه عليها عند ذبحها ، ليذكروا بذلك فضلَه عليهم ، فيما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ينتفعون بها فى وجوه كثيرة . . كما يقول سبحانه : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمَال حين تُريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيمٌ * والخيلَ والبغال والحميرَ لتركبوها وزينةً » (٥ — ٨ : النحل) .

— وفى قوله تعالى : « فإلٰهكم إله واحدٌ » إشارة إلى أن المناسك ، والشعائر ، والعبادات التى تعبّد الله بها عبادَه على لسان رسله ـ وإن اختلفت صوراً وأشكالاً ـ هى من دين الله ، وهى طريقُ عباده إلى طاعته ورضاه . . وأن هذا الاختلاف فى صورها وأشكالها ، لايجعل منها سبباً إلى الاختلاف بين المؤمنين بالله . . فكلهم يعبدون إلٰهاً واحداً ، ومن شأنهم ، أن يكونوا أمةً واحدة

— وقوله تعالى : « فَلَهُ أَسْلِمُوا » هو دعوةٌ للمؤمنين أن يُسلموا وجوههم لله ، وأن ينقادوا له ، ثم هو دعوة لأهل الكتاب أن يدخلوا فى دين الله ، وهو الإسلام ، إن كانوا مؤمنين بالله حقاً . . فما الإسلام إلا دين الله ، الذى اجتمع فيه ما تفرق منه فى الأمم السابقة . .

— وقوله تعالى : « وبشِّرِ المخبتين » هو استدعاء ، وإغراء للذين لم يمتثلوا بعدُ هذا الأمر ـ أن يسلموا لله وجوههم ، وأن يدخلوا فى دينه ، ليكونوا ممن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . .

قوله تعالى :

* « الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم

والمقيمى الصلاةِ وممّا رزقناهم ينفقون » .

هو صفة المخبتين ، الذين وعدهم الله بالبشريات المسعدة ، فى الدنيا والآخرة . .
فمن صفات هؤلاء المخبتين ، أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم لذِكره ، وحضرتْهم
حال من الرهبة والخشية لجلال الله وعظمته .

ثم إنهم لإيمانهم بالله ، هـــذا الايمان الذى يملأ قلوبَهم جلالاً وخشية
ـ صابرون على ما أصابهم ويصيبهم من بلاء ، فإن الجزع ليس من صفات
المؤمنين ، لأن الجزع لايجىء إلا من شعور بأن ليس وراء الإنسان قوة تسنده
وتعينه وتـكشف ضرَّه . . أما المؤمن ، فإنه إذا ابتُلى بأعظم ابتلاء ، لايجزع ،
ولا يكرب ، ولا يخور ، بل يحتمل صابراً ، ويثبت للمحنة ، وهو على طمع فى
رحمة الله أن ينـكشف ضره ، ويدفع بلواه . . ثم إن هؤلاء المخبتين يقيمون
الصلاة ، ويؤدونها فى خشوع وخضوع ، إذ هى التى تصل المؤمن بربه ، وتعمُر
قلبَه بالإيمان به . . ومن هنا كان الصبر هو الثمرة الطيبة التى تثمرها الصلاة ، كما
يقول سبحانه : « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

وقدّم الصبر على الصلاة ، لأنه مطلوب لها ، حيث لاتؤدَّى كاملة إلا مع
الصبر ، فإذا أدّيت كانت هى نفسها رصيداً كبيراً تزيد به حصيلةُ الصبر فى كيان
المؤمن . . ثم إن هؤلاء المخبتين لايمسكون رزق الله الذى رزقهم ، فى أيديهم ،
ولا يحبسونه على أنفسهم ، بل ينفقون منه فى وجوه البرّ ، ويرزقون عباد الله مما
رزقهم الله . . إذ أنهم ينفقون مافى أيديهم ، وهم على رجاء من أن الله يرزقهم ،
ويكفل لهم ما يكفل للطير والدواب من رزق . . « فابتغوا عند الله الرزق
واعبدوه واشـكروا له » .

قوله تعالى :

* « والبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لـكم من شعائر الله لـكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم

الله عَليها صَوَافَّ فإذا وجبت جنوبُها فكلوا منها وأطعموا القانعَ والمعترَّ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » .

البُدن : جمع بَدَنة ، وهى الناقة ، وسميت بَدَنة لعظمها وضخامتها . .

والصَّوافُّ : جمع صافّة ، وصافّ . . والمراد به السكون ، ومنه قوله تعالى « والطير صافّات » أى صَفّت أجنحتها ، وسكنت ، وذلك حين تفرد أجنحتها فى الجو ، وتتوقف قليلاً عن الطيران . .

وجبت جنوبها : أى سقطت على الأرض.

القانع : من لا يسأل .. والمعترّ : من يتعرض للسؤال مستجدياً .

والمعنى : أن هذه البُدن ، أى الإبل ، جعلها الله من شعائره ، حيث تُساق هدياً إلى بيته الحرام ، وجعل فيها خيراً للناس ، بما ينتفعون به منها ، فى حمل الأمتعة ، وركوبها ، والانتقال بها ، والانتفاع بألبانها وأوبارها ، ولحومها . .

— وقوله تعالى : « فاذكروا اسم الله عليها صوافّ » أى إذا أردتم نحرها ، فاذكروا اسم الله عليها ، قبل أن نحرها ، ثم ليكن ذبحها وهى صوافّ ، أى فى حال وقوفها ، وثباتها ، وصفّ قوائمها .. وذلك أن الإبل تنحر وهى واقفة . على خلاف غيرها من الحيوان .

— وقوله تعالى : « فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » أى أنها إذا نزفت دماؤها ، وسقطت على الأرض ، جُثة هامدة ـ أصبحت صالحة للأكل . . فكلوا منها ، وأطعموا القانع ، الذى لا يسأل ، والمعترّ الذى يسأل ، فهى نعمة من نعم الله ، جعلها الله فى أيديكم ، وسخرها لكم ،

فاشكروا له ، بهذا البذل، الذى تبذلونه من لحومها ، لمن ترون أنه محتاج ، ولو لم يسأل .. ،وكذلك غير المحتاج من أهل وأصدقاء . .

* قوله تعالى :

« لن ينَالَ اللهَ لحومها ولا دماؤُها ولـكن يناله التقوى منـكم كذلك سخرها لـكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين » .

أى أن هذه البُدن التى تقدمونها قرباناً ، وتَطْعَمُون منها وتُطْعِمون ، هى فى الواقع نَفْع خالص لـكم . . فليس لله سبحانه وتعالى ـ وهى من عطاياه ـ شىء منها ، وليس فى تقديمها قرباناً لله ، وإطعامَ مَن تطعمون منها ـ ما يصل إلى الله منه شىء .. فهذا كل شىء منها هو بين أيديكم : لحمها قد أكلتموه ، ودمها قد أريق على الأرض .. ومع هذا فهى قربان لـكم ، تتقربون به إلى الله ، وتُثابون عليه .

ـــ وقوله تعالى : « ولـكن يناله التقوى منكم » إشارة إلى أنه ليس المقصود من هذه الهدايا ذبحها ، وأكلَ لحمها . . وإنما المراد أولا وبالذات ، هو امتثالكم لأمر الله ، وإمضاء دعوته ، فيما يدعوكم إليه ، من التضحية بشىء عزيز عليـكم ، حبيب إلى نفوسكم ، وبهذا تُحسَبون فى أهل التقوى من عباد الله . . وهذا هو الذى يناله الله منـكم ، ويتقبله من أعمالـكم . . إنه التعبّد لله ، والولاء له ، والاستجابة لأمره . .

وفى التعبير عن تَقَبّل الله سبحانه وتعالى للطاعات من عباده « بالنيل » ـ تفضّل من الله سبحانه وتعالى على عباده المتقين ، وإحسان مضاعف منه إليهم ، إذ جعل طاعتهم ، وتعبدهم له ـ إحساناً منهم إليه ، سبحانه وتعالى . . وهذا شبيه بقوله تعالى : « من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حسناً » (٢٤٥ : البقرة) . . فهو سبحانه وتعالى ـ فضلاً وكرماً وإحساناً منه ـ يُعطى ، ويقترض ممن أعطاه !

الأخسِّيء وخسر الذين يضنون بما فى أيديهم عن البذل والعطاء، من عطاء الله، فى سبيل الله ..!

الآيات : (٣٨ — ٤١)

* « إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كلّ خوّانٍ كفور » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة دعت إلى تعظيم شعائر الله ومناسكه ، وإلى ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام ، وإلى إطعام القانع والمعترّ منها.. وهذا لا يقوم على تعظيمه والوفاء به ، إلاّ أهلُ الإيمان والتقوى ــ فناسب هذا أن يُذكر ما للمؤمنين المتقين عند الله من فضل وإحسان ، وأنهم جُند الله ، يدافع الله عنهم ، وينصرهم ..

— وفى قوله تعالى : «إن الله يدفع عن الذين آمنوا» .. إشارة إلى أن المؤمنين معرضون للابتلاء من أعداء الله، الذين يكيدون لهم ، ويريدونهم على أن يكونوا معهم ، وألا يخرجوا عن طريقهم. ولكن الله سبحانه وتعالى «يدافع عن الذين آمنوا» فيربط على قلوبهم ، ويثبت أقدامهم على طريق الهدى ، ويمدهم بالصبر على احتمال المكروه .. وهذا أشبه بالدروع الحصينة التى تتكسر عليها ضربات أهل الباطل والكفر .. إنها أمداد من الله ، وأدوات من أدوات الدفاع .. ثم ينتهى الأمر بانحسار جبهة الضلال ، واندحار أهله ، وغلبة الإيمان وانتصار للمؤمنين : «كَتَبَ الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز» (٢١ : المجادلة) .

وأنت ترى . أن دفاع الله عن المؤمنين ، إنما يكون والمؤمنون فى مواطن الإيمان ، وفى ميدان المعركة .

وهذا يعنى أن المؤمن الذى يستسلم لعدوّ الله وعدوّ المؤمنين ، لا يكون فى ميدان المعركة ، ومن ثَمّ فلا يكون من الله دفاع عنه ، إذ لا معركة قائمة بينه وبين عدوّه ..

ومن هنا ، كان واجباً على المؤمن الذى يطمع فى دفاع الله عنه ، ألا يلقى السلاح من يده ، وألا يفرّ من الميدان .. سواءٌ أكان ذلك ميدانَ حرب ، أو ميدان رأى ، ودعوة إلى الله ..

— وقوله تعالى : «إن الله لا يحب كل خوان كفور» — هو تهديد للكافرين ، الذين خانوا عهد الله وميثاقه الذى واثقهم به وهم فى أصلاب آبائهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا» (١٧٢ : الأعراف) .

ثم إنهم بعد هذا قد كفروا بما جاءهم من آيات الله على يد رسله ، وكذبوا بها..
فهم لهذا فى معرض السخط من الله .. « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (١٧٤ : البقرة) .

قوله تعالى :

* « أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير » ..

أُذن لهم : أى أبيح لهم القتال ، دفاعاً عن النفس ..

أى أن الله سبحانه وتعالى ، قد أذن المسلمين الذين بدأهم أعداؤهم وأعداء الله بالقتال — قد أذن لهم أن يقاتلوا ، وأن يدفعوا يد البغى والعدوان عنهم .. فهذا قتال مشروع ، بل إنه واجب ، إذ كان فيه تقليم لأظافر الطغيان وخَضْدٌ لشوكة الطغاة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولكم فى القصاص حياة » (١٧٩ : البقرة) ويقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١٩٤ : البقرة) ..

أما الاستسلام للبغى ، والسكوت على الظلم ، فهو تمكين للشرّ ، وتدعيم لبغائه ، وإطلاق ليده ، يضرب بها كيف يشاء فى مواقع الحق ، ومواطن الخير ..

إن البغى ، والظلم ، والعدوان .. كلها وجوه منكرة من وجوه المنكر ، ومطلوب من كل مؤمن بالله أن يدفع المنكر بكل ما ملكت يده ، ووسع جَهده ..

وقتال المؤمنين ، والعدوان عليهم ، بإراقة دمائهم وإزهاق أرواحهم، هو أنكر المنكر ، وإنه لفرض على كل مؤمن أن يردّ هذا المنكر ، ويخمد

أنفاسه ، ويقدم نفسه قرباناً لله فى سبيل الدفاع عن دين الله ، وعن ينابيع الرحمة والخير المتدفقة منه .

— وفى قوله تعالى : « بأنهم ظلموا » هو تعليل للإذن الذى أُذن فيه للمؤمنين بالقتال ..

والمعنى : أنه قد أذِن الله للذين يقاتَلون أن يقاتِلوا مَنْ يقاتلهم ، بسبب أنهم ظلموا بالتعدّى عليهم ، وبمبادأتهم بالقتال . . فهو قتالُ دفاع منهم ، لاقتال هجوم . . ولهذا ، فإنهم مؤيّدون بنصر الله ، « وإن الله على نصرهم لقدير » . . إذ فى يده سبحانه القوى كلها ، وإنه لاغالب لله . . وفى هذا تحريض المظلوم — وإن كان ضعيفاً — أن ينتصف ممن ظلمه ، فإنه على وعدٍ بنصر الله له .

قوله تعالى :

* « الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمت صوامع وبيع وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً ولينصُرَنّ اللهُ من يَنْصُرُه . . إن الله لقوى عزيز » .

هو بيان لحال هؤلاء الذين أَذِن الله لهم أن يقاتلوا . فقوله تعالى : « الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله » — هو بدل من قوله تعالى : « للذين يقاتَلون » فهؤلاء الذين يقاتلون ، وأُذن لهم فى قتال مقاتليهم — هم أولئك المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً « بغير حق » . . فإنهم لم يَجْنُوا على أحد ، ولم يُكرهوا أحداً على أمر ، وإنما كل جنايتهم — إن كانت هناك جناية — هى إيمانهم بالله ، وقولهم ربنا الله الواحد ، الذى لاشريك له . . فهل فى هذا عدوان على أحد ، أو ضرر يعود على أحد ؟ . ولكنّ أهل الضلال والبغى ينظرون بعيون مريضة ، ويحكمون على الأمور بعقول فاسدة ، فيرونَ النور ظلاما ، والخير شراً ، والإحسان إساءة . .

—وقوله تعالى : «ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً » . . هو إشارة إلى هذا الصدام الذى يقوم بين أهل الشر والضلال ، وأهل الخير والإيمان ، وأنه لولا أهلُ الخير والإيمان ، ووقوفهم فى وجه الضالين والباغين ـ لما قام لله دينٌ على هذه الأرض ، ولَغَلب الشر الضلال ، ولأتى على كل صالحة فى هذه الدنيا ، ولخربت بيوت العبادة التى أقامها المؤمنون لعبادة الله من « صوامع » وهى بيوت عبادة الرهبان من النصارى ، « وبيع » وهى بيوت عبادة النصارى عامة ، « وصلوات » وهى بيوت عبادة اليهود ، « ومساجد » وهى بيوت عبادة المسلمين . .

ومن أجل هذا ، فقد أقام الله سبحانه وتعالى ، فى كل مِلة ، وفى كل أمّة ، جماعة مؤمنة ، تقيم شرع الله ، وتحيى شعائره ، وتعمر بيوته ، وتحتمل فى سبيل هذا ما تحتمل من بلاء ، فى دفع الظالمين ، وردع الباغين . .

فهذا الصِّدام القائمَ بين الهدى والضلال ، وبين المهتدين والضالِّين ، هو سُنَّة من سُنَن الله ، التى أقام حياة الناس عليها ، والتى كان من ثمارها أن قامت بيوت الله ، وعَمَرت بالمؤمنين الذاكرين الله كثيراً فيها . .

وفى هذا دعوة المؤمنين ـ فى صدر الدعوة الإسلامية خاصة ـ أن يكونوا جندَ الله فى هذه الأرض ، والحُماةَ المدافعين عن دينه ، والمقيمين مساجده ، والمعمّرين ساحاتها بذكر الله فيها . .

وفى هذا أيضاً إشارة إلى أنه سيكون للمسلمين مساجد ، وأن هذه المساجد ستعمُر بالمصلين والذاكرين الله كثيراً فيها . . وهو وَعدٌ كريم من ربٍّ كريم ، لجماعة المؤمنين يومئذ .. وقد تحقق هذا الوعد — وكان لابد أن

يتحقق — فملأت المساجدُ آفاقَ الأرض ، وامتلأت بالمصلين ، واهتزت جنباتها بالذاكرين . .

قوله تعالى : « ولينصُرَنّ اللهُ من ينصره » هو وعد منه سبحانه وتعالى بالنصر للمؤمنين ، الذين نصروا الله ، وجاهدوا فى سبيله . . إنهم نصروا الله إذ نصروا دينه ، فكان حقًّا على الله أن ينصرهم ، كما يقول سبحانه : « وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين » (٤٧ : الروم) .

وقوله تعالى : « إن الله لقوى عزيز » هو توكيد ، بعد توكيد لهذا الوَعد الذى وعده الله المؤمنين بالنصر ، إذا هم نصروا الله ، ودافعوا عن دين الله . .

وليس وعد الله فى حاجة إلى توكيد ، عند المؤمنين بالله ، ولكنه مبالغة فى تطمين القلوب ، وتثبيت الأقدام ، فى تلك الساعات التى تَزيغ فيها الأبصار ، وتضطرب النفوس ، حين تلتقى جماعة المؤمنين ، فى أعدادها القليلة ، بحشود المشركين، فى جحافلها الجرارة !

قوله تعالى :

* « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة وأَمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

يمكن أن يكون الاسم الموصول : « الذين » بدلاً من الاسم الموصول فى قوله تعالى : « ولينصرنّ اللهُ من ينصره » كما يمكن أن يكون بدلاً من الاسم الموصول « الذين » فى قوله تعالى : « الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق » . .

وعلى أىٍّ فإن الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، هم الذين وُعدوا

بالنصر فى قوله تعالى : « ولينصُرَنّ اللهُ من ينصرُه » . .

فالذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، وهم المهاجرون — هم الذين وُعدوا بالنصر ، لأنهم نصروا الله ، فخرجوا من ديارهم وأموالهم ، مهاجرين بدينهم الذى هو كل حظهم من هذه الدنيا ، والذى باعوا من أجله أنفسهم وأموالهم وديارهم وأوطانهم . .

* وقوله تعالى : « الذين إنْ مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » — هو عرض للصورة الكريمة التى سيكون عليها هؤلاء المؤمنون الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، وذلك حين ينصرهم الله ، ويمكّن لهم فى الأرض ، وتكون لهم القوة والغلب . .

إنهم — مع ما ملكت أيديهم من قوة ، وما مكّن الله سبحانه وتعالى لهم فى الأرض من سلطان — لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضالّين الذى كانت إلى أيديهم القوة والسلطان ، فتسلطوا على عباد الله ، ورَهِقوهم ، وأخذوهم بالبأساء والضراء ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق . .

إن هؤلاء المؤمنين ، حين يمكّن الله لهم فى الأرض ، سيكونون مصابيح هدًى ، وينابيع رحمة ، للإنسانية كلها ، بما يقيمون فيها من موازين الحق ، والعدل ، وما يغرسون فى آفاقها من مغارس الخير والإحسان . . إنهم يقيمون الصلاة ، ليستمدوا منها أمداد الهدى من الله . . ويؤتون الزكاة ، فيكشفون بها الضرّ عن عباد الله . . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . فيصلحون بهذا من سلوك الناس ، ويقيمون لهم طرقهم مستقيمة ، فلا تتصادم منازعهم ، ولا تفسد مشاربهم . .

وقد صدق الله وعدَه ، ومكن سبحانه وتعالى للمؤمنين فى الأرض ، فكانوا أعلام هدًى ، وآياتِ رحمة ، وموازينَ عدل وإحسان بين الناس . .

وكانوا كما وصفهم سبحانه بقوله : « كنتم خيرَ أمّة أُخرجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله » (١١٠ : آل عمران) .

* قوله تعالى : « ولله عاقبةُ الأمور » . . إشارة إلى نَفاد قدرة الله ، وأنها بالغة الغايةَ التى قدّرها الله لها فى هذا المقام ، وهى نصر المؤمنين ، وإعزازهم ، وخذلان المشركين والضالين ، وخِزيهم . .

فعاقبة الأمور ، هى ثمراتها الطيبة ، إذ كانت الأمور كلها تجرى بأمر الله ، وتتحرك بمشيئته . فإذا بلغت غايتَها كانت خيراً ، وكانت كمالاً ، وحُسناً . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « والعاقبة للمتقين » (١٢٨ : الأعراف) وقوله سبحانه : « والعاقبة للتقوى » (١٣٢ : طه) .

الآيات : (٤٢ — ٤٨)

* « وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) »

التفسير :

* قوله تعالى :

« وإن يكذّبوك فقد كَذّبَتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمود * وقومُ إبراهيم وقوم لوط * وأصحابُ مدين وكُذِّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » .

فى هذه الآيات مواساة للنبىّ الكريم ، وعزاء جميلٌ من ربّ العالمين ، لِما يَلقى من قومه من تكذيب ، وسَفه ، وتطاول . . فتلك هى سبيل الأنبياء مع أقوامهم . . « كلما جاء أمةً رَسولُها كذّبوه » (٤٤ : المؤمنون) .. وأنت أيها النبى لست بمعزل عن هذا ، ولا قومك بِبِدع بين الأقوام . . إنه حق وباطل ، وهدًى وضلال ، وإنه لابد من صدام بين أصحاب الحق وأهل الباطل ، وبين دعاة الهدى ، وأئمة الضلال . . « فاصبر كما صبرَ أولو العزْم من الرسل ولا تستعجل لهم » (٣٥ : الأحقاف) ..

وفى هذه الآيات :

أوّلا : جاء ذكر قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، مُضافِين إلى أنبيائهم ، على حين جاء قوم هود ، وقوم صالح ، وأصحاب مدين ، وهم عاد وثمود ، وقوم شعيب مجردِين من هذه الإضافة .. فما وجه هذا ؟ ..

الجواب — والله أعلم — أنه تنويع فى النظم ، وذلك بتوزيع الكلمات ذات النغم الواحد مثل « قوم » هذا التوزيع غير المتتابع ، حتى لا يثقل على الأذن ، ولا يثير الملل والسأم ، فكان هذا التوزيع الذى ترى وتسمع تساوُقَ لحنه وروعة نغمه .. ولو ذهبتَ تقيم النظم على أسلوب واحد ، فتذكر الأقوام مضافِين إلى أنبيائهم ، أو تذكرهم بأعيانهم مجردين من تلك الإضافة ، لوجدت نظما قلقاً مضطرباً يتعثر به اللسان ، وتستثقله الآذان .

وثانياً : جاء الفعل « كذبت » مؤنثاً مع أن فاعله مذكر وهو « قوم نوح ».. وكان ظاهر النظم يقضي بأن يجيء الفعل مذكراً هكذا : « كذّب » فما سر هذا ؟ . .

والجواب — والله أعلم — أن القوم المكذبين كانوا على طبيعة واحدة من الضلال والعمى ، فكأنهم — بهذا كتلة متضخمة من الظلام ، لا يخرج منها إلا ما هو شر ، وضُرّ .. فكأنّ الفعل واقع على هذا الكيان الفاسد ، أو هذه القطعة من الظلام ، والضلال ! .

ومن جهة أخرى ، فإن الفعل « كذب مسلط على هؤلاء الأقوام الذين ذكرتهم الآية ، قوم نوح ، وعاد ، وثمود ... » وهم بهذا أمة واحدة ، فى الضلال ، وإن كانوا أمماً فى الأمكنة والأزمنة ..

وثالثاً : جاء قوله تعالى : « وكُذب موسى » مخالفاً للنظم ، الذى كان ظاهره يقضى بأن يجىء هكذا : « وكَذب قومُ موسى » معطوفاً على قوله تعالى « وأصحاب مدين » .. فما وجه هذا ؟ .

والجواب — والله أعلم — أن قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل لم يكذبوه ، وإنما الذى كذبه هو فرعون وقوم فرعون ، وهم ليسوا قوم موسى ..

أما السرّ فى أنه لم يذكر فرعون وقومه فى الأمم والأقوام المكذبة بالرسل فذلك — والله أعلم — لأن موسى لم يكن من قوم فرعون ، ورسل الله جميعاً من أقوامهم .. فلم يكن موسى مبعوثاً إلى فرعون وقومه ليقيم فيهم ديناً ويؤسس شريعة ، وإنما كانت رسالته إلى فرعون أن يدعوه إلى إطلاق بنى إسرائيل من يده كما يقول سبحانه لموسى وما يدعون فرعون إليه : « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » (٤٧ : طه) هذه هى رسالة موسى إلى فرعون . .

أما دعوته فرعونَ إلى الإيمان بالله ، فهى من مستلزمات دعوته إلى إطلاق بنى إسرائيل ، تلك الدعوة المأمور بها من الله .. فإذا لم يؤمن فرعون بالله ، فلن يستجيب لهذه الدعوة . .

— وفى قوله تعالى : « فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » هو تهديد المشركين ، الذين تصدوا للنبىّ وكذبوه ، وآذوه . . فإن يكن الله قد أملى لهم ، أى أمهلهم ، ولم يعجل لهم العذاب فإنه سبحانه قد أملى للكافرين قبلهم .. ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر . .

— وفى قوله تعالى : « فكيف كان نكير » استفهام يراد به التقرير ، والإلفات إلى ما أخذ الله به الكافرين المكذبين برسل الله .. « فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أرسل عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة . .

والنكير : الإنكار للمنكر .. ونكير الله هو إنكاره على الكافرين كفرهم ، وليس وراء هذا الإنكار ، إلا البلاء المهين ، والعذاب الأليم ..

قوله تعالى :

* « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئرٍ معطلة وقصر مشيد » ..

هو بيان لنكير الله سبحانه وتعالى ، ووقعات بأسه بالظالمين والضالين .. فكثير من قرى الظالمين قد أهلكها الله ، وأنزل بها عذابه ، فوقع عليها وهى قائمة على ما كانت عليه من ظلم وطغيان .. وهذه القرى قد خوت على عروشها ،

أى خَرّت ، وسقطت على عروشها ، أى سقفها .. كما يخرّ الإنسان على وجهه . فتعطلت آبارها وردمت ، لأنها لا تجد الواردين إليها ، وخربت القصور المشيدة ، بعد عمرانها ، لأنها لا تجد من يسكنها ..

لقد ذهب الجميع ، وخلّفوا وراءهم هذا الخراب الموحش المخيف ! .

قوله تعالى :

* « أَفَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بِها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور » .

الاستفهام هنا ، تقريع ، ونَخْسٌ لهؤلاء المشركين من قريش ، الذين تصدّوا لرسول اللهِ ، وكذّبوه وآذوه ، دون أن ينظروا فى عاقبة أمرهم ، ودون أن يلتفتوا إلى ما وراء هذا المنكر الذى هم فيه . . ولو نظروا فيما حولهم لعرفوا أنهم فى معرض الهلاك ، إذاهم لم يرجعوا عن هذا الضلال الذى يركبونه ، فهم ليسوا أحسن موقفاً من أولئك الأقوام الذين كذبوا الرسل من قبلهم ، فأهلكهم الله . .

— وفى قوله تعالى : « فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يَسْمَعُون بها » هو إشارة إلى أن السير فى الأرض ، لا يفيد منه صاحبه شيئاً إلا إذا كان معه قلب متفتّح ، يتلقّى المؤثّرات الخارجية ، ويتأثّر بها ، ويتفاعل معها . . فإن لم يكن له هذا القلب اليقظ المتفتّح ، فليفتح أُذنه لدعوة الداعى ، ونذير المنذر . . فإن الأعمى يتّخذ من أذنه أداة عاملة تقوم مقام عينيه ، وتصل ما بينه وبين الوجود . .

أما هؤلاء القوم الضالون ، فلم تكن لهم قلوب يعقلون بها ، ولم تكن لهم آذان يسمعون بها . . لقد عطلوا حواسهم . . فهم صُمٌّ بُكم عُمى لا يعقلون . .

ولم يذكر القرآن هنا أبصارَهم ، ولم يستدعها كما استدعى قلوبهم وآذانهم . . ولكن أشار إليها ضمناً ، فى قوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . . فكأنه قال : أما أبصارهم فلا وزن لها إذا لم تكن هناك القلوب التى تتلقى عنها ، وتعى ما يجىء إليها منها . . فأبصارهم معهم ، وهى سليمة لا عيب فيها ، ولكنهم مع هذا هم عُمْى ، لأن العمى ليس عَمَى الأبصار ، ولكنه عمى القلوب التى فى الصدور .

— وفى قوله تعالى : « القلوب التى فى الصدور » توكيد للقلوب ، وأنها هى المرادة هنا ، على سبيل الحقيقة لا المجاز ، وذلك لئلا ينصرف مفهوم القلوب إلى العقول ، كما يحدث ذلك كثيراً .

وقد وُصفت القلوب هنا بأنها تعقل وتدرك . . فكان تحديد مكانها أمراً لازمًا ، حتى يتقرر أنها المقصودة بذاتها ، وليست العقول . .

واختصاص القلب بالذكر ، والنظرُ إليه على أنه مركز الإدراك والإلهام ، فى هذا المقام ، لأن الدّين عقيدة ، والعقيدة أساسها الحبّ والامتثال والولاء ، والقلب هو منبع هذه المشاعر ، ومصدر تلك العواطف . .

وحقًّا ، إن للعقل مكانه البارز فى إدراك الحقائق الدينية ، وتصوّرها ، وإنه بغير هذا الإدراك وذلك التصور لا تقع هذه الحقائق من القلب موقعَ الحبّ ، والتقدير ، والتقديس . . ولكن القرآن الكريم ينظر إلى القلب ، لا باعتباره مصدرَ العواطف والمشاعر وحسب ، بل ينظر إليه كذلك نظرة وظيفية ، كعضو عامل فى كيان الإنسان . . فهو — من هذه الجهة — مركز الحياة فى الإنسان ، بل وفى كل عالم الحيوان — حيث يُمدّ الجسم كلّه بالدّم المتدفق منه فى العروق والشرايين ، ولو توقف لحظات لمات الكائن الحىّ ، وأصبح جثة هامدة . . ومن هنا كان نبض القلب هو الإشارة الدالة على وجود الحياة

فى الإنسان . . وحين يسكت النبض تتوقف الحياة ، ويغيض مجراها ، وتجف ينابيعها . .

وإذ كان القلب بهذه المثابة ، فإنه هو صاحب الشأن الأول فى الإنسان ، بحكم آثاره الظاهرة فيه . . إنه يعمل دائماً فى حال اليقظة والنوم .

وأما العقل ، وإن عُرفت آثاره ، فإنه لا يُعرف سِرّه ، ولو عُرف سِرّه ، فإنه لا يخرج عن أن يكون ربيب القلب ، وغَذِىّ ماء الحياة الذى يمدّه به ، أيّا كان موضعه فى كيان الإنسان ، وأيّا كان مستقرّه .

فإذا أضاف القرآن الكريم إلى القلب ، علماً ، ومعرفة ، وحكمة ، وإيماناً ، فإنّما ذلك لأنه سلطان الجسد كلّه ، وإلى صلاحه أو فساده يعود صلاح أعضاء الإنسان وفسادها ، وسلامة حواسه أو اعتلالها . . وليس العقل إلا حاسّة خفية ـ من حواس الإنسان ، ترتبط سلامته بسلامة الجسد ، كما ترتبط سلامة الجسد بسلامة القلب ، وفى المثل : « العقل السليم فى الجسم السليم » . . وقد كشف عن هذا الرسول الكريم فى قوله : « ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صَلَحَتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ، ألاَ وَهِىَ القلب » .

وعلى هذا يمكن أن نفهم قوله تعالى : «فتكون لَهُمْ قُلُوبٌ يعقلون بها » (٤٦ : الحج) لا على أن القلب هو مصدر الإدراك المباشر ، وإنما هو مصدر العقل الذى يَعْقل ويدرك . . فلو كان القلب سليمًا معافًى من العلل لَسَلِمَ العقل ، ثم لكان إدراكه للأمور سليمًا ، وتقديره لها صحيحاً . . وهذا أبلغ فى الكشف عن داء الغفلة المستولى على القوم ، وأنه داء ينبع من المنبع الأصلى ، وهو القلب ، وليس داء عارضاً أصاب حاسة من الحواس . . إنه داء يسرى فى الجسد كله . .

وسواء إذا كان القلبُ هو موطن المشاعر والمدركات ، أم كان عضواً

من أعضاء الجسد أو جارحة من جوارحه ، فإنه من حيث مكانه فى الجسد ، ووظيفته العضوية فيه ـ يعدّ مركز الحياة فى الكائن الحىّ ، تتأثر به كل خلية من خلايا الجسد ، كما أنه يتأثر بكل خلية فى الجسد . . ومن هنا صحّ أن يضاف إليه كلّ ما للجوارح من آثار ، وما لكل عضو من قوّى حسّية أو معنوية .

فالعين وما فيها من قوى الإبصار ، هى من جنود القلب . . إذ هى غُصْن من أغصان الشجرة التى يقوم على تغذيتها ، وإمدادها بالحياة . . وكذلك الشأن فى الأذن ، واليد ، واللسان .. وكذلك الحال فى « المخ » الذى قيل إنه هو موطن الشعور والإدراك ! !

إن الإنسان ، هو فى الواقع هذا القلب ، لا من حيث هو تلك القطعة الصنوبرية من اللحم والدّم . . ولكن من حيث هو مستودع هذه الحياة المتدفقة منه ، وهى الدّم الذى يسرى فى العروق والشرايين ، والذى يملأ الكيان الجسدى كلّه مع كل خفقة من خفقاته ، قبضاً وانبساطاً . .

* * *

قوله تعالى :

* « ويستعجلونك بالعذاب ولن يُخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

هو ردٌّ على هؤلاء المشركين الضالين الذين عَمُوا عن الحقّ ، وضلوا عن سواء السبيل ، ثم هم مع ـ هذا الموقف المكابر المتحدّى ـ يستعجلون العذاب الذى أنذِروا به إن هم أعرضوا عن الإيمان بالله ، وكذبوا بما جاءهم به رسول الله ، كما فى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فَقُلْ أنذرتكم صاعقة مثلَ صاعقة عادٍ وثمود » (١٣ : فصلت) .. وفى هذا الرد إنكار عليهم ، وتسفيه لهم ، إذ

يطلبون الهلاك ، ويستعجلون البلاء ، على حين يصرفون وجوههم عن هذا الخير الذى بين أيديهم ، ويُلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وهذا لا يكون من إنسان له مَسْكة من العقل والإدراك ..

وفى قوله تعالى : « ولن يخلف الله وعده » تهديد لهم ، بالعذاب الذى أنذروا به ، وأنه واقع بهم .. فهذا وعدٌ من الله ، ولن يخلف الله وعده . لأن خلف الوعد إنما يكون عن عجز عن الوفاء به .. وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ..

وقوله سبحانه : « وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدّون » هو تأكيد لوقوع وعد الله ، وإنجازه وأنهم إذا كانوا قد استبطئوا وقوعه ، فإن لله سبحانه وتعالى تقديراً غير تقديرهم ، وحساباً غير حسابهم ، وأنه سبحانه لا يقيس الزمن بمقياس الناس ، فالناس يتعاملون مع أشياء محدودة ، فى زمن محدود ، على حين أن الله سبحانه يدبر الوجود كله ، فى زمن مطلق ، وبقدرة مطلقة .. وعلى هذا فإنه إذا لم يقع بهم العذاب عاجلا فهو واقع آجلاً ، وأنهم إذا لم يؤخذوا به فى الدنيا ، أُخذوا به فى الآخرة .. فهم أبداً فى قبضة الزمن الذى هو فى قبضة الله .. ولن يفلتوا أبدًا .

قوله تعالى :

* « وكأين من قريةٍ أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير » ..

هو بيان شارح لقوله تعالى : « وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تَعُدُّون » .. والمعنى أن هؤلاء المشركين إن كانوا يستعجلون العذاب ، ويشكّون فى وقوعه حين أبطأ عليهم ، ولم يقع بهم ، فما ذلك إلاّ لأن لهم حساباً ، وأن لله سبحانه وتعالى حساباً ، وأنهم إذا كانوا قد أُملى لهم ولم يؤخذوا بظلمهم إلى يومهم هذا الذى هم فيه ـ فليس هذا لأنهم ممتنعون عن الله بقوةٍ أو جاه أو سلطان ،

وإنما لأن ذلك هو حكم الله فى عباده ، وسنته فى الظالمين منهم .. لا يعجل لهم العذاب ، ولا يبادرهم به ، بل يمهلهم ويملى لهم ، حتى يراجعوا أنفسهم ، ويتدبروا أمرهم ، وهذا من رحمة الله بهم وفضله عليهم ، كما يقول سبحانه : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » (٦١ : النحل) وبين يدى هؤلاء المشركين الضالين شاهد ناطق بهذا فما أكثر القرى الظالمة التى أمهلها الله .. ثم أخذها .. بل إن هؤلاء المشركين هم شاهد حىّ لهذا .. فهم على ما هم فيه من ظلم ما زالوا فى عافية من أمرهم ، لم يأخذهم الله بعذابه .. وتلك فرصتهم السانحة للخلاص من بأس الله ، الذى لا يُرَدّ .. إذا حان حينه بهم ..

— وفى قوله تعالى : « وإلىّ المصير » إشارة إلى أنهم إذا لم يؤخذوا بظلمهم فى هذه الدنيا ، فإنهم صائرون إلى الله ، وسيلقون جزاء الظالمين يوم القيامة .. فإن هم أمهلوا اليوم ، فليس معنى ذلك أنهم نجوا من العذاب ، بل إن فى غدٍ عذاباً فوق العذاب ، وبلاء فوق البلاء ! « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٢٦ : الزمر) ..

الآيات : (٤٩ — ٥٩)

* « قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ

لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) »

التفسير

قوله تعالى :

* « قل يَـأيها النّاسُ إنما أنا لـكم نذيرٌ مبينٌ » .

هو توكيد لهذا الإنذار ، الذى أُنذِر به المشركون من وقوع العذاب بهم ، إذا هم لم يستجيبوا لله وللرسول . . فهو إنذار عام للناس جميعاً ، ولـكنه فى حقيقته إنذار خاص لـكل ضالّ غوىّ ، ثم هو إنذار فى مواجهة هؤلاء المشركين ، يصرخ فى وجوههم ، ويَصُكّ أسماعهم .. وإنه لإنذار مبين واضح ، بما معه من الأدلة القاطعة ، والآيات الناطقة المعجزة . .

* « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم » .

الفاء هنا ، للتفريع المسبب عن هذا الإنذار الذى جاء به النذير المبين . .

إذ الناس مع هذا الإنذار ، بين مُلتَفِت إليه ، مستفيدٍ منه ، آخذٍ طريق النجاة ، وبين ذاهل عنه ، أو مستخفٍّ به ، أو مكذّب له . . فهو فى غفلة من أمره ، قائم فى وجه العاصفة العاتية التى تجتاح كل شىء ، وتدمر كل شىء . .

فأما الذين استمعوا لهذا النذير ، وآمنوا بالله ، وعملوا الصالحات ، فقد ركبوا طريق النجاة ، ولهم من الله مغفرة ، ورحمة ، ورزق كريم . .

* « والذين سَعَوْا فى آياتنا مُعَاجِزين أولئك أصحابُ الجحيم » . .

أى : وأما هؤلاء الذين لم يستمعوا لهذا النذير المبين ، ولم يستضيئوا بالنور الذى معه ، بل تصدّوا لهذا النور ، وأرادوا أن يطفئوه بأفواههم ، وبما يخرج منها من أكاذيب وأضاليل ـ هؤلاء هم أصحاب الجحيم ، فليس لهم من صاحب إلا جهنم وما تُمدّهم به من عذاب أليم . . إنهم أشكل بها ، وهى أقرب شىء إلى طبيعتهم .

ـ وفى قوله تعالى : « سَعَوْا فى آياتنا معاجزين » إشارة إلى سعى هؤلاء المشركين ، وأنه سعى للباطل والضلال ، حيث يسعون لإعجاز آيات الله ، وغلبتها وصرفها عن طريقها .. وفى تَعْدية الفعل بحرف الجر « فى » الذى يفيد الظرفية ، إشارة إلى أنهم يَدْخُلون فى آيات الله ويَلْبسون الحقّ بالباطل ، إذ يحرفون الكلِمَ عن مواضعه ، ويُلْقُون فيه بالهذر من القول ، والسّخَف من الكلام ، كما حكى القرآن ذلك عنهم فى قوله تعالى :

« وقال الذين كفروا لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تَغْلِبُون » (٢٦ : فصلت) .

وأريد أن تلتفت التفاتة خاصة إلى قوله تعالى : « معاجزين » وأن تقف طويلا عندها ، فإن لها شأنا فى تلك القصّة العجيبة المثيرة ، التى نسج خيوطها

المفسِّرون والقُصَّاصُ، من واردات الخيالات والأوهام ، فكان منها تلك الخرافة المعروفة (بالغرانقة العلا) التى كثُرت فيها الأقوال ، وتضاربت حولها الآراء ، حتى كادت تدخل مدخل الواقع ، وتلبس ثوب الحقيقة ، لدورانها على الألسنة ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، وهى كائن ميت ، كان من الواجب أن يُوارَى من أول يومه ، ويُدفن فى التراب ، وألا يُنْبش بين الحين والحين ، فإن تقليب جثث الموتى لا تجىء منه إلا الروائح الخبيثة ، التى تَزْكم الأنوف ، وتكظِم الأنفاس !

وقد كنّا نريد ألا ننبش هذا الجسد المتعفن ، وألا نثير منه تلك الروائح الخبيثة التى تضيق بها صدور المؤمنين ، لولا أننا نخشى أن يكون لبعض المؤمنين نظرٌ فيها ، ووقوف أو توقّف عندها ، وهم يقرءونها فى كتب التفاسير ، ويجدونها فى ثنايا كتب السيرة النبويّة العطرة ! .

فيثير ذلك فى نفوسهم قلقاً واضطراباً ، ويحرّك فى صدورهم وساوس وظنونا !

ولهذا لم نَرَ بُدًّا من الوقوف عند هذه القصة ، والكشف عن زيفها وباطلها . . !

ولكن قبل الدخول فى هذا البحث ، أعود فأذكّرك بالنظر إلى قوله تعالى فى الآية السابقة : « والذين سَعَوا فى آياتنا معاجزين » . . وإلى أن هذه الآيةَ موجهةٌ إلى المشركين ، وإلى عبثهم بآيات الله ، وإلى مغالبتها ومعاجزتها باللّغو فيها . .

فالمشركون متّهمون بهذه الجريمة ، وهى الدخول إلىَ آيات الله ، بما يغيّر وجهها ، ويبدّل صورتها ، ويعطيهم الحجة عليها ، بعد أن كانت لها الحجة عليهم . .

إذا عرفنا هذا ، وسلمنا به ـ وهو واضح لا يحتاج إلى من يَدُلّ عليه ، وهو أمر مسلَّم به ، لا يجوز الخلاف فيه ـ كان ذلك هو مقطع القول فى هذه القضية ،

وكلمة الفصل فيها . . وكانت كلُّ الدعاوَى التى تُدّعَى لها ، وكلُّ الروايات التى تُساق لإثبات شخصيتها ، ضلالاً فى ضلال ، لأنها تصادم صريح لفظ القرآن ، وتنقض خبراً من أخباره . . وذلك كما سترى . .

[الغرانقة العُلَى . . قصتها ومن أين جاءت ؟]

قوله تعالى :

* « ومَآ أَرْسَلْنَا من قبلك مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

هذه الآية الكريمة ، هى التى ولّد منها المفسِّرون وأصحابُ السِّير ، قصةَ « الغرانقة » هذه . . ولكنا ندع هذه القصة الآن ، وننظر فى الآية الكريمة نظراً غير مرتبط بما يقال من روايات عن أسباب النزول ـ ننظر إليها على أنها قرآن يُتلَى ، ويُتعبَّد بتلاوته ، دون أن يكون لسبب النزول ـ أيًّا كان ـ أثرٌ فى موقعه من قلوبنا ، أو عقولنا !

ـــ فقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أُمنيته » هو خبر يتضمن حكما عاماً ، لا انفكاكَ منه . . يقع على رسل الله وأنبيائه جميعاً . . وهذا الحكم ، هو : أنه مامِنْ رسول من رسل الله ، ولا نبيٍّ من أنبيائه ، إلا والشيطانُ راصدٌ له ، وأنه كلّما تمنّى ألقى الشيطانُ فى أمنيّته !

هذا صريحُ ما تنطق به كلمات الله ، فى وضوح وجلاء . . وإن كان هناك ما يُسأل عنه ، فهو كلمة التمنّى . . فما معنى التّمنّى ، وما ذا كان يتمنّى الرسولُ ، أو النبىّ ؟ ثم ماذا يُلقى الشيطان فيما يتمناه الرسول أو النبىّ ؟

والتمنّى فى اللغة معروف ، وهو طلب النّفْس لرغيبة من الرغائب المحبوبة ، البعيدة عن أن تُنال ، بُعْداً يكاد يبلغ حدَّ الاستحالة .

وقد فرّق علماء النحو والبلاغة بين الترجّى ، والتّمنّى ، كما فرّقوا بين حَرْفى الطلب : ليت ، ولعلّ . . فقالوا : إن « ليت » للتمنّى ، وهو طلب محبوب لا يُدرك ، و « لعلّ » للترجّى ، وهو طلب مرغوب يمكن إدراكُه والحصول عليه ، وإن كان بعيداً .

وفى القرآن الكريم ، جاء لفظ التمنى بهذا المعنى ، الذى هو طلب الشىء البعيدِ . . كما فى قوله تعالى : « فَتَمَنَّوُا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » (٩٤ ـ ٩٥ : البقرة) .

والخطاب هنا لبنى إسرائيل ، وهم مطالبون فى هذا الخطاب أن يتمنّوْا شيئاً لا يمكن أن يقع منهم ، وهو تمنّى الموت . . ولهذا جاء قوله تعالى : « ولن يتمنّوه أبداً » كاشفاً عن هذا . . ولهذا أيضاً جاء قوله تعالى بعد ذلك : « ولتجدنّهم أحرصَ الناس على حياة » ـ جاء مؤكداً لعدم وقوع هذا الأمر منهم ، إذ أن الحريص على الشىء لا يتمنى إفلاته من يده ، فكيف إذا كان أشدَّ الناسِ حرصاً عليه ؟

وجاء فى القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « أمْ للإنسان ما تمنى ؟ » (٢٤ : النجم) وهو ينكر على الإنسان أن يقع له ما يتمناه ، ويجرى على هواه وهواجسه . .

وجاء فى القرآن الكريم كذلك فى قوله تعالى : « ومنهم أُمّيُّون لا يعلمونَ الكتاب إلا أمانىَّ وإن هم إلا يظنّون » (٧٨ : البقرة) والأمانىُّ جمع أمنيّة . . وعِلْم الأميين من أهل الكتاب ،بالكتاب ، هو علم بعيد عن الحقّ ، بُعد الأمنية عمن يتمنّاها .

ذلك هو التمنى ، على ما عرفته العرب ، وجاء به القرآن الكريم ، وهو أنه طلب أمر محبوب ، بعيد الإدراك ، أو مستحيله .

فما هى أمنية كلِّ رسولٍ ، وكلِّ نبىّ ؟

إن أمنية كلّ رسول ، ورغيبة كلّ نبىّ ، هى أن يرى قومَه على الهدى الذى يدعوهم إليه ، وأن يُصبحوا جميعاً فى المؤمنين بالله . . فتلك هى رسالته فى الناس ، يعيش لها ، ويعمل من أجل تحقيقها ، وأن سعادته كلها هى أن يرى نجاح مسعاه ، وثمرة جهاده ، فى هذه الأعداد التى استجابت له واتبعته ، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد ، تضاعفت سعادته ، وعظمت غبطته . .

هذه هى أمنية كل رسول ، وكل نبىّ . . لا أمنيةَ لأحدٍ منهم غيرُ هذه الأمنية !

ولكن الأمانىّ ـ كما قلنا ـ بعيدة التحقيق !

وأمنية الرسول أو النبىّ فى أن يكون الناس جميعاً مؤمنين ـ أمنيةٌ تقع فى دائرة المستحيلات ، لأنها تطلب من الحياة مالم تَجُدْ به ، وتريد الناس على غير ما أقامهم الله عليه . . فالحياة لم تعرف المجتمع الإنسانىّ على طريق سواء ، يضمّ جميع أفراده . . والناس ـ كما خلقهم الله ـ مؤمن وكافر ، وفى هذا يقول الله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .

وإذن فأمنية أى رسول وأى نبىّ ، غير ممكنة التحقيق .. ومع هذا فإن على كل رسول وكل نبىّ أن يَسْعَى سعيه ، ويبذل جهده ، ويدعو الناس جميعاً إلى الله ، ويؤذّن فيهم بآيات اللهِ !

ولكن صوت الحق هذا ، تَلْقاه على الطريق أصواتٌ منكَرة ، بعضها ينبح نبح الكلاب ، وبعضها يعوى عُواء الذئاب ، ومنها ما ينهق نهيق الحمير ،

ومنها ما يفحّ فحيح الأفاعى . . فيتألف منها ومن كثير غيرها من كل صوت منكَر - إعصار مجنون ، يكاد يخنق هذا الصوت الكريم ، ويغطى سماءه الصافية ، بما يثير من غبار ودخان !

فهذه هى أمنية الرسول أو النبىّ ، وتلك إلقاءات الشيطان فيها . . إذ ليست كلُّ هذه الأصوات المنكرة إلا صنيعةَ الشيطان ، وإلا غرساً من غرسه النكِد ، وثمراتٍ من ثمر هذا الغرس الخبيث . .

ويحسن هنا أن تقرأ هذا المقطع من الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ . . إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته » . .

وواضح مما رأيت ، أن أمنيّة كل رسول وكل نبىّ ، كانت أبداً هى هدايةَ قومه جميعاً إلى الله ، وأن إلقاء الشيطان فى هذه الأمنية ، هو ما يوسوس به السفهاء ، والحمقى ، والجهلاء من القوم ، ليقفوا فى وجه الدعوة التى يُدْعَوْن إليها ، وليرْهقوا رسلهم وأنبياءهم . فالشيطان لايظهر عِياناً ، ولا يَلْقَى الرسولَ أو النبىّ مواجهة ، وإنما يلقاهما فى أتباعه وأوليائه ، هؤلاء الذين استذلّهم الشيطان ، وأمسك بهم من مقاودهم ، فكانوا له جنوداً يُسلطهم على أنبياء الله ، ورسل الله ، وأولياء الله . .

ولكن ماذا يكون بين هذه الأمنية التى يتمنّاها الرسول أو النبىّ ، وما يُلقى به الشيطان فيها ؟

الشيطان كما أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - عنه ، ليس له سلطان على الذين آمنوا ، كما يقول سبحانه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » (٩٩ : النحل) فكيف بالرسل والأنبياء ، الذين عصمهم الله ، وأمدّهم بكثير من أمداد عونه ، وتوفيقه ، وحياطته ؟ ثم كيف والشيطان أيًّا كان هو ضعيف الكيد لمن عرف كيف يدافع عن إنسانيته ، ويحمى وجوده من أن

يكون مطية ذَلولاً له . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (٧٦ : النساء) إن هؤلاء الضالين الآثمين ، الذين يقفون فى وجه الحق ، هم صنائع الشيطان ، وهم كيده الذى يكيد به لأولياء الله ، وأنبياء الله ، ورسل الله . وهذا « الكيد » الذى هو من أولياء الشيطان .. هو كيد ضعيف ، وسراب خادع ، لايقف للحق ، ولايحتمل صدمته ! . .

وعلى هذا ، فإن ما يُلقى به الشيطان فى أمنية الرسول أو النبىّ ، من ضلالات وأباطيل ، وما يستنبت به فى منابت الحق من شوك وحَسَك ـ هو سحبُ صيف ، لاتلبث أن تنقشع من وجه الشمس ، وإذا شعاعها يملأ الآفاق ، وإذا ضوؤها يبدد كل ظلام ، وإذا حرارتها تتمشّى فى أوصال الكائنات .. « كذلك يضرب الله الحقّ والباطل .. فأمّا الزبد فيذهب جُفَاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١٧ : الرعد)

وهكذا يذهب مايُلقى الشيطان فى أمنيّة الرسول أو النبى . . هباءً ، حيث يَخلُص النبى أو الرسول بأوليائه ، وهم صفوة المجتمع ، والثمرات الطيبة فيه ، على حين يستولى الشيطان على أتباعه ، ويسوقهم إلى حظيرته ، حيث هم حَصَبُ جهنم وحطبها !

واستمع بعد هذا إلى قوله تعالى : « فينسخ الله مايُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياتهِ والله عليم حكيم » وانظر كيف كانت عاقبة هذا الصراع بين النبى أو الرسول ، وبين الشيطان وأولياء الشيطان . . لقد أحكم الله سبحانه وتعالى آياتهِ ، فنسخ أى أبطل .. ما ألقى الشيطان ، ثم أحكم سبحانه آياته ، وثبّت قواعدها . .

ولا يُعترض على هذا القول ، بأن الرسول أو النبىّ كانت أمنيّته هى هداية

قومه ، أو معظم قومه ، ولـكن الذين خَلَصَ بهم من هذا المعترك ، هم قليل من كثير . . فـكيف يقال مع هذا إن أمنيته تحققت ، وإن الله سبحانه وتعالى قد أحكم آياتِه — على هذا المفهوم الذى فُهمت عليه الآية — ونَسخ ما ألقى الشيطان ؟ .

والجواب على هذا ، قريب من قريب . . فلقد تحققت أمنية النبى أو الرسول تحقيقاً كاملاً ، ولو لم يؤمن معه من قومه أحدٌ . . ! كما ترى .

إن أمنية الرسول أو النبىّ . كانت فى أول الأمر هى هدايةَ قومه ، فرداً ، فرداً . . وهو فى سبيل تحقيق هذه الأمنية لايدخر شيئاً من جهده ، ولا يضنّ بشىء من راحته . . ثم هو مع هذا يظل صابراً محتملاً لـكل ما يرميه به السفهاء ، من فُحش القول ، وشنيع العمل . . حتى إذا انتهى الأمر إلى غاية يتضح منها أن لاخَيْر يرجى من هؤلاء القوم ، وأن لا ثمرة تحصّل منهم ، مهما بُذل من جهد ، أو ضوعف من عمل ـ إلى هنا يكون الشيطان قد غطى أمنية الرسول أو النبىّ ، وحجب ضوءها.. وعندئذ يتولى الله سبحانه وتعالى أَخْذَ هؤلاء القوم بالبأساء والضرّاء ، فيضربهم ضربة قاضية ، فإذا هم فى الهالـكين . . وهكذا يَنْسخ الله كل ما ألقى الشيطان ويبطله ، على حين يكون قد أَحكم آياتِه وثبتها بنجاة النبىّ أو الرسول من هذا البلاء . . إن الرسول أو النبىّ فى تلك الحال ـ وإن كان وحده ـ هو آية الله ، أو آيات الله التى أُحكمت ، فثبتت ، وبقيت . . أما ما ألقى الشيطان ، فقد نُسِخ وبطل ، وذهب هباءً !

واستمع إلى الآية كلها مرة أخرى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته . . فينسخ الله ما يُلقى الشيطان. . ثم يُحكم الله آياتِه . . والله عليمٌ حكيم » .

وأحسب ـ بعد هذا ، بل وقبل هذا ـ أن الآية الـكريمة ، واضحة

الدلالة بيّنة القصد ، لمن نظر إليها نظراً بعيداً عن وساوس الأساطير ، وهمسات الإسرائيليات ، التى كان يُلقى بها اليهود إلى آذان القصاص ورواةِ الأخبار ، فيتلقاها عنهم المفسرون ، ويحملونها إلى الكتاب الكريم !!

فالآية الكريمة تكاد لوضوحها تنطق بمضمونها ، وتحدّث بمفهومها ، ولكن الخيال الأسطورى ، أغرى المفسرين بأن يستولدوا من الآية عجائب وغرائب منكَرة . . كما سنعرضها عليك بعد قليل . .

وهنا نحبّ أن نشير إلى أن الآية الكريمة قد تحدّثت عن الرسول ، وعن النبىّ ، باعتبار أن لكل منهما صفةً خاصة ، وأنهما لو كانا على صفة واحدة لَمَا جاءت بهما الآيةُ على هذا النظم ، الذى جاء العطف فيه بين الرسول والنبىّ بإعادة حرف النفى ، الذى يؤكد لكلٍّ من الرسول والنبىّ ذاتيته . . فكأنّ نظم الآية يقول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نبىّ » . . وهذا يعنى أن الرسول غير النبىّ . .

والذى عليه الرأىُ عند المفسرين والفقهاء ، أن كلاًّ من الرسول والنبىّ يوحَى إليهما من الله . ولكن الرسول ينفرد بأنه صاحب شريعة يتلقاها من الله ، ويدعو إليها الناس . . بخلاف النبىّ الذى لا شريعة معه ، وإنما هو على شريعة رسول سبقه ، وأنه يدعو إلى شريعة هذا الرسول . . فكل رسول نبىّ . . وليس كل نبىّ رسولا . .

وعلى أىٍّ ، فإن الرسول صاحبُ كتاب سماوى أو صحف سماوية . . أما النبىّ فلا كتاب ولا صحف معه . .

وهذا الوضع الذى يختلف فيه النبىّ عن الرسول ، له دلالة كبيرة فى المفهوم الذى ينبغى أن نفهمه من الآية السابقة ، وهو أن قوله تعالى : « فينسخ الله مايُلقى

الشيطان ثم يُحكم الله آياته .» لا يمكن أن ينصرف إلى الآيات المقروءة ، المنزلة وحياً من السماء ..

وذلك لأن النبيّ — مجرد النبيّ — لا يدخل في هذا الحكم ، إذ لا كتاب معه ، ولا صحف ، حتى يقع عليها النسخ فيما ألقى الشيطان فيها . !!

وإذن ، فالذى ينبغى أن نقطع به قطعاً جازماً ، هو أن معنى النسخ فى هذه الآية ، لا يمكن أن يكون وارداً على نسخ آيات الله المتلوة ، كما هو المعروف عن النسخ بمعناه العام المطلق ، الذى فسره عليه المفسرون ..

وهذه الحقيقة ، هى فى الواقع من أقوى الأدلة على فساد المعنى الذى فُهمت عليه الآية الكريمة ، والذى جاءت منه قصة — أو خرافة — «الغرانقة العلا» التى ستعرف نبأها عما قليل..

وقبل أن نعرض لهذه الخرافة ، ننظر فى الآيات الكريمة التى تلت هذه الآية التى نحن بين يديها ، منذ أخذنا فى هذا الحديث . . فهذه الآيات مكملة لها ، ومعقبة عليها ..

يقول الله تعالى بعد هذه الآية :

* « ليَجعلَ ما يُلقى الشيطان فتنةً للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبُهم وإن الظالمين لفى شقاقٍ بعيد» ..

وهذا يشير إلى أن ما ألقاه الشيطان فى أمنية الرسول أو النبيّ — هو فتنة للذين كفروا من أهل الكتاب، وللقاسية قلوبهم من هؤلاء المشركين من قريش. بمعنى أن من اتخذهم الشيطان أولياء ، فجعل منهم جنوداً مدججين بسلاح السفاهة والتطاول على الرسل والأنبياء — هؤلاء الجنود هم فتنة مطلة على الذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، وعلى المشركين من

العرب ، وهم القاسية قلوبهم ، إذ كانوا بعملهم هذا — من أهل كتابٍ ومشركين — دعوةً إلى الضلال ، تواجه دعوة الهدى التي يدعو بها الرسول والنبيّ .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » (٢٠ : الفرقان) ويقول سبحانه على لسان المؤمنين : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » (٥ : الممتحنة) .

* وفى قوله تعالى : « وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » إشارة أخرى إلى أن هؤلاء الذين ألقى بهم الشيطان فى طريق الدعوة التى يدعو بها الرسول أو النبيّ ـ هم متلبسون بظلم عظيم ، لما هم عليه من شقاق بعيد عن مواطن الحق ، ومن خلاف قائم على الجرأة والتجرد من الحياء ، فى إنكار البدَهِيات ، وفى عدم التسليم بها والانقياد لها :

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

* « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم .. وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم » .

أى أنه من هذا الاحتكاك بين الحقّ الذى يدعو إليه الرسول أو النبيّ ، وبين الباطل الذى يُلقى به الشيطان وأولياء الشيطان فى وجه هذا الحق — فى هذا الاحتكاك تنقدح شرارات مضيئة ، يرى أهل العلم والمعرفة على ضوئها فرقَ ما بين الحق والباطل ، فتزداد معرفتهم بالحق ، ويقوى تعلقهم به ، واطمئنان قلوبهم وإخباتها له .. « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ، بهذا الصراع الذى يقوم بين الحقِ والباطل ، فلا يُعشِى أبصارَهم عن الحق هذا الغُبارُ الذى يثيره الباطل والمبطلون فى وجهه ، بل إن ذلك ليزيد من نور الحق ، ويضاعف من جلاله ورُوائه . كالشمس ، يحجبها السحاب ، فإذا انقشع السحاب وسفرت عن وجهها ، كانت أحسن حسناً وأبهى بهاء . . إن ذلك شأن كلّ ضدّ يلتقى بضده .. فالحَسَن يزداد مع القبيح حسناً ، والحلو يكون بمذاق

المرّ أحلى مذاقاً وألذّ طعماً .. والعافية بعد السُّقم، تكون أهنأ وأطيب منها في جسد لم تصادفه علة، أو يلحّ عليه مرض .. وفي المثل: «بضدها تتميز الأشياء».

ثم يجيء بعد هذا قوله تعالى:

* «ولا يزال الذين كفروا في مِرْيَةٍ منه حتى تأتيَهم الساعة بغتةً أو يأتيَهم عذاب يوم عقيم».

الضمير في «منه» يعود إلى القرآن الكريم، الذي وإن لم يجر له ذكر فيما سبق، فهو مذكور كأصلٍ أصيل للحق الذي يجادل فيه الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ..

أما القاسية قلوبهم — وهم مشركو العرب — فستلين قلوبُهم آخرَ الأمر، وسيؤمنون بالله، وينقادون للحق ..

وأما الذين في قلوبهم مرض — وهم أهل الكتاب — وخاصة اليهود، فإنهم لن يتحولوا عن حالهم مع القرآن، بل سيظلون على امترائهم وجدلهم فيه .. وهذا شأنهم أبداً حتى تأتيهم الساعة، بل إن كثيراً منهم سيظل على امترائه حتى يرى عذاب الله في هذا اليوم العظيم ..

وفي وصف هذا اليوم بأنه عقيم، إشارة إلى أنه لا يومَ بعده، حتى يمكن أن تتحول فيه أحوال الناس، ويُصلح المفسدُ منهم ما أفسد .. إنه يوم عقيم لا يلد يوماً بعده، كما تلد أيام الدنيا، أياماً بعدها ..

ثم يجيء قوله تعالى:

* «الملك يومئذ لله يحكم بينَهم .. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين»:

أى فى هذا اليوم ، يكون الملك لله وحده ، لا يملك أحد لنفسه أو لأحد شيئاً ..

وفى هذا الموقف يفصل الله بين عباده ، ويقضى بالحق بينهم .. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، ينعمون برضوان الله ، ويخلدون فى رحمته .. وأما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، وجادلوا بالباطل فيها ، فأولئك لهم عذاب مهين ، يُذلّهم ويُخزيهم .

وفى تخصيص الملك لله فى هذا اليوم ، مع أن الملك لله أبداً ، فى هذا اليوم وفى كل يوم ، إشارة إلى أن هذا اليوم يتجرد فيه كل ذى سلطان من سلطانه ، وكل ذى قوة من قوته ، وكل ذى مال من ماله ، فلا تصريف لأحد ، فى الظاهر أو الباطن ، كما للناس تصريف — فى الظاهر — فيما خوّلهم الله من سلطان ، وأموال .. فى هذه الدنيا

ثم يجىء قوله تعالى :

« والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * لَيدخلنهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم » ..

هو إشارة إلى إحكام الله لآياته ، بعد أن نسخ ما ألقى الشيطان فيها .. فهؤلاء الذين هاجروا فى سبيل الله ، فراراً بدينهم ، ثم قتلوا استشهاداً فى سبيل الله ، أو ماتوا ميتة طبيعية ـ هم من الذين أحكم الله آياته فيهم ، فنجاهم من الافتتان فى دينهم، وجزاهم على صبرهم على هذا الابتلاء فى أموالهم وأنفسهم ، أجراً عظيما ، حيث رزقهم أطيب رزق وأكرمه ، وهو الحق الذى معهم ، والإيمانُ الذى عَمَرَ قلوبهم ، ثم النّصر على عدوّهم ، والتمكين لهم فى الأرض . ثم الرزق الأعظم بهذا الفوز بجَنّاتِ النعيم فى الآخرة . . « وإن الله لهو خير الرازقين » ومن عطائه الجزيل الجليل ، هذا النعيم الذى ينعم به المؤمنون فى

جنات الخلد ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يَدّعون . . نُزُلاً من غفور رحيم . . وهذا هو المُدْخَل الذى يُدْخِلهم الله فيه ، ويملأ قلوبهم به غبطةً وَرِضًا . . « وإن الله لعليمٌ » بمن هم أحق برضاه ومغفرته وإحسانه من عباده . . « حليم » لا يَعْجَل بعقوبته ، بل يُمهل الظالمين ، حتّى يكون لهم نظر فى أمرهم ، ورجعة إلى ربّهم . . فإن لم يفعلوا فالنار مثواهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٢٦ : الزمر) .

هذه الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبىٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته . . والله عليم حكيم » ، وما سبقها أو تلاها من آيات ـ هى التى نُسجت حولها قصة « الغرانقة » التى آن أن نحدثك عنها

وقد رأينا الآيات جميعها تعرض صورةً من صور هذا الصِّراع ، الذى عرض القرآن الكريم كثيراً من صوره ، بين النبىّ ، وبين المشركين والكافرين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض . . وهى فى صورتها تلك ليس فيها شىء على غير مألوفٍ ماجاء من صور هذا الصراع بين أنبياء الله ورسله ، مع أقوامهم . .

فمن أين إذن جاءت خُرافة « الغرانيق العُلى » ؟ ذلك ماتراه فيما سنعرضه عليك الآن . .

كان موضوع الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، من القضايا البارزة ، التى شُغل بها علماء التفسير ، والفقه . . وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص فى الجزء الأول من هذا التفسير . . وكان من رأينا — ومازلنا عليه — أن لا نسخ فى القرآن . .

وقد نظر المفسِّرون فىقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبىّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايُلْقى الشيطان . . ثم يحكم الله

آياته — نظر المفسرون فى قوله تعالى : « فينسخ الله مايلقى الشيطان » فرأوا هذا الخبر بالنسخ ، فكان هذا منطلقاً ينطلقون منه إلى إثارة هذه القضية ، وإلى البحث عن المنسوخ الذى نسخه الله ، وكان من هذا أيضاً امتــدادُ النظر إلى ماوراء القرآن الكريم ، والإصغاء إلى مايُلقَى إليهم من أخبار وروايات يمكن أن يُتَّكأ إليها ، للكشف عن أساس تقوم عليه الآية الكريمة ، وبتحقق بها ما أخبر به الله سبحانه وتعالى من نسخٍ لما ألقى الشيطان .. ثم كان ذلك داعية البحث عن هذا الذى ألقاه الشيطان ، ثم نسخه الله .. !

هناك إذن أمران ، كان على المفسِّرين الكشفُ عنهما فى هذا الموقف :

ماهى أمنية النبى ؟

ثم ماذا ألقى الشيطان فى أمنية النبىّ ؟ وأين ألقاه ؟ ثم بماذا نسخه الله ؟ وقد كان !

فألقى المفسِّرون بشباكهم فى هذا البحر المتلاطم ، الذى يَفيض من يدى القصاص ، ورواة الأخبار .. فجاءت بأكثر من صيد .

فمن ذلك ماروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » والمشركون يستمعون إليه ، وحين بلغ إلى قوله تعالى : «أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى» أتْبع ذلك بقوله : «تلك الغرانيق[1] العُلا » وفى رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العُلا » وفى رواية ثالثة : « والغرانقةِ العُلا تلك الشفاعة تُرتجى » .. وفى رواية رابعة : « إن شفاعتهن لترتجى » من غير ذكر الغرانقة العلا .

---

(١) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق (بضم الغين) أو غرانق (بضم الغين أيضا) وهو طائر مائى يشبه الكركى ، ويشبه به الشاب الأبيض الجميل كما يشبه به الملائكة .

فهذه أربع روايات فى هذه الواقعة ، وكلّها ذات أسانيد متصلة ..

فالرواية الأولى تقول : إن النبى قرأ الآيات هكذا : « أفرأيتم اللاّت والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى.. تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى » !

والرواية الثانية تقول : إن قراءة النبى كانت هكذا : « أفرأيتم اللات والعُزى * ومناة الثالثة الأخرى * إن شفاعتها لترتجى ، وإنهـا لمع الغرانيق العُلا » !

وفى الرواية الثالثة جاءت القراءة هكذا : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، والغرانقة العُلا تلك الشفاعة ترتجى » .

والرواية الرابعة كانت هكذا : « أفرأيتم اللاّت والعزى ومنــاة الثالثة الأخرى، إن شفاعتهن لترْتجى » .

أما القرآن الكريم ، فيقول . « أفرأيتم اللاّت والعزى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمةٌ ضِيزى[1] * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

ومدلول هذه الروايات ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد ذكر فى تلاوته لسورة النجم ، آلهة قريش بخير ، وجعل لها عند الله مكاناً علياً ، حتى إنهـا لتشفع عنده ، لمن يلتمس الشفاعة عندها ، ويستحقها منها .

وتقول الرواية : إن النبىّ حين بلغ آخر السورة ، سجد ، وسجد معه المسلمون والمشركون ، عندما سمعوه ، وقد أثنى على آلهتهم ! !

---

(١) قسمة ضيزى : أى جائرة ظالمة ، إذ جعلوا لله الإناث ، ولهم الذكور . . والذكور فى عرفهم أكرم من الإناث .

وقد تداخلت مع هذه الرواية روايات أخرى ، وكأنها تريد أن تفسر هذه الواقعة ، وتجد لها وجهاً تُقبل عليه .

فتقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبيّ هذا القول ، الذى قاله فى حق الآلهة ـ اللات والعزى ومناة ـ وأنه صلى الله عليه وسلم ، كان قد ألمّ به ضيق وحزن شديد ، لِما كان بينه وبين قومه من خلافٍ مستحكم ، « فتمنى » فى تلك الحال أن لو نزل عليه شىء من القرآن يُقارب بينه وبين قومه ، ويُباعد شقة الخلاف بينه وبينهم . ولهذا فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين تلا سورة النجم ، وبلغ الموضع الذى تُذكر فيه آلهتهم ، ألقى الشيطان إليه بهذه الكلمات ، التى ترفع من شأنها ، وتجعل لها مكان الشفاعة عند الله .. ثم تستطرد الرواية فتقول : « إن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبىّ ، فلما عرض عليه النبىّ السورة بما أدخله الشيطان عليها ، قال له جبريل : « ماجئتُك بها هكذا!!! » فحزن النبىّ لذلك ، فنزل قوله تعالى ـ تسليةً له ـ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته .. » ثم قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينآ إليك لتفترىَ علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولآ أن ثبتناك لقد كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلا * إذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ ثُمّ لاتجدُ لك علينا نصيراً » (٧٣ ـ ٧٥ : الإسراء) .

ونقول : إن هذه الروايات ، وتلك النقول ، كانت موضع إنكار ، واستنكار عند بعض المفسِّرين ، وأصحاب السير . . إذ كانت ـ فى صورتها تلك ـ عدواناً صارخاً على مقام النبوّة ، ونسخاً صريحاً لعصمة النبىّ . !

وقد كان القاضى عياض خيرَ من تصدّى لهذه الأكذوبة ، وفضح مستورها

وعقد لذلك فصلا فى كتابه : « الشفا .. بتعريف حقوق المصطفى .. » نرى من الخير أن نعرض جانباً منه ..

يقول القاضى عياض :

« إن لنا فى الكلام على شكل هذا الحديث ـ يقصد حديث الغرانقة ـ مأخذين :

أحدهما : توهين أصله .. [أى فى سنده ومتنه] ..

والثانى على تسليمه .. [أى على فرض التسليم بصحته]

[المأخذ الأول]

(ا) توهين أصل الحديث :

يقول القاضى عياض :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث ، فيكفيك أنه حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أُولع به وبمثله ، المفسّرون ، والمؤرخون ، والمولعون بكل غريب ،المتلقفون من الصحف، كلّ صحيح وسقيم .. وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى ، حيث قال : « لقد بُلى الناس ببعض أهل الأهواء والبدع ، وتعلق بذلك الملحدون ، مع ضعف نقلته ـ يقصد هذا الحديث ـ واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته.. فقائل يقول إنه فى الصلاة (يقصد بعض الروايات التى تقول إن النبى قرأ سورة النجم فى الصلاة) .. وآخر يقول : قالها فى نادى قومه حين أُنزلت عليه السورة، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سِنَة .. وآخر يقول : بل حدّث نفسَه فَسَها .. وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبىّ لما عرضها على جبريل قال له : ماهكذا أقرأتُك .. وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبى صلى الله

عليه وسلم ، قرأها ، فلما بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : « والله ماهكذا نزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسِّرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ، ولم يرفعها إلى صاحب (أى صحابىّ) . وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ..

(ب) تَوْهِين معنى الحديث :

ثم يقول القاضي عياض : « هذا توهينه ـ أى الحديث ـ من جهة النقل ..

« وأما من جهة المعنى ، فقد قامت الحجة ، وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته من فعل هذه الرذيلة ، إما مِن تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو من أن يتسوّر ـ أى يعلو ـ عليه الشيطان ، ويشبّه عليه القرآن ، حتى يجعل فيه ماليس منه ، ويعتقد النبيّ أن من القرآن ماليس منه ، حتى ينبهه جبريل عليه السلام ..

وذلك كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم . أو أن يقول ذلك فى نفسه من قِبَل نفسه.. عمداً ، وذلك كفر ، أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع ، عصمتَه صلى الله عليه وسلم ، من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لاعمداً ولاسهواً . . أو أن يشتبه عليه مايُلقيه المَلَك بما يلقى الشيطان ، أو أن يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لاعمداً ولا سهواً ، مالم ينزل عليه ..وقد قال تعالى : « ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين » (٤٤ ـ ٤٦ : الحاقة) .

ثم يقول القاضي عياض ، فى عرض وجوه الرأى فى توهين معنى الحديث :

ووجه ثان :

وهو استحالة هذه القصة ، نظراً وعرفاً ، وذلك أن هذا الكلام لو كان

كما رُوى ، لكان بعيدَ الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولَمَا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمّل ، فكيف بمن رَجح حلمه ، واتسع فى بيان البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟

ووجه ثالث :

أنه قد عُلم من عادة المنافقين ، ومعاندى المشركين ، وضَعَفة القلوب ، والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبى صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفَيْنةَ بعد الفيْنة ، وارتداد مَن فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام ــ لأدنى شبهة .

ولم يَحْكِ أحد فى هذه القصة شيئاً ، سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك ، لوجدت من قريش على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة ، كما فعلوا ، مكابرةً ــ فى قصة الإسراء ، حتى كان فى ذلك لبعض الضعفاء ردّة .. ولا كذلك ما رُوى فى هذه القصة ــ قصة الغرانيق ــ ولا فتنة أعظم من هذه البليّة لو وجدت ، ولا تشغيب المُعَادى حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت !! .. فما رُوى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بِنتُ شَفَة ، فدلّ ــ ذلك ــ على بطلانها واجتثاث أصلها .. ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجنّ هذا الحديث على بعض مغفّلى المحدِّثين ، ليُلبّس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع :

ذَكرهُ الرواة لهذه القضية ، أن فيها نزلت الآية : « وإن كادوا

ليفتنونك عن الذى أوحينآ إليكَ لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلا » (٧٣ ـ ٧٤ : الإسراء) ـ وهاتان الآيتان تردّان الخبرَ الذى رووْه ، لأن الله تعالى ذَكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته الله ـ لـكاد يركن إليهم .

« فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا ، فـكيف كثيراً ؟ وهم ـ أى الرواة ـ يرْوُون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء ، بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريتُ على الله وقلتُ مالم يقل ، وهذا ضدّ مفهوم الآية ، وهى تُضعف الحديث ، لوصحّ ، ولا صحة له .. وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون إلاّ أنفسهم وما يَضُرُّونك من شىء » (١١٣ : النساء) .

وقد رُوى عن ابن عباس : « كل مافى القرآن « كاد » فهو لايكون » قال الله تعالى : « يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار » ولم يذهب ـ به ـ بصر أحد .. « وأكاد أخفيها » ولم يفعل !

قال القُشيرى القاضى : « ولقد طالبتّه قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبِل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كاد ليفعل » .

[المأخذ الثانى]

التسليم بصحة الحديث :

ثم يناقش القاضى عياض هذه القضية ، من جانبها الآخر ، وهو فرض التسليم بصحة الحديث ، فيقول : « وأما المأخذ الثانى ، فهو مبنى على تسليم الحديث ، لوصحّ ، وقد أعاذنا الله من صحته ، ولـكن على كل حال ، فقد أجاب

عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الغثّ والسمين .. فمنها :

أولا : ماروى عن قتادة ومقاتل : « أن النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ، أصابته سِنة عند قراءته هذه السورة ، فجرى على لسانه هذا الكلام بحكم النوم » ..

وهذا لايصح ، إذ لايجوز على النبىّ مثلُه ، فى حالة من أحواله ، ولا يَخْلُقُه الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليهّ ، فى نوم ولا يقظة ، لعصمته فى هذا الباب ، من جميع العمْد والسهو .

ثانياً : وفى قولٍ : « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. » وفى رواية « ابن شهاب » عن أبى بكر بن عبد الرحمن قال : « وسَهَا ـ أى النبى ـ فلما أُخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان » .

ويرد القاضى عياض على هذه الروايات بقوله : « كل هذا لايصحّ أن يقوله النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لاسهواً ولاقصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه ..

ثالثاً : وقيل : « لعلّ النبى صلى الله عليه وسلم قاله ـ أى هذا القول ـ أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، كقول إبراهيم ـ عليه السلام : « هذا ربى » على أحد التأويلات[1] (وأن النبىّ إذ قال ذلك قاله) بعد السكت، وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .. »

يقول القاضى عياض : « وهذا ممكن ، مع بيان الفصل وقرينةٍ تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ ، أى ليس من القرآن » .. اهـ

* * *

---

(١) من التأويلات التى يذهب إليها المفسرون فى قول إبراهيم « هذا ربى » عن الكوكب والقمر والشمس ، أنه قال ذلك على طريق الاستفهام المراد به السخرية والاستهزاء ، أى : « أهذا ربى » ؟ استصغاراً لشأنه .

تلك هى القصة ، أو الأكذوبة ، كما جاءت فى كتب السير ، وعلى ألسنة القصاص ، ونقلها المفسّرون ، وتداولها اللاحق منهم عن السابق ، وذلك أسلوب من أساليب دفعها ، وتكذيبها .

والقصة أو الأكذوبة — كما ترى — مهلهلة النسج ، واهية البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عُوارَها ، ويداروا هُزالها ، فألقوْا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لكاد يختفى الأصل ، ولا يُرى منها إلا تلك المرقعات التى أضيفت إليها !.

فالمادّة التى تخلّقت منها القصة ، مادة فاسدة ، لا يتخلّق منها شىء يصلح أن يعيش فى الحياة ، وأن يُكتب له بقاء فى عالم الأحياء .

ونسأل : ما مضمون هذا الخبر فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته » .

أليس من معنى هذا أن التمنى ليس حالاً واحدة تعرض للنبىّ فى حياته ، وإنما هى أمنيات تعيش مع النبى أو الرسول حياتَه كلها ، وأنه كلّما تمنّى أمنية ألقى الشيطان فيها ؟ .

فكيف لا يُلقى الشيطان فى أمنية النبىّ إلا فى هذه المرة ؟ وماذا يحول بينه وبين أن يُلقى فى كل أمنيّة للنبىّ ؟ أليس هذا مما يتمناه الشيطان ، ويعمل له جهده لو استطاع إليه سبيلا ؟ .

وأكثر من هذا ، فإن الذين يقولون بقصّة الغرانقة العُلاَ ، يذهبون إلى أن التمنّى ، ليس معناه من الأمانىّ ، وإنما معناه القراءة ، ويستشهدون لذلك بهذا البيت اليتيم من الشعر ، وهو من قول حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنه .

تمنّى كتابَ اللهِ أولَ لَيْلِهِ وآخرَه لاَقَى حِمَامَ المقَادِرِ

وهو ـ لو عقلوا ـ حجة عليهم . . لأنه يعنى أنه كلما قرأ النبيّ قرآناً ، دخل عليه الشيطان ، وألقى فيما يقرأ بما يريد ، حتى يُفسد مادة القرآن ، ويغيّر وجهها ، ويطفىء نورها . .

والذين يروون هذه القصة ، لم يجيئوا بحادثة أخرى ، كان للشيطان فيها إلقاء فى قراءة النبيّ ، على نحو ما رووه فى هذه القصة المفتراة !

ثم إن الذين قالوا : إن النبيّ سَهَا فوقع هذا الخاطر فى قلبه ، أو جرى سرًّا على لسانه ، ثم التقطه الشيطان فأذاعه . . أو إن النبي أخذته سِنَة فجرى على لسانه هذا القول عند قراءته ، بحكم النوم ـ هذا يعنى أن النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى حال يقظته يعيش مع هذه الخواطر ، ويراود نفسه بها ، وأن عقله اليقظ — كما يقول علماء النفس — كان يأبى عليه أن يصرّح به ، فلما نام أو سَها ، انحلّت هذه الخواطر من عُقال العقل اليقظ ، وانطلقت لا شعورياً إلى الخارج ، فكانت حديثاً مسموعاً . . وهذا يعنى أيضاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معترف فيما بينه وبين نفسه بهذه الأصنام ، وبأنها غرانقة عُلاَ ، وأن شفاعتها تُرتجى ، وأنه إذا لم يكن يصرح بذلك ، وهو فى حال اليقظة ، فقد صرّح به سهواً ، أو حين أخذته سنة من النوم ! . . وهذا يعنى ثالثاً ، الكُفْرَ ، والنفاق معًا . . ! وإنه لهو الكفر الذى يُدمغ به كل مسلم ، تقع فى نفسه أية شُبهة من الشبه تحوم فى سماء النبوّة الصافية ، المشرقة بنور ربِّها .

وبعد هذا كله ، وقبل هذا كلّه ، فإن فيصل الحكم فى هذا الموقف هو كلمة واحدة : نبى ، أو غير نبيّ ؟ رسول أو غير رسول ؟

فإن كان « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، غير نبيّ ، وغير رسول ، فهذا موقف له حسابه وتقديره ، وللكلام الذى يقال فيه حساب وتقدير . .

فكل ما ينسب إليه من أخطاء ، وما يُرمَى به من تهم ، ممكن الوقوع ، ويمكن التسليم به، إذ هو - والحال كذلك - إنسان ، مجرد إنسان ، يجوز عليه ما يجوز على الناس ، من صدق وكذب ، ومن إيمان وكفر !

أما إن كان « محمد » - صلوات الله وسلامه عليه - نبياً ورسولا ، فإن الذى يعتقد فى نبوته ، ويؤمن برسالته ، ثم يلحق به ما يقع فى حياة الناس من أخطاء ، وعثرات ، وتخبطات ، فهذا لا يستقيم أبداً مع صفة النبوة ، فإن الرسول مبلّغ عن ربه ، وهو بهذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان ، فيما يتصل برسالة ربّه ، وما تحمل من شريعة وعقيدة ، إذ أن أى انحراف أو تحريف فى هذا ، معناه سَوْق الناس إلى طرق مفتوحة ، مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء تدعوهم إلى صراط مستقيم ، ولا يستقيم هذا الصراط مع تلك الأخلاط ، وهذه المتناقضات ، التى تلتقى بالناس ، وهم سائرون فيه .

ذلك ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر ، أولاً عند من يؤمنون بالأنبياء . . إنهم لن يكونوا على غير تلك الحال التى توجب لهم العصمة ، وتحمى الرسالة التى يحملونها من أية شائبة تعْلَق بها .

وإذن فمن الضلالة والجهل ، أن يقول قائل : إن النبىّ — ويقولها هكذا النبىّ - حين قرأ سورة النجم ، نسى ، أو سها ، أو أخذته سِنَة ، أو غلبه خاطر قوىٌّ فى نفسه ، أو ألقى الشيطان إليه ، فذكر الأصنام التى كان يعبدها قومه ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها عند الله شفاعة !

أهذا قول يقال ، ويلتقى أوله مع آخره ؟

نبىٌّ يقرأ قرآناً منزلا من السماء . . ثم تعدو عليه عوادى الشرّ ، فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ، وهو على لسانه ، بل وبلسانه ؟

وماذا تُرك للضالين ، والمنافقين ، وأعداء الأنبياء ؟

قد يكون سائغاً أن تُنفى عن « محمد » صفة النبوة والرسالة على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال : إنه قال فى معبودات قريش ما قال . . إنه لا يعدو أن يكون حينئذ واحداً من مشركى قريش ، الذين يتعاملون مع هذه الآلهة ، ويتعبدون لها .

أمّا ومحمد نبىّ ، فإنه فى عصمة ، فوق الخطأ وفوق النسيان !

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : « قلت يا رسول الله . . أأ كتب عنك كل ما أسمع ؟ قال : « نعم » قلت : فى الرضا والغضب ؟ قال : « نعم » فإنى لا أقول فى ذلك كلّه إلاّ حقًّا » .

والحديث أيًّا كان سنده ، فإن القرآن الكريم ينطق بهذا فى قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى * إن هُوَ إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى » . فهذا حكم قاطع بأن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا ينطق عن هوًى ، ولا يبلغ عن الله إلا ما يوحى إليه . . فكيف يكون للقول بأن الرسول نطق بكذا وكذا مما ليس من عند الله ، ثم يُتَعَلّل لذلك بأنه كان سهواً ، أو حديثَ خاطر ، أو نحو هذا ـ كيف يكون لهذا القول مكان من القبول على أى وجه من الوجوه مع قول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وَحْىٌ يوحى » ؟

إن تلك الفرية مما دُسّ على المسلمين ، فى غير انتباهٍ منهم إليه ، ولا تقدير للشر الذى ينجم عنه ، وشغلهم الخبر بغرابته وإثارته عن أن ينظروا فيه نظراً متفحصاً دارساً . .

ولو أنهم فعلوا لما كان لهذا الحديث مكان فى كتب الحديث ، أو الفقه ، أو التفسير ، سواء أكان ذلك لمجرد نقل الخبر ، ثم تجريحه ، وتكذيبه ، أو كان

لعقله ، ثم نصب العلل التي تخرج به عن مفهومه . . فهو حديث خرافة ، لا ينبغي النظر إليه ، أو الوقوف عنده .

* * *

وبعد ، فإن مفهوم الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان . . ثم يحكم الله آياته ... » ـ نقول إن مفهوم الآية الكريمة على هذا الوجه الذي قامت في ظله قصة « الغرانقة العلا » ـ هو اتهام لرسل الله وأنبيائه جميعاً ، بأنهم تحت سلطان الشيطان ، وأنه راصد لهم ، آخذ على ألسنتهم ، فلا تستقيم ألسنتهم بقراءة آية من آيات الله ، حتى يخرجها الشيطان على الوجه الذي يراه ، ويلوى لسان الرسول والنبي إلى ما يريد . .

فسبحانك . . سبحانك . هذا بهتان عظيم ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض ، وتخرّ الجبال هدًّا !

الآيات : (٦٠ — ٦٦)

* « ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ذلك ومن عاقب بمثل ماعُوقِبَ به ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله إن الله لعفوٌ غفورٌ » . .

الإشارة هنا « ذلك » هى إشارة إلى شأن مضى ، ثم دخول إلى شأن آخر . . والتقدير : ذلك الذى حَدّثت به الآياتُ السابقة ، شأن ، وها هو ذا شأن آخر فاستمع إليه أيها النبى . . والعطف ، هو عطف شأن على شأن ، وموضوع على موضوع . .

والآية الكريمة تندّد بالبغى والعدوان ، وتجعل للمُعْتَدَى عليه سلطاناً نصيراً من الله ، لأنه فى تلك الحالة مظلوم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسْرِفْ فى القتل إنه كان منصوراً » (٣٣ الإسراء) ثم إن الآية الكريمة ، إذ تجيز للمعتَدى عليه أن يأخذ بحقه من المعتدِى ، فإنها تشير من طرْفٍ خفى إلى العفو ، وذلك من وجوه :

أولا : فى تسمية القصاص من المعتدِى ، عقاباً ، فهو إذ أخذ بحقه ، لا فضل له على المعتدى ، فقد تساويا بعد ردّ الاعتداء ، وقد كان العفو أفضل وأكرم . والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١٢٦ : النحل) .

وثانيا : فى قوله تعالى : « ثم بُغى عليه » إشارة إلى المعتدَى عليه إذ يعفو ،

يكون فى صورة المبغِىّ عليه ، والمبغىّ عليه موعود بالنصر من الله : « ثم بُغى عليه لينصرنه الله » .

وثالثاً : فى قوله تعالى « إن الله لعفو غفور » تذكير بالعفو والمغفرة فى موقف القصاص ، واستحضار عفو الله ومغفرته فى تلك الحال ، الأمر الذى تنحلّ به عزيمة الانتقام ، وتبوخ معه حَمِيّة النقمة والانتقام .

هذا ، والعفو هنا ، إنما هو من قادر ، يملك الانتقام . ومن هنا لا يكون للمعتدى سبيل إلى التمادى فى اعتدائه ، وفى إذلال من اعتدَى عليه .

ثم إن الآية الكريمة تضع أمام المسلمين ـ وقد أُذن لهم فى القتال فى قوله تعالى فى آية سابقة : « أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ـ تضع أمامهم دستوراً يقيمهم على أحسن سبيل ، بين العفو والانتقام . . إن شاءوا عَفَوْا ، وإن شاءوا انتقموا . . على حسب الأحوال والأشخاص . . فقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثيرين ممن آذوْه ، وآذوْا المسلمين ، وحاربوهم ، وقتلوا منهم من قتلوا . . ثم كان منه ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ هذا العفو العام عن مشركى قريش يوم الفتح ، حين قال لهم قولته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ـ على حين ـ أنه صلوات الله وسلامه عليه ـ قد أهدر دمَ بعض الأفراد من هؤلاء المشركين ، وطلب قتل أحدهم ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة . . كما قتل النضر بن الحارث صَبراً .

* قوله تعالى :

« ذلك بأن الله يولج الليل فى النهارِ ويولج النهار فى الليل وأن الله سميعٌ بصيرٌ » .

الإشارة هنا « ذلك » إشارة ، إلى ما تضمنته الآية السابقة من حُكم فى مواجهة العدوان من المعتدين .

والباء فى « بأن » للسببية » . .

والمعنى : أن مقابلة العدوان بالعدوان ، هو لدفع بأس الناس بعضهم عن بعض ، الذى لولاه لفسد نظام المجتمع ، ولتسلّط الأشرار على الأخيار ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ولولا دفع اللهِ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صوامِعُ وبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً » (٤٠ : الحج)

والآية ردّ على تلك الفلسفة المريضة ، التى ترَى فى مثل هذا الدّفع إكثارًا من إراقة الدماء ، وإغراء للناس بالانتقام ، الذى يولّد كثيراً من مواليد الشر والنقمة . ويَرَوْن أن المثالية تدعو إلى الأخذ بدعوة السيد المسيح ـ عليه السلام ـ فى قوله : « من ضربك على خدّك الأيمن فأدرْ له خدّك الأيسر » . . ففى قوله تعالى : « ذلك بأن الله يولج الليلَ فى النهار ويولج النهار فى الليل » ردّ على هذا التفكير السقيم ، ودحض لتلك الفلسفة المريضة ، وذلك بالإشارة إلى نظام الوجود ، وأنه قائم على التدافع بين الخير والشر ، والشرّ والخير ، تمامًا كما يدفع الليلُ النهارَ ، ويدفع النهارُ الليلَ . . فلو أنه سكن النهار إلى دفع الّليل له ، ولم يدفعه كما دفعه لما طلع نهار أبدًا ، ولاختفى إلى يوم القيامة ، ولساد الدنيا ظلام دامس إلى الأبد .

فمن سنّة الله فى الحياة أن يُغْرِىَ الأشرارَ بالأخيار ، فتنةً وابتلاء ، ثم لا يدع الأخيار لأيديهم ، بل يدعوهم إلى أن يأخذوا بحقّهم منهم ، وأن يدفعوهم عنهم ، حتى يُسفر وجههم ، ويبرز وجودهم . .

قوله تعالى :

* « ذلك بأن الله هو الحقّ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلىُّ الكبير » .

فى هذه الآية إشارتان :

الأولى : أن أهل الإيمان هم أهل الحق ، وأنهم جند الله ، وأنصار الله ... وهذا من شأنه أن يحملهم على الجهاد فى سبيله ، ودفع الباطل ، وردع المبطلين ، حتى يُحقّ الله الحقّ ويبطل الباطل ، ويكون الدين كله لله .

والثانية : أنّ الله سبحانه ـ وهو العلىّ الكبير ـ لا يُغلَبُ ، ولا يُغلَبُ أولياؤه ، وأنه سبحانه ، وهو الحق ـ سينصر المحقّين الذين يقفون فى جبهة الحق ويجاهدون فى سبيله .

قوله تعالى :

* « ألم تَرَ أن الله أنزل من السّماء ماء فتصبح الأرض مُخْضَرَّةً إن الله لطيف خبير » .

هو تكملة للصورة التى كشفت عنها الآية السابقة .. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى ، وهو الحق ، فإن ما يرسله إلى الناس ـ هو حق ، وهو خير . وإن رسالاته التى يحملها أنبياؤه ، ينبغى أن تأخذ مكانها من قلوب المؤمنين ، وأن تنزل منها كما ينزل الماء من السماء ، فتحيا به الأرض ، وتعمر الدنيا . . وإنه كما يعمل العاملون فى الانتفاع بهذا الماء وتمهيد الأرض له ، وبذر الحب فيها ـ كذلك ينبغى أن يعمل المؤمنون فى حقل الإيمان ، على حراسة هذا الإيمان وتعهده ، حتى يؤتى ثماره ، ويملأ حياة الناس خيراً وأمناً . .

ـ وفى قوله تعالى : « أنزل من السّماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة » .. وفى التعبير عن إنزال الماء بالفعل الماضى ، وعن اخضرار الأرض بالفعل الحاضر الذى يمتد إلى المستقبل ـ فى هذا إشارة إلى القرآن الكريم ، الذى نزل ، وإلى ثماره التى لا تنقطع أبداً ، وأنه سيظل هكذا قائماً فى الحياة ، يَروى القلوب ، ويحيى

موات النفوس، ويُفيض الخير والبركة على الإنسانية إلى يوم الدين . . لقد نزل القرآن، وتلقى الذين شهدوا نزوله ما قدّر الله لهم من خيره ونوره، وهداه . .

وسيظل هكذا نوراً قائما فى الناس ، وخيراً ممدوداً لهم ، يهتدون به ، ويصيبون من خيره ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وفى قوله تعالى : « إن الله لطيف خبير » إشارة إلى لطف الله بعباده ، ورحمته بهم ، حيث ينزل إليهم من السماء ماء يحي موات أرضهم ، ويحفظ حياة أجسامهم ، كما ينزل إليهم من السماء آياتٍ بينات ، تحي موات قلوبهم ، وتحفظ صفاء أرواحهم .. وأنه سبحانه « خبير » بما يصلح أمر الناس ، ويحفظ وجودهم المادى والروحى جميعاً .

قوله تعالى :

* « له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد » .

هو بيان لفضل الله على عباده ، وأنه غنى عنهم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، فالناس ـ وهم بعض ما فى الأرض ـ مِلك له ، وما ينزله عليهم من السماء هو فضل من فضله ، لا يريد به سبحانه من الناس إلا أن يحمدوه ويشكروا له : « ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون » (٥٧ : الذاريات) .

قوله تعالى :

* « ألم ترَ أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلكَ تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

الخطاب هنا لكلّ ذى نظر وعقل . . حيث يرى فضلَ الله فى هذه الكائنات التى سخرها الله للإنسان ، وجعلها مستجيبةً له ، إذا هو تجاوب معها

ووجه قواه إلى الإفادة منها ، وذلك بالتعرف على الطريق الذى يوصله إليها ، ويضع يده على موضع الخير منها .

وقوله تعالى : «الفلكَ» معطوف على « ما » أى وسخر لكم مافى الأرض ، وسخر لكم الفلك تجرى فى البحر بأمره .

— وقوله تعالى : « ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه » إيقاظ لمشاعر الإنسان ومدركاته ، ليمدّ بصَرَه إلى ما فوق هذه الأرض ، بعد أن يثبت قَدَمَه عليها ، فينظر فى ملكوت السماء .. وعندئذ يرى أن هذا السقف المرفوع فوقه ، تمسكه قدرة الله ، وأنه لولا هذه القدرة لسقط على الأرض ، وأهلك كل حىّ فيها . .

— وفى قوله تعالى : « إلا بإذنه » ـ إشارة إلى أن هذه السماء المرفوعة المحفوظة بقدرة الله ، هى خاضعة لإرادة الله ، وأنه من الممكن أن يأذن الله لها بأن تسقط على الأرض !

— وفى قوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » ـ تطمين للناس بأن السماء لن تقع عليهم ، وذلك لرحمته سبحانه وتعالى ورأفته بعباده . .

ومع هذا كله ، فإن كثيراً من عباده يجحدون نعمة الله ، ويكفرون به ، ويعبدون غيره .. من أحجار ، وحيوان ، وإنسان !

وقوله تعالى :

* « وهو الذى أحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم . . إن الإنسان لكفور » .

فى هذه الآية تذكير للناس بتلك النعمة الكبرى ، نعمة الحياة . . فقد كان الناس عدَمًا ، أو ترابًا فى هذا التراب .. ثم إذا هم هذا الخلق السوىّ العاقل ، المدبّر ، الصانع ! ثم إذا هم ترابٌ مرةً أخرى .. ثم إذا هم يلبسون حياة لا موت بعدها ،

وبهذه الحياة تتم النعمة ، نعمة الحياة . . ذلك أنه لو كانت الحياة الدنيا هى كل حياة الإنسان لـكانت نعمة ناقصة ، بل إنها تـكون نقمة لما فيها من معاناة ، وأعباء ، وشدائد ، يلتقى بها الإنسان فى مسيرة الحياة الدنيا ، من المولد إلى الممات . .

إن الحياة الدنيا هى إعداد للحياة الأخرى ، إنها زرع ، والأخرى حصاد لثمر هذا الزرع ، ومن هنا كان لابد من الحياة الآخرة ، حتى تـكون الحياة نعمة تستوجب الحمد والشـكران لله . .

ولهذا جاء قوله تعالى : « إن الإنسان لـكفور » تعقيباً على تلك النعمة ، وتنديداً بالإنسان وكفره وجحوده لها ، إذ لم يؤد مطلوب الله منه فى هذه الحياة الدنيا ، الموصولة بالحياة الآخرة . .

الآيات : (٦٧ — ٧٢)

* « لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُم نَاسِكُوهُ فلا يُنَازِعُنَّكَ فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هُدًى مستقيمٍ » .

المَنْسك : الشريعة ، والجمع مناسك ، وهى مراسم الشريعة ، وأحكامها ، وحدودها . .

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى ، جعل لكل أمة من الأمم ، شريعتَها التى تلائم ظروفها وأحوالها ، وذلك رحمةً من الله سبحانه ، بعباده ، إذ لو أخذهم الله جميعاً بشريعة واحدة منذ بدء الخليقة ، لكان فى ذلك إعنات لهم ، وتضييق عليهم ، إذ يصبحون بهذه الشريعة فى حال من الجمود ، لا يتحركون معه إلى يمين أو شمال ، أو أمام أو وراء . . والحياة الإنسانية تتحرك دائماً ، متقلبة الأحوال . . وهى فى حركتها وتقلبها تتجه إلى الأمام دائماً . . فكان من حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، أن جعل شَرْعه فيهم مناسباً لظروفهم وأحوالهم ، يلقاهم أُمَّةً أُمَّةً ، وجماعة جماعة ، فيعطى كل أمة وكل جماعة ، ما يَصْلُح لها ، ويسدّد خطوها على طريق الحياة . .

— وفى قوله تعالى : « هم ناسكوه » إشارة إلى أن كل أمة ترتبط بشريعتها التى شُرعت لها ، وتجرى محاسبتها عليها . . كما يقول سبحانه : « لِكُلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » (٤٨: المائدة) .

— وقوله : « فلا ينازعنك فى الأمر » أى أن الشريعة التى بين يديك أيها النبىّ هى شريعتك التى اختارها الله بعلمه وحكمته ، لأمتك ، لتكون خاتمة رسالات السماء . . فلا ينازعنك فيها أصحابُ الشرائع الأخرى من أهل الكتاب ،

ولا يَدْخلون على شريعتك بما معهم من شرائع ..

— وفى قوله تعالى : « فلا ينازعنك فى الأمر » إشارة إلى أن هذه الشريعة التى بين يدى محمد — صلوات الله وسلامه عليه — هى « الأمر » أى الشرع كلّه، وأنه لا أمر ولا شرع بعد هذا .. وهذا هو السرّ فى تعريف « الأمر » ..

وفى توكيد الفعل « ينازعنك » الذى هو نهى لأهل الكتاب، فى حضور النبىّ ومخاطبته، أمران :

أولهما : تيئيس أهل الكتاب من أن يكون لهم شأن فى هذا الأمر، وأنهم إذا أرادوا أن يكون لهم شأن فيه، فليسلموا له، وليأخذوا بما جاء به، وليجعلوا ما بين أيديهم من شرع تبعاً لهذا الأمر أو الشرع ..

وثانيهما : عزل النبىّ الكريم عن جدل أهل الكتاب، وعن الاستماع إلى مقولاتهم، والنظر إلى ما عندهم .. إذ أن عنده الأمر كله .. ومن كان عنده الأصل، فلا ينظر إلى الفرع ..

— قوله تعالى : « وادع إلى ربِّك إنك لعلى هُدًى مستقيم » أى وإذا كان ذلك هو موقفك من أهل الكتاب، فلا تلتفت إليهم، ولا تنظر إلى ما يجادلونك به من شريعتهم، وادع إلى ربك بما معك من شريعة .. فإنك لعلى هدًى من ربك .. هدى مستقيم ..

وفى وصف الهدى بالاستقامة، إشارة إلى ما فى أيدى أهل الكتاب من شريعة غير مستقيمة، بما أدخلوا عليها من زيفٍ وضلالٍ ..

قوله تعالى :

* « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » ..

هو تأكيد الأمر الذى أمر به النبىّ بالدعوة إلى ربه .. بالكتاب المستقيم

الذى معه ، دون التفات إلى ما فى أيدى أهل الكتاب ، ودون استماع لما يلقون إليه من مسائل يريدون بها إثارة الجدل وبعث الشكوك عند المنافقين ومن فى قلوبهم مرض ..

فهذه الآية الكريمة ، تدعو النبىّ إلى أن يمضى فى طريقه ، وأن يدع أهل الكتاب وما يجادلون فيه ، وحسبه أن يلقاهم بقوله تعالى : « الله أعلم بما تعملون » أى ليس لى أن أحاسبكم على افترائكم الكذب على الله ، فإن الله سبحانه هو أعلم بما أنتم عليه — ظاهراً وباطناً — وهو — سبحانه — الذى يتولى حسابكم وجزاءكم ..

قوله تعالى :

* « الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » ..

إمّا أن يكون من كلام النبىّ الذى أمره الله سبحانه وتعالى أن يقوله للمجادلين من أهل الكتاب ، أى قل لهم : (الله أعلم بما تعملون) وقل لهم (الله يحكم بينكم الخ) وعلى هذا يكون الخطاب موجهاً إليهم ، وأن الله سبحانه سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من مقولات ، فكانوا فرقاً وشيعاً ، أو فيما اختلفوا فيه مع النبىّ ، فكانوا حرباً عليه ، وعداوة له ..

وإمّا أن يكون ذلك استئنافاً ، وليس من مقول القول .. وعلى هذا يكون الخطاب عاماً موجهاً إلى الناس جميعاً .. بمعنى أن الله سبحانه سيفصل بين الناس فيما وقع بينهم من خلاف ، سواء أكان خلافاً واقعا بين أهل الشريعة الواحدة ، أو بينهم وبين غيرهم من أصحاب الشرائع الأخرى .. ويكون هذا تعقيباً على قولة تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه » ..

قوله تعالى :

* « ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » هو إلفات إلى سعة علم الله سبحانه وما يقع فى محيط هذا العلم من

أعمال الناس — ظاهرة وباطنة — وهو بهذا العلم يكشف مستورهم، ويحاسبهم ويقضي بينهم.

فهو سبحانه، يعلم ما في السماء والأرض.. لأن كل ما فيهما صنعته، والصانع لا يخفى عليه شيء مما صنع «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (١٤: الملك)

— وقوله تعالى: «إن ذلك في كتاب» أي أن هذا العلم الذي يحيط بأسرار الوجود كله، هو مودع في كتاب عند الله.. فكل ما كان أو يكون في هذا الوجود كله — في أرضه وسمائه، وفيما بين أرضه وسمائه — مودع في هذا الكتاب.. كما يقول سبحانه: «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين» (٧٥: النمل) وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي هو أول ما خلق الله بعد القلم..

— قوله تعالى: «إن ذلك على الله يسير» هو دفع لما يقع في بعض العقول القاصرة التي لا تعرف قدر الله — من شعور باستعظام هذه المعلومات التي تحصي كل شيء، وتقدّر كل شيء، لكل مخلوق، صغر أو كبر، وأخذِ هذا القول على سبيل المبالغة أو التجوز.. فكان قوله تعالى: «إن ذلك على الله يسير» تأكيداً لعلم الله، وسعة هذا العلم وشموله، وأن هذا الوجود كله لا يعدُّ شيئاً إلى علم الله، الذي أحاط بكل هذا الوجود ولا يحيط الوجود كله بشيء من علمه إلا بما يشاء..

قوله تعالى:

* «ويعبدون من دون الله ما لم ينزِّلْ به سلطانا وما ليس لهم به علمٌ وما للظالمين من نصير»..

* الضمير في «يعبدون» يراد به المشركون، الذين يعبدون آلهة دون الله.. ولم يكن للمشركين ذكر هنا حتى يعود هذا الضمير إليهم.. فالحديث عنهم بضمير الغيبة، إبعاد لهم، وإنكار لوجودهم في مجتمع العقلاء، الذين هم أهل للخطاب.

— وقوله تعالى : مالم ينزل به سلطانا » — المراد بالسلطان هنا الكتاب السماوىّ ، الذى يدعو إلى عبادة المستحق للعبادة ، وهو الله سبحانه وتعالى .. وهؤلاء المشركون يعبدون آلهة تنكر الكتبُ السماويةُ عبادتَها — فهم إذ يعبدونها فإنما يعبدون مالا دليل فى أيديهم على استحقاقه العبادة : « ومن النَّاسِ من يجادل فى الله بغير علمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منير » . (٨ : الحج)

— وقوله تعالى : « وما ليس لهم به علم » — هو اتهام للمشركين بأنهم إنما يعبدون مايعبدون من دون الله ، عن هوًى وضلال ، وعن جَهْلٍ وغَبَاء .. فلا دليل فى أيديهم من كتاب ، ولا حجة معهم من علمٍ أخذوه عن نظرٍ ودرس فى صحف هذا الوجود .. فقد يهتدى الإنسان إلى الله بعقله ونظره .. فإن لم يكن له عقل ونظر ، فهذا كتاب الله ، فيه الهدى لكل من ضل ، والعلم لكل من جَهِل .. وهؤلاء المشركون ، لم يكن لهم عقول ينظرون بها ، أو قلوب يعقلون بها ، فلما جاءهم الكتاب ، ليبصّرهم من عمًى ، وليعلمهم من جهل ، ردّوه بأيديهم ، وأصمّوا آذانهم دونه ..

— وقوله تعالى : « وما للظالمين من نصير » هو تهديد لهؤلاء المشركين ، الذين ظلموا الحق ، فلم يطلبوه من كتاب الله ، وظلموا أنفسهم ، فلم يستعملوا حواسّهم ومَلَكاتهم فى النظر لما فيه هدايتهم ، فركبوا مراكب الضلال ، والهلاك .. وليس لهم من يستنقذهم من هذا الضلال ، ويدفع عنهم يَدَ الهلاك ، وقد وقعوا فى شباكها .

قوله تعالى :

* « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كَفَروا الْمُنكَر يَكادون يَسْطُون بالذين يتلون عليهم آياتنا .. قل أفأنبئكم بشرٍّ من ذلكم النارُ وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » .

تعرض هذه الآية صورةً من عناد المشركين ، وتأبّيهم على الحق ، وشرودهم عن الهدى .. وذلك أنهم إذا تُليت عليهم آيات الله ، وقعت كلماتها فى قلوبهم موقع المنكر ، فاشمأزوا منها ، وضاقوا بها ، وظهر على وجوههم ما اعتمل فى صدورهم من حَنَقٍ وغيظٍ ، وكادت أيديهم تتحرك بالتطاول والأذى ، ينالون به من يتلو عليهم آيات الله ، ويُسمعهم إياها ..

هذا هو حال أهل الضلال ، مع كل دعوة راشدةٍ ، وفى وجه كلّ كلمة طيبة.. إنهم يزْوَرُّون بالخير ،ويَضيقون ذرعاً بالهُدى ــ شأن المدمن على منكرمن المنكرات .. يؤذيه الحديثُ الذى يكشف له عن وجه هذا المنكر ، وعن سوء مغبته ، وما يجرّ عليه من فسادٍ لعقله ، وجسده ، وماله ..

ــ وقوله تعالى : « قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم » ..الإشارة هنا « ذلكم » إلى المنكر الذى يبدو على وجوه الكافرين ، لما يقع فى نفوسهم من ضيقٍ وأذى مما يسمعون من كلمات الله .. فهذا الضيق الذى يجدونه فى صدورهم ، هو شرٌّ وأذى يقع فى أنفسهم .. ولكنه شرٌّ قليل وأذًى محتمل بالإضافة إلى مايلقوْن يوم القيامة من عذابٍ أليم .. فلو أنّهم راضُوا أنفسهم على الاستماع إلى كلمات الله ، وصبروا قليلا على هذا الدواء المرّ الذى تجده نفوسهم المريضة منه ــ لوجدوا بَرْدَ العافية من هذا الضلال الذى هم فيه ، ولآمنوا بالله ، ولنجوْا من عذاب السعير ، ولدفعوا بهذا الشرّ الذى يجدونه فى صدورهم شرًّا مستطيراً ، وبلاءً عظيماً .. وهو العذاب الأليم فى الآخرة ..

وفى تسمية مايجده المشركون من ضيق فى صدورهم عند الاستماع إلى كلمات الله ــ فى تسميته شراً ، إنما هو بالإضافة إليهم ، وحَسب نظرتهم إليه .. إنهم يجدون ماتعرضه عليهم آيات الله من دواء لدائهم ، وهو الشرّ الذى يَصْرفهم عن الحياة والعيش مع هذا الداء المتمكن منهم ..

— وقوله تعالى: « النَّارُ وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » ـ هو جواب على هذا السؤال الذى سُئلوه من قبل فى قوله تعالى : « هل أنبئكم بشرٍّ من ذلكم ؟ » ثم جاءهم الجواب على هذا السؤال ، سواء طلبوا ذلك أو لم يطلبوا : « النارُ وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » أى هذا الشر الذى أخبركم به ، هو النار ، التى وعدها الله الذين كفروا وأعدّها لهم .. وأنتم أيها الكافرون لامصير لكم غير هذا المصير ، وإنه لبئس المصير ..

الآيات : (٧٣ — ٧٦)

* « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٧٦) »

التفسير :

* قوله تعالى : « يأيها النّاسُ ضُرب مَثَلٌ فاستمعوا له .. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .. وإن يَسْلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه .. ضَعُفَ الطالب والمطلوب » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة تحدثت عن المشركين ، وأنهم يعبدون من دون الله ما أملته عليهم أهواؤهم ، دون أن يكون بين

أيديهم كتاب سماوى يدعوهم إلى عبادتها ، أو يكون معهم عقل دلّهم عليها ، وأراهم منها ماتستحق به أن تؤلّه وتُعبد .. ثم كشفت الآيات بعد ذلك عن موقف هؤلاء المشركين عند استماعهم لآيات الله إذا تلاها عليهم تالٍ .. إنهم يَضِيقون بها ، حتى لتكاد تختنق أنفاسهم منها ..

وهنا فى هذه الآية ، يضرب الله سبحانه وتعالى لهم مثلا مجسما ، يمكن أن يوضع موضع التجربة والاختبار من الناس ، وخاصة المشركين ، وهو أن يَدْعُوا هذه الآلهة جميعها إلى أن يخلقوا كائناً من أضأل مخلوقات الله ، وهو الذباب .. فإن فعلوا ــ ولن يفعلوا ــ فليكن لهم أن يجعلوها آلهة ، وأن يعبدوها كما يعبد الله .. وإن لم يخلقوا جناح ذبابة ــ وهو ماتكشف عنه التجربة ــ فإن عبادتهم لها بعد ذلك، ضلال فى ضلال : « أيشركون مالا يَخْلُق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولآ أنفسَهم ينصُرُونَ» (١٩١ ــ ١٩٢ : الأعراف) .

هذا ، وقد مرّ تفسير هذه الآية فى أول هذه السورة ، فى مبحث [الخالق وماخلق] .

قوله تعالى :

* « ماقَدَروا الله حقّ قدره إنّ الله لقوىٌّ عَزِيزٌ » .

أى أن هؤلاء المشركين ، قد جهلوا قَدْرَ الله ، ونظروا إليه كما ينظرون إلى مايكبُر فى صدورهم ، من مخلوقات ومصنوعات .. فلم يجاوزوا بقدر الله مايرفعه فوق هذه المعبودات ، ويجعلها جميعاً عابدة له ، خاضعة لتصريفه فيها ، بل إن ظنّهم بالله ، جعلهم يجعلونه إلٰهاً فى مجمع هذه الآلهة ، ومن أحْسَنَ الظنّ منهم بالله ، جعله إلٰها على رأس هذه الآلهة ، تشاركه المُلك والتدبير ، وأن لهم بهذا أن يقربوهم إلى الله ، ويُنْزِلوهم منازل الرضوان عنده ، وقالوا : « مانعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى» (٣ : الزمر) .

— وفى قوله تعالى : « إن الله لقوىٌّ عزيز » - إشارة إلى مالله سبحانه وتعالى من قوة ومن عزة ، وأن قوته متفردة بالقوة كلها ، لاقوة لأحد مع قوته ، وأن عزته تملك العزة كلّها ، لاعزّة لعزيز مع عزّته .. فكيف يسوغ لعاقل أن يستمدّ القوة والعزّة من غير مالك القوة والعزة ؟ إن أى متجه يتجه إليه طالب القوة والعزة غير الاتجاه إلى الله وحده ، هو سعى إلى تباب ، واتجاه إلى بوار .

قوله تعالى :

* « الله يصطفى من الملائكة رُسُلا ومن الناسِ .. إن الله سَميعٌ بصيرٌ » .

هو بيان يكشف عن ضلال هؤلاء المشركين الذين يعبدون الملائكة ، أو يعبدون بعضاً من أنبياء الله ورسله ، كما عبد بعض اليهود العُزَير ، وكما عبد بعض النصارى المسيح . . فهؤلاء ، وأولئك - من الملائكة والرسل - هم عبادٌ من عباد الله ، وخلْق من خلقه،اصطفاهم الله ، وأكرمهم ، ومنحهم ما منحهم من قوى وآيات . . ولن يخرج بهم هذا عن أن يكونوا عبيداً لله . . فكيف يُعبد العبد من دون السيّد ، وكيف يؤله المخلوق مع الإله الخالق ؟ ذلك سَفَه سفيه ، وضلال مبين . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله سميعٌ بصيرٌ » تهديد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون عبادَ الله ، من دون الله . . فالله سبحانه « سميع » لمقولاتهم المنكرة فى هؤلاء المخلوقين .. « بصيرٌ » بما يعملون من أعمال ، وما يقدّمون من عبادات وقربات لهؤلاء المخلوقين . . وليس وراء هذا إلا الحساب ، والجزاء ، والعذاب الأليم . .

قوله تعالى :

* « يعلم ما بين أيديهم وما خَلْفَهُمْ . وإلى الله تُرْجع الأمور » . . هو تهديد ووعيد كذلك ، لأولئك المشركين ، وأن الله السميع البصير « يعلم ما بين

أيديهم » أى يعلم ما يعملونه قبل أن يعملوه . . « وما خلفهم » أى ويعلم ما عملوا ، وأنهم وأعمالهم سيردّون الله ، ويحاسبون : «وإلى الله ترجع الأمور »

الآيتان : (٧٧ — ٧٨)

* « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) »

التفسير :

بهاتين الآيتين الكريمتين تختم السورة الكريمة . . وبهذا الختام ، يلتقى بدؤها مع ختامها ، كما يلتقى ختامها مع بدء السورة التى بعدها ، وهى سورة « المؤمنون » .

فقد بدأت السورة هكذا : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » . . إنه نذير صارخٌ للناس جميعاً ، أن يأخذوا لأنفسهم من هذا اليوم العظيم ، وأن يعملوا على ما ينجيهم من أهواله المهولة المفزعة . .

وقد استجاب أُناس لهذا النّداء ، فآمنوا بالله ، وسَعَوْا إلى مرضاته ، ليَخْلُصُوا بأنفسهم من شر هذا اليوم العظيم . .

ثم كانت السورة كلها بعد ذلك ، دعوةً إلى الله ، وإلى كشف الطريق إليه، وإرسال النذير بعدالنذير ، إلى الضالين ، والمشركين ، الذين أمسكوا على ما فى قلوبهم من كفر وضلال .

ثم كانت حصيلة هذه النُّذُرِ ، هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا فى دين الله ، واستجابوا لرسول الله . . فكان أن دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه ، وخصّهم بخطابه ، ورفدهم بوصاياه ، ليثبتوا على الإيمان ، وليعملوا على طريق الإيمان ، وليفرسوا فى مغارسه .

فقال سبحانه ، مخاطباً عباده المؤمنين :

« يأيها الذين آمنوا . . اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون » ، فليس الإيمان بالله مجرد كلمة ينطق بها اللسان ، وإنما الإيمان : قول ، وعمل ، إقرار باللسان ، واعتقاد فى القلب ، وعمل بالجوارح . . فالدعوة إلى الركوع والسجود ـ وهما من أركان الصلاة ـ دعوة إلى الصلاة ، وأمر بإقامتها كاملة ، وأدائها على وجهها ، وما تقضى به من ولاء وخشوع لله ربّ العالمين : « اركعوا واسجدوا » .. فالركوع والسجودليسا مجرد حركتين من حركات الجسد ، وإنما هما — قبل كل شىء — خضوع بالقلب ، وخشوع بالنفس ، وتَسَرْبُلٌ بحالٍ من الرهبة والخشية لله ، بحيث يجد الإنسان لهذه الرهبة والخشية ما ينلكّ به بناؤه الجسدى ، فيركع تحت وطأة هذا الحمل الثقيل . ثم لا يلبث أن يهوى ساجداً حتى يضع جبهته على الأرض . . وهنا يجد الرضا من ربّه ، والكرامة والتكريم من سيده . . فيدعوه إلى أن يرفع وجهه عن هذا التراب الذى لصق به . .

وهكذا ، يظل المصلّى بين يدى الله ، فى ركوع وسجود ، وفى خفض ورفع ، حتى يختم صلاته ، وهو متمكن على هذه الأرض ، مستول عليها استيلاء ذى السلطان على سلطانه !

وقوله تعالى : « واعبدوا ربكم » هو أمر بالعبادة مطلقاً ، فيما فرض الله من عبادات غير الصلاة ، كالصوم ، والزكاة ، والحج ، وفيما أمر به من ذكره

تعالى ، والجهاد فى سبيله ، والسعى فى طلب الرزق . . فكلها عبادات وطاعات وقربات . .

وقوله تعالى : « وافعلوا الخير » هو أمر بكل خير ، وراء هذه العبادات ، من الإحسان إلى الناس بالقول والعمل ، ومن الحكم بين الناس بالعدل ، ومن أداء الأمانات إلى أهلها . . إلى غير ذلك مما هو خير وحسن ، ومعروف .

وفى قوله تعالى : « لعلكم تفلحون » إشارة إلى أن هذه الأعمال كلها ، ـ وعلى رأسها الإيمان بالله ـ هى مما تُرْجَى به النجاة ، من عذاب الله ، والفوز برضوانه . .

إنها مجرّد وسائل يتوسل بها الإنسان إلى ربه . . أما إنجاح هذه الوسائل وتقبلها من صاحبها ، فذلك أمره إلى الله ، وإلى مشيئة الله فى عبده . . وهذا هو السرّ فى تصدير الخبر بحرف التمنّ « لعل » . . إذ ليس لأحد على الله حق يطالبه به .. وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى يطلب ، وعلى عباده أن يمتثلوا ، ويؤدوا ما طلب منهم ، وأن يكونوا بعد ذلك على رجاء من القبول والرضا . .

قوله تعالى :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جَعَل عليكم فى الدين من حَرَجٍ ملّة أبيكم إبراهيمَ هو سَمّاكم المسلمين من قبلُ وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعمَ المولى ونعم النصير » .

هو عطف على ما جاء فى الآية السابقة من أمرٍ بالركوع والسجود وعبادة الله وفعل الخير . .

والجهادُ وإن كان مما تضمنه هذا الأمر ، إذ هو من عبادة الله ، ومن فعل

الخير معاً ؛ فقد خُصّ بالذكر هنا لما له من مقام كبير ، بين العبادات وأفعال الخير ، ولما فيه من مخاطرة بالنفس ، والمال ، وهما أغلى ما يملك الإنسان ، وأولى ما يحرص عليه ويضنّ به .

— وفى قوله تعالى : « حقّ جهاده » تأكيد لهذا الجهاد ، وبيان للصفة التى يكون عليها ، وهو أنْ يكون خالصاً لله ، وفى سبيل الله ، لا يُبتغى به شىء غير وجه الله .. وهنا يكون البذل للمال والنفس هيّناً ، إذا نُظر إليه فى مقابل ثواب الله ، وابتغاء رضوانه .

— وفى قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله » بتعدية الجهاد بحرف الجر « فى » إلى لفظ الجلالة ، « الله » وإلى سبيل الله ، كما جرى ذلك فى الأسلوب القرآنى — فى هذا ما يشير إلى قدر الجهاد ، وإلى أنه لله وحده ، ومن أجل ذاته سبحانه — ولوجهه خاصة — فحرف الجر هنا للسببية ..

ومن جهة أخرى ، فإن الجهاد فى الله هو جهاد عام ، يشمل الجهاد فى سبيله وغيره ، كالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومجاهدة النفس ، ونحو هذا ، مما يعلى كلمة الله ، ويقيم دعائم الحق ، ويثبت أركانه .. وهذا مثل قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلَنا وإن الله لمع المحسنين » . (٦٩ : العنكبوت)

— وقوله تعالى : « هو اجتباكم وما جَعَلَ عليكم فى الدين من حرج » هو تعليل للأمر بالجهاد ، وداعية إلى امتثال هذا الأمر ، لأنه صادر من الله الذى « اجتبى » أى اختار هذه الأمة . . واصطفاها من بين الأمم لحمل رسالة الإسلام ، آخر الرسالات ، وأكملها ، فهم لهذا مطالبون بأن يكونوا رسلاً يحملون دعوة الإسلام ، وجنوداً يدافعون عنها ، ويبذلون النفس والمال فى سبيلها .. إنها أمانة ، هم أهلٌ لحملها ، إذ قد اجتباهم الله لها ، وخصّهم بها ..

ثم إن هذه الرسالة — رسالة الإسلام — مع ما فيها من دعوة إلى بذل

النفس والمال ، بالجهاد فى سبيل الله ـ فإنها رسالة قائمة على الرحمة والعدل ، ليس فيها حرج ومشقة على أهلها ، إذ أن من أسسها العامة أنه « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ».. وأن كل إنسان يحمل من تكاليفها وأوامرها قدر ما يستطيع ، وفى هذا القدر تحقيق لأدنى المطلوب . .

ففى باب الجهاد مثلا ، يبدأ الجهاد بمجاهدة النفس ، وكفها عن المحرمات ، وردّها عن الأهواء والشهوات ، وهذا وإن كان الجهادَ الأكبر ، كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قريب من كل إنسان . . إنه أقرب شىء إليه ، لا يتكلّف له مالاً ، ولا يبذل له نفساً .. ومع هذا فهو درجات .. يبدأ بالكف عن الكبائر ، وينتهى بالانتهاء عن اللّمم والصغائر ..

ومن الجهاد مثلاً .. الأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر .. فهو مجاهدة بالقلب وباللسان ، لا بالنفس ولا بالمال . .

وفى باب الجهاد كذلك ، رَفَعَ الله الحرج عن الضعفاء والمرضى ، وأصحاب العاهات ، ونحوهم ، وأعفاهم من الجهاد بأنفسهم .. « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » (٩١ : التوبة) ..

وقلْ مثلَ هذا فى جميع أوامر الشريعة وأحكامها .. إنها شريعة قائمة على اليسر ورفع الحرج ، وفى هذا يقول الله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » (١٦ : التغابن) أى فى حدود ما تحتمل أنفسكم ، وما تتسع له طاقاتكم .. وفى الحديث الشريف : « إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم » .. وفى الحديث أيضاً : « إن هذا الدين ذَلُول لا يركَب إلا ذلولاً » أى إن هذا الدين سمح سهل ، لا يُنتفع به إلا إذا أُخذ سمحاً سهلا ، تتقبله النفوس ، وتنشرح له الصدور .. شأنه فى هذا شأن الطعام ، لا يفيد منه الجسم ، إلا إذا طابت له

النفس ، واشتهته ، واستساغت طعمه ، واستطابت مضغه وبلعه ..

وفى الحديث أيضاً : « لا تُبغّض إلى نفسك عبادة الله » وذلك بالقسوة عليها ، وبحملها على ما هو شاق ، وبين يديها القريب الميسور ! وفى الحديث : « ما خُيِّر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين أمرين ، إلا اختار أيسرهما » ..

— وقوله تعالى : « ملةَ أبيكم إبراهيم » .. الملة ، الشريعة ، وهى منصوبة على الإغراء . أى الزموا هذه الملة ، ملة أبيكم إبراهيم ..

— وقوله تعالى : « هو سماكم المسلمين من قبل » أى أنه هو الذى طلب من الله أن تكون من ذريته تلك الأمة المسلمة التى هى أنتم . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « ربنا واجعلنا مسلمْين لك ومن ذريتنا أمّةً مسلمة لك » (١٢٨ : البقرة) .

فالداعيان ، هما إبراهيم وإسماعيل ، ودعوتهما ، هى أن يكونا مسلمْين لله وأن يجعل منهما ـ أى من إبراهيم وإسماعيل ـ أمة مسلمة .. وأن يبعث فيهم رسولاً منهم كما يقول الله تعالى على لسانيهما بعد ذلك : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (١٢٩ : البقرة) ..

فالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، هو « دعوة إبراهيم » ـ كما قال صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم » .. وكذلك أبناء إبراهيم من ذرية إسماعيل ، هم الأمة المسلمة ، وهم الدعوة المستجابة لإبراهيم ..

قوله تعالى :

* « وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .

الإشارة هنا بهذا ، إلى قوله تعالى: « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج» أى وفى هذا الاجتباء ، ورفع الحرج عنكم ، سبب لأن يكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ..

وشهادة الرسول على أمته ، هو أن يشهد بأنه بلّغ رسالته فيهم ، ودعاهم إلى الإيمان بالله ، وإلى الاستقامة على ما شرع الله لهم من عبادات وأحكام .. وهو بهذه الشهادة يُدين كلّ من أبى وقصّر ..

أما شهادة هذه الأمة على الناس ، فهى مثل شهادة الرسول عليهم .. أى أنهم بمنزلة الرسل فى الناس ، يدعونهم إلى الله ، ويبلغونهم رسالة الإسلام، وهم بهذه الشهادة يُدينون كلّ من أبى الاستجابة لهم ، والدخول فى دين الله معهم ..

وهذه المنزلة التى رفع الله بها قدر هذه الأمة ، وأعلى بها شأنها فى الناس ، وجعل لها بها ما للرسل فى أقوامهم ـــ هذه المنزلة العالية الرفيعة ، هى أمانة ، لايحملها إلا أولو العزم من الناس ، ومن هنا كان واجباً على كل مسلم أن ينهض بحمل هذا العبء ، وأن يَرَى الناسُ منه ، فى قوله وعمله ، من استقامة الخلق ، واعتدال السلوك ما يرى الناس فى الأنبياء والرسل ..

فيا ليت قومى يعلمون هذا الشرف العظيم ، الذى قلده الله سبحانه وتعالى إياهم ، وهذا الواجب الكريم الذى أناطه بهم، وهذا المقام الرفيع الذى أقامهم على الناس فيه .. !!

إن أى مسلم لايَرَى ـ بعمله ، وعلمه ، وقَدْره فى الناس ـ أنه فى مكان القيادة من المجتمع الإنسانى ، فهو ليس من الإسلام فى شىء . . إنه لن يكون فى المسلمين الذين يشهدون على الناس يوم القيامة .

وقوله تعالى :

* « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

هو تذكير برسالة المسلم ، وبتلك المؤهلات التي يحقق بها هذه الرسالة ، ويكون من الشهداء على الناس . . وذلك بأن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، وأن يعتصم بالله ، ويجعل وجوده كلّه لله ، وبالله . . وذلك هو الذي يضمن له علوًّا ، ونصراً ، وعزًّا . . «ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

* * *

بعونه تعالى تم الجزء السابع عشر ، ويليه الجزء الثامن عشر إن شاء الله

سورة المؤمنون (٢٣)

نزولها : هي مكية . . إجماعاً .

عدد آياتها : مائة وثماني عشرة آية .

عدد كلماتها : ألف ومائتان وأربعون كلمة .

عدد حروفها : أربعة آلاف وثمانمائة حرف ، وحرف .

بسم الله الرحمن الرحيم



الآيات : (١ — ١١)

* « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) »

التفسير :

يلتقي بَدْء هذه السورة مع خاتمة سورة الحج قبلها . . فقد خُتمت سورة الحجّ ، بهذا الخطاب العام للمؤمنين ، الذين اصطفاهم الله واجتباهم ، وقد تضمن هذا الخطاب دعوةً إلى إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله . . ثم خُتم بقوله تعالى : « واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

وبدء سورة: « المؤمنون » بقوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون ... » إلى آخر الآيات — هو استقبال كريم لهؤلاء المؤمنين الذين دُعوا إلى الله ، واستجابوا لدعوته ، وآمنوا به .. فهؤلاء المؤمنون ، قد أفلحوا ، وفازوا برضوان الله .. وكان هذا الخبر من مُعجَّل البشرَيات لهم فى هذه الدنيا .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين المفلحين ، أنهم فى صلاتهم خاشعون .. أى يؤدّون صلاتهم فى خشوع ، وخشية ، وولاء .. إنها صلاة تفيض من قلب خاشع لجلال الله ، راهب لعظمته ، فكيان المؤمن كله ، ووجدانه جميعه ، وهو قائم فى محراب الصلاة — مشتمل عليه هذا الجلال ، مستولية عليه تلك الرهبة .

ومن أجل هذا كان لتلك الصلاة الخاشعة الضارعة أثرُها العظيم ، فى إيقاظ مشاعر الخير فى المصلين ، وفى تصفية أنفسهم من وساوس السوء .. فهم لهذا : «عن اللغو معرضون» أى لايقبلون اللّغو، ولا يتعاملون به. فإذا نطقوا، نطقوا خيراً أو سكتوا، وإذا سمعوا ، سمعوا حسناً أو انصرفوا . إنهم - وقد صَفَتْ نفوسهم ، وطَهُرت قلوبهم — ليعافون موارد اللّغو ، من القول التافه، أو الحديث الباطل.. ثم هم «للزكاة فاعلون» أى يؤدون زكاة أموالهم ، ويشاركون الفقراء والمحتاجين فيما رزقهم الله من فضله ، فلا يضنّون بما فى أيديهم ، ولا يُؤْثرون أنفسهم عما معهم . .

وفى التعبير عن أدائهم للزكاة ، بأنهم فاعلون لها - إشارة إلى أن الزكاة ليست من نافلة الأعمال ، التى تَصْدُر عن غير وعى أو شعور من الإنسان ، بل إنها شىء عظيم ، يحتاج إلى يقظة كاملة ممن يؤديها .. وذلك من وجوه :

فأولا : نَظَرُه إلى المجتمع الذى حوله ، وإلى الجوانب الضعيفة منه ، وإلى

ذوى الضرّ والحاجة من أفراده ، فيعمل على سدّ هذا الخلل ، وتقوية تلك الجوانب ودعمها ، بما بين يديه من مال .

وثانياً : نَظَرُه إلى هذا المال الذى فى يده ، وحَمْلُ نفسه على السّماح والبذل فى كل وجه نافع طيب .. وذلك حتى لاتغلبه نفسه على الضنّ به ، والوقوف عند حدّ الزكاة الواجبة .

ومن هنا كانت الزكاة « فِعلا » أى عملا جادًّا ، يحتاج إلى كل مايحتاج إليه العمل الجادّ ، من إمعان نظر ، وبذل جهد .. وليست مجردَ صدقة طارئة ، تطرق المتصدق بين الحين والحين ، أو تلقاه على رأس كل عام ، وإنما هى « فعل » متصل ، يُشغَل به الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته .. وبذلك يكون على صلة دائمة بالمجتمع الذى يعيش فيه .. يُحسّ بإحساسه ، ويتحرك معه فى الاتجاه الذى يتحرك فيه ، ويحمل هموم ذوى الحاجات والهموم من جماعة المسلمين .. وفى الحديث : « من لم يحمل همّ المسلمين فليس منهم » .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنّهم « لفروجهم حافظون » أى أنهم كما حفظوا ألسنتهم عن اللغو، وكفوا جوارحهم عن الشر والأذى ـ حفظوا فروجهم من الدّنس ، ولزموا بها جانب العفّة والطهارة ..

* وقوله تعالى : « إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيْمانُهم فإنهم غير مَلُومين » هو استثناء من حفظ الفروج عن الاتصال بالنّساء ، والتعفف عنهن .. فليس هذا على إطلاقه ، وإنما لفروجهم ما أُحلّ من أزواج ، ومما ملكت اليمين من جوَارٍ .. فهذا لالوم عليهم فيه .. تماماً كالإمساك عن اللغو من الكلام ، مع إباحة الحديث الطيب من القول . .

ــوفى قوله تعالى : « فإنّهم غير مَلُومين » مايُشعر برفع الحظر عن أمرٍ كان محظوراً ، وبدفع اللوم عن أمرٍ كان إتيانه موضعَ لوم .. فكيف هذا ؟ والله

سبحانه وتعالى جعل الصلة بين الرجل والمرأة من النعم التى أنعم الله بها على عباده ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خَلَق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودَّةً ورحمةً » ؟ (٢١ : الروم)

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو أن الإنسان فى صورته الحيوانية ، مباحٌ له إباحةً مطلقةً ، أن يتصل بالمرأة أيا كانت ، شأنه فى هذا شأن الحيوان فى اتصال الذكر بالأنثى .. بلا قيد ولا حد ..

ولكن الإنسان ، الذى يندسّ فى كيانه هذا الحيوان ، قد أراد الله سبحانه له ، أن يعلوَ بإنسانيته ، ويرتفع إلى مستوًى كريم، يكون فيه أقرب إلى العالم العلوى منه إلى العالم الأرضى .. وذلك لايكون إلا بأن يَخْرج من مِسلاخ الحيوان ، أو يقتل هذا الحيوان المندسّ فى كيانه .. وذلك من مظاهره ألا تكون صلته بالأنثى شبيهة بصلة الحيوان ، المطلقة من كل قيد .. !

ولكن الإنسان مهما يكن ، لايمكن أن ينسلخ من الجانب الحيوانى الذى فيه ، وهو على هذا التركيب الجسدى ، الذى تتحرك فيه شهوة داعية إلى اتصال الرجل بالمرأة ..

فكان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن وقف بالإنسان موقفاً وسطاً ، يأخذ فيه وضعاً ملائماً للإنسان والحيوان معاً .. فقيد الإنسان بهذا القيد الذى ألزمه حدود إنسانيته ، ثم نفّس عنه بعض الشىء ، فجعل لهذا الجسد فى الإنسان حظّه من المرأة فى حدود مرسومة لايتعداها ، وهو أن يتخذ له امرأة ، أو أكثر إلى أربعة ، ممن أحلّ الله له .. أو مايشاء من النساء ، ممن ملكتهن يده !

الأصل إذن ، الحرمةُ المطلقة فى اتصال الرجل بالمرأة عموماً .. ثم الإباحة فى هذا النطاق الضيق المحدود .. ! أو قل : الأصل هو الإباحة المطلقة من كل قيد ، ثم هذا القيد الوارد على هذا الإطلاق .. وذلك حسب أى النظرتين يُنظر بها

إلى الإنسان.. فإن نُظر إليه على أنه إنسان يسمو بإنسانيته عن الانتساب إلى عالم الحيوان ـ كان على مستوى التقدير الأول، وإن نظر إليه على أنه حيوان، يريد أن يتحسس طريقه إلى الإنسان ـ كان على مستوى التقدير الثانى.

وانظر: إنه لو تُرِك للإنسان الحبلُ على الغارب، لكان له أن يتصل بأية امرأة يريدها ويشتهيها.. وهذا من شأنه أن يجعل جميع النساء مباحاتٍ له.. يتصل بهنّ، بوسيلة أو بأخرى..

وهذا القدر المحدود المباح له من النساء، هو استثناء من هذا الحظر العام، وهو بالقياس إلى الحظر العام، لايكاد يُعدّ شيئاً، يُحسب حسابه. حتى لكأن الحظر العام قائم..

فقوله تعالى: «فإنهم غير ملومين» تذكير بهذه النعمة، التى أتاحت للإنسان أن يتصل بالمرأة فى هذه الحدود، وهى وإن وجدها ضيقة، لاتشبع جُوعه الحيوانى، فإن عليه أن يذكر أنه إنسان، وأنه كان من مطلب الجانب الروحى منه، ألا يكون هناك هذا المنفذ الذى ينفذ منه إلى المرأة.. ومع ذلك فإنه غير ملوم فى الاتصال بالمرأة فى هذه الحدود، وإن جار هذا على الجانب الروحى منه، وهذا كله يعنى القصد فى هذا الأمر، والاعتدال فيه، وألا يكون الإنسان على سواء مع الحيوان!

* وفى قوله تعالى: «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» ـ تحذير من مجاوزة هذه الحدود، والانطلاق إلى ماوراءها، فإن ذلك هو دخول فى عالم الحيوان بأربعة أرجل، وهو عدوان على إنسانية الإنسان، واعتداء على حدود الله!

قوله تعالى:

* «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» ـ هو من صفات هؤلاء المؤمنين

الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بالفلاح .. فمن صفات هؤلاء المؤمنين – مع ماوُصفوا به من قبل – أنهم يَرْعوْن الأمانات ، ويحفظون العهود .. ومن الأمانات ، والعهود ، هذه التكاليف التى كُلّف بها الإنسان ، وهذه الأوامر التى أمر بها .. ورعاية هذه التكاليف ، وتلك الأوامر ، هو القيام عليها ، والتزام حدودها .. والخروج عليها ، هو عدوانٌ عليها ، وعلى الله سبحانه !

قوله تعالى :

* « والذين هم على صلواتهم يحافظون » – هو من صفات المؤمنين المفلحين أيضاً .. وهو محافظتهم على الصلوات ، وأداؤها فى أوقاتها ، بعد أن وُصفوا من قبل بأنّهم فى صلاتهم خاشعون ..

وقدمت الخشية فى الصلاة ، على المحافظة عليها .. لأن الخشية هى المطلوب الأول من الصلاة ، وأن صلاة بغير خشوع وخشية ، لا مُحصّل لها ، ولا ثمرة منها ..

قوله تعالى :

* « أولئك هم الوارثون ، الذين يَرِثون الفِردوْس هم فيها خالدون » .

هو بيان للجزاء الحسن ، الذى يَجْزِى الله سبحانه وتعالى به المؤمنين ، الذين وُصفوا بهذه الصفات ، وهو ما يكشف عن فلاحهم ، وفوزهم ، وإنه لا فلاح أعظم من هذا الفلاح ! ولا فوز أكرم من هذا الفوز .. !

وأى فلاح أعظم ، وأى فوز أكرم ، من أن تكون الجنة ميراثاً خالداً أبداً ، يعيش فيه أولئك المؤمنون المفلحون !

الآيات : (١٢ — ٢٢)

* « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد خَلَقْنَا الإنسان من سلالة من طين » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة من مفتتح السورة إلى هذه الآية ، قد كانت عرضاً ، مُسعداً للمؤمنين المفلحين ، الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على طريقه المستقيم . . وفى مقابل هذا العرض كانت تتراءى صورة الضالين والغاوين ، الذين كفروا به ، وحادوا عن سواء السبيل . . وإلى هذه

الصورة كانت تتطلع كثير من النفوس إلى هيئتها التى تـكون عليها ، لو أنها أطلّت بوجهها ، وكشفت عن حال أصحابها ، كما كشفت الصورة السابقة عن المؤمنين ، وعن حالهم الطيبة المسعدة . . فالمؤمنون بالله ينظرون إلى من خلّفوهم وراءهم على طريق الـكفر والضلال ، ليروْا ما صَنَع الله بهم . . وغير المؤمنين ، ينظرون إلى مكانتهم بعد أن رأوا المؤمنين ، وقد ورثوا جنات النعيم .

ولـكن كان من رحمة الله بهؤلاء الضالين الغاوين ، أن حجب عنهم صورتهم السيئة المنـكرة ، ولم يكشف لهم عن المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه ، إذا وقفوا حيث هم على موارد الضلال والغواية . .

وبدلا من أن يكشف الله لهم عن حالهم السيئة ، وينزلهم منازل الهون والبلاء ـ دعاهم إليه ، ومنحهم فرصةً أخرى ، يراجعون فيها أنفسهم ، ويتدبرون حالهم ، ويرجعون إلى الله من قريب ، ليـكونوا فى المؤمنين المفلحين ، فعرض عليهم سبحانه وتعالى شيئاً من مظاهر قدرته ، وعلمه ، وحكمته .. يجدونها ـ لو عقلوا ـ فى أقرب شىء إليهم .. فى أنفسهم ، وفى عجائب قدرة الله ، وبالغ حكمته .. إذ أخرج من التراب هذا الإنسان ، السميع البصير ، العاقل ، الناطق ، الذى عَمَرَ هذه الأرض ، وتسلّط على حيوانها ونباتها وجمادها . .

فى هذه النظرة التى ينظر بها الإنسان إلى نفسه ، وإلى أصل نشأته ، وتطوره فى الحياة ، وتنقله فى الخلق ـ فى هذه النظرة ، يرى الإنسان أن يداً حكيمة قادرة ، هى التى أوجدته ، وأخرجته على هذه الصورة ، التى لا وجه للشبه بينها وبين هذا التراب الهامد الذى وُلدت منه . فـكيف لا يُولى الإنسان وجهه إلى الذى فَطَره وصوّره ، وأقامه على هذا العالم الأرضى خليفةً لله فيه ؟ وكيف لا يَدِينُ لخالقه ورازقه بالطاعة والولاء ؟ ثم كيف يعطى يديه ، ويُسْلِم زمامه لأحجار ينحتها ، أو لحيوان يربيه ، أو لإنسان هو مخلوق مثله ؟ ذلك ضلال مبين .

وانحدار سريع إلى عالم التراب ، مع الهوام والحشرات !

قوله تعالى :

* « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

السلالة : الأصل ، وكأنها السلسلة التى يمتد عليها أصل الشىء ، ويصل بين مبدئه وغايته ، وهذا يشير إلى أن الإنسان قد مرّ فى أطوار كثيرة بين عالم التراب ، وسار مسيرة طويلة فى سلسلة متصلة الحلقات .. من التراب إلى الطين، ثم من الطين إلى الحمأ المسنون ، ثم من الحمأ المسنون إلى الصلصال ، كما يقول تعالى على لسان إبليس ـ لعنه الله ـ : «قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خَلَقْتَه من صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مسنون » (٣٣ : الحجر) .. ثم من هذا الصلصال إلى عالم النبات .. من الطحالب .. إلى النخلة ، ثم من عالم النبات إلى الحيوان ، من الجرثومة . . إلى الإنسان . . !

وقد عرضنا لقضية خَلْق الإنسان فى الجزء الأول من هذا التفسير . .

قوله تعالى :

* « ثم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قرارٍ مَكِينٍ » .

هو إشارة إلى أن هذا الإنسان الذى أخرجته القدرة الإلهية من بين هذا التراب بشراً سويًّا ، ما هو إلا هذه النطفة التى اختَصَرت وجودَه كله ، واشتملت على كل مافى كيانه من قوى عاقلة ، ناطقة ، مبصرة ، سميعة ، مريدة ، فما النطفة إلا الإنسانُ مضمراً فى كيانها ، وما الإنسانُ إلا النطفةُ سابحًا فى محيطها متحركا فى فَلَكها . .

والقرار المكين ، المودعة فيه النطفة ، هو الحبل المنوىّ ، الذى يمتد بين

فِقَار الظهر ، وأضلاع الصدر ، كما يقول تعالى : « فلينظر الإنسان مِمَّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب » (٥ ـ ٧ . الطارق) .

وقد يكون القرار المكين : هو الرحم الذى تستقرّ فيه النطفة . .

وبين خَلْقِ الإنسان من طين ، وبين جَعْله نطفةً فى قرار مكين ، مقابلة ، بين نشأة الإنسان الأول من الطين ، وبين عملية التوالد ، التى هى وظيفة عضوية من وظائف هذا الإنسان . .

فالنشأة الأولى ، من التراب . . وفى هذا التراب كانت تكمن جرثومة الإنسان الأول كما تكمن النطفة فى هذا القرار المكين من الإنسان . .

ولكن شتان بين نطفة ونطفة !

فالنطفة التى تخلّق منها الإنسان الأول كانت من مادة هذه الأرض كلها . . والمدى بعيد شاسع بين مادة الأرض ، وبين هذا الإنسان المتخلق من المادة . . ولهذا جاء التعبير القرآنى المعجز عن هذه العملية بلفظ « الخَلْق » : « ولقد خلقنا الإنسان . . »

أما نطفة الإنسان ، وما يتخلّق من هذه النطفة من كائن بشرى مثل هذا الإنسان ، فالمسافة بينهما قريبة فى مرأى العين البشرية ، وفى مواجهة الشواهد الكثيرة لهذا . . فى عالم النبات والحيوان . . حيث تُخرج الحبّة نباتاً مثل هذا النبات الذى جاءت منه ، ويُخْرِج الحيوانُ من نطفته حيواناً مثله . . ولهذا جاء التعبير القرآنى المعجز عن هذه العمليـة بلفظ جَعَلَ . « ثم جعلناه نطفة » . . والجعل دون الخلق ، إذ هو وظيفة من وظائف المخلوق ، وذلك مثل قوله تعالى: « وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهارَ معَاشاً » (٨ ـ ١١ النبأ) .

قوله تعالى :

* « ثم خَلَقنا النطفة عَلقة .. فخلقنا العلقة مُضغةً .. فخلقنا المضغة عِظاماً .. فكسونا العظام لحماً .. ثم أنشأناه خلقاً آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين . »

تقصّ هذه الآية قصة « خَلْق » الإنسان ، ابتداء من النطفة ، التي جعلها الله سبحانه وتعالى فى قرار مكين ..هو الرّحم .

وهنا يتجلى الإعجاز القرآنى ، حتى ليكاد يُلمس باليد ، إن عَمِيت عنه العيون ، وزاغت عنه الأبصار !

فقد رأينا كيف فرق النظم القرآنى بين أمرين :

فأولا : جعل إيجاد الإنسان من الطين ، عملية خلق.. « خَلَقنا الإنسان من سُلالة من طين » .

وثانياً : جَعَلَ توالد الإنسان من النطفة عملية وظيفية ، تخضع لسُنن ظاهرةٍ يدركها الإنسان ، ويعمل على تحقيقها ، وقد عبر عنها القرآن بلفظ « جعل » .. « ثم جعلناه نطفةً فى قرار مكين » .

وهنا فى هذه الآية ــ وهو موضع العجب والدّهَش والانبهار لهذا الإعجاز ــ هنا تتحرك النطفة نحو غايتها إلى أن تكون مولوداً بشراً .. يتنقّل من نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى هيكل عظمى مُعرًّى من اللحم .. إلى هيكل بشرى يكسوه اللحم .. إلى جنين .. ثم طفل ..

وهذه الأطوار ، هى فى الواقع انطلاقة لهذه النطفة ، وإظهار لما فى كيانها .!

وعلى هذا ، فقد كان من المتوقع أن تكون هذه التحركات للنطفة من باب « الجعل » لا « الخلْق » لأن النطفة ذاتها « مجعولة » وكل ماتعطيه هو من « المجعول » أيضاً . .

ولكن النظم القرآنى ، خالف هذا ، وجاء بالتعبير عن « الجعل » بلفظ « الخلق » ..

فالنطفة لم تُجعل علقة ، وإنما خُلقت عَلقة .. « ثم خلقنا النطفة علقة .. »

والعلقة لم تجعل مضغة ، وإنما خلقت مضغة .. « فخلقنا العلقة مضغة .. »

وهكذا المضغة ، لم تجعل عظاماً ، وإنما خلقت عظاماً . « فخلقنا المضغة عظاماً .. »

فما سر هذا ؟ بل ما أسرار هذا ؟ وماذا وراءه ؟

السرّ فى هذا ـ والله أعلم ـ أن كلّ عملية من هذه العمليات ، هى خَلْقٌ جديدٌ ، لا يملكه إلا الخالقُ جل وعَلاَ ، وهو مما استأثر به سبحانه وتعالى وحده ، فسمّى ذاته « الخالقَ » وأبى على خلقه أن يشاركوه فى هذه الصفة ..

ومعنى هذا ، أنه لا يمكن للإنسانية كلها ـ وإن اجتمعت ـ أن تنتقل بالإنسان فى هذه الأطوار من طور إلى طور .. وأن قدرة النــاس ـ ولو اجتمعت ـ لا تستطيع أن تنتقل بالنطفة إلى العلقة ، ولا بالعلقة إلى المضغة .. وهكذا ..

إنها جميعها ـ كما قرر القرآن ـ عمليات « خلق » ، استأثر بها الخالق .. وإنها لمعجزة قرآنية متحدية ، قائمة على التحدى فى كل زمان ومكان .. وإنه لن يأتى العلم أو العلماء ـ مهما بلغ العلم ، واجتهد العلماء ـ بما يقف لهذه المعجزة المتحدية ، على مدى الأزمان .

نقول هذا ، لا انحجر على العلم ، ولا لنقف فى طريق العلماء ، الذين يحاولون الوصول إلى « خلق » الكائن الحىّ .. بل نحن ندعو العلم ، ونُهيب بالعلماء أن يجْرُوا فى هذا الميدان إلى غايته ، وأن يتحدّوا هذه المعجزة المتحدية .. فتلك هى دعوة القرآن للكشف عن إعجازه ، والدعوة إلى الإيمان بأنه تنزيل من ربّ العالمين ..

وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص ، تحت عنوان : « الخالق وماخلق » فى تفسير الجزء السابع عشر ، من القرآن الكريم ..

— وفى قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » إشارة إلى نفخة الروح فى الإنسان ، بعد أن يتخلّق ، ويتم تصويره على الصورة الإنسانية .. فهو قبل هذه النفخة كتلة من اللحم والعظم .. حتى إذا نَفَخ فيه الخالق من روحه ، أصبح كائناً حيًّا ، ودخل فى عالم الإنسان !

— وقوله تعالى : « فتبارك الله أحسنُ الخالقين » هو تمجيد لله ، وتسبيح بجلاله وعظمته ، يقولها الحق سبحانه وتعالى ممجداً ذاته ، ويقولها الوجود كلّه ، تسبيحاً ، وصلاةً ، وحمداً للخالق المبدع المصوّر ..

قوله تعالى :

* « ثم إنكم بعد ذلك لميّتون » .

وهذه حقيقة واقعة ، يعلمها الناس ، ويقعون فى دائرة تجربتها .. فهى — والحال كذلك — فى غير حاجة إلى أن يُخْبَرَ عنها ، ثم إذا كان لابد من الإخبار بها ، فهى فى غير حاجة إلى توكيد ..

ولكن جاء القرآن مُخبراً عنها ، ومؤكداً لها .. وذلك لأن الناس — وإن كانوا على علم واقع بهذه الحقيقة — ذاهلون عن الموت ، غافلون عنه ، حتى لكأنهم لن يموتوا أبداً .. فلقد غرّتهم الدنيا ، وألهاهم متاعها ، وشغلهم غرورها ، فكانت هذه النخسة من القرآن الكريم ، إيقاظاً لهؤلاء النيام ، الذين هم فى غمرةٍ ساهون ، والذين هم فى خوضهم يلعبون .

قوله تعالى :

* « ثم إنكم يوم القيامة تُبْعثون » .

إن الموت ليس هو نهاية الإنسان ، بل إنه مرحلة من مراحل وجوده ، وموقف يتحول به من عالم إلى عالم آخر .. فيه حساب وجزاء .

قوله تعالى :

* « ولَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكم سَبْعَ طَرَآئق وما كُنَّا عن الخَلْقِ غافلين » .

الطرائق : جمع طريقة — وهى الطبقات .. بعضها فوق بعض .. والسبع الطرائق : السموات السبع .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ألم تروْا كيف خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طباقاً » (١٥ : نوح) .

فالسَّموات ، ليست كما تبدو فى مرأى العين ، سقفاً جامداً ، وإنما هى طبقات من الأثير ، بعضها فوق بعض ، كما أن الأرض طبقات من المادة الكثيفة .. بعضها فوق بعض كذلك .. طبقة قشرية من تراب .. ثمَّ تحتها طبقات من أحجار ، ومعادن .. وغيرها ، مما لم يبلغه علم الإنسان ..

— وفى قوله تعالى : « وما كنا عن الخلق غافلين » — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، إذ يخلق ما يخلق ، فإنه — سبحانه — يقوم على أمر هذا الخلق وتدبيره ، ويمسك نظامه ، ويحفظ وجوده .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ألآ لَهُ الخلقُ والأمْر » .. فهو وحده — سبحانه — الذى يخلق ، وهو وحده — جل شأنه — الذى يدبّر أمر ماخلق .

قوله تعالى :

* « وأنزلنا من السمآء مآء بِقَدَرٍ فأسكنَّاه فى الأرض وإنَّا على ذهابٍ به لقادرون » .

هو بيان لقوله تعالى : « وما كنّا عن الخلق غافلين » ..

وذلك أن الله — سبحانه — الذى خلق الإنسان ، لم يدَعه وشأنه ، بل

تولّى أمره ، ودبّر شئونه ، فأنزل هذا الماء الذى هو مِلاك حيـاة كل حىّ ، من نباتٍ وحيوان ..

وأن هذا الماء لم ينزل إلا بحساب ، وتقدير ، فكان على قدر مايَصلُح به الناس ، وتصلح به حياتهم .. وأنه لو كان أقلّ مما هو ، لهلك الناس ، وفسدت حياتهم ، ولو كان أكثر مما هو ، لهلك الناس ، وذهب العمران . .

— وفى قوله تعالى : « فأسكناه فى الأرض » — إشارة إلى أمور ·

أولها : استقرار الماء فى الأرض ، ولزومه إياها ، وجعلها سكناً له ، يألفها ، وتألفه ، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر أبداً ، حتى لـكأنهما كائنان من عالم الأحياء ، يتزاوجان تزاوج الذكر والأنثى .

وثانيهما : أن إسكان الماء فى الأرض ، إنما هو لرسالة يؤدّيها فى الحياة ، شأنه فى هذا شأن الإنسان ، الذى أسكنه الله هذه الأرض ، وجعله خليفة فيها .. وهذا هو بعض السرّ فى التعبير عن استقرار الماء فى الأرض ، بالسكن فيها .

وثالثهما : أن تعدية الفعل « أسكنّاه » بحرف الجرّ « فى » الذى يفيد الظرفية ـ هذه التعدية تعنى جريان الماء فى الأرض ، ونفوذه إلى أعماقٍ بعيدة فيها ، وأنه بهذا يأخذ وضعاً متمكناً منها ، بحيث لا يعرض له من العوارض ، ما يجليه عنها ، أو يقطع صلته بها .

— وفى قوله تعالى : « وإنا على ذَهابٍ به لقادرون » إلفاتٌ إلى تلك النعمة العظيمة التى لا يكاد يلتفت إليها الناس إلا فى أحوال نادرة ، حيث ينقطع الماء عنهم .. فهذه النعمة التى يجدها الإنسان بين يديه من غير أن يبذل لها جهداً ، هى أثمن وأغلى شىء فى هذه الحياة ، وأن الإنسان لَيُقدّم كلّ ما يملك فى هذه

الدنيا فى مقابل شَربة من الماء ، تمسك عليه حياته ، إذا حرم المـاء فى حال من الأحوال . .

رُوى أن أحد الزهاد دخل على الرشيد ، فعتب عليه الرشيد أنه لم يطلب منه شيئاً . . فقال الزاهد : وماذا فى يدك حتى أطلب منك ؟

فقال الرشيد : هذه خزائن مالى ، وهذه الأمصار . . فاطلب من المـال ما تشاء ، واختر أى مصر أقيمك والياً عليه !

فقال الزاهد : وكم يساوى ما فى خزائنك من مال ؟ وكم يقدّر لأمصارك وولاياتك من ثمن ؟

فقال الرشيد : إنه كثير كثير . . كما ترى . .

فقال الزاهد : يا أمير المؤمنين . . بكم تشترى شَربة الماء إذا اشتدّ بك العطش . وأنت فى متاهة ، ولا ماء معك ؟

فقال الرشيد : بملـكى كلّه ، ولو كان معى مثله لبذلته . .

فقال الزاهد : يا أمير المؤمنين . . وبكم من ملكك تدفع عن نفسك شربة الماء إذا احتبست فى داخلك ، ولم تخرج من مخرجها ؟

فقال الرشيد : بملـكى كلّه .. ولو كان معى ضعفه لخرجت منه ! !

فقال الزاهد : هذا ملـكك يا أمير المؤمنين . . كما رأيت . . فماذا أطلب مما ملـكت ؟

فلو أن الناس ذكروا أدنى نعم الله عندهم ، لوجد أشدُّهم فقراً أنه فى غِنًى عريض ، وملك كبير ، ولبَات مع القليل الذى فى يده ، على رضاً وحمدٍ لله ربّ العالمين . .

— قوله تعالى :

* « فأنشأنا لـكم به جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ لـكم فيها فوا كه كثيرة ومنها تأ كلون » :

هو بيان لبعض وجوه النفع التى ينتفع بها الإنسان من هذا الماء ، الذى أنزله الله سبحانه وتعالى من السماء ، وأسكنه فى الأرض ، وأبقاه ولم يذهب به .

فمن هذا الماء ـ فضلاً عن حياة الإنسان به ، وإرواء ظمئه ـ ينبت النبات والشجر ، ويخرج الحب والفا كهة . .

وفى اختصاص الجنّاتِ بالذ كر ، لأنها الصورة الـكاملة التى تجمع مختلف الزروع ، من الفا كهة وحبّ الحصيد . .

وفى اختصاص النخيل والأعناب من بين أشجار الفا كهة ،لأنها أعلى درجات النبات صعوداً إلى الـكمال فى عالم النبات . . فهاتان الشجرتان على قمة العالم النباتى ، حيث تلامسان عالم الحيوان . . وقد تحدثنا عن النخلة فى بحثنا عن خلق آدم ، فى الجزء الأول من هذا التفسير ، وأشرنا إلى معنى الحديث الشريف : « أ كرموا عماتِـكمُ النّخل . . فإنهن خُلِقْن من طينة آدم » . .

قوله تعالى :

* « وشجرةً تخرج من طور سَيْناء تنبتُ بالدُّهنِ وصبغٍ للآ كلين » .

المراد بالشجرة هنا شجرة الزيتون . . وقد جاءت منـكرة للتنويه بها ، وبأنها فى تنـكيرها أعرف من كل معرّف . . وذلك لأن الله سبحانه وتعالى بارك عليها ، فقال تعالى : « يوقد من شجرةٍ مباركة زيتونة » (٣٥ : النور) .

وهى منصوبة بالعطف على « جناتٍ » . . على تقدير وأخرجنا لكم به جناتٍ من نخيل وأعناب وشجرةً . .

وفى وصفها بأنها « تخرج من طور سَيْناء » ـ مع أنها تخرج من مواطن كثيرة من الأرض ـ إشارة إلى أنها وُلدت أول ما ولدت فى هذا الموطن المبارك ، طور سيناء . . فذلك هو مسقط رأسها الأول ، وذلك هو الرّحم الطاهر الذى خرجت منه . . فكل أشجار الزيتون ممسوسة بنفحة من هذه الأمّ التى ولدتها تلك الشجرة التى تفتق عنها رحِمُ هذا المكان الطاهر المبارك . .

— وقوله تعالى : « تَنْبُتُ بالدهن » أى تنبت وفى كيانها الدهن ، وهو الزيت الذى يخرج منها ، ويعصر من ثمارها . .

— وقوله تعالى : « وصبغ للآكلين » . . معطوف على الدهن ، والصبغ الإدام ، الذى يصبغ اللقمة من الطعام حين تغمس فى الزيت ، فتصطبغ به ، وتتلوّن بلونه ، وتصبح مشتهاة للآكلين . .

قوله تعالى :

* « وإنَّ لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرةٌ ومنها تأكلون » .

هو إلفاتٌ إلى هذه الأنعام المسخرة للإنسان ، ومافيها من منافع كثيرة له .

وأعجب مافى هذه الأنعام ، هذا اللبن الذى يخرج من بطونها ، من بين فرثٍ ودمٍ . . فلا يأخذ من لون الدم ، أو ريح الفرث شيئاً ، على حين أنه يجرى بينهما ، ويأخذ مسلكه الدقيق معهما . . ففى ذلك شاهد من شواهد قدرة الله وإحكام تدبيره وتفرّده سبحانه بالخلق والتدبير .

قوله تعالى .

* « وعليها وعلى الفلك تُحْملون » .

أى أن من هذه الأنعام ما يتخذ للركوب ولحمل الأثقال ، كما تتخذ الفلك مراكب للانتقال وحمل الأثقال . .

الآيات : (٢٣ — ٣٠)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا نوحًا إلى قَوْمِه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون » .

كان ذكر نعمة الفلك فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون » مناسبة قوية تُذَكِّر بقصة نوح عليه السلام ، وبالسفينة ، التى جعلها الله مركبَ نجاة له ، ولمن آمن معه . . وأن هذه السفينة لم تكن إلا

نعمة من نعم الله ، نجا عليها من آمن به . . وكذلك كل نعمة من نعم الله الكثيرة التى فى أيدى الناس، هى فُلك نجاة ، يسلك بها الإنسان طريقه إلى الله ، ويستدل بها على قدرته وحكمته ، فيؤمن به ، ويبتغى مرضاته ، وبهذا ينجو من سَخَطه وعذابه ، الواقع بالظالمين المكذّبين .

وقد جاء نوح إلى قومه يذكّرهم بالله ، ويدعوهم إلى الإيمان به وحده ، ويحضهم على تقواه : « أفلا تتقون ؟ » .

وكان جواب القوم على هذه الدعوة الكريمة ، ما جاء فى قوله تعالى :

* « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشَرٌ مثلكم يريدُ أن يتفَضّل عليكم ولو شَاء الله لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » .

إنها فلسفة مريضة ، وسفاهة عمياء . .

« ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » . . هكذا رأى القوم ـ بجهلهم وغبائهم ـ فى هذا الداعى الذى يدعوهم إلى الله . . إنه طالب سلطان عليهم واستعلاء فيهم ، بهذا الموقف الذى يقفه منهم . . إذ كيف يقودهم فينقادون ؟ ويدعوهم فيستجيبون ؟ وهو واحد منهم لا فضل له عليهم ؟ فمن أين جاء هذا السلطان فيهم ؟ ومن أين كانت له هذه الكلمة عليهم ؟ إنّها لا أكثر من دعوى يدّعيها ، وإنه لا أكثر من قول يقوله : أنا رسول الله إليكم ! ! وإذا كان لله رسل ، فلم لم يكونوا من الملائكة ، وهم أقرب إلى الله ، وأكثر اتصالا به ؟

وإذن فالقوم كانوا يعرفون الله ، ويعرفون أن لله سبحانه وتعالى ملائكة .

نعم ، ولكنهم كانوا أشبه بمشركى العرب . . يعرفون الله هذه المعرفة المطموسة بتلك التصورات الفاسدة ، التى لا ترتفع بجلال الله إلى ما يليق به من

تنزيه عن الصاحبة ، والشريك ، والولد . .

قوله تعالى :

* « إنْ هو إلاّ رجلٌ بِهِ جِنّةٌ فتربصوا به حتّى حين » .

وهذا حكمهم على « نوح ».. إنه رجلٌ مخبول ، يهذى بهذا الكلام الذى يقوله لهم ، ويحدثهم به عن الله . . وإذن ، فمن الحكمة ـ حكمة السفهاء ـ أن ينتظروا قليلًا ، حتى يَرَوْا ما وراء هذا الجنون . . أهو عارض فيشفى منه صاحبه ، أم هو متمكن منه ، ولا شفاء له . . وإذن فسيكون لهم معه شأن غير هذا الشأن !

قوله تعالى :

* « قال ربّ انصُرنِى بما كذّبونِ » .

وإنه ليس أمام نوح مع هذا العناد الأعمى ، إلاّ أن يستنصر بربه ، وأن يطلب الانتقام له من هؤلاء الذين كذّبوه ، وبهتوه ، وتوعدوه بالبلاء والنكال.

وقوله « بما كذبون » أى انصرنى بما كذبون به ، من سلطانك وبأسك وقوتك .. فالباء للاستعانة ، وليست للسببية . .

قوله تعالى :

* « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون » .

هذا هو جواب الله لنوح فيما سأله إياه . . أن يصنع الفلك على حسب ما يتلقّى من توجيه ربه ، ووحيه له ، وأن « يَسلك » أى يُدخل ويَنْظم فيها

من كل حيوان نافعٍ له ، زوجين اثنين ، ذكراً وأنثى ، وأن يأخذ أهله معه ، إلا من سبق عليه القول منهم ، فلم يكن من المؤمنين بالله . .

— وقوله تعالى : «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون» - هو تثبيت لقلب نوح ، وعزاء له فى أهله الذين سيخلّفهم وراءه للهلاك غرقاً . . فهذا أمر الله فيهم ، وحُـكمه عليهم . . وليس لأمر الله مَرَدٌّ ، ولا وراء حكمه معقب ، وإنه ليس عند المؤمنين بالله إلا الاستسلام والرضا . .

قوله تعالى :

* « فإذا استويتَ أنتَ ومن معك على الفلك فقل الحمدُ لله الذى نجانا من القوم الظالمين » .

هو وعد من الله سبحانه وتعالى لنوحٍ بالنجاة من هذا الطوفان المخيف ، وأن هذه الرحلة التى سيخوض فيها بسفينته غمرات هذا الطوفان ، هى رحلة مأمونة ، عاقبتها السلامة والنجاة ، وحقّها الحمد والشكران لله ربّ العالمين .

قوله تعالى :

* « وقل ربّ أنزلنِى مُنْزَلاً مباركاً وأنت خيرُ المنزِلين » .

هو تلقين لنوح بتلك الدعوة المباركة ، التى يدعو بها ربّه ، وهو فى طريق العودة إلى اليابسة ، بعد أن تُنهى السفينة دورتها على ظهر هذا الطوفان ، حتى يهيىء الله له مكاناً خيراً من هذا المكان الذى شهد فيه عناد قومه ، ورأى مصارعهم ، وقد اشتمل عليهم الطوفان . .

وهذا يعنى أن بعض الأمكنة أفضل من بعض . . بعضها ينبت الشوك والحَسَك ، وبعضها يخرج زروعاً ناضرة ، وجنات مثمرة . . كذلك بعضها بلد الكرام من

الرجال وبعضها يلد الأنكاد المشائيم منهم .. وهذا ما نجده فى قوله تعالى : « والبلد الطيّب يخرجُ نباتهُ بإذن ربّه والذى خَبُث لا يخرج إلا نـكِداً » .

وليس يُنكَر أثر البيئة فى تكوين شخصية الإنسان ، وفى تلوين صبغته الظاهرة والباطنة .. فأهل البادية غير أهل الحضر ، وسكان البلاد الحارة غير سكان البلاد المعتدلة .

ولحكمة عالية ، ولسرّ عظيم ، كان اختيار الجزيرة العربية مطلعاً لرسالة الإسلام الخالدة ، واختيار رسولها من نبت هذه البادية ، ومن زهرها الطيب الكريم .. وقد عرضنا لهذا الموضوع فى كتابنا : « النبىّ محمد صلى الله عليه وسلم » .. تحت عنوان : « مكان الدعوة وزمانها » .

قوله تعالى :

* « إن فى ذلك لآياتٍ وإن كنّا لمبتَلين » .

الإشارة هنا إلى هذا الحدَثَ ، وما كان فيه من هلاك القوم الظالمين ، ونجاة الرسول ومن آمن معه .. ففى هذا الحدث آيات ،وشواهد على قدرة الله ، وإحاطة علمه بما يقع من عباده من طاعة أو عصيان ..

وقوله تعالى : «وإن كنّا لمبتَلين » .. (إنْ) هنا مخففة من « إنّ » الثقيلة .. والمعنى أن الله سبحانه وتعالى جعل الابتلاء والاختبار أمراً لازماً يُؤخَذ به عبادُه، حتى ينكشف حالهم ، ويأخذ كل منهم مكانه فى هذا الابتلاء.. فإرسال الرسل إلى الناس ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله ، وإتيان ما يفرضه عليهم الإيمان من واجبات ، هو ابتلاء ، ينكشف آخر الأمر عن مؤمنين وكافرين ، وناجين وهلكَى.. والله سبحانه وتعالى يقول : «ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونَبْلُوَا أخباركم » (٣١ : محمد) .

الآيات : (٣١ — ٤١)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) »

التفسير :

قوله تعالى :

*« ثم أنشأنا من بعدهم قَرْنًا آخرين » .

أى وبعد نوح أرسل الله سبحانه وتعالى رسلًا كثيرين إلى أقوامهم ، فكان الموقف واحداً « كلّما جاء أمةً رسولُها كذّبوه » .

— وفى قوله تعالى : « ثم أنشأنا » . . إشارة إلى أن عملية الخلق ليست عملية آلية ، كما تبدو من التوالد بين الأحياء ، وإنما تتجلّى قدرة الله سبحانه وتعالى فى خَلْق كل مخلوق ، صغُرَ أم كبر ـ فميلاد المولود هو خلق ، وإنشاء

مستقلٌ .. تماماً كما خُلق الإنسان الأول من تراب ، فكذلك خلق الإنسان المولود منه .. هو من ترابٍ أيضاً .. حيث تتولد النطفة من مادة المأكولات المتولدة من الأرض .. ثم تسير النطفة في مراحل التطور بقدرة الخالق ، فتتحرك من طور إلى طور ، حتى يولد المولود .

وهذا هو السر في التعبير القرآني بلفظ « أنشأنا » بدلا من لفظ أقمنا ، أو خلقنا ... ونحوها .

والقرنُ الآخرون ، الذين جاءوا بعد قوم نوح ، هم قوم عاد وقوم ثمود .. وقد جمعهما القرآن الكريم في قرنٍ واحدٍ ، لأنهم كانوا على شاكلة واحدة ، وقد جاء قوم ثمود ، خلفاً لقوم عاد ، في ديارهم ومساكنهم ..

* قوله تعالى :

« فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون » .

تلك هي دعوة الرسول في القوم ، سواء أكان الرسول هوداً ، المرسلَ إلى عاد ، أم صالحا المرسل إلى ثمود .. إن رسول كل من القومين هو واحد منهم ، وإن كلمة كِلاَ الرسولين إلى قومه هي : « أن اعبدوا الله .. مالكم من إله غيره .. أفلا تتقون » .. دعوة إلى عبادة الله ، وإفراده بالعبودية وحده .. والاستقامة على ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ..

قوله تعالى :

* « وقال الملأُ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون » ـ تلك

هى بعض مقولات القوم ـ قوم عادٍ وقوم ثمود معاً ـ التى استقبلوا بهـا دعوة رسولهم لهم ، إلى الإيمان بالله . .

والملأ : الجماعة من أشراف القوم وساداتهم ...

— وفى قوله تعالى : « الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا » .. وفى عطف « أترفناهم » على التكذيب والكفر ـ فى هذا إشارة إلى أن نعم الله التى نعمهم بها وأترفهم بالتنعم فيها ـ كانت عندهم عِدْلا للكفر والتكذيب .. وكأن ذلك صفة من صفاتهم إلى جانب الكفر والتكذيب . . أى كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وجحدوا بنعمنا التى أترفناهم بها ، وكذبوا بالرسول الذى جاءهم ، وأبوا أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، وعدوا هذا خسراناً وبلاء عليهم .

قوله تعالى :

* « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » .

هو بعض من مقولات القوم ، التى ينكرون بها على النبى دعوته إياهم إلى الإيمان باليوم الآخر .. فهم يستبعدون ـ إلى حد الاستحالة ـ أن يُبعثوا بعد أن يموتوا ، ويصبحوا تراباً ورفاتاً .. كما يقول الله تعالى بعد هذا ، على لسانهم :

* « هَيهات هيهات لِما توعدون إنْ هِىَ إلا حياتنا الدنيا نموت ونحْيَا وما نحنُ بمبعوثين » .

إنهم بهذا يؤكدون استبعاد البعث بعد الموت ، ويؤكدون أنه لا حياة إلا هذه الحياة التى هم فيها ، وأنهم إنما يدورون فى هذين المدارين ، حياة وموت ، وموت وحياة .. حيث يموت ناس ، ويولد ناس .. وهكذا دَوَالَيْك . . أما أن يبعث الموتى من قبورهم ، ويعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، فذلك مالا تقبله عقولهم ولا يتصوره خيالهم . .

إن الإيمان بالبعث فرع عن الإيمان بالله ، وبقدرته ، وعلمه ، وحكمته . .
فإذا لم يكن إيمان بالله ، أو دخل على هذا الإيمان خلل وفساد ـ لم يكن أمر البعث ممكنَ التصور . . كما يقول الشاعر الجاهلى .

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعث ؟ حديث خرافة يا أمَّ عَمْرِو

قوله تعالى :

* « إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين »

هى قَوْلة القومين ـ عاد وثمود ـ قالها كل قوم لرسولهم ، فرموه بالافتراء والكذب على الله .

* « قَالَ ربِّ انصرنى بما كذّبونِ »

وتلك هى صَرْخة كل من الرسولين إلى ربه ، وفزعته إليه . . وقد كانت تلك هى صرخة نوح وفزعته إلى ربه من قبل : « ربِّ انصرنى بما كذّبون » .

* « قَالَ عمّا قليلٍ ليُصْبِحُنّ نَادمين » .

وقد استجاب الله للرسولين الكريمين ، بهذا الوعيد الذى توعّد به القوم الظالمين . .

* « فأخذتْهم الصيحةُ بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين »

الصيحة : هى الزلزلة ، التى رجّت ديار القوم ، وأتت على كل شىء

وإذا كان عاد قد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، كما يقول الله تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صَرْصر عاتية * سخرها عليهم سَبْع ليال وثمانيةأيّام حُسُوماً * فترى القوم فيها صَرْعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية » . . وإذا كانت ثمود قد أهلكت بالصيحة . وقد سماها القرآن « الطاغية »

كما فى قوله تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » ـ إذا كان هذا وذاك ، فإن الصيحة تجمع الصفة التى هلك عليها عاد وثمود ، فأنهم أهلكوا بهذا البلاء الذي صاح فيهم صيحة جمد لها الدم فى عروقهم ، وتصدعت لها قلوبهم ، وتهاوت منها ديارهم . .

وفى قوله تعالى : « فجعلناهم غثاء » إشارة إلى أن ما خلّفه البلاء الواقع بهم ، من ذواتهم ، وديارهم ، وأموالهم ـ لم يكن إلا ترابا وحطاما أشبه بالغُثاء الذى يحمله السيل فى اندفاعه ، مما يجده فى طريقه من مخلفات الأشياء ، التى لا يلتفت إليها أحد .

الآيات : (٤٢ — ٥٠)

* « ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين * ما تسبق من أمـةٍ أجَلَها وما يستأخرون » .

القرون : الأمم .. والقرن من عمر الزمن مائة عام ، ومن عمر الإنسانية ، جيل من أجيالهم ويُقدّر بثلاث وثلاثين سنة .

والإنشاء : الخلق ، والإيجاد من عدم ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

« ماتسبق من أمة أجلها » : أى ما تسبق أمة أجلها . . وحرف الجرّ من » زائد ، و « أمة » فاعل .

والمعنى . . أنه بعد أن أهلك الله قوم عاد ، وقوم ثمود ، خلق من بعدهم أمماً أخرى كثيرة ، جاء بعضها إثر بعض . . فكان لكل أمةٍ ميقات لميلادها ومهلكها ، تماماً كميقات مولد الإنسان ومهلكه . . لا تجىء أمة قبل الوقت المقدر لميلادها ، ولا تستأخر عنه . .

قوله تعالى :

* « ثم أرسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جاء أُمَّةً رسولُها كذبوه فَأَتْبَعْنَا بعضَهم بعضاً وجعلناهم أحاديثَ فبعداً لقوم لا يؤمنون » . .

تترى : أى تتتابع ، ويجىء بعضها وراء بعض .

أى ثم أرسل الله سبحانه وتعالى إلى كل أمة رسولا منها .. يلقاها فى الوقت المعلوم . . وكما تتابعت الأمم ، وجاء بعضها إثر بعض ، كذلك تتابعت الرسل وجاء بعضهم وراء بعض ..

وكما خلفت كل أمة الأمةَ التى قبلها ، فى ديارها وأموالها ، خلفتها كذلك

فى تـكذيبها لرسول الله المبعوث إليها ! ثم حل بها البلاء ، وأخذها الله ببأسه . كما أخذ من سبقها من أمم ..

— وفى قوله تعالى : « وجعلناهم أحاديث » إشارة إلى هلاك هذه الأمم المتتابعة ، وزوال آثارها ، فلم يبق منها إلا أحاديث يرويها الناس عنها ، وعما كان منها ، وما نزل بها . .

— وقوله تعالى : « فَبُعْدًا لقوم لا يؤمنون » . . هو تهديد لمن لا يؤمن بالله من الأقوام الحاضرة أو المقبلة ، وعبرة بهذه الأمم التى هلـكت بعذاب الله .

وفى التعبير هنا بقوله تعالى : « فبعداً لقوم لا يؤمنون » . . وبقوله تعالى : « فبعداً للقوم الظالمين » عند التعقيب على هلاك قوم عاد وثمود ـ فى هذا مراعاة لمقتضى الحال هنا وهناك ..

فهنا تهديد لقوم يُدْعَوْن إلى الإيمان ، ويقفون موقفاً مباعداً له ، ولـكنهم لم يقعوا بعد تحت عذاب الله الراصد للـكافرين .. فحسن لهذا أن تعرض عليهم صورة الـكافرين ، وقد تلبسوا بكفرهم هـذا الذى إذا لم يخرجوا منه ، كان مصيرهم البلاء والنكال . . وهناك ـ مع قوم عاد وثمود ـ قد هلك القوم فعلا ، بعد أن قطعوا طريقهم مع الـكفر إلى آخره . . فـكانوا بهذا كافرين وظالمين غير مظلومين ، إذ أخذوا بهذا العذاب البئيس ، فـكان وصفهم بالظلم أنسبَ وصف لهم .

قوله تعالى :

* « ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملائه فاستـكبروا وكانوا قوماً عالين » .

عطفت قصة موسى على ماقبلها بحرف العطف « ثمّ » الذى يفيد التراخى .

وهذا الفصل بثم ، بين هذه القصة وماسبقها من قصص ، للإلفات إلى قصة موسى ، إذ كانت ، بما اشتملت عليه من أحداث ، وما صحبها من معجزات ـ تـكاد تـكون مثلا فريداً بين قصص الأنبياء التى سبقتها . .

والسلطان المبين الذى كان مع موسى ـ هو ما ضُمّت عليه هـذه الآيات من إعجاز قاهر غالب ، يفُحم الخصم ، ويقهره . . وبهذا يكون له السلطان القوى المبين عليه .

وفى قوله تعالى : « وكانوا قوماً عالين » . هو حال من الضمير فى قوله تعالى : « فاستـكبروا » أى فاستـكبروا مصاحبين استعلاءهم الذى كان يملأ شعورهم بالترفع عن مستوى البشر . .

فهذا الاستـكبار الذى لقى به فرعونُ والملأ الذين معه ، دعوةَ موسى وهرون لهم إلى الإيمان بالله ، ـ هذا الاستـكبار ، هو أثر من آثار هـذا الغرور الذى استبد بعقولهم ، فرأوا منه فى فرعون إلٰها ، وأنهم حاشية إلٰه !!

* قوله تعالى :

* « فقالوا أنؤمن لبشرَيْن مثلنا وقومهما لنا عابدون » ؟

وهذا القول ، هو من قوم فرعون ، ومن الملأ الذين معه . . وليس من فرعون . . إذ أن فرعون ما كان يرى أنه من البشر ، وإنما هو إلٰه من نسلِ آلهة . . ولهـذا قال لموسى : « لئن اتخذت إلٰها غيرى لأجعلنك من المسجونين » !

وهذه القولة من قوم فرعون شاهد يشهد بأن الناس جميعاً على سواء فى إنـكارهم على رسل الله أن يكونوا بشراً مثلهم . . وأكثر ما يكون هذا عن الحسد الذى يَتنفّس فيه بعض الناس على بعضهم ، أن ينالوا شيئاً من نعمة ،

أو جاه، أو سلطان، وأشد ما يكون الحسد، حين يكون بين المتجاورَيْن، والمتقاربين فى الدار، أو العمل .. وأنه كلما بعدت الصلات بين إنسان وإنسان، فترت أو ماتت دواعى الحسد له، والعكس صحيح ..

ومن هنا صحت العبرة القائلة: « لا كرامة لنبى فى وطنه » وذلك للنظرة الحاسدة له من قومه.

وقوله تعالى: « وقومهما لنا عابدون » ـ هو من بعض تَعِلاّت القوم على موسى وهرون، ومن الحجج التى أقاموها فى دفع دعوته لهم إلى متابعته .. إذ كيف يتابعون بشراً مثلهم؟ وإذا جاز هذا فكيف يتابعون بشراً هو دونهم منزلة؟ أليس موسى وهرون من قوم هم خدم وأتباع لفرعون وقومه؟

قوله تعالى:

* « فكذبوهما فكانوا من المهلكين ».

وتلك هى عاقبة من يُدْعَى إلى الهدى فيأبى، ويُلْقَى إليه بحبل النجاة فيأنف أن يمسك به من يدٍ لا يراها كفئاً له حسباً ونسباً، ويؤثر أن يموت غرقاً على أن تكتب له النجاة، ويأخذ الحياة من تلك اليد المحقَّرة عنده!.

قوله تعالى:

* « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ».

هو إشارة إلى قصة أخرى .. هى قصة موسى مع قومه بنى إسرائيل، بعد أن انتهت قصته مع فرعون وقومه ..

ولم يجر ذكرها لبنى إسرائيل ، وإنما جيء بضمير الغيبة عنهم بدلا منهم ، إشعاراً لما كان عليه القوم من عناد ، وخلاف ، ومكر بآيات الله ، حتى لكأنهم — وهم يسمعون آيات الله ، ويروَن المعجزات التى يطلع بها عليهم موسى — غائبون غير حاضرين ، لما فى قلوبهم من قسوة ، وما فى طباعهم من التواء .

قوله تعالى :

* « وجعلنا ابن مريم وأمه آيةً وآويناهما إلى ربوَةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين »

هو معطوف على قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب » . . أى آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا ابن مريم وأمّه آيةً . . لبنى إسرائيل لعلهم يهتدون ، وذلك أن عيسى عليه السلام هو رسول إلى بنى إسرائيل ، وآية من آيات الله فيهم . . وتلك الآيات القاهرة المتتابعة ، هى مظاهرةٌ لحجة الله على هؤلاء القوم ، حتى إذا لم يستجيبوا لها ، كان العذاب الواقع بهم أضعافاً مضاعفة ، لما يحلّ بغيرهم من عباد الله .

وفى الإشارة إلى عيسى عليه السلام بقوله تعالى : « ابن مريم » إشارة إلى النسب الصحيح له . . وهو أنه ابن أمّه مريم . . وليس ابن إله كما يدّعى النّصارى ، ولا ابن زنا كما يفترى اليهود .. « إنه ابن مريم » !

وقد اختُلف فى الربوة — وهى المكان المرتفع من الأرض — التى آوى الله سبحانه وتعالى ، إليها ابن مريم وأمّه . . والراجح عندنا أنها مِصْر . . التى جاء إليها المسيح طفلا محمولاً على صدر أمه ، مع زوجها يوسف النّجار . . وذلك حين أوحى الله إلى مريم أن تهرب بوليدها إلى مصر ، خوفاً عليه من الحاكم الرومانى ، الذى طلبه ليقتله ، حين سمع بمولده .. كما يحدّث بذلك إنجيل متّى .

وتسمية مصر « ربوة » لأنها بالنسبة لأرض فلسطين أشبه بالربوة المشرفة على الوادى ، وذلك لأنه كلاً من مصر وفلسطين فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية . . وأن الأرض فى هذا النصف تأخذ فى الانحدار من الجنوب إلى الشمال ، أى من خط الاستواء إلى القطب الشمالى ، ولهذا تجرى الأنهار من الجنوب إلى الشمال فى هذا النصف من الكرة . . ولما كانت مصر تقع إلى الجنوب من أرض فلسطين ، فإنها ـ لهذا ـ أعلى مكاناً منها ، بحيث لو نظر الناظر إليهما من أفق أعلى لرأى مصر مشرفةً على فلسطين كأنها ربوة عالية .

والقرار : المكان الذى يُستقرّ فيه ، حيث تتوفر أسباب الحياة والاستقرار

والمعين : الماء الذى يفيض من العيون . . وهذا الوصف جدير أن يكون لمصر .

الآيات : (٥١ — ٦٢)

* « يٰأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰٓئِكَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يَـٰأيها الرُّسُل كلُوا من الطيّبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمّتكم أمّة واحدةً وأنا ربكم فاتقون » .

الخطاب الموجه من الله سبحانه وتعالى إلى الرسل .. عليهم الصلاة والسلام ـ هو خطاب عام يشمل أتباع الرسل جميعاً . . وقد خُصّ الرسل بالنداء لأنهم القدوة والمثل الأنسانية كلها عامة ، ولأقوامهم خاصة .

وقُدّم الأكل من الطيبات على العمل الصالح ، لأنه ثمرة الأعمال الصالحة ، فلا يتحرّى الأكل من الطيب إلا من أقام نفسه على الأعمال الصالحة وأخذها بها .

ولأن الأكل ، وما يتصل به ، هو مدار حياة الإنسان ، وكل سعيه وعمله يكاد يكون دائراً فى مجاله ـ كان الإلفات إليه ألزم وأولى ، لأنه هو الذى يجسّم العمل ، ويصوّره ، وهو الذى يُرَى عليه أثر العمل وصنعته ، إن كان صالحاً أو غير صالح .

— وفى قوله تعالى : « إنى بما تعملون عليم » تحذير من مراقبة الله ، وعلمه بما يقع من الناس من أعمال ، وبما تتصف به هذه الأعمال من صلاح أو فساد .

— وقوله تعالى : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ـ هو دعوة إلى الإخاء الإنسانىّ ، وإلى إزالة هذه السدود التى تعزل المجتمعات الإنسانية بعضها عن بعض .. فما هذه الأصباغ والألوان التى تصبغ الناس ، من معتقدات دينية ، لا ينبغى أن تقوم حجازاً بين الناس ، وخاصةً إذا كانوا جميعاً يتجهون

إلى الله ، ويؤمنون به . . فوجهتهم جميعاً هى الله ، وإن كان لـكلٍّ وجهة هو موليها . . وكذلك ينبغى أن تـكون وجهتهم جميعاً هى الإنسانية ، وإن كان لـكلّ إنسان لونه ، ووطنه . وجنسه .

قوله تعالى :

* « فتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزبٍ بما لديهم فَرِحون » .

هو إنـكارٌ على الناس هذا التقاطع والتدابر الذى بينهم ، وقد كان الأولى بهم ، وهم إخوة أبناء ذكر وأنثى ، وهم مربوبون لربٍّ واحد أن يكون أمرهم واحداً . . ولـكنهم تنـكبوا هذا الطريق ، فتنازعوا أمرهم بينهم ، وتقطعوه قِطَعاً ، وذهب كل فريق منهم بجزء منه ، فرحاً بما ذهب به ، ظاناً أنه أخذ الخير كلّه ، على حين أنه أخذ القليل وفاته الـكثير .

— وفى قوله تعالى : « فتقطعوا » بدلًا من قوله « فقطعوا » الذى يقتضيه ظاهر النظم إشارة إلى أنهم هم الذين تقطعوا ، لا أن الأمر هو الذى تقطع . . وذلك أنهم بهذا الخلاف الذى وقع بينهم ، قد أوقعوا الضرر بأنفسهم ، فكان بينهم الصراع والقتال . .

والزّبر : القطع ، جمع « زُبْرَة » وهى القطعة من الشىء . . كما فى قوله تعالى : « آتونى زُبَرَ الحديد » (٩٦ : الـكهف)

قوله تعالى :

* « فذَرْهم فى غمْرتهم حتى حِينٍ » .

الأمر هُنا ، هو أمر مطلق ، لـكل ناصح ومرشد ، لهؤلاء الضالّين ، المختلفين على الحق .

وهذا الأمر هو تهديد لهؤلاء الضالين المختلفين ، بأن يُتركوا فيما هم فيه من ضلال ، وألا يلح عليهم أحد فى تنبيههم من غمرتهم ، وسكرتهم التى هم فيها . وذلك إلى أن تقرعهم القارعة ، التى تذهب بهذا الخُمار الذى لذّ لهم النوم فى ظله المعتم الكثيف !

قوله تعالى :

* « أَيَحْسَبون أنما نمدُّهم به من مالٍ وبنين * نسارع لهم فى الخيرات . . بل لا يشعرون » .

المفعول الثانى للفعل يحسبون محذوف ، دلّ عليه المقام . .

والتقدير أيحسبون هذا الذى نمدّهم به من مال وبنين ، إكراماً ، وإحساناً منّا إليهم ؟ كلا ، وإنما « نسارع لهم فى الخيرات » لنفتنهم فيما نمدهم به ، كما يقول تعالى : « ولا تمدّنّ عينَيْك إلى ما متعنا بهِ أزواجاً منهم زهْرَةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » (١٣١ : طه) .

— وقوله تعالى : « بل لا يشعرون » — إشارة إلى أنهم لا يشعرون بهذا الابتلاء ، وأنهم يحسبون ذلك خيراً لهم ، كما يقول تعالى : « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سَيُطوّقون مابخلوا به يوم القيامة » (١٨٠ : آل عمران) .

هذا ، ويمكن أن يكون قوله تعالى : « نسارع لهم فى الخيرات » هو المفعول الثانى للفعل يحسبون . . ويكون المعنى : « أيحسبون أنما نمدّهم به من مالٍ وبنين مسارعةً لهم منا بالخيرات ؟ كلا . . إنه فتنة لهم . . ولكن لا يشعرون » لما استولى عليهم من سكرةٍ بهذا الذى هم فيه من نعيم . .

قوله تعالى :

* « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتَوْا وقلوبهم وَجِلةٌ أنهم إلى ربِّهم راجعون * أولئك يُسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » ..

فى هذه الآيات عرض للصورة الكريمة ، التى يكون عليها الذين يُسارعون فى الخيرات حقاً ، ويملئون أيديهم منها ، ويكون لهم فيها زاد طيب فى الدنيا والآخرة ..

وهؤلاء هم على صفات تؤهلهم لهذا المقام الكريم :

فهم (أولا) من خشية ربهم ، وخوفهم من بأسه — على إشفاقٍ دائم ، من أن يعصوه ، وأن يفعلوا منكراً .. « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » ..

وهم (ثانياً) بآيات ربهم يؤمنون ، ويعملون بهذه الآيات ، ويهتدون بهديها .. « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » ثم هم (ثالثاً) قد خلت نفوسهم من كلّ أثر من الشرك بالله .. « والذين هم بربهم لا يشركون » ثم هم (رابعاً) على خشيةٍ ومراقبة دائمة لله .. حتى أنهم وهم يفعلون ما يفعلون من خير ويقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات ، لا تزايلهم الخشية ولا يبارحهم الخوف من الله ، ومن أنهم على تقصير فى حقه تعالى ، وفيما يجب له من طاعة وولاء ..

« والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون »

ويستعمل الإيتاء غالباً فى فعل الخير مثل قوله تعالى : « ويُؤْتون الزكاة » وقوله تعالى : « وآتى المال على حبه » وقوله سبحانه : « آتيناه رحمة من عندنا » ..

ويستعمل الإتيان فى فعل الشر غالبا .. كما فى قوله تعالى: « أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » وقوله : « وتأتون فى ناديكم المنكر » ..

وقد جاءت الآية هنا بلفظ «الإيتاء» .. «والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون » ..

وفى قراءة مشهورة : « والذين يَأتون ما أتوا » .. ويقال لها قراءة النبىّ ..

وعلى هذه القراءة يكون المعنى : والذين يفعلون المنكر ، وهم على خوفٍ وخشية من ربهم . فإنهم بهذا الخوف وتلك الخشية أهلٌ لأن يكونوا فى هذه الأصناف التى ذكرها الله سبحانه وتعالى من أصناف المؤمنين .. إذ أن ما فى قلوبهم من وجل من لقاء ربّهم وهم على المنكر - سينتهى بهم يوما إلى النزوع عن المنكر ، والوقوف عند حدود الله ..

وقد يبدو فى ترتيب هذه الصفات تقديم وتأخير ، وأنها لم تلتزم الترتيب الطبيعى ، تصاعداً أو تنازلا ..

فمثلا .. الإيمان بآيات الله .. ينبغى أن يسبق الخشية من الله ، وكذلك عدم الشرك بالله ، وهو سابق للخشية من الله ، حيث لا تكون الخشية لله إلا من قلبٍ مؤمن بالله ، وبآيات الله .. وإنه لا بد لهذا من سر .. فما هو ؟

الجواب — والله أعلم — أن هذه الصفات ، وإن أمكن أن تلتقى جميعها فى قلب المؤمن بالله ، إلا أن للمؤمنين على حظوظ مختلفة منها .. فبعضهم تغلب عليه صفة الخشية من الله ، وبعضهم يؤمن بآيات الله ، ولكن تغلبه نفسه ، فلا تتحقق الخشية كاملة من الله فى قلبه .. وبعضهم يعترف بوجود الله ، ويُقِرُّ بوحدانيته إقرارا عقليًّا ، كالفلاسفة ونحوهم . ولا يتلقّون عن الرُّسُلْ ، ولا يأخذون مما معهم من آيات الله .. وبعضهم يؤمن بالله ، وبآيات الله ، وبرسل

الله .. ثم يؤتون ما آتوا من طاعات وعبادات وهم فى صراعٍ مع أنفسهم، وفى خوفٍ من لقاء الله أن يكونوا قد قصرّوا ..

فهؤلاء جميعا يمكن أن يتجهوا إلى الخير، ويجاهدوا أنفسهم لتحصيل الخير، حيث يحمل كل منهم فى كيانه شرارة من شراراب الإيمان يمكن أن تنقدح فى حالٍ من الأحوال، ما دام على أية صفة من تلك الصفات، فتشرق نفسه بنور الله، وإذا هو — شيئا فشيئا — على هدًى من ربه، وعلى طريق الخير والإحسان ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» (٢٠١ : الأعراف)

وهذه الأصناف من المؤمنين — على قربها أو بعدها من الإحسان — يشدّها جميعها إلى النجاة، والفلاح، الإيمان بالله .. وحيث يكون الإيمان بالله، فإنه يكون الأمل والرجاء فى السلامة والنجاة، وحيث يتعرّى الإنسان من الإيمان فإنه لا أمل ولا رجاء فى سلامة أو نجاة، وإن فعل أفعال المؤمنين المحسنين ..

قوله تعالى:

* «أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون» ..

أى أن هؤلاء المؤمنين الذين تحققت فيهم تلك الصفات جميعها، أو تحقق فيهم بعضها دون بعض — هم أهل لأن يسددوا ويرشدوا، وأن يكونوا يوما من السباقين إلى الخير، ما داموا فى صحبة الإيمان بالله، ذلك الإيمان الذى يقيم فى كيانهم نوراً يطلع عليهم كلما أظلمت سماؤهم، وظللتها سحب الفتن والأهواء ..

فالإيمان بالله ، هو المعتصم ، ولا معتصم غيره ، إذا استمسك به الإنسان فقد ضمن النجاة والفلاح .. « ومن يعتصم بالله فقد هُدِى إلى صراط مستقيم » (١٠١ : آل عمران)

وقد روينا من قبل حديثا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فى شأن ثقيف ، حين دُعيت إلى الإسلام ، فقبلته ، ولكنها اشترطت ألا تؤدى الزكاة ، ولا تجاهد فى سبيل الله ..

وحين عُرض على النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — إسلامَهم هذا ، قَبِله منهم ، وقال صلوات الله وسلامه عليه : « سيتصدقون ويجاهدون فى سبيل الله إذا أسلموا » ..

قوله تعالى :

* « ولا نكلِّف نفساً إلا وسعها .. ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون » ..

هو تطمين لقلوب هؤلاء المؤمنين ، الذين ملأت الخشية قلوبهم ، واستولى الخوف من الله عليهم ، حتى لقد كاد ذلك يكون وسواسا دائما يعيش معهم .. فجاء قوله تعالى : « ولا نكلف نفساً إلا وسْعَها » ليخفف عن المؤمنين بالله هذا الشعور الضاغط عليهم ، وليريهم من رحمة الله ماتقَرّ به عيونهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وذلك لأن الله سبحانه : « لايكلف نفساً إلا وسْعَها » وحَسْبُ المؤمن بالله أن يأتى من الطاعات ماتتسع له نفسه ، ويحتمله جهده .. والله سبحانه وتعالى يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » (١٦ : التغابن) .

وقوله تعالى : « ولدينا كتاب ينطق بالحقّ » .. المراد بالكتاب هنا ، هو الكتاب الذى تُسجّل فيه الأعمال ، لكل عامل فى هذه الدنيا ، من حَسَن أو سىء .. كما يقول سبحانه : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ

ما كنتم تعملون » (٢٩ : الجاثية) وكما يقول جل شأنه : « وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » (١٣ : الإسراء) .

فكل مايعمله الإنسان ، مسطور فى هذا الكتاب ، ناطق بكل صغيرة وكبيرة .. دون أن يكون هناك خطأ أو نسيان .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فليكتبْ الإنسان فى كتابه هذا مايحبّ أن يراه ، ويسعد به .

ولا تكتب فى كتابك غير شىء يسرّك فى القيامة أن تراه

الآيات : (٦٣ — ٧٤)

* « بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) »

التفسير:

قوله تعالى:

* «بل قلوبُهم فى غمرةٍ من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون» ..

الضمير فى قلوبهم ، يُراد به المشركون من أهل مكة ، ومَن حولها .. وهم وإن لم يَجْرِ لهم ذكرٌ فيما سبق من آياتٍ ، فإنهم — فى الواقع — مذكورون فى كل آية ، إذ كان هذا القرآن كلُّه هو كتابهم ، وهو رسالة رسول الله فيهم .

— فقوله تعالى : « بل قلوبهم فى غمرةٍ من هذا » هو نَخْسة مُوجعة لهؤلاء المشركين الذين يستمعون إلى هذه الآيات ، وكأنها لا تعنيهم ، ولا تتحدّث إليهم .. على حين أنها إنما هى مسوقة لهم ، أولا ، ثم هى للناس جميعاً ، بعد هذا ..

والإشارة « هذا » مشارٌ بها إلى هذا الحديث الذى تحدثت به الآيات السابقة ، عن الذين يؤمنون بالله ، ويخشونه ، ويشفقون من لقائه ..

فالمشركون قلوبهم « فى غمرةٍ » ، أى فى شغل ، وغفلةٍ وضلال ، عن هذا الحديث وما يحمل إليهم من عظاتٍ ..

وخُصت القلوب ، لأنها موطن المشاعر فى الإنسان ، ومستقرّ المعتقدات الصالحة أو الفاسدة ..

وقوله تعالى : « ولهم أعمال من دون ذلك .. هم لها عاملون » أى أن لهؤلاء المشركين الغافلين عن هذا الحديث ، مَشْغلا بأمور أخرى ، فى مستوًى غير هذا

المستوى الرفيع ، الذى تحدث به الآيات .. أنهم فى شغل بما هم فيه من صِلاَتٍ مع آلهتهم .. والمشغول — كما يقولون — لايشغل !

وفى تسمية هذه الصلات التى بين المشركين وبين معبوداتهم ـ بالأعمال ، إشارة إلى أنها مجرد حركات ، ورسوم، لاتتصل بالعقل أو القلب .. إنها حركات وصور مرسومة ، توارثها القوم عن آبائهم ، فكانت أشبه شىء بالعمل الآلى الذى لايتصل بعقل الإنسان أو قلبه ..

— وفى قوله تعالى : «هم لها عاملون» تقريع وتوبيخ لهؤلاء المشركين ، الذين يؤدون هذه الأعمال ويحتشدون لها ، ويضيعون أوقاتهم وأعمارهم فيها .. على حين أنّها عبث ولغو ، ولعب أشبه بلعب الأطفال ! فهم وهذه الأعمال على سواء .. هى أعمال تافهة ، يأتيها أناس تافهون !

قوله تعالى :

* « حتى إذا أخذنا مُترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون » .

الجأر ، والجُؤار : الصراخ .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين الغافلين عن آيات الله ، المشغولين بهذا العبث الذى هم فيه مع معبوداتهم ـ سيظلون على ماهم فيه من غفلة ، حتى إذا جاء وقت الحساب والجزاء ، وسِيقوا إلى جهنم ـ فزِعوا ، وعلا صياحهم ، وارتفع صُراخهم ، من هذا الهول الذى هم فيه ..

وفى اختصاص المترفين من المشركين بالذكر ، عرض لأبرز مَثل فيهم ، وهم المنعمون من المشركين ، أصحاب المال ، والجاه .. فهؤلاء إذا أُخذوا ، وفُعل بهم هذا البلاء ، ولم يُغْنِ عنهم مالهم ولم يشفع لهم جاههم ـ كان غيرهم ممن لامال له ولا جاه ، أشدَّ خوفاً من لقاء هذا العذاب ، الذى ينتظره ، وقد سبقه

إليه من كانوا على الشرك مثله ، ولم يشفع لهم مال أو سلطان .. فكيف بمن لامال له ولا سلطان ؟

قوله تعالى :

* « لاتجأروا اليوم إنكم منّا لاتُنْصَرون » .

هذا هو الردّ على هذا الصراخ ، الذى يتعاوى به المترفون من المشركين ، وهم فى العذاب المهين .. « لا تجـــأروا » فإنه لافائدة تُرجى من وراء هذا الصُّراخ .. إنه لايَسمع أحدٌ لـكم ، ولا يخفُّ أحدٌ لنجدتـكم .. « إنـكم منّا لاتُنصرون » .. فليس لأحد قدرة على أن يدفع عنكمهذا العذاب الذى حكم الله به عليكم ..

قوله تعالى :

* « قد كانت آياتى تُتْلى عليـكم فـكنتم على أعقـــابكم تنـكصون * مستكبرين به سامراً تَهْجرون » .

أى لا تلوموا إلا أنفسكم ، فقد كانت النجاة من هذا البلاء بين أيديكم ، لو أنـكم استمعتم إلى آياتى وآمنتم بها . ولـكنكم كنتم إذا وقع إلى آذانـكم شىء منها نفرتم كما ينفر الحيوان الوحشىّ حين يرى وجه إنسان .. فرجعتم على أعقابكم ، فى حركة منكوسة ، وعيونـكم إلى مصدر هذا الصوت الذى يُسمعكم ماسمعتم من آيات الله ، تنظرون إليه فى حذر وخوف ، كما ينظر العـدو إلى عدوه . . !

بل وأكثر من هذا .. فإنـكم كنتم تتخذون مما تسمعون من آيات الله ، مادةً للسّمر فى أنديتكم ،ومجالا للسخرية والاستهزاء بها فيا بينكم .. « مستكبرين به .. سامراً تهجُرون » ..

والضمير فى « به » يعود إلى ما يتلى عليهم من آيات الله ، وما يسمعون من كلماته .. وقد عُدّى الفعل «استكبر» بحرف الجرّ الباء ، لتضمنه معنى الاستهزاء.. أى أنكم لاستكباركم تَلقوْن ماتسمعون من آيات الله ، باستهزاء وسخرية .. فهى سخرية المستكبر ، واستهزاء المتعالى ..

« والسامر » مجتمع القوم للسمر .

ونصب « سامراً » على أنه مفعول له .. أى لأجل السامر تهجرون مجلس الاستماع إلى القرآن .. « سامرًا تهجرون » .. لأن السامر يحمل معنى السَمَر ، وسَمَرُ القوم هو عَبثٌ ولهو ، فكأن المعنى : لهواً ولعباً تهجرون الاستماع إلى كلام الله .. والجملة حال أخرى — من فاعل « تنكصون ».. ويجوز أن يكون « تهجرون » من الهُجْر ، وهو الفحش فى القول .. ويكون « سامراً» منصوباً على الحال من الضمير المستكن فى « مستكبرين » ويكون السامر بمعنى الاجتماع .. وجملة «تهجرون» حال من الضمير فى السامر بمعنى الاجتماع .. بمعنى أنكم كنتم تنكصون على أعقابكم عند الاستماع إلى آيات الله ، وقد اشتملت عليكم أكثر من حال .. إذ تنكصون .. مستهزئين ، سامرين ، متفحشين ..

قوله تعالى :

* « أفلم يدّبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » .

لقد تُرِكَ القوم للشركون يصرخون ويتعاوَوْن فى جهنم ، بعد أن أُجيب على صُراخهم وجُؤارهم بهــذا التقريع العنيف .. « لاتجأروا اليوم .. إنكم منّا لا تنصرون » .

ثم كان لمن يروْن هذا المشهد الذى تنخلع له القلوب ، وما يعانى المشركون

فيه من بلاء ونكال — كان لهم تساؤلات عن هؤلاء المعذبين ، وعن جناياتهم التي جنوها في حق الله ، وفي حق الرسول المرسل إليهم من عند الله .

وكان من تساؤلات السائلين ، ماذكره القرآن الكريم هنا :

— « أفلم يدبروا القول ؟ » .

أي ألأنهم لم يحسنوا الاستماع ، والنظر ، والتدبر فيما جاءهم به الرسول — لم يعرفوا وجه الحق ، ولم يروا الطريق إلى الله على ضوء هذا النور الذي بين يدي الرسول — ومن أجل هذا ظلوا في ضلالهم وشركهم ، فكانت جهنم مأواهم . والعذاب جزاؤهم . . أهذا لهذا ؟ قد يكون !

— « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ؟ » .

أي ألأنهم لم يدّبروا القول فضلّوا ؟ أم لأن هذا الذي جاءهم به رسول الله ، هو شيء غريب لم يكن لآبائهم شيء منه ؟ .. فهم لهذا ينكرونه ، وينكرون ماممه ، لأنهم مأسورون في قيدِ ماورثوا عن آبائهم من عادات وتقاليد . . ؟ أهذا لهذا ؟ قد يكون ! .

— « أم لم يعرفوا رسولهم . . فهم له منكرون ؟ » .

أي أهذا ، أم أن الرسول الذي جاءهم غير معروف عندهم بنسبه ، وباسمه ، وبصفته ـ فهم لهذا ينكرونه ، وينكرون مُقامه فيهم ، ويرمونه بما لم يعرفوا منه من سحر أو شعر أو جنون ؟ .

— « أم يقولون به جِنّة ؟ »

أي أهذا الذي حجزهم عن اتباع الرسول . . أم هو هذا الرأي الذي رأوه فيه ، وأنه مجنون ، يخاطب عقلاء ، وما كان للعقلاء أن يستجيبوا لدعوة مجنون ؟ قد يكون !

وفى هذه التساؤلات ، نجد الثلاثة الأولى منها اتهاما لهم . . فالتساؤل الأول، يرميهم بنقصٍ فى التفكير ، وضعف فى الإدراك ، وقصور عن فهم آيات الله ، وتدبرها . .

والثانى ، يتهمهم بأنهم أسرى التقليد الأعمى ، وأنهم لايخرجون من هذا الأمر ولو ماتوا فيه اختناقاً بهذا الهواء الفاسد الذى يتنفسون فيه ، دون أن يفتحوا نافذة تملأ عيونهم نوراً ، وصدورهم هواءً نقياً ، منعشا ! إن من تُهَم الرسول عندهم أنه جاءهم بما لم يعرفه آباؤهم الأولون ، حيث لم يأتهم من قبل رسولٌ من عند الله ، كما أتى الأمم الأخرى . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤٦ : القصص) .

ويقول سبحانه : « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » (٦ : يس) .

والقوم فى هذا الموقف مهددون بالفناء ، إذ قيدوا أنفسهم بهذا القيد الثقيل ووقفوا حيث يقف آباؤهم منذ زمن بعيد . . فهم ، والأمر كذلك ، يأخذون من الحياة موقفاً واحداً لا يتحولون عنه . . والحياة متحركة متحولة . . ومن شأن كل حىّ أن يأخذ مكانه فى دورة الفلك ، وأن يعيش الليل ليلا والنهار نهاراً ، والصيف صيفاً ، والشتاء شتاء . . وإلا هلك . .

فكيف ينكر القوم على الحياة أن تأتيهم بجديد لم يأت آباءهم الأولين ؟ إن الحياة وَلود لكل جديد فى كل زمان ومكان .. وأنه إذا كان للإنسان أن يتوقف أمام كل جديد ، فإن من السفاهة والحمق أن يرفضه ابتداء بحكم أنه جديد ، دون أن يعرضه على عقله ، وينظر فيما يمكن أن يكون فيه من خير ونفع .

والتساؤل الثالث ، ينكر على القوم هذه التهم التى يرمون بها الرّسول ،

فيَكذِبُون على أنفسهم ، ويزيفون الحقّ ، ويُلبسونه ثوب الباطل ، حتى يخدعوا به عقولهم ، ويريدوها على قبوله والتسليم به ..

فهم يقولون فى الرسول .. إنه مجنون .. وإنه شاعر .. وإنه ساحر .. وإنه كذاب مفترٍ — يقولون هذا ، وهم على معرفة كاملة بالرسول ، من مولده ، ومن قبل مولده ، إلى أن جاءهم برسالة ربه . . فما عرفوا فيه شيئاً مما يتهمونه به زوراً وبهتاناً .. بل لقد عرفوه العاقلَ الرشيد ، والصادق الأمين ، والطاهر العفّ..وأنه كان فى صباه يتحلّى بأحسن ما يتحلّى به الرجال ، من حكمة ورويّة ، ورشاد . . وأنه ما كذب قط ، ولا قال هُجراً قط ، ولا نطق بشعر أبداً ، ولا طاف بصنم أبدا . .

أما قولهم عن الرسول : « به جِنّة » فهو أشنع تهمة يُتهم بها القوم فى تفكيرهم ، وتقديرهم ..

وقد يكون سائغاً منهم أنهم لم يتدبروا القول ، فكثير من الناس لا يتدبرون القول ، ولا يحسنون الفهم ..!

وقد يكون مقبولاً أيضاً أن يَجمُدُوا على ما هم عليه من عادات موروثة .. فإن كثيرا من الناس يعيشون فى عادات وتقاليد ، كما تعيش الحيوانات الرّخوة فى أصدافها وقواقعها .. !

وقد يمكن أن يساغ — ولو بمرارة ووقاحة — إنكار الحقائق الثابتة ، والتعامى عن الواقع المحسوس .. !

فكثير من الناس يكابرون فى الحق ، ويمارون فى الواقع ، ولا تعلو وجوههم صفرة الخجل ، ولا تندَى جباههم بقطرة حياء !

أما الذى لا تتسع له المكابرة ، ولا يحتمله التبجّح ،فهو الكذب الصُّراح ،

الذى لا يُدَارَى بتمويه أو خداع ، بل يعرض هكذا سافراً بكل مشخصاته ، ثم يقال عنه : هذا هو الحقّ ! فذلك إن وجد مساغاً عند أهله ، فإنه لايجد له وجهاً من القبول عند أحد ، ممن يمكن أن يُخدع ويُضلّل ..

فإذا قال سفهاء قريش فى النبىّ إنه شاعر .. فأين هو الوجه الذى يُقبل به هذا القول عند من يريدون قبوله منه ؟ وقد يكون لهذا الكذب مدخل إلى بعض العقول لوأنهم اصطنعوا شعرا ثم نسبوه إلى النبىّ . فيكون أمراً محتملاً للنظر والجدل .. وقد يأخذ به البعض من غير بحث أو نظر ..! ولكنهم لم يفعلوا ولم ينتحلوا للنبىّ شعرا ، بل قالوا عنه إنه شاعر ، دون أن يأتوا على هذا القول بشاهدٍ من مفترياتهم وأكاذيبهم .. وهذا معجزة من معجزات الرسول الكريم ..

وإذا قال سفهاء قريش فى النبىّ إنه مجنون .. أو به جِنّة .. فقد كان عليهم لكى يُغطّوا وجه هذا الكذب بشىء من التمويه — أن يقيموا شهودا من الزور يشهدون بأنهم رأوا من النبىّ كذا ، وكذا ، من هذيان المجانين .. ولكنهم لم يفعلوا ..

نعم ، إنهم لم يفعلوا هذا ، أو ذاك ؛ وما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا .. إذ كان أمر النبىّ فيما اتهموه به ، أبعدَ من أن يدخل عليه زيف ، أو تَعلَق به شائبة من تمويه ..

وهذا من معجزات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، والتى هى بعض ما عصمه الله سبحانه وتعالى به من الناس ، كما يقول سبحانه : « والله يعصمك من الناس » .. وإنها لعصمة تحفظ — فيما تحفظ — ذاتَه ومشخصاتِه ، وصفاته ، من أن يعلق بسمائها الصافية المشرقة شىء من هذا الغبار الذى تثيره أفواه النافخين فى الجبال الراسيات .

قوله تعالى :

* « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون »

هو الردّ السماوىّ ، على كل ما اتهم به المشركون النبىّ فى شخصه ، وفى الكتاب الذى معه ..

فالرسول صادق أمين ، والذى جاء به هو الحقّ من ربّ العالمين .. وإنهم ليعرفون أنه الحقّ من ربّ العالمين .. وإنهم ليعرفون أنه الحقّ ، ولكن أكثرهم كارهون لهذا الحقّ ، ومن ثمّ كان منهم هذا العمى عنه ، وهذا الإنكار له ، وهذا الرمى الأحمق الطائش ، الذى لا يصيب إلا الرماة فى مقاتلهم !

قوله تعالى :

* « ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

أى هؤلاء المشركون ، إذ يكرهون الحق ، ويكرهون التعامل به ، فإنهم يتعاملون بما تمليه عليهم أهواؤهم من سفاهات وضلالات ..

والحقّ ، هو مركز الدائرة الذى يدور عليه هذا الوجود ، وهو النظام الممسك بكل ذرة من ذراته ..

وإن الحقّ هو هذه السنن الكونية التى قام عليها نظام كل موجود . إنه الأسباب والمسببات .. وإن أى خروج على الأسباب يُفضى إلى فســـاد للمسببات واضطرابها ..

وإن ما يمسك به العلم والعلماء من أسرار الكون ، هو الحقّ الذى إنه

أخطأهم كله أو بعضه ، أفلت من أيديهم هذا السرّ ، الذى يفتحون به مغالق الحياة ، ويذللون به ما تأبّى عليهم منها . .

فالحق ، هو هذا المحيط العام الذى تصب فيه روافد الحقائق التى يقوم عليها نظام الوجود ، والموجودات جميعاً ..

— وفى قوله تعالى : « ولو اتبع الحقُّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

إشارة إلى أن أىّ اختلال يدخل على الحق ، فى أى موقع من مواقعه ، وفى أى ذرةٍ من ذرات الوجود كله ، من شأنه أن يفسد نظام هذا الوجود فى أرضه وسمائه ، وفيما فى أرضه وسمائه ..

ذلك أن الحق — كما قلنا — كيان واحد .. إنه أسباب ومسببات يأخذ بعضها برقاب بعض .. من الذرة إلى النجوم والكواكب .. فكل سبب يقوم على سبَب ، ويقوم عليه سبب ، وهكذا فى سلسلة متصلة الحلقات ، وقَطْعُ أى حلقة ، هو قطع لهذا الشريان ، الذى يغذى كيان الحق ، ويحكم نسجه ..

فلو أنه دخل على الحق ، بعض ما فى نفوس هؤلاء المشركين من هوًى وضلال ، ثم صار هذا الهوى قوة عاملة فى الوجود ، لأدخل الخللَ على نظام الوجود كله ، ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن !!

قوله تعالى :

— * « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

أى أن الحق لم يتبع أهواء هؤلاء المشركين ، ولم يجئهم الرسول بما تشتهى أنفسهم ، بل جاءهم بالحق ، الذى فيه ذكرهم . . أى رفع قدرهم ، وعلوّ إنسانيتهم ، لو أنهم اتبعوه ، واستقاموا عليه . .

— وفى قوله تعالى: « فهم عن ذكرهم معرضون » تسفيه لهم، وتحميق لعقولهم، إذ ليس أبعد فى السفاهة، ولا أوغل فى الحمق، ممن يُدْعَى إلى مافيه خيرُه، وعزّه، ورفعته، ثم يأباه، ويؤثر الإسفاف والتدلّى إلى منازل الهوان والضياع!..

قوله تعالى:

* « أم تسألهم خَرْجًا فخراجُ ربِّك خيرٌ وهو خير الرازقين ».

الخرْج: الأجر، وهو فى الأصل مايخرج من الأرض من ثمرات، ومنه الخراج.. وفى الآية تعريض بالمشركين، وبما ركبهم من سفه وجهل.. إن الخير الذى يُبذل لهم، وثوب المجد الذى ينسج ليتحلّوا به — إنما يقدم لهم من غير ثمن، ومع هذا فهم يرفضونه، ويأبون إلا أن يمشوا فى الناس عراة مهازيل!

قوله تعالى:

* « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم »

هو تأكيد لهذا الخير الذى يُحمل إلى هؤلاء المشركين، على يد الرسول الكريم.. إنهم إنما يُدْعون بهذا الكتاب الذى يحمله الرسول إليهم — إلى صراط مستقيم، إذا هم ساروا عليه أمِنُوا الزّلل والعثار، وانتهوا به إلى غايات العزة، والسيادة، والفلاح.. فى الدنيا والآخرة جميعاً.

قوله تعالى:

* « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون »

هو تهديد للمشركين، بأنهم إذا هم لم يسيروا على هذا الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن أمامهم إلا طرق الضلال، يركبونها إلى حيث تهوى بهم فى قرار الجحيم.

والصراط هنا، هو الصراط الأخروى، الذى يصل بالمؤمنين إلى الجنة،

حيث يجتازونه فى يسر ، على حين يتساقط من جانبيه المشركون والكافرون والضالون ، الذين لايؤمنون بالآخرة ، ولا يعملون حساباً لهذا اليوم . . أو هو الصراط المذكور فى قوله تعالى : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » .

وهو صراط الله المستقيم على الهدى ، والقائم على الحق !

والناكب : هو المتنكب ، الذى يعدل عن الطريق المستقيم ، إلى المتاهات المضلّة ، التى لايُرجى للسائر عليها نجاة . .

الآيات : (٧٥ — ٩٢)

* « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَاهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ

تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولو رَحِمْنَاهم وكَشَفْنا مابهم من ضر لَلَجُّوا فى طغيانهم يعمهون »

المتحدّث عنهم هنا ، هم المشركون من قريش ، الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة ، وكشفت عن موقفهم من الهدى ، ومقولاتهم فى النبى الذى يخاطبه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » .

فهؤلاء المشركون ، لايزيدهم الهدى، إلا ضلالا ، ولا النور ، إلا عمى ، ولا الإنعام والإحسان ، إلا طغيانا ، وكفراً . .

فلو أن الله سبحانه وتعالى رحمهم ، وكشف ما بهم من ضر ، فأحال هذا الجدب الذى هم فيه خصبا ، وجعل الصحارى التى تشتمل عليهم ،جنات ، وفجّر فيها أنهاراً ـ لما شكروا لله ، ولما استجابوا لداعِى الحق الذى يدعوهم . . بل زادهم ذلك ضلالا وبعداً عن الحق . وعدواناً على الرسول الذى يدعوهم إلى الله . .

واللجّ ، واللجاج : التخبط على غير هدى .

والعَمَه : عمى البصيرة ، وضلال العقل . .

قوله تعالى :

* « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون »

وهؤلاء المشركون. قد أخذهم الله بالبأساء والضرّاء ، وأنزلهم منازل الخزى فى بدر ، والأحزاب والحديبية . . ثم الفتح . . ومع هذا ، فإن هذا البلاء لم يفتح قلوبهم إلى الله ، ولم يَقُدْهم بنواصيهم إليه : « فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون » أى فما لجأوا إليه ، ولا ضَرَعوا له ، ولا طلبوا غوثه ورحمته . . وهذا مثل قوله تعالى فى فرعون : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يَذَّكَّرُون » (١٣٠ : الأعراف)

وقد جاء الإخبار عن هذا الذى نزل بالقوم من بلاء ، بصيغة الماضى . على حين أنه لم يكن قد وقع بعد ، وذلك لتحقق وقوعه مستقبلا ، فهو من أنباء الغيب التى جاء القرآن الكريم بكثير منها . .

ويجوز أن يكون هذا إخباراً عما كان ينزل بهم من حوائج ومجاعات ، قبل البعثة النبوية ، ويكون هذا الخبر عنهم ، مراداً به الكشف عن جفاء طباعهم ، وغلظ مشاعرهم ، وأنهم أشبه بالجماد ، لا يتأثرون بالخير أو الشر . .

قوله تعالى :

* « حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شَديدٍ إذاهم فيه مُبلسون » .

وهكذا يظل القوم على ماهم فيه من ضلال ، وكفر ، وعناد ، لا يُصلح من فسادهم تأديب بالخير أو الشر ، ولا يقوّم معوجّهم إحسان أو إساءة . . حتى يموتوا بدائهم هذا ، الذى لاشفاء له إلاّ عذاب السعير . .

والإبلاس : الوجوم ، والجمود ، وسكون الحركات ، وخمود المشاعر . . من الهول وشدة البلاء . .

قوله تعالى :

* « وهو الذى أنشأ لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » .

هذه الآية والآيات التى بعدها ، تَعرض بعض نعم الله على الناس ، وموقف كثير منهم من هذه النعم ..

وأعظم هذه النعم وأكرمها ، السمعُ والبصرُ ، والفؤاد ، وهو القلب .. إذ أن هذه الجوارح هى التى تجعل الإنسان إنسانا ، إذا هو انتفع بها ، ووجهها الوجهة الصالحة ، حين يرِد بها موارد الخير ، ويلقى بها فى محيط الوجود ، فتجىء إليه بكل صيد ثمين طيب !

وفى هذا الترتيب الذى جاء عليه نظم الآية : « أنشأكم .. وجعل لكم السمع .. والأبصار .. والأفئدة » ـ مايحدّث عن كثير من الأسرار ..

فأولا : قُدِّم الإنشاء ، وهو الخلق العام للإنسان ، على إيجاد السمع والبصر والفؤاد .. إذ أن الوجود الإنسانى مقدم على ظهور هذه الحواس فيه ..

وثانيا : قدم السمع على البصر .. لأن حاسة السمع تسبق حاسة الإبصار عند مولد الطفل ، كما ثبت ذلك بالملاحظة .

وثالثا : قدم السمع والبصر على الفؤاد ، وهو العقل ، لأنه لا يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواس الإنسان كلها ، وتؤدى وظائفها ، وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ .. ومن هنا يبدأ الإدراك والتمييز ويتخلّق فى الإنسان العقل أو الفؤاد ، الذى ينمو شيئا فشيئا ، حتى ينضج ويكتمل ..

ـــ وقوله تعالى : « قليلا ماتشكرون » هو خطاب للناس عامة ، وأن قليلا منهم هم الذين يعرفون نعمة الله عليهم ثم يشكرونها .. أما كثرتهم الغالبة فهم فى غفلةٍ عن هذه النعم ، وفى شرود عن المنعم بها ، وعن القيام بواجب الحمد والشكر .. وهذا مثل قوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور » (١٣ : سبأ) .

قوله تعالى :

* « وهو الذى ذَرَأَكم فى الأرض وإليه تحشرون » .

الذرء : الخلق ، والإيجاد   والحشر : الجمع ، والحشد .

وهذه نعمة أخرى .. الخلق والإيجاد من عدم ، ثم الموت ، ثم البعث والنشور ، والرجعة إلى الله سبحانه وتعالى ، للحساب والجزاء ..

فالوجود نعمة ، لأنه خير من العدم .. والحشر بعد الموت ، نعمة أخرى ، لأنه حياة جديدة ، لاموت بعدها ، ووضع لكل نفسٍ فى مكانها الذى أعدّ لها ، فى الجنة أو فى النّار ..

وإذا كانت النار شقاء على أهلها ، وبلاء ـ نعوذ بالله منها ـ فإنها مَطْهَرةٌ للنفوس الدنسة ، وصقل لمعدنها الصّدِئ ، وشفاء لأمراضها الخبيثة !

قوله تعالى :

* « وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون »

هو دفع لهذا الوهم الذى قد يتسرب إلى بعض الناس من وجود الموت ، والشك فى عدّه نعمة من بين النعم المذكورة فى هذه الآيات ..

فالموت دورة من دورات الوجود الإنسانى ، ووجه مقابل للحياة ، مقابلةَ الليل للنهار .. فالحياة يقابلها الموت ، والنهار يَعقبه الليل .. تلك هى سنة الله فى الحياة الدنيا ، كل شىء فيها يقابله ضدّه ، كى يُثبت وجوده ، ويحقق ذاته .. وهذا أمر لايدرك سرّه ، ولا يعرف حقيقته ، إلا أصحابُ العقول ، الذين يستعملون عقولهم ..

قوله تعالى :

* « بل قالوا مثل ماقال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون » ..

أى أن هؤلاء المشركين لايستعملون عقولهم ، ولاينظرون فى هذه الآيات الكونية التى بين أيديهم .. بل لقد أنكروا الحياة بعد الموت ، وقالوا ماقاله آباؤهم من قبل .. قالوا : كيف نعود إلى الحياة مرةً أخرى ، بعد أن نصير تراباً وعظاماً ؟ ولو أنهم نظروا إلى الليل والنهار مثلا ، لعرفوا أن النهار ينسخه الليل ، ثم يعود النهار فيطلع من جديد ناسخاً ظلام الليل .. وهكذا .. ليل ونهار ، ونهار وليل !

فمن عاش فى النهار ، وملأ عينيه من ضوئه الوضىء .. ثم عاش فى الليل ، ولفّه ظلامه الدّامس ، لم يكن له ـ حسب تقديرهم هذا ـ أن ينتظر نهاراً يطلع من أحشاء هذا الظلام الكثيف !

لكن الذى يحدث،هو أن نهاراً يطلع من كيان هذا الظلام،وكأن ليلا لم يكن !

كذلك الحياة ، والموت ، ثم الحياة بعد الموت ..

فهذا الإنسان الذى كان يملأ الدنيا حركة وسعياً ، ثم تضمه الأرض فى بطنها ، ويدسّه التراب فى كيانه .. ليس بالشىء البعيد المستغرب — والشواهد ماثلة — أن يخرج من بين أحشاء هذا التراب إنساناً ، كهذا الإنسان الذى كان !

قوله تعالى :

* « لقد وُعِدْنا نحن وآباؤنا هذا من قبلُ إن هذا إلاّ أساطير الأولين » .

هو تأكيد لقولهم الباطل الذى قالوه عن إمكان البعث .. وأن هذا البعث قد وُعِدَ به آباؤهم من قبل .. وهاهم أولاء مازالوا تراباً هامداً .. ثم إن هؤلاء يوُعدون به .. وسيكونون بعضاً من هذا التراب الهامد ، مع آبائهم .. فما هذا الوعد عندهم ، وحسب تطورهم ، إلا من الخرافات والأساطير التى تعيش فى الناس من زمن بعيد ولا مُحصِّل لها أبداً .

قوله تعالى :

* « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله .. قل أفلاَ تذَ كّرون » .

هذا سؤال ، لايجيب عليه الإجابة الصحيحة إلا من عَقَل وعَلِمَ ..

لمن هذه الأرض ومن فيها ، من عوالم ومخلوقات ؟

جواب واحد عند أهل الدراية والعلم .. إنها لِلّه ..

وقد ألزمهم الله سبحانه وتعالى حُجّة أهل العلم .. فإن لم يكونوا عالمين ، كان عليهم أن يأخذوا بقول العالمين .. وإلا فأى الناس هم ؟ إنهم ليسوا علماء ، وليسوا بالمتفهمين بعلم العلماء .. والأعمى إذا لم يُسْلم يده المبصر .. تخبط ، وضلّ وهلك .. وإذن فهم فى الهالكين ، إذا لم ينزلوا على هذا الحكم الملزم ، ولم يأخذوا به ..

قوله تعالى :

* « قل من ربُّ السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل أفلا تتقون ؟ »

وسؤال آخر . . يحتاج إلى نظر أوسع ، وعلم أكثر !

من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ؟ .

إنهم لمحجوجون بقول أهل الدراية والمعرفة . . إنها جميعاً لله . . هكذا يقرر أهل الدراية والعلم .

فليقولوا هذا . . وإنهم إن لم يقولوه اختياراً قالوه اضطراراً .

وإنهم إذا سلموا بهذا — ولا بد من التسليم به — فلِمَ لا يتقون الله ؟ ولم لا يخشون بأسه ، وهو المالك المتصرف فى هذا الوجود كله . . لا شريك له ؟

قوله تعالى :

* « قل من بيده ملكوت كلّ شىء . . وهو يجيرُ ولا يُجارُ عليه . . إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . . قل فأنّى تُسْحَرون ؟ »

وسؤال ثالث .. لابدّ أن يسلم به من سلم بالسؤالين السابقين . . وإن كان أشمل منهما ، وأوسع مدًى .

« من بيده ملكوت كلّ شىء » ؟ أى من بيده ملك كل شىء وتصرفه فيه . . ؟ « وهو يجير » أى يحمى ، ويحفظ « ولا يجار عليه » : ولا سلطان لأحديدفع بأسه ، ويكشف ضرّه . . مَن هذا ، ولمن هذا ؟

جواب واحد . . هو الله ربّ العالمين . . وهو لله ربّ العالمين .

ونتيجة واحدة : الاستسلام لله ، والولاء لله .

« فأنى تُسْحَرون » أى فكيف تَذْهلون عن هذا ، وتستسلمون لغير الله ، وتعطون ولاءكم لما تشركون به من دونه ؟ أسَحَرَكم ساحر فأخذ على عقولكم ، وأضلّكم عن الله ، وأعماكم عن الحق ؟ وهذا الخطاب جارٍ على ما هو فى أوهام القوم من أن هناك قوى تسحر الناس ، وتفسد عقولهم ، كما كانوا يقولون عن النبىّ ، إنه ساحر !

قوله تعالى :

* « بل أتيناهم بالحقّ وإنهم لكاذبون » .

هو تعقيب عام ، على هذه الأسئلة ، وأجوبتها .

إن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم الجواب الحقّ عليها ، ولكنهم يجيبون عليها كذباً وبهتاناً .. وإنهم إذ ينطقهم الحقّ بتلك الأجوبة ، ويقهرهم سلطانه قهراً عليها ، فإنهم لا يأخذون بما نطقت به ألسنتهم ، ولا ينزلونه منزلة الاعتقاد من قلوبهم .

قوله تعالى :

* « ما اتخذ الله من وَلَدٍ وما كان معه من إلَٰهٍ إذاً لذَهَبَ كلُّ إلَٰهٍ بما خَلَقَ ولَعَلا بعضهم على بعضٍ . . سبحان الله عما يصفون . . عالم الغيب والشهادة . . فتعالى عما يشركون » .

هذا هو مِلاك الأمر كلِّه ، ومدار القضية ، وأصل البحث ، وهذا ما كان ينبغى أن يقرّ به أولئك المشركون ، بعد أن ألقيت إليهم تلك الأسئلة ، محملة بالأجوبة الصحيحة عليها . .

إنه لا شريك لله . . من صاحبة أو ولد ، وإنه لا إلَٰه معه . . وأنه لو كان معه إلٰه آخر لشاركه هذا الملك ، ونازعه هذا السلطان ، واستبدّ بالتصريف فيما يملك معه . . ولكان لكلّ منهما أن يفعل ما يشاء . . وهذا من شأنه أن يذهب بنظام الوجود ، ويفسد الوضع القائم عليه ، حيث لا تلتقى إرادتهما ، ولا تتفق مشيئتهما . .

إن الجسد الإنسانى ، لا يقوم عليه إلا سلطان واحد ، هو القلب ، ولو أنه كان هناك قلبان فى جسدٍ واحد ، لاختل نظام الجسد ، وانحلت روابطه ، ولما تنفّس هذا الجسد نفَساً واحداً .

والكون . . هو جسد كبير . . يحكمه نظام ، ويقوم عليه سلطان . . وهيهات أن يُحكم بنظامين ، أو ينتظم أمره بسلطانين ! « سُبْحان الله عما يصفون » . .

وتنزهت ذاته عن أن يكون كما يصفه الضالون ، بنسبة الولد ، أو الشريك إليه ، فتعالى ، سبحانه ، عما يشرك به المشركون : من آلهة وأشباه آلهة .

الآيات : (٩٣ — ١١١)

* «قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل ربّ إما تُرِيَنّى مايوعدون . ربّ فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » .

هو التفاتٌ إلى النبىّ الكريم ، بعد هذا العرض المبسوط لوجوه المشركين ، وما يدور فى أفكارهم من سخافات ، وما تنطق به ألسنتهم من سفاهات ، وما تنعقد عليه قلوبهم من شرك وضلال .

وفى هذا الالتفات يدعو الله سبحانه نبيّه ، أن يطلب إلى ربه ألا يكون بمشهد من هؤلاء المشركين حين يحلّ بهم بأس الله ، ويقع عليهم عذابه .

وفى هذا إشارة إلى شدّة هذا البلاء وقسوته ، وأنه مما لا تحتمل النفس رؤيته بالعين ، فكيف حال المبتلى به ، الذى يتجرع كئوس عذابه ؟

ثم إن هذا ـ من جهة أخرى ـ تهديد للمشركين بالعذاب الأليم ، والبلاء العظيم ، الذى يدعو الله أولياءه إلى أن يتضرعوا إليه ، طالبين الفِرارَ منه ، قبل أن يقع ، حتى لا يشهدوه بأعينهم .

ولا شك أن هذا دعاء مجابٌ مقدّماً من قبل أن يدعو به النبى ، لأن الله سبحانه هو الذى أمره بهذا الدعاء ، وهو سبحانه الذى بيده إجابته . . وهذا يكشف لنا عن الارتباط بين الأسباب والمسببات . . وأن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب لكل أمر يريده . . وقد دل الله عباده على الأسباب ، وأمرهم بالأخذ بها ، وأن يَدَعُوا المسببات لله وحده ، والله يفعل ما يريد .

وأصل النظم هكذا : « ربّ إن ترينى ما يوعدون فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » . . وقد جاء النظم القرآنى على ما ترى من فخامة ودوىّ ينبعثان من الحرف « ما » باتصاله بأنْ الشرطية . . « إمّا » ، وفى هذا تهويل للعذاب

الذى يتهدد المشركين ، ويحوم حولهم . . ثم ما ترى فى تصدير جواب الشرط بهذا النداء للاسم الكريم « ربّ » الذى يُضْرَع إليه لكشف الضرّ، ودفع البلاء ، لأنه بلاء عظيم لايدفعه إلا الله ، وليس للناس جميعاً سبيل إلى دفعه .

قوله تعالى :

* « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » .

هو تطمين للنبىّ بأن الله قد أعدّ للقوم الهزيمةَ والخزى على يديه ، وأن ذلك موقوت بوقته ، وأنه حاضر فى علم الله ، ولو شاء سبحانه أن يُطلع النبى لرأى بعينه مسيرة هذا الصراع ، بينه وبين قومه ، خطوة خطوة . . حتى يجىء نصر الله والفتح ، ويدخل الناسُ فى دين الله أفواجاً .

قوله تعالى :

* « ادفع بالتى هى أحسن السيئةَ نحن أعلم بما يصفون » .

وإذا كانت خاتمة النبى هى النصر على هؤلاء المتطاولين عليه ، المعاندين له ، فإن ذلك يهوّن كثيراً من الأذى الذى يلقاه منهم ، حيث يكون بصره متعلقاً بيوم النصر الموعود ، غير ملتفت إلى ما يصادفه على يومه من مشقّة وعناء .

ومن هنا ، كانت دعوة النبى إلى لقاء إساءات قومه بالإحسان دعوةً تلتقى مع مشاعره ، التى استروحت أنسام الرضاء فى ظل هذا الموعد الكريم بالنصر المبين لدعوته ، وطلوع شمسها على كل أفق . . فإن كل صعب يهون ، وكل بلاء محتمل ، إذا كانت العاقبة نجاحاً ، ونصراً محققاً .

وفى قوله تعالى : « نحن أعلم بما يصفون » تهديد للمشركين ، الذين

يسيئون ويحسَنُ إليهم ، ثم لا يَردّهم هذا الإحسان عن غَيِّهم وضلالهم . . فليفعلوا ما يحلو لهم ، والله سبحانه عالم بما يفعلون ، ومحاسبهم عليه . .

قوله تعالى :

* « وقـل رب أعوذ بك من هَمَزات الشياطين * وأعـوذ بك رب أن يحضرون » .

همـزات الشياطين : وساوسها ، ونخساتها التى تنخس بهـا فى صدور الناس . .

وكما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الـكريم ، أن يدعو ربه ، بأن يقيه شر الناس ، ويباعد بينه وبين القوم الظالمين ـ أمره سبحانه أن يستعيذ به من وساوس الشياطين ، وما يزينون به للناس من منـكرات ، وأن يباعد بينه وبينهم ، فلا يُلِمّون به ، ولا يحضرونه فى أى حال من أحواله ، خاليا ، أو مع الناس ..

وهذه الاستعاذة من الشيطان ، هى إلفات للمسلمين إلى هـذا العدو المتربص بهم ، والذى هو شر خالص ، لا يجىء منه إلا الشر لـكل من يأنس إليه ، ويطمئن له . . وإنه إذا كان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه . . وهو فى حراسة من ربه ، وفى قوة من خالقه ، ودينه ـ إذا كان النبى يطلب الغوث والعياذ بالله من هذا العدو الراصد ، فأولى بالناس ـ وهم على ما فيهم من ضعف ـ أن يستـكثروا من طلب الغوث والعياذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأن يكونوا على ذكر دائم بأنهم مع عدو متربص بهم ، ينتظر غفلتهم ، لينفذ إلى ما يريد فيهم ، من إغراء وإضلال . .

قوله تعالى :

* « حتى إذا جاء أَحَدَهم الموتُ قال ربِّ ارجعونِ ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركتُ . . كلاَّ إنهـا كلمة هو قائلهـا ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون » .

« حتى » غاية لمحذوف دل عليه السياق ، والتقدير ، ولـكن كثيراً من الناس ، لا يأخذون حذرهم من الشيطان ، ولا يستعيذون بالله منه ، فيُفسد عليهم دينهم ، ويُنقِض ظهورهم بالذنوب والآثام ، ثم يظلون هكذا فى غفلتهم « حتى إذا جاء أحدهم الموت » وانـكشف عن عينيه الغطاء ، ورأى ما قدم من منكرات « قال رب ارجعون » إلى دنياى ، « لعلى أعمل صالحاً فيما تركت » ولأصلح من أمرى ما فسد ، وأقيم من دينى ما اعوجّ . . ولـكن هيهات . . لقد فات وقت الزرع ، وهذا أوان الحصاد . . « كلا .. إنها كلمة هو قائلها » أى إنها مجرد كلام يقال ، لا وزن له ، ولا ثمرة منه . . « ومن ورائهم برزخ » أى أن هناك سداً قائماً ، فاصلا بين الأموات ، وعالم الأحياء . . فلا سبيل لمن أدركه الموت أن يخترق هذا البرزخ ، وينفذ إلى عالم الأحياء مرة أخرى ، وذلك « إلى يوم يبعثون » . . حيث يزول البرزخ ، وينتقل الناس جميعاً إلى العالم الآخر ، ويصبحون جميعاً فى عالم الحق . .

قوله تعالى :

* « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يَتساءلُون » .

أى فإذا صار الناس إلى هذا اليوم ، يوم النفخ فى الصور ، للبعث ، جاءوا وقد شُغل كل منهم بشأنه وتقطعت بينهم الأنساب ، فلا يجتمع قريب إلى قريب ، ولا يلتفت صاحب إلى صاحبه ..

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣٤ ـ ٣٧ : عبس) . . فلا يسأل أحد أحداً عن حاله ومآله . وحسْبه ما هو فيه من شغل بنفسه « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يَسأل حميم حميا » (٨ ـ ١٠ المعارج) .

قوله تعالى :

* « فمن ثقلَتْ موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النـــار وهم فيها كالحون » .

وفى هـذا اليوم توضع الموازين لحساب الناس ، ويرى كل ميزانه وما يوزن فيه .

— « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » . حيث لا تثقل الموازين ، إلا بالأعمال الصالحة .

فتلك الأعمال الصالحة ، هى التى يقام لها وزن ، ويكون لها فى الميزان ثقل .. أما الأعمال السيئة فلا وزن لها ، لأن هذا الميزان ميزان حق وعدل ، لا يوضع فيه إلا ما كان حقاً وعدلا وإحساناً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٠٥ الكهف) وقوله سبحانه ، عن أعمال الكافرين والضالين : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » (٢٣ : الفرقان) وفى قوله تعالىَ : « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » عرض لحال من أحوال أهل النار ، وما يلقون فيها من بلاء ، حيث تَداعبهم النار بلهيبها ، وتصفع وجوههم بلظاها ، وحيث يغشاهم من ذلك همٌّ وكربٌ ، وتعلو وجوهَهم غبرة ترهقها قترة .

والكالح: العابس المكفهرّ، لما يعتمل فى كيانه من غموم وهموم..

قوله تعالى:

* «أَلَمْ تكُن آياتى تُتْلَى عليكم فكنتم بها تُكذّبون».

هو رد على جُؤار المعذبين فى جهنم، وما يصطرخون به من ويل وثبور.

إنه لا مصير لكم إلا هذا.. فقد جاءكم رسولنا بآيات الله، وتلاها عليكم، موداعكم إلى الهدى والإيمان.. فأبيتم وكذبتم. فهذا جزاؤكم، فذوقوا عذاب الخزى بما كنتم بآيات الله تكذبون..

قوله تعالى:

* «قالوا ربّنا غلبَتْ علَيْنَا شِقوتُنا وكنّا قوماً ضالّين».

وماذا ينفع الندم، والإقرار بالذنب فى دار الحساب والجزاء؟ «فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُسْتعتبون» (٥٧: الروم).

قوله تعالى:

* «ربّنا أخرجنا منها فإن عُدْنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلّمونِ».

وفى ذلة واستخزاء، وفى لهفة وجنون، يقولون ربنا أخرجنا من هذا البلاء، وردّنا إلى الدنيا مرة أخرى، فنؤمن بك ونتبع الرسل.. فإن عدنا إلى ما كنا فيه من كفر وضلال، كنا ظالمين، فنستحق ما نَلْقى من عذاب وهَوان! وكأنهم لم يكونوا ظالمين، وكأن عذرهم الذى اعتذروا به حين قالوا: «ربنا غلبت علينا شِقوتُنا وكنّا قوماً ضالين» ـ كأن عذرهم هذا قد قُبل منهم! لقد منّتهم أنفسهم تلك الأمانىّ الكاذبة.. وإنهم لأهل شر وسوء، لا يرجى

لدائهم دواء : « ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون » (٢٨ : الأنعام) ولهذا جاء الردّ القاطع الزاجر : « اخسئوا فيها ولا تكلّمونِ » . . أى انزجروا فيها ، وأقيموا حيث أنتم ، ولا تكلموا الله .. فإنه سبحانه لا يقبل منكم قولاً ، ولا يُجيب لكم سُؤْلاً .

قوله تعالى :

* « إنه كان فريقٌ من عبادى يقولون ربّنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سِخريًّا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا وأنهم هم الفائزون » .

هو تعليل لما أخذهم الله به ، من كبت وزجر ، ولِما رماهم به من عذاب أليم .

إنهم لم يؤمنوا بالله ، ولم يستجيبوا لرسول الله ، بل كذّبوه ، وبهتوه ، وآذوْه . . ولم يقفوا عند هذا ، بل إنهم تسلطوا على المؤمنين بالله ، واتخذوهم سخريًّا ، وجعلوا منهم مادة للضحك والعبث . . « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مرّوا بهم يتغامزون » (٢٩ ، ٣٠ المطففين) .

وفى قوله تعالى : « حتّى أنسوْكم ذكرى » إشارة إلى أن اشتغال هؤلاء المشركين الضالين بالسخرية من المؤمنين ، والضحك منهم ، قد ألهاهم عن ذكر الله ، وصرفهم عن النظر فى آياته ، والاستماع إلى كلماته . . إنهم شُغلوا بغيرهم عن أنفسهم ، وعن العمل لما فيه خيرهم ورشادهم . . وهذا شأن كل من يشغل بأمور الناس ، ويجعلها همّه . . إنه ينسى نفسه ، ويحرمها ما كان يمكن أن يسوقه إليها من سعيه وجهده .

وفى نسبة نسيانهم لذكر الله ، إلى المؤمنين ، مع أن المؤمنين لم يكن منهم دعوة لهم إلى نسيان ذكر الله ، بل إنهم كانوا يدعونهم إلى الله ، ويذكّرونهم

به ـ فى هذا مضاعفة لحسرة الكافرين ، وزيادة فى إيلامهم ، إن كان ماهم فيه يحتاج إلى زيادة . وذلك حين ينظرون إلى المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم ، فيجدون أنهم هم الذين شغلوهم عن ذكر الله ، وعن الإيمان به ، وأنهم هم الذين أوردوهم هذا المورد الوبيل . ثم يجدونهم ـ مع هذا ـ فى نعيم ورضوان من الله : « إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » . . لقد صبروا على استهزائكم بهم، وسخريتكم منهم ، ولم يتحولوا عن الصراط المستقيم الذى استقاموا عليه ، فكان هذا هو جزاؤهم عند الله .

الآيات : (١١٢ — ١١٨)

* « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ ٱلْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ (١١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قال كم لبثتم فى الأرض عَدَدَ سنين ؟ . . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون » .

سؤال يسأله الحقّ جلّ وعلا ، أهلَ النار ، وقد أيأسهم من الخروج منها . . « كم لبثتم فى الأرض عدد سنين » .

وفى تمييز العدد بأنه سنون ، وليس أياماً ولا شهوراً ، مع أنه فى تقديرهم يوماً أو بعض يوم ، كما سيكون جوابهم بعد هذا ـ فى هذا كشف عن تلك المفارقة البعيدة بين حسابهم فى الدنيا لحياتهم ، وما لبثوا فيها من سنين ، وبين حساب هذه السنين فى الآخرة . .

إنها ليست شيئاً بعد أن طُويت صفحتها ، وذهب ريحها . . « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ » (٣٨ : التوبة) . . ولهذا كان جوابهم ـ حسب تقديرهم ـ : « يوماً أو بعض يوم » . . ! وهكذا مايمضى من عمر الإنسان . . إنه مهما طال وامتدّ ، إذا نظر إليه فى يومه ، كان شيئاً قليلا . . يوماً أو بعض يوم . . فكيف إذا نظر الناس إلى حياتهم الدنيا ، وهم بين يدى هذا الهول العظيم يوم القيامة ؟ « كأنهم يوم يرونَها لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ » (٣٥ : الأحقاف) .

وفى قولهم : « فاسأل العادّين » ما يكشف عن سوء حالتهم ، وأنهم فى ذهولٍ لا يدرون معه من أمرهم شيئاً . . فلقد ذهب الهول بعقولهم ، فلا يدرون ماذا يقولون . . إنهم ليسوا أهلا لأن يُسألوا ، وأن يجيبوا على ما يُسألون عنه . .

ويجيئهم الجواب الذى تاه من عقولهم ، وضلّ عن إدراكهم . . « إن لبثتم إلاّ قليلاً » أى مالبثتم إلا قليلا . . « لو أنكم كنتم تعلمون » أى لو كان عندكم عقل ونظر لعلمتم هذا وأنتم فى دنياكم ، ولما شغلكم هذا القليل الزائل ، عن آخرتكم الباقية الخالدة . .

قوله تعالى :

* « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » .

[الحياة . . . والموت وحتمية البعث]

هناك قضيتان . . قضية « الخلق » وقضية « البعث » . .

وإذا كان الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، لا ينكرون « الخَلْقَ » لأنه أمرٌ واقع فعلاً ، وأنهم هم أنفسهم بعضُ هذا الخَلْق ـ فهلاَّ سألوا أنفسهم هذا السؤال : لِمَ كان هذا الخلق ؟ أو لماذا خُلِقنا ؟ .

وجواب واحد لا غير ، هو الذى يُجاب به على هذا السؤال ، وهو أن هذا الخلق لم يكن لهواً وعبثاً ، وأنهم إنما خُلِقوا عن علم ، وحكمة وتقدير ، لأن هذا الخلق ينطق عن حكمة بالغة ، وقدرة قادرة على كل شىء ، وعلم محيط بكل شىء .. ومن كانت تلك صفاته لا يكون منه لهو أو عبث . . ثم إن هذا النظام الدقيق المحكم ، الممسك بكل ذرة من ذرات الوجود ، أيَدْخُل عليه شىء من اللهو والعبث ؟ إنَّ اللاهى العابث ، لا يتقيد بنظام ، ولا يُجرى أعماله على توافق وترابط ، وانسجام ، بل يفعل ما تمليه عليه نزواته ، وماتصوره له أهواؤه !

وإذن فالناس لم يُخلقوا عبثاً ، ولم تجىء بهم الصُّدفة ، كما يقول بذلك الماديّون والملحدون ، وإنما هم غراس غارس حكيم ، عليم ، قادر ، مدبر . .

هذه قضية .. لابد من التسليم بها ، وفى إنكارها مكابرة فى الحق ، ومجادلة بالباطل . . ومن مقتضى التسليم بهذا أن يسلِّم أيضاً ببعث الإنسان بعد موته ، أو بمعنى آخر ، امتداد حياة الإنسان ، وانتقاله من دار إلى دار ، ومن عالَم إلى

عالم ، أشبه فى هذا بانتقاله من الطفولة إلى الصبا ، أو الشباب ، أو غير هذا من مراحل العمر . .

ذلك أن الإنسان هو خليفة الله على هذه الأرض . . وهو سيد هذا الكوكب من غير جدال . . فهو الكائن الذى ملك من القوى ما استطاع بها أن يغيّر وجه الأرض ، وأن يستخرج خَبْأها ، ويسخّر موجوداتها . . وإذا كان هذا شأن الإنسان فإن مما يجانب الحكمة ، ويدخل فى باب اللهو والعبث ، أن تنطفىء جذوة هذا الكائن ، بعد سنوات قليلة يقضيها على هذه الأرض . . ثم يصير رماداً ، يختلط بتراب هذه الأرض ، مع الدواب ، والحشرات والهوام !

إن فى هذا لجوراً على الإنسان ، وظلماً له ، إذ كان الحيوان — على هذا الحساب — خيراً منه ، لأنه تنفّس أنفاس الحياة ، وليس معه هذا العقل الذى لم يدع للإنسان لحظة يخلد فيها إلى الراحة والاطمئنان . . بل إنه أبداً فى صراع داخلى لا يهدأ أبداً ، بين رجاء ويأسٍ ، وسعادة وشقاء ، وطمأنينة وخوف .. فى يقظته ونومه .. على السّواء . .

إن الإنصاف للإنسان يقضى بألا تنتهى حياته بالموت ، بل لابد أن تكون له رجعة أخرى ، إلى حياةٍ أكمل ، وأفضل . .

إن الحياة ـ كما قلنا فى مواضع كثيرة ـ نعمة أنعم الله بها على الإنسان ، وامتنّ عليه بها .. كما يقول سبحانه : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » .. ومن تمام هذه النعمة ، دوامُها ، وإلا فما كان لوجودها أصلا حكمة ، ولكان خيراً منها العدم !

وقد يسأل سائل : كيف تكون الحياة الآخرة بالنسبة للكافرين والمشركين

وغيرهم من أصحاب النار ، خيراً من العدم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يوم ينظر المرء ماقدّمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنتُ ترابا » (٤٠ : النبأ) أيتفق هذا وذاك الذى نقول به .. ؟

ونقول : إن الحياة بعد الموت نعمة لأهل الجنة وأهل النار جميعاً ، وهى خير من العدم ! أيًّا كانت صورة تلك الحياة ، وأيا كان مصير الأحياء فيها . . نقول هذا ، وبين أيدينا كثير من الشواهد ، من كتاب الله ..

فأولا : من أمنيّات أهل النار فى النّار أن يُردّوا إلى الحياة الدّنيا .. وذلك فى كثير من الآيات القرآنية ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم : « ولو تَرَى إذ وُقفوا على النار فقالوا ياليتنا نُردُّ ولا نكذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين » (٢٧ : الأنعام) وكما يقول سبحانه فى هذه السورة على لسان أهل النار : « ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون » (الآية : ١٠٧) وكما يقول جل شأنه على لسانهم أيضاً : « ربنا أخرنا إلى أجل قريب نُجبْ دعوتك ونتبع الرسل » (٤٤ : إبراهيم) .

وهذا يعنى أنهم ، وهم فى النار ، متمسكون بالحياة ، راغبون فيها ، على أية صورة كانوا عليها ..

وثانياً : أن مايقوله الكافر فى الآخرة ، حين يرى العَذاب ، وهو قوله : « ياليتنى كنت تراباً » هو بسبب مايلاقى الكافرون من بلاء ، تضيق به نفوسهم ، شأنهم فى هذا شأن كثير من الناس فى هذه الحياة الدنيا حين تحتويهم حياة قاسية ، يتمنون معها الموت .. ولكنهم فى الواقع متمسكون بالحياة حريصون عليها .. ولو طلع عليهم الموت فى تلك الحال ، لفزعوا منه وكَرِبوا ، ولطلبوا المهرب ، إن كان ثمة مهرب !

وقليل من الناس أولئك الذين يرحلون عن هذه الدنيا ، دون أن تنازعهم

أنفسهم إلى التعلق بها ، واللهفة على التشبث بكل خيط فى يدهم منها ، مهما يكن حظهم فيها ، وشقاؤهم بها ..

الناس جميعاً متعلقون بالحياة ، راغبون فى المزيد منها ، ولو أخذت منهم الأيام ، وألحت عليهم العلل ، وحطمتهم السنون ..

إن حبّ الحياة طبيعة فى كل حىّ ، وهو فى الإنسان طبيعة وإرادة معاً .. طبيعة تدفعه إلى حفظ نفسه ، والإبقاء على ذاته أطول زمن ممكن .. وحبّ البقاء ـ فوق ذلك ـ إرادة تخلّقت فى الإنسان عن اتصاله بالحياة ، واختلاطه بالأحياء ، واشتباك مصالحه بهم ، وانفساح آفاق آماله بينهم ، وامتداد آثاره فى الحياة وفيهم ..

إن الإنسان ـ مهما طال عمره ، وامتد أجله ، فإن يده تقصر عن أن تنال كل ما أراد ، وإن الحياة لتضن بأن تحقق له كل رغبة ، وأن تدنيه من كل أمل .. يقول الشاعر :

تموت مع المرء حاجاته وحاجة من عاش لاتنقضى

من أجل هذا ، كان فى الناس هذا الحرصُ الشديد على الحياة ، وعلى الاستزادة منها ، ولو كان ماؤها آسنا ، وهواؤها سَمُوماً ، وطعامها الشوك والحسَك !

والموت هو الشبح المخيف ، الذى يطل على الناس بوجه كالحٍ بغيض ، يتهددهم فى أنفسهم ، وفيمن يحبون ، من ولد ، وأهلٍ وصديق .. إنه أعدى عدو للإنسان .. إنه يبغت الناسَ بغتةً ، ويفجؤهم فُجاءة على غير موعد .. فهم أبداً فى وَسْواس منه ، وفى خوف من وقماته بهم ، وبمن يحبون ، ويؤثرون .

إنه ليس شىء أبغضُ إلى الناس من الموت ، وليس شىء أكثر طروقا

ووسواسا لهم منه .. إنه أبداً مصدر إزعاج لـكل سليم وسقيم ، وكل شاب وشيخ .. إن لم يره دانيا منـه فى حال ، رآه ناشبا أظفاره فى أب ، أو أم ، أو زوج ، أو ولد ، أو صديق .

ومن أجل هذا كره الناس لقاء الموت ، وتعلقوا بالحياة ، مهما تـكن هذه الحياة ، ومهما تـكن ضراوتها وقسوتها ، وما تسوق إلى الناس من مآس وآلام .. يقول أبو العلاء :

نُحِبُّ العيش بُغضا للمنايا ونحن بما هوينا الأشقياء

ويقول أيضاً :

ودنيانا التى عُشِقت وأشْقَتْ كذاك العشقُ ـ معروفاً ـ شَقَاء
سألناها البقـــاء على شقاها فقالت عنـــكُمُ حُظِر البقاء

ولزوميات أبى العلاء ، تدور كلها حول الموت ، وماوراء الموت ، ولا تكاد قصيدة أو مقطوعة من شعره فى هذا الديوان تخلو من الحديث عن الموت ، أو النفس ، أو البعث والجزاء .. وذلك فى صور شتى من الرأى المتقلب بين اليقين والشك ، والإيمان والإلحاد ، والإقرار والإنكار ..

إن الموت هو الينبوع الذى ارتوت منه فلسفة « أبى العلاء » فعمقت جذورها ، وسَمَقت فروعها ، وتعددت طعومها . فكانت فلسفة مؤمنة ، ملحدة .. متفائلة ، متشائمة .. شأن الخائف المفزّع ، تتغاير فى عينيه صور الأشياء ، وتغيمُ حقائقهـا . .

إن ظاهرة الموت من أكبر الظواهر وأعمها ، مما شُغل به العقل ، والتفتت إليه الديانات السماوية والوضعية ، منذ الخطوات الأولى للإنسان فى هذه الحياة ..

يقول بعض الفلاسفة المعاصرين : « إن الموت هو أصل الديانات كلها ، ويجوز أنه لولم يكن هناك موت لما كان للإله عندنا وجود » .

وذلك لأن الموت لَفَتَ الإنسان إلى قوة عليا ، يستمد منها الحياة ، ويدفعُ بها الموت .. وإذا لم يتحقق له ذلك فى الحياة الدنيا ، طمع فى حياة أخرى بعد الموت ، يصل بها ما انقطع بالموت . .

ويكاد التفكير الإنسانى كله ـ عدا جماعات قليلة متناثرة على رقعة الزمن الفسيح ـ يكاد يرى الموت خاتمة حياة ، ومبدأ حياة جديدة أخرى .

لقد رفض العقل منذ أول مرحلة من مراحل تفكيره ـ رفض أن يجعل الموت خاتمة نهائية لحياة الإنسان ، وأبى أن يذهب بمن يموتون من الأهل والأحباب والأصدقاء إلى وادى الفناء والعدم .. فأقام لهم المقابر ، وسعى إليهم فى أوقات مختلفة ، يناجيهم ، ويبثهم مايصدره من شوق وحنين ، ويشكو إليهم مالقى من بعدهم من آلام وأحزان ..

وحول المقابر ، وعليها ، أقيمت تماثيل الموتى ، وقدّمت القرابين والصلوات والأدعية ، حتى يجد الميت فى ذلك مايهنأ به فى عالمه الجديد . .

إن شبح الحياة تدبّ فى الأموات ، مازال يطلّ على الأحياء من وراء القبور ، فلم تنقطع الصلة بين الأحياء والأموات..بمواراتهم فى القبور ، أبداً ، بل كان الأحياء دائماً يناجون الأموات ، ويتحدثون إليهم حديث الحىّ إلى الحىّ ، بل وكثيراً مايتلقى الأحياء من الموتى ـ عن طريق التخيل والتوهم ـ الجوابَ الشافى لما يُلقون إليهم من شئون وشجون ..

إن تلك الصلة النفسية بين الأحياء والأموات ، قد خَلَقَتْ فى الناس عقيدة الحياة بعد الموت .. وذلك قبل أن تجىء الأديان السماوية ، فتقرر هذه الحقيقة ، وتلتقى مع ماوجده الإنسان بحدْسه ، واستشعره بوجدانه ، وطرقه بخياله .

لقد كان أهم مايميز ديانة المصريين القدماء هو فكرة الخلود .. أعنى الحياة الخالدة بعد الموت .. فتلك العقيدة هى جرثومة التفكير الدينى ، الذى تولدت منه الديانة المصرية القديمة ، وتشكلت منه طقوسها ومراسمها . .

فالمصريون القدماء ، كانوا يعتقدون أنه وقد أمكن أن يحيا النيل بعد موته ، فيغيض ثم يفيض ، وأن يحيا النبات بعد موته ، فيزدهى وينضر ، فإنه – من باب أولى – أن يحيا الإنسان بعد أن يموت . .

واقرأ قوله تعالى : « وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار .. أفلا تعقلون » (٨٠ : المؤمنون) .

* * *

لم يرض الإنسان أن يكون نصيبه من الحياة تلك السنوات التى يعيشها فى هذه الدنيا ، وأبى أن يقبل الحكم الأبدىّ عليه بالفناء الأبدىّ ، بعد الموت . . بل إنه جعل من الموت طريقاً إلى الحياة الأبدية الخالدة ، التى لاموت معها .

يقول « سقراط » « عندما فتشت عن علة الحياة وجدت الموت . . وعندما وجدت الموت ألفيت الحياة الدائمة . . ولهذا ينبغى أن نغتمّ بالحياة ، ونفرح بالموت ، لأننا نحيا لنموت ، ونموت لنحيا . . »

وفى كتاب الهند المقدس « كاثا » : « يفنى الفانى كما تفنى الغلال ، ثم يعود إلى الحياة فى ولادة جديدة كما تعود الغلال[1] » .

ويقول الفيلسوف الألمانى « جوته » :

(١) يريد بفناء الغلال دفنها فى باطن الأرض ، ثم تحللها ، وتشققها ليخرج منها النبات .

« إن الاجتهاد المحتدم فى نفسى ، هو برهانى على الديمومة . . فإذا كنت قد عملت حياتى كلها ولم أسترح ، فمن حقى على الطبيعة أن تعطينى وجوداً آخر عندما تنحلّ قواى ، وتنوء بحمل نفسى » .

والديانات السماوية ، تصور الموت على أنه إشارة البدء إلى رحلة طويلة ، ينتقل فيها الإنسان من هذه الدنيا إلى عالم الخلود ، حيث يلقى كل إنسان هناك جزاء ما عمل ، من خير أو شرّ .

ويؤدى الموت فى الديانات السماوية ، دوراً عظيما فى إقامة العقيدة الدينية ، وفى تعميق جذورها فى قلوب المؤمنين ، وبعث الحماس للأعمال الصالحة التى تدعو إليها ، وتقبّلها فى رضا وغبطة ، وإن كانت تحمل الإنسان على تقديم نفسه قرباناً لله بالجهاد فى سبيله ، طمعاً فى حياة أفضل !

وليس من خلاف بين الديانات السماوية كلها فى تقرير هذه الحقيقة وتوكيدها . . وتكاد تكون دعوة الرسل منحصرة فى الإيمان بالبعث واليوم الآخر ، بعد الإيمان بالله .

ومع أن الكتب السماوية ، لم تتعرض لشرح عملية الموت شرحاً « فسيولوجيا » ولم تدخل فى جدل حول الجسد والروح وما بينهما من علاقة فى الحياة ، وما بعد الحياة — مع هذا ، فإن أتباع هذه الكتب لم يقفوا عند هذا ، بل كان فى المتدينين — من فلاسفة وعلماء وفقهاء — مَنْ أجال تفكيره فى هذه القضية ، مستصحباً الدين ، أو مستقلاً بنظره ورأيه .

وفى التفكير الإسلامى كثير من الآراء والمقولات . . نكتفى هنا بأثارة منها . .

فمثلا يقول « الراغب الأصفهانى » : « إن الموت المتعارف ، الذى هو

مفارقة الروح للبدن ، هو أحد الأسباب الموصلة للإنسان إلى النعيم الأبدى . . فهو وإن كان فى الظاهر فناء واضمحلالاً ، فهو فى الحقيقة ولادة ثانية . . إن الإنسان فى دنياه جارٍ مجرى الفرخ فى البيضة ، فكما أن من كمال الفرخ تفلُّق البيضة عنه وخروجه منها ، كذلك من شروط كمال الإنسان مفارقة هيكله . . ولولا الموت لم يكمل الإنسان ! » .

ثم يقول : « فالموت إذن ضرورى فى كمال الإنسان ، ولكون الموت سبباً للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف ، سمّاه الله « تَوَفِّياً » وإمساكاً عنده : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمًّى » (٤٢ : الزمر) .

ثم يقول الراغب : « فالموت هو باب من أبواب الجنة ، منهُ يتوصّل إليها ، ولو لم يكن الموت ، لم تكن الجنة ، ولذلك مَنَّ الله به على الإنسان . . فقال تعالى : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (٢ : الملك) . . فَقَدَّم الموت على الحياة ، تنبيهاً إلى أنه يتوصل به إلى الحياة الحقيقية ومن هنا عدَّ نعمة . .

وقال سبحانه أيضا : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم . . ثم يميتكم ثم يحييكم » فجعل الموت إنعاماً ، لأنه لما كانت الحياة الأخروية نعمة لا وصول إليها إلاَّ بالموت ، فالموت نعمة ، لأن السبب الذى يُتوصّل به إلى النعمة ، نعمة . . وعلى هذا جاء قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر . . فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون . . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (١٤ — ١٦ المؤمنون) ـ فنبّه على أن هذه التغيرات متجهة إلى خَلْق أحسن . .

ويقول الفيلسوف المسلم « محمد إقبال » :

« إن كائنا ـ يعنى الإنسان ـ اقتضى تطوّره ملايين السنين ، ليس من المحتمل إطلاقاً ، أن يُلقَى به كما لو كان من سَقَطِ المتاع . . وليس إلاّ من حيث هو نفس تتزكى باستمرار ـ يمكن أن يُنْسَب إلى معنى الـكوْن . . « ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها » (٧ — ١٠ الشمس) . . وكيف تـكون تزكية النفس وتخليصها من الفساد ؟ إنما يكون ذلك بالعمل : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور » (١ ـ ٢ : الملك) ـ فالحياة تهيىء مجالاً لعمل النفس ، والموت هو أول ابتلاء لنشاطها المركب » .

* * *

وننتهى من هذا كله إلى حتمية البعث والحياة بعد الموت . .

وإنه قبل أن تجيء الديانات السماوية ، وقبل أن تقول كلمتها فى الحياة الآخرة ، قالت الإنسانية كلمتها . . قالتها شعراً ونثراً . . وقالتها شعوذةً وفلسفةً ! وأعدّت نفسها للحساب بين يدى قوة عليا ، بيدها وحدها الجزاء الأوفى لـكل عمل . .

ففى الديانات المصرية القديمة مثلا ، كان يحمل الميت معه دفاعاً مكتوباً ، يلقيه بين يدى المحاسب العظيم . . وهذا ، مَثَل من صور هذا الدفاع :

« سلام عليك . . أيها الإلهَ العظيم . . ربّ الصدق والعدالة . . لقد وقفت أمامك ياربّ . .

« وجيء بى لـكى أشاهد مالديك من جمال ! !

« أحمل إليك الصدق . . إنى لم أظلم الناس . . لم أظلم الفقراء . . لم أفرض

على رجل حرّ عملاً أكثر مما فرض هو على نفسه !

« لم أهمل . . ولم أرتكب ماتبغضه الآلهة . . ولم أكن سبباً فى أن يسىء السيد معاملة عبده . .

« لم أمِتْ إنساناً من الجوع . . ولم أُبْكِ أحداً . . ولم أقتل إنساناً . ولم أخُنْ أحداً . .

« لم أرتكب عملاً شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدس . .

« لم أكفر بالآلهة . . ولم أغشّ فى الميزان . .

« لم أنتزع اللعب من أفواه الرُّضّع . . ولم اصطد بالشباك طيور الآلهة . .

« أنا طاهر . . أنا طاهر . . أنا طاهر . . ! ! »

فالحياة بعد الموت ، والحساب والجزاء ، هى مما يطلبه الإنسان ، ويعيش فيه ، ويعمل له . . ولو لم يكن هناك دين يدعو إليها ، أو شريعة تكشف عنها . .

فكيف إذا جاءت شرائع السماء كلها ، مقررة لها ، كاشفة عنها ، ضاربة الأمثال لها ، مقدمة الحجج والبراهين عليها ؟

وخير ما نختم به هذا البحث ، ما قرّره الراغب الأصفهانى ، فى كتابه : « تفصيل النشأتين » حيث يقول : « لم ينكر المعادَ والنشأةَ الأخرى ، إلا جماعة من الطبيعيين ، أهملوا أفكارهم ، وجَهِلوا أقدارهم ، وشَغَلهم عن التفكير فى مبدئهم ومنشئهم ، شغفهم بما زُيّن لهم من حبّ الشهوات . .

« وأما من كان سويًّا ، ولم يمش مُكبًّا على وجهه ، وتأمل أجزاء العالم ، علم أن أفضلها ذوات الأرواح ، وأفضل ذوات الأرواح ذوات الإرادة والاختيار ،

وأفضل ذوى الإرادة والاختيار ، الناظر فى العواقب ، وهو الإنسان ـ فيُعلم أن النظر فى العواقب من خاصية الإنسان ، وأنه ـ سبحانه ـ لم يجعل هذه الخاصيّة له ، إلاّ لأمر جعله فى العُقبى ، وإلا كان وجود هذه القوة فيه باطلا !

« فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهى إليها غير هذه الحياة الخسيسة ، المملوءة نَصَباً وهمًّا وحزنا ، ولا يكون بعدها حال مضبوطة ـ لكان أخسّ البهائم أحسنَ حالاً من الإنسان !! فيقتضى هذا أن تكون هذه الحِكم الإلهية ، والبدائع الربانية ، التى أظهرها الله فى الإنسان عبثاً ، كما نبّه الله تعالى بقوله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون » .. فإن إحكام بِنْيةِ الإنسان ، مع كثرة بدائعها وعجائبها ، ثم نقضها ، وهدمها من غير معنًى سوى ماتشاركه فيه البهائم من الأكل والشرب ، مع ما يشوبه من التعب الذى أغنى عنه الحيوان ـ سَفَه » « تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً » .

* * *

قوله تعالى :

* « فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إلهَ إلا هو ربّ العرش الكريم » .

هو تنزيه لله سبحانه وتعالى ، أن يكون خَلَق الخلق عبثاً ، وأنه سبحانه يميتهم ، ثم لايبعثهم .. إن هذا لايليق بالمَلِكِ العظيم ، الحقّ ، الذى لا إلهَ إلاهو ربّ العرش الكريم ..

وفى وصف الله سبحانه وتعالى لذاته الكريمة العلية ، بهذه الأوصاف الجليلة مايشير إشارة مبينة إلى تقرير هذين الأمرين : الخلق ، والبعث ، وأنهما من شأن « المَلِك » الذى قام ملكه على الحقّ ، والذى لا إلهَ معه ، يشاركه الخلق والأمر ، فيعطل مشيئته ، أو ينقض حكمته ..

ثم إن فى وصفه ذاته سبحانه وتعالى بالكرم ، إشارة أخرى ، إلى أن

الخلق والبعث نعمة من منعم كريم ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير .

* قوله تعالى :

« ومن يَدْعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربّه إنه لا يفلح الكافرون » .

وبهذه الآية ، والآية التى بعدها تُختم السورة الكريمة ، حيث يلتقى ختامها مع بدئها .. فقد بدئت بهذا الإعلان العام : « قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .. ثم جاءت الآيات بعد ذلك تعرض صفات المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم فى الآخرة من نعيم ، حيث يورّثهم الجنّة ، ويطلق أيديهم فيها ، ينعمون بما يشاءون منها .. ثم عَرضَت الآيات بعد هذا صوراً من قدرة الله ، وفضله على الإنسان ، الذى أخرجه من تراب ، فكان هذا البشر السّوىّ .. وتمضى الآيات فتعرض ، صوراً للمعاندين المكذبين برسل الله ، وما أخذهم الله به فى الدنيا من نكال ، وما أعد لهم فى الآخرة من عذاب .. ثم تخلص الآيات من هذا العرض إلى تقرير أمر البعث ، وأنه أمر واقع لا شك فيه .. ثم تجىء خاتمتها داعية إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، والتحذير من الشرك به ، فإن من يشرك بالله فهو من الكافرين . . وإن الكافرين هم الخاسرون ..

— وفى قوله تعالى : « لا برهان له به » ـ دعوة صريحة إلى تحرير العقل ، وإطلاقه من قيد الأسر للأوهام ، ومن الانقياد للآخرين ، من غير أن يكون له نظر واقتناع ، عن برهان قاطع ، وحجة واضحة . .

فالإيمان بالله سبحانه وتعالى : « قضية » أولى من قضايا العقل ، يرتبط بها مسيره ومصيره ، فى الدنيا والآخرة .. وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان أن يلقى هذه القضية فى جدّ واهتمام بالغين ، وأن يوجّه إليها كل مدركاته ،

ومَلَكاته ، وأن يفتح لها عقله وقلبه ، حتى يمحصها تمحيصاً ، ويقيم لها الأدلة والبراهين .. فإن هو آمن بعد هذا ، كان إيمانه على بصيرة وهدًى ، وكان لهذا الإيمان أثره فيه ، وسلطانه عليه .. وإن لم يجد بين يديه « البرهان » المقنع ، والدليل القاطع ، والحجة الملزمة ، فلا عليه أن يُمسك عن الإيمان ، حتى تتضح له معالم الطريق إليه ، وحتى يقع على الدليل الهادى ،الذى يقوده إلى الله مُذْعناً ، مستسلماً ! .. فذلك هو الإيمان الذى يطلبه الإسلام من المسلمين ، ويفتح أبصارهم وبصائرهم له .

وليس هذا هو شأن العقل مع قضية الإيمان بالله وحدها ، بل إن ذلك هو الذى ينبغى أن يكون من شأنه مع كل قضيّة من قضايا الحياة ،صغيرها وكبيرها .. إذ كان العقل هو الحاسّة التى يذوق بها الإنسان طعوم الحياة ، ويَميز بها الخبيث من الطيب ، والشرّ من الخير ، والنافع من الضار .. تماماً كما يذوق باللسان طعوم المأكولات والمشروبات ، حتى لا يُدخل على الجسد طعاماً فاسداً ، فيفسد طبيعته .

قوله تعالى :

* « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » .

بهذه الآية الكريمة ، تختم السورة .. وبهذه الرحمة الواسعة من ربّ كريم رحيم ، يُغاث الناس ، ويتداوَوْن من جِراحات الآثام والذنوب ، التى شوهت معالم فطرتهم ، وذهبت بالكثير من جمال خَلْقهم السّوىّ ، الذى خلقهم الله عليه ..

لقد رَكِبَ كثير من الناس طُرق الغَواية والضلال ، وكادت تَضيع إنسانيتهم فى هذا التّيه ، ولكن رحمة الله تداركتهم ، فلقيتهم هناك فى هذا الضّياع ، وأعادتهم إلى مجتمع الإنسانية الكريم ..

وهكذا ينتهي أمر الناس ، برحمة عامة شاملة ، تنال البرّ والفاجر ، وتكسو المطيع والعاصي .

ولترْغَمْ أنوفُ أولئك الذين يتألّوْن على الله ، ويؤيّسون الناس من رحمة ربّ الناس ، ويحتجزونها لأنفسهم ، حتى لكأنها لا تتسع إلاّ لهم ، وأنه لو شاركهم فيها غيرهم لضاقت بهم ، وقلّ حظهم منها .. فهذا من سوء الظنّ بالله ، ومن ضلال في الفهم لِمَا لذاته من كمال مطلق .. « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ورحمة ربك خيرٌ ممّا يجمعون » .. (٣٢ : الزخرف)

ومن أسرار هذا الختام للسورة بهذه الآية الكريمة ، أنها جاءت تحمل الرحمة والمغفرة ـ الرحمة الواسعة ، والمغفرة الشاملة ـ وبين يديها هذه الأحكام ، وتلك الحدود ، التي جاءت بها سورة « النور » التي تلي هذه الآية مباشرة ، وكأنها تبشر بالرحمة والمغفرة ، أولئك الذين تغلبهم أنفسهم ، وتستعلي عليهم أهواؤهم ، فيخرجون عن حدود الله ، ويواقعون الإثم والمنكر ! !

فسبحانك سبحانك من رب كريم ، غفور ، رحيم .. تَعْنُو لجلاله الوجوه ، وتستخزي في مواجهة كرمه ، ومغفرته ورحمته ، النفوس ، ويستحي من عصيانه ، والتمرد على طاعته ، أهلُ الحياء !

وألاَ شاهت وجوه الذين يلقَوْن رحمة الرحمن الرحيم بالتمرد والكفران .. وألاَ خَسِيء وخَسِر ، أولئك الذين يُغريهم لطف اللطيف ، وإحسان المحسن بالتطاول عليه ، والعدوان على حرماته .. !

* * *

٢٤ - سورة النور

نزولها : هى مدنية .. باتفاق .

عدد آياتها : أربع وستون آية .

عدد كلماتها : ألف وثلاثمائة وست عشرة كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف ، وستمائة وثمانون حرفاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٣)

* « سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلزَّانِى لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣) » .

التفسير :

فى هذه السورة ـ أمران ـ نحب أن نقف قليلًا عندهما ، قبل أن نمضى فى تفسيرها :

أولهما : هذا البدء الذى بدئت به ، والإخبار عنها بأنها سورة ـ مع أنها « سورة » من مائة وأربع عشرة سورة ، هى القرآن الكريم كله .

فما سرّ هذا ؟

لم نجد أحداً من المفسرين سأل هذا السؤال ، أو أشار إليه من قريب أو بعيد .. وإن كانوا قد توسعوا فى شرح معنى سورة ، وأنها من السور الذى يقوم على ما بداخله ، ويحتويه . . فهى بهذا أشبه بالسور .. لها بدء وختام . . وما بين بدئها وختامها محصور فى البدء والختام . . وليس فى هذا ما يجعلها منفردة بوضع خاص بين سور القرآن الكريم .

أما الإخبار عنها بأنها سورة ، وهى سورة فعلا .. فهذا ما قد سكتوا عنه .. وهو أمر يُلفت النظر ، ويستوجب الدراسة والبحث . .

ونحن إذ ننظر فى قوله تعالى : « سورة أنزلناها وفَرَضْنَاها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » .

نجد هذا الخبر وما وصف به ، ينطبق على كل سورة من سور القرآن الكريم .. فكل سورة منه هى سورة ، وكل سورة ، أنزلها الله وفرضها ، وأوجب على المسلمين التعبّد بآياتها ، والعمل بأحكامها . . وكل سورة فيها آيات بينات ، للتذكر والتدبر ، وهى فى هذا لا تختص بمزيد فضل على غيرها من السور ، لأن القرآن كله كلام الله ، وكلام الله ـ سبحانه ـ على التمام والكمال جميعه ، لا يفضُل بعضه بعضاً بشىء . . إذ ليس هناك مكان لزيادة فى فضل !

فما السر إذن ؟

نقول ـ والله أعلم ـ إن بدء السورة فى الحقيقة هو قوله تعالى فى الآية الثانية منها : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . . وإن الآية التى بدئت بها السورة ليست إلا تنبيهاً على أن سورة ستنزل ، وفيها فرائض ، وأحكام ، وآيات بينات . . وذلك أن الأحكام الشرعية . . وخاصة

ما يتصل منها بالحدود ـ لم يجىء بها القرآن الكريم فى صدر السور القرآنية ، وإنما جاء بها بين ثنايا الآيات ، حيث يمهد لها بآيات قبلها ، ثم يعقب عليها بآيات بعدها .. وبهذا يجىء الحكم الشرعى وبين يديه ومن خلفه مايدعمه ، ويوضحه .

فقوله تعالى : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » . .

* هو أشبه بالموسيقى ، التى تتقدم موكب المجاهدين فى سبيل الله ، المتجهين إلى غزو مواقع الكفر والضلال ، إذ أن الآيات التى جاءت بعد هذا المطلع،هى فى الواقع أقرب شىء إلى أن تكون بعثاً من جند السماء ، يحمل الهدى والنور إلى هذه المواطن المظلمة من المجتمع الإسلامى ، فيبدد ظلامها ، ويكشف للأبصار والبصائر ، الطريقَ المستقيم إلى مرضاة الله !

وثانيهما : تسميتها بسورة « النور » .. على اعتبار أن أسماء السور توقيفى ، وهو الرأى الراجح عندنا . .

لم سميت بهذا الاسم ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذلك :

أولا : لأنها جاءت بآيات كشفت ظلاماً كثيفاً ، كان قد انعقد فى سماء المسلمين قبل أن تنزل هذه السورة ، وتنزل معها هذه الآيات . . وذلك أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، كانت فى تلك الفترة موضعَ اتهام على ألسنة المشركين والمنافقين ، وقد أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الحديث المفترَى ، كما أوذيت زوجُه رضى الله عنها ، وأوذى المسلمون بهذا الذى طاف حول بيت النبوة من غبار تلك التهمة المفتراة . . فلما نزلت الآيات التى تبرّىء البريئة الصدّيقة بنت الصديق ـ انقشع هذا الظلام ، وكشف النور السماوى ، عن وجوه المنافقين المفترين . .

وثانياً : جاء فى السورة الكريمة قوله تعالى : «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .. المصباح فى زجاجة .. الزجاجة كأنها كوكب درىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار .. نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء .. »(٣٥)

فلهذه الأنوار التى تملأ الوجود من نور الله ، ولهذه الآيات المنزلة التى أضاءت للمسلمين ظلام الليل الكثيف ، وفضحت المشركين والمفترين — لهذا أو ذاك ، أولهما معاً ، استحقت السورة أن تحمل هذا الاسم ، وأن تكون نوراً على نور .. من نور الله .. !

* * *

بعد هذا ، نستطيع أن نلتقى بالسورة الكريمة ، ونقف بين يدى آياتها ..

قوله تعالى :

* « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » .

« سورة » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره ، هذه سورة .. وقد قرىء «سورة» بالنصب ، بتقدير ناصب لها من فعل ، أو اسم فعل ، مثل اقرأ ، أو استقبل ، أو إليك أيها النبى سورة ..

وفى هذا البدء إلفات إلى ماسيجىء فى السورة من أحكام . وتشريعات ، وقواعد ، لحفظ المجتمع ، وصيانة روابط الأسرة ، التى هى الأساس الذى يقوم عليه كيان الجماعات والأمم ..

[الجلد والرجم . . وجريمة الزنا]

قوله تعالى :

* « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

هكذا تبدأ السورة بهذا الحكم ، على غير ما جرى عليه القرآن من تقرير الأحكام فى ثنايا السورة ، وبين يديها ومن خلفها آيات تمهد لها ، وتعقب عليها .

أما هنا ، فقد تكاد السورة تبدأ بهذا الحكم ، وليست الآية التى بدأت بها السورة إلا إعلاناً عن أن هذه سورة ، وأنها جاءت ابتداء بتقرير هذا الحكم ، وهذا يشير إلى أن هذا الأمر الذى جملته السورة فى مقدمتها ، هو أمر عظيم الخطر على المجتمع الإنسانى ، وأن من الحكمة الإسراع فى محاربته والقضاء عليه ، وأنه لهذا جدير بأن يتصدر سورة من سور القرآن الكريم ، وألا تسبقه مقدمات ، وإرهاصات تشير إليه ..

وفى تصدير الحكم بالجملة الاسمية ، تقديمٌ للمسند إليه ـ المبتدأ ـ وكشفٌ عنه قبل الكشف عن الحكم الذى سيسند إليه .. إذ ليس المقصود أولا هو إقامة الحدّ على الزانية والزانى ، وإنما المراد هو التعرف على من يحمل هذا المرض الخبيث فى كيانه .. ثم يأتى بعد ذلك مايتخذ لوقايتـــه ، ووقاية المجتمع منه ..

فقوله تعالى : « الزانية والزانى » يُلفت السامع إلى أن حكما مّاسيقع عليهما، أو قولا سيقال فيهما .. وهنا تُصغى الأسماع ، وتتطلع النفوس إلى هذا الحكم ..

وإذ يتوقع المستمعون أن هذا الحكم سيكون وعيداً من الله ، أو وصفاً دامغاً للزانية والزانى ـ يجىء الأمر على غير ماينتظرون ، وإذاهم أنفسهم ، هم

المطالبون بالكشف عن هذا الداء، ثم هم مطالبون أيضاً بأخذهم بهذا الدّواء الذى وضعه الله فى أيديهم، وإنفاذ أمره فيهم .. وهذا كله من شأنه أن يجعل المسلمين جميعاً حرباً على هذا الداء، وأساة لمن يصابون به ..

ففى قوله تعالى: « فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة ».

أولا: عَزْلٌ للمؤمنين، عن جماعة الزُّناة، الذين تحقق المجتمع من هذا الداء الذى نزل بهم ..

وثانياً: إلزام للمؤمنين ألا يقفوا موقفاً سلبياً من هذا الداء الذى يتهددهم إن هم تغاضوْا عنه، ولم يأخذوا لأنفسهم وقاية منه .

وبهذا يكون معنى الآية:

الزانية والزانى، هاهما قد أصيبا بهذا الداء الخبيث، وإنه لكى تدفعوا عن أنفسكم شر هذا الداء، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، إذ لستم أنتم أرأف بالناس من رب الناس ..

وفى قوله تعالى: « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » ـ إشارة إلى أن الجريمة ينبغى أن يكون عقابها علَناً، بمحضرٍ من الناس، ليكون فى ذلك فضحٌ للجانى، وتحذير لغيره من أن يأتى هذا المنكر، ويقع تحت سياط العذاب، وعلى أعين الناس!

وهذه الجريمة ينكرها الناس جميعاً، وتنكرها كذلك المدنية الغربية جهراً، وترضى بها وعنها سراً .. وذلك لما فى هذه الجريمة من عدوان على حقوق الأزواج، ومن اختلاط الأنساب، وحل روابط الأسرة، وقطع ما بين الآباء والأبناء من تعاطف، وتراحم، وإيثار، وبذل يبلغ حد التضحية بالنفس، الأمر الذى لا يكون إلا إذا ملأت عاطفة الأبوة قلوب الآباء .. وهذا لا يكون

إلا إذا وقع فى نفوس الآباء وقوعاً محققاً أن هؤلاء الأبناء من أصلابهم ، وأنهم غرسُهم الذى غرسوه ، ونبتهم الذى خرج من هذا الغرس . . ومن هنا تقوم فى أنفسهم الدواعى القوية لرعاية هذا النَّبْت وبذل الجهد له ، حتى ينمو ، ويزهو ، ويثمر . .

إن المجتمع لا يكون مجتمعاً سليما ، قوى البنيان ، ثابت الأركان ، إلا إذا انتظمت أفرادَه مشاعرُ متلاحمة من التوادِّ والتعاطف بين أفراده . . والأسرة هى أول لبنة فى بناء المجتمع . . ومن هنا كان حرص الإسلام على إقامة هذه اللَّبنة من مادة متماسكة ، متلاحمة ، مصفاة من الشوائب، محصنة من الآفات . . فربط أولا بين الزوج والزوجة بهذا الرباط الموثق ، الذى لا ينحل إلا إذا عرضت له عوارض تجعل من إمساك الزوجين بهذا الرباط أمراً فيه إعنات لهما ، أو لأحدهما ، فكان التحلل منه أرفق وأوفق . . ثم لم يدع الإسلام هذا الرباط ينحل تلقائياً ـ إذا دعت دواعيه ـ بل جعل له أسلوباً خاصاً يجرى عليه ، ويتعامل الزوجان بمقتضاه ، كأن تعتدَّ المرأة بعد انحلال الرابطة الزوجية بالطلاق أو الوفاة ، وكأن يقدم الرجل للمرأة مؤخر الصداق ، ونفقة العدة ، وغير هذا مما هو مفصل فى كتب الفقه . . ثم هذه الثمرة التى يثمرها الزواج من أولاد ، وما يجب على الآباء من رعاية وتربية لهؤلاء الأولاد ، وهو أمر وإن كان فى فطرة الكائن الحى ، إلا أن الإسلام جعله شريعة ، يؤخذ بها من فسدت فطرتهم من الآباء والأمهات . . وكذلك أوجبت الشريعة على الأبناء طاعة الآباء ، وبرّهم ، وتقديم الرعاية الكاملة لهم عند الكبر والعجز . . وهذا أمر وإن كانت تقضى به الفطرة ، وتوجبه المروءة ، التى تدعو إلى مقابلة الإحسان بالإحسان ، فإن الإسلام جعله شريعة ملزمة ، وحقاً واجب الأداء ، إذا كان فى الأبناء من ذهبت مروءته ، وطمست معالم فطرته ، فلم يرع هذا الحق ابتداء من غير طلب . .

وهكذا ينظر الإسلام إلى الأسرة ، ويعدّها « البوتقة » الأولى ، التى تنصب فيها مبادئه ، وتختبر أحكامه ، وتثمر شريعته . . فإنه إذا ظهرت آثار هذه الشريعة فى مجتمع الأسرة ، وقامت منها تلك « الخلية » السليمة ، القوية ، المحصنة من آفات الانحلال والتفكك ـ كان المجتمع الذى يقوم من اجتماع هذه الخلايا ، مجتمعا سليما قويا . . أشبه بالجسد السليم القوى ، الذى لا تنال منه الآفات والعلل . . إذا عرضت له . .

وسلامة الرباط الذى يقوم بين الزوجين ، وقيام الرابطة الزوجية فى ضمان من التحلل والتفكك ، وفى أمان من الشك والارتياب ـ هو الأساس الذى تقوم عليه الصلات الروحية ، والنفسية ، والمادية بين أعضاء هذه الأسرة ، التى يبنيها الزوج والزوجة معاً . .

من أجل هذا وقفت شريعة الإسلام هذه الوقفة الحكيمة الحازمة ، من أمر الزنا ، وعدّته آفة مهلكة إذا لم يأخذ المجتمع كله السبيل عليها ، وينكّل بالذين يعتدون على حرمته ويهددون أمنه وسلامته ، ويدكون صرح بنيانه ، باقتراف هذا المنكر . .

وقد فرق الإسلام فى العقوبة بين المحصَنين وغير المحصَنين ، لما بين الفريقين من اختلاف فى الحاجة ، وفى الدافع إليها .

فالحدّ الذى فرضه الإسلام ، هو مائة جلدة لغير المحصن ، من النساء والرجال : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . .

أما المحصن من الرجال والنساء ، فحدّه الموت . . رجما بالحجارة .

فإذا توافرت أركان هذه الجريمة بما يوجب الحد ، وجب الحد ، ولزم .

ثم إنه إذا أقيم الحد ـ جَلْداً أورجماً ـ وجب أن يكون علناً ، يشهده طائفة

من المؤمنين ، وقد أشرنا من قبل إلى الحكمة المبتغاة من هذه العلانية .

هذا ، وقد جاء الجلد نصاً فى القرآن الكريم .. كما جاءت به الآية الكريمة : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

ولكن .. هنا سؤال :

إذا كان حكم القرآن قد جاء هكذا مطلقا فى الزانية والزانى ، وهو الجلد .. فلم هذا التخصص بغير المحصنين ؟ ومن أين جاء النص على المحصنين بالرجم ؟

ونقول إن التقييد للنص القرآنى ، وصرفه إلى غير المحصنين ، إنما هو من عمل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .. فقد رجم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ محصناً هو « ماعز بن مالك » كما رجم محصنة هى : « الغامدية » وذلك كما هو ثابت فى السنة المطهرة ..

ولكن .. لسائل أن يسأل :

كيف يجىء حكم القرآن عن جريمة « الزنا » نصاً فى الجلد ، ثم لا يجىء فيه نص « للرجم » ؟

ألاَ يكون عكس هذا هو الأولى .. فينصّ القرآن على العقوبة الكبرى وهى « الرجم » ثم يجعل « الجلد » عملا من إعمال هذا النص ، فيكون تعزيراً ، حيث لا تتوافر الأدلة القاطعة ؟ .

ونقول ـ والله أعلم ـ :

أولا : حمل إطلاق قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ـ حمل هذا الإطلاق على غير المحصنين ، فيه رعاية لمقتضى الحال ، الذى يكاد يصرّح بأن الزنا ـ إن كان ـ فلا ينبغى أن يكون إلا من غير

المحصنين ، حيث لم يكن لهم ما يتحصنون به من دواعى الشهوة ، بالزواج ، الذى من شأنه أن يكسر حدة هذه الشهوة ، ويطفىء وَقْدَتها . . فهم لهذا ـ إذا أقدموا على الزنا كانوا أقل جرْماً من المحصنين ، الذين من شأنهم أن يتحصنوا ويتعففوا ، وهم فى حياة الزوجية .

فهذه إشارة بليغة من الشريعة الإسلامية ، إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون فى حصانة من دينه ، وفى يقظة دائمة من مراقبة ربه . وتوقى العدوان على حدوده ، فإذا غلبت المؤمنَ شهوتُه ، فى هذه الحال ، وأغواه شيطان فاستغوى ، وركب طريق الفاحشة ـ فإنه ملوم مذموم . . ولكن شتان فى هذا ، بين المحصَن وغير المحصن ، فى موقف الحساب والجزاء ، على تلك الفعلة المنكرة . .

ولشناعة هذه الجريمة ، وعظيم خطرها ، فقد نص القرآن على أدنى حد يجب أن يؤخذ به مقترفها . وهو الرجم ، كما أن القرآن أمسك بهذا النص مَن يغلب عليهم أن يواقعوا هذا المنكر ، ويقعوا تحت العقوبة الراصدة له ، وهم غير المحصنين . . أما المحصنون فأولى بهم ألا يكون لهم موقف هنا . وألا يُذكروا فيمن يُذكر فى معرض هذا الأمر الشنيع .

وثانياً : إن عمل الرسول ، متمم للشريعة ، وشارح لها ، بحكم القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٧ الحشر) ذلك أن الرسول لا يدخل على شريعة الله إلا بما يأمره به الله . . كما يقول تعالى : « وما ينطق عن الهوى . . إن هو إلا وحى يوحى » (٣ ـ ٤ : النجم)

وثالثا : أن وجوب إقامة الحد على الزانى والزانية ، لا يكون إلا إذا وقعت هذه الجريمة مستوفية أركاناً خاصة ، دون أن يَعلَق بأى ركن منها شبهة من

الشبه القريبة أو البعيدة . . فإذا انحلّ ركن من هـذه الأركان ، أو دخلت عليه شبهة لم تـكن جريمة فى نظر الشارع ، ومن ثم فلا حد على المأخوذ بها .

وأم الأركان التى تثبت بها جريمة الزنا ، شهادة أربعة من الشهود العدول ، بأن يشهدوا بأنهم رأوا هذا المنـكر بين الرجل والمرأة ، على الوجه الذى يقع بين الزوجين فى فراش الزوجية ، من المباشرة التى لا يطلع عليها أحد ، وأن تـكون هذه الرؤية كاشفة كل شىء بين الرجل والمرأة ، وخاصة فيما يتصل بالتقاء سوءتيهما ، التقاء مباشراً كاملا . .

فإذا لم تقم كل شهادة من شهادات الشهود الأربعة على هذا الوجه ، بحيث لو وقع اختلاف بينها فى أية صفة من تلك الصفات ـ لم يحكم بوقوع الجريمة ، ومن ثَمّ فلا إقامة لحد عليها . . ويُجلد الشهود ثمانين جلدة ، إعمالا لقوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (٤ : النور) .

وطبيعى أن تحقق هذه الشروط ندر أن يقع . ذلك أن الذى يمكن أن يحدث منه هـذا الأمر المنـكر على ملأ من النـاس بحيث تنـكشف لهم سوءته ـ هو إنسان معتوه ، أو مجنون ، أو مخمور .. لأن العاقل ـ فى أى درجة من درجات العقل ـ يأبى عليه حياؤه أن يتجرد هـذا التجرد لأعين الناس . . وإنه لو فرض وكان ممن ذهب ماء الحياء من وجهه . . فـكيف السبيل إلى المرأة التى جمد حياؤها هذا الجمود ، فتعرّت للرجل هذا التعرّى على أعين الناس ؟ إن هذه صورة لا تقع إلا فى أحوال نادرة ، وتحت ظروف وأحوال غير طبيعية ، كأن يقدر الزانيان أنهما فى مأمن ، فينـكشف عنهما هذا الستر الذى تستترا فيه ، على غير انتظار ، أو أن يطلع عليهما مطلع من حيث لا يحسبان أو يقدران . .

ولا شك أن غير المحصنين هم أقرب إلى التعرض لمثل هذا الفعل المنكر المفضوح ، إذ كانوا - تحت وطأة الشهوة وقسوة الحرمان - معرضين للاندفاع إلى هذه الجريمة ، وإلى قلة المبالاة بعواقبها ، والعمى أو التعامى عن الظروف المحيطة بها .

أما المحصن فإنه - إذ يقدم على هذه الجريمة - لا يكون محكوماً بثورة الشهوة ، أو قسوة الحرمان إلى هذا الحد الذى يكون عليه غير المحصن .. كما أنه لا يندفع إلى هذه الجريمة هذا الاندفاع الصارخ المجنون ، فى غير مبالاة ، خوفاً من الفضيحة والخزى ، عند زوجه وبنيه وأهله .. ولهذا لم تثبت جريمة الزنا على المحصن أو المحصنة إلا بإقرارهما ، كما كان الشأن مع « ماعز » والمرأة الغامدية . .

وهنا يتضح لنا حكمة نص القرآن على حد الجلد ، وهو العقوبة المفروضة على غير المحصنين ، إذ كان غير المحصنين - كما قلنا - هم الكثرة الواقعة تحت حكم الزنا ، على تلك الصورة المكشوفة المفضوحة ، وهم أدنى إلى مواقعة الإثم على صورته تلك ، من المحصنين ، الذين يكاد الإسلام لا يفترض لهم وجوداً .. لأنهم إذا وجدوا على تلك الحال ، كانوا من الندرة النادرة التى لا يتوجه إليها عموم الحكم .

كذلك تتضح حكمة هذا التقدير الذى قدّره الإسلام لعقوبة هذا الجرم ، فى مجاليه معاً ، الإحصان وغير الإحصان ، وهو تقدير عادل رحيم ، لا تخف موازينه أبداً ، فى أى مجتمع إنسانى ، يحترم وجوده ، ويكرم إنسانيته ، ويرعى حرماتها ، ويحتفظ بالقدر الإنسانى من حيائه ومروءته . .

والجلد مضافاً إليه الفضح على الملأ ، هو عقوبة غير المحصن والمحصنة .

وهذا الجلد . . غير منكور مافيه من استخفاف بإنسانية الإنسان ، وامتهان لكرامته ، وإسقاط لمروءته !

نعم . . إن الإسلام يأخذ هذا « الإنسان ! » بكل هذا التجريم والتجريح ، فى مقابل جنايته تلك التى جناها على المجتمع . .

وكيف يرعى الإسلام ، حرمةَ فَرْد ـ رجلا كان أو امرأة ـ لم يَرْعَ إنسانيته، ولم يحفِل بمروءته ؟

وكيف يُقبل منه هذا العدوان الصارخ على المجتمع ، وهذا التحدّى المجنون لحرمة الجماعة وحيائها ، دون أن يذيقه من الكأس التى سَقَى منها مجتمعاً كاملا ؟ وكيف لايلبسه هذا الثوب من المذلة والهوان والاستخفاف ، وقد ألبس هو المجتمعَ هذه الملابس جميعها ؟

إن أقلّ ما ينبغى أن ينال مقترفَ هذا الإثم ـ فى علانية وفى غير مبالاة ـ هو أن يكون العقاب المسلط عليهما قائما على العلانية ، وعدم المبالاة بهما .

أما المحصنون الذين يضبطهم المجتمع على تلك الحال ، ويقيم الشهادة عليهم ، فقد نزلوا دركاتٍ بعيدة عن هذا المستوى المنحط الذى نزل إليه غير المحصنين ، إذ لايجدون عند الله ، ولا عند الناس شيئاً من العذر الذى قد يقوم لغير المحصنين . . ولهذا كان عقابهم أن يدفنوا فى هذه الحفرة التى حفروها لأنفسهم ، وأن يقذفهم المجتمع بالأحجار التى قذفوه بها ، حتى تزهق أرواحهم .

* * *

إن جريمة الزنا ، لايلقاها الإسلام بهذا العقاب الدنيوى الراصد الزاجر ، إلا حين تتحول عند مرتكبيها إلى عمل غير منكر ، فيأتيه من يأتيه منهم ،

وكأنه يؤدى رسالة كريمة فى الحياة ، يرى من الخير أن يشهد الناس وهو متلبس بها . . وهنا يكون الحساب على هذا الفجور العريان ، وعلى تلك الحيوانية الطاغية التى تلبس الإنسان ، وتتمشى به فى الناس ، فى غير خجل أو حياء . . وكيف يُستحلّ دمُ الحيوان ، ولا يباح دم هذا الحيوان من أبناء آدم ؟ وهل مثل هذا الإنسان أكرم عند الله أو عند الناس من الحيوان الذى أباح الله دمه ، وأحلّ ذبحه ؟

أما حساب الإسلام لمرتكبي هذا الإثم ، فى ستر وخفاء ، فهو مما يتولاّه الله ، ويأخذ به أهله ، يوم يقوم الناس لربّ العالمين ، ويقف المذنبون بذنوبهم بين يدى أحكم الحاكمين ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء .

من أجل هذا ، لم تكن عقوبة الجلد أو الرجم تقع ، إلا فى القليل النادر جداً ، على أولئك الذين ينادون على أنفسهم بالفضيحة . . بلا مبالاة أو تحرج . . !

فما فرض الإسلام على المسلمين — حكاماً أو محكومين — أن يفتّشوا على دخائل الناس ، وأن يَعْمِدوا إلى كشف ماستروه ، وما ستره الله عليهم . . بل إنه سبحانه — رحمةً بعباده — دعا إلى الستر على أُبتلِيْن من عباده بمنكر من المنكرات ، وعدّ الكشف عن هذا المنكر من إشاعة الفاحشة فى المؤمنين وتوعّد الذين يذيعونها بالعذاب الأليم . . فقال تعالى : « إن الذين يحبّون أن تَشيعَ الفاحِشَةُ فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (١٩ : النور) .

رُوى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد بلغه عن امرأة كانت تعلن الفجور ، فقال : « لو كنتُ راجماً أحداً بغير بيّنة لرجمتُ هذه »

وهذه المعالنة التى يشير إليها الرسول — صلوات الله وسلامه عليه —

هى تلك التى يرى فيها الناس تلك المرأة متلبسة بهذا المنكر ، على مرأى ومشهد منهم .. حتى لقد كان منها أن اشتهرت أنها على علاقة بفلان أو فلان ، وأن بعضهم قد اطلع منها على هذا المنكر . .

* * *

بقى أن نشير هنا إلى ماورد فى بعض الأحاديث من أن رجم المحصَن والمحصَنة ، قد جاء فى كتاب الله غير المتلو من آياته . . أى الذى نسخ تلاوة ، وبقى حكما . . ويروون لهذا ، هذه الآية : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » .

وقالوا : إن هذه الآية مما كان أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخت تلاوته ، وبقى حكمه ، ولم يثبت فى المصحف .

ومن هذا ما يروى فى صحيح البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره أن عمر قام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد أيها الناس، فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أُنزل عليه آيةُ الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجمنا بعده . . فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لانجد آية الرجم فى كتاب الله ، فيضلّوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى وهو محصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبَل ، أو الاعتراف » .

وفى مسند أحمد عن ابن عباس ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : إن عمر بن الخطاب، خطب الناس ، فسمعته يقول : « ألاَ وإن ناساً يقولون : ما الرجم فى كتاب الله ، وإنما فيه الجلد ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه

وسلم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم : إن عمر زاد فى كتاب الله لأثبتها كما نزلت » !

وفى مسند أحمد أيضا عن ابن عباس ، قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذَكَر الرجم فقال: « لانجد من الرجم بدًّا ، فإنه حدٌّ من حدود الله ، ألاَ وإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم رجم ، ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : إن عمر زَادَ فى كتاب الله ماليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب ، وابن عوف ، وفلان ، وفلان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده » !

هذا بعض من أحاديث جاءت فى هذه القضية ، وهى عند أصحاب الحديث صحيحة ، لامطعن عندهم فى سندها . .

ونحن إذ ننظر فى هذه الأحاديث نجدها معلولة بأكثر من علة :

فأولا : آية الرجم التى تُروى بأنها كانت هكذا : « الشيخة والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » .

هذه الآية — إذا صحّ أن تأخذ اسم آية — فيها أكثر من أمر يُصرّح بأنها ليست من آيات الله ، ولا من كلام الله ، ولامن كلام رسوله . . وذلك :

١ — « الشيخ والشيخة » كلمتان ثقيلتان ، قلقتان ، لاينتظم باجتماعهما نظم قرآنى . . وقد جاء فى القرآن لفظ « الشيخ » فوقع موقعه من النظم . . كما فى قوله تعالى : « وهذا بعلى شيخاً » وقوله سبحانه : « وأبونا شيخ كبير » ولم يجىء لفظ الشيخة ، لا فى القرآن ، ولا فى كلام عربىّ بليغ .

٢ — كلمة « ألبتّة » كلمة غريبة ، لم يستعملها العرب ، وإنما هى كلمة مولدة استعملها الفلاسفة والمناطقة ، وأصلها من البتّ ، وهو القطع . . وليس فى

اللغة العربية الصحيحة كلمة تلزمها همزة القطع فى « أل » التى للتعريف . . « وألبتة » لا تُنطق ابتداء أو وصلاً إلا بهمزة القطع محققة ، على ما استعمله عليها أصحابها .

٣ — كلمة « ألبتة » هذه — فوق أنها غريبة — هى أيضاً زائدة لاحاجة إليها فى تقرير الحكم أو توكيده . . وقد جاء قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . . وكان من الطبيعى أن يجىء الحكم المتمم لهذه الآية هكذا : « والشيخ والشيخة فارجموهما . . نكالا من الله . . » .

وإذن فهذه التى تسمى آيةً ، أبعد ما تكون عن نظم القرآن ، كما أنها أبعد ما تكون عن بلاغة الرسول ، وبيانه المعجز . .

وثانياً : إلى جانب هذا الذى يقال عنه إنه آية . . يروى هذا الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « خذوا عنى . . خذوا عنّى . . قد جعل الله لهن سبيلا . . البِكر بالبِكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

وهذا الحديث — إن صح — وقد صححه رجال الحديث ، يكون أشبه بالناسخ لآية « الزانية والزانى » ولآية : « الشيخ والشيخة » . . صارفاً النظر عنهما إلى الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لامعنى للقول : « خذوا عنى خذوا عنى » إلا صرف النظر عن كلّ ما جاء فى القرآن عن هذا الأمر ، والأخذ بهذا الذى يقال . . وحاش لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينطق بهذا ، وأن يتحدّى كلام الله الذى نزل عليه وبلّغه ، فقد أخذ عنه المسلمون من قبل قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة » !

وثالثاً : سورة النور كلها محكمة ، وقد نوّه الله سبحانه وتعالى بها بقوله : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيناتٍ لعلكم تذكرون » .. فهي نور من نور ، وكل مافيها بيّن جليّ ، وكلّ مافيها مفروض لا نقض فيه ..

وإذن فتغريب المجلود ، والمجلودة ، عاماً ، هو حكم زائد على مانصّ عليه الحكم الصريح البين فى الآية .. وهذا يناقض ماجاء فى مطلع السورة من أنها سورة فرضها الله وأنزل فيها آيات بينات ، واختصاصها بهذه الأوصاف ـ مع أن كل القرآن على هذه الصفة ـ مزيدُ عناية بها ، وتأكيد بأنه لايدخلها نسخ ، إن كان هناك نسخ .

وقد ذهب كثير من الأئمة والفقهاء إلى القول بأن لا تغريب مع الجلد .. ويروى عن الإمام عليّ كرم الله وجهه أنه كان يقول : « كفى بالتغريب فتنة ». وإذا كان للتغريب حكمة فى أنه يبعد المجلود أو المجلودة عن محيطهما الذى ارتكبا فيه الفاحشة ، ويباعد بينهما وبين الأعين التى ترميهما بالازدراء ، والألسنة التى تقذفهما بالسوء ـ إذا كان للتغريب هذا ، فإن فيه مايُنسى الناسَ العبرة والعظة التى يجدونها كلما طالعوا وجه المجلودَيْن ، كما أن المجلودَيْن ـ إذا بَعُدا عن موقع الجريمة ، وعن شهودها ، خف عنهم أثرها ، وزال وشيكا وقعها .. ثم إن الغربة ـ كما يقول الإمام عليّ ـ فتنة قائمة بذاتها .. !!

ورابعاً : الأحاديث التى تُروى عن عمر بن الخطاب فيها اضطراب ، وتناقض .. فما ينسب إلى عمر أنه قال : « إن ناساً يقولون : «ما الرجم فى كتاب الله وإنما فيه الجلد » .. هذا غير معقول أن يقول به عمر ، وأحداث الرجم التى وقعت بأمر رسول الله لا تزال حديثَ الناس .. والمسلمون يعلمون أن الرسول مبيّن لكتاب الله ، وأن قوله وعمله ـ فيما يتعلق بالشريعة ـ شرع .. فمحال إذن

أن يقول إنسان هذا القول ، ومحال كذلك أن يكون لعمر تعليق على قول لم يُقل . . !

ثم من جهة أخرى ، نرى فى الحديث أن عمر يقول : « لولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد فى كتاب الله لأثبتّها كما نَزَلت » .. وهذا كلام لايلتقى أوله مع آخره.. فعمر رجل قوىّ، لايأبه أبداً لقول قائل أو كلام متكلم ، فى أى أمر يتعلق بأحكام الله . . ثم كيف يخشى عمر قول الناس وكلامهم ، ولا يخشى أن يزيد فى كلام الله ، ويُثبت مالم يأمر الرسول بإثباته ؟ وكيف تظل هذه الآية غير مقروءة زمن النبىّ ، وزمن أبى بكر ، وزمن عُمر ، ثم يبدو لعمر أن يثبتها ، لولا أنه يخشى قول القائلين ؟

وأكثر من هذا ، فإن الحديث الثالث الذى رويناه آنفاً عن عمر ، يدل دلالة قاطعة على أن الرجم كان سنّة عملية ، ولولم يكن عن آية قرآنية نُسخت تلاوتها .. يقول عمر : « لانجد من الرجم بدأ » ـ وصدق فإن الرجم للزانية والزانى المحصنين ، مما فعله الرسول،وأمر به.. ثم يقول :« فإنه من حدود الله ».. وصدق ـ رضى الله عنه ـ فإن الرجم كالجلد ، كلاهما من حدود الله .. ثم يقول : « ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم رجمنا بعده » وهذا إجماع لاخلاف فيه .. ثم يقول : « ولولا أن يقول قائلون: إن عمر زاد فى كتاب الله ماليس فيه ـ لكتبت فى ناحية من المصحف » وهذا يعنى أن الذى كان يهتم به عمر ولايفعله مخافة الفتنة ـ هو أن يكتب فى جانب من المصحف ، بعيداً عن الآيات القرآنية ـ هذا الذى همّ أن يكتبه ..

وماذا همّ عمر بكتابته ولم يكتبه للاعتبارات التى رآها ؟

هذا هو نص ما أراد عمر أن يكتبه ، وأمسك عن كتابته :

« وشهد عمر بن الخطاب وابن عوف وفلان وفلان أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم رجم ، ورجمنا معه » ..

هذا ماهمّ عمر بكتابته ولم يكتبه ، هو شهادة تُلحق بالمصحف ، فى ناحية منه .. ومضمون هذه الشهادة ، هو : « أن رسول الله رجم ، ورجم المسلمون بعده » ويشهد على هذا عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ، وآخرون .

وهذا يعنى أنه لو كانت هناك آية « الرجم » هذه التى يقولون عنها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » ـ لو كان لهذه الآية وجود ـ ظاهر أو خفى ـ لكانت شهادة عمر عليها أولى من شهادته على الرجم ، ولأثبتها فى ناحية من المصحف ، وشهد هو ومن معه على أنها قرآن ، نسخت تلاوته وبقى حكمه ..

وهذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال فى هذه الأحاديث ، وفى آية الرجم هذه ، وأنه كلما نظر الإنسان فيها وجد خللا واضطرابا برىء منهما القرآن الكريم ، وتنزه عنهما كلام الله ..

فمثلا : الشيخ والشيخة إذا كانا غير محصنين فهل يرجمان ؟ والشاب والشابة إذا كانا محصنيْن فهل لايرجمان ؟ هذا ما يتسع له منطوق آية : « الشيخ والشيخة » ومفهومها !

وفى حديث يروى عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه قد ثبت لديه حكم الزنا على امرأة محصنة اسمها « سراحة » فجلدها يوم الخميس ، ثم رجمها يوم الجمعة ، وقال جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله .. وهذا دليل على أن الأصل هو « الجلد » ، وهو عام يشمل المحصن وغير المُحصن حيث جاء الحكم مطلقاً فى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » وأما الرجم فهو استثناء ، من الأصل ، وهو مما جاءت به السّنة ، فى حق

المحصنين فى الحكم العام ، وأن يُجرى عليهما حكم الآية المحكمة ، ثم يأخذهما بالاستثناء الذى جاءت به السنة .. وهو الرجم .. والله أعلم .

* * *

قوله تعالى : « الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زَانٍ أو مُشرك وحُرّم ذلك على المؤمنين » .

اختلف المفسّرون فى معنى النكاح هنا ، فذهب بعضهم إلى أن المراد به التزوج ، على اعتبار أن هذا هو المعنى الغالب على هذه الكلمة .. وذهب آخرون إلى أن معنى النكاح هنا ، الوطء ، والتقاء الرجل بالمرأة ..

وعلى المعنى الأول ، يكون معنى الآية : أن الزانى لايجوز له أن يتزوج إلا من زانية أو مشركة ، وأن الزانية ، لايجوز لها أن تتزوج إلا من زان أو مشرك .. وهذا يعنى بدوره أن الزانى والزانية ليسا مسلمَيْن ، وأن لهما أحكاماً تخالف أحكام المسلمين ، إذ لايجوز لهما أن يتزوجا من المسلمين ، وأن لهما أن يتزوجا من المشركين . وهذا مما لا يحلّ لمسلم أو مسلمة ..

والثابت شرعاً وعملا ، أن الزانية والزانى ، لم يخرجا من الإسلام بجريمتهما ، وأن إقامة الحدّ عليهما تطهير لهما من الرجس الذى وقعا فيه .. ولهذا كانت كلمة من جاءوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معترفين بذنبهم ، هى قولهم : « طهرنى يارسول الله » ! ..

ولهذا ، فإن المعنى الذى تستقيم عليه الآية هو أن يكون « النكاح » بمعنى « الوطء » ، والتقاء الرجل بالمرأة .. ويكون معنى الآية حينئذ : أن الزانى لايطأ إلا زانية ، أى لايتهيأ له الحصول على من يشاركه هذا الإثم إلا امرأة فاسدة فاسقة مثله . فهو فاسد فاسق ، لايستجيب له إلا فاسدة فاسقة ، أو « مشركة » لاتؤمن بالله ، ولا تخشى حساباً أو جزاء ، فهى لهذا مستخفة

بكل معنًى من معانى الخلق والفضيلة ، إذ لا ترجو بعثاً ، ولا تطمع فى ثواب ولا تخشى من عقاب ..

وكذلك الشأن فى الزانية .. إنها لا تدعو إليها إلا فاسداً فاسقاً ، يستجيب لها ، ويواقع المنكر معها ، أو مشركاً .. لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ..

وفى هذا تغليظ لهذا الجرم . واستخفاف بأهله .. وأنهم أهل سوء ، يجتمع بعضهم إلى بعض .. فليس فيهما صالح وفاسد .. وإنما هما كائنان فاسدان ، ينجذب بعضهما إلى بعض ، كما ينجذب الذباب إلى القَذَر والعفَن .

وفى قوله تعالى . « وحُرّم ذلك على المؤمنين » إشارة إلى أن هذا الفحش ، أو هذا المنكر ، قد حرّم على المؤمنين ، لا يأتونه أبداً .. كما حرم عليهم شرب الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أُهلّ لغير الله به .. ومع هذا فإن بعض المؤمنين يأتى هذه المحرّمات ، ولا تُنزع عنه صفة الإيمان إلا فى حال تلبّسه بالمنكر ..

وهذا ما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يختلس خَلْسةً وهو مؤمن .. يُخلع منه الإيمان كما يخلع سرباله ، فإذا رجع رجع إليه الإيمان » . أى أنه فى الحال التى يتلبس فيها بفعل هذا المنكر أو ذاك لا يكون الإيمان فى صحبته ، إذ لو كان الإيمان معه ، لكان له منه وازع يَزَعه عن مخالفة الله ، والاعتداء على حدوده .. ففى تلك الحال يُجلَى الإيمان من قلبه ، وينزع الثوب الذى يلبسه منه .. فإذا صَدَر عن هذا المنكر ، وتاب إلى الله ، ورجع إليه ، عاد إليه الإيمان ، وكان فى المؤمنين ، العاصين ..

* * *

الآيات : (٤ — ١٠)

* « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والذين يَرْمون المحصَنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جَلْدَةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئك هم الفاسقون * إلاّ الذين تابوا من ذلك وأصلحوا فإن الله غفورٌ رحيم » .

بعد أن بينت الآيتان السابقتان حكم الزانية والزانى ، وما يجرى عليهما من عقاب ، وما يكون لهما من مكان فى المجتمع الإسلامى ـ جاءت الآيات بعد هذا تبيّن شناعة هذه الجريمة ، والخطر العظيم الذى ينجم عنها ، حتى ليكاد يصيب كل من يقترب منها ، فضلاً عن أن يكون طرفاً من أطرافها . .

وهذه الجريمة لاتتم إلا بشهادة شهود أربعة ، كما بيّنا ، أو بالاعتراف أربع مرات ، أو بالحمل فى غير فراش الزوجية .

أما الاعتراف بالزنا والإقرار به ، فأمره موكول إلى من فعله ، وأقرّ به ، ليتطهر بالعقوبة ، من الرجس الذى لبسه . .

وأما الحمل فى غير فراش الزوجية ، فهو منكر يمشى بين الناس ، وفيه — مع المجاهرة بالفاحشة — اعتراف ضمنى . .

وأما الشهود الذين يشهدون على واقعة الزنا ، فهو موضوع هذه الآية ، حيث تدعو الشهودَ إلى التثبت ، والتحقق ممـا يشهدون عليه ، وألاَّ يعجلوا بالشهادة قبل التثبت والتحقق ، وألا يتلقوا مايشهدون به من أفواه الشائعات والأقاويل .. ذلك أن هذه الشهادة إذا تمت ، كان من شأنها أن تهدر دم إنسان بالرجم ، إن كان محصنا ، أو تحطّم إنسانيته وتذهب بكرامته بالجلد ، إن كان غير محصن . . إن آثارها فى كلا الحالين ، قضاء على إنسانية إنسانين ، وفضحهما وفضح من يتصل بهما من أهل وولد . . ومن هنا أقام الإسلام تلك الحراسة الشديدة على الشهادة ، وعلى الشهود معاً . . كما فصلنا ذلك من قبل !

فمن رمى محصنةً أو محصناً ، وقذفهما بهذه التهمة علناً ، كان عليه أن يأتى بأربعة شهداء ، هو واحد منهم ، أو أربعة ليس هو فيهم . . يشهدون على مارأوا بأعينهم من التقاء المرأة والرجل، التقاء محققاً ، كما يلتقى الزوج بزوجه فى فراش الزوجية . .

وقد ذُكرت المحصَنات ، ولم يذُكر المحصنون . لأن المرأة تبعتها فى هذه الجريمة ـ إذا ثبتت ـ أفدح من الرجل .. وكذلك ذُكر المحصنات ، ولم يذُكر غير المحصنات ، لهذا السبب عينه . .

فالجميع داخلون فى هذا الحكم ، نساء ورجالا ، محصنات ، وغير محصنات ، ومحصَنين وغير محصنين . .

وإنما ذُكر الإحصان ، للدلالة به على التعفف والتصوّن ، وأن الذى يَرْمى بتلك التهمة إنما يرمى عفيفاً متصوناً ، أو من شأنه أن يكون هكذا ، أو من شأن المسلمين أن يظنوا به هذا الظن ، قبلَ أن يتهموه . .

فإذا لم يأت القاذف للمحصنة أو المحصن بأربعة شهداء ، أو إذا أتى بهما ولم تتحقق التهمة من شهادتهم، لخلل فيها . . وقعوا جميعاً — أى القاذف والشهود — تحت طائلة العقاب ، واستحقوا شيئاً من العقوبة التى كان يستحقها المتهم لو أن التهمة ثبتت عليه ، وذلك بأن يُجلد كل منهم ثمانين جلدةً .. وليس هذا فحسب بل إنهم يخرجون من دائرة المسلمين العدول ، فلا تقبل لهم شهادةٌ أبدا . . وليس هذا وكفى ، بل إنهم ليُنَادَى عليهم بأنهم فاسقون .. فتلك هى صفتهم — بل هذه هى صفقتهم الخاسرة التى خرجوا بها من هذا الأمر الذى دخلوا فيه من غير تثبت ، واستيقان . .

وفى هذا كلّه دعوة للمؤمنين ألا يذيعوا الفاحشة فى المؤمنين ، وألا يتعجلوا الفضيحة للمسلمين ، وأن يستروا عليهم ما كان للستر موضع . . وليس معنى هذا ألا ينكر الناسُ المنكر ، وألا يسوقوا أهله إلى موقع العقاب ، وإنما هو الحذر والحيطة ، وعدم الطّير فرحاً ، إذا اطلع المسلم على سوء من مسلمٍ . . ! وأنه إذا أراد الكشف عن هذا السوء فليكن فى حَذَرٍ ، وفى مهلٍ ، وفى رفق ، بل وفى أسًى على هذا الذى غَرِق فى الإثم ، ووقع بين أنياب الفتنة . . !

— وفى قوله تعالى : « إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » استثناء من الحكم الذى قضى به الله تعالى على أولئك الذين يرمون المحصنات ، ولم تكن بين أيديهم الحجة القاطعة ، وقد تضمن هذا الحكم ثلاثة

أمور: جلدهم ثمانون جلدة.. وعدم قبول شهادةٍ لهم أبداً.. ثم وسمهم بهذه السمة، وهى الفسق..

وقد اختُلف فيما يقع عليه الاستثناء فى قوله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا» أهو الجلد؟ أم عدم قبـــول الشهادة؟ أم وصفهم بالفسق.؟

ولا خلاف يعتدّ به فى وقوع الجلد.. لأن التوبة، إنما تجىء بعد وقوع العقوبة، لأن التوبة لاتدفع الحدّ عمن لزمه الحدّ ووجب عليه، إذا أعلن توبته.. وإنما هى طُهرة له، مما بقى عليه من آثار فعلته، مما لم يذهب به الحدّ..

أما الخلاف فهو فى: هل التوبة ترفع عن الذين أقيم عليهم حدّ القذف، هذا الحظر الذى أقيم عليهم بعدم قبول شهادتهم؟ وهل تُزِيل عنهم وصفهم بالفسق؟..

أكثر المفسرين على أن التوبة هنا إنّما تدخل بالاستثناء على الوصف بالفسق وحده. بمعنى أن المجلودين فى هذا الحد، إذا تابوا، وأعلنوا توبتهم على الملأ وأصلحوا ما فسد منهم، رُفعت عنهم صفة الفسق.. أما الحظر الذى أقيم عليهم بعدم قبول شهادتهم فهو قائم، لاترفعه التوبة، لأنه جاء حكما مؤبداً، كما يقول سبحانه: «ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدًا»..

وذهب بعض المفسرين إلى أن التوبة تدخل بالاستثناء على الأمرين معاً: عدم قبول الشهادة، والوصف بالفسق، وأن التأبيد هو تأبيد قائم مالم تلحقه توبة.. وقالوا: إن المجلود فى الزنا، وهو أصل الجريمة، لم ينصّ على ردّ شهادته، فكيف تردّ شهادة من جُلِدَ فى الشهادة على الزنا، وتقبل شهادة من زنى..؟

والحقّ أن هذا قياس مع الفارق ـ كما يقولون ـ فالزّانى الذى جلد فى الزنا إنما ارتكب جريمة ، قامت عليه بالبيّنة ، أو بالإقرار ، أو بالحَبَل . . وفيها أن من أقرّ على نفسه ، وطلب التطهير ، هو شخص لم يقبل ضميره هذا المنكر ، وأنه طلب بنفسه إنزال العقوبة به،ومثل هذا لايمكن أن يشهد زوراً ، ومن ثمّ فهو عَدْل لاتردّ شهادته . . ومن جهة أخرى ، فإن المجلودة أو المجلود فى الزّنا ، قد غلبتهما شهوة ، وتسلط عليهما هوًى ، وأنهما بهذا قد جَنَيا على أنفسهما ، أما شاهد الزور هنا ، فهو إنما دخل إلى هذا الأمر لما غلب على طبيعته من فساد ، وليس عن حال طارئة ، أو شهوة غالبة ، ثم إنه بهذا الزور يجنى على نفسه كما يجنى على غيره . . وكذلك الشأن فى كل شهادة،هى فى أصلها مؤثرة فيمن شُهِدَ عليه . . فردّ شاهد الزور الذى ثبت عليه هذا ، ثم أقيم عليه الحدّ فيه ، هو حماية للناس من أن يجنى عليهم بشهادة الزور ، وقد جُرِّب عليه هذا ، وأنه إذا كانت شهادته قد ردّت هنا ، ولم يؤخذ بها ، فإنه إذا كان له أن يشهد بعد هذا وأن تقبل شهادته ، فقد يشهد بالزور ، وقد يُقضى بما شهد به . . وفى هذا بلاء وشر ، يقع على الناس منه . .

وعلى هذا ، فإننا نرى أن المجلود فى القذف لاتقبل شهادته أبداً . . وإن قُبلت شهادة المجلود فى الزنا . . وبهذا يكون الاستثناء فى قوله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » واقعاً على صفة الفسق ، التى تسعها رحمة الله ، وتشملها مغفرته . . لأن أمرها يتعلق بحق من حقوق الله . . أما شهادة الزور ففيها حق الناس ، الذين تُحمل عليهم هذه الشهادة .

ويؤيد هذا ماجاء فى الرسالة المشهورة المعروفة برسالة القضاء ، والمنسوبة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . وفيها : « المسلمون عُدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حدّ ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو كان ظَنِينًا فى نسب

أو ولاء » وقد جرى الفقه على هذا ، وأخذ به القضاء !

وفى قوله تعالى : « وَأَصْلَحُوا » إشارة إلى أن من تمام التوبة أن يصلح الرّامى ما أصاب برميته من جراح ، أصابت المقذوف فى شرفه وسمعته ، كما أصابت أهله برذاذ من هذا الدم الذى يقطر من جراحه . . والإصلاح يكون بأن يُعلن الرّامى على الملأ ، أنه كان مخطئاً ، أو غير متحقق مما شهد به ، أو أنه ألبس عليه الأمر ، واختلط عنده الحق بالباطل . . إلى غير ذلك مما يطيّب خاطر المتهم ، ويقطع ألسنة السوء فيه ، أو يمسكها عن التمادى فى النّيْل منه . .

قوله تعالى :

* « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إلاّ أنفسُهم فشهادة أحدهم أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين * والخامسةُ أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » .

قررت الآية السابقة حكم الذين يرمون غير أزواجهم بتهمة الزنا ، وفى هذه الآية بيان لحكم الذين تكون التهمة منهم موجهةً إلى أزواجهم . . فللعلاقة الزوجية شأن فى هذا الأمر ، غيره مع غير الزوج والزوجة . .

فإذا وضع الرجل امرأته موضع التهمة ، ورماها بهذا المنكر ، لم يكن مطالبا لإثبات هذه التهمة بإحضار أربعة شهود يشهدون على هذا الأمر ، إذ لا يَقبل رجل على نفسه أن يَعْرِض امرأته فى هذا المعرض ، وأن يفضحها تلك الفضيحة المعلنة ، على الملأ . . وإنما المطلوب منه هنا هو أن يستشهد نفسَه ، ويحتكم إلى دينه وضميره ، فيستخرج من كيانه أربعة شهود يشهدون على لسانه أربع شهادات ، وذلك بأن يشهد هو هذه الشهادة ، ويحتملها ديانةً أمام الله ، فيقول مثلا : أشهد الله أنى رأيت زوجتى هذه ، فلانة ، مع فلان ، فى حال تلبس بتلك الجريمة . .

وإنى لمن الصادقين فيما شهدت . . ويكرر هذا أربع مرات . . ثم يجىء بالخامسة بعد هذا مواجهاً بها نفسه ، فيقول : إنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين .

ولا شك أن تكرار هذه الشهادة ، وتكرار ذكر اسم الله معها فى كل مرة ، مما يتيح للرجل فرصة فى أن يراجع نفسه ، أو يرجع إلى الله إن كان أمره قائما على ظنون ، وشكوك .

وفى المرة الخامسة التى يَصُبّ فيها لعنة الله عليه إن كان كاذبا ، عملية يقف بها الإنسان على حافَة الهاوية ، ويُطلّ منها على تلك الهوة العميقة التى سيتردّى فيها إذا هو مضى إلى غايته ، ولم يكن متقيا الله فى نفسه ، وفى المرأة التى يضربها الضربة القاضية ، بهذه الكلمة تخرج من فمه . .

روى الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ فى « الرسالة » أن رجلاً لاعن زوجه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صار إلى الخامسة ، التى يُحسم فيها الأمر ، قال صلوات الله ورحمته وبركاته عليه : « قِفُوه . . فإنها موجبة » !

والواقع أن الزوج لا يسوق زوجه إلى هذا الموقف ، إلا إذا قامت بين يديه القرائن القاطعة ، والأدلة الواضحة . . ولكن كثيراً من الأزواج قد تُعميهم الغيرة ، فيخالون غير الواقع واقعاً . . ثم لا يرضَوْن إلا أن يكون انتقامهم من المرأة على تلك الصورة الفاضحة المخزية ، التى أقلّ مافيها أنها تنفى نسبة الولد إليه ، إن كانت حاملاً . .

أما المرأة التى وُضعت هذا الموضع ، ولاعنها زوجها ـ فإن أقرت بما شهد به ، أقيم عليها الحدّ ، ورُجمت . . وإن أبت أن تقرّ ، فإن عليها أن تردّ شهادته بأن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . . وذلك بأن تقول

مثلا : أشهد بالله أن فلانا زوجي كاذب فيما اتهمني به . . تـكرر ذلك أربع مرات . . ثم تقول في الخامسة : إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . .

وبهذا تدرأ عن نفسها العذاب الدنيوي ، وهو الرجم . . أما في الآخرة ، فحسابها ، وحساب زوجها على الله ، سبحانه وتعالى ، وهو الذي يعلم المحق من المبطل منهما . . إذ لاشك أن أحدهما كاذب .

ويترتب على هذا أن تطلّق المرأة من الرجل ، ولها مهرها ، من غير متعة ، وتلزمها العدّة ، ولاينتسب ولدها الذي تأتي به إلى أبيه ، بل يُنسب إلى أمه ، ولا يحلّ له زواجها أبداً .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

* « ويَدْرأ عنها العذابَ أن تشهد أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الـكاذبين * والخامسةَ أن غضبَ الله عليها إن كان من الصّادقين » .

والدرء : الدّفع ، والردّ . . والمراد بالعذاب هنا : الرجم .

قوله تعالى :

* « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » .

جواب لولا محذوف ، وتقديره : ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته بكم ، وأنه توابٌ حكيم ـ لولا هذا لعنتُّم ، ولما عرفتم هذه الحدود ، وتلك الأحكام التي بينها الله لـكم ، والتي يُحسم بها مايقع بينكم من شر وفساد ، وضياع للأنساب . .

ثم إنه تعالى : « تواب » يقبل العاصين منكم ، ويردّهم إلى حظيرة المؤمنين الصالحين ، إذا هم تابوا وأصلحوا ، وهو سبحانه : « حكيم » فيما حدّد من حدود ورصد من عقوبات ، للمعتدين على حدوده .

الآيات : (١١ — ٢٠)

* « إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُوا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) »

[حديث الإفك . . عبرة وعظة]

التفسير :

بعد أن بينت الآيات السابقة حكم الذين يرمون المحصنات ، ثم حكم الذين

يرمون أزواجهم ـ جاءت الآيات هنا تبين حكما خاصاً لواقعة خاصة ، تُرمى بها أحصن المحصنات ، أم المؤمنين ، عائشة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم . .

والقضية فى أصلها قضية واحدة ، هى رَمْى المحصنات ، واتهامهنّ بتلك التهمة الشنعاء . . وقد جاءت فى ثلاثة معارض ، الأول عاماً ، والثانى خاصاً ، والثالث أخص . .

فالمحصنات ، يدخل فى حكمهن الزوجات ، كما يدخل فيهن الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

وإنما جاء الحديث عن الزوجات فى معرض خاص — وإن شملهن حكم المحصنات — لأن العلاقة الزوجية — كما قلنا — اعتبارات خاصة ، ينبغى أن يكون لها حساب وتقدير ، غير حساب الأجنبى الذى يرمى محصنةً أو محصناً . . كذلك ، أم المؤمنين ـ عائشة ـ هى غير عامة المحصنات ، وهى غير الزوجة . . إنها الأم لكل مؤمن ومؤمنة ، فكان لابد أن يكون لأمرها هنا ذكر خاص ، وأن يتولى القرآن الكريم الكشف عن تلك الفرية التى افتريت عليها ، وأن يُمسك بأهل الإفك ، ويسجل فضيحتهم ، لتبقى عالقة بهم إلى الأبد . .

والرأى عند المفسرين ، والفقهاء ، والأصوليين ـ أن بين الحكم الخاص بقذف الزوجات ، وبين الحكم العام المتعلق بقذف المُحصنات ـ تناسخا ، وأن الآية الثانية ناسخة لعموم الحكم فى الأولى . . أى أن قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم . . الآيات » ناسخ لعموم الحكم فى قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . . »

والرأى عندنا أنه لاتناسخ بين الحكمين . . فكل من الحكمين عاملٌ

فى موضعه ، وكل من الآيات ، السابقة واللاحقة تقرر حكما لايتعارض ، ولا يتداخل مع صاحبه . .

فالآيات الأولى ، خاصة بقذف المحصنات حين يكون القاذف غيرَ زوج . . ولهذه الحالة حكم خاص بها ، وهى أن القاذف مطالب بأن يأتى بأربعة شهداء ، وإلاّ جُلد ثمانين جلدة ، ثم لاتقبل له بعد هذا شهادة أبداً . . ثم هو من الفاسقين . .

أما الآيات الأخرى ، فهى خاصة بقذف الزوج زوجَه . . والحكم فى هذا ، هو التلاعن بينهما ، وما يترتب على هذا ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل . .

والذى أدخل الشبهة على القائلين بالتناسخ بين الآيات ، هو وجود كلمة « المحصنات » هنا ، وهناك . . فافترضوا لهذا عمومية الحكم فى الآيات الأولى ، بحيث يشمل الزوجات وغيرهن ، وعدّوا إفراد الزوجات بذكر خاص فى الآيات الأخرى ، تخصيصاً لعموم الحكم . . وهو عندهم ـ أى التخصيص ـ من قبيل النسخ الوارد على الحكم العام !

وهذا غير صحيح من وجهين :

فأولا : المحصنات فى الآيات الأولى ، إنما يراد بهن العفيفات المتحصنات بعفتهن ، سواء أكنّ متزوجات أم غير متزوجات ، كما أنه يشمل ـ ضمناً ـ المحصنين من الرجال ، بهذا المعنى أيضاً ، وهو المتحصّن بالعفة ، سواء أكان متزوجاً أم غير متزوج . .

أما « المحصنات » فى الآيات الأخرى ، فالمراد بهن ـ نصاً ـ المتزوجات ، سواء أكنّ ـ فى واقع الأمر ـ عفيفات أم غير عفيفات .

وثانياً : الذين يرمون المحصنات ، أو اللائى يرمين المحصنين ، فى الآيات

الأولى حكم خاص ، لايلتقى معه الحكم الذى يقع من التلاعن بين الزوجين ، فى أى وجه من الوجوه ..

وإذن فلا تناسخ بين الآيات السابقة واللاحقة ، بالتخصيص أو غيره .. وإنما كل من السابق واللاحق من الآيات له موضعه ، وله الحكم الواقع على هذا الموضع ..

ونعود بعد هذا إلى حديث الإفك .. وقد جاء كما قلنا فى معرض خاص به ، لأنه أشنع مايقع فى هذا الباب ، من صور القذف ..

وقد جاء القرآن الكريم بالحكم أولا على هؤلاء الذين افتروا تلك الفِرية المنكرة ، وأذاعوا هذا البهتان العظيم .. فقال تعالى :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكلِّ امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولّى كِبره منهم له عذابٌ عظيم » ..

وقد تضمن هذا الحكم أمورا ، منها :

أولا : وصف هذا الحدَث الذى أثار البلبلة فى الخواطر ، والاضطراب بالنفوس — بأنه « إفك » .. والإفك هو الافتراء ، وخَلْق الأباطيل ، ونسجها من الكذب والبهتان ..

وثانياً : تصوير هذا « الإفك » الذى جرى على ألسنة المؤتفكين ، فى صورة مجسّدَة ، وأنّه شىء مجلوب جاءوا به من عالم الظلام ، وتعاملوا به ، وتبادلوه ، فيما بينهم ، كما يتبادلون النقد الزائف : « جاءوا بالإفك »

وثالثاً : وصف الجماعة التى جلبت هذا « الإفك » واستوردته من ظنونها السيئة ، وأوهامها الضالة — وصفها بأنها « عُصبة » تداعتْ على الإفك ،

واجتمعت عليه ، وأصبحت عصبة له ، لما بينها من علائق التلاحم ، والترابط ، والتوافق ، فى فساد العقيدة ، وضعف الإيمان ، والانجذاب نحو الشرّ . .

ورابعاً : أن هذه العصبة التى جاءت بالإفك — شأنها فى ذلك شأن كل عصبة — لها رأس فاسد يقودها إلى الشرّ ، ويجمعها عليه .. ومن وراء هذا الرأس ، أعضاء ، تعمل معه ، ولكل عضو مكانه ودوره الذى يقوم به .

وخامساً : هذه العصابة الآثمة التى جاءت بهذا الإفك — لها حسابها ، وجزاؤها عند الله .. أما زعيمها ، والذى تولّى كِبر أمرها ، فله عذاب عظيم ، أضعاف مايلقاه غيره من الذين معه ..

وسادساً : هذا الحديث الآثم ، وإن بدا فى ظاهره أنه شرٌّ تأذّت به النفوس الطاهرة ، وضاقت به الصدور الكريمة — فإنه يحمل فى طيّاته خيراً كثيراً ، حين ينجلى هذا الدخان ، ويتبدد هذا الضباب ، فيُسفر وجه الحق ، ويكشف عن آيةٍ من آيات الله ، فى الطّهر ، والعفّة ، والتصوّن ..

وحديث الإفك — كما يُروى — هو أن أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها ، كانت فى صحبة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى إحدى غزواته ، ويقال إنها غزوة — بنى المصطلق — وفى طريق العودة ، نزل النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابُه منزلا ، فلما آذنوا بالرّحيل ، كانت أم المؤمنين ، عائشة ، تقضى حاجة لها ، بعيداً عن هودجها الذى كانت تُحمل عليه ، وإذ كانت فى عجلة من أمرها ، فقد افتقدت عقداً لها .. فلما التمسته ولم تجده ، وهى فى طريقها إلى هودجها ، عادت تبحث عنه ، فلما وجدته ، وأسرعت لتأخذ مكانها فى رحلها ، كان القوم قد احتملوه ، وكانت صغيرة ، خفيفة اللحم ، فلم ينتبهوا إلى شىء مما حدث ، وظنوا أنها فى الرحل الذى حملوه ..

وحين وصلت إلى مكانها ، كان النبيّ وأصحابه قد بَعُدُوا عنها ، وهم على يقين من أنها فى هودجها ، على راحلتها التى يقودونها معهم ..

والذى صنعته أم المؤمنين عائشة فى تلك الحال ، هو أنها جلست فى مكانها ، تنتظر عودة من يعود إليها من القوم، بعد أن يفتقدوها فى الرحل ، فلا يجدوها ..

وكان من العادة أن يتخلّف وراء القوم من ينتدبونه ، لينظر - إذا استبان النهار - فيما خلّفوه وراءهم من أدواتهم ، وأمتعتهم ، فيلتقطها ، ويحملها معه إلى أصحابها .. وذلك أنهم كانوا يرتحلون ليلا ، فتندّ عنهم بعض الأشياء التى يحجبها الظلام عنهم ..

وقد كان « صفوان بن المعطل » - رضوان الله عليه - هو المنتدب لهذه المهمّة .. فلما استبان ضوء النهار ، وجاء حيث كان منزل الرسول وأصحابه فى تلك الليلة ، رأى سواداً ، لم يتبيّنه أول الأمر ، وظنّه متاعاً من أمتعة القوم ، فلما داناه رأى كائناً يتحرك فى داخله - وكان الحجاب قد ضُرب على نساء النبيّ - فلم يرَ لأم المؤمنين، وجهاً ، ولكنه عرف أنها أم المؤمنين، فاسترجع ، ثم أناخ لها بعيره ، فركبته ، وقاده بها حتى أدرك النبيّ وأصحابَه فى بعض الطريق .. دون أن ينطق بكلمة .

هذا هو مجمل القصة ..

ولكن المنافقين — وعلى رأسهم عبد الله بن أبىّ بن سلول — أخذوا يتهامسون ويتغامزون ، ثم تحول همسهم وتغامزهم إلى اتهام صريح لأم المؤمنين، على هذا الصحابى الجليل ، صفوان بن المعطل .! ثم أخذ هذا الحديث يدور فى المدينة ، والمنافق عبد الله بن أبىّ ينفخ فيه ، حتى أصبح ناراً مشتعلة ، علقت بأذيال المسلمين ، وأكلت كثيراً من القلوب المؤمنة .. كما أنها أكلت ما بقى من إيمانٍ فى قلوب المنافقين والذين فى قلوبهم مرض !

وقد بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قالة المنافقين ؛ وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ ..واستأذن بعضُ الصحابة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى قتل هذا المنافق ، وقتل من كان على شاكلته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى عليهم ذلك ، وفوّض أمره إلى الله ، فى هذا المنافق ومن معه ..

أما أم المؤمنين ، فإنها كانت فى غفلة عن هذا الذى يتحدّث به المنافقون فى شأنها ، وكانت فى تلك الأيام متوعكة ، تلازم فراشها — وربما كان ذلك لما أصابها من مشقة السفر .. وقد استشعرت بطبيعة الأنثى إعراضاً من النبيّ صلى الله عليه وسلم عنها ، إلا أنها لم تعرف لذلك سبباً . .

كل هذا ، والحديث يدور حولها ، والعاصفة تزمجر عن يمينها وشمالها ، وهى الغافلة عن كل هذا ، غفلةَ أهل البراءة ، المشغولة بدينها عن دنياها ، شُغْلَ المؤمنين بالسماء ، عما يُشغَلُ به الناسُ فى الأرض ..

وفى ليلة .. خرجت أم المؤمنين ، مع قريبة لها ، هى أم مسطح ، لقضاء حاجة فى الخلاء .. وكان أن عثرت أم مسطح أو تعمدت العثار ، لتنطق بتلك الكلمة التى تريد أن تلقى بها إلى أسماع أم المؤمنين ، ولتتخذ منها مدخلا إلى الحديث الذى تريد أن تفضى به إليها ، وهى فى غفلة عنه — فقالت أم مسطح حين عثرت أو تعاثرت : « تعس مسطح » تريد ابنها مسطحاً ! فقالت أم المؤمنين بئس ما قلت يا أم مسطح فى رجل شهد بدراً ! فقالت أم مسطح :لا ، وتعساً له !! أما سمعت ما يقول مسطح ؟ فقالت وما يقول ؟.. فأخبرتها مايدور على الألسنة من حديث الإفك ، ومن التهمة الظالمة التى يرميها بها المنافقون ، ويتلقاها عنهم كثير من الثرثارين .. ومنهم مسطح ! !

وهنا تنبهت أم المؤمنين إلى ما كانت غافلة عنه ، واسترجعت موقف النبيّ منها ، وعرفت سبب إعراضه عنها ، وأنه لم يكن لذلك من سبب إلا هذا الحديث ،

وأن النبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — قد وقع منه هذا الحديث موقعاً . . فكربت لهذا واضطربت ، ورجعت إلى البيت محمومة يكاد يقتلها الأسى ، ويفرى كبدها الألم ! ثم استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمرّض عند أبويها .. فأذن لها !! .. وكان ذلك مما ضاعف فى بلوتها ، لأنها ما استأذنت إلا لترى ما عند النبيّ لها .. فلما أذن لها عرفت ما هناك !

ثم كان حديث عاصف ثائر ، كادت تزلزل به أركان هذا البيت الكريم ، بيت الصدّيق رضى الله عنه ..

ولا نحسب أن أمراً عرض لأبى بكر ، منذ صحب الرسول إلى هذا اليوم ، كان أشدّ وقعاً عليه ، وابتلاءً لصبره ، وإيمانه ، وإيثاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم — من هذا الأمر ، الذى هيأ نفسه فيه لتقديم ابنته ، وشرفه ، على مذبح التضحية والفداء ، فى سبيل الله ، ومن أجل رسول الله ..

إنه — رضوان الله عليه — لم ينظر إلى نفسه ، ولا إلى ابنته ، وإنما نظر إلى رسول الله ، وما أصابه فى نفسه من هذا الأمر .. وإنه ليودّ مخلصاً أن لو نزل طير من السماء ، فاختطف ابنته ، أو انشقت الأرض فابتلعتها ، إذ كانت - فى نظره يومئذ - هى الشوكة التى شاك بها المشركون والمنافقون رسولَ الله .. وإنه لا شىء أبغض إلى الصديق - رضوان الله عليه - من شىء يجىء إلى رسول الله منه ما يسوؤه ، ولو كانت نفسه التى بين جنبيه ، أو كانت فِلذة كبده .. عائشة ، رضوان الله عليها !

إن الصدّيق - رضوان الله عليه - لم يكن ينظر إلى تلك الفرية إلا من حيث ما أصاب الرسولَ منها من أذى . .

وسواء أصحت عنده تلك التهمة أو لم تصح . . فإنها آذت النبيّ .. والصدّيق لا يهمه فى الدنيا شىء ، إلا أن يرى النبيّ معافًى من كل ضرّ ، بعيداً عن كل

أذى .. أما ما وراء ذلك ـ وإن عظم ـ فهو هينّ ، يمكن أن تتحمله النفس وتصبر عليه ..

ومن هنـــا ندرك ، ما كان يعالجه الصدِّيق من هموم ، وما يعانيه من آلام ! . .

فهو ـ كمؤمن من المؤمنين ، وأكثرهم حملا لأعباء الإسلام ـ قد أخذ بنصيبه الأوفى من تلك التهمة ..

ثم هو كأكثر المؤمنين حبًّا لرسول الله ، وتعلقاً به، وإيثاراً له .. قد ذهب بالنصيب الأوفر منها ..

ثم هو كأبٍ لأم المؤمنين ، وكسيد من سادات القوم ، يحرص على شرفه ـ قد أخذ نصيبه كاملا منها ..

ومع هذا كله ، ومع تلك الأعباء الثقال التى حملها ـ فإنه ـ رضوان الله عليه لم يُرِ النبىّ إلا ما يحبّ ، ولم يُسْمعه إلا ما يُرضيه .. وإنه لو استطاع أن يحمل عن النبىّ ما حل من هذا الأمر لفعل .. ولـكنه كان أبدا مع قوله تعالى : « فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون » ..

ومن هنا أيضاً ندرك بعض السرّ فى أن كان من تدبير الله سبحانه وتعالى، ومن فضله العظيم على أبى بكر وإحسانه العميم إليه .. أن تتنزل رحمات الله على هذا البيت الـكريم ، الذى تعرض لهذه العاصفة الهوجاء المجنونة ، وأن يطلع منه هذا النور السماوىّ الوهاج ، الذى يفضح دعاة الإفك ، ويُخزيهم ، ويَسِمُهم بسمات الذلة ، ويقيمهم فى قفص الاتهام إلى يوم الدين ، حيث يَنظُر إليهم نظرة اتهام ، كلُّ قارىء لـكتاب الله ، مرتل لتلك الآيات المبينات ، التى نزل بها الروح الأمين على الرسول الـكريم ، فى بيت الصدِّيق ، وعلى مشهد

منه ، ومن أهله جميعاً ..

فنى زَوْرة للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لآل أبى بكر ، وهم فى هذه المحنة القاسية، وفى أثناء حديث مرير ، حَرِجٍ ، مزعج ، بين رسول الله ، وبين أم المؤمنين ـ تهبُّ على هذا الجمع الكريم ريح طَيبة ، كأطيب مايكون الطيب، ويَخلُص إلى نفوس الجمع منها ، أنفاس عطرة ، تُشيع السكينة ، والأمن، والرضا، فيجد لها كل من ضمه هذا المجلس الطيّب فى رحاب هذا البيت الكريم ـ نغماً علوياً ، يصدح بألحان مسعدة ، تُزَفّ بين يديها آيات الله محمولة على أجنحة نورانية ، ترف حول رسول الله ، وتوشك أن تشتمل عليه . .

ويمسك القوم عن الحديث بعد أن اتصل رسول السماء بالنبىّ ، وتسكن الجوارح ، وتُبهَر الأنفاس ، وتتعاق الأبصار برسول الله ، وما غشيه من هذا النور المتدفق من السماء ..

ويأخذ الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مايأخذه من الوحى ، والقلوب واجفة ، والأبصار زائغة . والنفوس قلقة . . لايدرى أحَدٌ ماجاءت به السماء ، وما يكون لها من حديث عن هذا الحدث الصاعق ! وإن كانت السيدة عائشة على إيمان وثيق بربّها ، وعلى ثقة مطلقة بطهرها ، وبراءتها — فإنها ما كانت تتوقع — كما كانت تحدث عن نفسها فيما بعد — أن ينزل فى شأنها قرآن ، وأن تتنزل من السماء آيات تزكّيها ، وتدمغ الباغين عليها ! .

فلما انفصل الوحى عن رسول الله ، وسُرِّىَ عنه ـ نطق وجهه الكريم بشراً ، ونوراً ، قبل أن ينطق لسانه بما نزل على قلبه من كلمات ربه . . وعرفت السيدة عائشة ، ومن معها أن قرآنا قد نزل ببراءتها . . وما هى إلا لحظة — مرت كأنها دهر — حتى أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة قائلا : « أبشرى ياعائشة . أما الله عز وجل فقد برّأك »!! فقالت : بِحمدالله لابحمدك!

فقالت لها أمها : قومى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقالت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل الذى أنزل براءتى » ! ! إنها ثورة الحرة على شرفها ، وعلى شرف النبىّ الذى شَرُفت بزواجها منه ، وعلى شرف بيت النبوّة الذى ضُمّتْ إليه ، وعلى شرف بيت الصديق الذى نبتت منه ! ! .

وتهدأ العاصفة ، وتخمد نار الفتنة ، ويخرج أبو بكر وآله من هذه المحنة بأعظم مغنم ، لم يكن لأحد من المؤمنين أن يشاركه فيه .. فقد نزل الوحى فى بيت أبى بكر ، بستّ عشرةَ آية من القرآن الكريم ، هى فى شأن أبى بكر ، وبنت أبى بكر !

لقد كان المسلمون يتعبدون فيما يتعبدون به من آيات القرآن الكريم ، بقوله تعالى : « إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروْها ، وجعل كلمة الذين كفروا السُّفلى ، وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » (٤٠ : التوبة) — وإنهم منذ الآن ليتعبدون إلى آخر هذه الحياة الدنيا ، بتلك الآيات الست عشرة أيضاً .. وكأنّ ذلك استغفار متصل من المؤمنين جميعاً لأبى بكر ، وبنت أبى بكر ، من هذا المنكر الذى جاءت به عُصْبة من المؤمنين ! .

وانظر إلى تدبير الله سبحانه ، وإلى غيوث رحمته ، وسوابغ فضله على المخلصين من عباده ..

لقد كانت هجرةُ النبىّ ، وإخراجه من بلده ، والمسجد الحرام ، غايةَ ما وصل إليه المشركون من إيذاءٍ للنبىّ ، فى مشاعره .

وكان « الغار » على طريق الهجرة ، الغايةَ القصوى لما كان يمكن أن

يبلغه المشركون من النبيّ وصاحبه الصديق ، لو أنهم ظفروا بهما ، وقد كانوا على بضع خطوات منهما ! !

وإنه ليس لهذه الآلام النفسية القاسية من شفاء إلا فى آيات الله ، التى يقول سبحانه وتعالى فيها : « ونُنَزِّل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » . . (٨٢ الإسراء) وقد نزل مافيه الشفاء والرحمة : « إلاّ تنصروه فقد نصره الله ... » فأخذ أبو بكر نصيبه من هذا من الشفاء والرحمة .

وفى حديث الإفك ، كان المنافقون ومرضى القلوب من المسلمين، يمثلون دورَ المشركين فى مكة . . لقد آذوا النبيّ فى مشاعره ، وفى الدعوة التى يقوم عليها ، إذ أن هذا الحديث لو جرى إلى غايته ، ولم تعالجه السماء بهــذا الدواء الربانى ، لكان معولاً يهدم فى صرح الإسلام ، الذى لم يتم بناؤه بعد ، ولكان فى يد الذين يكيدون لهذا الدين حجة قوية عليه ، فى عدوان أصحاب النبيّ على حرماته ومقدساته ، لايخافون عقاب الله ، ولا يوقّرون الذى يدعوهم إلى الله . . ولكان لقائل أن يقول: إن أصحاب محمد هؤلاء ، لو وجدوا فى هذا الدين ، أو فى الداعية إلى هذا الدين مايبعث فى قلوبهم خشية ، أو توقيراً لَمَا جَرُؤَ أحدهم على فعل هذا الذى يجرى به هذا الحديث الأثيم !

نعم .. لقد كان النبيّ ، ومعه صاحبه أبو بكر ، ومعه المؤمنون الصادقون ، يجدون من وقع ألسنة الذين جاءوا بهذا الإفك ، ما كانوا يجدونه وهم فى مكة على يد المشركين ، وما يرمونهم به من ضرٍّ وأذًى . .

وكان فراق النبيّ للسيدة عائشة ، وقبول انتقالها إلى بيت أبويها لتُمرّض هناك وتستشفى مما ألمّ بها ، أشبه بفراقه — صلوات الله وسلامه عليه — لبلده ، وأهله ، إلى حيث يطلب السلامة والعافية ، فى مهاجره الذى هاجر إليه .

ثم كان بيت الصديق ، الذى أوت إليه أم المؤمنين أشبه « بالغار » . . حيث كثر الطلب للحديث عنها ، وعلت الأصوات الخافتة للقالة فيها ، بعد أن خرجت من بيت النبىّ ، إلى بيت أبويهـا . .

ثم لم يكن لهذا البلاء العظيم إلا ماينزل من رحمة السماء ، حتى يَرُدّ للنفوس الطاهرة اعتبارها ، ويأخذ لهـا بحقها ، ويجزيها الجزاء العظيم على صبرها واحتمالها . . فنزلت تلك الآيات الست عشرة ، التى رفعت قدراً رفعه الله وأراد المنافقون ومن فى قلوبهم مرض أن ينالوا منه . فـكان أن زاده الله رفعة إلى رفعة ، وشرفاً إلى شرف ، وذكراً باقياً خالداً على الدهر . . وهذا مايشير اليه قوله تعالى :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منـكم لاتحسبوه شراً لـكم ، بل هو خير لـكم » . . وأى خير أعظم من هذا الخير ؟ وأى شىء فى الدنيا كلهـا يَعْدِله ، أو يعدل بعضاً منه ؟

* * *

قوله تعالى :

* « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » . .

لولا : حرف تحضيض ، بمعنى هلاّ .. فهو استفهام يراد به الحثّ على إتيان الأمر المستفهم عنه . .

والمعنى : لقد كان من الخير لـكم أيها المؤمنون وأيتها المؤمنات ، إذ سمعتم هذا المنكر ـ أن تنكروه ، وتردوه على أهله الذين جاءوا به .. حيث أن التى تُرمَى به ، امرأة مؤمنة منـكم ، بل هى أم المؤمنين ، وزوج الرسول الـكريم .. وكل صفة من تلك الصفات هى وحدها أمان لها من الزلل والعِثار ، ووازع قوى يزَعها عن الاعتداء على حدود الله ، فـكيف إذا اجتمعت لها هذه الصفات جميعهـا ؟ . .

وفى قوله تعالى : « ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » أمور .. منها :

أولا : الإشارة إلى تلك الرابطة القوية الوثيقة ، التى تربط المؤمنين جميعاً بعضهم ببعض ، بحيث يكون مايعرض لأحدهم من عارض يمسّه ، فى نفسه ، أو دينه ، أو مقامه فى مجتمعه ـ هو مصابٌ يصاب به المجتمع المؤمن كلّه .. فالمؤمنون كما وصفهم القرآن الكريم « إخوة » كما يقول سبحانه : « إنما المؤمنون إخوة » .. ثم هم كما وصفهم الرسول الكريم « جَسد » بحكم هذا الرباط الأخوى الذى يربطهم ، ويشد بعضهم إلى بعض .. يقول الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

وثانياً : الإشارة إلى أن المؤمن حقًّا ، إنما ينظر إلى المؤمنين من خلال نفسه، فإذا كان على السلامة فى دينه ، والاستقامة فى طريقه ، رأى المؤمنين جميعاً مثله، على تلك الصفة .. وهذا من شأنه أن يُلفت المؤمن إلى نفسه أولا .. فإذا سمع عن مؤمن ماينُقِص من إيمانه ، أو مايشير إلى انحرافٍ فى سلوكه ـ ثم استقبل هذا الذى سمعه ، ولم يَضِقْ صدرُه به ، ولم تألم نفسه له ـ كان عليه أن يتهم إيمانه أولا ، لأنّه قَبِل أن يدخَل عليه هذا المنكر ، الذى دخل على المؤمنين جميعاً ، وأضيف إليهم، بحكم الوحدة القائمة بينهم .. ثم إذا هو هشّ لهذا الذى سمعه، أو طار به فرحاً ـ فليعلم أنه ليس من الإيمان إلا على حَرفٍ ، وأنه مُوشك أن ينفصل عن الإيمان ، ويقطع صلته بالمؤمنين .. ثم إذاهو لم يقف عند الحدّ ، وأطلق لسانه بهذا المنكر الذى سمعه ، وعمل على إذاعته ، ونشره فى الناس ـ فليعلم أنه ـ مادام على تلك الحال ـ فهو ليس من الإيمان فى شىء ، وأنه قائم على منكر ، لايجتمع هو والإيمان ، فى كيان إنسان .

وثالثاً : الإشارة إلى أن المؤمن من شأنه أن يكون مبرّأ من التهم ، بعيداً

عن مواطن الشبهات .. وأنه أبدا على هذه البراءة حتى تثبت إدانته .. أما قبل هذا، فإن كلّ كلمة سوء تقال فيه ، هى إثم كبير ، وبهتان عظيم.. يستحق قائل السوء فيه أن يساق إلى موقف الاتهام ، وأن يطالب بالدليل القاطع على صدق مايقول ، وإلا فالحدُّ فى ظهره.. تأديباً له ، وقصاصاً لحرمة هذا المؤمن ، أو المؤمنة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « والحرمات قصاص » (١٩٤ : البقرة) ..

قوله تعالى :

* « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .

« لولا » هنا للتعجيز ، وليست للتحضيض .. إذ لم يكن من الممكن الإتيان بأربعة شهداء ، يشهدون على هذا المنكر ، لأنه إن أمكن اصطياد أربعة ممن يشهدون عليه زوراً ، فإن الزور سينفضح ، حيث ستختلف أقوالهم ، وتضطرب ألوان الصورة التى يصورون بها الواقعة المزورة ، لأن كلا منهم يصورها حسب ما تمليه عليه أوهامه وخيالاته ، وهيهات أن يلتقى وهم مع وهم ، أو يجتمع خيال إلى خيال ، وإن أحكموا فيما بينهم تدبير الأمر ، وعملوا على سد الخلل فيه ! !

وفى قوله تعالى : « فإذ لم يأتوا بالشهداء » ـ إشارة إلى أنهم لم يأتوا بهم ، لأن هذا الأمر لم يشهده أحد . فقد كانت أم المؤمنين ، وكان معها صفوان ابن المعطّل .. ولم يكن أحد غيرها ، وذلك على ما رأى المسلمون وغير المسلمين جميعاً . فأى شاهد يمكن أن يجىء ويقول : إنه شهد شيئاً كان بين أم المؤمنين وصفوان ؟ .

وهذا هو السر فى التعبير بالظرف « إذ » بدلا من أداة الظرف الشرطية « إذا » أو « إن » كما يبدو من ظاهر النظم ..

وفى هذا ما يجعل هذا الخبر واقعاً محققاً ، وهو قوله تعالى : « فأولئك عند الله هم الكاذبون » .أى أن هؤلاء الذين جاءوا بهذا الإفك ، مَوْسُومون عند الله بالكذب .

وقوله تعالى : « فإذ لم يأتوا بالشهداء » .. هو ظرف تقع فى حيّزه الجملة الخبرية .. وتقدير النظم هكذا : هاتوا أربعة شهداء .. وإنه لا شهداء معكم ، وإذن فأنتم عند الله الكاذبون ، إذ أنكم لم تستطيعوا أن تجدوا من يشهد على افترائكم وبهتانكم .

وفى قوله تعالى : « فأولئك عند الله هم الكاذبون » إشارة إلى أن هؤلاء الذين جاءوا بالإفك ، ليسوا كاذبين عند الناس ، وحسب ، بل إنهم فى حقيقة الأمر كاذبون فعلا .. وهذا ما سجله الله عليهم ، ووصفهم به . فقد يكون الإنسان فى نظر الناس كاذبا فى حديث تحدث به ، أو شهادة شهد بها ، وهو فى واقع الأمر صادق .. وإن لم تقم قرائن للناس تشهد بصدقه .. أما هؤلاء الذين جاءوا بهذا الإفك ، فهم كاذبون كذبا لا شك فيه ، لأنهم هكذا عند الله .. وهم هكذا فيما ظهر للناس منهم ، حين لم يكن معهم شاهد على بهتانهم ..

قوله تعالى :

* « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » .

أفاض فى الأمر : أى بالغ فيه ، وأكثر منه . وأفاض فى الحديث : توسّع فيه ، وجاوز الحد ..

والخطاب موجه إلى المؤمنين جميعاً ، وأنهم يحملون شيئاً من وِزر هذا الحديث الآثم ، الذى تردد فى آفاقهم ، وأن الذين لم يشاركوا فيه ، ولم يستمعوا له ، قد مسّهم شىء من ريحه الخبيثة .. فهؤلاء الآثمون الذين افتروا هذا البهتان العظيم ، هم بعض هذا المجتمع الكبير .. وأنه لو وقع بهم بلاء الله ، لأصاب رذاذه من لا ذنب لهم من المؤمنين .

ولكن فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين ، وإحسانَه إليهم ، قد اتسع لهؤلاء المذنبين ، فشملهم .. وبدلا من أن يقع البلاء بالمذنبين ، ويتسرب إلى غيرهم من المؤمنين ، أراد الله للمؤمنين الحسنَى ، فجعل إحسانه إلى المؤمنين ، وقايةً من إساءة المسيئين ، ثم جعل من هذا الإحسان شيئا ينال الآثمين ، فلم يعجّل لهم العذاب فى الدنيا ، بل مدَّ لهم فى هذه الحياة ، ليجدوا فرصتَهم فى التوبة إلى الله ، وقد تاب كثير منهم ، وقبلت توبتهم ، وحسن إيمانهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة » ..

قوله تعالى :

* « إذ تَلَقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيم » .

تلقونه بألسنتكم : أى يُلقيه بعضكم إلى بعض ، وتتداوله الألسنة ، كما تتداول الأيدى الأشياء فيما بينها !

وهذا يعنى ، أن حديث الإفك الذى تداوله المتداولون بينهم ، لم يكن إلا بضاعة رخيصة من لغو الكلام ، الذى تتحرك به الألسنة وحدها ، دون

أن يكون له دافع من عقل أو رأى . . إنه حركة آلية ، لا يشترك فيها من كيان الإنسان إلاّ اللسان .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » ـ أى أن هذا الحديث المدار بينكم فى هذا الأمر ، هو حديثُ ألسنة ، لا تنطق عن علم ، ولا تأخذ عن عقل ، أو منطق .. إنه حديث لسان يأخذ عن لسان ، حتى دون أن يمر على الأذن ! « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم » .

وإنه لإعجاز من إعجاز القرآن الكريم هذا التصوير المعجز لشائعات السوء ، حين تجد من الناس آذانا مصغية إليها ، ونفوساً مستجيبة لها . . إنها حينئذ تنطلق فى سُعار وجنون ، بحيث لا تدع للناس فسحة من الوقت يتلقونها بآذانهم ، ثم يُديرونها فى عقولهم ومشاعرهم ، ليكون لهم خيار فى قبولها أو ردها ، بل إنه يُلْقَى بها على ألسنتهم خلقاً مصنوعاً ، مجهزاً للتعامل به على صورته تلك . . إنها كلمات مَرَدّ الحكم فيها إلى الألسنة . . فلتذقها الألسنة إذن ، ولتحكم عليها بما تذوق منها . . وإن كثيراً من الناس ، ليقفون بالكلام على حدود ألسنتهم ، ويفوّضون لها الأمر فيما تقبل منه أو ترفض . . وإن لكلمات السوء لحلاوة على ألسنة أهل السوء والفساد ، يترشفونها كما يترشفون الماء البارد على ظمأ ، فى يوم قائظ ! .

وفى قوله تعالى « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » تحذير لهؤلاء الذين يستخفّون بالكلمة ، وينفقون من رصيد ألسنتهم بغير حساب . . ظانين أن ذلك لا يضيرهم فى شىء أبداً ، ما دام الذى ينفقون لا يكلّفهم جهداً أو مالا . .

وهذا ظن خاطىء.. فالكلمة ليست مجرد صوت ينطلق من فمٍ ، وإنما هي ـ في حقيقتها ـ رسالة من الرسالات إلى عقول الناس ، قد تكون طيبة ، فتحمل إليهم الخير والهدى ، وقد تكون خبيثة ، فتسوق إليهم البلاء والهلاك . . وقد ضرب الله مثلا للكلمة الطيبة فقال سبحانه : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » .. وكذلك ضرب الله مثلا للكلمة الخبيثة ، فقال سبحانه : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » (٢٤ ـ ٢٦ : إبراهيم) . .

فالكلمة في حساب المبطلين والمفسدين ، وأصحاب النفوس المريضة ، والعقول الفارغة ـ شيء رخيص، لا وزن له ، ولا ثمن للقليل أو الكثير منه . .

وهي عند أهل الرأي والعقل ، والحكمة ، والإيمان .. شيء عظيم ، هي آية الله في الإنسان .. بها كان إنساناً ، وكان خليفة الله في الأرض . . وبالكلمة خَلَق الله السموات والأرض ، وما فيهن ومن فيهن .. وبالكلمة صاغ الإنسانُ هذه المصنوعات التي ملأ بها وجه الأرض . فلولا الكلمة ما ولدت الأفكار ، ولولا الأفكار ما ظهر للإنسان عمل أكثر من عمل الحيوان على الأرض . .

وهذا الحديث الآثم ، الذي انطلق في آفاق المدينة ، وتداولته بعض الألسنة في غير تحرج أو تأثم ، هو أخبث ما تنطق به الأفواه من كَلِم ، إذ كان زوراً وبهتاناً ، وافتراء على الحق في أرفع منازله ، وعدوانا على الطهر في أشرف مواطنه . .

قوله تعالى :

* « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . . سبحانك هذا بهتان عظيم » . .

هو بيان من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين خاضوا فى هذا الحديث ، أو استمعوا له ، أو سكتوا عنه ، وتوجيه لهم إلى الموقف الذى كان ينبغى أن يقفوه من هذه الفتنة ، وتلقين لهم بالكلمة التى كان يجب أن يلقوا بها هذا البهتان العظيم . .

فليس للمؤمن إلا موقف واحد من هذا الحديث ، وهو إنكاره ، وبَهْتُ المتحدثين به ، ووضعهم موضع التهمة بالكذب والافتراء . .

وفى قوله تعالى : « إذ سمعتموه » ـ إشارة إلى أن الأمر لم يكن إلا حديثاً يُدار على الألسنة ، ويلقى به على الأسماع ، وأنه لم يكن عن رؤية ومشاهدة . .

وفى قوله تعالى : « ما يكون لنا أن نتكلم بهذا » إشارة أخرى إلى أن هذا الحديث الآثم ، لا ينبغى لمؤمن أن ينطق به ، لأنه عدوان على النبىّ ، وجَرح غائر لمشاعره ، وإيذاء شديد له . . وليس مؤمن ذلك الإنسان الذى يسوق إلى النبى شيئاً يسوءه ، أو يخدش مشاعره . . والله سبحانه وتعالى يقول : « والذين يُؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » (٦١ : التوبة) .

. فلو فُرض وكان هذا الأمر على شىء من الحقيقة ـ فإن الإيمان بالله ورسوله يقتضى المؤمن أن يدفع هذا السوء الذى يعرض للنبى ، وأن يتلقاه دونه ، ويحمله عنه .. إن وجد إلى ذلك سبيلا . .

أما أن يكون حَطَباً يزيد النار اشتعالا ، فذلك هو الذى لا يجتمع معه إيمان ، ولا يبقى معه دين . . لأن الإيمان ولاء ، وحب وتقديس ، والدين عبادة وصلاة وتسبيح . .

قوله تعالى :

* « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين » .

هو دعوة كريمة من رب كريم ، إلى المؤمنين ، ألاّ يعودوا إلى مثل هذا الأمر ، وألا يخوضوا فى أعراض المسلمينّ ، وألا يجعلوا لكلمة السوء مكاناً فى قلوبهم ، أو موضعاً على ألسنتهم ، أما هذا الحدث الذى حدث ، فالله سبحانه وتعالى ، قد عاد بفضله على الذين عضهم الندم ، وجاءوا إلى الله تائبين مستغفرين . .

فالخطاب هنا موجه إلى كل من كان له مشاركةٌ فى هذا الأمر ، من قريب أو بعيد .

وفى قوله تعالى « يعظكم الله » ـ إشارة إلى أن الذين اشتركوا فى هذا الحديث لم يَهْلِكوا بعد ، وأنهم مدعوون إلى أن يستمعوا إلى ما يوعظون به ، فإن قبلوا الموعظة وعملوا بها نجوْا ، وإلا فهم فى الهالكين .

وفى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » إشارة إلى أن الذين تُوجّه إليهم هذه العظة إنما هم الذين يحرصون على الإيمان ، ويدفعون عن أنفسهم كل ما يشين إيمانَهم ، أو ينُقصه .

قوله تعالى :

* « ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

هو إشارة إلى أن ما وعظ به المؤمنون فى الآيات السابقة ، هو ما اقتضته رحمة الله بالمؤمنين ، ببيان الشبهات التى تعرض لهم ، وبألا يؤخذوا بالعقاب قبل أن يُبلّغوا البلاغ المبين ، الذى لا شبهة فيه . . وفى هذا يقول سبحانه : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (١١٥ : التوبة) . . وذلك عن علم العليم ، الذى يعلم من عباده مالم يعلموا ، ومن حكمة الحكيم ، الذى كشف بالعلم طريق الهدى لعباده ، ليكونوا بهذا العلم أهلَ حكمة وبصيرة .

قوله تعالى :

* « إن الذين يُحبون أن تَشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

هو تعقيب على هذا الحدَث العظيم ، بالتنبيه إلى أن الذين يحبون أن تفشوَ الفاحشة ، وتشيع الفتنة فى مجتمع المؤمنين ـ هؤلاء لهم عذاب أليم فى الدنيا ، وذلك بأن يؤخذوا بما رُصد من عقاب لأولئك الذين يرمون المؤمنين بغير ما اكتسبوا . . ثم إن لهم عذابا أشد وأنكى من هذا العذاب ، فى الآخرة .

وإشاعة الفاحشة فى المجتمع من يكون أكثر من وجه .

— بالإقدام على الفاحشة ، والتعامل بها . .

— أو بالمبالغة بإتيان الفاحشة من مرتكبها ، أو التحدث بها إلى الناس ، وإفشاء ما ستر الله منه . .

— أو بإذاعة الأحاديث عن الفاحشة ، سواء أكان ذلك فى أهل الفاحشة أم فى غيرهم .

— أو بالإصغاء إلى حديث الإثم ، وترك المتحدثين به ، يثرثرون ، دون أن يردعهم رادع ، أو يمسك ألسنتهم أحد . .

فهذه الوجوه ، وما يدخل مداخلها ، كلها مما تشيع به الفاحشة فى المجتمع ، قولا ، وفعلا . . وأنها إذا لم تؤخذ عليها السبل ، من أول الأمر ، استشرى شرها ، وعظُم خطرها ، واتسعت دائرتها ، حتى ليصبح المجتمع كله واقعاً فى قبضتها . . إنها أشبه بالنار ، تكون أول الأمر شرارة ، فإذا هى لم تعالج فى الحال ، اندلعت ألسنتها ، وعلا لهيبها ، وصارت حريقا عظيما ، لا يقف له شىء ، ولا يدفعه شىء ، فتقع الجماعة كلها تحت الخطر الذى ترْمِى به . .

وفى قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تحذيرٌ للذين يستمعون لمقالة السوء ، ويعطون آذانهم لمن يلقون إليهم بها .. فأكثر هذه المقولات كذب ، وبهتان ، ورجم بالغيب ، ورمى بالظنون .. وأكثر ما يدفع المتقولين إلى ركوب هذا المركب الآثم ، هو ادعاؤهم العلم بخفايا الأمور ، وأنهم يعلمون ما لا يعلم الناس .. وهذا ليس من العلم فى شىء حتى وإن كان صدقاً ، فما هو إلا قشور من قشور العلم ، أما العلم الحق ، فهو ما يعلمه الله : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ..

قوله تعالى :

* « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم »

لولا : حرف امتناع لوجود .. أى امتناع تحقيق جوابها ، لوجود شرطها.. ولولا هذا الشرط لتحقق الجواب ووقع ..

وجواب الشرط هنا محذوف ، وتقديره ،ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأنه رءوف رحيم بكم ، لأخذكم بعذابه على هذا الأمر العظيم الذى وقعتم فيه ، وخاض فيه الخائضون منكم ..

الآيات : (٢١ — ٢٦)

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ

وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكنّ الله يزكّى من يشاء والله سميع عليم » ..

هذه الآية وما بعدها إلى الآية (٢٦) — هى مما يتصل بحديث الإفك، ويدور حوله، ليطفىء النار المشتعلة منه، ويذهب بدخانها الذى انعقد فى سماء المجتمع الإسلامى كلّه ..

والآية هنا تنهى المؤمنين عن أن يتبعوا خطوات الشيطان، وأن يستجيبوا له فيما يدعوهم إليه، فإن دعوته لا تكون إلا إلى شر وبلاء .. « إنه يأمر بالفحشاء والمنكر »

وإن مما يدعو إليه الشيطان ويأمر به ، ويزينه للناس ، هو إطلاق الألسنة بالسوء والفحشاء ، تنهش فى أعراض المؤمنين ، وتُشيع الفاحشة فيهم ..

فمن أراد أن يكون فى المؤمنين حقاً ، فليمسك لسانه عن لغو الحديث ، وليُصِمّ أذنيه عن سماع كلمات السوء والفحش فى المؤمنين ، فإنه إن لم يفعل ، واستمع إلى كلمات السوء والفحش، ثم أطلق لسانه بها كان فى ركب الشيطان، يجرى وراءه ، ويتبع خطواته ، مع أولئك الذين استجابوا للشيطان ووقعوا فى شباكه ..

وقوله تعالى : « لولا فضل الله عليكم ورحمته ماز كى منكم من أحد أبداً » ..

ما زكى : أى ما طهر ، وما خلص من الرجس، والإثم ، وصار طيباً زَكِىّ النفس بعد أن تطهر ، وأزال ما علق به من ريح خبيثة بما اقترف من إثم .. فالزكاة تجىء بعد الطهر وغسل القذر ..

وهذا يعنى أن الناس جميعاً هم أبناء الخطيئة ، وأنهم جميعاً ـ بما رُكّبَ فيهم من طبيعة حيوانية ـ معرّضون للزلل ، وللوقوع فى الخطايا والآثام.. كما يقول الرسول الكريم : « كل ابن آدم خَطّاءٌ وخير الخطائين التوابون » ..

ولكن الله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته بعباده ، قد جعل لهم مُطَهّراً يتطهرون به من آثامهم التى تعلق بهم ، وهم على طريق الحياة .. وذلك عن طريق العبادات والطاعات وَالقربات .. فالصلاة مثلا ، هى مطهرة لما بين الفريضتين . كما فى الحديث : « الصلوات الخمس وَالجمعة إلى الجمعة كفارة لما بَينهنّ مالم تَغْشَ الكبائر » وَقد شبهها الرسول الكريم بنهر جار ، يغتسل فيه المصلى

خمس مرات فى اليوم ، فقال صلوات الله وَسلامه عليه : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم ، يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دَرَنه شىء؟ » قالوا : لا يبقى من درنه ، قال « فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا ».

وَالزكاة ، مطهرة ... شأنها فى هذا شأن الصلاة ، كما يقول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وَتزكيهم بها » (١٠٣ : التوبة) . .

وهكذا الصوم ، والحج ، . . وكل طاعة ، وَكل قُرْبة ، هى مما يتطهر به الإنسان ويتزكى من ذنوبه وآثامه . .

هذا إلى « التوبة » التى هى الباب الواسع الذى يَدْخل منه الآثمون جميعاً إلى رحمة الله ومغفرته ، فمن صحت توبته ، صار نقياً طاهراً ، كيوم ولدته أمه . . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (٢٢٢: البقرة) .

وهذا كله مما يفتح للمؤمن الطريق إلى أن يكون فى الطاهرين الزاكين ، الذى يدخلون مع الداخلين فى قوله تعالى : « ولكن الله يُزَكّى من يشاء » .

وقوله تعالى : « والله سميع عليمٌ » هو بيان للراغبين فى الطُّهر والتزكّى ، وذلك بالانخلاع عما فيه من منكرات ، والرجوع إلى الله ، والتقرب إليه ، بالعبادات والطاعات . . والله سبحانه وتعالى « سميع » لما تنطق به أفواههم ، وما تتحدث به خواطرهم « عليم » بما فى قلوبهم من إخلاص فى العمل ، وصدق فى التوبة . .

قوله تعالى :

* « ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسَّعَةِ أن يؤتوا أولى القربى

والمساكينَ والمهاجرين فى سبيلِ الله وليعفوا وليَصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

« ولا يأتل » : أى ولا يمتنع ، أو يقصّر .

هذه الآية الكريمة ، نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وكان قد حَلفَ ألاّ ينفق على « مِسطح » بعد أن خاض مع من خاضوا فى حديث الإفك . وكان مسطح قريباً لأبى بكر ، وقد هاجر فيمن هاجر إلى المدينة ، وكان فقيراً ، يمينه أبو بكر ، وينفق عليه من ماله ، وقد انزلق مسطح إلى هذا المنحدر ، وكان رأساً من رءوس الخائضين فى هذه الفتنة .

وفى هذه الدعوة السماوية لأبى بكر ، تكريم عظيم له ، وإعلاء لمنزلته عند الله . . إذ دعاه الحق سبحانه وتعالى إلى التى هى أحسن ، وهو أن يلقى السيئة بالحسنة ، ويدفع الشر بالخير . . وهذه منزلة عالية لاينالها ، إلا من أراد الله لهم الكرامة والإحسان . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وما يُلَقّاها إلا الذين صَبَرُوا وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم » (٣٥ : فصلت) .

ومن جهة أخرى ، فإن الله سبحانه وتعالى أرى أبا بكر المَثَل الأعلى فى ذاته سبحانه وتعالى ، إذ وصف ذاته سبحانه هنا بقوله : « والله غفورٌ رحيمٌ » . . أى فكن ربانياً أيها الصديق ، وكن غفوراً رحيما ، أيها الإنسان المبارك ، لأنك عبد لربٍّ غفور رحيم . . ومن شأن العبد الصالح أن ينظر إلى سيده ، ويتّبع سبيله . . .

وليس هذا فحسب ، بل إنه تعالى نادَى عَبْده ، ودعاه إلى رحاب المغفرة بقوله : « ألاَ تُحبّون أن يغفر الله لكم » ؟ ومن ذا الذى لايحب أن يغفر الله له ؟ . ولهذا كان جواب أبى بكر على هذا النداء الكريم ، وتلك الدعوة المباركة : « بلى والله ياربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا » .

ثم إن فى وصف « مسطح » بقوله تعالى : « أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله » - إشارة لأكثر من عاطفة تعطف أبا بكر على الإنسان الذى آذاه فى شرفه . . فهناك عاطفة القرابة ، ثم عاطفة الحاجة والمسكنة ، ثم عاطفة الهجرة فى سبيل الله . . وكل واحدة منها تدعو إلى الرحمة والمغفرة ، فكيف إذا اجتمعن جميعاً فى هذا الإنسان الذى أوقعه سوء حظه فيما وقع فيه ؟ إن هناك لأكثر من داعية تدعو إلى إقالته من عثرته ، والتجاوز عن مساءته . .

قوله تعالى :

* « إنّ الّذين يرمُون المحصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمنات لُعِنُوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم » .

هو وعيدٌ لأولئك الذين لم يُمسكوا ألسنتهم بعدُ عن الخوض فى هذا الحديث ، والذين لازال فى أنفسهم بقية مِّن شك فى براءة أم المؤمنين وطهرها . . فهى - كما وصفها الله سبحانه، وتعالى - المُحصنَةُ ، أى الطاهرة المبرأة من السوء، وهى الغافلة عن هذا المنكر ، فلم يَطُفْ بها ، ولم يقع فى خطرة من خطرات نفسها ، وهى المؤمنة ، الكاملة الإيمان ، المتحصِّنة بإيمانها الوثيق ، الذاكرة لجلال ربها وخشيته . . وفى كل صفة من هذه الصفات عاصم يعصم المتصف بها من الزلل ، والوقوع فى هذا المنكر . . وكيف وقد اجتمعن جميعاً ، فى أمّ المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق ، والحبيبة بنت الحبيب إلى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ؟

— وقوله تعالى : « لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » - هو الجزاء الذى يلقاه كل من يخوض فى أعراض المؤمنين والمؤمنات ، ويرميهم بالفاحشة ،

كذبا ، وبهتانا . . فالحكم عام ، قائم أبدًا الدهر ، وإن كان مُساقا فى مَعْرِض الحديث الآثم ، الذى رُميت به أم المؤمنين من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . وأنه إذا كان أناسٌ ممن خاضوا فى هذا الحديث قد تابوا ، وأنابوا إلى الله ، واستغفروا لذنبهم ، فقبلهم الله ، وغفر لهم ـ فإن هناك أناسا آخرين ، قد هلكوا بهذا الحديث ، إذ أمسكوا به فى أنفسهم .. فهؤلاء : « لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » .

قوله تعالى :

* « يوم تَشْهَدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يعملون * يومئذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » .

الظرف هنا « يوم » متعلق بقوله تعالى : « ولهم عذاب عظيم » ، أى لهم عذاب عظيم ، فى الآخرة ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . .

فهؤلاء الذين جاءوا بهذا الإفك ، وماتوا به ، وأبَوْا أن يشهدوا على أنفسهم فى الدنيا ، بأنهم كانوا كاذبين مفترين ـ هؤلاء ، ستنطق ألسنتهم فى الآخرة بما أبت أن تنطق به فى الدنيا ، وتقوم شاهدة عليهم بأنهم كانوا كاذبين مفترين ، وإنهم ليؤخذون بإقرارهم هذا ، وبما شهدت به عليهم ألسنتهم ، التى خرِست فى الدنيا عن قول الحق ، وانطلقت تَهذِى وتعوى بالزور والبهتان . .

ثم إلى جانب شهادة ألسنتهم عليهم فى الآخرة بما نطقوا به فى الدنيا من زور وبهتان ـ تقوم أيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم بما عملوا من منكر . . فاليدان ، والرجلان شهود أربعة ، تشهد على هذا الادعاء الذى يدعيه اللسان على صاحبه . . وكأن هذا اللسان متهم عند صاحبه ، لأنه لم ينطق أبداً إلا بالزور والبهتان . . فإذا

جاء صاحبه ليردّ شهادته عليه ، قام من كيانه شهود أربعة ، كلها تصدق هذا اللسان ، الذى لم يَصْدق أبداً إلا فى هذا الموقف ! وهذا هو بعض السر فى تقديم اللسان على الأيدى والأرجل فكأنه هو المدّعِى ، وكأن شهوده على دعواه .. اليدان والرجلان ! ثم إنما قامت الشهادة عليهم ، أُخذوا بذنبهم ، جزاء وِفاقاً .

قوله تعالى :

* « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيباتِ أولئك مُبرّءون مما يقولون .. لهم مغفرة ورزق كريم » .

تعرض الآية الكريمة هنا دليلاً من واقع الحياة ، يشهد لما نطقت به الآيات من براءة أم المؤمنين، مما رمتها به الألسنة الآثمة من زور وبهتان . .

فالسيدة عائشة ، نبتة طيبة ، نبتت فى بيت طيب ، لم يُعرف عنه فى الجاهلية شىء مما كان يأتيه الجاهليون ، من استعلان بالفجور ومباهاة به .. بل كان هذا البيت ، أشبه بنسمة رقيقة ، بين هذه العواصف التى تدوّم وتصخب فى بيوت الجاهليين ، من سفك دماء ، واعتداء على الحرمات ، حتى إذا جاء الإسلام كانت أولُ يد تصافحه ، وأول قلب يتفتح له ، هى يد أبى بكر الصديق ، وهو قلب أبى بكر الصديق . . وماذاك إلا لأن طبيعته كانت مسلمة ، أو أقرب إلى الإسلام ، من قبل أن يجىء الإسلام، حتى إذا كان أول صوت يؤذّن بدعوة الإسلام ، كان أبو بكر أولَ المستجيبين له ، والمتجهين إليه ، حتى لكأنه كان على توقّع له ، وتطلع إليه . . ! ! فمن ظَهْرِ هذا الرجل الكريم النبيل جاءت « عائشة » ، وفى بيت هذا الرجل الطاهر العفّ نشأت « عائشة » . .

ثم كان أن انتقلت السيدة عائشة،وهى لا تزال فى إهاب الطفولة ـ انتقلت من هذا البيت الطاهر الكريم، إلى البيت الأكرم بيتِ النبوة . . فكان فى هذا البيت القُدُس مرباها فى طفولتها،وصباها،وشبابها .فشهدت فيه منذ صباها الباكر

أنوار السماء تنزل على النبى ، فيغمرها هذا النور البَهِىّ ، ويملأ قلبها ووجدانها ، علماً ، وحكمة ،وطهراً .. فكانت بهذا ، المرأةَ التى أخذت بحظ النساء جميعاً من هذا الخير المنزل من السماء . . وكأنها الشاهد القائم على أن المرأة شريكة للرجل حتى فى مقام النبوة ،التى إن اختص بها الرجال فكان منهم الأنبياء، فإن النساء لم يحرمن حظهن منها ، فكان منهن حواريو الأنبياء ! !

فامرأةٌ هذا شأنها ، وذلك هو منبتها ، ومرباها ، يكون من البعيد بُعدَ المستحيل ، أن تزلّ وأن تسقط ، وأن تأتى من المنكر ماتأباه الحرّة ، على شرفها وخُلقها ، ومروءتها . . !

ومن جهة أخرى . . فإن الله الذى اصطفى النبى لحمل رسالة السماء ، وصفّى جوهره من كل شائبة ، حتى لقد كان نوراً أقربَ إلى هذا النور الذى ينزل عليه وحياً من ربه — إن الذى اصطفى محمداً لهذا ، قد اصطفى له ـ فيما اصطفى ـ أزواجه ، وأصحابه ، ومواليه ، ومن كان على صلة قريبة مدانية له ..

وقد كانت السيدة عائشة ، أقربَ المقربين إلى رسول الله ، وأشدّهم صلة به ، وأكثرهم اطلاعاً على سره وعلانيته . فهى — والأمر كذلك ـ أصفى من اصطفى الله سبحانه وتعالى من النساء ـ إن لم يكن من الرجال ـ لصحبة نبيه ، ومرافقته رُفقة ملازمة ، فى أخطر دور من أدوار رسالته ، وأكثرها ازدحاماً والتحاماً بالأحداث ! .

فإذا جاء قوله تعالى : « والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » كان مفهوم هذا واضحاً أتمّ وضوح وأبينه ، فى التقاء السيدة عائشة بالنبىّ ، وصحبتها له ، وجعلها زوجاً يسكن إليها، ويسعد بصحبتها .. إنها طيبة أطيب الطيبات، لاتكون إلا لِطيّب بَفَضْلها طيباً ، وإن صاحبها لطيب ، أطيب الطيبين ، لايتصل به، ولا يدخل فى حياته إلا طيبة ، أشكل الطيبات به ، وأقربهن طيباً إلى طيبه !.

فإذا كان فى الحياة طيب ، وعفة ، وطهر ، فهنا الطيب ، والعفة والطهر ، وإذا كان فى النساء امرأة لا تزلّ ، وأنثى لا تأثم ، فهى هذه المرأة ، وهى تلك الأنثى !!..

هذا هو منطق الواقع ، فيما تنطق به الحياة ، فى مختلف البيئات ، وفى كل الأزمان .. الطيّب لا يقبل إلا طيباً ، من قول أو عمل ، أو زوج أو صديق .. والخبيث لا يقبل إلا الخبيث ، من قول أو عمل ، أو زوج ، أو صاحب ، .. وهذا ما يشير إليه الحديث : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تنافر منها اختلف » ..

وفى الآية أمور ..

فأولا : قُدِّم « الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات » على « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » ..

وذلك لأن الخطاب موجه أولا إلى أولئك الذين خَبثُوا نفساً ، وديناً ، فأطلقوا ألسنتهم فى الطيبات والطيبين من المؤمنين ، وأنهم لو لم يكونوا على تلك الصفة لظنوا بالمؤمنين والمؤمنات خيراً ، ولكانوا يقولون إذ سمعوا اللغط بهذا الحديث : « ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . . سبحانك هذا بهتان عظيم » كما وصّى الله المؤمنين بذلك ، ودعاهم إليه . .

وثانياً : قُدِّمت المرأة على الرجل هنا فى الحالين : الخبث والطِّيب .. وذلك لأن المرأة هى التى يطلب لها كفؤها من الرجال ، فلا يصح أن تتزوج بمن هو أنزل منها شرفاً وقدراً ..

والكفاءة هنا منظور إليها من ناحية التقوى ، والعفة ، والطهر ..

فالخبيثة ، كفؤها من هو أخبث منها خبثاً . .

والطيبة، كفؤها من هو أطيب منها طيبا..

وثالثا: الإشارة في قوله تعالى: «أولئك مبرءون مما يقولون».. تشير إلى من مسهم شيء من هذا الحديث الآثم، وهم الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وعائشة ـ رضي الله عنها، وأبواها، وصفوان بن المعطل.. فهؤلاء قد برأهم الله من كل دنس، وعافاهم من كل سوء، ودمغ بهذا القول الزائف الآثم أهله.. على حين أجزل الثواب العظيم، والرزق الكريم لمن مسهم هذا القول بضرّ: «لهم مغفرة ورزق كريم»..

الآيات: (٢٧ — ٢٩)

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)»

التفسير:

جاءت هذه الآيات الثلاث، بعد حديث الإفك، الذي كان المدخلُ إليه، هو هذا الحَدَث الذي شغل السيدة عائشة عن أن تكون في الركب، وقد لقيها على الطريق صفوان بن المعطل، فحملها على بعيره، وألحقها بركب الرسول.. فكان للمنافقين، ومن في قلوبهم مرض أن ينظروا إلى هذه الحادثة بنفوس

مريضة ، وَأهواءٍ متسلطة ، وأن يَعْموا عن هذا الجوهر الكريم المصفّى الذى ينظرون إليه .. سواء فى ذلك أم المؤمنين ، أو الصحابىّ الذى كان فى خدمتها ..

نقول ـ جاءت هذه الآيات الثلاث ، بعد حديث الإفك لتقيم المسلمين على أدب خاص ، يتصل بالبيوت وَحرمتها ، حتى لا تكون مَظِنَّة لريبة ، أو موضعاً لتهمة .. ذلك والنفوس ـ إذ تستقبل هذه الآيات ـ مهيأة لقبول كل مايَدفع التهم ، وَينفى الرِّيَب، بعد تلك التجربة القاسية التى عاشها النبىّ ، وزوجه ، وصديقه الصديق ، وصحابته ، وصالحو المؤمنين ..

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون »

فهذا أول مادة فى دستور هذا الأدب الربانىّ ، فى تزاور المسلمين ، وتواصلهم بلقاء بعضهم بعضاً فى البيوت .. وَهو ألاَّ يدخل أحد بيتاً غير بيته حتى يستأنس ، ويسلم على أهله ..

والاستئناس ، هو طلب الأنس ، وإزالة الوحشة ، وذلك باستئذان أهل البيت ، ولقاء من يلقاه منهم على باب الدار ، فإذا لقيه أحدٌ سلم عليه .. فإنه أذن له بالدخول دخل ، وإن لم يأذن له رجع .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

* « فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم وَالله بما تعملون عليم » .

وَفى قوله تعالى : « فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » أى لا دخولَ

أبداً إلا بعد إذن .. فإن لم يكن أحد فى البيت فلا دخول أبدا .. وإن كان فى البيت أحد ، فلا دخول إلا بعد التسليم ، وَالإذن ..

وفى قوله تعالى : « هو أزكى لكم » أى هذا الموقف هو أزكى لكم ، وهو أن لا دخول أبداً إذا لم يكن أحد ، وأن لادخول إذا كان أحد إلا بعد تسليم وإذن .

والضمير « هو » يعود إلى مصدر مفهوم من قوله تعالى « فارجعوا » أى فالرجوع أزكى لكم ، فإن الدخول بغير إذن هو تطفّل ، وعدوان على حرمات غيركم ، فقد يكون عدم الإذن لكم راجعاً إلى أن الذى تريدون لقاءه لايريد لقاءكم ، أو قد يكون لأنه فى أمرٍ لايحبّ أن تطلعوا عليه منه .. أو نحو هذا .. فالبيوت سِتْر لأهلها ، ودخولها بغير إذنٍ ابتداء ، هو أشبه بالصوصية ، أما إن كان الدخول بعد طلبكم الإذن ، ثم لم يؤذن لكم فهو اعتداء صارخ ، فوق أنه تطفّل وصَغار !

— وفى قوله تعالى : « والله بما تعملون عليم » تحذير لمن تحدثهم أنفسهم بانتهاك حرمات الله ، أو لايأتمرون بهذا الأمر ، الذى أمرهم الله به ، وأدّبهم بأدبه .

قوله تعالى :

* « ليس عليكم جُناحٌ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » .

هذا استثناء من الأمر العام بالاستئذان قبل دخول البيوت ، وبهذا الاستثناء يُفهم أن المراد بهذه البيوت هى البيوت المسكونة ، وهى التى يكون الحرج واقعاً على من يدخلها بغير إذن ..

أما البيوت غير المسكونة ، كالأمكنة العامة ، مثل النُزُل ، والمطاعم ، ونحوها

فلا حرج فى دخولها بغير إذن .. إذ كانت طبيعتها لاتقتضى إذنا ، بل إنها تستدعى الواردين إليها ، وأبوابها مفتوحة لهم دائما ..

والمراد بالمتاع فى قوله تعالى : « لكم فيها متاع » هو المنفعة والحاجة ، وليس المراد أن يكون لهم فيها أمتعة .

— وفى قوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » إشارة إلى أن هذا الأدبَ المطلوبَ رعايتُه فى دخول البيوت المسكونة ـ هو مما يقضى به الظاهر ، وليس امتثاله ، والدخول بعد الاستئذان ، مما يُحلّ المؤمن من غضّ البصر ، ورعاية الحرمات ، وحفظ أسرار البيوت ، وما يطلع عليه الذى يدخلها من شئونها وما يجرى فيها ـ فإن لهذا كلّه حسابه عند الله ، الذى يعلم مانخفى ومانعلن ، وهو يحاسب على كل مانقول أو نعمل فى علن وسرّ . .

الآيات : (٣٠ ـ ٣١)

* « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) »

التفسير:

هاتان الآيتان تشرحان تلك الإشارة الخفية التى جاءت فى قوله تعالى فى الآية السابقة عليهما فى قوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » .. حيث جاءت الآيتان تدعوان إلى غضّ الأبصار ، وحفظ الفروج ، وهى أمور تقع غالبا فى خفاء وستر .. فجاءت الآيتان تصرحان بالأمر بما هو مطلوب من المؤمن ، والمؤمنة ، وهو غض البصر ، وحفظ الفرج ..

وقوله تعالى :

* « قل المؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » .

الخطاب موجّه إلى المؤمنين ، الذين هم بحكم إيمانهم بالله ، ومراقبتهم له ، أهلٌ لأن يمتثلوا أمرَ الله ويستجيبوا له ..

وغضّ البصر ، هو كَسْره ، وعدم مَلْء العين من النظر إلى المحرمات من النساء ، مخالسة ، أو معالنة .. فإن النظر هو رسول الشيطان إلى تحريك الشهوة ، والدعوة الى الفاحشة ..

وَقُدّم الرجال على النساء ، لأن النساء ، عورة ، والنظر إليهن يدعو إلى الفتنة أكثر من نظر النساء إلى الرجال ..

* وقوله تعالى :

« وقل المؤمنات يَغْضُضْنَ من أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على

عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذه الآية موجهة إلى النساء ، وإلى ما ينبغى أن يأخذن أنفسهن به ، من أدب ، واحتشام ، حتى لا يتعرضن للفتنة ، أو يقعن تحت دائرة الشك أو الاتهام . .

وأول ما يأخذن به أنفسهن ، هو أن « يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويحفظن فُرُوجَهُنَّ » . . هذا هو الأمر العام ، الذى يُطلب منهن امتثاله ، فلا تملأ المرأة عينَها من رجلٍ غيرِ مَحْرمٍ لها ، وأن تحفظ فرجها . . فهذا وذاك أمانة هى مؤتمنة عليها ، وليس من سلطان عليها ، إلا دينُها وضميرها ، وعفتها . . وقد اقترن الأمر بغض الأبصار بحرف مِن الذى يفيد التبعيض ، لأنه لا يمكن أن يَغضّ البصر ، ويقفل قفلًا تامًّا ، ولهذا لم تجىء مِن التى للتبعيض مع حفظ الفروج؛ لأن الحفظ هنا لا أبعاض له .. ثم هناك أمور . . هى ذرائع إلى الفتنة والإغراء بها ، من جانب الرجال . . فعلى المرأة أن تسدّ هذه الذرائع وتغلق هذه النوافذ ، التى تطلّ بها الفتنة منها على الرجال ، فتكون بذلك داعيةَ فتنة وإغراء بالفتنة سواء قصدت إلى هذا أم لم تقصده . .

وهذه الذّرائع هى ما جاء مفصلًا فى الآية على هذا الترتيب :

— « ولا يُبْدِين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها » . . أى لا يكشفن من أنفسهن إلاّ ما لا سبيل إلى ستره وإخفائه ، كالعينين ، والكفّين ، والقدمين .

فالمرأة كلّها « زينة » فى عين الرجل . . حتى صوتها . . ولكن الشريعة الإسلامية نافية للحرج . . وأمر المرأة بإخفاء كيانها كلّه ، مما لا تحتمله النفوس ، ولا تقبله الحياة . . ومن هنا كان الاستثناء بقوله تعالى : « إلاّ ما ظهر منها » أى إلاّ ما لا بدّ من ظهوره ، حتى تعيش المرأة فى الحياة ، وتشارك فيها ، فتنظر بعينيها وتعمل بيديها ، وتسعى بقدميها . .

— « ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرهن على جيوبهن » .

الضرب : وضع الشيء على الشيء فى إحكام .

والخُمُر : جمع خِمار ، وهو ماتستر به المرأة نحرها . .

والجيوب : جمع جيب ، وهو فتحة الثوب ، بين النحر ، والعنق . .

والمعنى : أنه يجب عليهن ستر العنق والنحر بالخُمر ، وضربها على العنق ، وإرسالها إلى النحور . .

— « ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانِهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخَواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال . . أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . » .

فهؤلاء الأصناف من الرجال ، هم محارم للمرأة ، أو أشبه بالمحارم لها . . وليس عليها من جُناح فى أن تتخفف كثيراً أو قليلا من هذا الحظر المضروب عليها . .

— فقوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن » أى أزواجهن . . فليس على المرأة حرج أن تبدى زينتها كلها أو بعضها للزوج .

— « أو آبائهن » . . وليس عليها من حرج كذلك فى أن تبدى زينتها كلها أو بعضها فى حضور أبيها .

— « أو آباء بعولتهن » وهم آباء الأزواج ، أى وكذلك الشأن مع أبى الزوج . . فهو مثل أبيها .

— « أو أبنائهن » . . وليس على المرأة من حرج فى حضور أبنائها ،

أن يظهر منها شيء مما أمرت بستره من زينتها .

أو « أبناء بعولتهن » أى أبناء الأزواج من غيرهن . . فهن مثل أبنائهن .

— « أو إخوانهن » . . وليس على المرأة حرج فى أن يظهر منها شيء من زينتها فى حضور إخوتها . .

— « أو بنى إخوانهن » وكذلك أبناء الإخوة ، هم كالإخوة . .

— « أو بنى أخواتهن » وأبناء الأخوات كأبناء الإخوة . .

— « أو نسائهن» أى زوجات هؤلاء الرجال المذكورين ، حيث لايكون فى مخالطتهن فتنة ، ولا فى كشف الزينة أمامهن مايفضح جمال المرأة ، وذلك لأن زوجة أىٍّ من هؤلاء الرجال تتحرج من أن تصف ماترى منها للرجال ، إذ كانت المرأة هنا بالنسبة لأية زوجة من أولئك الزوجات بعضاً منها ، وأهلا من أهلها ، فلا تُغرى الرجال بها ، ولا تكشف لهم عن مفاتنها . .

وكذلك الشأن فى نساء زوجها ، اللائى تمسكهن الغيرة عن وصف أى حُسن تراه إحداهن فى الأخرى . .

— « أو ما ملكت أيمانهن » وهم الرقيق ، المملوك لهن من الرجال . . فملك اليمين ، وإن لم يكن من محارم المرأة ، هو أشبه بالمحرم ، لأنها تملكه ، كما تملك المتاع ، الأمر الذى لا يصح معه أن يكون زوجاً لها ، له القَوامة عليها ، كما يقول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » . . (٣٤ : النساء)

فاعتبار مِلك اليمين ، أهلاً لأن ينظر إلى مالكته نظرة اشتهاء ، فيه إيذان بفتح باب فتنة وفساد ، حيث يُخلى المرأة من شعور الترفّع عن أن تكون مستفرشة لخادمها وملك يمينها ، على حين أن هذا يجرّىء المملوك على التطاول إلى سيدته ، والطمع فيها . .

وفى التخفف من زينة المرأة أمام مملوكها ، إشعار له ولها ، أن الأمر بينهما

قائم على غير ما يقوم عليه الحال بينها وبين غير المحارم من الرجال . . وبهذا يموت ، أو يصل إلى قريب من الموت ، هذا الإحساس الذى يكون بين المرأة والرجل الأجنبي عنها . .

فالمملوك ـ وإن كان رجلا ، فيه مافى الرجال من رغبة واشتهاء ـ هو بالنسبة إلى مالكته كأحد محارمها ، الذين يخالطونها ، ويعايشونها .. كالأب ، والابن ، والأخ . . وتخففها من زينتها فى وجوده يشعره ويشعرها بهذا المعنى ، وهو أنه لاينبغى أن يمدّ بصره إليها ، كما أنه لايليق بها أن تشتهيه .

وقد ذهب كثير من المفسِّرين ، والفقهاء إلى أن المراد بما ملكت أيمانهن الإماء ، دون العبيد . . ولكن الذى نراه ، هو أن المقصود به العبيد . . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى إلى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بعبد لها ، فأرادت أن تستتر منه بالحجاب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليس عليك بأس .. إنما هو أبوك وغلامك » ! !

— « أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال » . .

والإربة : من الأرَب ، وهو الرغبة والاشتهاء . .

والمراد بالتابعين ، هم الذين يخدمون المرأة ، ويكونون فى حاجتها بأجر ، وهم ليسوا فى ملك يمينها . . فهؤلاء التابعون ، وقد انقطعت شهوتهم للمرأة ، لمرض ، أو شيخوخة ، أو غير هذا مما تنقطع به شهوة الرجل للمرأة ـ هؤلاء التابعون ، لاحرج على المرأة من أن تتخفف من زينتها فى حضورهم ، لأنهم لاينظرون إلى مابدا منها نظرة رغبة واشتهاء . . ومن ثمّ لايكون النظر إليها مدخلا إلى الفتنة ، إذ لا إربة لهم فى المرأة . .

— « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » .

والطّفل : الولد ، مادام ناعماً ، ويطلق على المفرد ، والجمع ، ويجمع على أطفال ، ويقال للمرأة الناعمة طَفْلة .

وحكم الصغار — وإن كانوا غير محارم المرأة — كحكم التابعين غير أولى الإربة من الرجال .. لأنهم فى تلك الحال بعيدون عن التفكير فى المرأة ، وعن النظر إليها فى رغبة وشهوة . .

وفى وصفهم بقوله تعالى : « لم يظهروا على عورات النساء » إشارة إلى أنهم وهم فى سنّ الطفولة ، لايستطيعون التمييز بين ماهو عورة ، وماليس بعورة من المرأة . .

فهؤلاء اثنا عشر صنفاً من الرجال ، ليس على المرأة حرج فى أن تبدى بعض زينتها فى وجودهن . .

هذا ، ويلاحظ فى هذا النظم ، الذى جاءت عليه هذه الآية فى ذكر هؤلاء الأشخاص ، أنه يأخذ ترتيباً تنازلياً فى تضييق دائرة التخفف من الزينة ، شيئاً فشيئاً . . بحيث تكون هذه الدائرة على سعتها كلها مع الزوج ، ثم تبدأ تضيق شيئاً فشيئاً مع من بعده ، حتى تبلغ حدها الأدنى مع « الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » . .

ونظرة فى هذا الترتيب ، تدلّ على حكمة الحكيم ، وتقدير العزيز العليم ، لِمَا فى النفس البشرية من نوازع وعواطف ، تتحرك حسب مايقوم بينها وبين العالم الخارجى من روابط وصِلات .

وقوله تعالى : « ولايَضْرِبْن بأَرْجُلِهِنّ ليُعلم ما يخفين من زينتهن » أى ولا يأتين بأرجلهن حركة تنمّ عما يخفين من زينتهن . وذلك بما يكون

من ضروب متصدعة فى المشى ، تهتز معها الأرداف ، وتمايل الخصور ، وتماوج الصدور . .

وفى قوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » هو دعوة للمؤمنين ، والمؤمنات ، إلى التوبة إلى الله ، والرجوع إليه من قريب. حيث أن الإنسان فى هذه المواقف معرض للزلل والعثار . . من خطرات نفسه ، أو نظرات عينه ، أو فُحش لسانه ، إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحدٌ . . وليس لهذا من دواء إلا التوبة إلى الله من كل زلّة أو عثرة . . فإن هذه التوبة هى التى تصحح المؤمن إيمانه ، وتُبقى على ما فى قلبه من جلالٍ وخشيةٍ لله رب العالمين . . وفى هذا الفوز والفلاح . .

الآيات : (٣٢ — ٣٤)

* « وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .. إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » ..

الأيامَى : جمع أيِّم ، وهو من لم تكن له زوجة ، أو من لم يكن لها زوج ..

والأمر موجه إلى المجتمع الإسلامى كله .. وهو نصح وإرشاد ، وترغيب فى الزواج ، وذلك لما فيه من وقاية ، وحصانة ، وتعفف .. وهو مما يعين على الاستجابة لما أمر الله به فى الآيات السابقة ، من غَضّ الأبصار وحفظ الفروج .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : « يا معشر الشباب .. من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاء » ..

والباءة : القدرة على التزوج ، وامتلاك الصلاحية له ..

والوِجاء : الخصاء ، الذى به تموت الشهوة ، وينقطع اتصال الرجل بالمرأة ..

فالمسلمون مطالبون بأن يتحصنوا بالزواج ، وأن يرغبوا فيه ، وييسّروا أموره ، وذلك حتى لا تفشو فيهم دواعى الفساد ، والاعتداء على الفروج ، أو حتى لا يتجه أصحاب الإيمان القوىّ إلى الرهبنة ، التى تحرمها شريعة هذا الدين.. كما يقول الرسول الكريم :« النكاح سُنّتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منىّ.. » وكما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا رهبانية فى الإسلام » ..

— وقوله تعالى : « والصالحين من عبادكم وإمائكم » معطوف على قوله تعالى :

« وأنكحوا الأيامى منكم » .. أى وزوجوا من لم يتزوج من أحراركم وحرائركم ، وزوجوا كذلك الصالحين من عبادكم وهم العبيد ، وإمائكم ، وهن الرقيقات .. أى وكما يرشدكم الله سبحانه وتعالى إلى أن تتزاوجوا فيما بينكم أيها الأحرار ، لتحفظوا فروجكم ، كذلك ينصح لكم أن تزوجوا من ترونه صالحا للزواج من عبيدكم وإمائكم .. فهم بشر مثلكم ، فيهم رغبة وشهوة ، وإنه لا سبيل إلى قضاء هذه الشهوة ، إن لم يكن فى حلال،ففى حرام ..

ومن أجل هذا ، فإن على من فى يده فتى أو فتاة ، أن يرعى الله فيهما ، وألاّ يدَعَهما هَمَلاً ، يعيشان فى الفاحشة كما تعيش البهائم .. فهم جزء من المجتمع الإنسانى ، وفى فسادهم فساد المجتمع ، ومنهم تصل العدوى إلى غيرهم من الأحرار والحرائر ..

وفى وصف العبيد والإماء بالصلاح ، إشارة إلى أنه ليس كل عبد أو أمة صالحاً للزواج .. فإن حياة العبيد والإماء تذهب بكثير من معالم إنسانيتهم .. ولكن يبقى ـ مع هذا ـ قدر صالح من الإنسانية عند بعضهم ، يصلح به أن يكون أهلا للزواج من مثله ..

وقوله تعالى : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .. الضمير فى « يكونوا » يعود إلى المذكورين فى الآية من « الأيامى » ويشير من طرف خفىٍّ إلى العبيد والإماء .. أى إن يكن هؤلاء المذكورون صالحين للزواج ، وراغبين فيه طلباً للتعفف ، ولكن يمنعهم خوف الفقر والحاجة ، وعدم القدرة على حمل أعباء الزوجية ، وما تجىء به من ذرية — إن يكن هذا صارفاً لهم عن التزوج فليتزوجوا ، والله سبحانه وتعالى يمدهم سعة الرزق ، ودفع الضرّ الذى يتوقعونه من الزواج ، ما دامت نيتهم قائمة على طلب مرضاة الله ، وحفظ الفروج بهذا الزواج ..

وهذا وعد كريم من الله سبحانه ، لابدّ أن يتحقق ، وذلك لأمرين :

أولهما : أنه وعد من الله . . والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ! . .

وثانيهما : أن هذا الوعد يحمل معه أسباب الغنى ! . .

وكيف ؟ . .

والجواب ، هو أن الذى يطلب فى الزواج العصمة لدينه والحفاظ على شرفه ومروءته ، هو إنسان جادٌّ فى هذه الحياة ، وملء إهابه ، إيمان ، وتقًى ، وجدّ وعزم .. وأنه ليس من اللاهين الفارغين ، الذين يقضون حياتهم فى اللهو والعبث ، وتصيُّد الشهوات ، والتقاطها من كل وجه .. فهؤلاء الذين يُشغلون بالبحث عن اللذاذات والمتع ، وقضاء الشهوات ، هم أقرب الناس إلى الفقر وأدناهم إلى الحاجة والعَوَز ، لأنهم لا يصرفون أنفسهم إلى عمل جاد مثمر أبداً . .

أما أولئك الذين تحصنوا بالزواج ، فقد أراحوا أنفسهم من هذا الجرى اللاهث وراء شهواتهم ، وهم لهذا منصرفون إلى العمل الجاد المثمر ، الذى يبذلون له كل جهدهم وطاقتهم . . وهذا من شأنه أن يملأ أيديهم من الخير وأن يدنيهم من الغنى ، بل ويحققه لهم . .

وفى قوله تعالى : « والله واسع عليم » إشارة إلى سعة فضل الله ، وأنه لايضيق بالطالبين لفضله ، المبتغين من رزقه ، وهو « عليم » بما يُصلح أمرهم ويقربهم من فضله ، ويعرّضهم لرزقه .. ومن ذلك تحصنهم بالزواج . .

قوله تعالى :

* « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم

فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تُكرهوا فتَيَاتكم على البِغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عَرَض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » ..

الكتاب : المكاتبة ، وهو أن يطلب العبد إلى مولاه أن يعتقه من الرقّ ، فى مقابل قدر من المال ، يؤديه إليه ، فيعطيه سيّده بذلك كتاباً ، يذكر له فيه المال الذى كاتبه عليه ..

وفى دعوة مالكى الرقاب إلى مكاتبة من فى أيديهم ، ممن يرغب منهم فى هذا — دعوةٌ إلى تحرير الأرقاء ، وفكّ الرقاب .. وذلك بعد الدعوة إلى حفظ إنسانيتهم ، ورفع قدرهم بالزواج ، ونقلهم من دائرة الحيوان إلى عالم الإنسان . .

وفى قوله تعالى : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » إرشاد لمالكى الرقاب ، إذا هم استجابوا لأمر الله ، ورغبوا فى مكاتبة من يطلب المكاتبة من مواليهم — أن ينظروا فى حالهم قبل أن يكاتبوهم ، وأن يتحرّوا صلاحيتهم للحياة بعد أن يتحرّرا من الرق — .. فقد لا يكون لمن يتحرر منهم حيلة فى الحياة الجديدة التى يدخل فيها ، فيصبح — وهو الحر — عالة على المجتمع ، يعيش على السؤال والتكفف ، وفى هذا ضياع له ، أكثر من ضياعه وهو فى قيد الرق ! .. ولا شك أن السيد إذا أمسك عن مكاتبة عبده ، وهو ينظر فى هذا إلى مصلحة العبد نفسه — إنما يريد له الخير ، باختيارٍ ماهو أصلح له . . وسيد هكذا . . هو سيد يخاف الله ويتقيه ، فى هذا الإنسان الذى ملكه الله رقبته ، وحِفظه فى يده رقيقاً خير من إطلاقه . وهو لايحسن القيام على نفسه .

وفى قوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » دعوة إلى المؤمنين جميعاً ، ومنهم السيد مالك الرقيق المكاتب ، أن يعينوهم على جمع المال المطلوب

منهم ، حتى يتخلصوا من أسْر الرق ، وحتى يدخلوا فى المجتمع الحرّ ، ويكونوا قوة عاملة فيه . .

قوله تعالى : « ولا تُكْرِهُوا فتياتِكم على البِغاء إن أردن تحصنا » .

البِغاء : من البغى ، وهو العدوان على حدود الله بإهدار حصانة الفروج . .

والنهى هنا متجه إلى من يملكون إماءً فى أيديهن . .

وقد أجمعت أقوال المفسرين جميعاً ، على أن معنى إكراه الإماء على البغاء ، هو دعوة مالكيهن لهن إلى طلب البغاء ، رغبة فى الحصول على المال الذى يجمعنه لهم من هذا الوجه الخسيس . .

والنهى هنا واقع على مالك الرقبة ، إذا أرادت المملوكة تحصناً وتعففاً . . أما إذا كان البغاء بدعوة من سيدها ، وعن رغبة ورضا منها ، فلا محلّ للنهى ، ويكون هذا البغاء مباحاً . . هذا مايفهم مما أجمع عليه المفسرون فى تأويل هذه الآية . . وللمفسرين فى هذا تخريجات ، وأسانيد يستندون إليها ، ومرويات يأتون بها ، فى أسباب النزول ، والأحداث التى لابست نزول الآية . .

والحق أننا لم نَرَ فى هذه التخريجات وجها ، نقبلها عليه ، وأن نفهم كلمات الله بها ، دون أن يكون فى الصدر حَرَج ، وفى القلب ضيق ووسواس . . فمن أراد أن ينظر فى هذه المرويات ، وتلك التخريجات فهى مبثوثة فى كتب التفاسير ، يضيق الصَّدْرُ بها ، ويثقل على النفس نقلها هنا . .

وقد هدانا الله سبحانه وتعالى ، إلى مفهوم للآية الكريمة . نرجو أن يكون أقربَ إلى الصواب ، وأدنى إلى الحقّ .

فالفهم الذى نستريح إليه فى الآية الكريمة . . هو أن قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً » هو دعوة إلى مالكى

رقاب هؤلاء الفتيات (الإماء) بتزويجهن إذا رغبن فى الزواج . ليتحصَّن به ، وليحفظن فروجهن . . فهـذه الإرادة منهن للتحصن بالزواج ، شاهد مبين على صلاحهن ، وسلامة إيمانهن ، وأنهن يرغبن عن الحياة الطليقة ، التى يعيش فيها الإماء ، مستباحات الأعراض . . إنهن بهذا الزواج الذى يرغبن فيه ، يُرِدْنَ قيداً يقيّد خطوهن المطلق فى عالم الخطيئة . . وهذا لا يكون إلاّ مِن أمَة تشعر بإنسانيتها ، وتخاف الله فى عرضها . .

فالإمساك بالإماء اللاتى يَرْغبن فى الإحصان بالزواج ـ الإمساك بهن عن الزواج ، هو فى الحقيقة ـ إكراه لهن على البغاء . . إذ لا سبيل إليهن ـ وهن رقيقات ـ إلا البغاء ، رغبن فى هذا ، أو لم يرغبن . . إذ لا حجاز بينهن وبين من يريدهن . .

ويكون تحرير معنى الآية هكذا :

« ولا تكرهوا » أيها المؤمنون « فتياتكم » أى إماءكم اللاتى يرغبن التحصن بالزواج ـ لا تكرهوهن « على البغاء » وتحملوهن عليه حملا ، بمنعهن من التزوج . .

وفى قوله تعالى : « لتبتغوا عَرضَ الحياة الدنيا » إشارة إلى العلة التى قد تحول بين السيد ، وبين إجابة رغبة أمته أو إمائه فى التحصن بالزواج . . وذلك لما تُشغل به الأمة عن سيدها ، بزوجها ، وبالحمل ، والرضاعة ، وغيرها ، الأمر الذى يخف به ميزانها فى خدمة سيدها ، وينزل به قدرُها عند بيعها . .

وهذا المقطع من الآية هو الذى حمل المفسرين على القول بأن الإكراه مرادٌ به الإكراه على الزنا ، وجلب المال لأسيادهن من هذا الوجه . . وقد رأيتَ تأويلنا لهذا المقطع ، واتساقه مع المعنى الذى ذهبنا اليه . .

ثم تجىء خاتمة الآية هكذا : « ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » . .

وقد اضطرب المفسرون فى توجيه هذه الخاتمة ، وضاقت بهم السبل فى تخريجها ، إذ كيف يُكرِه السيد أمته أو إماءه على البغاء ، ثم يجىء من ذلك عفو الله ومغفرته ورحمته ؟ إن هذا أشبه بالتحريض على الإكراه على البغاء ..!

ومن مخرج ضيّق كسَمّ الخياط ، خرج بعض المفسرين إلى القول ، بأن المغفرة والرحمة إنما يراد بهما الإماء اللاتى أكرهن على البغاء ، على حين لاتنال المغفرة والرحمة من أكرههن !!

وهذا مردود من أكثر من وجه :

فالأمة فى تلك الحال مكرهة ، ولا ذنب عليها ، ترجى له المغفرة والرحمة .. ففى الحديث الشريف : « رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . .

ثم هى من جهة أخرى ، مِلك فى يد سيدها ، لا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فهو يحلّ منها مايشاء لمن يشاء !

وعلى هذا ، فإن المغفرة والرحمة إنما تطلب لمن كانت منه إساءة ، هى فى مفهومنا ممن أمسك بهن عن التحصن بالزواج ، وكان بسبب هذا كالمكره لهن على البغاء . . فإن هو رجع إلى الله ، وأمسكهن عن طريق الفساد ، وحصنهن بالزواج ، نالته مغفرة الله ، وسعة رحمته ..

ومن جهة أخرى . . فإننا نرى فى هذه الآية ، دعوة إلى مالكى الرقاب بمكاتبة من يرونه صالحا للمكاتبة من عبيدهم ، إذا هم رغبوا فى هذا . .

فهذه رغبة يدعو الإسلام إلى تحقيقها للعبيد .. لأنهم فى الواقع هم الذين تنزع بهم نفوسهم إلى الرغبة فى التحرر بالمكاتبة ، بخلاف الإماء اللاتى لا حول لهن ولا طول ..

ومن حق الإماء على الشريعة الإسلامية أن تحقق لهن رغبة يرغبنها ، كما حققت للعبيد الرغبة التى يرغبونها ..

ورغبة الإماء هنا ، هى إرادة التحصن بالزواج ، كما يقول سبحانه : « إن أردن تحصّناً » .. فهذه الرغبة تقابل رغبة العبيد فى المكاتبة كما يقول سبحانه : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم .. »

وبهذا يعتدل ميزان الإماء والعبيد ، فى شريعة قامت على العدل والإحسان والمساواة .. فى الحقوق ، والواجبات .. المرأة والرجل على السواء ..

ومن جهة ثالثة ، فإن الأمة إذا تزَوجت أُحصنت ، كما يقول الله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصناتِ المؤمناتِ فمِمّا مَلكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعضٍ فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهُنّ أجُورَهن بالمعروفِ محصَناتٍ غير مسافحاتٍ ولا متخذاتِ أخْدان فإذا أُحْصن فإن أتيْنَ بفاحشةٍ فعليهن نِصْفُ ما على المحصناتِ من العذاب .. ذلك لمن خشى العَنَت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم » (٢٥ : النساء) .

فى هذه الآية أمور ..

أولا : أن الحرّة محصنة ، سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة ، وأن الأمة إنما تُحصن بالزواج ..

ثانياً : فى زواج الأمة تكريم لها ، ورفع لخستها ، ونقلها من مرتبة

الحيوان المملوك ، إلى درجة المرأة الحرة.. حيث ينشيء لها الزواج حقوقاً ، ويفرض عليها واجبات ، وقد كانت قبل الزواج مطلقة ، لاحقوق لها ، ولا واجبات عليهـا . .

ثالثاً : أن الأمة إذا تزوجت ثم زنت،وثبتت عليها الجريمة ، أقيم عليها الحدّ، وهو نصف ماعلى المحصنات من العذاب ، فتجلد خمسين جلدة .

رابعاً : أشارت الآية إلى أن زواج الأمة لا يكون إلا بإذن مالـكها وعن رضاه ، فليس لها والحال كذلك ، أن تزوج نفسها إذا رغبت فى الزواج ، وأرادت التحصن به .. فإن أبى عليها مالـكها أن تتزوج ، لم يكن أمامها إلا أن تعرض نفسها للرجال .. وهذا هو البغاء الذى أكرهها مالـكها عليه بوقوفه فى وجه الزواج الذى تتحصن به وتَعِفّ عن الفاحشة .

هذا ، هو ما رأينا والله سبحانه وتعالى أعلم « وفوق كل ذى علم عليم » .

* * *

قوله تعالى :

* « ولقد أنزلنا إليـكم آياتٍ مُبيناتٍ ومثلا من الذين خَلَوْا من قبلـكم وموعظةً للمتقين » .

هذه الآية هى ختامٌ لآيات الأحكام ، التى جاءت بها السورة من قوله تعالى : « الزانية والزانى » إلى قوله تعالى : « ولاتـكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً » .

وهى فى هذا أشبه بالبدء الذى بدئت به السورة ، فى قوله تعالى : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيناتٍ لعلـكم تذكرون » .

فبدء السورة كان إعلاناً بنزول آيات بينـــات ، تلى هذا الإعلان ، وتجيء بعده ..

وقد نزلت هذه الآيات البينات ، متضمنة تلك الأحكام الخاصة بحرمات الفروج. وحين انتهت الآيات من بيان هذه الأحكام ، جاء قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات .. » ليذكر بتحقيق هذا الخبر الذى أعلنته السورة فى أول آية منها ، وليُلفت الأنظار إلى أن هذه الآيات ، هى الآيات البينات ، التى أشارت إليها الآية الأولى من السورة .. فليتحققوا من هذا الوصف ، وليطلبوه منها ، وليكون لهم منه عبرة وموعظة ..

وفى وصف الآيات فى أول السورة بأنها « آيات بينات » ووصفها هنا بأنها « آيات مبينات » ما يحقق وصفين لهذه الآيات فهى آيات بينات واضحات مشرقات فى ذاتها .. سواء نظر إليها الناظرون، أو لم ينظروا .. ثم هى مبينات ، تكشف لمن ينظر فيها طريقَ الحقّ والهدى . .

وقدّم وصفها بالبيّنات على وصفها بالمبينات .. لأنها فى أول الأمر لم تكن بين يدى الناس ، ولم ينظروا فيها بعد .. فكان وصفها بالبينات وصفاً ذاتياً لها ، دون نظرٍ إلى اتصال الناس بها .. فلما نزلت ، واتصل الناس بها كانت مبينة لهم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ..

وقوله تعالى : « ومثلا من الذين خَلَوْا من قبلكم » معطوف على قوله تعالى : « آياتٍ مبينات » أى وأنزلنا إليكم فى هذه الآيات مثلا من الذين خَلَوْا من قبلكم .

وهذا المثل الذى جاءت به الآيات هنا مشابهاً ومماثلاً لمثل آخر وقع فى الأزمنة الخالية ــ هذا المثل هو حديث الإفك ، الذى رُميت به السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ ومثله فى الذين خَلَوْا من قبل ، هو ماوقع لمريم ــ عليها السلام لما لقيها به أهلها من اتهام ، حين جاءت إليهم بوليدها تحمله .. وقد برأ الله مريم فى آياتٍ بينات من كتابه الكريم ، كما قال سبحانه وتعالى فى اليهود : « وبكفرهم وقولهم على مريم بُهتاناً عظيما » (١٥٦ : النساء) ــ فقد وصف الله سبحانه

وتعالى قولهم فى مريم بأنه بهتان عظيم ، كما وصف سبحانه مارُميت به السيدة عائشة، بأنه بهتان عظيم،وذلك فى قوله سبحانه : «ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم »..

وكفى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قدراً وشرفاً أن تكون مثلا مناظراً للسيدة مريم ، عفةً وطهارةً ، وأن تشاركها هذا الوصف الذى وصفت به فى قوله تعالى : « يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (٤٢ : آل عمران) .

الآيات : (٣٥ — ٤٠)

* « ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .. المصباح فى زجاجة .. الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرّىٌّ يوقد من شجرةٍ مباركة زيتونةٍ لاشرقية ولاغربيةٍ يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى اللهُ لنوره من يشآء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ».

هذه الآية تحدث عن سلطان الله، وامتلاكه لناصية كل موجود فى هذا الوجود، من الذّرّة فما دونها، إلى النجم فما فوقه ..

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذاته بأنه نور السّموات والأرض .. أى أنه الكاشف لكل موجود طريقَه فى هذا الوجود، والهادى الموجّه له إلى الطريق الذى يأخذه، كما يقول سبحانه: « الّذى أعطى كلّ شىء خَلْقَه، ثم هَدى » (٥٠ : طه).

فهذا النور الذى يضىء الوجود كله، ويقيم لكل موجود فيه، بصيرةً، أو بصراً ـ هذا النور هو مظهر من مظاهر جلال الله، وعظمته، وقدرته .. فكما أن الله سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين، فكذلك هو ـ سبحانه ـ نور العالمين ..

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى لنوره العظيم، مَثَلا يقربه إلى العقول، ويُدنيه من المدارك والتصورات، ويخرجه من عالم ماوراء الحس إلى عالم الحسّ .. وإلا فإن هذا النور فى ذاته لايمكن تصوره، حقيقة أو خيالا، لأنه من صفات

الله ، وكما لاتدرك ذات الله ، فكذلك لاتُدرك صفاته ..

والمثل المضروب لنور الله هو « المشكاة » وهى الكوة أى « الطاق » المفتوحة فى الحائط ، والمغلقة من أحد وجهيها .. ويمكن أن تكوّن « المشكاة » هى هذا القنديل من البلّوْر ، الذى يحمل المصباح .

وهذه المشكاة ، أو القنديل ، يتلألأ نوراً مشعًا، يكاد يخطف الأبصار ..

وهذا النور ، ينبعث من « مصباح » وهو الشعلة المتقدة المضيئة ، من فتيل أو نحوه ، داخل المشكاة . .

وهذا المصباح داخل زجاجة ..

وهذه الزجاجة . . شفافة صافية . . كأنها كوكب درّىّ . .

ثم إن وقود هذا المصباح هو ، من زيت مبارك ، مستصفى من شجرةٍ مباركة زيتونةٍ ، « لا شرقية ولا غربية » أى مغروسة فى أنسب مكان لها ، وأعدله . . فهى وإن كانت من نبات المناطق المعتدلة ، لا الحارة ، ولا الباردة ، إلا أنها تأخذ أعدل مكان فى هذه المناطق ، فهى لا إلى الشرق ، ولا إلى الغرب . .

وقد يحسب بعض الناس أن التأثيرات الطبيعية فى حياة الناس ، والحيوان والنبات ، تخضع لقرب المكان أو بعده من خط الاستواء . . وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أنه ليس على إطلاقه ، فإن قرب المكان أو بعده ، من نصف الكرة الأرضية ، شرقاً ، أو غرباً ، له تأثيره القوىّ فى الكائنات الحية ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، ولهذا اختلف الشرق والغرب ، ولهذا قيل : الشرق شرق والغرب غرب ، بمعنى أن لكل منهما بيئة خاصة،يتأثر بها الأحياء التى تعيش فيها . . وإنه لشتان بين اليابانى فى أقصى الشرق ، وبين الأمريكى فى أقصى الغرب ، وإن كانا على خط عرض واحد . .

والمشرق ، أو النصف الشرقى من الكرة الأرضية ، تختلف طبائع الناس فيه ، بين مَن كان منهم فى أقصى الشرق ، ومن كان فى أقصى الغرب من هذا الشرق ، وذلك لامتداد المسافة وطولها بين شرق الشرق وغربه ، وكذلك الشأن فى الغرب ، ولهذا جاء قوله تعالى : « ربُّ المشرقين وربُّ المغربين » (١٧ : الرحمن) وجاء فى آية أخرى : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » (٤٠ : المعارج) . . فالمشرق مشرقان ، والمغرب مغربان . . والمشرق مشارق، والمغرب مغارب، وذلك حسب اتساع النظرة التى يُنظر بها إليهما .

ولا شك أن وصف الشجرة الزيتونة بأنها لا شرقية ولا غربية ، يدلّ على أنها أكرم شجرةِ زيتون ، وأحسنها ، وأتمها ، إذ كانت تنبت فى أعدل مكان من الأماكن التى تنبت فيها .

* * *

ونعود إلى هذا التشبيه الذى شُبه به نور الله . . .

وقد أكثر المفسرون القول فى العائد عليه الضمير فى قوله تعالى « مثل نوره » أهو الله ؟ أم المؤمن ؟ أم قلب المؤمن ؟ أم القرآن ؟ أم النبى صلى الله عليه وسلم ؟ .

والذى تدل عليه الآية صراحة ، هو أن هذا الضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن هذا التشبيه هو تشبيه لنور الله ، وإنه لا حرج من أن يشبه نور الله بما يقع لحواسنا من نور ، ولله ـ مع هذا ـ المثل الأعلى ، « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » وقد وصف سبحانه ذاته ، بأنه يرى ، ويسمع ، ويطوى السموات بيمينه ، ويصنع من يصطفى من عباده على عينه . . إلى غير ذلك مما هو من صفات الإنسان، وأعماله .. وما ذلك إلا لنعطيه سبحانه ، نحن البشر ـ الوصفَ الكامل ، الذى ننتزعه من عالم الحس الذى نعيش فيه . .

وقد تحرّج كثير من المفسرين أن يقبلوا هذا المثل لنور الله ، ولهذا كان منهم تلك التأويلات التى تجعل النور لقلب المؤمن ، أو للقرآن ، أو للرسول الكريم . .

وهذا مَثَل ، وليس تماثلا من كل وجه بين نور الله ، وبين هذا النور الممثل به نور الحق جل وعلا . .

وفى الحديث : « إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته » . . وتقول التوراة : « خلق الله الإنسان على صورته . . على صورته خلقه » .

وأين الإنسان من عظمة الله ، وجلال الله ؟ إنه هباءة تسبح فى الهواء !

قيل إن أبا تمام الشاعر ، دخل على ممدوحه فى مصر ، فمدحه بقصيدة جاء فيها قوله :

إقدامُ عمرو[1] فى سماحة حاتم ... فى حِلْمِ أحنفَ فى ذكاء إياسِ

فقال بعض حاشية الأمير : ما هكذا يُمدح الأمير .. مازدتَ أن شبهته ببعض صعاليك الأعراب !

فسكت أبو تمام قليلاً . . ثم قال ، دافعاً هذا الاعتراض ، ومفحما هذا المعترض :

لا تنكروا ضَرْبى له من دونَه ... مَثَلا شَروداً فى الندى والباس

فالله قد ضَرَبَ الأقلّ لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراسِ

فهكذا يجب أن تُفهم الأمثال ، وأنها ليست تماثلا بين مضرِب المثل والمضروب له .

---

(١) هو عمرو بن وُدّ العامرى . من فرسان العرب المعدودين .

وقد عرضنا لهذه القضية فى كتابنا قضية الألوهية « بين الفلسفة والدين » فى الجزء الأول منه .

والصورة التى يصورها التشبيه هى :

كوة أو مشكاة « بلورية » . . فيها مصباح متقد ، وهذا المصباح مظروف فى زجاجة صافية أتم ما يكون عليه الصفاء ، حتى لكأنها كوكب درى . . ثم إن شعلة هذا المصباح تشتعل من زيت مستخلص من أكرم شجرة عرفت من شجر الزيتون . .

فهذا النور ، ليس مجرد نور ، وإنما هو كما وصفه الله سبحانه : « نور على نور » . . نور المشكاة البلورية . ثم نور الزجاجة الصافية صفاء الكوكب الدرى ، ثم نور الزيت الذى يكاد يضىء ولولم تمسسه نار . . ثم ضوء فتيل المصباح بعد أن يشتعل . . فكلٌّ منها نور يجتمع إلى نور . .

وهذا النور هو أقصى ما كان يمكن أن تحصل عليه الإنسانية ، أو تتشهّى الحصول عليه عند نزول القرآن . . .

أما ما جدّ بعد ذلك من نور الكهرباء — فإنه لا يَنْقُص هذا النور ، ولا يُنقص من جلاله وروعته . . لأنه نور وديع ، هادىء ، لطيف ، على حين أن نور الكهرباء زاعق ، صارخ .. وهذا هو السرّ أو بعض السرّ فى ضرب المثل بهذا النور ، دون ضوء الشمس ، وهو أبهى بهاء وأقوى قوة من كل نور تعرفه الإنسانية .

وقد قلنا إن المراد بنور الله هنا ، هو هداية الله سبحانه وتعالى لكل ذرّة فى هذا الوجود ، وإقامتها فى مكانها الصحيح ، وتوجيهها الوجهة التى تأتلف فيها مع الوجود ، وتتناغم مع الموجودات . . فكأنّ كل ذرة من ذرات الوجود تعمل فى نور ، فلا تضلّ طريقها أبداً . .

ثم إذا نظرنا بعين العلم اليوم ، رأينا الوجود كله نوراً . . فالأجسام جميعها

مكونة من ذرات ، والذرّات — كما عَرف العلم — نور من نور . . فـكل ذرة مجموعة من الشموس ، تدور فى فلك النواة التى للذرة . . فهذه الأجسام المعتمة وغير المعتمة ، من جبال ، ورمال، وتراب ، وأناسىّ ، ودوابّ ، وعربات ، وسيارات ، ودور ، وقصور ، وشموس وأقمار ـ هى نور مجسد ، متكاثف . إذا انحلّ إلى ذرات كان كتلاً من النور الوهاج . .

فالعالم المادىّ — كما يبدو اليوم فى مرآة العلم الحديث — هو شموس من نور ، وأن نوره سبحانه ، يتخلل هذا النور ، الذى هو بالإضافة إلى نور الله ظلام ، لا تتجلى حقيقته إلا على ضوء نور الله ، كما تتجلى حقائق الأشياء التى تقع فى محيط المشكاة ، وما يشع المصباح الذى فيها من أضواء .

فنور الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يمسك هذا الوجود على نظامه الذى أقامه الله عليـه ، إذ على هذا النور يدور كل موجود فى فَلَـكه ، متناغما متجاوبا مع دورة الموجودات كلها فى فلك الوجود . . وهـــذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . . (٤٠ : النور) وقوله سبحانه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (١٥ : المائدة)

وعلى هذا يكون المراد بنور الله، هو ما أودع فى الموجودات من سُنَن ، وما ركّب فى المخلوقات من قوى ، وما بعث فى النـاس من رسل ، وما أنزل من كتب ، ومن دلائل . . ففى كل هذا نور من نور الله ، « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » (١٦ : المائدة) ولهذا جاءت هذه الآية :

« الله نور السموات والأرض » تالية قولَه تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوْا من قبلـكم وموعظة للمتقين » وذلك بعد أن كشفت آيات الله بأنوارها هذه الغاشية التى غشيت المسلمين من حديث الإفك ، حتى لقد انقشع ظلامها ، وانجلى ليلها عن صبح مشرق مبين . .

ولابد من الإشارة إلى أن التعبير عن قيومية الله سبحانه وتعالى ، وسلطانه القائم فى الوجود — بالنور ..إنما هو لِما فى النور من لطف ، بحيث لا يتجسد أبداً، بل أنه فى هذا على عكس الأشياء كلها ، فالأشياء اللطيفة كالزجاج الرقيق مثلا ، كلما علت طبقة منه طبقةً أخرى زادت كثافته ، ثم لا تزال شفافيته تقل كلما تكاثرت طبقاته حتى يصبح جسما معتما .. أما النور ، فإنه كلما تضاعفت أشعته ، ازداد شفافية وقدرة على كشف المرئيات التى يقع عليها . . فنورُ شمعة فى حجرة ، ونور آلاف منها فى نفس الحجرة ، هو هو من حيث أنه لا يَشْغَل حيّزاً فيها ، ولا يحدث خلخلة فى الهواء الموجود بها ، وإن كان يزيد الموجودات وضوحاً وانكشافاً . .

ومن جهة أخرى ، فإن النور ـ مع شفافيته ، ومع زيادة هذه الشفافية كلما قَوِى وكثُر — هو أكثر ظواهر الطبيعة سرعة ، بحيث لا يكاد يقيد بقيد الزمن . . فالشعاعة من الضوء تنتقل من طرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لمحة بصر ، لا تتجاوز جزءاً من الثانية . . .

فالنور ـ كما ترى ـ لا يتحيز فى مكان ، ولا يكاد يتقيّد بزمان .

والله سبحانه وتعالى لا يحويه مكان ، ولا يحدّه زمان . .

فإذا كان الله نورَ السموات والأرض ، كان معنى هذا أنه ـ سبحانه — وهو القيوم على الوجود — ليس حالاً فى الموجودات ، ولا متحيزاً فيها ، ولا محجوزاً فى مكان منها دون مكان . . وأقرب مثل لهذا فى تصورنا ، هو النور المنبعث من مصباح فى زجاجة درية ، داخل مشكاة ، هى أشبه بالوجود الذى يستضىء بنور الله . . فهذه المشكاة ، يكشف النور وجودَها ، دون أن يشغل حيزاً فيها ، ودون أن تحيزه هى داخلها ، لأنها شفافة لا تحجب النور

الذى يشع فيها ، ودون أن يكون هناك زمان ينتقل فيه النور من مكان إلى مكان فيها . .

وإذا علمنا أن الوجود — كما أثبت العلم — مصور على هيئة كروية ، كان لنا أن نرى هذا الوجود ممثلاً فى تلك المشكاة البلورية ، المعلقة فى الفضاء يضيئها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب دُرّىّ ، يوقد من زيت شجرة زيتونة مباركة لا شرقية ولا غربية يكادُ زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ! . . وأقرب صورة للوجود ، والنور المنبعث فى كيانه ، هو القنديل المعلق فى بيت من بيوت الله ، ينبعث منه النور فى ظلمات ليل بهيم .

ومن بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، ينبغى أن نفرق بين نور ونور . . نور الله ، وهذا النور الذى نصطنعه . . فهذا النور الذى نحصل عليه من الطبيعة ، هو ظلام بالإضافة إلى النور الإلهى . الذى لا يُعرف كنهه ، ولا يدرك سره ، وإن استضاءت به البصائر واستنارت به القلوب . . فهذا مثلٌ ، لا يقوم منه تماثل بينه وبين الحقيقة المشار إليه بهـــا . . « ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

وفى قوله تعالى : « يهدى الله لِنُوره مَن يشاء » — إشارة إلى أن نور الله الذى يملأ الوجود ، هو نفحة من النور العلوى ، وأن هـذه النفحة ، موجودة فى كل موجود . . ومع هذا فإن لله سبحانه وتعالى ألطافاً بعباده ، فيصل نورهم بنوره ، ويفتح لهم بهذا النور طريقاً إلى عالم الحق ، والخير : « يهدى الله لنوره من يشاء » .

فالوجود كله ، وإن كان نوراً من نور الله ، بالإفاضة والخلق ، فإن هناك نورَ الهداية ، الذى يضىء البصائر ، ويشرح الصدور ، وهذا النور يدعو الله إليه من شاء من خلقه ، ليكونوا فى ضيافة هذا النور القدسى ؟ وليكونوا

ربانيين، بما فيهم من النور الرباني، الذي أمدهم الله به: «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» (٤٠: النور).

قوله تعالى: «ويضرب الله الأمثال للناس». أي هذا النور، الذي صوّرته المشكاة، والمصباح، هو مثلٌ، وليس حقيقة، لأن نور الله سبحانه وتعالى لا يمكن وصفه، وإن أمكن الإشارة إليه بصورة تمثله، ولا تماثله..

وقوله تعالى: «والله بكل شيء عليم» إشارة إلى أن نور الله، هو من علم الله الكاشف لكلّ شيء.. فهو نورُ علمٍ وهداية، يصدر عن عالِمٍ، حكيم، مدبر، فيفيض على الوجود هدًى ورحمة، ويسكب على الموجودات سكينةً وسلاماً وأمناً..

قوله تعالى:

* «في بيوت أذِنَ اللهُ أن تُرفعَ ويذكرَ فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذِكر اللهِ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاةِ يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار» —

مُتعلّق الجار والمجرور «في بيوت» هو فعل محذوف، تقديره: إذا أردتم التماس هذا النور.. نورِ الله.. فالتمسوه «في بيوت أذِنَ الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه».

وهذا الذي نقول به، هو أنسب من القول بأن هذا الجار والمجرور متعلق بمشكاة، على تقدير:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة.... في بيوتٍ أذن الله أن ترفع». وهذا بعيد من حيث النظم، ثم بعيد من حيث المعنى. إذ أن نور الله هو نور الله، سواء في المساجد، أو في غيرها..

والذي ذهبنا إليه، هو المناسب للمقام.. إذ كان قوله تعالى: «يهدي

الله لنوره من يشاء » مشوّقًا للنفوس أن يكون لها نصيبها من هذا النور ، وأن تكون فيمن شاء الله هدايتهم إليه . . ومن بواعث هذا الشوق تجىء تساؤلات عن هذا النور ، وكيف السبيل إليه ، وبلوغ النفس حظها منه ؟ ولا تكاد النفس تتلقى هذه الخواطر المتسائلة ، وهى بين يدى قوله تعالى : « يهدى الله لنوره من يشاء » - حتى يلقاها الدليل الذى يأخذ بها إلى مواقع هذا النور : « فى بيوت أَذِن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه » - فى هذه البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يُلتمس نور الله ، حيث يتجلى الله سبحانه وتعالى على كل من يغشون هذه البيوت ، ويذكرون الله فيها . .

وفى تنكير البيوت ، تعظيم لمقامها ، ورفع لشأنها ، وتضخيم لقدْرها ، وإن ضاقت رقعةً وقلت عدداً . . فهى أيًّا كانت ، أعلى البيوت مقاماً ، وأرفعها عماداً ، وكل بيوت غيرها ، ظِلٌّ لها ، ومِرْفق من مرافقها .

وإذْنُ الله برفع هذه البيوت ، هو أمره بإقامتها . . فحيث أقيمت ، فهى مرفوعة على كل بنيان ، وإن علا بناء ، وعظم جسماً .

وقوله تعالى : « ويُذْكر فيها اسمُه » معطوف على قوله تعالى: « تُرفَعَ » أى أذن الله أن ترفع ، وأذن أن يذكر فيها اسمه . . وهو بيان للغاية من رفعها ، وإقامتها ، وأنها إنما رفعت وأقيمت ليذكر فيها اسم الله . . فهى بيوت عبادة ، وذِكرٍ لله . .

وذكر اسم الله ، هو ذكر الله . . واسم الله ، هو صفته ، وليس لِله سبحانه اسم واحد ، أو صفة واحدة ، وإنما له أسماء وصفات كثيرة ، هى الكمال المطلق : كما يقول سبحانه : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (١٨٠ : الأعراف) ودعاء الله بأسمائه ، هو ذكر وتمجيد له . .

وفى ذِكر الله ، ذِكرٌ لجلاله ، وعظمته ، وقيومته ، واستحضارٌ لِما له سبحانه وتعالى فى خلقه ، من تقدير وتدبير ، وفى هذا الذكر يتصل العبد بربه ، ويقترب من مواقع رضاه ورحمته . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢٨ : الرعد) وقد عرضنا لبحث هذا الموضوع ، عند تفسير هذه الآية الكريمة[1] . .

وقوله تعالى : « يسبّح لَهُ فيها بالغدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللهِ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافُون يوماً تتقلب فيه القلوبُ والأبْصارُ » . . هو بيان شارح لهذه المساجد ، ولمن يغشوْنَها من عباد الله . . فهذه البيوت لاَ تَهَشّ ، ولا تسعد إلا بمن يتعلق قلبُه بها ، ويجد الأنس والمسرّة فى رحابها ، ويستشعر الغُربة والوحشة فى البعد عنها ، فهو لهذا غادٍ ورائح إليها ، لاتلهيه تجارة ولابيع عن غشيانها وذكر الله فيها ، ابتغاء رضوانه ، وخوفاً من لقائه فى يوم « تتقلب فيه القلوب والأبصار » أى تضطرب فيه القلوب هوْلاً وفزَعاً ، وتزيغ فيه الأبصار ، كرباً وجزعاً . .

والغُدوّ : أول النهار ، والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار .. وأُفرد الغدوّ : لأن فيه صلاة واحدة ، هى صلاة الصبح .. وجُمع الأصيل . . لأنه زمن ممتد ، فيه صلاة الظهر ، والعصر ، والعشاءين .. (المغرب والعشاء) .

قوله تعالى :

* « ليجزيهم اللهُ أحْسنَ ما عَمِلُوا ويَزيدَهم من فَضْلِه والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

هو تعليل لما يبغيه الغادون والرائحون إلى بيوت الله . . أى أنهم يفعلون

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن : الكتاب السابع .

هذا ، ويولّون وجوههم إلى ربهم بالغدو والآصال ، ليكون ذلك سبباً فى أن يرضى الله عنهم ، ويجزيهم أحسن ما عملوا ويقبله منهم ، ويتجاوز بإحسانهم هذا عن سيئاتهم ، كما يقول سبحانه : « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم » (١٦ : الأحقاف) . . وليس هذا فحسب ، بل إنه سبحانه وتعالى — سيزيدهم من فضله ، ويضاعف الجزاء لهم من إحسانه . . فهذا رزق من رزقه « والله يرزق من يشاء بغير حساب » لأن خزائنه ملأى أبداً ، لاتنقص بالعطاء . . وإذن فلا يَجْرى حساب على هذه الخزائن ، لإحصاء ماذهب منها وما بقى . .

ولكن ـ مع هذه الخزائن الملأى من رزق الله ، ومن فضله ، وإحسانه ـ فإنه سبحانه ، قيوم حكيم ، يضع رحمته حيث يشاء ، ويعطى منها مايشاء لمن يشاء ، بحساب وتقدير ، حسب ماتقضى به حكمته وتدبيره ، وفى هذا يقول سبحانه : « وكلُّ شيء عنده بمقدار » . . ويقول جلّ شأنه : « وإن من شَىء إلاّ عندنا خزائنُه وما ننزله إلا بِقَدَر معلوم » (٢١ : الحجر) . .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يَحسَبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً وَوَجَد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب » .

فى الآية السابقة ، ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى المؤمنين ، الذين يَغدون ويروحون إلى بيوته ، يذكرونه ويسبحون بحمده ، وقد وعدهم الله على ذلك ، قبولَ أحسن ماعملوا ، ومضاعفةَ هذا الإحسان . .

وفى هذه الآية عَرْضٌ للكافرين ، وأعمالهم التى يعملونها فى دنياهم . . إنها أعمال مهلكةٌ لأهلها ، لايجنيهم منها إلا البلاء وسوء المنقلب . . لأنها

أغوتهم وأضلتهم ، وخُيّل إليهم منها أنها أعمال مبرورة ، وأنها غَرْس فى مغارس الخير والإحسان . . وهى فى حقيقتها أشبه بالسراب ، يلمع فى « قيعة » ـ جمع قاع ـ وهو الأرض الفسيحة التى لازرع فيها ..

وفى قوله تعالى : « يحسبه الظمآن ماء » إشارة إلى خداع النفس ، بعد خداع البصر بهذا السراب ، فإن لهفة الظمآن ، وحرارة شوقه إلى الماء ، تُغَطّى على عقله ، فيخال السراب ماء ، مثَلُه كالخائف المذعور ، فى سواد الليل ووحشته ، يمثّل له الوهم أشباحاً تطلع عليه من كل أفق ، تريد الانقضاض عليه والفتك به .

وإلى هذا السراب يشتد طلب الظمآن ، ويسعى حثيثاً لاهثاً إليه ، وكلما قطع مرحلة وجد السراب يتحرك أمامه ويفلت من بين يديه ، وهكذا حتى تتقطع أنفاسه : « حتى إذا جاءه » ووصل إلى حيث كان يظن أنه الماء « لم يَجِده شيئاً » ! فتتضاعف لذلك حسرته ، ويشتد يأسه ، وتتقطّع أنفاسه ، وتغلى مراجل غيظه وظمئه . .

وليس هذا وحسب ، بل إنه سيجد هناك من يمسك به ، ويقوده إلى موقف الحساب على ما كان منه من كفر ، وضلال . . « ووجد الله عنده . . فوفّاه حسابَه . . والله سريع الحساب » !

فالكفر يمحق كلّ عمل وإن كان من باب الخير والإحسان . . لأن كل عمل لايُزكّيه الإيمان ، هو أشبه بالمَيْتة ، لايؤكل لحمها ، وإن كانت من أطيب الحيوان لحماً !

قوله تعالى :

* « أو كظلماتٍ فى بحر لجىّ يغشاه موجٌ مِن فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً . فماله من نورٍ » .

هو مثل آخر ، تُشبه به أعمال الكافرين ، بعد أن شُبهت بالسراب .

والفرق بين المَثَلَين ، أن السَّراب صورة تمثيلية لما يراه الكافرون فى أعمالهم وهم فى الحياة الدنيا ، حيث يرونها فى صورة حسنة معجبة . . وهى فى حقيقتها سراب يخدعهم ، ويدفع بهم فى طريق الغَواية والضلال ، حتى تخمد أنفاسهم ، ويُسلمهم هذا السراب إلى القبر ، وما وراء القبر من حساب ، وعقاب . . والله سبحانه وتعالى يقول : « أفمن زيّن له سُوء عمله فرآه حسنا » . (٨ : فاطر)

وهنا فى هذا المثل ، تطلع عليهم أعمالهم هذه فى الدار الآخرة ، حيث يلتمسونها ، فيجدون أنهم غارقون فى ظلام مطبق ، لا يرى فيه أحدهم يَدَه ، إذا أخرجها من كمّه ، وعرضها لعينيه . . فكيف يرى هذه الأعمال ، التى كان يظنها أعمالا مبرورة محمودة ؟ إنها قد استحالت إلى قطعة من الظلمات ، فى كيان هذه الظلمات . . فليقتطع لنفسه قطعة من هذا الظلام إن أراد ، وإن استطاع ! .

« أو كظلمات » كظلمات لا ظلمة واحدة ، بل طبقات بعضها فوق بعض من مادة الظلام « فى بَحرٍ لُجىّ » أى متلاطم الموج ، حيث يتعالى الموج ، ويركب بعضه بعضاً ، فإذا سواده الكثيف يلتقى مع هذه الظلمات المطبقة على هذا البحر اللجىّ « يغشاهُ موج من فوقه موج من فوقه سحاب » أى يغطى هذا البحر موج ، وفوق الموج ، موج ، وفوق الموج ، سحاب ، هو موج فوق موج . . وهو « ظلمات بعضها فوق بعض » . . وأنّى لمن تركبه هذه الظلمات أن يعرف طريقاً إلى النجاة والخلاص ؟ إنه لا يكاد يرى يده التى يمدّها إلى حبل النجاة إن كان هناك حبل ! إن هذا الظلام يكاد ينعقد عليه ، ويلبسه من قمة رأسه

إلى إخمص قدمه ، حتى تضيق به أنفاسه ، وتزهق منه روحه !

وقوله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ـ أى من لم يجعل الله فى قلبه نوراً ، هو نور الإيمان ، الذى يهدى صاحبه إلى طريق السلامة والنجاة ، فهيهات هيهات أن يجد النور أبداً .. وإنه لَلمحروم الشقى ، ذلك الذى حُرم حظّه من نور الله ، الذى يملأ السموات والأرض !

الآيات : (٤١ — ٤٦)

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطيرُ صافاتٍ كلٌّ

قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » ..

فى هذه الآية ، والآيات التى بعدها ، استعراض لقدرة الله ، وبسطة نفوذه ، وسلطانه للتمكن فى هذا الوجود ، والآخذ بناصية كلّ موجود .. وذلك بعد أن عرضت الآيات السابقة مثلا لنور الله سبحانه وتعالى ، الذى يملأ الوجود كله ، ويسرى فى كيان كل ذرة فيه ، ويقيمها المقام المناسب لها فى ملكوت السموات والأرض .. وأن هذا النور قد اهتدى به المهتدون ، فأسعدهم الله وأرضاهم ، وأنزلهم منازل السعادة والنعيم ، على حين قد عَمِي عن هذا النور ، الضالون ، والمشركون ، والكافرون ، فأذاقهم الله الوبال والخسران ، وأنزلهم منازل الهون والشقاء ..

وفى هذا العرض الذى تعرض فيه هذه الآية والآيات التى بعدها ، مالله سبحانه وتعالى من قدرة وسلطان — فى هذا العرض تثبيت لإيمان المؤمنين ، وربط على قلوبهم ، وتوثيق للصلة التى أقامها الإيمان بينهم وبين ربّهم .. ومن جهة أخرى ، فإن فى هذا العرض دعوة مجدّدة إلى الكافرين ، والمشركين ، والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض ـ أن يُعيدوا النظر فى موقفهم هذا الزائغ المنحرف عن سواء السبيل ، وأن ينظروا فى هذه المعارض التى تعرضها تلك الآيات لجلال الله ، وقدرته ، وعظمته ، ففيها نور الله لمن يلتمسون النور ، ويطلبون الهدى .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض » .. الرؤية هنا معناها العلم الذى يجىء عن بحث ونظر .. وهو خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، يُخَاطَب به كلّ من هو أهل للخطاب .. ثم هو دعوة إلى النظر والتدبّر فى هذا الوجود .. وعن هذا النظر وذلك التدبر يستطيع الإنسان أن يرى انقيادَ الوجود كلّه للخالق جل وعلا ، وولاءه له ، وعبوديته لذاته ، وخضوعه لجلاله .. وبهذا يعلم أن كل مافى السموات والأرض يسبّح بحمد الله

ويمجّده ، ويعظّمه .. « وإنْ من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) .. فهو تسبيحٌ وولاء ، وخضوع واستسلام ، كما يقول سبحانه : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال » (١٥ : الرعد) .

— وقوله تعالى : « والطيرُ صافّات » .. معطوف على فاعل الفعل « يسبح » وهو الاسم الموصول « مَنْ » والمعنى .. ويسبح له « الطيرُ صافّات » .. وصافاتٍ ، حال من الطير ، أى أنها تسبّح لله سبحانه وتعالى ، وهى فى أروع مظاهرها ، وأعلى منازلها ، حيث تكون محلقة فى جوّ السماء ، صافّة أجنحتها ، أى باسطتها فى حالٍ من الهدوء والسكون ، كأنها تستعرض العالم الأرضى ، وتبسط ظلها عليه .. فهى فى علوها وتربعها على هذا العرش ، لم يدخل عليها شىء من الكبر والغرور ، كما يقع ذلك لكثير من الناس ، بل إنها لتزداد بهذا ولاء وخشوعاً لله ، فتقيم صلاتها لله ، فى جوّ السماء، صافة أجنحتها ، مرسلةً جوارحها ، فى خشوع واستسلام ، معتمدة على قدرة الله ، لاتخشى أن تهوِى من حالق .. وهذا هو التوكل فى أروع مظاهره ..

— وقوله تعالى : « كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه » .

يمكن أن يكون فاعل الفعل « عَلِمَ » ضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى : ويكون المعنى كلٌّ من هذه المخلوقات قد علم اللهُ صلاته وتسبيحه .. وهذا هو الذى ذهب إليه المفسّرون ..

ويمكن أن يكون الفاعل ضميراً يعودُ إلى هذه المخلوقات .. ويكون المعنى أن كلّ مخلوق من هذه المخلوقات ، قد علم الصلاة التى يصلّى بها ، والتسبيح الذى يسبّح به لله .. وهذا هو الرأى الذى نقول به ..

وبكون معنى العلم هنا ، هو ما أودعه الله فى كيان كل مخلوقٍ من قُوًى

يتصرف بها ، ويعمل حَسَبَ مايَسّره الله له .. وهذا يُشعر بأن عملها هذا ليس عملا آليًا ، وإنما هو عمل عن علم ، ذاتى ، أو خارج عن الذات .. فهو على أى حال عمل يَحْـكُمه عِلم ، حتى يُحقق هذا التآلف ، والتجاوب بين موجودات الوجود ، فى حمد الله وتسبيحه ..

وقوله تعالى : « والله عليم بما يفعلون » إشارة إلى علم الله سبحانه وتعالى، المحيط بكل شىء ، والعالم بكل مايعلم الخلق وما يعملون ..

وهذا يؤيد ماذهبنا إليه من أن هذه المخلوقات لها علمها الذى تعمل به ، وأن لله سبحانه وتعالى علمه ، المحيط بعلمها وعملها جميعًا !

قوله تعالى :

* « ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » .

هو تأكيد لعلم الله بعلم المخلوقات ، وبعملها .. إذ هو علم متمكن ، لأنه علم الخالق لِما خلق ، ومعرفة المالك لما ملك .. فقد يعلم الإنسان الشىء ولا يملكه ولا يقدر على التصرف فيه بمقتضى مايعلم منه .. أما علم الله فهو علم المالك لِما ملك ، يتصرف فيه كيف يشاء ، بما يقضى به علمه ، وحكمته ، وإرادته .

وفى قوله تعالى : « وإلى الله المصير » تأكيد للملكية ، وأنها ملكية لا تخرج عن سلطان المالك أبدًا ، لا كلكية المالكين لِما يملكون .. إذ أن كل مايملكه الإنسان من شىء ، هو ذاهبٌ عنه ، مقضىٌّ عليه بالفراق بينه وبين ماملك .. إما بأن يستهلكه فى حياته ، وإمّا بأن يموت عنه ، ويخلّفه وراءه لمن يرثه من بعده .. أمّا مِلكية الله سبحانه وتعالى لهذا الوجود ومافيه ، فهو ملك لايخرج من يد المالك أبدًا ، مهما تحولت أحواله ، وتبدّلت صوره وأشكاله ، فالمالكون ، وما يملكون صائرون جميعًا إلى الله ..

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار » .

يزجى : أى يدفع ، ويحرك ..

والركام : المتراكم ، المجتمع بعضه إلى بعض ..

الودْق : المطر ، ينزل متساقطاً فى قطراتٍ ، فيَدِقُ الأرض ، أى يترك فيها آثاراً ..

فى هذه الآية عرض محسوس لقدرة الله ، بعد هذا العرض غير المحسوس ، الذى جاءت به الآية السابقة ، من النظر المطلق الشامل للوجود كله ، وما قام عليه من نظام ..

وفى هذاالعرض ، إلفاتٌ إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، التى يشهدها الناس جميعاً فى كل زمان ، وكلّ مكان . .

فهذه السحب التى تَنْطلق فى مواكب متدافعة فى جو السماء ، كأنهـــا جيوش غازية ، تزحف إلى ميدان القتال ، أو تتراكض عائدةً من المعركة محملة بالغنائم والأسلاب ــ هذه السحب : من أنشأها ؟ ومن سيرها ؟ ومن حدّد لها خط مسيرها ؟ ومن وقف بها عند غاية معلومة لها ؟

ألاَ فليعلم من لم يكن يعلم ، أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى أنشأها ، وسيرها ، وحدّد لها وجهتها ، وأمسك بها عند الغاية المحددة لها ..

ــ « ألم تر أن الله يُزْجى سحاباً . . ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً » .. فهذه صور ثلاث ، لمشاهد السحاب .. يُولَدُ أولاً دخاناً رقيقاً ، ثم يدفعه الرّيح

فى خفة ويسر .. ثم يجتمع هذا السحاب بعضه إلى بعض ، فيتكاثف شيئاً فشيئاً ، ثم يتدافع هذا السحاب ، ويدخل بعضه فى بعض ، فإذا هو رُكامٌ ، أشبه بالآكام ، أو الجبال ..

— وفى قوله تعالى : « فترى الودق يخرج من خِلاله » .. إلفات إلى مولد المطر من هذا السحاب ، وتَحَلّبِه من خلاله ، كما يتحلّب اللبن من الضرع ..

وليس يدرك سر هذه اللفتة إلى قطرات الماء ، وهى تتساقط من السحاب ، إلا من عاش فى الصحراء ، وشهد آثار الماء حين ينزل إلى الأرض ، ويبعث الحياة والحركة فى جمادها ونباتها ، وحيوانها .. إنها عملية خلق ، وبعث جديدين ، لهذا الجسد الكبير الهامد .. ثم هو بعد ذلك عُرْس رائع ، تحتشد له الأحياء ، وتنطلق من كيانها نشوات البهجة والحبور ، فى أهازيج ، وأناشيد ، وزغاريد : يتألف منها لحن عبقرىّ بالتسبيح والحمد لله رب العالمين . .

انظر إلى هذا الوصف الرائع ، الذى صوّر به « امرؤ القيس » احتشادَ الطبيعة ، ونشوتها غِبَّ مَطرٍ .. فيقول امرؤ القيس ، فى معلقته المشهورة :

أَصَاحِ ترى بَرْقاً أُرِيك وميضَه ... كَلَمْعِ اليدين فِى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ
يُضِىء سناه . . أو مصابيحِ راهب ... أمال السليط بالذُّبال المفتَّلِ[1]
قَعَدتُ له وَصُحْبَتِى بين ضَارِجٍ ... وبين الْعُذَيْبِ بُعْدَ مَا مُتَأَمَّلِى[2]
كأنّ مُكَاكِىّ الجِواء غُدَيَّةً ... صُبِحن سُلافاً من رحيق مُفَلْفَلِ

(١) السليط : الزيت الذى يوقد منه المصباح .
(٢) ضارج ، والعذيب : موضعان .

هذه نظرة شاعر .. نظر إلى هذه الظاهرة من ظاهرها ، وشُغل بألوانها ، وألحانها ، عما وراء هذه الألوان ، وتلك الألحان ، من حقائق ، تصل هذه القطعة من الطبيعة بالوجود كله ، ثم تُضيف هذا الوجود إلى الموجد ، المبدع ، المصوّر !

وإليك نظرةَ نبيّ !

ومَنْ ؟ إنه نبيّ الأنبياء ، وخاتم المرسلين ، محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ..

فقد رُوى أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان إذا نزل المطر ، خرج إلى العَرَاء ، وكشف له عن رأسه ، واحتواه بين ذراعيه .. وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إنه قريب عهد بربه » .. أى إنه رحمة مرسلة من عند الله .. رحمة محسوسة ملموسة ، تُرى بالعين ، وتلمس باليد ، وتُذَاق باللسان..! فمن أراد أن يشهد رحمة الله عِياناً ، فهى فى هذا الماء المُنزّل من السماء .. صافياً طاهراً ، لم يعلق به شىء من أخلاط الأرض .. إنه فى طهر المواليد التى تلدها الحياة .. من إنسان أو حيوان أو نبات !

قوله تعالى : « وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ » .. أى وينزل من جبالٍ فى السماء ، وهى السحب المتراكمة ـ برداً ، وهو قطع الثلج . .

فقوله تعالى : « من جبال فيها من برد » بدل من السماء ..

وفى الإشارة إلى هذه الظاهرة ، إشارة إلى أن هذه السحب التى ينزل منها الماء ، هى أيضاً ، وإن كانت مصدر نعمة ، يمكن أيضاً أن تكون مصدر نقمة ، حين ينزل منها هذا البرد ، وكأنه قطع من الأحجار ، تتساقط من الجبال ، فتُهلك كل من تقع عليه ، وكأنها بهذه العقوبة الراصدة إلى جانب تلك النعمة

الـكبرى المنزلة من السماء ـ مرصودة ليؤخذ بها كل من يكفر بهذه النعم ، ولا يضيفها إلى المنعم بها ، ويُسبح بحمده ، ويشكر له . .

* وقوله تعالى: « فيصيب به من يشاءويصرفه عمن يشاء » أى أن هذا البرد الذى تحمله السحب بين يديها ،لا نرمى به هكذا من غير حساب ، بل هو مملوك بيد القدرة القادرة، فيقع حيث أراد الله أن يقع،ويُصرف عمن أراده الله سبحانه أن يصرفه عنه ، من نبات ، وحيوان ، وإنسان . .

* وفى قوله تعالى: « يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار » ـ لون جديد تـكمل به الصورة ، صورة هذا العذاب الواقع مع البَرد المتساقط كالأحجار . . فهذا البَرد يحمل معه الصواعق المهلـكة ، والنار المحرقة ، وإن كان ماءً ! فما أعظم قدرة القادر ، وما أعزّ وأقوى سلطانه ! !

قوله تعالى :

* « يُقَلِّب الله الليل والنهار . . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

وهذه ظاهرة أخرى . . تشهدها الحواس ، وتعيش فيها . . حيث يدور الليل والنهار فى هذا الفلك دورة منتظمة ، محـكمة ، لا تتخلف أبداً . . وكأنهما الـكفّ فى حركتها ، ظاهراً وباطناً . . ! يقلبهما الله ـ سبحانه ـ كما يقلب الإنسان كفّه !

وفى هذا عبرة وعظة لأولى الأبصار . . « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفـكرون فى خلق السموات والأرض . . ربنا ما خلقت هذا باطلا » (١٩١ : آل عمران) .

قوله تعـالى :

* « والله خَلَقَ كُل دَابَّةٍ من ماء . . فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم

من يمشى على رِجْلَيْن ومنهم من يمشى على أربع .. يخلق الله مايشاء .. إن الله على كلِّ شىء قديرٌ » ..

هذه الآية ، شارحة لنعمة الماء ، الذى أشارت إليه الآية قبل السابقة .. فهذا الماء الذى ينظر إليه بعض الناس نظرة باردة جامدة ، ولا ينظر إليه بعضهم أبداً — هذا الماء هو أصل هذه الحياة ، وهو جرثومة كل حى .. من نبات ، أو حيوان ، أو إنسان .. وهذا ماجاء فى قوله تعالى : « وجَعَلنا من الماء كلَّ شىء حىّ » .. فليُعِد الإنسان الغافل النظرَ إلى هذا الماء ، وليرجع إليه البصر مرة ومرة ومرات ، وسيرى أن هذا الماء هو أصل وجوده ، كما أنه سبب فى إمساك هذا الوجود ، وحفظه ، وأنه لو حُرِمَ الماء لأيام معدودة لهلك ! .

فالماء ، هو الحياة العاملة فى هذا الكوكب الأرضى .. ففى الماء أودع الله سِرّ الحياة ، فى صورها المختلفة ، وأشكالها المتباينة المتعددة .. فحيث كان الماء كانت الحياة ، وكانت الحركة ، وكان التوالد لصور الحياة ، التى تكتسى بها الأرض حسناً وجمالا ، وتتبدل بها من وحشتها بهجة وأنساً ..

ونظرة فى وجوه الأرض المختلفة ، يتكشف لنا منها ماللماء من آيات وأسرار .. فحيث يوجد الماء يوجد الخصب والنماء ، وتشاهد الحركة والحياة ، وحيث يفتقدالماء ، يكون الجدب ، والوحشة ، والموات ، والهمود . !

ومن أجل هذا كان الماء هذا الذكر الحفىّ به فى القرآن الكريم .. ويكفى أن يكون عرش الله سبحانه وتعالى على الماء ، كما يقول سبحانه : « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على المآء » (٧ : هود) .. والمراد بالعرش ، هو السلطان .. وهذا يعنى أن سلطان الله

قائم على الماء. يصرفه كيف يشاء ، ويخلق منه مايشاء . . وهذا يعنى أيضاً أن الماء هو سر الحياة ، التى يُفيضها الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته على الأحياء فى الوجود كله . .

— وفى قوله تعالى : « فمنهم من يمشى على بطنه.. ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » . . إشارة إلى تنوع صور المخلوقات ، وتعدد أشكالها ، وهى جميعها من مادة واحدة ، لالون لها ، ولا طعم ، ولا رائحة . . إنها شىء واحد ، ومع هذا فقد جاءت بقدرة القادر ، وصنعة الخبير الصانع — على هذه الصور التى لاتكاد تحصر من عوالم الأحياء ، على اختلاف صورها ، وتباين أشكالها ، وتعدد ألوانها . .

وهذا التقسيم الذى أشارت إليه الآية ، هو تقسيم عام ، حيث يندرج تحت كل قسم مالا حصر له من صور وأشكال ، تنضوى تحت كل قسم ، وتندرج تحت كل صنف . .

فأنواع الزواحف ، من ديدان ، وحيات ، وحشرات . . وماشاكلها — هى مما يمشى على بطنه . .

والناس ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم .. والطير ، وتعدد أجناسه واختلاف ألوانه وأشكاله . . ذلك كله ممن يمشى على رجلين . .

والبهائم والدوابّ ، والأنعام ، والوحوش . . فى تعدّد عوالمها ، واختلاف أجناسها . . ممن يمشى على أربع . .

— وقوله تعالى : « يخلق الله مايشاء » — هو إلفاتٌ إلى هذه القدرة القادرة ، التى تُبدع وتصور وتخلق ، هذه الصور ، وتلك الأجناس والأنواع ، من عنصر واحد . . وهذا لا يكون إلا من قادر حكيم عليم ، يتصرف كيف

يشاء . . ولو كان ذلك من عمل غير هذه القدرة المطلقة ، لجاءت جميع المخلوقات فى قالب واحد ، وعلى صورة واحدة . .

— وقوله تعالى : « إن الله على كل شىء قدير » تقرير لهذه الحقيقة ، وتأكيد لها ، وأنها لاتصدر إلا ممن هو على كل شىء قدير . . لايعجزه شىء

وهذا كلّه فى عالم الأرض . . ومن قطرة الماء . .

وأين الأرض ، وما فيها ، ومَن فيها ، من ملك الله العظيم ؟

ألاَ شاهَتْ وجُوه من يولُّون وجوههم إلى غير الله ، وألاَ خَسِىء وَخَسِرَ المبطلون ! . .

قوله تعالى :

* « لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبيناتٍ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

المراد بالآيات المبينات ، هى تلك الآيات التى تحدثت عن نور الله ، وعن أن هذا النور هو آيات مبينات ، تسرى فى كيان الموجودات ، وتقيم كل موجود بمكانه الملائم له ، وتوجهه وجهته المقدرة له . . ثم كان من نور الله ، تلك الآيات القرآنية ، التى كشفت للناس طريقهم إلى الله ، وأطلعتهم على دلائل قدرته ، وآثار رحمته . . وذلك فيما جاء فى الآيات التى تحدثت عن بيوت الله التى أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه . والآيات التى تحدثت عن الكافرين وأعمالهم ، ثم فى هذه الآيات التى عرضت تلك المشاهد الناطقة بقدرة الله ، وسعة علمه ونفوذ سلطانه . . من السحاب والمطر ، ومن خلق الحياة القائمة على الأرض من عنصر الماء . .

ففى هذا كله ، آيات مبينات ، أى موضحات ، وكاشفات ، لطريق الحق ، والهدى ، والإيمان بالله ، والولاء له ، والتسبيح بحمده .

—وفى قوله تعالى : « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . إشارة إلى أن هذه الآيات المبينات ، وتلك الشموس الساطعة ، لايهتدى بها ، ولا يبصر الحق على ضوئها ، إلا من أراد الله أن يفتح عيونهم إليها ، ويكشف لبصائرهم الطريق إلى الله من خلالها . . وذلك شأنه فى عباده : « من يشأ الله يُضْلِلْهُ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (٣٩ : الأنعام) . . « فمن يُرِدِ الله أن يهديه يشرحْ صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء » (١٢٥ : الأنعام) .

الآيات : (٤٧ — ٥٢)

* « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعدذلك وما أولئك بالمؤمنين » .

من هم هؤلاء الذين يقولون آمنا بالله وبالرسول ؟

إنه لم يَجْرِ لهم ذكر فى الآيات السابقة .. ولكنهم مذكورون ضِمناً فى قوله تعالى « لقد أنزلنا آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ والله يهْدِى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فهناك أناس ، قد دخلوا فى الجماعة الإسلامية ، وحُسبوا فى المؤمنين ، وأضافوا أنفسهم إلى تلك الجماعة وتزيّوا بزيّها ، وأخذوا سمتها .. واطمأنوا إلى ماهم فيه ـ ولكن الله فضحهم ، وكشف عن نفاقهم ، وأنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ..

إن الإيمان ولاء ، وطاعة ، وانقياد .. ثم هو قبل هذا حبّ ، وإنْ تجرّع المحب فى سبيله جُرَعَ البلاء !

وهؤلاء الذين لبسوا الإيمان ظاهراً ، إذا وضع إيمانهم على محكّ التجربة ، ظهر زيفهُ ، وبان مافيه من دخل ، وفساد .. « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » (٢ : العنكبوت) .

— « ويقولون آمنابالله وبالرسول وأطعنا » . . ما أكثر الأقوال ، وما أيسرها على الأفواه . وإن القول الذى لا يصدقه العمل ، هو زور وبهتان .. « ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك .. » أفهـذا شأن المؤمنين ؟ أو تلك هى سبيل المطيعين ؟ ـ ذلك مالا يكون من أهل الإيمان أبداً ..

والتولّى : هو النكوص على الأعقاب ، والعودة إلى حيث ما كانوا عليه من ضلال وكفر ..

— وقوله تعالى : « من بعد ذلك » .. أى من بعد قولهم هذا القول بألسنتهم ، والدخول بهذا القول مدخل المؤمنين ، وهو قولهم : « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » ..

وقوله تعالى : « وما أولئك بالمؤمنين » هو حكم على هؤلاء الذين قالوا هذا

الذى قالوه بأفواههم ، ولم يتصل بعقولهم ، وقلوبهم ، ولم يؤثر فى مشاعرهم ووجداناتهم . . وهم فريقان : فريق دخل فى التجربة ، فكشفت التجربة عن نفاقه .. وفريق مازال ينتظار التجربة التى تفضحه وتعرّيه من هذا الثوب الزائف الذى استتر به ، وهو لابد أن يتعرى ويُفضح فى يوم من الأيام :

ثوب الرياء يشفّ عما تحته فإذا التحفت به فإنك عارِ

قوله تعالى :

« وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » . . هو بيان لما فى قلوب هؤلاء المنافقين من نفاق . . فهم مؤمنون ، إذا كانت ريح الإيمان تدفع سفينتهم إلى الوجهة التى يريدونها . . وهم غير مؤمنين ، إذا تعارضت ريح الإيمان مع أهوائهم وشهواتهم . .

إنهم لا يرضون حكم الله ورسوله فيهم ، ولا يقبلون ما قضى به كتاب الله فى شأن من شئونهم ، إذا كان ذلك الحكم مما لا يرضيهم .

وفى الحديث عن هؤلاء المنافقين عموماً ، ثم الإشارة إلى فريق منهم — فى هذا إشارة إلى أنهم كيان واحد ، من الضلال ، والفساد . . وأنه لافرق بين من يُمتحن منهم ، ومن لا يمتحن ، وبين من يدعى إلى حكم الله ومن لا يدعى . إنهم جميعاً عصابة لصوص ، دخلت فى حظيرة الإسلام ، فإذا ضبط الإسلام بعضهم متلبساً بجرمه ، فليس ذلك بالذى يبرىء ساحة هؤلاء الذين لا يزالون بعيدين عن قبضة الإسلام ، حيث لم يفتضح نفاقهم بعد ! إنهم على طريق الفضيحة . إن لم يكن اليوم ، فغداً ، أو بعد غد !

وقوله : « إلى الله ورسوله » .

فى عطف الرسول على لفظ الجلالة « الله » سبحانه وتعالى ، تشريف لمقام الرسول ورفع لقدره . . وأنه إنما يقضى بما قضى الله به ، فحكمه من حكم الله ، وطاعته ، طاعة لله .

قوله تعالى

* « وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » — أى إن هؤلاء المنافقين ، إذا كان حكم الإسلام فى أمر من الأمور العارضة لهم ، مما يتفق مع مصلحتهم ، جاءوا إلى الرسول مذعنين ، أى مطيعين ، معلنين الولاء لله ، ولرسوله ، يطلبون أن يأخذهم بحكم الإسلام ، لأنه يجرى مع مصلحتهم ، ويلتقى مع حاجتهم . .

قوله تعالى :

* « أفى قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيفَ الله عليهم ورسوله ؟ . . بل أولئك هم الظالمون » .

الاستفهام هنا هو تقريرى ، يكشف عن العلل ، التى تموج بهـا صدور أولئك المنافقين . . فليس داء واحداً هو الذى يخامر المنافق . . وإنما هو يعيش فى أكثر من داء ، مما فى قلبه من مرض .

وهذا المرض الذى فى قلبه ، من شأنه أن يفسد كلّ معتقـد . . فلا يعتقد المنافق فى صحة رأى أو فساده إلا بالقدر الذى يجنىمنه نفعاً عاجلا . . إنه لاميزان عنده لخلق ، أو رأى . أو دين . . إنه يدين بالدين الذى يمشى مع هواه . . ومن هنا ، فهو فى ارتياب من كل شىء . . يلقاه متردداً متشككا ، ويقلّبه ، كأنما يراه لأول مرة ، ولو كان قد مرّ به ألف مرة . . لأن له فى كل مرة حالا معه ، ورأيا فيه . .

ومن هنا جاءت العلة الثالثة التى تسكن فى قلوب المنافقين ، وهى تخوفهم من أن يحيف الله عليهم ورسوله ، إذا هم احتـكموا إلى كتاب الله . . فـكتاب الله ميزان واحد . . وهم إنما يُجرون أمورهم على موازينَ لا حصر لها . . وكل حكم لا يتفق مع أهوائهم ، هو عندهم جور وحيف . . فهم يضعون أحـكام الله موضع الاختبار والامتحان ، ولا يجيئون إليها مستسلمين راضين بما يقضى

به الله، سواء أكان لهم أم عليهم . . بل إنهم إن وجدوا فى حكم الله ، ما هو لهم ، أخذوا به ورضوا عنه ، وإن وجدوه على غير ما يريدون ، أعرضوا عنه ، وتنكروا له . .

— وفى قوله تعالى : « بل أولئك هم الظالمون » . . إشارة إلى أن هذه الأمراض الخبيثة التى يعيش فيها المنافقون ، إنما تنتهى بهم إلى أخسر صفقة ، وهى الظلم الذى هم أول ضحاياه . . إنهم ظلموا أنفسهم، وساقوها إلى هذا المرعى الوبيل ، الذى لن يطعموا منه إلا الخزى والخسران فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة ، وحسبهم أنهم كفروا بآيات الله . . وللكافرين عذاب مهين . .

قوله تعالى :

* « إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . . »

هذه هى الصورة المشرقة لإيمان المؤمنين ، وما فى قلوبهم من صدق ويقين . . إنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، أجابوا بالسّمع والطاعة ، ورضوا بما يقضى به الله ورسوله فيهم ، سواء أكان ذلك لهم ، أم عليهم . . هكذا الإيمان ، وهكذا شأن المؤمنين : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيرَة من أمرهم . . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » (٣٦ : الأحزاب) إنه السمع والطاعة لما يأمر به الله ورسوله ، دون تردد أو ارتياب . . إذ لا إيمان مع تردد فى أمر من أمر الله أو شك فى حكم من أحكامه . .

قوله تعالى

* « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقهِ فأولئك هم الفائزون » .

هذا هو جزاء المؤمنين حقا . . الفوز برضوان الله ، بعد أن أفلحوا حين

أخلصوا دينهم لله ، ودانوا بالطاعة لله ولرسوله ، وامتلأت قلوبهم خشية وتقى لله ، فلم ينافقوا فى دينهم ، ولم يتجروا بإيمانهم ، بل كانوا على حال ، سواء مع الله ورسوله ، فى السراء والضراء وفى الشدة والرخاء . . إنه الحب لله ، والرضا بحكم الله . . والحب الصادق لا يجىء منه أبداً ما يغير موقف المحب ممن أحب . هكذا الحب بين الناس ، فكيف يكون الحب بين الناس ورب الناس ؟

يقول الشاعر لمن أحب :

أسيئى بنا أو أحسنى . . لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

الآيات : (٥٣ — ٥٧)

* « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* «وأقْسَموا بالله جَهْـدَ أيمانهم لئن أمرتهم ليخرُجُنَّ قُلْ لاتقْسموا.. طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون» .

عادت الآيات بعد ذلك لتكشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين ، ولتعرض صورة أخرى من صور نفاقهم مع الله ، بعد أن عرضت تلك الصورة المخزية الفاضحة منهم ، وأنهم لايقبلون حكم الله ورسوله فيهم ، ولا يرضَوْن بكتاب الله حكماً عليهم . .

فتراهم هنا فى هذه الصورة ، لايستجيبون لدعوة الجهاد إذا حان وقت الجهاد ، ودعا داعيه . . وقد كانوا من قبل يُقسمون الأيمان أغلظ الأيمان وأوكدها ، لئن أمرهم الرسول بالخروج إلى القتال ليخرُجُنَّ من غير تردد أو مَهَل . . فهم فى مجال القول ، أبطال حروب ، وفرسان قتال ، فإذا جدّ الجدّ، كانوا أجبنَ الناس ، وأحرص الناس على حياة . .

وإذا ماخلا الجبان بأرضٍ طلب الطعن وحده والنِّزالا

والحلف ، هو أول سمةٍ من سمات النفاق ، وكثرة الحلف وتوكيده ، هو الإدام الذى يأتدم به الكلام فى أفواه المنافقين ، فلا يسوغ لأفواههم كلام ، ولا يجدون لقولٍ طعماً إلا إذا غمسوه فى تلك الأيمان الكاذبة ، وأكدوه بهذا الحلف الفاجر ، واليمين الغَموس . .

وقوله تعالى : «لاتقسموا» هو ردع لهم ، وردٌّ لأيمانهم المؤكدة، ومبادرة بالتكذيب لِما وراء هذه الأيمان ، وذلك لما هو معروف من أمرهم ، وأنهم ليسوا أهلَ صدق ووفاء ، لأن من لا إيمان له ، لا أيمَان له . .

— وفى قوله تعالى : « طاعة معروفة » استهزاء بهم، وسخرية منهم ، وبطاعتهم تلك التى يحلفون عليها ، ويقدّمون بين يديها أوكد الأيمان . . إنها طاعة معروفة، طاعة بالقول ، وعصيان بالعمل . . وهذا مثل قوله تعالى فى المنافقين : « يَعْتَذِرون إليكم إذا رجَعْتُمْ إليهم قُلْ لا تَعْتَذِروا . . لن نؤمن لكم .. وقدنبأنا الله من أخباركم . . وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٩٤ : التوبة) .

قوله تعالى :

* « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ماحُمِّل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

هو دعوة إلى المنافقين ، أن يخرجوا من نفاقهم هذا ، وأن يستقيموا على طريق الإيمان ، ويأخذوا وجهتهم مع المؤمنين ، ولن يكون ذلك إلا بأن يطيعوا الله والرسول ، وأن يمتثلوا ما أمر الله به على لسان نبيه الكريم،فإن فعلوا رشَدُوا ، وإن تولوا فإنما على الرسول « ماحُمّل » من أمانة ، وهى تبليغ رسالة ربه ، وقد بلّغها . . « وعليهم ماحملوا » وهو الاستجابة للرسول، والإيمان به ، وبما معه من آيات الله . . وقد ألقوْا هذه الأمانة من أيديهم ، وخلعوها من أعناقهم .

وقوله تعالى : « فإن تولوا » أصله « تتولوا » . . حذفت تاء المضارعة للتخفيف . .

— وقوله تعالى : « وإن تطيعوه تهتدوا » — هو مطلوب الأمانة التى حُمِّلوها ، والتى أشار إليها قوله تعالى : « وعليكم ماحُمِّلتم » . .

— وقوله تعالى : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » — هو مطلوب الأمانة التى حملها النبىّ ، والتى أشار إليها ، قوله تعالى : « فإنما عليه ماحمِّل » . .

وقد كان مقتضى النظم أن يُرَدَّ فيه ختام الآية على مطلعها ، مراعًى فيه الترتيب الذى جاء عليه المطلع . . بمعنى أن يكون نظام الكلام هكذا :

فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وما عليكم إلا أن تطيعوه . .

ولكن هذا كلام ، وذاك قرآن . . وشتان بين القرآن ، وبين الكلام ! . .

فقد جاء القرآن على هذا النظم ، فحمّل المنافقين الأمانة ، ثم دعاهم فوراً إلى الوفاء بها ، لأنهم هم المطلوبون ، المنادَى عليهم بالخيانة . . على حين أن الرسول قد أدى أمانته ، وليس فى حاجة إلى تنبيه أو طلب . . وعلى هذا يكون قوله تعالى: « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » توكيداً وشرحا لقوله تعالى: « فإنما عليه ما حمل » وليس دعوة جديدة للنبىّ أن يبلغ البلاغ المبين ، على حين أن قوله تعالى : « وإن تطيعوه تهتدوا » هو أمر مطلوب من المنافقين أداؤه .

قوله تعالى :

« وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

الخطاب هنا للمؤمنين جميعاً ، فى مواجهة المنافقين . . وأن هؤلاء المؤمنين موعودون من الله ـ إذا هم صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ـ أن يستخلفهم فى الأرض ، أى يجعلهم خلفاءه عليها ، ويجعل إلى أيديهم السلطان المتمكن فيها . . فالإنسان هو خليفة الله على هذه الأرض ، ولن يكون أهلا لهذه الخلافة إلا إذا صحّت إنسانيته ، وسلمت فطرته .

أما إذا انحرف، وفسد، فإنه ينزل عن هذه الخلافة، ويُخلى مكانه منها، ليأخذ مكانه بين حيوانات الأرض ودوابّها .

— وقوله تعالى: « كما استخلف الذين من قبلهم » - إشارة إلى من استخلفهم الله من عباده المؤمنين الصالحين، بعد أن أهلك القوم الظالمين .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى: « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » (١٣ - ١٤ : إبراهيم) .. وكذلك قوله سبحانه: « ولقد كتبنا فى الزّبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » (١٠٥ : الأنبياء) .

فالمؤمن بالله، المستقيم على طريق الحق والهدى، هو أقوى الناس قوة، وأقدرهم على جنى أطيب الثمرات مما على هذه الأرض .. وبهذا يكون له السلطان المتمكن فيها ..

— قوله تعالى: « وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » أى أن المؤمنين الذين عرفوا حقيقة الإيمان، وأدوا مايقتضيه الإيمان منهم، من عمل صالح - هم أهل لأن يجمعوا إلى أيديهم الدنيا، والدين جميعاً، فتكون لهم العزة، ويكون لدينهم الغَلَبُ والتمكين .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى: « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .. فالمؤمنون الذين لهم العزة هنا، إنما يستمدون عزتهم من عزة الرسول، الذى يستمد عزته من ربه ..

فهم بهذا موصولون بالله، باتباعهم رسول الله، وما أُنزل إليه من ربه .

وهيهات أن يكون لإنسان ذليلٍ ضعيف، دين، أو أن يقوم دين لدولة فى مجتمع مريض هزيل !

والدّين الذى ارتضاه الله للمؤمنين ، هو الإسلام ، كما يقول سبحانه وتعالى فى آخر آيات القرآن نزولا : « اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام دينا » (٣ : المائدة) .

فالإسلام ، هو الدين الذى قامت فى ظلّه الشرائع السماوية ، كما يقول تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » .. هو الدين الذى خَلَص كلّه للأمة الإسلامية .. كما يقول سبحانه : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلّه » .. وكما يقول سبحانه : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » (١٩٣ : البقرة) ..

وفى قوله تعالى : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً » إشارة إلى مايُكسبه الإيمان الحق أهلَه ، من عزّة ومَنَعة وقوة ، وأنهم بهذا الإيمان قد أمنوا أن يُزعجهم الكافرون والمشركون والمنافقون عن دينهم ، وأن يفتنوهم فيه .. ومن ثَمّ فإنهم يعبدون الله بقلوب خَلَصت من المداهنة والنفاق ، والشرك .. فلا يلتفتون إلى غير الله ، ولا يعطون ولاءهم لسلطان غير سلطان الله .

وقوله تعالى : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .. أى من حدّثته نفسه بالإقلاع عن الإسلام ، والعودة إلى الكفر ، بعد أن لبس ثوب العزّة ، وأمن الفتنة فى دينه من جَوْر الجائرين ، وظلم الظالمين ـ فهو من الفاسقين . . أى الخارجين طوعاً عن دينهم ، وليس له ثمّة عذر .. فهم كافر وفاسق معاً . .

وهذه الآية ، تواجه المنافقين .. كما قلنا ـ بما يسوءهم ويكبتهم ، وذلك بهذا الوعدِ الكريم من الله بإعزاز المؤمنين ، والتمكين لهم ، واستخلافهم فى الأرض .. وأن المنافقين إذ كانوا ينظرون إلى حال المؤمنين يومئذٍ ، وإلى

مايعجبهم من كثرة المشركين وغَلَبتهم ، فإن الدولة وشيكة ، أن تكون المؤمنين.. فليبادروا إلى هذا المغنم ، وليأخذوا مكانهم بين المؤمنين منذ اليوم ، وإلا فلن يكون لهم مكان بعد أن يفوتهم الركب ، وهم بمنقطع الطريق .

قوله تعالى :

* « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم تُرْحمون » .

وهذا بيان للأعمال المطلوبة من المؤمنين ، حتى يكونوا على الوصف الذى وصفهم الله سبحانه وتعالى به ، ووعدهم عليه الاستخلاف ، والتمكين .. وهو أن يقيموا الصلاة ، وأن يؤتوا الزكاة ، وأن يطيعوا الرسول فيما يدعوهم إليه ، ويندبهم له ، من الجهاد فى سبيل الله ..

قوله تعالى :

* « لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النّارُ ولبئسَ المصير » .

هو خطاب للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مُشَارٌ به إلى المؤمنين ، الذين استمعوا إلى وعد الله سبحانه وتعالى لهم ، بالاستخلاف فى الأرض ، والتمكين لدينهم .. وأنهم إذا نظروا فوجدوا ماهم عليه من قلّة وضعف ، وما عليه الكافرون والمشركون من كثرة وقوة ـ إذا نظروا فوجدوا هذا ، فلا يهولنّهم الأمر ، ولايدخل على ثقتهم بوعد الله وَهْنٌ أوشك .. فهؤلاء الكافرون وإن بلغوا مابلغوا من كثرة وقوة ، فإنهم لاشىء أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. فلن يُعْجزوه ، ولن يُفلتوا من المصير الذى هم صائرون إليه ، من ذلّة وخزى فى الدنيا ، وعذاب أليم فى الآخرة ..

فَلْيمض المؤمنون على إيمانهم ، وليستقيموا على ما أمرهم الله .. فإن هم صَدَقوا الله ، صَدَق وعْدَه لهم ، إذ يلقاهم على تلك الصفة التى وُعدوا عليها ..

الآيات : (٥٨ — ٦٠)

* « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) »

التفسير :

جاءت هذه الآيات الثلاث لتستكمل أدب المعاشرة والمخالطة فى المجتمع الإسلامى ، بعد أن بينت الآيات السابقة أحكام الاستئذان ، والحجاب والتحصن فى الزواج .. وكان من تدبير الحكيم العليم فى هذا ، أنه لم يجىء بهذه الأحكام جميعها فى معرض واحد ، حتى لا تزدحم العقل ، وحتى لا يفلت منها شىء فى هذا المزدحم .. فهى جميعها دستور متكامل ، وعقد منتظم ، إن انفرطت حبة منه انفرطت حبات العقد كلها .

ومن أجل هذا كان هذا الفصل بينها بتلك الآيات ، التى عَرَضت مالله سبحانه وتعالى من جلال وقدرة ، وأنه سبحانه نور السموات والأرض ، ومافيهن ، وأن كلّ من فى السموات والأرض يُسبح بحمده ، وأن عالم الأحياء خُلق جميعه من ماء ، وذلك بقدرة القادر العليم الحكيم . وأنه كما اختلفت عوالم الأحياء صوراً وطبائع ، اختلف الناس عقلا وَسَفهاً ، وإيمانًا وضلالا .. فكان فيهم المؤمنون المتقون ، وكان منهم الكافرون الجاحدون ، وكان فيهم المنافقون ، الذين يجمعون بين الكفر والإيمان ..

وبعد هذا العرض الممتد المتنوّع، تجىء هذه الآيات الثلاث ، لتستوفى أدب المعاشرة والمعايشة ، بين الناس والناس ..

وفى قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الْحُلُمَ منكم ثلاث مرات » ـ فى هذا أمر للمؤمنين ـ من رجال ونساء أن يُلزموا مواليهم الذين تحت أيديهم ـ من عبيد وإماء ـ ألا يدخلوا عليهم خَلَواتِهم ، إلا بعد إذن .. وذلك فى ثلاثة أوقات بينتها الآية كما سنرى .. وكذلك تحمل الآية أمراً إلى البالغين الراشدين ـ من أحرار الرجال والنساء ـ ألا يدعوا الصغار ـ من بنين وبنات ـ الذين ، لم يبلغوا الحلُم بعد ، ولكنهم يميزون ما للرجل والمرأة ، ويعرفون العورة وغير العورة ـ ألاّ يَدَعوهم يدخلون عليهم فى هذه الأوقات الثلاثة إلا بعد استئذانٍ ، وإذنٍ ..

وهذه الأوقات ، قد بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

ـــ « من قبلِ صلاة الفجر .. وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة .. ومن بعد صلاة العشاء » ..

فى هذه الأوقات الثلاثة ، يتهيأ الإنسان للراحة والنوم ، ويتخفف كثيراً من ملابسه ومن تحفظه فى ستر عورته ، لأنه على شعور بأنه فى خَلوة مع نفسه ، أو مع زوجه . .

فى هذه الأوقات الثلاثة ينبغى ألا يدخل الموالى ـ عبيداً أو إماء ـ على سادتهم ، من رجال أو نساء ، وكذلك الصغار المميزون من بنين وبنات ـ لايدخلون على آبائهم أو أمهاتهم ، أو غيرهم ، إلا بعد أن يستأذنوا ويُؤْذَن لهم. وذلك ستراً للعورات ، وحفظاً للحياء ، وسدًّا لذرائع الفتنة .

ـــ وقوله تعالى : « ثلاثُ عورات لكم » أى هذه الأوقات ، هى أشبه بثلاث عورات لكم ، ينبغى أن تصونوا فيها أنفسكم عن أن يدخل عليكم أحد فيها إلا بإذن ، حتى أولئك الذين لاتحتشمون لهم ، ولا تتحرجون كثيراً منهم ، وهم الموالى والصغار . .

ـــ وقوله تعالى : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بَعْدهن » . . أى لاحرج عليكم ولا عليهم ، بعد هذه الأوقات الثلاثة ، فى أن يدخلوا عليكم من غير استئذان . . إذ كان أمركم غالباً فى غير تلك الأوقات ، أقربَ إلى التصوّن والتحفظ . . وفى الاستئذان الملزِم للموالى والصغار ، فى جميع الأوقات ، كثير من الحرج ، الذى تأباه هذه الشريعة ، وتُعْفِى أتباعها منه . .

وقوله تعالى : « طوّافون عليكم بعضُكم على بعض » جملة حالية . أى لاجناح عليكم ولا عليهم بعد هذه الأوقات الثلاثة وأنتم طوافون بعضكم على بعض . . فهذا شأنكم وشأنهم ، بحكم المخالطة والمعاشرة . . ومن هنا رُفع عنكم وعنهمِ الحرج ، فى غير هذه الأوقات الثلاثة . . فلكم أن تطوفوا عليهم ، ولهم أن يطوفوا عليكم من غير استئذانٍ !

—وقوله تعالى: « كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » أى مثل هذا البيان الجلىّ الواضح، يبين الله لكم الآيات، ويجىء بها محكمة، لاتحتاج إلى تأويل، حتى تأخذوا بها، وتستقيموا عليها.. « والله عليم » بما يُصْلح حياتكم « حكيم » فى وصف الدواء لكل داء، يعطى منه بالحكمة، دون إفراط أو تفريط..

قوله تعالى:

* « وإذا بلغ الأطفال منكم الحُلُمَ فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ».

أى أن هؤلاء الأطفال، الذين أذن لهم بالطواف عليكم من غير استئذان فى كل وقت، ماعدا هذه الأوقات الثلاثة — هؤلاء الأطفال إذا زايلتهم صفة الطفولة، وبلغوا الحلم، ودخلوا مدخل البالغين — من رجال ونساء — أُخذوا بحكمهم، وأصبح لزاماً عليهم أن يستأذنوا فى جميع الأوقات، لا فى هذه الأوقات الثلاثة وحسب..

—وفى قوله تعالى: « كذلك يبين لكم آياته والله عليم حكيم » إشارة إلى أن هذا الأمر وإن كان واضحاً، من حيث أن الطفولة هى التى قضت بإعفاء الأطفال من الاستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة، فإذا زايلتهم الطفولة زايلهم حكمها الذى ترتب عليها — إلا أنه يمكن لمتأول أن يتأول الطفولة بأنها البنوّة، ومن ثم فإن أبناء الرجل أو المرأة إذا بلغوا، ظلّ هذا الأعفاء ملازماً لهم.. فكان هذا البيان الحكيم، وضعاً للأمر فى موضعه الصحيح، وقاطعاً الطريق على كل تأويل، إذ كان الأمر من عظم الشأن بحيث يجب كشفه وبيانه على هذه الصورة الواضحة، حتى لا يقع فيه لَبس أو خفاء..

ولابدّ من أن يقف المرء هنا وقفةً متأملة أمام هذا الأدب الإسلامى الرفيع، الذى يُضفى على أتباعه ستراً جميلاً من التصوّن ، والتعفف ، والحياء ، بهذه الحواجز الرقيقة التى لا تشف عما وراءها من عوراتٍ ، وذلك لا يكون إلا فى مجتمع كملت إنسانيته ، ورقت مشاعره ، فعرف لنفسه قدرها ، ولكرامته حقها ..

إن الحياء هو لباس الإنسانية التى جمّلها الله سبحانه وتعالى به .. ولهذا كان أول ما ظهر على آدم من صفات الإنسان هى ستر عورته ، حين ظهرت إرادته بهذا العصيان الذى عصى به ربّه ، وأكل من الشجرة التى نُهى عن الأكل منها .. إنه هنا كائن ذو إرادة .. إنه إنسان ..! ولن يكون إنساناً وهو فى هذا العُرْى الحيوانى .. فكان أن نظر آدم وزوجه إلى وجودهما ، فرأيا سوءاتيهما ، وفَرَض عليهما الحياء أن يسترا ما استحييا منه .. وقد أسعفتهما الحيلة ، فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الشجر ، ماستر العورة .

هذا هو الإنسان فى أصل فطرته .. الحياء أول شعور وجده فى كيانه ، وستر العورة أولُ صنيع صنعه ليخرج به عن عالم الحيوان . !

ومن أجل هذا كان من آداب الإسلام ، هذا الحرص الشديد على الحفاظ على عورات المسلمين ، وعلى إيقاظ مشاعر الحياء فيهم ، بما أوجب عليهم من أحكام وآداب ، فى المخالطة والمعاشرة ، والاستئذان وستر العورة ، حتى يظل ماء الحياء سارياً فى كيانهم ، تتغذّى منه مشاعرهم ، وتسمو به إنسانيتهم . . فإنه لا إنسانية إذا خفّ ماء الحياء فيها .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : «الحياء خير كله».. « والحياء شعبة الإيمان » .. « الحياء من الإيمان » ..

فأين هذا الأدب الرفيع من تلك الحياة البهيمية التى تعيش فيها أمم تعد فى نظر المجتمعات الإنسانية قائمة على قمة الرقىّ ، مستولية على زمام المدنية

والحضارة ؟ ولا تَسلْ عن الأزياء الخليعة التي تشف عما تحتها، وتُجسّدُ ما وراءها.. ولا تقفْ عند الاختلاط الحيواني بين الرجال والنساء في الأندية والطرقات، والبيوت .. فذلك كله قد صار حياة من حياة تلك المجتمعات، ووضعاً مستقراً من أوضاعها .. ولكن الذي يثير العجب والدهش حقاً أن يصبح هذا الأسلوب من الحياة ديناً يدين به الناس، له فلسفته، وله آدابه وأحكامه.. تجد ذلك في أندية العراة، وفي مجتمع الوجودية والبرجانية وغيرها .. مما تضج به حياة الغرب ..

والعجب، هو أن يكون للفوضى منطق، وأن يكون للعُرى أدب !

قوله تعالى :

* « والقواعدُ من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناحٌ أن يضعن ثيابهن غير متبرجاتٍ بزينة وأن يستعففن خيرٌ لهن والله سميعٌ عليمٌ » ..

وهذه الآيات استثناء أيضاً من عموم قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن ... الآية » .

فالقواعد من النساء، وهن المتقدمات في السنّ، اللاتي لا إربة لهن في الرجال ولا أرب للرجال فيهن — هنّ أشبه بالأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم .. ومن هنا كانت نظرة الشريعة إليهن، التخفيفَ مما أخذ به النساء عموماً، من ألا يبدين زينتهن، ولا يكشفن شيئاً من تلك الزينة إلا لمن استثنوا في الآية من الأزواج وغيرهم . .

فهؤلاء القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ـ ليس عليهن حرج في أن يتخففن من ثيابهن، في جميع الأوقات، مع المحارم، وغير المحارم ..

والمراد من ثيابهن ، الثياب التى يراد منها ستر ما وراءها من زينة .. كغطاء الرأس ، والخمار وغيرهما .. لا الثياب التى تستر العورات من المرأة ..

وفى قوله تعالى : « غير متبرجات بزينة » قيد للإذن برفع الحرج عنهن فى وضع ثيابهن ، وذلك بألا يكون غرضهن من وضع هذه الثياب إبداء زينتهن ، والتعرض بعرضها للأعين .. فهذا ينافى الوصف الذى وُصفن به ، وهو قوله تعالى : « اللاتى لا يرجون نكاحا » لأن تبرجهن بالزينة ، وعرض أنفسهن بها ، ينقض هذا الوصف ..

وقوله تعالى : « وأن يستعففن خيرٌ لهنّ » .. أى وإن يتحفظن ، ويدعن التخفف ، خير لهن ..

فذلك التعفف وعدم التبرج هو من طبيعة المرأة الحرة ، أيا كانت السن التى بلغتها .. ثم هو من زينة المرأة المسلمة ، ومن أدبها الذى تعيش به فى المجتمع الإسلامى ! أما هذا التخفيف فهو رخصة ، من الله ، للتخفيف والرحمة ، تضعها المرأة فى يدها ، وتستعملها عند الضرورة ، بعقل ، وحكمة ، ودين .. والله سميع عليم ..

الآية : (٦١)

* « لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ

أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) »

التفسير :

اختلف المفسرون فى الحرج الذى رُفع عن الأعمى ، والأعرج ، والمريض . . وذهب أكثرهم إلى القول بأن هذا الحكم نزل فى شأن أولئك الزمْنَى ، وأصحاب العاهات ، الذين كانوا يقومون على شئون المسلمين الذاهبين إلى الغزو ، حيث يخلفونهم وراءهم ، ويَدَعون إليهم التصرف فى شئونهم . . ويضعون فى أيديهم ما يملكون ، من مال أو متاع إلى أن يعودوا من الغزو . . !

وهذا الرأى يعارضه ما جاء فى قوله تعالى فى هذه الآية : « أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم » فهؤلاء الزمنى والمرضى ، يدخلون فى عموم هذا الحكم ، سواء كانوا ممن فى أيديهم مفاتيح المجاهدين ، أو كانوا أصدقاء لهم . .

والذى نذهب إليه ، ونرجو — إن شاء الله أن يكون صحيحاً — هو أن الآية الكريمة دعوة إلى البر والتوادّ بين المسلمين عامة ، وبين الأهل والأقارب خاصة . . وأنه إذا كان المسلم أن يتحرج من أن يستطعم أو يُطعَم من أحد من الناس ، فإنه ليس له أن يتحرج أو يخزَى ، إذا هو أصاب طعامه عند أحد من أقاربه هؤلاء ، الذين ذكرهم الله سبحانه فى تلك الآية ، من الآباء والأمهات ، والإخوة ، والأخوات ، والأعمام والعمات والأخوال والخالات — فهؤلاء جميعاً أبناء أسرة واحدة ، قد قضوا فترة من حياتهم معاً ، يظلهم سَقف واحد ، وتجمعهم معيشة واحدة . . فإذا التمس أحدهم طعاماً ، ولم يجده فى بيته ، كان له

أن يلتمسه عند أيٍّ من الأقارب ، وأن ينال منه شِبَعه ، بإذن أو بغير إذن . .
هكذا التكافل بين الأقارب وذوى الأرحام . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، كانت دستوراً يحكم العلاقة بين الأقارب ، وذوى الأرحام ، من رجال ونساء ، فى اختلاط بعضهم ببعض ، كما أنها تحكم العلاقة بين المسلمين عامة ـ من رجال ونساء ـ فى دخول البيوت ، بعد الاستئذان ، والإذن من أصحابها . .

ولما كان هذا الاختلاط بين الأقارب ، وهذا التزاور بين المسلمين عامة ، يضع المخالطين والزائرين فى أحوال يشهدون فيها طعاماً بين يدى أهل البيت الذى دخلوا إليه مستأذنين ـ فقد كان من تمام الحكمة أن تُبين الشريعة مايقضى به الموقف إزاء هذا الطعام الممدود ، وهل من حَرَجٍ على من يَحْضُره أن يتناول منه ، إذا دُعى إليه ؟ إن الذى دخل البيت هنا لم يكن يقصد الطعام الذى حضره . . وربما يقع فى شعور أهل المنزل أنه جاء يطلب الطعام ، ويرصد وقته ، وقد يكون الزائر جائعاً فعلا ، ونفسه تشتهى هذا الطعام ، ولكنه يتحرج أن ينال منه ..

إن هناك مشاعر كثيرة مختلطة تشتمل على أهل الدار وعلى زائرهم . . فكان ماجاءت به الآية الكريمة هنا ، مايصحح هذه المشاعر ، ويقيمها على ميزان حكيم عادل كما سنرى . .

فقوله تعالى : « ليس على الأعمى حَرَج ولا على الأعرج حَرَج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم . . » ـ هو رفع للحرج عن هذه الأصناف التى ذكرتها الآية ، من أن يستطعموا ، ويُطعَموا من تلك البيوت التى يطرقونها ولا حرج عليهم فى هذا . .

أما الأعمى ، والأعرج ، والمريض .. فإنهم حين يقعون تحت داعية الحاجة

إلى الطعام ، ويُعجزهم حالهم عن أن ينالوا من كسب أيديهم ، فإنهم فى هذه الحال أبناء الأسرة الإسلامية كلها ، وإن لهم على المجتمع حقّ الإطعام ، كما للابن على أبيه أن يدخل بيته ، وينال من الطعام مايسد جوعته . .

ولكى يتقرر هذا المعنى فى نفوس المسلمين ، ولكى يصبح هذا الأمر حقًّا ، للأعمى والأعرج والمريض ، على المجتمع الإسلامى ، يُطالِب كل منهم به ، ويستأدِيه من أى مسلم قادر على الوفاء به ، دون أن يكون فى ذلك جَرْح لكرامته ، أو مِنّة وفضل عليه من أحد ـ نقول لكى يتقرر هذا ، فقد قدّمهم القرآن على الأهل والأقارب ، إذا كانوا على الصحة والسلامة ، وكانوا أقدرَ على أن يجدوا حيلة لدفع غائلة الجوع عنهم ، بخلاف هؤلاء العجزة الذين لايستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً . .

فجاءت الآية برفع الحرج عن هؤلاء العجزة أولا ، ثم دخل معهم هؤلاء الذين جاءت بهم الآية ، من الأقارب ، وذوى الأرحام . . ثانياً .

وهذا الذى ذهبنا إليه ، هو الذى يتفق مع روح تلك الشريعة السمحاء ، التى قامت على التآخى بين الناس ، والتكافل بين المسلمين جميعاً . .

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « ليلةُ الضَّيف واجبة على كل مسلم ، فإن أصبح بِفِنائه محروماً[١] كان ديناً عليه[٢] ، فإن شاء اقتضاه ، وإن شاء تركه » .. ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه : « أيُّما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقًّا على كل مسلم نَصْرُه ، حتى يأخذ بِقِرَى ليلته ، من زرعه وماله » .

---

(١) اسم أصبح ضمير يعود إلى الضيف ، أى إذا أصبح الفقير بفناء الغنى محروماً . .

(٢) أى كان حق هذا المحروم دينا على الغنى .

وروى البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر قال : قلنا يارسول الله تبعثنا[1] فننزل بقوم فلا يَقْرُوننا . . فما ترى فى ذلك ؟ فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه . . : « إذا نزلتم بقوم فأمَرُوا لـكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم » . .

* * *

والذى ينظر فى الآية الـكريمة يجد أن مَسَاقها يشير إشارة واضحة إلى أن المقصود برفع الحرج فيها ، إنما هو عن أولئك العجزة . . من الأعمى ، والأعرج والمريض ، وأن من دخل بعدهم فى هذا الحـكم من الأهل والأقارب ، إنما جاء ليَدْعَم هذه القضية ، قضيةَ العجزة ، وليدلّ على أنهم أولى فى هذا المقام من الأهل والأقارب ، وأنه إنما رفع الحرج عن الأقارب ، تبعاً لهؤلاء . .

ففى قوله تعالى : « ولا على أنفسكم » ما يُشعر بأن شيئاً ما من الحرج مع هذا الإذن ، وأن الإسلام قد تجاوز عنه ، تخفيفاً ورحمة ، إذ كان المقام مقام رحمة عامة تنال البعيد ، ولا يحرم منها القريب . .

ولهذا جاء التصريح نصاً برفع الحرج ، عن الأعمى ، وعن الأعرج ، وعن المريض . . هكذا .

« ليس على الأعمى . . حَرَجٌ . .

« ولا على الأعرج . . حرج .

« ولا على المريض . . حرج .

وكل واحد منهم قد نُصّ على رفع الحرج عنه . . زيادةً فى التقرير ، والتوكيد . . وإلاّ كان من مقتضى النظم أن يجىء رفع الحرج . . مرة واحدة

(١) أى فى سبيل الله . .

عن جميع المتعاطفين . . هكذا : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج .. » !

ثم إنه حين جاء ذكر الأقارب ، لم يجيء رفع الحرج عنهم نصًّا مُصَرَّحاً به ، بل جاء بالحَمْل على الحكم الذى كان للمعطوف عليهم ، وهم هؤلاء العجزة ! . ولكأن المعنى هو : « حتى ولا على أنفسكم حرج » . .

— وفى قوله تعالى : « أو ما ملكتم مفاتِحَه أو صديقكم » — إشارة إلى صنفين آخرين من الناس ، ليس عليهم حرج فى أن يأكلوا مما ليس لهم . . والصنف الأول ، هم الذين فى أيديهم مفاتيح غيرهم ، كالوكلاء ، والأوصياء ، وغيرهم ، ممن يتولّون شئون غيرهم ، وحفظ أموالهم وأمتعتهم ، فهؤلاء لهم أن يأكلوا مما تحت أيديهم ، بالمعروف ، من غير إسراف ، وذلك إذا كانوا فى حاجة إلى هذا الذى يأكلونه . . كما يقول سبحانه : « ومن كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » (٦ : النساء) . . أما الصنف الآخر ، فهم الأصدقاء ، إذ أن لهم على أصدقائهم هذا الحق الذى يجعل لهم مما فى أيدى أصدقائهم شيئاً ، أقلّه هو لقمة الطعام عند الحاجة . . لأن الصداقة ، لا تكون صِدْقاً إلا إذا وصلت بين الصديقين بحبل المودّة والإخاء . .

هذا ، ويلاحظ فى الآية الكريمة أمران :

أولهما : أنها لم تذكر الأبناء ، بالنسبة للآباء ، على حين ذكرت الآباء ، وفتحت بيوتهم للأبناء . . وذلك لأن الأبناء لا يتحرّجون أبداً من أن يَطعموا مما يجدون فى بيوت آبائهم . . وكيف وقد أنبتتهم هذه البيوت ، وغَذتهم منذ الولادة إلى أن صاروا رجالاً . . فهل تنكرهم هذه البيوت بعد هذا ؟ وهل يجد أحد منهم وحشة فى دخولها ، وتناول طعامه منها ؟ ذلك

مالا يكون ! أما الآباء فإنهم إذ تلجئهم الحاجة إلى بيوت أبنائهم، فإنهم يغشون بيوتاً لم يكن لهم بها عهد .. إنها بيوت مستحدثة ، أحدثها أبناؤهم ، بعد أن كبروا ، واستقلوا بحياتهم ..

ومن هنا تكون الوحشة ، ويكون الحرج .. وقد جاء القرآن الكريم برفع هذا الحرج ..

ومن جهة أخرى ، فإن الآباء ، لا يمكن أن يَضيقوا أبداً بأبنائهم إذا دخلوا عليهم ، وطَعِموا من طعامهم ، فى أى وقت ، وعلى أى حال ، بل إن ذلك هو مبعث السعادة والرضا إلى قلوب الآباء ، بخلاف كثير من الأبناء ، فإن فيهم العاقّ الذى لا يرعى حقوق الأبوة ، والذى قد يضيق بدخول أبيه عليه ، والأكل مما عنده .. ولهذا جاء الأمر بفتح هذه الأبواب .. أبواب الأبناء .. للآباء ! ..

وثانيهما : أن هذا الترتيب الذى جاءت عليه الآية فى ذكر هذه الأصناف، هو ترتيب تنازلى فى رفع الحرج ، حسب درجة القرابة .. كما هو واضح فى الآية ..

الآباء أولاً ، فالأمهات ، فالإخوة ، فالأخوات ، فالأعمام ، فالعمات ، فالأخوال ، فالخالات ..

بقى بعد هذا ، أن نسأل عن تأويل قوله تعالى: « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » فهل هناك حرجٌ فى أن يأكل الإنسان من بيته ، حتى يدخل هذا فى عموم الحكم القاضى برفع الحرج ؟ إن أكل الإنسان من بيته هو الأصل الأصيل فى هذا الباب ، فكيف يجىء حكم برفع حرج عن أمرٍ لا حرج فيه أصلاً ؟.

والجواب على هذا — والله أعلم — هو أن بيت الإنسان ، وما فيه من

مال ، ومتاع ، وطعام ، وإن كان ملكا خالصاً له ، يتصرف فيه بما يشاء ، وكيف يشاء ـ إلا أن ذلك ليس على إطلاقه فى مفهوم الشريعة الإسلامية ..

فالشريعة مع تسليمها بحق الإنسان بالتصرف فيما يملك ، وبالتسلط على ما فى يده من مال ومتاع ـ لا تعزل المسلم عن المجتمع الذى يعيش فيه ، ولا تعزل المجتمع عنه فهو — أيًّا كان — خلية فى هذا المجتمع ، وعضو من أعضاء هذا الجسد الكبير .. وأن ما يملكه الإنسان ليس ملكا خالصاً له ، وإنما تتعلق بهذا الملك حقوق لله ، وللوالدين والأقربين، والفقراء والمساكين ، وابن السبيل، والمجاهدين فى سبيل الله ..

هذا ما ينبغى أن يقيم عليه المسلمُ ، شعوره فى كل ما يملك .. إن له فى هذا الملك شركاء ، منظورين ، وغير منظورين ..

وإذن فلا يُغلق بابَه على ما فيه من طعام ، ولا يمسك يديه عما معه من مال ، وإنه لن يكون على شريعة الإسلام إذا خلت نفسه من هذا الشعور ، أو ضنّ بما تعلق من حقوق فيما بين يديه من فضل الله ..

وعلى هذا نجد ما جاءت به الآية الكريمة من رفع الحرج عن أصحاب البيوت أن يأكلوا من بيوتهم ، هو إلفاتٌ حكيم لأصحاب البيوت إلى أنهم ليسوا هم وحدهم أصحابها ، والمستأثرين بما فيها ، وأن هناك أصحاب حقوق يشاركونهم فيما فى هذه البيوت ، فإذا جاء أحد أصحاب الحقوق يطرق أبوابهم ، فليفتحوا له ، وليؤدوا إليه حقه ا وألاَ إن الطارقين لكثيرون .. يأتون إليهم من قريب وبعيد .. فلا يضيقوا بهم ، ولا يضجروا .. إنها حقوق يجب أن يؤدوها لهم ، وأن يبرئوا ذمتهم منها ، إن كانوا مؤمنين بالله ، مطيعين لما يأمر به الله .. وهنا يُرفع الحرج عما يملكون ، فى أن ينتفعوا به ، ويطلقوا أيديهم للتصرف فيه ، بعد أن أدَّوا ما عليهم من حقوق .. وإلا فإن الحرج قائم .. حتى تؤدى هذه الحقوق .

هكذا الملكية فى شريعة الإسلام .. ملكية تتعلق بها حقوق ، وتقوم عليها التزامات ، ولن تصبح ملكا خالصاً لمالكيها ، حتى يؤدوا ما عليها من حقوق ، ويَفُوا بما عليها من التزامات ..

— وقوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً » أى ليس عليكم أيها المسلمون حرج فى أن يأكل الواحد منكم وحده أو فى جماعة .. حسب الظروف والأحوال .. وذلك أنه كان من عادة العرب ألاّ يأكل الإنسانُ إلا إذا التمس مَن يأكل معه ، ويشاركه فيما يأكل .. وفى هذا يقول شاعرهم :

إذا ما صَنَعْتِ الزّادَ فالتمسى له   أكيلاً .. فانى لست آكله وحدى

فلما جاء الإسلام ، ودعا إلى التكافل بين المسلمين ، أمسك المسلمون بهذه العادة ، وجعلوها أمراً ملزماً ، وخاصة بعد أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ؟ قال : « من أكل وحده ، ومنع رِفده ، وضرب عبده » ..

ولا شك فى أن مقصد الرسول الكريم بمن أكل وحده ، هو ذلك الشرِه الشحيح الذى يؤثر نفسه بما بين يديه من طعام ، دون أن يلتفت إلى من حوله من زوج ، وولد ، وخادم .. فإنه قلّ أن يأكل الإنسان وحده إلا إذا كان على تلك الصفة .. أما فى غير تلك الحال ، فإنه لا بأس من أن يأكل الإنسان وحده ، ولهذا جاء القرآن برفع الحرج ..

قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

المراد بالبيوت هنا ، هى تلك البيوت التى أشارت إليها الآية ، والتى أذن بدخولها للأصناف الذين ذُكروا فيها ..

فهذه البيوت ، لها حرمتها ، ولأهلها الذين هم فيها علاقة مودة وقربى بمن يدخلون عليهم فيها . ومن أجل هذا كان التسليم على أهلها ، وصلاً لهذه المودة ، واستدعاء لهذه القرابة ، التي تجمع المسلمين جميعاً ..

— وفى قوله تعالى : « فسلموا على أنفسكم » إشارة إلى أن الذى يدخل هذه البيوت ، هو بعضٌ ممن فيها . وأنه وقد دخلها ـ سواء أكان قريباً ، أو صديقاً ، أو غير قريب أو صديق ـ فقد صار من أهلها ، وصار أهلها منه .. وهكذا يصبح بيت كل مسلم بيتاً لكل مسلم !

وفى قوله تعالى : « تحية من عند الله مباركة طيبة » هو مفعول مطلق لقوله تعالى : « فسلموا » الذى ضُمّن معنى : « تحيُّوا » أى تحيوا أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، هى تحية الإسلام .. أى « السلام عليكم » .. ففى هذه التحية البركة ، والطِّيب ، لما تُشيع فى النفوس من أمان وسلام ، ومودة وإخاء ..

هذا ويجوز أن يكون « تحية من عند الله » منصوب بفعل محذوف ، تقديره ، فسلموا على أنفسكم ، وتقبلوا تحية من عند الله مباركة طيبة ..

وفى قوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .. وفى جعل فاصلة الآية « لعلكم تعقلون » إشارة إلى أن فى هذه الآية معانِىَ دقيقة تحتاج إلى روية وتعقل ، لإدراك مراميها البعيدة ، وأسرارها العظيمة .. وحسب المرء أن يدير عقله ، إلى تلك الرعاية التى أوجبها الإسلام على المسلمين فى حق أصحاب العاهات ، والمرضى ، الذين هم الأعضاء الضعيفة فى المجتمع ، تلك الأعضاء التى ينبغى أن تكون موضع رعاية ، وعناية ، كما يرعى الإنسان بعض أعضائه ، إذا أصابها مكروه .. !

الآيات : (٦٢ — ٦٤)

* « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم .. »

هذه آية تحكم الصلة التي بين المؤمنين وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه بعد أن جاءت الآية السابقة لتحكم الصلة بين أفراد المجتمع الإسلامي ..

وأنها صلة وثيقة العرى ، مِلا كها السمع والطاعة لرسول الله من كل مؤمن ومؤمنة ..

وحقيقة إيمان المؤمن ، الإيمانُ بالله ورسوله ، ثم السمع والطاعة والولاء للرسول .. والمحكّ الذى يظهر عليه ما عند المؤمن من طاعة ، هو ساعة الضيق والعسرة ، وامتحان المسلم ، فى نفسه وماله ..

قوله تعالى :

— « وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

الأمر الجامع : هو الأمر العظيم ، الذى يُدْعى له المسلمون جميعاً ، ليواجهوه، وليحمل كل منهم نصيبه منه . وذلك فى حال الدعوة إلى الجهاد ، والنَّفْرة إلى لقاء العدو . . فإذا دعا النبيُّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الجهاد ، واجتمعت جماعة المسلمين ، لم يكن لأحد منهم أن يذهب لشأن من شئونه ، أو يُشغل بأمر خاص به، إلا بعد أن يستأذن النبىّ ، فإن أذن له مضى ، وإلا لزام مكانه .

—وقوله تعالى : «إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » هو إذن للمؤمنين، من ذوى الأعذار فى أن يستأذنوا . . فليس طلب الإذن من النبىّ مما يُحظر على المسلم فى هذا الوقت . . فالإسلام يُسر لاعُسر ، والرسول الكريم ، خير من يقدِّر حال المستأذن وظروفه . .

—وقوله تعالى : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذَنْ لمن شئت منهم » أى إنّ طلب الإذن ليس معناه إجابة هذا الطلب ، بل إن ذلك يرجع إلى تقدير النبىّ ، ونظره إلى الأمر من جميع وجوهه ، فقد يرى أن يأذن لبعض ، ولا يأذن لآخرين . فهذا وذاك مما يقضى به الرسول ، وعلى المسلم أن يسمع ويطيع . .

—وفى قوله تعالى : « واستغفر لهم الله . . إن الله غفور رحيم » ـ إشارة

إلى أن طلب الإذن فى هذا الأمر الجامع ، وإن كان مباحاً ـ فإن تركه أولى وأفضل ، إذ أن فيه إيثاراً على النفس ، وتضحية بالخاص من أجل العام ، ومع هذا ، فإن الذين يستأذنون ويأذن الرسول لهم ، قد شملهم الله بمغفرته ورحمته ، إذ أمر رسوله أن يستغفر لهم الله ، والله غفور رحيم . . وهذا من سماحة هـذا الدين ويسره . .

قوله تعالى :

* « لا تجعلوا دعاء الرسول بينَكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهمَ فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . .

الدعاء : الأمر الذى يحمل دعوة ، أو الدعوة التى تحمل أمراً .

يتسللون : أى ينسحبون فى خفاء ، من غير أن يشعر بهم أحد .

اللِّواذ : الفِرار طلباً للسلامة والعافية .

والآية تحث المسلمين على الامتثال لأمر الرسول الكريم ، والاستجابة لما يدعوهم إليه ، من غير مَهَلٍ ، أو تردّد . . فليست دعوةُ الرسول للمسلمين ، مثل دعوةِ بعضهم لبعض ، حيث يكون للإنسان الخيارُ فى أن يجيب دعوة الداعى أو لا يجيب . .

إن دعوة الرسول ، هى أمرٌ من أمرِ الله ، ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيارُ فى هذا الأمر ، وإنما عليه الطاعة والامتثال .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم » (٣٦ : الأحزاب)

ودعاء الرسول هنا ، هو دعاء إلى الجهاد فى سبيل الله ، وهو أمر ملزم لكل

قادر على حمل السلاح . . وفى هذا يقول الله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » (١٢٠ التوبة)

وقد يكون الدعاء لأمر غير الجهاد ، وهو - أيًا كان - أمر ملزم لمن تلقى الأمر من الرسول ، فإنه لا يأمر إلا بخير ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يٰأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » (٢٤ : الأنفال)

قوله تعالى :

« قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ » .

قد ، هنا ، للتحقيق ، والتوكيد . .

والمعنى : إن الله ليعلم الذين يتسللون من بين المسلمين ، ويخرجون فى خفية ، فراراً بأنفسهم ، وطلباً للدعة والراحة . .

فليحذر هؤلاء المتسللون ، الذى خرجوا على أمر الرسول ، ونكصوا على أعقابهم ، أن تصيبهم فتنة وابتلاء فى الدنيا ، حيث يفتضح أمرهم ، ويُصبحوا فى عداد المنافقين . . فإن لم يصبهم هذا فى الدنيا ، لم يُفلتوا من عذاب الله فى الآخرة . . وهو عذابٌ أليم ، نعوذ بالله منه .

وفى تعدية الفعل « يخالفون » بحرف الجر « عن » مع أنه فعل يتعدى بنفسه . . إشارة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى « الخروج » ، فهو مخالفة ، وخروج معاً ، إذ قد تكون المخالفة فى الرأى ، ثم يكون الامتثال بالعمل . . وهؤلاء المخالفون الذين يتوعدهم الله إنما جمعوا بين المخالفة فى الرأى ، والخروج عليه قولا وعملا . .

وهذا يشير إلى أن مراجعة الرسول ، فيما يأمر به ، مما لم يستبن المسلم منه الحجة الواضحة والدليل المقنع ـ هذه المراجعة ، بل المعارضة أحياناً لا حرج منها ، إذ كانت غايتها هي وضوح الرؤية ، وانكشاف الطريق ، لعيني المؤمن ، حتى يكون على بينة من أمره ، وحتى يمتثل مايؤمر به ، وهو على هدى وبصيرة ، واقتناع . .

فدعوة الإسلام دعوة قائمة على العدل ، مستندة إلى الحجة والبرهان . . ومن ثمّ كان على المسلم أن يَعْرِض أمور دينه كلها على عقله ، وأن يلتمس الدليل المقنع ، والحجة القاطعة فى كل أمر . . فإذا لم يسعفه عقله بالدليل ، وجب عليه امتثالُ مايؤمر به ، مع اليقين بأنه هو الحق ، والخير . . إذ ليس العقل إلا حاسّة من الحواس العاملة فى الإنسان ، وشأنه شأن كل حاسّةٍ ، فى أن له حدوداً يعمل فيها ، وأنه إذا جاوز هذه الحدود بطل عمله . .

وفى سيرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع صحابته رضوان الله عليهم ، كثير من المواقف ، التى يلقى فيها الصحابة رسولَ الله ـ فى أدب رائع واحترام عظيم ـ معترضين أو مخالفين ، حتى إذا كشف لهم الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن وجه الأمر ، أو أراهم من نفسه أنه ماضٍ لما أمرهم به ، لم يكن لأحد منهم إلا السمعُ والطاعة ، فى إيمان ثابت ويقين مكين . .

ونذكر هنا ـ من باب الإشارة ـ ما كان من الحباب بن المنذر بن الجموح ، حين رأى النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد أنزل المسلمين منزلا فى غزوة بدر ، فلما لم يره الحباب بالمنزل المناسب المسلمين ، جاء إلى رسول الله يسأله قائلا : يارسول الله . . أهو منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتحول عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : « بل هو الرأى والمكيدة والحرب » . . وهنا أشار الحباب بالمنزل الذى رآه . . فأخذ

النبيّ برأيه ، وتحول بالمسلمين إليه . . فكان المنزلَ المباركَ ، الذى هبت على المسلمين ريح النصر منه ! !

فمخالفة الرسول هنا ليست لمجرد المخالفة ، وإنمـــا هى للنصح للمسلمين » . أو لنصح المرء لنفسه ولدينه ، حتى لا يكون فى صدره حرج مما يؤمر به اوبذلك تطيب نفس المسلم ، ويسلم له دينه ، ويتضح له طريقه ، ومن هنا يقوم بينه وبين معتقده ألفة وحب ، حيث لا يدخل عليه شىء لم يرضه ، ويعتقده ، عن إيمان واقتناع . .

قوله تعالى :

* « ألاَ إن لله مافى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويومَ يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم » .

بهذه الآية تختم السورة الكريمة ، مضيفةً هذا الوجود كله إلى الله سبحانه وتعالى ، الذى أوجده ، وأقامه على سنن ، وأخذه بنظام حكيم ، لايتخلف عنه أبداً . والإنسان وهو بعض مالله ـ هو جزء من هذا الوجود . . وهذه الأحكام والشرائع التى سنها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، وبين له فيها الطريق الذى يسلكه ، والطرق التى يجتنبها — هى من سنن هذا الوجود ، وفى خروج الإنسان عن أمر الله خروج على هذه السنن ، وانحراف عن الوضع السليم الذى يجب أن يكون عليه ، الأمر الذى يعرّضه للعزلة عن هذا الوجود ، ويلقى به بعيداً عن دائرة الأمن والسلامة .. ومن هنا يجىء شقاؤه فى الدنيا والآخرة جميعاً . .

وفى قوله تعالى : « قد يعلم ما أنتم عليه » تحذير للمخالفين لله ، الخارجين على سننه ، المتمردين على أوامره تحذير لهم من عقابه الراصد ، وعذابه الأليم . . لأنه سبحانه يعلم كل شىء ، ويعلم من الإنسان ما يخفى وما يعلن ، وما هو عليه

من صلاح وَفساد ، وطاعة وعصيان ، واستقامة وانحراف . . وقد هنا ، للتحقيق والتوكيد . .

— وقوله تعالى : «ويوم يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » هو جواب لسؤال يَرِدُ على الخواطر ، بعد الاستماع إلى قوله تعالى : « قد يعلم ما أنتم عليه » ، وهو : ما وراء هذا العلم الذى علمه الله سبحانه وتعالى من الناس وأعمالهم ؟
— وفى قوله تعالى : « ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » . إشارة إلى جواب هذا السؤال ، وهو أنهم سيحاسبون على هذه الأعمال ، كبيرها وصغيرها ، فى الدنيا والآخرة . . أما فى الدنيا فيكون الحساب والجزاء من غير أن يحضروا هذا الحساب ، أو أن يعرفوا سبب هـذا الجزاء الذى يُجْزَوْن به . . وأما فى الآخرة ، ويوم يُرجعون إلى الله فينبئهم بمـا عملوا ، حيث يرون كل ما عملوه حاضراً ، فيعرف كل عامل ماعمل ، وما لعمله من ثواب أو عقاب . . كما يقول سبحانه : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (٦ ــ ١٨ الزلزلة) وكما يقول جل شأنه : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً . . » (١٣ ، ١٤: الإسراء) .

وهذا هو بعض السر فى الانتقال من الخطاب : « قد يعلم ما أنتم عليه » إلى الغيبة : « ويومَ يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » . . وكان النظم يقضى بأن يجىء هذا المقطع من الآية الكريمة هكذا : « ويوم ترجعون إليه فينبئكم بما عملتم » . . وذلك لأن الخطاب بعلم الله سبحانه وتعالى بما عليه الناس من خير أو شر ــ هو خطاب عام ، موجه إلى الناس جميعاً . . أما قوله تعالى : « ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » فهو موجه إلى المكذبين بهـذا اليوم ، الذين لا يرجون لقاء الله ، ولـكن على طريق الإيماء ، وذلك بتوجيه الحديث

ـ الذى هو من شأنهم ـ إلى غيرهم ، من المؤمنين الذين يؤمنون باليوم الآخر ، وما يلقى الناس فيه . . وكأنهم بهذا غير أهل لأن يخاطبوا .. وأنه إذا كان ثمة حديث «إليهم» ، فليوجه إلى غيرهم، ممن هم أهل لأن يسمعوا ، و يعقلوا ، وأنه إذا كان لهؤلاء المكذبين بهذا الحديث، عودة إلى أنفسهم، وإلى النظر فى هذا الحديث ، فليأخذوه من أهله . .

« والله بكل شىء عليم » .

هذا ، والله أعلم . .

٢٥ - سورة الفرقان

نزولهـــا : مكية . . باتفاق . .

عدد آياتها : سبع وسبعون آية . .

عدد كلماتها : ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف ، وسبعمائة وثلاثون حرفا . .

مناسبتها لما قبلهـــا

كانت سورة « النور » التى تسبق هذه السورة ، نوراً من نور الحق جلّ وعلا ، سطع نورها فى آفاق المجتمع الإسلامى ، فجلا كل غاشية ، وفضح كل ضلال وبهتان .

وكانت « سورة الفرقان » مكملة لهذه السورة ، إذ قد استُفتحت بتمجيد الله ، الذى أفاض على عباده هذا الخير الكثير المبارك ، بما نزّل من آياتٍ بيناتٍ على نبيّه الكريم .. هى الفرقان ، بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والنور والظلام .

فكان النور المشعّ من سورة النور كاشفاً للشُبَه ، مُجليا للشكوك والريب ، مقيماً أمرَ المسلمين على نور مبين . . وهذا النور الذى معهم من آيات الله ، هو « الفرقان » الذى يفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ! .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « تبارَكَ الذى نَزَّل الفرقَانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

تبارك : عظُمت بركته ، وكثُرَ خيرُه وفضلُهُ . .

والمراد بهذا الخبر ، الثناء على الله سبحانه ، وتعالى . . وهو ثناء من ذاته لذاته ، جلّ وعلا . . ومن حقّه على عباده أن يثنوا عليه ، كما أثنى سبحانه على نفسه . . وقد كان من دعاء الرسول صلوات الله عليه ، وتسبيحه بحمد ربه ، قوله :

« سبحانك . . لا أحصى ثناء عليك .. أنت كما أثنيت على نفسك .. » والثناء على الله سبحانه ، من ذاته ، أو من مخلوقاته ، فى هذا المقام ، إنما هو شعور بعظم المِنّة العظيمة ، التى كانت بنزول القرآن ، وما فى هذا القرآن من رحمة ، وهدًى للعالمين . .

— وقوله تعالى : « الذى نزل الفرقانَ على عبده » ـ هو وصف لله سبحانه وتعالى ، يكشف عن بعض إحسانه وفضله ، الذى استحق به التمجيد ، والتبريك . .

— وفى قوله تعالى « نزّل » بدلاً من « أنزل » إشارة إلى أن ما نزل على النبىّ من آيات ربّه ، لم ينزل جملة واحدة ، وإنما نزل نجوماً مفرّقة . . وذلك لحكمة عالية ، كشف عنها سبحانه وتعالى فى ردّه على الكافرين والضالين ، الذين قالوا : « لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة ؟ » فقال سبحانه : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً * ولا يأتونك بمَثَلٍ إلاّ جئناك بالحقّ وأحسنَ تفسيراً » (٣٢ ـ ٣٣ : الفرقان) .

وفى تسمية القرآن « فرقانا » إشارة إلى أن ما يحمل القرآن من هدًى ونور ، يفرق به العاملون به ، بين الحقّ والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال . .

— وفى قوله تعالى : « على عبده » تكريم للنبىّ الكريم ، وإدناء له من ربّه ، بإضافته إلى ذاته سبحانه وتعالى . . ووصفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالعبودية لله ، رفعٌ لمقامه وتشريف لقدْره ، وأنه هو الإنسان الذى يستحقّ هذه الصفة وحده من عبادِ الله . .

فلم يذكر القرآن الكريم عبداً من عباد الله ، أو رسولاً من رسله ،

مضافاً إلى الذات العليّة إلا « محمداً » صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه . .

لقد جاء وصف العبد لعيسى عليه السلام ، ولكن غير مضافٍ إلى ذات الله ، فقال تعالى : « إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » (٥٩ : الزخرف) وجاء وصف زكريا بأنه عبدٌ ، وقد أضيف إلى ضمير الذات ، ولم تطلق هذه الإضافة ، بل قيّدت بذكر اسم زكريّا . . فقال تعالى : « ذِكرُ رحمة ربّك عَبدَه زكريا » (٢ : مريم) .

وبهذا لم تخلُص له الإضافة على إطلاقها . .

كذلك أضيف كثير من الأنبياء بصفة العبودية ، إلى ضمير الذات ، ولكن قُيّدت هذه الإضافة بذكر أسمائهم بعدها ، كما فى قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب » (٤١ : ص) .

وقوله سبحانه : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوبَ أولى الأيدى والأبصار » (٤٥ : ص) .

وأكثر من هذا ، فإن « محمداً » صلوات الله وسلامه عليه قد تكرر ذكره فى القرآن الكريم ، مضافاً إلى ذات الله سبحانه وتعالى بوصف العبودية ، ولم تُقيّد هذه الإضافة فى أية مرة ، بذكر اسمه ، أو صفته بعدها ، بل تُرسل الإضافة ، هكذا فى كل مرة ، على إطلاقها ، وذلك مما يؤكّد للمعنى الذى ذهبنا إليه ، وهو إفراد « محمدٍ » صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه المنزلة بين عباد الله جميعاً . . وأنه عَبْدُهُ ، الخالص من بين العبيد جميعاً .

ومما يؤيد هذا المعنى ، ويؤكده ، أن إضافة محمد إلى ربّه ، بصفة العبودية ، لم يكن إلا فى أحوال خاصة ، وصل فيها النبىّ إلى أعلى مقامات القرب من ربّه .

ففى الإسراء . . يوصف « محمد » صلوات الله عليه بصفة العبودية ، مضافاً إلى الذات العلية . . فيقول سبحانه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » (١ : الإسراء) .

وفى المعراج ، تُخلَع على « محمد » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تلك الخلعة السنيّة ، وهو فى أعلى عليين . . فيقول سبحانه وتعالى : « فأوْحَى إلى عبده ما أوْحى » (١٠ : النجم) .

وأكثر من هذا أيضاً . . فإن « محمداً » ـ صلوات الله وسلامه عليه ، لم تخلع عليه صفة العبودية مضافةً إلى ضمير الذّات ، وحسب ، بل أضيفت إلى الذات ذاتها ، فى قوله تعالى : « وأنّه لما قام عبدُ الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً » (١٩ : الجن) . . وهذه خصوصية أخرى ، تعطى هذه العبودية وضعاً ليس لغيرها من عباد الله جميعاً . .

ومع هذا التفرّد ، الذى للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين خلْق الله جميعاً ، ومع هذا القرب الذى ليس لأحد غيره من عباده ، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لن يخرج عن قيد العبودية ، ولن يكون إلا عبداً لله ، وإن كان أكرمَ العبيد . . وإلاّ خلقًا من خلقه ، وإن كان أفضلَ الخلق . . وأن هذه المنزلة الرفيعة العالية ، التى لم تكن ولن تكون لبشر ، هى تكريم للإنسان من حيث هو ابن الماء والطين ، والذى يرقّ ، ويصفو ، ويعلو ، حتى يتقدم الملأ الأعلى ، ويدنو من ذى العرش ، حتى يكون قاب قوسين أو أدنى . .

ومع هذا كلّه ، فإن مايتحدث به المتحدثون عن الحقيقة المحمدية ، يريدون بهذا الحديث أن يقطعوه عن البشرية ، وأن يعزلوه عن هذا الوجود البشرى ،

إنما يسيئون من حيث لايدرون إلى مقام النبيّ الكريم ، بهذه الألوان الصارخة من الخيال ، الذى يُلقونه على صورته الكريمة ، فيطمسون معالمها ، ويشوّهون حقيقتها ، فلا يمسك منها النظر ، أو العقل ، أو الخيال ، إلا بظلال باهتة متراقصة ، يموج بعضها فى بعض ، فلا تستبين فيها حقيقة لمخلوق، من أهل الأرض ، أو عالم السماء ، وإنما هى أمشاج مختلطة ، من خيالات وأوهام ... ! [1]

إن عظمة « محمد » فى أنه بشر كامل البشرية . . وُلد من أب وأم . . وحملت به أمه تسعة أشهر ، وأُرْضع فى البادية كما يرضع الأطفال ، وعاش كما يعيش أطفال قومه ، وصبيانهم ، وشبّانهم ، ورجالهم . . وإن كان ذلك على أحسن صورة يراها الناس فى إنسان ، ويتمنّونها لهم ، ولأبنائهم . .

فلما كرّم الله سبحانه وتعالى محمداً بالرسالة ، لم تقطعه هذه الرسالة عن حاله الأولى ، ولم يرَ فيه الناس غير مايرَوْن ، بل إنه لم يأتهم بخارقة من الخوارق ، أو معجزة من المعجزات ، يملكها فى يده ، وإنما جاءهم بآياتٍ هى كلمات الله ، مضافةً إلى الله سبحانه ، ومنسوبة إليه جلّ شأنه . . وما محمدٌ إلا مبلغ لهذه الكلمات ، وليس له منها إلا ماللناس جميعاً ، من الاهتداء بنورها ، والامتثال لأمرها ونهيها . . فكان ذلك أعظم توكيد وأبلغه، للدلالة على بشرية الرسول من جهة ، وعلى أن ابن الماء والطين يحمل فى كيانه من قوى الخير ، ومشاعل النور ، مايرتفع به إلى أعلى عليين ، وأن الطريق مفتوح إلى مالا حدود له من الكمالات ، أمام الإنسان .. وأمامه المثل الأعلى للإنسان .. فى محمد ـ «صلوات الله وسلامه عليه . .»

---

(١) انظر بحثنا فى هذا عن «الحقيقة المحمدية . . وما يقال فيها » فى الكتاب الثامن من هذا التفسير .

وما أحسن مايقول « البوصيرى » فى رسول الله ، وفيما يقال ، ومالايقال، فيه ، إذ يقول :

دَعْ ما ادّعته النصارى فى نبيّهم

وقل ماشئت مَدْحاً فيه واحتكمِ

قوله تعالى :

* « الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذْ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كلَّ شىءٍ فقَدّره تقديراً » . .

هو تمجيد لله سبحانه ، وتعظيم لذاته ، بإضافة هذا الوجود إليه ، فى سماواته وأرضه ، وما فى السموات والأرض . .

— وقوله تعالى :

— « ولم يتخذولدًا » هو تنزيه لله أن يكون له ولد ، كما يدعى النصارى ، فى المسيح ، وكما يدّعى اليهود فى عُزير . . لأن اتخاذ الولد إنمـا يكون لافتقار الأب إلى من يحفظ نسبه ، ويبقى ذكره . . ثم إن هذا الولد فى حاجة أيضاً إلى أن يكون له ولد . . وهكذا فى سلسلة من التوالد ، تجعل الآلهة وأبناء الآلهة أكثر من الآدميين ،وأبناء الآدميين. .إذ كان الآلهة ـ على حسب هذا المنطق ـ أطول أعماراً ، وأكثر قدرة على الإنجاب . . أو أنهم يتوالدون ، ولا يموت لهم مولود . . !

ومن جهة أخرى ، فإن الابن ـ قياساً على هذا المنطق البشرى ـ لابد أن تكون له أم، هى زوج الإله . .

ومن جهة ثالثة ، فإن التناسل لا يكون إلا بين الطبائع المماثلة . . وعلى هذا

تـكون زوجة الإله شبيهة به، مشابهةَ المرأة للرجل . . ويكون الابن شبيهاً لها مشابهة الأولاد للآباء . .

وهذا كله، مما لا يرتفع بالإله عن مستوى البشر . . ومن ثَمّ فلا يكون له فى هذا الوجود أكثر مما لأى إنسان . . وبهذا يظل مكان مالك الوجود ـ فى هذا التصوّر ـ خالياً . . فامن إذن يضاف هذا الوجود، خَلْقاً، وحفظاً وتدبيراً وتصريفاً ؟

لمن هذا الملك ؟ لمن مافى السموات والأرض ؟

من يقول أنا ؟

ألاَ فلتخرس الألسنة، وألا فلتخضع الأعناق . . وألا فلتخشع القلوب . .

فذلـكم الله ربُّ العالمين ! . .

ـــ « الذى له ملك السموات والأرض . . ولم يتخذ ولداً . . ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كلّ شىء فقدَّره تقديراً » .

وإنّا إذ ننظر فى هذه الآية، وفى قوله تعالى فى الآية قبلها « على عبده » نجد أن فيها حراسةً لعبودية النبىّ لربه أن تطغى عليها عواطف الحب والإكبار للنبىّ صلوات الله وسلامه عليه، من أتباعه، وأوليائه، فيجعلوا له إلى الله نسباً، بولادة أو مشاركة، أو نحو هذا، مما يُمليه الحبّ، الذى لا تحكمه بصيرة ولا يضبطه عقل !

ـــ وقوله تعالى : « وخَلَقَ كل شىء . . » أى خلق كلّ ما فى السموات والأرض من مخلوقات، ظاهرة أو خفية عرفها الناس، أو لم يعرفوها . .

ـــ وقوله تعالى: « فقدّره تقديراً » أى أن كل مخلوق خَلَقَهَ الله، هو عن علم،

وتدبير ، وتقدير . . وليس خلقاً آلياً ، كما يقول الطبيعيون ، الذين يرون فى قوانين الطبيعة قدرة ذاتية خلاّقة ! وهذا ضلال فى ضلال . .

فأولاً : لو كانت الطبيعة هى التى تعطى هذا المحصول الوافر من المخلوقات ، لكانت كل مخلوقاتها على صورة واحدة ، ولما تعددت أجناساً ، واختلفت صوراً وأشكالا . . لأن تعدد الأجناس ، واختلاف الصور والألوان ، إنما يكون من عمل إرادة حرّة ، مختارة ، تفعل ما تشاء . . والطبيعة عند الطبيعيين لا إرادة لها ولا اختيار . . أشبه بالحجر يُلقى به من أعلى الجبل ، فلا يملك إلا أن يخضع لحكم الجاذبية ، ويسقط على السفح !

وثانياً : لو سلمنا أن هذه القوانين التى تحكم الطبيعة ، وتحدد مسيرتها ، هى التى تعمل وتنتج هذا النتاج المتولد من قوانينها — لو سلمنا بهذا . . لكان لنا أن نسأل : فمن أوجد الطبيعة هذه ؟ ثم من أودع فى هذه الطبيعة تلك القوى الكامنة فيها ؟ ومن رسم القوانين التى تحكم الصلات التى بين أشيائها ؟ . .

وكيف يقبل الطبيعيون تأليه الطبيعة ، فى كل ذرة من ذراتها . . ثم لا يقبلون أن يكون على هذه الطبيعة قوة قادرة ، تُرَدُّ إليها هذه الطبيعة ، إيجاداً وتقديراً ، وتنظيما ؟ أليس ذلك أقرب إلى منطق العقل، وأشكل بأسلوب العلم ، فى كشف الحقائق ، وتقعيد القواعد ؟

إن قوانين الطبيعة التى كشف العلم عنها ، لا يعيش بعضها بمعزل عن بعض . . فهى وإن كان بينها تفاضل من جهة فإن بينها تكاملا من جهة أخرى . . حتى ينتهى الأمر بها إلى أن تكون قانوناً واحداً عاماً ، شاملاً . . هو الذى يحدّث القرآن الكريم عنه بأنه « سنة الله » . . فكل ما عرف وهو هباءة مما لم

يعرف من قوانين هو مندرج تحت هذا القانون العام « سنة الله » ، أى نظام الله ، وتقدير الله ، الذى أقام عليه هذا الوجود ..

قوله تعالى :

* « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقُون ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً » ..

الضمير فى « اتخذوا » يراد به المشركون بالله ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، ولم يجر لهؤلاء المشركين ذكر من قبل فى هذه السورة ..

وفى عود هذا الضمير على غير مذكورين ، تحقير لهم ، وإصغار لشأنهم ، وأنهم ليسوا شيئاً ذا بال ، حتى يُذكروا ذكراً ظاهراً ..

وقوله تعالى : « لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون » — هو صفة لتلك الآلهة التى اتخذها المشركون ، واصطنعوها بأيديهم ، وجعلوها آلهة ..

وإنه ليس بعد سفه هؤلاء المشركين سفه .. يخلقون آلهة بأيديهم ، ثم يعبدونها ؟..

إن ذلك وضع معكوس منكوس .. فهم بالنسبة إلى هذه الدُّمى التى صنعوها بأيديهم ، أشبه بالآلهة .. لأنهم هم الذين خلقوها ، وأنه إذا كان لا بُدّ من أن يَعبُدَ أحدهما الآخر ، فإن المخلوق هو الذى يَعْبُدُ خالقه .. أما أن يعبد الخالق ما خلق .. فهذا ضلال بعيد بعيد !

وفى قوله تعالى : « وهم يُخلقون » — وفى إضفاء صفة العقلاء على هذه الدُّمى إشارة إلى أنها إذا قيست بهؤلاء المشركين ، الذين يعبدونها ، كانت أثقل منهم ميزاناً ، وأعلى منزلة ، وأشرف قدراً .. إنها معبودة وهم لها عابدون .. وأنهم — فيما يبدو للناس — أصحابُ عقول ، فكيف لا يكون

لآلهتهم تلك التي يعبدونها عقول كعقولهم ؟ وهل يعقل أن يكون المعبود ، دون العابد في شيء ؟..

إنهم هم أنفسهم لا يرضَوْن بهذا ، لا يرضَوْن لأحدٍ أن يُنزل آلهتهم من هذه السماء التي ينظرون من أرضهم إليها .. فهذه الدُّمى عاقلة ، وإن كانت من حجر منحوت ، أو خشب منجور ، أو معدن مصنوع ..!! وهل يرى الأطفال في الدّمى واللعب التي بين أيديهم إلا شخوصاً حية ، عاقلة، يناجونها ، ويلقون إليها بأمانيهم ، وخواطرهم .. إن هذا من ذاك سواء بسواء ..!

وقوله تعالى : « ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً » هو بيان لصفات أخرى ، من صفات هذه الآلهة .. فهي مخلوقة غير خالقة ، وهي لا حول لها ولا طول ، إذ أنها في جمودها هذا لا تستطيع التحول من حال إلى حال ، ولا الحركة من مكان إلى مكان .. حتى لو أرادت أن تحطم نفسها ما استطاعت ، ولو أرادت أن تدفع عنها يد من يحطمها ما كان لها إلى ذلك من سبيل .. إنها باقية على حالها تلك ، إلى أن يطرقها حَدَث من الأحداث ، فيغير من وضعها ، كيف يشاء ، دون أن يكون لها موقف .. إيجاباً ، أو سلباً .. وهل يملك الجماد شيئاً إلا أن يجمد على ما هو عليه ، حتى تجيء إليه قوّة من الخارج ، فتحدث فيه ما تحدث من تغيير وتبديل ؟ ..

وقُدِّمَ الضّرُّ على النفع ، لأن جلب الضرّ أيسر من تحصيل النفع .. فالإنسان يستطيع أن يضر نفسه بأيسر مجهود ، بل وبلا مجهود أصلا ، وحسبه أن يقف في طريق الحياة من غير حركة ، فانه إن فعل ، سيجد ألواناً من الضرّ والأذى تزحف إليه من كل اتجاه .. وليس كذلك تحصيل النفع ، فإنه يحتاج إلى بَذْلٍ ، وجهد ، هو الثمن المقابل لهذا النفع ، كيلاً بكيلٍ ، ووزناً بوزن ..

وهذه الجمادات ـ ومنها تلك الأصنام ـ لا تملك أن تتحول من حال إلى حال أبداً ، سواء فى الاحتفاظ بوضعهـا ، أو التحول عنه إلى وضع أسوأ ، أو أحسن . . إنها لا تملك « موتاً » لنفسها ، وذلك بتحطيم صورتهـا التى تشكلت عليها ، ولا « حياة » أى إيجاد هذه الصورة من قبل أن توجد ، « ولا نشورا » أى إعادة هذه الصورة بعد تحطيمها . .

هذا شأنها مع نفسها . . عجز مطلق واستسلام صامت . . فهل يمكن ـ مع هذا ـ أن يكون لها حيلة مع غيرها ، فى دفع ضر ، أو جلب نفع ؟ ذلك محال . . وأبعد منه استحالة ، أن تقدر على إماتة حى ، أو إيجاد حى ، أو بعث ميت . . فذلك مما عجز عنه الأحياء . . والذى لا يملكه إلا خالق الحيـــاة ، وموجد الأحياء . . الله رب العالمين . .

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً » .

تكشف الآية هنا عن وجه هؤلاء الذين ذكرتهم الآية السابقة بضمير الغيبة ، دون أن تذكر صفتهم ، أو تُرجع هذا الضمير إلى مذكورين من قبل . ذلك فى قوله تعالى : « واتخذوا من دونه آلهة » :

ـــ ففى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » . . إشارة دالة على أن هؤلاء الكافرين الذين يقولون هذا القول المنكر فى القرآن الكريم ـــ هم أولئك الذين اتخذوا من دونه آلهة !

وإنك لو ذهبت تضع كلا من الآيتين مكان الأخرى ، لا استقام النظم . بل إنك لو كنتَ الذى يحدّث بهذا الأمر ، ويصوغ هذا القول ، لما ذهبت غير هذا المذهب فجعلت تكذيب المشركين بآيات الله ، واتهامهم الرسول بالكذب

والافتراء على الله ، سبباً فى كفرهم ، وفى اتخاذهم آلهة يعبدونها من دون الله . .

ولكن نظم القرآن وإعجازه ، هو وحده الذى يستولى على الحقيقة كاملة ، حيث ينفذ إلى الصدور ، وينكشف ما تجنّ من خلجات وخطرات . .

فهؤلاء الذين التقوا بكلمات الله ، وقالوا فيها هذا القول المنكر ، إنما التقوا بها ، وقد فسدت فطرتهم ، بما دخل على قلوبهم من مرض ، وما غطّى على عيونهم من موروثات الضلال . . ولو أنهم التقوا بآيات الله من غير أن يكون معهم هذا الداء الذى تمكن منهم ، وأفسد عليهم فطرتهم ـ لكان لهم فى آيات الله قول غير هذا القول ، ولرأوا فى سناها الوضىء وجه الحق ، فاهتدوا إلى الله ، وآمنوا به ، وبرسوله ، وبكلماته . . !

وكيف يرجى من عقول تملى لأصحابها أن ينحتوا بأيديهم صوراً من أحجار ثم يخرون بين يدى هذه الأحجار عابدين ، يرجون منها مالا يرجونه من أنفسهم ، ويحملون عليها من آلامهم ، وآمالهم مالا يحتملون هم ، أفراداً ، أو جماعات ـ كيف يُرجى من هذه العقول أن تعقل آيات الله ، وما تحمل فى كيانها من أنوار الحق ، والخير ، والإحسان ؟ ذلك مالا يكون ! .

وإذن ، فهذا القول الذى يقوله هؤلاء الكافرون فى آيات الله . . هو من منطق هذه العقول التى تتعامل مع الدُّمى ، وتقف بين يديها هذا الموقف الذليل المستكين . .

قوله تعالى :

« وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قَوْمٌ آخرون .. » .

والإفك : هو الزّور والبهتان . .

والافتراء خَلق الأكاذيب ، ونسبتها إلى الغير . .

ومن منطق هؤلاء الضالين ، أنهم يتهمون النبيّ بالكذب والافتراء ، وهم الذين لم يجرّبوا عليه فى حياته كلّها قولة واحدةً جانبت الصواب ، أو بَعدت عن الصميم من الحقّ . . ولم يسألوا أنفسهم : لِمَ يكذب ؟ وما غايته من هذا الكذب ؟ إن الذى يزوّر الكلام ، ويختلق الأكاذيب ، لابدّ أن يكون له وراء ذلك غاية يتغيّاها ، ومطلب يسعى للحصول عليه . . فماذا طلب النبيّ منهم من وراء هذا الدّين الذى يدعوهم إليه ؟ إنهم ـ لو عَقَلوا ، لعرفوا أنما يدعوهم ليحترموا عقولهم ، وليرتفعوا بإنسانيتهم عن هذا الصّغَار الذى هم فيه ، من لَعِبٍ فى التراب !

ومن عجب ، أن هؤلاء الرجال الأطفال ، قد استطاعوا أن يميزوا هذا القول ، وأن يعرفوا أنه فوق مستوى البشر ، وأنه ما كان لمحمد أن يقدر على افترائه ، وإنما استعان بأهل الصنعة والخبرة فأعانوه عليه ـ من عجبٍ أن تبهرهم آيات الله ، وأن يروْا بعض ما فيها من عظمة وجلال . . ثم تأبى عليهم عقولهم التى أذلّها الجهل والضلال ، أن يسلّموا بأن هذا الكلام ليس من صنعة بشر ، وإنما هو من كلام ربّ العالمين ، كما يقول لهم ذلك محمد ، الذى لم يجرّبوا عليه كِذبةً قط ، وكما تحدّثهم بذلك كلمات الله ، فى جلالها ، وسموّها ، وبعدها عن أن تكون فى متناول إنسان ! .

ــ وفى قوله تعالى : «فقد جاءوا ظلماً وزوراً» ـ هو رَدّ على قول الكافرين : « إنْ هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » . . إنهم هم الذين جاءوا به بهذا القول الظالم ، الجائر عن الحق ، والذى زوّروه على أنفسهم ، وكَذَبُوا عليها به . .

وفى تعدية الفعل « جاء » إلى المفعول ، وهو يتعدّى بحرف الجرّ ، فيقال

جاء بكذا ، لاجاء كذا . . فى هذا إشارة إلى أن هذا القول الذى قالوه ، إنما هو مستجلب من وراء عقولهم ، وأنه من موروثات الضلال الذى يعيش معهم . . فهم قد استجلبوا هذا القول ، الذى ظلموا به الحقيقة ، وظلموا به أنفسهم ، وكذّبُوا به عليها . . فالفعل « جاء » ضُمِّن معنى « جلب » أو « اختلاق » . .

قوله تعالى :

* « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها . . فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلاً » .

هو قول آخر من مقولات المشركين فى كلمات الله . . وكأنهم أرادوا بهذا أن يقيموا لهذا الزور الذى استجلبوه أو اختلقوه ، مستنداً يستند إليه ، وقد رأوه يكاد يفرّ من بين أيديهم ..

ونسبة القرآن إلى أنه من أساطير الأولين ، فِرارٌ من القول بأنه من معطيات الحياة التى يعيشون فيها ، وذلك حين رأوا أن هذه الحياة لاتعطى مثل هذا الكلام فى جلاله وروعته ، وأنه لو كان ذلك ممكناً لكان عليهم أن يجيئوا بقولٍ مثله ، فلم يكن — والحال كذلك — إلا أن ينسبوه إلى عِلم الماضين، وما سطروه من علم وحكمة ..

وفى أساطير الأولين مدخل فسيح للخيال ، واصطياد الغرائب التى لا تخطر على البال ، حيث يقع الماضى من النفس موقع القداسة والرهبة ، لكل صغير وكبير يستجلب منه .. فلا حجة عليهم لمن يجيئهم من عالم الأساطير بما لم يقع لأيديهم ، فهذا عالم لا حدود له ، ولا مجاز بين أحدٍ وبينه . . ! !

وفى قولهم : « اكتتبها » إشارة إلى أمية النبىّ ، ودفع الاعتراض القائم بين يدى قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » .. وقولهم عن هذا الإفك المفترى

إنه من « أساطير الأولين » .. فأنى لمحمد بأساطير الأولين ، وهو الأمىّ ؟ فكان قولهم : « اكتتبها » دفعاً لهذا الاعتراض .. أى أنه وإن كان أميًّا ، فإنه استعان بمن يكتبها له !!

وفى قولهم : « فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً » دفع لاعتراض آخر .. وهو : إذا كان محمد قد استكتب هذه الأساطير ، واستعان بمن يكتبها له ـ فما فائدة هذه الكتابة ، وهو لا يقرأ ما كُتب له ؟ ثم هو إنما يتحدث بهذا الكلام مشافهة بلسانه ، لا يقرؤه من كتاب ، ولا يقرؤه له أحد عليهم . . فكيف هذا ؟ . . وجوابهم — كما قدروه — : أن هذا الذى استكتبه ، يتلى عليه بكرة وأصيلا ، تلاوة دائمة ، حتى يحفظه ، ثم يحفظـــه ، ثم يخرج على الناس به !

وهكذا يركبون بجهلهم ، وسفههم ، هذا المركب الوعر ، والطريق أمامهم مستقيم قاصد . . فماذا عليهم لو أخذوا بما تحدّثهم به أنفسهم ، وقالوا إنّ هذا الكلام من عند الله ؟ .

إنهم لو قالوا هذا . . لكان لهم فى هذا القول ما لمحمد نفسه . . إنه ليس لمحمد فيه إلاّ ما هو لهم ، وإنه إذا كان له من فضل عليهم ، فهو فضل الدّليل على الراكب الضالّ ، وفضل الطبيب على الأعمى ، يعيد إليه بصره ، فيرى النور ، الذى هو من نعمة الله ، على عباد الله ، وليس للطبيب ولا لغيره فضل على أحد فيه ! أفيكرهون أن يقوم من بينهم طبيب ، يُجلى عَمى أبصارهم ، ويُزيح ضلال عقولهم ، فيروْا آيات الله بعيون مبصرة ، وعقول سليمة مدركة ؟ إنه العناد ، والكبر . . عناد الأطفال ، وكبر السفهاء والحمقى . . يموت أحدهم غرقاً ولا يمدّ يده إلى حبل النجاة الممدود له من يدٍ كريمة رحيمة ، حتى لا يقال إن فلاناً قد أخذ بيده ، ونجّاه من مهلكه !!

قوله تعالى :

* « قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والأرض . . إنه كان غفوراً رحيما » .

هذا هو القول ، الذى يَلْقى به رسولُ الله ، قولَ هؤلاء الضالين عن كلام الله ، بأنه إفك افتراه محمد ، وأعانه عليه قوم آخرون ، وأنه أساطير الأولين اكْتتبها ، فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلاً . .

فهذا الذى بين يدى محمد ، وعلى لسانه ، وفى قلبه ـ هو كلام ربّ العالمين. أنزله عليه ، هدًى ورحمةً للعالمين . .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بتلك الصفة هنا ، وهو أنه يعلم السرّ فى السمواتِ والأرض ـ إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من علم ، فلا تَخْفَى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . . وأن ما عند الأولين من علم ، وما خلفوا من آثار ، باقية ، أو مطموسة ، هى فى علم الله ، وأنه إذا كان فيما نزل على محمد أخبارٌ من حياة الأولين ، ومن أحداثهم ـ فذلك فى علم اللهِ ، ومن علم الله . . وإنه ليس بمحمد حاجة ـ وهو يتلقى آيات ربه ـ أن يستكتب أساطير الأولين ، وأن يحفظها ، ثم يحدث بها . . إنه يستقى من مصدر العلم ، ومن ينابيعه الصافية ، فما حاجته إلى أن يَمدّ بصره إلى سراب خادع ، أو بئر مطموسة ؟ .

وفى قوله تعالى : « إنه كان غفوراً رحيماً » ـ إشارة إلى أن الله سبحانه ، مع علمه بخفايا الناس ، وبما يرتكبون من منكرات يخشون أن يطلع عليها من يفضحهم ، ويكشف المستور من أمرهم ـ فإنه سبحانه وتعالى ، « غفور » لأصحاب المنكرات ، ولا يعجّل لهم العقاب ، ولا يفضح المستور منهم ، حتى

تكون لهم عودة إلى أنفسهم ، ورجعة إلى الطريق المستقيم . . فإنهم إن فعلوا ، وجدوا رباً « غفوراً » يقبل توبتهم ، ويغفر لهم ما كان منهم . . « إنه كان غفوراً رحيماً » .

الآيات : (٧ — ١٦)

* « وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقالوا مالِ هذا الرسول يأكلُ الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » . .

بعد أن فضحت الآيات السابقة مقولة المشركين فى القرآن الكريم ، بأنه إفك مفترى ، وأنه أساطير الأولين ، اكتتبها محمد ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً ـ بعد أن فضحت الآيات السابقة تلك المقولة الظالمة عن المشركين فى القرآن الكريم ، وردّ الله سبحانه وتعالى كذبهم وافتراءهم بقوله : « قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والأرض .. إنه كان غفوراً رحيما » ـ جاءت هذه الآيات لتفضح مقولتهم فى النبىّ نفسه . . فإن لهم فيه مقولاتٍ ، كتلك المقولات التى يقولونها فى كلمات الله التى حملها إليهم . .

ومن مقولاتهم فى الرسول قولهم الذى حكاه القرآن عنهم :

« مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ » .

فهم ينكرون أن يكون هذا الإنسان رسولاً ، ثم يأكل الطعام كما يأكلون ، ويمشى فى الأسواق ، ليبيع أو يشترى ، كما يمشون ويبيعون ويشترون !

وفى حديثهم عن محمد بأنه رسول ، استهزاء ، وسخرية ، وإنكار . . إذ كيف يكون رسولا ثم يكون بشراً تحكمه الضرورات البشرية ، من طعام وشراب ، وغيرهما ؟ هكذا يجرى تفكيرهم وتقديرهم .

وفى قولهم : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » تسليم جدلىّ منهم ، بأن يكون الرسول بشراً ، ولكن لا يُعترف به رسولاً ، إلا أن يكون معه ملك هو الذى يأخذ منه الناس شاهداً على أن محمداً رسول الله ، وأن هذه الكلمات التى ينذرهم بها هى كلمات الله ! !

ولم يسأل هؤلاء الضالين أنفسهم ما جدوى الرسول إذن ، مع هذا المَلكَ المنزل من السماء بكلمات الله ؟ ولِمَ لا يتصل بهم المَلَك اتصالاً مباشراً إن كان ذلك ممكنا ؟ ومع أىّ من المرسلين يتعاملون ؟ أمع البشر ، أم المَلَك ؟ . . ثم ، من يرى مَلَكا ويتعامل مع بشر ؟ .

قوله تعالى :

« أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكون له جنةٌ يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » .

ثم هام أولاء يسلّمون جدَلا ، أن يكون محمدٌ رسولا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. ولكن كيف يكون على هذه الحال ، من الضيق فى العيش ، وهو على صلة بالله ، الذى يُفيض الخير على الناس ويملأ أيديهم من النعم ؟ ألا يلقى إليه ربّه كنزاً من السماء ، ينفق منه عن سعة ، وينال به كلّ ماشاء من مُتع الحياة ؟ أولا يجعل له ربّه جنة يأكل منها ، ويعيش فى خيرها ، كتلك الجنات التى يملكها أصحاب الجاه والنعمة فيهم ؟

إن الذين يتصلون بالملوك ، والأمراء ، وأصحاب الجاه والغنى ، يعيشون فى نعمة ورخاء .. فكيف تكون تلك الحال من الفقر والضيق ، لمن يدّعى أنه على صلة بالله ، وأنه رسول الله ؟ ــ هكذا يقيس القوم أقدار الناس ومنازلهم عند الله ! فعلى قَدْر ماوسّع الله لإنسان فى الرزق ، يكون ــ فى تقديرهم ــ على قدر حبّه له ، ومنزلته عنده ! إن مقاييس الناس عندهم بما ملكوا من مال ، وماجمعوا من حطام .. ولم يدخل فى حسابهم شىء من كمالات النفس ، وسموّ الروح .. وحسبوا أن هذه الحياة الدنيا هى كلّ ما للإنسان ، فإذا انتهت حياته بموته انتهى كلّ شىء بالنسبة له .. ! ومن هنا كان حسابهم قائمًا على ميزانٍ فاسدٍ ، لا يقام لشىء وزن فيه ، إلا إذا كان فاسدًا معطوبًا ..

ثم يدور هذا الحديث فى القوم ، ويتعاطونه فيما بينهم كما يتعاطون كئوس الخمر .. ثم يكون حصيلة هذا كله ، أن يقولوا : « إن تتبعون إلا رجلا مسحورًا » ! أى ماتتبعون إن اتبعتم إلا إنسانًا سُحِر ، فاختلط عقله ، واضطرب تفكيره ..

وفى قوله : « وقال الظالمون » بدلاً من قوله « وقالوا » إظهارٌ للصفة التى يدمغهم بها الله سبحانه وتعالى ، فى مقابل تلك المقولات المنكرة ، الضالة ، التى يقولونها فى النبىّ . إنّهم ظالمون ، جائرون عن الطريق المستقيم ، راكبون طرق الضلال ، والهلاك ..

قوله تعالى :

* « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » ..

التفات إلى النبى الكريم بهذا الخطاب من ربّه جلّ وعلاَ ، يدعوه إلى أن ينظر فى هذه المقولات التى يقولونها فيه ، وليعجب من تلك العقول الفارغة التى لايخرج منها غير هذا اللّغو من القول ؟ إنهم أعجوبة ، تثير الدهش والعجب ، وتبعث على السخرية والاستهزاء !

والأمثال التى ضربوها ، هى تلك الصور التى صورتها عقولهم الفارغة لمن يرون أن يكون أهلا لرسالة السماء .

— وفى قوله تعالى : «فَضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » إشارة إلى أن ضلالهم كان ضلالا بعيداً ، مستولياً على وجودهم كله .. ومن هنا ، فإنهم لا يقدرون — ولو حاولوا — على أن يجدوا سبيلا للخلاص من هذا الضلال ، الذى غرقوا فى لججه المتلاطمة !

قوله تعالى :

* « تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ويجعل لك قصوراً » .

أى تبارك ربّك ، وكثرت خيراته وبركاته .. وإنه ليس بالذى يُمسك عنك هذا المتاع الدنيوى ، الذى يقتتل عليه هؤلاء المشركون ، ويأبَوْن متابعتك

إلا إذا كنت على تلك الصورة التى تمثلوها لمبعوث السماء إليهم ، من وفرة الغنى وكثرة الأموال والزروع . . فلو شاء ربك لجعل لك بدل الجنة جنات ، وبدل القصر قصورا . . ولكنه سبحانه ضَنَّ بك على هذه الدنيا أن تَشْغل قلبك ، عن ذكره ، أو تحجز عينك عن النظر فى غير آياته . . !

قوله تعالى :

* « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ».

إن هؤلاء القوم ، لا يرضون عن هذا القول ، ولا يجدون فيه ما يعتدل به ميزانك عندهم . . لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ولا يرجون وراء هذه الدنيا حياة أخرى . . ولو أنهم آمنوا بالحياة الآخرة ، لعلموا أنها هى الحياة ، وأن نعيمها هو النعيم ، وأن شقاءها هو الشقاء .

وأن ما فى هذه الدنيا من متاع وشقاء ، إلى زوال : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (٦٤ : العنكبوت) .

— وفى قوله تعالى : « وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً » وعيدٌ لهؤلاء المشركين بالعذاب الأليم الذى أعده الله للظالمين فى الآخرة . . وإنهم لمن الظالمين . .

قوله تعالى :

* « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً . . »

فهذه جهنم ـ وهذه أهوالها ـ إنها إذا رأت أهلها المساقين إليها ، وهم على بعد منها ، « سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » إنها ترسل إليهم بنذرها قبل أن يصلوا

إليها ، حتى لكأن بينها وبينهم تِرَة وثأرا . فما أن تلمحهم من بعيد ، حتى يفور فائرها ، ويموج مائجها .. حتى إذا بلغوها ، وألقوا منها فى مكان ضيق خانق ، أطبقت عليهم ، فضاقت أنفسهم ، واختنقت أنفاسهم ، وتنادوا بالويل والثبور .. فقالوا : ياويلنا ، ياضيعتنا ، ياسوء مصيرنا .. ثم لا يجدون لهذا الاستصراخ من يسمع أو يجيب ، وصوت الحال يقول لهم : « لاتدعوا اليوم ثبوراً واحدًا وادعوا ثبورا كثيرا » إن صراخكم سيطول ، وإن عويلكم لاينتهى .. ولن ينفعكم صراخ أو عويل !

— وقوله تعالى : « مقرّنين » إشارة إلى ما يؤخذ به الظالمون من إذلال وهوان ، وأنهم إذ يساقون إلى جهنم ، وإذ يُلقَوْن فيها ، فإنما يُحزمون كحزم الحطب ، ويقرن بعضهم إلى بعض كما يقرن القطيع من الحيوان ..

قوله تعالى :

« قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ﴿ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا » .

أفهذا العذاب الأليم والهوان المهين الذى ستجدونه يوم القيامة أيها الضالون المكذبون ، أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ؟ . فذلك هو جزاؤهم ، وهذا هو مصيرهم ، إنها جنة الخلد ، أعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين ، وأعد لهم فيها ما يشاءون من نعيم خالد ، لا ينفد — أفذلك الذى أنتم فيه أيها الضالون ، خير ، أم هذا النعيم المقيم ؟ ألا فذوقوا هذا العذاب ، وانعموا به ، واسكنوا إليه ، كما كنتم تحيون مع آلهتكم وتسكنون إليهم !

— وفى قوله تعالى : « كان على ربك وعدًا مسئولا » — إشارة إلى أن هذا النعيم الذى وعده الله عباده المؤمنين المتقين ، هو وعد أوجب الله سبحانه

وتعالى على نفسه ـ فضلا منه وإحسانا وكرما ـ تحقيقه لمن وعدوا به ، وإن لهم على الله — فضلا وإحسانا وكرما ـ أن يسألوه إنجاز هذا الوعد ، الذى هو منجز ومعدٌّ لهم من غير سؤال . . ولكن الله سبحانه ، قد جعل هذا الوعد كدين لعباده المتقين ؛ وجعل لهم حق استقضاء هذا الدين ! وفى هذا ما فيه من كرم الكريم ، وإحسان المحسن .

ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى : « كان على ربك وعدا مسئولا » أن هذا الوعد كان مما يدعو به المؤمنون ربّهم فى الدنيا ، ويطلبون استجابته لهم ، كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانهم : « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » ، وقد تلقى الله سبحانه وتعالى دعاءهم هذا بالقبول ، فقال سبحانه : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » (١٩٥ : آل عمران) .

فلما كان يوم القيامة ، صدَقهم الله وعده ، وأنزلهم منازل رحمته ورضوانه . .

الآيات : (١٧ — ٢٠)

* « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل » ..

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يعرض على هؤلاء المشركين ، وهم فى هذه الدنيا ، مع ضلالاتهم ومعبوداتهم .. وفى هذا المشهد يرون ما سيكون بينهم وبين هذه المعبودات ، من عداوة وخصام ، وشقاق ..

فإذا حشر الناس إلى ربهم ، ووقفوا موقف الحساب والمساءلة ، جىء بالمشركين ، وبمعبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .. من جماد ، وحيوان ، وإنسان ، وملائكة ، وجنّ .. وهنا يسأل الحقّ جل وعلا أولئك المعبودين : « أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء » .. أى أأنتم أيها المعبودون ، الذين أضللتم عبادى هؤلاء ؟ أم هم ضلوا السبيل ؟ .

وانظر إلى — مالله سبحانه وتعالى من لطف وكرم .. كيف يدعو هؤلاء الضالين إليه ، وكيف يضيفهم إلى ذاته الكريمة : « عبادى هؤلاء » الذين أشركوا بى ، وكذّبوا رسلى !!

فما أقلّ حياء هؤلاء الضالين ، الشاردين عن ربهمّ .. يدعوهم إليه ، ثم هم لا يستجيبون له ، ويأبون إلا أن يولّوا وجوههم إلى غيره !

ويجىء جواب المعبودين .

* « قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » ..

إن هؤلاء المعبودين للمشركين .. من جماد ، وحيوان ، وإنسان ،

وملائكة ، يعرفون قَدْرَ الله ، ويعطونه ولاءهم كاملا .. « سبحانك » أى جلّ جلالك ، وعلا علاك ، « ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » أى أنه ما كان يصح لنا ، أو يقع فى تقديرنا ، أن نستنصر بغيرك ، ونعتز بغير عزتك ، ونقبل ولاءً من عبادك ، الذين ينبغى أن يكون ولاؤهم لك وحدك ..

— وفى قوله تعالى : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً » ..

إشارة إلى الجهة التى جاء منها الضلال إلى هؤلاء الضالين .. إنه البطر بنعم الله ، والكفر بإحسانه وفضله عليهم .. « ولكن متعتهم وآباءهم » أى أن إحسانك إليهم ، ربًّنا ، ومدّهم بالنعم ، وحلمك عليهم ، فلم تعجل لهم العقاب فى الدنيا ، مع محادتهم لك ، وشركهم بك ـ إن ذلك هو الذى صار بهم إلى هذا المصير ، وإنهم حين رأوا آباءهم قد سلكوا هذا المسلك من قبلهم ، ولم يحل عليهم غضبك ولم تنزل بهم نقمتك ، اطمأنوا إلى هذا الضلال ، وتمادوا فى هذا الغىّ .. وهكذا أهل السوء ، تُبطرهم النّعم ، ويفسدهم الإحسان ..

وفى هذا يقول الله تعالى: « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر » (٤٤ : الأنبياء) .

وهذا العرض الكاشف، الذى يَعْرِض فيه المعبودون ، نعمَ الله وإحسانه على هؤلاء الضالين ، وما ركبهم من هذه النعم وذلك الإحسان ، من سفه ، وغواية ـ هو زجرٌ ، وتعنيف ، وتقريع لهؤلاء المشركين الذين يقفون هذا الموقف ، وأنهم ليسوا موضعاً لهذا الإحسان ، ولا أهلاً لهذا الفضل .. وإن هذا العذاب الذى ينتظرهم ، لهو الجزاء العادل الذى يؤخذون به ..

وفى قوله تعالى : « حتى نَسُوا الذكر » .. إشارة إلى أن تطاول العهد عليهم بالعافية ، من غير أن تحل بهم النقم ، أو يشتمل عليهم البلاء ـ قد أنساهم ذكر

الله ، وأبعدهم عن مواطن اللجأ إليه . . فإن المحن والشدائد ، هى التى تشدّ المرء إلى الله ، فيكثر من ذكره ، والغياث به . . والله سبحانه وتعالى يقول : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين » (٦٣ : الأنعام) ويقول سبحانه « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرُّ فذو دعاءٍ عَريض » (٥١ : فصلت)

وإنه لمن الإيمان أن يذكر الإنسان ربّه فى الضراء ، وأن يدعوه لما نزل به من مكروه ، إذ هو سبحانه وحده غياث المستغيثين ، وحِمَى اللاجئين ، وقد أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوه ، ووعدنا الإجابة لما ندعوه به ، فقال سبحانه : « ادعونى أستجب لكم » (٦٠ : غافر) وقال جلّ شأنه : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعان » (١٨٦ : البقرة) . . ولكن الذى ليس من الإيمان فى شىء ، بل هو من المكر بالله ، وآيات الله ، أن يذكر الإنسان ربه فى الشدّة ، وينكره فى الرخاء والعافية إن ذلك إيمان كإيمان فرعون حين أدركه الغرق ، فقال وقد ضاقت به سبل النجاة : « آمنت » ! إن المؤمن حقًّا هو الذى يملأ قلبه أبدًا بذكر الله ، فى السرّاء والضرّاء على السواء . . فهو فى السرّاء يذكر الله شاكرًا نعمه ، مسبحاً بحمده ، طالبا المزيد من فضله . . وهو فى الضراء يذكر الله ، طالبا كشف الضرّ ، ورفع البلاء . . وهذا ما أشار إليه الرسول الكريم فى قوله ، حين خيره ربه ، بين أن يكون مَلِكاً نبياً ، أم عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً ، وقال : « بل أكون عبداً أشبع يوماً فأشكرك ، وأجوع يوماً فأذكرك » بل إن حقيقة الإيمان لا تنكشف إلا فى مواقع النعم ، وفى مواطن الإحسان ، ولهذا مدح الله سبحانه وتعالى الشاكرين من عباده ، ونوّه بهم ، كما قال سبحانه فى نوح : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مع نوح . إنه كان عبداً شكوراً » (٣ : الإسراء)

كما حثّ سبحانه عباده الذين أجزل لهم العطاء ، وأغدق عليهم الإحسان ، أن يشكروا له ، فقال لداود وآله : « اعملوا آل داود شكرًا ، وقليلٌ من عبادى الشكور » (١٣ : سبأ) .

أما ذِكر الله فى ساعة العسرة والضيق ، فإنه أمر يكاد يستوى فيه الناس جميعاً ، المؤمنون والمشركون . . كما يقول سبحانه : « وإذا مسّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يَدْعنا إلى ضر مسه » (١٢ : يونس) فالإنسان هنا هو مطلق الإنسان ، والحكم واقع على الأعمّ الأغلب من الناس .

وفى قوله تعالى : « وكانوا قوماً بوراً » ـ إشارة إلى هؤلاء المشركين بالله ، وإلى أن شركهم هذا قد حرمهم كل خير ، فكانوا بهذا « قوماً بوراً » أى هلكى ، لا سبيل لهم إلى النجاة من هذا المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه . .

وقوله تعالى :

* « فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صَرْفاً ولا نصراً ، ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » فى هذا ، التفات إلى هؤلاء المشركين ، الذين يقولون فى كلام الله ، وفى رسول الله هذا القول المنكر ، الذى لا يزال على ألسنتهم ، ولا تزال أصداؤه تطِنّ فى آذانهم . .

فقد سمعوا شهادة آلهتهم فيهم ، وبراءتهم منهم ، بل وقرْعهم بمقارع التعنيف والتسفيه ، وأنهم ليسوا أهلاً لما ألبسهم الله من نعم ، وما دفع عنهم من نقم . .

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا ، أنه — بكلماته المعجزة — ينقل الناس من الدنيا إلى الآخرة ، ثم يردّهم إلى الدنيا مرة أخرى ، فى لحظات عابرة ، يرتفع فيها هذا الحجاز بين الحياة والموت ، وبين الدنيا والآخرة ، وإذا هؤلاء

المشركون ينتقلون من ناديهم الذى يتفكهون فيه بهذه الكلمات الساخرة الهازئة ، بآيات الله وكلمات الله - ينتقلون من ناديهم هذا إلى الآخرة ، وإلى موقف الحساب والجزاء ، وإلى جهنم وسعيرها . . ثم إذاهم - فى حلم كأحلام اليقظة - قائمون فى ناديهم ، وقد دخلت عليهم مشاعر كئيبة ثقيلة خانقة ، من هذه الرحلة القصيرة ، وإذا هم فى وجوم ورَهَق ، كمن أفاق من حلم مزعج ، ثم إذا هم وقد صُكّت آذانهم بهذا القول الذى يطلع عليهم من حيث لا يعلمون : « فقد كذبوكم بما تقولون » !

ويصحو القوم من وجومهم هذا ، ويدورون بأعينهم هنا وهناك ، باحثين عن هؤلاء الذين كذبوهم بما يقولون .. فيذكرون هذا الحلم المخيف ، ويتذكرون هذا الموقف الذى كان بينهم وبين معبوداتهم ، وتكذيبهم لهم . . ثم مايكادون يَصِلون ما انقطع من حياتهم ، حتى يلقاهم هذا الصوت قائلا : « فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً » . . فلقد كذبكم آلهتكم ، وتخلّوا عنكم ، وذهب النصير الذى كان متعلقكم به .. وها هوذا العذاب مقبل عليكم ، وإنكم لا تستطيعون له صرفا ، ولا تستطيعون أن تجدوا لكم ناصراً ينصركم من دون الله . . ثم لا ينتهى الموقف بهم عند هذا ، فإنهم مايكادون يستسلمون لليأس ، ويمطون أيديهم لهذا العذاب فى استسلام ذليل ، حتى يلقاهم هذا الصوت بقوله : « ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » . . إنه ليذكرهم بأنهم ليسوا فى الآخرة ، وإنما هم مازالوا فى هذه الدنيا ، وأن طريق الخلاص مفتوح أمامهم ، إذا هم أرادوا أن يلتمسوا وجه النجاة من هذا العذاب الذى رأوه بأعينهم ..فليرجعوا إلى الله ، وليأخذوا فى غير هذا الحديث المنكر ، الذى يقولونه فى آيات الله ، وفى رسول الله . . فإنهم إن رجعوا إلى الله ، وآمنوا بالله وبآيات الله وبرسول الله ، فقد نجوا بأنفسهم ، وإلا فإن أمسكوا بما هم فيه من ظلم ، فإن الله أعدّ للظالمين عذاباً كبيراً . .

واقرأ كلمات الله مرة أخرى ، وانظر فى هذا البيان المعجز .

« ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله . .

« فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء . . أم هم ضلوا السبيل ؟ . .

« قالوا سبحانك . . ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ! . .

« ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . .

« فقد كذبوكم بما تقولون !! . .

« فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً . .

« ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً . .

آمنت بالله ، وصدقت بكلمات الله ، وبرسول الله . .

فى هذه الكلمات المعدودات ملحمة ، لا يستطيع أن يمسك بها خيال ، أو أن يضبط صورها ومشاهدها كل ماعرف الإنسان من ألوان التعبير ، مجتمعة ومتفرقة . . إن ذلك لايكون إلا بكلمات الله . . التى يخرج بها الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ ، ويحيى الأرض بعد موتها !

قوله تعالى :

* « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً . . أتصبرون . وكان ربّك بصيراً » .

هذا التفات إلى النبىّ الكريم ، وهو على مرأى ومسمع من قومه ، وهم فى حالهم تلك ، التى صورتهم عليها الآيات السابقة ، ودارت بهم تلك الدورة العجيبة ، بين الدنيا والآخرة . .

وهذا الحديث إلى النبى الكريم ، هو حديث إلى قومه هؤلاء ، وهو ردٌّ على قولهم : « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . وكأنه

يقول لهم . هذا هو رسول الله إليكم ، وإنه ليأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، شأنه فى هذا شأن المرسلين من قبله جميعاً .. فهل أنتم بعد هذا الذى رأيتم من مشاهد الآخرة - هل أنتم مؤمنون به على صفته تلك ، أم لازلتم على ما أنتم عليه من إنكار له ، وتكذيب به ؟

وقوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » - هو توكيد لبشرية الرسل جميعاً . . وأنه ما أرسل الله سبحانه وتعالى من رسلٍ ، إلا كانوا على تلك الصفة ، وكان حالهم هو هذا الحال : « يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » ! أى يتعاملون مع الناس ، بيعاً وشراء ، وأخذاً وعطاء .

وقوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً » إشارة إلى أن هؤلاء المشركين هم فتنة للنبىّ وللمؤمنين ، وابتلاء من الله لهم بهم ، وبما يسوقون إليهم ، من مكر ، وما يرمونهم به من أذًى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبىٍّ عدواً شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه . . فذرهم وما يفترون » (١١٢ : الأنعام) .

أما ما يذهب إليه معظم المفسّرين من إطلاق الآية على عمومها ، وأن الناس جميعاً - مؤمنهم وكافرهم - هم فتنة ، يفتن بعضهم بعضاً ، فالكافرون يفتنون المؤمنين ، والمؤمنون يَفتنون الكافرون - فإنه مردود من أكثر من وجه . .

فأولا : الفتنة ، حيث لبست إنساناً كانت وبالاً عليه ، وعلى غيره . . وإذن فلن يكون المؤمن فتنة أبداً ، لا لغيره ، ولا للناس . . وقد كان من دعاء

المؤمنين ، ما جاء فى قوله تعالى : « ربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا » (٥ : الممتحنة) .

وثانياً : توعّد الله سبحانه وتعالى ، أهلَ الضلال ، الذين يَفْتِنون المؤمنين والمؤمنات بقوله سبحانه : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا . . فلهم عذابُ جهنم ولهم عذاب الحريق » (١٠ : البروج) . . فكيف يكون المؤمنون على موقف كهذا ؟

وثالثاً : جاء تعقيباً على قوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » . . قوله تعالى :

« أتصبرون ؟ » . وهو دعوة للنبى وللمؤمنين إلى الصبر على هذه الفتن التى يرميهم بها المشركون . . وهذا الاستفهام مراد به الأمر أى : اصبروا على ما تكرهون ، مما يهبّ عليكم من ريح الفتن من أهل الضلال والشرك . .

رابعاً : جاء ختام الآية . . هكذا : « وكان ربك بصيرا » وفيه تطمين للنبى ، وللمؤمنين ، وربط على قلوبهم ، حتى يصبروا على أذى المشركين ، فالله سبحانه وتعالى بصير ، عالم بما يحتملون من مكروه فى سبيل الحق ، وفى الثبات على الإيمان ، وسيجزيهم عليه ، كما أنه سبحانه ، بصير عالم بما يعمل المشركون ، وسيلقون جزاء ما يعملون : « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » (١١١ : هود) .



فهرست المجلد الثالث

من موضوعات هذا المجلد

الموضـــوع	الصفحة

بعون الله تم الكتاب التاسع ، ويليه الكتاب العاشر ، وفيه تفسير الجزءين التاسع عشر والعشرين . . إن شاء الله . .